الباب الرابع

باب في الجهمية الداروينية واللاهوت التطوري

Evolutionary Theology (Theistic Evolution)

& Creationism

وإنما أقصد بالدراونة المتألهين، المنتسبين إلى الملل المؤلِّهة للصانع، مع اعتناقهم الفلسفة الداروينية في باب نشأة الحياة على الأرض بصورة ما أو بأخرى. وأقصد بالجهمية الداروينية، تلك الطوائف المعاصرة التي ظهرت في أهل القبلة من المفتونين بنظرية داروين، الساعين لأسلمتها على طريقة الجهمية القدماء في الابتداء بتقديمهم نظريات الأكاديميات الطبيعية المقدمة في زمانهم، على النقل وعلى فهم السلف رضي الله عنهم، في إطار تلبيس النظرية (على أساسها الدهري المحض) لبوس إثبات الخالق بالغيب، ونسبة تفاصيلها المنحولة (كلها أو بعضها) أو آلياتها المزعومة (كلها أو بعضها) إلى فعل رب العالمين، ليكون ذلك الفعل هو فعل الخلق الإلهي Divine Creation، ثم التفنن – بحسب الأهواء – في التأويل والقرمطة على نصوص الشريعة، استنباطا واستمدادا من لوازم ومقتضيات ذلك التلبيس الطبيعي الدارويني، تحت دعوى التوفيق بين "العلم" (بهذا الإطلاق الذي بينا بحول الله وقوته اقتصاره على فنون التجريبيين وصناعات الطبيعيين عندهم) و"الدين" (وهو كل ملة تخالف دين الطبيعيين). وأما اللاهوت الخلقوي Creationist Theology أو كما يسمى بالثيولوجيا الداروينية Darwinian Theology (ويقال له أحيانا تطور المتألهين أو الخلقوية المتألهة / Theistic Evolution Evolutionary Creationism) فالمراد به مساعي اللاهوتيين الطبيعيين، والمشتغلين بالعلوم الطبيعية من المتدينين من أهل الكتاب المعاصرين في تحقيق نفس المطلب (إجمالا).

وقد قرنت بين الجهمية الخلقويين واللاهوتيين الخلقويين، أو دراونة أهل الكلام ودراونة اللاهوتيين، بالنظر إلى كون دراونة أهل القبلة من الجهمية والمتفلسفة أذنابا ومقلدة – على الأغلب أو من حيث الأصل – لنظرائهم من أهل الكتاب، كما يأتي بيانه في مباحث هذا الباب بعون الله تعالى وتوفيقه. فهم (أي دراونة أهل القبلة) لما انهزمت نفوسهم أمام نظرية داروين وما هو ظاهر لا يخفى من إجماع الأكاديميين الغربيين المعاصرين عليها وتأسيسهم عليها، ومن ضراوة الدهريين الطبيعيين وشراستهم في تسفيه مخالفيها ومنكريها من أهل الملل والحط عليهم، بل والتضييق عليهم في أكاديمياتهم ومعاهدهم العلمية، وكان قد وقع للمنهزمين من أهل الكتاب من قبل سبيل يزعمون بها الجمع بين نظرية داروين وبين عقائدهم مع إدخال شيء من التعديل على النظرية نفسها (تأصيلا وتفريعا)، لم يجد أكثر جهمية أهل القبلة وعقلانييهم ممن تحملهم أهواؤهم على التعلق بأهداب تلك النظرية والتزلف بها لسادات الأكاديميات الطبيعية المعاصرة، إلا أن يتابعوا أولئك اللاهوتيين على نظرياتهم الداروينية المنسوبة إلى العلم زورا وبهتانا، كنسبة نظرية داروين الأصلية نفسها سواء بسواء! فإنه لم يكن على سبيل الاتفاق

والمصادفة، أو على سبيل توافق الأفكار وتوارد الخواطر، أن جرى جهمية العصر والعقلانيون من أصحاب البحث الطبيعي في بلاد المسلمين، من دعاة نظرية داروين وأنصارها، إلى نظير ما سبقهم إليه اللاهوتيون من أهل الكتاب من أفكار وعقائد في ذلك الشأن، وإنما سبقهم القوم إلى جحر الضب فدخلوه على أثرهم (في الأعم الأغلب)، والله المستعان!

ومما يؤسف له أن بعض المتصدرين للرد على الدهرية من بني جلدتنا، تدروَنوا من حيث يحسبون أنهم ينقضون نظرية داروين ويهدمون أركانها، إذ طبعوا وترجموا كتب أصحاب نحلة التصميم الذكي من غير أن يعلموا أنما هي نحلة داروينية محضة، لما ظهر لهم بادي الرأي من مخالفتها نظرية داروين في القول "بمصمم" ما أو بعاملية إرادية Agency تنفيها النظرية على صورتها المعتمدة أكاديميا وتمنع من القول بها، ولِما اضطرم في أمريكا من نزاع عظيم وصل إلى أروقة المحاكم بين أصحاب تلك النظرية وبين عموم الأكاديميين المتخصصين في علوم الأحياء في أمريكا! فلما تعاطف جهال أمريكا مع النظرية بوصفها مدخلا (أو المدخل) للقول بصانع غيبي يفترض افتراضا في محافل الطبيعيين (ونقم عليها الطبيعيون للسبب نفسه)، تعاطف معها جهال أهل القبلة للسبب نفسه – غالبا – متعلقين ببعض الأمثلة والمبادئ العقلية التي طرحها مايكل بيهي في بعض كتبه التي سارعوا لترجمتها وتقديمها للمسلمين على أنها الجواب الدامغ والبرهان الناسف لنظرية داروين من أصولها الأولى، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وبإجمال، وقبل أن ندلف إلى التفصيل وبسط المقال، فيمكننا أن نصنف جهمية أهل القبلة المعاصرين المفتونين بنظرية داروين إلى ثلاث طوائف أساسية، بعضها منقول بصورة مباشرة من نظائره عند اللاهوتيين الكتابيين المعاصرين في أمريكا، وبعضها مستوحى إجمالا من كلام اللاهوتيين ومعالجتهم للمسألة، فنقول:

التطويريون Orthogenetic Theistic Evolutionists، وهم القائلون بالتطور الموجه Guided Evolution (وهم الذين اعتنقوا قصة التاريخ الطبيعي الداروينية كما هي بحذافيرها، مع تعديل آليات داروين تعديلا ميتافزيقيا بجعل الانتخاب الطبيعي انتخابا إلهيا، والطفرة العشوائية طفرة موجهة)، ومن ثم فهم يعتقدون أن الرب يخلق بالطفرة بعد الطفرة، فعلا بعد فعل، تطويرا وتحسينا. ولما انتقل هذا المذهب إلى المسلمين، تلبس به بعض أصحاب الطبيعيات من العقلانيين وأشباههم، فأخذوا النظرية كما هي عند أهل الكتاب، ثم منهم من أدخل عليها القول بأن آدم عليه السلام خلق خلقا خاصا، فمن هؤلاء من قال إن هذا الخلق الخاص كان كما جاء به النص في الكتاب

والسنة من كونه عليه الصلاة والسلام قد خلق في الجنة من صلصال كالفخار ثم نفخ الله فيه الروح ثم خلق حواء من ضلعه ثم أهبطهما من الجنة إلى الأرض. ومن القائلين بالخلق الخاص لآدم عليه السلام الدكتور مصطفى محمود، الذي كان آخر موقف له من نظرية داروين – فيما بدا لي من تتبع كلامه في برنامجه التلفزيوني "العلم والإيمان" – هو القول بجريان التطور الموجه على جميع الأنواع الحية كما في أسطورة داروين، إلا على الإنسان. وظاهر كلامه في هذا يفهم منه أنه لولا عدم تمكن القوم من التوصل إلى الحلقة المفقودة المزعومة بينه وبين القردة العليا (الهومينيد) في تصور الدكتور، لأدخله مع غيره من أنواع المخلوقات الحية تحت دعوى التطور [1]. والرجل كان على أي حال يرى أن النظرية بجميع دعاواها محل لنزاع قوي ومستساغ، ولا ينبغي "التشنج" (على حد عبارته) عند مخاطبة المخالف فيها!

ومن تطويريي أهل القبلة من تفلسف – في المقابل - في تأويل تلك النصوص كلها، محاولا الجمع بينها وبين دعوى الدراونة رجوعنا نحن البشر إلى سلف مشترك مع القردة والنسانيس والأورانغوتان، فجعل آدم هو أول الأنبياء لا أول البشر، وتأول خلقه من سلالة من طين وتسويته بما زعمه الدراونة من كونه من ذرية من أنواع منحطة نشأت في بحيرة راكدة، وجعل نفخ الروح فيه هو ترقيته بما يكفي لتصبح له نفس قابلة للوحي والنبوة، كما سلكه (على اختلاف في تفاصيل الاختراع والقرمطة في التأويل) "نديم الجسر" و"عبد الصبور شاهين" و"عمرو شريف" و"عدنان إبراهيم" و"بسام جرار" وغيرهم! وهذه المساعي فيما يتعلق بآدم عليه السلام بخصوصه لا ترى نظيرا لها عند أهل الكتاب لأنهم ليس للنصوص المتعلقة بتلك المسألة عندهم ما لنظائرها عندنا، وليس مبنيا عليها في علم العامة عندهم نظير ما عندنا، ولا يترتب على مخالفتها عندهم من فداحة المخالفة ما يكون إذا أظهرها أحد من المنتسبين إلى ديننا! فسواء أعلن أحد النصارى الأمريكيين أو الأوروبيين اعتقاده بأن آدم قد خلق من غير أب ولا أم، أو أنه خلق من ذرية القردة العليا، أو حتى أنه لم يوجد في التاريخ شخص اسمه آدم أصلا وإنما كانت القصة كلها في الكتاب المقدس من قبيل ضرب الأمثال Allegory، كما هو اعتقاد أكثرهم في نصوص كتاب الخلق عندهم، فغاية هذا أن يحظى بشيء من الاستنكار العابر في المجلس الذي طرح فيه الموضوع، إن قوبل بشيء أصلا، ثم ينصرف الجميع وكأن شيئا لم يكن! أما عندنا، فمن كان لديه أدنى قدر من العلم بدينه، فإنه يكون الشأن لديه أعظم من هذا بكثير، ويكون موقفه ممن زعموا لآدم عليه السلام أبا وأما، فضلا عمن نفوا وجوده أصلا،

موقفا أشد حزما وصرامة، بفضل الله تعالى! هذا الواقع الاجتماعي من شأنه – ولا شك - أن يشكل عاملا ضاغطا (ضغط الأقران) على أصحاب تلك الأهواء يحملهم على تناول مسألة آدم عليه السلام بخصوصها تناولا يذر به الرماد في عيون تلك الجماهير التي قد تحكم بكفرهم (أو على الأقل تقبله وتستسيغه ممن يفتي به) من أجل تلك المسألة وحدها! لهذا لم يكن من المستغرب أن يختص دراونة أهل القبلة من الإعجازيين والعقلانيين المتفلسفة ونحوهم بابتداع الأعاجيب في تلك القضية في نظرياتهم الخلقوية كما لا ترى له نظيرا عند دراونة أهل الكتاب، والله المستعان.

التصميميون / Intelligent Design creationists Design Evolutionists، وهم القائلون بالتصميم الذكي (وأكثرهم اعتنقوا نظرية داروين وكوزمولوجيا كوبرنيكوس بعشوائيتها الوجودية وطبيعيتها المحضة وميتافزيقاها كما هي، ثم أضافوا إلى آلياتها ما سموه بآلية التصميم Design Mechanism في بعض أنواع المخلوقات الحية، ليفترضوا "مصمما ذكيا" كعامل مفسر لبعض النظم الحيوية التي قالوا إن آليات داروين لا تكفي لتفسيرها). وقد فزع إلى تلك النظرية وإلى مؤلفات أصحابها كثير من المسلمين معتقدين أن فيها الحجة البالغة على نظرية داروين، لا سيما وقد رأوها في تلك الأدبيات تجري مجرى البحث التجريبي الطبيعي المحض، من غير أن تتطرق ولو من بعيد لذكر رب العالمين أو شيء من أمر الدين! فقال بعض الأفاضل ممن اغتر بها: أي شيء أحسن من أن ينقض على الطبيعيين بكلام طبيعيين أمثالهم؟ والواقع أن تلك النظرية إنما هي مذهب لاهوتي مؤسس تأسيسا دهريا طبيعيا صرفا، فليس فيها نقض على نظرية داروين ولا قريبا منه كما يتوهم بعض إخواننا، ولا تختلف عن نظرية داروين إلا في كونها تضيف إليها "مصمما ذكيا" كما أشرنا، كآلية من آليات إحداث التنوع في الحشوة الحية، كما يأتي بيانه بحول الله وطوله، إنما راج ذلك التنظير ومصنفات أصحابه بين أهل الكتاب من شدة فتنتهم بالطبيعيات وحرصهم على التعلق ببديل "تجريبي" لنظرية داروين، يصلح للتدريس في مدارس الأطفال على أنه "نظرية علمية بديلة" لا تناقض (ولو مبدئيا) اعتقاد النصارى في وجود صانع بالغيب، لا سيما في ظل المعركة الطاحنة الجارية حاليا بين الدراونة الدهرية ومخالفيهم من "الخلقويين" في أمريكا، التي بلغت بهم دخول المحاكم!

والحق أن القائلين بتلك النظرية يقتربون من الربوبية Deism، فهم أشد تعطيلا من سابقيهم، يرفعون الفعل الإلهي عن أكثر عمليات الخلق

في البيوسفير، ويحيلونها إلى العشواء الوجودية، وإنما كان الخالق عندهم بادئا للخلق، ثم هو "يتدخل" من آن لآخر.
والواقع أن فكرة التصميم الذكي أو حركة التصميم الذكي هذه يتفاوت أصحابها في مقدار ما يثبتونه من "تصميم" أو "تدخل إلهي" في العالم، بيد أنهم كلهم يرجعون في النهاية إلى برهان اللاهوتي الطبيعي البريطاني ويليام بيلي W. Paley الذي يستصحب إثبات العشواء في العالم كمقدمة لإثبات وجود "التصميم" (ومن ثم المصمم)، فيجعل التصميم "تدخلا إلهيا" Divine Intervention، جريا على قدرية النصارى في مسألة "عمل الإله في العالم" Divine Action، وأنه خلق العالم وجعل فيه ما يجري على غير إرادته الكونية (زعموا)، من الشرور والمكاره ونحوها، ثم أخذ "يتدخل" من آن لآخر ليوجه حوادث العالم إلى هذه الوجهة أو تلك (وهو ما جعلوا منه فعله سبحانه عند إجابة الدعاء، أو عند إحداث أمر يبدو خارقا لعادة الناس ولتوقعاتهم وترجيحاتهم الاحتمالية)! فبناء على هذه الأصول، قارن بيلي بين العين البشرية، وبين قطعة الحجر الصماء في قلب الصحراء، ليتوصل من ذلك إلى إثبات صانع للعين، كما يقارن أحدنا بين ساعة المعصم وبين تلك الصخرة نفسها، فيثبت للساعة صانعا! فتفنن أصحاب نظرية التصميم الذكي في التنويع على برهان بيلي هذا، فلزم أن يتفقوا كلهم – وكما يأتي بيانه في المبحث المخصص للكلام على هؤلاء – (حتى القائلون منهم بأن المصمم هذا له تدخل وفعل تصميمي في جميع الأنواع الحية بلا استثناء) على أصل قياس فعل الباري جل شأنه على أفعال الصانع المخلوق، من أجل التوصل لإثبات وجوده من طريق الأقيسة على نوع "المصمم البشري" ومن طريق التقديرات الاحتمالية المستندة إلى عادتنا البشرية بنظم المعلومات التصميمية!
وقد اعتنيت في هذا الكتاب بنقد وتتبع المذهب الأشهر من مذاهب نظرية التصميم الذكي، ألا وهو مذهب بيهي (ومعه أو يلحق به مذهب ديمبسكي) في أصل الحياة ونشأتها على الأرض، مبينا أساسه الذي استند إليه هو وأكثر منظري "التصميم الذكي" في عصرنا هذا. وإلا فينبغي أن يكون القارئ على ذكر من أنه بالنظر إلى جهل القاعدة العريضة من نصارى الغرب بالأصول الطبيعية والفلسفة الداروينية التي استعملها أصحاب تلك النظرية في بنائها، فكثيرا ما تراهم يطلقون صفة "المصمم الذكي" على الرب سبحانه من غير أن يتطرق إلى أذهانهم شيء من أصول النظرية نفسها ومقتضياتها ولوازمها الدهرية التي بسطنا الكلام عليها وأطلنا فيه النفس في موضعه لأهمية ذلك ولشدة الداعي إليه. بل إن كثيرا منهم ومن جهال المسلمين – تبعا – صاروا يطلقون هذه اللفظة يريدون بها نفي نظرية داروين بالكلية، وأن الأنواع

الحية إنما خلقت "بالتصميم" قصدا وتعيينا لا بالانتخاب ولا بالطفرة! بل إن من المسلمين (الذين لا يقوم اعتقادهم على قدرية النصارى ولا اللاهوت الطبيعي عند بيلي وغيره) من ينفي كوزمولوجيا الانفجار وينفي نظرية دراوين ويكفر بكل ما جاء به الطبيعيون في باب النشأة وتاريخ الكون، وإذا أعرب عن اعتقاده وجدته يتكلم عن "المصمم الذكي" وعن أن العالم خلق "بالتصميم الذكي"، وربما وجدته يسوق للمخالف الدهري أدلة ذلك "التصميم" على المستوى الكوزمولوجي في مسألة الضبط الدقيق لثوابت الفيزياء Fine Tuning (غير مدرك لخلفيات المبدأ الأنثروبي الطبيعية الدهرية التي بيناها وبسطنا الكلام عليها في كتاب "آلة الموحدين") ويستعير من بيهي مسألة التعقد غير القابل للاختزال في "الماكينات الجزيئية" داخل الخلية. فمثل هذا إن وصف الرب بأنه "مصمم ذكي" فهو يقينا لا يدري ما يلزمه من ذلك الوصف والإطلاق، وغالبا ما يكون جاهلا بحكم وصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولم يصفه به رسوله، أو يظن أن الباب باب إخبار وهو واسع، ولا يدري حقيقة معنى "التصميم" والمصمم، وأنها لا يجوز إطلاقها على رب العالمين بصرف النظر عن نظرية التصميم وما تقوم عليه!
والذي ينظر في حوض الأدبيات الخلقوية الواسع الذي ملأ به الداعية الماسوني التركي "عدنان أوكتار" موقعه على الشبكة، يجد فيها علامات ذلك الجهل طافحة، فبعض الكتاب الذين يكتبون عنده تحت اسم "هارون يحيى" يكثرون من وصف خلق الله تعالى بالتصميم Design ويستدلون له بأدلة الخلقويين التصميميين، ومع ذلك ترى على نفس الموقع مقالات يهاجم فيها أوكتار نظرية التصميم ويزعم أن وراءها أصابع ماسونية ومؤامرة من مجامع الماسون الإلحادي لتحويل أهل الملل كلهم إلى الدين الطبيعي! فإذا كنت ترى الأمر كذلك حقا، فما وجه استضافتك لخلقويي التصميم في أمريكا وإنفاقك الأموال الطائلة على الترويج لنظرياتهم ومؤلفاتهم؟؟
والقصد أنه ليس كل من أطلق صفة "المصمم الذكي" على الرب جل وعلا فهو بالضرورة قائل بتلك النظرية (نظرية التصميم الذكي) ID Theory، والواجب أن يبين له وينصح بترك هذا الوصف وترك تلك النظرية وعدم النظر في كتب أصحابها، والواجب كذلك أن يبين للمسلمين الطريق الصحيح في التعامل مع أدلة الخلقويين في مسألة الضبط الدقيق ومسألة التصميم الحيوي، فلا يستعين المسلم – إن شاء – إلا بالمشاهدات المجردة Sheer Observations، ويجتنب النظريات والتأويلات Interpretations التي جاء بها أصحاب دعاوى الضبط الدقيق للكون ودعاوى المبدأ الأنثروبي ودعاوى التصميم الذكي بالكلية، وهذه مسألة تحتاج إلى دراية دقيقة بمنهج أهل السنة في التعامل مع

نظريات الطبيعيين وطرائقهم في الإثبات والنفي، وهو ما لأجله ألفنا هذا الكتاب، بحول الله وقوته.

التمهيديون أو الابتدائيون Initialist Evolutionists (كما يمكننا أن نسميهم)، وهم القائلون بأن الخالق لم يزد على أن مهد الطريق والشروط الأولى Initial Conditionsلجريان السنن الطبيعية في العالم على نحو ما، ثم ترك التطور الدارويني ليخلق كل شيء حي استقلالا عن الغيب وما فيه، بالانتخاب الطبيعي الصرف والطفرة العشوائية المحضة (التي هي عندهم النتاج الطبيعي لجملة قوانين الطبيعة في العالم وللأسباب الطبيعية التي أجراها الرب إجمالا)، تطويرا عشوائيا من أصول منحطة، من غير أن يكون له أي تدبير أو فعل مباشر في جريان تلك الآليات. وهؤلاء منهم من يقول بالحتمية السببية Causal Determinism، ويؤمن بأن الرب قد خلق جميع السنن السببية والقوانين الطبيعية و"خططها" بحيث تنشأ تلك الحوادث الحيوية كلها عبر بلايين السنين من أصل واحد منحط، حتى تفضي في النهاية إلى ظهور الإنسان وإلى اصطفاء الأنبياء والرسل وبعثهم .. إلخ. وقد وقفت على كلام بعضهم يتأول قوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)) [الأنبياء : 30] على أن النصف الأول من الآية فيه إشارة للانفجار الكبير (التطورية الكوزمولوجية)، والنصف الثاني فيه إشارة إلى نظرية الارتقائيين Abiogenesis (التطورية الارتقائية) في زعمهم أن أول صورة من صور الحياة إنما ظهرت في بحيرة من البحيرات أو في محيط من المحيطات، على أثر تفاعلات عشوائية لبعض الأحماض الأمينية!! فالخالق عند هؤلاء، وضع النظام الطبيعي بجميع قوانينه وسننه على النحو الذي يفضي في النهاية إلى نشأة الحياة وارتقائها (وفقا للمبدأ الأنثروبي)، وتركه ليجري على تلك السنن بما فيها من عشواء وفوضى وجودية متأصلة، ثم "تدخل" بعدما ظهر الإنسان أخيرا، ليصطفي منه من يصطفي بالرسالة وتنزيل الكتب!

ومن أولئك التمهيديين من لا يقول بالحتمية السببية، بمعنى أنه ينفي عن الحوادث تعللها التام بجملة من الحوادث الأخرى السابقة عليها (بما في ذلك إرادة رب العالمين وأمره وتقديره)، فلا يرى أن المسببات تتعلل بمجموع أسبابها تعللا تاما، ولا يثبت للباري – بالتبعية - إرادة أو علما أو تقديرا أو كتابة للمقادير أو خلقا للمسببات على أثر أسبابها، ولا يجعله – سبحانه - سببا لشيء من حوادث العالم أصلا، فينفي العلاقة

بين الخالق وما يجري في العالم من بعد حادثة الانفجار المزعومة، فليس له مشيئة ولا خلق لحوادث العالم ولا اتصال بها عنده، وإنما هو سبب افتراضي لحادث لا يجاوز طوله جزءا واحدا من عدة بلايين جزءا من الثانية (ألا وهو لحظة انطلاق الانفجار المزعوم)! وهذا عندهم هو غاية فعل الخلق ومنتهاه، إن جوزوا تسميته بالخلق أصلا!
فغاية فعل الخلق عندهم أن يكون هو ابتداء الرب جل شأنه لتلك الأسطورة الارتقائية الطبيعية الكبرى، لا غير! أي أنه عندهم ليس إلا نقطة الانطلاق لسلسلة من المتولدات العشوائية التي لا دراية له بها ولا حكم له – ولا لغيره - عليها ولا إرادة ولا شيء البتة، سبحانه وتعالى عما يصفون علوا كبيرا. وهذا الفريق (الابتدائيون اللاحتميون) هم ولا شك أعظم الفرق الثلاثة تعطيلا، وحقيقة قولهم هي الربوبية Deism على صورة من صورها، ولا حقيقة للنبوات والرسالات عندهم ولا صحة لنسبة شيء من الكتب السماوية إلى ذلك الصانع الوهمي الذي يؤمنون به، وهم يمثلون قطاعا لا بأس به من اليهود والنصارى العلمانيين المشتغلين بالطبيعيات في أوروبا وأمريكا! وإلى الآن لم أر من المنتسبين إلى الإسلام من يصرح بعقيدتهم، أو يجترئ على ذلك (أعني مع بقائه على النسبة إلى الإسلام)، فهي دهرية واضحة وكفر بين لا خفاء فيه! وإنما رأيت من المنتسبين إلى الإسلام من يتفلسف بما يوصل منه إلى ذلك المذهب على سبيل الاقتضاء، فيقول – مثلا – إن الله خلق الخلق بشرارة أطلقها، ثم ترك القوانين تخلق كل شيء، وهذه زندقة ولا شك تناقض صريح القرآن، وقد وقعت عند بعض بني جلدتنا من الأكاديميين المعاصرين، كما يأتي عند الكلام على تلك الطائفة.

وهؤلاء كلهم دراونة إجمالا، مع كون الطائفتين الأولى والثانية هما اللتين يطلق عليهما مصطلح "الخلقيون" أو "الخلقويون" Creationists، على أساس أنهم اعتنقوا نظرية داروين أولا، ثم حاولوا التوفيق بينها وبين اعتقادهم وجود الباري. فمنهم من أدخل تعديلات على النظرية بإضافة آلية جديدة إليها، ومنهم من أدخل عليها التعديل بتغيير مفاهيم الآليات الداروينية نفسها، وأما من تركها كما هي ولم يعدل عليها شيئا البتة، إلا أن جعل عمل الباري محصورا في توفير النظام الطبيعي الذي يسمح للآليات الداروينية بالظهور والجريان وبإنتاج الأنواع الحية كلها وبثها في الأرض والسماء، فلا يقال لهذا – على اصطلاح الفلاسفة الغربيين – خلقوي Creationist! ولكن على أي حال فكلهم أصحاب إفساد في صفات رب العالمين وأفعاله – بالضرورة – وقرمطة على نصوص دينهم حتى يحصل التوفيق المأمول بينه وبين هذه النظرية أو تلك!

وقد رتبتهم على هذا الترتيب الذي تراه، بالنظر إلى عظم ما عند كل فرقة منهم من تعطيل لصفات رب العالمين جل وعلا! فهم كلهم – أولا – يلزمهم بمقتضى الطبيعية المنهجية التي اتخذوها مصدر التلقي الأول في إثبات المعارف في أمر الكون وصفته الكلية وما كان قبله وما يكون بعده، يلزمهم أن ينفوا وجود غيب فيما وراء العالم المادي المحسوس، وإذن فلا رب ولا صانع إلا أن يكون حالًّا في هذا العالم أو أن يكون هو والعالم شيء واحد! وهذا هو ما سلكه الفلاسفة الطبيعيون من قديم كما بيناه في غير هذا الموضع، وهو ما يقال له على اصطلاح بعض المعاصرين Pantheism وترجمناه إلى توحيد الوجود (على بعض صوره). فأصحاب تلك الطوائف الثلاثة يلزمهم القول بأن الطبيعة هي الرب الصانع أو بأنه حال فيها بصورة ما أو بأخرى. ثم إن تفاوتهم في التعطيل يتدرج بهم ما بين من يجعل الرب هو فاعل كل خلق، ولا يقع شيء في العالم إلا بإرادته وعلمه، ولكنه مع ذلك يرجع أفعال الخلق كلها إلى أسباب من جنس المشاهد والمحسوس، جريا على نظريته الطبيعية في خلق الأنواع، وإذن يصبح الخلق "توجيها" لطبيعة هي التي تخلق على التحقيق، فلا تخرج أسباب الخلق عنها قيد أنملة! وهذا يقتضي تعطيل الرب عن جميع أفعاله الغيبية التي هي من جملة أفعال الخلق وأسبابه، ويقتضي جعل الطبيعة نفسها هي الخالق على التحقيق، وهو يوجهها لا غير، لا أنها مفعولة مخلوقة كلها بجميع أسبابها، التي تتقدمها أسباب غيبية لا نظير لها في محسوسنا!

وهو يعطل الرب سبحانه عن كمال صفاته بالمقتضى إذ يجعل العشواء الوجودية جزءا من خلقه سبحانه! فعندما يتكلم عن الانتخاب الطبيعي – مثلا - ثم ينسب فعل الانتخاب إلى الرب، فهذا يحيل ما جعله داروين أمرا اتفاقيا عشوائيا محضا لا فعل فيه أصلا ولا تمييز، إلى عمل رباني راجع إلى تدبير وعلم وتقدير، وما جعله داروين آلية طبيعية لا فعل فيها من خارجها ولا سبب فيها يرجع إلى شيء وراءها، هذا يجعله كله فعلا إلهيا جاريا على إرادة وعلم! وهو من وصف الشيء بنقيضه كما لا يخفى! إذ يصر هؤلاء على إثبات الغائية فيما يقتضي مجرد إثباته نفي الغائية (من حيث المبدأ نفسه) في خلق الأنواع الحية، وعلى إثبات الفاعلية Agency فيما يقتضي مجرد تصوره انتفاء الفاعلية، وهكذا! فمن أين تأتي الأسباب الغيبية والحكمة الإلهية في ترجيح ما يبقى أو ما ينتخب وما يهلك أو ينقرض من الأنواع الحية، إن صح أن كان الأمر كله راجعا إلى بقاء ما اتفق أن كانت صفاته ملائمة لنظام الطبيعة لا غير؟ والقصد أن القوم يلزمهم تعطيل الرب عن جميع صفاته بما فيها التوجيه المزعوم والخلق المدعى، وجعل الطبيعة هي الرب الصانع الذي يفعل وهو لا يفعل، ويختار وهو لا يختار، ويخلق مع أنه ليس بخالق في الحقيقة!

وهؤلاء في الحقيقة أهون في تعطيلهم من التصميميين! فإذا كان هؤلاء يقولون إن الرب هو الفاعل المباشر لجميع ما جرت به حوادث النظام الحيوي من تولدات سببية، وإن كان ظاهرها العشواء! حتى رأيت منهم من يتناقض فيقول إن مثل فعل الرب في التاريخ الطبيعي كمثل من يلعب بالنرد فيما يبدو للناس، لكنه يعلم في الحقيقة ما النتيجة التي يريدها وكيف يرمى النرد بحيث يحصل عليها لا على غيرها! وسيأتي معك بحول الله تعالى بيان أن العشوائية الوجودية لا تنفك عن التصور الدارويني لتلك الآليات التي توهم هؤلاء أنه من الممكن البقاء عليها مع ادعاء أنها إنما تبدو وكأنها عشوائية لا غير، خلافا لما هي عليه في الواقع! ومع ذلك فهؤلاء كما تقدم أهون وأخف تعطيلا لصفات ربهم من طائفة التصميميين، الذين لم ينسبوا كافة حوادث النظام الحيوي إلى الفعل الإلهي، وإنما قالوا إن الأصل في النظام الحيوي أنه يجري على العشواء الوجودية المحضة، التي لا يتناولها علم الرب ولا إرادته ولا فعله وخلقه، ولكن يستثنى من ذلك بعض الحوادث المخصوصة التي لا يمكن أن تكون قد وقعت بسبب الآلية الداروينية وحدها، بل لابد أن يكون قد أحدثها "مصمم ذكي"، قد أخرجها إلى العالم على ذلك النحو الذي نراها عليه لا على نحو أقل ترقيا! وإذن فالصانع عندهم عاطل عن كل أفعال الخلق إلا ما كان محصورا في إطار نظم حيوية معينة لا يمكن تفسيرها في زعمهم بافتراض الآلية الداروينية العشوائية التي لا صانع وراءها ولا تعليل ولا شيء! فهؤلاء حلوليون لا اتحاديون، إذ يلزمهم جعل الصانع حالًّا في العالم بصورة ما أو بأخرى، يتدخل من آن لآخر "بالتصميم" في بعض المواضع! وأما من حيث توحيد الوجود، فمنهجيتهم الطبيعية تقتضي كذلك ألا يكون ذلك الرب بائنا من العالم في الغيب، وإنما أن يكون هو نفسه نظاما طبيعيا أو جزءا من الطبيعة، فيه وعي وذكاء وإرادة وفعل!

وأما الطائفة الثالثة، فتبلغ الغاية في التعطيل، إذ تجعل جميع حوادث النظام الحيوي طبيعية صرفة، وإنما تثبت دورا للصانع (الذي هو على مقتضى قولهم جزء من الطبيعة كذلك) لا يزيد على ابتداء الأسطورة الطبيعية في أول نقطة منها لا غير! وهذه هي ربوبية داروين نفسه Deism كما بينا.

وأصل الضلالة عندهم جميعا على اختلاف طوائفهم (التي لم تزل تتوالد وتتكاثر كما سترى معنا في هذا الباب بعون الله تعالى) إنما هو في مصادر التلقي ابتداء، في اعتناقهم الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism التي بها اقتحموا الغيب بالبحث والافتراض والقياس والنظر كما اقتحمه الدهرية الطبيعيون أصحاب تلك النحلة الخبيثة!

فبناء على ذلك المنهج الدهري، حصل الاعتقاد لدى الباحث الطبيعي الغربي بأن أصل العالم لابد ألا يكون إلا ناشئا – سببيا - عن جملة من الحوادث الطبيعية (نوعا)، وكذلك أصل الحياة والأنواع الحية على الأرض! فإذا كان

السبب المطروح للبحث سببا طبيعيا، أي جاريا على نظام العالم (نوعا)، فهو إذن مفتوح للاستنباط باستعمال آلة البحث التجريبي Scientific Method كما هو الشأن في كافة مطالب التفسير المتوجهة إلى أي حادث يوصف بأنه "طبيعي"! وإذن يستجاز قياس ذلك الحادث الغيبي العظيم (حادث النشأة) على ما يزعم الباحث الطبيعي (بالتحكم المحض) أنه نظيره مما في الشاهد، في إطار الفرضية التفسيرية التي تتحول فيما بعد إلى نظرية، ثم تعتمد النظرية وتقبل وتتحول إلى "علم" Science يتعلق به المفتونون من بني جلدتنا ومن أهل الملل الأخرى، حتى يرى الواحد منهم نفسه مضطرا أعظم الاضطرار لمعاملة تلك النظرية معاملة الحقيقة القطعية التي لا يجوز للنص الديني أن يعارضها أو أن يأتي بخلافها أو بما يقتضي أو يوحي ولو من بعيد بمخالفتها! هذا هو أصل الفساد المعرفي والاعتقادي عند تلك الطوائف جميعا، سواء عند أهل الكتاب أو عند أهل القبلة: إنه كراهة أن يقال لهم أنتم جهال سفهاء ترفضون العلم وتتمسكون بالجهل وأساطير الأولين التي أزالها العلم الحديث وقضى عليها!

فما الذي يسلكه المفتون في مقابلة تلك التهمة؟ نفس ما سلكه أسلافه من متكلمة ولاهوتيي القرون السالفة من منهج معرفي إجمالي! يسلم – من حيث لا يدري ولا يشعر - للفيلسوف الدهري صاحب السيادة الأكاديمية في زمانه بصحة مصادر التلقي المعرفي لديه في تلك القضايا الغيبية المحضة، وبجواز اقتحامها بأدواتهم التنظيرية والقياسية ومن طريقهم (من حيث المبدأ الأولي)! ومن ثم يسلم له بصحة ما يأتي به من نظريات (إجمالا) من طريقه في تلك الأبواب، يتابعه على جعلها هي "العقل" أو "قطع العقل"، ثم ينظر بعدئذ فيما عنده في نصوص دينه من خبر الغيب في تلك الأبواب نفسها، فيعمد إلى إسقاط ما يخالفها من نصوص بدعوى ظنية الثبوت، فإن لم يستطع، عمد إلى تأويلها بدعوى سماحية اللغة، حتى وإن كانت اللغة لا تسمح على الحقيقة (وقلما تتسع لتأويلاتهم المتعسفة تلك)، فلن يبالي بأن يسلك التأويل الباطني المحض من أجل ذلك، كما سلكه النصارى في كتاب الخلق فجعلوه كله من قبيل ضرب المثل Allegory لا من وصف الواقع على ما هو عليه! فكل نص دل بالتصريح أو بالاقتضاء على خلاف تلك النظريات فهو عنده مدفوع وجوبا بالتضعيف أو بالتأويل! كل هذا من أين نشأ عند متكلمة القرون السالفة ولاهوتييهم وعند خلفهم المعاصرين؟ من شدة افتتانهم بطريقة الفلاسفة المعاصرين لهم لطرح مسائل الغيب الكبرى للبحث والتنظير والقياس وكذا، ومن ثم تسليمهم بصحة ذلك المنهج نفسه ضمنيا من غير ما تصريح!

فلما كان منهم ذلك، أصبح كل فريق منهم يبدأ بقبول نظريات القوم في أصل العالم وأصل الأنواع أولا، ثم ينظر في تفصيل ما أثبتته تلك النظريات من

دعاوى وجودية بشأن الغيب وما فيه، فإن وجد في جملة أهواء نفسه المريضة ما يجرئه على تعديل بعض تلك الدعاوى حتى تلائم مفردات اعتقاده الديني الموروث في نفس الأمر، تكلف من ذلك ما تكلف، وهو يراه خادما للدين عاملا على نصرته ورفع رايته! وإلا جرى على الأصل المنهجي الكلي الذي هو مجراهم جميعا على اختلاف فرقهم ونحلهم، ألا وهو مراجعة الاعتقاد الديني الموروث وتعديله حتى يوافق تلك النظريات، وهو يرى نفسه يحسن صنعا، ويقي شباب المسلمين من خطر الوقوع في الإلحاد والخروج من الدين! ترى بعضهم على سبيل المثال، يقبل القول بأن الإنسان أصله من نسل القردة العليا، ومن ثم يأتي على النصوص الخاصة بخلق آدم عليه السلام وخلق حواء ومهبطهما إلى الأرض فيتأولها كلها بما يحلو له أن يصرفها به عن ظاهرها الذي أطبقت عليه قرون المسلمين من قبل حتى صار عندهم من المعلوم من الدين بالضرورة، وترى بعضهم الآخر في المقابل يأتي عند تلك المسألة ويتكعكع، فيقول لا يمكن أن يكون أصل الإنسان هو القرد لأن النص صريح والإجماع منعقد .. إلخ، فيقول: هذه نظريات وفرضيات تفسيرية تحتمل الصواب وتحتمل الخطأ، وقد ثبت عندي خطؤها من غير طريق العلم الطبيعي فرددتها من أجل ذلك!

فبأي مستند قبل هذا ما قبل، ورد ذاك ما رد، إذا كان من الواضح الجلي الذي لا يكابر فيه مكابر، أن أول ظهور لنوع الإنسان على الأرض هو حادث لم نشهده بأعيننا، ولا يقع تحت عادتنا نظير له نقيسه عليه (كما هو الشأن في نشأة أصول جميع الأنواع)؟؟ وبأي مستند يقدم هذا القياس أو ذاك على فهم السلف للنص الوارد في نفس الأمر؟؟ هذه هي القضية! المنهج المعرفي نفسه هو أصل الضلالة، أو إن شئت فقل مصادر حصول المعرفة!

فالآفة الكبرى التي يرجع إليها فساد كلا الموقفين جميعا إنما هي في مبدأ قبول الميثولوجيا الطبيعية الدهرية في أمر الغيب من الابتداء، بصرف النظر هل قبلوا دعاواهم في مسألة أصل الإنسان خاصة أم لم يقبلوها! الآفة في كونهم يرون بضاعة الارتقائيين في هذا الغيب المحض، نظريات "علمية" يؤخذ منها ما لا يصادم الدين، ثم يعيث أحدهم فسادا في تحرير ما يقصد بصريح الدين الذي تصادمه النظرية أو لا تصادمه، يصطنع لنفسه ما يحلو له من المذاهب المبتدعة في معنى النص وثبوته ودرجة الثبوت والدلالة الظنية والدلالة القطعية .. إلخ، ولا يكاد أحدهم يرد من تلك النظريات شيئا يذكر – غالبا - إلا إن وجد لذلك مسلكا أكاديميا في طريقة الطبيعيين نفسها وفي مصادر تلقي الدعاوى الغيبية عندهم! فهو تابع للقوم في الابتداء وتابع لهم في الانتهاء، يحرف دينه من أجل متابعتهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فالقضية كل القضية في تقرير مصادر التلقي المعرفي المعتمدة في قضايا الغيب المحض بعموم، وليس الشأن في هذه النظرية بعينها أو تلك! نحن نتكلم – وانتبه -

فيما إذا كانت استدلالات الدراونة تصلح نوعا – من الأساس – لإفادة العلم وتحصيل المعرفة ولو بالظن الضعيف في مسألة الأصل الأول لأنواع الدواب على الأرض، وليس فيما إذا كانت هي أقوى أم النصوص ظنية الثبوت والدلالة هي الأقوى في إفادة المعرفة في نفس الأمر (كما رأينا من لاثتهم لوثة الجهمية الداروينية يتكلفونه من أنواع الموازنات والترجيحات بدعوى درء تعارض "العلم" و"الدين")!

فالحق أن جميع تلك الفرق الضالة المعاصرة ترجع إلى نفس تلك الأصول المنهجية الكلية الفاسدة، التي تجعل كل واحد منهم يتعامل مع الدين ونصوصه تعاملا انتقائيا صرفا يجري فيه على هواه، من بعدما قدم نظريات القوم (إجمالا) ومصادر تلقيها عندهم (منهجيا)، على المنقول وميراث المسلمين في فهمه، والله المستعان لا رب سواه!

إن أصل أصول الجهمية في جميع العصور هو تقديم ما يزعمونه العلم والعقل على النقل! فإذا هم صنعوا ذلك، كان دينهم تبعا لتلك النظريات التي جعلوها هي العقل وقطع العقل، أيا ما كانت! فسنشرع في هذا الباب بحول الله تعالى وقوته في بيان تلك الأنواع الثلاثة من طوائف دراونة أهل القبلة، وما عندهم من عقائد فاسدة مصادمة للكتاب والسنة، نشأت عندهم عن التلاعب بالهوى المحض جريا على هذه الأصول الكلية التي تقدم تحريرها، التي هم جميعا مشتركون فيها، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! تلك الأصول الراجعة عندهم إلى المنهج الدهري في تحصيل المعرفة بكل ما هو موجود خارج الذهن، الذي يسمى إجمالا بالطبيعية المنهجية Methodological Naturalism ويمكن إيجاز ثوابته ومسلماته الميتافزيقية الكلية، الوجودية والمعرفية، التي تابع الجهمية من أهل الملل معاصريهم من سادة الأكاديمية الفلسفية الغربية عليها من حيث شعروا أو لم يشعروا فيما يلي:

تعميم النظام الطبيعي على جميع أنحاء العالم Universality of Natural Regularities، وهو ما يأتي من اعتقاد أن العالم بكليته، من أوله إلى آخره، الشاهد منه والغائب، سواء في خضوعه لتلك النظاميات السببية نفسها التي تكشفها التجربة البشرية في إطار ذلك الحيز من العالم الواقع تحت الحس والعادة. فبناء على ذلك الاعتقاد الوجودي نشأ تجويز قياس كل غائب منه على ما في الشاهد معرفيا، تحكما بالهوى!

اعتقاد تساوي جميع أجزاء العالم في البنية والتركيب، وفي الطريقة التي نشأ بها ذلك البناء والتركيب. ومن ثم يستجاز وضع النظريات البنيوية الكلية، كالنظريات الذرية Atomic Theories التي تقيس جميع موجودات العالم من حيث أصل البنية، على

قطعة الصخر أو كومة الرمال التي يمكن تفتيتها إلى حبيبات أو إلى ذرات التراب، فتجعله مركبا كله من جواهر دقيقة تملؤه من أوله إلى آخره، تنشأ منها الأجسام الكبيرة، أو نظريات الهيولى، التي تقيس العالم على قطعة الثلج المركبة من مادة مائعة متصلة متجمدة، فتجعل العالم كله مركبا من شيء متصل يملؤ خلاءه من أوله إلى آخره، فلا تكون الأجسام أجساما إلا بتصوره على صورتها! المهم أن يكون العالم كله من أوله إلى آخره مركبا من شيء كلي واحد، يفترض افتراضا بالقياس، تحكما بالهوى، ثم يبنى عليه كل اعتقاد وتصور بشأن حقيقة العالم وما وراءه إن كان له وراء!

اعتقاد أن جميع حوادث العالم لابد لها من أسباب من جنسها، فلا تخرج أسباب الحوادث وجوديا عن نوع "السبب الطبيعي"، الذي يلتمس التوصل إلى استكشافه من طريق ما يسمى بالتفسير العلمي Scientific Explanation . وهو ما يقال له السببية الطبيعية المغلقة Physical Causal Closure، أو التعلل الطبيعي التام. وهذا ما إذا اجتمع مع اعتقاد أنه ما من حادث طبيعي إلا وهو معلل في الماضي تعللا تاما بحادث أو أكثر من الحوادث الطبيعية المتقدمة عليه، وأنه ليس في الواقع من الموجودات والحوادث إلا ما هو "طبيعي"، أي من جنس ما هو واقع تحت الحس البشري من أنواع الموجودات والحوادث، أو ليس في الوجود إلا هذا العالم الواقع بعضه تحت الحس، اقتضى ذلك نفي الباري بالغيب بالكلية، وإنزال صفات الربوبية كلها على العالم نفسه، فيجعل هو الصانع وهو المصنوع جميعا، أو هو الموجود الأوحد الذي توهمنا صفته عند إدراكها بأن له عالما مصنوعا على النحو الذي نبصره من حولنا، إلى غير ذلك من صور ما سماه الفلاسفة المعاصرون بوحدة الوجود الطبيعي Naturalistic Pantheism ، وهذا ما سيأتي معنا ذكر أمثلة عليه في قوم من أهل الملل الكتابية بلغت بهم جهميتهم وزندقتهم أن عطلوا الباري عن جميع صفاته وأحالوه إلى قوة كامنة في الطبيعة لا تخرج عن إطار الأسباب الطبيعية التي هي بضاعة الطبيعيين في بناء أسطورتهم الكوزمولوجية!

وهذه كلها مسلمات لا ينهض بها دليل من الحس ولا من العقل كما هو واضح، لا من طريق الفلاسفة الطبيعيين ولا الميتافزيقيين ولا غيرهم، وإنما هي دعاوى اعتقادية دينية يسلم بها الفيلسوف تسليما مبدئيا لا لشيء إلا لأنه لو لم يفعل، لم يجز له التنطع على الغيب بنظرياته وأوهامه، وإذن لزمه النزول من عليائه وثنى ركبتيه بين أيدي الأنبياء وأتباعهم، يرجو منهم أن يعلموه من أمر الغيب العظيم ما ترجى له به السلامة في الآخرة، وهذا ما لا يمكن لنفوسهم المريضة المستكبرة أن تقبله طرفة عين!

لا يزال الجهمية تتضخم بدعتهم في نفوسهم حتى تصبح من أعظم أصول دينهم التي لا يرون للمسلم نجاة إلا بها! ولهذا كان أولوهم حريصين أعظم الحرص على إثبات وجوب النظر لإثبات حدوث العالم، من طريق يرتضيه الفلاسفة الأكاديميون المعاصرون لهم ويرونه صالحا – نوعا – لتحقيق المعرفة بوجود الباري! فكان ذاك الطريق هو التقديم بميتافزيقا الطبيعيين في زمان فلاسفة اليونان! واليوم ترى معاصريهم حريصين كذلك على إثبات وجوب النظر فيما أغرق فيه الطبيعيون من تنظير ميتافزيقي يمس قضايا الإلهيات بصورة مباشرة! وكيف لا، وهم يعلمون أن للأمر ما له من مقتضيات ولوازم في إثبات الصفات ونفيها، وإثبات الأفعال الإلهية ونفيها، وفي فهم كثير من نصوص الكتاب والسنة في تلك الأبواب التي اقتحمتها نظريات الطبيعيين! فإذا كان أحدهم لا يحب لنفسه أن يتهم بتسفيه أو تجهيل أقرانه وأساتذته من دهرية الطبيعيين في تلك الأكاديميات التي هو منتسب إليها، ويرى – من ثم – أن تلك النظريات هي العلم الظاهر الذي لا يكذبه مسلم إلا فتح أبواب الإلحاد والردة وتسفيه الدين .. إلخ، كان من غير المستغرب أن تراهم يتفننون كما تفنن أسلافهم في تحويل ذلك النظر التلفيقي الجهمي الذي تكلفوه هم في تلك الغيبيات واجبا من أعظم الواجبات على المكلفين!

فللجهمية الجدد بعمومهم طريقان لتقرير بدعة وجوب النظر في الطبيعيات على أعيان المكلفين، أحدهما يستندون فيه إلى النص بتأويل مبتدع، والثاني هو مقتضى منهجهم في مجادلة الملاحدة من أصحاب الطبيعيات، وهم به تبع لأسلافهم الجهمية الأوائل في إيجاب النظر "العقلي" في وجود الصانع وحدوث العالم على كل مكلف وإنما اختلفوا عنهم في طريقة النظر ومنهج الاستدلال لا غير.

فأما الاستدلال بالنص فمثاله ما ذكره "عمرو شريف" و"زغلول النجار" وغيرهما من جهمية العصر المشتغلين بباب تأريخ نشأة العالم ونشأة أنواع الدواب على الأرض في الطبيعيات من تأويل قوله تعالى: ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [العنكبوت : 20] على أن المراد تكليف المسلمين بتتبع القرائن الحسية والمشاهدات المستقرأة من واقع العالم ونظامه الحالي لمعرفة الكيفية التي خلق الله بها السماوات والأرض في الأيام الستة والكيفية التي خلق بها أنواع الدواب على غير مثال سابق. ولا شك أن هذا التأويل لا سلف لهم به ولا قائل به قبلهم في قرون المسلمين السالفة، وهذا أمر لا يحتاج إلى إثبات! ومع أن هذه الحقيقة وحدها تكفي كل مسلم عاقل للقطع ببطلانه ورده على أصحابه بلا تردد، إلا أننا قد أفضنا في غير هذا الموضع في بيان اللوازم العقلية الجلية المترتبة على قبول ذلك التأويل البدعي، التي تصل إلى

الطعن على الرب نفسه الذي ترك خاتم أنبيائه ليموت على أميته في علم الكونيات وعلم الأحياء من غير أن يتكلف العمل بهذا الأمر التكليفي الذي زعموه يوما من الدهر، أو يأمر به أحدا من أتباعه وأصحابه!

وعلى نفس هذا الفهم البدعي السخيف لآية العنكبوت فيما يتعلق بخلق السماوات والأرض وما بينهما، لا أستبعد أن يخرج علينا من يفسر نحو قوله تعالى: ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)) [النمل : 69] على أنه أمر تكليفي بتعلم علم الأركيولوجيا والتنقيب الحفري حتى تتحقق في المسلمين العبرة المقصودة باستخراج آثار تلك الأمم التي أهلكها الله تعالى وأمرنا بالاعتبار بمآلها في القرآن! ولعل أصحاب ذلك التأويل البدعي من التاريخيين والأركيولوجيين ونحوهم يجمعون لأنفسهم من نصوص الكتاب ما يسمونه هم أيضا "بالآيات الأركيولوجية" على غرار صنيع النجار وأتباعه فيما سموه "بالآيات الكونية"، ليتكلفوا تفسيره بمكتشفاتهم في الآثار، يجعلونه "تفسيرا علميا" أو "أركيولوجيا" في أحيان، و"إعجازا علميا" أو "أركيولوجيا" في أحيان أخرى، تبعا لمصالحهم الفردية أو الحزبية فيما يريدون نشره من ذلك! مع أن الأمر واضح للغاية في أنه تكليف لكل عاقل بالتدبر في حقيقة أن تلك الأمم الفاجرة العاتية عن أمر الله تعالى لم يبق لها اليوم أثر بين الناس، بل أفناها الله على بكرة أبيها، ببغيها وظلمها وعلوها بما كسبته من أسباب الأرض، أيا ما كان مبلغها فيه! هذه مسألة واضحة لا تحتاج إلى تنقيب في الأرض ولا بحث في الآثار أصلا حتى تتضح لكل عاقل بمجرد تنبيهه إليها كما جاء به النص! ولكن أصحاب تلك الصناعات لهم أغراضهم في تلبيسها بالقرآن، كما كان دأب سلفهم من الجهمية الأوائل الذين كرهوا أن يقال إنهم ضعاف في العقل والنظر وأنهم آمنوا ((كما آمن السفهاء))! إنها شهوة إثبات علوهم هم العقلي وتفوقهم المعرفي على الفلاسفة والنظار المتعاظمين بين الناس في زمانهم، وليس هو حرصهم على نصرة الحق ورفعه فوق رؤوس المكذبين كما توهمهم نفوسهم وتزينه لهم شياطينهم من حيث لا يشعرون! ولو أخلص هؤلاء وتجردوا للحق لأدركوا عظيم ما أحدثوه هم وأسلافهم في دين المسلمين من ضرر وإفساد وابتداع، من أثر رفعهم أصول فلسفات الدهريين والماديين في الغيبيات فوق ميراث النبيين على زعمهم أنهم يردون على أصحابها "بلغتهم" وبالبرهان "العقلي" الذي يناسب عقولهم و"عصرهم"، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

يقول الملك جل في علاه في مقام محاججة المشركين: ((وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)) [الزخرف : 19] فاحتج سبحانه على دعوى المشركين بشأن صفة الملائكة وخلقتهم بحقيقة أنهم لم يشهدوا خلقهم ولم يروه رأي العين، فالآية حجة واضحة في أنه ليس أمام البشر في أمر ذلك الغيب من طريق لتحصيل

المعرفة إلا السمع، فإذا عدم السمع، مع عدم المشاهدة والمعاينة المباشرة بموجب أنه غيب، فقد انقطع طريق المعرفة بالكلية، ولم يبق إلا أن يكونوا كاذبين متخرصين فيما زعموه من صفة الملائكة! فلو كان طريق النظر القياسي (بقياس الغائب على الشاهد على وجه من الوجوه) معتبرا في تحصل المعرفة الظنية في مثل ذلك (وأعني مسائل الغيب المحض، التي منها خلق أنواع المخلوقات في الأرض والسماوات على غير مثال سابق)، لما كان في الآية حجة على هؤلاء، وإذن لجاز لهم أن يقولوا: "هي نظرية دلتنا على صحتها أدلة علمية"، فتأمل! ولذا فنحن نقول لكل من يخوض في أحداث خلق السماوات والأرض وأنواع الدواب على الأرض بشيء غير السمع: ((أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون))، وكما قال تعالى: ((مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)) [الكهف : 51]، فليتقوا الله في دينهم وفي دين الناس، وليشتغلوا بما ينفعهم وينفع الناس، والله المستعان.

فصل في قولهم "ما المانع من قبول فكرة الأصل المشترك Common Ancestry دون بقية عناصر النظرية"؟

كثيرا ما يقول المفتونون بالداروينية من أهل القبلة ما معناه: أرأيتم لو أننا أسقطنا من النظرية آليتي الانتخاب الطبيعي والطفرة العشوائية، وزعمنا في محلهما أن الرب سبحانه قد خلق جميع الأنواع من نسل بعضها البعض، وصولا إلى سلف واحد مشترك، فأي شيء في العقل أو النقل يمنع من ذلك؟ فيقال لهم: وما الذي يحملكم على ذلك أصلا؟ إذا كان أصل الدعوى التي بنيت عليها تلك الشجرة الارتقائية المزعومة هو القول بأنه لا تزال المخلوقات تترقى من أحط البدايات صنعا وتركيبا إلى أعقدها وأحسنها، وهو قول يقتضي نسبة النقص إلى رب العالمين سبحانه وتعالى [2]، بصرف النظر عن "الآليات" المفترضة لذلك الترقي المزعوم، وإذا كان حادث خلق الدواب على الأرض من غير مثال سابق، حادثا يشهد العقلاء على أنهم لم يشهدوا له نظيرا في عادتهم في هذا العالم (أي لم يشهدوا حادثا أو جملة حوادث يقال إنها قد خلق بها أول طائر في الجو أو أول حوت في البحر أو أول دابة على الأرض تمشي على أربع أو أول دابة تمشي على بطنها أو أول دابة تمشي على رجلين أو أول دابة تزحف بلا أرجل .. إلى آخر ذلك التقسيم الكلي للأنواع الحية)، فأي أساس يبقى في العقل الصريح للتعلق بدعوى الأصل المشترك لجميع الأنواع، إلا أن يكون قياسا متنطعا لا أساس لافتراضه إلا الوهم والتحكم؟؟ لا المصدر الذي جاءت منه تلك الدعوى هو مصدر معرفي يصح الاعتماد عليه والاستناد إليه في مثل موضوعها، ولا المقتضى اللازم للقول بها يجيز للمسلمين اعتقادها، فأي داع يبقى للتمسك بها؟

فإن قالوا في الجواب: إنما يدعونا إلى ذلك ما تواطأت عليه المشاهدات الأحفورية والجيولوجية ونحوها من موافقة ذلك الأنموذج الشجري (أنموذج الأصل المشترك)، حتى بلغت من المشاهدات مئات الآلاف، قلنا: فلتبلغ أن تكون ملايين المشاهدات، فكان ماذا؟؟ هل تزعمون أن من تلك المشاهدات ما يصح أن يعد مشاهدة صريحة لما تقدم أن نفينا عنكم مشاهدته من أصول الأنواع الحية على الأرض، أو مشاهدة نظيره (الذي تعلم مناظرته بطريق صحيح)؟ فإن قالوا: نعم، وانظر إن شئت في ترقي أنواع الباكتيريا، على سبيل المثال، أليس هذا ظهورا لأنواع جديدة من أنواع قديمة؟ قلنا: نعم ليس هو ظهورا لأنواع جديدة، ولا ترقيا من نوع كان منحطا ناقصا قبل التغير الذي طرأ عليه، وإنما هو تكيف (بالتحول من حالة هي الأكمل والأحسن لموافقة ظروف بيئية معينة، إلى حالة أخرى هي كذلك الأكمل والأحسن في موافقة ظروف بيئية أخرى) فهو تنوع وتغير داخل النوع الواحد، وإلا فلم نر الباكتيريا في يوم من الأيام يخلق لها بالطفرة المزعومة عضو جديد أو نظام حيوي جديد لم يكن فيها من قبل، فيحيلها إلى مخلوق جديد على غير مثال سابق! فمن غير هذا أو نحوه من المشاهدات، فلن يبقى معكم إلا التأويل المتكلف لمشاهدات لا علاقة لها بذلك الغيب المحض الذي تريدون اقتحامه بتلك الأقيسة المتهافتة، فافهموا هذا يرحمكم الله!

لم تشهدوا نشأة "نوع جديد" على غير مثال سابق يوما من الدهر، ولم تشهدوا لها نظيرا بالضرورة لأنه ليس في النظام الحيوي مما تشهدون إلا ظهور التغيرات بما حقيقته أن يكون تعديلا جاريا على مثال سابق، لا إحداثا لنوع جديد على غير مثال سابق! عندما تتغير صفات الطائر من نوع ما، فإنه يظل طائرا قد تغيرت بعض صفاته، ويبقى الفرد المنتسب إلى النوع المعدل موصوفا بكونه على مثال سلفه، لا على مثال غيرهم من أسلاف الأنواع الأخرى، فيبقى طائرا كما أنهم طيور! بل ويبقى مميزا بصفات فئة من فئات الطيور لا يجاوزها لغيرها، فإن كان من طيور لا تستعمل أجنحتها في الطيران وإنما تعيش على الأرض، كالبطريق أو النعامة أو نحوهما، فلن تراه يكتسب من الصفات ما ينقله إلى نوع من الطوير الجارحة سريعة الطيران دقيقة الصيد كالصقور أو النسور مثلا، مهما تابعت من أجياله ومهما وقعت عليه التغيرات الجينية جيلا بعد جيل! فمن أين يأتي الزعم بجعل تلك التغيرات المعتادة في النظام الحيوي سببا في نشأة النظام نفسه (نشأة جميع الأنواع في الماضي البعيد على غير مثال سابق)، إلا من مسلمات الدهرية التي أوجزناها في مستهل هذا المبحث؟ لولا أن اعتنق داروين الفلسفة المادية الطبيعية التي لا تجعل في الوجود إلا جنس الأسباب المحسوسة والحوادث المحسوسة والموجودات المحسوسة، التي يسمونها إجمالا بالطبيعة Natural، ما جنح إلى افتراض "التفسير الطبيعي" Natural Explanation لنشأة جميع الأنواع الحية في العالم، يجعلها بالقياس حوادث من نوع تلك

التغيرات المورفولوجية التي تطرأ على أفراد النوع الواحد جيلا بعد جيل، مصادما بذلك بداهة العقل القاضية بأن تكون الحوادث التي بها نشأ النظام الحيوي بعد أن لم يكن، من نوع لا نظير له في الحوادث الجارية تحت النظام نفسه وفي إطاره! هذا ما يقع فيه الدهرية لا محالة من أثر تمديدهم السببية الطبيعية إلى ما قبل نشأة النظام السببي الطبيعي نفسه، بناء على مقدمة مفادها أنه ما من حادث يقع في الطبيعة إلا كان سببه سببا طبيعيا بالضرورة، وما من سبب طبيعي إلا كان سببه طبيعيا مثله، وهكذا بلا حد في الماضي! فعند الدهري، ليس لحوادث الطبيعة سبب خارج عن الطبيعة أصلا! هذه هي المقدمات الميتافزيقية الدهرية الخفية التي أجازت لداروين وأتباعه القول بتلك الأقيسة، فبأي شيء استجزتم أنتم قبولها عنه يا هداكم الله؟

لولا أن قاس داروين نشأة الأنواع الحية كلها على ما أحدثه هو في بيته من تعديلات على بعض صفات الطيور بالتهجين Selective Breeding، ما خطر في ذهنه طرفة عين أن يزعم رجوع جميع الأنواع في الأصل والنشأة إلى التحول من أسلاف سابقة عليها بتغير الصفات الوراثية عبر بلايين السنين! ولولا أن كان الرجل دهريا خبيثا، ما زعم أن الأصل الأول لابد أن يكون هو الأبسط والأحط Simplest / least evolved ثم أخذت الصفات والوظائف والتعقيدات العضوية تكتسب ترقيا وتطورا بالطفرات الجينية جيلا بعد جيل، حتى حصل بذلك كل ما نراه اليوم من تنوع وتعقد بالغ للأنواع في الأرض! ومعلوم أن الرجل ما وضع تلك النظرية إلا ليأتي ببديل طبيعي لدعوى ويليام بيلي وغيره أن الأنواع الحية بديعة الخلقة هي في الدلالة على خالقها كدلالة ساعة اليد على مصممها! من هنا جاءت فكرة الأصل المشترك، ثم جرى الأتباع عبر قرن ونصف من الزمان بتصيد المشاهدات والمكتشفات الحفرية ونحوها وتأويلها بما يلائم النظرية، حتى صار الأمر عند المفتونين السفهاء وكأنما هو حقيقة مطردة يتعذر تصور ما يخالفها! مع أن منطق الاستدلال بتلك الحفريات والمشاهدات التي يأتي بها الدراونة في كل مناسبة إنما هو منطق مغرق في الدور على الحقيقة! فأي عقل في أن يضع أحدهم الفرضية التفسيرية مطلقة التغييب على هواه وبأيما قياس يحلو له، ثم يأتي بمشاهدات يفسرها ويؤولها تأويلا جاريا على تلك الفرضية، ثم إذا سئل عن أدلة صحة تلك الفرضية، أخرج للناس تلك المشاهدات نفسها، مع ما زعمه لها من تأويلات؟؟ قد بينا فيما مضى أن تلك الدائرية عند القوم لا مخرج منها، بالنظر إلى كون موضوع التنظير (الحادث المراد إثباته في تفسير الواقع المشاهد) حادثا غيبيا محضا لا نظير له في عادتنا، فلابد فيما كان هذا شأنه من أنواع الفرضيات التفسيرية أن تكون جميع المشاهدات التي يزعمها دليلا على صحته متكافئة تمام التكافؤ، غير صالحة للاستدلال على التحقيق Indetermined!

فعندما يأتينا أمثال الدكتور نضال قسوم مثلا في مقطع من مقاطع برنامجه على اليوتيوب بستة من الحفريات لجماجم القردة النافقة، التي استخرجها القوم من طبقات الأرض بناء على التصور الجيولوجي لتلك الطبقات، ثم أضافوا عليها من خيالهم الخصب ما به صيروا هيئتها هيئة وسيطة بين الإنسان والقردة العليا المزعومة، تأسيسا على نظرية داروين والقول بالأصل المشترك، وأفاضوا في تفصيل خيالاتهم في كل حفرية من تلك الحفريات، (التي قد يكون بعضها لأنواع قديمة من القرود قريبة الشبه بالبشر وبعضها لبشر من أجناس قريبة الشبه لبعض أنواع القردة)، ثم يقول قدموا لنا جوابكم عن تلك "الأدلة" الدامغة على أن الإنسان قد انحدر من القردة العليا تطوريا، فهذا نقول له إن هذا الهذيان دور منطقي ظاهر، وتخريف محض، لا يرقى والله لأن يكون شبهة دليل، فضلا عن أن يكون دليلا! فإن قال إن حجم الجمجمة كان أصغر في الحفرية الأقدم ثم صار أكبر فأكبر، قلنا له ومن الذي قال إن الإنسان لا يكون إنسانا إلا بأن يجاوز حجم جمجمته حجما معينا، ومن أين جاء ذلك القيد العجيب على أحجام الجماجم؟ ليس عند أصحاب خرافة الترابط الطردي Positive Correlation بين حجم المخ وبين الذكاء والقدرات العقلية، سواء في إطار أجناس البشر أو في أنواع المخلوقات عامة، إلا الوهم والميل في الاستدلال كذلك Bias! ولا يخفى أن الصبي الصغير قد يبلغ من الذكاء برأسه الصغير ما لا يبلغه بالغ لديه رأس أعظم حجما بكثير، ولولا ضيق المقام لبسطنا الكلام في بيان أوجه تهافت تلك الدعوى! ثم إننا قد بينا أن الفصل فيما إذا كانت كل جمجمة من تلك الجماجم لقرد أو لإنسان لا مصير إليه إلا بالتأويل القائم على الفرضية، فكيف يكون هو نفسه دليلا على صحتها إلا بالدور المنطقي؟؟ ثم إنه لا يمتنع أن يكون ثمة تفاوت في الأعمار التي هلك عليها أصحاب تلك الجثث النافقة التي اكتشفتموها، فمن الذي قال إنه يلزم أن يكونوا كلهم قد هلكوا بالغين؟؟ هذا لا موجب له! ثم من ذا الذي قال إنه يلزم أن يكونوا قد هلكوا كلهم صحاح الرؤوس، أو حتى واقعين بجماجمهم تلك في إطار الوسيط الإحصائي لأحجام الجماجم لأفراد هذا النوع أو ذاك حيث عاش وحين عاش؟؟ أليس في إطار النوع الواحد نطاق للاختلافات الفردية Individual Differences يجب اعتباره؟ والقصد أن هذا الترتيب التطوري كله وهم في وهم لا يأتي به الدارويني إلا تحكما بالتأويل لخدمة النظرية، وهم يعلمون ذلك جيدا، فبأي عقل يراد منا أن نقبله دليلا على صحتها، ويقال لنا إن أبينا واعترضنا، وقلنا إن الله أخبرنا بأنه خلق آدم بيده من تراب على أحسن تقويم، بل وخلقه أعظم جسدا وحجما من أحجامنا بكثير (طوله ثلاثون مترا أو يزيد): أنتم أصحاب إيمان لا عقلاني Irrational / Blind Faith؟؟

ألا شاهت الوجوه!!

قال الدكتور عمرو شريف (رأس الدراونة التطويريين من بني جلدتنا في هذا العصر) في كتابه "كيف بدأ الخلق" (ص. 167) تحت باب "الأدلة العلمية على حدوث التطور": "اخترنا أن نبدأ بعرض الأدلة التي يقدمها علم البيولوجيا الجزيئية، إذ يقدم هذا العلم الدليل الدامغ على صحة فكرة الأصل المشترك للكائنات وحدوث التطور. وبالرغم من ذلك يظن أنصار فكرة الخلق الخاص من غير المتخصصين، أن علم البيولوجيا الجزيئية قد نفى تماما حدوث التطور! لقد أظهر علم البيولوجيا الجزيئية أن جميع الكائنات الحية – من البيكتريا إلى الإنسان – تتميز بتشابه ملحوظ في طبيعة الجزيئات العضوية المكونة لخلاياها، وكذلك في شفراتها الوراثية. ويمكن تحديد هذا التشابه فيما يلي: (ثم أخذ يعدد أوجه التشابه [3])" اهـ.

قلت: تأمل نوع ما يعده الدكتور (وأمثاله ممن تشبع بطريقتهم الطبيعية الدهرية في الاستدلال والنظر في الغيبيات المحضة) "دليلا دامغا على صحة فكرة الأصل المشترك وحدوث التطور"! التشابه! وجدنا النظام الجيني في جميع الأنواع الحية نظاما واحدا (إجمالا)، وإذن فلابد أن تكون كلها قد نشأت عن أصل واحد! فبالله يا عقلاء، هل هذا استدلال يقال فيه "دليل دامغ"؟؟ بل هل يصلح هذا أن يكون دليلا أصلا؟؟ القوم استصحبوا من دهريتهم، القياس الدارويني التفسيري الذي به أصبح كل تغير جيني يفضي إلى ظهور صفات في الذرية مختلفة عن صفات سلفه، مع كونها غير ضارة في نفسها، "تطورا" Evolution، تقاس عليه نشأة جميع الأنواع الحية على الأرض، بزيادة الصفات وتنوعاتها على ذلك الأصل المنحط المزعوم! فعلى قياس داروين، يكون التشابه بين القرد والإنسان دليلا على رجوعهما جميعا إلى سلف واحد نشأ كلا النوعين بالتطور عنه، كما كان سبب التشابه بين تلك الطيور التي قام هو بتهجينها في حديقة بيته، رجوعها إلى سلف مشترك! هذا هو القياس المغالط Fallacious Analogy الذي به أسس داروين دعوى التطور المطرد من أصل منحط! [4] إذا كان غاية بضاعة الباحث في الطبيعيات والتجريبيات أن ينظر فيما تدله عليه العادة المستفيضة، وما تجيزه له من تنبؤات مستقبلية وتفسيرات ماضية، وكانت عادته قد استفاضت فيها أمثلة التحولات الوراثية في إطار النوع الواحد وحسب، لا من نوع إلى نوع، ودله الاستقراء المستفيض على أن المخلوقات المنتمية إلى أنواع متفاوتة لا يحصل بينها التناسل أصلا، فلا يتناسل طائر مع زاحف، ولا زاحف مع حوت في البحر، ولا يتناسل الإنسان مع القرد (على شدة قربهما في الهيئة وتشابههما الوراثي)، إذا كان ذلك كذلك، فكيف استجاز داروين هذا القياس في تفسير نشأة الأنواع كلها وتنوعها؟؟ والله ما كان ليستجيزه ولا يرى معقوليته لولا أن كان صاحب اعتقاد ميتافزيقي دهري يريد الانتصار له على دعوى أن الباري هو الذي خلق الأنواع كلها فأحسن خلقها وتصويرها!

فكيف أنت يا دكتور إن طالبناك بنصب الدليل على صحة هذا القياس نفسه ورجحانه على غيره مما يجيزه العقل (إن سلمنا بأن أصل القياس الدارويني يجيزه العقل)؟؟ لماذا يكون تفسير ذلك التشابه هو أنها كلها تنزل من سلف واحد ولا يكون أنها كلها قد صنعها صانع واحد وأجراها على نظام واحد؟؟ لماذا لا يُكتفى بالتفسير بوحدة الصانع، ووحدة النظام الطبيعي والبيئي العام الذي خلقت جميع المخلوقات على الأرض لتشترك فيه ولتكون جزءا منه (إجمالا)؟ وما وجه الدلالة الإضافية في مسألة التشابه الجيني والخلوي للأنواع الحية، فوق ما يفترض في التشابه الظاهري العام General Morphology بين الأنواع أن تكون دالة عليه؟ وعلى أي أساس – إن لم نصطحب المقدمة الداروينية الخفية - يكون ذلك كله مرجحا للخلق من سلف مشترك، على القول بخلق جميع الأنواع استقلالا؟ من المتوقع أن تكون جميع الأنواع الحية متشابهة في النظام البيولوجي الكلي وفي عمل الخلية وآليات الوراثة وكذا، بالنظر إلى كونها كلها تعيش كأجزاء في ظل قوانين كيميائية وفيزيائية واحدة! فجميع المخلوقات تتغذى على نفس العناصر الكيميائية، وجميعها تتحلل بعد الموت إلى نفس العناصر الكيميائية، وكلها تتأثر نفس التأثر بالقوانين الفيزيائية .. إلخ! فلماذا لا يكون هذا هو التفسير الكافي لكون البنية الخلوية والجزيئية لتلك الأنواع كلها متشابهة على ذلك النحو الذي أطال الدكتور النفس في بيانه، متوهما دلالته "الدامغة" على السلف التطوري المشترك، مع كونها جميعا قد خلقت خلقا مستقلا وبث في بيئاتها بثا؟؟

السبب، أيها القاري الكريم، هو دهرية داروين نفسه أولا، ودهرية أتباعه من بعده، وخضوعهم جميعا للطبيعية المنهجية Methodological Naturalism التي تحملهم حملا على "طبعنة" الغيبيات كلها لا سيما مسألة الخلق والنشأة، فإذا كانت الطبيعة والأسباب الطبيعية هي تفسير "نشوء" جميع الأنواع ومنها الإنسان، وكانت الأسباب الطبيعية كذلك هي تفسير نشأة الكون نفسه، وصارت تلك التفسيرات "نظريات علمية" معتمدة أكاديميا، أصبح من "غير العلمي" Unscientific (وليس للعلم نقيض إلا الجهل) أن يقال بأسباب غيبية وأجوبة غيبية لتلك الأسئلة الوجودية الكبرى التي تقوم على أجوبتها عقائد أهل الملل كافة، وهذا هو المطلوب في النهاية: تأسيس ميثولوجيا الدين الطبيعي في ذلك القالب الفكري والمعرفي الأرقى اجتماعيا، الذي لا يجرؤ أحد على تكذيب أصحابه أو تسفيه أحلامهم، ألا وهو القالب الأكاديمي الطبيعي Scientific Academia! فالدين الطبيعي Naturalistic Doctrine هو الدين الوحيد في العالم الذي لا يعرفه أصحابه على أنه دين، ولا يجري بين أيديهم ولا يقدمونه للعامة والجهلاء إلا في قالب العلم الطبيعي Natural Science، والله المستعان!

والقصد أنه بدون ذلك القياس الدهري الدارويني، وبدون التزام المنهجية الطبيعية القاضية باقتحام تلك الغيبيات المحضة بهذا الصنف من الأقيسة الواهية، فإنه لا يبقى في مجرد التشابه والتوافق البيولوجي (سواء في الهيئة الظاهرة أو في البنية البيوكيميائية الجزيئية الباطنة) أي دلالة على السلف المشترك ولا على نشأة أي نوع من نوع آخر متقدم عليه، مهما جزم به الدكتور ومن شاكله وجعلوه أقوى الأدلة وأدمغها وأحسنها .. إلخ! بل والله غاية ذلك كله أن يكون شبهة واهية تُهدم على أصحابها هدما، كما تهدم شبهات أهل الملل الباطلة الأخرى ولا كرامة!

ولا شك أن دعاة التطور الموجه أمثال الدكتور عمرو شريف، هم أشد الدراونة تناقضا في حرصهم على تصحيح خرافة الأصل المشترك، مع تخليتها من مبدأ العشوائية الوجودية الذي عليه تأسست عند داروين! فإن الأسطورة كلها من أولها إلى آخرها تقوم على فكرة الفوضوية المحضة في أصل جميع الأنواع الحية، تلك الفوضوية التي لم تزل "تتطور" اتفاقا، وتزداد المخلوقات فيها تعقدا وتركيبا وظيفيا طفرة بعد طفرة حتى تصل إلى ذلك التنوع الواسع البديع الذي نراه اليوم! فمن نزع تلك الفوضوية الابتدائية والعشوائية الوجودية من أصل النظرية، فعلى أي أساس يقيم فرضية الأصل المشترك نفسها؟؟ إن قال على أساس الأدلة الحسية والتجريبية والمشاهدات .. إلخ، قلنا له إن هذا كله متكافئ في الدلالة Indetermined بالنظر إلى كون القائل به متلبسا بتلك المغالطة في القياس التفسيري التي لا مفر لصاحب الفرض التفسيري الغيبي مطلق التغييب [5] من التلبس بها! فهم إنما صيروا تلك المشاهدات أدلة على صحة فرضهم التفسيري تحكما ودفعا بالصدر، بلا أساس في الحس ولا في العادة من الاستقراء أو غيره لاستبعاد جميع التفسيرات الأخرى! فلما كان تفسيرهم لتلك المشاهدات جاريا على النظرية، لم يكن استعمالهم تلك المشاهدات في إثبات صحة النظرية نفسها إلا دورا منطقيا بالضرورة!

خذ مثلا قول الدكتور (ص. 169): "فعلى سبيل المثال، ظهر أن إنزيم لستوكروم-سي يتألف من نفس المائة وأربعة أحماض أمينية بنفس الترتيب في كل من الإنسان والشمبانزي، بينما يختلف هذا البروتين بحمض أميني واحد عن نظيره في قرد الريسس، ويزداد هذا الفرق مع الخيل إلى 11 حمضا أمينيا، ثم يزداد مع سمك التونة إلى 21 حمضا أمينيا. معنى ذلك، أنه كلما ازدادت درجة التماثل في الأحماض الأمينية المكونة لروتينات الكائنات، ازدادت العلاقة وازداد قرب السلف المشترك بينها." اهـ.

قلت: فهذا "دليل دامغ" عند الدكتور على أن الأنواع كلها قد تطورت من بعضها البعض! أننا نجد – كما هو متوقع بداهة – في تركيب البنية الجزيئية لخلايا القرد مشابهة لنظيرها عند الإنسان، فوق ما نجد من مشابهة لنظيرها

عند الخنفس أو السلحفاة أو سمك التونة! فإذا كانت تلك الأحماض مرتبطة بهيئة الكائن الحي الظاهرة ووظائف أعضائه، فمن المتوقع أن تكون تركيبتها في الإنسان أقرب شبها إلى تركيبتها في القرد منها إلى تركيبتها في سمك التونة، وأن يقع الحصان في منزلة وسطى من حيث المشابهة! فعندما يعقب الدكتور على هذه الحقيقة بقوله: "معنى ذلك أنه كلما ازدادت درجة التماثل في الأحماض الأمينية المكونة لبروتينات الكائنات ازدادت العلاقة وازداد قرب السلف المشترك بينها"، فلا نجد في كلامه إلا التحكم وفرض التأويل الدارويني فرضا، كما فرضه داروين نفسه من قبل على حقيقة التقارب والتشابه الشكلي الخارجي والبنية العضوية العامة Morphological Proximity بين الأنواع، ليجعل النوع الأقرب هيئة إلى الإنسان أرقى في سلم التطور المزعوم وأبعد عن السلف المشترك المنحط من النوع الأبعد عن الإنسان في الهيئة والبنية العضوية! فلا فرق في منطق الاستدلال ولا في قوته بين مشاهدات البيوكيميائيين الدراونة في القرن الواحد والعشرين الميلادي ومشاهدات أسلافهم من التشريحيين في القرن التاسع عشر! كلاهما تأويل مستكره متعسف! تأولوا تلك المشاهدة بأنها راجعة إلى الأصل المشترك، ثم الآن يريدون أن يجعلوها دليلا على الأصل المشترك! تُفرض (أ) لتفسير الحقيقة (ب)، بلا نظير في عادة البشر، ثم يُستدل على صحة (أ) بالحقيقة (ب) نفسها! فأي انحطاط للعقل فوق هذا؟!

فعندما يقول الدكتور: "ومن بين مئات الاختبارات التي تم إجراؤها، لم يعط أي منها دليلا واحدا ينقض مفهوم الأصل المشترك والتطور." اهـ. فلابد أن نسأله - وندعوه دعوة صادقة للتدبر والتأمل -: ما هو، أيها البروفيسور المحترم، الدليل الذي إن ظهر عددته أنت "ناقضا لمفهوم الأصل المشترك والتطور"؟ ما هي المشاهدة البيولوجية (تشريحية كانت أو بيوكيميائية) التي لا يمكن للدراونة أن يتأولوها على وفق نظريتهم؟؟ لا مشاهدة على الإطلاق! كل المشاهدات تجد لها عندهم تأويلا! والسبب في ذلك هو أن امتناع تأويل المشاهدة بما يوافق الفرضية إنما يُتصور حصوله للباحث عندما يكون موضوع الفرضية نفسه داخلا (نوعا) تحت العادة والاستقراء والخبرة البشرية! فمثلا، لا يمكنني أن أتأول ابتلال قطعة صغيرة من الأرض بجوار بيتي مع جفاف بقية الأرض حول البيت وسطح البيت وكل شيء آخر، على أن سبب ذلك نزول المطر، لأن عادتي تدلني على أن المطر إذا نزل فإنه ينزل على مسطحات كبيرة من الأرض، فوق أن يحيط بها بصر أحدنا، وإذن يصبح كل شيء مبتلا بنفس المقدار! فإن كان من أساس لاستبعادي ذلك التأويل لتلك المشاهدة، فهو تلك العادة والاستقراء في خبرتي! أما إن قدرنا أن اكتشف الدراونة أن بين تركيب الأحماض الأمينية في الإنسان وتركيبها في القرد تفاوتا عظيما، خلافا للتشابه الكبير الذي يرونه، فما الأساس الذي به تستبعد – إذن - فرضية التطور والأصل المشترك في أصول جميع الأنواع الحية من مجرد ذلك؟؟

هل سبق لأحدهم أن شاهد عددا من العوالم كعالمنا، في كل واحد منها أنواع حية كتلك التي نجدها على الأرض، وفيه نوع كالبشر يختلف نظير ذلك الاختلاف عن نوع آخر كالقرد، وكان قد شاهد بعينيه – مع ذلك – أن تلك الأنواع كلها هنالك لم تخلق من سلف مشترك، وإنما خلقت استقلالا – مثلا –، بحيث يأتي ليقول إن مشاهدة ذلك في الأرض عندنا ترجح التفسير بالخلق المستقل على التفسير بالتطور من أصل مشترك، أو تستبعد مفهوم الأصل المشترك والتطور، بصرف النظر عن الفرض البديل؟؟ أبدا! ولن يعدم الدراونة تأويلا لذلك التفاوت الكبير، ولو بأن يهونوا من دور تلك الأحماض في تفاوت الصفات الوراثية التي يصرون على أنها قد انتقلت إلى كل من الإنسان والقرد من سلف مشترك! لهذا يا دكتور، لم يكن في الإمكان ولا في التصور ظهور دليل إمبريقي ناقض لدعوى التطور من أصل مشترك، لا لأن الدعوى حق في نفسها، مطابقة للواقع، ولكن لأن جنس المحسوس والمشاهد من مجاري الحوادث في العالم لا يوصل منه إلى تصور الحوادث التي بها خلق العالم نفسه بعد أن لم يكن! وبدون مستند من العادة، فلا قيمة ولا أساس لأي فرض تفسيري طبيعي لأي حادث وقع في الماضي! بل لا معنى لوصفه بأنه كان حادثا "طبيعيا"، إذ الطبائع لا تثبت في معرفتنا أصلا إلا من طريق العادة، فحيث لا عادة، لا معرفة بالطبائع! فلا يبقى إذن من أساس لذلك المسلك إلا أن يكون جريا على اعتقاد ديني طبيعي في جميع الغيبيات أنها من جنس الطبيعيات (الطبائع المعتادة) لا محالة، قابلة مبدئيا للقياس على ما في العادة، كما هي عقيدة داروين وأتباعه!

فقول الدكتور: "بل يمكن القول بأنه لم يتم اختبار أي فكرة أو نظرية في مجال العلم بهذا القدر من الإحاطة والشمولية، وبهذا القدر من التوثيق مثلما تم في دراسة تطور الكائنات الحية." اهـ. هذا لا جواب له عندنا إلا أن نقول: صدقت، ولا عجب على الإطلاق، ولهؤلاء أن يملؤوا الأرض "أدلة" من هذا الصنف المغالط، فهو كالهباء والتراب، لا ينهض لهم بتلك الخرافة قيد أنملة! ولا نتوقع منهم مهما شاهدوا المشاهدة بعد المشاهدة إلا أن يجعلوا من ذلك كله مزيدا من الأدلة على نفس الوتيرة! فهم على أي حال لا يملكون إلا المكاثرة بالمشاهدات المؤولة على هذا التأويل السمج، حتى إذا ما نقدهم ناقد رموا في وجهه بمثل تلك الدعوى الترهيبية الثقيلة التي أطلقها الدكتور (وهو صادق فيها) بقولهم إنه ليس في تاريخ العلوم الطبيعية نظرية واحدة قد حظيت بهذا القدر من الاستدلال الوافر لإثباتها! وإذن ترتعد فرائص كل باحث أكاديمي تحدثه نفسه بنقد أدلة تلك النظرية السرطانية الخبيثة، ويتراجع عن النقد وهو صاغر، والله المستعان!

فعلى الرغم مما عليه تلك "الأدلة" المزعومة من مغالطات عقلية فجة، فدعاة التطور الموجه لا يتصورون إلا التمسك بها، لأنهم يعلمون أنهم لو

تركوها وردوها على أصحابها، لسفهتهم الأكاديميات الطبيعية أبلغ التسفيه، ولأعرضت عنهم تلك الفئة من "المثقفين" التي يريدون الانتماء إليها، مع حرصهم – في نفس الوقت – على التصدر بين المسلمين في مسألة التوفيق بين "العلم" و"الدين" وفي مكافحة الإلحاد ومجابهة الملحدين! كيف يكون الواحد منهم "رجل علم" وهو يكفر بالتطور والأصل المشترك، الذي أجمعت أكاديميات البيولوجيا في العالم على اعتباره حقيقة منصرمة لا مجال للتشكيك أو التوقف فيها؟ لا مخرج إذن إلا إثباتها، مع جعلها هي الطريقة التي خلق الله بها سائر الأنواع الحية، فيصبح التطور "تطويرا"، وتصبح المشكلة الإلحادية ماثلة في "تأويل نظرية التطور" Interpretation of Evolution لا في معنى مفهوم التطور نفسه ولوازمه وأصوله الفلسفية التي قام عليها!

وهذا من أعظم ما شهده عصرنا هذا من تلبيس الجهمية ولا حول لا قوة إلا بالله، ولا يعاملهم الله فيه إلا بنقيض قصدهم عند التأمل! فلا يقبله منهم القائمون على تلك الأكاديميات التي أرادوا التزلف إليها بموافقتها في بعض أصول النظرية دون بعض، ويعدونهم بها من "الخلقويين" Creationists أصحاب الخرافات و"الأجندات الدينية"، ولا يقبله منهم أهل السنة حملة المنهج الرباني الصحيح والعلم بدين الله تعالى الذي زعم هؤلاء أنهم ينتصرون له، بل يعدونهم بها من أهل البدع والضلالات، نسأل الله السلامة!

في ص. 170، يضرب الدكتور مثلا من جنس ما يضربه الطبيعيون لبيان وجه الدلالة في تلك الشبهات والأوهام التي سموها أدلة، فيقول: "ونختم عرض أدلة البيولوجيا الجزيئية على صحة مفهوم الأصل المشترك وحدوث التطور بمثال: إذا أظهر الفحص المدقق لكتابين يضم كل منهما نقس العدد من الأبواب والصفحات، أن الكتابين متماثلان فيما تحتوي عليه الصفحات من كلمات وحروف، مع وجود فقرة إضافية في بعض فصول أحد الكتابين. هل من الصواب القول بأن كلا من هذين الكتابين قد كتب على حده؟ أم الأصوب أنهما طبعتان متتاليتان من كتاب واحد، وقد تم إضافة هذه الفقرات على الكتاب الأصلي عند إصدار الطبعة التالية؟" اهـ.

قلت: نشكر لك يا دكتور ضربك هذا المثل، فهو يبين بجلاء وجه المغالطة عندكم! فجواب سؤالك أن يقال: الأرجح ولا شك أن يقال إن الكتابين طبعتان من كتاب واحد لكاتب واحد، أو نسختان من كتاب واحد قد زيد على إحداهما زيادات. وثمة احتمال ثالث وإن كان أضعف في الأرجحية الاحتمالية، وهو أن يكون أحدهما لكاتب والآخر لكاتب آخر قد نقله عنه بشيء من التغيير. ولكن السؤال المهم هنا هو: على أي أساس يقوم ذلك الترجيح وموازنة الاحتمالات يا دكتور؟ على أي أساس تَرجح لديك ما تَرجح، واستُبعد ما استبعد؟ يقوم الترجيح على أساس خبرتنا البشرية السابقة بأنواع الكتب وبحالات التطابق بين كتابين والأسباب التي ترجع إليها تلك الحالات في كل مرة نقف على

واحدة منها! أي أن سبب ذلك الحكم يرجع إلى خبرة استقرائية سابقة لدينا بأنواع الكتب التي يظهر لنا تطابقها في المحتوى، وبأسباب ذلك التطابق! كل ذلك ليس واقعا تحت الحس وحسب، بل إنه واقع تحت الحس والعادة والخبرة المستفيضة، التي بها أصبح لديك يا دكتور من التقعيد الاستقرائي ما به تتوقع بأرجحية كبيرة أن يكون سبب تطابق الكتابين المذكورين على ما فسرته به! ولأنك لم يسبق لك في حالات كثيرة أن رأيت كتابين على هذه الصفة، وعلمت أن سبب ذلك يرجع إلى كون أحد الكتابين منقولا بحذافيره من الكتاب الآخر الذي هو لمؤلف آخر، فلن يترجح لديك اختلاف المؤلفين، بل يترجح أنهما لمؤلف واحد كما ذكرت!

ولكن يا دكتور، أسألك بالله الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك: هل خلق الله تعالى لجميع الأنواع الحية في هذا العالم على غير مثال سابق، هو في نفس منزلة ونوع هذه المسألة من حيث أساس الترجيح في الخبرة البشرية والعادة المستفيضة؟؟ هل للمنطق الاحتمالي مدخل أصلا في هذه البابة؟؟ إن أردت أن تحكم من طريق المنطق الاحتمالي بترجيح أن تكون جميع الأنواع في الأرض قد نشأت نشأة تطورية من سلف مشترك، تجعل ذلك تفسيرا لتلك التشابهات التي ذكرتها، فلا يصح لك ذلك حتى تتحصل لديك الخبرة والعادة المستفيضة بمشاهدة عوالم شتى كعالمنا هذا، فيها من الحياة نظير ما في عالمنا، وتكون قد حضرت وشهدت بعينيك نشأة جميع الأنواع في أكثر تلك العوالم، فإذا كان لك ذلك، وظهر لك بالخبرة المستفيضة في أكثر ما شهدته من العوالم التي توصف الأنواع الحية فيها بهذه الأوصاف التي شاهدتها في عالمنا من تشابهات في الهيئة والبنية الحيوية والجزيئية ونحو ذلك، أنها تكون الأنواع فيها مخلوقة كلها بالتطور من سلف مشترك، فحينئذ، وحينئذ فقط، يحق لك – عقلا، وعلى التنزل - أن ترجح بالاحتمالية أن يكون عالمنا هذا، الذي لم يتفق لك أن شهدت حوادث خلق الأنواع فيه، قد خلقت فيه الأنواع بالتطور من سلف مشترك، بقياس التفسير المسمى Abductive Reasoning!

فكما أنك في المثال الذي أوردته يجب أن يكون لديك خبرة سابقة بأسباب التشابه بين نسخ الكتب، حتى ترجح لها هذا التفسير أو ذاك، فكذلك هنا ينبغي أن يكون لديك خبرة سابقة بأساليب خلق الأنواع الحية في العوالم المختلفة، وأن تكون قد شهدت من ذلك (أنت أو غيرك من أقرانك) ما يحصل به الاستقراء المرجح Determining Indution! أما وأنك لم يسبق لك شيء من ذلك، والأمر كله بالنسبة إليك غيب مطلق لا تزعم لنفسك أنك قد سبق لك الوقوف بالحس والمشاهدة على نظيره البتة (حوادث نشأة الأنواع الحية في عالم كعالمنا)، فليس لديك إذن أساس عقلي لوضع الافتراضات التفسيرية في أصل الأنواع الحية على الأرض، والكيفية التي خلقها الله بها

على غير مثال سابق! لا يصح لك الافتراض في تصور حوادث ماضية تفسر بها واقعا محسوسا إلا أن يكون لديك خبرة سابقة بنظائر تلك الحوادث وبالعلاقة السببية الرابطة بينها وبين نظير ما تريد تفسيره من الواقع المحسوس! فإذا كان نوعها (أي تلك الحوادث) غيبا مطلقا بالضرورة، فعلى أي أساس تفترض وعلى أي أساس ترجح، تقول لو كان خلق الأنواع بطريقة كذا لا بطريقة كذا، لتوقعنا أن نرى الأنواع الحية الآن على هيئة كذا وصفة كذا؟! هذه هي القضية التي أرجو من الدكتور وأتباعه أن يتأملوها مليا، وأن يتجردوا في تصورها للحق، فإنه أحق أن يتبع، والله المستعان لا رب سواه!

ولهذا كان لأهل السنة حجة دامغة في المنع من وضع التفسيرات والفرضيات والنظريات في تلك القضايا، في قوله جل شأنه: ((عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً)) [الجن : 26] وقوله سبحانه: ((وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ)) الآية [آل عمران : 179] وقوله: ((قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ)) الآية [الأنعام : 50] وقوله: ((وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ)) الآية [الأنعام : 59] وقوله: ((فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ)) الآية [يونس : 20] وقوله: ((تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)) [هود : 49] وقوله ((سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ)) الآية [الكهف : 22] وقوله: ((قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)) [النمل : 65] وتأمل قوله "وما يشعرون"، لم يقل وما يعلمون، بل لا يجدون في عادتهم ولا في محسوسهم ما يشعرهم بوقت قيام الساعة، ولا فرق بين حوادث خلق السماوات والأرض في الأيام الستة وبين حوادث القيامة من حيث التغييب المطلق، وانقطاع الطريق دونها إلا من السمع، وفي قوله: ((وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)) [سبأ : 53] وقوله: ((أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)) [الطور : 41] وقوله ((مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)) [الكهف : 51]، فلا أنتم شهدتم خلق السماوات والأرض حتى تقولوا فيه بالمشاهدة المباشرة، ولا شهدتم نظيره في سماوات أخرى وأرض أخرى حتى تقولوا فيه بالقياس! فبأي شيء فرضتم ما فرضتم؟؟

فإذا فهمت هذا، تبين لك السبب في قولنا بأن مبدأ وضع الفرضيات والنظريات في مسألة النشأة وخلق العالم وخلق الأنواع الحية على غير مثال سابق، هو مبدأ باطل مردود بالعقل والنقل جميعا! وإنما يستجاز على دين الطبيعيين الدهرية (على قواعدهم في مصادر تلقي المعرفة) الذين يزعمون كذبا وجهلا أنه ليس في الغيب إلا نظير ما في الشهادة (وإذن فليس ثمة غيب أصلا ولا معنى للتغييب ابتداء)، وليس في أنواع الحوادث في الماضي من

الأزل وإلى الأبد إلا ما هو "طبيعي"! أما نحن المسلمين فمن أصول ديننا الإيمان بالغيب وما فيه كما في قوله تعالى: ((الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)) [البقرة : 3] وقوله تعالى: ((الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)) [الأنبياء : 49] وقوله: ((إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)) الآية [فاطر : 18] وقوله: ((إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)) [يس : 11] وقوله: ((مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ)) [قـ : 33] وقوله تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)) [الملك : 12]

فوالله لا يؤمن بالغيب حق الإيمان من اخترمه هذا الاخترام، وفتحه للقياس على ما في الشاهد، حتى جاء فيه بالخرافات والأوهام! فإنما يتلقى العلم بالغيب عند المسلمين من خبر الوحي لا غير! وما لم يرد فيه الخبر من الكتاب والسنة فالواجب التوقف فيه وتفويض العلم لله وحده! فإذا ما رجع من ذلك بالدعاوى الوهمية بشأن فعل الله وخلقه وكذا، يقول إن المسلم يجب أن يؤمن بأن الله خلق العالم وخلق ما فيه على نحو كذا وكذا، فهذا إذن جهمي ضال، يشبه الله بخلقه وأفعاله بأفعالهم لا محالة، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قال الدكتور في مزيد من "الأدلة" على "الأصل المشترك" (ص. 170): "يظهر التشريح المقارن الحلقات الوسطى بين الطوائف المختلفة من الأحياء التي ما زالت تعمر الأرض! فتجد البرمائيات (تتنفس صغارها بالخياشيم، وتتنفس الحيوانات البالغة بالرئتين) كحلقة متوسطة بين الأسماك والزواحف." اهـ. قلت: لا عجب إطلاقا في أن نرى الكائن البرمائي، فيه خصال وسطى بين الكائن البري والكائن المائي! هذه مسألة متوقعة بداهة! ولكن العجب كل العجب ممن يصر بلا أساس إلا مسلمات الدهرية الطبيعيين، على تأويل ذلك التوسط في الهيئة والبنية العضوية على أنه دليل على تطور متدرج ظهرت به هذه الأنواع كلها من أصل مشترك، والله المستعان!

وقال (ص. 171): "تعتبر "ظاهرة التماثل Homolgy" إحدى الأدلة المهمة على الأصل المشترك وحدوث التطور. ففي طائفة الثدييات مثلا، يظهر التشريح المقارن أن أفرادها تشترك في نفس عظام الطرف الأمامي، وأن هذه العظام تتشكل لتقوم بوظائفه المختلفة تبعا لنوع الحيوان، فهي تشكل جناحا في الخفاش، وزعنفة في الحيتان، وساقا في القطة، وذراعا في الإنسان" اهـ. قلت: لا جديد! ولا تزال المغالطة نفسها قائمة! فمن المتوقع أن تكون البنية العظيمة (التي بها قوام جسم الكائن الحي في مقاومة الجاذبية) متشابهة بين الأنواع المتشابهة في الهيئة وفي الوظائف، بحيث كلما تقاربت الوظائف العضوية والهيئة الخارجية ونوع البيئة التي يعيش فيها

النوعان، توقعنا إذا قمنا بتشريح البنية الداخلية أن نجدها أقرب شبها! وتوقعنا كذلك إن نظرنا في الدي إن إيه وفي الأحماض الأمينية التي تتركب منها بروتينات النوعين أن نجدها أقرب شبها! هذا كله لا دليل فيه على شيء!

وقال (ص. 171): "الأطباء على دراية بحالة تعرف بالثدي الزائد والحلمة الزائدة عند بعض النساء، وتقع هذه الأعضاء في المنطقة الممتدة من الإبط إلى أعلى الفخذ، وهي المنطقة المعروفة بخط اللبن، إذ يوجد فيها في بعض الثدييات (كالقطط والكلاب) عدد من الأثداء التي ترضع بها صغارها. لقد احتفظ جنين الإنسان بالبراعم التي تشكل الأثداء المتعددة في باقي الثدييات، وبدلا من أن تضمر كلها (باستثناء اثنين) نشط بعضها عند وصول الفتاة لسن البلوغ، وكون ثديا أو حلمة زائدة أو أكثر. كيف يدفع المعارضون لمفهوم الأصل المشترك هذا الدليل؟" اهـ. قلت: ندفعه بنظير ما دفعنا به نظيره يا دكتور! ليس في اشتراك الثدييات في كون ما يسمى بخط اللبن Milk Ridge على تلك الهيئة الواحدة (تقريبا) ما يؤخذ منه السلف المشترك إلا بالتنطع الدارويني الدهري! تشابه الوظائف العضوية في الأنواع الحية يا دكتور (إلى جانب وحدة النظم البيئية والقوانين الطبيعية) يفسر تشابه بنية الأعضاء القائمة بتلك الوظائف ومراحل نموها في الأجنة تفسيرا كافيا لكل عاقل! أما أن يقال إن تشابه الأعضاء يقتضي السلف المشترك لجميع الأنواع، فهذا ما لا يقوله عاقل!

وأما حقيقة كون الإناث البشرية قد تظهر فيها أثداء إضافية تقع على نفس ذلك الخط، فالله أعلم بالحكمة منها والسبب فيها، فنحن لا نملك ما به نفترض الحكم والأسباب والدواعي كلها الجائز وقوعها في علم الباري جل شأنه، فضلا عن أن نملك ما نستبعد به هذا الاحتمال ونرجح ذاك! والتفسير بمطلق وجود الحكمة والغاية الإلهية (سواء عرفناها نحن أم لم نعرف) تفسير علمي مقبول وكاف، وإن رغمت أنوف الملاحدة! ونقول: ألا يرد أن يكون الله تعالى قد خلق الثدييات كلها خلقا مستقلا، ومع ذلك ركب في كل نوع منها نفس تلك الآلية التي تنشأ بها الأثداء على ذلك النحو والترتيب في إناثها، ثم خلق في كل نوع من عدد الأثداء ما يناسبه، إلا ما يقع من استثناءات يقضي الله فيها بحكمته بخلق ثدي أو ثديين إضافيين يخلقان على ذلك الخط؟ ما الذي يرجح دعوى الأصل المشترك على هذا الكلام (مثلا)؟؟ والله لو لم يكن في هذه الحالات الشاذة من حكمة عند رب العالمين إلا أن يبتليك أنت وأمثالك يا دكتور لينظر ما تقولون وما تعتقدون، وما تظنون به سبحانه، لكفى به حكمة وتفسيرا!

وأما الاستدلال بما يسميه الدراونة بالأعضاء الأثرية أو الضامرة Vestigial Structures، فليس هو رجما بالغيب وضربا من التوهم على الوجه الذي بينا في الأنواع السابقة وحسب، بل إنه يزيد بكونه عدوانا على رب العالمين

وتنقصا من علمه وحكمته جل شأنه، ولست أدري كيف لا يرى الدكتور المسلم هذا المعنى، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فعندما يقال إن العضلات المسؤولة عن حركة صوان الأذن لا وظيفة لها في الإنسان، وإنما هي من بقايا تطوره من القردة العليا التي كانت تلك العضلات فيها تتحرك، كما تتحرك في القردة المعاصرة، فإن هذا اتهام ظاهر للباري جل شأنه بأنه يترك في الأنواع الحية حين يخلقها، شظايا وبقايا وأجزاء لا وظيفة لها ولا قيمة ولا غاية! فهل يرضى أحدكم لنفسه، وهو الصانع البشري المخلوق، أن يقال فيه إنه يترك في صنعته قطعا وأجزاء لا وظيفة لها ولا عمل؟؟ لا يقبلها والله، لأنها إذن تعني أنه مهمل مُضيع مفرط، لا يحسن صناعة ما يريد صناعته! فكيف جاز في دينكم أن تنسبوا ذلك التفريط والهمل لصنعة رب العالمين جل في علاه؟؟ سبحان الله وتعالى عما تصفون علوا كبيرا! يقول الدكتور في حاشية تحت هذا الموضع، بعدما ضرب مثال أذن الشمبانزي هذا: "حرصت على ألا أعطي مثالا بالزائدة الدودية أو ضرس العقل لأنه ما زال لهذين العضوين بعض من الوظيفة في الإنسان"! اهـ.

قلت: ويحك! ما أجرأك على ربك!! "مازال" لها "بعض من الوظيفة"؟! بعض من الوظيفة؟؟ حسبنا الله ونعم الوكيل! اعلم يا دكتور أن الرب الذي تعبده يوجب له العقل أن يكون عند الغاية من الكمال في خلقه ما يخلق من الأنواع الحية، من أول يوم يخلقها، فلا يجعل فيها شيئا إلا لحكمة، علمها من علمها وجهلها من جهلها! فليس في جسدك ولا في جسد غيرك من الأنواع الحية ما لا عمل له ولا وظيفة، بل له غاية عند ربه وحكمة من خلقه وجوبا وضرورة، سواء كانت تلك الغاية حيوية بيولوجية (من جنس ما تتحسسون أنتم تحسسا في محاولة استكشافه!) أو غير ذلك مما هو غيب لا يعلمه إلا هو سبحانه! وأما سفهاء الدراونة الغربيين الذين اتبعتهم أنت وقلدتهم في هذا الاستدلال وغيره، فلأنهم في الأصل دهرية لا يثبتون ربا ولا صانعا ولا غاية ولا حكمة ولا شيء بالغيب البتة، فقد جعلوا من جهلهم بالحكمة الإلهية دليلا عندهم على عدمها (على مغالطة: عدم العلم دليل على العدم)، ومن جهلهم بنظام الأشياء في الخارج دليلا على العشوائية والفوضوية واللاغائية في نفس الأمر! فإذا اكتشفوا قانونا أو نظاما سببيا ما، كان هو غاية ما هنالك من النظام في العالم Order حتى يكتشفوا غيره! وإذا لا حظوا لجزء من أجزاء الجسد في نوع من الأنواع وظيفة ما، كانت هي وظيفته الوحيدة حتى يظهر لهم غيرها! وإن أعياهم البحث عن وظيفة لجزء من أجزاء جسده، في إطار تصورهم البشري القاصر الفقير للنظام العضوي Organic Structure وللتركيب الوظيفي الملازم له عندهم، وجاء الارتقائيون بمشاهدة مفادها وجود نظير ذلك الجزء في جسد نوع مشابه، مع قيامه في ذلك النوع المشابه بوظيفة واضحة بالنسبة لهم، لم يجدوا في عقولهم الخربة ولا في دينهم الفاسد ما يحجزهم عن القول بانتفاء الوظيفة والغاية مطلقا في ذلك الجزء، وكونه لا يزيد على

أن يكون قطعة زائدة قد ورثها ذلك النوع من سلفه الدارويني المشابه دون أن يكون لها عنده وظيفة أصلا، فهي آخذة في الضمور حتى تنقرض! يؤسسون ذلك التخرص والكذب على ربهم سبحانه، على عقيدة التطور الداروينية العشوائية العمياء عندهم، التي تكتسب الأعضاء فيها الوظائف الحيوية اتفاقا، بل تصير الأجزاء أعضاء Organs بالصدفة المحضة، بلا خلق ولا تدبير إلهي!

أرأيت يا دكتور لماذا نقول إن العشوائية الوجودية متجذرة في أصل دعوى التطور من سلف مشترك، وأنها لا انفكاك لها عنها، ولا قيام لها إلا بها؟؟ لأن السلف المزعوم عندهم سلف فوضوي عشوائي لا غاية لأي جزء منه، من حيث الأصل، إلا ما يتفق اتفاقا للطبيعة أن تنتخبه ليصير عضوا ذا وظيفة ما! فإذا انتُخب جزء ما ليصير عضوا حيويا له وظيفة ما في أفراد نوع ما، ثم ظهرت طفرات عشوائية جديدة في نسل ذلك النوع، وانتخب بها منه نوع جديد، لم يكن ثم ما يوجب اختفاء ذلك العضو إذا لم تعد له وظيفة في النوع الجديد! فإن هذا التدبير لا يصدر إلا عن صانع حكيم يقدر الشيء بقدره ويضبط كل خلق على أكمل ما يحصل به المقصود من خلقه، فلا يجعل خلقه ناقصا ولا زائدا عما يتم به ذلك، لأن النقص والزيادة في الخلق عما به يحصل المقصود منه، كلاهما جهل وسوء تقدير، والله منزه عنهما جميعا! فإذا انتفى الصانع الحكيم، كان من المتصور والمتوقع على دينهم العشوائي الدهري، أن تجد في النوع الجديد (الناشئ بالتطوير العشوائي) بقايا لأجزاء لم يعد لها حاجة ولا وظيفة، يتفق لها بالصدفة المحضة أن تفقد وظيفتها فتضمر وتنقرض، بعدما كانت في سلفه لها وظيفتها وعملها! أما نحن المسلمين فنقول: الله أعلم ماذا كان لله تبارك وتعالى من حكم وغايات من خلق هذه الأجزاء التي لا ندري نحن ما وظيفتها أو لأي غاية توجد، ولماذا جعلها مشابهة لما في هذا النوع أو ذاك من أجزاء لا نظير لوظيفتها عندنا! إن منّ سبحانه علينا بشيء من العلم بذلك، فهو فضله يؤتيه من يشاء، وإلا فما أوتينا من العلم إلا قليلا، ولا نقول في ربنا إلا ما هو لائق به سبحانه من نسبة كمال العالم والحكمة له جل في علاه!

فلو كنت يا دكتور، صادقا في مطلب نزع العشوائية الوجودية من بناء النظرية، لنقضت على القوم استدلالهم بالجهل المحض في تلك المسألة الخطيرة، ولاستحييت أن تنسب فكرة "التطور" نفسها لصنعة ربك جل شأنه، ولبرئت منها بالكلية! ولكن أنت بكل أسف لا تريد إلا التلفيق للنظرية وأسلمتها بأيما سبيل اتفقت لك، وما أحسب إلا أنك تعلم تمام العلم أن انتفاء الفوضوية Chaos والعشوائية Randomness من بناء "مفهوم التطور" و"الأصل المشترك" انتفاء تاما ليس بمتصور ولا ممكن أصلا، ومع ذلك تزعم أنك قد نفيته بالكلية، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والملفت أن الدكتور يأتي في (ص. 254) من نفس هذا الكتاب، فيسفه كلام "الدراونة" في إطلاقهم عبارة أو اصطلاح "الدي إن إيه المهمل" (أو سقط الدي إن إيه Junk DNA)، فيقول: "انظر إلى اصطلاح الدنا المهمل الذي صكه البيولوجيون بعد أن وجدوا أن الشفرة الوراثية للإنسان محملة على 1.2% فقط من الدنا، فقالوا إن الباقي (98.8%) لا وظيفة له!، وأرجعوا تراكم هذه الكميات الهائلة من الدنا إلى الطفرات العشوائية، وانتهز الدراونة الفرصة، فقالوا إنه إذا كان وراء نشأة الخلية مصمم ذكي لوضع في النواة كميات الدنا المطلوبة فقط، أو لوجدنا وظيفة لهذا الدنا المهمل." اهـ. ثم يقول: "ماذا كان موقف القائلين بالتصميم الذكي؟ رأى هؤلاء استحالة أن يكون المصمم الذكي قد قام بهذا العبث وسوء الاستخدام، وأنه وضع هذه الكميات الهائلة التي لا لزوم لها من المادة الحية في نواة الخلية" اهـ. قلت: فبالله يا رجل، بأي عقل وبأي دين فرقت بين تلك الأعضاء التي لا يعلم لها اليوم وظيفة، وبين تلك الجينات التي لا يعلم لها أيضا وظيفة، فجعلت النوع الأول دليلا على صحة التطور، والنوع الثاني قولا عبثيا مشينا، لا يليق بمن سميته بالمصمم الذكي؟؟! كيف قبلت الاستدلال بالجهل في وظائف الأعضاء ورفضته في وظائف الجينات؟؟ سبحان الله! إما أن يكون الأمر كله راجعا إلى خالق عليم حكيم، ولا يكون خفاء حكمته في مخلوق ما إلا نقصا في معرفتنا نحن، وليس انعداما للحكمة والغاية Teleology في خلق ذلك المخلوق على ما نرى فيه من صفة، وإما أن يكون الأمر كله دليلا على الفوضوية والعشوائية التي تزعم أنك تنتقدها! ولكن لأن الرجل يريد أن يفاضل بين مجال البيولوجيا الجزيئية ومجال علم التشريح، فيجعل الأول فتحا علميا جديدا قد أظهر أخيرا من الأدلة على "التصميم" ما كان داروين معذورا في قوله بالعشوائية الوجودية في خلق الرحمن بسبب خفائه عليه قبل ذلك (كما هو مذهب بيهي نفسه في زعمه الإتيان بما لو عرفه داروين في عصره لقال بالمصمم الذكي!)، قبل الدكتور ذلك التفريق المفتعل السخيف، فخرج بعقيدة غيبية مغرقة في التناقض المنهجي من حيث لا يشعر، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

يرجع الدكتور (ص. 172) للاستدلال بدعوى تشابه الأجنة على الأصل المشترك، تلك الفكرة السخيفة التي لا نجد في العقل مستندا للقول بها، كما لا نجد لغيرها من صور الاستدلال عندهم، فيقول: "يعد التشابه العجيب بين أجنة كائنات الشعبة الواحدة كالفقاريات دليلا قويا على وجود الأصل المشترك" قلت: أولا لا نسلم بالتشابه! والصورة التي نقلها الدكتور في كتابه (ص. 172، شكل 4) تحت عنوان "النشأة الجنينية للفقاريات"، تقارن بين سكتشات إرنست هيكل المختلقة، وبين ما ذكر الدكتور أنه "صور فوتوغرافية حديثة"، مقارنة يظهر منها بجلاء أن التشابه الشديد الذي زعمه هيكل لا حقيقة له إلا في خياله، ومع ذلك كتب الدكتور تحت الصورة تعليقا قال فيه:

"يعترض أنصار الخلق الخاص بأن هذا الشكل تم فبركته من قبل التطويريين (أعلى)، ونرى هنا أن الصور الفوتوغرافية الحديثة لهذه المراحل من الأجنة تثبت هذا التشابه (أسفل)." اهـ.! فلا أدري والله أي تشابه يقصد! لا تشابه ولا شيء، إلا إن كان المقصود بالتشابه استطالة المضغة بين رأس وذنب وانحناءها مع بعض التجاعيد، وهذا لا يخدمه بشيء، لأننا نتكلم عن مضغة على أي حال، تسبق خلق الأعضاء والأجزاء على نحو متميز من بعضه البعض!

ثانيا: إن سلمنا بالتشابه، بل بالتطابق في شكل المضغة، فما وجه الدلالة في ذلك على رجوع جميع الفقاريات إلى أصل واحد وسلف مشترك؟؟ لا وجه على الإطلاق! لا على المنطق الدارويني ولا على منطق العقلاء الأسوياء! فلا علاقة أصلا بين مراحل نمو الجنين وبين الأصل الذي خلق منه النوع لا إثباتا ولا نفيا، ولا تفسيرا ولا تعليلا!

ثم يأتي الدكتور بعد ذلك بجملة من "الأدلة الحفرية" المشهورة، ليخرج من ذلك كله بأن مفهوم التطور من سلف مشترك هو حقيقة علمية لا مناص من القول بها! فهذه يا عقلاء المسلمين هي منزلة "أدلة" دعوى التطور من سلف مشترك (التي هي أدلة نظرية داروين بعموم)، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد!

فصل في قولهم: ولكن فكرة الانتخاب الطبيعي فكرة بدهية ظاهرة، فكيف تريدون إبطالها؟

وقد يقول قائل القوم إننا لا نقصد بالانتخاب الطبيعي إلا "حقيقة" أن الصفات الوراثية التي يتفق أن كانت الظروف البيئية المحلية للنوع الحي لا تسمح بالبقاء إلا للمخلوق الموصوف بها، على أساس أنه يصبح لحملتها فرصة أكبر للتناسل والتكاثر ممن لا يحملون تلك الصفات، ومن ثم تفشو تلك الصفات وتنتشر بالتدريج في الحوض الجيني للنوع في هذه البيئة المحلية أو تلك. فإذا كان هذا هو مقصودنا، فلا يسعكم إبطال قولنا بالانتخاب الطبيعي، لأن هذه مسألة ظاهرة Trivial لا تحتاج إلى إثبات بالاستقراء في أنواع المخلوقات! فمثلا لو كان لدينا رجلان، رجل لديه جينات تجعله قوي البنيان، طويل الجسد، منبسط الخلقة، ورجل جيناته تجعله ضعيفا قصيرا هزيلا، فإن الأول تكون لديه فرصة لمعاشرة النساء ومن ثم التناسل ونقل الذرية، أعظم من الثاني، بالنظر إلى كون النساء تنجذب إلى الرجل القوي فوق ما تنجذب إلى الرجل الضعيف، وكذلك فإن الأول تكون فرصته لأن يسلم من مخاطر الكائنات المفترسة أعظم من الثاني، وقدرته على حماية امرأته وذريته أعظم من الثاني، ومن ثم تكون فرصة انتشار جيناته عبر النسل والذرية أعظم من فرصة جينات الثاني في أن تنتشر! فإذا عممنا ذلك على جميع من كانت لديهم جينات الرجل الأول، أصبح من المترجح لدينا أن يكون انتشار جينات الرجل الأول أعلى وأوسع بكثير من انتشار جينات الرجل الثاني! فهذا المعنى

الظاهر البدهي هو ما نسميه "بالانتخاب الطبيعي" أو إن شئت فقل الانتخاب البيئي، وكأن الطبيعة والظروف البيئية قد "انتخبت" جينات معينة للانتشار والاستقرار في الحوض الجيني!

ويقال في جواب هذا الاعتراض إن هذا الذي تقوله ليس مما نسلم به فيما هو محسوس من أمر التكاثر والتناسل في إطار النوع الواحد كما هو مشاهد اليوم، فكيف به وقد جعلتموه منشأ الأنواع كلها في ذلك الغيب الزماني المحض؟ اعلموا – هداكم الله للحق - أن الانتخاب الطبيعي إذا اتخذ كأساس (أو آلية) لنشأة الأنواع كلها، فلن يكون له معنى حتى يعتقد من يقول به أن الأصل في التكاثر في الحشوة الحية أنه كان ينشئ ذريات مشوهة معيبة Defective Offspring فاقدة أسباب البقاء أو على الأقل أسباب التناسل والانتشار، حتى اتفق للطفرات أن تأتي أخيرا في فرد من أفراد ذلك النسل المأساوي الفاشل بصفة جديدة أو وظيفة جديدة ترقى به لأن يكون صالحا للبقاء كنوع حي Species، ومن ثم يكون وكأن الطبيعة قد انتخبته للبقاء، خلافا لبلايين الهلكى من قبله! وإن قدر أن ظهرت فيه طفرة أظهرت فيه وظائف أخرى وكان مع ذلك صالحا للبقاء كسلفه، تنوع إذن وأصبح لدينا نوعان تنتخبهما الطبيعة معا! ثم إذا ما تغيرت أحوال البيئة بصورة ما أو بأخرى كان الأصل أن يفني كل نسل وينقرض كل نوع حتى يتفق لهذا النوع أو ذاك أن تظهر فيه طفرة نافعة تؤهله لأن يبقى ويتكيف على الوضع الجديد، وهكذا! ولهذا فلا انفكاك للقائلين بالانتخاب الطبيعي عن القول بالعشوائية الوجودية والفوضوية الخلقية المحضة، لأنه إذا كان الأصل في خلق الكائنات الحية بعضها من بعض، أنها تخلق هملا وعبثا وقصورا حتى يتفق لها من الطفرات ما ينقذها قبل فوات الأوان، فأي شيء يكون ذلك إلا محض الجهالة والعمى؟ مع أنهم يرون بجلاء أن الأصل في التكاثر والانتشار الحيوي في جميع الأنواع السلامة والمواءمة، وليس الفوضوية والهمل والهلاك، وإنما يولد المولود المشوه استثناء لحكم وغايات عند باريه علمها من علمها وجهلها من جهلها! أما على مبدأ الانتخاب الطبيعي فيلزم أن يكون الأصل هو العشواء والهمل حتى يقدر لآحاد المواليد أن تنتخب لظهور صفات جديدة فيها تؤهلها للبقاء!

لذا نقول – ونكرر – إن من قال إن الله يخلق بالانتخاب الطبيعي و"الطفرة الإلهية" أو "التدخل الإلهي"، فقد سب رب العالمين وأعظم عليه الفرية، إذ جعل العشوائية والفوضوية هي الأصل والمبدأ، حتى يحصل "التدخل" المزعوم، فحينئذ وحينئذ فقط يصبح في الكائن الحي شيء من الملاءمة والموافقة لشروط البقاء النوعي والاستقرار في الأرض، فسبحان الله وتعالى علوا كبيرا عن أن يكون خلقه بالطفرات أو بالانتخاب الطبيعي كما يعتقدون!

ثم إن باب انتشار الصفات الوراثية وانحسارها في الأنواع ليس بهذه السذاجة والاختزالية في التصور التي جاء بها داروين وتابعه عليها أتباعه! وليست نمذجته أو تتبعه مما يقدر الإنسان عليه مهما تكلفه، ومهما أوهمته لغة البرمجة الحاسوبية المتحصلة لديه وقدرات الحواسب بين يديه بأنه قد بات قادرا عليه! وهذا أمر قد تنبه إليه المعاصرون منهم وهم راغمون! فإن كان من شيء يتفق عليه دراونة العصر في إطار الداروينية الجديدة Neo-Darwinism فهو أن الانتخاب الطبيعي لم يعد هو أول ولا أهم الآليات التي تفشو بها الصفات الجديدة في النظام الحيوي! فلأنهم عجزوا عن تتبع الأسباب – بطبيعة الحال – في مسألة الانتشار هذه، قد أدخلوا عامل الفوضى والعشواء من مدخل جديد بالإضافة إلى مدخل الطفرة، سموه بالانزياح الجيني Genetic Drift، حيث يتفق لحملة الجينات الجديدة أن تمنعهم الظروف من التناسل، أو أن يموتوا قبل أن يتناسلوا، أو أن ينتشروا في الأرض انتشارا لا يمكن التنبؤ به، وبالتالي يترتب على ذلك تغير معدلات انتشار جيناتهم الجديدة في الحوض الجيني على نحو لا يمكن التنبؤ به! وهو ما من شأنه أن يؤثر على مسيرة الارتقاء المزعومة تأثيرات عظيمة لا علاقة للانتخاب الطبيعي بها على الإطلاق! فإذا ما عزي ذلك الأمر إلى المزيد من الفوضوية والعشوائية الوجودية المحضة، هدأت نفس الدارويني بذلك ونام قرير العين، متوهما أنه بذلك قد أسقط اعتراضات العقلاء على أصول النظرية ومسلماتها الأولى، والله المستعان!

فنقول تعقيبا على المثال المضروب في الاعتراض المذكور آنفا، إن أول ما يظهر للمتأمل في هذه المسألة هو أن النظام الحيوي الإيكولوجي الجاري في بيئة محلية معينة، ليس المخلوق الواحد فيه محصورا في هذا الجين المعين الذي ضرب به المعترض الدراويني المثل! أي أنه إن قدر أن كان الرجل الأول فيه صفات تمكنه من أسباب التناسل والتكاثر كصفة القوة والطول وكذا، فلا يسلم من أن يكون فيه كذلك من الصفات الداعية لنفور النساء اللاتي يواطنهن في بيئته المحلية ما يغلب تلك الصفة، أو على الأقل يعادلها في تقديرهن، فينفرن منه كلهن ولا يقبلنه! وكم رأينا من رجل عظيم الجسد وهو مع ذلك دميم الخلقة – مثلا - أو خفيف العقل أو رديء الخلق أو سيء المعشر! وكم رأينا من رجل قصير ضئيل الجسم هزيل البنيان، وهو مع ذلك نابغة واسع المكر والدهاء، يخلب ألباب النساء إذا خاطبهن، ويدري كيف يحميهن ويحفظ ذريته من الأخطار بالحنكة وحسن التدبير والتخطيط! فما مرجح التناسل ونسخ الجينات الذي يرجح حصوله على عدمه والحالة هذه؟ وإذا كان هذا يقال في صفتين ثنتين، فكيف بعشرات بل مئات الصفات، التي يركب المخلوق بها في بيئته تركيبا لا يحيط بأسبابه إلا خالقه وحده؟! وكيف وعلى أي أساس يصح لأحدهم أن يقول إن الفرد الفلاني من النوع الفلاني الموصوف بصفة كذا وكذا، يتمتع بفرصة أعلى Higher Probability

للتناسل ونقل جيناته ممن لم تحصل له تلك الصفات؟؟ أو بعبارة أخرى: ما معيار "الانتخاب" والحالة هذه، وعلى أي أساس يقال به، سواء سموه انتخابا طبيعيا أو انتخابا جنسيا أو غير ذلك؟ وعلى أي أساس يستعمل منطق الترجيح الاحتمالي نفسه من الابتداء، وكأنما تحصل لدينا استقراء لحالات هذه صفتها، قد علمنا أنها لم تتناسل بسبب تلك الصفة أو غيرها؟؟ وكيف يكون هذا المسلك الاختزالي الفاحش طريقا مقبولا للحكم على آحاد الأنواع، ولو نظريا، بالصلاح للنظام البيئي الذي تستوطنه أو بعدمه؟! سبحانك هذا بهتان عظيم!

هذه هي الأسئلة المنهجية الكلية التي لا يتدبر فيها مسلم عاقل سالم من الأهواء إلا قطع بسخافة فكرة "الانتخاب الطبيعي" هذه وتهافتها أشد ما يكون التهافت!

فإن قالوا: ولكننا نرى الانتخاب وهو يحدث تحقيقا عبر أجيال النوع الواحد، فنرى الصفات تنتشر أو تنحسر تحت تأثير الظروف البيئية المتغيرة، قلنا لهم: هذا الذي ترونه ليس انتخابا على ذاك المعنى الدارويني الاختزالي الوقح ولا على أي معنى! وإنما هو تغيير وتكييف رباني يقضيه رب العالمين ويقدره تقديرا، حتى تتوافق صفات النوع الحي مع صفات البيئة التي يعيش فيها بعد تغير البيئة، ليبقى ملائما لها مناسبا لأحوالها كما كان قبل تغيرها، إلا أن يقضي بحكمته وتقديره لنوع من الأنواع أن ينقرض، فحينئذ يسبب له من الأسباب والمتولدات السببية ما يفنيه على النحو الذي اقتضته حكمته سبحانه! وهي متولدات وأسباب لا يحصيها إلا باريها جل شأنه! فلربما أفناه على عدة أجيال، يقلل من معدلات الانتشار والتكاثر بين أفراده بأسباب تحول دون سهولة التناسل فيما بينهم، بما قد لا يرجع منه شيء إلى حال النظام البيئي نفسه البتة (ومنه ما سماه الدراونة الجدد بالانحراف الجيني Genetic Drift على سبيل المثال، ونسبوه إلى الصدفة الوجودية المحضة!) ولربما أفناه في جيل واحد على أثر حادث بيئي ما، كحريق في غابة أو فيضان أو نحو ذلك، تفنى معه الطعمة التي يطعمها، أو يعدم معه المأوى الذي يؤويه أو غير ذلك من أسباب هلاكه، وهو ما جميعه يجري على ميزان بيئي شديد الحساسية، لم يزل النظام الحيوي محفوظا بكليته بحفظه وضبط مقاديره بعلم وحكمة لا تحيط بها عقول البشر! فلا يقال في الجينات التي قدر أن انحسرت في الحوض الجيني لنوع من الأنواع إن "الطبيعة لم تنتخبها" للانتشار، ولكن يقال إن الرب جل في علاه قد قضى بحكمته وبترتيبه وتقديره الإلهي الشامل، أن ينحسر انتشار تلك الصفة مع بقاء النظام الحيوي جاريا على اتزانه، وبقاء جميع أجزاء البيئة المخلوقة جارية على أحسن ما يحصل به المراد المقصود من خلقها! فالنظام لم ينتخب شيئا، ولا يتعلل بقاء النوع أو انقراضه تعللا تاما بحال النظام، وإنما يقوم على أمر النظام نفسه من يقوم على أمر الأنواع الحية فيه، فإذا عدل الرب في النظام البيئي شيئا ما أو حوله أو بدله،

واقتضت حكمته جل وعلا أن يبقي على الأنواع الحية التي تعيش في ذلك النظام، قضى في تقديره تعديل وتغيير صفات تلك الأنواع بما لا نقدر نحن البشر على الإحاطة بأسبابه ومتولداته وما وراءه من الحكم والمقاصد عنده سبحانه!

فإن قالوا: ولكن على هذا المعنى يظل حال النظام سببا في الانتشار والانحسار، وهو ما نعبر نحن عنه بالانتخاب، قلنا: هذه مغالطة في فرض السبب والمسبب وفي تقرير من الذي انتخب! وإلا فنحن نقول إن تغير النظام الحيوي وتغير النظام البيئي والظروف البيئية معا، على نحو يحصل به التكيف الذي يكتب به للنوع الحيوي البقاء، كلا التغيرين يرجع إلى أسباب سابقة عليهما جميعا، فيقال إن الحرارة قد ازدادت ارتفاعا وكذلك قد انتشرت الجينات التي تمكن هذا النوع أو ذاك من تحمل تلك الحرارة المتصاعدة في بيئته أو انحسرت الجينات التي تعجزه عن تحملها والصبر عليها، في نفس الوقت، لأن الرب تبارك وتعالى قضى في حكمته وتقديره أن يجري أمورا معينة في تلك البيئة وما فيها، إن لم يكن في عموم العالم بجملته، تتطلب ذلك التغيير. فعلى هذا المعنى السالم من اختزالية الدراونة الفاحشة ومن الحتمانية الجينية Genetic Determinism عند الدراونة الجدد خاصة، والحتمانية الفزيقية Physical Determinism عند الدراونة بعموم، يسقط معنى الانتخاب بالكلية! والواقع أن ما نشهده – في حدود مشاهدتنا الضيقة للغاية – من تغيرات الأنواع الحية وما يواطئها من تغيرات في النظام البيئي الذي تعيش فيه تلك الأنواع، لا يمكن الحكم بأيهما تقدم زمانيا على أي إلا في القليل النادر، فمن أين يأتي الحكم بأن الطبيعة لابد أن تكون هي التي "تنتخب" أو تكون سببا في ظهور التغير في الحوض الجيني؟

ليست المسألة بهذه السذاجة التي عبر عنها بعضهم بقوله "البقاء للأصلح"! بل لا يخلق النوع الجديد إلا وهو الأصلح بالضرورة، إذ العقل والفطرة توجب في مقتضى كمال صفات الباري جل شأنه ألا يصلح في محل المخلوق – أي مخلوق - للغاية التي خلق من أجلها غيره، فكل مخلوق هو الأصلح لما خلق له بالضرورة! وهو يبقى على هذا الوصف ما دامت حكمة الله تعالى تقتضي بقاءه في الأرض واستمراره في التكاثر والانتشار! فالصواب أن يقال: "الأصل بقاء الجميع إلى أجل مسمى، والزوال لما اقتضت حكمة الرب أن يقدر له أسباب الزوال"، وإلا فكل ما كتب له البقاء فهو على "أصلح" ما يكون وأضبط ما يكون للغاية التي من أجلها خلق، فلن ترى في العالم في أي لحظة من لحظات الزمان إلا أن جميع الأنواع الحية صالحة نوعا للبقاء (إجمالا)، حتى يقضي رب العالمين في نوع من الأنواع أن ينقرض، فيسبب له أسباب الانقراض، مع تعديل النظام الكلي بما يحفظ له اتزانه حتى بعد انقراض ذلك النوع من المحلة التي ينقرض منها! فمن فهم المسألة على أنها

نظام بالغ التركب، بالغ التعقد، تتراكب متولداته السببية على نحو لا يطيق العقل البشري مجرد الابتداء في طلب تصوره، وهو يتحرك بكليته على وفق إرادة وتقدير وحكمة رب حكيم عليم بالغيب، يجري السنن السببية كلها على وفق إرادته، من فهم هذا الفهم البدهي الفطري لسلطان رب العالمين على خلقه، فلن يقبل أن يختزل مسألة انتشار الصفات الوراثية التي تنتشر وانحسار ما ينحسر في دعوى أن البيئة تنتخب الأصلح، أو أن الأمر إنما يتفق اتفاقا By Chance!

يجب أن يفهم المسلمون أن الأصل عند الدراونة أن المخلوقات تخلق هملا، بلا ترتيب إلهي ولا تقدير إلهي (ولا غير إلهي!) لأعمارها وقدراتها على التناسل وأسباب انتشارها في البيئات التي تنتشر فيها، وأسباب توافقها وتكيفها مع تلك البيئة، وأسباب نجاة من ينجو منها من الأنواع المفترسة التي تتغذى على مثلها، وكذلك أسباب تمكن تلك الوحوش المفترسة نفسها من أن تحصل على بعض حظها من الرزق بالتهام من توفق لالتهامه منها، رزقا مقدرا مكتوبا، ومعدلات الهلاك ومعدلات التكاثر والإنجاب، وغير ذلك من مسائل كثيرة جدا يعجز العقل عن إحصائها مما نقطع نحن بأن رب العالمين لا يخلق النوع إلا وقد قدرها كلها له أحسن التقدير وأحكمه بما تحصل به كافة المقاصد والحكم من خلقه حيث خلقه هو وغيره من أنواع خلقه! هذه كلها قضايا لا تنتظم عند أتباع داروين على نظام إلهي شامل، ولا غاية Telos ولا حكمة، وهذا هو مفهوم الصدفة الوجودية Ontological Chance التي توهم بعض دراونة أهل القبلة (كما توهمه كثير من اللاهوتيين النصارى في أمريكا وغيرها) أن القول بآليات داروين (وما أضيف إليها من آليات الدراونة الجدد) لا يقتضي إثباتها في أصل النظام الحيوي والطبيعي! فإن شئت أن تشخصها تلك الصدفة الوجودية تشخيصا صحيحة، فلك أن تسميها باللاغائية الوجودية Ontological Ateleology، بمعنى أنه ليس في شيء مما يخلق في العالم غاية ولا مقصد غيبي من وراء خلقه، ولا ترتيب ولا تقدير سابق ولا شيء من ذلك، ولا يقع حادث من الحوادث في العالم لعلة أو غاية أو مشيئة أو حكمة إلهية البتة، لأنه ليس في الغيب إله أصلا حتى تكون له غايات وتقدير كلي وترتيب رباني لجريان الحوادث في العالم وتولدها عن أسبابها!

قال ألفين بلانتينغا Alvin Plantinga في كتاب له بعنوان "أين يكمن الاختلاف حقيقة: العلم والدين والطبيعية" Where the Conflict really lies: Religion, Science and Naturalism:

> فعلى سبيل المثال، من الممكن أن يكون الإله قد أحدث أسباب ظهور الطفرات الصحيحة في الوقت الصحيح، وقد يكون حفظ أمم الأنواع الحية من الأهوال على اختلاف أنواعها، وهكذا، وبهذه الطريقة فقد يكون رتب التراتيب اللازمة حتى يظهر في الوجود تلك الأنواع

التي أرادها. وقد تتساءل عما إذا كانت الطفرات الجينية العشوائية من الممكن أن يكون الإله هو من أحدث أسبابها: فإذا كانت تلك الطفرات عشوائية Random، ألا تكون إذن مجرد مسألة "صدفة" Chance؟ ولكن العشوائية Randomness، كما يفهمها البيولوجيون المعاصرون، ليس لها هذا المقتضى. فبحسب إرنست ماير Ernst Mayer، عميد بيولوجيا ما بعد الحرب العالمية الثانية "عندما يقال إن طفرة ما أو تنوعا ما عشوائي Random، فإن العبارة إنما تعني أنه ليس ثمة توافق ظرفي correlation بين إنتاج الأنواع الجينية الجديدة genotypes، وبين الاحتياجات التكيفية للكائن الحي في بيئة ما." ويعبر إليوت سوبر Elliott Sober، أحد أحظى فلاسفة البيولوجيا المعاصرين بالاحترام، تعبيرا أكثر حذرا بعض الشيء، فيقول: "ليس ثمة ميكانيكية فزيقية Physical Mechanism (سواء داخل الكائنات الحية أو في خارجها) تقرر أي الطفرات سيكون أنفع للنوع، ومن ثم تتسبب في إحداثها" ولكن كونها عشوائية بهذا المعنى، من الواضح أنه متناسق compatible مع كون الإله هو السبب فيها.

قلت: فلا أدري كيف توصل بلانتينغا إلى قبول هذين التعريفين للعشوائية Randomness في النظام الحيوي، وإلى التسليم بأنهما لا ينافيان وجود الرب الذي يفترض هو في أهل الملل المثبتة للصانع أنهم يؤمنون به! فهو يزعم أن اليهود والنصارى والمسلمين (الذين جرى كلامه هو وغيره من اللاهوتيين على جمعهم تحت اسم Theists) يتفقون على إثبات صانع كامل العلم Omniscient كامل القدرة Omnipotent لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء عن تحقيق ما يريد! هذا في زعمه هو القدر المتفق عليه بين أصحاب الأديان الكتابية المثبتة للرب جل وعلا! فعندما يقال إن الأنواع الحية إنما تظهر فيها الصفات التي لا بقاء لها في الأرض ولا تكيف ولا تأقلم مع البيئة التي خلقت منها إلا بها، بطفرات عشوائية Random لا يترابط ظهورها مجرد الترابط الظرفي correlation فضلا عن الارتباط السببي causation بتلك الدواعي التكيفية الكبرى وبمتطلبات البقاء في الأنواع التي تظهر فيها تلك الطفرات، فبالله أي معنى يفهم من هذا إلا تجهيل ذلك الصانع والحط على علمه وقدرته، إذ ينسب إليه أنه إنما يحدث الطفرات عبثا من غيرما تقدير ولا حكمة ولا علم البتة، فإن اتفق لتلك الطفرات أن أصابت سببا للبقاء أفلحت صنعته إذن وبقي المخلوق وإلا بقي الأمر على أصله في ميلاد المخلوقات الحية بأيما طريق من طرق التكاثر: فشل الصنعة وفشل الصانع؟؟ فالنظرية على أركانها الكلية الثلاث (الطفرة والانتخاب والتغيرات التدريجية على ذرية أصل مشترك) تنفي الحكمة والغائية عن أسباب نشوء الأنواع نفيا جذريا وتضع العشواء الوجودية والحدوث الأعمى Blind Eventuality في محل ذلك! ذلك أن الطفرات التي تعلل بها نشوء الأنواع

كلها في الأرض بزعمهم، هي على هذه الآليات، غير منضبطة في ظهورها على غاية ولا نظام البتة، فمهما كان المخلوق مفتقرا إلى أسباب البقاء في بنائه العضوي والحيوي، فإن الطفرات لا تأتيه بما يحقق له أسباب البقاء كنوع حي له صانع بالغيب يملك ناصيته ويدبر أمره ويرزقه من السماء والأرض، له حكم وغايات ومقاصد من خلقه ومن منحه القدرة على التناسل والتكاثر في الأرض! وإنما الأصل أن يظل مفتقرا لأسباب البقاء ويهلك أكثر أفراد نوعه حتى ينقرض، إلا أن يتفق له اتفاقا أن تظهر فيه طفرة تمكنه من التكيف – على نقص وخلل وفساد يظل متجذرا متأصلا في بنائه وصنعته – ومن ثم "ينتخب"، ويصبح نوعا أحسن أو أرقى من سابقه!

فمن محض السفسطة أن يرام التوفيق بين هذا المعنى للعشوائية في أسباب نشوء الأنواع الحية على الأرض، وبين أفعال الرب كامل العلم كامل الحكمة والقدرة، الذي يزعم بلانتينغا أنه هو وعامة أهل الكتاب يثبتونه كما نثبته نحن المسلمين! والواقع أن بلانتينغا – كعامة النصارى – قدري جلد، لا يثبت للرب تقديرا سابقا ولا خلقا لأفعال البشر، بل يرى ذلك مقتضيا الجبر ونفي الخيار الحر عن بني آدم، كما بيناه في غير هذا الكتاب عند نقدنا برهانه المسمى "بدفاع حرية الإرادة" Free Will Defense في رده على ماكي وماكلوسكي وغيرهما في مسألة "مشكلة الشر". والقدرية بعموم لا يرون بأسا في إخراج شطر عظيم من حوادث العالم عن إرادة باريه وخلقه وسلطانه، مع زعمهم في نفس الوقت - وفي تناقض بين – أن تلك الحوادث "الحرة" لا تأتي في النهاية إلا بما سبقت به إرادته وحكمته! فهي عندهم حوادث مخلوقة وغير مخلوقة في نفس الوقت! ونفي الخلق عنها هو معتمد المذهب بطبيعة الحال، فيكون زعمهم أنها مع ذلك "موجهة" Guided أو خاضعة لإرادة الباري وحكمه بصورة ما أو بأخرى، ضربا من الكذب وذر الرماد في العيون! والقصد من ذكر هذه المسألة، بيان أن الصانع الذي يثبته بلانتينغا ويؤمن به ليس هو رب العالمين الذي نؤمن به نحن الموحدين المسلمين، وليس هو الرب الذي جاء بخبره المرسلون، الذي دلت الفطرة قبل السمع على وجوب ألا يخرج شيء من حوادث العالم عن علمه وخلقه وإرادته وتقديره، ولا يخرج شيء من ملكوته وسلطانه، سبحانه وتعالى! وإنما هو رب الثنوية المجوس، الذي خلق النور والخير وترك الشر والظلمة للبشر يخلقونه أو للشيطان يخلقه من دونه! وهو رب منزوع عنه كمال القدرة والملكوت، قد جعلوا له شريكا في الخلق والحكم على حوادث العالم (من حيث المبدأ)! ولولا هذا ما استساغوا أن يقبلوا مذهبا طبيعيا يقتضي قبوله إخراج كافة حوادث الحشوة الحية Bioshpere Events عن سلطان رب العالمين، ثم أقحموا فيه فعل الرب على سبيل "التدخل" intervention من آن لآخر بخلق "طفرة" مفيدة هنا وهناك، تدرك بعض تلك المخلوقات البائسة قبل أن

تفنى كلها، ولعلها "توجه" ارتقاءها المزعوم إلى وجهة معينة قد سبقت بها إرادته!

والواقع أن من طوائف النصارى المعاصرين – على قدريتهم جميعا – من يرفض نظرية داروين بالكلية، ولا يقول لا بالتطور الموجه ولا بالتصميم الذكي ولا بشيء من تلك النظريات الجهمية، والسبب في ذلك هو حرصهم على إثبات نصوص كتاب الخلق Genesis عندهم على ظاهرها دون تأويل، وهؤلاء غالبا هم من يقال لهم "خلقيو الأرض الشابة" Young Earth Creationists، الذين يعتقدون من الابتداء أن العالم لا يجاوز عمره بضعة آلاف من السنين (كما هو ظاهر النص عندهم) [6]، فلا سبيل عند هؤلاء لقبول الميثولوجيا الداروينية التاريخية الطويلة في أصل الأنواع أيا ما كانت تفاصيلها، لأن عمر الأرض عندهم لا يتسع لها من الأساس! فحسم القوم أمرهم على رفض النظرية بالكلية، ولم يلتفتوا لشيء منها! وهم على أي حال قلة لا تكاد ترى لها صوتا أو وجودا إلا في بعض ولايات الجنوب في أمريكا، وفي بعض المراكز البحثية الممولة تمويلا مستقلا ولها بعض المواقع على الشبكة، فلا تمثل كنيسة من الكنائس الرسمية ولا تمثل الاعتقاد السائد عند النصارى الغربيين في هذا العصر.

وأما التعريف الثاني الذي ساقه بلانتينغا وزعم أن صاحبه كان فيه أكثر حذرا، فيقرر في معنى العشوائية في الطفرات التطورية، دعوى افتقار آلية التطفر تلك لنظام فزيقي يقرر أي الطفرات يكون أنفع للنوع الحي! فالظاهر أنه تعلق بقوله "نظاما فزيقيا" Physical Mechanism عند النفي ليقرر أن التعريف لا يلزم منه نفي النظام الميتافزيقي أو الإرادة والعلم عند صانع بالغيب! والواقع أن من فهم الطريق الذي توصل منه صاحب التعريف إلى وضعه، وهو نفس الطريق الذي به وضعت النظرية نفسها على يدي داروين ووالاس، فسيفهم أن هذا النفي وإن كان المنصوص فيه على النظام الفزيقي الذي يحدث الغايات والخطط ويوجه الطفرات لمنافع المخلوقات، إلا أنه يشمل كل فاعل ذي غاية وإرادة وتدبير خلف تلك الطفرات المزعومة بالنفي المطلق، يستند في تقريره إلى تأويل المشاهدات المستفيضة التي كان ولم يزل يستعملها الدراونة في إثبات آليات نظريتهم! فإذا كان الأصل في واقع النظام الحيوي أنه لم تنشأ فيه الأنواع إلا بالعشواء الوجودية، فليس المنفي إذن هو المنشئ الفزيقي الذي تنشأ عنه العلل والغايات وحسب، وإنما المنفي هو كل فاعل ذي إرادة وفعل وتوجيه وراء النظام الحيوي أيا ما كان نوعه، في هذا العالم أو فيما وراءه، وهذا واضح!

فعندما يكون هذا هو أصل المفهوم الدارويني لعمليتي التطفر والانتخاب، ومن ثم الأساس الذي بنيت عليه أسطورة التاريخ الطبيعي كلها من أولها إلى آخرها، فلابد أن من يثبت هذا الأصل أو يقبل تلك الأسطورة، فلا يثبت حكمة

ولا علما ولا عقلا ولا غائية غيبية ولا غيب أصلا، ولا يجتمع له أن يثبت فاعلا في الغيب وراء تلك الآلية العشوائية أيا ما كانت صفته، إلا أن يكون هو الصانع الأعمى الذي وقعت منه أسباب ظهور الحياة على الأرض اتفاقا، ثم جرت بعد ذلك بلا نظام ولا غاية ولا علم ولا حكم ولا سلطان ولا شيء! فإن أثبته – كما هو مذهب بلانتينغا وأتباعه – لزمه بالاقتضاء الضروري الظاهر أن يجعله صانعا جاهلا ناقص العلم والقدرة، يخلق بالتجربة والخطأ وضرب العشواء، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا!

وعلى أي حال فلن تجد تعريفا عند البيولوجيين للعشوائية Randomness إلا كانت حقيقته – بالضرورة – نفي العلم والحكمة والتدبير الإلهي بالغيب! ثم إنك لن تجد مجالا من مجالات البحث الطبيعي يحرص أصحابه على توقيع جهالاتهم واختزاليتهم وقصورهم المعرفي في تصوير وتوصيف الواقع، على الواقع الخارجي نفسه (تحويل الصدفة المعرفية Epistemic Chance إلى صدفة وجودية Ontological Chance، أو تحويل عدم العلم بالأسباب والغايات والحكم والوظائف وكذا، إلى علم بالعدم!)، كمجال علم الأحياء المعاصر، في ظل البارادايم [7] النيوداروينى. فواقع الأمر أن التعريفات الأولى التي بها أسس داروين نظريته إنما وضعت بحيث تكون النظرية بديلا طبيعيا يغني أصحابه عن القول بأن المخلوقات الحية مخلوقة على الحقيقة! أي أن العشواء أو الفوضى الوجودية تعد ركنا من أركان البارادايم التطوري نفسه Evolutionary Paradigm! وهذا ما لم يفهمه بلانتينغا كما لم يفهمه أكثر جهمية أهل القبلة!

أنا لا أدري والله كيف يرتضي عاقل ينتسب إلى ملة تثبت هذا الذي زعم بلانتينغا أنه هو وسائر أهل الكتاب يؤمنون به، ثم هو مع ذلك ينسب إليه نظاما حيويا قد انقرض فيه ما يربو على تسع وتسعين بالمئة من الأنواع التي ظهرت على وجه الأرض عبر بلايين السنين؟؟ كيف يرتضي أن ينسب إلى ربه صنعة الأصل فيها الفوضى والضياع والهلاك إلا لما اتفق له اتفاقا أن يبقى منها في الأرض؟ لا عجب إطلاقا أن نسمع أمثال هاريس والهالك هيتشنز وغيرهما في كل مناسبة يتهمون خصومهم من اللاهوتيين بأنهم يعبدون إلها عابثا فوضويا Capricious لا يستحق أن يعبد، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا! هذا ما يقتضيه إصرار القوم على إدخال الأسطورة الداروينية في عقيدتهم الغيبية ونسبتها إلى فعل الباري جل شأنه، لكنهم قوم لا يعقلون! فإنه ليس في العقل السوي متسع لنسبة الفوضى والعشواء الوجودية المتجذرة في حوادث النظام الحيوي – بزعم الدراونة – إلى رب حكيم عليم يضع الشيء في موضعه، ولا يخرج عن سلطانه شيء في الأرض ولا في السماء! ولا متسع كذلك للبقاء على الأسطورة الداروينية مع نزعها عن مسلماتها ومقدماتها الكلية الدهرية التي لا تقوم إلا بها!

فلولا نفي داروين للعاملية الغيبية والغائية الإلهية والتقدير الرباني السابغ هذا، الذي لا يخرج عنه شيء في هذا العالم ولا يستثنى منه حادث من حوادثه قل أو كثر، الذي عبر عنه رب العالمين في مثل قوله: ((الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)) [الفرقان : 2] وقوله: ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)) [السجدة : 7] وقوله: ((الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)) [الأعلى : 2-3] وقوله: ((قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)) [طه : 50] وقوله: ((مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) الآية [هود : 56] وقوله: ((صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)) الآية [النمل : 88] وقوله: ((الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ)) [الملك : 3-4] إلى غير ذلك في معناه، لولا نفي داروين هذه القضية وكفره بها كلية، واستصحابه أصل الدهرية الطبيعيين في النظر في الغيبيات المحضة (الطبيعية المنهجية أو المعرفية Methodological Naturalism) ما ألف كتابه الأشهر "في أصل الأنواع" رجاء التوصل إلى تفسير آخر لنشأة الأنواع بخلاف الخلق الإلهي، مقررا أن الأمر كله إنما يرجع سببه الأول إلى نشوء "أبسط" الأنواع على الإطلاق وأفقرها في التعقد والتركب العضوي، من جملة حوادث طبيعية اتفق لها أن أحدثته وخلقت الحياة في جثته الميتة، واتفق له اتفاقا أن لاءم تركيبه البيئة التي ظهر فيها فتناسل وانتشر ولم يهلك، ثم اختزل تفسير نشأة سائر الأنواع الحية الأخرى على الأرض على غير مثال سابق بالقول بأنما هي طفرات اتفقت لها الأسباب الطبيعية اتفاقا واتفق لها أن أنشأت نظما وأنواعا جديدة اتفق أن وافقت ولاءمت البيئة التي ظهرت فيها فبقيت، خلافا لأصل الفوضى والعبثية البالغة في بلايين من الطفرات التي ظهرت بما تهلك به الأنواع أو بما لا ينفعها في شيء! لولا المنهج المعرفي الدهري الذي تناول به تلك القضية الغيبية الخطيرة ما تقررت لديه آلية الطفرة وآلية الانتخاب الطبيعي بمعناهما الدهري المحض الذي يصر أكثر اللاهوتيين المعاصرين وجهمية أهل القبلة معهم على أسلمته من أي طريق، ولا حول ولا قوة إلا بالله! لولا أن كان الأصل في حوادث العالم عنده أنها لا قصد وراءها ولا حكمة ولا غاية (كما كان اعتقاد ويليام بيلي الذي يبدو أن داروين وضع نظريته كلها للرد عليه)، ما قال بهاتين الآليتين أصلا، وإذن ما وقعت له "نظرية" Scientific Theory تكتب ثم تنشر من الأساس! ولو كان لدى الرجل ما عند المسلمين من اعتقاد في الغيب، ما طلب تفسير أصول الأنواع الحية كلها (حوادث خلق الدواب كلها) تفسيرا طبيعيا، يشترط فيه شرطا أن يكون طبيعيا، وما انتهى به جهله إلى القول بما سماه بالانتخاب الطبيعي، فتكون الطبيعة نفسها هي المنتهى في الإحداث والتعليل [8]!

يجب أن يفهم دراونة أهل القبلة أنه لا مفر لدى القائل بالتطور الدارويني من اعتقاد العشوائية الوجودية في الطفرات، بالنظر إلى الطبيعية المنهجية التي بها انتهى داروين نفسه إلى القول بآلية الانتخاب الطبيعي! ذلك أن داروين لم ير بين يديه نظاما طبيعيا مطردا للتطفر النافع الذي يحيل النوع الحي إلى نوع آخر قادر على التكيف مع بيئة أخرى، وعلى القيام بوظائف حيوية أخرى لم تكن موجودة في سلفه، في تطور يحصل له بتراكم الطفرات عبر الأجيال! هذا (أعني ظهور نوع جديد بالكلية من ذرية نوع آخر بالطفرات الوراثية التدريجية) لم يقع أبدا ولم يره أحد من البشر يوما من الدهر، لا داروين ولا من جاؤوا بعده! وإنما رأوا الطفرات تجري على خلاف النظام المطرد في توريث الصفات النوعية من جيل إلى جيل في إطار النوع الواحد، فتدخل التشوهات والنقائص غالبا، أو تغير تغييرات طفيفة في إطار النوع الواحد على أحسن الأحوال، ولا تأتي بالتغيير النوعي أبدا! من هنا، وبالنظر إلى كون الطفرات تجري على أنحاء لا يمكن التنبؤ بها، ولا يعلم القوم من طريقهم هل تأتي إذا أتت بما يفيد أو بما يضر، لزم أن يجعلوا الطفرات المفيدة المزعومة، وبالتأسيس على منهجيتهم الطبيعية، أمرا عشوائيا لا نظام له، ولا غاية تحكمه، حتى يصلوا إلى أن يقولوا إننا إن أمهلنا الطبيعة لما يكفي من الوقت، وتركنا أفراد النوع الواحد لتتكاثر عبر أجيال متتابعة، فلابد أن تظهر – ولو بعد حين - طفرات مفيدة من ذلك الصنف الذي إذا ما ظهر، انتخبته الطبيعة وأبقته في الحوض الجيني، حتى يأتي الذي يليه لينضاف إليه أو يزيد عليه! ولابد أن يكون ظهور عضو جديد أو نظام حيوي جديد بالطفرة أمرا لا يحصل إلا قليلا، بدليل أننا لم نره يقع أبدا في تتبعنا لأجيال المخلوقات الحية! فكلما اتفق أن ظهرت طفرة (بعد عدة أجيال في إطار النوع الواحد) تفيد بما يجعل للكائن الجديد مزية بيولوجية على سلفه ترفع من قدرته على التكاثر وترفع من احتمالية انتشار جيناته، حصل إذن ما يسمى بالانتخاب الطبيعي!

فمن فهم المنطق الدراويني في إثبات مبدأ التغير التدريجي المفيد في الصفات الوراثية لأفراد النوع الواحد، الذي يفترض أن يحوله عبر ما يكفي من امتداد الزمان وتتابع الأجيال إلى نوع جديد (والذي هو مفهوم التطور النوعي من سلف مشترك)، أدرك أن مبدأ التطور Evolution لا يمكن أن ينفك بحال من الأحوال عن فكرة التطفر العشوائي النافع المزعوم Benefitial Random Mutation الذي لم يسبق أن شهده أحد من الناس البتة، والذي إذا ما ظهر بزعمهم، "انتخبته الطبيعة" فورا! وفهم أن الأصول الثلاثة (الانتخاب والتطفر التراكمي والسلف المشترك) لا انفكاك لأي منها عن فكرة التطور البيولوجي بحال من الأحوال! ولا انفكاك للتطور وأصوله الداروينية الثلاثة عن العشوائية الوجودية التي تأتي بالتغير الوراثي كلما أتت به، رغما عن نظام التناسخ الجيني وشذوذا عنه، لا على أثره أو تحت سلطانه! فكل من ارتضى بالطبيعية المنهجية Methodological Naturalism وبالقياس

الطبيعي كمصدر لتلقي المعارف في هذه القضية الغيبية المحضة (قضية النشأة)، ورضي بفكرة التطور من سلف مشترك مبدئيا، فإنه يلزمه أن يثبت العشوائية الوجودية والفوضوية كأساس أنطولوجي لدعوى التطفر النافع المزعوم الذي يأتي اتفاقا بما تنتخبه الطبيعة فتصير به إلى إنشاء الأنواع الجديدة! هذه هي الفكرة التي بها اعتلى داروين أكتاف الطبيعيين حتى جعلوه أعظم من ألف في الطبيعيات في التاريخ! فكرة نظرية طبيعية (تجري على الطبيعية المنهجية جريا صارما) تجعل أنواع المخلوقات الحية تبدو كلها وكأنها "مخلوقة" قصدا واستقلالا عن بعضها البعض، وكأنها جارية على غايات وحكم ومقاصد دقيقة عند صانع عليم حكيم، مع أنها في الواقع لم تنشأ إلا بالتغيرات الوراثية العشوائية المتراكمة عبر ملايين السنين!

ولذا لن تجد مسلما صادقا في إيمانه بالغيب، يحصل له الفهم الصحيح لتلك الأصول الكلية الثلاثة لنظرية داروين (الطفرة والانتخاب والأصل المشترك)، وللمنهجية الدهرية الصرفة التي تأسست عليها عند الرجل وأتباعه، إلا تبرأ إلى الله تعالى من تلك الأصول الثلاثة جملة واحدة بلا تردد! وإذن لم يأته القوم بما يزعمون أنه دليل على صحة تلك الأصول الثلاثة كلها أو بعضها إلا بين فساد تأويلهم للمشاهدات فيه وتهافتهم في الاستدلال به! وهذا أمر ميسور غير متعذر على من يطلبه بفضل الله تعالى، إذا تحقق لديه الفهم اللازم والتصور الصحيح لفلسفة النظرية ولطريقة القوم في الاستدلال لها.

ولهذا نقول إن المتمسك بأي أصل من تلك الأصول الثلاثة، لا تخدمه حقيقة أن الدراونة قد حصل لهم من المشاهدات التي استدلوا بها لإثباتها ما تملأ به المجلدات الطويلة، ويعد بالآلاف المؤلفة (حقيقة بلا مبالغة)! فنحن نقول: لو بلغ هؤلاء في جمعهم التأويلات التي يزعمونها أدلة، أن جمعوا لأنفسهم من ذلك ما يفوق عدد سنوات عمر الأرض في اعتقادهم، بل وزاد عليه أضعافا مضاعفة، ما رفع ذلك من نظريتهم بين أيدينا قيد أنملة، ولا دعانا – ولو من بعيد – للتنازل عن موقفنا الكلي المجمل بإزائها! فإننا نعلم – كما يعلمون – أن البارادايم التجريبي Scientific Paradigm إن أصابه النقض في أصول تعريفاته الكلية الأولى التي يقوم عليها منطق الاستدلال والافتراض التفسيري عند أصحابه، فلا فرق إذن بين أن يجتمع لهم من "أدلة" النظرية القائمة على ذلك البارادايم عشرون دليلا، وعشرون مليون! أرأيت لو جاء اليوم من يحاول أن يقنع الفيزيائيين – مثلا – بوجود "الأثير" Ether، ثم أضاف إلى ما كان يستدل به السابقون على وجوده من أدلة، مئات التأويلات للمشاهدات التي تأولها الفيزيائيون اليوم على وفق ميتافزيقا أينشتاين تحت بارادايم الزمكان، أتراهم يقبلون منه ذلك، أو يعدونها "أدلة" تفيد ما يريد هو الوصول إليه؟ فكيف إذا كان موضوع التنظير نفسه موضوعا غيبيا محضا مغرقا في تكافؤ الدلالة للمشاهدات Indetermination by Observation؟ هذا نرده من

أصوله الأولى، بما في ذلك مفهوم الانتخاب الطبيعي ومفهوم الطفرة العشوائية وفكرة تفرع الأنواع كلها من أصل واحد مشترك!

فمثلا، على بارادايم داروين، يكون تفسير التشابه العظيم والتقارب الظاهر Proximity بين الهيئات والصفات الظاهرة Morphology والتركيبة الجينية Genetic Makeup أو الجينومية للأنواع الحية المتقاربة في ذلك، مع التقارب البيئي والجغرافي والجيولوجي .. إلخ، هو رجوعها كلها إلى سلف مشترك، قد اتفق أن تفرع عنه ما تفرع بالطفرات العشوائية عبر الأعصار والأمصار من غيرما تدبير ولا تقدير سابق لخالق بالغيب ولا غاية ولا وظيفة نوعية ولا شيء من ذلك! فإذا لم نكن من القائلين بذلك البارادايم الدهري، فكيف يكون تفسيرنا لتلك الحقيقة المحسوسة؟ نقول أولا إننا لسنا مطالبين ببذل التفسير كما قد يجد بعض المفتونين أنفسهم في موضع يوهمهم به! ولا يلزمنا أن يكون لدينا "باردايم" بديل للداروينية حتى يكون كلامنا كلاما علميا ذا بال، ويكون نقضنا عليهم نقضا صحيحا! لسنا أصحاب تنظير ورأي وقياس في الأمور الغيبية ولا نرى لتكلف ذلك متسعا في العقل ولا في الدين! وقد بينا في غير موضع من هذا الكتاب أن مسألة "التفسير البديل" هذه إنما يشترطها الطبيعيون والتجريبيون الدهرية كشرط لإسقاط أي نظرية لأن دينهم الطبيعي يلزمهم بذلك معياريا ومنهجيا، خلافا للمسلمين! هم يرون أن من مهمة الفلسفة الطبيعية أن تكشف غيب السماوات والأرض حتى لا يبقى فيه موطئ قدم لأهل الملل الأخرى ونصوص أهل الملل الأخرى! لذا لا تزال تراهم يتدينون بغزو تلك الأبواب بنظرياتهم كما يتدين المسلمون باستخراج المعارف في نفس تلك الأبواب من نصوص الكتاب والسنة! فمهما طالبونا بالنظرية البديلة في ذلك الشأن رددنا عليهم شرطهم وسفهناهم به – كما هم أهله - ولم نبال!

وأما ثانيا، فيقال إن تلك التشابهات الظاهرة بين الأنواع إن دلت على شيء فإنما تدل على وحدة الصانع جل وعلا، وعلى تقارب البيئات التي خلقت فيها تلك الأنواع، وعلى تقارب الغايات والمقاصد التي خلقت تلك الأنواع المتشابهة من أجلها، وليس بالضرورة على أنها كلها أولاد عمومة واحدة من سلف واحد، أو سلفين أو ثلاثة! فبأي شيء يذهب الناظر إلى القول بالأصل المشترك لجميع الأنواع لا على أساس سوى التشابه الظاهري، إلا ما قدمنا من منهج فلسفي دهري لتفسير حوادث العالم؟ فإذا انهدم بين يديك الأصل الفلسفي الذي من أجله وبالتأسيس عليه قال داروين بمبدأ الأصل المشترك نفسه، بل وانهدم عندك المنهج المعرفي نفسه الذي تنبني عليه كل دعوى قياسية نظرية من طريق الطبيعيين بالترجيح بين الممكنات العقلية في هذه المسألة الغيبية، لم يبق إلا أن ننظر كمسلمين فيما يمكن أن نستنبطه من النصوص الشرعية وكلياتها من أنواع الحكم والمقاصد الإلهية في تشابه

الأنواع وتقاربها بيئيا، إن قدرنا أن كان ذلك مما تترجح به المصلحة الشرعية وتدعو إليه الحاجة عند المسلمين، من الأساس! وهذا هو غاية ما نعنيه باختلاف البارادايم في هذا الشأن كما أشرنا آنفا، لا أننا ندعو المسلمين لأن يؤسسوا بارادايم بديلا في علم الأحياء يعيد بناء جميع ما أسسه الدراونة عبر قرن ونصف من الزمان على قواعد إبراهيم! وإنما نريد في هذا الباب أن نبين حدود ما يقبله المسلم وما لا يجوز له أن يقبله من دعاوى علماء الأحياء المؤسسة على الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism عامة، وعلى البارديايم الدارويني خاصة!

فنقول إن البرمائيات – مثلا - تملك القدرة على العيش في الماء وخارج الماء على السواء، لا لأنها كانت بالضرورة من ذرية الأسماك في البحر، ثم اتفق لها أن تطفّر فيها جين ما، أنبت لها رئتين، فمكنها من التنفس خارج الماء، وإنما لأنها قد سبق في إرادة رب العالمين وحكمته تقدير خلقها بحيث تكون قادرة على العيش في بيئة البحر وبيئة البر على التبادل، كما تعيش الحيتان والأسماك في البحر دون غيره، فلزم أن يكون فيها من الصفات ما تشترك به مع دواب البر حتى تتمكن من العيش على البر أحيانا، فتشابهها في ذلك القدر، ومن الصفات ما تشترك فيه مع حيتان البحر حتى تتمكن من العيش تحت الماء أحيانا، فتشابهها في ذلك القدر، تحقيقا لجملة من الغايات والمقاصد قد نتمكن من تصور بعضها لهذا النوع أو ذاك، ويظل البعض الآخر خافيا علينا لا يعلمه إلا صاحب الصنعة وحده سبحانه وتعالى وتقدس! فالتفسير الدارويني كما ترى يلغي الغائية والتعليل الإلهي بالكلية، ويرجع الأمر كله إلى حوادث لا غاية من ورائها (كما يؤمن به الطبيعيون)، ولا تتعلل إن تعللت إلا باتفاق خضوع المادة الصماء لقوانين الفيزياء والكيمياء العمياء (يحكمون بذلك قياسا على ما في الشاهد مما يزعمون كذلك أنه لا يتعلل بشيء في الغيب البتة)، تتقاذفها ذات اليمين وذات الشمال بلا غاية ولا قصد ولا حكمة عند صانع حكيم عليم، وهو مقصود داروين من وضعه نظريته من الأساس!

وكذلك فعلى بارادايم داروين، فإنك تجد مبدأ تصنيف الأنواع وتسميتها قائما على فكرة التشعب والتفرع العائلي Family Tree / Genealogy، بناء على الاعتقاد الذي رتبوا به الأنواع المتقاربة على بعضها البعض ترتيب الخلف على السلف والفرع على الأصل! فكان أساس علم التاكسونومي Taxonomy في علوم الأحياء هو ذلك الاعتقاد الدارويني في السلف المشترك! فلو كنا نحن المسلمون من وضع ذلك العلم (علم تصنيف الحيوانات)، لربما سميناه Teleotaxonomy مثلا، إذ نجعل الجامع بين الأنواع عند تصنيفها وتسميتها هو محلها من استعمالنا نحن البشر لها وانتفاعنا منها فيما هو ظاهر لنا، وأحكام الشرع المتعلقة بها، كجزء من حكمة رب العالمين تبارك وتعالى وغايته في

خلقها، وإذن يحصل لدينا هرم تصنيفي، وليس شجرة تتفرع! فيكون على رأس الهرم المطعومات من أنواع الحيوانات التي هي أنفع لنا غذائيا – مثلا – ثم يأتي بعدها ما هو أقل نفعا أو أصعب في الصيد أو أقل وفرة وانتشارا في البيئات القريبة من بيئاتنا التي نعيش فيها، في كل من الحضر والريف، ثم يأتي دون تلك الطبقة ما يكون انتفاعنا منه دون الأكل والتغذي، كما يكون لنا ركوبا من أنواع الأنعام مثلا، ثم دون ذلك ما نستعمله في ما دون ذلك من أنواع الانتفاع، ثم في طبقة مستقلة يأتي ما حرم علينا أكله، وما شرع لنا قتله بمجرد لقياه في الحل أو في الحرم، وهكذا! فهذا تقسيم وتصنيف للأنواع الحية، وذاك تصنيف آخر، يقوم كل منهما على "بارادايم" مختلف اختلافا جذريا كما ترى، ولا يمكن الجمع بينهما!

والقصد أيها القارئ الكريم، أنه لو كان المسلمون هم من أسسوا علم الأحياء المعاصر قبل قرن ونصف من الزمان، وليس الدهرية الطبيعيون الأقحاح، لكان الشأن غير الشأن، ولما جاءنا اليوم من يحاول محاولة المستميت أن يلبس المسلمين بلبوس تلك الأساطير الدهرية السخيفة في قضايا الأصل والنشأة، بدعوى درء التعارض بين "العلم" (زعموا) والدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولكن لله في خلقه حكم لا يعلمها إلا هو، وقد قضى بحكمته أن يبتلي المسلمين في هذا الزمان بالتأخر في كافة ميادين العلم الدنيوي والتخلف عن معاصريهم من الكفار المشركين لينظر ما هم فاعلون! هل تقع الفتنة فيهم، فيتفلت الدين من قلوبهم تفلت الدابة، أم يثبتوا على دينهم وعلى اعتقادهم وعلى فطرتهم التي فطرهم الله عليها، ويتناولون تلك العلوم بالنقد والتمحيص والغربلة، فلا يقبلون منها إلا ما كان سالما من الأصول الدهرية والمقتضيات البدعية المخالفة لاعتقاد المسلمين، ولا يقبلون ما كان منها عدوانا على الغيب المحض الذي ما أنزل الله به للبشر من سلطان؟؟ هذا هو الابتلاء، فافهموه يرحمكم الله!

فعندما يقال كما قال داروين في كتابه "في أصل الأنواع": "قانون واحد عام، يفضي إلى تطور جميع الكائنات العضوية، ألا وهو: تكاثروا تنوعوا، ولتكن الحياة للأقوى والموت للأضعف" اهـ، فهذا ليس تقريرا لحقيقة بدهية! وإنما هو تقرير لعقيدة غيبية دهرية، تستصحب مقدمتين خفيتين بيانهما كالتالي:

> أولا: ليست الحياة شيئا ممنوحا للكائنات العضوية من خارج نظام هذا العالم، وإنما نشأت الحياة في مادة الأرض بالصدفة الوجودية المحضة بفعل القانون الطبيعي.
>
> ثانيا: لا غاية ولا غرض لحياة من يتفق له أن يحيى من الكائنات الحية على الأرض، ولا يحصل الموت تبعا لحكمة ما وغاية ما عند خالق غيبي لكل من الموت.

فبناء على هاتين المقدمتين (والثانية منهما مؤسسة على الأولى كما ترى)، قال داروين – في اختزالية الطبيعيين السخيفة - إن النظام الحيوي ليس إلا صراعا عظيما من أجل البقاء! ومن ثم أصبح معيار البقاء واستمرار النوع الحي واستقراره في الأرض إنما هو ما يتفق له اتفاقا أن يظهر في جسده من أسباب البقاء، لا أنه قد وجد بالغيب رب حكيم عليم كانت له إرادة وغاية وحكمة وتقدير يتقرر بها أي الأنواع قد كتب له البقاء وأيها قد كتب له الفناء، ومن ثم يتقرر بناء على ذلك ما يحدثه الرب من أسباب ومتولدات تبقي ما يبقى وتهلك ما يهلك، ويُكتب له بعلم تام متى يفنى وكيف يفنى وما يكون منه وما يكون له وما يتعلق به من متولدات الأسباب! هذه الصورة الفاسدة هي بالضبط ما يتحصل لدى الدهري الطبيعي من تصور لعموم ما يجري بين الدواب والوحوش في الأرض إذا أسقط من وراء النظام الحيوي كل تعليل غيبي وكل حكمة وغاية إلهية!

فعلى تشبيه ريتشارد دوكينز في بعض كتبه، يكون النظام الحيوي عند داروين وأتباعه كأنما هو مصنع مفاتيح، وأسباب بقاء الكائن الحي في الأرض كأنها قفل محكم الإغلاق (من حيث الأصل) فلا يزال المصنع ينتج المفاتيح إنتاجا عشوائيا، لا ينشأ عن نفس الصانع الذي صنع "القفل" نفسه! فكلما حاول المفتاح أن يفتح القفل عجز وهلك، حتى يتفق اتفاقا أن يخرج المصنع مفتاحا يلائم القفل فيفتحه فيبقى ذلك المفتاح ولا يهلك! من هنا يأتي معنى العشواء الوجودية Ontological Chance ويصبح لازما لا ينفك عن فكرة الانتخاب نفسها Selection! ولهذا ضرب دوكينز مثلا آخر في بعض محاضراته القديمة لعمل الانتخاب الطبيعي، فاستعان بمبرمج صمم له برنامجا حاسوبيا صغيرا سماه Biomorph يقوم بنسخ كود لشكل هندسي معين لينشره على شاشة الكمبيوتر، وركب فيه مولدا عشوائيا Random Generator يقوم بتغيير الصفات الهندسية للشكل نفسه بصورة عشوائية في نطاق محدود خلال عمليات النسخ، فتارة يحذف خطا وتارة يضيف خطا أو خطين، وهكذا، ثم شغل البرنامج وأخذ ينظر إلى نتائج النسخ بعد أجيال طويلة كيف تتنوع تنوعا واسعا، ثم قال بكل سعادة ما معناه إن هذا الذي ترونه هو عمل آليتي الطفرة والانتخاب الطبيعي، ويظهر لكم به تفسير تنوع المخلوقات الحية في البيوسفير ذلك التنوع الواسع! فمن أين يأتي تركيب المولد العشوائي المزعوم في آلية النسخ تلك وما سببه؟ يأتي عند الدراونة من اعتقادهم أن الكائنات الحية لا ينشئها نفس الصانع الذي أنشأ النظام البيئي والقانون الطبيعي ووضع الطبائع في الأشياء كلها، الذي له غايات وحكم في تركيب كل جزء من أجزاء هذا العالم في أجزائه الأخرى ومن إحداث كل حادث فيه! فإنه ليس وراء العالم صانع أصلا عندهم، لا للكائنات الحية ولا للنظام الطبيعي! فلا تزال الكائنات تتناسخ وتتكاثر تكاثرا عشوائيا عندهم حتى يتفق بالصدفة الوجودية المحضة لبعضها أن يحظى بالصفات اللازمة للتوافق مع نظام البيئة

التي ولد فيها فيبقى ويصبح نوعا جديدا! هذا هو مفهوم الانتخاب الطبيعي عند الدراونة، الذي نقول إنه لا انفكاك له عن ميتافزيقاهم الدهرية الطبيعية!

وأما عند المسلمين فالنظام الحيوي ليس نظاما قد نشأ بالصدفة في بيئة لم تخلق بما يناسب وجوده من الابتداء، حتى يكون الأصل في نشوء الأنواع الحية أنها تجرب "حظها" فيما إذا كان مفتاحها سيفتح قفل أسباب البقاء أم لا! وإنما نؤمن بأن الأنواع الحية والأنواع الميتة، والنظام الحيوي والنظام البيئي وجميع ما في العالم من نظم إنما خلق كله من لدن حكيم عليم، خلق كل شيء فقدره تقديرا، فلم يخلق نوعا حيا إلا وقد ركب فيه من أسباب البقاء من أول يوم ما هو لازم له، سبحانه وتعالى عما يقوله الدراونة علوا كبيرا! فعلى عقيدتنا نحن المسلمين فإن الكائنات الحية لا تتنافس ولا تتصارع "من أجل البقاء"، وإنما يجري كل مخلوق منها في طلب رزقه مستعملا في ذلك من الأسباب ما خلق الله نوعه من أول يوم وهو مجهز به أحسن تجهيز!

والقصد أنه ليس ثمة "انتخاب للبقاء" أصلا في عقيدتنا، حتى يقال إن ثمة منتخب وهو الطبيعة! ولهذا، أيها القارئ الكريم، نراه من محض الضلالة والجهالة أن يأتينا من يقول: "دعونا نسميها "بالانتخاب الإلهي" بدلا من "الانتخاب الطبيعي" ونقول إن الرب الخالق هو الذي ينتخب وليس الطبيعة، فإذا فعلنا ذلك لم يكن لأحد أن يتهمنا بالتنقص من رب العالمين!" هذا كلام من لا يدري ما الانتخاب الطبيعي ولا يعقله، أو لا يدري ما الإسلام ولا يفهمه، والله المستعان!

ومما يذكر في هذا الباب أن بعض طوائف أهل القبلة (ومنهم سرورية وحزبيون يظهرون النسبة إلى أهل السنة والسلفية)، يلتمسون موقفا يزعمونه منصفا ومعتدلا من نظرية التطور الموجه، وأسميهم بـ(المجوزة)، فيقولون إنه من الجائز عقلا ونقلا أن يكون الله تعالى قد خلق جميع أنواع النبات والحيوان بالتطوير من أصل مشترك، إلا آدم عليه السلام الذي جاء فيه النص الصريح بأن خلقه كان مستقلا، بيد الله سبحانه وتعالى بصورة مباشرة من الطين. فهم يجوزون فكرة الخلق بالتطوير والترقية من أصل منحط وإن كانوا لا يثبتون وقوعه في الحقيقة. وهذا التجويز على هذا الوصف لعله هو أهون ما أحدثه أهل القبلة من مخالفة لأهل السنة فيما يتعلق بتلك النظرية الملعونة!

فعلى سبيل المثال، أرسل إلي أحد الأفاضل مقطعا من مقاطع الفيديو لمحاضرة للأخ "عبد الله العجيري" – عفا الله عنه – صاحب كتاب "ميليشا الإلحاد"، يحصر فيه المشكلة مع نظرية داروين في أصل آدم عليه السلام، ثم يجوز أن تكون أسطورة الأصل المشترك عند داروين مطابقة للواقع، وأن يكون الله تعالى قد خلق الأنواع ونوعها بتلك الطريقة الداروينية، وإن كان جريان ذلك عنده على غير آليات داروين العشوائية. أي أنه يقف من مذهب التطوير أو التطور الموجه (إلا فيما يتعلق بآدم عليه السلام) موقف المتوقف، المجوز لأن يكون الواقع على ما يعتقده التطويريون، وإنما يضيره في كلامهم جزمهم وقطعهم بصحة القصة التطويرية، قال العجيري:

> هل ثمة مانع عقلا، شرعا، خلينا نبتدي شرعا، هل ثمة مانع شرعا أن الله عز وجل قد طور الأجناس بعضها من بعض؟ هل ثمة مانع في هذه القضية عقلا أو شرعا؟ فالذي يظهر لي والله أعلم أنه ليس ثمة إشكالية فيما يتعلق بهذه القضية، يعني من الممكن، يعني، خلينا ناخذ الأبعد مدى من هذا، لو ما ورد النص القطعي فيما يتعلق بآدم عليه الصلاة والسلام، لكان من الجائز، عقلا، أن الله عز وجل مثل ما خلق الإنسان من تراب، يخلقه من قرد. ليس ثمة إشكالية من جهة المبدأ العقلي! وبالتالي ليس ثمة إشكالية في أن الله طور الأجناس والأنواع بعضها من بعض! لكن ينبغي أن يستصحب الإنسان هذا المعنى، أن الله "طور"، يعني أحد الإشكاليات المتعلقة بالداروينية، كإطار فلسفي للنظرية، فكرة العشوائية، فكرة الصدفة، يعني التصور متناقض مع الفكرة الدينية جملة وتفصيلا، تصور أن الله مثلا، خلق المخلوق الأول، ثم تركها، والله نفسه لا يعلم ما الذي يفضي إليه عملية التطور! لأنها تحصل عشوائيا من

غير تقدير إلهي! نحن نقول لأ، المقبول في الإطار الديني، أن يكون الله عز وجل هو الذي قدر كل شيء، سبحانه وتعالى، خلق كل شيء فقدره تقديرا، وأنه لا يخرج شيء عن تقديره تبارك وتعالى. اهـ.

قلت: أما عقلا، فقد حررنا – ويأتي معك المزيد بعون الله تعالى – أن مجرد ادعاء أن جميع الأنواع الحية لم تزل تخلق بالتطوير على أصل أول منحط أو "بسيط" Simple، هذا يقتضي العشواء الوجودية بصورة ما أو بأخرى، ونسبة النقص والجهالة إلى رب العالمين جل شأنه لا محالة، حتى وإن قالوا إن التطوير ليس فيه مدخل للعشواء من حيث الضرورة العقلية (وهو باطل كما بسطنا الكلام عليه في هذا الباب بحول الله وقوته)! أرأيت الذي يصنع شيئا ما، أفكان يلجأ لتطويره وترقيته في "إصدارات" لاحقة، إلا إن كان قد بدا له فيما بعد أن أصل الصنعة الأول قد خرج ناقصا ضعيفا فرآه يحتاج إلى تحسين؟؟ هذه مسألة بدهية، ومقتضاها ينبغي أن يكون ظاهرا لكل عاقل! فلا يجتمع الاعتقاد بالتطوير في خلق الله تعالى الأنواع الحية على الأرض، مع من يؤمن بما صرح به القرآن في مواضع شتى من كون الله تعالى قد أحسن كل شيء خلقه، وقدره تقديرا! فإذا كان إثبات التطوير يقتضي تعطيل بعض صفات رب العالمين جل شأنه، فقد ظهر كذلك المانع الشرعي من إثباته!

ونقول في تقرير المانع الشرعي إنه لا يجوز للمسلم أن يحدث اعتقادا غيبيا جديدا لم يعرفه أحد من السابقين ولا قال به قائل من المسلمين قبله، فإن فعل فهو مبتدع ضال لا محالة، داخل عمله أصالة في قوله صلى الله عليه وسلم: "كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة"! فلا يصح ما ذهب إليه الأخ من تجويز أن تكون الدواب قد خلقت كلها بعضها من بعض، فإنه لا قائل بهذا الاعتقاد من سلف المسلمين والقرون المفضلة، وهو يعلم هذا جيدا، فهو قول لم يعرف في المسلمين قبل انتشار نظرية داروين فيما بينهم! ولا يصح أن ينسب إلى الله جل وعلا فعل أو قول أو صفة بلا دليل صحيح مما يعتبر بمثله في أمور الغيب! والكلام في أحداث الخلق كلام في أفعال غيبية لله جل وعلا، مطلقة التغييب، فلا يثبت فيها شيء إلا بالسمع الصريح وما له حكم السمع.

ومع أننا لا نجد تفصيلا في الكتاب والسنة في قصة خلق أنواع الدواب، إلا أننا قطعا لا نجد نصا من النصوص قد فهمه السلف على أنه يفيد إثبات السلف المشترك لجميع الدواب، سواء كان ذلك السلف منحطا متواضعا في الخلقة والتركيب كما هو اعتقاد الدراونة والتطويريين، أو كان بالغ الدقة والإحكام! بل ظاهر القرآن على خلاف ذلك على الحقيقة، كما في قوله

تعالى: ((خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)) [الزمر : 6]، ففيه أن الله أنزل ثمانية أنواع من الأنعام إلى الأرض إنزالا مستقلا، لا أنها كلها ترجع في خلقتها إلى أصل واحد أو سلف مشترك! ولو كانت الدواب كلها تنحدر من نوع واحد كما هو زعم الدراونة (الملاحدة منهم والتطويريون على السواء)، لما قال في معرض ذكر أصل خلق الإنسان من نفس واحدة ومن زوجها الذي خلق منها، إنه أنزل للناس أزواج الأنعام، إذ السياق يقتضي ذكر خلقها كلها من دابة واحدة لو صح أن كان هذا هو أصل خلقتها! وإنما يفهم من الآية أن الله تفضل على بني آدم بأن أنزل لهم ثمانية أنواع مختلفة من الأنعام قد خلق كل زوج منها استقلالا من قبل! ولن تجد من سلف الأمة من فهم من هذه الآية غير ذلك! وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خلق اللهُ، عزَّ وجلَّ، التُّربةَ يومَ السبتِ. وخلق فيها الجبالَ يومَ الأحدِ. وخلق الشجرَ يومَ الاثنَينِ. وخلق المكروه يومَ الثلاثاءِ. وخلق النورَ يومَ الأربعاءِ. وبثَّ فيها الدوابَّ يومَ الخميس. وخلق آدمَ، عليه السلامُ، بعد العصرِ من يومِ الجمعةِ. في آخرِ الخلقِ. في آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ الجمعةِ. فيما بين العصرِ إلى الليل." اهـ. والحديث ظاهر في أن أنواع الدواب خلقت وبثت في الأرض في يوم من أيام الخلق الستة، وهو ما يقتضي كون خلق الدواب عملا له بداية ونهاية، فلم يبدأ اليوم التالي من أيام الخلق إلا وقد تم خلق الدواب وبثها في الأرض، وهذا يخالف ما يعتقده الدراونة والتطويريون من كون أنواع الداوب لم تزل ماضية في التولد عن بعضها البعض إلى آخر الزمان! وإنما يتولد عن أنواع الدواب التي خلقت في يوم الخميس، تنوعات وتباينات في إطار النوع الواحد، وذلك كما يحدثه أصحاب الخبرة من أخلاط بالتهجين Selective Breeding. وأما أن تخلق دابة جديدة على غير مثال سابق فيما بعد يوم الخميس، فظاهر الحديث يمنعه، والله أعلم.

وفي السنة فيما أخرجه ابن ماجة في سننه والإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مغفل المزني قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تصلوا في عطن الإبل فإنها من الجن خلقت ألا ترون عيونها وهبابها إذا نفرت، وصلوا في مراح الغنم فإنها أقرب من الرحمة" هـ.، فإن صح فهو صريح في أن نوع الإبل بخصوصه خلق من الجن، على القول بحمله على ظاهره؛ وهو الأصح؛ والله أعلم؛ ولا نرى صارفا له عن ظاهر معناه. وبالجمع بين هذا وبين آية الزمر يظهر أن أنواع الدواب خلقت خلقا مستقلا، ولم تخلق كلها من نوع واحد، وهو ما لا نعلم فيه مخالفا من السلف كما تقدم.

وعلى أي حال، فلو كان العلم بقصة خلق كل زوج من الأنواع التي بثها الله في الأرض مما يحتاج إليه الناس في دنياهم أو في دينهم، لجاء الخبر به مفصلا في الكتاب أو في السنة، ولكن ليس هو مما ينبني عليه عمل! ولولا أن الدراونة ومن افتتن بنظريتهم الدهرية الإلحادية من متفلسفة الطبائعيين قد اتخذوا لأنفسهم من تلك النظرية أصلا قطعيا يحملون عليه كافة نصوص الكتاب والسنة ذات الصلة بالتأويل الجهمي، ما التفتنا إلى تلك القضية أصلا، والله المستعان! وقد بينت في غير موضع أن القول بالسلف المشترك ليس قولا علميا أصلا ولا تتطرق إليه شبهة دليل، بل ولا يمكن الوصول إلى إثباته أو نفيه من طرائق الطبيعيين لأنه غيب محض، ولا نظير له في محسوسنا (إذ لم يسبق لأحدنا أن شهد أرضا كأرضنا، لا حياة عليها إلا الكائن أحادي الخلية، ثم شهد الأنواع تنحدر كلها من ذلك الكائن خطوة بعد خطوة)! فهلا أراحنا الإخوة هداهم الله من هذه القضية، واكتفوا في أمر الغيب بما جاء به الخبر؟!

قد يقول قائل التطويريين والمجوزة في هذا الموضع إننا لا نقول إن التطوير قد حصل من نوع "منحط" أو "فاشل" أو "عاجز عن التكيف" أو كذا، وإنما نقول لعله كان نوعا بسيطا من حيث درجة التعقد العضوي، ثم لم تزل الطفرات تعتريه، حتى تأتي طفرة تضيف له نظاما أو عضوا جديدا يمكنه من التكيف مع بيئة أخرى أو ظروف أخرى ليصبح نوعا جديدا! ونقول إن ذلك كله لم يزل يجري بإرادة الله وعلمه وتقديره (أو على الأقل يجوز أن يكون الواقع كذلك)، فأين ما يقتضي الحط على رب العالمين وتنقص صفاته في ذلك؟ نحن نقول كما قال "ألفين بلانتينغا" (أشهر فلاسفة اللاهوت النصراني والمنتصرين للتطور الموجه في عصرنا) ما حاصله أنه من الممكن عقلا ومما لا يتناقض مع اعتقاد مثبتة الصانع Theistic Belief، أن يكون الرب قد خلق الأنواع الحية كلها باستعمال طفرات معينة خلقها في الوقت المناسب وبالقدر المناسب حتى يحصل من ثمرتها من الآثار ما يريد، وما يوصل منه إلى خلق جميع الأنواع التي أرادها كما أرادها!

والواقع أن بلانتينغا عند تناوله تلك القضية، وعلى عادة اللاهوتيين وأهل الكلام من أهل الملل، لا يحمل راية الانتصار لدينه بخصوصه، أو للرب كما هو اعتقاد أهل ملته فيه وفي صفاته وأفعاله، وإنما يريد أن ينتصر لمبدأ وجود الصانع بإجمال، أو للصانع كفكرة تجريدية محضة، أيا ما كانت صفته عند مثبتته! وهذا من أخبث مفاسد الطريقة اللاهوتية والكلامية في الرد على الملاحدة والفلاسفة الدهرية، أنهم جروا على منهج الفلاسفة في التجريد والتعميم والإطلاق الميتافزيقي، يريد أحدهم أن يصبح بكلامه

وتنظيره وجداله وبراهينه إماما لأهل الملل كلها، لا لأهل ملته وحسب، عند مجادلتهم الفلاسفة الدهرية! [9]

ونقول لمن زعموا – من التطويريين - أن القول بانحطاط الأصل الأول للأنواع الحية لا يلزمهم، إن القول بزيادة التعقد إنما هو من مقتضيات تطبيق الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism على فكرة الطفرة العشوائية والانتخاب الطبيعي! فإذا كانت الأنواع الجديدة تنشأ بالزيادات العشوائية على صفات وخصائص الأنواع القائمة، وكان الأمر يرجع بجملته إلى غير علة غيبية ولا حكمة ولا إرادة ولا فعل وتدبير وتقدير ولا شيء من ذلك، وإنما هي الطبيعة والعشواء المحضة تمضي في عبثها خطوة بعد خطوة، إذا جعل هذا هو المعتقد الغيبي، فإنه يترتب على ذلك تمديد المسألة إلى الماضي السحيق وصولا إلى أحط البدايات للنظام الحيوي وأحقرها على الإطلاق! ومن هنا خرجت الأسطورة الداروينية في تلك الصورة الشجرية التي تبدأ "بأبسط" الأنواع وتصل إلى أعقدها! فإذا رددنا على الدهرية طبيعيتهم المنهجية في قياس الغائب على الشاهد في هذه القضية من حيث المبدأ، وقررنا اعتقادنا في حق الباري جل وعلا وفي كونه لا يخلق الخلق عبثا ولا هملا، ولا يأتي بشيء من المخلوقات إلا لحكم وغايات وعلل لا يحصيها أحد سواه، فأي أساس يبقى للمسلم العاقل لقبول دعوى الأصل الأول المشترك (الذي هو عندهم بالضرورة أبسط الأنواع، والذي يلزم عندهم أن تكون بساطته راجعة إلى انحطاطه وحقارته ونشوئه من المادة الميتة ومن الأحماض الأمينية العالقة في الماء هكذا اتفاقا!)، ولقبول دعاواهم في تأويل المشاهدات الحفرية والجينية تأسيسا عليها؟؟ لا أساس على الإطلاق! ولو أنه قال إنني أزعم أن الأصل الأول والسلف المشترك المزعوم كان بالغ الإحكام في خلقته، فبأي علة يكون خلق الأنواع الأخرى "تطويرا" عليه واستمدادا منه، وما سبب ذلك المذهب إذن وما الداعي إليه؟؟

والقصد وكما بيناه في غير موضع أن إسقاط الطفرة العشوائية والانتخاب الطبيعي مع الطبيعية المنهجية، يقتضي إسقاط فكرة التطور أو التطوير على أصل مشترك بالكلية، وهدم البارادايم الدارويني والأسطورة التاريخية الطبيعية بكليتها، ليس من حيث الوقوع وحسب، ولكن من حيث الإمكان أو الجواز كذلك، لأن التطوير لا يكون إلا على ناقص مختل مفتقر إلى أن يطوَّر! ولا ينسب ذلك المعنى إلى رب العالمين إلا كان لازمه التنقص منه والحط على كمال صفاته جل في علاه، وتشبيهه بالصانع البشري (بدعة قياس أو تشبيه الأفعال)، سبحانه وتعالى علوا كبيرا! ومهما زعم

التطويريون أنهم يثبتون صانعا بالغيب، فإن الحط عليه وتعطيل ربوبيته هو لازمهم الذي لا فكاك لهم منه!

فمثلا عندما تكلم الدكتور مصطفى محمود رحمه الله عن التطوير مدعيا أن فيه دليلا واضحا على وجود الخالق (الذي سماه بالمخترع، بطبيعة الحال)، ضرب المثل بالساعة، وقال إن البشر بدؤوا فيها أولا بقائم خشبي يحدد الوقت بظل الشمس، ثم طوروه للساعة الرملية، ثم الساعة الزنبركية، ثم الساعة الإلكترونية ذات الشاشة الرقمية، حتى وصلوا أخيرا إلى الساعة الذرية بالغة الدقة! فقال إذا كان هذا التطوير دليلا على أن وراءه عقلا مخترعا، فكذلك التطوير في خلق الكائنات الحية يدل على أن وراءها خالقا بالغيب! وهذا التشبيه لم يقله الدكتور في الحقيقة من باب التنزل مع الخصم لنقض قوله بنفي الباري، مع تأسيس القول الحق في مسألة الخلق، وإنما قرره تأسيسا لاعتقاده هو في صفات الله، ردا على ما نزعم نحن أنه مقتضى قوله بأن الله إنما خلق الأنواع "بالتطوير"، ولهذا أخذ في كل مناسبة يتفنن في بيان محاسن القول بالخلق بالتطوير والتحسين ودلالته على كمال الصفات بزعمه!

والحق أن هذا التشبيه من أذم ما أنت راء من صور تشبيه الأفعال وقياس رب العالمين على خلقه وتعطيل صفاته جل شأنه! فمن الواضح الجلي أن البشر لما ابتدؤوا بالقائم الخشبي كطريق لقياس الوقت بالنهار، فإنما فعلوا ذلك لأنهم ما كانوا يملكون من العلم والقدرة والإحاطة بأسباب الأرض ما به يصنعون ساعة كالساعة الرقمية أو الذرية (أو ما لا يعلمه إلا الله من أنواع الساعات الأكثر تطورا)، تخبرهم بالوقت بدقة بالغة للغاية، وتعمل بين أيديهم بنفس الكفاءة في الليل كما في النهار، وفي صحو الجو كما في عتمة الغيم! فلأنهم بشر عاجزون ناقصون، لم يخلقوا إلا ما كان في منتهى وسعهم وقدرتهم يومئذ! ثم لما تطورت أدواتهم ودرايتهم بسنن العالم السببية، تفتقت أذهان المخترعين منهم عن طرق جديدة لمعالجة نقائص الساعة الخشبية تلك، فاخترعوا طريقة جديدة لتقدير الوقت وحسابه، فجاؤوا بفكرة الساعة الرملية التي تعمل في الليل والنهار على السواء ولا تعتمد على الشمس، ثم لما اكتشفوا الهندسة وتوصلوا للميكنة صنعوا الساعة الزنبركية التي امتازت عن سابقتها بطول فترة العمل وامتداده لأيام متتابعة! ثم لما ازدادت علومهم، واتسعت دائرة السنن السببية التي سخرها الله لهم في الأرض، اصطنعوا الساعة الإلكترونية، وهكذا! فإنما يحصل التطور أو التطوير بسبب نقص المصنوع الأول وانحطاطه من أثر نقص صانعه حال صنعه إما في العلم أو في القدرة أو فيهما جميعا! من هنا يظهر الداعي للتطوير والتحسين! فالخلق بالتطوير أو بالترقية إنما يتكلفه الصانع

المخلوق الناقص لأنه لا يخلق الشيء إذا خلقه إلا ناقصا معيبا بمقتضى مخلوقيته هو نفسه ونقص علمه وحكمته وقدرته! أما الرب المتصف بصفات الكمال وجوبا سبحانه، الذي إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، فهذا لا يخلق ما يخلق إلا على أكمل ما يتم به مقصوده من خلقه من أول يوم، فلا يكون ثمة ما "يطوَّر" أو "يرَقى" أصلا!

وهذا المعنى واضح لا يماري فيه إلا مكابر! فصحيح إن إثبات التطوير يقتضي إثبات وجود المطور الفاعل، إلا أنه كذلك يقتضي بالضرورة إثباته مخترعا جاهلا ناقص العلم أو القدرة أو كليهما جميعا، فتأمل! ولهذا شبهه دوكينز بصانع الساعات الأعمى، لأنه على مقتضى الأسطورة الداروينية، لا يكون إلا كذلك على الحقيقة! ومع أن دوكينز كان يتكلم بالمجاز، يريد أن يقرر معنى أن الطبيعة عمياء لا إرادة لديها ولا فعل ولا تدبير، إلا أن هذا المعنى القبيح يتحول إلى حقيقة وجودية لازمة في حق التطويريين القائلين بأن وراء الأسطورة الداروينية الطويلة ربا بالغيب قد أجراها على أمره وإرادته، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فهذا العمى والعبث الذي نسبه دوكينز إلى الطبيعة بعدما نفى عنها باريها والقائم عليها، جاء هؤلاء فنسبوه – من حيث لا يشعرون - إلى رب العالمين سبحانه الذي يثبتونه، فيا ليت القوم يفهمون!

وعلى أي حال، فيمكن تصنيف مجوزة التطوير هؤلاء إلى طائفتين من حيث الاعتقاد الغيبي والمنهج المعرفي الكلي (مصادر التلقي): طائفة تجوز أن يكون التطور قد حصل واقعيا وأن يكون الله قد خلق به الخلق، ولكن لا يرون أنه ثبت تحقيقا من طريق الطبيعيين أو أنه يمكن أن يثبت من طريقهم أو هم متوقفون في جواز ثبوته واقعا. وطائفة تجوز حصوله واقعا، وتجوز كذلك ثبوته من طريق الطبيعيين في المستقبل ثبتوا قطعيا منصرما، فيقولون: لو ثبت في المستقبل بصورة قطعية، فحينئذ نتكلف تأويل نصوصنا على ما يوافقه، لا قبل ذلك! قال الكاتب الصوفي الطرقي اللبناني "حسين الجسر": "إن هذه المسألة لا تزال في طور النظرية، ولكن إن تمت البرهنة عليها في المستقبل، فإنا سنقوم آنذاك بالتوفيق بينها وبين الآيات القرآنية."! اهـ. فهؤلاء يعتقدون أن حال مسألة التطور الآن من حيث الثبوت المعرفي هو أنها عند الطبيعيين مجرد فرضية لا يتكلفون الاستدلال لإثباتها، أو لعله يظنهم تكلفوا الاستدلال لإثباتها ولكنهم لم يأتوا "بعد" بدليل "قطعي" منصرم! وأعني بالمنصرم ما لا يرد عليه المعارض البتة! وهؤلاء لن يختلف معنا الطبيعيون إن سألناهم: ما وجه الانصرام الذي تشترطونه في نوع الدليل الذي تطالبون الطبيعيين بالإتيان به حتى تقبلوا تفاصيل قصة النشأة من طريقهم؟؟ أو بعبارة أخرى، إن كنتم قد قبلتم من حيث المبدأ إمكان أن

تثبت ميثولوجيا التطور الدارويني من طريق الطبيعيين، فما هو نوع الدليل الذي تشترطونه عليهم حتى تسلموا لهم بأنها قد ثبتت ثبوتا قطعيا منصرما، يلجئنا معاشر المسلمين – على اعتقادكم – إلى أن نتأول كل ما يخالفه من نصوصنا؟؟ هذا ما لن تجد له تفصيلا ولا محاولة للتفصيل عند هؤلاء البتة!

فالحق الذي لا يماري فيه عاقل من المسلمين هو أن المسألة محل البحث (مسألة النشأة الأولى) مسألة غيبية محضة (أعني الأصل الأول لجميع الأنواع الحية في الأرض)، وهذا واضح! فكيف يتصور تحقق شرط القطعية المنصرمة من طريق الطبيعيين عندما يتكلفون إثبات صحة فرضياتهم فيها؟؟ هل يتوقع أن يصلوا في يوم من الأيام إلى أن يركبوا آلة الزمان مثلا، ليسافروا إلى الماضي السحيق ويشهدوا بأعينهم الكيفية التي خلق الله بها كل شيء حي، بحيث يحصل الثبوت القطعي المنتهي الذي يشترطه هؤلاء؟؟ فإن لم يكن هذا ما يطالبونهم به، ولا يمكن أن يطالبوهم به بطبيعة الحال، فما معنى أن يقال: سنظل نحمل نصوص الكتاب والسنة على ظواهرها التي حملها عليها السلف والأئمة من قبل حتى يثبت التطور في أصل الأنواع كلها بصورة قطعية، فإذا ثبت، أخضعنا اعتقادنا ونصوصنا له بالتأويل الحادث راغمين مضطرين؟؟ هذا كلام من لا يدري ما نظرية داروين ولا كيف أسسها أصحابها ولا يدري شيئا عن طريقتهم في الاستدلال لإثباتها البتة! ثم إنه كذلك كلام من لا يدري شيئا عن منهج أهل السنة في تلقي المعرفة بالغيب وما فيه، إذ لا يجيز الوصول إلى علم ما أو معرفة ما، ولو ظنية ضعيفة، بشأن الغيب المطلق من طريق التجريب والتنظير الطبيعي، أو من أي طريق أخرى خلاف السمع والوحي الصحيح، إلا جاهل مفتون! ولا يتساهل في ملازمة إجماعات السلف فيما أجمعوا عليه من فهم كتاب الله جل وعلا، كأصل من أصول أهل السنة، إلا زائغ رقيق الدين، نسأل الله السلامة!

والقصد أن كلتا الطائفتين تتفقان على الاعتقاد الوجودي المجمل، ألا وهو جواز أن تكون الحشوة الحية Biosphere قد خلقت في الواقع بطريق التطور أو التطوير، بيد أن إحداهما تجوِّز ثبوت ذلك من طريق الطبيعيين وترى أدواتهم الترجيحية وأنواع أدلتهم صالحة لإثبات هذه المسألة من حيث المبدأ المعرفي إثباتا قطعيا (ولابد أن يروه عند الغاية من القطعية حتى يروا أنفسهم مضطرين لإعادة النظر في تراث السلف في فهم القرآن من أجله)، وهم بذلك متلبسون بالمنهجية الطبيعية Methodological Naturalism في مصادر تلقي المعرفة بالغيبيات، وكذلك بمنهج الجهمية في تقديم النظريات والفلسفات الغيبية الميتافزيقية على النقل والتراث بدعوى تقديم القطع على ما دونه (تقديم العقل على النقل)! وأما الأخرى فتجوز حصول التطور واقعا لكن لا تراه قد ثبت من أي طريق، ولا ترى

طريق الطبيعيين صالحة لإثباته، أو لا يعلمون هل يمكن أن تثبت من طريقهم أم لا يمكن، ولم يحسموا لأنفسهم موقفا واضحا في هذه القضية. وهؤلاء لا يقال إنهم وافقوا جهمية التطور في تجويز معنى التطوير على الله تعالى وإن لم يثبتوه، وإن لم يكونوا جهمية لسلامتهم من تقديم النظريات على السمع ومن التلوث بالمنهجية الطبيعية في مصادر التلقي في هذه القضية، وإنما هم مخطئون خطأ شرعيا محضا، لعله راجع – في الأغلب – إلى انخرام في موازين منهجية شرعية في باب الإجماع وفي باب التعامل مع المخالف، والله الهادي إلى سواء السبيل.

وقد وقعت على شباب عندهم اضطراب في التجويز، بلغ تجويز ثبوت الأصل الدارويني لآدم نفسه، ككلام **بعض المنهزمين من الإعجازيين في مدونة له على الشبكة إذ كتب يقول: "كل يوم تظهر إثباتات جديدة على وجود تطور يحكم الكائنات الحية عبر ملايين السنين، وأمام هذه الأبحاث لا يمكننا كمسلمين أن نتخذ موقفاً معارضاً بحجة أن التطور يتناقض مع القرآن، لأن الله تعالى تحدث في القرآن عن التطور وعن خلق الإنسان من سلالة وتحدث أيضاً عن الأطوار في الخلق... فهل نرفض هذه النظرية للأبد من دون دليل قرآني واضح على أنها خاطئة تماماً؟؟" اهـ. قلت: تأمل الهزيمة والرعب الذي يملأ على بعض الناس قلوبهم بإزاء تلك النظرية الملعونة! "هل نرفضها للأبد من دون دليل قرآني قوي جدا يثبت أنها خاطئة تماما؟؟" قلت: إن كنت لا ترى في القرآن دليلا "واضحا" على بطلانها وكونها "خاطئة تماما"، فما هو نوع الدليل القرآني الذي يستوفي هذا الشرط عندك؟؟ أن ترى آية نازلة في الرد على تشارلز داروين، تعينه باسمه مثلا؟؟ سبحان الله!**

فيا جويهل يا مسكين، قوله تعالى: ((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ)) [المؤمنون : 12] يعني من طين مستل من الأرض استلالا، أي منتزع منه انتزاعا، وكل ما كان مستلا من شيء أو منزوع منه فهو في لسان العرب سلالته أو سلالة منه، لا على المعنى الذي فهمته أنت، أنه النسل والذرية!! [10] وكذلك قوله تعالى: ((ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ)) [السجدة : 8] أي خلق نسل الإنسان من ماء مهين مستل من الرجل والمرأة! فتأمل في عجمة هؤلاء القوم وجهالتهم الفاضحة، وقل الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا! كذبت والله إذ زعمت أن النظرية قد "ثبتت"

وأن "التطور" (هكذا) قد ثبت، وكذبت على رب العالمين لما زعمت أن القرآن تكلم عن التطور، تجعل أطوار الخلق هي التطور! وأنت جاهل – والله – بالنظرية وبالقرآن الذي أردت أن تلبسه بها، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

يا هؤلاء اتقوا الله في أنفسكم وفي المسلمين واشغلوا أنفسكم بما ينفعكم! ما لكم أنتم والقرآن وما جاء في القرآن وتفسير القرآن؟؟ فيزيائي لا يدري كيف يتوضأ، وطبيب لا يحسن قراءة الفاتحة في صلاته، وجيولوجي ربما لا يصلي أصلا، وتراهم يتكلمون في أعظم العلوم الشرعية مهابة وحرمة عند علماء المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!! تتكلمون في التفسير؟؟ حسب أحدكم أن يسمع القرآن يتلى عليه في الراديو أو خلف إمام المسجد، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه! يقول المسكين: "وملخص القول أن نظرية التطور صحيحة في معظمها من حيث تطور المخلوقات وتحول الأشكال حسب البيئة والظروف الطبيعية.. هذا لا ينكره أحد، كذلك هناك تطور في عملية خلق الإنسان، فالإنسان الأول ليس مثل الإنسان اليوم هناك تدرج وتطور في الحجم والشكل واللون ونسبة الذكاء.." اهـ.
قلت: "القول"؟؟ ما شاء الله! أنت لديك "قول" وله عندك "ملخص"؟؟ الله أكبر! يا أخانا، هداك الله وشغلك بما ينفعك، تحول الأشكال في الأنواع الحية "حسب البيئة" لا يكون "تطورا" إلا على الفلسفة الميتافزيقية الداروينية التي لا تدري أنت يمينك من شمالك فيها! وهي باطلة لا نقبلها بحال! فمن الجهل الواضح قولك "هذا لا ينكره أحد" ولا أحسبنا نحتاج إلى التعليق عليه! أما ما تزعمه تطورا في "عملية خلق الإنسان" كما تسميها، فكذب وباطل، وإن صح أن كان ثمة تغير مطرد عبر أجيال البشر، فإنما هو تناقص في الخلق على الحقيقة، وليس تطورا، كما هو مصرح به في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه، ولا أحسبك سمعت به يوما من الدهر (ولعلك لو سمعته لأنكرته)، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "خلقَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ آدمَ على صورتِه طولُه ستُّونَ ذراعًا".. إلى أن قال صلى الله عليه وسلم: "فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن"!
ثم يقول: "أما بالنسبة لخلق سيدنا آدم عليه السلام لدينا احتمالين: الاحتمال الأول: خلق سيدنا آدم من التراب والماء (الطين.. ثم تسخينه) خلقاً مباشراً أي أن الطين تحول إلى مخلوق نفخ الله فيه من روحه بطريقة تليق به عز وجل، وهذا ما نعتقده. ولا داعي لأن نضع التصورات... لأن هذه القضية لا تخدم الإسلام ولا تقربنا من الله.." اهـ.

قلت: سبحان الله! فإذا كان هذا ما تعتقده، فبالله ما وجه وصفك إياه بالاحتمال إذن؟؟ وما تقريرك للهذيان الذي هرفت به آنفا عن السلالة والأطوار؟؟ وأي اعتقاد هذا الذي يرد عليه المعارض والاحتمال عند صاحبه؟؟ بل هذا ما يعتقده المسلمون من القرن الأول وإلى يومنا هذا، وهو من المعلوم من الدين بالضرورة الذي يكفر من يكذبه (اللهم إلا قوله "ثم يسخنه" هذه، فلا نعلم دليلا على أن الله "سخن" الطين الذي خلق منه آدم! ولكن مال هذا الكاتب والدليل؟؟) إذا كان لا داعي لأن "نضع التصورات" فما بالك تضع احتمالا آخر بعد؟ تقول: "الاحتمال الثاني: أن يكون سيدنا آدم قد خُلق من مخلوق سابق له بنتيجة تطور ما، هذا التطور أنتج مخلوقاً مختلفاً تماماً عن المخلوق الذي سبقه، وهو سيدنا آدم ... وهذا الاحتمال سيسبب لنا مشاكل كثيرة مع النص القرآني، فمثلاً من هو أبو سيدنا آدم؟؟! وإذا كان له أب، فكيف يخاطب الله البشر بقوله (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ) [الأعراف: 27] وسوف يسبب لنا مشكلة مع بعض الأحاديث الصحيحة وبعض الآيات القرآنية مثل نفخ الروح في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) [الحجر: 28-29]. فمثل هذا الأمر لا يمكن للعلم أن يكتشفه لأن الله يقول: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) [الإسراء: 85]." اهـ.

قلت: هذا إذن موقف من لا يجيز أن يثبت ذلك الهذيان لأن القرآن صريح في إبطاله، ويرى أن المسألة لا يمكن "للعلم" أن يخوض فيها! أليس كذلك؟ نعم ليس كذلك! فلا يكاد الكاتب يتم الفقرة السابقة حتى تراه يقول بعدها مباشرة: "وفي حال ثبت يقيناً أن الإنسان الأول تطور من مخلوق قبله بنسبة مئة بالمئة، وبشكل نراه بأعيننا ولا يقبل الشك... عندها ينبغي علينا قراءة الآيات قراءة جديدة، بشكل يتطابق مع العلم اليقيني... وهذا احتمال ضعيف أن يكتشف العلماء طريقة خلق سيدنا آدم لأن الله يقول: (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) [الكهف: 51]" اهـ.

قلت: فتأمل الاضطراب والضياع! أولا، إذا كنت ترى أن قوله تعالى "أخرج أبويكم من الجنة" يحصر جميع البشر في ذرية آدم وزوجه، ولا يتصور معه أن يكون له أب (إذ حينئذ يكون ذلك الأب هو من يصح أن يقال له ولزوجه: أبويكم، وليس آدم وزوجه)،

فأي شيء يكون تجويز ثبوت الأب إلا تجويزا لثبوت بطلان هذه الآية وكذبها؟؟ وإذا كان ثبوت الأب لآدم يسبب "مشكلة" أو "مشاكل كثيرة" مع النص القرآني ومع بعض الأحاديث الصحيحة، كهذه التي ذكرتها وغيرها، فكيف يصح لك – كمسلم مؤمن بصحة القرآن - أن تجوز ثبوته والحالة هذه؟؟! لا بأس عندك بالمشاكل الكثيرة مع القرآن والسنة؟؟ هذا كالذي يقول: أنا موقن تماما بأن 1+1 = 2، لكن إن قدر أن ثبت في يوم من الأيام أنها تساوي 3، ثبوتا قطعيا مئة بالمئة، لا يدع مجالا للشك، فحينها فقط سأنزل عن قولي الأول، وأبحث عن طريق لإعادة "توفيق أوضاعي" مع الرياضيات والجبر! هذا حقيقته أن الكاتب ليس موقنا يقينا منصرما يمتنع معه المعارض (وهو ما به يصبح الإنسان مؤمنا كما يجب على كل مسلم) وإنما هو متردد مرتاب لا يدري من أين يُلتمس العلم القطعي الصارم في تلك المسألة! يرجو من باب الأماني ألا يجد نفسه غارقا في تلك "المشاكل الكثيرة" التي يجلبها عليه ثبوت أب لآدم، إن قدر أن وقع ذلك في يوم من الأيام! فهذه والله حال مؤسفة يدمى لها القلب، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولا شك أن تجويز ثبوت معارض للقرآن كفر، وتجويز ثبوت صحة الكفر بعموم كفر، نسأل الله السلامة! فإذا حكمنا بتكفير من جعلوا لآدم عليه السلام أبا وأما (كالتمهيديين وعامة التطويريين أو القائلين بالتطور الموجه، أصحاب المذهب الشاهيني [11] وغيره من المذاهب في المسألة)، فالمتوقفون فيما إذا كان آدم عليه السلام له أب أم أنه خلق من طين كما نص عليه القرآن، هؤلاء لاحقون بهم في الحكم ولابد، والله المستعان!

ثم إن قوله "وبشكل نراه بأعيننا ولا يقبل الشك" لهو من أعجب العجب! أي شيء هذا الذي تجوز أن تراه بعينيك في مسألة أصل الأنواع؟ ميلاد آدم عليه السلام لأب وأم من القردة العليا؟؟ أم رجوع الأنواع كلها لأصل مشترك؟؟ أتوقع أن يكون هذا الكاتب جاهلا بمنطق الاستدلال والطريقة العلمية Scientific Method، وإن كان من المشتغلين بالطبيعيات والإعجاز وكذا، هذا ليس بمستغرب فيما دلتني عليه الخبرة. لكن هذا الكلام يدل على خفة عقل قلّ نظيرها! فمن الواضح الجلي أن موضوع النظرية غيب محض (حوادث وقعت في غيب الماضي البعيد ولم يشهدها أحد من البشر)، فكيف يعقل أن يطالب أصحابها بدليل هو من صنف المشاهدة المباشرة (بشكل نراه

بأعيننا) ويجوزون ظهوره في يوم من الأيام؟؟! يقول: "وهذا احتمال ضعيف أن يكتشف العلماء طريقة خلق سيدنا آدم" قلت: وما وجه الاحتمال أصلا إن كان الأمر كما وصفنا، غيب محض، وهو نفسه يستدل لغيبيته المحضة بقول الله تعالى: ((مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا))؟ لا متسع أصلا لهذا الاحتمال والحالة هذه!

يتفاوت التطويريون من أهل الكتاب (من اليهود والنصارى) في مقدار ما يثبتونه للصانع من "تدخل" في النظام الحيوي تفاوتا عظيما، فمنهم من يرفض مفهوم العشواء Randomness بالكلية، سواء على هذا التعريف أو غيره، ويصر على أن أسطورة النشوء والارتقاء الداروينية كلها قد حدثت من الألف إلى الياء بتدبير محكم، وفي إطار أسباب كلها مخلوقة، مرتبة ترتيبا محكما مقصودا، ومنهم من يجيز أن تكون الآلية عشوائية (وجوديا) مع كونها موجهة في إطار كلي مخصوص، يفضي بها في النهاية ولابد إلى ظهور النوع البشري، ودخوله في تلك العلاقة الدينية مع باريه ولو بعد بلايين السنين من العبثية والعشواء في الإنشاء والإفناء، والإهلاك والإبقاء، والله المستعان! والقصد أن مفهوم التوجيه Guidance الذي تقول به طوائف الدراونة من أهل الكتاب في زماننا من القائلين بالتطور الموجه Guided Evolution، ليس مفهوما واحدا. فما بين قائل بإثبات الرب فاعلا مريدا إرادة مباشرة لكل حادث يحدث في النظام الحيوي Biosphere من أول يوم، فلا تتطفر طفرة (نافعة أو غير نافعة) إلا وهي فعله المباشر، وهؤلاء لا يرون أفعاله الداروينية المزعومة "تدخلا"، وإنما هو تصرفه في خلقه والكيفية التي يخلق بها ما يخلق عندهم، وقائل بصانع "يتدخل" بطفرات مخصوصة في أوقات مخصوصة لضبط مسار العملية مع تركها تتحرك بآلية عشوائية محضة، مع كونه هو صانع الحياة نفسها وصانع النظام الخلوي الذي غرس فيه تلك الحياة، تراهم في تفصيلهم في تلك القضية يتفاوتون فيه تفاوتا عظيما لا زمام له ولا خطام، مغرقين في الضلالة والرجم بالغيب والقول على الله بالكذب وهم يعلمون.

فالواقع أن من اللاهوتيين النصارى المعاصرين من يسوغ لنفسه اعتناق أصل العشوائية الوجودية هذا، بما استقر لديه من اعتقاد قدري محض بشأن أفعال البشر وحرية إرادتهم في هذا العالم Free Will! وقد مر معك محاولة بلانتينغا التوفيق بين العشواء الوجودية البيولوجية ومطلق معنى وجود الباري، وكونه هو الصانع الموجه لتلك العملية من أولها إلى آخرها!

في مناظرة عقدها فيلسوف اللاهوت الأمريكي "مايكل بيترسون" مع الفيلسوف الدهري الدارويني "مايكل روز" حول العلاقة بين العلم والدين، طرح بيترسون جملة من التعريفات والحدود التي أسس عليها موقفه في المناظرة، جاء منها تعريفه للصدفة الوجودية Chance التي هي من أسس التنظير الطبيعي في قضايا النشأة، سواء كوزمولوجيا أو بيولوجيا، فعرفها على أنها "الممكنات غير المحتومة سلفا Undetermined Contingency في عالم مخلوق – إجمالا – ومحفوظ بفعل الإله." ثم قال إنها عنده تأتي

في العالم على مستويين: المستوى الطبيعي Natural Level، حيث تعتبر الممكنات غير المحتومة سلفا في دائرة النظام الطبيعي أمرا ضروريا (بزعمه) للعمليات الفيزيائية، والمستوى الإنساني Human Level حيث تعتبر تلك النوعية من الحوادث الممكنة ضرورية لحصول حرية الإرادة في الإنسان، وحتى تحصل القيمة الأخلاقية والروحية المطلوبة في حياة الإنسان!

فكأنما يقول ما دمنا معاشر النصارى لا نرى بأسا في نفي خلق الرب لأفعال العباد وإراداتهم، بل نرى ذلك ضروريا حتى يحصل المقصود من تكليف البشر (والنصارى كلهم قدرية على اختلاف نحلهم كما هو معلوم)، فلسنا نرى بأسا – كذلك – في نفي خلق الرب لكثير من حوادث الطبيعة أو تقديره السابق لها! وإذن فمن الذي يخلق تلك الحوادث عندهم، يسبب لها أسبابها من قبلها؟ لابد أنها الطبيعة وقانونها الذي يجري في تلك الفئة من الحوادث جريانا لا حكم عندهم للرب عليه ولا تصرف! وإذن، تصبح الربوبية شركة بين ثلاثة أرباب في دينهم: الإله الذي يعبدونه، ويعتقدون أنه لا يخلق إلا "تدخلا" Intervening في عالم من الحوادث العشوائية التي كان هو من بدأها ثم تكفل بحفظها، والإنسان الذي يخلق أفعاله من غير حتم أو تقدير إلهي سابق، والطبيعة التي تخلق أكثر حوادث العالم من غير تقدير إلهي سابق! مع أن وصفه الصدفة الطبيعية بأنها حوادث الطبيعة الممكنة غير المحتومة سلفا (أي من قبل رب العالمين)، مع كونها خاضعة في أصل جريانها ومجراها نفسه لخلق الرب، هذا غير مطابق لاعتقاد الدراونة بطبيعة الحال! لأن العشواء أو الصدفة الوجودية عندهم غير مسبوقة ولا معللة بشيء على الإطلاق، إلا أن يكون سببا طبيعيا راجعا إلى صدفة أخرى مثلها، مع ما اتفق – بالصدفة أيضا - من جريان القانون الطبيعي على نحو معين لا على غيره! أما هذا التصور للعشواء والصدفة الوجودية، فعلى الرغم من تكلفه ما تكلف من تسويته إياه بمفهوم حرية الإرادة عند الإنسان المخلوق، إلا أن خصومه ما كانوا ليقبلوه منه، بل يعتبر منه بمنزلة محاولة لإقحام إله النصارى في أصل أسطورتهم الدهرية!

ونحن المسلمين نقول إنه لا وجود للصدفة الوجودية (أو الممكنات غير المحتومة سلفا على حد عبارة هذا الرجل) في العالم البتة ولا في شيء من قوانينه ونظمه، وإنما يوجد عند أهل الأهواء من أهل الملل استدلال بعدم العلم (أي بالعلل والأسباب والحكم) على عدم الوجود! ولا وجود كذلك لوقائع من الإرادة والفعل البشري لم يسبق في علم الله تعالى تقديرها ثم مشيئتها وخلقها، وإنما توجد سفسطة على تقدير وخلق الأفعال والإرادات

البشرية سلفا مفادها أن ذلك يقتضي الجبر ويذهب بحرية الإرادة، التي هي مناط المدح والذم والتكليف في الإنسان!

فتأمل كيف لا يبالي اللاهوتي النصراني بما يرجع على صفة ربه من نقص وتوهين وتعطيل بل تدمير بسبب قبوله مسألة الفوضى أو العشواء الوجودية هذه، وبما يقتضيه كلامه من جعله شريكا لخلقه في خلقهم، رجاء أن يظهر أمام سادة الأكاديميات الطبيعية في مظهر المفكر العصري المستنير، المعتنق لتلك النظريات الكونية والبيولوجية (التي لا قيام لها عند الطبيعيين إلا بإثبات الفوضى الوجودية)! فهو على عادة اللاهوتيين النصارى ما يريد إلا أن يتمكن من أن يوائم بين النحلة الفلسفية السائدة أكاديميا في زمانه وبين أصول النصرانية التي يعرفها تماما المواءمة، على أساس أن دينه لن ينهض في نفسه معرفيا إلا بالتأسيس على تلك النظريات، والله المستعان! وكذلك الخلقويون التصميميون، كما رأينا، لم يروا لأنفسهم جوابا عن اتهام الخصوم الدهرية إياهم بإيمان السفهاء وخفة العقل، إلا بأن يعتمدوا آليتي العشواء والفوضى الوجودية مع القانون الطبيعي عند داروين، ثم يضيفوا إليهما آلية تصميم تظهر أحيانا في بعض أنواع المخلوقات الحية!

هذا المسلك التلفيقي بين مبدأ العشواء الوجودية Chance ومبدأ الخلق المرتب Ordered Creation، تفننت طوائف من النصارى المعاصرين في تشييده وزخرفته بدعوى أن العشواء أو الصدفة الوجودية هذه هي طريقة الرب في الخلق، مستندين في ذلك التخريج بالغ التناقض إلى فلسفة وميتافزيقا توما الأكويني، فيما سماه بعضهم بالتطور الأكويني Thomistic Evolution!

فعلى سبيل المثال، يضرب الكاهن اللاهوتي الكاثوليكي الأكويني "توماس جوزيف وايت" T.J. White في محاضرة له بعنوان "الإله بعد داروين: هل النصرانية والتطور متوافقان؟" (وهو السؤال الذي أجاب عنه بالإيجاب والقطع بطبيعة الحال!) مثلا ليبين مسألة "الفوضى الخلاقة" Creative Chaos هذه التي يعتقد القوم أن الإله يخلق بها، وهو بالمناسبة مثل يستعيره من كلام قديم لبعض فلاسفة اليونان (الذين كانوا يعتقدون كذلك أن أصل الإنسان يرجع إلى عمليات فوضوية صدفوية محضة) فيقول إن الحادث الذي به التقى والده بوالدته كان حادثا عشوائيا لا سبب له ولا تخطيط، ومع ذلك فقد ترتب عليه مولده هو، وخلق جميع ما فيه من قدرات وعقل، وإحداثه هو جميع ما أحدثه في حياته من أقوال وأفعال .. إلخ! فبهذا يرى أنه برهن على أن العشواء الوجودية Ontological Chance متجذرة في جريان نظام الخلق الإلهي، وأن الرب يخلق بها ويستعملها، لا أنه يتدخل أحيانا فيحدث ما يريد في العالم على الرغم منها! فإذا كان ذلك كذلك، فما

المانع من قبول العشوائية الوجودية الداروينية كركن ركين لعملية الخلق الإلهي في العالم؟

والعجيب أنه لا يخفى عليه أن من الفلاسفة من نفى معنى العشواء الوجودية ونسبه كله إلى النقص المعرفي، أو ما سموه بالعشواء أو الصدفة المعرفية Epistemic Chance، وهذه هي حقيقة الصدفة أو العشواء التي يتعين على العقلاء أن يقولوا بها، أن الحكم على حدث ما بأنه وقع صدفة أو بلا ترتيب، إنما هو حكم بعدم العلم بالترتيب من جهة من يحكم به، وأن عدم العلم لا يقتضي عدم الوجود كما هو متقرر في البداهة! فكيف براهب يؤمن بأن للعالم ربا صانعا لا يثبت له في العقل استحقاق منزلة الربوبية ومن ثم الألوهية حتى يثبت له كمال العلم والقدرة والسلطان على جميع ما في هذا العالم من حوادث وأسباب ومتولدات؟؟ كيف لا يؤمن هذا بأن ما ظاهره الصدفة في معرفة أحدنا، فإنما هو في الحقيقة تدبير إلهي وتقدير رباني محكم يقضيه الرب على وفق إرادته وحكمته، ليقضي به ما يشاء ويختار؟ كيف يميل رجل كهذا إلى قبول الصدفة الوجودية وترك الصدفة المعرفية في دراساته اللاهوتية؟ السبب في ذلك، أيها القارئ الكريم، هو أن القوم عندهم في دينهم ما يمهدهم لقبول تلك الدعوى الخبيثة بشأن الصدفة والعشواء! فهم يعتقدون بالفعل أن الرب ليس له سلطان على أفعال البشر واختياراتهم، فلا يخلق فيهم إراداتهم ولا يخلق أفعالهم ولا شيء من ذلك، وأنه كان لزاما عليه أن يترك خلق الأفعال للبشر حتى لا يكون قد "أجبرهم" على تلك الأفعال! هذه القدرية المتأصلة في اللاهوت النصراني هي التي سوغت لهم فكرة الرب الذي لا يعلم ما يقع على خلقه حتى يقع، أو ربما يعلم ولكنه لا يقدر على منعه، وإنما "يتدخل" في الواقع بعدما يقع، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا!

كان توما الأكويني متأثرا بفلسفة أرسطو في العلاقة بين "المحرك الأول" والعالم، إلى حد أنه كان يرى أنه حتى لو لم يكن للعالم بداية، فهو مخلوق للرب بمقتضى أن وجوده نفسه ووجود كل حادث يحدث فيه إنما يستمد وجوده، لحظة بلحظة، من وجود الرب واجب الوجود. فبناء على هذه الفلسفة، وإلى جانب قدرية القوم وكونهم يعتقدون جواز خروج بعض الحوادث عن تدبير الرب وعلمه ومشيئته المباشرة، بناء على هذه المقدمات، وضع اللاهوتيون الكاثوليك الأكوينيون نظريتهم اللاهوتية التطورية القائلة بما خلاصته أنه لا إشكال على الإطلاق في قبول أي دعوى يأتي بها الطبيعيون بشأن العشواء الوجودية Chance في قصة "ترقي الكون" وقصة "ترقي الأنواع الحية"، لأن ذلك كله لا يتنافى بزعمهم مع وجود الرب الذي هو عندهم خالق بمقتضى وجوده نفسه (فلا يوجد شيء إلا وهو يعطيه

الوجود)، فلماذا لا يكون مما أوجده الرب هو تلك "العشواء الخلاقة" التي لم يقرر لها من قبل مسارا مخصوصا أو يرسم لها طريقا تجري فيه؟ هكذا قالوا، وبئس ما قالوا!

فإذا كان الطبيعيون الدهرية قد اتخذوا من الطبيعة أو من الكون نفسه ربا صانعا مع التكذيب بالفاعلية والصانعية وسائر معاني الربوبية، فقد تابعهم أكثر اللاهوتيين المعاصرين من أهل الكتاب على نزع كثير من صفات الربوبية عن إلههم المعبود، رجاء أن يجدوا له متسعا في تلك المنظومة الميتافزيقية الطبيعية المحضة التي أصبحت هي "العلم الحديث" الذي لا يرده في دين القوم إلا جاهل سفيه! وما كان القوم ليعلنوا الانخلاع من دينهم، وما كان القائمون على الكنائس الغربية ليتنازلوا عن سلطانهم الديني بحال من الأحوال، فما المخرج إذن، وقد صار الناس يدخلون في دين الطبيعيين أفواجا؟؟ المخرج على عادة القوم: أن يصبح الدين الطبيعي هو الدين النصراني نفسه، وهو ما تدعو إليه الكنيسة! وإذا كان من منهج الجهمية والمتكلمين بعموم، تكييف وإعادة اصطناع الدين بحيث يتأسس الاعتقاد الغيبي فيه على أحدث نظريات الفلاسفة الأكاديميين المعظمين في عصرهم، فلن تجد من هو أغرق في ذلك من لاهوتيي النصارى!

ولذا ظهر لدى النصارى الغربيين خلال القرنين الماضيين نحل فلسفية شتى توصف إجمالا بالحلولية الجزئية Panentheism، أو ما يسمى أحيانا بوحدة الوجود الطبيعية النصرانية Christian Pantheism، كما ظهرت فلسفات يقال لها Christian Deism أو الربوبية النصرانية، ويسميها بعضهم بالدين الطبيعي للمسيح Natural Religion of Jesus (والمسيح منهم جميعا بريء، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام)، وهذا كله من أثر التشبع بنظريات الطبيعيين المعاصرة التي اقتحمت الغيب المحض في أصل العالم وفي صفته وهيئته، لا سيما نظرية النشأة الحيوية (الارتقاء الدارويني) ونظرية النشأة الكونية (الارتقاء الكوزمولوجي أو الانفجار العظيم). وكل نحلة من تلك النحل الفلسفية المعاصرة هي ملة مستقلة، يعتنق أصحابها صورة من صور الصانع الطبيعي الوهمي الذي قال به الفلاسفة الطبيعيون المعاصرون بعدما نفوا ما وراء الطبيعة وكل ما هو خارج عنها، وبين الرب الخالق، الآب الذي في السماء، الذي تقول الكنائس النصرانية بأنه هو خالق الطبيعة، البائن منها، الخارج عنها بذاته (على الأقل في أقنوم واحد من أقانيمه الثلاثة المزعومة عندهم)! فبدا للأضعف نفسا من هؤلاء أنه لا سبيل ولا مخرج من ذلك إلا بتحويل الدين النصراني إلى دين طبيعي على دركة من دركات الحلولية أو الاتحادية أو الربوبية، بل بلغ بعضهم أن حول مبدأ وجود الرب ومبدأ الغيب نفسه إلى أمر مجازي، إنما خوطب الناس به على سبيل ضرب

المثل، والله المستعان! فوالله لا أدري أي شيء يبقى لرجل ينسب نفسه إلى دين كتابي من جملة الملل الكتابية، وهو يكذب بالرب الذي يعبدونه ويحمل كتابهم كله الذي يسنبونه إليه على المجاز وقصص ألف ليلة وليلة؟! هم لا يريدون من الدين إلا تلك المزايا الاجتماعية والسياسية التي ترجع على من يصرح باعتناقه وينخرط في ممارسته، أو على الأقل يسلم من التصريح بمفارقته! ما يريد أحدهم ربا ولا شريعة ولا شعيرة ولا شيء من ذلك، وإنما يحلو له زيارة الكنيسة في يوم الأحد من أسبوع، ليتلذذ بالحالة الاجتماعية العامة التي يخلقها مبدأ التعبد الجماعي داخل الكنيسة، فلا فرق في الحقيقة بين هؤلاء (العلمانيين النصارى الغلاة Secular Christians) وبين طوائف الإنسانيين المتدينين Religious Humanists الذين مر معك الكلام عليهم في الباب الأول من هذا الكتاب، إلا الاسم لا غير! هؤلاء اسمهم نصارى، إذ اختاروا البقاء على اسم النصرانية بعد تفريغها من مضمونها الاعتقادي، وأولئك سموا أنفسهم بالإنسانيين المتدينين إذ لم يبق لهم من النصرانية إلا ممارسة بعض التقاليد الاجتماعية كحضور القداس في الكنيسة وشهود احتفالات الكريسماس ونحو ذلك!

ومن أولئك المتعلقين بالنصرانية تعلقا اسميا لا غير، من يقول في إطار محاولتهم التسويغ لإغراقهم الرب الباري جل شأنه في خلقه إغراق الوثنيين والطبيعيين: إن الثالوث النصراني المزعوم لا يفهم حق الفهم إلا بالقول بصورة واحدة على الأقل من صور الحلولية Panentheism! فالروح القدس (التي هي الأقنوم الثالث عندهم) على عقيدة القوم، قوة باطنة متخللة في أنحاء العالم، فإذا قالوا إنه هو الإله أو من ذات الإله حقيقة، فهم قائلون بالحلول ضرورة وبداهة! وكذلك في الأقنوم الثاني، الابن، إن قالوا إن شق اللاهوت المزعوم فيه (أي في قولهم باللاهوت والناسوت) هو من ذات الله (وهم قائلون بذلك لا محالة، إذ لا معنى للاهوت ولا فرقان بينه وبين الناسوت إلا بذلك)، كان مولد المسيح وحياته في الأرض حلولا كذلك بالضرورة! فمن قال إن النصارى من الأصل حلوليون لم يبعد النجعة! قلت: وهذا الكلام وجيه ولا شك! فثلثا الثالوث يوصفان بالحلول في العالم كما لا يخفى. لكن هم لا يقولونه من أجل إبطال الثالوث ودعوة القائلين به إلى التوحيد الخالص الذي جاء به خاتم المرسلين، وإنما يقولونه من أجل أن يسوغوا لأنفسهم مزيدا من تلبيس الرب الصانع بصنعته، ومن إحلاله في خلقه وإغراق ذاته العلية في مادة هذا العالم، ولا حول ولا قوة إلا بالله! لسان حالهم يقول: لا ترمونا بالحلولية وكأنما هي تهمة في الدين، فأنتم أيضا حلوليون!

وأما عند اليهود، فقد كان لفلسفة "باروخ سبينوزا" Spinozaic Pantheism (فيلسوف التنوير الألماني يهودي الأصل) في القرن السابع عشر الميلادي، أثر بالغ في اللاهوت اليهودي خلال القرنين الأخيرين، إذ أنبتت ميتافزيقاه فرقا ومللا بقيت منتسبة إلى اليهودية مع كونها على التحقيق علمانية طبيعية متمحضة في القول بجعل الله هو نظام الطبيعة، ونظام الطبيعة هو الله! ومن ثم ظهر ما بات يعرف بتوحيد الوجود الطبيعي اليهودي Jewish Naturalistic Pantheism. وبسبب فلسفة سبينوزا، استجاز أمثال أينشتاين أن يصرحوا بالبقاء على يهوديتهم مع أنهم في الحقيقة يجحدون الرب جل شأنه، يجعلونه هو مادة الطبيعة ونظامها! ومع أن أحبار اليهود في زمان سبينوزا في أمستردام قد حكموا بكفره ووجوب قطعه وهجره على كل يهودي، حتى أقرب الناس إليه، ومنعوه من دخول معابدهم ومن مؤاكلتهم ومجالستهم .. إلخ، إلا أنه يراه بعض فلاسفة اليهودية المعاصرين بمنزلة الملهم المنقذ الذي فتح الباب أخيرا أمام اليهود لأن يكون لديهم تصور للإله يوافق ويلائم الكوزمولوجيا والبيولوجيا والجيولوجيا وغيرها من "اللوجيات" المعاصرة، إلى حد أن حاول "بن غوريون" (مؤسس دولة إسرائيل) أن يمنح سبينوزا الجنسية الإسرائيلية، ولو بعد وفاته بقريب من ثلاثة قرون!

والذي حمل سبينوزا على اختراع تلك الملة المتهافتة وادعاء أنها هي الاعتقاد اليهودي الصحيح، هو أنه بدأ – كما هي بداية كل فيلسوف – بوضع تصور كوني وميتافزيقي شامل لمبدأ العالم وحقيقته! فوضع نظرية ميتافزيقية عدها الفلاسفة من النظريات القائلة بأحادية الماهية Monism، حيث جعل مادة العالم كلها راجعة إلى مكون أساسي ما Fundamental Substance، ثم قال (في الباب الأول من كتابه *Ethica*) إن ذلك المكون الأساسي لا يمكن أن يتوافق Be Compatible (من حيث التأثير والتأثر السببيين) إلا مع نظيره من نفس نوعه، إذ لو قدر وجود مادتين أساسيتين في الخارج، تختلفان في جميع الصفات، لامتنع أن تؤثر إحداهما في الأخرى أو أن يخضعا جميعا لنظام واحد أو قانون واحد! وإذن لزم – بزعمه – أن يكون العالم كله مبنيا من مكون أساسي واحد! ثم مدد الرجل نظريته لتشمل كل موجود في الأعيان، فقاس ربه على العالم ومادته التي فرضها له في نظريته، وقال إنه إن قدر أن كانت مادة الرب مخالفة لمادة العالم، مغايرة لها، لم يكن من المتصور في العقل أن يحصل اتصال بين الرب والعالم، فضلا عن أن يكون العالم نفسه ناشئا عن فعل الرب! وإذن لزم أن يكون الرب من نفس مادة العالم! وعليه قال بما معناه أننا إن قدرنا أن كان العالم والرب من مادة واحدة، وكان لابد في مادة الرب أن تكون فريدة مميزة لا نظير لها من نوعها، حتى يصح أن يقال في الرب إنه أزلي بلا

ابتداء، أبدي بلا انتهاء، كما هو اعتقاد اليهود، لزم ألا تكون مادة العالم موافقة لمادة الرب في أي صفة من صفاتها، وإذن امتنع حصول التعلل والاتصال السببي فيما بينهما، إذ لا تتعدد المواد المتفردة نوعا إلا لزم من ذلك التعدد انفصالها كلها عن بعضها البعض، وعدم حصول تأثير أو تأثر متبادل بين أنواع المواد المختلفة! وإذن يترتب على ذلك ضرورة أن يكون الرب والعالم شيئا واحدا، من مادة واحدة متفردة!

ولا شك أن هذا الهراء كله من أوله إلى آخره راجع إلى قياس فاسد على فرض فاسد! فأما الفرض الفاسد فهو الزعم بأن جميع أنواع الموجودات في العالم المحسوس لابد وأن تكون راجعة في الحقيقة إلى "مادة" واحدة، وكذلك القول بأن الأشياء لا تؤثر ولا تتأثر ببعضها البعض إلا إن كانت راجعة في بنائها الأساسي Fundamental Structure إلى "مادة واحدة"! فنقول: ما يدريك أن العالم كله من أوله إلى آخره يتركب من مادة واحدة، أو بأن جميع الموجودات فيه لابد أن تكون قابلة للتفكيك مرة بعد مرة وصولا إلى مكون أصلي واحد؟ هذا زعم عريض لا يقوم به قائم في العقل ولا في الحس! ثم كيف يكون العالم كله مركبا من مادة واحدة ولا يزال العقلاء يفرقون فيه بين أنواع المواد التي تتركب منها الأشياء المحسوسة يتتبعون خصائصها ويصنفونها تصنيفا؟ فإن فرضنا أن المقصود لديه بالمادة الواحدة هذه هو أن جميع أنواع المواد ترجع إلى مادة واحدة تتركب منها على غرار نظرية الجوهر الفرد، فهذا زعم فاسد لا دليل عليه بل الأدلة العقلية والحسية على خلافه كما بسطنا الكلام عليه في موضع لاحق عند الكلام على نظرية الجوهر الفرد، فلينظر ثم. فعلى أيما وجه كان مقصوده بالمادة الأحادية هذه فهو صاحب وهم ميتافزيقي لا يقل فسادا عن نظريات اليونانيين إن لم يكن أعظم منها فسادا!

وأما قوله بأن المادة أو الشيء المعين في الخارج لا يكون "متفردا" إلا بأن يخالف في جميع صفاته غيره من الأشياء، فهذا خرف ميتافزيقي لا حقيقة له إلا في الأذهان والأوهام! فإن مجرد كون الشيء يصح فيه الوصف بأنه "شيء"، يقتضي اشتراكه مع غيره من الأشياء ولو على الأقل في معنى الوجود في الأعيان (وما يتعلق بهذا المعنى من لوازم بدهية) ومعنى كونه شيئا! فإن كان يشترط في الرب الذي يعبده بنو إسرائيل أن يكون مخالفا لكل شيء في جميع الصفات، فهو إذن يشترط فيه أن يكون عدما يمتنع وجوده إلا في وهمه هو وأمثاله! وأما قوله بأن الأشياء لا يؤثر بعضها في بعض إلا إن كانت مشتركة في صفات معينة أو ترجع إلى تلك المادة الواحدة، فأيا ما كان مقصوده بالمادة الواحدة فهو كذلك تحكم وخطل يخالف العقل والفطرة لم يأت بدليل عليه إلا التحكم والتعسف، وهو شرط

باطل لاقتضاءه قدم العالم الذي هو باطل في بداهة العقل! إذ لو قدر أن كان الحادث لا ينشأ إلا عن نظيره في الحقيقة والكيفية، للزم تسلسل العلل بلا بداية! وقد تفطن سبينوزا لذلك اللازم ولم يبال بالتزامه، فزعم أن العالم قديم وأنه لم يزل يتجدد ويتغير من صورة إلى صورة، بحيث لا يؤثر فيما هو طبيعي إلا ما هو طبيعي! وأما قياسه الخالق على المخلوق في صفة التركب من وحدات أساسية متماثلة، فقياس فاسد بالضرورة والبداهة، لأن مبدأ التركب من وحدات هذا، إنما هو من لوازم المخلوقية، إذ لا يكون الشيء قابلا لتفريق أجزائه وتجميعها إلا أن يكون مسبوقا بمن صنعه فجمعه وركبه من بعد افتراق وتفكك! فبعيدا عن حقيقة كون هذه طريقتنا نحن البشر في التخليق والتصنيع، ولا مستند على الإطلاق لادعاء أنها هي طريقة الخالق سبحانه في صنعه ما يصنع (بل جاء السمع بخلاف ذلك)، فلا يجوز في العقل جعل ذات الرب نفسها "مركبة"، لأن التركيب خلق، والبداهة تقضي بكونه سبحانها قيوما صمدا غير مخلوق!

والقصد أنك لا تجد عند سبينوزا في تأسيسه لدعواه بأن الصانع لابد أن يكون هو عين المصنوع، إلا طبقات من الزعم الميتافزيقي الأجوف المشحون بالمغالطات الفجة، على غرار نظرية الجوهر والعرض اليونانية القديمة، فيما يبدو أن سبينوزا كان يرجو به أن ينزل نفسه منزلة أرسطو بين فلاسفة التنوير الأوروبي في عصره! فبناء على هذا الهذيان، ذهب سبينوزا إلى تجريد رب العالمين من صفاته، ومن ثم إلى جعله متحصلا في العالم نفسه Immanent لا متجاوزا له مباينا له بذاته Transcendent كما هو اعتقاد اليهود! ولم يكن من عجب أن تفلسف الرجل – تبعا ليمتافزيقاه سالفة الذكر - في إعادة توصيف العلاقة بين بني إسرائيل وبين الرب جل وعلا، التي نشأ عليها في دين اليهودية، فقال إن الرب لم "يختر" بني إسرائيل اختيارا عليما حكيما ولم يرد لهم أن يكونوا هم المقدمون على غيرهم، وإنما جرت قوانين الطبيعة وأسبابها على النحو الذي أجراه هو وحكمه وضبطه ضبطا نظاميا، فاتفق لبني إسرائيل في ظل ذلك وعلى أثره من الأسباب ما جعلهم أقوى وأصلب من غيرهم من الشعوب، وأشد حرصا على الحفاظ على بقائهم واستمرارهم كأمة مستقلة، فكأنما انتخبتهم الطبيعة ليكونوا هم "شعب الله المختار"، لا أن الله اختارهم حقيقة! فإن الإله الذي انتهى إليه سبينوزا لا يفعل ولا يريد ولا يختار ولا يرسل الرسل ولا ينزل الكتب ولا اتصال للبشر به أصلا! ولا أستبعد أن تكون هذه النهاية التي انتهى إليها الرجل فيما يتعلق بمنزلة بني إسرائيل والمصدر الغيبي الذي تستمد منه تلك المنزلة عند اليهود، هي التي أثارت عليه حنق المجتمع اليهودي في أمستردام، وليس ما حرره من اعتقاد في ذات الله وصفاته، والله أعلم!

هذا – بإيجاز – هو اعتقاد سبينوزا الذي لم يزل الطبيعيون المعاصرون يدندنون حوله في كل مناسبة، مستأنسين بتعلق أينشتاين به. والواقع أن أينشتاين لم يتوصل إلى القول بإله سبينوزا تأسيسا على ميتافزيقا سبينوزا، وتقديما بمقدماته، وإنما ذهب إليه تأسيسا على ميتافزيقاه هو في النسبيتين الخاصة والعامة، كما بسطنا الكلام عليها في موضعه من هذا الكتاب، وعلى مقتضياتها الاعتقادية التي كان الرجل أذكى من أن يغفل عنها وأشد جحودا وجرأة على الله تعالى من أن يسكت عنها ولا يصرح بالتزامها! فإذا كان الشيء الوجودي لا يوصف بالوجود في الخارج إلا إن كان لوجوده اشتراك ضروري مع وجود غيره من الأشياء في معاني الزمان والمكان (فيقال إنه موجود داخل العالم أو خارج العالم، ويمتنع في العقل نفيهما جميعا، ويقال كذلك إنه كان موجودا في الماضي أو لم يكن، أو هو موجود الآن أو غير موجود، أو سيكون موجودا في المستقبل أو غير موجود، مع امتناع نفي الضدين معا في جميع ذلك)، وإذا صارت معاني الزمان والمكان نفسها لا تنطلق إلا على كل ما هو واقع داخل حيز الزمكان الوجودي المزعوم الذي جعله أينشتاين تفسيرا للجاذبية، لزم أن يمتنع وجود شيء خارج ذلك الزمكان الوجودي المزعوم، لأنه لا خارج له أصلا، إذ لو صح في شيء أن يوصف بأنه "خارج كذا"، فهو إذن داخل في مادة المكان التي هي جزء من نسيج الزمكان! كما أنه لا قبل له ولا بعد، إذ لو صح في شيء ما الوصف بأنه كان قبل كذا، فلابد أن هو وذلك الكذا داخلان في مادة الزمان التي هي جزء من نسيج الزمكان! فلزم من ميتافزيقا النسبية العامة نفي وجود الباري خارج العالم، ونفي تقدمه عليه، وحصره – على تقدير وجوده – داخل نسيج الزمكان! فإن أفضت الكوزمولوجيا إلى الزعم بكون قديم ثابت لا بداية له، كان الصانع الأينشتايني قديما لأن الزمكان إذن يكون قديما لا بداية له، وإن مال بها أصحابها إلى القول بكون متغير له بداية، لزم أن يكون الصانع حادثا بحدوث الزمكان نفسه!

وأما النسبية الخاصة ففيها نفي التزامن المطلق (كما بيناه بتفصيل في موضعه من هذا الكتاب)، أي أنه لا يقال للشيء إنه وقع في الماضي أو يقع الآن أو هو واقع في المستقبل، إلا بحكم نسبي مبناه على رصد الراصد في الإطار القصوري الذي هو فيه! وهو ما يقتضي نفي كافة الصفات الفعلية عن ذات الصانع عند التأمل، لأن الإرادات والأقوال والأفعال الإلهية إنما تقع على نحو يوجب العقل أن يكون له ترتيبه الزماني وتتزامن معه كافة حوادث العالم (التي هي كلها من خلقه وإحداثه سبحانه) تزامنا حقيقيا في خلق الباري بصرف النظر عن رصد الراصد، فيكون حاضره هو الحاضر المطلق في علمه سبحانه، وماضيه هو ماضي العالم المطلق ومستقبله هو المستقبل المطلق في تاريخ العالم، وإن لم يرصده أحد! فما فعله الرب

في الماضي وقضى أمره فهو في الماضي على الحقيقة، فإن قدر أن راصدا بشريا رصده في الحاضر لا في الماضي وظن أنه لم يقع إلا الآن، فهو إذن على جهل بزمانه الحقيقي، يرصده بعد وقوعه بمدة، ولا يقال – كما عند أينشتاين - إن زمان وقوعه هو الآن على الحقيقة في إطاره القصوري وليس في الماضي، خلافا لما تكون عليه الحال في الأطر القصورية الأخرى! أي أن إثبات رب فاعل ذي إرادة، قائم على أمر العالم، كما هو اعتقاد أهل الملل الثلاثة، يقتضي إثبات تزامن أفعاله وأقواله وإراداته تزامنا حقيقيا، أي أنه تنزل منه الأوامر والأقضية وتصدر عنه الأفعال بحيث لا تمر اللحظة الحاضرة (التي هي حاضرة على الحقيقة) إلا وقد حدث فيها من فعله ما لا يحصيه أحد سواه، على تزامن حقيقي لا يحيط بعلمه أحد سواه! فيكون ذلك التزامن حقيقة في نفس الأمر بصرف النظر عن رصد الراصد البشري! وهذا ما يقال له في اصطلاح الفيزيائيين المعاصرين بالتزامن المطلق Absolute Simultaneity!

فإذا قيل بنفي التزامن المطلق بهذا المعنى، وتحويله إلى أمر نسبي راجع إلى رصد الراصدين في الأطر القصورية، كل إطار بحسبه، لم يبق أي معنى لأن يقال إن الرب خلق آدم قبل خلقه الطوفان، مثلا، أو فعل كذا قبل فعله كذا على الحقيقة، أو قال كذا بعد قوله كذا على الحقيقة، أو أنه الآن يرزق نملة في الأرض في روسيا في نفس اللحظة التي يرزق فيها حوتا في المحيط الهادي، أو أنه يفعل أفعالا متزامنة تزامنا حقيقيا، علم بذلك من علم وجهله من جهل، وبصرف النظر عما يبدو لهذا الراصد أو غيره، وإنما يقال في التزامن: حدث كذا قبل كذا أو بعده أو بالتزامن معه، بالنسبة لمن؟ فإن الحادث (أ) والحادث (ب) لا يصح عند أينشتاين أن يقال إن أحدهما قد وقع قبل الآخر على الحقيقة بصرف النظر عن رصد الراصد، وإنما يقال إذا كان أحد الراصدين يرى (أ) قبل (ب) في إطاره القصوري، فلابد أن غيره يراهما متزامنين، وربما رأى راصد ثالث الحادث (ب) يتقدم على (أ)، على عكس ما رصده الأول! فيصبح لهذا ترتيبه الزماني الخاص به، الذي هو حق مطابق للواقع في إطاره القصوري، ولذاك ترتيبه الزماني الخاص، الذي هو حق مطابق للواقع في إطاره القصوري، كل منهم بحسبه، من غير أن يقال لأحد الترتيبين إنه موافق للواقع والآخر متوهم مظنون! ومن ثم لزم من ميتافزيقا النسبية الخاصة تعطيل الرب جل وعلا عن جميع صفات الأفعال وتحويله إلى كيان ربوبي محض [12]، لم يزد على أن تسبب – بصورة ما أو بأخرى لا حقيقة لها إلا في الأوهام – في وجود ذلك البحر الزمكاني الخرافي في الخارج، الذي تعلق فيه الحوادث كلها بلا ترتيب معين إلا ما يتفق للراصد أن تحمله حركته في إطاره القصوري المعين على أن يدركه لنفسه، فيصبح هو "سهم الزمان" بالنسبة له! ومن ثم يصبح القول بتعليل حادث من الحوادث بحادث

آخر متقدم عليه، وإثبات العلاقة السببية في الواقع بين الحادثين، أمرا نسبيا كذلك، من حيث حصوله في الأعيان، لا من حيث دركه في الأذهان، يتوقف توقفا وجوديا على تفاوت احتمالات رصد الحادثين جميعا من أطر قصورية مختلفة، كما بينا تلك المسألة في موضعها!

فالظاهر أن أينشتاين لما تفطن لتلك اللوازم من ميتافزيقا نسبيتيه (القول بالربوبية Deism على أثر النسبية الخاصة، والقول بتوحيد الوجود الطبيعي Pantheism على أثر ميتافزيقا النسبية العامة)، لم يجد بدا من التعلق بإله سبينوزا، الذي هو وهم لا حقيقة له في الخارج، ولا يراد به في واقع الأمر إلا نظام الطبيعة نفسه وقانونها الذي عنه ينشأ كل سبب، وبه يتم تعليل كل شيء، على عقيدته كما على عقيدة سبينوزا!

والقصد أنه إذا بدأ الفيلسوف بإعمال الطبيعية المنهجية على تصوره للكون وحقيقته وأوله وآخره وما وراءه، فهو واقع لا محالة في تشبيه الأفعال الذي يفضي به لا محالة إلى تعطيل صفات ربه جل جلاله، فلا يزال ينزع عنه الصفات والأفعال، وينحيه عن التأثير في حوادث العالم، حتى يبلغ ألا يجعله يزيد على مجرد "شرارة ابتداء" في أول لحظة من تاريخ العالم انطلقت منها قوانينه التي كانت هي الصانع الحقيقي الذي أحدث فيه كل شيء، وضبط فيه كل شيء!

ومن لاهوتيي اليهود في زماننا من اتخذ من وحدة الوجود القابالية Cabbalistic Pantheism، التي هي عندهم نظير فلسفة الغلاة من الصوفية القبورية من المنتسبين إلى ملتنا، مستندا لطبخ الاعتقاد اليهودي والنحلة الداروينية في نشأة الأنواع الحية (نشأة متمحضة في السببية الطبيعية بلا فاعل بالغيب ولا حكمة ولا إرادة ولا شيء من ذلك)، طبخا تستيغه أفواه الجهلاء والسفهاء من أهل الملة! فعلى سبيل المثال، فقد ذهب الحاخام الإسرائيلي القابالي المعاصر "أبراهام إسحاق كوك" A. I. Kook إلى القول بأن العالم إنما هو كائن حي متماسك الأعضاء، فما من شيء من موجوداته إلا هو عضو من أعضاء ذلك الكائن الحي الواحد، وهو كذلك كالشجرة، تتفرع فروعها كلها عن أصل واحد ومن جذع واحد، ألا وهو المنبع الإلهي الذي منه ينبع العالم! ولن يظهر للناسك اليهودي ذلك الواقع الوجودي المزعوم، بحسب كوك، ولن يرى الحقيقة الكامنة الباطنة خلف هذا الواقع، حتى ينزع أستار المادة عن عينيه، ويدرك "روحانية" العالم على ما هي عليه بزعمه! [13]

ثم بعدما يقرر الرجل وحدة الوجود من ذلك المدخل الباطني القابالي التقليدي عند تلك الفرقة اليهودية التي هو إمام من أئمتها، تراه يأتي إلى

نظرية داروين فيقرر قبولها كما هي، الأسطورة التاريخية بحذافيرها، مع آليات التطور المزعومة التي أنشأتها عند القوم، يقبل ذلك كله، ثم يقول إن تلك الآليات إنما هي بعض صور جريان "القوى الإلهية" Divine Forces في الواقع المحسوس! هكذا بكل سهولة! فإذا كان الكائن الحي ينمو ويتطور، فما ذاك إلا لأن العالم المادي بكليته ينمو ويتطور، وإنما يكون له ذلك لأنه ليس في حقيقته إلا تجسد الحركة الإلهية أو الروحية في صورة ذلك الكائن الحي الواحد العملاق الماضي في نموه وتطوره، وليست المادة إلا ذاك الستار الذي يخفي ذات الصانع نفسه في باطنه وفي أساس كل موجود، فنتوهم نحن أننا ننظر إلى العالم وإنما ننظر إلى صانعه على الحقيقة! وإذن، فعلى عقيدة الرجل القابالية الاتحادية هذه تكون آليات النشوء والارتقاء الداروينية في حقيقتها من جملة الصفات المادية "المتوهمة" لتلك الحقيقة الروحية الباطنة في العالم التي هي ذات الصانع نفسه على اعتقاده، سبحان الله وتعالى عما يصفون! وهي (أي تلك الآليات) عنده من صفة الرب لا من حيث كونها أفعاله كما على عقيدة التطويريين، فالرجل لا يتكلف التلاعب بآليات داروين يجعل الانتخاب الطبيعي انتخابا إلهيا، والطفرة العشوائية طفرة إلهية، فعلا بعد فعل (أو "تدخلا" بعد "تدخل" على طريقة القائلين بالتطوير أو التطور الموجه من أهل الكتاب)، وإنما يأخذ كافة آليات الدراونة كما هي على عشوائيتها الوجودية وغيرها من مسلمات الأنطولوجيا الدهرية في أصل النظرية نفسها (كدعوى السببية الطبيعية المغلقة Closed Natural Causality / Physical Causal Closure أو التعلل التام لجميع الحوادث بالقانون الطبيعي Complete Causation، ومسلمة الاستمرارية المطلقة في الماضي والمستقبل Uniformity Principle، ومسلمة عشوائية الحركة في مادة العالم Random mobility ولاغائيتها A-teleology) ليجعلها جزءا من واقع تطوري كلي شامل ليس في حقيقته إلا ذات الرب تتجلى، والله المستعان! فهذه وحدة وجود قابالية يهودية Cabbalistic Pantheism، استطاع صاحبها أن يدخل تحتها وحدة الوجود الطبيعي الداروينية Naturalistic Pantheism بكل سهولة.

وعلى أي حال، فلو فتحنا الباب لتتبع مذاهب دراونة أهل الكتاب فلن نصل إلى نهاية، وليس المقصود استيعاب واستقراء كافة الأقوال عندهم على أي حال، وإنما نريد بيان مشابهة دراونة أهل القبلة لنظرائهم من اليهود والنصارى في المسلك الكلي والمنهج المعرفي، وأن الاشتراك في فساد البدايات يستتبع الاشتراك في فساد النهايات بداهة! فمن كان من دراونة القبلة مستندا في مذهبه إلى شيء مما كتبه هؤلاء الذين وافقوهم، فلعله أن يجد في هذا الكتاب نقضا للأصل الذي استعان به، كما يجد بعون الله

نقضا للقول الذي انتهى هو إليه وسعى في دعوة المسلمين إليه، والله الموفق لتمام المقصود من النقض والتبيين، والحمد لله رب العالمين.

ليس الدكتور عمرو شريف هو أول من قال بالتطور الموجه من أهل القبلة، ولكنه بلا شك أشهر من روج لهذه النحلة الخبيثة في بلادنا، وهو الآن رأسها المتصدر بها بين الناس، الماضي في تأصيلها فلسفيا والانتصار لها بكل ما أوتي من قوة. وقد سمعت كلاما للدكتور مصطفى محمود رحمه الله وعفا عنه في برنامجه "العلم والإيمان" لعله كان به أسبق من غيره من أهل القبلة في القول بالتطور الموجه وفي جعل الخلق بالتطوير من صفات الكمال الإلهي! فلو أننا سمينا تلك الطائفة باسم عمرو شريف، كأن نسميها "بالشريفية" مثلا أو الشريفيين، لكان ذلك منا جريا على طريقة أئمة المعتقد رحمهم الله تعالى في نسبة البدعة الكلية إلى رأس الدعوة إليها، الأشهر في نشرها والانتصار لها، وليس بالضرورة إلى أول من بدعها وأصل لها!

وقد ألف الدكتور عمرو شريف كتبا هي الآن من أعلى كتب "الرد على الملاحدة" مبيعا على الإطلاق، وهي أشهرها وأوسعها انتشارا بين الشباب، وقد ساهم في الترويج لنحلته وبدعته تلك، الداعية العقلاني والإعلامي الكويتي الدكتور محمد العوضي هداه الله! والرجل الآن (عمرو شريف) له نشاط واسع على الفضائيات وعلى اليوتيوب في الدعوة والمناظرة والمنافحة عن تلك النحلة التي لا يزال يصر على أنها هي السبيل الوحيد المعقول في هذا الزمان، للتوفيق بين "العلم" و"الدين"، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فلسفة العلم والمنهج العلمي عند عمرو شريف

في كتابه الأشهر "خرافة الإلحاد"، بدأ الدكتور "عمرو شريف" ببيان تاريخ الإلحاد في أوروبا، فقرر كثيرا من الدعاوى الميتافزيقية الطبيعية التي أحدثها الأوروبيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، كدعوى لا مركزية الأرض للعالم عند كوبرنيك وغاليليو، ودعوى السببية الطبيعية المغلقة عند لابلاس (التي يقال لها حتمية لابلاس) ودعوى فاعلية الأجرام السماوية لما يظهر من تجاذب فيما بينها، كما قررها كيبلر ونيوتن، على أنها "اكتشافات" وأنها "طوفان العلم" الذي تعين على الكنيسة أن توفق أوضاعها من أجل قبوله والتسليم به، فلما لم تفعل، سقطت على أم رأسها وزال سلطانها وانفرطت الخراف من بين يدي راعيها! فبحسب الدكتور فإن "المفاهيم" (ويقصد العقائد) التي كان يتعين على الكنيسة أن تتخلى عنها (ولكنها عاندت وأصرت على التمسك بها، فغرقت واحترقت!) لم تكن مفاهيم "أساسية" أو "ضرورية" للدين! فكما هي عادة كل لاهوتي وكل متكلم جهمي مرجئ، يقرر الدكتور أن "أساسيات الدين" (بحسب

عبارته المجملة)، التي هي أساس "النظرة الدينية للعالم" على حد قوله، تتخلص في ثلاث قضايا (ص. 23):

- أن هناك إله خلق الكون.
- وأن هناك خطة كونية وغرضا كونيا للخالق من الخلق (غائية)،
- وأن العالم يمثل نظاما أخلاقيا يحدده الإله. [14]

هذه هي أصول الدين عند الدكتور هداه الله! أما ما عدا ذلك، فليس من الأساسيات عنده، وكان ينبغي للكنيسة أن تتنازل عن أي اعتقاد لديها جاء الطبيعيون بخلافه ما دام خارجا عن تلك الثلاثة، حتى لا تقف في وجه "طوفان العلم" فتغرق! فما دامت تلك القضايا الثلاثة هي الثوابت التي لا يقدر الطبيعيون على مناقضتها أو مغالبتها بزعم الدكتور، فهي إذن ما كان ينبغي للكنيسة أن تتمسك به، وأما ما سوى ذلك فكله سواء، وعلى الجميع (الكنيسة وغيرها) أن يكونوا فيه تبعا لأنبياء الطبيعيين في زمانهم، أيا ما كانت بضاعتهم فيه! بهذا ينحل إشكال الصراع بين العلم والدين، ويبقى للدين سلطانه الأخلاقي (في وهمه)، وللعلم سلطانه المعرفي، ويصان الشباب من خطر الإلحاد (بزعمه) وتنتهي القضية! لا يهم ما هي صفة هذا الإله الذي خلق الكون في اعتقادنا، ومن الذي يحددها لنا ومن أين نتلقى العلم بها، ما دمنا نثبته إثباتا كليا مجملا كأساس لكافة دعاوى الطبيعيين في غيب السماوات والأرض وما وراءهما (إن كان لهما وراء!) وما كان قبلهما وما يكون بعدهما! فلنا على منهج الدكتور أن نبقى على تصوراتنا لصفات الباري وأفعاله بالغيب ما لم يخرج علينا الطبيعيون بما يخالفها، فإن خالفوها، لزمنا اتباعهم والمصير إلى ما قالوا به من ذلك، ولن يقولوه تصريحا بطبيعة الحال لأنهم أصلا لا يثبتون الرب جل وعلا، وإنما يستنبط استنباطا من لازم نظرياتهم ومقتضاها العقلي! فإذا كانت نظرياتهم في الغيب هي الحق المتعين المصير إليه، فلازم الحق حق بالضرورة!

هكذا يختزل الجهمي معنى الإيمان في التصديق بوجود الصانع، أو على الأكثر في تلك الأساسيات الثلاثة التي قررها الدكتور (ولعله يدخل الاعتقاد بصحة رسالة الرسول تحت القضية الثالثة)، فمن استكملها فهو مؤمن كامل الإيمان، أيا ما كان اعتقاده فيما سواها، وأيا ما كان قوله وعمله في الدين، إن كان له عمل! إذ كل شيء فيما عدا تلك الثلاثة خاضع للأخذ والرد وجوبا، قابل للمراجعة و"التجديد" على منهجه، وإلا تعرضنا نحن المسلمين لنظير ما تعرضت له الكنيسة من انهيار وانحسار اجتماعي في أوروبا الوسيطة حتى صارت أثرا من آثار الماضي المظلم، لا يقصدها الناس إلا لممارسة بعض التقاليد الاجتماعية المتبقية من شعائر دين قديم باهت لا تأثير له في سلوك الناس اليوم ولا في عقائدهم! يثبت الجهمي بعضا من صفات الربوبية

(وليس كلها، وإنما ما كان منها ملائما مناسبا لميتافزيقا الطبيعيين في عصره، التي هي عنده العلم الحديث المتعين قبوله والتسليم له)، ويجعلها هي الإيمان وأصل الدين الذي من اعتنقه سلم، ولم يضره – مع انتسابه إلى أهل ملته الموروثة أيا كانت – ما تلبس به من تبديل للعقيدة وتغيير للدين!

ولا عجب أن يكون الأمر عندهم كذلك، فهم إنما يطمعون في الانتهاء بعد عناء طويل وجدال سوفسطائي بيزنطي سرمدي مع الفلاسفة من الطبيعيين الدهرية إلى حيث يبدأ عامة المسلمين! المسلم يبدأ من الاعتقاد بوجود الباري جل وعلا وبكمال صفاته وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فيؤسس على ذلك دينه وإيمانه، وأما المتكلم والفيلسوف فيبدءان بالتشكيك في تلك المبادئ الأولى نفسها، ثم يمضي الواحد منهم عمره محاولا إثباتها! فلا عجب أن يكون غايته في معنى الإيمان أن يقول إنه التصديق! إن قدر له أخيرا أن وصل إلى "التصديق"، فقد أصبح "مؤمنا" وانتهى الأمر! ويا ليته يكون تصديقا بوجود الرب كما وصف نفسه وكما وصفه نبيه صلى الله عليه وسلم، وإنما هو تصديق بمعان تجريدية لا تكفي حتى لإثبات الربوبية كما يثبتها المسلمون! فإن وصل أخيرا إلى القول بتلك الأصول الثلاثة التي حررها الدكتور، فهذا هو المؤمن كامل الإيمان! ولهذا لا تعجب عندما تراه في كتابه يثبت اسم "الإيمان" للبريطاني الهالك أنتوني فلو، الفليسوف الدهري الذي ظل عمره كله يدعو إلى الإلحاد، ثم وصل أخيرا في آخر أيامه إلى الميل لترجيح وجود صانع ربوبي لا يرى ثبوت نسبة أي دين من الأديان إليه!! [15] وتراه هو وغيره يعتبرون ذلك دليلا على أن الفيلسوف الملحد طالب حق، متجرد من الأهواء من حيث الأصل، إنما يتحرك مع الدليل حيثما ذهب به، وإنما تعرف مكابرته وجحوده للحق إن ألفيناه يكابر فيما عددناه نحن من البدهيات الضروريات، في تأسيسنا لما عليه خضنا الجدال والمناظرة معه! هذه هي طريقة المتكلمين في الحكم على الفلاسفة، في ضوء لعبة الخصومة والجدال العبثية التي خاضوها مع القوم على شروطهم (شروط الفلاسفة)، وهو ما اضطرهم لتسويغ الخلاف معهم، وكأنما نتكلم عن مسألة من أصعب مسائل العلوم النظرية الدقيقة بل أصعبها على الإطلاق (والفلاسفة حريصون – ولا شك – على جعلها كذلك)، مسألة يتصور فيها أن يظل الحق خافيا على أحدهم لعقود طويلة، فإما أن يموت ملحدا نافيا معدودا في زمرة المجتهدين المخطئين (!!)، الذين ينبغي احترامهم لطول مسعاهم في "طلب الحق" (زعموا)، أو متوقفا معذورا في توقفه، أو مثبتا متوصلا أخيرا للتسليم بوجود صانع ما، فيحتفى به على أنه قد مات "مؤمنا"، وأظهر أخيرا أن الإلحاد باطل و"الإيمان" حق، ولا حول ولا قوة إلا بالله! وقد بسطنا النفس في بيان منشأ الإرجاء عند المتكلمين والفلاسفة الإسلاميين في غير هذا الموضع، فلا نعيد.

ولأن الدكتور عامي متثقف في علوم الشريعة وفي الفلسفة، فقد افتتح الباب الثاني الذي يتناول فيه فلسفة العلم، بعبارة يقتضي إثباتها القول بالدليلية الجدلية Evidentialism التي تهدم أسس العلم الطبيعي نفسه الذي وافق الطبيعيين ابتداء على تخصيصه بإطلاق لفظة "علم"، وتسمية ما سواه "بمفاهيم رجال الدين" و"آراء الفلاسفة"، كما تقتضي تصحيح النحلة الوضعية المنطقية Logical Positivism التي سبق أن سماها بالنحلة البائدة، واتهم الملاحدة الجدد بمحاولة إحيائها، إذ قال (ص. 47): "وتتميز المعرفة العلمية بأنها مقبولة عقليا ولا يوجد في داخلها تناقض منطقي، وأنها قابلة للاختبار من خلال الملاحظة والتجربة العلمية. وبذلك تختلف المعرفة العلمية اختلافا جذريا عن الاعتقاد الأعمى الدوجماتي الذي هو التسليم المطلق بصحة موضوع ما، دون تأسيسه عقليا أو التحقق منه تجريبيا." اهـ.

قلت: فهل سبق منك أن تكلفت تأسيس الاعتقاد (تأسيسا عقليا) بأن الاثنين هي ضعف الواحد (مثلا) يا دكتور عمرو؟ لا أظن ذلك! وهل سبق أن تحققت منه تجريبيا؟ أرجو أنك لم تتكلف ذلك! فعلى إطلاقك الأعمى هذا، يصبح حكمك بصحة هذه العبارة (الواحد نصف الاثنين، أو الاثنين ضعف الواحد) اعتقادا أعمى! وعلى هذا فقس أصول العقل وبدهياته الفطرية كلها بما فيها وجود الصانع الذي تزعم أنك كتبت هذا الكتاب للانتصار على من يكذبون به! لن أتكلف تتبع كل سقطة من سقطات الرجل العقلية والفلسفية في كتابه هذا أو غيره من كتبه فإن هذا أمر عندنا من الشواغل ما هو أولى منه بوقتنا وجهدنا! وإنما أردت التقديم لبيان مذهبه الدارويني ببيان أصوله الكلية التي أسسه عليها، وبيان أنه متلبس من حيث لا يشعر بموافقة الطبيعيين الملاحدة في مصادر تلقي المعرفة الغيبية لديهم (الطبيعية المنهجية، التي لم تكن الوضعية المنطقية إلا تحريرا منطقيا أكزيوماتيا لها)! فعندما يصبح من صفة "المعرفة العلمية" (هكذا) أنها قابلة للاختبار من خلال الملاحظة والتجربة العلمية، وكأن ما ليس قابلا للاختبار بالملاحظة وللتجربة العلمية فليس "بمعرفة علمية"، وتصبح تلك "المعرفة" ضدا لما يسميه بالاعتقاد الأعمى، الذي هو على حده ووصفه كل دعوى لم "تؤسس عقليا" أو لم "يتحقق منها تجريبيا"، فهذه صياغة أخرى لمذهب الوضعيين المنطقيين على التحقيق، إذ تصبح المعرفة الصحيحة إذن محصورة فيما يسميه هو "بالعلم" Science (جريا على اختزال الوضعيين - الذين زعم أنه مخالف لهم – لمعنى كلمة علم في العلوم الطبيعية والتجريبية وحدها) وفي نوع الدعاوى "المؤسسة منطقيا" (أو عقليا)! مع أنه يأتي بعد ذلك بفقرتين أو ثلاث ويقرر أن السقطة الأساسية للوضعيين التجريبيين هي إهمالهم جميع العلوم فيما عدا العلم الطبيعي، واعتقادهم أنه لا علم إلا العلم التجريبي، فتأمل!

وكذلك لا ينتبه الدكتور إلى أنه عندما يجعل البرهان الرياضي هو أقوى أنواع الأدلة على الإطلاق، أي في جميع أنواع العلوم قاطبة، فهو في ذلك سالك مسلك الطبيعيين Naturalists والعلمويين والوضعيين المناطقة، جار على ضربهم ولا فرق! وقد أطلنا النفس في الباب الثاني من هذا الكتاب في بيان هذه المسألة، والتفصيل في طبقات الاستدلال الرياضي على نحو نرجو ألا مزيد عليه! ودليل اضطرابه في المذهب المعرفي أنه يوهن دلالة الحس يجعله ضعيفا معرفيا، مع أنه تقدم منه قبل قليل اعتبار العلم التجريبي هو "العلم"، لا لشيء إلا لقيامه على التجريب، ولأن عامة الأكاديميين الغربيين الذين تتلمذ عليهم هكذا يسمونه: "العلم" Science! ثم إنه من خلطه تراه يقصر عملية استخلاص أفضل التفاسير Inference to Best Explanation (أو IBE كما يسميها الفلاسفة اختصارا) التي تسمى عند المناطقة بالمنطق التفسيري Abduction (وهو ضلع من أضلاع العمل العقلي الأولي عند تشارلز ساندرز بيرس التي هي الاستنباط deduction والاستقراء Induction والتفسير Abduction)، يقصرها على نوع الحوادث غير القابلة للتكرار أو التجريب! وهذا منه غلط من جهتين، من الجهة الوصفية ومن الجهة المعيارية. فأما من الجهة الوصفية، فليس استعمال التجريبيين لتلك الطريقة مقصورا على هذا النوع الذي ذكره من أنواع الحوادث، وإنما يستعملونه في كل ما يدخله التفسير من أنواع الحوادث، سواء كانت قابلة للتكرار أو غير قابلة! وقد مضى معك التفصيل في شرح هذا المنطق والتمثيل على تطبيقه بعمل المحقق الجنائي، الذي يبحث كما لا يخفى في حوادث قابلة للتكرار وخاضعة نظائرها (نوعا) للحس والاستقراء المستفيض! وقد تقدم أن هذا المنطق ليس مما يختص به الطبيعيون في المباحث البيولوجية أو التاريخية أو المتعلقة بأصول الأشياء وقضايا النشأة الأولى، بل إنه منطق مطروق يستعمله البشر في حياتهم اليومية ولا يستغنون عنه البتة! فهو يخصص تطبيقه – فيما هو واقع في الصناعات العلمية المختلفة – تخصيصا غير صحيح. وأما من الجهة المعيارية، فهو يتكلم بما ظاهره تقرير معقولية استعمال ذلك المنطق فيما لا يمكن تكراره من أنواع الحوادث ولا إخضاع نظائره للتجريب، وقبول ذلك المسلك إجمالا، وهذا كما بسطنا الكلام عليه في الباب الثاني، من مسلمات الطبيعيين الدهرية والطبيعية المنهجية الدهرية التي تشبعت بها عقول الطبائعيين من بني جلدتنا إلا من رحم الله، وإلى الله المشتكى! أي أن الرجل يقصر المنطق التفسيري على ذاك الصنف من المسائل (الحوادث الغيبية المحضة) الذي نقول إنه لا يجوز للمسلمين أن يستعملوه فيه أصلا، والله المستعان!

قال الدكتور في كتابه "رحلة عقل" (ص. 24): "وتتميز المعرفة العلمية بأنها مبرهن عليها منطقيا، ولا يوجد في داخلها تناقض عقلي، وأنها قابلة للاختبار من خلال الملاحظة والتجربة العلمية. وبذلك تختلف المعرفة العلمية اختلافا جذريا عن الاعتقاد الأعمى (الدوجماتي Dogmatic) الذي هو التسليم المطلق بصحة موضوع ما، بدون تأسيسه عقليا والتحقق منه تجريبيا." اهـ. قلت: فلا يشعر الدكتور ولا يدري أنه بهذا التقرير، يصحح مذهب الوضعيين المناطقة Logical Positivists الذي زعم أنه مذهب بائد لم يعد له رواج أو قبول إلا عند الملاحدة الجدد! فعندما يقال إن الاعتقاد الأعمى (أي الذي لا يقوم على أساس معرفي صحيح) هو ذلك الاعتقاد الذي ليس له برهان عقلي ولا برهان تجريبي عند صاحبه، فهذه هي الوضعية المنطقية بحذافيرها، التي ترفع اسم المعرفة Knowledge بالكلية عن كل اعتقاد يزعم أصحابه أنه فطري لا يحتاج إلى برهان منطقي، وكل اعتقاد ينسبونه إلى السمع والوحي من السماء، وكل اعتقاد ينشأ عن قبول الخبر عن الثقات الصادقين! فهذا الكلام الذي حرره الدكتور، هو ما نتوقع أن نسمعه من أمثال رودلف كارناب – مثلا – أو موريتز شليك أو كورت غودل أو فريدريش فايزمان أو غيرهم من فلاسفة دائرة فيينا، لا ممن يزعم أنه يرفض فلسفة هؤلاء!

والقصد أن الدكتور تناول فلسفة العلوم تناولا سطحيا للغاية، وخلط فيها خلطا لا يجوز أن يقع فيه من تصدر للتأصيل للمسلمين في تلك القضايا الخطيرة! بيد أنه خلط لا نستغربه ممن تشبع منذ سنواته الأكاديمية الأولى بمنهج الطبيعيين الوضعيين وبما هو مطروق عندهم مما يقولون له "دليل" أو "برهان"، ولم ير في حياته – مع ذلك - استعمال أحد من أهل العلوم الأخرى لما يعدونه هم دليلا عندهم، على ما في كثير من موضوعات البحث عند الطبيعيين والتجريبيين من تداخل مع موضوعات تلك العلوم الأخرى! ومع أن الأكاديميين التجريبيين والطبيعيين المعاصرين قد صدعوا رؤوسنا بالكلام عن البحث البيني Interdisciplinary Research والبحث متعدد التخصصات Multidisciplinary Research، إلا أنهم عند التطبيق لا يجاوزون بها في النهاية تلك الصناعات العلمية التي تجري على شرط الطبيعيين في تقرير ما هو دليل وما ليس بدليل! فأنا لما رأيت الدكتور يقول: "عندما يأتي ذكر البرهان العلمي، يتبادر إلى أذهاننا البرهان العلمي التجريبي وحسب، بينما التجريب هو أحد البراهين العلمية وليس بأقواها." اهـ.، رجوت أن أراه يوسع من مفهوم الدليل من حيث التأسيس المعرفي عند البشر، ليبين نقص مصادر التلقي المعرفي عند الطبيعيين الدهرية ونزعهم اسم العلم عن شتى فنون المعرفة والبحث التي لا تجري على شروطهم (وهو أصل الآفة الإلحادية وركنها الأول كما بسطنا الكلام على بيانه بحول الله تعالى في

البابين الأول والثاني من هذا الكتاب)، رجوت أن أراه يفعل ذلك مقررا إلى جانب "الحدس"، الفطرة التي هي أصل الحدس ومنبته، وأول مصدر من مصادر المعرفة عند المسلمين! [16] وددت أن يشير على الأقل ولو من بعيد إلى أنواع الاستدلال في استخراج الأحكام من النصوص الشرعية عند المسلمين، والاستدلال في بناء المعارف الغيبية المستمدة من النص الديني، أو أدلة علماء الحديث عندما يتتبعون العلل في الآثار المسندة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلماء الرجال والجرح والتعديل عندما يرجحون في أحوال الرواة توثيقا وتضعيفا، أو حتى استدلالات المؤرخين وطرائقهم في بناء التصورات بشأن الماضي وما حدث فيه استنباطا من النصوص والآثار والوثائق والأخبار، ولكن وجدته – ولا عجب - لا يعد في جنس الأدلة في النهاية، بعدما صال وجال وشرق وغرب، وبعدما قدم تحته ما قدم أو أخر ما أخر، إلا كل ما يتصور في الطبيعيين أن يعتبروه دليلا Evidence، لا غير، وإلى الله المشتكى!

وكما هو متوقع، وعلى طريقة الجهمية القدماء، يقرر الدكتور أن اليقين في صحة الدين لا ينبني إلا بهذا الصنف من الأدلة (الصنف الذي عليه أساتذة الأكاديمية الفلسفية المعظمة في هذا الزمان)، فمن لم يبن إيمانه على "الأدلة" فلن يبلغ اليقين! وبطبيعة الحال، فالمقصود بالإيمان هنا، الذي يراد بناؤه بتلك الأدلة وتحقيق اليقين فيه، إنما هو التصديق بتلك الأصول الثلاثة التي مر معك تحريره لها من قريب (الإيمان بوجود الله وباليوم الآخر وبالنظام الأخلاقي)! قال في ص. 52: "كذلك الإيمان الديني ينبغي أن يقوم على تراكم الأدلة Evidence Based حتى تصل إلى مرتبة لا يتسرب إليها الشك، وبذلك لا يكون إيمانا أعمى" اهـ. قلت: فإذن، وحتى لا يكون إيمان المسلم إيمانا أعمى، فقد أصبح واجبا عليه أن يجمع لنفسه الأدلة Evidence [17] حتى تتراكم لديه بما لا "يتسرب" معه الشك! وهذا، أيها القارئ الكريم، هو قول الجهمية القدماء بوجوب النظر في وجود الصانع، وبحرمة "التقليد" في أصول الدين، يتابعون الفلاسفة في نحلتهم الدليلية Evidentialism التي توجب طرح تلك البدهيات للاستدلال والنظر، وكأنه ليس في نفوس البشر فطرة تدلهم على شيء منها، والله المستعان!

تختلف النظريات الميتافزيقية عند الطبيعيين، ويبقى المنهج المعرفي الكلي عند أهل الكلام واحدا لا يتغير! كان رؤوس أهل الكلام في القرن الرابع والخامس الهجريين طبيعيين أرسطيين مشائين، واليوم هم طبيعيون كوبرنيكيون دراونة، والله أعلم إلى أي نحلة هم ماضون غدا!

ولأنه قرأ في كتب فلاسفة العلم قراءة متثقف ثم نقل عنها بلا تمحيص ولا تأصيل، فتراه يوافق من قرأ لهم في اختيار تعاريف "العلم" Science

(الذي يراد به في تلك الكتب العلم التجريبي وما في حكمه كما تقدم) التي تلائم ما يجدونه مستقرا عند الطبيعيين في أكاديمياتهم من تسمية المجالات التخصصية الطبيعية القائمة – أيا ما كان موضوعها – علوما Sciences أو مجالات علمية Disciplines of Science، فالعلم عندهم هو ما يعده الطبيعيون الأكاديميون علما، لا ما يصح للطبيعيين أن يعدوه علما (سواء من حيث الموضوع أو من حيث طريقة البحث فيه)، والفارق دقيق ومهم، فانتبه! فعلم الأحياء التطوري (المعتني بدراسة أصول الأنواع الحية) مثلا هو علم Science لأن الطبيعيين قد تخصصوا فيه ومارسوا فيه آلة البحث التجريبي حتى تراكم لديهم من المادة البحثية ما يصلح أن يجعله تخصصا أكاديميا مستقلا! وإذن فيتعين على أي باحث في فلسفة العلم يريد أن يضع تعريفا جامعا للعلم Definition of Science أن يجعل تعريفه شاملا لموضوع ذاك التخصص، وإلا كان تعريفا فاسدا غير جامع!

فعلى أي معيار من معايير التعريف الكلي يجري هذا المسلك؟ هو جار على معيار أولئك الفلاسفة في القرن العشرين الميلادي الذين قالوا إن وظيفة فيلسوف العلم لابد ألا تزيد على توصيف عمل الطبائعيين ومسالكهم وطرائقهم وتصنيفها على نحو يخدم الأكاديمية الطبيعية القائمة والنظام المعرفي السائد فيها، لا أن يأتي بمعايير قيمية وموضوعية للعمل البحثي يدعو إلى فرضها عليهم فرضا! فلا يجوز على طريقة هؤلاء أن يضع الفيلسوف أو الباحث في أصول الطبيعيات تعريفا للعلم الطبيعي Natural Science يخرج منه واحدا أو أكثر من المجالات القائمة أكاديميا عند الطبيعيين Academic Disciplines، حتى وإن كان بحثه بحثا معياريا Normative، يريد به وضع المعايير التفريقية Demarcative Criteria بين ما هو علم وما ليس بعلم! بل عليه أن يجعل معاييره ملزمة للباحثين بالانخراط في الأكاديمية القائمة على ما هي عليه (إجمالا)! فعليه أن يتخير من التعاريف والقواعد والأصول الكلية ما لا يخرج معه في النهاية بالحكم على مجال من المجالات القائمة عند الطبيعيين المستقرة لديهم بأنها ليست علما (كعلم نشأة الكون Cosmogony مثلا أو علم الأحثاء Paleontology أو علم الأحياء الفضائية Astrobiology أو علم الأحياء الارتقائي Evolutionary Biology .. إلخ)!

وهذا ولا شك من أسخف الشروط التي وضعتها طائفة من الفلاسفة لحدود صنعتهم في تاريخ الصناعات المعرفية، إن لم تكن أسخفها على الإطلاق! وهو من أعظم نقاط الخلاف بيننا وبين فلاسفة العلوم الغربيين لا سيما في النصف الثاني من القرن العشرين وما بعده، سواء منهم المنتسبون إلى ما بعد الوضعية أو إلى غيرها! ولست أستغربه على الإطلاق، فصحيح إن

فلاسفة العلم قد يظهر منهم من تبلغ به الجرأة أن يتحدى بعض المفاهيم الكلية السائدة بين الأكاديميين الطبيعيين في زمانه، إلا أنه في نهاية الحال لن تجده إلا طبيعيا دهريا في الأعم الأغلب، أو على الأقل متشبعا بأصول النحلة الطبيعية وإن كان منتسبا – مع ذلك – إلى النصرانية أو اليهودية أو غيرهما! ومن تلك الأصول، اعتبار العلم الطبيعي هو العلم، أو على الأقل هو العلم الأسمى والأعلى، الذي لا يجوز لأي نظام معرفي آخر أن يعلوه أو أن يفرض على المشتغلين به نظما ومعايير لا يقبلونها! لذا لا يمكن أن يجترئ فيلسوف من فلاسفة العلم الغربيين على أن يخرج بتأصيل كلي يفضي قبوله إلى هدم الكنيسة الطبيعية القائمة كليا أو جزئيا! ليس لأنهم يخافون من ذلك ومما يترتب عليه من طرد أكاديمي وإقصاء ونحو ذلك، ولكن لأنهم هم أنفسهم دهرية طبيعيون أقحاح! فالقوم لهم غرض ديني اعتقادي غيبي في ترك سفينة "العلم الطبيعي" تبحر وتوغل في الإبحار حيثما ذهبت بها رياح التنظير الميتافزيقي الدهري الجاري على أصول الطبيعية المنهجية ومسلماتها! لهم غرض ديني في توسعة دائرة البحث في الغيبيات بتلك الطريقة وجريا على ذلك المنهج، ومن بقاء الأمر في ذلك على ما هو عليه!

فلما وقع الدكتور عمرو – هداه الله - على تلك الكتب، ووقف على ترجيحات الفلاسفة المعاصرين بين تعاريف العلم Science، واقفهم على شرطهم "الطبيعي" المذكور في الترجيح Naturalist Criterion وتابعهم عليه بكل سهولة، لأنه هو كذلك لا يتصور أن يأتي من يقول إن علم كذا أو علم كذا مما استقرت عليه الأكاديمية الغربية المعاصرة من مجالات البحث الطبيعي، ليس بعلم أصلا! ولأنه قد تشبع بالفعل بمصادر تلقي المعرفة الغيبية عند الطبيعيين وبنظرياتهم القائمة، ولا يرد على ذهنه ولو من بعيد، مجرد احتمال أن يأتي من ينازعه في شيء من تلك المصادر! فقال في صفحة 52، بعدما قرر "صعوبة" تعريف العلم:

> وبالرغم من صعوبة التعريف، علينا أن نختار تعريفا ننطلق منه في تحليلاتنا، وليكن تعريف مايكل رُوز وهو: "أن العلم منهج يتعامل مع ما يوجد ويتكرر في الطبيعة بشكل طبيعي وتحكمه قوانينها". لا شك أن لهذا التعريف جوانبه الإيجابية، فهو يعيننا مثلا على التفرقة بين الفلك والتنجيم، وبين الطب والممارسات العلاجية الفلكلورية. ولكن لهذا التعريف بعض الجوانب السلبية، أهمها أنه يخرج معظم علوم الفضاء الحديثة وكل علوم البدايات (يعني بها الأكاديميات المتخصصة في دراسة مسألة النشأة: نشأة الحياة ونشأة الكون) من حظيرة العلم، فهذه العلوم تتصدى لأحداث لا يمكن رصدها ولا يمكن تكرارها، كبداية الكون وبداية الحياة.

قلت: فبعيدا عن ذلك الحكم التعسفي على "الممارسات العلاجية الفلكلورية" بأنها ليست طبا وليست علما أصلا، فمن الواضح أن التعريف المذكور يختزل العلم الطبيعي في الباردايم السائد أيا ما كان! فلما كانت قوانين نيوتن هي الحاكمة والسائدة أكاديميا، كان العلم هو كل ما موضوعه تلك الظواهر التي تحكمها قوانين نيوتن! وأما اليوم، بعدما تحول الطبيعيون إلى قوانين أينشتاين، فعلى هذا التعريف، يصبح باردايم نيوتن (الذي كان فيما مضى هو العلم وهو المعيار) مساويا للتنجيم Astrology والسيمياء Alchemy وغيرهما في انتفاء اسم العلم عنهما! فهذا نظام كان من قبل (وحتى القرن العشرين الميلادي) علما، ثم صار اليوم بموجب هذا التعريف، جهلا وخرافة! وحتى في إطار النظم المعرفية السائدة حاليا، فمن الواضح الجلي أن الطب الصيني على سبيل المثال (الذي هو من صور الطب الفلكلوري على حد تعبير الدكتور) يعمل، ولا يزال الناس يتداوون بالإبر الصينية على نحو لا ينكر نفعه لهم حتى أشد الطبيعيين تعصبا للأكاديمية الغربية! فلا شك أنه يخضع لنظم سببية معينة في "الطبيعة" لا يصل النظام البараديغمي السائد لعلم الطب الغربي إلى تصورها أو توصيفها من طريقه (كما بينا ذلك عند ضربنا المثل بالطب الصيني في مبحث من مباحث الباب الثاني)، فإن جعل المراد بقوانين الطبيعة في هذا التعريف، كل ما يستقر عليه الطب الغربي من تحرير أو تصور أو نمذجة لتلك النظاميات السببية المتحققة في الواقع Causal Regularities، لزم أن يكون الطب الصيني كالتنجيم، سواء في اسم الخرافة وفي كونهما يفرزان للناس مزاعم بشأن الواقع لا حقيقة لها، لا لشيء إلا لأنه يلتمس مدخلا كليا مختلفا (باراديغميا) Paradigmally Different Approach في توصيف وتفسير نظاميات سببية معينة تحكم تأثر الجسم البشري ببعض المؤثرات المعينة! وهذه تسوية باطلة ولا شك!

لا يلتفت الدكتور لهذه المشكلة المعيارية الكبيرة، بطبيعة الحال، بل يسطحها تسطيحا، ثم يستنكر كون التعريف مخرجا للحوادث الغيبية المحضة (كقضايا النشأة) من موضوع العلم الطبيعي! هذه هي "السلبية" التي استرعت انتباهه، فيما يبدو لي أنه نقله أو تأثر فيه ببعض من قرأ لهم من الفلاسفة المشتغلين بتلك القضية! ولو أنه وقف وقفة مع نفسه يسألها لماذا قبلت هذا النقد ممن وجهه لتعريف روز، لوجد أنه لا مستند له عند أصحابه إلا الخلط المتعمد بين الوصف والمعيار، لمصلحة أن يبقى البناء الأكاديمي الطبيعي كما هو، ويبقى الدين الطبيعي – تبعا – محفوظا من عوامل الزوال، فلا يخرج على كهنة الملة الطبيعية من يهدد بعض الكليات والأكاديميات العلمية التي هم رؤوسها بانصراف الناس عنها وفقدان منابع التمويل البحثي، مهما كان الموضوع الذي تأسست عليه هذه الكلية أو تلك،

أو هذا المعهد أو ذاك، موضوعا فاسدا أحسن أحواله ألا يرجى من بحثه ثمرة ينتفع بها الناس! وإلا فهل يظن بهؤلاء الفلاسفة الكبار أنهم يخفى عليهم تفاوت موضوعات البحث الطبيعي من حيث تأثيرها على عقائد البشر وتصوراتهم للغيب وما فيه، ومن ثم ضرورة تفاوت الحكم المعياري على تلك المباحث والموضوعات وعلى ما يحدثه الطبيعيون فيها من نظريات؟! وهل يخفى عليهم فساد موقفهم التصحيحي المطلق هذا، الذي يجعل الحق مع الطبيعيين حيثما ذهبوا، والعلم هو ما اتفقوا عليه أيا ما كان ومهما قالوا؟؟ والله لا يبالغ من قال إنه ليس في التاريخ المعاصر مثال لمغالطة الاستناد إلى السلطة المعرفية Appeal to Authority أو مغالطة الاستناد إلى الغلبة الأكاديمية Academic Bandwagon Fallacy أعظم من هذا، والله المستعان!

يقول الدكتور هداه الله تحت عنوان "العلم عالمي محايد"، وفي عبارة تنبيك بمقدار ما يعانيه من سطحية بالغة في فهم طبيعة ومنهاج وأصول العلم الذي ينسب نفسه إليه، لا تختلف كثيرا عن سطحية تلك الثلة من الشباب الدهري المفتون الذين خاطبهم بكتبه:

> إذا أصبحت عالما، فذلك يعني أنك قد انتميت إلى مجتمع عالمي يتجاوز كل التحديات الأيديولوجية، العرقية والدينية والسياسية، وكل ما يمكن أن يقسم البشر إلى فرق ومجموعات. إن كل هذه الاعتبارات تتساقط عندما يحاول العلماء كشف غموض القضايا العلمية المختلفة ويضعون من أجل ذلك الفرضيات والنظريات، وعندما يصارعون الأمراض الفتاكة، وعندما يبحثون عن مصادر بديلة للطاقة بعد أن كادت الطاقة الأحفورية أن تنفذ، وعندما .. وعندما .. وسر حياد العلم تجاه كل التحديات الأيديولوجية أن هذه التحديات لا تؤثر في فهمنا لطبيعة العناصر، والثوابت الفيزيائية، وبنية الدنا DNA وقوانين نيوتن ونسبية أينشتين، ونتيجة لاعتزاز العلماء بالمنهج العلمي الذي توصلوا إليه بعد جهد جهيد وتضحيات كبيرة، فقد أصبح بعضهم يشعر بالتوتر والعصبية إذا أطلت قضايا الغيب برأسها، أو إذا طرح النقاش حول الإله.

قلت: هذا الخلط العظيم، والتعميم الفاحش بمعاملة "العلم الطبيعي" وكأنه جزء لا يتجزأ، هو نفس الداء الذي يعاني منه كل مفتون مسكين، تقول له لماذا ألحدت، فيقول لك: "العلم قال كذا وكذا، وأنا أصدق العلم!"، فإذا سألته عن أي جزء من أجزاء "العلم" تتكلم؟ رأيته يأتيك بميتافزيقا الدهرية التي يصر الدكتور على تقليد الطبيعيين في عدهم إياها جزءا من "العلم" الطبيعي، غايته أن يعاني من مشكلة "تأويل" لا أكثر، وليس من مشكلة بل

مصيبة كبرى في مبدأ التنظير والتأصيل نفسه! فهنيئا لكم يا من سعيتم في بلوغ منازل "العلماء" بالطبيعيات! ألا ترون أن العلم يمكنكم من ركوب البحر والسحاب، ويمكنكم من الاتصال بالأهل والأحباب، ولولاه ما حصل لكم كذا وكذا وكذا؟ فلابد أنه يعصمكم من الأهواء، ويعصمكم من الأخطاء، ويعصمكم من التعصبات والخرافات والخزعبلات، وأنه محايد لا علاقة له بالعقائد والأيديولوجيات! فاسمعوا كلام "العلم" والزموا سبيله تفلحوا! وأما من ألحد من العلماء، "فالعلم" بريء منه ومن إلحاده، وإنما اختار هو أن "يتأول" نظريات الكوزمولوجيا الكوبرنيكية والبيولوجيا الداروينية تأولا إلحاديا لا أكثر! وإلا فهي تقبل ولا شك أن تفسر كلها بوجود الخالق، فالعيب في الملحد لا في تلك النظريات! العلم نفسه معصوم، وأما العلماء فيصيبون ويخطئون! النظريات المتفق عليها المستقرة أكاديميا Academically Reveiced Theoris حق لا يرد (ما لم يظهر عند الطبيعيين أنفسهم تفسيرات "أحسن" ونظريات "أفضل"!)، وإنما الذي يرد هو "تأويل" الملاحدة لها!

وهذا لا شك فهم سطحي غير صحيح للمنهج الدهري عند الطبيعيين الغربيين ولمسلماته الأولى التي ينطلق منها الفيلسوف الطبيعي في وضع النماذج والتصورات النظرية الكونية بشأن العالم وما فيه! فالطبيعيون لا "يتأولون" نظرياتهم ليثبتوا ما يثبتونه في الغيب أو ينفوه! وإنما تقوم النظريات نفسها على مسلمات كلية ميتافزيقية قد حصل فيها بالفعل نفي كل ما في الوجود مما سوى الطبيعة ونظامها (المحسوس وما يقاس عليه)، وحصر جنس الأسباب في الطبيعة، ثم تفترض الفرضيات التفسيرية التفصيلية كلها جريا على تلك المسلمات الدهرية بقياس الغائب على الشاهد! ولولا الاختزالية الوجودية Ontological Reductionism التي زعم الدكتور أنها لا تكون إلا عند الماديين من علماء الطبيعيات، ما قاس القوم قياسهم الفاسد الذي به قالوا بما يسمى بالانفجار الكبير فجعلوه هو الكيفية التي خلق بها العالم بأكمله، ولولاها ما قاس داروين أقيسته الطبيعية التي بها وضع نظريته في أصل الأنواع الحية كلها! إنها تلك الاختزالية الوجودية التي كانت ولم تزل ركنا من أركان الطبيعية الدهرية Methodological Naturalism التي كانت هي طريقة الآباء الأوائل للأكاديمية الطبيعية اليونانية في عصر ما قبل سقراط، كما بيناه في غير موضع!

الفيلسوف الطبيعي يريد أن يضع "نظرية" يصف بها كل شيء، ويتصور بها حقيقة العالم بكليته، من أوله إلى آخره، بل الوجود الخارجي كله بما لا يخرج عنه شيء أصلا، فكيف يتأتى له ذلك إن لم يؤسس نظره على مقدمة خفية مفادها أن جميع ما يخفى عليه من هذا العالم مشابه ومناظر لما هو ظاهر

له، واقع تحت اعتياده منه؟ لو لم يقل بهذه التسوية التعسفية، لم يجد أساسا لأن يقيس ما في ذلك الغيب العظيم على ما هو واقع تحت عادته! هو لا يملك في أدوات عقله عند افتراض ما هو خاف عليه من أنواع الموجودات والحوادث لمصلحة التفسير والتنبؤ وغير ذلك، إلا أن يقيس ذلك الغائب الخفي على ما هو شاهد في عادته! فإذا كان قد انعقد لديه العزم والحرص التام على ألا يترك شيئا من الغيب إلا قال فيه برأيه ونظره، لعله يقدم للناس ما يغنيهم عن بضاعة الأنبياء والمرسلين ويحملهم أخيرا على اتباعه هو كما يتبعون الرسل، فلابد أن يقدم لنفسه بمقدمات وجودية كلية بشأن الواقع الخارجي تسوغ له ادعاء معقولية تلك الأقيسة التي لن يملك إلا الإتيان بها تحكما وتنطعا! لن يملك أن يطلق القول بأن مادة العالم – مثلا - تتركب من جسيمات دقيقة اسمها كذا وصفتها كذا (بقياس من الأقيسة) إن لم يستصحب مقدمة خفية تجوز له اعتقاد مشابهة جميع أنحاء العالم لهذا القدر الضئيل منه الذي يقع تحت حسه وعادته هو وأقرانه، ويرى كثيرا من أنواع المواد فيه قابلا للتفكيك إلى أجزاء دقيقة، كالصخور والرمال وقطع الجليد وغير ذلك! لن يملك أن يقول إن العالم مستغرق كله في ذلك الفراغ المظلم الذي نبصر بعضه فوقنا ليلا، وأنه تملؤه كله من أوله إلى آخره نجوم وأجرام كتلك التي نبصرها في سمائنا الدنيا القريبة، إن لم يستصحب تلك المقدمة الكلية نفسها! لن يملك أن يقيس الطول الموجي للأشعة التي يتلقفها مرصده من النجوم البعيدة على ذلك الذي يكون عليه الشعاع المرصود من مصباح الضوء المنطلق في ابتعاد عن راصده، ثم يعمم فيقول إن جميع النجوم لابد وأنها ماضية باطراد في الابتعاد بسرعة فائقة عن مرصده، إن لم يستصحب تلك المقدمة الوجودية الكلية نفسها! ثم لن يملك أن يقول إن تلك النجوم التي زعم لها تباعدا مطردا عن الأرض لابد وأنها كلها لم تزل تتباعد من قديم وإلى الأبد، ومن ثم يتوصل إلى القول بنقطة أصلية لابد وأن كانت جميع تلك النجوم فيها شيئا واحدا ثم تفرق، إلا باستصحاب تلك المقدمة الوجودية الكلية نفسها!

هذه المقدمة الخفية، التي هي بإيجاز قول الدهرية بأنه لا موجود في الخارج إلا الطبيعة ونظامها (أي جنس ما يقع تحت حسنا في حياتنا الدنيا وما يقاس عليه)، هي التي يتعين على عقلاء المسلمين اليوم أن ينقدوها نقدا وأن يدرسوا مقتضيات قبولها ومقتضيات ردها دراسة صارمة دقيقة، إن أرادوا درء التعارض بين "العلم" و"الدين"، وإن أرادوا استنقاذ العامة من شباب المسلمين من تلك الزندقة التي تذهب بالدين! أما أن يقال لنا في سذاجة محضة إن نظريات الطبيعين في مسألة النشأة Origin (أو "علوم البدايات" كما سماها الدكتور) لا غبار عليها من حيث وصفها للواقع الخارجي، وإنما ابتلينا أخيرا بمن "يسيء تأويلها" فيدعي دلالتها على صحة الملة الدهرية

والتصور المادي، مع أنها بريئة من ذلك التصور والاعتقاد براءة الذئب من دم ابن يعقوب، ولا يمتنع الجمع بينها وبين القول بوجود صانع بالغيب، وإذن فالعيب في هؤلاء "المتأولين" الملاحدة، وفي خلفياتهم "الأيديولوجية" التي هجموا بها على تلك النظريات، لا في تلك النظريات نفسها وفي المنهج المتبع في بنائها من الأساس، فإن هذا أمر غير مقبول البتة، والله المستعان! وهو مسلك من يمكن أن نسميهم "بمرقعة العقائد" من اللاهوتيين والمتكلمين الذين أخذوا البناء الاعتقادي الغيبي الدهري عن الطبيعيين كما هو، ثم سعوا في الترقيع والتلفيق بينه وبين دينهم واعتقادهم في الغيب وما فيه، تماما كما سكله سلفهم من قبل بميتافزيقا اليونانيين!

لذا فعندما يقول الدكتور (ص. 60): "ويتضح القيد الثاني عند تعاملنا مع قضية الألوهية، فكل علم من العلوم يلتقط جانبا من الوجود ليدرسه ويكشف أسراره، ولما كان الإله خارج وجودنا المادي، ومن ثم لا يتبع أيا من علومنا المادية، فإن البحث في ذات وصفاته يكون خارج مجال العلم كله." اهـ. عندما يقول مثل هذا الكلام، فلا يمكن أن نصدقه ولا أن نقيم له وزنا، لأنه قد سبق منه تقرير منهج المعرفة الدهري في التعامل مع الغيب المحض وما فيه، وقبول تطبيق المنهج التجريبي Scientific Method على الغيبيات المحضة (التي هي بشهادته غير قابلة للتكرار في تجربتنا الحسية)! والله لا يصدق من يقول أنا ملتزم بمنهج أهل السنة في الأسماء والصفات وفي مصادر تلقي المعرفة بقضايا الألوهية وما يتعلق بها، ثم إذا نظرت في منهجه الفعلي عند التطبيق، وجدته لا يقبل من النص إلا ما يتوافق مع ميثولوجيا النشأة الطبيعية، ومع ميتافزيقا الكون عند الطبيعيين المعاصرين (كما سلكه في كتابه "كيف بدأ الخلق"، الذي أصل فيه لبدعة التطويريين كما يأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى)، ولا يقبل من تأويل النص إلا ما يوافق الاعتقاد الطبيعي!

الذي يقدم نظريات الأكاديميين الفزيقيين والميتافزيقيين المعظمين عنده بشأن العالم وما فيه وما وراءه (يسميها بالعقل أو بالعلم أو غير ذلك مما هو عنده بمنزلة الأصل المعرفي الأعظم) على فهم السلف لنصوص الوحيين، هذا ذنب تابع لهم في اعتقاده مهما قال، يكيفه بما يليق بعقائدهم هم في نفس الأمر ما استطاع إلى ذلك سبيلا! فلا قيمة ولا فائدة لأن يقول إنه لا يجيز لهم ولا يقبل منهم أن يستعملوا آلة البحث التجريبي في قضايا الألوهية، على أساس أن الله خارج هذا العالم! الفيزيائيون المعاصرون ليس عندهم خارج لهذا العالم أصلا، لأنه لا معنى للمكان ولا للزمان في أنطولوجيا أينشتاين إلا في هذا العالم، وأنت تعلم هذا جيدا يا دكتور! فعندما تقبل منهم ميتافزيقاهم النسبانية وكوزمولوجياهم الانفجارية، ونظريات النشأة عندهم

على ما لها من مقتضيات في أسماء الله وصفاته قد بلغت من تعطيل الصفات عند اللاهوتيين الطبيعيين المتشبعين بها مبلغ القول بالربوبية Deism (كما أطلنا النفس في استعراضه وضرب المثل عليه في هذا الكتاب)، تقبل ذلك كله بلا تحقيق ولا تمحيص، ولا تأمل في اللوازم والمقتضيات، ثم تأتي لتقول بكل سهولة إنك لا تقبل منهم كلامهم في صفات الله، فأنت متناقض قطعا، ولا قيمة لهذا الذي قررته! هم لا يذهبون إلى الدهرية والزندقة والتعطيل تأويلا لنظريات "محايدة أيديولوجيا واعتقاديا"، وإنما تحقيقا لتلك الأصول الدهرية الكلية التي لولاها ما دخلوا بفروضهم ونظرياتهم في ذلك الغيب العظيم ابتداء، فافهم يرحمك الله!

قال الدكتور (ص. 60 - 61):

> من المنطقي أن يأتي المذهب الفلسفي كإفراز للعلوم الطبيعية، فالعالم يدرس الكون أولا، ويضع نظرياته، فيجد أن المحصلة تشكل مذهبا فلسفيا جديدا، أو تندرج تحت مذهب فلسفي معين (مذهب طبيعي، أو مذهب وجودي، أو مذهب ديني خلقوي..) فيتبناه. ولكن ما يحدث في الواقع عكس ذلك تماما! فالعلم كثيرا ما يتبع الأيديولوجية وليس العكس! ذلك أن العقل المحايد تماما في حكم المستحيلات! ...... لذلك عندما يواجه أمثال هؤلاء العلماء موقفا علميا ليس له تفسير إلا التدخل الإلهي، فإنهم يبادرون إلى رفضه وتشويهه أو تعميته، ويقبلون تفسيرات طبيعية مادية لا يمكن لعقل منصف أن يقبلها، وهذا من أكبر مطبات التحيز في العلوم الطبيعية.

قلت: هذه ثمرة عقيدة "عصمة الاتفاق الأكاديمي الطبيعي" التي مر معك بيان أن الدكتور يقول بما يقتضيها! أن يكون المسلك الصحيح هو أن يبدأ الباحث الطبيعي أولا بما يسميه إجمالا "بالعلم"، ثم ينتقل – بالتأسيس عليه - إلى ما يسميه إجمالا "بالأيديولوجيا" وليس العكس! ذلك أن "العلم" عنده هو اليقين العقلي الذي يصلح أن يكون أساسا "للظنون الأيديولوجية"، وليس العكس! فما هي الأيديولوجيا؟ هي المذهب الطبيعي أو المذهب "الديني الخلقوي" أو غيرهما! وما هو "العلم"؟ هو – كما يفهم من كلام الدكتور - أن يدرس الباحث "الكون" (هكذا) ثم يضع النظريات والفرضيات التفسيرية، ثم يفاجأ (وسبحان الله!) بأنها تشكل بين يديه مذهبا فلسفيا معينا، فإذا صار إلى تبني ذلك المذهب حائئذ، أيا ما كان، فإنه يصبح متبعا للدليل، موسوما بالحيادية، سالما من التحيز! أما أن يبدأ بالفلسفة والأيديولوجيا أولا (التي منها الدين عند الدكتور!) ثم يضع النظريات بناء عليها، فهذا ما لا يعجب الدكتور ولا يرضاه، ويرى أنه شأن يجب السعي في تغييره وإصلاحه مهما غلب على الأكاديميات العلمية! فالمطلوب تحقيق الحياد الكامل ما استطاع

الباحث إلى ذلك سبيلا! فما هو الحياد؟ أن تأتي نظريات العلم أولا، ثم الأيديولوجيا والمذهب الفلسفي والدين تبعا، وليس العكس! هذا هو الوضع المثالي الذي يأسف الدكتور لكونه قريبا من المستحيل (من حيث الوقوع)!

فخبرني بربك كيف يأخذ الفيلسوف الطبيعي في "دراسة الكون" بكليته على عبارة الدكتور، إن لم ينطلق في ذلك من مقدمات اعتقادية وجودية (أنطولوجية) ومنهجية معرفية كلية ملازمة لها، تجيز له افتراض الفرضيات الغيبية بتلك الأقيسة التي يتكلفها في غيب السماوات والأرض من الابتداء؟! القول بأن ما في الغيب المحض مماثل لما في الشهادة، ومن ثم يجوز قياسه عليه، سواء كان حادثا في الماضي البعيد أو المستقبل البعيد أو شيئا وجوديا في أنحاء الكون البعيدة، مما جميعه غير قابل للإخضاع للحس ولا للتكرار في تجربتنا البشرية، أليس هذا مذهبا فلسفيا؟ فهل يمكن للباحث الطبيعي أن يبدأ بحثه في قضية النشأة من غير أن يؤسس عليه؟ الرجل يتكلم في الفلسفة وهو من أقل الناس حظا من الدراية بها وبمصطلحاتها والله المستعان! ما معنى أنه "من المنطقي" أن يأتي "المذهب الفلسفي" كإفراز للعلوم الطبيعية؟ ما الذي جعله "منطقيا" هذا التقرير، وعلى أي أساس يرجى من القارئ أن يقبله، يسلم به تسليما؟ وهل يفهم من قوله "إفراز" أن الدعوى الطبيعية المطابقة للواقع (ولو بالأرجحية الاحتمالية) يترتب عليها الاعتقاد الغيبي الصحيح بالاقتضاء الضروري؟ أم أن ثمة قاعدة معيارية بدهية تفيد بأن الباحث الطبيعي ينبغي أن يبدأ أولا بالنظر في الطبيعة، ثم يؤسس مذهبه فيما وراءها بناء على ما ينتهي إليه نظره فيها؟ ظاهر الكلام أن المراد تصحيح ذلك المسلك معياريا، ثم بيان غلط من سماهم بالماديين في تأسيسهم نظرياتهم على أيديولوجية طبيعية إلحادية حاصلة لديهم من قبل، وأن الصواب ألا يؤسسوها على دين ولا على فلسفة ولا على شيء! وهذا والله كلام من لا يدري ما العلم ولا ما الدين ولا ما الفلسفة أو الأيديولوجيا، والله المستعان! وهو كذلك مذهب طوائف من الوضعيين الذين يزعم الدكتور أنه يخالفهم في "مذهبهم البائد"! القول بأنه من الممكن ومن المتصور في العقل للباحث الطبيعي أن يضع نظرياته بشأن "الكون" بكليته وأصله ونشأته، وغير ذلك من "الأسئلة الوجودية الكبرى" التي يتقرر بجوابها دين المرء وملته، من غير أن يكون لديه مقدمات ومسلمات معينة تأتي بالضرورة من خارج البحث الطبيعي وأدواته، هذا قول دوكينز وأمثاله من العلمويين الذين تصدر الدكتور في هذا الكتاب للرد عليهم، فتأمل!

ولهذا يمضي الدكتور ليقول تحت عنوان "المنهج العلمي ليس مؤمنا ولا ملحدا ولا طبيعيا": "لإثبات خطأ أدلجة المنهج العلمي نتساءل: هل ستختلف

نتائج الدراسة إذا كان الباحث الملحد يرى أن الكون وصل إلى ما وصل إليه بالصدفة، وأصبح يبدو كأنه قد صمم، بينما يرى الباحث المؤمن أن الكون قد صمم بالفعل؟" اهـ. قلت: قوله إن المنهج العلمي ليس له دين، قول فيه تفصيل! فهو قائم كله بالضرورة ومن مبدأ النظر على جملة من المسلمات الوجودية الغيبية التي لولاها ما كان للتجريب والبحث في النظاميات السببية Causal Regularities التي تجري في هذا العالم من أساس على الإطلاق! وقد بينا في هذا الكتاب بحول الله وقوته كيف نستخلص من تلك المسلمات ما هو حق في نفسه، يوافق اعتقاد المسلمين، وما هو دهرية طبيعية محضة لا يجوز قبولها ولا التأسيس عليها! وبينا كيف نفرق بين الدعاوى التجريبية التي هي حق مطابق للواقع، فلا يختلف أهل الأديان على إثباته تبعا لعقائدهم الغيبية، وتلك الدعاوى التي هي وهم وتخرص ورجم بالغيب، يرجع عند أصحابه – بالضرورة – إلى أصولهم الميتافزيقية الدينية! فما كان من جنس الاستقراء المباشر، وبناء المعادلات والعلاقات الرياضية والنماذج التي تصف ذلك الاستقراء والعلاقات السببية المحسوسة التي ينطوي عليها وصفا مطابقا أو مقاربا للواقع، فهذا قد يختلف الناس من أهل الملل في المنفعة المرجوة منه في هذا التطبيق أو ذاك، وهل يستحسن تكلف طرح هذا الموضوع للبحث التجريبي أم لا، ولكن ليس لهم أن يختلفوا في تلك المطابقة أو المقاربة للواقع تبعا لاختلاف أديانهم وعقائدهم! وأما التنظير الكوني الشامل Universal Theorization والتنظير التفسيري الغيبي Unobservable Hypothesizing الذي تفترض فيه الحوادث والموجودات الغيبية المحضة، فهذان المسلكان لا بد أن يختلف أهل الملل في الموقف من موضوعاتهما وثمراتهما ومخرجاتهما عند الطبيعيين، تبعا لاختلاف خلفياتهم الاعتقادية الغيبية!

وعليه يتبين لك الإجمال والخلل في نهي الدكتور عما يسميه "بأدلجة المنهج العلمي"! نحن أهل السنة نقول يجب "للمنهج العلمي" أن يرَشّد وأن يوجه توجيها شرعيا صحيحا، وإلا كان مفرخة للزندقة والجهمية ومرتعا للدهرية الطبيعية، أو مضيعة للجهد والمال وعلما لا ينفع على أحسن الأحوال! فهو ترشيد وإصلاح وتطهير يبدأ من مطارح الأسئلة البحثية نفسها وموضوعاتها، هل يجوز أن تطرح للبحث التجريبي (نوعا) أم لا يجوز! فإذا جاز، وجاوزنا بموضوع البحث نفسه تلك القنطرة الشرعية والعقلية، فلا ينبغي أن نختلف حينئذ فيما تفضي إليه الآلة التجريبية Empirical Method من نتائج مع من يخالفوننا في الدين والاعتقاد! أما أن يقال لأصحاب الأكاديميات الطبيعية الغربية، ابحثوا ما شئتم من أنواع المسائل، ونحن تبع لكم فيما تتفقون عليه، طالما أن لكم عليه استدلالا تجريبيا إمبريقيا (نوعا)، إلا أن تتكلموا صراحة في ذات الإله وصفاته، تطرحونها للبحث التجريبي، ولن نتدخل في

عملكم بالتوجيه أو "الأدلجة" ما تجنبتم الكلام في الإلهيات من طريقكم، فهذا موقف ليس بسديد ولا رشيد، بل هو موقف التابع البليد المغرق في التقليد، والله المستعان! هم لا يتكلمون في الإلهيات أصلا ولا يتطرقون إليها، وأنت تعلم ذلك جيدا يا دكتور، ومع ذلك فأنت تشهد بأن لهم نظريات وتأويلات لا يقبلها عاقل، لا توضع ولا تلتمس عندهم إلا لتغليق الأبواب في وجه من يريدون إدخال أي عامل سببي غيبي (أي ليس سببا "طبيعيا" ولا نظير له في الحس والعادة) سواء كان هو الإله أو الملائكة أو غير ذلك! وهم بتلك التأويلات والنظريات والتفسيرات لا يتكلمون في الإلهيات، بل يقطعون الطريق عليها وعلى أصحابها من الابتداء! فكيف يصنع المسلمون بشرطك الباهت الواهي هذا لقبول بضاعة الطبيعيين والتجريبيين، وبإطلاقك في المنع مما تسميه "بأدلجة المنهج العلمي"؟؟

يقول: "وكذلك فإن اصطلاح "المنهج العلمي الطبيعي Naturalism" يشير إلى أن المؤمنين بالإله لا يطبقون المنهج العلمي، ومن ثم من الأفضل أن نرفض كل هذه التصنيفات، فكلها يحمل خلفية أيديولوجية مميزة، وأن نتحدث فقط عن المنهج العلمي." اهـ. (ص. 62) قلت: يا دكتور، مصطلح Naturalism هو اسم لمسمى حقيقي موجود في الواقع، وليس وهما في أذهان بعض الفلاسفة، أو ادعاء كاذب على عمل كثير من علماء الطبيعة! وهو حقيقة وثيقة الارتباط والتداخل مع ما يصح للعقلاء أن يعدوه "علما" Science في جملة مباحث ونظريات وآراء الباحثين الطبيعيين مما هو متراكم في مكتباتهم وجامعاتهم من مؤلفات وأبحاث، على نحو لا يصلح معه ذلك التسطيح وقولك بكل سهولة: "فمن الأفضل أن نرفض كل هذه التصنيفات"!! هذا والله هو عين ما يرجوه الملاحدة الكبار الذين تزعم أنك متصدر لصيانة دين المسلمين منهم، فافهم يرحمك الله! يوشك عقلي أن يطيش – والله – من سطحية وسذاجة الطرح والتناول الذي به يتعامل الأكثرون ممن ألفوا في مكتبتنا الإسلامية في تلك القضية الدقيقة الشائكة، ومن الأهواء التي تغلب عليهم كما غلبت على متكلمة أهل القبلة ولاهوتيي أهل الكتاب من قبلهم، وإلى الله المشتكى! إعلم يا دكتور – ويا كل من ينهج نهج الدكتور من بني جلدتنا – أن ما يسمى بالعلم الطبيعي Science وما يسمى بالمنهج العلمي Scientific Method ليس كلا واحدا لا يتجزأ، بحيث يكون الموقف الصحيح – عقلا وشرعا – أن نقبله كله أو أن نرده كله، أو أن نقول إنه كله إلحادي أو أنه ليس فيه شيء إلحادي دهري البتة! هذا المخزون المتراكم من الأبحاث والنظريات في شأن الطبيعة في أكاديميات الغربيين (المعتمدة أكاديميا والمحكمة من أكبر الدوريات العلمية عندهم)، على أي مبدأ قام عندهم في الابتداء وما هي المسلمات الوجودية والمعرفية التي انطلق منها القوم في بنائه وتشييده بين أيديهم، بداية من

منطق طرح السؤال نفسه؟؟ أليس هذا أمرا يجب – وأكرر يجب – على المسلمين في زماننا هذا أن يحققوا البحث فيه وأن يمحصوه تمحيصا، إن أرادوا حقا أن يسلم لهم دينهم من تأويلات الملاحدة وتفسيراتهم، التي هي – وبحسبك أنت وبشهادتك - لا غرض من وضعها عندهم إلا تغليق كل مدخل للقول بإله بالغيب يسمع ويرى؟

حرر عقلك إذن من تبعية القوم ومن تقليدهم، وتجرد لله عز وجل من كل هوى خفي، والزم بيتك دارسا وقارئا ومدققا وارج من الله رجاء حثيثا وتضرع إليه أن يفتح عليك الفهم ويبين لك ما استغلق على غيرك في تلك القضايا الخطيرة، وأن يظهر لك الفرقان بين العلم التجريبي النافع Good Science وبين الميثولوجيا الطبيعية الدهرية Naturalistic Mythology، وبين الدهرية المنهجية Methodological Naturalism من جانب وبين المنهج التجريبي المستقيم Empirical Method من الجانب الآخر، وأنا أضمن لك أن ترجع علينا بعدئذ بما تكر به – أنت نفسك - على كلامك هذا تبطله وتبرأ إلى الله منه! أما أن يكون مدخل الكلام هو اعتقاد عصمة الاتفاق الأكاديمي الطبيعي ومراجعة الأقران في دورياتهم العلمية Infallibility of Peer Review ، وأن العيب فيمن يتأولون ما تنشره دورية كدورية Nature (مثلا) تأولا إلحاديا لا في بعض ما تنشرة المجلة نفسها من أبحاث محكمة من الأساس، فهذه تبعية عمياء لا يليق بأساتذة الجامعات في بلاد المسلمين أن يتلبسوا بها، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والعجيب أن الدكتور ينقل بعد ذلك كلاما وتأصيلا فلسفيا من كتاب لأحيائي بريطاني يدعى "روبرت شيلدريك" تحت عنوان وهم العلم The Science Delusion، يزعم أنه يوافقه في جميع ما يقول، مع أنه يناقض بذلك كثيرا مما حرره في الفصول السابقة مما مر معك التعليق عليه، من غير أن يشعر أنه يتناقض، ومن غير أن يشعر أن شيلدريك نفسه يتناقض في الكتاب كما سيأتي! فإن أول ما وصف به الدكتور الكتاب المذكور، بعد الإشارة إلى احتفاء الإعلام الأمريكي به، هو قوله (ص. 63): "ويتبنى الكتاب – ونحن نوافقه – أن العلم المعاصر ينطلق من عشر قواعد (افتراضات) أساسية ليس عليها أدلة علمية، أي أنها عقائد دوجماتيقية Dogmas استمدها العلم من مفاهيم فلسفية يونانية قديمة ترى أن المادة هي الحقيقة المطلقة الأزلية. ويرى المؤلف – ونحن نوافقه – أن العلم طالما تمسك بهذه القواعد فلن يتجاوز مستوى معين من فهم الذات الإنسانية والكون، وهو الهدف الأسمى للعلم. ومن ثم إذا أراد العلم أن يغزو آفاقا أوسع من الفهم والتقدم وأن يكتشف منظومات ما تزال مجهولة تتحكم في الوجود، فعليه التخلص من هذه المعتقدات الدوجماتيقية التي تخالف

الحقيقة." اهـ. قلت: ألست أنت من قرر قبل قليل أن المنطقي في العلم الطبيعي أن يبدأ من منطلقات "محايدة" وألا يقوم على أي "أيديولوجيات" من أي نوع؟ فبأي شيء توصف الافتراضات الدوغمائية التي ليس عليها أدلة علمية، إن لم تكن "أيديولوجيا" أو "فلسفة" لا يتحرك الباحث الطبيعي إلا منها؟ قولك: "ويرى المؤلف – ونحن نوافقه – أن العلم طالما تمسك بهذه القواعد فلن يتجاوز مستوى معين من فهم الذات الإنسانية والكون، وهو الهدف الأسمى للعلم" قلت: هذه القواعد كلها راجعة، يا دكتور، إلى الدين الطبيعي ومصادر تلقي المعرفة الغيبية فيه، المتمثلة في القول بأنه ليس في الوجود إلا ما هو "طبيعي"، أي من جنس ما هو محسوس معتاد من الحوادث والموجودات! فمجرد تجويز وتسويغ استعمال آلة العلم الطبيعي في استكشاف غيب الماضي المحض، هذا يقتضي التسليم بالفرض الدهري القائل بأن كل ما وقع من حوادث في الوجود من الأزل، هو من جنس ما هو محسوس معتاد من حوادث "الطبيعة"، وإلا ما جاز قياسه عليه! ومجرد تجويز استعمالها في استكشاف غيب السماوات فيما وراء ما يطاله الحس البشري أو يرجى له أن يطاله يوما ما، يقتضي التسليم بأن كل موجود في الواقع هو من جنس ما هو محسوس معتاد من موجودات الطبيعة، أي أن امتداد هذا الكون هو جميع ما في الواقع، وإلا فبأي شيء يستجاز قياس غيب الزمان والمكان على ما في الشاهد تلك الاستجازة المطلقة بلا حد ولا غاية؟!

كثيرا ما يقرر الدكتور عمرو في غير موضع من كلامه أنه يرى أن النقيصة الأولى التي يعاني منها العلم الطبيعي منهجيا، هي اقتصاره على الأسباب المباشرة المحسوسة وإهماله الأسباب الغيبية للحوادث عند تفسيرها [18]! فمن إفراطه وغلوه في تعظيم آلة البحث التجريبي Scientific Method، لا يرى الدكتور أداة أرقى منها ولا أقوى في إفادة العلم بالواقع الخارجي، وفي إثبات الموجودات ونفيها. فلما رأى الدكتور عامة الطبيعيين دهرية ماديين لا يقولون بما وراء الطبيعة ولا بسبب غيبي خارج عن دائرة السببية الطبيعية، استنكر ذلك منهم، ودعا إلى تمديد آلة البحث والقياس الطبيعي لتشمل الغيبيات والأسباب غير المحسوسة، وليصبح إثبات وجود الصانع إثباتا "علميا" Scientific تقدم له الأدلة التي تعضده "علميا"، بدلا من أن تستعمل نظريات الطبيعيين في إثبات عدم وجوده، ويزعم أصحابها أنها تقدم "دليلا علميا" على عدم وجود الصانع!

والواقع أن تلك الأداة إذا ما أقحمت في الغيبيات المحضة، فلن تكون على التحقيق إلا آلة للدهرية الماديين الطبيعيين Naturalists، ومصدرا وحيدا للتلقي المعرفي لديهم، يشيدون بها ميثولوجياهم الغيبية لبنة فوق لبنة، ولن

يكون مخالفهم الذي يجوز لهم استعمالها في تلك الأبواب إلا متطفلا متناقضا عليهم لا محالة، لا يدري ما يقتضيه مجرد استعمال تلك الآلة على ذلك النحو المفرط الغالي من إقرار لأصل أصول الملة الدهرية الطبيعية نفسها، ألا وهو جعل جميع الأسباب الغيبية قابلة مبدئيا للقياس على ما في المحسوس (نوعا)، ومن ثم طبع الواقع الخارجي بكليته بطابع الطبيعة Nature / The Natural! وهو ما يترتب عليه من اللوازم والمقتضيات في حق الصانع الذي يثبته أحدهم (بعدما يفرغ من التنظير التفصيلي والتلاعب في دقائق ميثولوجيا الطبيعيين التي قبلها مبدئيا)، ما لا يحصيه إلا الله من السلوب والتعطيلات في الأفعال الإلهية والصفات، ومن ثم ما لا يعلمه إلا الله من التحريف والتأويل البدعي الفاسد لنصوص الكتاب والسنة، على عادة كل جهمي محترق!

فهذه الآفة المنهجية، أيها القارئ الكريم (تجويز وتسويغ استعمال الأقيسة الطبيعية في قضايا الغيب المحض) هي القضية الكبرى وبيت الداء الذي يفضي بصاحبه إلى إحدى خصلتين لا ثالث لهما: إما التصريح بنفي الباري مع نفي الوجود الغيبي الخارج عن نوع الطبيعة جملة واحدة، ومن ثم التصريح بالدهرية والإلحاد والطبيعية المحضة، وإما القول بصانع أو مبدئ للعالم له حقيقة من حقيقتين لا ثالث لهما: إما مقالة الربوبيين Deists بالصانع العدمي Non-Existent Originator الذي لا حقيقة له إلا أن يكون شيئا فائقا للطبيعة ابتدأ به تاريخ الطبيعة ثم لم يعد له وجود أصلا، أو قدر له وجود كالعدم (ليبقى الاعتقاد بأنه لا موجود إلا الطبيعة سالما من احتمال المعارض، ويبقى الواقع الخارجي ساحة مفتوحة لعبث المنظر الطبيعي بلا حدّ ولا قيد)، وإما مقالة الوثنية القدماء Ancient Pagans بأن الصانع هو عين المصنوع (فيما يسمى بتوحيد الوجود الطبيعي Naturalistic Pantheism)، ومن صورها قولهم بأن خالق الكون إنما هو الكون نفسه في الحقيقة، على تنويعات شتى في تقرير صفاته عندهم، ومنها القول بأننا إنما نظن أننا ندرك الكون وإنما ندرك الموجود الأوحد على الحقيقة (على قول الاتحاديين: "لا موجود بحق إلا الله")، وأن الطبيعة كلها بقوانينها وأسبابها إنما هي ستار إداركي يخفي وراءه ذلك الموجود الوحيد! ومنها القول بأن الطبيعة الأم Nature كيان واع Conscious Being لا فرق فيه بين المتحركات والجمادات، وأن التطور الكوزمولوجي والدارويني إنما هما مراحل نمو Growth لذلك الكائن الأوحد، كما هو اعتقاد "شيلدريك" صاحب الكتاب الذي نقل منه الدكتور، وهو صورة من صور التطوير الاتحادي Evolutionary Pantheism، المخلوطة بعقائد New Age الوثنية الجديدة![19]

لقد صرح روبرت شيلدريك في التمهيد لكتابه المذكور بأن كثيرا من الباحثين الطبيعيين الأكاديميين الأمريكيين قد استشعروا أصل الخلل في المنطق الطبيعي نفسه Naturalistic Logic (أو للدقة: في مصادر تلقي الدين الطبيعي)، ولكنهم كانوا ولم يزالوا أجبن من أن يصرحوا به! ولهذا تراهم يتخافتون به فيما بينهم سرا، فإذا أراد أحدهم أن يعبر عما في نفسه، تكلم بكلام مجمل كهذا الذي كتبه شيلدريك في كتابه، لماذا؟ لأن نقمة الكنيسة الطبيعية الغربية على من تنقم عليه من الأكاديميين المنتسبين إليها لا تطاق! ولكن من الواضح أن تلك النقمة لا تلحق بالفيلسوف الطبيعي إن كيّف اعتقاده الغيبي على نظير ما ذهب إليه "شيلدريك" من القول بصورة من صور وحدة الوجود Pantheism! فإنه إذا صار الإله هو الكون والكون هو الإله، فقد انتفى النزاع إذن مع الطبيعيين الدهرية في أصل الدين، بداية من قولهم بأنه لا موجود في الحقيقة إلا الطبيعة، ووصولا إلى أدق تفاصيل أسطورتهم الميتافزيقية أيا ما كانت، وأصبح ما يفضي إليه دين الدهرية بالاقتضاء من تنزيل صفات الربوبية على الطبيعة نفسها، قولا صريحا عند الاتحادية (القائلين بوحدة الوجود الطبيعي) لن يجد أكثر الطبيعيين مانعا من قبوله! فما دمت ستظل تقبل مجمل الميثولوجيا الطبيعية فيما وراء المحسوس من هذا العالم مكانا وزمانا، وترى أن العالم ساحة مفتوحة بلا حد ولا نهاية لشقاشق الطبيعيين وأقيستهم وتخرصاتهم وتنطعاتهم العريضة على غيب السماوات والأرض، وأن الطريقة العلمية Scientific Method هي المصدر الأصل والأم لاكتساب المعارف بشأن كل ما هو موجود في الخارج، وأن جميع ما سوى ذلك المصدر تبع له، فأنت إذن على جادة مستحسنة يقبلها منك أساتذة الكنيسة الطبيعية ولا يستنكرون منك – والحالة هذه - ما تنتقيه لنفسك دينا واعتقادا أيا ما كان! أما أن تحاربهم في شيء من ذلك، تخطئهم في أصل المنهج الطبيعي أو تسقط عليهم شطرا عظيما مما يعتقدونه هم في غيب السماوات والأرض، أو تلزمهم بإعادة النظر في مصادر تلقي المعرفة بالغيب وما فيه، فأنت إذن عدو للعلم والعقل معا، ولا محل لك بينهم! ولهذا لا تجد أكثر الكاتبين في نقد الفلسفة الطبيعية المعاصرة من المنتسبين إلى أكاديميات القوم إلا ملتمسين الوسط الغلط لا محالة، لأن أحدهم لا يتصور لنفسه أن يأتي يوم يقال له من قبل هؤلاء "عدو العلم"، أو "المخرف الدجال" Crackpot أو نحو ذلك، وهو الباحث الصاعد في الطبيعيات، الذي لا يزال يرجو أن يقبل منه محررو الدوريات العلمية الكبرى أبحاثه للنشر حتى يترقى أكاديميا، أو حتى وهو الأستاذ الأكاديمي صاحب التصانيف والتلاميذ، الذي لا يتصور انصراف التلامذة والأتباع والأقران عنه وقد حاز بينهم ما حاز من الدرجة والمنزلة!

ففي الكتاب المذكور، يتناول "شيلدريك" بعض مسلمات الميتافزيقا الطبيعية بالنقض والاعتراض، مع أنه يجري عليها هي نفسها، على التحقيق، في طريقته ومنهجه الكلي فيما يتعلق بالغيبيات المحضة، متمسكا بالأصول الكلية الدهرية في أصل البناء الأكاديمي الطبيعي الغربي التي كانت تلك المسلمات كلها فرعا عليها، شعر بذلك أم لم يشعر! والأرجح عندي أنه يشعر ويدري، وأن السياسة الأكاديمية Academic Political Correctness هي التي اعتصرت أفكاره إلى هذا التناول السطحي الذي تراه، مع تشبعه بعقائد الوثنيين المشار إليها آنفا! فهو يشهد بأن العلم الطبيعي يعاني من خلل في أصوله الكلية يجعله بعيدا عن إصابة الحق في قضايا الغيب المحض إجمالا، ولكنه مع ذلك يزعم أن ذلك الخلل يمكن إصلاحه بتعديل تلك الأصول بحيث يصبح العلم الطبيعي Science هو المصدر الأوحد لتلقي المعرفة بالواقع الخارجي، غيبا وشهادة، كما يتوهم أصحابه أنه عليه الآن، وكما هو مذهب عمرو شريف الذي يبدو أنه يقلده عليه تقليدا! كأن تصبح مباحث ما يسمى بالبارانورمال Para-Normal (وهو تلك الظواهر الخارمة لعادة البشر، التي ترتبط في عقائد أهل الأديان الموروثة بالأرواح والجن وغير ذلك) مثلا، مباحث محترمة أكاديميا ولها نظرياتها التي تفسرها في إطار النظريات التي تفسر الطبيعة The Normal، ويصبح الكلام عن التخاطب الذهني Telepathy – مثلا – كلاما عن ظاهرة طبيعية توضع لها نظريات طبيعية تدخل تفسيرها في جملة نظريات العلم المستقر أكاديميا، أو ما يسميه توماس كوهن بالعلم السائد أو المطروق Normal Science، لا أن يقال إن العلم الطبيعي لا يتسع لإثباتها (كظاهرة واقعية) أصلا! ويتكلف الطبيعيون الإتيان بنظريات جديدة يتحول معها الطب الصيني – مثلا – إلى علم مقبول (طبيعيا)، بدلا من أن يظل مصنفا في أكاديميات القوم على أنه علم زائف Pseudoscience، وهكذا! وكذلك الكلام عن الروح، لماذا لا يعاملها الطبيعيون معاملة الكهرباء (مثلا)، على أنها تيار أو مجال في الجسم لا نراه وإنما نرى أثره، فتوضع النظريات والمعادلات لوصفها بتتبع أثرها كما وضعت القوانين والمعادلات للتعامل مع الكهرباء؟ لماذا ينبغي أن نقبل فرض أن العالم يتركب من مادة وحسب، لماذا لا نفترض تركبه من مادة ومكون آخر "غير مادي"، ثم ننظر كيف يمكن للطبيعيين أن يضعوا نظرياتهم الطبيعية بأقيسة جديدة بصورة ما أو بأخرى، من أجل أن يشملوها وما يتركب منها من كيانات غيبية بالتنظير الطبيعي، كما شملوا غيرها، أليس ذلك أحسن من أن نغمض أعيننا عن تلك الأمور، ونكتفي بنظريات قاصرة ناقصة تصف العالم على نحو ما نحب نحن أن نراه، لا على ما هو عليه على الحقيقة؟ فالمسألة عند الرجل مشكلة باراديغمية Paradigmatic Issue يريد لها حلا في إطار الكليات المنهجية الطبيعية في استكشاف العالم الخارجي Methodological Naturalism!

فهو في نهاية الأمر، منظر طبيعي جلد، يريد ما يريده الطبيعيون من التوصل إلى "نظرية كل شيء"، التي لا تترك في الوجود شيئا إلا جعلت له قياسا على شيء مما في العادة، حتى تشمله النظرية الطبيعية، وحتى يصبح اعتقاده فيه "اعتقادا علميا طبيعيا" Scientific Belief، إذ لا قسيم لهذا النوع من الاعتقاد عند الطبيعيين المعاصرين إلا الإيمان الأعمى Blind Faith! فلما نظر الرجل في الأقيسة المعتمدة حاليا ولم تعجبه، قال كما قال غيره: دعونا إذن نأتي بأقيسة جديدة، ولكن على شرط، أن نقتحم في ذلك تلك المناطق التي كنا من قبل ننفي وجود ما يستحق أن يُعلم فيها من الابتداء! فإذا كان اختزال العالم بكليته إلى المادة والطاقة لا يفي بالمطلوب، فلنختزله كله إلى غير ذلك، أو إلى هذين وغيرهما معهما!

والحاصل أنه لما وقع الدكتور عمرو على هذا التأصيل التسويغي التمطيطي عند شيلدريك، أصاب الكلام هوى في نفسه، فقال (ص. 63): "ويرى المؤلف – ونحن نوافقه – أن العلم طالما تمسك بهذه القواعد فلن يتجاوز مستوى معين من فهم الذات الإنسانية والكون، وهو الهدف الأسمى للعلم. ومن ثم إذا أراد العلم أن يغزو آفاقا أوسع من الفهم والتقدم وأن يكتشف منظومات ما زالت مجهولة تتحكم في الوجود فعليه التخلص من هذه المعتقدات الدوجماتيقية التي تخالف الحقيقة" اهـ. قلت: فهو لما كان اختياره للخروج من مأزق التهمة "بالإيمان الأعمى" هو القول بالتطور الموجه، كان لزاما عليه أن يلتمس سبيلا فلسفيا يجعل به القول بالتوجيه الإلهي للتطور المزعوم قولا علميا نوعا Scientific، ولذلك أفرغ وسعه في الكلام في مسألة العقل والمخ والإدراك والوعي وهذه الأشياء (متأثرا في ذلك بعقيدة شيلدريك على ما سيأتي)، لعله يتمكن من وضع أساس "علمي" للسببية الميتافزيقية تحت مفاصل تلك الأسطورة التطورية التي اعتنقها وانتصر لها، وهو ما أوقعه في نظير ما وقع فيه من تأثر بهم وقلدهم من عقائد فاسدة في صفات رب العالمين!

قال الدكتور (ص. 67): "ويبشرنا شيلدريك أن هذه المعتقدات الدوجماتيقية إلى زوال، فالعلم سيقبل في المستقبل الكثير من المفاهيم غير المادية، بعد أن بلغ خريجو كليات العلوم في الشرق الأقصى (الذي يؤمن بالأبعاد غير المادية) في السنوات الأخيرة عشرة أضعاف عدد الخريجين في أمريكا وأوروبا. إنها مقدمات تبشر بثورة الوعي The Conscious Revolution التي لا تنزع الوعي عن عالم المادة." اهـ. قلت: يا دكتور، الأبعاد غير المادية هذه التي تزف إلينا بشرى شيلدريك بأن أكثر الطبيعيين في المستقبل سيكونوا محملين بها في عقائدهم، إنما هي عقائد الوثنيين الهنود وفروعها المعاصرة كملة العصر الجديد New Age والأرض الأم "غايا" Gaia والطاقة

الكونية وغير ذلك من خرافات القوم، التي يجب على المسلم وجوبا أن يعتقد شركيتها وضلالها وخرافيتها! وهذه "الثورة" التي يبشر بها شيلدريك وفرحت أنت بها يا دكتور، إنما هي الاعتقاد الاتحادي Pantheistic Doctrine بأن الكون هو الكائن الواعي المطلق Ultimate Conscious Being، الذي يحيي ويميت ويقبض ويبسط ويرزق ويمنع، ومنه ينبثق كل نظام وقانون طبيعي، وأن الجمادات كالأحياء، كلها أجزاء من وعي كوني شامل، وكل فرد منها إنما يستمد وعيه من وعي الكون المزعوم، وأن ميكانيكا الكوانطا تثبت ذلك الزعم الخرافي السمج على طريقة "ديباك شوبرا" ومن شاكله!!

فهل هذا هو تصحيح مسار العلم الطبيعي الذي جئتنا بالدعوى إليه والبشارة به يا بروفيسور عمرو؟؟

نسأل الله السلامة!

ولعل أخف صور تلك النظرية هي القول بأن الوعي إنما هو ظاهرة كمومية Quantum Phenomenon (كما زعمه "روجر بينروز" مثلا) وأنه ينبعث من مركز كوني ما، فيلتقطه كل موجود من موجودات العالم بحسبه! هذه "الثورة" (ولا تبلغ أن تكون ثورة علمية ولا قريبا من ذلك على الحقيق) أو النظرية الجديدة الآخذة في الانتشار بين المشتغلين بما يسمى بعلوم الأعصاب Neuroscience وعلوم الإدراك الاستعرافي Cognitive Sciences لا سيما في بلاد الشرق الأقصى كما شخصه شيلدريك، يسميها من يعتنقونها من الطبيعيين بوحدة الوعي Panpsychism، وهي في حقيقة الأمر ومآله، ليست إلا محاولة لتطبيع Naturalizing عقيدة وحدة الوجود الوثنية القديمة Pagan Pantheism على أيدي طائفة من الطبيعيين المتأثرين بفلسفات الوثنيين (لا سيما البوذيين القائلين بأنه لا موجود في الخارج إلا الوعي)! فإنه عندما يقال إن الشيء الواعي هو الشيء الذي له دراية بنفسه، ويملك – مع ذلك – القدرة على إحداث سلوك ينفع به نفسه، ثم يقال إن الكون كله واع (كوحدة واحدة)، لم يبق إلا أن يقال إن جميع ما يجري في العالم من حوادث إنما هو من أثر دراية الكون بنفسه ومن توجيهه لأفعال نفسه، أي أن جميع الحوادث في العالم تصبح من خلق الكون، يخلقها بوعيه الكوني المزعوم! أي لم يبق إلا أن يقال إن الكون هو الإله الواحد الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا! وهذا ما يعتقدونه تحقيقا، ولكن في سياق البحث الطبيعي الأكاديمي، فلا يصرحون بذلك، وإنما يكتفون بوضع تعاريف إجرائية للوعي، ثم تصميم التجارب لاختبار ما إذا كان يمكن رصد ذلك الوعي في الأجرام السماوية أو في المادة الجامدة هنا على الأرض، بصورة ما أو بأخرى.

سيأتي في جزء لاحق بيان مسلك الدكتور في التأصيل لفلسفة Panpsychism في كتابه الموسوم "ثم صار المخ عقلا"، والله المستعان لا رب سواه.

الطبائع والقوانين الطبيعية وبدعة "التدخل الإلهي" عند عمرو شريف

يضرب الدكتور عمرو مثلا يرجو به أن يبين محل الغلط الذي يقع فيه الطبيعيون عندما يزعمون أن تفسيراتهم الطبيعية تغني عن القول بالإله، فيقول (ص. 69):

> إذا استقدمنا إنسانا بدائيا من منطقة نائية من العالم، وليكن اسمه (حور)، وأركبناه سيارة حديثة من ماركة فورد. الأغلب أن حور سيعتقد أن هناك إله (مستر فورد) يقبع داخل محرك السيارة ويدفعها للسير، وقد يتصور أن طالما كان مستر فورد راضيا عنا فسيدفع السيارة في يسر وهدوء، وإذا غضب علينا عطلها. ثم يلتحق حور بدراسة مكثفة لتعلم هندسة السيارات، ويكتشف أن محرك السيارة يعمل بآلية الاختراق الداخلي، وأنه ليس هناك حاجة لوضع مستر فورد داخل المحرك. لكن، هل ينفي ذلك أن هنري فورد هو الذي اخترع المحرك ووفر له ضروف عمله؟ ألا يكون استبعاد ذلك خطأ منطقيا ومنهجيا؟ إنه نفس الخطأ الذي يقع فيه الماديون/ الطبيعيون حين يعتقدون أن إدراك الآليات والمبادئ الفيزيائية التي يعمل بها الكون والحياة يستبعد الاحتياج لإله صممها وأنشأها. أي أنهم خلطوا بين الآلية والسبب الأول.

قلت: هذا المثل يرد به الدكتور على مسألة "إله الفجوات" التي يدندن بها رؤوس الإلحاد الجديد في كل مناسبة. ومع أن فيه وجها من الحق، إلا أنه يقتضي من تشبيه الأفعال ما يفضي إلى القول إما بالربوبية (التي كان الدكتور متنبها لها وحريصا على نفيها بعد ضربه هذا المثل مباشرة كما سيأتي)، وإما بوحدة الوجود التي تجعل ذات الرب هي حقيقة الواقع نفسه، وتجعل استقرار النظام الطبيعي واطراده جزءا من صفات ذاته، وهو ما يجنح إليه الدكتور كما سيأتي، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا. فإنه لا سبيل أمام الفيلسوف الطبيعي لإراحة رأسه من فكرة الوجود الغيبي المحض الذي ينقطع إليه طريق الطبيعيين ولا يملكون إليه سبيلا من جهتهم، إلا بإحدى خصلتين: إما نفيه بالكلية والتكذيب به وبما فيه، وإما تطبيعه وجعله هو عين الطبيعة نفسها، أو هو ما نتوهم نحن في إدراكنا البشري القاصر أنه "الطبيعة"، ونختزله في نظامنا المعرفي القاصر في "المادة" وما هو "مادي"! وهذا هو الخيار الذي مال إليه الدكتور عمرو، ووجد له متسعا في القول بصورة من صور وحدة الوجود، والله المستعان!

فإذا كان لابد من اعتقاد وجود قوة إلهية حاكمة ومدبرة ومسيرة لعملية التطور الدارويني المزعومة، وكان المنهج المعرفي المسموح به في الأكاديمية الطبيعية هو اعتماد الآلة التجريبية Scientific Method على أنها المصدر الأوحد لتلقي المعرفة بالأسباب والتفسيرات الغيبية لكافة حوادث العالم، فإنه يصبح لزاما لذلك الاعتقاد أن يؤسس على تلك الآلة، حتى يُلبس بلبوس العلم Science ويصبح لصاحبه وزن وقيمة بين أقرانه من الأكاديميين، ولا يعد من جملة المخرفين الساعين في "حشر" ميتافزيقاهم في الكوزمولوجيا والبيولوجيا المعاصرة، على طريقة "إله الفجوات"! فإذا جُعلت تلك القوة الغيبية حقيقة وجودية غامضة من حقائق هذا العالم المحسوس نفسه أو واقع تأسيسي Fundamental Reality لمادته نفسها، بحيث يرجى لآلة العلم الطبيعي في يوم من الأيام أن تتمكن من إثباتها كوزمولوجيا أو بيولوجيا أو كموميا أو غير ذلك، بصورة من صور الإثبات الوجودي للمغيبات الكونية في نظريات تلك العلوم، تحقق المطلوب إذن وحصل المقصود، وإذن يصبح "تدخل الإله" Divine Intervention حادثا طبيعيا Natural Event وليس فائقا للطبيعة Supernatural، ويصبح الاعتقاد الغيبي بوجوده وبأفعاله الجارية في هذا العالم "معرفة علمية" Scientific Knowledge وليس "إيمانا أعمى" Blind Faith!

ففي المثال الذي يضربه الدكتور في النقل أعلاه، يلزم من تشبيه الرب سبحانه بصانع محرك السيارة جعل العلاقة بين الرب وخلقه كالعلاقة بين هنري فورد وموتور السيارة الذي قام بتصميمه! أنه صممه أولا ثم باعه وتركه ليجري بمعزل عنه ودون "تدخل منه"! ولكن قد تنبه الدكتور لهذا اللازم الواضح، فقال في نفس الصفحة:

> ليس معنى ذلك أن دور الإله يقف عند الخلق والإمداد بالقوى ووضع القوانين التي تنظم موجودات الكون، ثم يترك المنظومة تسير، مثلما نملأ الساعة الزمبركية وندعها لتعمل، كما اعتقد أرسطو واعتقد الربوبيون Deists من بعده، وكما اعتقد كفار مكة أيام بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم ((ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ...)) إن عقيدة المتدينين أن الإله قيوم على الكون، أي يقوم بإمداده بالإيجاد وبتفعيل قوانين الطبيعة في كل لحظة ولا يغفل عنه ((الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ..)) إن القول بأن الله يعمل من خلال قوى وقوانين الطبيعة لا يمنع أن تكون هناك مواقف يتدخل فيها الإله تدخلا مباشرا، مثل بداية البدايات (بدايات الكون والحياة..) ونحن عندما نقول بذلك لا ننطلق من جهل وكسل وقصور معرفة، بل ننطلق من

علم، فالعلم قد أخبرنا مثلا أن المادة لا تستحدث، لكننا نجد عند دراسة بدايات الكون أن المادة قد نشأت من عدم، ذلك الأمر الذي يخبرنا العلم باستحالته، عند ذلك لا مفر من الإقرار بالتدخل الإلهي المباشر، لإيجاد المفردة Singularity التي بدأ بها الانفجار الكوني الأعظم الذي أنشأ الكون. ولا شك أن المعجزات الإلهية من المواقف التي يتدخل فيها المولى عز وجل تدخلا مباشرا يقطع فيه منظومة الأسباب وربما يعمل عكسها، وذلك إظهارا لقدرة الله عز وجل وتصديقا لرسله.

قلت: أولا، قول الدكتور بأن كفار قريش اعتقدوا بأن الله تعالى خلق الكون ثم تركه يسير وحده، جهل واضح، ولو أنه قرأ الآيتين التالتين مباشرة لآية العنكبوت التي ساقها، لوجد الله تعالى يقول في وصف الطائفة نفسها: ((وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)) [العنكبوت : 63] وقال سبحانه ((قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ)) [المؤمنون 88-89] وغير ذلك مما يصرح فيه القرآن بأن كفار قريش كانوا مستكملين توحيد الربوبية على ما بقي لديهم من ملة إبراهيم، وإنما أشركوا في الألوهية، فحاججهم الله تعالى بإلزامهم بلازم توحيد الربوبية الذي فرطوا فيه! أما أن يقال إن كفار قريش كانوا ربوبيين Deists يعتقدون أن الله خلق العالم ثم تركه وشأنه، فمن أين لك بهذا الكلام ومن سبقك إليه؟؟ والحقيقة فقد عرف الدكتور الربوبية Deism تعريفا غير مانع في غير مناسبة، فقال إنها إثبات الرب أو الإله، مع نفي الألوهية وعدم التدين بدين من الأديان التي ينسبها أصحابها إليه! وهذا تعريف غير مانع لكونه يدخل في أفراد المسمى جميع من أشركوا في الربوبية تصريحا أو اقتضاء! ذلك أن توحيد الربوبية في مصطلح أهل الإسلام وعلماء الملة، إنما هي الإيمان الجازم بأن الله هو خالق السماوات والأرض وهو الرزاق وهو القيوم وهو الموصوف بجميع صفات الربوبية على أكمل ما يليق به سبحانه. كل معاني الربوبية تدخل في توحيد الربوبية عند المسلمين، فمن انتقص منها كان مفرطا في توحيد الربوبية متلبسا بشرك الربوبية. والرجل قد يكون موحدا في الربوبية فيما يصرح به من اعتقاد، مشركا في الألوهية (ومن ثم في الربوبية بالاقتضاء لا بالتصريح)، وهو حال كفار قريش. فقد كانوا يوحدون الله في الربوبية تصريحا، ومهما سئلوا عن اعتقادهم في صفات الربوبية أثبتوها لله وحده ولم يشركوه فيها! ومع ذلك يقال إنهم أشركوا في بعضها بالاقتضاء (لصرفهم العبادة والدعاء والتأليه لغيره سبحانه)! فهؤلاء أثبتوا ربوبية لله ولم عبدوه ولم يدينوا بدين الإسلام، ومع ذلك لا يقال إنهم ربوبيون على الاصطلاح الفلسفي. ذلك أنه

على اصطلاح الفلاسفة المعاصرين الربوبية Deism هي الاعتقاد بأن للعالم صانعا قد صنعه في ابتداء أمره ثم تركه وشأنه! فهو اعتقاد طائفة غالية في شرك الربوبية تصريحا لا اقتضاء، تنفي عن الباري جميع صفات الربوبية إلا كونه السبب الأول ومبدأ العالم لا غير، ثم هم مع ذلك ينقلون تلك الصفات – ضرورة – إلى الدهر ومادة العالم ونظام الكون! وقد يكون الواحد من هؤلاء منتسبا إلى دين من الأديان الكتابية، يزعم أن الإله الذي يعبدونه هو هذا الذي عطله عن أكثر صفاته وأفعاله وما به استحق أن يعبد أصلا! ولهذا تجد طوائف من الربوبيين ينتسبون إلى النصرانية واليهودية، مع تصريح بعضهم بالربوبية وعقائدها، ولا عجب!

ثانيا: قوله "عقيدة المتدينين"، من هم المتدينون هؤلاء؟ ولماذا لا يقول الدكتور "عقيدة المسلمين"؟ السبب أيها القارئ الكريم، أنه يريد أن يجعل خطابه "عقليا" صرفا، لا أن يجعله خاصا بالمسلمين دون غيرهم ممن يثبتون خالقا لهذا العالم! فإذا سمعته يقول "مؤمنين"، فإنما يقصد بها من يثبتون الصانع من أهل الملل لا أكثر (وهو سبب قول الجهمية القدماء في الإيمان إنه التصديق بوجود الصانع، فتأمل)! وكذلك المتدينين، أي من يدينون بما يوجبه العقل لذلك الصانع من صفات! فأي عقل يقصد؟ العقل العلمي المعاصر ولا شك Modern Scientific Mind، وإلا فلا تتوقع منه أن يأتيك تحت عنوان العقل بميتافزيقا أرسطو والبراهين المؤسسة عليها مثلا! وقد مر معك بيان اعتقاده أن "العلم الحديث" يجب أن يكون هو الذي تنشأ عنه العقائد والفلسفات وليس العكس!

ثالثا: قوله "أن الخالق يقوم بإمداده بالإيجاد وبتفعيل قوانين الطبيعة في كل لحظة" قول مجمل للغاية! وهو إجمال متعمد فيما يبدو، والله المستعان! ما معنى "الإمداد بالإيجاد"؟؟ لست أسأل عن كيفية ذلك ولكن عن معنى الألفاظ! فمن الواضح أنه ليس من كلام الله في كتابه ولا من كلام رسوله في وصفه جل شأنه! والإخبار عن رب العالمين بالمجملات والمبهمات من أعظم الجنايات، وإلى الله المشتكى!

رابعا: قوله " إن القول بأن الله يعمل من خلال قوى وقوانين الطبيعة لا يمنع أن تكون هناك مواقف يتدخل فيها الإله تدخلا مباشرا" قلت: هنا بيت الداء! فمن أجل أن يبطل الاعتقاد القائل بأن النظام السببي الذي تجري عليه حوادث العالم كله من أوله إلى آخره، مقصور على قوانين الطبيعة ولا فعل للرب فيه، اعتمد الدكتور اعتقادا مفاده أن الرب هو الذي يحفظ "قوانين الطبيعة" التي تجري تحتها كافة حوادث العالم، وأنه "يتدخل" أحيانا ببعض الحوادث التي لا تخضع لتلك القوانين! أي أنه بدلا من أن ينتقد قياس الماكينة نفسه Machine Metaphor [21]، الذي هو عنوان الجهالة عند

الطبيعيين وآية اختزالهم العالم ونظامه السببي في تلك الأسباب القليلة الظاهرة التي تقع تحت الحس والعادة، اختار الدكتور أن يقرهم عليه إجمالا، مع التماس السماح لصانع الماكينة بأن "يتدخل" أحيانا، ليوقع شيئا ما على خلاف ما قد يفضي إليه جريانها لو أنه تركها على حالها! فسبحان الله وتعالى عن ذلك التصور علوا كبيرا!

على أي الأحوال، فمن الواضح أننا نحتاج في هذا المقام إلى الوقوف على تعريف واضح ودقيق "للقانون الطبيعي"، حتى يتضح للقارئ الكريم، على أي أساس يقف الدكتور هداه الله بكلامه، وعلى أي أساس نقف نحن في نقدنا إياه! ما هو هذا القانون الطبيعي الذي أصبح لزاما على الإنسان حتى ينسب إلى العقل والعلم في هذا الزمان أن يجعله هو الحاكم على كافة الحوادث في هذا العالم بلا استثناء؟؟ هنا يلزم أن نفرق بين مفهومين كليين لا يستويان. الواقع الوجودي للنظام السببي المرتبط بطبائع الأشياء فيما يظهر لنا، والتصور المعرفي البشري للعلاقات والنظم السببية المحسوسة باطراد وبصورة مباشرة في إطار ذلك الحيز الضيق الذي يقع تحت عادتنا من هذا العالم. فعند الطبيعيين، المفهومان متطابقان، وهذا باطل واختزال ومغالطة عقلية كبرى!

وحتى يتبين لك المقصود بهذا الكلام، دعنا من جديد نرجع لنطرح السؤال: ما معنى القول بنظام سببي يجري في إطار العالم المحسوس بصورة ثابتة مطردة؟ معناه أن ثمة أنواعا معينة من الحوادث المحسوسة بالفعل أو بالقوة، ينبغي أن تقع أولا قبل الحادث المطلوب تفسيره والتنبؤ بنظائره، حتى يقع ذلك الحادث نفسه ترتبا عليها أو كمسبَّب لها. فإذا كان المقصود عند الطبيعيين بالقانون الطبيعي، هو أنه لا تقع الحوادث في العالم إلا تحت نظم سببية ثابتة لابد أن تكون سائر أنواع الأسباب فيها من جنس السبب الطبيعي (الذي هو غاية ما يسعهم الوقوف على إدراكه بالحس والمشاهدة)، أي ليست من جنس ما هو محصور في دائرة العالم المحسوس والمعتاد وحسب، بل هي كذلك خاضعة للمشاهدة بصورة مباشرة، أو على الأقل قابلة للرصد والمشاهدة المباشرة ولو من حيث المبدء!

فمن كان هذا هو تصوره للنظام السببي الوجودي كما هو في الخارج Ontology of Causality، فيلزمه ولا شك القول بالسببية الطبيعية المغلقة التي هي من أصول الملة الطبيعية، التي يجب على المسلم أن يرفضها رفضا باتا قاطعا، وأن يبين لأصحابها أنها باطل في العقل والفطرة والسمع جميعا! فعندما يتوصل الباحث الطبيعي إلى الربط السببي بين نوعين من أنواع الحوادث المحسوسة في العالم، فإنه لا يقضي بذلك

(وجوديا) على نظامهما السببي بالاكتمال أو بتمام التعليل Complete Causation! وإنما غايته أن يقول: "لقد وقفت على إثبات العلاقة بين سبب واحد أو أكثر للظاهرة المراد دراستها، من جملة من الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي لا أقدر على إحصائها مهما تكلفته"! لو صدق الباحث الطبيعي وتجرد للحق لصرح بهذا المعنى! ولكنهم كانوا ولم يزالوا – من زمان فلاسفة اليونان القدماء – حريصين، ولأسباب دينية محضة، على قصر السببية ونظامها على نوع المحسوسات وما يقع تحت العادة من حوادث العالم، فقط لا غير! ذلك أنهم قد جعلوا دينهم أنه لا موجود بحق إلا الطبيعة، كما بسطنا الكلام عليه في الباب الأول من هذا الكتاب! وإذن فلا سبب إلا السبب الطبيعي! فما هو القانون الطبيعي في الدين الطبيعي؟ هو النظام السببي الحاكم للعلاقة بين نوعين أو أكثر من أنواع الحوادث، المطرد في كل مكان وفي كل زمان، بلا غيب ولا سبب غيبي ولا حد لاطراد القانون نفسه إلا ما قد ينشأ عن طرد نظام آخر من نظم الطبيعة نفسها! وإن قدر أن فرضوا أسبابا أخرى إضافية للظاهرة التي أثبتوا لها سببا في قانونهم، فمن شرطها عندهم أن تكون كلها من جنس ما أثبتوا، أسبابا طبيعية، أي تقبل القياس – مبدئيا - على ما في الحس من الأسباب المثبتة لديهم، ويرجى لهم الوقوف على دركها هي نفسها بالحس المباشر في يوم من الأيام!

فعلى سبيل المثال، نحن المسلمين نؤمن بأنه عندما تسقط الكرة إلى الأرض إذا تركناها معلقة في الهواء، فإن هذا لا يحدث من أثر الأسباب الطبيعية وحدها (ما نحسب أننا عرفناه منها وما لا نعرفه)! وإنما يحدث كذلك من أثر أسباب أخرى مطلقة التغييب، يجب أن تقع كلها قبل حادث وقوع الكرة، وأن تجتمع اجتماعا مخصوصا على نحو مخصوص وترتيب مخصوص (بما في ذلك ما نشهده من أسباب محسوسة) حتى يتولد عنها وقوع الكرة في كل مرة، وإلا لم يكن شيء منها سببا البتة! ولا شك أن أول تلك الأسباب وأعلاها في الغيب هو إرادة الرب جل وعلا ومشيئته المعينة لهذا الحادث بعينه، ثم أمره وقضاؤه الإلهي الذي لا يتخلف عن مشيئته، الذي سبق منه كتابته وكتابة جميع أسبابه في تقديره السابق، ثم عمل الملائكة الموكلة بطبع الأشياء على ما يظهر لنا من طبائعها وما لا يظهر، ثم جريان تلك الطبائع كلها على ما لا يظهر لنا منه في عالم الشهادة إلا القدر اليسير، وهو ذلك القدر الذي إذا استقر في عادتنا وخبرتنا الحسية القاصرة، صيرناه هو "قانون الطبيعة" Natural Law في تلك المسألة، وضربنا المعادلات الرياضية للعبارة عنه بما يناسب أغراضنا المعرفية من طرائق التجريد الرياضي! ثم ترى الجحدة العتاة من فلاسفة الطبيعيات يقولون بكل وقاحة إن العلم بتلك الأسباب القليلة المحسوسة يغني عن إثبات غيرها وراءها،

وإن هذا "القانون" الذي أثبتوه، هو ونحوه الحاكم على كافة حوادث العالم، حكما حتميا تاما Deterministic، على طريقة شيطان لابلاس! ثم يأتي اللاهوتي أو المتكلم المتجهم فيقول لهم في سذاجة وسطحية بالغة: كلا إن إثبات القانون الطبيعي (على مفهومه في الدين الطبيعي) لا يلزم منه نفي الصانع، إذ الصانع هو الذي بدأه وهو الذي به يفعل كل شيء! اللهم إلا إن أراد أن "يتدخل" بخرقه أو تعطيله في وقائع فذة في تاريخ البشرية، وإلا فالعالم كله خاضع بأمر الرب لذلك القانون خضوعا حتميا لا انخرام له!

فبناء على هذا المفهوم للقانون الطبيعي، فلا يجوز للمسلم أن يقول إن الرب "يتدخل" أحيانا في قوانين الطبيعة بمععنى أنه يخرمها أو يعطلها لسبب ما أو لآخر، فإن هذه الصياغة التي لديهم للنظم السببية إنما هي قشرة رقيقة من العلاقات السببية السطحية التي أذن الله في انكشافها لبني آدم! ولا يقول بأن فعل الرب سبحانه في إحداثه ما يشاء مما يخالفها في علمنا إنما يكون "تدخلا" منه في نظام الأسباب، إلا من يعتقد ذلك الاعتقاد الذي بيناه آنفا بانغلاق الأسباب ونظامها واقتصارها على ما هو طبيعي نوعا، يجعل النظام السببي الكامل في الخارج (في الأعيان) مقصورا على مجموع ما انتهى إليه تصور الطبيعيين للقوانين السببية المحسوسة (ما عندهم في الأذهان)! وهذا باطل قطعا لأن واقع النظم السببية أعظم من ذلك وأعمق غورا، وهو كله راجع في النهاية إلى مشيئة الله وأمره وقضائه! فهو سبحانه لم يكن "خارجا" منها أصلا حتى يحصل منه الدخول فيها أحيانا، فانتبه!

هذا هو ما يتلبس به من تشرب بأصول النحلة الطبيعية وبفلسفة العلم الدهرية عند الطبيعيين من غير تحقيق للعقيدة الصحيحة، وللموقف الشرعي الصحيح من أقوال ومذاهب أصحاب تلك الفلسفة، والله المستعان! فإذا أنت فهمت ما تقدم حق الفهم، ثم راجعت قول الدكتور: "إن القول بأن الله يعمل من خلال قوى وقوانين الطبيعة لا يمنع أن تكون هناك مواقف يتدخل فيها الإله تدخلا مباشرا"، تبين لك فورا ما في كلامه من عدوان واختزال فاحش لعلم الله جل شأنه وقدرته ولما لا يحيط أحدنا بعلمه من الأسباب الغيبية لكل حادث يقع تحت الحس! فإن كان مرادك يا دكتور بالقوانين الطبيعية هي جملة قوانين الفيزياء والكيمياء وغيرها كما هي عند الطبيعيين، فالله تعالى "لا يعمل من خلال قوانين الطبيعة"، سبحانه وتعالى عن ذلك الحصر والتقييد علوا كبيرا! وإنما تكون الأسباب الواقعة تحت عادتنا وحسنا بالفعل أو بالقوة (المسماة بالطبيعية) جزءا من جملة الأسباب الكافية التي إذا قدر في علم الله اجتماعها على نحو معين، تولد عن ذلك أكثر أنواع الحوادث التي اعتدنا على مشاهدتها في تجربتنا

البشرية! فإن شاء الله أن يجري تلك الحوادث نفسها على أثر مجموعة أخرى من الأسباب الكافية أيضا، التي لا يكون منها ما عهدناه وعرفناه من أنواع الأسباب المحسوسة، فإنه لا يمنعه من ذلك مانع، ولا يقال والحالة تلك إنه قد خرق نظام الأسباب أو عطله أو تجاوزه، فضلا عن أن يقال إنه "تدخل" في النظام "الطبيعي"! فعلى سبيل المثال، قد جرى في عادتنا أن الإنسان لكي يطير أو يُحمل في الهواء، فعليه أن يصنع آلة تحرك الهواء من حوله (أيروديناميكيا) على نحو يرقيه ويحركه على ثقل وزنه هو والمركب الذي يركبه! أو أن يصنع آلة أخرى تقذفه بقوة دفع كافية لتجاوز جاذبية الأرض والتعلق في فلك حولها! هذه تجري وفق نظام سببي معين وتلك تجري وفق نظام سببي آخر، وكلاهما يفضيان إلى حمل الإنسان عاليا في السماء! وثمة طريق أخرى للحمل في الهواء لا علاقة لها لا بهذا النظام السببي (الأيروداياناميكس) ولا بذاك (سرعة الهروب من الجاذبية)، وإنما تجري على نظام كافة أسبابه غيبية مطلقة التغييب، اللهم إلا ما يكون من اتصال بين الحامل والمحمول! أرأيت لو أن ساحرا حضّر ماردا من مردة الجن فحمله في الهواء، ألا يكون ذلك نظاما سببيا متكاملا له ما يحكمه في علم الله تعالى من الطبائع (كطبيعة الجني وقدرته على الطيران) ومن الأسباب ما يكفي لتحقيق الأثر نفسه (ترقي المحمول وانتقاله في الهواء)؟ بلى! ففي أي من تلك النظم السببية المتكاملة يقال إن الله قد "تدخل"، على ذاك المنطق الدهري الفاسد؟

بل حتى معجزات الأنبياء وآياتهم، لا نجدها في القرآن إلا معلقة بأسباب معينة يؤتى بها من قبل النبي أو الرسول، كما بسطنا الكلام عليه وأطلنا النفس فيه في غير هذا الموضع! فهل من طبيعة العصا أن تشق البحر إذا ضرب بها؟ سيجيبك الدهري الطبيعي بجواب سريع جاهز يقول: "كلا بالطبع، أي خرافة هذه؟؟" ونقول له: مهلا، لا تعجل! ما المقصود "بالطبيعة" المنسوبة للشيء؟ ما معنى أن يكون له "طبيعة" ملازمة له؟ المقصود أن صانعه جل شأنه قد قضى من الأسباب الغيبية (التي بها تصبح الطبائع طبائع) ما يجعله يسلك سلوكا معينا تحت ظروف معينة! فإذا اجتمعت له أسباب مخصوصة على ترتيب مخصوص، ظهر فيه من التغير أو من التأثير في غيره ما نعده طبيعة له أو طبعا ملازما Nature! فإذا كان ذلك كذلك، فما المانع من أن يكون من طبيعته كذلك، في علم الله تعالى، أن تجمع له أسباب غيبية أخرى في ظروف أخرى ليكون سببا في آثار أخرى مغايرة خارمة لعادتنا، ومخالفة لما كنا نعده طبيعة له من قبل؟ إن جعلنا المراد بطبيعة الشيء هو ما اعتدناه منه فيصح ولا شك أن يقال إن كون العصا سببا في شق البحر هو مخالف لطبيعتها. ولكن إن جعلنا المراد بطبيعة الشيء، ما يقضيه الرب له من سلوك معين تحت تأثير أسباب غيبية معينة،

بحيث كلما اجتمعت تلك الأسباب وقع منه ذلك السلوك، فيجوز إذن أن يقال إن الله قد جعل من طبيعة العصا أن تشق البحر إذا ما أذن سبحانه لحاملها بأن تجتمع له كافة الأسباب الغيبية المفضية إلى ذلك، التي منها ضربه البحر بها! فإذا كان ذلك كذلك، وكانت طبيعة الشيء هي صفته التي يكتسبها أو يُطبع عليها في ظروف معينة، على أثر جملة كبيرة من الأسباب الغيبية التي لا تجتمع في كل مرة إلا بمشيئة الله وأمره، فما وجه أن يقال إن الرب "تدخل" فعطل نظام الأسباب بكليته حتى تقع تلك الواقعة الخارمة لعادتنا حيث وقعت بأمره وبإذنه سبحانه؟؟

نحن المسلمين لا نثبت في ذلك نظاما سببيا غيبيا ولا ننفيه، وإنما نثبت ما نص القرآن على جعله سببا في هذه الآية أو المعجزة أو تلك، كأمر الرب موسى عليه السلام بضرب البحر بعصاه لينفلق البحر بإذنه سبحانه! فمن الجائز أن يكون وراء ذلك نظام سببي غيبي لا نعلمه، تعمل فيه ملائكة مخصوصة على عمل مخصوص لا يقع منهم إلا في مثل ذلك، ومن الجائز كذلك ألا يكون في المسألة من الأسباب إلا فعل ضرب البحر بعصا موسى، ثم قضاء الله تعالى لبعض أسباب الأرض أن تتعطل وبعض طبائع الأشياء أن تتبدل (فتنتفي بذلك شروط معينة وتتحقق موانع) حتى يحصل للبحر بالتولد السببي ما حصل له تحت النظام السببي المعتاد نفسه! هذا وارد وهذا وارد! ولا شك أن الله لو شاء أن يحدث شيئا في هذا العالم بلا أسباب البتة، غير أن يقول له كن فيكون، فهو قادر عليه سبحانه، ولكن بأي وجه يكون ذلك إن وقع "تدخلا" في نظام العالم، وكأنه كان نظاما يعمل وحده ثم دخل هو فيه سبحانه دخولا استثنائيا؟؟ ومن أين تأتي تلك الثقة البالغة في قول الدكتور هداه الله: "ولا شك أن المعجزات الإلهية من المواقف التي يتدخل فيها المولى عز وجل تدخلا مباشرا يقطع فيه منظومة الأسباب وربما يعمل عكسها، وذلك إظهارا لقدرة الله عز وجل وتصديقا لرسله." اهـ.؟؟

"لا شك"؟؟ سبحان الله! إعلم يا دكتور إن انخرام العادة لا يلزم أن يكون انخراما لنظام الكون نفسه، وإن كان الله تعالى قادرا عليه، وهو فاعله تحقيقا يوم القيامة، كما في قوله تعالى ((يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات))! أما سمعت بمثال الرجل الذي جاء من بادية بعيدة ثم رأى الصور تتحرك على التلفاز فعدها سحرا أو خرقا لنظام الأشياء، وليست هي إلا خرقا لعادته هو ولعلمه هو بنظام الأسباب على الحقيقة؟! فالمقصود من معجزات الأنبياء ليس خرم نظام العالم نفسه أو تبديله أو تعطيله، وإنما إشهاد المخاطبين بتلك الآيات على أن ما اعتادوه من أحوال الأشياء والنظم السببية الجارية عليها ليس إلا جزءا ضئيلا من قدرة ربهم جل شأنه، وأنه لو شاء سبحانه لبدل عليهم كل شيء، ولما أعجزه شيء سبحانه!

بل ما قول البروفيسور الطبيعي في الرقيا الشرعية التي يجعلها الله سببا في الشفاء، إذا تحققت شروط سببية معينة وانتفت موانع معينة، من غير أن يكون لشيء من ذلك النظام السببي علاقة بالقانون الطبيعي؟؟ وما قوله في السحر الذي هو ثابت في القرآن ومعلوم من الدين بالضرورة، ولا علاقة له بشيء من قوانين الطبيعة البتة؟؟ أرأيت الساحر ينطق بتعويذة أو تعزيمة أو طلسم أو نحو ذلك مما في كتب السحرة فإذا بالرجل وامرأته يفترقان، وإن كانا عند الغاية من المحبة والمودة؟؟ ألم يقل الله تعالى فيما تعلمه السحرة من الملكين ببابل: ((فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ)) الآية [البقرة : 102]؟؟ فهل هذه أسباب عندك يا دكتور أم ليست أسبابا؟؟ وهل يكون هذا قانونا سببيا مطردا أم لا يكون كذلك؟؟ أرأيت العائن يحسد أخاه بمجرد النظر إليه مع تمني زوال ما عنده، فإذا به يضره ضررا حقيقيا؟ فهل لهذا نظامه السببي على اعتقادك يا دكتور أم أنه "تدخل إلهي"؟؟ وما قولك في وسوسة الشيطان وحديثه في نفس الإنسان، يقذف في روعه بالشيء فيحسبه من بنات أفكاره، وما هو إلا شيطان يملي له؟ ألهذا نظامه السببي في اعتقادك، بشروطه وموانعه؟ أم أنه أمر خارق خارم لنظام الأسباب على اعتقادكم؟؟ بل حتى في المنامات، عندما يأتي النص على أن الرجل إذا رأى أمرا مكروهة ثم لم يحدث بها أحدا لم يضره، وهو ما يدل بمفهوم المخالفة على أنه قد يضره إن حدث به أحدا، فهل لهذا أسبابه النظامية عندك أم أنه ليس له قانون سببي يحكمه؟؟

بل إن اشتراك النظم السببية المتغايرة في إحداث الأثر الواحد هو أمر يعرف له الطبيعيون أمثلة في إطار ما هو مستقر لديهم من النظاميات الطبيعية نفسها! فمعلوم على سبيل المثال أن المادة يُنتقل بها إلى الحالة الغازية Gaseous State بتبخيرها من الحالة المائعة Vaporization، وهو المعتاد من أسباب تحويل المادة إلى الغاز! ومع ذلك فقد اكتشف الكيميائيون عملية يقال لها التسامي Sublimation، يمكن أن تحول بها المادة إلى الغاز من الحالة الصلبة Solid State دون الاضطرار للمرور على الحالة المائعة أولا! فالأمر في الأسباب أعمق وأغور بكثير مما يتصوره أولئك الجهلاء الجحدة، والله المستعان! وما مثلهم فيها إلا كمثل رجل أعمى وقع بيده على خرطوم فيل فظنه ثعبانا، وآخر وقع بيده على ذيله فظنه حبلا، وثالث استند بيده على بطنه العظيمة فظنها حجرا، والله المستعان! فمتى يعرف الفيلسوف الطبيعي قدره، ويقف عند حده، ويشهد على نفسه بأنه ما أوتي من العلم إلا قليلا؟؟!

المشكلة أيها القارئ الكريم، هي أن الدكتور هداه الله لا يرى في الأسباب إلا ما هو "طبيعي"، ولا من النظم السببية إلا ما يصح أن يقال له "قانون طبيعي"! فما سوى ذلك فهو "تدخل إلهي" في نظام العالم، يخرم الأسباب أو يعطلها! فلا يعلم ولا يتصور أن يكون في الغيب أسباب لها نظامها الذي تدخل فيه الأسباب المحسوسة وما نتصوره لها من نظم، دخول الجزء في الكل! ولهذا فما كان مخالفا للنظام السببي المحسوس الذي هو مبلغ الطبيعيين من العلم، فهو عنده خرق للقانون السببي برمته، وقلب لنظام العالم بالكلية، ولا وجه له – إذن – إلا أن يكون "تدخلا إلهيا" على المعنى الذي لا يرى الطبيعيون الدهرية متسعا لتصور أفعال الرب الخارقة لتصوراتهم للنظام السببي إلا عليه! لهذا يقول: "إن القول بأن الله يعمل من خلال قوى وقوانين الطبيعة لا يمنع أن تكون هناك مواقف يتدخل فيها الإله تدخلا مباشرا، مثل بداية البدايات (بدايات الكون والحياة..)" فعلى اعتقاده، فالإله "يعمل" على صورتين، صورة "غير مباشرة"، وهي طريق قوى وقوانين الطبيعة، وصورة مباشرة، وهي ما سماه "بالتدخل المباشر"! وهذا اعتقاد فريق كبير من اللاهوتيين الطبيعيين الغربيين يؤسسونه على مفهوم السببية عند الدهرية الطبيعيين! يقال لهم: "قد أثبتنا أن الكواكب لا تحفظها في أفلاكها ملائكة تجرها جرا كما كنتم تعتقدون (وما أثبتوا شيئا وما يستطيعون!)، وإنما يحفظها انحناء الزمكان حول الجرم الذي تدور حوله من أثر كتلته"، فإذا بهم يخرون للأذقان متابعين منقادين، ينسفون ذلك الاعتقاد القديم نسفا في انهزام نفسي تام، لتكون غاية أحدهم بعد ذلك أن يقول: "حسنا، هو كما تقولون، ولكن نحن نؤمن بأن الرب هو الذي خلق هذا الزمكان الذي تقولون به وخلق الكتلة كذلك"، وتنتهي القضية عند ذلك! فلسان حالهم يقول: هذا الذي جئتم به يا سادة، هو بالضبط ما نؤمن نحن بأنه طريق الرب في "عمل" ما يعمل في العالم! ونؤمن بأن العالم مغلق على ذلك النظام السببي المستقل الذي لا ينخرم ولا يفتقر لأسباب من خارجه، كما تعتقدون! ولكن نرجو منكم تكرما أن تأذنوا لنا بإثبات أن الرب قد يفتح ذلك النظام المغلق ويعطله أحيانا! وبما أنكم لم تتمكنوا إلى الآن من وضع فرضية تلقى قبولا أكاديميا عاما بشأن الكيفية التي نشأ بها ذلك النظام نفسه في الماضي، فنرجو منكم التكرم بقبول زعمنا بأن الرب الذي نؤمن نحن به هو الذي خلقه! ومهما جئتم بنظريات جديدة في سبب النشأة وفي سبب سببها من قبلها، وفي سبب ذلك من قبله، بحيث يصير لها القبول العام فيما بينكم، فستظل مهمتنا نحن اللاهوتيين أن نقرر أنه كان من قبل ذلك كله هو السبب الذي نشأ عنه كل شيء!

من هنا، أيها القارئ الكريم، اعتلى الطبيعيون أكتاف هؤلاء المخانيث وركبوا على ظهورهم كما تُركب الدابة، أعزك الله، ثم قالوا (وحق لهم أن يقولوا

كما بينا في غير هذا الموضع) "أخرجوا إلهكم من فجوات نظرياتنا، إن كنتم حقا ترونها هي العلم وهي السبيل!" ولا عجب! أنتم يا مساكين من قال إنه "يتدخل" في منظومة هي عند أصحابها مغلقة على مبدأ التفسير الطبيعي، مكتفية بالسببية الطبيعية Complete Natural Causation خلف كل حادث، فكان لزاما أن يقال لكم: أخرجوه وكل سبب غيبي معه Supernatural Cause لصالح مزيد من النظريات والأقيسة والتفسيرات الطبيعية التي نضربها نحن في نفس الامر، كما قبلتم أن تخرجوا تلك النوعية من الأسباب لصالح نظرياتنا أول مرة! أي إنه يلزمكم في هذا أن تسلكوا نظير ما سلكتموه من قبل في غيره! وإلا فلماذا قبلتم نظرية داروين ونظرية الانفجار، مع أنهما اختراق للغيب المحض بآلة العلم الطبيعي، أو للدقة: "طبعنة" لأسباب النشأة الأولى (التي يسميها الدكتور بالبدايات)، ثم قلتم إن ما قبل نشأة العالم بالانفجار وما قبل نشأة الكائن الحي الأول في تاريخ البيوسفير، غيب محض لا مجال للطبيعيين لاختراقه؟؟ من قبل بهذا الصنف من التنظير التفسيري الطبيعي في حوادث ماضية نقطع ببداهة العقل بأنها لا نظير لها في تجربتنا الحسية، لزمه أن يقبله هو نفسه فيما قبل تلك الحوادث وما وراءها ولا فرق، وإذن فسيظل يقلص من وجود معبوده الغيبي المزعوم ومن صفاته الظاهر أثرها في العالم مع كل نظرية جديدة يأتي بها القوم من طريقهم لا محالة، وإلا تناقض! وهو إلزام صحيح لا فكاك للاهوتيين وأهل الكلام العصريين منه، كما بسطنا الكلام عليه في موضعه!

فلماذا قال الدكتور هداه الله إن "بداية البدايات" كما سماها هي من الصنف الثاني من الأعمال الإلهية في العالم، على حسب قسمته الثنائية الاختزالية الفاسدة تلك (أي الذي هو "تدخل مباشر" كما يسميه)؟ الجواب تجده في قوله: "ونحن عندما نقول بذلك لا ننطلق من جهل وكسل وقصور معرفة، بل ننطلق من علم، فالعلم قد أخبرنا مثلا أن المادة لا تستحدث، لكننا نجد عند دراسة بدايات الكون أن المادة قد نشأت من عدم، ذلك الأمر الذي يخبرنا العلم باستحالته، عند ذلك لا مفر من الإقرار بالتدخل الإلهي المباشر، لإيجاد المفردة Singularity التي بدأ بها الانفجار الكوني الأعظم الذي أنشأ الكون" اهـ. قلت: فالدكتور حريص غاية الحرص على التزام شرط الدهرية الطبيعيين فيما يقال له "علم" في قضايا الغيب، حتى لا يتهم بنفس التهمة القديمة التي لم يأت الجهمية الأوائل بما جاؤوا به من بدع في دين الله تعالى إلا فرارا منها (التهمة بالسفاهة وبلادة العقل والجهل .. إلخ)! لهذا لزم أن يكون العلم الذي ينطلق منه الدكتور عند الكلام عن بداية العالم إنما هو العلم الطبيعي كما ترى! وما سوى ذلك في نفس الأمر من أي مصدر آخر فليس بعلم عنده! ولما كان "العلم" (هكذا!) يقول إن المادة

لا تستحدث [22]، ثم جاء الكوزمولوجيون أخيرا بنظرية الانفجار الكبير التي فيها حدوث كل شيء، لزم القول بسبب لحدوث العالم يكون متقدما على وجود المادة نفسها! وهنا يتناقض الدكتور فيقول إن دراسة كوزمولوجيا الانفجار "تبين" لنا أن مادة العالم قد نشأت من العدم [23]، ثم يقول في نفس السطر "وهو الأمر الذي يبين لنا العلم استحالته"! فالعلم إذن يبين حدوث الشيء من عدم ويبين استحالة حدوثه من عدم في نفس الوقت! سبحان الله! والعجيب أنه قد سبق منه في نفس الكتاب نقل اعتراض روبرت شيلدريك على هذا التناقض وموافقته عليه، إذ قال (ص. 63): "أثبت العلم المعاصر أن طاقة ومادة الكون قد استحدثتا من العدم، وفي نفس الوقت علينا أن نقبل بقانون بقاء الطاقة/المادة الذي يؤكد أنهما لا تستحدثان!!" اهـ. فبالله إذا كنت تقر بأن هذا تناقض وقع فيه الطبيعيون، فكيف وبأي عقل تريد الاستناد إلى ما تراه أنت تناقضا في إعمالهم للمنهج العلمي، تجعله دليلا على وجود الصانع؟؟ سبحان الله!

هو على أي حال يريد أن يقرر صورة من صور البرهان من الانفجار الكبير Argument from The Big Bang الذي قتلناه نقدا في كتابنا "آلة الموحدين"، يراه هو طريق "العقل" لإثبات الصانع في هذا الزمان، كما رآه من لا يحصيهم من اللاهوتيين والمتكلمين المعاصرين من قبله! [24] فلولا أن قدم الدكتور لنفسه بمقدمة كلية ومنهجية خفية مفادها أن كافة حوادث الماضي لابد وأن تكون قد خضعت لأسباب "طبيعية" نوعا، ما جعل لما سماه "بالعلم" كلمة في هذه القضية من الابتداء، إذ لا مدخل لإطلاق قياس هابل في دعواه تباعد الأجرام السماوية، يطردونه في جهة الماضي بلا حد ولا نهاية كما صنع جورج ليميتر، حتى أوصلوه إلى تلك الفردية المزعومة، إلا بناء على تلك المسلمة! هذه المقدمة الكلية الخفية هي ما يسميه الفلاسفة بالطبيعية المنهجية Methodological Naturalism، التي هي مصدر التلقي المعرفي في الغيب وما فيه عند الطبيعيين الدهرية! وهي نفس المقدمة الكلية التي لما استصحبها الطبيعيون قبل ظهور تلك النظرية في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي، قالوا بناء عليها بقدم العالم، أو بالكون الثابت Static Universe الذي لا يتطور ولا يتغير، من الأزل وإلى الأبد! ولهذا لم ير الدهرية إشكالا على الإطلاق في القول بحدوث تلك الهيئة التي نعرفها للعالم من ذلك الطريق، لأنه – مع ذلك – يجعله حادثا طبيعيا (نوعا) مسبوقا بسبب طبيعي لا محالة! فإذا كان جنس الأسباب الطبيعية قد بقي على اطراده في جهة الماضي إلى الأزل (وهو ذاك الفرض الخفي الذي لولاه ما قيل بالنظرية من الأساس)، فسواء قيل بأن ثمة عملية ارتقائية طويلة قد جرت على العالم فحولته من فردية ضئيلة إلى هذا الكون الذي نعرفه، أو بأنه لم تحدث تلك العملية البتة وإنما بقي العالم على حاله

هذا من الأزل، فسيبقى الأمر كله "طبيعة" في "طبيعة" على أي حال، وهو المطلوب في دين الطبيعيين! وإلا فهل يزعم الدكتور أن الطبيعيين ليس لديهم تفسيرات طبيعية محضة (نوعا) لظهور تلك الفردية المزعومة نفسها في مبتدأ الأسطورة الانفجارية، ثم لانفجارها المزعوم؟ أو للدقة: هل يزعم امتناع التوصل إليها بالافتراض التفسيري من طريقهم؟ لو زعم ذلك لقلنا له: أنت أجنبي عن منهج البحث الطبيعي عند الكوزمولوجيين، وحسبك بالكلام في علوم الطب التي أنت أستاذ فيها، إن أردت أن تنفع الناس!

والحاصل أيها القارئ الكريم، أن الدكتور يستنكر على الطبيعيين اختزاليتهم الوجودية، وقولهم بحتمية لابلاس، وبأنه لا موجود في الخارج إلا الطبيعة وأسبابها، مع أنه متلبس بذلك كله لزوما واقتضاء، غارق فيه من قدميه إلى شعر رأسه من حيث لا يشعر، سالك فيه جادتهم وطريقتهم التي زعم البراءة منها، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم قال الدكتور تحت عنوان "المذهب الطبيعي والمنهج الطبيعي" (ص. 88):

> إذا كان المذهب الطبيعي (الفلسفة الطبيعية) فلسفة لا تؤمن بإله أو بأي وجود فوق طبيعي، فالمنهج الطبيعي "منهج علمي" لا يحتم الإيمان بالفلسفة الطبيعية التي هي نظرة إلحادية لطبيعة الوجود، فالعالم المؤمن بالإله يتبع المنهج الطبيعي في دراسته للوجود، لذلك فالعلم الحقيقي وإن لم يتعامل مع الإله وما فوق الطبيعة فإنه لا يتنكر لهما. وقد انعكس المنهج الطبيعي بشكل مباشر وقوي على بنية النظريات العلمية، فصارت تستقي معلوماتها من المصادر الرياضية والتجريبية والعقلية والمفاهيم البديهية الصحيحة، وترفض الغيبيات، كما أصبحت مخرجاتها لا تشتمل على تفسيرات غيبية كوجود الإله. والمحصلة أننا نتحدث عن منهج طبيعي يتبنى أصحابه المذهب الطبيعي الفلسفي وهم الملاحدة، ومنهج طبيعي لا يتبنى أصحابه المذهب الطبيعي، وهم المؤمنون.

قلت: هذا التفريق المصطنع بين "الفلسفة الطبيعية" أو المذهب الطبيعي، وبين ما يسميه بالمنهج الطبيعي، يدلك على عمق الخلط لدى كثير من الأكاديميين التجريبيين من بني جلدتنا بين الدين الطبيعي والعلم الطبيعي!

فالدكتور يقول قبل هذه الفقرة مباشرة في نفس الصفحة: "ومن أهم إيجابيات المذهب الطبيعي أنه يضع حدودا واضحة بين العلم الحقيقي والخرافات، فهو يفرق بين علوم القضاء وممارسات تلتبس معها كالتنجيم، وبين الكيمياء والخيمياء. كذلك دفع هذا المذهب إلى تحاشي الكسل العلمي

وبتفسير كل الظواهر بأنها من فعل الإله." اهـ. قلت: فالمذهب الطبيعي على هذا الكلام، له إيجابيات، ويعصم أصحابه من الخرافات ويقي من الضلالات والخزعبلات، ولكنه مع ذلك – ويا لله العجب! - هو مذهب الملاحدة، كما يقرره الدكتور في قوله "منهج طبيعي يتبني أصحابه المذهب الطبيعي الفلسفي وهم الملاحدة"! ثم ينقلب الكلام إلى الثناء على "المنهج الطبيعي" الذي يبدو أنه يقصد به الطريقة التجريبية Scientific Method، ولكنه مع ذلك عندما يضع المصطلح الانكليزي الذي ترجمه هو بقوله "المنهج الطبيعي"، فإنه يقول: Methodological Naturalism، التي تعني في الحقيقة "الطبيعية المنهجية" وليس "المنهج الطبيعي"، أي منهج الطبيعيين القائلين بالدهرية الطبيعية في البحث في المحسوسات وفي طبائع الأشياء!

والحق أن أي مبتدئ في فلسفة العلم يدري تمام الدراية أن المصطلح Scientific Method والمصطلح Methodological Naturalism لا يطلقان على المسمى نفسه إلا عند الدهرية الطبيعيين القائلين "بالفلسفة الطبيعية"! فكما بينا في الباب الأول، فإن الدين الطبيعي أو الفلسفة الطبيعية تقوم على ركنين، أحدهما يقتضي الآخر منطقيا: الطبيعية الأنطولوجية Ontological Naturalism والطبيعية المنهجية Methodological Naturalism. فالطبيعية المنهجية التي سماها الدكتور تلبيسا أو تخليطا بالمنهج الطبيعي، إنما هي طريقة ذلك الباحث في المحسوسات الذي يستصحب في نفسه مقدمة خفية مفادها أن أي حادث محسوس أو "ظاهرة محسوسة" تقع في الواقع من حوله، فإنما تقتصر أسبابها على ما هو "طبيعي" (نوعا)، فيكون السعي في طلب التوصل إلى ذلك التفسير الطبيعي، هو كل ما يحتاج إليه الإنسان لمعرفة سبب تلك الظاهرة أو ذلك الحادث. وقد سمي بالطبيعية المنهجية لأنه منهج الطبيعيين القائلين بأنه لا وجود لشيء وراء الطبيعة على الإطلاق! فهو مصدر التلقي المعرفي الملازم للملة الطبيعية الدهرية كما بينا في الباب الأول من هذا الكتاب. الدهري الطبيعي هو الذي يقول بالسببية الطبيعية المغلقة (وجوديا)، أو بأنه لا سبب إلا السبب الطبيعي، ومن ثم يمنع من التماس أي طريق (معرفيا) لتفسير أي حادث يقع في العالم إلا التفسير الطبيعي Natural Explanation! أي أنك يا سعادة الدكتور المحترم ينبغي أن يكون الكفر بالغيب والتكذيب بما فيه، والقول بأنه لا موجود بحق إلا الطبيعة، هو اعتقادك ومذهبك الوجودي (اعتقادك بشأن الواقع الخارجي) إن أردت ألا تتناقض باعتناقك الطبيعية المنهجية Methodological Naturalist، فافهم هذا ولا تلبس على الناس!

فالذي يقال له "منهج علمي" على التحقيق مما عند الباحثين في الطبائع والتجريبيات، ليس هو الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism، وإنما هو الطريقة العلمية التجريبية Scientific Method إذا ما ضبطت بالضوابط المنهجية الصحيحة، ووضعت في موضعها الصحيح!

قول الدكتور: "وقد انعكس المنهج الطبيعي بشكل مباشر وقوي على بنية النظريات العلمية، فصارت تستقي معلوماتها من المصادر الرياضية والتجريبية والعقلية والمفاهيم البديهية الصحيحة، وترفض الغيبيات، كما أصبحت مخرجاتها لا تشتمل على تفسيرات غيبية كوجود الإله." قلت: هل هذا الكلام تقرير لمعيار، أم تقرير لواقع؟ بعبارة أخرى، هل هو وصف للطريقة التجريبية Scientific Method كما ينبغي أن تكون، ولما يرجى لها أن تنبته من ثمرة معرفية إن جرت على النحو الصحيح، أم أنه وصف لما هو واقع عند الطبيعيين الآن من أثر استعمالها على نحو ما هم عليه من ذلك؟؟ لا نفهم من قوله "وقد انعكس ... على بنية النظريات، فصارت تستقي ... وأصبحت مخرجاتها ... إلخ" إلا أنه يقرر ما يزعمه واقعا! وباستحضار ما تقدم من الدكتور تقريره من اعتبار الاتفاق الأكاديمي الطبيعي حجة قاطعة في أيما باب اتفقوا فيه، فإن كلامه هذا يعد – إذن – تسويغا وتحسينا للمسلك المتبع إجمالا في بناء جميع النظريات التي لقيت رواجا أكاديميا بين الطبيعيين في القرنين الأخيرين!

وهنا نسأل الدكتور – هداه الله - ونقول: أليس الانفجار الأعظم المزعوم حادثا غيبيا محضا؟ ألسنا نقطع بأن الوقوف على مشاهدته أو مشاهدة نظير له، مما ينقطع الرجاء فيه البتة؟ فلماذا لم ترفض "بنية النظريات العلمية" (ولا تسأل ما هذا!!) الجارية على "المنهج الطبيعي"، مبدأ وضع افتراض تفسيري في تلك المسألة مع أنها من "الغيبيات" المحضة؟ أليس المنشأ الأول لجميع الأنواع الحية على الأرض، حادثا غيبيا محضا؟ ألسنا نقطع بأننا لم ولن نرى حادثا تخلق به جميع الأنواع الحية على الأرض؟ فلماذا قبلت "بنية النظريات العلمية" هذه مبدأ افتراض تفسير طبيعي في تلك الغيبيات، إن كان الأمر عندهم كما تزعم من رفض الغيبيات البتة؟؟ وأي شيء يكون الزمكان الأينشتايني الذي يعتقدون أنه يملأ الكون كله من أوله إلى آخره، ينحني وينكسر وينخرم ويؤثر في حركات الأجسام ويتأثر بها، إن لم يكن تفسيرا غيبيا (نوعا) للجاذبية؟؟ بل أليست المادة السوداء المزعومة Dark Matter، التي تشهد أنت بأنها فرضية وهمية، هي من افتراض الغيبيات المحضة في التنظير الطبيعي؟؟ ألست أنت من قلت في فصل متقدم من نفس الكتاب (ص. 63): "وعندما اكتشف العلماء أن مقدار الجاذبية بين المجرات أكبر من أن تفسره كتلة تلك المجرات، افترضوا (دون دليل) وجود

مادة سوداء نعجز عن رصدها! كذلك عندما اكتشف العلماء أن سرعة تمدد الكون في تزايد، افترضوا (دون دليل) وجود طاقة سوداء لا يمكن رصدها كذلك!" اهـ. قلت: أليست هذه الفرضيات التي توهنها أنت وتراها "دون دليل"، محلا معتبرا للبحث والتنظير في أكاديميات الطبيعيين، معدودا عند أصحاب الدوريات الفيزيائية الكبرى علما صحيحا لا غبار عليه؟ فهل هذه ينطبق عليها قولك: "وقد انعكس المنهج الطبيعي بشكل مباشر وقوي على بنية النظريات العلمية، فصارت تستقي معلوماتها من المصادر الرياضية والتجريبية والعقلية والمفاهيم البديهية الصحيحة، وترفض الغيبيات، كما أصبحت مخرجاتها لا تشتمل على تفسيرات غيبية"؟؟

ألست أنت، يا دكتور، من قررت في نفس الكتاب أن العلم الطبيعي يحتاج إلى إصلاح، وأن المنهج الذي يتبعه الطبيعيون أصبح الغالب عليه أنه يجري خلف أيديولوجيات مادية، فتصبح النظريات هي التابعة للأيديولوجية، مع أنه كان يفترض عكس ذلك؟ ألست أنت من سقت إلينا كلام روبرت شيلدريك الذي ينتقد فيه ما تسميه أنت هنا "ببنية النظريات العلمية"، معلنا موافقتك إياه في كل فقرة؟؟ سبحان الله!

أما مجازفة الدكتور وإطلاقه القول بأن "العلم" يتوافق مع "الدين" (هكذا) توافقا جذريا عميقا، فأي علم تقصد يا دكتور وأي دين تحديدا، وما معنى التوافق العميق هذا؟؟ يقول (ص. 89): "نحن ندعي أن هناك توافقا عميقا حقيقيا بين الدين وجذور العلم. وينطلق ادعاؤنا هذا من أن كل العلوم تقوم على قناعة محورية واحدة، وهي أن الكون "منظم" (......) وبدون هذه القناعة ما كان للعلم أن يقوم." اهـ. قلت: يا دكتور هذا ليس توافقا بين "الدين" وجذور العلم، هذا توافق بين البداهة الأولى، ومسلمة بدهية من مسلمات العلم! هذه حقيقة لا يخالف فيها عاقل! فأي دين هذا الذي يثبت توافقه مع "العلم" (هكذا) بمجرد هذه الحقيقة؟؟ سبحان الله! دين البوذيين مثلا، في تلك الفرقة منهم التي لا ترى للكون صانعا بالغيب أصلا، هل يتوافق هذا مع أصول العلم على إطلاقك الفاحش؟ لا يجوز الكلام عن الدين بهذا الإجمال والإطلاق الذي اعتاده الفلاسفة واللاهوتيون يا دكتور، لأن الأديان والملل ليست سواء في الاعتقاد والمنهج وفي تفصيل ما جاءت به نصوصها من أخبار الغيب! والأديان التي تتفق في مبدأ إثبات صانع ما لهذا العالم، لا تتفق على إثبات صفاته وأفعاله، ولا تعبد نفس الإله! ثم إن الدهرية الطبيعية نفسها دين (بل أديان وملل ونحل شتى كما فصلنا الكلام عليه في الباب الأول من هذا الكتاب)، فما ثمرة تقرير أن الدين (هكذا) يتفق مع أصول "العلم" هكذا؟؟! ثم إن للدين علوما كذلك، فما ثبتت صحة نسبته إلى رب العالمين من خبر عن الغيب وما فيه عند أهل الدين الحق،

فهو علم قطعا، وهو أرقى العلوم وأعلاها على الإطلاق! فنحن المسلمين أهل علم بما أخبرنا به ربنا من خبر الغيب على التحقيق، هو العلم الأعلى والأرقى حقا وصدقا، وخصومنا هم أهل الدين الفاسد حقا وصدقا، دين الطبيعيين الدهرية، فتأمل!

ثم إن هذا المسلك الإجمالي في الكلام عن "الدين" هو من أعظم منابت الإرجاء عند أهل الكلام والله المستعان! يختزل الدين والإيمان في مجرد التصديق بوجود الصانع وبأنه مستحق للكمالات ومحاسن الصفات، لأن ذلك التصديق يصبح – من فرط ما يغرق فيه هؤلاء من السفسطة الفارغة والخصومة والجدل البيزنطي - هو منتهى المراد وغاية المرام، وذروة سنام علم الكلام! فتنقلب بداية الدين نهاية، ويصبح أساسه الأول ومبدؤه البدهي الفطري عند العقلاء الأسوياء مطلبا عزيزا بعيد المنال عند هؤلاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

من الواضح أن الدكتور تأثر في هذا المسلك (الكلام المجمل عن الدين، لا سيما القول بأن أصل الدين يتفق مع أصل العلم) بمناظرات بعض اللاهوتيين النصارى المنتشرة على شبكة الإنترنت لدوكينز ودينيت وهاريس وغيرهم، لا سيما عالم الرياضيات المتفلسف الانكليزي "جون لينوكس" الذي دندن كثيرا حول تلك المسألة! مع أنه ليس في أهل الملل والطوائف في الأرض من يرى أن العالم فوضوي عشوائي لا نظام له ولا سَنن فيه، ولا يمكن للعقل البشري أن يفهمه! والدهري يقول بهذا كما يقول به غيره، فإذا أراد أن يفسره، فسره بناء على ميتافزيقاه الفاسدة، أننا اتفق لنا اتفاقا بالصدفة أن نشأ فينا عقل يمكننا من ذلك، وانتهت القضية!

ثم يقال هنا: دعنا نفترض أن كان هذا العالم غير قابل للنمذجة الرياضية، أو بعبارة أدق لم يخلق الله عقولنا بحيث تقدر على ذلك، وكانت له حكمة أخرى من خلقنا فيه، لا تقتضي تمكيننا من ذلك، كما هي حكمته سبحانه من خلق العجماوات والدواب مثلا، أفيكون ذلك دليلا على أن العالم لم يخلق أو لم يكن له صانع بالغيب، أو أنه كون عابث ليس له في نفسه نظام يضبطه؟؟ مجرد حقيقة مخلوقيتنا ووجودنا في هذا العالم، مع ما هو ظاهر في ذلك الوجود بداهة من افتقارنا والعالم بكليته إلى من يقوم بنا وبكل شيء فيه، هذه تدل دلالة فطرية بدهية على أن له ربا قيوما تنتهي إليه أسباب كل شيء! فلا يحتاج العقلاء إلى أن يكونوا رياضيين كجون لينوكس حتى يظهر لهم أن العلم الطبيعي ما كان ليكون ممكنا لو لم يكن العالم مخلوقا مربوبا!

تشبيه الأفعال على طريقة Divine Action اللاهوتية عند الدكتور عمرو شريف، وعدوانه المبين على كلمة التكوين!

قال الدكتور في مقطع فيديو له على اليوتيوب بعنوان "فيزياء كن فيكون" (وحسبك بعنوان المقطع استفزازا لكل مؤمن عاقل!):

> من المفاهيم الشائعة دينيا، والألفاظ المستخدمة، "السنن الكونية" سنن الله عز وجل الكونية! وإن ربي عز وجل بيدير هذا الوجود بسننه الكونية اللي احنا بنقول إن هي قوانين الفيزياء، وقوانين البيولوجيا، وفي نفس الوقت ربي بيدير كل شيء بكن فيكون! هانتكلم في هذا الموضوع في اللقاء القادم الأخير. إذا كان ربي بيدير بكن فيكون، وفي الوجود هنا في عالم الشهادة بيدير بالسنن الكونية، فأنا يعني ابتدعت اصطلاح، باقول فيزياء كن فيكون! كن فيكون لها فيزياء لما تيجي تتطبق في عالمنا! بيولوجيا كن فيكون، التطور، لما تيجي كن فيكون تشتغل في عالمنا! إيه. هانتكلم في هذا الموضوع.

قلت: الحمد لله الذي أشهدك على نفسك بأنك قد "ابتدعت" في دين رب العالمين وفي عقيدة المسلمين، نسأل الله العافية! أنا لا أدري حقيقة من أين جاء الدكتور بهذه الجرأة على ربه جل وعلا! لم يفكر حتى في أن يسميها "ميتافزيقا كن فيكون"، بل أبى إلا أن يجعلها "فيزياء كن فيكون"! فصدق الذي قال، بأبي هو وأمي: إذا لم تستح فاصنع ما شئت! ولا عجب في أن يشكل هذا الأمر أعظم الإشكال وأعوصه على من آل به منهجه إلى انغلاق القوانين الطبيعية على ما تجري عليه من الحوادث جريا على قياس الماكينة الكونية أو الحاسوب الكوني أو أيما قياس ميتافزيقي هابط ارتضاه لنفسه تقليدا للميتافزيقيين الطبيعيين المعاصرين! هو صاحب مذهب يقتضي ألا تكون الأسباب – على الحقيقة – إلا طبيعية نوعا، كما مر معك بيانه! فلا حصول عنده للسنن الكونية والسببية إلا أن تكون هي قوانين الطبيعة التي اكتشفها الطبيعيون الغربيون! بل وليس يرى للعالم نفسه نشأة ولا خلقا إلا جريا على تلك القوانين والأسباب نفسها! يعتنق ذلك الاعتقاد الميتافزيقي الدهري الكلي وهو – مع ذلك – يزعم سلامته من القول بالحتمية اللابلاسية ومن الماكينة الكونية المغلقة سببيا، فيالله العجب! فمن كان هذا دينه، فلا يملك إلا أن يتقرمط على الخلق بكلمة التكوين الذي استفاض القرآن بذكره، كما في قوله تعالى: ((إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [النحل : 40]، يتأوله تأولا جهميا يخرج به من اعتراض الطبيعيين السخيف الذي يوردونه على كل من يثبت سببا غيبيا في العالم! فيقول:

الفكر المادي بخصوص الكون، بيتبنى ما يسميه أو أسميته منظومة الانغلاق الثلاثية. منظومة الانغلاق الثلاثية. يتبنى إن الكون منظومة مغلقة، لما نؤول منظومة مغلقة يعني إيه؟ يعني ما فيش حاجة بتيجي من براه، ولا حاجة تخرج من جواه لبراه، إحنا ما نعرفش براه إيه! إنما فيه منظومة انغلاق مافيش حاجة تدخل ولا تخرج. انغلاق مادي، لا مادة ولا طاقة تدخل ولا تخرج، انغلاق معلوماتي، مافيش معلومات تضاف على الكون أو تخرج، وانغلاق سببي، السببية. الكون يعمل بقوانين لا يسمح بالتدخل في مسارها. هذه منظومة الانغلاق الثلاثية التي يتبناها الماديون. ويضيفوا في ضوء هذا الكلام، ليس هناك مجال للإله يتدخل، أصل لو تدخل بمعلومات أو خرق أسباب، هايختل توازن الطاقة في الكون، أو في المكان أو في البيئة اللي احنا فيها! بس احنا ما رصدناش الكلام ده، الكون منضبط منضبط زي الساعة! والأرض منضبطة زي الساعة، يبقى مافيش مجال للتدخل من خارج إلى داخل!

قلت: الانغلاق السببي يا دكتور Causal Closure ملازم لتلك الانغلاقات الأخرى التي أحدثت فيها تفصيلا لا وجه له! فمن قال بأن العالم مغلق ماديا (أي لا مادة ولا طاقة تدخل ولا تخرج، على حد عبارة الدكتور)، فقد أغلقه سببيا بالضرورة، إذ يلزم إذن القول بأن الكون نظام ثيرموديناميكي مغلق Closed Thermodynamical System، لا تحدث فيه المادة إلا من المادة، ولا الطاقة إلا من الطاقة، بل ولا يحدث فيه شيء إلا بأسباب المادة والطاقة (نوعا)، وهذا هو الانغلاق السببي اللابلاسي بحذافيره! ولهذا لم نر عند الفلاسفة كلاما على الانغلاق ولا على الحتمية إلا في معنى السببية! ولكن لأن الدكتور يريد أن يلتمس طريقا يثبت به انغلاق تلك الماكينة الكونية على قوانينها الطبيعية إجمالا، وفي نفس الوقت يفتح معه بابا لعمل الرب في أجزاء تلك الماكينة، على نحو لا ترد معه تلك الشبهة التي ذكرها، لم يجد إلا أن يتكلف التفريق المتنطع بين وجه من وجوه الانغلاق المزعوم يثبته، ووجه آخر ينفيه! فلما قيل له إن إثبات أي تدخل في الأسباب من خارج العالم من شأنه أن يكسر سلطان القوانين الطبيعية عليه، ومن ثم تنهار توازنات المادة والطاقة وينفرط عقد النظام الكوني كله، عظمت تلك الشبهة في نفسه جدا، حتى جعلها "التحدي الأكبر الذي يواجه المتدينين"! كيف يفكرون في طريقة يجدون بها دورا لربهم في تلك الماكينة المغلقة المتوازنة المستغنية عن أي سبب غيبي؟ هذا هو "التحدي"! ولو صدق الدكتور في دعواه السلامة من الحتملية اللابلاسية لما سلك هذا المسلك التلفيقي السخيف، ولما ألزمنا – أصلا – بأن نتكلف طريقا للحفاظ على

ماكينتهم الكونية الواهية تلك التي لا وجود لها إلا في أذهانهم! نحن المسلمين من أهل السنة والجماعة لا نقبل – أصلا ومن حيث المبدأ – قياس الماكينة هذا، حتى نتأمل فيما هو مغلق منها وما ليس بمغلق!

بل نقول إن ما يظهر لنا من نظامية العالم إنما هو أثر لما لا يحصيه إلا رب العالمين من أسباب تجري كلها على طبائع مشاهدة وطبائع مغيبة وأفعال لمخلوقات غيبية لا نراها، وأوامر تتنزل من السماء إلى الأرض آناء الليل وأطراف النهار! فكل حادث يحدث في العالم فهو أثر لأمر الله التكويني النازل من السماء [25]، وهو كذلك سبب لغيره من الحوادث التي لا يكون سببا فيها إلا بأمر من أوامر الله التكوينية النازلة من السماء كذلك، فالسبب يحدث بأمر، والمسبب يحدث بأمر، وما يصير به سببا يحدث كله بأمر، تلك الأوامر التي لا تحصيها عقولنا ولا يشغله سبحانه بعضها عن بعض، بما يحصل من محصوله أن تبقى الطبائع في الأشياء بأمره سبحانه، وأن يؤثر بعضها في بعض سببيا بأمره جل شأنه، على ذلك النحو الذي لا ندرك منه إلا القدر اليسير! فسواء بقيت تلك القوانين واطردت [26]، أو انخرمت فيما يظهر لنا أو انقلبت وانعكست بالكلية، فالكل أمره وحده لا شريك له، خاضع جميعه لتقديره الشامل الذي لا يخرج منه شيء، منه ينزل وإليه يعرج سبحانه ((يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)) [السجدة : 5]! وليس اتزان المادة والطاقة هذا نفسه إلا أثرا من آثار تلك الأوامر الإلهية التي لا ينقض بعضها بعضا ولا يخرم بعضها بعضا، كل من لدن حكيم خبير!

أما الدكتور فمن إغراقه في الطبيعية المنهجية، لم يجد إلا أن يقبل قياس الماكينة المغلقة الدهري الفاسد هذا وأن يلتمس طريقا تلفيقية لتمريره مع دفع ذلك الاعتراض الدهري في نفس الوقت! فجعل الانغلاق السببي الدهري على ثلاثة أضرب: انغلاق سببي وانغلاق مادي وانغلاق معلوماتي، حتى إذا ما سئل قال إنني أثبت بعض ذلك وأنفي بعضه كما سيأتي، مع أن الجميع حقيقته الانغلاق السببي اللابلاسي كما بينا! فكيف أسس لتلك القسمة الواهية؟ [27]

قال:

> وده اللي خلا الفيزيائي الفرنسي لابلاس، لما عمل كتابه عن دوران الأفلاك، وقرأه نابليون، ونابليون سأله، أين دور الإله في هذه المنظومة؟ يعني كان نيوتن، في حتمية نيوتن، احتفظ للإله بدور، إن هو اللي حط قوانين الطبيعة وأنه يعدل مسار الأحداث. إنما لابلاس قال حتمية مطلقة. عشان كده لما نيجي نتكلم عن

الحتمية المطلقة نقول حتمية لابلاس. حتمية لابلاس حتمية مطلقة. فقال له ببساطة، آدي المعادلات أهيه! مش محتاجة لدور للإله! الجزء اليمين والجزء الشمال معادلات متوازنة مش محتاجة، مافيش مكان للإله عشان نقول إن هو موجود هنا! عشان كده قال مقولته لابلاس "سيدي لا أرى حاجة لهذا الافتراض! (القول بوجود إله)! وفي الحقيقة أنا حاورت ملاحدة، مثقفين، بعضهم على أمانة، يقولوا لي نفس كلام لابلاس! يا دكتور عمرو المعادلات الكيميائية والفيزيايئية منضبطة، مش محتاجة مكان للإله! فنقول لهم القول اللي قاله ألفين بلانتينغا الفيلسوف الأمريكي الكبير: من يبحث عن الإله في معادلات الفيزياء، فلن يجده! من يبحث عن الإله في معادلات الفيزياء، كمن يبحث عن الرسام في اللوحة! معنى جميل جدا! هو أنت بتدور على ليونرادوا دافينشي في اللوحة بتاعت الجيوكاندا؟ هو بيرسم وهو بره، في قوانين الطبيعة، ووزن المعادلات، الإله هو السبب فيها! فلا يكون عنصرا فيها! زي الرسام واللوحة!

قلت: هذا القول الذي ينسبه لألفين بلانتينغا هو قول من يقر للطبيعيين بسببيتهم المغلقة، لا من يردها عليهم! وعلى أي حال فينبغي أن يكون معلوما أن عامة اللاهوتيين المعاصرين، ومنهم بلانتينغا، قد قبلوا من الطبيعيين ميتافزيقاهم الميكانيكية Mechanistic Metaphysics إجمالا، وقبلوا تصور القوم للقوانين الطبيعية على أنها كتروس الماكينة، كل ترس إذا تحرك على نحو ما، وجب أن تكون جميع التروس الأخرى جارية على النحو الذي صممت عليه الماكينة، من غير أن "يتدخل" صانع الماكينة بتحريك شيء فيها من الخارج، إذ لا حاجة لذلك "التدخل" حتى تعمل الماكينة على النحو المطلوب منها! وعلى هذا القياس نفسه، فمن الواضح أننا لو قدرنا أن حُرِّك ترس ما على خلاف نظام التروس في الماكينة أو بُدل موضعه فستتعطل كلها! وصحيح إن جميع ما يجري في العالم من حوادث لا يقع منه شيء إلا على النحو الذي يحصل بمجموعه المقصود الإلهي من خلق العالم ومن خلق كل شيء فيه، وصحيح إن مبدأ السببية والترابط السببي بين حوادث العالم ماض لا يقبل العقل له انخراما، وكذلك يقال في مبدأ النظامية السببية Causal regularity أن العالم يجب أن يقوم على نظم سببية مطردة حتى يكون لعمل العامل فيه ثمرة ولسعيه وكسبه أثر تتحقق به الحكمة من خلقه فيه، كل هذا بدهي ضروري لا مرية فيه، ولكن من الذي قال وبأي سلطان قرر أن العالم بكليته ماكينة عملاقة، تعمل كعمل الماكينة، وتعمل القوانين والسنن الكونية فيها (في حدود ما توصل إليه القوم منها أيا ما كان) عمل التروس في الماكينة، صنعت أجزاؤها ثم

ركبت في بعضها البعض ثم تركت لتجري بصورة "آلية"؟؟ هذا قياس شمول فاسد لا يجوز للمسلم أن يقبله، وفيه من الاختزالية الدهرية ما يندى له الجبين، وأظهر وأول ما يقتضيه في حق الباري جل شأنه هو تشبيهه بالصانع البشري كما لا يخفى!

فعندما أراد عتاة الفلاسفة الطبيعيين أن يحصل لديهم قول في حال العالم بكليته ومبدئه ومنتهاه يتسودون به بين الناس، أجلس أحدهم نفسه مجلس الخالق الباري، سبحانه وتعالى علوا كبيرا، ثم سأل نفسه كيف يصنع عالما كعالمنا هذا إن أراد أن يصنعه في يوم من الأيام، وكيف يجعل فيه تلك السنن السببية التي انكشفت له في عادته وتجربته، كنظام ثابت لا يتبدل ولا يتعطل؟ فلما وضع نيوتن قوانين الحركة وقانون الجاذبية، وكان جاريا على المبدأ الدهري في طرد كل نظام سببي ظاهر في عادتنا وحسنا على جميع العالم بلا حد ولا نهاية ولا قيد (إلا ما يمليه عليه القياس نفسه، كما في أقيسة الكوزمولوجيا الانفجارية الانتفاخية العصرية)، نظر الرجل إلى العالم وكأنه ماكينة أو آلة تعمل عملا رتيبا جاريا جريان الساعة الزنبركية، قد ركب فيها ثم ترك ليعمل على ما عليه تصميم المحركات عملا ذاتيا لا يحتاج إلى أسباب من خارجه! فكما أن الآلة بشرية الصنع تصمم بتصور أجزائها والعلاقات الميكانيكية الرابطة بينها جيومتريا ورياضيا، فلابد كذلك أن تكون المعادلات الرياضية بمنزلة التوصيف الميكانيكي لأجزاء نظامه! وكما أننا لا نتوقع أن يتغير سير آلة الساعة الزنبركية بأي صورة من الصور إلا بأن تتعطل، فكذلك في قوانين الميكانيكا والجاذبية التي عبر عنها نيوتن في معادلاته، لا تيغير منها شيء إلا عطبت وتعطلت كلها! ولهذا لما ظهر لنيوتن أن معادلاته في حركة الأجرام السماوية في أفلاكها، لو قدر أن تركت لتجري على ما حسبه لها من مسارات لمدة طويلة، وبحيث يؤثر بعضها على بعض بالجذابية، فستفسد المدارات بعد مدة ويفسد النظام، فقال نيوتن إن هذا لا علاج له إلا بأن "يتدخل الرب بنفسه" في نظام تلك الماكينة ليجري عليه "صيانة" يصلحه من آن لآخر منعا من وقوع ذلك الفساد والانهيار، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا! فقول الدكتور عمرو "في حتمية نيوتن، احتفظ للإله بدور" قلت: ما شاء الله! ما هذا الكرم الحاتمي الواسع؟ احتفظ للإله بدور؟؟ وجد له دورا في الماكينة النيوتونية؟ الله أكبر! ما أكمل إيمانك يا نيوتن، وما أبلغ تعظيمك لربك!

الرجل بدأ نظره بمعاملة العالم بكليته وكأنه ماكينة هو صانعها، أو صنعها مخلوق مثله يعلم من سنن الأسباب كما يعلم هو، يقول إن هذه هي ماكينة العالم التي تجري من تلقاء نفسها على تلك القوانين جريا حتميا لا خارم له! فلما انخرمت، قال لابد أنه الرب الصانع "يتدخل" ليصلح النظام ويمنع من

روغانه! فلما جاء لابلاس من بعده بتصور ميكانيكي ليس فيه تلك المشكلة التي وقع فيها نيوتن، قال إنه لم يعد يبقى للإله عمل Action في ماكينة العالم، ولا متسع للكلام عن أفعاله في العالم أصلا! وقال ما حاصله: لو افترضنا عالما بشريا يبلغ علمه بقوانين العالم ونظمه الطبيعية مبلغ علم صانع الساعة بجميع آلياتها، فلا يبقى نظام سببي طبيعي غير معلوم له (وهو ما أصبح يعرف بشيطان لابلاس Laplace’s Demon)، للزم أن يكون ذلك العالم عليما بمستقبل العالم على التفصيل وما يأتي فيه من حوادث مستقبلية علما كاشفا تاما، بالنظر إلى علمه بمجريات الحوادث كلها في الماضي! وهذا ولا شك باطل لا يجوز افتراضه لأن تلك النظم السببية التي نراها جارية في عالمنا هذا القريب، إنما هي شطر ضئيل من الأسباب التامة التي بها يحصل كل حادث في العالم على التحقيق، فلا يكون السبب سببا ولا يجري القانون على نحو ما اعتادوه في تجربتهم الحسية إلا باجتماع شروط سببية كثيرة وانتفاع موانع لا يعلمها ولا يحصيها إلا باريها سبحانه! فإن قدر لكائن حي أن يتحصل له من العلم بالعالم، العلم بجميع أسبابه المحسوسة والغيبية وصولا إلى مشيئة صانعه لكل حادث من حوادث العالم ومقصوده منها، فحينئذ وحينئذ فقط ينكشف له المستقبل ويتعلل تعللا تاما بجميع ما كان في الماضي من قبله، ولكن هذا وصف لا يصح إلا للباري نفسه، وحده لا شريك له! ولهذا نقول إن قوانين الطبيعة كما نعرفها، مهما اطردت في عادتنا، فليست إلا تقريبات احتمالية Probabilistic Approximations للواقع الذي عليه نظام الأسباب الحقيقي في علم الله تعالى، وليس هو نفسه، فإن تخلف جريان قانون من تلك القوانين في واقعة من الوقائع فليس ذلك بالضرورة لأن نظام العالم قد انخرم أو لأن "الماكينة قد تعطلت"، ولكن لأن ثمة أسباب أخرى غيبية عاملة فيما وراء ما نبصر وما ندرك، لم تجتمع شروطها ولم تمتنع موانعها على النحو الذي اعتدناه وألفناه في أمثال تلك الظروف، فلم تصدق تنبؤاتنا المبنية على ذلك القانون في تلك الواقعة! ثم إن تلك الطبائع نفسها التي جعلها الله في الأشياء، وبتتبعها حكمنا نحن بقانونية الطبيعة واكتشفنا جملة من قوانينها ونواميسها، هذه الطبائع ليست قائمة بنفسها وإنما هي قائمة بخلق الله جل وعلا لها، بأسباب غيبية تجعلها كذلك بأمره سبحانه في كل مرة يظهر أثر تلك الطبائع في العالم، فإذا شاء سبحانه نزل منه الأمر بقلب تلك الطبائع أو إيقافها، بتعطيل أسبابها الغيبية، في محل الأمر بإجرائها وطردها على نحو ما اعتدناه، كما قال سبحانه للنار كوني بردا وسلاما فانقلبت فيها طبيعة الإحراق إلى التبريد، بأسباب تتعلق كلها بأعمال الملائكة الموكلين بتلك الطبائع! فالذي يجمع لنفسه تصورات الطبيعيين للعلاقات المطردة بين تلك الطبائع، تلك التصورات القاصرة بشريا بالضرورة، ثم يصورها على أنها هي "آلية العالم" التي ليس وراءها أسباب أخرى ولا علل غيبية، فهذا لابد أن

ينتهي إلى قياس العالم على ساعة المعصم أو جهاز الحاسوب أو عربة القطار البخاري، التي صنعها صانعها ثم تركها لتجري وحدها دون أن "يتدخل" فيها إلا بإصلاح عطل أو نحوه! وإذن يصبح الباري صانعا للساعات، لا فعل له في الخلق والتدبير إلا أن صنعها وتركها لتعمل وحدها، فتأمل!

فمن هنا، ومن هوان الدين على اللاهوتيين النصارى الغربيين الذين عاصروا نشأة تلك الأفكار، ظهر ما يسمى بنظريات العمل الإلهي Divine Action Theories، حيث جهد القوم في محاولة التفلسف لبيان طريقة الجمع اللاهوتي بين الفلسفة الطبيعية القائلة بأن النظام السببي الطبيعي نظام مغلق على نفسه كالماكينة، وبين إثباتهم صانعا للعالم بالغيب! هذا هو "التحدي الأكبر الذي يواجه المتدينين" على حد عبارة الدكتور! كيف يكون الرب هو الخالق والرازق والقائم بأمر العالم في كل لحظة، الذي لا يجري فيه شيء إلا بإذنه ومشيئته وخلقه، ويكون العالم في نفس الوقت آلة لا تجري الحوادث فيها إلا تحت سلطان القوانين الطبيعية كالماكينة التي ركبت فيها تروسها ثم تركت لتجري على نظامها الذي "يحتمه" بناؤها الداخلي Determined by its mechanism؟! لابد أنه خلقها – إذن – على ذاك الانغلاق المزعوم، وتركها لتعمل، ثم "تدخل" فيها من آن لآخر فيما صار يعرف عند القوم بالتدخل الإلهي Divine Intervention، بالمعجزات والخوارق وما شابه ذلك، ويكون غاية قدرته أن يأتي بتلك الخوارق من غير أن يهدم نظام الماكينة بكليته، على أساس أنه هو صانعها الذي لابد وأنه يعلم كيف يحدث فيها ما يشاء من الحوادث دون أن يفسدها! هذا على قول من قال منهم بتلك المعجزات والخوارق، وإلا فقد ذهبت منهم طوائف إلى نفي تلك الخوارق والمعجزات كلها جملة وتفصيلا، وجعلوها مجرد أمثال تضرب في الكتاب للفائدة والعظة، لا أنها وقعت تاريخيا على التحقيق!

وأما ألفين بلانتينغا، فقال إن الذين ذهبوا إلى نفي المعجزات كلها ونفي "التدخل الإلهي" في النظام الطبيعي لا مستند لهم في ميتافزيقا الفيزياء الكلاسيكية (عند نيوتن ولابلاس)، ولا في ميتافزيقا الفيزياء المعاصرة (المؤسسة على ميكانيكا الكم)! فأما الميتافزيقا الكلاسيكية، فزعم أنه ليس فيها ما يقتضي جعل العالم بكليته نظاما مغلقا closed system كما صوره لابلاس، واستدل على ذلك بأن نيوتن نفسه قال إن الرب "يتدخل" في العالم ليضبط نظام الأفلاك حتى تمشي على وفق معادلاته! وإذن فغاية معنى الحتمية السببية في الفيزياء الكلاسيكية عنده هو أن يقال إنه إن قدر أن استطعنا أن نتصور جميع مواضع وأوصاف وأحوال المادة ومكوناتها في نظام مغلق في لحظة من اللحظات، وألممنا بقوانين الفيزياء الجارية على ذلك النظام، أمكننا – نظريا - أن نتنبأ وبشكل حتمي بحال النظام وكل جزء

منه في المستقبل! ولكن بالنظر إلى كون العالم بكليته لا يوصف بأنه نظام مغلق، لم يصح تطبيق فكرة الحتمية السببية الطبيعية هذه على هذا المعنى على العالم بكليته!

ولكن ينسى بلانتينغا أو يتناسى أن ما يسميه الطبيعيون بالنظام المغلق إنما هو مغلق في حدود ما يظهر لهم، ولكن واقع الأمر أن وراء ذلك النظام من الأسباب الغيبية ما لا يحصيه إلا خالقه سبحانه! فإن أطلقت لفظة "مغلق" على نظام ما، فالمتعين حملها على انقطاع المؤثرات السببية الظاهرة التي من شأنها أن تبدد مادته وطاقته أو تدخل عليه من ذلك ما لم يكن فيه! فإذا جاء الفيزيائيون مثلا باسطوانتين معدنيتين إحداهما ساخنة للغاية والأخرى في درجة حرارة الغرفة، وألصقاهما ببعضهما البعض، فإن الذي يحصل حينئذ هو أن الحرارة تنتقل من الاسطوانة الأسخن إلى الاسطوانة الأبرد حتى تتوزع الطاقة الحرارية عليهما على التساوي. فيقال – إذن – إنه نظام ثيرموديناميكي مغلق، على أساس أن طاقة الحرارة التي بدأ بها النظام لم تتبدد ولم تكتسب من عدمها، وإنما انتشرت وتوزعت في أجزاء النظام بالتساوي. ولكن يظل من الواضح أن الاسطوانتين لا يمكن فصلهما عن جزيئات الهواء في الغرفة، فلابد أن يحصل لهما معا تبرد بالتدريج حتى يصلا إلى درجة حرارة الغرفة، التي تكون حينئذ قد ارتفعت ولو بقدر ضئيل بالنظر إلى امتصاصها الحرارة من الاسطوانتين! فإن تعاملنا مع ذلك الانتقال على أنه نظام مغلق آخر هو الاسطوانتان والهواء المحتبس داخل الغرفة، لم يصح إذن أن يقال إن الاسطوانتين تشكلان نظاما مغلقا، لأن الحرارة إذن تكون آخذة في التبدد والتسرب منه! ولكن ماذا عن جدران الغرفة؟؟ ألا يكون لها نصيب من امتصاص قدر من الحرارة التي امتصتها جزيئات الهواء الملاصقة لتلك الجدران؟ بلى! وهو ما من شأنه أن يفضي إلى انخفاض درجة حرارة الهواء والاسطوانتين جميعا بقدر ضئيل، حتى ترتفع درجة حرارة الجدران وصولا إلى التوازن الحراري! فما هو النظام المغلق إذن؟ يقال إنه نظام الغرفة بجدرانها بالهواء المحتبس فيها بالإضافة إلى الاسطوانتين! ولكن بقليل من التدبر، ترى أن تسمية نظام حراري بالنظام المغلق إنما هي مسألة انتقاء نفعي محض Selection by convenience من قبل الباحث الفيزيائي أو المهندس مصمم المحرك الحراري أو نحو ذلك! يختار أن يدرس الكيفية التي يحصل بها التوازن الحراري بين هذا الشيء وذاك، لمنفعة يرجوها من ذلك، فيجعلهما نظاما حراريا مستقلا يحاول أن يبحثه بمعزل عن غيره من الأجسام الماصة للحرارة التي لو لامسته لدخلت فيه ضرورة، كأن يهمل تأثير هواء الغلاف الجوي على درجة حرارة نظامه مثلا! وإلا فمن الناحية الوجودية (أي في الأعيان) فلا حقيقة لشيء اسمه النظام المغلق أصلا!

ثم إنه (أي بلانتينغا) ينسى أو يتناسى أن المنهجية الطبيعية الدهرية التي هي منبع كل قياس وتنظير بدعه الفلاسفة الطبيعيون في طول التاريخ وعرضه بشأن الكون بكليته والعالم بعمومه، هي التي نبع منها قياس العالم بكليته عند الفيزيائيين الكلاسيكيين على كل "نظام مغلق" يبحثونه في معاملهم، على التسليم بالتصور الأنطولوجي السائد للنظام المغلق! هم لا يملكون إلا أن يقيسوا، فلا مناص عندهم من قياس العالم بكليته على بعض أجزائه، وإذن يكون الكون نظاما مغلقا، على أساس أنه لا يلامس شيئا ماديا خارجا عنه ليمتص منه الحرارة (مثلا)!

والقصد أنه لا يصح ما حاوله بلانتينغا من إلزام الطبيعيين الدهرية بأن يجعلوا العالم بكليته نظاما مفتوحا سببيا، خلافا للنظم المغلقة الواقعة تحت أيدي الباحثين والمهندسين ومن شاكلهم! فإذا كان العالم عندهم جاريا كله على نفس الأنطولوجيا السببية Causal Ontology التي يتصورونها فيما يسمونه بالنظم المغلقة، مع اتحاد مبدأ القياس، فمن أين يأتي التفريق إذن (أنطولوجيا)؟ إذا كان الاعتقاد الغيبي مداره على أنه لا سبب إلا السبب المحسوس بالقوة أو بالفعل، فليس في الوجود إذن نظام سببي "مفتوح" أصلا! ونحن ما قبلنا من الفيزيائيين في قوانين الديناميكا الحرارية قولهم بنظام مغلق إلا على أساس نسبة الانغلاق إلى معرفتنا نحن وإدراكنا نحن، كانغلاق أداتي إبستمولوجي محض Instrumental Epistemological closure، لا أن الأسباب فعلا منغلقة على ما نراه على الحقيقة في الأعيان كما هو اعتقاد الطبيعيين! أي أننا نقبل الاختزالية التنظيرية Theoretical Reductionism كطريقة أداتية لتحصيل المنفعة المطلوبة من استكشاف العلاقات السببية المحسوسة في نظام ما، فإذا انقلبت إلى اختزالية وجودية في الأعيان رددناها ولا كرامة! ثم إنه لا يخفى أن القول بوجود النظم المغلقة أنطولوجيا وبكون التدخل الإلهي لا يقع إلا في النظم المفتوحة (التي يدل على انفتاحها وقوع التدخل المزعوم عند من يثبته)، يقتضي الثنوية، أي القول بأن الباري لا يملك أن يفعل ما يريد على خلاف القانون الطبيعي، إلا في تلك النظم التي ليس للقانون الطبيعي عليها سلطان كامل منغلق على نفسه! وإذن يصبح القانون الطبيعي شريكا لصانعه في الربوبية، والله المستعان! وهذه الثنوية المجوسية نفسها هي التي يعتنقها بلانتينغا في مسألة حرية الإرادة البشرية، كما هو اعتقاد عامة النصارى في قدريتهم! الرب يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، إلا فيما يتعلق بإرادات البشر وأفعالهم! فإنه عندهم قد ارتضى أن يتنازل عن كمال سلطانه على حوادث العالم من أجل أن يصبح للبشر إرادة حرة حقيقية لا تأثير له فيها البتة! فعلى دينه يجب أن يكون الإنسان هو خالق أفعاله حتى يكون حرا على الحقيقة! وقد أشبعنا هذه القدرية عنده ردا في غير هذا الموضع فلا نعيد! ولكن تجدر الإشارة

ههنا إلى أنه قد استند بلانتينغا في كتبه إلى نفس مسألة الانفتاح السببي هذه وبنفس المنطق في الرد على حتمية لابلاس، حتى يقول إنها جارية على كل ما هو "نظام مغلق" ولكن إرادات الإنسان وأفعاله لا تجري داخل نظم مغلقة، وإنما هي مفتوحة من جهته بالضرورة!

وأما فيزياء الكوانتم، فقال بلانتينغا إن طبيعة قوانينها أنها احتمالية Probabilistic وليس حتمية Deterministic، على أساس أننا في أي لحظة من اللحظات، إذا علمنا حال مجموعة من الجسيمات الذرية الآن، فلن يكون بوسعنا أن نتنبأ بموضع محدد وسرعة محددة ودوران محدد لتلك الجسيمات في المستقبل بناء على القانون الذي بين أيدينا، وإنما نتنبأ بالاحتماليات المتفاوتة لقيم تلك المتغيرات بالنسبة لكل جسيم دون أن نجزم بشيء، وذلك خلافا لما إذا رميت بمقذوف في الهواء مثلا، فلن يكون بين يديك احتمالات متفاوتة لمواضع مختلفة لسقوطه وإنما هو موضع محدد تفيدك به المعادلات بصورة لا تتنازعها احتمالات أخرى! وإذن، يستنتج بلانتينغا أن ميتافزيقا الفيزياء قد باتت أكثر "سماحية" للتدخل الإلهي الحر من الفيزياء الكلاسيكية، بالنظر إلى انحسار الحتمية اللابلاسية عنها من هذه الجهة! والحق أنه لا فرق بين الفيزيائين (الكلاسيكية والمعاصرة) في مبدأ جريان الأسباب نفسه في الخارج (أنطولوجيا)، ولا فرق كذلك في مبدأ الاستقراء في سلوك الأجسام الكبيرة والجسيمات الدقيقة، وإنما تزداد وتتسع دائرة الاحتمالية اتساعا عظيما في حالة الجسيمات الدقيقة، مقارنة بالاحتمالية التي بها نثبت ما نثبته من تنبؤات على مستوى القوانين الطبيعية الكلاسيكية، كما بسطنا الكلام على ذلك في غير هذا الموضع! أي أن سقوط المقذوفة حيث نتنبأ لها بناء على حساباتنا وقوانيننا، ليس إلا أمرا احتماليا في النهاية وعلى أي حال، ولكنها احتمالية عظيمة المقدار، ولا نعلم لها في تجربتنا الحسية احتمالات أخرى تشوش عليها إلا في القليل النادر.

والظاهر أن الدكتور عمرو قد قرأ شيئا من أدبيات اللاهوتيين النصارى في تلك القضية كألفين بلانتينغا وغيره، ولكنه أراد أن يأتي فيها ببصمته الخاصة التي لم يسبقه إليها أحد!

قول الدكتور: "وفي الحقيقة أنا حاورت ملاحدة، مثقفين، بعضهم على أمانة، يقولوا لي نفس كلام لابلاس! يا دكتور عمرو المعادلات الكيميائية والفيزيايئية منضبطة، مش محتاجة مكان للإله! فنقول لهم القول اللي قاله ألفين بلانتينغا الفيلسوف الأمريكي الكبير: من يبحث عن الإله في معادلات الفيزياء، فلن يجده! من يبحث عن الإله في معادلات الفيزياء، كمن يبحث عن الرسام في اللوحة! معنى جميل جدا! هو أنت بتدور على ليونرادوا دافينشي في اللوحة بتاعت الجيوكاندا؟ هو بيرسم وهو بره، في قوانين

الطبيعة، ووزن المعادلات، الإله هو السبب فيها! فلا يكون عنصرا فيها!" قلت: أولا: لا يصح أن يقال في الملاحدة إن بعضهم "على أمانة"! أي أمانة وأي كرامة لرجل زعم أنه لا يدري ولا يعلم أمخلوق هو أم لا، مربوب أم لا؟؟ هذا من إرجاء الجهمية، نسأل الله العافية! ثانيا: لا يقال في جواب هذه الشبهة إن الإله هو الذي رسم اللوحة فكيف تبحث عنه فيها، لأنه لا يرى أنها رسمت أصلا، بل لا يراها لوحة! هو يتكلم عما يزعمه ماكينة مغلقة عملاقة، لم تزل تجري على آليات معينة تحكم تلك الماكينة حكما كليا تاما من غيرما محل في أي من حوادثها لفاعل ذي إرادة يؤثر فيها من خارجها! فالجواب – الذي نتكلفه لدفع الشبهة عن المسلمين لا لمخاطبة هؤلاء الجحدة المجرمين - وبيان الحق إنما يحصل بهدم التصور الميكانيكي هذا نفسه، وإبطال قياس أحدهم للعالم بكليته على موتور سيارته، وللباري جل وعلا على صانع المحركات! فإن السخف والوهاء باد طافح في تلك الأقيسة عند كل عاقل سوي النفس والقلب، ولكن قد تلبس الجهمية المعاصرون بتلك النوعية من الأقيسة تلبسا لا خروج لهم منه إلا بإسقاط نظريات القوم في الغيبيات إسقاطا كليا لا تساهل فيه، وهو ما لا نرجوه منهم أبدا، والله المستعان!

وإذن فلا عجب ألا ينتبه الدكتور إلى لازم جوابه ذاك في سياقه ذاك، ألا وهو تلبيس الرب في القياس على صانع الماكينة البشري أتم التلبيس وأبلغه، وإلى الله المشتكى! فكأنما يقول: لماذا تريد أن ترى آثارا لأفعال الله في العالم الطبيعي؟ ألا يكفيك أن يكون العالم الطبيعي كله بنظامه هو من صنع الله؟؟ استمتع إذن ببديع صنعه في تلك الماكينة المغلقة تمام الإغلاق، ولا تنس أن تنسب الفضل إليه! ولا شك أن هذا من تناقض الدكتور لأنه كما تقدم وكما سيأتي لا يقول بالانغلاق السببي، بل يجيز وقوع المعجزات والخوارق وكذا، ولكن بالنظر إلى فساد واضطراب أصوله الفلسفية، فلا عجب أن يكثر منه إثبات الشيء وما يقتضي نقيضه في نفس الصفحة أو في نفس المحاضرة، والله المستعان!

قال الدكتور في كتابه "المعلوماتية: برهان الربوبية الأكبر" (ص. 437): "في ضوء لاحتمية الكوانتم، يستطيع الإله التدخل معلوماتيا لتنظيم أحداث الكون بحيث يعيد توزيع الطاقات المادية دون إخلال بكميتها، وأن يوجهها إلى احتمالات أخرى (قد تكون أدنى) موجودة في المنظومة، مما يحافظ على توازنات الطاقة وحتمية القوانين الفيزيائية." اهـ.

قلت: فبالله هل هذا كلام من يعترض على حتمية لابلاس؟؟ ما معنى حتمية القوانين الفيزيائية إلا ما سماه هو نفسه بالانغلاق السببي؟؟ ثم إن المسلم العاقل الغيور على دينه والله لا يملك إلا أن يقشعر بدنه من تلك الزندقة

في قوله "في ضوء نظرية كذا، يستطيع الإله أن يفعل كذا"!! يعني المفترض بنا الآن، معاشر المسلمين، أن نستبشر ونفرح بأن عقيدة من عقائد الطبيعيين الدهرية (وفلسفتهم في حتمية أو لاحتمية الكوانتم ليست علما أصلا، وإنما هي مسألة عقدية عندهم!!) تسمح "للإله" بالتدخل بحيث يفعل كذا وكذا من غير أن يفسدها عليهم؟؟ هذا محض الكفر والشرك الطبيعي ولا حول ولا قوة إلا بالله! من أين لك، أنت ومن نقلت عنهم، وجوب بقاء كمية "الطاقة" في الكون بكليته كما هي دون زيادة أو نقصان، وأن وقوع ذلك – على تقديره – لابد وأن يفضي إلى الإهلال بتوازن العالم أو بنظامه كما نراه ونعرفه؟؟ ومن أين لك الحكم بأن الاحتمالات المزعومة للمنظومة (ويعني بها احتمالات الجسيم التي تصورها الكموميون في معادلة شرودينغر!!) لا يجوز للباري (بل لا يستطيع، كما هو مفهوم هذا الكلام) أن يتجاوزها، بل يجب عليه أن يتصرف بإرادته ومشيئته في حدود تلك الاحتمالات حتى "يحافظ على توازنات الطاقة وحتمية القوانين الفيزيائية"؟؟ ومن أين لك الاعتقاد بأن القوانين الفيزيائية حتمية أصلا؟ هذه عقائد الدهرية وشرك الطبيعيين يا من تعد نفسك من أعداء الإلحاد والدهرية، سبحان الله وتعالى عليها كلها علوا كبيرا!!

إن المسألة التي ينبغي أن تحرر تحريرا واضحا في هذا المقام، هي أن الله تبارك وتعالى لا يجري حادث من حوادث العالم صغر أو كبر إلا على وفق إرادته ومشيئته المباشرة، وليس المقصود هنا إرادته القديمة وحسب، بل المشيئة المباشرة لكل حادث بخصوصه، التي بها يتم تعليله، وهي تلك المشيئة التي تشمل جعل السبب سببا والمسبب مسببا، وجعل الشرط شرطا والمانع مانعا، ويترتب عليها، في كل حادث بخصوصه، تولد الحوادث بعضها من بعض سببيا، وتعلق الطبائع بمحالها، وظهور آثار المؤثرات على المتأثرات بها، في عالم الأعيان تتابعا، حقيقة لا وهما. كل ذلك خلقه وكل ذلك أمره، كل يوم هو في شأن، يفعل ويأمر ويدبر لا على سبيل "التدخل" المزعوم، سبحان الله وتعالى عما يقولون علوا كبيرا، ولكن على سبيل القيومية التامة، التي إن أمسك عنها سبحانه لزالت السماوات والأرض بكليتها، كما في قوله ((إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)) [فاطر : 41]. فالملائكة الموكلة بكل نظام من نظم العالم لا يتحرك ملك منها ولا يرفع ساكنا إلا بأمر نازل من رب العالمين، فإن انقطع الأمر والتدبير، انقطعت سائر الحركات في العالم وانعدمت سائر الطبائع والأسباب، وذهبت الأرض والسماء بما فيهما! وهذه مسألة لا يُحكم فيها بالتنظير العقلي ولا بالقياس، وإنما يستند فيها إلى نصوص الوحي الصحيح من رب العالمين نفسه سبحانه، الكتاب والسنة وما له حكم الرفع من كلام الصحابة! لا مصدر

لتلقي المعرفة في ذلك إلا تلك النصوص، نقول بها ولا نجاوزها قيد أنملة! ولا نلتفت لسفسطة اللاهوتيين من أهل الكتاب في تلك البابة ولا نرفع بها رأسا، فهم إنما أسسوا بضاعتهم فيها على ما تشبعوا به من ميتافزيقا الطبيعيين الدهرية في مسألة الأسباب وانغلاق السببية، وبالقول بأنه لا سبب إلا السبب الطبيعي، فلما نظروا في كتبهم المقدسة عندهم، التي لا يُعرف لشيء من نصوصها سند ولا مصدر، اتخذ كل واحد منهم لنفسه ما يحلو له من مسالك التأويل والتلاعب بمعانيها، حتى أصبح لديهم من مذاهب التأويل في النص الواحد ما لا يمكن حصره ولا يتصور إحصاؤه، ولا فضل لواحد منها على ما سواه! فمهما جاء أحدهم باعتقاد في أفعال الرب سبحانه فاعلم يقينا أنه لن يأتي إلا "بنظرية" ميتافزيقية من نظريات تشبيه الأفعال، التي تصطحب فيها كثير من كليات ميتافزيقا الطبيعيين المعاصرين كمقدمة لازمة، وإلى الله المشتكى!

فمن فهم هذا الذي حررناه حق الفهم، أدرك بجلاء كيف أن الله تعالى لا يخلق ما يخلق، سواء كان حادثا خارما لعادتنا أم لم يكن كذلك، بما يسميه الدكتور بالتدخل! كيف وجميع ما يجري في العالم هو خلقه المباشر ومشيئته المباشرة وأمره وتدبيره، بما في ذلك من إجراء المسببات على أسبابها، والمعلولات على عللها، والتأثيرات على آثارها؟ ليست الطبائع مستقلة عن مشيئته وأمره سبحانه، ركبت في المادة في أول خلقها ثم تركت، وإنما تقوم بالمادة لأن الله تعالى لم يزل يأمر ملائكته الموكلين بها بأن يجروها عليها بأمره، يأمر الملائكة الموكلة بخلق آثارها بأن تخلقها في كل مرة يقع التأثير على ما يقتضيه هذا الطبع أو ذاك، فلا يتحرك متحرك في العالم على هذا الطبع الذاتي المركب فيه أو على غيره، إلا بأمر الله وخلقه. فبأي عقل أو دين يقاس سبحانه على صانع الماكينة البشري، الذي لا يملك إلا أن يخضع نفسه وصنعته لسنن سببية فائقة ليس هو باريها ولا مجريها ولا حكم له فيها؟ هذا من لا يكون تغييره لشيء مما تجري عليه الماكينة التي سبق منه صنعها، إلا "تدخلا"، وأما خالق السماوات والأرض وقيومهما الذي تعلمنا نحن المسلمين صفته من كتابه وسنة رسوله، فلا تكون الطبيعة طبيعة أصلا إلا بأمره النازل، سبحان الله وتعالى عن أقيسة هؤلاء وأوهامهم علوا كبيرا!

يمضي الدكتور ليقرر "إضافته العلمية" إلى ذلك الهذيان الميتافزيقي الغربي فيقول: "عشان كده قناعتنا إن صحيح إنه إذا كان الكون مغلق ماديا، منتظمة قوانين الطبيعة، فإن الكون مفتوح سببيا، ومفتوح معلوماتيا للتدخل الإلهي! إزاي؟ إزاي يأتي تدخل الإله في منظومة الكون بمعلومات، وبتعامل مع قوانين الطبيعة يبدل بينها أو يخرقها، دون أن تختل منظومات

الطبيعة. ده في الحقيقة طرح في منتهى الأهمية، وأحب أبين لكم إن هذا هو فعلا التحدي الأكبر الذي يواجه المتدينين: كيف يتعامل رب العزة بإرادته، يتدخل في الأحداث بإرادته، دون خرق للقوانين بمعلوماته مع المحافظة على التوازن المادي في الكون؟ هو ده التحدي الذي يقابل المتدينن، كيف يتدخل الإله في المنظومة الكونية، بمعلوماته، بعلمه، معذرة، يعني لا نقول عن الله ما لا يصف به نفسه، بعلمه، بتعاملاته بسننه، يبدل بين السنن دون أن يختل توازن الطاقة الذي نرصده على مستوى الطاقة، إزاي؟ هي دي المعضلة!" اهـ.

قلت: يا رجل! آلآن تذكرت أنه لا يقال على الله إلا ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله؟؟! حسبنا الله ونعم الوكيل! هذا المطلب الذي جعلته هو التحدي الواجب على "المتدينين" (هكذا!) هو والله غاية الإغراق في وصف الله بما لم يصف به نفسه ولم يصفه به رسوله! من أي مصدر من مصادر تلقي المعارف يا دكتور، يطلب العلم بالكيفية التي يبدل الله بها السنن الكونية دون أن يختل توازن "الطاقة" الذي نرصده "على مستوى الطاقة"؟؟ أسألك بالله الذي خلقك فسواك فعدلك، هل هذا سؤال فيزياء؟؟ هل هذا من الأسئلة التي يستساغ إعمال المنهج التجريبي Scientific Method طلبا للجواب عنها يا دكتور؟؟ السؤال كيف "يتدخل الإله" في المنظومة الكونية، دون خرق القوانين وقلب التوازن .. إلخ، هذا سؤال يجاب عنه من تلك الطريق؟؟ أبدا والله، ولا يزعم ذلك إلا كذاب أشر! وإنما يطلب العلم بصفات الله وأفعاله بالغيب مما جاء به الكتاب والسنة، وإلا كان الخائض في ذلك مفتريا على الله الكذب قائلا عليه بغير علم وإن أصاب الحق بما انتهى إليه في نفس الأمر! قال تعالى ((قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)) [الأعراف : 33]! فمهما قال الرجل على الله ما لا يعلم، فهو كاذب عليه متلبس بتلك الكبيرة العظيمة التي قرنها الله تعالى بالإشراك به كما ترى، حتى وإن اتفق أن كان ما قاله مطابقا للواقع في نفس الأمر، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والقصد أنك ليس عندك يا دكتور إلا القياس الفاسد والتحكم بالرأي وتشبيه الله جل شأنه بالصانع البشري الذي يصنع الماكينات ثم يتركها لتعمل على نظامها! تأتي بهذا القياس ابتداء، ثم تجلس لتفكر كيف يحافظ ذلك الصانع الميكانيكي على جريان آلته كما هو على الرغم مما يدخله عليها من "تدخلات" في نظامها وعملها، لا علاقة لها بالنظام الميكانيكي الذي صممها عليه؟؟ كأنما تقول (وقد قال أينشتاين كلاما مقاربا كما نقلناه في غير هذا

الموضع): "لو كنت أنا صانعا عالما كهذا العالم، فكيف أصعنه بحيث إن أردت أن أحدث فيه حادثا مخالفا لنظامه الذي ركبته فيه، يقع مني ذلك من غير أن تتعطل آلته؟" فبالله هل هذه طريقة يرضاها رب العالمين من المسلمين، ويرجى منها الإفادة بعلم صحيح بصفات الباري جل شأنه وأفعاله؟؟ سبحان الله العظيم! هذا الذي يظهر لكم من طبائع وأسباب ثابتة في العالم، ليس إلا رأس جبل الجليد في أسباب الحوادث يا هؤلاء ((وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)) الآية [الإسراء : 85]، ليس إلا قطرة في بحر من بعده سبعة أبحر في علم الله بما هو فاعل وما هو آمر وما هو خالق من حوادث العالم، غيبه وشهادته، سبحانه وتعالى! والله ما يطيق عقل البقباق النفاج النزق منكم معاشر الفلاسفة أن يبدأ مجرد البداءة في تصور جملة الحوادث التي تجري في جسده هو وفي العالم من حوله، وترتب بها الطبائع والأسباب والشروط والتولدات السببية على ترتيب مخصوص في علم باريكم جل شأنه، حتى يتمكن هو من تحريك أصبعه ليحك به رأسه! أي آلة هذه التي تزعمون أن أسبابها لا خروج لها عن نوع ما تبصرون، وأن نظامها لا يجاوز مقدار ما تعقلون وما تتصورون؟؟ ومن ذا الذي يجرؤ منكم على أن يدعي لنفسه العلم بسائر الحِكم والغايات والمقاصد التي من أجلها خلق رب العالمين ما خلق في هذا العالم، وبسائر الكيفيات التي بها يحصّل الرب تلك المقاصد والغايات في حوادث العالم، حتى يقول إن العالم لا متسع في نظامه وقانونه لأن يؤتى فيه بخوارق لعادتنا، كما أن الماكينة التي صنعها أحدهم حتى يقص بها النجيلة في حديقة بيته، لا متسع في تصميمها لأن تقوم بعض دوائرها الكهربية بحساب مسألة رياضية مثلا، فلا يطلب منها ذلك إلا بأن يُهدم نظامها ويعاد تصميمها بالكلية؟؟

الله تعالى لا "يتدخل في الأحداث بإرادته"، لأنه لا يحدث شيء في العالم أصلا إلا بإرادته، وجميع أنواع الحوادث في العالم، هي عنده سواء في ذلك، علما وكتابة ومشيئة وخلقا، سبحانه وتعالى! فما معنى أن نظام العالم "مادته مغلقة" ولكن أسبابه ومعلوماته مفتوحة؟؟ ومن الذي أطلعك على الفتح والإغلاق حتى تتحكم في خلقه وعلمه سبحانه هذا التحكم الباهت؟ من أين لك يا دكتور الزعم بأن المادة والطاقة في العالم منغلقتان، بمعنى أنه لا يدخل إليه مادة لم تكن فيه، ولا تخرج منه مادة كانت فيه؟؟ هل أوقفك ربك على حد العالم ونهاية مادته وطاقته حتى رأيت بعينيك ما يدخل منه وما لا يدخل، أو كشف لك جميع ما يكون منه سبحانه في تاريخ الكون من تدابير وأسباب وأوامر وأفعال إذ يخلق ما يخلق فيه من أنواع المادة والطاقة حتى علمت أنه لا يكون إلا تحويلا من نوع إلى نوع؟؟ ((أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ)) [الطور : 37]

نعوذ بالله من كبر الفلاسفة!

أليس قد ترجم للحلقة بقوله "فيزياء كن فيكون"؟؟ بلى! فجواب السؤال عنده (كيف "يتدخل" الإله في العالم بإحداث ما يريد) يلتمس من الفيزيائيين! يقول الدكتور محررا ما استند إليه من ميتافيزقا الطبيعيين في اختراع ذلك التفصيل الفاسد بين أنواع "الانغلاق" في ماكينة الطبيعة:

> في الحقيقة الفضل في هذا يرجع إلى أخينا الكبير الدكتور محمد باسل الطائي، الفيزيائي العراقي الكبير المتخصص في فيزياء الكم والكون، [28] لفت نظرنا إلى دور العامل المرجح في فيزياء الكم. أنا هابين، يعني اتكلمنا فيه، هاكرره مرة تانية لأهمية هذه القضية، لأن بيتهموا أو بيصفوا فيزياء الكم، أنها تسقط السببية، مش محتاجين لسببية خلاص بقى، الحكاية كلها كأنها عشوائية، (...) الاحتمالية بتاعت السببية! لأ .. الدكتور محمد باسل الطائي لفت نظرنا إلى دور العامل المرجح! وجدت إن العامل المرجح في فيزياء الكم، بقدر ما توصلت، ممكن في تلات مواضع، أكررهم تاني، إن الاحتمالات بتاعت سلوك جسيم تحتذري، "أ" أو "ب" أو "ج" أو "د"، طيب ليه مش احتمالات لا نهائية؟ إيه اللي رجح أن يكونوا أربعة فقط؟ ده نمرة واحد! نمرة اثنين، بعض الاحتمالات أو بعض الحالات، بيتم ترجيح احتمالات أدنى على حساب احتمالات أعلى، دي محتاجة عامل مرجح! نمرة تلاتة، إن الاختيار بين الاحتمالات، دايما يبقى في صف حتمية قوانين نيوتن! احتمال كذا واحتمال كذا و.. ييجي الاحتمال اللي يمشي في عالم الماكرو تبعا لقوانين نيوتن! فبالتلات منظومات دول، دور العامل المرجح.

قلت: أما "المنظومة" الأولى، فانحصار الاحتمالات في عدد معين على مذهب الطبيعيين ليس أمرا مفتقرا للتفسير الدهري كما هو معلوم، وهو ذلك التفسير الذي يلزمك أنت والدكتور الطائي أن تقبلاه جريا على مصادر التلقي المعرفي في الغيبيات لديكما! فعلى المذهب الطبيعي، يقال إن القوانين الأربعة الأساسية والثوابت الطبيعية التسعة التي بني بها الكون في كوزمولوجيا الانفجار، توجب أن تنحصر الاحتمالات الكوانطية لنشاط الجسيم في تلك الحدود ولا تتجاوزها! فما رجحته أنت بالفعل الإلهي، يرجحه غيرك بالقوانين الطبيعية وبسيناريو نشأة الكون عند الطبيعيين! وبالنظر إلى مبدء الانغلاق المادي والقانوني لنظام العالم (الذي حقيقته الانغلاق السببي الطبيعي عند الدهرية) فمهما أمكن تفسير الظاهرة المحسوسة بالقوانين الطبيعية وعمل القوانين الطبيعية كان هو المتعين والواجب المصير إليه دون غيره من أنواع التفسيرات، عند من اعتنقت منهجهم في النظر في تلك

الغيبيات، وتصبح دعوى التعلل بعمل عامل غيبي يأتي مما وراء الماكينة الطبيعية "تدخلا" لا داعي للذهاب إليه مع ما يقتضيه من فتح الباب لتعجيز الفيلسوف الطبيعي عن استكمال التصور الحتمي الطبيعي لآلية ماكينة الطبيعة كما يريد أن يتصورها [29]! فإن أجبت عن هذا بأن فعل الإله يجري على نحو فائق للقوانين وغير متقيد بها، بل على نحو يكون هو منشأ القوانين والمرجح لها المتسبب في كونها على ما هي عليه، لزمك أن تقول بنظير ذلك في باب نشأة الكون ونشأة الأنواع الحية على الأرض، وأن تثبت للباري عملا غيبيا محضا في إنشاء الكون كان هو منبع النظام الطبيعي بكليته، لا أن منشأ الكون وحوادث خلقه كانت طبيعية خاضعة هي نفسها لنظام طبيعي متقدم عليها، كما يقتضيه قولك بالنشأة الانفجارية والانتفاخية للكون!

وأما "المنظومة" الثانية للترجيح الكوانطي، فقد أطلنا النفس في بيان أن للترجيح الكوانطي عند أكثر الفيزيائيين المعاصرين مفهوما ميتافزيقيا وجوديا فاسدا، فالجسيم عند أكثرهم يكون موجودا قبل الترجيح في جميع المواضع الأربعة في نفس الوقت (على مثال قطة شرودينغر الشهيرة) ولكن على احتماليات متفاوتة، ثم يحصل الترجيح بصورة ما أو بأخرى فيقتصر وجوده على أحد تلك المواضع دون غيرها! وهذا باطل قطعا، ولكنه هو المفهوم الميتافزيقي السائد حاليا للاحتمالية على المستوى الكمومي، وهو ما يريده الطائي وغيره من قولهم إن العالم حقيقته "احتمالية" في المستوى تحتالذري! وقد بسطنا الكلام على فساد تلك الميتافزيقا وبينا الموقف الصحيح الواجب على المسلم تجاهها، فلا داعي للإعادة، ولكن نقول إننا إن أردنا في معنى الاحتمالية المعنى البدهي الصحيح (أنها تقدير لمقدار ما حصل في أذهاننا نحن من توقعات لما يكون في الخارج)، لم يبق من وجه للتفريق في معنى الترجيح بين المستويين الكوانطي والمستوى الكبروي كما يسمونه Macrocosm، إذ يصبح الجميع خاضعا لمشيئة الباري وتعليله، وإنما يقال إن اطراد القوانين على المقياس الكبروي أقوى في الأرجحية الاحتمالية بكثير من عدمه لاستفاضة التجربة والعادة الحسية المباشرة في تتبع الأسباب الحسية والشروط والموانع السببية المحسوسة، خلافا للقوانين على المقياس تحت الذري إذ لا يُعلم نظير يقاس عليه ذلك الشيء الذي تتشكل منه الجسيمات حال رصدها: شيء موجي متصل تتكون منه أشياء جسيمية تبدو عند رصدنا منفصلة عن غيرها من الجسيمات!

وأما "المنظومة" الثالثة فتبين لك كيف أن الدكتور متلبس حتى النخاع بحتمية لابلاس التي يحسب أنه قد انتصر عليها! تأمل قوله "نمرة تلاتة، إن الاختيار بين الاحتمالات، دايما يبقى في صف حتمية قوانين نيوتن"! قلت:

دائما يكون في صف حتمية قوانين نيوتن؟ هذا لا يفهم منه إلا أن قوانين نيوتن يجب أن تنطبق على كل موجود في العالم دون أدنى احتمال لتخلفها ولا في حالة واحدة! فخبرني بربك كيف يكون القائل بهذا مخالفا للسببية اللابلاسية المغلقة، وهو يرى أن الاحتمالات الكمومية مهما ترجح منها ما ترجح، فالشرط هو ألا تدخل مادة جديدة إلى العالم لم تكن فيه أو طاقة جديدة لم تكن فيه، أو تخرج منه، وألا تنخرم ميكانيكا نيوتن طرفة عين؟! الرجل كما هو ظاهر يتوهم أن حتمية نيوتن هي الموقف الوسط بين نفي السببية الطبيعية بالكلية (كما يراه غلاة اللاحتمية الكوانطية) وبين القول بأنه لا سبب إلا السبب الطبيعي (كما في حتمية لابلاس)، وقد بسطنا الكلام على ميتافزيقا نيوتن بما لا نرى داعيا لإعادته! فبناء على ما تقدم، ينتقل الدكتور لتحرير نظرية العمل الإلهي عنده Divine Action Theory، فيقول:

> طيب هنا إيه تصوري لدور الإله في الموضوع؟ بنقول أنا هادي مثال. لو رجل عنده مبلغ عشرة مليون جنيه، وعاوز يستثمرهم، عنده احتمالات! يا يستثمرهم في سوق العقار، يا في مجال الصناعة، يا مجال الزراعة. دي احتمالات، مع كل احتمال، هايتعامل مع قوانين! لو بنى بيت في مجال المعمار، وباعه، بيتعامل مع قوانين وزارة الإسكان والحي و .. و.. إلى آخره.. ولوايحهم. لو عمل مصنع، هايتعامل مع قوانين وزارة الصناعة، والضرايب والجمارك والاستيراد والتصدير ومواد خام، لو رجح أن يستثمر في الزراعة، هايتعامل مع قوانين وزارة الزراعة وملكية الأطيان وضرائب الأطيان و.. و.. إلى آخره. في كل الأحوال، هو بيستثمر عشرة مليون جنيه. هنا نفس القضية! فلله المثل الأعلى، لو نقيس على هذا، المثال، نجد إن سلوك الجسيم إذا كان "أ" أو "ب" أو "ج" أو "د"، رب العزة يرجح احتمالية أحد الاحتمالات على الاحتمال الآخر، أو الاحتمالات الأخرى، ويظل توازن الطاقة زي ما هو! إنما لو رجح رب العزة الاحتمال "أ" كعامل مرجح، سيفعل قوانين كذا وكذا الخاصة ب"أ" مع المحافظة على توازن الطاقة! يرجح احتمال "ب"، تفعيل القوانين المرتبطة بهذا الموقف، يرجح "ج"، وهكذا! يبقى بيحدث ترجيح من العامل المرجح، مع المحافظة على القوانين، يرجح هذه القوانين ويفعلها، أو يفعل هذه أو تلك أو هاتيك، وفي نفس الوقت، كل هذه المنظومة، زي الرجل اللي بيستثمر عشرة مليون جنيه، توازنات الطاقة تظل في الاحتمالات كلها متساوية وموزونة. ده اللي أنا بأرى في أن العامل المرجح وطرح فيزياء الكم من خلال هذا العامل، هو الذي يحافظ على كوننا مغلق ماديا، مفتوح سببيا ومفتوح معلوماتيا.

قلت: من أعجب العجب أن ترى الفيلسوف والمتكلم يتفنن في تلبيس ربه بالتشبيه والقياس والمثل البشري، ثم يقول بكل برود "ولله المثل الأعلى"، وكأن التنزيه يحصل بمجرد ذلك! فوالله لو صدق الدكتور في اعتقاده المثل الأعلى للرب جل شأنه، ما خاض تلك المخاضة الخبيثة، ولا حول ولا قوة إلا بالله! هذا المثال الذي يضربه يكشف لك تلبس الدكتور بتشبيه الأفعال الذي هو مبدأ التنظير عند اللاهوتيين الغربيين في تلك البابة، وبالسببية الطبيعية المغلقة التي زعم أنه سالم منها! وذلك أن علة التشبيه (الوصف الجامع بين المشبه به والمشبه، أو الأصل والفرع، وهو المقصود بضرب المثل ابتداء)، إنما هو وجوب الخضوع للقوانين (وليس تفعيلها كما سماه تلبيسا)! فكما أن المستثمر المذكور، مهما اختار من المجالات المتاحة أمامه (التي هو محكوم بها ابتداء)، فهو خاضع للقوانين المفروضة على كل مستثمر في ذلك المجال الذي اختاره لا محالة، فكذلك الله (سبحانه وتعالى علوا كبيرا) مهما اختار (رجح!) من الخيارات الأربعة المذكورة للجسيم، فهو خاضع في المسار الذي يختاره للقوانين الحاكمة لذلك الخيار لا محالة! فهذا تشبيه لفعل الله في خلقه بفعل المستثمر البشري، وذلك في علاقة كل منهما بالقوانين الحاكمة للنظام الذي فيه يعمل ما يعمل، والله المستعان! وهو كذلك تقرير للسببية الطبيعية المغلقة، وإن كان الترجيح منسوبا للرب بالغيب، فواقع الأمر في النهاية أنك لن ترى في العالم حادثا إلا جاريا على قوانين نيوتن وحتمية نيوتن، مهما "رجح" الرب ما رجح! مع أننا نعلم أن الدكتور لا يمنع من وقوع المعجزات والخوارق بل يجوزها كما صرح بذلك من قبل! فهل يرى أن المعجزات والكرامات والخوارق إذا وقعت، وجب ألا تقع إلا على وفق قوانين نيوتن مثلا؟؟ سبحان الله!

ثم يواصل فيقول:

> النقطة الأخيرة اللي ييجي فيها التساؤل: كيف يتدخل العلم الإلهي في أحداث كوننا المادي؟ كيف يتواصل العلم اللامادي الإلهي في عالمنا المادي؟ في الحقيقة: لا ندري! لا ندري بالمرة! أنت كده يعني تهربت من المشكلة! ما تهربناش من المشكلة ولا حاجة، لإن إذا كنت أنت لا تدري كيف يتواصل العنصر اللامادي فيك وهو العقل، مع العنصر المادي، ولا تدري، المشكلة الكبيرة في علوم الوعي، وده هانؤلف لها الكتاب القادم إن شاء الله، لا ندري كيف النشاطات الكهروكيميائية التي تدور في المخ، المادية، تنتج التجربة الواعية اللي بيسموها الكواليا Qualia اللامادية، نحن لا ندري ما يحيطنا نحن .. اللي هي قضية ديكارت في تواصل العقل مع الجسم وسيادة العقل على الجسم، لا ندري كيف يتواصل هذا

مع هذا، بخصوصنا إحنا كبشر، بخصوص وعينا البشري، فهل ندركه في حق الله عز وجل؟؟ سبحانك اللهم وبحمدك ولا إله غيرك، والله تعالى أعلى وأعلم.

قلت: يا سبحان الله! الآن تقول لا ندري؟؟ فما الذي أوقفك الآن يا دكتور، وقد ملأت الأرض ضجيجا وتخليطا في الميتافزيقا وفي الإلهيات في عدة مجلدات، تنقل من هذا تارة وتقلد ذاك تارة، وتأتي من كتب الطبيعيين واللاهوتيين بما لا محل له من العلم ولا من العقل ولا من الدين، ولم ينزل به من الله سلطان؟؟

يا دكتور، لا يجوز أن يوصف علم الله تعالى باللامادي، لأنها لفظة مغرقة في الإجمال، والله تعالى لا يوصف بالمجملات! لا يقال الله لامادي ولا يقال إنه مادي، كما لا يقال إنه ليس بجسم ولا يقال إنه جسم، وإنما نثبت لله المعاني الصحيحة بالألفاظ السالمة من الإجمال. ووجه الإجمال كما لا يخفى أن المادية هي وصف يشمل كل ما يتناوله الطبيعيون بالتنظير والقياس! وعندهم أنه لا يكون للشيء امتداد ولا جهة يوصف بها، بل ولا وجود في الأعيان أصلا إلا أن يكون "ماديا" (مكونا من المادة)! ولا يخفى على الدكتور أن ميتافزيقا أينشتاين صيرت المكان والزمان عنصرين وجوديين ماديين، أي لا يوصف بأن له أفعالا تتتابع في الزمان فعلا بعد فعل إلا ما كان وجوده "ماديا" نوعا، ولا يوصف بأنه في جهة العلو فوق شيء ما، وبأنه يستوي وينزل ويجيء، إلا ما كان "ماديا" نوعا! فإذا كان هذا هو المقصود بالمادة، فتأمل ما يترتب على إثبات "اللامادية" بهذا المعنى لرب العالمين من أنواع التعطيل، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! وتأمل كذلك ما يلحق به من التمثيل إن أثبتنا له "المادية" في المقابل! فلا مخرج من ذلك إلا الامتناع عن الإثبات والنفي جميعا، فلا يقال فيه سبحانه إنه مادي كما لا يقال إنه لامادي! ولهذا السبب نفسه قال أئمة السنة رحمهم الله تعالى إنه لا يقال في الله إنه "جسم" ولا يقال "ليس بجسم"، لأن اللفظة قد صار لها على ميتافزيقا الفلاسفة والمتكلمين معان إن أثبتت لله تعالى صيرته على كيفيات وحقائق المخلوقين، ومعان إن نفيت عنه عطلته عن صفاته جل شأنه وصيرته كالعدم أو كالصنم، فتأمل!

ثم إن "العلم الإلهي" لا "يتدخل" في شيء، وليس جريان الحوادث في العالم ناشئا عنه سببيا، وإنما ينشأ عن الإرادة والمشيئة والفعل والأمر والخلق والكلام الإلهي! ولكن لأن الرجل قد اعتنق "ميتافزيقا المعلوماتية" هذه، القائلة بقياس الكون على الحاسوب، أصبح لا يطلق لفظة "العلم الإلهي" إلا وهو يريد بها ما يسميه "بالمعلومات"! وإنما عدل عن كلمة "معلومات" إلى كلمة "علم" حتى لا يصف الله بما لم يصف به نفسه

(وتأمل!!)! ولا يخفى أن جعل المعلومات البرمجية المزعومة (على القياس الحاسوبي الساقط) هي علم الله، التي هي عند أستاذه غيت وأصحابه "لامادية" كما سيأتي، يلزم منه أن يكون العلم الإلهي حالا في العالم كصفة ذاتية له، كما أن من صفات الحاسوب أنه "مبرمَج" ببرنامج مخصوص! وهذا ما يقتضي وحدة الوجود أو على أحسن الأحوال الاتحاد والحلول كما تقدم. فعند "غيت" المعلومات هي علم الإله تحقيقا، وكذلك عند الدكتور كما هو ظاهر! هو لا يراها شيئا مخلوقا منفصلا عن ذات الله سبحانه، ولهذا لما فصّل في كيفية عمل تلك "المعلومات" على المستوى الكوانطي، اعتمد تأويل كوبنهاغن في مفهوم القياس Measurement وفي مفهوم الانهيار الموجي Wavefunction Collapse، تبعا للطائي، ليجعل "المعلومات" التي بها يخلق الله كل شيء، إنما هي "الترجيح" في "موجة الاحتمالات"، الذي هو ناشئ (على ميتافزيقا بور وهايزنبرغ) عن مجرد المشاهدة الإلهية لكل شيء في العالم (أو الرصد الإلهي كما يسميه)! وإذن يلزم القول بأن الخلق والتدبير (أو الترجيح أو المعلومات على اصطلاح الدكتور) إنما هو شيء لم يزل ينبثق من الصانع من الأزل بمجرد كونه موصوفا بمشاهدة المجال الكمومي القديم، على طريقة العقل الفعال الأرسطي! قال الدكتور في حلقة له بعنوان "المصدر المعلوماتي الأعلى":

> هنا بيتكلم على إن في منظور الكوانتم، دي أنا اسمحوا لي أقرأها ليكم أيضا، يعني أنا لخصتها إيه، الجزء اللي يقصدوه، إيه، في ظل نظريتي النسبية والكوانتم، أدركنا أن خروج أي احتمال إلى الوجود المدرك، بعد ما كان احتمالية، فيه احتمالات كثيرة لكل ظاهرة أو لكل حادثة، عشان تخرج إلى الوجود المدرك، لابد من راصد يرصده. اللي بيسموها انهيار الدالة الموجية، أو الوظيفة الموجية، بدل ما كانت احتمالية، أصبحت مرصودة. تاني! في ظل ثورة النسبية والكوانتم، أصبحنا ندرك أن خروج أي احتمال إلى الوجود المدرك، يحتاج إلى راصد يرصده، لذلك، فإن خروج كوننا من الاحتمالية إلى الوجود المدرك، قد احتاج لوعي كوني يرصده! تاني ملخص كلام بنروز وليزلي وبول ديفيز، إن خروج كوننا من الاحتمالية تبعا لكوانتم والنسبية إلى الوجود المدرك، قد احتاج إلى وعي كوني ليرصده! وأنا بأضيف، ومن ثم فإن الوعي الكوني هو الكيان الوحيد الذي لا يمكن أن يخرج إلى الوجود المدرك! تاني، الوعي الكوني، الذي رصد الوجود ونقله من الاحتمالية إلى الوجود المرصود المدرك، هذا الوعي بقى، مش ممكن حد يدركه! لأن هو الذي أدرك الموجودات كلها، وأخرجها من الاحتمالية إلى الوجود! وبالتالي: إن الوعي الكوني هو الكيان الوحيد الذي لا يمكن أن

يخرج إلى الوجود المدرك، إذ ليس هناك وعي أعلى منه ليدركه! لذلك كان ربي عز وجل هو الظاهر الباطن، ربي عز وجل هو الظاهر الباطن، الذي لا يخرج إلى الإدراك، ليس هناك وعي يدركه! إن ربي عز وجل هو الظاهر الباطن، والله تعالى أعلى وأعلم.

قلت: تأمل كيف وافق الدكتور روجر بنروز وجون ليزلي في وصفهما الرب جل وعلا "بالوعي الكوني"، وبنفي صفة "الوجود المدرك" عنه، على ما فيها من إجمال فاحش! [30] هو يريد أن يعتمد ميتافزيقا كوبنهاغن التي هي أشبه ما يكون بالكهانة والتنجيم! فكما أن حركة الأفلاك والنجوم في السماء لا تأثير لها على مصائر البشر وأحوالهم، ولا يوصل إلى إثبات ذلك التأثير بأي طريق صحيح معقول، فكذلك لا تأثير لمجرد حصول الإدراك البصري لشيء ما، على حال ذلك الشيء نفسه! بل إن صحة مقدمة المنجم في دعواه تأثير حركات الكواكب والأبراج على البشر، هي أقرب إلى الثبوت (على امتناعه) من مقدمة القائلين بأن مجرد حصول الرصد من قبل راصد واع، هو الذي يؤدي إلى سقوط الاحتمالات كلها وانحصار الواقع في احتمال واحد فقط! وقد بسطنا الكلام على وهاء ميتافزيقا كوبنهاغن هذه في غيرما موضع من هذا الكتاب وغيره، ولكن الشاهد أن الدكتور يلتقطها ويطير بها لا لشيء إلا لأنها أوصلت بعضهم إلى جعل الإله هو "المرجح" الكوانطي بمجرد رصده ما يرصد من أمر العالم! ونسي الدكتور أنه حتى يكون للرصد الكوانطي (على تلك الخرافة السمجة) تأثير في واقع الموجة، فلابد أن يكون ثمة حالة سابقة للرصد تكون فيها الاحتمالات كلها حاصلة في الأعيان، ثم تنهار كلها ليبقى حال واحد للجسيم عند حصول الرصد وعلى أثر الرصد نفسه! فمن يجعل الراصد هنا هو رب العالمين، فهذا يشبهه بالراصد البشري في المعمل، الذي كان قبل الرصد لا يرصد ولا يرى ولا يدرك ما يكون من حال الموجة، ثم لما أدرك ذلك بعد الرصد أو القياس، ترتب على ذلك ترجيح أحد الاحتمالات على ما سواها! وهذا يقتضي تجهيل الرب وقصر بصره سبحانه على ما بعد الرصد دون ما قبله! فإن قالوا ولكن حالة الرب مختلفة لأنه لا يخفى عليه شيء البتة في أي لحظة من لحظات الزمان، قلنا إذن بطل قولكم بأن إبصاره للعالم هو الذي تنهار به الموجات الكوانطية، لأن وجود الموجات نفسها كموجات على عقيدة بور وهايزنبرغ ومن تابعهما، لا حصول له في الأعيان إلا في غياب من يرصدها! فإذا ما رصدت، انهارت وجوديا وتعينت الجسيمات في بعض مواضعها! هذا هو معنى الترجيح الكمومي الذي لم يفهمه الدكتور باسل الطائي ولم يفهمه كذلك عمرو شريف، فلم يدركا ما يجلبه من لوازم على رب العالمين إذا ما نسبوه إليه سبحانه! هم يلزمهم أن يجعلوا رصده رصدا غير كاشف لجميع مادة العالم،

أو يكشفها في بعض الأوقات دون بعض، وذلك حتى يصبح "الرصد الإلهي" هو الذي يحيل الدالات الموجية إلى "موجودات مدركة"، أو "يخرجها إلى الوجود المدرك" على حد عبارة الدكتور! ثم إن هذا يقتضي كما تقدم جعل الدالة الموجية الكونية قديمة بقدم ذلك الوعي الراصد (الذي لا يحيط إدراكه ورصده بكل شيء)، لأنه لم يزل يرصد مواطن من الدالة الموجية القديمة فيحدث فيها تقلبات Fluctuations على حسب كوزمولوجيا الانفجار التي قبلها الدكتور، حتى اختار في مرة من المرات أن يرصد موجة ما، فيحولها (بمجرد الرصد) إلى الفردية التي نشأ منها الكون، وبهذا "ترجحت" نشأة الكون! فعلى هذا يلزمه القول بقدم العالم (متمثلا في قدم الدالة الموجية) وإن كان يقول بحدوث الكون! فإذا كان يقبل القول بكونية الوعي المزعوم كما ترى، وبأنه لم يزل تنبثق منه المخلوقات من طريق الترجيح الكمومي بمجرد ثبوت رصد العالم في حقه كصفة ذاتية، ولم تزل تلك المراصد بمنزلة بث "المعلومات" الإلهية في العالم، ويجعل ذلك كله هو تأويل اسم الله تعالى "الباطن"، فهو ملزم إذن بموافقة هؤلاء الطبيعيين على جعل الباري مجرد وعي كوني طبيعي كلي متلبس بالعالم، وإن كان قد اتفق له أن كان "غير مادي" بحيث لا يرصده شيء، وهو يرصد كل شيء! وهذه هي وحدة الوجود الطبيعية غير المادية التي زعم الدكتور أنه لا يوافق أصحابها عليها، والله المستعان!

لا نبالي بما يقوله الدكتور في التبرؤ من تلك النحلة، فإن جميع الطرق التي سلكها تفضي به إليها لزوما واقتضاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فلا يبرأ منها تحقيقا حتى يصرح بالتوبة والتراجع عن ذلك العبث الفلسفي الميتافزيقي وعن تلك الأصول الكلية الباطلة والفروع الفاسدة التي أدت به إليها وإلى غيرها من أبواب الجهمية والعدوان على صفات الله وأفعاله، وإنا لله وإنا إليه راجعون! ومن ذلك بدعته في مسألة الخلق بكلمة التكوين! فبناء على جميع ما تقدم من طوامه في ميتافزيقا العمل الإلهي، ينتهي الدكتور في الحلقة الأخيرة من سلسلته تلك التي ترجم لها بقوله "ليس الشهادة كالغيب"، إلى أن يتأول – كما هو متوقع – كل آية يرد فيها ذكر الخلق بقوله تعالى "كن"، وأن يقرر مزيدا من تعطيل الله عن صفاته وأفعاله على ما يناسب ماكينته النيوتونية وسببيته المغلقة (التي سماها تلبيسا بانغلاق المادة والطاقة!)، فيقول:

> في الحقيقة محتاجين لهذا اللقاء الأخير، من أجل أن نفك التباس شديد، بيقع فيه كثيرون، ومن المتفقهين في الدين، اللي هو الخلط بين عالمي الشهادة والغيب. جاءتني رسالة من إبنة فاضلة قارئة تدرس طب الأسنان في جامعة الموصل بالعراق،

قالت لي الموصلية، تحدثنا عن التطور الموجه، وترى أن هناك إجماع علمي عليه، طيب التطور ده شيء بيحدث عبر أزمان طويلة، وفي أماكن مختلفة، ويحدث تبعا لقوانين، قانون انتخاب طبيعي، وقوانين طبيعية أو قوى طبيعية بتحدث طفرات و.. و.. و.. إلى آخره. قلت لها: نعم! قالت لي، وفي نفس الوقت، أنتم بتقولوا أن ربي عز وجل، خارج منظومة الزمان وخارج منظومة المكان، ولا تحكمه قوانين ولا قوى ولا أسباب ولا حاجة أبدا. قلت لها: نعم! قالت لي: كيف؟ إذا كان ربي خارج منظومة الزمان والمكان والقوانين، فكل شيء بالنسبة له آني، خارج الزمان، آني لحظي، ما فيش بكره وامبارح ومن مليار سنة واتنين مليار سنة، فيبقى القول بالخلق الخاص المباشر، بكن فيكون، هو الأصوب! مش القول بالتطور! شكرت الحقيقة الفتاة جدا، وقلت لها هذه ملاحظة عبقرية! هل قرأيتها في كتابي حادي العقول؟ أنا كتبتها في حادي العقول! قالت لي لا والله ما قرأتها. إنما ده تفكير بديهي يعني. قلت لها سبحان الله الذي ترينه بديهيا، يعضل على الكثيرين! يعضل على الكثيرين إزاي؟ الموضوع ببساطة يا إبنتي، أن الوجود يشبه العملة Coin. له وجهان. عالم شهادة وعالم غيب. لكل قوانينه وقواعده. احنا بنتعامل مع العملة بيبقى فيه وجه فيه صورة، بيشغل مراكز رؤية الصور والذاكرة في الدماغ، ووجه آخر كتابة بيشغل مراكز أخرى وقواعد أخرى وقوانين في الدماغ. هكذا حال الوجود. هو الوجود له وجهان، عالم غيب، وعالم شهادة. لكل منهما قوانينه. اللبس، لو حبينا نطبق قوانين عالم الغيب على عالم الشهادة، أو نطبق قوانين عالم الشهادة على عالم الغيب.

قلت: للوهلة الأولى، عندما تسمع الدكتور يتكلم عن عالم الغيب وعالم الشهادة، وأنه لابد من نصب الفرقان الصارم بينهما، تتوهم أنه يوشك أن يقرر مذهب أهل السنة في تلك القضية الخطيرة، وأن يقول إنه لا يجوز التنظير في الغيبيات بأي نوع من أنواع القياس، لأن مبدأ التنظير نفسه إنما هو نقل للحكم من الشاهد إلى الغائب بالقياس! ولكن ما كنا لنتوقع ذلك من جهمي متفلسف غال، نسأل الله السلامة! فنقول ابتداء إنه عندما يطلق الدكتور لفظة "غيب" فلا يريد بها ما عليه أهل السنة من استعمالها كما هو واضح! فهو قد استوعب (على ميتافزيقاه الطبيعية المعدلة) تاريخ الكون من أوله، بما في ذلك حوادث نشأته، كما استوعب جميع السماوات وما فيها وجميع الأرضين وما فيها، فلا شيء في ذلك عنده يقال له غيب أصلا! وإنما يقصد بالغيب ما يقع خارج الكون، أو خارج "الطبيعة"! ولكن عند التأمل في

ميتافزيقا أينشتاين التي يتبناها لتصور عالم الشهادة، تجد أنه يجعل الزمان والمكان مقصورين على الكون (الذي هو – بكليته - عالم الشهادة عنده)، ويجعل الله خارجا عن "منظومة الزمان والمكان"! فعلى ميتافزيقاه يلزم ألا يكون ثمة خارج للعالم ولا قبله ولا بعده، لأنه بحسب ميتافزيقا النسبيتين، لا معنى ولا حقيقة للزمان ولا للمكان إلا في إطار الزمكان! أي ليس يوجد في الأعيان شيء تجري عليه معاني الزمان ومعاني المكان إلا أن يكون جزءا من الكون المخلوق، والله "خارج" عن ذلك! فما معنى هذا "الخروج" إذن؟ كلام توهيمي فاسد لا حصول له في عقول العقلاء، ولا مقتضى له إلا القول بوحدة الوجود الطبيعية السبينوزية التي اعتنقها أينشتاين كما بيناه في غيرما موضع. فعلى عقيدة الدكتور عمرو، يلزم ألا يكون لله وجود "خارج" العالم إلا على سبيل المجاز، لأنه لا جريان لمعنى الخارجية على شيء إلا أن يكون واقعا في الزمكان! ويلزم كذلك ألا يكون لله وجود قبل العالم كذلك إلا على سبيل المجاز، لأنه لا حصول لمعنى القبلية على شيء إلا أن يكون واقعا في الزمكان!

أما ذلك التصور الذي جاءت به الفتاة المذكورة، وصدق عليه الدكتور ولم ينكره، بل سألها عما إذا كانت قد نقلته من كتبه، فهو تصور متناقض في نفسه، ولا يجري على ميتافزيقا الزمكان على الحقيقة كما يبدو أن الدكتور يتوهمه! فهي تقول، على حد نقله: "إذا كان ربي خارج منظومة الزمان والمكان والقوانين، فكل شيء بالنسبة له آني، خارج الزمان، آني لحظي، ما فيش بكره وامبارح ومن مليار سنة واتنين مليار سنة، فيبقى القول بالخلق الخاص المباشر، بكن فيكون، هو الأصوب"، وهو يقرها على المقدمة وإنما يستنكر عليها النتيجة! ونقول إن هذا الكلام متناقض في نفسه، بالنظر إلى أن الذي يعتقد عدم جريان معاني الزمان على رب العالمين، يتناقض إن قال إن كل شيء بالنسبة له آني لحظي، يقول للشيء كن فيكون بلا زمان! فمن الواضح الجلي أن قولنا بالآنية هو قول بالزمانية، إن كان المراد بالآنية "الآن" في اللغة! يريد الرب الشيء فيخلقه خلقا آنيا، أي على التو والفور، وهذا ولا شك من المعاني الزمانية التي يتعين على من يعتقد أن الله "خارج الزمان" أن يعطله عنها بالكلية! لا يقال للشيء إنه فاعل أو إنه فعل (بالماضي) أو يفعل (في الحاضر) أو سيفعل (في المستقبل)، إلا جريا على معاني الزمان والترتيب الزماني ضرورة وبداهة! ولهذا قلنا إن الذي ينفي المعاني الزمانية عن رب العالمين فهو يعطله تعطيلا تاما عن جميع صفاته، بما يقتضي عدميته ونفي وجوده بالكلية! فمجرد أن نقول لشيء ما إنه موجود، هذا لا معنى له في العقل ولا في اللغة الطبيعية إن لم يشتمل على متعلق زماني ما Tense، أي كون هذا المعنى المثبت هو وصف للشيء الموصوف به في زمان حاضر (أنه موجود الآن تحقيقا)! ولهذا صنف النحاة

الأفعال إلى فعل ماض وفعل حاضر وفعل مستقبل، ولم يوجد في قسمتهم ولا كان يتصور أو يوجد فعل "لازماني" أو "آني" بمعنى أنه لا تجري عليه متعلقات الزمان معنويا، كما هو استعمال الدكتور للفظة "آني" ها هنا! فالأمر الذي يجب أن يفهمه الدكتور وأتباعه هداهم الله، هو أنه عندما يقال "مافيش بكرة ولا امبارح ولا بعد مليار سنة" فإنه يلزم وجوبا وضرورة ألا يكون ثمة "فعل" أصلا، ولا إرادة ولا حياة بل ولا وجود البتة كما تقدم، فيصبح الرب إذن عدما لا حقيقة له! فإن كنتم تثبتون لله تعالى أنه يخلق "بكن فيكون" حقيقة، فالتركيب كما لا يخفى تدل فيه الفاء والمضارعة في لفظة "فيكون" على الزمانية، وعلى التعقيب مع السرعة! يقول سبحانه للشيء "كن" فإذا به يكون عقب ذلك القول الإلهي مباشرة! فالذي يزعم أن الله لا تجري عليه معاني الزمانية، لزمه أن يكذب القرآن وأن يدعي أنه لا تعقيب ولا ترتيب بل ولا فعل يقال له فعل الخلق على الحقيقة! هذا، أيها القارئ الكريم، هو "عالم الغيب" الذي يريد الدكتور أن يؤسس تصوره على ميتافزيقا النسبية! عالم عدمي لا يحدث فيه شيء أصلا لأنه لا حدوث إلا في الزمان والمكان (حدث يحدث فهو حادث)، ولا يوجد فيه شيء البتة لأنه ليس في العقل ولا في منطق اللغة إثبات لمعاني الوجود تجردا من معاني الزمان والمكان، فتأمل كيف أحال الرجل ربه إلى العدمية المحضة بجرة قلم كما يقولون، وبابتسامة المنتصر النشوان على وجهه، يثني على السائلة المذكورة "عبقريتها" ثم ينسب الفكرة لنفسه في زهو ظاهر، نسأل الله السلامة! [31]

ثم يمضي، على الترتيب المنهجي المعتاد عند كل جهمي، ليتقرمط على كلمة التكوين، بعدما أخرج ربه من أن يكون حيا مريدا فاعلا على الحقيقة من حيث لا يشعر، ليضع نظريته في الجمع بين كلمة التكوين وبين الميكانيكا النيوتونية من جانب، والتطور الموجه من جانب آخر فيقول:

> تعالوا نشوف على سبيل المثال. أنا عندما ولدت، أنا ولدت بكن فيكون، رب العزة خلقني بكن فيكون، هذا في عالم الغيب! إنما لما جاء كن فيكون يطبق في عالم الشهادة، دخل في أطر عالم الشهادة، اللي فيها زمان وفيها مكان وفيها قوانين! ميلادي اللي بكن فيكون في عالم الغيب، احتاج في عالم الشهادة إلى تفعيل لقوانين وقواعد اجتماعية، منظومة الزواج والدي تزوج والدتي، احتاج لقوانين اقتصاد، ده فيه مهر وفيه شبكة وفيه مؤخر و.. و.. و.. إلى آخره. احتاج لقواعد وقوانين بيولوجية! مكثت في بطن أمي تسعة أشهر! كل ده بكن فيكون! تطورت في بطن أمي تسعة أشهر! فالقضية نفس الشيء! ما يتم في عالم الغيب،

أمر عندما ينتقل إلى عالم الشهادة، يخضع لقوانين عالم الشهادة. عشان كده نيوتن عندما توصل لقوانينه قال مقولة جميلة جدا: "لقد أراد الله أن يعلمنا كيف يدير الكون"! وفرانسيس كولينز قال مقولة مشابهة، لما فكوا مشروع الجينوم، قال: لقد شاء لله أن يطلعنا على اللغة التي خلق بها الحياة، فيه شيء بيتم في عالم الغيب، عندما ينتقل إلى عالم الشهادة بيأخذ شكل آخر.

لو رجعنا للآية الكريمة ((إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون))، هذا أمره! هذا شأنه! هذا في عالم الغيب كن فيكون! أما في عالم الشهادة ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ))، قل سيروا في الأرض، ده مكان! فانظروا، دي آليات، كيف، ده قوانين استعملها، بدأ، ده إطار زمان، الخلق! حطوا الاتنين أصاد بعض! كن فيكون، أمره، هذا أمره هو! عندما انتقل هذا الأمر إلى عالم الشهادة، انتقل بقوانين عالم الشهادة: الزمان والمكان و.. اللي هي السنن الكونية.

قلت: هذه معارضة للقرآن بالرأي ولا حول ولا قوة إلا بالله! فالله تعالى يقول إن الشيء الذي ترونه يخلق بين أيديكم (كخلق الجنين في بطن أمه) إنما كان أمره سبحانه إذا أراده أن يقول له "كن"، فيبدأ خلقه على الفور، تصدر الأوامر الإلهية، فتنزل على الملائكة تباعا بداية من خلق النطفة على يد الملك الموكل بالأرحام ووصولا إلى إرسال ملك بنفخ الروح وكتابة الكلمات الأربع كما في قوله عليه السلام "ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات "، فكل ذلك أوامر تكوين ينزل كل أمر منها بحسب مراد الرب جل وعلا، فيحصل المراد على ما هو مراد، إذ يعمل كل ملك بالأمر النازل إليه فورا كلمح البصر! فإذا قيل للملك أن ينزل لينفخ الروح، شرع في النزول فورا بلا تراخ ولا إبطاء وما كان له أن يتراخى أو يخالف أو يسهو أو يعرض عليه ما يمنعه من فعل المأمور والإتيان به بحذافيره، فنفخ الروح وقتما أراد سبحانه أن يكون نفخها كيفما أراد، وإذا قيل للملك أن يقبض فلانا نزل من فوره بلا تراخ ولا إبطاء، وكان قبضه كيفما شاء سبحانه وقتما شاء لا على غير ذلك! هذا ما نعتقده نحن المسلمين من أهل السنة في هذه البابة، ولا نزيد عليه ولا نفصل فيما لا نملك فيه من نصوص الوحيين تفصيلا.

وأما الدكتور فيزعم أنه يكون للشيء الواحد خلقان وتكوينان معا، خلق في الغيب آني أو مباشر (على الفور) بكن فيكون، وخلق آخر للشيء نفسه في الشهادة لا بكن فيكون ولكن على التراخي بالقوانين النيوتونية! وهذا باطل

قطعا، مضاد للمعقول ومصادم لظاهر القرآن (وسنرى فيما يأتي بعد أنه نقضه من حيث لا يشعر في كتابه "كيف بدأ الخلق")، وإنما هو خلق واحد وتكوين واحد، يجري حيث يريده ربنا تبارك وتعالى (في الغيب أو في الشهادة) على ما يريده الله تعالى بلا إبطاء ولا تعطل، أمرا بعد أمر! فالله تعالى يقول: ((بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [البقرة : 117] ويقول جل شأنه: ((قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [آل عمران : 47] ويقول: ((إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [النحل : 40] ويقول: ((مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [مريم : 35] ويقول سبحانه: ((إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)) [يس : 82]، ويقول ((هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [غافر : 68] فكل ذلك يفهم منه أنه ليس شأنه إذا أراد شيئا أو قضى أمرا، أي شيء أو أي أمر، إلا أن يقول له فيكون، يكون كما شاء وكما أراد سبحانه، كل مراد بحسبه، ينزل به الأمر الذي يناسبه، فتعمل به الملائكة فورا بلا تراخ، فلا يزيد في جميع ذلك سبحانه على أن يقول لما يريد "كن" فيكون كما يريد! وهذا هو المعنى بإجماع المسلمين! فالله تعالى خلقه كلام ورزقه كلام ووحيه كلام وقضاؤه كلام، يقول للشيء من ذلك كن فيكون، لا يزيد على ذلك!

وليس في ذلك ما يقتضي نفي السنن الكونية أو تعطيلها، لأن الطبائع المركبة في الأشياء والسنن والأسباب المؤثرة في مسبباتها لا تكون طبائع ولا سنن ولا أسباب ولا مؤثرات إلا بأوامر التكوين النازلة على الملائكة آناء الليل وأطراف النهار، كما بينا ذلك مرارا في غير موضع! أما أن يكون الرب خارجا عن الزمان والمكان، فليس هو إذن ذلك الرب الذي حررنا الاعتقاد الصحيح فيه، وليس هو خالقا على الحقيقة، ولا مكونا على الحقيقة، ولا علاقة لما يجري في العالم من تولد للأشياء بأمره ولا بتكوينه الذي صيره الدكتور أمرا واحدا آنيا لا فرق فيه بين شيء وشيء أو بين مراد ومراد، ولا بين ماض وحاضر ومستقبل، ولا معنى فيه للحدوث والتجدد أصلا، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

يواصل الدكتور فيقول، كاشفا عن حامله وداعيه لنفي نسبة الترتيب الزماني والامتداد الزماني إلى أفعال رب العالمين: "يعني كلنا نتحدث، حتى المنكرين على هذا التصور، يتحدثون عن السنن الكونية! نيجي نقول لهم ربنا بيدير الكون بسنن كونية؟ يقول لك لأ، ده هو بكن فيكون! تطور إيه اللي أنتوا بتقولوه ده! وكأن ربي أراد أن يخلق الإنسان، فخلق خلقا وبعدين

رأى فيه قصور فطوره ووجد فيه قصور فطوره! ... حاشا لله! عند ربي، إذا كانت منظومة الخلق دي، اللي هي التطور البيولوجي عندنا إحنا تطور زمني، هو عند ربي مش كده! هو عند ربي خارج الزمان! يبقى آني! هو تطور عندنا، عند ربي هو خلق خاص!" اهـ.

قلت: هذا هو ما تفتق عنه ذهنك من حيلة لإقناع نفسك وأتباعك بأن القول بالخلق بالتطوير لا يقتضي نسبة النقص المبين إلى رب العالمين كما يتهمك به المخالفون؟ أن ما نراه نحن في عالم الشهادة تطويرا من أصول منحطة، إنما هو خلق آني مباشر في عالم الغيب، لا تطوير فيه ولا تحسين؟؟ يا للعبقرية! من أصر على أن آدم خلق من تراب في الجنة بيد الله تعالى – مثلا – فليبق على اعتقاده ذاك ولا إشكال، ولكن عليه أن يجعله هو فعل الخلق الإلهي في "عالم الغيب"، وأما في "عالم الشهادة"، فحقيقة ذلك أنه خلقه على الأرض من نسل سلالة من القردة العليا بعد تاريخ طويل من التطور الموجه البطيء يمتد لما يقرب من ثلاثة ونصف بليون سنة! فلا أدري والله أأضحك أم أبكي! يا دكتور هذا الخرف الذي أضفته إلى داروينيتك، لا يزيد الطين إلا بلة والله! قبل هذا الكلام كنت متلبسا ببدعة التطور الموجه، والآن أصبحت متلبسا ببدعة التطور الموجه الآني، التي تقول إن الإنسان مخلوق خلقا مباشرا وخلقا تطويريا معا في نفس الوقت! فلكأني به يقول: الخلق المباشر من الطين هذا شأنه، هذا أمره، هذا عنده في عالم الغيب، أما هنا في عالم الشهادة، فليس إلا التطور من نسل القردة العليا!

فكيف أقنعت نفسك بهذا الكلام يا دكتور قبل أن تعرضه على الناس؟ سبحان الله!

ثم يقول:

> أنا باقول هذا الكلام ليه في إطار الحلقة الأخيرة عن المعلوماتية، عشان البعض ممكن يقول، قاعد يكلمنا على مغلق سببيا ومغلق معلوماتيا ومغلق ماديا وقاعد تكلمنا على القوانين وإن بنرصد إيه في المادة، ده ربي بيعمل بكن فيكون! نفس القضية اللي اتكلمنا فيها في البيولوجي، تنطبق هنا! ربي يعمل بكن فيكون، هذا أمره! أما عندما ينتقل إلى هنا، ينقلنا نقلا إلى عالم الشهادة، فقل سيروا في الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلق! من أجل ذلك، عندما قال ربي، إني جاعل في الأرض خليفة، ارتبطت بعلم آدم الأسماء. ليه؟ كيف نقف عند إدارة الكون، بكن فيكون، ونأتي نحن خلفاء، هانعمل إيه بالخلافة؟؟ كيف

سندير أمر هذا الكوكب؟؟ إذا كان ربي يديره بكن فيكون، فكيف نحن نديره؟ لا يمكن أن نديره إلا أن نتعلم الأسماء التي هي من المعلومات، التي هي من قواعد عالم الشهادة، لولا الفرق ما بين عالم الغيب وعالم الشهادة، لما أمكن أن نكون إني جاعل في الأرض خليفة!

قلت: سبق أن بينا في غير موضع أنه لا علاقة لآية العنكبوت (كيف بدأ الخلق) بشيء مما يريد. الآية فيها محاجة للمخاطبين بها بما هو ظاهر لهم من حقيقة أن الله تعالى يبدأ الخلق في الحياة الدنيا تحت أعيننا، خلقا من بعد خلق، ومن حقيقة أن العالم نفسه مخلوق بداهة وضرورة، مركبة أجزاؤه في بعضها البعض أحكم تركيب وأحسنه وأضبطه، فإذا كان الحال كذلك، فكيف يظن به ألا يقدر على بعث الموتى وإحياء العظام وهي رميم، وعلى إعادة خلق السماوات والأرض بعد هدمهما؟؟ هذه هي الحجة التي فهمها المسلمون من هذه الآية عبر قرون الأمة بلا مخالف قبل عمرو شريف! ولمعناها نظائر مستفيضة في القرآن، كما في قوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [الأحقاف : 33] وقوله جل شأنه ((وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)) [يس :78-79] وقوله تعالى: ((مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ [لقمان : 28] وقوله تبارك وتعالى: ((وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)) [الروم : 27]، وقوله عز وجل: ((وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ)) [الواقعة : 62]، فلا فيها أمر بالنظر التجريبي أو القياس العقلي في قصة خلق السماوات والأرض كيف جرت وعلى أي ترتيب، ولا فيها إثبات لكون الله تعالى يخلق ما يخلق في الدنيا بقوانين نيوتن والنسبية والكوانتم والتطور الدارويني، ولا شيء من ذلك الهذيان! فقوله "قل سيروا في الأرض، ده مكان! فانظروا، دي آليات، كيف، ده قوانين استعملها، بدأ، ده إطار زمان، الخلق! حطوا الاتنين أصاد بعض!" هذا عبث وتنطع على القرآن وتحريف للكلم عن مواضعه، والله المستعان!

أما قوله: "من أجل ذلك، عندما قال ربي، إني جاعل في الأرض خليفة، ارتبطت بعلم آدم الأسماء. ليه؟ كيف نقف عند إدارة الكون، بكن فيكون، ونأتي نحن خلفاء، هانعمل إيه بالخلافة؟؟ كيف سندير أمر هذا الكوكب؟؟ إذا كان ربي يديره بكن فيكون، فكيف نحن نديره؟ لا يمكن أن نديره إلا أن نتعلم الأسماء التي هي من المعلومات، التي هي من قواعد عالم الشهادة،

لولا الفرق ما بين عالم الغيب وعالم الشهادة، لما أمكن أن نكون إني جاعل في الأرض خليفة!" فيكشف لك عن عمق ما يعانيه الدكتور من آفة تشبيه الأفعال فيما يتعلق بتصاريف الرب تبارك وتعالى في صنعه ما يصنع وإحداثه ما يحدث من الحوادث في هذا العالم! فالذي يخضع للسنن الكونية اضطرارا ويتقيد بها في جميع ما يصنع من الصناعات ويحدث من المحدثات، إنما هو العبد المخلوق المكلف بعمارة الأرض والخلافة فيها!

ومع أن الله تعالى قد سخر لهذا المخلوق من الأسباب ما يعينه على القيام بما خلق من أجله، إلا أنه لم يأمره "بإدارة الكون" ولا "بإدارة أمر هذا الكوكب"، سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا! يا دكتور ليس المقصود بالخلافة أن نقوم نحن مقام رب العالمين في "إدارة الكون"، ولا يخطر هذا المعنى على قلب مسلم عاقل أبدا، نسأل الله السلامة! لسنا نتعلم الأسباب (التي تصر على تسميتها "بالمعلومات" تنطعا في كل مناسبة)، من أجل أن ندير نحن أمر الكون كما يديره ربنا بكن فيكون! وإنما نتعلمها من أجل أن يعمل كل منا على شاكلته، فيعمل المؤمنون بعمل أهل الجنة فيدخلوها ويعمل الكفار بعمل أهل النار فيدخلوها، يخلف بعضنا بعضا في ذلك الابتلاء الدنيوي العظيم بالغيب وما فيه، جيلا بعد جيل حتى يرث الله الأرض ومن عليها! هذا هو معنى الخلافة والاستخلاف في الأرض كما عند المسلمين!

ولكن الدكتور يريد أن يلبس على أتباعه أن الله نفسه، سبحانه وتعالى، لا يخلق شيئا في هذا العالم إلا بقوانين الفيزياء والكيمياء والبيولوجي (وهو ذلك الانغلاق السببي الطبيعي اللابلاسي الذي أوهم نفسه وأتباعه بأنه سالم منه)، فلا يخرج عليها إلا بالخوارق والمعجزات! يأتي بالأمر من عنده فلا يمضيه في "عالم الشهادة" إلا على قوانين عالم الشهادة (اللهم إلا في معجزات الأنبياء حيث "يتدخل" بتعطيل السنن السببية كلها!)، كما لا يقضي ابن آدم أمره في خلافته المخلوقة إلا بقوانين عالم الشهادة التي لا يعرف غيرها! وإذن فما هي "قوانين عالم الشهادة" التي يتقيد الرب بها في الخلق والتكوين في هذا العالم على دين الدكتور؟ هي جملة ما انتهى إليه تصور البشر من قوانين وسنن سببية طبيعية، وما كان من نوعها مما يرجو الفيزيائيون "اكتشافه" مستقبلا (كنظرية كل شيء مثلا!)، أو نوع ما يتحصل للإنسان من "معلومات" على ميتافزيقا المعلوماتية عنده، تلك القوانين و"المعلومات" التي بها تأسست الميثولوجيا الطبيعية في قصة النشأة! فإن لم يكن هذا تشبيها للأفعال فليس في الأرض تشبيه للأفعال!

قال الدكتور في كتابه "حادي العقول" (ص. 46-47): "لقد أراد الله عز وجل أن يكون عمله في الكون من خلال قوى وقوانين الطبيعة، وقد أساء

الكثير من الملاحدة (ومن المتدينين) فهم معنى قول الله عز وجل في القرآن الكريم ((إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)) (يس)، لقد ظن هؤلاء أن ((كن فيكون)) تعني التدخل الإلهي المباشر في كل موقف، بينما بين القرآن الكريم في مواضع أخرى أن الله عز وجل يعمل من خلال الأسباب." اهـ.

قلت: أولا قولك "لقد أراد الله عز وجل أن يكون عمله في الكون من خلال قوى وقوانين الطبيعة" هذا كذب على الله وإن كان حقا في نفسه! أنت ما أدراك أن الله أراد هذا؟؟ هل جاء به الخبر في الوحي، أم أطلعك الله على الغيب فرأيت بعينيك كيف يقضي الله كل أمر من أمور هذا العالم، فعلمت أنه أراد أن يكون "عمله في الكون" من خلال قوى وقوانين الطبيعة؟؟ ((الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)) [غافر : 35]! اعلم يا دكتور أن مجرد الزعم بأن تلك النظاميات السببية القريبة وتلك الطبائع التي انتهى إليها تصور الفيزيائيين من تتبع تلك الرقعة الضئيلة من العالم التي هي عالم الشهادة في حقنا (وهي منتهى شهادتنا حقا لا كما تزعم أنت أن "الكون" بكليته هو شهادتنا)، فاجترؤوا على طردها في جميع أنحاء العالم بلا وجه حق ولا سلطان من علم ولا عقل، هذا الزعم في مجرده كذب على الله وافتيات عليه! ما أدراهم أنهم إن قدر لهم أن اجتازوا هذه السماء الدنيا إلى التي تليها فسيجدوا نفس تلك السنن السببية التي استقرؤوها في دنياهم القريبة عاملة ثم كما هي بحذافيرها؟؟ من الذي قال إن الكون كله من أوله إلى آخره مملوء بالكواكب والنجوم والمجرات أصلا وما أدراه بذلك؟؟ هذه القوانين التي مكنكم ربكم من استقرائها، ما أدراكم بضوابط وشروط جريانها واطرادها وما وراءها من سلاسل الأسباب في هذا العالم القريب Immediate World نفسه الذي أنتم تشهدونه وتعتادونه، فضلا عما وراءه من العالمين؟؟ وهم وكذب بعضه فوق بعض طبقات، ثم يأتي الفيلسوف المستكبر ليقول بكل وقاحة إن غاية الصانع (إن تفضل علينا بإثباته!) أن "يتدخل" أحيانا في "نظام العالم" تدخلا يكون من شرطه كذا وكذا، وبحيث لا يتسبب في كذا وكذا مما يفسد نظام الكون! فمن تحسبون أنفسكم يا هؤلاء، وما ظنكم برب العالمين؟؟ وأي كبر وأي استعلاء فوق هذا؟؟ بئست الصنعة تلك التي تجرئ المخلوق على خالقه إلى حد أن يضع له الشروط والحدود فيما يأتي وما يترك من أمر خلقه، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا! كبر مقتا ثم كبر مقتا ثم كبر مقتا!

اللهم انتقم من أولئك الطواغيت الآبقين المتعالين عليك يا رب العالمين، أرنا فيهم عجائب قدرتك فإنهم لا يعجزونك، أثلج فيهم صدور المؤمنين!

ثانيا: من من المسلمين قبلك يا دكتور ذكر أو حتى أشار في شيء من كلامه إلى أن الآية تعني "التدخل الإلهي المباشر في كل موقف"؟؟ أنت من استحدثت هذا المصطلح في لساننا العربي، نقلا عمن تشبعت بكلامهم من فلاسفة الغرب واللاهوت النصراني المعاصر، فنسأل الله أن يعاملك بعدله لما أحدثت من ذلك وغيره في دين المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله! نقول إن كان المقصود "بالتدخل الإلهي المباشر" هذا ألا يكون الخلق جاريا على سنن الطبائع (مع أننا قد مر معنا أن المقصود أعمق وأغور وأفسد من ذلك)، فليس في المسلمين من ينفي الطبائع وتأثيرها المباشر إلا الأشاعرة! لا أقول ينفون مطلق السببية، وإنما يزعمون، بحسب نظرية الخلق الآني عند الغزالي، أنه لا طبائع ولا قوى في الأشياء، وأنه لا سبب ولا مؤثر على الحقيقة إلا الله! وهم ولا شك غالطون في ذلك، إذ الطبائع في الأشياء ثابتة بالفطرة والحس والنقل الصريح، ولا يماري في ثبوتها وفي كونها تؤثر في الأشياء حقيقة إلا مكابر!

وقد كان المتكلمون والفلاسفة الإسلاميون القدماء في الطبائع طرفين وكان أهل السنة وسطا بينهما. فبينما غلت بعض طوائف المعتزلة كالجاحظية (أتباع الجاحظ) في إثبات الطبائع، غلت الأشاعرة الغزالية في نفيها في المقابل! فقد بلغ الجاحظ في إثبات الطبائع في الأجسام أن أوجب لها آثارها وجوبا ضروريا لا يتخلف إلا على أثر طبائع أخرى مزاحمة لها، فقال بما يمكن وصفه بأنه صورة قديمة من صور الحتمية السببية الطبيعية! وقد بالغ الرجل في تمطيط وطرد أقيسته حتى جعل دخول الكفار النار في الآخرة ناشئا عن طبيعة فيها تجعلها تجتذب الكفار إليها! وكان يقول بوجوب بقاء المادة (الجواهر التي تتركب منها) أبدا، فلا يقدر الله تعالى عنده على أن يفنيها، وإنما يخلق الأشياء بالتركيب من تلك الجواهر ثم يفنيها بتفكيك الجواهر، وأما الجواهر نفسها فلا تفنى (وهو ما يناظره اليوم اعتقاد الدهرية القائلين بأن المادة في الكون ثابتة في محصلتها فلا تفنى ولا تستحدث من العدم [32]، فما أشبه الليلة بالبارحة!)! والحق وسط بين إفراط هؤلاء وتفريط أولئك، إذ يثبت أهل السنة الطبائع والقوى والتأثيرات حقيقة لا توهما، ولكنهم مع ذلك لا يجعلون لها استقلالا بالتأثير في حوادث العالم، ولا بتعليلها، وإنما يجعلونها هي نفسها نتاجا لأسباب غيبية أخرى متقدمة عليها تتعلل بها، بداية من المشيئة الخاصة المعينة عند الباري سبحانه لكل حادث بخصوصه، ومرورا بكلمة التكوين النازلة فيه، ووصولا إلى ما لا يحصيه عقل الإنسان من متولدات الأسباب الجاري كل متولد منها على نظير ما ذكرنا!

وها نحن اليوم نرى الدكتور عمرو شريف يغلو كذلك في إثبات الطبائع، يوافق غلاة المعتزلة وإن اختلفت النظريات التي دعته إليه وحملته عليه عن

دوافعهم وحواملهم! فيجعل العالم مطبوعة مادته بطبائع معينة ليس في العالم أسباب سواها وما كان من نوعها [33]، ولا يجري في العالم حادث إلا عليها، كالساعة الزمبركية، تملأ ثم تترك لتعمل وحدها! ولهذا قال إن المعجزات إنما تأتي "تدخلا" في النظام وقلبا له رأسا! يقول: "ففي سبعة مواضع (على الأقل) من القرآن الكريم يذكر المولى عز وجل أنه استخدم الماء في إنبات أو إخراج النبات، ألم يكن الله عز وجل قادرا على أن ينبت النبات بأمر مباشر؟" اهـ. قلت: فأما على دين الأشاعرة فيكون الجواب: بلى، وهو ما كان تحقيقا، فلا حقيقة للأسباب والطبائع في الأشياء، وإنما تخلق الحوادث خلقا آنيا بالأوامر الإلهية، فيخلق ما يبدو وكأنه طبع مركب في الشيء، وليس كذلك إلا في أوهامنا! وأما على دين الفلاسفة والمعتزلة الغلاة فالجواب نعم لم يكن قادرا على ذلك، لأن نشأة الآثار عن الطبائع أمر واجب ضروري لا يتخلف، ولا يخلق شيء في العالم إلا بها! فلا أمر ولا تأثير لشيء خارج عنها! وأما أهل السنة فيقولون إن السؤال فاسد أصلا، لأن الله تعالى وإن كان قد رتب خروج النبات من الأرض سببيا على نزول الماء من السماء، وجعل في الأشياء طبائع تفضي إلى ذلك، إلا أنه ما من طبع من تلك الطبائع نفسها إلا ويكون عمله في كل واقعة معينة يعمل فيها ويظهر أثره، تابعا لمشيئة الله المباشرة وأمره المباشر بالضرورة، كما في قوله جل شأنه ((إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [النحل : 40]!

فإذا قضى سبحانه أن يعطل طبعا من الطبائع لم يكن بذلك دخيلا على "نظام العالم" سبحانه، وإنما هو أمر غير الأمر وتدبير غير التدبير، وأسباب غير الأسباب، أو تعطيل للأسباب، بصرف النظر عن عادتنا وخبرتنا على أي شيء جرت من جميع ذلك! قال تعالى: ((قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)) [الأنبياء : 69] وفيه ما يدل على أن للطبائع أسبابا غيبية ترجع إلى أوامر الله تعالى وكلامه، فما طبع الإحراق فيها إلا ثمرة أمر الله النازل للملائكة الموكلين بها أن يجروها وما يتعلق بها من الأسباب على ما ينشأ عنه ذلك التأثير في كل مرة تشتعل في شيء قد جُعل من طبعه قابلية الاحتراق! فإن شاء أن يعطل ذلك الطبع أنزل عليهم أمرا إلهيا بأن يصرفوها تصريفا تنتفي معه أسباب قيامه بها ولا إشكال! فإما أن يتعطل طبع الإحراق فيها بأمر إلهي، أو يتعطل طبع الاحتراق فيما أراد الله منعه من أن يحترق بها بالأمر الإلهي، وإما أن يتعطل الإحراق والاحتراق جميعا، وما ذاك إلا بانقطاع الأسباب الغيبية التي تبقي ذلك الطبع ملازما للنار ولما تأكله.

فسواء الحوادث الجارية على العادة والحوادث الخارقة للعادة، فكل ذلك عند أهل السنة مرجعه إلى أسباب غيبية وملائكة موكلة مأمورة، على نحو لا يتصور العقل البشري كيف يجري وكيف تجتمع الشروط وتنتفي الموانع في

أعمال ما لا يحصيه إلا الله تعالى من الملائكة حتى يقع حادث ما، على أثر جملة من الحوادث (التي يكون منها ما يقع تحت العادة ومنها ما هو غيب محض) لا يحصيها إلا الله، تلك الملائكة التي أقسم الله بها في قوله: ((فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)) [النازعات : 5]! أما الاعتقاد بأن الطبع شيء مركب استقلالا عن الأسباب الغيبية وعن أعمال الملائكة المأمورة من الله عز وجل، وأن حوادث العالم إنما تجري على أثر الطبائع وحدها، أي أنها يتم تعليلها بجملة الطبائع التي أفضت إليها، فهذا من طريقة الفلاسفة الطبيعيين وليس من طريقة المسلمين!

ثم يقول الدكتور:

> إن إعداد كوكب الأرض ليكون مسرحا للحياة استغرق عشرة بلايين سنة، كما أن وجود كل منا في الدنيا احتاج إلى أن يتزوج والدانا وأن نمكث في الرحم تسعة أشهر، وهذه الأمور وغيرها والتي تخضع لقوانين الطبيعة قد تمت في الحقيقة بكلمة "كن". ليس معنى ذلك أن دور الإله يقف عند الخلق والإمداد بالقوى ووضع القوانين التي تنظم موجودات الكون ثم يترك المنظومة تسير، مثلما نملأ الساعة الزمبركية وندعها لتعمل، كما اعتقد أرسطو واعتقد الربوبيون Deists من بعده، وكما اعتقد كفار مكة أيام بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم ((ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله)) (لقمان) إن عقيدة المتدينين أن الإله قيوم على الكون، أي إنه يقوم بإمداده بالإيجاد وبتفعيل قوانين الطبيعة في كل لحظة ولا يغفل عنه ((الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم)) (البقرة).
>
> إن القول بأن الله عز وجل يعمل من خلال قوى وقوانين الطبيعة لا يمنع أن تكون هناك مواقف يتدخل فيها الإله تدخلا مباشرا، مثل بداية البدايات (بدايات الكون و..) ونحن عندما نقول بذلك لا ننطلق من "جهل وكسل وقصور معرفي"، بل ننطلق من "علم"، فالعلم قد أخبرنا [34] مثلا بأن المادة لا تستحدث، لكننا نجد عند دراسة بداية بدايات الكون أن المادة قد نشأت من عدم، ذلك الأمر الذي يخبرنا العلم باستحالته، عند ذلك لا مفر من الإقرار بالتدخل الإلهي المباشر لإيجاد المفردة التي بدأ بها الانفجار الكوني الأعظم الذي أنشأ الكون. ولا شك أن المعجزات الإلهية من المواقف التي يتدخل فيها المولى عز وجل تدخلا مباشرا يقطع فيه منظومة الأسباب وربما يعمل عكسها، وذلك إظهارا لقدرة الله عز وجل وتصديقا لرسله.

قلت: قوله "إن إعداد كوكب الأرض ليكون مسرحا للحياة استغرق عشرة بلايين سنة، كما أن وجود كل منا في الدنيا احتاج إلى أن يتزوج والدانا وأن نمكث في الرحم تسعة أشهر" لا يفهم منه إلا الاضطرار الطبيعي، أي لم يكن بوسع الباري إلا أن يجري الحوادث على الأرض عبر عشرة بلايين سنة كاملة، حتى تنتهي أخيرا إلى حال تسمح معها بظهور الحياة عليها! على ميتافزيقا التطور الكوزمولوجي والبيولوجي التي تعتنقها يا دكتور، لم يكن من الممكن أصلا أن تقل الفترة الفاصلة بين بداية خلق الأرض وبداية نشأة الحياة عليها حتى تبلغ أن تكون كسرا ضئيلا من تلك المدة! فأنت ملزم – بمقتضى اعتناقك تلك النظريات – بأن تقول بامتناع أن تكون الحياة قد نشأت على الأرض في أقل من عشرة آلاف سنة مثلا، بل ولا في عشرة ملايين سنة! [35]

يتعين ههنا أن نسأل الدكتور فنقول: هل كان بوسع الباري أن يخلق العالم والحياة عليه في أقل من مليون سنة (مثلا)، تحت هذا النظام الطبيعي القائم نفسه، وبحيث تكون على نفس هذا النحو والتفصيل الذي هي عليه الآن؟ إن أجبت بنعم، أسقطت الحتمية النيوتونية فضلا عن اللابلاسية، وجوزت ما تمنعه طريقة التنظير التفسيري الطبيعي في ذلك الغيب المحض، التي انتهت بالطبيعيين إلى القول بتلك الفترة الزمانية فاحشة الطول في قصة النشأة عندهم، وإذن لزمك الخروج من دين الأكاديمية الطبيعية الغربية والتخلي عن مبدأ التنظير الطبيعي في تلك الغيبيات جملة واحدة! وإن أجبت بلا، نقضت كمال القدرة والعلم في حق ربك إذ تضيق عليه دائرة الخيار فيما يخلق، وإذن تخرج من ملة الإسلام قولا واحدا!

ووجه الإلزام الأول في أن قصة النشأة الكوزمولوجية والبيولوجية تقوم قياما كاملا على مبدأ الاستمرارية والاطراد المطلق في الماضي لنخبة منتقاة من قوانين الطبيعة الجارية حاليا! فما عممه الفيزيائيون على جميع أنحاء الكون (جهات المكان) من تلك النظاميات السببية الواقعة تحت تجربتهم البشرية، طرده الكوزمولوجيون وأطلقوه على جميع جهات الزمان، فجعلوا للكون أصلا طبيعيا قديما لو قدر أن كان جاريا على قوانين أخرى بخلاف ما زعموا، ما نشأت الحياة على الأرض أصلا، وهو أساس مبدأ الضبط الدقيق Fine Tuning والمبدأ الأنثروبي Anthropic Principle عند الكوزمولوجيين، الذين فرح بهما الدكتور وغيره واعتبروهما دليلا دامغا على وجود الصانع! لا يهم عند اللاهوتيين (والدكتور تبع لهم) أن يكون مقتضى ذلك ألا يكون بوسع ذلك الصانع أن يخلق الحياة على هذا النحو الذي هي عليه إلا تحت تلك القوانين، المهم أن يُتوصل إلى إثبات وجوده بأيما طريق كان، والله المستعان! والقصد أن الذي يثبت أسطورة النشأة الطبيعية على ما هي

عليه عند الكوزمولوجيين والبيولوجيين، ويقبل طريقتهم في التوصل إليها وفي إثبات تفاصيلها الغيبية، هذا يلزمه القول بالسببية الطبيعية المغلقة التي لا متسع فيها لحوادث تخالف عادتنا منها، إلا "بالتدخل" في نظام الطبيعية وتعطيله!

ولا عبرة بقول الدكتور "ليس معنى ذلك أن دور الإله يقف عند الخلق والإمداد بالقوى ووضع القوانين التي تنظم موجودات الكون ثم يترك المنظومة تسير، مثلما نملأ الساعة الزمبركية وندعها لتعمل، كما اعتقد أرسطو واعتقد الربوبيون Deists من بعده"، بل العبرة بمقتضى كلامه الآخر الذي أصل به لمذهبه، فالإله الذي يثبته الدكتور هو – في النهاية - ذاك الإله الذي "خلق وأمد بالقوى ووضع القوانين التي تنظم موجودات الكون، ثم ترك المنظومة لتسير بنظامها الذاتي، إلا في تلك المواضع التي "تحتاج" إلى "التدخل الإلهي"، كبداية البدايات وإحداث الخوارق والمعجزات! فهو نفسه إله الفلاسفة الطبيعيين بيد أنه "يتدخل"! فإن قال: ولكني قلت: "إن عقيدة المتدينين أن الإله قيوم على الكون، أي إنه يقوم بإمداده بالإيجاد وبتفعيل قوانين الطبيعة في كل لحظة ولا يغفل عنه ((الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم)) " قيل له: أولا أي "متدينين" يا دكتور؟ نحن نثبت عقيدة المسلمين لا عقيدة "المتدينين"! الدكتور يريد – على عادة الفلاسفة المنتمين للإسلام ولغيره من الملل الكتابية – أن يجمع أهل الملل المثبتة للصانع كلهم في خندق واحد ضد الدهرية الملحدين، كما صرح بذلك في غير مناسبة، وهذا محض الإرجاء وفيه دمار الدين نفسه، إذ يقتضي حملهم جميعا على إهمال مواطن النزاع فيما بينهم في صفة الإله الذي يعبدونه (تلك المواطن التي فيها نزل القرآن وفيها أرسل الله الرسل أصلا!)، والاقتصار على إثبات ما هو متفق عليه بينهم مما خالفهم فيه الخصم الدهري، فيكون هو "الإيمان" الذي ينجو من ينتهي إليه، وتنتهي القضية عند ذلك! أي يصبح المبدأ: لا يهم ما صفة الصانع الذي تثبته عند مخاصمة الملحد، المهم أن تثبته، فإن اتفق معك على إثباته أخيرا، فهو إذن المؤمن الصادق في طلب الحق، وهنيئا له النجاة! وحسبك بكتاب كامل ألفه الدكتور في الاحتفاء "بإيمان" أنتوني فلو واعترافه بالحق المبين وتوصله إلى برد اليقين .. إلخ، مع أن الرجل ما هلك إلا على دين الربوبيين الغلاة المعادين أشد العداء للإسلام ولغيره من الملل الكتابية، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! فإن توصل معك الخصم الدهري بعد طول مناظرة إلى مثل ذاك "الإيمان"، فهنيئا لك وأحسنت الصنع، وإذن فأسس معه صفات الصانع إن شئت على الميتافزيقا التي استعملتها في إقناعه بوجوده ابتداء، ولا سبيل أمامك إلا هذا، لأنها إذن تصبح أساس العقل والدين عندك وعنده وعند جميع أهل الملل! وإذن يصبح طريق محاججة الملاحدة هو طريق اختراع

دين ربوبي جديد، أو على أحسن الأحوال دين اتحادي طبيعي يقبله الدهري وغيره ممن وافقوه على نظرياته الميتافزيقية كيفما اتفق لها أن تكون!

فيا دكتور، ليس المتدينون (هكذا) من أهل الملل سواء في صفة الباري الذي يثبتونه، فلا تكلمنا عن "عقيدة المتدينين"!

ثانيا: قولك "يقوم بإمداده بالإيجاد وتفعيل قوانين الطبيعة في كل لحظة" هذا قول مجمل للغاية كما لا يخفى، وعند التحقيق لا نجد تحته إلا اعتقاد الربوبيين! إذ يتعين أن نسألك: ما مرادك بالإمداد بالإيجاد؟؟ وما مرادك بتفعيل القوانين في كل لحظة؟ فأما على اعتقاد أهل السنة فقد تقدم أنه سبحانه قد أوكل ملائكة بأمر العالم، يديرونه بأقضيته وتدابيره جل شأنه فلا يحدث فيه حادث إلا بأمر وأسباب غيبية لا يعلمها إلا الله، وهو ما لو قطعه الرب بكليته لزالت السماوات والأرض من فورهما. فما معنى الإمداد بالإيجاد وتفعيل القوانين في كل لحظة عندك أنت؟ ليس هو ذا ما قررناه، فأنت لا تثبت أسبابا فيما سوى السبب الطبيعي (نوعا)، والأمر والتكوين عندك خارجان عن معاني الزمان والمكان بالأساس، لما قررته من مسألة عدم جريان معاني الزمان والمكان على ما سميته "بعالم الغيب"! فعلى عقيدتك ليس هناك "لحظات" أصلا في فعل الله بالغيب، وإنما هو فعل واحد في آن واحد لا غير!

هذا إن صح أن يسمى فعلا أصلا، وإلا فقد تناولنا في موضع لاحق من هذا الكتاب بشيء من التوسع بدعة الإله اللازماني عند ويليام لين كريغ الأمريكي، التي هي مقتضى قوله بميتافزيقا النسبية العامة وكوزمولوجيا التمدد في حقيقة كل من الزمان والمكان، وبينا أن نفي جريان المعاني الزمانية على موجود ما يقتضي عدمه، كما هو مقتضى نفي المعاني المكانية سواء بسواء، وأن نفي المعاني الزمانية عن أي حادث، هو تناقض فج تأباه البداهة والفطرة السوية، إذ لا يقال في شيء إنه موجود إلا أريد به أنه موجود الآن حاليا، في هذه اللحظة التي نتكلم فيها! ولا يقال في شيء إنه قديم أو "كان موجودا من الأزل"، إلا ويراد بمقتضى البداهة اللغوية أنه ما كان من لحظة ماضية إلا ووجوده سابق عليها وجوبا! ولا يقال في شيء إنه حدث، سواء كان قولا أو فعلا أو إرادة أو مشيئة أو غير ذلك، إلا وجب أن يكون مسبوقا بزمان لم يكن له وجود فيه! فإذا انتفت المعاني الزمانية كلها، ولم يكن ثمة ماض ولا حاضر ولا مستقبل، فلا وجود إذن ولا حدوث ولا فعل ولا أمر تكوين ولا شيء على الإطلاق!

قوله: "إن القول بأن الله عز وجل يعمل من خلال قوى وقوانين الطبيعة لا يمنع أن تكون هناك مواقف يتدخل فيها الإله تدخلا مباشرا، مثل بداية

البدايات (بدايات الكون و..) " قلت نعم القول بأن الصانع لا يعمل في العالم إلا "من خلال قوى وقوانين الطبيعة" لا يمنع من كونه قد بدأ أول حادث من حوادث النشأة الكوزمولوجية بصورة لا تخضع لتلك القوانين، بل إن القول بابتداء العالم يوجبه ويقتضيه (عند العقلاء كافة خلافا للكوزمولوجيين الطبيعيين الذين يقتضي مذهبهم جعل ابتداء العالم تغيرا لحاله عن حال سابقة بأسباب طبيعية، وبه يقول أكثرهم)، ولكن لا أدري كيف لم ينتبه الدكتور إلى أن هذا الاعتقاد بحذافيره هو قول من يثبتون إله الربوبيين الذي لم يزد على أن فعل هذا الذي يقوله الدكتور! بدأ خلق العالم بمادة ركب فيها بذرة القوانين والقوى كلها بطريقة فائقة لتصوراتنا الطبيعية، ثم تركها لينمو منها العالم ويترعرع وتجري جميع حوادثه عليها! فإن قال: ولكني أؤمن بأن ربي أرسل الرسل وأنزل الكتب وأظهر على أيدي الأنبياء المعجزات والخوارق أشكالا وألوانا، فكيف يقال إنني على دين الربوبيين؟ قلنا له: لم نقل إنك على دين الربوبيين، ولكن قلنا إن لديك من تعطيل رب العالمين عن صفاته وأفعاله ما يقتضي تلبسك بجملة كبيرة من عقائدهم، وهو نابع من نفس المنبع الذي نبعت منه ربوبيتهم! فكأن الرب الذي تثبته هو الصانع الربوبي نفسه، ولكن مع زيادة كونه "يتدخل" أحيانا! وهل لكلمة "يتدخل" معنى إلا أن يكون الأصل عنده أنه تارك أمر العالم ليجري على السنن والقوانين وحده استقلالا، إلا في تلك الوقائع والمواطن التي يظهر فيها عمله على سبيل الاستثناء؟؟ سبحان الله!

قوله: "فالعلم قد أخبرنا مثلا بأن المادة لا تستحدث، لكننا نجد عند دراسة بداية بدايات الكون أن المادة قد نشأت من عدم، ذلك الأمر الذي يخبرنا العلم باستحالته، عند ذلك لا مفر من الإقرار بالتدخل الإلهي المباشر لإيجاد المفردة التي بدأ بها الانفجار الكوني الأعظم الذي أنشأ الكون" قلت: هذا الكلام تقرير صارخ للطبيعية المنهجية، ومثال جلي لما يترتب على اعتماد اللاهوتيين والمتكلمين لها من تلبس "بإله الفجوات"، أي بجعل القاعدة المعرفية في الإلهيات هي وصف الصانع بالصفات التي تسمح بها ميتافزيقا الطبيعيين في تصورهم لنظام العالم وأصله ونشأته، وقصر أفعاله في العالم على تلك المواطن التي لا يغطيها الطبيعيون بنظرياتهم الغيبية! وضع الفيزيائيون نظرية كونية فاحشة مفادها أن المادة لا تستحدث أبدا، فصار المتعين على اللاهوتي أو المتكلم ألا يثبت له إحداثا للمادة أبدا! ليتفنن إن شاء في تصور عمل آخر يكون له بالغيب إلا أن يكون محدثا للمادة في هذا العالم! ثم وضعوا نظرية أخرى مفادها أن المادة كما نعرفها كانت لها بداية وحدوث من "العدم الفيزيائي" في الماضي السحيق، فأصبح مقبولا من اللاهوتي أو المتكلم أن يثبت له "تدخلا" في ذلك الموطن الذي حوِّل فيه ذلك العدم الفيزيائي إلى المادة، وأما فيما سوى ذلك فيبقى الأمر على ما

هو عليه! لا يزال اللاهوتيون الطبيعيون والجهمية الطبيعيون يلتزمون ذلك المنهج المخزي الذي يصيرهم أذنابا ومخانيث لفلاسفة الأكاديمية الطبيعية المعاصرة، يظنون أنه يرفعهم إلى مصاف علماء الطبيعة الكبار، ويدخلهم في مجددي الدين في هذا الزمان، مع أنه لا يورثهم في الحقيقة إلا التفسيه من فلاسفة الطبيعيات والنقمة والتبديع من علماء الدين، والله المستعان لا رب سواه! فإذا قيل لهم أنتم تحشرون إلهكم في فجوات نظرياتنا، قالوا: بل أنتم من تصرون على حشر التفسيرات الطبيعية في تلك المواضع الغيبية التي لا يناسبها التفسير الطبيعي! فبأي شيء حكموا بأنها لا يناسبها التفسير الطبيعي، في مقابل بقية المواطن الغيبية أيضا التي قبلوا فيها التفسير الطبيعي وارتضوه من أصحابه؟ لا شيء إلا ما قد يعانيه الطبيعيون الآن من تعذر وتأخر في ابتداع نظرية جديدة تناسب ما هو مستقر عندهم من نظريات أخرى في تلك البابة وتتناسق معه، لتغطي تلك المسألة بعينها كما سلكوه في غيرها من المسائل الغيبية المحضة!

والعجيب أن الدكتور يأتي في نهاية حلقة من حلقات برنامجه عن "المعلوماتية" على يوتيوب فيذكر قول الله تعالى: ((إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)) [يس : 82]، يتأوله تبعا لزعمه بأن "المعلومات" هي المكون الأصلي للعالم ولكل موجود فيه، على أساس أن خلق الله تعالى وأوامره كلها كلام، والكلام "معلومات" (هكذا !!)، قال: "الخلق تم بالكلمة، بالمعلومة"، فهل الكلمة هي الخلق الآني المباشر في لازمان ولا مكان في "عالم الغيب"، أم هي المعلومة المخلوقة غير المادية التي يزعم جريانها في العالم على ترتيب تطويري كجريان البرنامج الحاسوبي على جهاز الكمبيوتر؟؟ تخليط وتخبيط في الغيبيات بكلام لا يزن صاحبه تبعاته ومقتضياته ولا يتصورها، وإلى الله المشتكى!

وأعجب من ذلك أنك تراه هو نفسه في الحلقة التالية يستنكر على الإعجازيين كلامهم في العلاقة بين سرعة نزول الملائكة بالأمر الإلهي وسرعة الضوء، يطبقون ما سماه "بمفاهيم "الفيزياء" على ما سماه "بالمفاهيم الدينية"، يقول إنهم بذلك متلبسون بالوضعية المنطقية! فبأي شيء تلبست أنت في مسألة كلمة التكوين هذه يا دكتور، إن كنت من الصادقين؟؟ سمها بالطبيعية اللامادية أو الطبيعية الإلهية أو الطبيعية المعلوماتية أو ما شئت من شقشقات الأسماء، هي على أي حال فلسفة وضعية وميتافزيقا طبيعية، تخضع كافة حوادث العالم (التي هي عندك "معلومات") لقوانين طبيعية، تلك القوانين التي تابعت عليها الألماني "فرنر غيت" Werner Gitt، فسلكت فيها مسلك من أنكرت عليهم من اخترام الغيبيات المطلقة بنوع الأقيسة الطبيعية التي هي عندك أقوى ما تحصل به

المعرفة على الإطلاق! ليس من شرط الطبيعيين أن يقولوا بالمادة والطاقة حتى يكونوا طبيعيين يا دكتور، وحتى يجري مذهبهم على أصول الملة الطبيعية Naturalistic Doctrine، فتنبه! وهل كانت طبيعية طاليس نفسه، أبي الأكاديمية الطبيعية اليونانية، تقسم الموجودات المحسوسة إلى مادة وطاقة؟؟

في الفصل الرابع من كتاب "خرافة الإلحاد"، يتكلف الدكتور أن يحول اعتقاده التطويري (التطور الموجه) إلى اعتقاد "علمي" مؤسس على كوزمولوجيا الطبيعيين، فيلجأ إلى إبهار القراء بالجمع بين الفوضوية الوجودية المزعومة Ontological Chance في نشأة الكون، وبين حقيقة أنه على ما نراه الآن نظام محكم منضبط، يلائم حياة الإنسان أحسن الملاءمة! هل من شيء أعجب من أن يبدأ الكون بالفوضى المحضة والانفجار والتناثر والتبعثر، ويكون الأصل فيه أن يمضي إلى المزيد من الفوضى النظامية التي يقال لها "إنتروبي"، ومع ذلك، يصبح الآن على ما نرى من الدقة والانضباط وملائمة حياة الإنسان؟! الله أكبر! هذه معجزة عظمى، بل كبرى المعجزات كافة، وهي دليل دامغ على أن الله هو الذي "سير" تلك الفوضى المحضة على ذلك المسار المخصوص الذي جعل منها شيئا ذا بال!

قال الدكتور في ص. 108، بعدما سرد خطوات ومراحل ميثولوجيا النشأة الانفجارية المزعومة:

> مما سبق نخرج بالاستنتاجات التالية: أولا: بدأت نشأة الكون بخمس ظواهر خارقة للقوانين الفيزيائية المعروفة الآن [36]. ثانيا: سار الكون من حال اللاانتظام المطلق Absolute Chaos وما يصاحبها من فقدان وتوزيع سيء للطاقة، إلى حالة الانتظام والاستغلال الأفضل للطاقة (بناء المادة بدلا من فقدان الطاقة كطاقة حرارية)، ومن البنية الأبسط قليلة الفائدة إلى البنية الأعقد المناسبة لغاية لاحقة، ومن المادة ذات الوظيفة الأقل أداء وكفاءة، إلى وظيفة أفضل وأداء وكفاءة. ولما كان القانون الثاني للديناميكا الحرارية يحدد أن اللانتظام في منظومة ما System يتجه إلى المزيد من التبعثر والفوضى وفقدان الطاقة ما لم ينظمه مؤثر خارجي، فإن الاتجاه إلى الأكثر انتظاما والأعقد بنية والأكفأ أداء ووظيفة يحتاج بشكل حتمي إلى تدخل ذكي فعال من خارج المنظومة، لا دور للمصادفة فيه، إذ إن المصادفة غير مرسومة المسار تطرح ملايين الاحتمالات التي لا يمكن التغلب على ما فيها من تبعثر وفوضى. من ذلك نجزم أن المصمم الذكي (الله عز وجل) قد اختار آلية التطور الموجه، ليخلق هذا الوجود.

قلت: من أعجب الأشياء قول الدكتور "خمسة معالم خارقة لا تخضع للقوانين الفيزيائية السائدة الآن، ولا يمكن للعلم وحده أن يفسرها"! فكيف يا دكتور، قيل بتلك "المعالم الخمسة" أصلا إن لم يكن بالتفسير الطبيعي

المطروق في قضايا متمحضة في التغييب؟! وإذا كان ذلك كذلك، فما الذي يمنع من زعموا تلك المزاعم أن يسلكوا نفس الطريق لادعاء تفسيرات لها من مثلها؟؟ سبحان الله! إعلم أصلحك الله أن الخرق المزعوم للقوانين الفيزيائية المعلومة في نظريات النشأة عند الكوزمولوجيين ليس خرقا على الحقيقة، وإنما هو طرد للقياس في جهة الماضي، فرضوه فرضا، ثم جوزوا أن يكون فيه تفسير لنشأة جملة من النظم الطبيعية الحالية نفسها! وإلا فمن الواضح بداهة وابتداء أنك لن تفتح باب طرد التمدد والتباعد المزعوم بين الأجرام السماوية في الماضي تصل به إلى بداية ما، تجعل تلك البداية جرما واحدا أو شيئا ما قد تفكك وتبعثر وتمددت أشلاؤه وتناثرت حتى أصبح العالم من أثر ذلك على ما نراه عليه، لن تسلك ذلك المسلك إلا وأنت تعلم من الأساس أنك تفترض بذلك القياس الطبيعي الفاحش، مبعا نظريا وابتداء مزعوما لعامة النظم الطبيعية المستقرة في عادتنا حاليا! ومن ثم فقد انفتح الباب بذلك – ضرورة - للوهم والهذيان في تلك النقاط الخمس التي ذكرتها يا دكتور جميعا!

فمن ذا الذي قال – أولا - إنه وفقا لقوانين الفيزياء يستحيل وجود المفردة المزعومة على ذلك الصغر المزعوم؟ ما هي الفردية Gravitational Singularity هذه أصلا يا دكتور، وهل سبق أن شهدها أحد من الفيزيائيين بعينيه؟ ليست إلا فرضا نظريا خرافيا تجوزه معادلات النسبية العامة تجويزا رياضيا، لا أكثر ولا أقل! فالزعم بأن الكون كان كله مضغوطا بكثافة عظيمة وكتلة عظيمة وحرارة بالغة في مرحلة من مراحل تاريخه، بناء لا على شيء إلا على القول بأن معادلات المجال تجيز ذلك، هو خروج بتلك المعادلات نفسها عن حدودها وعما وضعت له من الأساس، لأنه – على مذهب أهل السنة الذي حررناه في الباب السابق – لا يجوز إعمال تلك المعادلات إلا على حال ذلك القدر المحسوس المعتاد من العالم على ما هو عليه الآن، وأما ما وراء ذلك فتخرص ورجم بالغيب!

بل وعلى مذهب الطبيعيين أنفسهم يعد ذلك تجاوزا كذلك، إذ معلوم لدى الفيزيائيين أن النسبية العامة لا تقيم أي اعتبار للنشاط الجسيمي الكمومي تحت تأثير الكثافات الفاحشة ودرجات الحرارة الشديدة، فكيف تستعمل معادلاتها في تصور أحوال يفترض فيها الوصول إلى ما لا يمكن تصوره من درجات الكثافة والحرارة، التي لا يُعلم لها نظير تقاس عليه في عادة البشر؟! لهذا لا يزال الفيزيائيون يضربون رؤوسهم ضربا طلبا لاختراع طريق للجمع بين معادلات النسبية وميكانيكا الكم، لأن الهوة بينهما غائرة جدا، والانتقال من العالم الدقيق Microcosm إلى عالم الأجرام الضخمة Macrocosm هو بالفعل انتقال من تصور نظري قياسي للمادة إلى تصور

آخر مغاير تماما! ثم إن على طريقتهم في الاستدلال الكوزمولوجي (التي لنا عليها من النقد ما أطلنا النفس في بيانه)، لو صح وجود تلك الفردية الكبرى المزعومة، للزم ظهور أثر تلك الحرارة المهولة في الخلفية الإشعاعية التي زعموا أنها تمثل تاريخ الانبعاث الإشعاعي في الكون كله! ولا شك أن من الكوزمولوجيين من هو منخرط الآن في محاولة تصيد ما يمكن تأويله على أنه هو تلك الآثار، ولن يمنعه مانع من أن يتأول ما يشاء كما يشاء، كما تأول القوم خريطة الانبعاث الإشعاعي هذه نفسها من قبل بما يناسب نظرية الانفجار!

فالأمر الذي يبدو أنك لا تعلمه هو أن كثيرا من الفيزيائيين اليوم لا يقولون بالفردية كبداية للتمدد المزعوم، بل إن القول بالفردية الأولى هذه قد بات زعما جدليا للغاية Highly controversial، بالنظر إلى قولهم الآن بأن الانفجار المزعوم قد بدأ بالتضخم الآني Inflation الذي يفترض أنه وقع في 10^{-33} من الثانية! فهم الآن تذهب أوهامهم ذات اليمين وذات الشمال في تصور ما كان قبل ذلك التضخم المزعوم أو كيف بدأ! والذين يثبتونها مختلفون هل هي بداية البدايات حقا، أم أنها مجرد حادث طبيعي لم يزل يتكرر من الأزل وإلى الأبد؟ فمنهم من يعتقد أن الكون كان ولم يزل يتردد بين الانبعاث من فردية ما ثم التوسع حتى الزوال بصورة دورية / Cyclical Oscillating Model، فتراه يخترع لبعض المشاهدات الحالية تأويلات خرافية يراها أرجح من التأويلات الخرافية السائدة و"أحسن" في التناسق الرياضي والجيومتري. فعلى سبيل المثال، اكتشف الفلكيون بعض النقاط في الخلفية الإشعاعية CMB يحصل فيها نوع من الاستقطاب الإشعاعي Polarization سموها B-Modes، تبدو وكأن الضوء فيها يتلاعب بطريقة عجيبة، فنشر البريطاني "روجر بينروز" مؤخرا (وهو الكوزمولوجي الأشهر حاليا بعد الهالك ستيفن هوكينغ)، أنموذجا رياضيا جديدا من نماذج الكون المتجدد دوريا من الأزل، سماه Conformal Cyclic Model زعم فيه أن تلك النقاط لا تفسير لها أفضل من القول بأنها بقايا من حطام ثقوب سوداء قديمة كانت منتشرة في كون قديم قبل كوننا هذا، فلما حصل الانتفاخ لكوننا هذا، وأعيد إنتاج الزمكان المزعوم، حصل على أثر ذلك نوع من التراكب أو التداخل الزمكاني أدى إلى رصدنا تلك الإشارات على ذلك النحو العجيب! وذهب آخرون إلى تأويلها على أنها الأثر المرصود لخرافة أخرى تسمى بالتموجات الجاذبية Gravitational Waves الناشئة عن أجرام عملاقة متناثرة في أنحاء كوننا هذا نفسه! وعلى أي حال فالرجل لم يعجبه ذلك التأويل، لأنه اعتبر أن الإشارات تبدو أقدم تاريخيا (بالنظر إلى تأويلاتهم التي بها قدروا أعمار النجوم البعيدة) مما يتوقع أن تكون عليه لو صح ما يقولون! فهو الآن منخرط انخراطا تاما في محاولة استخراج المزيد والمزيد

من المشاهدات الفلكية التي يمكنه أن يتأولها بما يناسب تلك الأسطورة الجديدة، على قياس يبدو متناسقا مع جملة الأقيسة التي يتفق عليها الكوزمولوجيين حاليا في بنائهم أسطورة الانفجار! وله من التلامذة والأقران من يوافقه ويتحمس لفكرته، وهم ماضون في ازدياد!

فالسؤال الآن: ماذا تراك فاعلا غدا يا دكتور عمرو، لو قدر أن بلغ ذلك الأنموذج أن أصبح هو الكوزمولوجيا السائدة في تصور تاريخ الكون ونشأته، أو على الأقل بلغ أن أصبح له من الأنصار ما يجعله هو أقوى الفروض المطروحة لتفسير الانفجار طبيعيا؟ وما نوع الحجة التي يمكن أن تقدمها أنت، على شروط الكونيين الطبيعيين المعاصرين في الإثبات والنفي التي أخضعت لها رقبتك، لإبطال نموذجه والبقاء على أنموذج الانفجار الكبير الأوحد (الذي يجب أن تعترف بأنه قد بأد انفراده المزعوم، وانفراد كوننا في الوجود زمانا ومكانا، يفقد الأنصار يوما بعد يوم)؟؟ غايتك أن تنظر في بيانات المراصد الحديثة كما نظر هو وغيره، ثم تقول له: "لا يا بروفيسور، أنا عندي تأويل "أحسن" لهذه المشاهدة أو تلك، يمكن أن يكون هو الحق المطابق للواقع، وأنا أميل إليه، فتكرم علي بالتأمل فيه!" فتخترع له خرافة تأويلية تقابل بها خرافته، ثم تغرق أنت وهو في طبقات من الهذيان الميتافزيقي بأقيسة وفرضيات ما أنزل الله بها من سلطان، وأنتما تعلمان علم اليقين بأن ذلك كله وهم في وهم وتخمين في تخمين، لا حجة لأحد فيه على أحد البتة! وهو على أي حال لن يبالي أي النماذج يختار اليوم وأيها يميل إليه غدا، يغيره – على عادتهم – كما يخلع أحدهم نعليه! فالرجل على أي حال لا يقول بغيب ولا برب صانع ولا بشيء من ذلك، والمسألة عنده ضعيفة للغاية من الناحية الإبتسمولوجية، قوامها التخمين المحض Speculative Hypothesizing، وهو ضعف لا يبالي به ولا يراه يضره في دينه! فما دام جاريا على أصول ملته الطبيعية الدهرية، يقبلها بلوازمها قبولا تاما، فلن يبالي إلى أي فرض جديد يميل الاتفاق الأكاديمي في أصل الكون، إن قدر له اتفاق بعد اليوم! أما أنت فعندك صانع غيبي تريد أن تحشره في مكان ما من منظومتهم الاعتقادية الغيبية، تؤسس دليل إثبات وجوده على تلك المنظومة نفسها! فلا شك أن القول بكون وحيد لم يكن قبله شيء البتة (عدم مطلق على حد عبارتك) يبدو أنسب لذلك المطلب عندك من القول بكون أزلي قديم لا تزيد نقطة بدايته المزعومة على أن تكون بداية لدورة انقلابية من دورات لا أول لها، لم تزل تتكرر كل بليون بليون بليون بليون بليون ... إلخ سنة! واضرب من بلايين البلايين ما شئت، فالأزل Eternity ساحة مفتوحة لا حدود لها! فالقول ببداية مطلقة Absolute Beginning في التصور الكوزمولوجي الانفجاري المختار، لابد أن يكون هو خيارك الأثير، من بين عشرات (بل لا أبالغ إن قلت مئات) النماذج المتنافسة

في تلك المسألة، ولكن بأي شيء ترجحه على غيره إن كنت فاعلا؟؟ فإن قلت لبينروز إن أنموذجك باطل لا يصح لأنه يقتضي قدم العالم، وهذا يقتضي التسلسل في الأسباب، وهو محال عقلا، فلن يقبل منك، ولن يرى في ذلك أي حجة، لأنه أصلا رجل دهري لا يرى إشكالا في مبدأ التسلسل في الأسباب الطبيعية الذي هو ركن من أركان ملته على أي حال! ثم إنك أنت من أخضعت نفسك لشروط ملته في الإثبات والنفي (نظريته المعرفية)، وليس منها هذا الصنف من الحجج أصلا، ولن تراه في شيء من منشوراتهم الأكاديمية المحكمة في مجال الكوزمولوجيا في يوم من الأيام! فمع أنه دهري ملحد، إلا أنك ستجده صاحب نظام اعتقادي متناسق مع بعضه البعض Internally Consistent، لا يتناقض داخليا بأن تراه يقيم بعض الدعاوى الميتافزيقية في دينه على إبستمولوجيا معينة (مصادر تلقي معينة)، ويقيم غيرها على غير تلك المصادر، مع كون المنظومتين المعرفيتين تتناقضان في أمر الغيب تناقضا جذريا، أي أنه لا يصح للعاقل إلا أن يقول بإحداهما دون الأخرى، لا بهما معا!

والمشكلة أيها القارئ الكريم، أن الدكتور لا يشعر أصلا بأنه متناقض منهجيا ومعرفيا، كما لم يشعر به كثير من أهل الكلام قديمهم وحديثهم! ولأنه يرى الكوزمولوجيا هي صاحبة الكلمة العليا معرفيا في غيب التاريخ الكوني، فلا أحسب إلا أنه سيظل مصرا على التماس أحدث النظريات الغالبة أكاديميا عند الطبيعيين في غيب السماوات والأرض حتى يؤسس عليها برهانا للحدوث بصورة ما أو بأخرى، مهما تقلبت بالقوم أوهامهم وظنونهم، ومهما تبين له أنهم لم ولن يتفقوا في ذلك على شيء البتة، فليس القول بالفردية الصفرية المزعومة كبداية للانفجار المزعوم قولا متفقا عليه بينهم، ولا القول فيما كان قبلها محل اتفاق عند من يثبتونها، ولا قريبا من ذلك، ولو أنه تكلف ما يكفي من القراءة والبحث قبل تأليف كتابه هذا لتبين له ذلك بجلاء في مصنفات الكوزمولوجيين المعاصرين! ولكن لأنه قد اتخذ لنفسه أصلا كليا مفاده أن نظرياتهم هي العلم والحق الذي يجب أن يتأسس الاعتقاد في الله بناء عليه، فلا تعجب إذا رأيته اليوم يقول برب عشوائي فوضوي، يخلق الفوضى ليرقيها درجة بعد درجة وصولا للنظام المحكم، أو تراه يقول برب متحد مع العالم وجوديا لأنه لم يكن قبل العالم قبل، ولا بعده بعد، وليس للزمكان خارج يوجد فيه شيء، ثم لعله يفكر قليلا، أو يقع على بعض كلام اللاهوتيين النصارى الغربيين فتروق له فكرة الإله اللازماني المتزمن التي بدعها ويليام لين كريغ مثلا، ثم يظل يتردى في التعطيل حتى يصبح أحسن ما يرجى له أن ينتهي إلى إله سبينوزا الذي يثبته أينشتاين، الذي لا يزيد على أن يكون هو جملة قوانين الطبيعة نفسها، القائمة من الأزل وإلى الأبد! ولم لا؟ أليس يدعونا للنظر في نظريات الكوزمولوجيين لنخرج منها بصفات رب

العالمين؟ فلتنظر إذن حق النظر يا دكتور، ولتلتزم بلوازم ما قبلت من منهج معرفي ومن عقائد غيبية مؤسسة عليه عند أصحابه إن كنت صادقا، نسأل الله السلامة!

والقصد أن هذه الدعاوى الخمس التي ذكرها، كلها توهم في توهم وخيال في خيال على أي حال! تسبك الفرضية الخرافية في معادلات رياضية أنيقة ونماذج جيومترية جذابة على نحو لا يحده – من جهة المنطق الرياضي نفسه - حد ولا يمنعه مانع، ثم تؤسس عليها الأسطورة فوق الأسطورة، لا على أساس إلا التجويز الرياضي، ثم يأتي المفتونون من أمثال الدكتور هداه الله ليقولوا إن العلم قد أثبت واكتشف و"قال كلمته" .. إلخ، وهو ما أثبت ولا اكتشف ولا شيء من ذلك، والأمر كله وهم في وهم، والله المستعان!

فليس في تلك الدعاوى الخمسة "إعجاز" ولا خرق للنظام الطبيعي ولا شيء من ذلك! أصحاب نظرية الانفجار يستعملون نفس المسلمات الدهرية الكونية العريضة التي أخضعت العالم كله لما انتهوا إليه من القوانين، فيفترضون بالقياس الكوزمولوجي نظاما طبيعيا (قانونيا) فائقا للنظام القانوني المشاهد في العالم، بحيث تكون تفصيلات النظام المشاهد ثمرة له ونتيجة ارتقائية طبيعية لعمله الطبيعي المزعوم! وقد جعلوه نظاما مفضيا لنشأة أكوان أخرى كعالمنا هذا تنشأ كلها جريا عليه هو نفسه، وهما في وهم وخرفا في خرف، فمن الذي قال إنها لا تخضع لقوانين الفيزياء السائدة عندهم؟؟ لو كانت لا تخضع لأي نظام فيزيائي مزعوم، فكيف توصلوا هم إلى إثباتها من طريقهم أصلا يا دكتور؟؟ تلقوها بالسمع من وحي السماء مثلا؟؟ سبحان الله!

أما قوله: "ثانيا: سار الكون من حال اللاانتظام المطلق Absolute Chaos وما يصاحبها من فقدان وتوزيع سيء للطاقة، إلى حالة الانتظام والاستغلال الأفضل للطاقة (بناء المادة بدلا من فقدان الطاقة كطاقة حرارية)، ومن البنية الأبسط قليلة الفائدة إلى البنية الأعقد المناسبة لغاية لاحقة، ومن المادة ذات الوظيفة الأقل أداء وكفاءة، إلى وظيفة أفضل أداء وكفاءة." اهـ.

قلت: كذب والله وعدوان على رب العالمين عظيم! ((وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [الزمر : 67] والله لا أدري كيف يقبل مسلم عاقل يعلم قدر رب العزة سبحانه وتعالى، أن يقول كلاما كهذا الكلام القبيح في أصل وابتداء خلق العالم! نسأل الله السلامة! ما ظنك بربك يا رجل؟؟ أتحسبه رجلا مثلك يأتي على مادة لا يعلم عنها شيئا، لم يكن هو من جعلها على ما يجدها عليه، ثم يجرب بالتصميم بعد التصميم أن يفرض عليها نظاما

من صنعته، فلا يزال يترقى بذلك حتى يصل إلى الأفضل والأكمل نظاما؟؟ سبحان الله! بل والله ما يجوز أن يظن بالصانع البشري أنه إذا أقبل على مادة خام يريد أن يصنع منها شيئا ما، أنه إنما يجدها في حالة من الفوضى والعشواء واللاانتظام .. إلخ! فإنه ما من شيء في الأرض ولا في السماء إلا وهو مخلوق بقدر وميزان، وللرب فيه من الحكم ما فيه، علم بذلك من علم وجهل من جهل! كل صخرة في كل جبل، وكل غصن في كل شجرة، وكل قطعة معدن في بطن الأرض، ما من شيء إلا وهو مخلوق بقدر دقيق وفي موضعه الذي لا يصح له غيره في علم الباري جل شأنه! فإذا كان الصانع البشري لا يبدأ صنعته من الفوضى والعشواء "المحضة"، فكيف استجزت قياس ربك على ما هو أحط من الصانع البشري؟؟

يا دكتور، أسألك بالله الذي فطرك وشق سمعك وبصرك، أي الصانعين أكمل؟ صانع يبدأ صنعته بالفوضى المحضة وغياب التقدير المحكم وسوء التوزيع والعشواء والعبثية المحضة.. إلى آخر ما قلت، وبئس ما قلت، أم صانع يبدأ صنعته بحكمة وتدبير دقيق في كل حادث من حوادثه، فلا يضع الشيء في كل فعل من أفعال خلق السماوات والأرض وبنائهما، من ابتداء الخلق إلى انتهائه، إلا في محله الصحيح وبقدره الصحيح؟ سبحان الله وتعالى عما يصفون! ما نقول للطبيعيين الذين نقلت عنهم ذلك القول إلا خسئتم وخسئت أنظاركم، يا من سببتم ربكم ذلك السباب! ((الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)) [الملك : 3-4] قال تعالى: ((الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)) [الفرقان : 2] وقال جل شأنه: ((إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)) [القمر : 49] وقال تعالى: ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)) [السجدة : 7] فهل نزيدك أم يكفيك هذا يا دكتور؟؟

فإن قال معتذرا عن نفسه: "أنا لا أنسب النقص إلى رب العالمين، وإنما أخذت نظريات الكونيين المعاصرين لأجعلها حجة عليهم بأنه لابد من صانع حكيم لم يبدأ بتلك البداية التي قالوا بها إلا لينتهي منها إلى هذه النهاية المحكمة تامة الإحكام"، قيل له: ولكنك تقرر كما لا يخفى أن الخلق كان تطويرا وترقية من حال وصفتها صراحة بأنها حال لا انتظام فيها مطلقا، ولا وظيفة ولا غاية والطاقة فيها موزعة توزيعا سيئا، إلى حال أفضل وأكمل، فكيف يصح في العقل أن يقال إن الذي يبدأ خلقه بالفوضى والانحطاط وعدم الوظيفة و"سوء توزيع الطاقة"، مستحق لصفات الكمال منزه عن كل نقص؟؟ من الذي خلق الحال الأولى التي كان عليها الكون في أول الانفجار

المزعوم على اعتقادك يا دكتور؟ أليس هو الله نفسه؟؟ أم أنه جاء إليها بعدما تركه غيره في حال الفوضى والعشواء، فبدأ الخلق بالتعديل عليها وإصلاحها خطوة بعد خطوة؟؟ سبحان الله العظيم!

هذه، أيها القارئ الكريم، هي مصيبة جهمية العصر كافة، الذين قبلوا كوزمولوجيا الدهرية الطبيعيين ونظريات النشأة الارتقائية عندهم! لا يريدون أن يعترفوا بما يقتضيه ذلك الاعتقاد من تشبيه في الأفعال وحطٍّ شنيع على صفات رب العالمين وتنقص له وتعطيل لجملة عظيمة من أفعال الربوبية! يجهد أحدهم غاية الجهد حتى يتخذ من تلك النظريات طريقا لإثبات الصانع، ولا يبالي أي صفة تلزم لذلك الصانع الذي أثبته من تلك الطريق الخبيثة! المهم أن يصل لأن يظهر أمام أقرانه من الفلاسفة الأكاديميين على أن إثباته للصانع يقوم على "أساس علمي" و"عقلي"، والله المستعان! وكذلك صنع سلفهم من جهمية القرون الأولى مع اختلاف النظرية الغيبية والكونية الكلية التي أسسوا عليها دينهم! قال لهم فلاسفة الدهرية المعظمون في عصرهم: إذا كنتم لا تعرفون ربكم من طريق الحس، فما دليلكم "العلمي" على وجوده؟ إن لم تأتونا بدليل "علمي" تثبتون به وجوده كما نثبت نحن ما نثبت من الموجودات، فأنتم سفهاء وإيمانكم إيمان السفهاء! كما قال تعالى في أمثال أولئك الجحدة المستكبرين المغترين بعقولهم: ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ)) [البقرة : 13] فلما كان القوم قد نالت منهم الفتنة بأولئك الفلاسفة وبكلامهم وبالمنازل التي ينزلهم الناس إياها، واستحوذت على قلوبهم غاية الاستحواذ، نظروا في شرط العلم وما يكون علما وما لا يكون علما، وما به يحصل الإثبات والنفي الوجودي عند هؤلاء الجحدة المستكبرين المعظمين عندهم، فعملوا على اختراع "دليل علمي" يأتي على شرطهم ويخضع لنظريتهم المعرفية، لعلهم ينتزعوا منهم الشهادة بالعلم والعقل، أو على الأقل يسلموا من التهمة بالسفاهة وخفة العقل! هذه هي الفتنة الكبرى التي استدرجهم الله إليها، أوائلهم وأواخرهم على السواء.

فلما كان العلم المعظم عندهم مدرسيا (أكاديميا)، أو "لغة العصر" إن شئت، هو ميتافزيقا أرسطو الطبيعية وتصوره لمادة العالم وحقيقته، مع المنطق المشائي في تحرير الحجج والبراهين، كان لزاما أن يتكلف أحدهم بناء الدليل من طريق تلك الميتافزيقا نفسها على وجود الصانع فيما وراء ذلك العالم الذي كانت تلك صفته عندهم! ثم لما تغير العصر وصار العلم المعظم عند الفلاسفة الأكاديميين هو الميتافزيقا الكوبرنيكية اللابلاسية الأينشتاينية، مع المنطق الرياضي الجيومتري في نمذجة الواقع وتحرير البراهين، كان لزاما على نفس القلب المفتتون المنهزم صاحبه، أن يتكلف

بناء الدليل من تلك الطريق للغاية نفسها! فالأصل الكلي الذي يجمعهم جميعا، كما بينا ذلك مرارا وفي غير موضع، هو تقديم النظرية الميتافزيقية الطبيعية للعالم المعظمة في عصرهم على كل معقول ومنقول، والله المستعان!

فالمقدمة الأولى في برهان الحدوث الانفجاري كما قرره الدكتور، هي القول بانخرام القانون الطبيعي في مبدأ النشأة، وبأن الكون ترقى من الفوضى والعشواء واللاانتظام المطلق، إلى ضد ذلك. وأما المقدمة الثانية، فهي قوله: "ولما كان القانون الثاني للديناميكا الحرارية يحدد أن اللانتظام في منظومة ما System يتجه إلى المزيد من التبعثر والفوضى وفقدان الطاقة ما لم ينظمه مؤثر خارجي ..." اهـ.

قلت: وهنا يتناقض الدكتور من حيث لا يشعر. أليس قد قرر في المقدمة الأولى أن الكون قد بدأ باللانتظام المطلق Absolute Chaos؟ فالمفهوم من قوله "المطلق" هو أن الكون كان عند الغاية من الفوضى وعدم النظام وعدم الوظيفة وعدم الغائية، أليس كذلك؟! فما وجه أن يأتي هنا ليقول إنه: "يتجه إلى المزيد من التبعثر والفوضى"؟ ثم كيف يكون الخلق الإلهي ترقية وتطويرا، إذا كان الكون لا يزال ماضيا إلى مزيد من الفوضى وضياع الطاقة، حتى بعد ابتداء الخلق، الذي حصره الدكتور بمقدمته الأولى فيما عبر عنه بأنه "تدخل ذكي"؟؟ يا دكتور إن صح أن كان العالم قد خلق "بالتدخل"، فإنه يلزم من ذلك بداهة ألا يكون الله هو خالقه كله، وإنما صادف مادته على نحو ما، ووجدها تجري في مسار ما، فما زاد على أن تدخل في ذلك المسار بالتعديل هنا وهناك، لعله يوجهه في نهاية المطاف إلى وجهة يريدها! فأي شيء هذا إن لم يكن إخضاعا لرب العالمين لمكره من فوقه أو لنظام مفروض عليه سلفا، كانت غايته أن "يتدخل فيه بالتطوير" حتى يخرج منه ما يريد، سبحانه وتعالى علو كبيرا؟؟ وأي شيء هذا إن لم يكن هو "إله الفجوات" الذي زعمت أنه ليس هو الإله الذي تؤمن به؟؟

ثم بأي عقل يقرر الدكتور بعد المقدمة الأولى أن التطور المزعوم لا دور للمصادفة فيه؟؟ وهل للمصادفة معنى عند العقلاء أظهر من أن يكون ابتداء الخلق بشيء فوضوي ولا غاية له ولا وظيفة، ثم "يتدخل" الصانع الذكي فيه كيفما اتفق أن وجده، ليصنع منه شيئا منظما ذا وظيفة وغاية؟؟ وكيف لا يكون للمصادفة "دور" ما في قصة الخلق وأنت ما ترى الفوضى إلا ماضية في ازدياد والطاقة ماضية إلى مزيد من التبدد والضياع؟؟ قولك: "فإن الاتجاه إلى الأكثر انتظاما والأعقد بنية والأكفأ أداء ووظيفة يحتاج بشكل حتمي إلى تدخل ذكي فعال من خارج المنظومة، لا دور للمصادفة فيه، إذ إن المصادفة غير مرسومة المسار تطرح ملايين الاحتمالات التي لا يمكن

التغلب على ما فيها من تبعثر وفوضى." قلت: فالخلق على عقيدتك إذن حقيقته أنه صدفة أصلية قد تدخل فيها الخالق بخلقه، فقيد احتمالاتها تقييدا جزئيا لما أخرج منها عالمنا هذا على نحو ما نجده!

وأما قولك: "من ذلك نجزم أن المصمم الذكي (الله عز وجل) قد اختار آلية التطور الموجه، ليخلق هذا الوجود." قلت: فلا أدري والله من أين يأتي الجزم، ومقدماتك كلها تخمين كوزمولوجي محض Cosmological Conjecture؟؟ أأنت تجزم بأن الكون بدأ بانفجار كوني، وبأن الانفجار الكوني بدأ بفردية فوضوية لا نظام فيها ولا وظيفة مطلقا؟ فمن أين لك الجزم بهذا، وأصحاب النظرية نفسها لا يجزمون بها ولا بشيء من تفصيلاتها؟ حتى قانون الديناميكا الحرارية الثاني، فليس عند الطبيعيين جزم بشيء مما زعموه أثرا لتصور تأثيره الكوزمولوجي على مستقبل الكون! فإذا كانت المقدمات كلها ظنية تخمينية على أحسن أحوالها، فمن أين يأتي الجزم في نتيجتها؟؟

هذه هي الآفة من آفات الكلام ومن ثمراته الخبيثة هي ثمرة ما أشرنا إليه آنفا من اضطرار المتكلم لقبول الأساس العقلي الواهي لنظريات الميتافزيقيين المعظمين عنده على أنها هي العقل والقطع والعلم التام! فإن المراد من براهين المتكلمين هو أن يؤسس عليها الأصل الأول لدينهم (ألا وهو القول بوجود رب العالمين) تأسيسا مرضيا – مبدئيا - من خصومهم! فإذا كان هذا هو مطلوب البرهان ومقصوده، فلابد أن يكون برهانا قطعيا منصرما حتى لا يتسع لظهور المعارض، وإلا كان أساس الدين والإيمان عند المتكلمين مفتوحا للشك والإسقاط! وهو ما ترتب عليه ضرورة إطلاق صفة القطعية على مقدمات البرهان! وإلا فكيف تتأسس نتيجة جازمة قاطعة على براهين ظنية محتملة يرد عليها من المعارضات ما يرد؟؟ هذا خلف واضح! ولكن كانت نظريات الميتافزيقيين ولم تزل ضربا من التخرص والتنطع على الغيب لا مستند للقياس فيه إلا التحكم! فما الذي يترتب على ادعاء القطعية لها إلا ضرب الدين في مقاتله؟

بعيدا عن مسألة اللوازم والمقتضيات الاعتقادية في صفات الله وأفعاله، دعنا ننظر في أداء البرهان نفسه لمطلوبه (أعني برهان الحدوث الذي بدعه الدكتور)! فنقول هب أن نظرية الانفجار الكبير هذه نفسها (بفردية أو بغير فردية، بتضخم أو بغير تضخم) قد مد الله للدكتور في عمره حتى رآها تسقط عند الكوزمولوجيين في المستقبل سقوطا كليا يصبح هو الاتفاق الأكاديمي العام، كما كان قبولها اليوم هو الاتفاق الأكاديمي العام! إذا حصل ذلك وشهده الدكتور، وكان قد حرر برهانه هذا على سبيل الجزم والقطع، فما الذي يترتب على ذلك؟ سيضطر إذن لإحدى خصلتين لا أرى لهما ثالثا!

إما أن يسقط البرهان ويخطئ "الأساس العلمي للدين" الذي كان قد قدمه للناس فيما سبق، وإما أن يظل متمسكا بتلك النظرية على مخالفتها ما استجد من مذاهب الطبيعيين في محلها، ينافح عنها في كل مناسبة! ولست أراه ذاهبا هذا المذهب الثاني (مذهب التمسك والدفاع Apologetics) إلا إن قدر له أن أسس على ذلك البرهان من التفصيلات والتأويلات والتفريعات الدينية نظير ما تكلفه متكلمة القرون الأولى في بناء أصول الدين وأصول الفقه عندهم على براهينهم الكلامية ومقدماتها ومقتضياتها الميتافزيقية! وهذا أمر بعيد على جهمية العصر غاية البعد فيما أرى، بالنظر إلى خفة عقولهم (إجمالا) وضحالتهم في العلوم الشرعية، لا سيما علوم الآلة، مقارنة برؤوس المتكلمين من الأقدمين! ولا أظنه إذن يتكلف محاولة الجمع بين ميتافزيقا الانفجار، وتلك الميتافزيقا الجديدة التي يتحول إليها الطبيعيون مستقبلا، كما لا يزال أشاعرة العصر ومعتزلتهم يحاولون الجمع بين ميتافزيقا الجوهر والعرض الأرسطية (التي لا تدرس الآن في أكاديميات الغرب إلا تحت باب تاريخ الفلسفة) وميتافزيقا الطبيعيين المعاصرة، فلا يبدو أن لدى مثله القدرة على ذلك أو الأهلية له!

إعادة صياغة قوانين الديناميكا الحرارية تأسيسا على قواعد المسلمين

اعلم يا دكتور أن قانون الديناميكا الحرارية الثاني لا يصح في العقل إجراؤه على الكون بكليته، ليس فقط باعتبار ما حررناه في هذا الكتاب من موقف منهجي كلي في التعامل مع نظريات الطبيعيين وقوانينهم بعموم، ولكن كذلك باعتبار موضوع القانون نفسه كما توصل إليه أول من اكتشفه من الفيزيائيين! فقد لاحظ الفرنسي سادي كارنو في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، عند دراسته انتقال الحرارة بين الأجسام المتلاصقة في إطار ما سمي بمحرك كارنو الحراري Carnot’s Heat Engine، أنه إذا وضع اسطوانة فيها غاز مغلق بواسطة كباس Piston في مماسة لجسم ساخن، فإن الحرارة ستنتقل من ذلك الجسم إلى الغاز بما يسبب تمدده ومن ثم حركة الكباس بمقدار معين، ثم تتوقف الحركة عند تمام التمدد، وعندها تكون حرارة الغاز قد ارتفعت (مع التمدد) وحرارة الجسم قد انخفضت، حتى وصل الجسمان معا إلى حرارة وسطى استقر عندها النظام بكليته، وتوقف عندها التمدد! ولما جرب الأمر نفسه على جسم آخر أبرد من الغاز، لاحظ أن العكس هو الذي يحصل (تنخفض درجة حرارة الغاز وينكمش، وترتفع درجة حرارة الجسم الملاصق)، وصولا إلى نقطة تستوي فيها الحرارة ويتزن النظام. أي أن الكباس يظل يتحرك في جميع الأحوال (يظل المحرك يعمل) حتى يصل النظام بكليته إلى التساوي الحراري، وحينئذ

تتوقف الحركة لأن انتقال الحرارة داخل نظام المحرك (المكون كما تقدم من اسطوانة الغاز والكباس والجسم الملاصق للاسطوانة) يكون قد انقطع. من هنا جاء أول تنصيص – تاريخيا - على أصل القانون الثاني للديناميكا الحرارية، وهو بإيجاز القول بأن محرك كارنو هذا يتوقف في كفاءته الميكانيكية على الفارق بين درجات الحرارة الذي يبدأ منه النظام.

ثم في منتصف القرن التاسع عشر، وضع الألماني رادولف كلاوسيوس R. Clausius أول صياغة لقانون الديناميكا الحرارية الثاني كقانون فيزيائي صارم، إذ قال (فيما بات يعرف بعبارة كلاوسيوس): "إن الحرارة لا يمكن أن تنتقل من جسم بارد إلى جسم ساخن، إلا إذا أحدِثت تغييرات أخرى محايثة لهما، تحصل في نفس الوقت." ثم صاغه فيما بعد الاسكتلاندي لورد كيلفن (ويليام ثومسون) في قوله: "من المحال استخراج أي تأثير ميكانيكي (طاقة حركة) من أي جزء من أجزاء المادة portion of matter بتبريده إلى درجة حرارة أدنى من حرارة أبرد الأجسام المحيطة به والملاصقة له."

وبالتزامن مع هذه الدراسات، كان قد ظهر مفهوم ما يسمى بالإنتروبي Entropy، وهو ملاحظة هؤلاء المذكورين أنفسهم وغيرهم من الفيزيائيين المشتغلية بميكانيكا المحركات الحرارية، أن الطاقة الحرارية المستعملة في محركات الاحتراق لا تتحول كلها إلى حركة، وإنما يتحول جزء منها إلى الحركة، بينما تُفقد كمية من الحرارة لتنتقل إلى البيئة المحيطة والأجسام الملاصقة للمحرك، ويضيع قدر من الطاقة في الاحتكاك والصوت ونحو ذلك. فقالوا إننا مهما حاولنا عزل النظام الحراري للمحرك، فلن نتمكن من توجيه الحرارة كلها وحصرها لإنتاج الحركة. هذا الميل في الحرارة للانتشار والتفرق في الوسائط الحاملة المتلاصقة، يجعلها تظل تنتقل حتى تتفرق في جميع تلك الأجسام المتلاصقة بالتساوي ما لم يمنعها من ذلك مانع.

فلما كان مطلوب القوم بالأساس ومسعاهم الحثيث هو تحقيق أعلى درجة من الكفاءة لمحركاتهم في استغلال تلك الطاقة، ووجدوها – مع ذلك – صعبة المراس، تتعذر الإحاطة بها والسيطرة عليها، ولا يكاد يتصور للبشر أن يحيطوا بأسباب ذلك تمام الإحاطة، استعمل بعضهم – من دهريتهم الطبيعية – عند شرح الديناميكا الحرارية للعوام عبارات وإطلاقات فيها تنقص من نظام الخلق الرباني نفسه، فقالوا إن الطبيعة فيها ميل عام للتفكك لا يمضي – إذا ترك وشأنه – إلا إلى مزيد من الانحلال Decomposition والتفسخ والتبدد Waste، على نحو لا يرجى انعكاسه بصورة طبيعية Irreversible، وعمموا ذلك "الميل" على عموم الكون [37]، بلا مستند إلا القياس الدهري الطبيعي المحض، وزعموا أنه لابد أن يصل في النهاية إلى حالة الإنتروبي القصوى (قياسا على محركاتهم الحرارية!) فلا يبقى فيه

حرارة تنتقل من شيء إلى شيء! ولما داعبت تلك الفكرة خيال بعض الصحافيين من مروجي العلوم الطبيعية والإعلاميين ونحوهم، ظهر من يجمع إلى تلك الظاهرة الحرارية التي هي مدار مفهوم الإنتروبي (عند شرحه واستعراضه للناس)، مشاهدات أخرى متعلقة بمسألة "الفوضى" Disorder، فقالوا إن العالم فيه ميل لحوادث الدمار والانفجار والانتثار والانهيار بعموم، حتى غرفة نوم أحدهم عندما تكثر فيها الفوضوية وتناثر الملابس والأوراق، فإن الكون فيه "ميل" Tendency إلى ذلك! فكله يجري على ترتيب زماني معين لا نتوقع في يوم من الأيام أن نراه ينعكس في الطبيعة! فكأن ثمة قانون ما أو سنة كونية ما، تسهل على النظم المركبة أسباب التفكك والانحلال، تؤز الأشياء أزا على التبدد والفوضوية Chaos، وتصعب – جدا – أي عمل بشري في الجهة المقابلة!

والحق أن نظام العالم فيه سنة ظاهرة لا ننكرها، ألا وهي أن حوادث الانحلال والتفكك والتناثر والانهدام (وليس الفوضى Chaos / Disorder) لا تنعكس في ترتيبها Under-reversible، لا بصورة طبيعية، ولا بفعلنا نحن أو بأسباب من جهتنا! إذا قضى الله لنظام ما أن ينهار أو يتآكل أو يبلى أو ينفجر، فقد انتهى وقضي أمره، ومهما حاولنا إعادة بنائه وجمع قطع حطامه بعضها إلى بعض فلن يكون هو النظام نفسه! فإذا وقع التفكك والانهيار، لم يكن من طريق أو سبب بين أيدينا لعكس Reversing الترتيب الذي تجري به حوادث ذلك التفكك والانهيار حتى نرجع النظام المنهار إلى ما كان عليه سابقا! ولهذا شبهه بعضهم بشريط الفيديو، لو أننا صورنا جسما ينفجر، أو مبنى ينهار، أو حتى قطعة ثلج تذوب في كوب من الماء، ثم أرجعنا الشريط إلى الخلف (جعلناه يعرض مقطع الفيديو في الاتجاه العكسي) فسنرى ترتيبا للحوادث لا يمكن أن نتصور مشاهدته في الواقع، إذ لم يقع يوما في تجربتنا في نظام الطبيعة أن رأينا شيئا منها، ومهما عملنا من جهتنا فليس ثمة أسباب يمكننا طرقها من أجل إحداث ذلك الترتيب!

فلما كان لدى بعض الطبيعيين (كبولتزمان وغيره في مجال الميكانيكا الإحصائية) استعمال لمصطلح الإنتروبي في دراسة احتماليات تداخل جسيمات أي غازين أو سائلين يخلطان ببعضهما البعض (بعد أن كان كل منهما مستقلا بنفسه غير مخلوط بالآخر)، لتعلق المصطلح بالتصور الذري السائد لدى الفيزيائيين حاليا حول الكيفية التي تنتشر بها الحرارة نفسها (بوصفها طاقة حركة تعتري الجزيئات)، إذ قالوا إن الإنتروبي تتزايد بتزايد الأحوال التي يمكن (احتماليا) لجسيمات الغاز أو السائل المنتشر أن تكون عليها (وهو ما عبروا عنه بالعلاقة "S = K. ln(W)")، عمم كثير من الناس مفهوم الإنتروبي ليشمل كل انتشار لمتناثرات تبلغ فيه احتمالات الأوضاع

الممكنة لتلك المتبعثرات أو المتناثرات مبلغا يوصف إحصائيا بالستوخاستية Stochastic (أي عدم قابلية التنبؤ من جانبنا)!

ولكن من الواضح أن هذه المسألة (مسألة تعذر إرجاع المتناثرات والمتبعثرات والمنتشرات كما كانت بفعل البشر وعدم رجوعها أو انعكاسها طبيعيا under-reversibility) هي سنة كونية مستقلة عن مسألة الانتشار المتعادل للحرارة في الأجسام المتماسة، وإن كانت قد تفسر الثانية بالأولى على حسب التصور الميكانيكي السائد حاليا في تفسير عملية الانتقال الحراري نفسها! فإن شئت فقل إن لدينا قانونان مستقلان، قانون الإنتروبي الحراري Thermodynamic Entropy، وقانون آخر يمكن أن يقال له تعذر الإرجاع أو الانعكاس Under-reversibility لبعض أنواع الحوادث الطبيعية! وإنما تعد ظاهرة الإنتروبي واحدة من الظواهر التي تدخل تحت قانون تعذر الإرجاع One Instance of Under-reversibility، وقد تبلغ أن تكون حالة امتناع تام للانعكاس Under-reversibility. وثمة ظواهر أخرى كثيرة لا علاقة لها بالإنتروبي ولا بالديناميكا الحرارية تدخل قانون تعذر الانعكاس، كتلك التي يضرب بها العامة المثل عند شرحهم لمسألة الإنتروبي.

وبالنظر إلى عدم قابلية الانعكاس هذه، فقد ذهب بعض الطبيعيين (تبعا للفلكي البريطاني آرثر ستانلي إدينغتون A. S. Eddington [38]) إلى القول بأن الزمان نفسه أو ما يقال له "سهم الزمان" Arrow of Time يمكن تعريفه بالإنتروبي! فيقال إن اتجاه الزمان الذي يجب أن تمضي فيه حوادث الطبيعة وجوبا، هو من الحالة التي تكون فيها الطاقة الحرارية مجمعة في جسم ما، إلى الحالة التي تكون فيها تلك الطاقة قد توزعت بالتساوي على جميع الأجسام المماسة لذلك الجسم! فإذا كان من غير الممكن أن تجري تلك الحوادث في عكس ذلك الاتجاه بصورة طبيعية، فلابد أن يكون الإنتروبي هو مفتاح الطبيعيين لتحديد اتجاه الزمان نفسه! وهذا فيه من التنطع ما لا يخفى، إذ الزمان لن ينعكس إن قدر أن تمكننا في يوم من الأيام من إجراء بعض الحوادث على عكس ترتيبها المعتاد، مهما كانت تلك الحوادث مما يوصف بأنه غير قابل للانعكاس! الزمان إنما هو عبارتنا عن جريان جميع الحوادث في الوجود (معا) على ما هي جارية عليه!

والشاهد من ذلك كله، أن الفوضوية والعشواء لا علاقة لهما لا بمفهوم الإنتروبي في الديناميكا الحرارية، ولا بمسألة عدم قابلية الانعكاس هذه، ولا بمسألة اتجاه الزمان، ولا بشيء من نظام العالم على الإطلاق! وإنما جرت العادة على أن كانت أكثر التحولات التي لا تجري في تجربتنا البشرية إلا على ترتيب معين لا ينعكس، هي مما نرجو عكسه ونكره طرده، من تناثر أو انفجار أو تبعثر أو انسكاب أو امتزاج .. إلى غير ذلك! حتى تراكم أسباب

فوضوية الأشياء في غرفة النوم Disorder (التي وجدتها مثالا أثيرا لدى كثير ممن يكتبون في تلك المسألة)، وإن كان لا يرى في الطبيعة سيره من تلقاء نفسه إلى عكس تلك الجهة التي نكرهها، إلا أنه لا يكون دليلا على أن "الكون" نفسه يفسد الأشياء أو يبعثرها، أو فيه ميل إلى الفوضوية يمضي إلى المزيد منها ضرورة، إلى آخر تلك العبارات الفاسدة التي جرت على ألسنة الصحافيين والإعلاميين ومن لف لفهم عند الكلام عن مسألة الإنتروبي (التي هي أصلا لا علاقة لها بهذا الأمر كما تقدم)، وإنما يدل على أن صانع الكون سبحانه قد ابتلانا نحن البشر بضرورة الأخذ بأسباب كثيرة، نتعاهدها تعاهدا، حتى نحفظ نظام الأشياء على النحو الذي نريده لها!

والحاصل أنه لا يجوز للمسلم أن يعتقد تجذر الفوضوية والتبدد والضياع في العالم كوصف أنطولوجي لحقيقة نظام العالم وكيفية جريان قوانين الطبيعة فيه، فإن ذلك يرجع بالنقص الصريح والطعن على صانعه جل شأنه وتبارك اسمه! وإنما يقال إن الله قد جمع في خلقه وفي سننه الماضية في كونه بين كمال التركب وكمال التفكك، فلا ترى في السماء والأرض النظم تنشأ إلا على أكمل ما يناسب مقصوده سبحانه من خلقها، ولا تراها تتفكك إذا تفككت إلا على أكمل ما يناسب مقصوده من إفنائها! ولا يجري نظام ما على حوادث معينة لا يمكن من جهتنا أن نعكس ترتيبها، إلا لأن حكمة الله تعالى تقتضي ذلك ابتلاء وامتحانا! ولا يفنى نظام من النظم ولا يتفكك على أي حال إلا لتصير أبعاضه ومكوناته عناصر مكونة لنظم جديدة، علمها من علمها وجهلها من جهلها! فحقيقة أن النظام الذي نريده نحن أو نريد له البقاء، تجري عليه سنة التفكيك والإفناء لا محالة ولو بعد حين، هذه لا تنافي حقيقة أن لله في إفنائه حكما عظيمة! فلا يوصف الحال الذي تنقلب إليه الحرارة المفقودة من المحرك بشري الصنع بأنها قد "تبددت" Wasted لامتصاص الأجسام المحيطة لها، إلا باعتبار افتقاد صاحب المحرك لها على شدة حرصه على حفظها واستغلالها، فهذا بالنسبة للنظام الذي يريده الإنسان ويفضل أن يكون عليه الحال، وبالنظر إلى أغراضه منه، يعد اضطرابا Disorder ولا شك، من حيث كونه انقلابا للنظام الذي كان يريده ويرجو بقاءه! ولكن باعتبار محل ذلك الانتشار السهل للطاقة وامتصاصها المتساوي المتعادل، من نظام العالم نفسه ومن غايات ومقاصد الرب سبحانه من خلقه، فليس فسادا للنظام ولا فوضوية ولا شيء من ذلك، سبحان الله وتعالى عما يصفون!

بل نقول إن من حكم الرب جل شأنه في سنة الإنتروبي (كما بيناها آنفا) أن لو قدر أن لم يكن انتشار الطاقة (الذي هو تبدد وفوات بالنسبة للإنسان) على ذلك التوزيع المتساوي على جميع الأجسام المماسة والمحيطة بالنظام

الذي انتشرت منه، ولم يحصل فيه ذلك التوازن (الذي يكرهه المهندسون ولا شك لأنه يعني فوات قدرتهم على الانتفاع من الطاقة)، لاحتبست الحرارة في أجسام معينة دون غيرها احتباسا يمنع من جريان سنن أخرى عليها ينتفع الناس بها! فإذن لن يكون بمقدورنا – مثلا - أن نقيس "درجة حرارة" أي جسم إذا أردنا ذلك على نحو يعتمد عليه Reliable، لأن قياس الحرارة Temperature إنما يحصل لنا بسبب انتقال الحرارة من الجسم المراد قياسه إلى آلة القياس الملاصقة له، إلى الحد الذي يستوي عنده المحتوى الحراري فيهما جميعا! والعجيب أن أصحاب عبارة الفوضى هذه في وصف مسألة الإنتروبي، لا ينتبهون إلى أن الفيزيائيين قد عبروا عن ذلك التوازن التام Equilibrium في انتشار الطاقة وتوزعها وتفرقها المتعادل في الأجسام المتلاصقة في النظم المغلقة، بما سماه بعضهم بالقانون الصفري للديناميكا الحرارية Zeroth Law، لأن عليه قوام القوانين الثلاثة الأخرى كلها! فهو ينص على أنه إن قدر وجود ثلاثة أجسام متلاصقة يوصف اثنان منهما بأنهما في حالة اتزان حراري Thermal Equilibrium، فلابد أن يكون الجسم الثالث متوازنا معهما كذلك، وعلى نفس درجة الحرارة.

فكيف وبأي عقل يقال للاتزان العام "فوضى" Chaos؟؟!

والحاصل أن مسألة الفوضى هذه مسألة لا يجوز إطلاقها في وصف العالم أو نظامه على ما هو عليه، لا في نشأة النظم ابتداء ولا في تفككها وانحلالها انتهاء، مهما رأينا أننا نبني ما نبني ونتعب فيه ونجهد ونبذل الوقت الطويل، ثم تقدر له أسباب الزوال والتحلل فينهار في طرفة عين وكأنه لم يكن! إن من حكم الله تعالى في خلق الحياة الدنيا وابتلائنا بها وبما فيها أن يذكرنا الله بآياته الباهرة في كل مناسبة أن الدنيا ليست دار قرار ولا بقاء، وأن كل شيء فيها مآله إلى الزوال والفناء حتما، فلا نركب فيها شيئين في بعضهما البعض إلا لزم أن نتوقع انفكاكهما ولو بعد حين! ولا يتحصل لنا فيها جمع للطاقة أو للموارد أو لشيء مما يرام جمعه فيها، إلا في حدود ما قسمه الله لنا من ذلك، ولن ننتفع مما جمعنا – أيا ما كان ذلك - إلا بما قضى بمشيئته أن يسخره لنا تسخيرا، سبحانه وتعالى علوا كبيرا! هذا هو فهم المسلمين لمسألة سهولة التبدد والتفكك والتحلل هذه، فتأمل ثم تأمل ثم تدبر!

فإن أردنا العبارة عن تلك الظاهرة التي عبر عنها الطبيعيون بلفظة Entropy في قانون كوني طبيعي، فلعلنا نقول: "هي مضي الطاقة الحرارية المختزنة داخل جسم ما للانتشار في الأجسام أو الوسائط الملاصقة له الموصلة للحرارة، حتى ينتهي مجموع تلك الأجسام أو الوسائط (فيما يمكن تسميته بالنظام المغلق أو المحلي) إلى وضع تكون فيه الطاقة

الحرارية قد توزعت عليها كلها على التساوي". هذه هي ظاهرة الإنتروبي، فإن أردنا تقديرها إحصائيا، استعملنا لها معادلة بولتزمان، وانتهت القضية عند ذلك!

وأما مسألة تعذر الإرجاع Under-reversibility، أو اللاسيمترية الزمانية على اصطلاح بعض الفيزيائيين Time Asymmetry فقانون آخر أعم يمكن التنصيص عليه بما يلي: "ثمة تحولات معينة تجري في الطبيعة على نحو لا ينعكس، وهي جارية عليه لا محالة رغم أنوفنا، ومنها ظواهر التفكك والتحلل والتآكل والانفجار والانهيار .. إلخ. فلا ينشأ نظام مغلق في ذلك الحيز الواقع تحت عادتنا من هذا العالم إلا كان ماضيا إلى تفككه وانحلاله لا محالة ولو بعد حين، لصالح نظم أخرى".

ونقصد بالنظام المغلق Closed System – وهذا ضابط مهم للغاية للكلام في توصيف تلك السنن المشاهدة التي تناولها الطبيعيون بقوانين الديناميكا الحرارية، وكذلك بقانون عدم قابلية الانعكاس، فانتبه! – تلك الأجسام أو الهيئات الطبيعية، أو الصناعية المستقلة (من صنعنا نحن)، التي تتركب من جملة أجزاء تعمل كأعضاء يخدم كل واحد منها الوظيفة الكلية الظاهرة للجسم أو الهيئة التي هو جزء منها. ونقول إن تقييد الكلام بالنظم المغلقة أو المحلية إن شئت Local Systems مهم للغاية (ويقصد بالمحلية هنا Locality وقوع جملة من الأجسام المترابطة أو المتلازمة أو المتلاصقة في دائرة الإدراك المباشر والتتبع المباشر للباحث البشري)، لأن الطبيعيين وإن كانوا يقيدون صياغتهم للقانونين الأول والثاني – كما سيأتي – بقيد النظم المغلقة، إلا أنهم يتجاهلون ذلك القيد عند الكلام عن الكون بكليته، فتراهم يقيسون العالم بكليته على النظام المغلق، يعاملونه معاملة النظام المغلق العملاق، وهذا منهم سخف في القياس وعدوان على الغيب عظيم! وهو ما بناء عليه قالوا إن الكون لابد أن تظل الطاقة الحرارية ماضية فيه إلى التبدد والتساوي بين أجزائه حتى يصل إلى نهاية حتمية سموها بالموت الحراري Heat Death! وهذا منهم جهل وحماقة لائقة بأصولهم الطبيعية الدهرية لا نستغربه البتة، وإنما نستغرب من أكثر المسلمين المشتغلين بالعلوم الطبيعية في زماننا جريانهم على قبول ذلك القياس والتعميم الفاسد تقليدا بلا تدبر ولا روية! فبعيدا عن مصادمة ذلك التعميم الفاحش لأصول الاعتقاد الغيبي عند المسلمين، فأين انتباههم لمنطوق القانون نفسه ولتناقض الطبيعيين في التزامهم تارة بما فيه من قيد على محل عمل القانون نفسه، وإهمالهم إياه تارات؟؟

قلنا إنه يحصل ذلك التساوي والتعادل في النظم المغلقة. فإذا قيل إن أي نظام مغلق إذا جمع إلى غيره من النظم المغلقة، فإنهما يصبحان نظاما

مغلقا واحدا من حيث جريان نفس سنة انتشار الحرارة عليه، أو غير ذلك من ظواهر جمعناها تحت اسم الإنتروبي، ومن ثم لزم أن يكون مجموع النظم المغلقة كلها هو الكون نفسه، فيكون إذن نظاما مغلقا، قلنا: هذا باطل، لأن العالم ليست حقيقته أنه جملة من المحركات الحرارية أو النظم المغلقة المتلاصقة التي تملؤه من أوله إلى آخره! ولهذا لم نكتف بالكلام في مفهوم النظام المغلق Closed System على التعريف الذي حررناه، ولكن أجرينا القانون كما صغناه على ما سميناه كذلك بالنظام المحلي Local! وهذا ولا شك له حدوده مهما تعاظم في تجربتنا وعادتنا البشرية، ولا يجوز أن يعمم ليشمل عموم الأرض كلها – مثلا – فضلا عن الأرضين والسماوات السبع والكون بكليته! والسبب العقلي في عدم جواز ذلك التعميم ظاهر! فإننا كما لا يخفى لم نر أي ظاهرة من تلك الظواهر محل البحث في مجال الديناميكا الحرارية إلا في إطار نظم محلية (على تعريفنا لها)! فلا ننقل الحكم إلى ما وراء ذلك إلا بدليل، وليس قياس الغائب على الشاهد في مثل ذلك دليلا يعتبر كما أصلناه في الباب الثاني من هذا الكتاب! وإنما هو جريان على مسلمات الطبيعيين الدهرية في مبدئهم الكوزمولوجي الذي لا نسلم لهم به ابتداء!

فإن قيل إن الانغلاق والمحلية على هذا يكونان قيدين معرفيين في القانون لا وجوديين، قلنا صحيح، وماذا في ذلك؟ الإنتروبي نفسه ليس على الحقيقة إلا وصفا لحالة يكرهها صناع المحركات لأنها تضيق عليهم في مطلوبهم من صناعة تلك المحركات! فقولنا بالقيد إنما هو تحديد لإطار الواقع المشاهد نفسه الذي يصفه القانون، حتى يوضع الكلام في نصابه الصحيح بلا مجاوزة ولا إفراط! وهذا أمر ضروري يجب أن يعتني الطبائعيون والتجريبيون المسلمون بمراعاته في كل قانون طبيعي، لأنهم يؤمنون إيمانا قاطعا بأن "الطبيعة" نظام محدود له ما يحده في الزمان والمكان، وما يخفى عن حواسنا من المغيبات المحايثة له في محله (أي الجارية في هذا الجزء الواقع منه تحت عادتنا) حتى في منظومة أسبابه وسننه الكونية نفسها، أعظم مما يظهر لنا!

ولهذا نقول إن قانوني الديناميكا الحرارية الأول والثاني يجب أن تعاد صياغتهما صياغة تقيمهما على اعتقاد المسلمين لا على دين الدهرية الطبيعيين، ولا يجوز تدريسهما في مدارس المسلمين وجامعاتهم على تلك الصياغات الدهرية والمفاهيم الدهرية التي هما عليها!

فأما القانون الأول، فهو صورة من صور قانون حفظ الطاقة والمادة، إذ يقول على صياغته الأشهر: "إن الحرارة نوع من أنواع الطاقة، والطاقة لا تفنى ولا تخلق من العدم"! وهذا الإطلاق الفاحش غلط فاحش ودهرية

محضة، إذ فيه من تعطيل سلطان رب العالمين والعدوان على ربوبيته ما لا يخفى! و الصواب أن يقال في قانون حفظ الطاقة والمادة: "المادة والطاقة في النظم المغلقة Closed Systems أو النظم المحلية Local Systems تتقلب وتتحول من صورة إلى صورة، ولكن يظل مجموعها في النظام ثابتا في الأعم الأغلب، لا يزيد ولا ينقص فيما يظهر لنا." والحرارة من الطاقة، فتكون داخلة في عموم هذا المعنى. هذا الثبات في تلك النظم التي سميناها إجمالا بالنظم المغلقة والمحلية، هو الوصف الصحيح المطابق لواقع موضوع البحث الطبيعي والتطبيق العملي الذي جرت أيدي الفيزيائيين والكيميائيين والمهندسين وغيرهم في دراسته والتعامل معه! فمن الواضح وضوحا أوليا بدهيا، أن القوم لم يقف منهم أحد على دراسة أحوال الطاقة والمادة في العالم بكليته، بل ولا كشفوا غيوب هذا الجزء الواقع تحت عادتهم من العالم! فحتى قولهم بعدم حدوث الطاقة وعدم فنائها داخل النظم المغلقة المحدودة التي بين أيديهم، لا سلطان لهم بإثباته ولا نفيه! فما يدريهم أن الحرارة التي يرون وكأنها تتحول إلى حركة، ليس حقيقة ما يقع لها في الواقع أن الحرارة تفنى (أيا ما كانت حقيقتها الغيبية) ليحدث في محلها، بأسباب غيبية لا يعلم مجموعها إلا باريها، طاقة حركة (على المستوى الكلي للمحرك أو للنظام الميكانيكي محل البحث) تناسبها وتعادلها في المقدار؟؟ لست أقول بهذا ولا أنفيه، وإنما أقول ما يدريهم أن الأمر ليس كذلك؟؟ ما حقيقة الحرارة على أي حال؟؟

ألم يكن مذهبهم في حقيقة الحرارة وإلى وقت قريب (حتى في الصياغة الأولى لقوانين الديناميكا الحرارية نفسها على يد كارنو وغيره في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي) أنها سائل خفي سموه بالكالوريك Caloric ينافر بعضه بعضا Self-repellant، ينبعث ويمتص في خلال جزيئات المادة الصلبة والسائلة والغازية فتتشبع به المواد كلها كما تتشبع الإسفنجة بالماء؟؟ واليوم هم يقولون إنه طاقة تحرك الجزيئات في الجسم الساخن حركة شديدة، تنتشر في الجزيئات المتلاصقة حتى تمتصها جميع تلك الجزيئات بالتساوي. ولكن لماذا لا تكون الطاقة "سائلا خفيا" نوعا ما؟ لماذا لا تكون وسيطا غيبيا فيه من خصائص السوائل وفيه من خصائص الموجة والمجال وغير ذلك مما لا نعلمه لأننا – ببساطة – لا نراه؟ لماذا لا يكون ذلك الوسيط وصفاته هو تأويل جميع خصائص المادة تحت تأثير مخالطتها أو التشبع بها؟ هل شاهد أحدهم بالحس المباشر ما هي الطاقة نفسها وما حقيقتها الغيبية؟ ما الدليل الأنطولوجي المعتبر الذي به تترجح أي حقيقة غيبية للطاقة عموما وللحرارة خصوصا؟ ولماذا لا يكون سببه الغيبي شيئا آخر بالكلية؟ لماذا يلزم أن يكون التفسير ماديا (سائلا أو طاقة أو مادة أو مجال أو غير ذلك)؟؟ ليس بين أيديهم في ذلك كله إلا أقيسة ظاهرية

لأسباب قليلة لا تمثل إلا جزءا ضئيلا من هرم الأسباب ومن سننها الربانية على ما هي عليه في الواقع!

أخرج البخاري والمسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء" (واللفظ للبخاري)، وفي الصحيحين كذلك من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا ، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الزَّمْهَرِيرِ" قلت فهذه حرارة نجدها على أبشارنا وفي خلايا أجسادنا من غير أن نكون ملامسين لجهنم ملامسة تجعلنا معها جزءا من نظام مغلق تنتقل فيه الحرارة باهتزاز جزيئات الهواء أو الطين أو غير ذلك! فما حقيقة ذلك النفس، وما حقيقة الفيح، إذا كان بيننا وبين جهنم سبع أراضين كما دلت عليه السنة؟ وإذن فما حقيقة الحرارة نفسها وما هو السبب الغيبي المحض في انتقالها وانتشارها، الذي يجعلها تنتقل بالتلاصق والمباشرة تارة وبغير ذلك تارة؟؟ الله أعلم! فالواجب على العاقل منكم معاشر التجريبيين ألا يجاوز قدر نفسه وقدر ما أوتي من العلم، وأن يقدر ربه حق قدره وينزله منزلته، وأن يتكلم عن النظم السببية الكونية في حدود ما كشفه الله له منها في تجربته المباشرة بلا إفراط ولا تنطع ولا تعميم فاحش لا مستند له إلا الوهم والعدوان على الغيب!

وأما القانون الثاني، فبناء على مفهوم الإنتروبي الذي انتهى إليه القوم في القرن التاسع عشر، وضع ماكس بلانك العبارة الأكثر انتشارا للقانون فقال: "كل عملية تحدث في الطبيعة فإنها تحدث بحيث أن مجموع الإنتروبيات لجميع الأجسام المشاركة في العملية يتزايد وجوبا، وأما في العمليات التي يتصور انعكاسها، فإن مجموع الإنتروبيات يظل ثابتا لا يتغير". قلت: قوله كل عملية تجري في الطبيعة Every Process occurring in nature ليس بمسلم، والإطلاق فيه جار على طريقة الطبيعيين في التعميم الكوني الفاحش كما لا يخفى. ثم إن مفهوم الإنتروبي نفسه قد راجعناه وأعدنا تعريفه كما مر معك. فالصواب – على التعريف الذي حررناه للإنتروبي - أن يقال: "كل عملية من عمليات التحول الطبيعي الجارية على المادة أو الطاقة تجري في إطار نظام مغلق أو نظام محلي مما يقع تحت عادتنا، لابد أن يتزايد فيها الانتشار المتزن المتعادل لأثر ذلك التحول (الإنتروبي) في جميع أجزاء النظام باطراد دون انعكاس أو تناقص." ففي المحرك الحراري مثلا، فإن التحول الطبيعي هنا يكون هو انتشار الحرارة في أجزاء المحرك وفي الهواء المحيط بالمحرك، انتشارا متزنا متعادلا، يبدأ بمجرد تشغيل المحرك واضطرام النار في الوقود، ثم يظل يتزايد حتى يصل النظام (الذي

يكون في هذه الحالة هو النظام المحلي الاعتباري المكون من أجزاء المحرك بالإضافة إلى كافة الأشياء المماسة له التي تمتص منه الحرارة) إلى التوازن الحراري التام. وقولي "الواقعة تحت عادتنا" يخرج به كل زعم كوني متنطع يريد أصحابه إعمال هذا القانون على الأرض بكيلتها أو على العالم بكليته بأي صورة من الصور! فالواجب أن يبقى الغيب غيبا، له حماه وحدوده المعرفية الصارمة التي لا يتجاوزها الطبيعيون بعقولهم وأوهامهم.

ولهذا نقول إنه لا يجوز للمسلمين أن يستندوا إلى قانون الديناميكا الحرارية الثاني في إبطال نظرية داروين، كما سلكه بعض أهل الكتاب. فإن هذا قانون غايته أن يعبر عن قلة حيلة المهندس في تصميمه لمحرك أو مفاعل أو مولد طاقة أو نحو ذلك، لا أكثر ولا أقل! أما أن يطلق ليكون وصفا لانصراف الطاقة والمادة وتصريف رب العالمين لها في العالم بكليته، فهذا عدوان على الله عظيم! فعندما يقول القائل: إن النظرية تخالف مبدأ الإنتروبي من حيث أنه لا يُتصور في العقل أن يكون الأصل في قانون العالم التبدد والتفكك والانحلال والضياع، ومع ذلك تنشأ النظم الحية الجديدة في ظل ذلك الأصل الطبيعي دون أن يكون صنعها خلقا مباشرا كما نصنع نحن ما نصنع من نظم جديدة يكون الإنتروبي فيها منخفضا حال نشأتها ثم يرتفع بعد ذلك من جريان القانون عليه! [39] فإنما يقال له: اتق الله يا رجل واعرف قدر ربك! فلا خلق الخالق ما يخلق من الأنواع الحية هو كصنعكم أنتم ما تصنعون، ولا نظام العالم الأصل فيه ما تقولون، ولا بمثل هذا يثبت عند العقلاء أن للأنواع الحية صانعا بالغيب! فلا يرد الباطل بتقرير باطل مثله أو أشد! فلو كان المقصود ضرب كوزمولوجيا الإنتروبي (القائلة بأن العالم بكليته لم يزل يتحول من النظام إلى الفوضى) ونظرية داروين (القائلة بأن الحشوة الحية لم تزل تتحول من الفوضى إلى النظام) بعضهما ببعض لبيان تناقض الطبيعيين وإبطالهما جميعا، من باب إلزام القوم بلوازم مذهبهم، بغية هدمه كله على رؤوسهم، لجاز، ولكن لم أر فيمن احتجوا بكوزمولوجيا الإنتروبي من اللاهوتيين وأهل الكلام إلا الموافقين المقرين، بل ووقفت عند جهمية أهل القبلة المعاصرين على صورتين على الأقل – حتى الآن - من صور برهان الإنتروبي (كوزمولوجيا الإنتروبي للدقة) لإثبات الصانع، كما ترى إحداهما في كلام الدكتور عمرو هنا، والله المستعان!

وأما القانون الثالث، فهو مستمد من القانون الثاني، وينص (في أشهر صيغه) على أن الإنتروبيا الخاصة بالنظام المغلق، تقترب من قيمة ثابتة Constant Value كلما اقتربت درجة حرارة النظام بكليته إلى الصفر المطلق (صفر كيلفن). وهذا متوقع بطبيعة الحال، بالنظر إلى أنه في تلك الحالة لن يكون ثمة حرارة أصلا حتى يصح الكلام على الإنتروبيا في النظام!

ورجوعا إلى برهان كوزمولوجيا الإنتروبي عند عمرو شريف، وإلى "تأملاته" في فلسفة العلم ..

إذا تقرر ما تقدم تقريره من نقد لصياغة الدهرية الطبيعيين لقوانين الديناميكا الحرارية، وعرفنا أن الصواب اللائق بنا كبشر مخلوقين في عالم محكم منضبط يقوم عليه رب عليم حكيم، هو تعديل مفهوم الانتشار المتساوي للطاقة (الإنتروبي) كما بينا، وحصره في دائرة ما هو واقع تحت تجربتنا البشرية من هذا العالم، أصبح من لازم ذلك التعديل ألا يبقى في قوانين الديناميكا الحرارية ما يصلح لأن يكون مادة لأصحاب النظريات الكوزمولوجية المتعلقة بحال العالم بكليته وماضيه ومستقبله! وهنا يجب التفريق بين ما هو قانون طبيعي Natural Law وما هو نظرية أو فرضية كونية Cosmological Theory. فالنظامية الكونية التي وصفناها في الجزء السابق في مسألة الانتشار المتساوي للطاقة ومسألة سهولة التفكك والتحلل في النظم المغلقة والمحلية، هذه على ما حررناه من صياغات معدلة في وصفها تعد دعوى قانونية تعرف بالاستقراء المباشر لتجربتنا البشرية في التعامل مع نظم الطاقة والمحركات الحرارية ونحوها، وليست هي فرضية غيبية يتصور أن يثبت في المستقبل ما يحملنا على إسقاطها وإبطالها بالكلية! بخلاف زعم الكوزمولوجيين أن هذه النظامية نفسها يترتب على اطرادها في جميع أنحاء العالم ومن بداية تاريخ الكون وإلى آخره، أن يتحول الكون بكليته من حال كذا إلى حال كذا! فهذا قياس غيبي يُفترض افتراضا، يستند فيه إلى تعميم وطرد غير مسلم للقانون الطبيعي المذكور! فإذا نحن أبطلنا النظرية الكوزمولوجية (أو كوزمولوجيا الإنتروبي إن شئت)، لم يلزمنا من ذلك أن نبطل معها القانون الفيزيائي نفسه (قانون الديناميكا الحرارية الثاني)!

ولا شك أن الذي يستعمل نظرية ميتافزيقية ما في إثبات حدوث العالم فهو مضطر إلى تصحيحها بل والقول بقطعيتها وانصرامها رجاء أن تسلم له مقدمات برهانه (الذي يصل منه إلى إثبات الصانع) من المعارض! فإنه إن قدر ورود المعارض على أي من مقدمات برهانه، فإن نتيجته تصبح محلا للاحتمال والشك لا القطع واليقين (الذي هو شرط صحة الإيمان بالصانع عند أهل الملل التي تثبته)، وهو ما ينقض على صاحبه غزله ويذهب به أدراج الرياح كما لا يخفى! فلا نستغرب إطلاقا عندما نرى الدكتور يقول في تقرير نتيجة البرهان: "من ذلك نجزم أن المصمم الذكي (الله عز وجل) قد اختار آلية التطور الموجه، ليخلق هذا الوجود."

ولكن واقع الأمر أن الدعوى الكوزمولوجية بشأن الإنتروبي ومحله من نشأة العالم، دعوى باطلة من أصلها الأول، بطلانا منهجيا كليا كما بينا!

ثم إن قول الدكتور بأن الكون سار من حال اللاانتظام المطلق Absolute Chaos وما يصاحبها من فقدان وتوزيع سيء للطاقة، إلى حالة الانتظام والاستغلال الأفضل للطاقة" ... إلخ، هذا مناقض صراحة لمبدأ الإنتروبي! فكيف يراد من العقلاء أن يثبتوا (على فهم الدكتور غير العلمي للإنتروبي) حالة فوضوية محضة تتحول بالتدريج إلى نظام محكم، توصف في نفس الوقت بأنها حالة من النظام المطلق Absolute Order تتحول بالتدريج إلى الفوضى المطلقة Absolute Disorder؟؟ هذا تناقض واضح، تلبس به الدكتور ومن وافقوه في استعمال الإنتروبي وقوانين الديناميكا الحرارية استعمالا كوزمولوجيا لإثبات الصانع، مع كونه لا يحاجج الطبيعيين بشيء أصلا لأنهم لا يفهمون قوانين الديناميكا الحرارية كما فهمها هؤلاء أصلا! فتحصل أنهم بدعوا بدعة عظيمة لم يصيبوا بها ما أرادوا، فلا للحق نصروا وللباطل كسروا، وما زادوا على أن نسبوا أفعال رب العالمين للفوضى المحضة وسوء التدبير في الابتداء والانتهاء، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله! [40]

ثم إن الدكتور يقول في التقديم لذلك البرهان (ص. 108): "بدأت نشأة الكون في "العدم المطلق Absolute Nothingness: لا مكان – لا زمان – لا مادة – لا طاقة." قلت: وهذا باطل قطعا، إذ ثبت من السمع الصحيح أن السماوات والأرض لم يخلقا من عدم مطلق، وإنما خلقا من الماء الذي كان عليه عرش الرحمن، وهو ماء الله أعلم به، خلقت منه الأرض، وخلق منه الدخان الذي خلقت منه السماء! ولا شك أن وجود هذه الموجودات السابقة على وجود العالم كما نعرفه، كان لها مكان بالنسبة لذات الرحمن، وكان لوجودها زمان إذ تقدم وجودها زمانيا على وجود العالم، وكان لها مادة الله أعلم بحقيقتها، فلا صحة في اعتقاد المسلمين لذلك النفي الدهري الفاسد، والله المستعان! ثم إن نفي الزمان والمكان قبل خلق العالم من حيث كونهما معان كلية مجردة، يلزم منه نفي وجود الباري، ونفي حدوث حادث الخلق نفسه كما بسطنا الكلام عليه في موضعه.

وتحت عنوان "نظرة الفيزياء إلى الكون"، يبدأ الدكتور باستعراض كلام ينسبه إلى الفيزياء الكلاسيكية، فيستعرض عقيدة نيوتن استعراضا هزيلا، وكذلك حتمية لابلاس، التي يختصرها في قوله (ص. 109) "منظور لابلاس = منظور نيوتن + الكون مغلق وحتمي"، ثم يقول بكل سهولة: "وإذا نظرنا بعمق، نجد أن الفيزياء الكلاسيكية لا تتعارض مع النظرة الدينية، بل لا تتعارض مع حدوث المعجزات! ذلك أن القوانين الفيزيائية لا تحدد كيف يسلك الكون عندما يكون مغلقا مكتفيا بذاته، وهو افتراض لا يمكن إثباته علميا أو فلسفيا." اهـ. قلت: أي عمق هذا وأي نظر؟ نسأل الله السلامة!

ما قررته يا دكتور من اعتقاد نيوتن في علاقة الرب بالعالم وبالقانون الطبيعي، هذا ليس هو الفيزياء الكلاسيكية (بهذا الإطلاق)، وإنما هو من ميتافزيقا الطبيعيين الكلاسيكيين! ولا يلزم من دخوله عند الطبيعيين تحت مظلة البحث الفيزيائي الأكاديمي أن نقرهم نحن على جعله كذلك! والعجيب أنك أنت من سبق منك التنبيه في كتابك هذا نفسه على ضرورة إخراج الإلهيات من الكلام في الطبيعيات، فسبحان الله!

هذا الذي حررته من كلام نيوتن هو دين نويتن يا دكتور [41]، فإن كنت تقصد "بالنظرة الدينية" عقيدة المسلمين، فدين الطبيعيين (ومن صوره اعتقاد الاتحادية الطبيعية Naturalistic Pantheists كنيوتن) يتعارض معها ولا شك! وقد بينا في غير هذا الموضع عقيدة نيوتن وكلارك الاتحادية وسبب قولهما بها فلا نعيد [42]! فالذي يتعارض مع اعتقاد المسلمين هو عدوان الفيزيائيين على غيب العالم نفسه، بداية من طاليس مؤسس أكاديميتهم الأولى ووصولا إلى عصرنا هذا! تنظيرهم في غيب السماء والأرض بالهوى والتحكم المحض، هو ما أورثهم الزندقة والكفر! في كل مرة يقيس أحدهم الكون بكليته على الماكينة، أو على الكائن الحي الذي ينمو، أو على الصنعة البشرية التي تترقى .. إلخ، فهو بذلك يؤصل لدين باطل، ويتنقص من صفة ربه بالاقتضاء واللزوم! في كل مرة يتكلم أحدهم عن السنن السببية وكأنها تروس في ماكينة مغلقة، أي لا يحتاج من يريد فهم عملها وأسبابها النظامية فهما كاملا إلى أكثر من فهم آلية تلك التروس، فهو يخترع بذلك دينا باطلا، لا محل فيه للسببية الغيبية أصلا، مع أنه ما من ماكينة يصنعها الإنسان – بالأساس – إلا جرى عليها من الأسباب الخارجة عن بنيتها الداخلية وعمل تروسها وأجزائها المصممة فيها، ما لا يحصيه بشر! وهي أسباب منها ما هو شاهد لنا نراه بحسنا وعادتنا ومنها ما هو غيب نسبي يعلمه بعضنا ويجهله غيرهم، ومنها ما هو غيب محض لا يعلمه أحد من البشر ولا يتصوره! فالقياس باطل ليس فقط لأن علة القياس أو سبب نقل الحكم من الأصل إلى الفرع فاسد، ولكن لأن المقيس عليه نفسه (الأصل) ليس على نحو ما تصوروه أصلا، فتأمل سفاهة هؤلاء الفلاسفة الكبار وخفة عقولهم، وتأمل فتنة جهمية العصر بهم، وقل لهم: الحمد لله الذي عافانا بالسنة مما ابتلاكم به، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا!

ثم لما انتقل الدكتور هداه الله للكلام على الفيزياء المعاصرة، قرر تقريرات فلسفية إن دلت على شيء فتدل على عجلة في التأليف وقلة في العلم وخلل عظيم في فهم النظريات التي ينسب نفسه إلى أصحابها، والله المستعان! يا دكتور أنت تسيء – والله - إلى العلم الذي تريد الإحسان إليه من حيث لا تدري! فلا الديناميكا الحرارية هي على ما فهمته أنت، ولا

الانفجار الكبير وبدايته عند عامة الكوزمولوجيين على ما زعمته من اتفاق أكاديمي، ولا مبدأ اللايقين لهايزنبرغ هو كما فهمته، ولا الحتمية واللاحتمية بتلك السطحية التي أظهرتها بها، والله المستعان!

الدكتور يتكلم عن اللاحتمية السببية Indeterminism ومبدأ اللايقين عند هايزنبرغ Uncertainty Principle في ميكانيكا الكم وكأنهما مصطلحان مترادفان، وهذا غير صحيح بالمرة! وهو يجعلهما وصفا أنطولوجيا للواقع، حتى يؤسس عليهما عقيدة متعلقة بفعل الباري الذي يسميه "بالتدخل" أو "الترجيح"! ولكن مبدأ اللايقين هو المبدأ القائل إجمالا بأن الجسيمات الكمومية من المتعذر التنبؤ بجميع خصائصها في كل وقت، بالنظر إلى حقيقة أنها تسلك مسلك الموجة مع ما يظهر أحيانا من سلوكها مسلك الجسيم، فلا نملك طريقا عند رصدها لا يؤثر في تلك الخصائص نفسها المراد رصدها، فيصيرها إلى الحالة المرصودة أيا ما كانت! فالمبدأ صريح حتى من اسمه (لا يقين) في كونه يصف حدود المعرفة البشرية بما يجري في ذلك المستوى الدقيق، لا حقيقة الظاهرة المراد معرفتها في الخارج! [43] أي على الاصطلاح يقال إنه مبدأ إبستمولوجي (معرفي) وليس مبدأ أنطولوجيا (وجوديا) [44]! وأما اللاحتمية أو اللاحتمانية، فلفظتان مجملتان للغاية، تعبران عن مذاهب فلسفية مختلفة عند المعاصرين، منها ما هو أنطولوجي يصف الواقع الخارجي من حيث هو، ومنها ما هو معرفي يصف النظريات التي تتناول ذلك الواقع بالتوصيف، وقد أطلنا النفس في الكلام على الحتمية السببية في محله من هذا الكتاب، ولكن يكفي أن نقول لمصلحة بيان تخليط الدكتور في كتابه هذا، أن اللاحتمية الوجودية (التي اختارها الدكتور كوصف للواقع الكمومي نفسه، كما اعتبر اللايقين وصفا للواقع نفسه) هي – بإيجاز - القول بأن الأسباب لا ترتبط بمسبباتها ارتباطا حتميا، بمعنى أنه ليس ثمة شيء يقال له تعليل تام Complete Causation، فمن الجائز عقلا أن تحدث جميع الحوادث التي حدثت في الماضي بلا استثناء، الغائب عنا منها والشاهد، ومع ذلك يترتب عليها حاضر بخلاف هذا الذي نعيشه! فليس اجتماع الأسباب (وتحقق كافة الشروط وانتفاء كافة الموانع) موجبا عند القائلين بهذا المذهب لوقوع المسبب، وليس حال المستقبل محتوما سلفا! وقد بسطنا الكلام في بيان بطلان هذا المذهب ونقضه لمعنى السببية نفسها ومناقضته لاعتقاد المسلمين في موضعه من هذا الكتاب فلا نعيد.

فالذي يريد أن يجعل اللايقين الكمومي واللاحتمية السببية الوجودية هذه اسمين لمسمى واحد، فعليه أن يبين لنا كيف وصل إلى ذلك، وأي شيء في العقل دله عليه! أما أن يستعرض المصطلحين وكأنهما مترادفين، هكذا بكل

سهولة، فهذا تلبيس بين! يقول الدكتور في حاشية الصفحة: "والسمة المشتركة بين مجالات الفيزياء الكلاسيكية المختلفة، هي امتثالها بشكل مطلق للقوانين الفيزيائية التي تحكمها، وهو ما يعرف بالحتمية المطلقة Complete Determinism"! اهـ. قلت: فمن أين جاء بهذا المصطلح Complete Determinism؟ القوم إما أنهم يقولون بالحتمية أو لا يقولون بها، أو يقولون بالتوسط compatibilism بين الحتمية واللاحتمية فيما يتعلق بحرية الإرادة البشرية خاصة، فما معنى "الحتمية المطلقة" هذه؟؟ إن كانت مصطلحاتك من كيسك يا دكتور، فعليك بيان ذلك، ولكن لسنا إذن في مقام تحرير ما انتهى إليه "الفيزيائيون المعاصرون" من فلسفات وعقائد، وإنما نتكلم عما انتهيت إليه أنت شخصيا! نعم من الطبيعيين من يجعل اللايقين الكمومي دليلا على اللاحتمية السببية الوجودية بل وعلى انتفاء السببية نفسها جملة واحدة على المستوى الكمومي، ولكن كيف وصلت أنت إلى ذلك الموقف الفاسد عقلا يا دكتور، وعلى أي شيء أسسته؟؟ ومن الذي أوهمك بأن إثبات اللاحتمية الكمومية الوجودية يخدم اعتقاد المسلمين أو يناسبه؟؟

وكما هي عادة كثير من لاهوتيي النصارى المعاصرين وجماعة من فلاسفة الملل الوثنية، يلتمس الدكتور في ميتافزيقا الكم Quantum Metaphysics / Ontlogy (وأعني باب التأويل الغيبي لمعادلة الدالة الموجية لشرودينغر، أو ما يسمى بالتأويل الكمومي) مدخلا لحشر ما يريد حشره من عقائد يسوغ بها مذهبه في الجمع بين ميثولوجيا الطبيعيين الدهرية من جانب، وبين إثبات غيب وراء هذا العالم فيه صانع حي ذو إرادة وعلم وتقدير من الجانب الآخر، إذ يقول (ص. 111): "لم تلغ الفيزياء الحديثة حتمية لابلاس وحسب، بل فتحت بمفهوم الاحتمالية الباب على مصراعيه للتدخلات الإلهية، فالإله قادر على التدخل في أي منظومة ليرجح أحد الاحتمالات على ما سواها، وبذلك يتغير المخرج بشكل جذري" اهـ. قلت: الله أكبر! مرحبا إذن بفيزياء الكم التي فتحت الباب أخيرا "على مصراعيه" لتدخلات "الإله"!

قلت: تقدم بيان أن من اعتقد أن الرب سبحانه "يتدخل" في بعض الأحيان من خارج نظام الأسباب ليخلق بعض المخلوقات أو يحدث بعض الحوادث على خلاف ما كان ليحصل لو أنه ترك "نظام الأسباب الطبيعية" يجري مجراه، أو أنه يتدخل ليرجح ما يشاء على ما لا يشاء، من ذلك الموضع الذي لا يزال الطبيعيون عاجزين عن التوصل فيه إلى قانون صارم من حيث قوة الاستقراء المفضي إليه كقانون الجاذبية مثلا، فهذا قائل بما يقتضي السببية الطبيعية المغلقة (التي هي من أركان الدين الطبيعي)، وإن كان من أشد

الناس استنكارا لها! فهي عنده تبقى مغلقة من حيث الأصل، وإنما يجوِّز فتحها من آن لآخر، أو يوجب "تدخل الإله" في بعض "فتحاتها" بصورة ما أو بأخرى، مع قوله بأنها قد خلقت في الابتداء مغلقة ثم تركت وشأنها لتجري كيفما اتفق لها أن تجري (وهو ما يلزمه من قبول إثبات الطبيعيين للفوضى الوجودية Ontological Randomness / Chaos في الطبيعة)، إلا حيثما يقع "التدخل الإلهي"! ولهذا المذهب من مقتضياته في التعطيل والتنقص من علم رب العالمين وسلطانه وربوبيته على حوادث العالم ما بيناه في غير موضع من هذا الكتاب!

وإلا فلو كان الدكتور يعتقد أنه ما من قانون طبيعي أثبته الطبيعيون بالاستقراء إلا وهو خاضع في كل واقعة من الوقائع التي يفترض فيه أن يجري عليها، لأسباب أخرى غيبية لا يحصيها إلا الله، إضافة إلى السبب الذي أثبتوه، ولسنن غيبية لا يعلمها سواه سبحانه، فكيف قبل منهم معنى "التدخل" Intervention هذا أصلا من الابتداء؟! [45] متى خرج خلق الله تعالى وتدبيره الشامل من العالم حتى يقال إنه "يتدخل" فيه؟؟ قال تعالى: ((وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)) [الأعراف : 57] وقال تعالى: ((أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)) [النمل : 60] فهو الذي يرسل، وهو الذي يسوق، وهو الذي ينزل، وهو الذي يخرج وينبت، يخلق كل ذلك بأوامر وأقضية إلهية تتلقاها الملائكة الموكلة بذلك كله فتعمل بأمر ربها، عملا لولاه ما صارت الأسباب الغيبية والأسباب الطبيعية أسبابا، وما وجد في الأرض نظام سببي نستقرئه من جهتنا! فعلى مذهب الدكتور يلزم ألا يقال إن الله فعل شيئا من ذلك، ولا أمر بشيء منه بعينه، وإنما خلق الطبيعة بقوانينها، ثم ترك القوانين لتجري على المادة على وفق ما يعتقد الطبيعيون أنه قد كان من جريانها!

وقال تعالى: ((إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)) [الأعراف : 54] ولكن ليس لغشيان الليل النهار ولا لتسخير الشمس والقمر والنجوم حقيقة على مذهبه إلا أن يكون ثمرة القانون الطبيعي وحده، الذي هو آلة مغلقة لا "يتدخل" الله في تلك الأمور المعتادة منها، وإنما تجري في ماكينة العالم (التي كان هو خالقها بالانفجار المزعوم) بصورة آلية! وقال تعالى: ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)) [الحج : 65] فالأمر التكويني النازل بكل واحد من تلك الأمور المعتادة، يلزم على مذهبه أن يكون مجازا حقيقته جريان القانون الطبيعي لا غير!

فبيت الداء هنا أنه لا يثبت وراء كل شيء من ذلك أمرا إلهيا مباشرا يخصه، وأسبابا غيبية تترتب على ذلك الأمر، لأنه لا يرى جنس الأسباب إلا طبيعية، وليس عنده تصور لنظام سببي إلا أن يكون قانونا طبيعيا Natural، فكل ما لا يُعرف له سبب طبيعي من معجزات الأنبياء ونحوها، فهو عنده بلا أسباب أصلا، وإنما هو "تدخل إلهي" يرجح الإله به "الاحتمالات" على المستوى الكوانطي لصالح ما يريد، متجاوزا بذلك قانون الطبيعة وحتميته الاعتيادية! فالدكتور يحسب أن "إدخال" فعل الإله في مواضع من من تلك الماكينة المغلقة أصالة، يكفي لإلزام الطبيعيين ببطلان حتمية لابلاس، وإنزال الرب منزلته اللائقة به في الغيب، وهذا وهم وأماني لا غير، والله المستعان!

فما معنى "ترجيح الاحتمالات الكمومية" هذا، الذي نسب للرب سبحانه أنه يفعله في المستوى الكوانطي كما لا يقع في غيره من المستويات؟

هنا يظهر تلبس الدكتور بمغالطة الاحتمالية الأنطولوجية Ontological Probability التي أصبحت هي التصور الميتافزيقي السائد بين الطبيعيين لحقيقة الواقع على المستوى الكمومي، على الرغم من وجود تأويل آخر أقرب للعقل الصحيح من تأويل كوبنهاغن هذا (وأعني تأويل "بوم دي برولي" الذي تقدم الكلام عليه في هذا الكتاب، ويبدو أن الدكتور لم يسمع به أصلا [46])! والمغالطة هي بإيجاز القول بأن الواقع يتكون من احتماليات متعينة في الخارج، تتفاوت في مقاديرها، وليس من حقائق متعينة تعينا موضوعيا لا تتأثر بمدى علمنا بها أو جهلنا! فقد كان المفترض واللائق بالعقل السوي الصحيح أن يعامل الجسيم على ما هو ظاهر جلي من كونه نوعا مستقلا من أنواع الموجودات، وسطا أو خليطا في صفاته بين الجرم المصمت Solid Object الذي جرت العادة عند الفيزيائيين بوصفه بشكل هندسي منفصل (كالكرة أو النقطة عند التجريد الهندسي) وبين الموجة Wave التي هي مجال متصل منتشر فراغيا Ambient Field له تردد وذبذبة، كما كان هو مقتضى التصور الأصلي الذي منه انطلق إروين شرودينغر في تأسيس معادلته الشهيرة لتتبع الجسيمات في ضوء تلك الخصائص الموجية، وأثبتت التجربة دقتها في وصف تلك الجسيمات، أو "المَوجسيمات" إن شئت (كما نحتوا عبارة "الزمكان")، ولكن بدلا من أن يجري الأمر في ذلك المجرى، تحولت الاحتمالات التي تتبعتها المعادلة لظهور ما يشبه الجسيم (عند القياس) في مواضع معينة من مجال تلك

الموجة (أو الموجسيمة)، إلى واقع متعين عند كثير من رواد التنظير الكمومي في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، بمعنى أن يكون ثمة جسيم منفصل (على ما هو معهود من صفة ما نسميه عادة بالجسيم) يوجد وجودا حقيقيا في جميع تلك المواضع التي تغطيها الموجة في نفس الوقت، ولكن باحتمالات متفاوتة تتنبأ بها المعادلة! وهذا خلل عميق في فهم الاحتمالات الرياضية وما يصح من مجالات تطبيقها، كما أطلنا النفس في بيانه في غير موضع.

فالاحتمالية يا دكتور إنما هي في الأصل عبارة رياضية عن غاية ما يسع الفيزيائي أن يتكلم به من حيث مدى الثقة في صحة تنبؤاته بشأن المستقبل، سواء في إطار نظرية الكم أو في غيرها من نظريات وقوانين الفيزياء! حتى أعظم القوانين الطبيعية قوة في الثبوت من طريق استقراء العادة، لا يملك الفيزيائي معها إلا أن يقول إنها تفيده بيقين احتمالي Probabilistic Certainty، فإن شاء أن يقدره قدره بما يقترب من 0.99 = P أو تسع وتسعين بالمئة! فإنه سيظل ثمة احتمالات أخرى على خلاف المعتاد، لا يمتنع حدوثها عقلا مهما كانت نادرة الحدوث! منها ما هو متصور يمكن – نظريا - افتراضه بالقياس، ومنها ما هو خارج عن دائرة القياس بالكلية، ولا يعلمه إلا الله! فمهما شوهد في العالم من بجعات بيضاء مثلا، فسيظل ثمة احتمال ولو ضئيل لأن تشاهَد بجعة سوداء هنا أو هناك! بل سيظل من الممكن نظريا، باحتمالية تقترب من الصفر، أن نرى في يوم من الأيام بجعة شفافة، لا لون لجلدها، يرى باطنها من ظاهرها، وإن كنا لم نشهد تلك الحالة قط! فالاحتمال الأول يسهل افتراضه بالقياس، وأما الثاني فبعيد عن القياس (لعدم النظير الذي يقاس عليه في تجربتنا)! ومهما استفاضت عادتنا الحسية بأن الأشياء إذا تركت مُعلقة في الهواء فستسقط إلى الأرض لا محالة، فإنه تظل الاحتمالية قائمة ولو بأقل من واحد بالمئة لأن يحدث خلاف ذلك!

وذلك أن الاحتمالية إنما هي عبارتنا عن حدود المعرفة الاستقرائية التي بها أسسنا تصوراتنا بشأن نظام العالم! فالقوانين الطبيعية إنما هي تقرير استقرائي لعلاقات سببية يلزم لتصح ولتصدق في كل حالة أن تتحقق شروطها السببية وتنتفي موانعها! فالسبب الطبيعي محل التنظير والتقنين إنما هو واحد من أسباب شتى لا نحصيها، منها ما هو طبيعي يخفى علينا مما قد يرجى الوصول لمعرفته ومن ثم تعديل القانون الطبيعي بما يدخله في الاعتبار، ومنها ما هو غيبي لا نظير له في الحس والعادة فلا يرجى الوصول إلى معرفته من طريق الحس والقياس البتة، وأولها وعلى رأسها في كل حالة مشيئة رب العالمين وأمره الإلهي النازل بالضرورة. ولا يتم التعليل في

كل حادث من حوادث العالم إلا بمجموع ذلك كله! فمهما أثبتنا بالاستقراء المستفيض من قانون طبيعي مطرد في تجربتنا وعادتنا، فليس بين أيدينا إلا حلقة أو حلقتان من سلسلة سببية لا يعلم حقيقتها إلا باريها سبحانه. فلا تكتمل تلك السلسلة (بتحقق كافة الشروط السببية وانتفاء كافة الموانع، واجتماع كافة المتولدات اللازمة) في كل مرة أترك كرة معلقة في الهواء، فتسقط على الأرض كما هي عادتنا، إلا بأمر الله ومشيئته وحده! فالنظام السببي المطرد أعقد وأضخم – في الواقع – بكثير جدا مما يعرفه الطبيعيون!

كل الطبائع في أنواع المادة تنتبي على أسباب غيبية لا يعلمها إلا الله [47]، يجب أن يكون الأصل (في حكمة الله تعالى وتدبيره) اجتماعها حتى تصبح صفات ملازمة للأشياء تكسبها تأثيرها في غيرها وتأثرها به على نحو ما جرت به عادتنا! ولكنها (أي منظومة الأسباب) مع ذلك ليس اجتماعها واجبا على الله في كل حالة، الشروط السببية ليست واجبة التحقق، والموانع ليست واجبة الامتناع، وإنما يجري الأمر على حكمة رب العالمين ومشيئته، فإن شاء قضى من الموانع ما تنكسر به السلسلة السببية، فتنخرم عادتنا ولا يجري القانون الطبيعي على ما عهدناه! فلا يلزم أن تكون خوارق عادتنا خوارق للنظام السببي الكوني بكليته على ما هو عليه في الواقع، وإنما تكون بالضرورة خرقا لتصورنا نحن القاصر لنظام الأسباب، فلا يكون ما عهدناه كونه سببا سببا، لأن من الأسباب التي لا نعلمها (مما يجب اجتماعه كله لحصول الأثر المعتاد) ما تخلف فيما يغيب عنا، فامتنع التعليل ولم يكن في شيء من الحوادث التي تكون في العادة أسبابا، ما يجعل شيئا منها سببا في تلك الحالة!

ولهذا قلنا إنه إن كان المقصود بالحتمية السببية، هو أن نوع الأسباب الطبيعية يجب من اجتماع أفراده في الماضي أن تحصل الحوادث في الحاضر على ما نراها عليه وجوبا حتميا، لا على خلافه، على طريقة لابلاس في قصر السببية Causality على نوع الأسباب الطبيعية دون غيرها، فهذه حتمية باطلة نردها قطعا ولا نقبلها! وهي من أصول الملة الطبيعية كما بينا، ألا وهي اعتقادهم أنه لا سبب في الوجود إلا السبب الطبيعي! ولكن إن قال قائل إن مجموع الأسباب الوجودية [48] لأي حادث من حوادث العالم، التي تبدأ بتقدير الله السابق ثم مشيئته وأمره وقضائه، ثم الأسباب الغيبية التي لا نصل إلى معرفتها إلا بالوحي، ثم الأسباب الطبيعية المحسوسة بالقوة أو بالفعل، التي هي ذيل السلسلة السببية من جهتنا، ولا يزيد القانون الطبيعي على أن يقرر بعضها، هذا المجموع إن حصل في الماضي، فيجب أن تنشأ عنه ثمرته في الحاضر ولا يحصل خلافها، وجوبا حتميا ضروريا، فهذا نقبله

قطعا ولا نقبل المراء فيه، لأن حقيقته هي التعلل التام لكل حادث من حوادث العالم بجميع الأسباب التي تسبقه، على ما قدره الله وكتبه في اللوح المحفوظ، وهذا واجب في العقل والسمع والحس جميعا! ولهذا نقول إنه مهما علم الطبيعيون بالاستقراء من النظاميات السببية الطبيعية ما علموا، فعليهم أن يتذكروا أن ترتب المسببات على تلك الأسباب التي علموها ليس حتميا ولا قريبا منه، مهما استفاضت العادة والاستقراء بذلك، ولا يملك الفيزيائي إلا أن يرجح جريان القانون الطبيعي على ما استفاضت به العادة، وترتب الأثر على المؤثر الطبيعي كما جرت به العادة، ترجيحا احتماليا، مهما كان واثقا في اطراده! فمهما انكشف لنا من الأسباب من جهتنا، فإنما نرى جزءا ضئيلا من أجزاء النظام السببي (الذي يحصل به التعليل التام) على ما هو عليه، ولهذا لا تكون عبارة الباحث الطبيعي إلا عبارة احتمالية مهما تأكد لديه الاستقراء واستفاض بقوة العلاقة السببية بين نوعين من أنواع الحوادث.

ولهذا كان من أعظم مغالطات الطبيعيين قولهم بالاحتمالية الوجودية Ontological Probability! وهي تلك المغالطة التي تتجلى في أظهر صورها في الخرافات الأنطولوجية المؤسسة عندهم على معادلة شرودينغر في ميكانيكا الكم! فالواقع الكمومي إنما انتهى الفيزيائيون إلى تلك المعادة في وصفه من الاستقراء المستفيض، كما كان هو طريقهم في وضع المعادلات لوصف غيره من مستويات الواقع المحسوس سواء بسواء. وبناء على ذلك الاستقراء، وبلحاظ محدودية قدرة الباحث الفيزيائي على رصد الظواهر الكمومية بعموم، وأن مجرد وقوع الرصد والقياس يتغير بسببه الواقع المرصود لزاما (لتناهي دقة موضوع الرصد نفسه)، وكذلك حقيقة أن الجسيمات الكمومية تكون جسيمات في أحيان وموجات أو مجالات للطاقة في أحيان أخرى، كان غاية ما استطاع شرودينغر وأعوانه الانتهاء إليه في توصيف ذلك الواقع الغامض هو أن يضعوا معادلة تصف خصائص الجسيم حال سلوكه مسلك الموجة Wave، وفي نفس الوقت تقدر مدى احتمالية وجوده كجسيم في هذا الموقع أو ذاك Location في وقت معين، أو مدى احتمالية أن يكون عزمه Momentum بقيمة كذا أو كذا في لحظة معينة (في إطار درجات الحرية المتصورة له Degrees of Freedom بالاستقراء التجريبي لعمليات القياس والرصد)، أو مدى احتمالية أن يكون دورانه Spin بمقدار كذا أو كذا. وهي احتمالية تتراوح ما بين الصفر والواحد الصحيح، ولا تبلغ هاتين القيمتين أبدا.

هكذا وُضعت المعادلة، وهكذا كان ولم يزل الفيزيائيون يستعملونها استعمالا يصفون به الواقع وصفا دقيقا (في حدود قدرتهم)، لولا صحة مبدأ السببية ما

أمكنهم التوصل إليه أصلا، وإن كانت المعادلة نفسها تخلو من الربط السببي التفسيري بين تلك المتغيرات وغيرها! ولهذا لزم وجود قانون سببي محكم خلف ذلك الواقع الغامض الذي تصفه تلك المعادلة وصفا احتماليا وإن لم نعلمه، هذه مسألة بدهية ظاهرة لا يماري فيها إلا مكابر للمحسوس والمعقول معا! أما هؤلاء فقالوا إن احتمالات أحوال الجسيم تكون كلها حاصلة معا في نفس الوقت، بلا سبب ولا مرجح، حتى تقع المشاهدة أو القياس Measurement، فيقع الجسيم على واحد من تلك الاحتمالات دون غيرها! وقالوا كذلك إن ما شوهد من ارتباط شرطي متباعد Non-local correlation بين سلوك بعض الجسيمات فيما يقال له "التشابك الكمومي" quantum entanglement، إنه من الصعب عند تتبع أزواج تلك الجسيمات أن يعرف أيها يكون التغير الواقع عليه سببا في التغير الواقع على الآخر المتشابك معه (مع أنه قد تقدم أنها ليست جسيمات على المعنى المعتاد، ولا موجات على المعنى المعتاد)! وإذن، يصبح عدم العلم علما بالعدم، ويُقفز مباشرة إلى القول بانهيار السببية وباللاحتمية .. إلخ!!

وهذا هو ما لأجله اعترض أينشتاين على تأويل كوبنهاغن واستهجن أنطولوجيا اللاسببية عند كثير من معاصريه! وصدق ولا شك، فإن فكرة اللاسببية أو اللانظامية، وفكرة الواقع الاحتمالي (التي بها قالوا بأن الجسيم الواحد يوجد في أكثر من مكان واحد في وقت واحد)، هي من أكثر الأفكار تناقضا وسخافة على الإطلاق! ومن الواضح بادي الرأي أن الخلل والنقص هنا يتجلى في معرفتنا نحن بالواقع الكمومي لا في الواقع نفسه، وإلا فمن الواضح الجلي البدهي أنه إذا كانت تلك الجسيمات هي البنية التي تتركب منها الأجسام الكبيرة، فلا يصح في العقل أن يكون النظام المحكم في تلك الأجسام راجعا إلى الفوضى والعشواء واللاسببية في الجسيمات التي تتركب منها! ومع ذلك، ولأسباب بسطنا الكلام عليها في موضع آخر من هذا الكتاب، أبى أكثر الطبيعيين إلا أن يسقطوا نقائصهم المعرفية على الواقع المرصود، ليجعلوا العشوائية والفوضوية أمرا متجذرا في أصل الواقع الخارجي نفسه، وليجوزوا لأنفسهم – كدهرية طبيعيين – ما أسسوا عليه عقائدهم بشأن الباري جل وعلا من هدم لمبدأ عدم التناقض، ولغيره من بدهيات العقل الأولى! فإذا كان الواقع عشوائيا فوضويا في أصل بنيته الجزيئية، فلا يحق لخصومهم أن يعترضوا عليهم إذا ما أسسوا اعتقادهم الكوزمولوجي في أصل العالم على الفوضى الابتدائية التي صيرتها القوانين الطبيعية – بالصدفة المحضة – كونا منظما، وكذا اعتقادهم في أصل الأنواع في الكائن الحي الأول المزعوم، الذي نشأ نشأة عشوائية محضة، ثم صيرته القوانين كذلك نظاما حيويا فيه ملايين الأنواع الحية التي بلغت الغاية في الدقة والتعقيد والتنوع! لذا كان من المهمات لدى هؤلاء أن يصبح العلم

الطبيعي الأول، الذي هو عندهم أساس العلوم الطبيعية كلها بل أم العلوم كلها، علم الفيزياء، الذي يبحثون فيه في ذلك المكون الأولي Fundamental Component الذي يتكون منه كل شيء بزعمهم، متجذرا هو الآخر في العشوائية والفوضى الوجودية [49]! من هنا ظهرت دعاوى انتفاء السببية نفسها في المستوى الكوانطي، والزعم بأن الواقع الكمومي واقع احتمالي محض، وأن الاحتمالات التي تصفها معادلة شرودينغر كلها واقعة متحققة في نفس الوقت، وهو ما رد عليه شرودينغر نفسه بتجربته الذهنية المعروفة إعلاميا "بقطة شرودينغر"!

ولكن كما تقدم، فإن جميع القوانين الطبيعية التي بين أيدي الفيزيائين لا تمدنا إلا بمعرفة احتمالية على أحسن الأحوال! صحيح إن منها ما يبلغ الدرجة العليا من قوة الاحتمالية (التي عندها يقال بيقين تام يُتهم مخالفه، وإن لم يكن ذلك اليقين منصرما [50]) لاستفاضة الاستقراء ووضوح موضوعه، إلا أنها ليست كلها كذلك! ولبيان هذه المسألة، هب أننا أردنا أن نصوغ ثابت الجاذبية الأرضية g – مثلا – صياغة احتمالية (وهو ذلك الثابت الذي لا يكاد يختلف اختلافا يذكر في أي موضع من مواضع سطح الأرض) [51]، فلنا – إن شئنا - أن نقول إنه يمثل "سحابة من الاحتمالات" Probability Cloud، أول هذه الاحتمالات هو سقوط الجسم إذا ترك معقلا، بتسارع يبلغ القيمة الثابتة g، والثاني هو أن يسقط متسارعا بقيمة أقل من g، والثالث هو السقوط بتسارع أعلى من g، والرابع هو أن يبقى الجسم معلقا في مكانه، والخامس هو أن يتباطأ في السقوط لا أن يتسارع، مع احتمالات كثيرة لسرعات التباطؤ، ثم احتمالات أن يرقى إلى أعلى بدلا من أن يسقط، إلى آخر ذلك. ثم نقول إن الاحتمال الأول له احتمالية تقترب من الواحد الصحيح، فتقدر قوتها بأكثر من تسع وتسعين وفاصل تسعة بالمائة 99.99 بينما جميع الاحتمالات الأخرى التي لا نكاد نحصيها، يقترب مجموع احتمالياتها من الصفر، فلا يزيد على الواحد بالمائة من المئة 0.01 أو أقل! فلماذا لا نرى عند الطبيعيين أي داع لصياغة معادلة احتمالية تخبرنا باحتمالية ما يتوقع حدوثه للجسم إذا ما ترك معلقا في الهواء تحت هذه الظروف أو تلك، احتماليات سرعته، واحتماليات تسارعه واحتماليات المواضع التي يتوقع أن يوجد فيها بعد زمن t من تركه حرا في الهواء؟ السبب أيها القارئ الكريم هو أننا لم يسبق لنا أن شاهدنا أيا من تلك الاحتمالات الأخرى المفترضة التي ذكرنا بعضها آنفا (وأقول بعضها لأن من الاحتمالات الجائزة عقلا كذلك ما لا نتصوره لعدم ما نقيسه عليه في تجربتنا!)، إلا في القليل النادر جدا! والنادر في الاستقراء لا تأثير له كما هو معلوم! وأما عند فحص وتتبع الجسيمات الكوانطية الدقيقة، فقد لوحظ أن دائرة الاحتمالات أوسع بكثير، لأنها في الحقيقة ليست جسيمات على المعنى الكلاسيكي المعتاد، وإنما

هي شيء هجين بين الموجة والجسيم، تظهر الجسيمات فيه إذا ظهرت، في إطار المجال الموجي الملازم لها! فمع كثرة المتابعة والاستقراء، أصبح بوسعنا أن نقدر الاحتمالات المتفاوتة لأحوال "الجسيم" [52] المتوقع أن نجده عليها عند رصده! ولهذا كان من الطبيعي للغاية – في ضوء النقص البالغ في المعلومات، والتقارب في الاحتمالات، وعدم ظهور أي مرجح سببي واضح عند الرصد والمشاهدة – ألا يجد الفيزيائيون طريقا للعبارة عن تلك المسالك أحسن من الطريق الاحتمالية الإحصائية!

والسؤال الآن: بأي وجه فرق الدكتور – أنطولوجيا (أي في الأعيان) – بين فعل الله تعالى على مستوى الأجسام الكبيرة الخاضعة للثابت g، وفعله على مستوى الجسيمات الكوانطية الدقيقة، فجعل الثاني "تدخلا بترجيح الاحتمالات"، يختصه بذلك المعنى اختصاصا؟؟ أو بعبارة أخرى: لماذا لا يقال إن وقوع الجسم الساقط بالتسارع g في كل مرة، ترجيح لذلك الاحتمال على غيره من الاحتمالات الممكنة لسلوك الجسم؟ ولماذا لا يكون "تدخلا" هو الآخر؟؟ الجواب: لأن الدكتور تابع للطبيعيين الغربيين – بكل أسف - في قولهم بالسببية الطبيعية المغلقة على المستوى الذي هو موضوع نظرية النسبية العامة، وفي قولهم باحتمالية الواقع الخارجي نفسه Ontological Probability على المستوى الذي هو موضوع معادلة شرودينغر، من حيث لا يشعر، بل من حيث يحسب أنه ينقض عليهم حتميتهم الطبيعية! فإنه لا أساس للتفريق عند أصحابه إلا هذا! بناء على القول بأن الواقع احتمالي على المستوى الكمومي، أصبح لابد لتلك الاحتمالات من مرجح لأحدها بعينه على غيره، تنهار معه جميع الاحتمالات الوجودية الأخرى التي هي بخلاف الاحتمال المترجح (أي تنعدم من الوجود فيبقى هو وحده وصفا لحال الجسيم)، وأصبح الترجيح نفسه – في جميع تأويلاتهم للمعادلة بلا استثناء - حادثا وجوديا حقيقيا سموه بانهيار دالة الموجة Collapse of Wave Function.

والحق الذي يجب أن يعتقده الفيزيائي المسلم هو أن لله تعالى أوامر وأسبابا وأفعالا بالغيب يجري عليها نظام العالم على المستويين معا، وأنها ليست أسبابا تترجح بها احتمالات على احتمالات، وإنما هي أسباب يجري بها نظام العالم على نحو لا نملك نحن من جهتنا إلا أن نستقرئ ما يظهر لنا منه استقراءً، ثم نعبر عن ثمرة ذلك الاستقراء بالاحتمالات التي تدلنا المشاهدة على رجحان ما يترجح منها في معرفتنا! وإنما افترق المستويان (مستوى الأجرام الكبيرة ومستوى الجسيمات الدقيقة) عند الفيزيائيين النظريين لعجزهم البشري عن وضع تصور واحد أو أنموذج واحد يجمع بينهما في التوصيف الفيزيائي! ثم افترقا في التصور الميتافزيقي الوجودي عندهم

لأسباب عقدية وفلسفية لا يجوز لنا أن نتابعهم عليها! فليس ثمة انهيار للاحتمالات في الواقع لأنه ليس ثمة وجود لحقيقة الاحتمالية نفسها إلا في أذهاننا نحن! وليس عمل الرب جل شأنه "تدخلا"، لا على المستوى الأول ولا على المستوى الثاني ولا على أي مستوى من مستويات التحليل المعرفي Epistemic Analysis التي يضطر الفيزيائيون لاختزال الواقع الخارجي إليها حتى يتمكنوا من فهم أجزائه وتوصيفها بما يلائم أغراضهم! إن مثل مقالة هؤلاء في التفريق بين مستويات التحليل كمن يقول: هذا الجسم لو حللته إلى عشرة أجزاء، فستجد تلك الأجزاء خاضعة لنظام سببي صارم لا تحيد عنه، ولكن إذا حللته وفككته هو نفسه إلى مئة مليار جزء، فستجد تلك الأجزاء متمحضة في العشوائية، بلا نظام ولا سبب تجري عليه البتة! فإذا كان القوم من دهريتهم وفساد اعتقادهم الغيبي، فرقوا بين المستويين التحليليين تفريقا وجوديا (في الأعيان) لا أساس له عندهم إلا ما اتفق لهم من استقلال النظريتين الموضوعتين في دراسة كل مستوى منهما رياضيا[53]، فجعلوا الأسباب في أحدهما مرتبة على نظام آلي صارم (أو كلاسيكي كما بات يسمى)، وفي الأخرى عشوائية لا نظام لها، كالذي يلعب بلعبة النردشير (وهو ذلك المثال الأثير لدى الرياضيين الغربيين عند تصنيفهم الكتب في نظرية الاحتمالات [54])، فنحن المسلمين أكمل عقلا وأحسن دينا من أن نتابعهم على ذلك الباطل اللجلج لا لشيء إلا لأن عليه اتفاق الأكاديميات الغربية المعاصرة!

فإذا فهمت ما تقدم كما ينبغي، تبين لك وجه الفساد العريض في قول الدكتور هداه الله: "لم تلغي الفيزياء الحديثة حتمية لابلاس وحسب، بل فتحت بمفهوم الاحتمالية الباب على مصراعيه للتدخلات الإلهية، فالإله قادر على التدخل في أي منظومة ليرجح أحد الاحتمالات على ما سواها، وبذلك يتغير المخرج بشكل جذري." اهـ. فلا الله يوصف بأنه "يتدخل في منظومة ما" ولا بأن لتدخله بابا تفتحه بعض قوانين الطبيعة وتغلقه غيرها، أو ينفتح له على مستوى الجسيمات الدقيقة كما لا يكون على مستوى الأجسام الكبيرة، ولا بأنه "يرجح أحد الاحتمالات على ما سواه" (على المعنى الكوبنهاغني الخرافي الذي بيناه) ولا شيء من ذلك الهذيان الميتافزيقي الطبيعي الذي لا يدري الدكتور أي لازم يرجع منه على اعتقادنا في صفة ربنا جل شأنه، سبحان الله وتعالى عما يصف الطبيعيون وأذنابهم علوا كبيرا!

ثم يضيف الدكتور إضافة تدل على عدم درايته بعقيدة أينشتاين والدين الذي مات عليه الرجل (كما لم يفهم عقيدة نيوتن من قبل)، فيقول: "يعارض أينشتاين مفهوم اللاحتمية في فيزياء الكم ويرى أن هناك قوانين دقيقة للغاية لم ندركها بعد، تحكم سلوك الجسيمات تحت الذرية، وبذلك يردنا إلى

ميكانيكية الفيزياء الكلاسيكية، لكن أينشتاين يرفض حتمية لابلاس التي تعتمد على أن الكون مغلق، بل يرى للإله دورا في الكون، كما كان نيوتن يؤمن. ومن ثم، سواء بقيت فيزياء الكم على ما فيها من لاحتمية أو تبنت مفهوم الميكانيكية، فهي ميكانيكية نيوتن المؤمنة، وليست ميكانيكية لابلاس الحتمية الملحدة." اهـ. قلت: لا أدري والله أأضحك أم أبكي من قول الدكتور هداه الله، "ميكانيكية لابلاس الحتمية الملحدة"! وكأن احتمالية هايزنبرغ الوجودية وفوضوية تأويل كوبنهاغن المتجذرة في أصل العالم هي الإيمان والتوحيد بعينه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! اعلم يا دكتور أن الفلسفة الدهرية التي أفرزت حتمية لابلاس الطبيعية، هي نفسها التي أفرزت احتمالية كوبنهاغن الوجودية، فلا تتعلق بأقوال غيرك ولا بترجيحاتهم بين النظريات، فهم – والله – ليسوا على دينك! ومن كان يثبت منهم ربا أو إلها ما، فيقينا ليس هو ذلك الرب الذي يتعين عليك كمسلم أن تؤمن به، ولا يمكن أن يكون!

فأما نيوتن فكان يؤمن – كما بيناه في موضعه - بصانع متحد مع صنعته غير بائن منها، فلا يكون مكان إلا وهو فيه وجوبا Omnipresent، (على مقتضى قوله بأن فراغ العالم Space لا حد له ولا نهاية في جميع الجهات)، فالفراغ عنده صفة من صفات الرب! ولم يزل العالم الذي يفترض فيه أنه صنعه بصورة ما أو بأخرى، يعمل على نظام واحد كالماكينة من الأزل وإلى الأبد، ولكنها ماكينة تحتاج من آن لآخر إلى أن "يتدخل" فيها إله نيوتن بإصلاح مسارات الأفلاك ونحو ذلك من ظواهر محسوسة لم يتمكن نيوتن من الإتيان فيها بتفسير أو تأويل طبيعي يستكمل به بناء ماكينته السرمدية على نحو يجعلها لا ينهار بعضها على بعض! فإله نيوتن كإله أرسطو، إله اتحادي منحط لم يزل هو والعالم موجودين وجودا واحدا متلازما من الأزل، وليس له قيام بأمر العالم إلا فيما تُستكمل به نقائص الماكينة الكونية الأزلية المزعومة! ولهذا انتقده لايبنيز (في السجال التاريخي المشهور الذي جرى بينه وبين تلميذ نيوتن المخلص صمويل كلارك) بإنه يعبد إلها عليل القدرة، يضطر إلى ملء زنبرك الساعة الكونية من آن لآخر قبل أن تتوقف، وكأنه غير قادر على جعلها تمضي مضيا مطردا بلا "تدخل" على ذلك النحو الذي آمن به نيوتن!

وأما أينشتاين، فلم يكن يثبت إلها بالغيب أصلا كما بيناه في غير موضع، ولو تكلف الدكتور قدرا من التأمل في كتابات الرجل عن الدين والغيب والإله، لوجد فيها ما يبين ذلك بيانا جليا، ويكشف عن عقيدة أينشتاين السبينوزية! فليس إيمانه بالإله هو السبب في اعتراضه على لاسببية (وليس لاحتمية) ميكانيكا الكم، وإنما هو إيمانه بتلك الحتمية اللابلاسية نفسها التي زعم الدكتور أن أينشتاين لم يقبلها! فالكون عند أينشتاين كان كآلة مغلقة تامة

الإغلاق، لا خارج لها ولا شيء قبلها ولا بعدها! وإذن فلا سببية إلا السببية الطبيعية، ولا سبب ولا حادث إلا ما كان نقطة في بحر الزمكان الوجودي المزعوم! ولاقتصار مفهوم السببية عنده على حوادث الزمكان التي يجب ألا تفصل بين السبب والمسبب فيها مسافة تجاوز قدرة شعاع الضوء على أن يقطعها في الفترة الزمانية الفاصلة بينهما، فقد كان يرى المحلية Locality شرطا من شروط السببية الطبيعية Natural Causation! وهو ما يعني بإيجاز أنه لا يكون الحدث (أ) سببا في الحدث (ب) حتى يكون مجاورا له أو مماسا له، في نفس محله! أما ألا يكون (أ) مماسا أو ملامسا ل(ب) حيث هو، فلا يمكن أن يكون سببا فيه، إلا بافتراض سبب طبيعي (ج) يتوسط فيما بينهما وإن لم يكن واقعا تحت الحس! فإن لم يكن (أ) هو السبب الطبيعي المباشر في (ب)، ومع ذلك ظهر ما يثبت ل(أ) تأثيرا في (ب) عن بعد، وجب أن يكون (أ) مؤثرا في (ج) الخفي، الذي بدوره ينقل التأثير نقلا طبيعيا إلى (ب)! أي أنه حتى يكون (أ) سببا في (ب)، فيشترط أن يلامسه أو أن يلامس سببا طبيعيا خفيا (ج) يكون هو الوسيط السببي بينهما، وإلا انهارت السببية كلها وهو ممنوع! والحق أن العقل يجيز أن يكون السبب الوسيط غيبيا مطلقا لا دخول له في نوع الأسباب الطبيعية البتة، ولا قياس له على شيء منها! فالأسباب ليس في العقل ما يقصر نوعها على ما هو "مادي" (أيا ما كان ما يقصدونه بهذا المصطلح) أو على نوع المحسوس بالقوة أو بالفعل! ولكن في دين هؤلاء، لا يجوز أن يكون السبب سببا إلا أن يكون طبيعيا، وإن كان الآن خفيا لا يرى، وعلى الباحث الطبيعي أن يجتهد في افتراضه بالقياس الطبيعي كما افترض غيره!

فكان اعتراض أينشتاين على زملائه أنهم أهملوا السبب الطبيعي الخفي (الذي كان هو يرى وجوب وجوده بين أي جسمين يؤثر أحدهما في الآخر عن بعد)، وبدلا من أن يسعوا في محاولة اكتشافه واستجلائه حتى تكتمل الآلة الطبيعية المغلقة سببيا، زعموا أن الأشياء يؤثر بعضها في بعض بلا واسطة طبيعية، وأن الحوادث قد تقع بلا سبب أصلا! أي أن أينشتاين اعترض على ميتافزيقا الكم لا لينتصر لإله غيبي كان يريد أن يثبت له فعلا أو تأثيرا في شيء من ظواهر العالم المحسوسة، ولكن لينتصر – خلافا لما زعمه الدكتور - لحتمية لابلاس "الملحدة" نفسها القائلة بأنه لا حادث إلا ما كان خاضعا بالضرورة لسبب طبيعي محسوس بالقوة أو بالفعل! وقد كانت حتميته الطبيعية اللابلاسية (المبنية على إله سبينوزا الطبيعي) سببا في جبريته، التي كانت من أهم أسباب اعتراضه على مبدأ الثواب والعقاب في الآخرة عند اليهود وغيرهم، كما تكلم به في غير مناسبة! أي أنه ليس في كبار الفلاسفة الطبيعيين المعاصرين من كان أشد تلبسا وتمسكا بالحتمية اللابلاسية الطبيعية الدهرية الغالية من أينشتاين، ومع ذلك يزعم الدكتور أنه

لم يكن يقبلها لأنها تستبعد عمل الرب الذي كان يؤمن به كسبب فعال، والله المستعان!

والسؤال الآن: ماذا كسب المسلمون – الذين خاطبهم الدكتور بكتابه - من تلبيس نيوتن وأينشتاين ثوب "المؤمنين" والمنتصرين للاعتقاد الصحيح في رب العالمين، سوى تصحيح الدهرية الربوبية ووحدة الوجود الطبيعية كاعتقاد في صفة الباري وأفعاله؟؟ وأين هو "دور الإله في الكون" الذي كان يثبته أينشتاين، على كثرة ما أثر عن الرجل من كلام في الدين؟؟ وما حقيقة ذلك الإيمان الذي ينسبه الدكتور لهؤلاء وبأي شيء آمنوا على التحقيق؟

في تقديمه ميتافزيقا معاصريه من الفلاسفة الأكاديميين على ما سواها، مهما انحطت في مرتبتها العقلية وفي بعدها عن الأدلة النقلية!

إن آفة المتكلم الجهمي في كل عصر، أيها القارئ الكريم، هي حرصه – لأهواء لا تخفى - على استعمال الميتافزيقا المعظمة أكاديميا في زمانه لإثبات الصانع، تسويغا لإيمانه به بين أيدي أقرانه من الفلاسفة، ثم استخراج صفات ذلك الصانع من مقتضيات تلك الميتافزيقا كيفما كانت، ومن ثم الزعم بأن الإسلام جاء بها، وهو ما يظهر لنا إن أعدنا النظر في فهم النصوص وتأويلها، والله المستعان! ليست القضية قضية تقديم ما يقطع به العقل على ما هو ظني من فهم النصوص عند التعارض، كما لم يزل رؤوس الكلام القدماء يصورونها تلبيسا، فهذه قاعدة لا يخالف فيها عاقل من عقلاء المسلمين! وإنما القضية هي حقيقة ما زعموه قطعا عقليا وضرورة ملجئة للتأويل! من أين جاؤوا بتلك القطعية المزعومة وما مستندهم فيها؟؟ هذا هو بيت الداء، فتأمله!

واليوم أصبحنا نرى متكلمة لا وزن لأكبرهم في سوق العلوم العقلية ولا العلوم الشرعية، ازدادت صنعة الكلام معهم انتكاسا فوق انتكاس، فلا يبالي أحدهم أي شيء قدم على ما زعمه فهما ظنيا للنصوص، أيقدم دعوى استنباطية يراها ضرورية لا تحتمل المعارض، أم يقدم قانونا استقرائيا لا يمتنع انخرامه، أم يقدم نظرية افتراضية لا أساس لفرضها التفسيري إلا الوهم والتخمين المحض؟! فصارت تخمينات الطبيعيين الغيبية Metaphysical Speculatuions التي لو وقف عليها الفلاسفة الأولون لأشبعوها سخرية واستهزاء، تقدم عندهم على المسموع والمأثور بل والمعقول عند ظهور أول معارضة، لا لشيء إلا لأنها هي "العلم الحديث" المعتمد أكاديميا في هذا الزمان، الخاضع لتحكيم الأقران Peer Review، والله المستعان! ولا شك أن ذلك الفارق الظاهر بين الجهمية الأوائل

والمعاصرين يرجع إلى فارق مهم ومؤثر بين الميتافزيقا الأكاديمية المعتمدة عند الأولين ونظيرتها عند المعاصرين! فالثابت هنا هو مبدأ التبعية المعرفية، والمتغير هو المحتوى الميثولوجي نفسه الذي يتابَع عليه الطبيعيون في كل عصر! فبينما كان الأولون من الطبيعيين يعتمدون البرهان الاستنباطي العقلي المشائي منبعا لبناء المزاعم الميتافزيقية بشأن العالم بكليته وما فيه وما وراءه، أصبحنا نرى ذلك النوع من البراهين لا يلقى رواجا ولا قبولا في الأكاديمية الطبيعية المعاصرة ولا يصبر عليه القوم ولا يحبونه! بل يجب أن يكون الزعم الميتافزيقي في صورة فرضية تفسيرية تجري على قواعدهم في بناء التفسيرات الطبيعية Inference to Best Explanation، وإلا كان من جملة "كلام الفلاسفة" الذي لا يرفعون به رأسا! وهذا من انتكاسات العقل ولا شك، لأن نوع البرهان الاستنباطي A-priori أقوى منطقيا من الدليل الاستقرائي A-posteriori، ومقدماته إن صحت، أفادت القطع بصحة النتيجة بإجماع العقلاء، خلافا للدليل الاستقرائي، فكيف بالفرضية التفسيرية العارية عن المستند الاستقرائي؟! لست أقول إن براهين المتكلمين الأوائل فيما خاضوا فيه من غيب محض كانت قطعية أو مقبولة منهجيا، ولكن أنبه إلى نوعها وطريقتها التي لم يعد لها رواج في الأكاديمية الطبيعية اليوم، مع أنه أقوى بمراحل من أنواع أدلتهم (بما فيها العبارة الرياضية التي عدوها من جملة الأدلة على صحة نظرياتهم وليست كذلك كما بسطنا الكلام عليه في محله)!

وقد بينا في غير هذا الموضع السبب التاريخي والسوسيولوجي في كون المشتغلين بصنعة الكلام العصرية بعموم ضعافا في العقليات أشد ما يكون الضعف، مقارنة برؤوس تلك الصنعة نفسها في القرون السالفة. فهم لا يدربون تدريبا نظاميا كافيا على مهارات التفكير النقدي والنظر العقلي، ولا يتسع وقتهم وبرنامجهم الأكاديمي Academic Program في التعليم الجامعي لذلك، وإنما ينخرط أحدهم في تخصص طبيعي أو تجريبي دقيق، فيغرق إلى حقويه في منظومة فلسفية معينة لا يملك من الأدوات النقدية ما يمكنه من النظر في أسسها الكلية التي تقوم عليها وفي مسلماتها الفلسفية التي يجب عليه أن يحرر موقفه العقدي منها أولا قبل أن ينخرط في البحث في فرع من فرع من فرع من فروعها! فعندما تأتي اليوم إلى عالم أحياء يعمل أستاذا أكاديميا في قسم مستقل يسمى بقسم علم أحياء الفضاء Astrobiology مثلا، فتقول له: إن الأساس الفلسفي الذي يقوم عليه مجرد فرض وجود دواب من أي نوع في كوكب من الكواكب السيارة، هو أساس فاسد، بدليل كذا وكذا، فلا تتوقع أن يسمع منك فضلا عن أن يقبل! لماذا؟ لأنه لو قبل ما تقول، للزمه أن ينخلع من مقعده الأكاديمي، ليتحول من باحث مرموق له منزلته بين أقرانه، إلى مبتدئ في علم جديد

لم يتدرب عليه ولا يجيده، وهذا أمر تشتد عزائم الهوى في نفسه على بغضه والتنفير منه ولا بد! فإذا حدثته في باب الدليل والاستدلال، رأيته لا يجري على لسانه إلا مصطلح "الدليل العلمي" Scientific Evidence، يقصد به آلة أقرانه في بناء نظرياتهم والاستدلال لها، أما أن يكون لديه تصور لطريقة إثبات صحة مبدأ استعمال تلك الآلة نفسها في ذلك النوع من المسائل من الأساس، وما يقدم في ذلك عقلا وما يؤخر، على ما يترتب عليه – بالضرورة – من أحكام فوقتخصصية Metadisciplinary، فلن تجد لديه شيئا من ذلك!

ولهذا لا نعجب عندما نرى الدكتور عمرو هداه الله يذكر برهان الحدوث عند المتكلمين ذكرا عابرا من باب الاستئناس أو الرياضة العقلية، ثم يأتي ببرهان إمبريقي هو في الحقيقة أوهى منه بأضعاف مضاعفة من حيث إفادة العلم، يقول معه بكل سهولة "إن العلم قد قال كلمته" (هكذا!) يعني في مسألة حدوث العالم، وهو مع ذلك يحسب أنه قد جاء أخيرا بأحسن ما يرام في ذلك، وحسم جدال الفلاسفة القديم! وقد مر معنا نظير تلك الفلسفة المعرفية المنكوسة عند استعراض تلبيسات الدكتور "محمد باسل الطائي" فيما يعده هو تجديدا لما سماه "بعلم دقيق الكلام"! والسبب في ذلك أن الجهمية في كل عصر يتلبسون بتقديم المصادر المعرفية المعتمدة أكاديميا عند كبار فلاسفة زمانهم فيما يتعلق بالمعرفة بالغيب وما فيه، كيفما اتفق لها أن تكون، على مصادر التلقي المعتمدة في نفس الأمر عند المسلمين! فلا عجب من أن تكون الحال اليوم أنه لا كلمة "تعلو" عندهم فوق كلمة المنظر الطبيعي في نظرياته التفسيرية الغيبية إذا ما تلقاها المجتمع الأكاديمي بالقبول، وإن كانت تقوم على أوهام لا على أدلة كما يزعمون! فلو كان قدر أن لم تحظ تلك الاحتمالية الوجودية الكوانطية المزعومة بما حظيت به من قبول أكاديمي واسع في زماننا، لما وجدنا الدكتور يسميها بالمؤمنة (في مقابل حتمية لابلاس الملحدة) ولوجدناه هو نفسه يلتمس طريقا لإثبات الصانع من طريق الميكانيكا الكلاسيكية الحتمية على ما استقر عليه أمرها في أكاديميات القوم! فهم أتباع الفيلسوف الطبيعي الأكاديمي المعاصر لهم، على أيما حال وجدوا بضاعته، والله المستعان!

ثم ينتقل الدكتور للكلام على ما سماه "بدور قوانين الفيزياء"، فيقول: "يطرح بعض الملاحدة تفسيرا ثالثا لوجود الكون، وهو أن قوانين الفيزياء هي التي شكلت الكون. ويؤيد الفيزيائي بول ديفيز (وأنا أيضا) هذا الطرح "بشرط" نسبته إلى الإله كسبب أول، فيقول: "إني لا أرتاح لفكرة أن سمكري سماوي أنشأ الكون، بل إن القول بأن بضعة قوانين رياضية استطاعت بدقة هائلة إيجاد الكون لهو أكثر إعجازا وأكثر دلالة على وجود الإله."" اهـ. قلت: جوابنا عن هذا من وجوه. فأما أولا، فبأي عقل وفي أي دين يقال إن القول بأن الكون خلق تحت تأثير عدد من القوانين التي نقدر نحن البشر القاصرون على تصورها رياضيا، هو أكمل و"أكثر إعجازا" من القول بأن الرب خلق العالم خلقا على كيفية لا قياس له ولا نظير في تجربتنا البشرية على الإطلاق، ولا يخضع لشيء من قوانين العالم نفسه، وبأنه إنما ركب فيه قوانينه التي نسعى نحن في محاولة نمذجتها رياضيا بعدما خلقه وكونه، لا قبل ذلك؟ هذا والله خلف عقلي لا يستقيم إلا لدهري طبيعي، أو لذنب من أذناب الفلاسفة الطبيعيين! يا دكتور، لو صح أن كانت نشأة العالم على كيفية تخضع لقانون مطرد يمكننا نحن البشر أن نتصوره بالقياس على ما هو جار الآن في نظام الطبيعة، ومن ثم نعبر عنه بأنموذج رياضي نصفه به كما نصف عامة حوادث هذا العالم، للزم من ذلك صحة الاعتقاد الدهري الكلي القائل بأنه لا سبب إلا السبب الطبيعي، ولا غيب في الأسباب أصلا، وأن جنس السبب الطبيعي كان متقدما في الوجود على نشأة العالم نفسه، وإلا ما كانت حوادثه خاضعة له بكليتها!

فخبرني بربك كيف صح في عقلك أن يكون القانون الطبيعي سببا في خلق الطبيعة التي هو قائم بها لا بغيرها، والتي هي محل له لا يُعقل له وجود إلا فيها؟؟ إن القول بطبيعية حوادث النشأة أو بخضوعها لقانون طبيعي يقتضي جعل تلك النشأة نفسها حادثا طبيعيا قياسيا يجري في عالم موجود بالفعل من قبلها، تقوم به تلك القوانين التي "استطاعت أن توجد" الكون الذي نعرفه، تشكله بتغيير ذلك العالم القائم تغييرا "طبيعيا" (كليا أو جزئيا) من حاله الأولى التي كان عليها قبل الانفجار إلى حاله التي نعرفها! [55] ولولا دهرية أصحاب نظرية الانفجار نفسها واعتقادهم تسلسل الحوادث الطبيعية بلا بداية في الماضي، ما قالوا بها أصلا! فهي وإن كانت بداية العالم الذي نعرفه، إلا أنها ليست بداية الطبيعة Nature ونظامها الكلي عندهم على التحقيق! ولا يمكنهم أن يضعوا في نظرياتهم بداية للطبيعة أصلا، لأن أدواتهم المعرفية لا موضوع لها إلا ما هو طبيعي، وليس في الوجود عندهم، من الأزل وإلى الأبد، إلا ما هو طبيعي! فهم قائلون بقدم العالم على صورة من صوره لا محالة حتى مع قولهم بالانفجار المزعوم، ولا يصح أن يظن في

نظرية من نظرياتهم أن يكون العامل التفسيري فيها عاملا غيبيا فوقطبيعيا supernatural أصلا، لأن آلة التنظير الطبيعي Scientific Method لا تسمح بذلك! فإذا كانت تلك الفردية الأولى التي يتمسك الدكتور بإثباتها في مبتدأ تاريخ العالم، حادثا طبيعيا (وهي كذلك بموجب الطريق الذي به توصلوا إلى إثباتها)، فلا فرق إذن بينها وبين غيرها من حوادث الطبيعة إلا في الحجم والمقدار والضخامة، وليس فيها إذن ما يدل على حدوث العالم ووجود الصانع، تلك الدلالة "العلمية" التي يرجوها هو وغيره! ولهذا قلنا في آلة الموحدين إن نظرية الانفجار العظيم هذه لا يراها تحرج الملاحدة أو تلزمهم بإثبات صانع للعالم إلا من لم يفهم أساسها الفلسفي الدهري الذي تقوم عليه عندهم حق الفهم، سواء من الملاحدة أنفسهم أو من خصومهم من اللاهوتيين وأهل الكلام! وللأسف تعذر فهم تلك المسألة على بعض من قرؤوا كلامي فيها فاستنكروا مني نقضي على برهانهم الانفجاري وزعموني عونا لدوكينز وأصحابه، والله المستعان! وإني لأرجو أن أكون قد أعذرت لنفسي بكثرة ما تناولت هذه القضية المنهجية الفاصلة في هذا الكتاب بالشرح والبيان والتكرار مرة بعد مرة في عدة مواضع، ومع ذلك فإني أطالب من لم يفهم أن يسأل ويستفهم قبل أن يستنكر، وإلا فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها!

يا دكتور، لا يستقيم لرجل أن يثبت صانعا كامل الصفات بالغيب دون أن يجعل ابتداء القانون الطبيعي نفسه في الماضي وجميع أسبابه تبعا لجملة من أفعال الرب الغيبية سبحانه التي لا قياس لها في كيفها ولا في ترتيبها على شيء من حوادث العالم المشاهد، حتى مع كون حوادث خلق العالم قد امتدت لستة أيام الله أعلم بطول كل يوم منها، ومن ثم فلا يصح الخوض فيها بالقياس الطبيعي والنمذجة الرياضية، بأي صورة من الصور! يجب أن يكون نوع الحوادث التي خلق بها العالم وركب فيه قانونه ونظامه على ما هو عليه، غير خاضع هو نفسه للنمذجة الرياضية ولا للقياس التفسيري الطبيعي، لأنه ببساطة كان هو منشأ الطبيعة نفسها التي لا يملك القوم طريقا للتنظير إلا بالقياس على ما هو شاهد فيها!

وأما ثانيا، فقوله: "يؤيد الفيزيائي بول ديفيز (وأنا أيضا) هذا الطرح "بشرط" نسبته إلى الإله كسبب أول" قلت: أي إله هذا الذي تؤيد بول ديفيز على جعله السبب الأول يا دكتور؟ إلهه هو أم إلهك أنت؟ وأي الإلهين أوفق في صفاته وأليق بذلك الطرح الطبيعي المحض؟؟ لا يدري الدكتور ولا أحسبه يبالي بأن يدري، وإلى الله المشتكى! هذه هي طريقة كل لاهوتي أو متكلم متجهم لا يتصور لنفسه أن يخالف الطبيعيين في شيء من نظرياتهم الغيبية المعتمدة عندهم قيد أنملة، مخافة أن يتهم على العقل والعلم، فلا يجد

لنفسه إلا أن يقول: قبلتها منكم لكن بشرط أن تجعلوا الإله الذي أعبده هو السبب الأول من ورائها! قولوا ما شئتم في أمر الغيب، لا أخالفكم ولا أنازعكم البتة، ولكن دعوني أؤمن بأن "الإله" هو سبب كل شيء، فإنه إيمان لا يتناقض مع ما تقولون، وسأثبت لكم ذلك!" ثم يمضي ملتمسا أسباب إقناع أولئك الطواغيت العتاة الجحدة (ومن وافقه في الافتتان بهم وببضاعتهم من بني جلدته) بأن دينه يجري من أوله إلى آخره على وفاق تام مع أحدث النظريات والفرضيات التفسيرية الكونية المعتمدة عندهم أكاديميا، ولا يخالفها طرفة عين! فبالله من المنتصر على الحقيقة والحال هذه؟ الفيلسوف الدهري، أم أولئك الأذناب المنهزمون؟؟ سلمنا الله والمسلمين!

وأما ثالثا: فبول ديفيز هذا الذي يوافقه الدكتور، يقول في وقاحة بالغة فيما نقل عنه: "إني لا أرتاح لفكرة أن سمكري سماوي أنشأ الكون، بل إن القول بأن بضعة قوانين رياضية استطاعت بدقة هائلة إيجاد الكون لهو أكثر إعجازا وأكثر دلالة على وجود الإله." اهـ. قلت: فهذا الكلام الذي نقلته يا دكتور، حقيقته تسفيه الرب الذي يؤمن المسلمون بأنه خلق العالم وقضى فيه أمره وقانونه ونظامه حال خلقه، لصالح إله عدمي عاطل عن كثير من صفاته، وجد النظام الطبيعي قائما من قبل فاستعمله في خلق العالم، كما يصنع أحدنا ماكينته بأسباب يخضع فيها كلها لقانون الطبيعة الذي لا يملك خروجا عليه! فسبحان الله وتعالى عما يقول هذا الرجل علوا كبيرا! بل إنه تسفيه لأصل مبدأ الإله نفسه، فديفيز هذا ملحد طبيعي لا يثبت غيبا أصلا، وهو من أنصار ميتافزيقا العوالم المتعددة التي أعلن الدكتور الحرب عليها، وله تصانيف ككتاب "عقل الإله" The Mind of God وكتاب "الإله والفيزياء الجديدة" God and The New Physics، مشحونة بالشبهات الفلسفية ضد مبدأ وجود الإله الذي يفترض أنك تؤمن به يا دكتور!

ثم يقول الدكتور (ص. 113): بعد أن طرحنا موقف الملاحدة من الكون، يأتي دور موقف المؤمنين" قلت: ومن جديد نقول: أي مؤمنين؟؟ المؤمنين بأي إله على وجه التحديد؟؟ فإن الإله الذي نؤمن به نحن المسملين، ويفترض أنك معدود من المؤمنين به، ليس هو الإله الذي يؤمن به بول ديفيز قطعا، ولا الذي آمن به نيوتن ولا هو ما آمن به داروين، ولا هو ما آمن به أحد من أولئك الذين جمعت كلامهم ووافقتهم عليه من غير اكتراث بما له من مقتضيات في صفات ربك، مع كونهم جميعا لا يتفقون في شيء من صفات الصانع الذي يثبتونه إلا النفي والتعطيل! وفي الوقت الذي يصطنع فيه هؤلاء جميعا الاعتقاد في صفة ربهم بما يناسب "أحدث صيحة" أكاديمية في نظريات الفيزياء وعلى ما تقتضيه كوزمولوجياهم المعاصرة، فلا نتلقى نحن

الاعتقاد في صفة ربنا ولا في غيب السماوات والأرض بعموم إلا من كتابه سبحانه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم! فانظر في أي الفريقين تحب أن تحشر يوم القيامة يا دكتور، هدانا الله وإياك.

في برهان الحدوث (الكوزمولوجي) عنده

يمضي الدكتور عندئذ ليحرر جملة من البراهين اللاهوتية الطبيعية لإثبات الصانع Natural Theological Arguments، التقطها من كتب اللاهوتيين النصارى المعاصرين، مع اطلاع عابر على كلام المتكلمين القدماء من أهل القبلة. فيقول تحت عنوان "البرهان الكوني Cosmic Argument [56]": "تتصدى نظرية الانفجار الأعظم للإجابة عن التساؤلات حول "الحادثة الأولى" First Event في نشأة الكون، لكنها لا تتعامل مع السبب الأول First Cause ولا شك أن هناك فرق. لذلك بعد أن عجز علماء الكون (يعني الكونيات) عن طرح أي تفسير مادي معقول لحدوث الانفجار الكوني الأعظم، استحضر العديد من الفلاسفة والعلماء المعاصرين ما يعرف ب"برهان الإيجاد أو برهان الخلق" من علم الكلام، وأطلقوا عليه البرهان الكوني، الذي أصبح من أكثر البراهين (العلمية / المنطقية) دلالة على وجود إله خالق للكون."اهـ. قلت: هذا كلام من يكابر في مفهوم التنظير الطبيعي نفسه! يا دكتور أنت تعلم تمام العلم أن نظريات الطبيعيين تفترض التفسير الطبيعي على طريقة Inference to the Best Explanation! وهو ما يعني أن كل حادث ماض يفترضه الكوزمولوجيون في نظرياتهم حول تاريخ الكون، فإنما يفترضونه كتفسير سببي للواقع المحسوس المرصود، وليس كمجرد حادث وقع في الماضي! فالحادث الأول في تاريخ الكون عند الكوزمولوجيين هو السبب الأول في كل ما جرى في العالم بعد من حوادث، ما داموا قد سموه "بالأول"، لأنهم إنما افترضوه – من الأساس - بطرد قوانين الأسباب الطبيعية في جهة الماضي! هذه مسألة من لم يفهمها، فليس ملما بمنهج الكوزمولوجيين في تطبيقهم آلة البحث العلمي على موضوع بحثهم وفي وضعهم ما يضعون من فرضيات، وليس لمثله أن يتكلم في تلك القضايا أصلا!

فمن كان من الكوزمولوجيين المعاصرين يقول بزمان افتراضي قبل نشأة الزمكان، فهو ذاهب إلى افتراض سبب طبيعي آخر متقدم على ذلك السبب (حادث الانفجار)، وإلى مثله من قبله، وهكذا في تسلسل لا يمانع من القول به، كما تراه في نظريات روجر بنروز مثلا، أو عند ألان غوث صاحب فكرة التضخم Inflation الذي "يقترح" أن يكون عالمنا كونا كيسيا Pocket Universe، أشبه بالورم المنتفخ في جسم كون أكبر، وفي فرضيات الكون المتردد وغيرها! وأما من كان يقول إن الزمان نفسه بدأ مع الزمكان، فهو

ذاهب إلى القول بأن حادث انفجار الفردية كان هو السبب الأول الذي لا يمكن أن يكون ثمة سبب قبله، لأنه ليس قبله قبل أصلا (وقد بينا تناقضهم الفج في هذه المسألة في محله من هذا الكتاب وغيره)، كما في نماذج ستيفن هوكينغ وأصحابه. وإذن فقد انتهت عنده سلسلة الأسباب الطبيعية وقضي الأمر. هذان هما المدرستان السائدتان عند الفيزيائيين المعاصرين في هذه المسألة، وتحت كل واحدة منهما ما لا يكاد يحصى من النظريات والتخمينات العريضة Speculations! وكما ترى، فليس في أي من تلك النظريات ما "يعجز" الكوزمولوجيين عن افتراض تفسيرات سببية طبيعية لأصل الانفجار الكبير! كل ما يتطلبه الإتيان بنظرية جديدة تضاف إلى بحر النظريات في تلك المسألة، هو قدر من الخيال الخصب، مع مهارة رياضية بالغة وقدرة على افتراض وحل الحالات الخاصة الوهمية لمعادلات النسبية العامة، والتلاعب بمعادلات نظريات الأوتار الفائقة، مع دراية كافية بمعادلات ميكانيكا الكم! فالذي وضع خرافة البيغ بانغ باستعمال آلة الافتراض التفسيري التخميني Conjectural Explanation، أي شيء يعجزه عن وضع خرافة أخرى قبلها من نفس الطريق؟؟ والمنهج الطبيعي Scientific Method الذي به قبلت أنت يا دكتور نظرية الانفجار والانتفاخ والتضخم وهذا الهراء، كيف لم تقبل به هو نفسه، نظير ذلك مما فرضوه سببا طبيعيا للانفجار نفسه؟؟ هذا هو التناقض المنهجي العميق الذي لا ينتبه إليه اللاهوتيون ومن تشرب ببضاعتهم من متجهمة أهل القبلة، والله المستعان!

أليس من الجائز غير الممتنع، على طريقتك، أن يقال إن "الإله" هو الذي خلق الخلاء الكوانطي الذي نشأ العالم فيه بالانفجار تحت تأثير أسباب خاضعة لقوانين ميكانيكا الكم؟ أو يقال إن الإله خلق عالما كبيرا جدا لم تزل العوالم الصغيرة كعالمنا هذا تتولد فيه من فرديات الثقوب السوداء المزعومة، مثلا، كما هي نظرية بعضهم؟ أو يقال إنه خلق كونا بائدا متقدما على عالمنا هذا ثم انهار ذلك الكون على نفسه في فردية دقيقة، ثم انتفخت تلك الفردية وتضخمت لتصبح هي عالمنا هذا؟ أي شيء يرجح بين تلك المزاعم الفاحشة بشأن فعل رب العالمين على منهجك يا دكتور، أو به ترد كلها على أصحابها إن كنت فاعلا، ولماذا يجب أن تكون فردية البيغ بانغ ناشئة عن عدم مطلق (على معنى العدم الفلسفي الذي لا يقول به الفيزيائيون أصلا)، وأن تكون هي السبب الطبيعي الأول، ومن أين جئت أنت بهذا التحكم في طريقة الطبيعيين في اختلاق ميثولوجياهم الكونية؟؟ لا شيء إلا أنك قرأت كلام بعض اللاهوتيين الكبار في هذا العصر كويليام لين كريغ وغيره فأعجبك كما أعجب غيرك، وتابعته عليه كما تابعه غيرك، ثم جئت تدعي بكل سهولة أن "العلم" قد جاءنا أخيرا بما فيه فصل الخطاب في مسألة حدوث العالم، والله المستعان!

قال الدكتور (ص. 114-115) عند ذكر "الفرضيات" التي تخالف القول بأن الانفجار المزعوم قد سبقه عدم مطلق: "وأهم هذه الفرضيات، فرضية الكون المتذبذب Oscillating Universe، التي تشبه نظرية الانفجار الأعظم، لكنها ترى أن الكون نشأ من انفجار عظيم أعقبه انسحاق عظيم، أعاد الكون إلى حالة المفردة، ثم أعقب ذلك انفجار عظيم آخر، ثم انسحاق عظيم، وهكذا إلى ما لا نهاية في القدم، أي أن هذا التذبذب أزلي (قديم بلا بداية). وهذا الافتراض مرفوض في معظم الأوساط العلمية. بل إن العالمين الروسيين اللذين قدما هذه الفرضية عام 1963 قد رجعا عنها بعد سبع سنوات من طرحها لعدم استطاعتهما تقديم الدليل عليها، ومع ذلك ما زال المجادلون يستشهدون بها!" اهـ. قلت: سلمنا بأن نظرية التذبذب الأزلي هذه لا دليل عليها عند الطبيعيين، ولكن السؤال المنهجي الذي يجب أن يطرح على الدكتور في هذا المقام هو: هل تقبلها أنت إن قدر أن حصل في يوم من الأيام اتفاق أكاديمي على أن "الدليل العلمي" قد نهض بها أخيرا؟ إن قلت لا أقبلها، لزمك ما تفر منه من تقديم مصدر آخر من مصادر التلقي المعرفي على استدلالات الطبيعيين التي اتفقوا على قبولها أكاديميا، وإذن خرمت الشرط الذي شرطته على نفسك في مفهوم "الدليل العلمي" ونقضت غزلك بيديك! وإن قلت: أقبلها ولا أمانع، تلبست بالقول بقدم العالم الذي عُلم كفر القائل به علما ضروريا في دين المسلمين!

فما هو "الدليل العلمي" الذي لولا فقده عند أصحاب تلك الفرضية لقبلتها منهم (كما هو مقتضى انتصارك عليها ببيان عدم الدليل)؟؟ إن قلت لا يمكن تقديم الدليل العلمي على تلك المسألة أصلا، لأنها تتكلم في حوادث خارجة عن إطار عالمنا هذا، فلا يمكن إثبتها بالدليل التجريبي، قلنا فيلزمك إذن نظير ذلك الموقف فيما قبلته من نظريات في أمر النشأة وخلق هذا العالم نفسه، لأنها هي كذلك تتناول حوادث خارجة عن إطار المشاهد والمحسوس من حال عالمنا هذا، فلا يمكن إثبات شيء منها أو نفيه بالدليل التجريبي! وإن قلت بل يمكن تأويل المشاهدات المحسوسة بما يرجح هذه النظرية على تلك في أمر النشأة، وهو ما به ترجحت نظرية الانفجار العظيم على غيرها (كنظرية العالم الثابت القديم التي كان عليها القوم حتى النصف الأول من القرن الميلادي العشرين)، وهو ما لا مدخل إليه فيما كان قبلها، قلنا قد فرقت إذن بين المتماثلات منهجيا، لأنه كما أن حوادث بناء السماوات والأرض لم يشهدها البشر ولا شهدوا لها نظيرا، فكذلك ما كان قبل تلك الحوادث لم يشهده البشر ولا شهدوا له نظيرا، فإذا جوزت الاستدلال بالمشاهد والمحسوس من حال العالم على ما هو عليه، لإثبات صحة الفرضيات النظرية أو نفيها في النوع الأول (على طريقتهم في تطبيق

منطق القياس التفسيري Abductive Reasoning)، فعلى أي أساس منعته في النوع الثاني، مع أن كلاهما غيب محض يشهد العقلاء بأنه لا نظير له في تجربتنا البتة، فلا نحن شهدنا عالما كعالمنا يخلق من عدم أو من غيره، ولا شهدنا شيئا خارجا عن عالمنا متقدما عليه في الزمان؟؟ لا أساس إلا التحكم المحض!

ثم أضاف الدكتور فقال (ص. 115): "ويشبه مفهوم الكون المتذبذب مفهوم آخر، يرى أن المفردة التي بدأ بها الانفجار الكوني الأعظم يمكن أن تكون أزلية. ومن ثم يكون للانفجار الأعظم بداية، لكنه لا يحتاج إلى موجد باعتبار أن المفردة أزلية. إن هذا الافتراض يفتقر إلى الدليل العلمي على أزلية المفردة." اهـ. قلت: فيقال هنا كما قيل فيما تقدم! أي "دليل علمي" هذا الذي يتصور تقديمه لإثبات أزلية شيء ما؟؟ الأزلية لا يجيزها العقل إلا لواجب الوجود، الذي لم يكن من قبل عدما ثم أحدثه محدِث أو صنعه صانع متقدم عليه! هذه بداهة لا علاقة لها بما تسميه أنت بالدليل العلمي يا دكتور! وكذلك في نظرية الكون المتذبذب المزعوم، يقال إن سبب امتناع ذلك الماضي قبل حدوث عالمنا هو سبب عقلي محض، لأنه قول بتسلسل الأسباب الطبيعية وهو محال! فإما أن يكون الحكم في هذا راجعا للبداهة الأولى والمعرفة الفطرية، أو إلى ما جاء به الكتاب والسنة، أما "الدليل العلمي" الذي يشترطه الطبيعيون (وأنت تبع لهم)، فأجنبي عن تلك القضية جملة وتفصيلا!

أنت يا دكتور مفتون – بكل أسف - بمصطلح Scientific Evidence (الدليل العلمي) هذا الذي لم يزل يتنطع به دوكينز وكراوس وأصحابهما على الخصوم في كل مناظرة، تريد أن تقدم لهم أو لمن يعجبه كلامهم ما يصلح أن يكون دليلا على شرطهم المعرفي الطبيعي Naturalistic Epistemology، مع أنه شرط فاسد ساقط على أم رأسه من الأساس، ولا يجوز للمسلم العاقل أن يقبله في مثل هذا! فإنه ليس في هذه البابة من أبواب الغيب متسع للاستدلال الطبيعي التجريبي الذي يشترطونه أصلا، وإن رغمت أنوف الطبيعيين! الدليل عندنا معاشر المسلمين في ذلك إنما هو ما جاء به الوحي من رب العالمين، والعلم فيه إنما هو العلم بذلك الوحي رواية ودراية! هذا هو دليلنا العلمي في قضية أصل العالم وخلق السماوات والأرض وما بينهما، رضي من رضي وأبى من أبى! أما أن ينسب اسم العلم لشيء مستمد من غير ذلك المصدر في تلك المغيبات المحضة، كأن يقال إننا لما رأينا احمرار الموجات الضوئية الوافدة من النجوم، قررنا أن نفسر ذلك الاحمرار بكونها تمضي مبتعدة عنا، ثم قررنا أن نمد ذلك التباعد وصولا

إلى فسفه وجهالة لا يجوز السكوت عليها، دع عنك البناء والتأسيس عليها، وإلى الله المشتكى!

قال الدكتور (ص. 113) بعدما ذكر برهان الحدوث الكلامي: "وإذا كان هذا البرهان على وجود الإله الخالق قد بدأ كبرهان فلسفي عند علماء الكلام المسلمين، فإن العلم الحديث قد أضاف إليه من الأدلة العلمية (أثبت أن للكون بداية) ما قفز به إلى مصاف الحقائق العلمية التي تخضع للتمحيص العلمي." اهـ. قلت: مصاف الحقائق العلمية؟ الله أكبر! لا أدري والله أأضحك أم أبكي من هذا الكلام! ولكن صدق الذي قال: من تكلم في غير فنه أتى بتلك العجائب! يجب عند الدكتور ومن لف لفه أن يصبح الانفجار المزعوم في "مصاف الحقائق العلمية"، وإن كان المصدر المعرفي الذي تستمد منه الأدلة لإثباته، من أوهى المصادر التي عرفها بنو آدم على الإطلاق! لماذا؟ لأن المتكلم المفتون بفلسفة الطبيعيين الأكاديميين المعاصرين له (وهي فلسفة وإن رغمت أنفه!)، الحريص على أن يعدوه من نخبتهم، لا يرى طريقا لإظهار نفسه بين أيديهم في مظهر العالم العاقل السالم من التهمة بالجهل والسفاهة والتقليد في الإيمان، أحسن من أن يسوق إليهم البراهين الدالة على أن فلسفتهم الميتافزيقية نفسها تدل على وجود الباري! فإذا هو فعل، فلعله بذلك يستميل قلوب العامة من المفتونين بتلك البضاعة، فيقول لهم ابقوا على ميثولوجيا الطبيعيين كما هي، كما تجدونها في كتبهم ومعاهدهم، ولكن "بشرط" أن تجعلوا الصانع سبب الأسباب في مبتدء الأمر، وكان الله بالسر عليما! فإذا جئنا بذلك البرهان على ذلك النحو، فإننا نكون قد عالجنا شبهة التعارض بين العلم والدين علاجا جذريا، وإذن يصبح هذا هو الطريق المتين لتحقيق اليقين في أصل الدين، والطريقة المثلى لوقاية شباب المسلمين من مد الإلحاد وخرافات الماديين .. إلخ! فأي طريق أحسن لصيانة الدين في نفوس الشباب المعاصرين من إقناعهم بأن الدين لايتوافق مع "العلم" وحسب، بل إن العلم نفسه يدل العقل على أصل أصول الدين؟؟ هكذا يلبس الشيطان على المتكلمين في كل عصر، يوهمهم باضطرار المسلمين إلى طريقتهم في التوفيق بين "العلم" (أو العقل) و"الدين"، مع أنها في واقع الأمر، الطريقة المثلى لتلبيس الإسلام بدين الفلاسفة الطبيعيين والميتافزيقيين، وإغراق المسلمين في الزندقة والضلال المبين، فلا العلم الحق أصابوا، ولا الدين الحق نصروا، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

ونحن أهل السنة نقول للمعاصرين منهم كما قلنا للأولين من قبل: اتقوا الله في دينكم ودين المسلمين، ولا تقدموا زبالات العقول، المجاوزة حدودها، المقتحمة غيب السماوات والأرض وما ورائهما بالقياس بغير حق والقول

بغير سلطان، على ما أنزل الله في كتابه وما أرسل به رسوله من العلم الحق المبين! فوالله لن ينالكم من ذلك إلا الزندقة والضلال المبين! يفسد أحدكم دينه بيديه، فيمقته ربه، وينفر منه الصالحون من المسلمين، حتى الأرض التي يدب عليها تبغضه، ولا يرفع أولئك الفلاسفة الكبار – مع ذلك - به رأسا ولا يقيمون له وزنا كما يطمع، بل يقال له: "كفاك حشرا لإلهك في فجوات علومنا"! فلا تبتغوا وجوه الفلاسفة ولا تخضعوا لشروطهم الفاسدة ولا تخوضوا كالذي خاضوا، إن كنتم صادقين في طلب الهداية للمسلمين، وفي الحرص على تأسيس اليقين! ذروهم ودينهم وأساطيرهم في أمر الغيب، ولا تنافسوهم فيها، فوالله ما ضل القوم كما ضلوا إلا لما استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، ظلما وعلوا واستكبارا، فزعموا أن عقولهم ونظرياتهم تغنيهم عما جاء به المرسلون، بل تجعلهم هم أهلا لأن يتبعهم الناس كما اتبعوا المرسلين!

كلامه في مسألة "إله الفجوات"، وبيان تلبسه بها من طريقته الجهمية في تأسيس الاعتقاد الغيبي عند المسلمين على ميتافزيقا الطبيعيين!

ثم يتحفنا الدكتور بتخاليط فلسفية واصطلاحية بالجملة، قلَّ أن تجتمع كلها في صفحة واحدة، وذلك في رده على دعوى الملاحدة أنه لابد للإله من مصدر متقدم عليه! ولا عجب، فهو – بطبيعة تخصصه - أبعد عن ذلك المجال ومصطلحاته وطرائقه منه عن علم الفيزياء الذي ضرب فيه بسهم وافر من التخليط كما مر معك! فلا "واجب الوجود" على المعنى الذي حرره في قوله (ص. 117): "إذا تصورنا عدمه وهو الموجد الأول للزم ألا يكون لنا وجود"، ولا يصح أن يقال إن قانون السببية مخلوق كما في قوله "لا يمكن لخالق قانون السببية أن يخضع له"، ولا أن يقال إن "الذي خلق الزمان سابق للزمان"، لا على المعنى الميتافزيقي النسباني للزمان، الذي هو عين وجودية نشأت مع الانفجار العظيم، ولا على المعنى الذهني المطلق للزمان، إذ مجرد الأسبقية لا حقيقة لها في العقل واللغة إلا أن تكون ترتيبا زمانيا! ولا يفرق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للمعرفة والعلم، فينسب "المعرفة المطلقة" إلى رب العالمين، ويعلق صفة القدرة على كل شيء (أو القدرة المطلقة على مصطلح الفلاسفة المعاصرين) على دعوى أنه خلق العالم من عدم (يعني العدم المطلق كما ذكره من قبل)، وهذا لم يثبت من جهة السمع ولا من جهة العقل، وإنما الذي يوجبه العقل أن يكون العالم قد خلق بعد عدم نفسه، لا أنه خلق من عدم بمعنى "من لا شيء"، والله أعلم بما إذا كان للخلق من لا شء هذا ثبوت في شيء قبل عالمنا أصلا أم لا، وإنما نجوزه تجويزا لا غير! ويجعل قاعدة "شفرة أوخام" قاعدة منطقية ملزمة، وهذا باطل لأن القاعدة المنطقية هي ما يلزم عن خرمه التناقض، وهذا غير حاصل في تلك القاعدة، فلا تثبت شيئا ولا تنفيه، وحتى

أوخام نفسه لم يعدها قاعدة منطقية، وإنما هي قاعدة هيوريستية Heuristic (عملية) تساعد في عملية حل المشكلات Problem Solving بناء على مسلمات قد تناولناها بكلام طويل في الباب السابق! ولو مكث الطبيعيون واللاهوتيون يتجادلون قرنا كاملا من الزمان فيما إذا كانت القاعدة ترجح التفسير بالإله لأنه "أبسط" و"أقل في الفرضيات الغيبية" أم ترجح القول بعالم أزلي لا بداية له، وما إذا كانت ترجح إلها واحدا أم عدة آلهة، لما وجدنا أساسا للمقارنة والترجيح أصلا!

ويقول عن التساؤل "لماذا يكون إلها واحدا وليس عدة آلهة" إنه ربما كان مقبولا قبل أن يثبت العلم الحديث وحدة بنية الكون من الذرة إلى المجرة، وأن الوجود كله تحكمه قوى الطبيعة الأربع، وتحركه قوانين واحدة"، وهذا تخليط من وجهين على الأقل، إذ لم يكن العقل عاريا عما يبطل به ذلك الزعم الفاسد عظيم الفساد (تعدد الخالقين) قبل أن "يثبت العلم" ما زعم أنه أثبته! ثم إنه ليس في العلم ما يرقى لأن يكون دليلا على صحة المبدأ الكوزمولوجي (الاطراد المطلق للقانون الطبيعي المشاهد في تجربتنا المباشرة، ليغطي جميع أنحاء العالم) الذي عبر عنه الدكتور في هذا الكلام بكل جزم ويقين، والعجيب أنه قد نقل هو نفسه في فصل سابق من نفس الكتاب، اعتراض شيلدريك على تسليم الطبيعيين بتلك المسلمة بلا برهان، ووافقه عليه! فمن جعل المبدأ الكوزمولوجي هو "الدليل العلمي" على وحدة الباري، فقد استند من حيث لا يعي إلى ركن من أركان الملة الطبيعية الدهرية التي لا متسع فيها لموجود إلا أن يكون خاضعا لذلك المبدأ نفسه! ومجرد إثبات ذلك الصانع كموجود متحقق في الأعيان، يقتضي تقييد ذلك المبدأ الدهري الذي جعله الدكتور أحسن ما أثبت به "العلم" وحدة الصانع، على ما في إطلاقه الذي استند هو إليه من تحكم محض يعترف الطبيعيون أنفسهم بأنه لا دليل عليه، والله المستعان!

وإذن فحتى نعتقد وحدانية الباري اعتقادا لا متسع معه لقبول القول بشريك له واحد أو أكثر، يلزمنا الآن لا أن نسلم بصحة المبدأ الكوزمولوجي الدهري وحسب (ألا وهو القول بأنه لا موجود في العالم إلا وهو خاضع بالضرورة لنفس السنن السببية التي اعتدنا عليها في تجربتنا البشرية)، بل وأن نقطع باطراده وإطلاقه المطلق هذا قطعا لا يجرؤ عليه أكبر فلاسفة الطبيعيين إغراقا في التعصب لدهريتهم! ثم يرد الدكتور (ص. 119) على من يتهمونه وأمثاله بحشر آلهتهم في الفجوات المعرفية عند الطبيعيين God of the Gaps، فيذكرهم بأن المسألة التي فسروها بالفعل الإلهي ليست "آلية ما" أو "حدثا أول" يمكن أن يتوصل العلم لتفسيرهما، "لكننا نتحدث عن السبب الأول وراء كل الآليات وكل الأحداث." اهـ. قلت: فإلى الآن لم نر منه في

الفرقان بين ما يمكن للعلم الطبيعي أن يفسره، وما لا يمكن للعلم الطبيعي أن يفسره، إلا التحكم المحض! لماذا يجب على الملحد أن يقبل منك تغييبك ما وراء الانفجار المزعوم بوصفه "سبب الأسباب كلها" و"مصدر الآليات كلها"، وقد قبلت أنت منه "تطبيعه" لموضوع الانفجار المزعوم نفسه (نشأة العالم بكليته)؟؟ ما الذي يمنع على مذهبك من أن تكون مسألة النشأة Origins (التي قبلت أنت منهم جعلها موضوعا للتنظير الطبيعي) شاملة لأسباب طبيعية أخرى قبل الانفجار المزعوم، فلا يكون سبب الانفجار هو "سبب الأسباب كلها"؟ ما الذي يمنع من أن يدخل في مصطلح الكون Universe الفردية المزعومة وحوادث أخرى كانت قبلها يفترضونها افتراضا على نفس الطريقة التي فرضوا بها الانفجار نفسه وما جرى بعده، وجعلوه بداية تاريخ ما سموه بالكون؟

على نحلتهم، الوجود كله طبيعة في طبيعة، والأسباب والحوادث كلها طبيعية صرفة، فبنفس الأصول الكلية (أصول المنهجية الطبيعية Methodological Naturalism التي هي مصدر تلقي الدين الطبيعي) التي جوزوا بها وضع الفرضيات التفسيرية لتوصيف ما كان عليه حال العالم في الفردية المزعومة، جاز عندهم وضع مزيد من الفرضيات لتوصيف ما كان عليه قبلها! فبأي شيء فرقت أنت وقلت لهم: حسبكم نظرية الانفجار العظيم، لا نريد منكم تنظيرا فيما قبل ذلك، لا تفترضوا شيئا وراء ذلك؟؟ إن لم يكن معك إلا شروطهم هم وقواعدهم هم في قبول ما يدخله التنظير الطبيعي من حوادث الماضي مطلقة التغييب وما لا يدخله (كمبدأ الثابتية مثلا Uniformity الذي انتقدناه في غير موضع من هذا الكتاب وغيره)، فلست على شيء في إلزامهم بالامتناع عن فرض سبب طبيعي للانفجار إلا التحكم!

إما أن تقبل المنهجية الطبيعية فيوضع الفرضيات الغيبية التي ما أنزل الله بها من سلطان في تفسير أصل العالم (على أيما تعريف أطلقوه وقبلته أنت منهم لما يسمونه بالعالم)، فلا يأتوك بنظرية جديدة فيما قبل الانفجار إلا جوزتها من حيث المبدأ كتفسير طبيعي "للآلية" التي نشأ عنها الانفجار، وإما أن تحسم أمرك على منهج أهل السنة وتقرر أن الصفة التي كانت عليها السماوات والأرض قبل تمام الأيام الستة والاستواء على العرش، غيب محض لا يوصل إلى العلم بشيء من أمره إلا بالنص من الكتاب والسنة! أما أن تلتمس موقفا وسطا بين الموقفين، تتخذ من منهج الافتراض الطبيعي القياسي مصدر التلقي الأوحد لحوادث الغيب المحض فيما بعد الفردية المزعومة (الذي تلزمنا بتأويل النص الديني إذا خالفه، وتخطئة الاستدلال العقلي إذا ناقضه)، ومن الحجج العقلية والسمعية مستندا وحيدا فيما كان

قبلها من حوادث الغيب المحض، فتناقض منهجي ظاهر، تلبس به اللاهوتيون المعاصرون، وتابعهم عليه الدكتور وغيره من جهمية الطبيعيات في زماننا متابعة العميان، كما قال عليه السلام "حتى إذا دخلوا جحر الضب دخلتموه" والله المستعان لا رب سواه!

نحن ما شهدنا بأعيننا يوما من الدهر عالما كعالمنا "يخلق" بالانفجار أو الانتفاخ أو التضخم (... إلخ) من فردية متناهية الصغر، أو من غير ذلك من بدايات تلك الأسطورة عندهم! وما زعموه دليلا على ذلك المنشأ الانفجاري المزعوم، يصلح أن يكون دليلا على غيره بتكافؤ تام كما بينا! وكذلك فإننا لم نشهد من قبل عالما يتحول بالانفجار من حالة كان عليها قبل ذلك، إلى حال كحال عالمنا هذا، وكل ما يزعمه أنصار تلك النظرية دليلا على صحة تلك الأسطورة في تصور تاريخ هذا العالم، فيصح أن يكون دليلا على غيره من الفرضيات الواهية بنفس التكافؤ ولا فرق! من هنا كان التفريق بين المسألتين في قبول أو رد نوع الافتراض التفسيري الطبيعي، تفريقا واهيا لا مستند له في العقل إلا التحكم! فمن قال إن "الدليل العلمي" (هكذا) قد أثبت صحة الانفجار ثبوتا قطعيا، ولكن لم يثبت صحة أي نظرية فيما كان قبله، فقل له: هذا زعم عريض لا أساس له إلا الأماني، ولا يجاب عنه إلا بقول الدهرية الطبيعيون: أخرجوا عقائدكم الغيبية من فجوات نظرياتنا، وأمهلونا نأتكم بنظير ما قبلتموه منها من قبل، والله المستعان!

يا دكتور مهما أرجعت الناس إلى المنهجية الطبيعية كمصدر للاعتقاد في حوادث نشأة العالم، فقد ألزمتهم – شعرت بذلك أم لم تشعر – بالمنهجية الطبيعية الدهرية طريقا تُلتمس منه المعرفة فيما سوى ذلك من حوادث الغيب المحض ولا فرق، فافهم يرحمك الله! أي تحكم فوق أن يقول الدكتور (ص. 119)، على منهجه المتناقض الذي يدعو القراء لقبوله: "هل يمكن أن يكتشف العلم في المستقبل أن الكون لا بداية له، وأنه موجود من الأزل؟! .. لا! أو أن الكون الذي له بداية يمكن أن ينشأ ذاتيا من عدم مطلق؟! ... لا! أو أن السبب الأول لوجود الكون يمكن أن يكون سببا ماديا لا موجد له؟! ... لا!" اهـ. كان الطبيعيون قبل ظهور باردايم الانفجار في النصف الأول من القرن الميلادي الماضي يرون أن العلم قد "اكتشف" أن الكون (الذي هو العالم على ما عليه الآن) لا بداية له وأنه قديم أزلي، والآن يرى بعضهم أن العلم قد "اكتشف" أن الكون إن جعلوه هو هذه الحال التي نعهدها لعالمنا هذا، فله بداية طبيعية، وإن أرادوا به الواقع الطبيعي Natural Reality على امتدادها إلى ما قبل تلك النقطة، فمنهم من لا يزال يرى الكون موجودا أزليا قديما لا بداية له، وإنما لم يزل يتحول من حال إلى حال، فالعلم على مذهبه قد "اكتشف" أن الكون الأزلي لا يزال يتحول من

حال إلى حال، قد "أثبت" العلم الحلقة الأحدث من حلقاته، ولا يزال يبحث فيما قبلها!

فعلى منهجك في قبول نوع التنظير الغيبي عند القوم في مسألة النشأة، ليس لك أن تطلق ذلك النفي يا دكتور! ولا لك أن تنفي إمكان أن "يكتشف العلم" أن العالم الذي له بداية لم ينشأ "ذاتيا" من عدم مطلق! فإن كان المراد "بذاتيا" أي من خلال حوادث كلها أسباب طبيعية مغلقة لا محل فيها لسبب غيبي من خارج عن العالم نفسه، فهذا بالضبط هو ما عليه أسسوا كوزمولوجيا (أو إن شئت فقل ميثولوجيا) الانفجار الكبير وقبلته أنت منهم! فأيا ما كان مقصودك "بالعدم المطلق" فقد قبلت منهم بالفعل ما يُلزمك بقبول مسألة النشأة الذاتية هذه بالتحويل الطبيعي من حال ما قبل الفردية المزعومة إلى ما زعموه بعدها! ولا لك أن تزعم استنادا إلى "العلم"، عدم إمكان "اكتشاف" [57] العلم سببا ماديا لنشأة الكون، يصفه الدهرية بأنه لا موجد له! كل سبب يكتشفونه هو على منهجهم "لا موجد له"، إلا أن يكون سببا طبيعيا مثله! فكيف تريد أن تلزمهم من منهجهم نفسه بأن ينتهوا عند الانفجار الكبير في سلسلة الأسباب الطبيعية، ثم لا يثبتوا قبله سببا إلا أن يكون هو "سبب الأسباب"؟؟

يا عباد الله افهموا أصول الدين الطبيعي قبل أن تغرقوا المسلمين فيها وأنتم تحسبون أنكم تنقذونهم من الإلحاد! لماذا تصر يا دكتور على أن تخرم قاعدة الانغلاق السببي الطبيعي عندهم لحوادث النشأة عند تلك النقطة بالذات، وقد قبلتها من أصحابها في كل ما كان في الماضي وصولا إليها؟؟ ألأن النصارى قالوا إن ما قبل خلق العالم كان عدما مطلقا، وظنوا أنهم لو جعلوه شيئا ماديا لما أمكنهم إثبات الحدوث؟ إذا كان الإله في دينك قد أجرى حوادث النشأة كلها في "تشكيل" هذا العالم على نحو ما انتهوا إليه من تفسيرات طبيعية محضة وصولا إلى نقطة الفردية المزعومة، فما المانع من أن يصبح دينك واعتقادك غدا أنه أجراه كله جريانا طبيعيا على نحو ما قالوه كذلك فيما قبل تلك الفردية، ولا فرق؟! اجعله كذلك، ثم امض معهم إلى مزيد من التعطيل والتأخير لفعل الرب في هذا العالم، حتى تنتهي إلى ما انتهى إليه غيرك من جعله إلها عدميا لا فعل له ولا صفة! وإلا، كان ردك لبضاعة الطبيعيين فيما قبل الانفجار – على منهجك في مصادر تلقي المعرفة بذلك الغيب المطلق – ترجيحا بلا مرجح!

هم قوم أصحاب منهج معرفي ديني واضح المعالم، على ما في أصوله الكلية من خوارم فاحشة للبداهة والفطرة، فلا سبب في الوجود عندهم إلا السبب الطبيعي، وجميع نظيراتهم في الغيب وما فيه جارية على تلك المسلمة! ما يسمى بعلم الكوزمولوجيا قائم كله على تلك المسلمة وغيرها

من مسلمات المنهجية الطبيعية، كما مر معك بيانه في أبواب هذا الكتاب! فعندما يأتيهم من يزعم أن من نظرياتهم الكونية الطبيعية ما يقتضي إثبات سبب من نوع هي قائمة أساسا على أصول معرفية تنفيه وجوديا ولا تدع لثبوته متسعا البتة (أنطولوجيا)، فهذا متطفل على دينهم ولا شك (وإن سموه هم "علما" ولم يعدون دينا)، جاهل بأصول ذلك الدين ومصادر التلقي فيه، وأيا كان ما يأتيهم به من اعتقاد يحشره في أسطورتهم، فهو كما سموه "إله الفجوات" God of the Gaps، رضي بذلك من رضي وكره من كره!

يزعم الدكتور أن رفضه إمكان اكتشاف صحة تلك الدعاوى التي زعم الطبيعيون أن العلم قد يكتشفها في المستقبل، هو رفض عن "علم" (نفس العلم الذي تكلموا هم باسمه!) وليس عن جهل، فيقول في الحاشية في نفس الصفحة: "لنبين معنى الرفض عن علم، نضرب مثالا فنقول: إذا توصلنا بعد دراسة شاملة لبنية الجسم البشري ووظائفه إلى أن الإنسان لا يستطيع الطيران إلا إذا استخدم آلة تعينه على ذلك، هل يمكن أن يأتي معترض ليقول لنا: لا.. ربما يكتشف العلم بعد فترة إمكانية أن يطير الإنسان دون الاستعانة بآلة. هل رفضنا لهذا القول راجع إلى نقص المعرفة العلمية (جهل) أم إنه رفض عن علم؟" اهـ. قلت: فهذا والله تلبيس عريض، يدلك على سطحية تناول الدكتور لفلسفة العلم ولمراتب النظريات والدعاوى التجريبية أو المنسوبة بعموم إلى العلم الطبيعي Science!

يا دكتور، أسألك بالله الذي خلقك فسواك فعدلك، هل مسألة إمكانية أن يطير الإنسان استقلالا بجسده، كمسألة خلق السماوات والأرض وما كان قبلهما، في مدى خضوعهما من عدمه لمفهوم "الاكتشاف العلمي"؟؟ هذا والله من أعجب العجب! صحيح إن دعوى العلم بقدم العالم تبطلها البداهة والفطرة، ودعوى دعوى النشأة الذاتية من العدم المطلق أو من غيره تبطلها البداهة كذلك، ودعوى أن "السبب الأول لوجود الكون يمكن أن يكون سببا ماديا لا موجد له" مثلهما، لكن هو لا يريد أن يحتج عليهم بالبداهة والضرورة، وإنما بأن العلم قد "اكتشف" بالفعل نقيض تلك الدعاوى، وهذا عندهم باطل ولا شك، وغير حاصل البتة! أي أن الدراسة الشاملة الوافية "للكون" هي التي أوصلتنا - كما هو مفهوم التشبيه – إلى "العلم" بأن اكتشاف تلك الأمور غير ممكن، على أساس أنه لا علم إلا العلم الطبيعي، ولا جهل إلا الجهل بالنظريات الطبيعية، فالواجب على كل مسلم إذن أن يرجع إلى علماء الكوزمولوجيا غير الملحدين ("المؤمنين" على اصطلاحه!) ليقولوا له هل يمكن اكتشاف جواب "علمي" لتلك المسائل الآن أم لا يمكن، والله المستعان!

ليس في الأرض يا دكتور من لا يعلم – باستقراء تام مستفيض – أن الإنسان لا يطير مستقلا بجسده، ولم تركب فيه القدرة على ذلك كما ركبت في الطيور! ومن الواضح الجلي أننا لم نحتج إلى أن ندرس الجسم البشري دراسة كاملة حتى نحكم بأننا لا نطير! فالعلم بعدم القدرة على الطيران هنا علم بدهي، منشأه الاستقراء التام، كما نعلم جميعا أن الشمس تشرق من المشرق كل يوم، أو أن القمر يصبح بدرا مكتملا مرة في الشهر! أما هذا النفي الذي نفيته في تلك المسائل، فمن أين جئت أنت به؟؟ من الدراسة الشاملة للكون؟؟ إن كان من البداهة العقلية، فتعال نكلمك عن البداهة العقلية والضروريات المنطقية وما يتعلق بها في نفس الأمر من ضروريات شرعية، ومحل ما قبلته أنت من أساطير القوم وأصولها المعرفية عندهم من ذلك كله! ولكنك، للأسف، لا ترفع شيئا فوق المنهج الطبيعي، هدانا الله وإياك!

إن المرء ليعجب حقا، كيف لا يرى الدكتور، بعدما عطل الباري جل شأنه عن تلك الصفات التي لا يكون ربا حيا ذا إرادة وفعل وحكمة على التحقيق إلا بها[58]، حتى يكون وجوده متفقا مع كوزمولوجيا الانفجار العظيم، وبالغ في تعطيله عن صفة الحكمة وإتقان الخلق وكماله، وعن خلق كل نوع حي بمشيئة مخصوصة، وعن خلق آدم خلقا مخصوصا كما أخبر في القرآن، حتى يكون وجوده ملائما لبيولوجيا التطور الدارويني (كما يأتي معك بيان تلبيساته في بدعة الخلق بالتطوير بعون الله تعالى)، كيف لا يرى مع ذلك كله أنه متلبس تحقيقا بما اتهمه به خصومه من إثبات أي صانع يلائم آخر ما انتهى إليه الطبيعيون من نظريات كونية معتمدة أكاديميا، كيفما كانت صفته، ليركبه في محل السبب الأول خلف ما يزعمونه في تلك النظريات من دعاوى غيبية أيا ما كان؟ وكيف لا يكون ذلك المسلك المخزي حقيقا بأن يتهم أصحابه بحشر إلههم في نظريات القوم بأيما وجه كان؟؟

لا يكون الإله الذي يثبته الجهمي صاحب الكلام إلا "إلها للفجوات الغيبية" على التحقيق، بصرف النظر عن النظرية الغيبية المعتمدة أكاديميا في زمانه، التي يحشره في فجواتها حشرا! فلما كانت النظرية الغيبية (أي التي تتناول غيب السماوات والأرض وبناء هذا العالم) المعتمدة عند كبار الفلاسفة هي نظرية الجوهر والعرض، وكان مفهوم الحدوث والمكان والجسم وغير ذلك، جاريا في حدود الفلاسفة وتعريفاتهم على تلك النظرية، كان الإله الذي يثبته الجهمي بناء على براهين الحدوث التي تتخذ من تلك النظرية أساسا لمقدماتها، موصوفا بما يناسبها من ألوان التعطيل ولابد، فكان "إلها للفجوات" من هذا الوجه وبهذا الاعتبار، يثبته الجهمي المتكلم بما يدخله في إطار ذلك الغيب الذي يزعم في النظرية أنها تقتضي وجوده

فيه! واليوم يسلك الجهمي المتكلم المسلك نفسه من تعطيل وتبديل صفات الرب جل وعلا بما يناسب نظرية الفلاسفة الكبار في غيب السماوات والأرض! تبدلت النظريات والجهمية نحلة واحدة! فاصطناع الاعتقاد في صفة الصانع وأفعاله اصطناعا بما يناسب النظرية المقدمة أكاديميا في العصر كيفما كانت، هو منهج الكلام وطريقة أصحابه (ومنهج اللاهوت Theology عند الملل الأخرى) من يوم أن ظهرت تلك الأهواء عند ضعاف النفوس من أهل الملل الكتابية وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها!

كلامه في فلسفة الرياضيات ..

ثم تحت باب "كون مستقر منضبط قابل للفهم وللتوقع"، نقل الدكتور هداه الله عددا من النقولات في تغني الطبيعيين بحقيقة قابلية الكون للتوصيف الرياضي، ثم قال (ص. 120): "ولا شك أن البعض سيقولون إن قوانين الطبيعة منضبطة رياضيا لأننا ببساطة لا نعتبر مفهوما ما قانونا طبيعيا إلا إذا كان منضبطا رياضيا. ولهؤلاء نقول: يدفع حجتكم أن الكثير من هذه القوانين والنظريات (كالنظرية النسبية) تم التوصل إليه بالحسابات الرياضية الدقيقة قبل ملاحظتها في عالم الواقع، ثم اكتشفنا أن الواقع يتطابق مع حسابتنا، إذا فالعلماء لم يختاروا ما هو منضبط في الواقع ليجعلوا منه قانونا أو نظرية." اهـ. قلت: هذا الكلام الذي أورده الدكتور مورد الشبهة، وزعم أن الملاحدة قد انفردوا به، لا يصح القول باختصاصهم به، ولا أن يرد عليه بمذهب المثاليين الأفلاطونيين Idealists / Platonists الذين يجعلون من الرياضيات حاكما وجوديا على الواقع، الذين انتصر لهم الدكتور من حيث لا يشعر!

دعنا نبدأ أولا بأن نسأل الدكتور: ما الإشكال في حقيقة أننا ننظر إلى العلاقات بين المتغيرات في الطبيعة السببية أولا فنراها ثابتة مطردة بدقة وإحكام في مقادير التغير، يجعلها مادة للتعبير الرياضي الدقيق؟ أين ما يقتضي صحة موقف الملاحدة الدهرية في هذه المسألة، وما الذي يجعلها شبهة تحتاج إلى دفع؟؟ سبحان الله! لو أنه نقل كلام من يريد الرد عليهم نقلا بدلا من العبارة عنه بالمعنى، لربما اتضح وجه كونه شبهة إلحادية، أما هذا الذي حرره فلا شبهة فيه أصلا! وإلا فمن الذي قال إن مذهب المثاليين في حقيقة الرياضيات يفيد في الرد على الدهرية الملاحدة؟؟

ليس في الفيزيائيين يا دكتور من يضع العبارة الرياضية عن نظام العالم دون أن يكون وضعه إياها قائما من الابتداء على تصور معين في ذهنه لموضوع بحثه المعين في الواقع، بصرف النظر عن صحة ذلك التصور أو فساده! حتى إنهم يسمون معادلاتهم – اضطرارا – بالعبارة الرياضية

Mathematical Expression، وصدقوا، لأنها إنما وضعت عندهم للعبارة عن واقع معين كما قاسوه في أذهانهم! فالتصور الأنطولوجي والميتافزيقي يأتي أولا، ثم تأتي العبارة الرياضية تبعا له! فهذا الكلام الذي "تدفع به"، يقوم عند أصحابه الذين تأثرت بهم على اعتقاد أن للرياضيات وجودا عينيا مستقلا، يملي على الفيزيائيين قوانين الطبيعة ليستكشفوها من طريقه، حتى بلغ بعضهم أن قال إن الكون "معادلة رياضية عظيمة، إنما نحن ماضون في استكشافها بأذهاننا"، وهذا غلو في المثالية الأفلاطونية لا يخفى إلا على من لا يدري!

والحق أن ما كان وجوده ذهنيا محضا (كالحقائق الرياضية)، كان خاضعا بالضرورة لأحكام التصورات الذهنية، التي تتفاوت بين ما هو بدهي أولي فلا يجوز رده، وما هو ذهني تجريدي مستنبط من أوليات متقدمة عليه، وهذا منه ما يكون استنباطه ضروريا فلا يندفع، وما يكون صاحبه متوهما صحته توهما فيرد عليه، ومن تلك التصورات ما يكون مستقرأ من إدراك الواقع، على درجات في قوة الاستقراء .. إلخ! وهذا التفاوت الحكمي هو وصف مطابق لحقيقة نوع العبارة الرياضية إجمالا، كما بيناه بتوسع في كلامنا على فلسفة الرياضيات عند الطبيعيين في هذا الكتاب! أما أن يقال إن الرياضيات إنما تُكتشف قوانين الطبيعة بالاستنباط منها (أي إن العبارة الرياضية المطابقة للواقع لا تستمد إلا من عبارة متقدمة عليها كانت مطابقة للواقع كذلك)، فهذا يقتضي تسلسلا لا ينقطع إلا بادعاء أصل عيني خارجي يخرج الرياضيات كلها من تلك القسمة التي ذكرنا، ومن ثم اختصاصها بوضع وجودي مثالي Idealist (أي في الأعيان) تستمد منه المعرفة بما في الواقع الخارجي استقلالا، وهذا لا يصح لشيء من الكليات الذهنية بحال من الأحوال! فالعقل الصحيح يقضي بأن تعد العبارة الرياضية عن النظام الطبيعي عبارة لغوية منطقية تجريدية لا غير، تربط بين التغيرات الكمية (متصلة كانت أو منفصلة) لمقادير الظواهر المتغيرة، ربطا إما أن يطابق الواقع فيكون صحيحا، وإما ألا يطابقه فيكون فاسدا، وإما أن يطابقه في حدود، فيكون صحيحا من وجه، وفاسدا من وجه [59]، كما بينا ذلك بتوسع في كلامنا على فلسفة الرياضيات عند الطبيعيين!

فقول الدكتور إن نظرية النسبية توصل إليها صاحبها "بالحسابات الدقيقة" غير صحيح بالمرة، فالحسابات هي ما يكون من الفيزيائي عندما يطبق المعادلة على حالة معينة، سواء واقعية أو افتراضية، وليس ما يكون منه عندما يصوغ تلك المعادلة نفسها! وعندما وضع أينشتاين نسبيته العامة، فإنما أتى في ذلك بنظام جيومتري معين لتوصيف ظاهرة الجاذبية، بعدما اصطنع في ذهنه أقيسة وجودية معينة لتصورها، تستدعي استعمال هندسة

ريمان للأسطح المنحنية، فطبق تلك الهندسة في إطار تعريفات ميتافزيقية استعملها هي نفسها في نسبيته الخاصة من قبل للزمان والمكان والعلاقة بينهما، وهي تلك النظرية التي تناول فيها عبارة صاحبه لورنتز الرياضية عن علاقة مشاهدة مطردة بين النظم القصورية! فتأولها هو في ميتافزيقاه بخلاف ما ذهب إليه لورينتز، ثم عمم ذلك التأويل على الأجرام السماوية والكون بكليته في نسبيته العامة بقياس الأسطح المنحنية كما تقدم! فالأمر كله يبدأ – بالضرورة – بتصورات ميتافزيقية وأنطولوجية معينة لنظم سببية واقعية تستفيض بها العادة، يبحث الفيزيائي عن العبارة الرياضية أو الجيومترية الأليق بها، لا أن أحدهم تأتيه في المنام – مثلا – صورة المعادلة مرسومة في ذهنه، فيخرج لينظر في الواقع فيراه على مصداقها!

وأما التنبؤات التي تفيدها النظرية بشأن الواقع فينظر فيما إذا كانت تطابق الواقع أم لا، فعندما تنبأ أينشتاين بأن ضوء النجم سينحني حول الشمس بتأثير جاذبيتها، فإنما دل ذلك على أن الضوء يخضع لتأثيرات الجاذبية كما تخضع لها الأجرام ولا فرق، وهو ما اتفق أن كان تصور أينشتاين الأنطولوجي للجاذبية (اعتقاده أنها انحناء في سطح وجودي خفي يؤثر بالأجرام الثقيلة ويتأثر بها!) يقتضيه كما يقتضيه غيره من التصورات الممكنة عقلا في نفس الأمر، فاعتبروه تعضيدا إمبريقيا Confirmation للنظرية، ولمعادلاتها التي تصفها بالتبعية! أما أن يقال إن تلك المشاهدة دلت على "مطابقة النظرية للواقع"، فهذا إجمال وإطلاق فاحش يجب التفصيل فيه!

وأنا أعجب حقا من قول الدكتور: "إذن فالعلماء لم يختاروا ما هو منضبط في الواقع ليجعلوا منه قانونا أو نظرية"! فما الذي حدث إذن يا دكتور في الحقيقة؟ هبط عليهم وحي من السماء مثلا، يخبرهم بأن يجعلوا هذه المسألة أو تلك قانونا أو نظرية؟؟ كلام عجيب والله!

موقفه من مسألة "الضبط الدقيق" الكوزمولوجية ومن المبدأ الأنثروبي

ثم ينتقل الدكتور بعد ذلك لتقرير واحدة من أكبر مغالطات الدور المنطقي Begging the Question في تاريخ الفلسفة الطبيعية بل والفلسفة بعموم، ألا وهي مسألة الاستدلال الكوزمولوجي بالثوابت الكونية الستة في مسألة المبدأ الأنثروبي ِAnthropic Principle! فهو ذلك المبدأ الذي حاصله (كما بيناه في آلة الموحدين) أن يقول الكوزمولوجيون: "إذا كان الكون الذي نجد أنفسنا فيه قد نشأ تحت تأثير الثوابت والقوانين الطبيعية، فإن هذا يدل على أن تلك القوانين والثوابت قد اجتمعت على نحو يناسب نشأتنا واستقرارنا في هذا الكون!" وهذا دور (منطق دائري) لا يخفى، لأن دعوى اجتماع الثوابت الفيزيائية على توفير أسباب نشأة الحياة بعد عدمها، إنما افترضها القوم افتراضا (في إطار وضعهم نظريتهم الكزمولوجية)، فلا

يصح في العقل أن يكون الافتراض نفسه دليلا على صحة نفسه! ولهذا لما كانت أولى العبارات ظهورا عن ذلك المبدأ (التي أصبحت فيما بعد تعرف بالمبدأ الأنثروبي الضعيف Weak Anthropic Principle) تنص على أن الكون الذي نحن فيه، لابد أن نجده متصفا بتلك الصفات (القوانين والصفات) التي تجيز وجودنا وتسمح به، كانت معدودة عند جماهير الطبيعيين والفلاسفة والعقلاء من قبيل تحصيل الحاصل / Trusim Tautology! فمن الواضح أننا ما دمنا نوجد في هذا العالم، فلابد أن تكون حوادث نشأته قد جرت على نحو يسمح بوجودنا (ولا نقول: ضروري لوجودنا) [60]، فكان ماذا؟؟ ألم يكن من الممكن عقلا أن نجد أنفسنا في عالم آخر بقوانين أخرى، تسمح – أيضا – بوجودنا على ما نحن عليه؟ على ديننا نحن المسلمين، الجواب بلى! وعلى دين الدهرية الطبيعيين، الجواب فيه تفصيل: أنه لو قدر اختلاف القوانين، لم يلزم من ذلك عدم الحياة، بل وعدم وجود نوع كنوعنا يطرح تلك المسألة للجدال والنظر، فمن المتصور كوزمولوجيا (أي من الجائز على نظريتهم) أن تترقى أنواع عاقلة كنوعنا، في عالم مخالف تماما لعالمنا، وتحت قوانين طبيعية مخالفة تماما وثوابت كونية مخالفة تماما! أي أنهم يوجبون أن تكون القوانين على نحو ما هي عليه حتى ننشأ على ما نحن عليه، بينما لا نوجب نحن ذلك، بل نراه تحكما في علم الباري وقدرته جل شأنه، بل لو شاء جل شأنه أن يخلق نوع آدم وبنيه في عالم ليس فيه ثابت واحد من تلك الثوابت الستة على هذا المقدار الذي نجدها عليه لما أعجزه ذلك، ولأجرى نظام الأسباب كله بما يجعله كذلك!

وليس الأمر في هذا المبدأ قاصرا على الدوران المنطقي، بل إنه يبلغ أحيانا أن تنقلب معه السببية، فيصبح السبب مسببا والمسبب سببا! قال الفيزيائي الأمريكي روبرت هنري ديك: "إن عمر الكون الآن ليس عشوائيا، وإنما اشترطته عوامل بيولوجية"! ولو أنه قال إن عمر الكون عند الطبيعيين إنما حدده الكوزمولوجيون بالنظر إلى ما فرضوه من فترات تاريخية متطاولة زعموها كافية لاستيعاب خطوات أسطورة التطور بعموم، التي منها التطور الدارويني، لكان أقرب! فالمتدبر المتأمل يمكنه أن يقول إن هذا هو منهجهم (إجمالا) في بناء أسطورتهم (بناء أولها على آخرها، أقدمها على أحدثها)! أما أن يقال إن العوامل البيولوجية هي التي اشترطت (وجوديا) على النظام الطبيعي أن يكون على نحو كذا أو كذا، فهذا خلف وهذيان! ولعله إن كان من معتنقي الحتمية الجينية Genetic Determinism (كعامة الدراونة الجدد) [61] أن يقول – إن سئل – إن الجينات لم تخلق الأنواع الحية لصالح حفظها ونشرها وحسب، بل وخلقت السماوات والأرض كذلك من قبل، بضبط ثوابت الكون في الماضي السحيق على نحو يناسب

ظهورها وبقاءها في الأرض! فإن قيل له: ولكن كيف تكون الجينات سببا في حوادث تسبق وجودها على الأرض ببلايين السنين (بحسب أسطورتهم)؟ فلعله يجيب ويقول: ألم تسمعوا بأن الكوانتم ميكانيكس تجيز السببية المنعكسة Retrocausality / Reverse causation، أي أن يكون الشيء سببا في أمور في الماضي تسبق وجوده هو نفسه؟ فلا مانع إذن من أن يصبح هذا تفسيرا علميا جيدا في يوم من الأيام لحقيقة كون نظام العالم وقوانينه وثوابته ملائمة هذه الملاءمة العجيبة لظهور الحياة على الأرض وتنوعها وانتشارها واستقرارها! وإذن تصبح "الجينات الأنانية" شريكا لرب العالمين ليس في خلق الأنواع الحية وحسب، بل وفي خلق السماوات والأرض كذلك، وهي السبب الأول الذي ينتهي إليه تعليل كل شيء ومنه بدأ نظام كل شيء، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والواقع أن المبدأ الأنثروبي هذا إنما وضعه الدهرية من الأساس (كما بيناه في آلة الموحدين)، حتى يقولوا إنه ليس في ملاءمة قوانين الطبيعة لحياة البشر على الأرض ما يدل على نسبة الأمر إلى إله خالق عليم مدبر، وإنما اتفق أن وجدنا أنفسنا في عالم يسمح لنا قانونه بأن ننشأ من الارتقاء الدارويني، فلو لم يكن نظامه يسمح بذلك لما نشأنا ولا وجدنا أصلا! فهو من الأساس موضوع في سياق الجواب عن براهين اللاهوت الطبيعي المؤسسة على كوزمولوجيا الطبيعيين! فبأي شيء أجابهم اللاهوتيون؟ قالوا إن هذا ترجيح بلا مرجح، بل يلزم للقصة الارتقائية الطويلة التي انتهى إليها الطبيعيون، أن تجد ما يرجحها على خلافها مما كان من الممكن أن تجري عليه من احتمالات لا تنحصر! أي يجب أن يترجح خلق العالم على نحو يسمح لقصة الارتقاء الدارويني أن تجري على نحو ما جرت بحذافيره (في زعم الطبيعيين) لا على غيره حتى نوجد على ما نحن عليه!

ومن هنا، وعلى أثر تلك التبعية الفلسفية المخزية لميتافزيقا الطبيعيين، أصبح يلزم من يعتنق نظرية داروين من اللاهوتيين والمتكلمين ونحوهم (كالدكتور عمرو شريف)، ومن قبلها قصة النشأة الارتقائية للكون نفسه، أحد لازمين أحلاهما مر: إما أن يقول إن الكيفية التي جرت بها حوادث أسطورة النشأة عند الطبيعيين كان من الممكن ألا تكون على نحو ما كانت، وإذن لما نشأنا، وإنما جرت على هذا النحو بالذات لوجود الإله الذي رجح من الممكنات الطبيعية Contingencies ما يسمح بوجودنا، وإذن فقد تلبس بإيجاب ما لا يجب على الله تعالى، وبجعله محكوما بقوانين الطبيعة التي هو خالقها، محصورا فيما يرونه هم من ممكناتها، يلزمه بأن يجري تلك القوانين على النحو الوحيد في زعمهم الذي يمكن معه أن "تنشأ" الحياة في العالم وإلا ما نشأت! إما هذا، وإما أن يقول إنها لم يكن من الممكن أن

تكون إلا على هذا النحو، الذي انتهت قصة النشأة فيه بوجودنا على الأرض، لأن اجتماع الأسباب الطبيعية في الماضي على نحو ما وقع لا على غيره، يوجب كون الواقع على نحو ما نرى لا على غيره، وإذن فقد تلبس بما هو أغرق في حتمية لابلاس وفي الإيجاب على الله بلا موجب من القول السابق!

وقد بينا في غير موضع تفصيل أهل السنة في مسألة الضبط الدقيق Fine Tuning، التي يستند إليها أصحاب المبدأ الإنثروبي في دعاواهم. وخلاصة ذلك أننا نقول إن العالم مخلوق بحيث لو قدرنا أن تغير شيء من ثوابته تغيرا ضئيلا، مع بقاء جميع ما سوى ذلك من الثوابت والقوانين على ما هو عليه، فستفسد الحياة على الأرض وينخرم النظام! وضربنا المثل بمحل الشمس (قربا أو بعدا) من الأرض. فلو قدر أن اقتربت الشمس فوق قدر معين، مع بقاء نظام الأرض على ما هو عليه، فستحترق الأرض بما عليها! ولو قدر أن ابتعدت فوق مقدار معين، فستتجمد الأرض بما عليها! وإلا فلا شيء يمنع رب العالمين سبحانه من أن يقضي باقتراب الشمس، ويقضي مع ذلك إن شاء سبحانه، بتعديل نظام الأرض وجميع ما فيه من مخلوقات حية لتحتمل زيادة درجة الحرارة ولا تتأثر بها، وكذلك طبائع المواد كدرجات غليان الموائع وانصهار الفلذات وتمددها وغير ذلك من أسباب لا يحصيها إلا باريها، فلا يبدو وكأن شيئا قد تغير البتة، ولا يكلفه ذلك كله فوق أن يقول له "كن" فيكون! هذه هي الصورة المقبولة عند المسلمين لمسألة الضبط الدقيق، ولا شك أنها على هذا النحو تكشف آيات الله تعالى في إتقان الخلق وتقدير كل شيء فيه بمقدار دقيق!

أما قول الطبيعيين في مسألة الضبط الدقيق، الذي نقله الدكتور وأقره (ص. 121- 122): "ويوضح ريز أن أدنى تغير في هذه القيم يجعل من المستحيل وجود الكون بصفاته الحالية .... بالإضافة إلى الثوابت الستة التي طرحها ريز في كتابه، طرح باحثون آخرون عشرات الثوابت الفيزيائية الأخرى التي لولاها ما كانت نشأة الكون والحياة أمرا ممكنا." فهذا ليس هو اعتقاد المسلمين في مسألة الضبط الدقيق! فلا يجوز للمسلم أن يقول إن هذا الثابت أو ذاك، أو هذا القانون أو ذاك، لولاه ما أمكن أن يخلق الكون ولا الحياة فيه، أو لكان من المستحيل وجود الكون بصفة تسمح بوجود الحياة فيه! هذا من اعتقاد الدهرية الطبيعيين الذين جعلوا صنعة الرب وخلقه وأفعاله خاضعة لنظام الطبيعة كخضوعهم هم فيما يصنعون، قاتلهم الله! فلا يتشابه خلق الله بخلق غيره إلا عند المشركين الذين بكتهم الله تبكيتا في مثل قوله تعالى: ((أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)) الآية [الرعد : 16] وقوله

تعالى: ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً)) [فاطر : 40] وقوله تعالى: ((قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)) [الأحقاف : 4] وقوله تعالى: ((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ)) [الطور : 35-36]! فمن ذا الذي يملك أن يقول إنه لو لم تكن هذه الطبيعة المعينة التي نرصدها الآن لبعض القوى أو نحوها، فنجدها على مقدار كذا أو كذا، لو لم تكن ثابتة على ذلك المقدار في الماضي السحيق كما هي الآن، لامتنع ظهور الحياة على الأرض؟؟ أتخذكم الله أعوانا أو شركاء له في خلقه؟؟ أستشاركم فيما يمكنه وما لا يمكنه سبحانه أن يجعل الخلق عليه؟؟ أأشهدكم خلق السماوات والأرض وما بينهما، وأعلمكم – مع ذلك – بأنه ما من طريق يقع تحت قدرته لجعل الحياة على الأرض كما هي الآن، إلا هذا؟؟ ((مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)) [الكهف : 51] فأي إفك وتخرص على رب العالمين وتأل عليه واستكراه له فوق ذلك؟؟ هذا والله لا يقوله إلا من يرفع قانون الطبيعة فوق خالق الطبيعة، يخضعه له إخضاعا، نسأل الله السلامة!

فهذا الاعتقاد الذي التقطه الدكتور من كتب الطبيعيين النصارى، وعبر عنه فيما نقله عن ريز من قوله: "ستة ثوابت عددية مرتبطة بعدة صفات فيزيائية كونية، مسئولة عن نشأة وحفظ الكون ثم نشأة الحياة واستمراريتها فيه"، لا يجوز للمسلم أن يقبله! فالكون – كما بيناه مرارا - لم يخلق تحت قوانين إنما جُعلت فيه حال خلقه، لا قبل ذلك! وضربنا مثلا مع الفارق فقلنا إن حوادث صنع السيارة لا يمكن أن تكون قد خضعت لآلية عمل صندوق التروس أو محرك الاحتراق الداخلي في تلك السيارة، والحوادث التي صنع جهاز الكمبيوتر من مجموعها، لا يمكن أن تكون قد خضعت لنظام التشغيل المركب في الجهاز نفسه! لا يصح في العقل أن يجعل الشيء صانعا لنفسه، أو أن يكون صنعه ووجوده ثمرة لصفة من صفاته هو نفسه! فإذا كان من فساد العقل أن تقاس أسباب صنع السيارة على بعض الحوادث الناشئة عن صفة السيارة نفسها ونظامها المركب فيها، وتقاس أسباب صنع جهاز كمبيوتر معين والحوادث التي جرت في تركيبه والترتيب الذي جرت عليه، على نظام عمل ذلك الجهاز نفسه، مع أن السيارة ومصنع السيارات الذي أنتجها والكمبيوتر والمصنع الذي أنتجه، كلهم خاضعون جميعا لسنن الله السببية الماضية في سمائه وأرضه، وللطبائع التي أجراها فيهما، فكيف بصنعة خلق السماوات والأرض وما فيهما من الابتداء؟؟ لابد أن بطلان

القياس كطريق للعلم بهما يثبت من باب أولى! فمع أننا نجزم بأنه إن صح ثبات تلك الثوابت الستة (ونكرر: إن صح)، فلابد أن الرب جل شأنه هو الذي جعلها كذلك، إلا أننا مع ذلك نقول: الله أعلم تلك الثوابت متى وكيف صيرها الله تعالى ثوابت، وهل تغيرت قبل ذلك أم لم تزل مقاديرها ثابتة كما هي منذ أن استوى رب العالمين على العرش بعد تمام اليوم السادس وإلى يومنا هذا؟! والأمر الذي نجزم به هو أن حوادث خلق السماوات والأرض في الأيام الستة لم تخضع لتلك الثوابت كما تخضع الحوادث الاعتيادية التي نشهدها في تجربتنا البشرية، فلا يجوز أن يقال فيها إنها "مسؤولة عن نشأة وحفظ الكون"!

وكذلك الحياة لم تنشأ عن أسباب طبيعية أصلا، وإنما خلقها الله على نحو لا يعلمه أحد سواه، على غير نظير أو مثال تقاس عليه في تجربتنا، في أيام الخلق الستة التي فيها لا قبلها أوحيت أوامر النظم السببية في السماوات والأرض على ترتيب لا مدخل للعلم بشيء منه إلا السمع، كما في قوله جل شأنه ((فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا)) [فصلت : 12] تلك النظم التي التقطنا نحن طرف بعضها من جهتنا فسميناه بالقانون الطبيعي! فليس نظام السماوات والأرض على ما هو عليه الآن، سببا في خلق الحياة على الأرض أصلا، فضلا عن أن يكون سببا في خلق الكون بكليته، وإنما خلقت السماء وما فيها والأرض وما فيها على نحو لا طريق للعلم به من أقيستنا وفرضياتنا التفسيرية، مهما بلغت بنا الخبرة بحال العالم على مابلغت! فلا يقال في تلك الثوابت إنها مسؤولة "عن نشأة الحياة واستمراريتها"!

وينقل الدكتور في الحاشية (ص. 123) كلاما للفيزيائي المتفلسف بول ديفيز (الذي تأثر بكلامه كثيرا على ما يبدو) في مسألة الضبط الدقيق، يقول فيه:

> فقد لاحظ ديفيز أن النسبة بين القوة الكهرومغناطيسية التي تحفظ الإلكترونات في الذرات حول نواياتها وبين قوة الجاذبية التي تجذب الذرات والجزيئات والأجرام بعضها لبعض نسبة حرجة. فلو زادت هذه النسبة بمعدل $1x10^{-40}$ ستتكون فقط النجوم الصغيرة، أما إذا قلت بنفس المعدل فستتكون فقط النجوم الكبيرة. إن كلا الحجمين من النجوم كان أساسيا لنشأة الحياة، فالنجوم الكبيرة أنتجت في أفرانها الذرية الهائلة الحرارة المادة الثقيلة الضرورية لتكوين جزيئات المادة الحية، أما النجوم الصغيرة فهي القادرة على دعم الحياة في الكواكب المحيطة بها. لكن هل معدل $1x10^{-40}$ صغير إلى حد كبير؟! أعطيك مثالا لتوضيح ذلك: إنها نفس فرصة أن يستطيع رام يقف في أحد

أطراف الكون أن يصيب عملة معدنية تقع على الطرف المقابل، أي على بعد عشرين بليون سنة ضوئية!

قلت: فابتداء من قوله "فلو زادت هذه النسبة .. إلخ" فكل ما تلاه خرف في خرف، ولا علاقة له بالعلم (الذي هو عندنا بمعنى الاعتقاد أو الظن المطابق للواقع بسبب صحيح) من قريب أو بعيد! ولأنه كذلك، فليس فيه حجة على المخالف الدهري الطبيعي على النحو الذي يتوهمه الدكتور وأتباعه، فهو ليس تنظيرا منصرما فضلا عن أن يكون يقينا، بل هو طبقات بعضها فوق بعض من التفسير التخميني الذي تقبل كل طبقة منه المعارض قبولا تكافؤيا، بمعنى أنه من الجائز والمتصور أن ينقلب الكوزمولوجيون في المستقبل إلى تصور يخالفه تمام المخالفة مهما كانوا اليوم عليه متفقين، فيصبح هو المعتمد أكاديميا كما كان هذا التصور هو المعتمد أكاديميا! فليس الاستدلال في مثل هذا عندهم حاصلا بما هو معلوم بالقطع أو حتى بالظن الضعيف كونه دليلا، وإنما بما هو متوهم مفترض من أقيسة لا مرجح لها على خلافها أصلا (كما بيناه عند تناولنا قضية تكافؤ الأدلة التجريبية والرصدية في هذا الباب عند الطبيعيين)! فيبقى الفرض هنا فرضا وهميا من جنس ما قال الله فيه: ((وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً)) [النجم : 28]! فإذا كان ذلك كذلك، فأي شيء يرجع علينا من استعمال تلك الفرضيات الخرافية عند المحاججة بكمال الخلق الإلهي والصنع الرباني، إلا تصحيح نسبة تلك الخرافات (وما تقتضيه من لوازم ومقتضيات اعتقادية) لفعل الله جل شأنه؟؟

هم يعلمون أنهم لم يشهدوا نجما – لا صغيرا ولا كبيرا – وهو ينشأ أو يتكون (وأعني شهادة العيان المباشرة، لا مشاهدة ما تأولوه تحكما على أنه كذلك في مراصدهم)، ولا شهدوا ما في بطن هذه الأرض التي يقفون عليها، فضلا عما في بطون النجوم الصغيرة والكبيرة، ولو فعلوا لما وسعهم أن يحكموا بكونها "أفرانا" صنع الله فيها المعادن الثقيلة وغيرها على النحو الذي زعموه، ولا بكون الكواكب (والمعادن التي فيها) قد خلقت كشظايا تطايرت من تلك النجوم ثم انخرطت في أفلاك حولها، ولا بكون الأرض كوكبا سيارا كتلك الكواكب نشأ كنشأتها [62]، ولا بكون الشمس نجما كنجوم السماء، ولا يكون حكمهم بشيء من ذلك إلا تحكما بالقياس والوهم لا غير!

ثم لو سلمنا تنزلا بصحة هذه المزاعم في قضية النشأة، وبأصل جريانها كلها على نظم طبيعية وأسباب طبيعية، فما أدراهم أنه لو قدر أن اختلفت هذه النسبة المذكورة في ماضي الكون، فلن تنشأ إلا النجوم من نوع كذا دون نوع كذا؟؟ وماذا لو اختلفت واختلف غيرها معها من خصال المادة والطاقة وما شئت من أنواع الموجودات الطبيعية حينها، بما يعادل ذلك الاختلاف

ويضمن للنجوم كلها كذلك أن تتشكل؟؟ أليسوا قد فرضوا المادة السوداء المظلمة، حتى "يفسروا" عدم انفلات كتلة الكون (كما قدروها وهما في وهم) على أثر الانفجار والتضخم المزعومين، من قوة الجاذبية التي هي عندهم خالقة هذا العالم وفاعلة كل شيء فيه؟! فلماذا لا يكون ثمة طاقة سوداء أيضا، أو قوة سوداء أو شيء ما أسود لا يرى، يلغي تأثير الزيادة أو النقصان في القوة الكهرومغناطيسية عبر زمان النشأة المتطاول عندهم، على احتمالية أن تنشأ هذه الفئة من النجوم أو تلك (جريا على منطقهم الفاسد في إعمال المنطق الاحتمالي في تلك البابة)؟؟ ما الذي يوجب – على مذهبهم الطبيعي – ألا تنشأ النجوم الكبيرة إلا على هذا الشرط الذي زعموه (تسليما بجريان تلك النشأة على نظام سببي طبيعي كما تقدم)، إلا التحكم بالجهل، وما الذي يمنع من ظهور الحياة على الأرض إن لم تكن الشمس نشأت على نحو ما يزعمون، ونشأت الأرض منها كما يزعمون، إلا التحكم بالجهل؟؟ هذه كلها حجج من الجهل، على قاعدة "عدم العلم هو علم بالعدم"! إذ يصبح عدم العلم بالاحتمالات الأخرى (الجارية على طريقتهم في التنظير والافتراض التفسيري في هذه القضية الغيبية المحضة) علما بعدمها، مع أنها في الحقيقة، كلها احتمالات يلزمهم أن يجعلوها متساوية في مقدار الاحتمالية، بما فيها احتمال صحة ذلك الزعم الذي زعموه!

والحاصل أنه عندما يقول الطبيعي النصراني إنه لو قدِّر في الثابت كذا أن كانت قيمته قبل بلايين السنين خلاف ما هي عليه الآن، لامتنع خلق الكون على ما نعرفه، ولما وُجدنا نحن اليوم حتى نرصده، وإذن وجب وجود رب يضبطه عند هذه القيمة بالذات دون غيرها، فهذا صاحب خرافة دهرية طبيعية، وكذب صراح على رب العالمين، وتنقص بالغ من قدرته وحكمته وعلمه سبحانه، مهما ظن أنه يثبته ويبرهن على وجوده! فإنه يحصر قدرة الرب سبحانه على خلق عالم فيه بشر أمثالنا، في أن يخلقه على نحو ما عهدوه من ثوابت وقوانين فزيقية في عالمنا هذا! مع أنه سبحانه لو شاء أن يخلقه بثوابت أخرى مغايرة تماما، ومع ذلك يكون البشر فيه والأنواع الحية كلها كما نعهدها، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، لما أعجزه ذلك، وإذن لربما اختلفت تصوراتنا لبعض القوانين الفزيقية ولاختلفت صياغتنا الرياضية لها في ضوء قيم أخرى لتلك الثوابت، ومفاهيم أخرى للمتغيرات التي أوصلتنا لاكتشافها! ولكن القصد أن خلقه سبحانه وفعله هو الحاكم على ما نظن نحن أننا نعرفه من نظام العالم، وليس العكس!!

ونقول لهؤلاء: أنتم من وضعتم أسطورتكم في النشأة بطرد القوانين والثوابت الكونية المستقرأة من حال العالم الآن إلى جهة الماضي السحيق،

رجاء أن تستنبطوا منها قصة طبيعية لنشأة العالم، فما وجه الدلالة على مسألة الضبط الدقيق في ذلك أصلا، وما معنى قولكم إن الكون في الماضي لابد أن يكون قد نشأ على تلك القيم نفسها لا غيرها، وبدقة بالغة حتى تنشأ الحياة كما نشأت؟ أنتم من فرض سلسلة من الحوادث الطبيعية للنشأة محكومة بتلك القيم، وأخذتم تعدلون في النظرية نفسها مرة بعد مرة بناء على اعتقاد أن الكون كله والحياة كلها نشأت نشأة تطورية طبيعية! فمن البدهي والمتوقع ألا يكون في تصوركم طريق آخر لنشأة الحياة كما نعرفها في هذا العالم إلا ما سبق أن فرضتموه وفرضتم مقدماته وأسبابه تحكما! وإلا فلو قدرنا أنكم جريتم في كوزمولوجياكم الدهرية على باردايم مغاير للانفجار الكبير، بل وعلى بارادايم فيزيائي مغاير لميكانيكا الكم والنسبية العامة بالكلية، فيومها لن يقول قائلكم إن الحياة ما كانت لتنشأ لو لم تكن الثوابت كذا قيمتها كذا، ولو لم يكن قانون كذا وكذا قائما في ابتداء الأمر، بل ولو قدرنا أنكم بقيتم على أنموذج الكون الثابت الذي كنتم عليه قبل ظهور نظرية الانفجار هذه، لما طرحت مسألة الضبط الدقيق والمبدأ الكوزمولوجي هذه أصلا لديكم، فكيف بهم لو قدر أنهم لم يقولوا بالارتقاء الدارويني من الأساس؟! فتأمل مقدار ما يعانيه الطبيعيون المعاصرون من هزال عقلي بالغ، ومن خرف مخز، ودوران منطقي فاضح ومن احتجاج بالجهل المركب المبين، وبالتخمينات والأوهام المحضة، عندما يتناولون تلك الأبواب الغيبية بالتنظير الطبيعي، وقل الحمد لله على نعمة الإسلام والسنة!

فعندما ينقل لنا الدكتور كلام بعضهم في قوله (ص. 125): "وكلما ازدادت معارفنا عن نشأة الكون وبنيته، تكشف لنا بشكل أكبر مدى مواءمة هذه النشأة والبنية ومواءمة قوانين الكون الفيزيائية لبزوغ الحياة وظهور الإنسان، حتى يمكننا القول إنه إذا لم يكن الإنسان في المركز المادي للكون، فإنه بلا شك في المركز الغائي منه." اهـ. فإننا نقول: لا والله لا تزداد معارفكم عن نشأة الكون وبنيته لأن ما عندكم في ذلك ليس معرفة أصلا، بداية من تلك الدعوى الكوبرنيكية العريضة التي أزحتم بها الأرض من مركز العالم قبل خمسة قرون خلت! [63] وإنما هي فرضيات تخمينية أجريتموها – بطبيعة الحال – على نفس الأسس والقوانين الطبيعية التي بنيتم بها نظرية الارتقاء الدارويني للحياة والإنسان، فلا عجب – إطلاقا – في ألا تزداد تلك المواءمة إلا قوة في نظرياتكم، فرضية فوق فرضية! ومع ذلك تبقى الخرافة الطبيعية خرافة والأسطورة الارتقائية أسطورة ولا كرامة! وعندما يقول الدكتور تحت عنوان المبدأ البشري (يعني الأنثروبي): "لقد تم بناء الكون على هيئة تجعله ملائما تماما لنشأة الحياة وظهور الإنسان". فأرجو أن يكون قد اتضح للقارئ المحترم ما في أمثال هذه العبارات من

حق بدهي ضروري يراد به باطل فاحش، والله المستعان! فلا نشأة الكون التي يؤمن بها المسلمون هي النشأة التي يؤمن بها الطبيعيون (والدكتور تبع لهم فيها) ولا خلق الحياة عندنا هو خلق الحياة عندهم، ولا "ظهور الإنسان" في ديننا هو ما يعتقدونه، والله المستعان.

وفي إطار الدفاع عن المبدأ الأنثروبي، بعدما عرضه عرضا هزيلا للغاية في صفحتين، مسميا إياه بالمبدأ البشري، ومتجاهلا تضارب أصحابه في تعريفه، قال الدكتور (ص. 127) تحت عنوان "المعارضون للمبدأ البشري":

> يرى المعارضون لوجود الإله الخالق أن مجرد وجودنا في الكون دليل بديهي على أن بنيته مناسبة لنشأة الحياة ونشأتنا، وإلا لما نشأنا، ومن ثم لا يعتبرون ملاءمة الكون لنشأتنا دليلا على أي أمر غيبي. لذلك يرفض هؤلاء فكرة أن الكون قد تم تفصيله على مقاس الإنسان، ويرون بدلا من ذلك أن قوانين الطبيعة قد فصلت الإنسان ليتناسب مع بنية الكون. كذلك يقع دوكنز عند حديثه عن المبدأ البشري في كتاب وهم الإله في نفس الخطأ الذي يكرره دائما، وهو ادعاء أن توافر الظروف كاف لحدوث الظاهرة. إن ادعاء دوكنز ادعاء خطأ، فالمبدأ البشري يقابله قولنا أن من أجل أن تكون الأول على طلبة كلية الطب بجامعة عين شمس، ينبغي أن تلتحق بالكلية، لكن كيف تصبح الأول؟ فهذا أمر آخر. ويجيب على هؤلاء الفيلسوف المؤمن "جون ليسلي" بأن الإله يستخدم قوانين الطبيعة في تشكيل الكون على الهيئة التي يريدها. ويفند ليسلي رأي القائلين "بما أننا موجودن إذن الكون ملائم" بمثال صار مشهورا: تصور إنسانا حكم عليه بالإعدام رميا بالرصاص، وقد تراص عشرة جنود ماهرين أمامه في طابور لإطلاق النار، وأطلق كل منهم طلقته، لكنهم لم يصيبون. هل يكفي أن نقول: من الطبيعي إنهم لم يصيبوه بدليل أنه لم يمت، أم لابد أن نبحث عن أسباب فشل هؤلاء الجنود المهرة في إصابة الرجل؟ إن الإقرار بوجود ظاهرة ما، لا يلغي الاحتياج إلى تفسيرها.

قلت: كل هذا الجواب مبني كما ترى على التسليم بقبول ميتافزيقا الطبيعيين وكوزمولوجيا النشأة عندهم، التي تقوم على اعتقاد أنها إنما كانت قصة طويلة جرت على حوادث طبيعية كلها من أولها إلى آخرها، كان القانون الطبيعي فيها (لا سيما قانون الجاذبية) هو السبب المباشر! فالذي يقبل مبدأ النشأة الطبيعية Natural Origins للعالم المحسوس، يلزمه قبوله في الابتداء كما في الانتهاء، وفي الأصل كما في الفروع، لأنهم لولا أن سلموا بهذه المسلمة ما قالوا بتلك الكوزمولوجيا كلها من أولها إلى آخرها أصلا! أما أن يقال لهم: سنقبل منكم تلك القصة التاريخية كلها بحذافيرها

من أولها إلى آخرها، ولكن سنأتي عند نقطة معينة لنقول لكم: حسبكم هذا القدر من التنظير، واتركوا ما قبلها تاريخيا لمصادر تلقي المعرفة الغيبية في ديننا نحن، فما قبلها غيب محض خلافا لما بعدها، فهذا تحكم وتناقض منهجي بين كما تقدم بيانه! وقد بينا كذلك أنه لولا تلك المسلمات الدهرية المنهجية عند الطبيعيين ما انتهوا إلى مسألة الضبط الدقيق هذه أصلا (على مفهومها المشهور في أدبياتهم)، فضلا عن تفسيرهم إياها بما سموه بالمبدأ الأنثروبي! فمن غير المستغرب إطلاقا أن تنتهي إلى القول بأنه لابد أن تجري القصة في الماضي على نحو كذا لا على غيره حتى تنتهي إلى هذا الواقع الذي نراه الآن، ما دمت لم تتوصل إلى ما زعمته بشأن الماضي إلا من طريق طرد جملة من السنن السببية الواقعة تحت عادتك حاليا، التي زعمت جريانها كما هي على ما جميع ما في الماضي! فما دام القانون الطبيعي حاكما على كافة أسباب الحوادث الواقعة تحته، وما دام حادث النشأة حادثا طبيعيا في اعتقادك، وما دمت لا ترى من الأسباب لكافة الحوادث التي هي عندك "طبيعية" إلا ما تثبته أنت من ذلك الطريق، فلا عجب على الإطلاق في ألا ترى إمكان أن يكون الماضي على خلاف ما توصلت إليه من ذلك الطريق، حتى يكون الحاضر على ما هو عليه الآن، وأن يكون المبدأ – إذن – أنه لا يمكن أن يكون الماضي على خلاف ذلك الذي زعمته حتى ينتهي الأمر إلى ما انتهى إليه! وهو ترتب سببي لا يجب هذا الوجوب الذي يجعل لدعوى "الضبط الدقيق" هذه أي وزن عند أصحابها، إلا على نحلة القائلين بانغلاق السببية الطبيعية، أو "حتمية لابلاس" التي رفع الدكتور عقيرته قبل قليل بتسميتها بالحتمية الإلحادية، فتأمل عمق التناقض الذي يعاني منه الدكتور وغيره ممن نقل عنهم انتصارهم لذلك المبدأ الدهري!!

أما نحن فنقول إن الأسباب، أسباب الحوادث، ليست مقصورة على ما هو "طبيعي" وحسب، وإنما منها بالضرورة ما هو غيبي، ومسألة النشأة نفسها ليست مسألة طبيعية أصلا، لا بالعقل ولا بالحس ولا بالسمع، وإنما هي حوادث متقدمة على الطبيعة نفسها، إنما كانت الطبيعة ونظامها وقانونها ثمرة لها! فلا يجوز أن يُفترض خضوع تلك الحوادث لأي قانون من قوانين الطبيعة التي نعرفها حاليا، حتى يقال لو كان الثابت كذا بقيمة كذا أو كذا، لما "نشأت الحياة"، أو "لما وجد الكون كما نعرفه" أو غير ذلك مما أسسوه على كوزمولوجياهم الطبيعية من ربط خرافي بين حوادث النشأة المزعومة وما في الحاضر المشاهد! الكون يا هؤلاء ليس علبة أحذية أنتجها مصنع عملاق قد انتهى إليكم العلم بنظامه وآلته وكيفية عمله! تأمل قول الفيلسوف "المؤمن" (إيمان الفلاسفة الذي لا يزيد على إثبات صانع ما!) الذي نقله الدكتور إذ يقول: " بأن الإله يستخدم قوانين الطبيعة في تشكيل

الكون على الهيئة التي يريدها." قلت: ما دامت القوانين ثابتة – كما زعمتموها تحكما – مطردة في محل ما إلى ما قبل حوادث الخلق (وهو ما يقتضيه مجرد الزعم بأنها هي التي بها خلق العالم)، فلو قدر أن الباري أراد للكون أن يكون على هيئة غير هذه، للزم – على سببيتكم الطبيعية المغلقة – أن تكون القوانين نفسها مجعولة سلفا على خلاف ما تعرفون، حتى يجري الخلق على غير ما جرى عليه! وإذن لما جاز – على منهجكم – أن يكون العالم على هذه الهيئة نفسها التي تعرفونها، ولما جاز أن نوجد نحن الآن لنبحث في المسألة! أي أنهم يلزمهم أن يعتقدوا أن الرب ما كان يملك إلا أن يضع نظام هذا العالم وقوانينه على هذا الذي عهدوه هم من أمره، حتى يكون الآن على هذه الهيئة التي هو عليها، ونكون نحن فيه على ما نحن عليه! وإلا فلو جوزوا أن يكون حالنا الآن وهيئتنا وهيئة العالم على خلاف ذلك كله، مع كون قوانين الطبيعة هي نفسها التي عهدوها، لما قامت لدعوى الضبط الدقيق والمبدأ الأنثروبي عندهم قائمة أصلا! فإنه إذن يكون من الجائز والمتصور أن يبدأ العالم في أسطورتهم الطبيعية من ثوابت مختلفة في القيمة تمام الاختلاف، ومع ذلك ينتهي إلى وجودنا نحن فيه على ما نحن عليه الآن ولا فرق، وهذا لا يملكون إلا أن يمنعوه! فبأي شيء منعوه (ومن ثم قالوا بالمبدأ الأنثروبي الذي ينتصر له الدكتور بكل حماسة)؟ بأصولهم الدهرية الطبيعية التي بها جعلوا حادث النشأة حادثا طبيعيا، وجعلوا القوانين الطبيعية هي الحاكم السببي المطلق على ترتب ما في الحاضر على ما في الماضي، ويتم به تعليل كل حادث من حوادث الماضي والحاضر والمستقبل!

وهذا المثل الذي ضربه ليزلي ونقله الدكتور نقل المؤيد الموافق، يكشف لك عن عمق التناقض عند هؤلاء. فالإنسان الذي حكم عليه بالإعدم رميا بالرصاص، ولما وقع حادث الرمي لم تصبه رصاصة واحدة، هذا يجوز أن يطلب تفسير ما حدث له باستعمال القوانين الطبيعية وما استقر في استقرائنا من أنواع الأسباب التي تتسبب في نظائر هذا الحادث العجيب! خلافا لحوادث نشأة العالم، التي لا هي خاضعة لقوانين العالم (بالضرورة) ولا لها نظير قد استقرت عادتنا على مشاهدته وتتبع أسبابه المحسوسة! فهذا فارق جوهري مؤثر ولا شك، بل مدمر لمراد صاحبه من حيث لا يشعر! فبينما يريد هو أن يثبت بهذا المثال أن للكون خالقا غيبيا بالضرورة، كان مقتضى القياس أن يثبت له سببا طبيعيا لا غيبيا، وتفسيرا طبيعيا لا غيبيا، فتأمل! فقوله: "إن الإقرار بوجود ظاهرة ما، لا يلغي الاحتياج إلى تفسيرها." يوجب علينا أن نسأله: أي نوع من أنواع الظواهر تقصد، وأي نوع من أنواع التفسيرات تريد؟؟ وكيف استقام في عقلك أن تجعل خلق السماوات والأرض وما بينهما في أنواع الحوادث والأسباب كهذا الذي ضربت به المثل؟! سبحان الله العظيم!

ثم تحت عنوان "إما الإله وإما الأكوان المتعددة"، يقبل الدكتور ثنائية ليزلي المغرقة في المغالطة Fallacious Dichotomy، إذ زعم أن ملاءمة الكون لنشأة الحياة وظهور الإنسان تضعنا أمام أحد احتمالين: إما الإله وإما الأكوان المتعددة، أي كتفسير لتلك الملاءمة! مع أن المنطق يقضي بجواز اجتماع التفسيرين في تفسير واحد (على مذهب الطبيعيين ومسلماتهم الأولى)! أي أن يكون ثمة أكوان متعددة لا نهاية لعددها، تغطي كافة الصور التي يمكن أن يريدها الرب لعالم من العوالم، مع كونها كلها راجعة لإرادته التفصيلية، في كل حادث يقع في كل واحد منها! بل إنه يجيز كذلك تفسيرا طبيعيا آخر، اعترض به بعض الطبيعيين كروجر بنروز على نظرية العوالم المتعددة كتفسير أو كمقتضى منطقي لنظرية الضبط الدقيق الكوزمولوجية، وهو اعتراض أعجب به ويليام لين كريغ وروج له في غير مناسبة! فعلى مذهب بنروز، لو صح أن كان العالم الذي نعرفه جزءا من مجموعة أكوان لانهائية في عددها، وفي تفاوتها في النظم والقوانين، للزم أن نرى أثرا لذلك في عالمنا هذا، ولكان من الأقوى في الرجحان الاحتمالي ألا يكون نظام الطبيعة ملائما لوجودنا إلا في إطار المجموعة الشمسية وحدها أو أقل من ذلك، وما عدا ذلك يكون بالنسبة لنا فوضى في فوضى، على نحو يمكننا أن نرصده ونحكم به، وإذن لما كانت كوزمولوجيانا على ما هي عليه (أي من دعوى الضبط الدقيق)، بل لعل الأقوى احتماليا أن ينشأ العقل المراقب أو الحياة في عالمنا هذا كمخ بولتزماني Boltzmann Brain لا أكثر! [64] ولكننا نقطع بأن العالم فيه أكثر من مخ وأكثر من مراقب واحد، وأننا لا نتوهم العقول الأخرى من حولنا، فدلت ضآلة الاحتمالية لأن يكون عالمنا هذا الذي نحن قادرون على رصده والبحث فيه، على هذا النحو لا غيره، على بطلان كل من تفسير العوالم المتعددة والمبدأ الأنثروبي لمسألة الضبط الدقيق!

والقصد أن تلك الثنائية في تفسير نظرية الضبط الدقيق الكوزمولوجي (إما الخالق وإما العوالم المتعددة) حتى الطبيعيون لا يقبلونها، مع أنها يفترض قيامها على أصولهم، فكيف بنا نحن الذين لا نقول بأصول الطبيعية المنهجية أصلا، ولا نقول بكوزمولوجياهم نفسها، بما فيها من نظرية ضبط دقيق ومبدأ أنثروبي وتلك الأشياء؟؟ من أين لهم بذلك الهراء أشكالا وألوانا، وكيف سمحوا لأنفسهم باقتحام ذلك الغيب المحض بالنظر والقياس والافتراض؟؟ دعونا نسأل الدكتور سؤالا منهجيا عند قوله "يدفع عالم فيزياء الكوانتم جون بولكنجهورن فرضية الأكوان المتعددة باعتبارها من الخيال العلمي وليست من الفيزياء، إذ من المستحيل التأكد علميا من وجودها." اهـ. فنقول: لماذا لا تكون فردية الانفجار المزعومة من الخيال العلمي كذلك وليست من الفيزياء، بالنظر إلى كونها من المستحيل "التأكد" علميا من وقوعها؟؟ مع أنه إذا كان ما خارج هذا العالم من الغيب المطلق الذي لا يرجى مشاهدته

بالعين المجردة في يوم من الأيام، فالوصف نفسه يصح على ما كان في بداية خلق الكون، أنه من الغيب المطلق الذي لا يرجى مشاهدته بالعين المجردة في يوم من الأيام! وإذا كان ما خارج هذا العالم لا يخضع لقانون هذا العالم فلا يصح استعمال قوانين عالمنا للتنبؤ بما هو كائن خارجه، فكذلك يقال فيما كان قبل نشأة العالم: أنه لم يكن خاضعا لقوانين هذا العالم فلا يصح استعمالها للتنبؤ بما كان قبله! فمتى كانت أدلة القوم في إثبات الفردية المزعومة من جنس ما يوصف بأنه "يؤكد" حدوثها "علميا"؟؟ لن تجد عند الدكتور جوابا بعد طول سجال إلا الحمل على قبول ما اتفقت عليه الأكاديميات الطبيعية لمجرد أنها قد اتفقت عليه! واتفاق الطبيعيين معصوم عنده وعند من كانوا على شاكلته!

وبعدما يسوق الدكتور عددا من النقولات من الفيزيائيين ونحوهم في تسفيه تلك الفكرة، يعلق برجوع تسفيههم إياها إلى مبدأ "شفرة أوكام" في الترجيح بين "الفرضيات"، ولا ينتبه إلى أن كلامه يقتضي جعل الرب سبحانه "فرضية تفسيرية" تجري عليها قواعد الترجيح الطبيعي كما تجري على غيرها، ولا يتوقف لحظة واحدة ليتساءل في قيمة تلك الشفرة أو إفادتها العلم من الأساس، وما ينبغي أن يتحقق لها من خبرة استقرائية عند من يستعملها حتى يكون للترجيح بها مستند عقلي ما! أليس قد وقع على كلام فيزيائيين يردون على الملاحدة؟؟ فليكن كلامهم إذن هو العلم وهو العقل ما داموا فيزيائيين أكاديميين مشهود لهم بالمنزلة والمكانة في الأكاديمية الطبيعية!

ثم تحت عنوان "ميكانيكا الكم والأكوان المتعددة" يقول الدكتور (ص. 129): "يقدم علماء الفيزياء الحديثة طرحهم لفرضية الأكوان المتعددة تحت اسم: "تفسير ميكانيكا الكم للعوالم المتعددة" [65] الذي يرى أن أي كون محتمل الوجود منطقيا لابد أن يوجد، ويتماشى الفيلسوف الأمريكي الكبير ألفن بلانتنجا مع هذا التفسير ويقول: إن كونا واحدا به إله واحد من المحتملات المنطقية، إذا فمثل هذا الكون – تبعا لطرح ميكانيكا الكم – موجود. ومن ثم، ففرضية الأكوان المتعددة (كما أوضح بلانتنجا) تنسف نفسها وتصل بنا إلى كون واحد!"

قلت: لا أدري من أين جاء الدكتور بهذا الكلام نقلا عن "ألفين بلانتينغا"، لكن من الواضح أنه منقول نقل من لم يحسن الفهم، من كلام للرجل عن برهانه المسمى ببرهان الجهة الأنطولوجي Modal Ontological Argument، وهو ذلك البرهان الذي أعاد به صياغة برهان أنسيلم المعروف بالبرهان الأنطولوجي، مستعملا أدوات منطق الجهة Modal Logic ووصفه "بالصورة المنصورة للبرهان" Victorious Version، في كتاب ألفه في السبعينات بعنوان "طبيعة الضرورة The Nature of Logical Necessity" كمحاولة بالغة التنطع (على عادة الفلاسفة عامة وبلانتينغا خاصة) لإحياء مسالك الاحتجاج بأحكام الجهة (الوجوب أو الضرورة والإمكان والامتناع والجواز)، لا سيما بافتراض ما يسمى "بالعوالم الممكنة عقلا" Possible Worlds.

وأقول إن هذا الكلام هو نقل من لم يحسن الفهم، لأن الدكتور يزعم أن بلانتينغا "أوضح" أن فرضية الأكوان المتعددة تنسف نفسها وتصل إلى كون واحد، وهذا غير صحيح بالمرة، ولا أجد له أثرا في كلام الرجل البتة، وهو قطعا لا يترتب منطقيا على ما نقله الدكتور من مقدمات برهانه الأنطولوجي المشار إليه آنفا! هذا كلام من لا يدري عن أي شيء يتكلم! ولا يزال ويليام لين كريغ (تلميذ بلانيتنغا) يدندن في كل مناسبة بقوله إن دعوى العوالم المتعددة هذه وإن كانت لا تثبت، إلا أنها لا تستقيم (كوزمولوجيا) ولو في النظر المجرد، إلا في إطار التصور الميتافزيقي النصراني، على أساس أنها لا تترك متسعا للطبيعيين لافتراض شيء فيما وراءها إلا الصانع![66]

فبما أن الدكتور هداه الله قد ولج هذا الباب، فلا نجد بدا من الكلام فيه ببيان أصل برهان بلانتينغا الذي دفع به في وجوه القراء، وبيان علاقته بذلك التأويل الكوانطي المشار إليه، ثم بيان الحق في الأمر كله دفعا للتلبيس، والله المستعان!

يجري برهان بلانتيتغا (كما نشره للمرة الأولى في كتابه الموما إليه آنفا) وبإيجاز على هذا الترتيب:

1- لنفرض أن موجودا من الموجودات يوصف بغاية التفوق (التفوق الذي لا يعلوه تفوق) Maximal Excellence إن كان موصوفا بكونه كامل القدرة Omnipotent، كامل العلم Omniscient، وكامل الحكمة (كمال الحسن فيما يريد وما يفعل) Morally Perfect.
2- ولنقل أن كائنا ما يكون موصوفا بغاية العظمة (العظمة التي لا تعلوها عظمة) Maximal Greatness فقط في حالة ما إذا كان موصوفا بغاية التفوق (التي تقدم تعريفها) في جميع العوالم الممكنة عقلا Every Possible World
3- يمكن أن نتصور عالما ممكنا عقلا، بحيث يتصف فيه كائن ما بغاية العظمة.
4- إذن، يوجد بالفعل كائن موصوف بغاية العظمة.

وخلاصة المقصود هو أننا إن كانت عقولنا تجيز لنا أن نتصور عالما واحدا فيه (من حيث الإمكان الذهني المجرد) كائن موصوف بأنه كامل الصفات في ذلك العالم، وأمكننا كذلك أن نتصور أن يكون ذلك الكائن على كمال صفاته (الأكمل في كل شيء) في أيما عالم كان من العوالم الأخرى الممكنة عقلا، مهما كانت عظمة المخلوقات في تلك العوالم، فلابد أن يكون ذلك الكائن الذي هو أكمل ما يمكن وأعظم ما يمكن، موجودا في الحقيقة! أو بعبارة أخرى، إذا كان من الممكن تصور عالم ما، بحيث يوجد فيه كائن هذه صفته (غاية العظمة)، فلابد أن يكون موجودا بالفعل، على أساس أن وجوده في الخارج وفي الذهن معا أكمل من وجوده في الذهن وحسب، وإذن يكون وجوده ضروريا! ولا يخفى أن المقصود بالكائن كامل الصفات مطلق العظمة هو الباري المراد إثباته!

وهذه في الحقيقة محاولة بالغة التنطع من بلانتينغا لإنقاذ برهان قد عرف تاريخيا بأنه أوهى البراهين اللاهوتية على الإطلاق، ألا وهو البرهان الأنطولوجي عند أنسيلم الكانتربيري (الأسقف اللاهوتي المعروف من القرن الحادي عشر الميلادي)! فبدلا من أن ينصره بلانتينغا ويجعله أقرب للعقل، لم يزده إلا نطاعة وتكلفا! وقد أشبعه الفلاسفة بل وكثير من اللاهوتيين أنفسهم من النقد ما لا ينكره بلانتينغا نفسه، وهو نقد لاحق ببرهان بلانتينغا كذلك تبعا، لقيامه عليه! وإنما يجيب عن ذلك النقد إذا أجاب بقوله ما معناه إن البرهان ليس مقصودا منه "إثبات وجود الصانع" ولكن غايته التنبيه على أنه إذا كان مما يعقل ويتصور في الذهن "معقولية" ما حرره في المقدمات،

فلابد أنه يتصور كذلك "معقولية" ما حرره في النتيجة! وهذا ولا شك جواب لا يدفع عن الرجل تبعة ذلك الإجمال والتنطع الفاحش في برهانه! فصحيح إننا نوافقه على جعله وجود الباري ضرورة عقلية وحقيقة أساسية في العقل البشري لا تحتاج إلى دليل خارجي لاكتساب العلم بها، ولكننا نخالفه مخالفة عظيمة في طريقته الفلسفية في إظهار أن الإيمان بالباري إيمان "عقلاني" Rational بمعنى أنه لا يورث التناقض ولا ينشأ عنه مصادمة لأي حقيقة ثابتة ثبوتا منصرما!

فأول ما يظهر من مشكلات في هذا البرهان، أنه من إجماله الظاهر في قوله "في عالم"، وفي عامة التعاريف التي وضعها في كتابه، جعل كلامه مشعرا بأن وجود ذلك الكائن الأكمل إنما هو صفة ذاتية Intrinsic للعالم المفترض إمكانه. وكأن العالم الممكن قد يوصف وقد لا يوصف – مبدئيا - بوجود ذلك الكائن "فيه"! مع أن وجود الرب ليس وجودا ممكنا عقلا أصلا، وليس هو "في" هذا العالم أو ذاك، وليس وجوده صفة من صفات هذا العالم أو ذاك Property، وإن عدها صفة جوهرية Essence (بمعنى الصفة التي لا يكون العالم عالما إلا بها)، وإنما هو وجود قائم بنفسه واجب البتة، سواء وجد معه في الخارج عالم من العوالم التي هو خالقها أم لم يوجد! وهذه قضية بدهية لا تحتاج إلى برهان! أي أن وجوده غير مشروط بوجود العوالم الممكنة أو عدمها، كما جعله بلانتينغا في برهانه هذا صفة للعالم، لأنه الموجود الوحيد القديم القائم بنفسه ضرورة، وأما العوالم الممكنة فحادثة كلها لا يقوم لشيء منها وجود إلا به! ولكن لأنه جعل موضوع البرهان هو إثبات الوجوب العقلي لوجود الصانع من طريق الإمكان العقلي (كما كان مسلك أنسيلم في برهانه الأصلي)، ترتب على ذلك ما لقيه من نقد في مسألة الإمكان ومقتضاها!

وقد يدفع بلانتينغا هنا ويقول أنا أستعمل لفظة Possible بمعنى جواز وقوع التصور في الأذهان الذي هو ضد امتناع التصور Impossible، وليس بمعنى الإمكان الوجودي Contingency الذي هو قسيم الوجوب الوجودي Necessity في الاصطلاح المنطقي، فكل واجب هو ممكن (غير ممتنع) بهذا المعنى، ثم إني أستعمل كلمة عالم World بمعنى الواقع الخارجي بكليته، أو الوجود بمجموع ما فيه، وهو ما يشمل الخالق وجميع المخلوقات! وإذن فلا تثريب علي إذا قلت: إنه ليس من الممكن تصور عالم ما بحيث لا يوجد في ذلك العالم، الكائن الذي هو أكمل الموجودات وأعظمها على الإطلاق، بل مهما تصورنا عالما ممكن الوجود، فلابد أن هذا الكائن موجود فيه بالضرورة، وإلا لم يكن هو أكمل وأعظم الموجودات على الإطلاق! فكأنه يريد أن يقول: إن كون الشيء موجودا في جميع العوالم الممكنة،

يجعله أكمل وأعظم بالضرورة من كونه موجودا في بعضها دون بعض، والفرض أننا نتكلم عن الكائن الأكمل والأعظم مطلقا، فهو إذن موجود بالضرورة في جميع العوالم الممكنة، ولا يتصور عالم ممكن إلا ووجوده مقارن له بالضرورة! فيقال له: ألا يكفي أن يقال إن مجرد مبدأ التفاضل بين الموجودات العينية في العظمة والكمال يقتضي (بصرف النظر عن الوجوب والإمكان) أن يكون فيها كائن ليس شيء أعظم ولا أكمل منه، فيكون هو مصدر كل شيء الذي به يكون الكامل كاملا ويكون العظيم عظيما، فهو موجود في الخارج ضرورة؟؟ ما الداعي لذلك التنطع والإجمال العجيب الذي سلكه أنسيلم أولا ببرهانه الأنطولوجي (وهو قوله إن وجود الكائن الأكمل لو اقتصر على الوجود الذهني لكان نقصا في حقه، إذ الموجود في الأعيان والأذهان أكمل من الموجود في الأذهان دون الأعيان، وإذن يجب وجوده في الأعيان)، ثم فاقه فيه بلانتينغا بأضعاف مضاعفة؟؟ إنه هوى التنطع والتحذلق وحب الشقشقة عند الفلاسفة، سلمنا الله وإياكم والمسلمين!

ثم إن في قولهم إن الموجود في الأذهان والأعيان أكمل من الموجود في الأذهان دون الأعيان، خلطا آخر في صفة الوجود نفسها! فلا يلزم أن يكون وجود الشيء في الأعيان والأذهان معا، أكمل من وجوده في الذهن وحده! فقد يوجد الشيء في الخارج تحقيقا، ولا يتصور وجوده في ذهن أحد من المخلوقين البتة، فلا يقتضي ذبك نسبة النقص إليه! وما أكثر ما في الجنة من النعم والملذات التي يصفها رب العالمين بأنها لا رأتها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على قلب بشر، ونحن نقطع مع ذلك بأنها أكمل من جميع ما في الحياة الدنيا في معنى النعيم واللذة! فلو صح هذا الشرط في معنى الكمال لكان ما في الدنيا (مما له وجود في الأذهان والأعيان جميعا) أكمل مما في الجنة (مما لا يوجد في الأذهان أصلا)، وهذا باطل! وما أكثر ما لله تعالى من صفات كمال لا تتصورها أذهان المخلوقين البتة ولا علم بها لدى أحد منهم، فعلى هذا الشرط يلزم أن يقال إنه لو خلقهم بحيث يتصورونها كلها في أذهانهم على ما هي عليه، لكان أكمل في حقه، لأنه إذن يكون وجود كل صفة منها ذهنيا وعينيا معا لا عينيا فقط، وهذا باطل ولا شك! وقد يوجد الشيء في الأذهان توهما ولا يكون له وجود في الخارج البتة، فهل يكون بذلك ناقصا بالضرورة؟؟ أبدا! ولا نزال نتصور لأنفسنا أحوالا نرجوها، هي أكمل مما نحن عليه، مع أنها لا وجود لها إلا في أذهاننا! ثم إن الأذهان تتفاوت فيما تتصوره، فالرب سبحانه متصوَّر وجوده في أذهان المؤمنين به، وغير متصور في أذهان الدهرية الجحدة الذين يكذبون به، ولا في أذهان الذين يتصورونه على غير صفته سبحانه من المشركين عامة! فعلى هذا المعنى للكمال، يلزم أن يكون الموجود الذي تشهد جميع الأذهان بوجوده

على ما هو عليه في الخارج، أكمل من الموجود الذي لا تشهد له إلا بعض الأذهان دون بعض، وهو ما يقتضي نسبة النقص إلى رب العالمين، سبحانه وتعالى!

والحاصل أننا لا نسلم بصحة المقدمة القائلة بأن الشيء الذي له وجود في الأذهان ويُعلم كذلك وجوده في الأعيان، أكمل بالضرورة من الشيء الذي يوجد في الأذهان ولا يُعلم وجوده في الأعيان! وإذن فلا أساس لبرهان أنسيلم، ولا أساس لبرهان بلانتينغا على السواء! وذلك أن بلانتينغا إنما أسس برهانه على فكرة أن مجرد إمكان تصور الأكمل في الذهن (في عالم من العوالم الممكنة) يقتضي وجوده في الخارج (في كل العوالم الممكنة)، على أساس أنه لا يكون هو الأكمل حقا حتى يكون موجودا في الخارج! وكما تقدم فإن العاقل لا يحتاج إلى شيء من ذلك التنطع البعيد حتى يعلم أن ربه هو واجب الوجود الذي يقوم به كل شيء، وأنه واجب الكمال، الذي ليس في الوجود ما هو أعظم منه ولا أكمل منه! فإذا كانت كلتا الحقيقتين بدهيتين ضروريتين فطريتين (كما يشهد بذلك بلانتينغا نفسه)، فمن السخف والسفسطة ولا شك أن يلتمس إثبات إحداهما من طريق الأخرى!

ورجوعا إلى كلام الدكتور، وحتى لا يطول بنا الاستطراد، فإذا علم ما تقدم، تبين أن خرافة العوالم المتعددة في تأويل الكوانتم ميكانيكس عند هايزنبرغ وبور ومن تابعهما، إن قدرنا صحتها تنزلا، فلن يكون "العالم" فيها (على مفهوم بلانتينغا للعالم World) إلا هذا الكون المتعدد Multiverse، لأن الاحتمالات في برهانه على معنى الممكنات الذهنية Contingencies، وأما في تأويل كوبنهاغن، فالاحتمالات فيه ليست ممكنات، ولكنها أحوال لعوالم متحققة واقعة كلها في الأعيان، في إطار منظومة وجودية كبيرة! وإذن فليس الكون المتعدد هذا (بجميع أكوانه!) عند أصحابه إلا حالة واحدة من "العوالم الممكنة" التي تكلم عنها بلانتينغا في برهانه، وجعل وجود الكائن الأكمل "وصفا" لازما لها! وهو حالة لا تأثير لثبوتها أو انتفائها على برهان بلانتينغا، ولا تأثير له عليها! فإن قيل: ولكن إذا كانت جميع الاحتمالات التي تناولها برهان بلانتينغا واقعة في الخارج تحقيقا على تأويل العوالم المتعددة، وإذن فلابد أن يكون الكون الذي يوجد فيه الكائن الأكمل هذا متحققا في الواقع لأنه واحد من تلك الاحتمالات، وإذن فلابد أن يكون هو خالق هذه الأكوان كلها، وهو ما يرجع بها جميعا إلى أن تكون عالما واحدا، قلنا إن هذا يجعل العالم الذي فيه ذلك الكائن الذي وصفه بلانتينغا في برهانه، حالة كمومية من حالات موجة الاحتمالات على تأويل كوبنهاغن، ومن ثم يجعل وجود الباري نفسه صفة من صفات تلك الحالة، وهو ما يقتضي ألا يكون

الصانع نفسه إلا حالة كمومية في عالم من تلك العوالم الممكنة! وهذا باطل ولا يقوله بلانتينغا!

فلا يصح أن يقال إن البرهان يوصلنا إلى القول بأن فرضية الأكوان المتعددة تنسف نفسها وتصل بنا إلى كون واحد، ولو كان القائل هو بلانتينغا نفسه (ولا أحسبه قاله)! ولا يحسن بعاقل فضلا عن أستاذ جامعي أن يخوض فيما لم يحسن فهمه، وأن يجمع كلام الناس من غير أن ينتبه إلى ما يقتضيه قبوله إياه وإقرار أصحابه عليه، وإلى الله المشتكى!

وعلى عادة كل جهمي، فإنه لا يتم له أمره حتى يأتي على كتاب الله تعالى متكئا على أريكته، متشبعا بما حشا به صدره من نظريات الفلاسفة الكبار المعظمين عنده، يجعلها هي القطع العقلي الذي لا يجوز أن يفهم القرآن إلا به وعلى ما يوافقه، وإلى الله المشتكى! ولما أصبح لدى الفلاسفة الطبيعيين المعاصرين أسطورة مفصلة للنشأة، وكان في القرآن كلام عن خلق السماوات والأرض وما كان فيه من الحوادث والأفعال الإلهية، أصبح الجهمي مطالبا بأن يثبت أن في القرآن مصداق ما جاء به هؤلاء في نفس الأمر! فلما تكلفوا ذلك، تفتقت أذهانهم عن جعل تلك الموافقة المزعومة آية من آيات الإعجاز في القرآن، فأصبح التأويل الجهمي بذلك وسيلة لدعوة العامة والجهلاء من المفتونين بتلك النظريات، بعد أن كان غايته أن ينتصر به أحدهم لما قرره في نظرياته من اعتقاد في أمور الغيب، في إطار أكاديمي صرف! فصرت ترى قائلهم يقول بكل حماسة: تأملوا كيف سبق القرآن إلى هذه "الاكتشافات العلمية" (بزعمه) قبل أربعة عشر قرنا من الزمان، وخبرونا كيف يمكن لرجل أمي يعيش على التجارة ورعي الغنم أن يتوصل إلى شيء من ذلك، إن لم يكن بوحي من السماء؟؟ وإذن تصبح الخرافة والميثولوجيا الطبيعية الدهرية هي الحق المنزل من السماء، وإذا بالدهماء من المفتونين بتلك النظريات ينزل ذلك منهم منزلا عظيما، فيسلم من كان منهم على غير الإسلام لا لأنه شهد للإسلام بأنه الحق البدهي الذي يوافق فطرته، ولكن لأنه وجد فيه أخيرا ما يوافق تلك النظريات التي هي عنده العلم الأعلى الذي لا يخالفه إلا مبطل جاهل!

عقد الدكتور بابا كاملا في كتابه "كيف بدأ الخلق" للتأصيل لجهميته ومنهجه البدعي في التعامل مع كتاب الله تعالى، ترجم له بقوله "مع القرآن الكريم"، فقال في صدر الباب (ص. 321):

> يا ترى بعد ما قرأت في الفصول السابقة من أدلة التصميم الذكي والتطور الموجه في خلق الكون والحياة والإنسان، هل ستتبنى ما عرض عليك من مفاهيم علمية؟ أم تراك ستكون ممن ينكرون التطور ويقولون بالخلق الخاص للكائنات كل على حدة، بل ولكل الموجودات في الكون (السماء، الأرض، الجبال، البحار...)؟ أم تراك ستمسك العصا من الوسط، فتقر بالتطور في خلق الكون وما فيه من كائنات، وتعطل سنة التطور الإلهي عند أعتاب الإنسان، وتخصه بفكرة الخلق الخاص برغم ما قدمه العلم من أدلة؟! أصدقك القول، إن حاجزا ضخما يقف بين المعترضين وبين التطور، حاجزا ليس له علاقة بحقائق العلم وقوة أدلته ولا بآيات

القرآن الكريم المحكمة، إنه حاجز يتمثل في إصرار الكثيرين منا على التمسك بالتفسيرات التراثية لآيات الخلق في القرآن الكريم.

فعندما تصدى المفسرون الأقدمون لقصة خلق الإنسان، لم يكن معلوما وقتها إلا نوعا واحدا من الخلق، وهو الخلق الخاص الفوري، فحمل المفسرون آيات الخلق في القرآن الكريم على هذا المفهوم، وهم محقون في ذلك تماما، خاصة أن ظاهر الآيات يؤيد ذلك. ثم أثبت العلم الحديث أن هناك نمطا آخر من الخلق وهو الخلق التطوري، ولا شك أن هذا النمط من الخلق لو كان معروفا للأقدمين لطرح الكثيرون منهم تفسيرات تتمشى مع هذا المفهوم، خاصة أنه يحل كثيرا من مواضع الالتباس التي تواجه التفسير من منظور الخلق الخاص (كما سنرى في الفصل القادم).

لكن المشكلة الكبيرة أن الكثيرين من المعاصرين (مفسرين ودارسين) أخذوا ما جاء في التفسيرات التراثية على أنه هو مراد الله عز وجل، وأنه من قضايا العقيدة التي لا تحتمل تأويلا، وصاروا يرفضون المفاهيم العلمية الجديدة دون بذل الجهد لفهم ما توصل إليه العلم. لقد وضع هؤلاء القرآن في موضع الرافض لما توصل إليه العلم من حقائق، وصار علينا أن نختار بين قصتي خلق متباينتين، إحداهما تطرح باسم القرآن، والأخرى يثبتها العلم!

قلت: هذا الكلام باطل من جهتين منهجيتين عظيمتين، قد أطلنا النفس في بيانهما بحول الله وقوته في هذا الكتاب بما نرجو ألا مزيد عليه. فأما الجهة الأولى، فهي بطلان ما يزعم الدكتور وغيره من جهمية داروين أن "العلم قد أثبته" في تلك البابة الغيبية المحضة (بابة أصل جميع الأنواع الحية على الأرض)، وفساد منهج النظر الإمبريقي والافتراض التفسيري المنتهج في ذلك عند أصحابه! وأما الجهة الثانية، فهي فساد منهج الدكتور وغيره من جهمية العصر في تأويل نصوص الوحيين على نحو يهدر الإجماع ولا يرفع به رأسا، بل لا يبالي بنقض المعلوم من الدين بالضرورة (كمسألة خلق آدم عليه السلام من تراب لا من نسل القردة العليا) بدعوى أن الأولين لما فسروا القرآن، إنما فسروه تأسيسا على ميتافزيقا الفلاسفة السائدة في زمانهم في شأن الخلق وأصول الأنواع الحية، فلو وقفوا على ما انتهى إليه فلاسفة العصر في نفس الأمر لما قالوا بما قالوا! وكأن جميع المفسرين والأئمة وعلماء الملة في القرون السالفة كانوا جهمية أمثاله، لا يقيمون لفهم الصحابة والسلف وزنا ولا يرفعون به رأسا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فبعدما فرغ الدكتور في كتابه هذا من حشد استدلالات الدراونة الفاسدة في التأسيس لنظرية التطور، وشبهاته فيما توهمه تخليصا لها من عنصر العشواء الوجودية المتجذر في أصولها، وأوهم نفسه بأنه قد ساق بذلك من براهين العلم الساطعة ما لا يماري فيه إلا جاهل أو مكابر أو صاحب هوى، كان لزاما أن ينتقل بعدئذ للتعامل مع النص الشرعي عند المسلمين، وأن يرفع عقيرته بإسقاط سلطان الفهم السلفي للكتاب والسنة تحت شعار تجديد الدين والتحرر من تأويلات قوم عُرب مساكين، لم يعلموا من الكوزمولوجيا والبيولوجيا (وكل "لوجيا" أخرى ذات صلة) ما علمه الفلاسفة المعاصرون!

قوله: " يا ترى بعد ما قرأت في الفصول السابقة من أدلة التصميم الذكي والتطور الموجه في خلق الكون والحياة والإنسان، هل ستتبنى ما عرض عليك من مفاهيم علمية؟ أم تراك ستكون ممن ينكرون التطور ويقولون بالخلق الخاص للكائنات كل على حدة، بل ولكل الموجودات في الكون (السماء، الأرض، الجبال، البحار...)؟ أم تراك ستمسك العصا من الوسط، فتقر بالتطور في خلق الكون وما فيه من كائنات، وتعطل سنة التطور الإلهي عند أعتاب الإنسان، وتخصه بفكرة الخلق الخاص برغم ما قدمه العلم من أدلة؟!" قلت: تريد جواب المسلم العاقل الذي ينزل الدعاوى المعرفية منزلتها الصحيحة، ويعلم أن الغيبيات لا يطلب العلم بها إلا من السمع وحده؟؟ إليك الجواب فاعقله إن شئت: كل هذا الخرص والتنطع بالقياس الوهمي الذي زعمته أدلة للتطور، لا قيمة له ولا وزن البتة ولا نرفع به رأسا في سوق الأدلة ولو جئتنا بملئ الأرض منه، والله المستعان لا رب سواه! والقول في ذلك الغيب المحض يبقى هو ما أجمع عليه السلف في فهم كتاب ربهم وسنة نبيهم، وهو ما يجب على المسلمين اعتقاده إلى قيام الساعة بلا زيادة ولا نقصان، وإن رغمت أنوف الجهمية المنبطحين من مخانيث الفلاسفة الطبيعيين، والحمد لله رب العالمين!

قوله: "أصدقك القول، إن حاجزا ضخما يقف بين المعترضين وبين التطور، حاجزا ليس له علاقة بحقائق العلم وقوة أدلته ولا بآيات القرآن الكريم المحكمة، إنه حاجز يتمثل في إصرار الكثيرين منا على التمسك بالتفسيرات التراثية لآيات الخلق في القرآن الكريم." قلت: وأنا أصدقك القول فأقول إن هذا الحاجز الذي كرهته نفسك المفتونة الغارقة في الأهواء، لهو العلم الحق الذي لا يعلوه علم، وهو ما به ميز الله تعالى هذه الأمة الخاتمة على سائر أمم النبيين من قبل، الذين لم تكن تمر عليهم بضعة عقود من الزمان من بعد قبض نبيهم أو رسولهم حتى يضيعوا ميراثه بالتحريف والتبديل والنسيان! هذا الحاجز والسد المنيع هو مصداق قول الله تعالى: ((إِنَّا نَحْنُ

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظَونَ)) [الحجر : 9]، فلولا أن حفظ الله تعالى في هذه الأمة هذا التراث المبارك من نصوص قد اتصل السند بمتونها فوصلت إلينا وكأنما نزلت بالأمس، وانتهى إلينا ما أجمع عليه القرن الأول في تأويلها وكأنما كنا جلوسا شهودا يوم تلقى الصحابة ذلك الفهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لولا هذا لكنا نحن اليوم شرا من اليهود والنصارى، لا يجلس رجلان منا على شيء مما عندنا من النصوص الدينية الموروثة يتدارسانه إلا اختلفا على صحة نسبته لأصحابه خلافا لا سبيل لإظهار الحق فيه أصلا، ولخرجا من مجلسهما بتأويلات جديدة لم تعلم من قبل، تتولد بين أيديهم بلا زمام ولا خطام، ولا يُعلم طريق لترجيحها على غيرها أو ترجيح غيرها عليها إلا الهوى!

فوالله لو يعلم هؤلاء الجحدة المستكبرون من أذناب الفلاسفة أي شر يجلبونه على الأمة ويؤذنون بفتح أبوابه عليها بهذا المسعى الخبيث الذي هم ماضون فيه من توهين سلطان التراث السلفي في فهم الكتاب والسنة وإسقاط حجيته، لودوا ما ولدوا وما عقلوا، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! يظن أحدهم أنه قد جاء بما لم تستطعه الأوائل مما فيه هدم الإلحاد ونصرة الدين، وما جاء والله إلا بما فيه خراب الملة وضياع الدين، فإنا لله وإنا إليه راجعون! ((أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)) [فاطر : 8]

وإني لأجزم بأن الدكتور يعلم أنه يكذب هاهنا إذ يقول: "فعندما تصدى المفسرون الأقدمون لقصة خلق الإنسان، لم يكن معلوما وقتها إلا نوعا واحدا من الخلق، وهو الخلق الخاص الفوري، فحمل المفسرون آيات الخلق في القرآن الكريم على هذا المفهوم، وهم محقون في ذلك تماما، خاصة أن ظاهر الآيات يؤيد ذلك." فالصحابة والتابعون لم يأتوا بتفسيرهم تلك الآيات من فلاسفة عصرهم وأقوالهم في قصة أصل الإنسان، بل لم يلتفتوا إليها إن مروا بها ولم يتحروها أصلا، وإنما قالوا بما هو ظاهر الآيات الصريح الذي لا يماري فيه من يعلم لسان العرب، ولم يخالف فيه مخالف منهم البتة! فكان إجماعهم هو سبيل المؤمنين الذي من شذ عنه شذ في النار، نسأل الله العافية! الدكتور يريد أن يؤسس منهجا في التأويل خلاصة طريقته أن يفزع المفسر إلى النظريات العلمية السائدة في عصره بصورة ما أو بأخرى ليفهم بها كلام ربه عند ظهور ما يبدو وكأنه اتحاد في الموضوع، فإن اختلف المفسرون الأولون في التأويل وأراد هو أن يرجح بين أقوالهم، لزم أن يجعل أرجح الأقوال هو أشبهها – في وهمه – بموافقة النظريات!

وهذا، أيها القارئ المحترم، هو منهج الجهمية من يوم أن ظهرت في أهل القبلة! لا شيء أبغض إلى نفوسهم من فهم السلف وتراثهم في تفسير القرآن وشرح السنة! لماذا؟ لأنهم إذا وقعت في قلوبهم الفتنة بنظريات الفلاسفة الأكاديميين المعاصرين لهم في غيب السماوات والأرض، فإنها تعظم جدا حتى تصبح هي حقائق العلم التي لا مدفع لها، وقطعيات العقل التي لا ناقض لها، ولا يجوز – إذن – أن يوجد في نصوص الوحيين ما يخالفها أو حتى يوحي بمخالفتها ولو من بعيد! فإن وجد من أئمة التفسير من يخالفها فهو جاهل معذور بجهله، بل وإن لم ينقل عن القرون السالفة تفسير أو فهم إلا ما يخالف تلك النظرية، لزم تجهيلهم جميعا والحكم بأن مراد الله على خلاف ما ذهبوا إليه جميعا، وهذا عندهم من جهلهم ورقة دينهم أمر وارد لا إشكال فيه! هم رجال ونحن رجال، فأي شيء يرفعهم فوقنا أو يلزمنا باتهام آرائنا لصالح ما هو مأثور من كلامهم؟؟ لا شيء على الإطلاق! وأما إن وجد ما يفهم منه إثبات تلك "الحقائق العلمية" أو "القطعيات العقلية" بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فإنه يصبح "إعجازا علميا" للقرآن، إذ أثبتت فيه تلك الأمور التي ما عرفها "العلم" إلا مؤخرا!

ونقول: قد كان من المتعين علينا قبول مسألة "هم رجال ونحن رجال" هذه، والتسوية بين اتفاق السلف واتفاقنا نحن في القيمة المعرفية، وتسوية رأي أحدنا برأي أحدهم عند الانفراد، واجتهاده باجتهاده، لو قدر أن كان العلم الذي نحن بصدده علما لا صلة له بوحي السماء، وليس مصدره رسول من رب العالمين قد عاصره هؤلاء وتلقوا عنه مباشرة بينما تخلفنا نحن عنه لقرون طويلة! فعندما تكون مادة العلم موروثة من حيث الأصل، فإنما يزداد صاحب ذلك العلم إلماما به كلما كان أعظم اقتفاء للأثر ووقوفا عليه، لا يقدم عليه غيره ولا يتساهل في ذلك، خلافا للمعارف التي تكتسب باستكشاف السنن الكونية والنظر في نظاميات الطبائع على ما هي عليه، من غير أن يكون فيها سمع وارد عن رسول رب العالمين، فإن هذه لا يزداد صاحبها علما بها وجمعا لها باقتفاء الأثر، وإنما يرجى من الجديد فيها أن ينسخ القديم، يمكمل نقصه ويضيف إليه ما يصلح عواره! فبينما يحمد الابتداع والابتكار في تلك العلوم الاستكشافية، فإنه يذم أعظم الذم في تلك العلوم الدينية التي تدور على السمع والأثر، وهذا فارق قد أطلنا النفس في تحريره والكلام عليه في مواضع من هذا الكتاب فلا نعيد!

والقصد أننا معاشر المسلمين مضطرون اضطرارا دينيا للتوسل إلى ذلك المصدر الأول العتيق بآثار من نقلوا عنه علمه وتشبعوا به وبثوه بين الناس، رضي الله عنهم وأرضاهم! ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة التي لا يخالفها إلا مستحق للتبديع والتفسيق، تعظيم الصحابة رضي الله عنهم

والإمساك عما شجر بينهم، والعض بالنواجذ على إجماعهم واتهام كل رأي في فهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ليس له سلف فيهم أو قائل بنظيره منهم، فهم وإن لم يكن آحادهم معصومين إلا أن إجماعهم معصوم بدلالة النقل والعقل جميعا! ولا شيء أثقل على أهل الأهواء من تلك المسألة ولا عجب! ولهذا كان يقال إذا رأيت الرجل يسب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق! وإذا رأيت الرجل يجهلهم جميعا بمراد رب العالمين من بعض كلامه أو مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض كلامه، يرفع رأيه على إجماعهم، فاعلم أنه زائغ صاحب هوى، فنفض منه يديك!

هذه مسألة أصيلة عند أهل السنة لو فرطوا فيها لفرطوا في السنة نفسها، ولانفرط عقدها من بين أيديهم، والله المستعان! ينبغي أن يكون معلوما أنه كما يكره الملحد المرتد أن يلزمه أحد باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والخضوع له ديانة، فكذلك يكره المبتدع من أهل القبلة والمتفلسف الزنديق أن يُخضع عقله لإجماع السلف، ينزل عن رأيه لإجماعهم! وإنما تفاوت الفريقان في حجم ما في النفس من الكبر والهوى، لكنه هو نفس المرض القلبي من حيث الأصل، نسأل الله السلامة! ولهذا كانت الجهمية هي بريد الدهرية والإلحاد (تلك الآفة نفسها التي يزعم الجهمية أنهم أقدر الناس على علاجها وصيانة المسلمين منها، والله المستعان!)، وكان أكثر من تميل به نفسه للردة وإعلان الإلحاد، متشبعا بتلك الأهواء نفسها من قبل، حريصا على التزلف لسادة الأكاديميات الفلسفية المقدمة في مجتمعه وعلى أن يحظى بينهم بمنزلة تشبع غروره وزهوه بعقله! فتراه يبدأ بالتجهم والزندقة وتقديم رأيه على تراث السلف وإجماعاتهم، ثم إذا ما تهيأت له الأحوال التي يضمن معها أن يأتيه من المحببات الدنيوية إلى نفسه فوق ما يأتيه من المكاره، أعلن ردته وتشكيكه في أصول الملة بالكلية، وصرح بذلك ونافح عنه ولم يبال! ولهذا أيضا لا ترى من يرتد عن الإسلام بسبب الميل القلبي إلى أصحاب تلك الفلسفات، يظهر الرجوع إليه إن أظهره إلا على دين الجهمية والفلاسفة الإسلاميين والمفكرين الإسلاميين ومن شاكلهم! كأنما يقول: سأرجع إلى الإسلام ولكن على شرطي وعلى مزاجي، وبما يحقق لي منزلتي التي أرجوها بين النخبة من الفلاسفة والمفكرين! إما هذا وإما البقاء على ما أنا عليه!

والقصد أن نفور الجهمية من إجماعات السلف وحطهم عليها، يرجع إلى نفس ذلك المرض القلبي الخبيث (من حيث الأصل)، ذلك الكبر الذي يحمل أصحابه ممن كانوا في الأصل مسلمين على التصريح بالإلحاد والردة عن الإسلام، إذا ما بلغ من نفوسهم مبلغه، فيصبح نفورا من النصوص نفسها وانفكاكا من سلطانها جملة واحدة!

ولا عجب، فإذا كانت الخطوة الأولى هي فك النص من سلطان فهم الأولين له، وفتحه لكل صاحب رأي حادث أن يقول فيه برأيه، لزم أن تكون الخطوة الثانية أن يقال: فما قيمته هو نفسه إذن، وأي شيء يدعونا لتعظيمه والحفاظ عليه؟ النص الذي لا يتلقاه سامعه إلا فهمه على ما يحلو له، يخضعه إخضاعا لرأيه وفلسفته كيفما كانت، ما فائدته وما الذي يلزم الناس بالخضوع لسلطان أصحابه؟؟ لا شيء على الإطلاق! وقد دندن ريتشارد دوكينز حول هذا المعنى كثيرا في غير مناسبة، يحاجج خصومه من أهل الكتاب في مجتمعه بأنهم إنما يتلقون معارفهم الغيبية من الأكاديمية الطبيعية، ويتلقون معارفهم الأخلاقية والتشريعية والسياسية من القيم السائدة في مجتمعهم حاليا كيفما اتفق لها أن تكون (وأكثرها الآن إنسانية علمانية كما لا يخفى)، فأي قيمة تبقى للنصوص الدينية إذن، إن كان الذي يؤمن بها سيتعامل معها تعاملا انتقائيا، يقبل من الفهم الموروث لأصحابها ما يوافق تلك المصادر سالفة الذكر، ويرد ما يخالفها؟؟ لا قيمة على الإطلاق! ولهذا لاقت دعوى دوكينز وأصحابه الثلاثة (الملقبين بفرسان الإلحاد الأربعة) في الغربيين قبولا واسعا ورواجا وانتشارا كالنار في الهشيم، لأن القوم نجحوا في إيقافهم على حقيقة دينهم، وأنهم أتباع الفلاسفة على الحقيقة، وأن النصوص الموروثة عندهم تابعة في فهمها لتلك الفلسفات وليس العكس! فهم "لقطاء" فيما يتعلق بالبناء المعرفي لعقائدهم وأخلاقهم، ولا اتصال لهم بالإله الذي يعبدونه في شيء من ذلك كما يزعمون، وإذن فلا قيمة للنصوص المنسوبة إليه عندهم البتة، ولا داعي للتظاهر بتصحيح الملة الموروثة التي تقوم عليها!

فتأمل كيف أنه لا نجاة للمسلم إلا باقتفاء الأثر والتماس هدي السلف رضي الله عنهم والعض عليه بالأسنان والنواجذ، وإعلاء الفهم السلفي لنصوص الكتاب والسنة وتعظيمه بما هو أهله - ذلك الحصن الديني الحصين الذي لولا هو ولولا تلك الطائفة من العلماء العدول الذين لم يزالوا يتوارثونه بالسند المتصل كابرا عن كابر، ما كنا نحن اليوم مسلمين -، ورفعه فوق كل ما يخالفه، والمفاصلة على ذلك، وأنه لا يلتمس طريق الجهمية أحد، في المقابل، ولا يدلف من أبوابهم إلا كان على طريق ردة وزندقة تعميه أهواؤه فلا يرى الحق حقا ولا يرى الباطل باطلا إلا ما أشرب من هواه، ولا ينتبه إلى وقوعه في الإلحاد إلا بعد فوات الأوان، والله المستعان!

يجب أن يوقف الدكتور وأتباعه على الأثر المدمر المترتب على هذا الموقف البدعي الخطير الذي اتخذوه من الفهم التراثي لنصوص الخلق، ويبين لهم أنه موقف هادم لسلطان النص الديني نفسه! فإذا جاز أن يقال إن الصحابة والتابعين أجمعوا على جهالة وضلالة في آيات خلق السماوات

والأرض وخلق الحياة على الأرض، لأن ذلك كان هو منتهى علمهم بالطبيعة وعلومها آنذاك، فأي حجية تبقى لشيء من تلك النصوص نفسها، بل ولأي نص من نصوص القرآن والسنة، والحال أنه قد بات من الجائز أن تكون جميع قرون المسلمين قد هلكت على فهم فاسد لتلك النصوص؟ أي شيء على هذا المذهب يمنع الملحد من أن يقول: ما يأمنني إن قبلت منكم القرآن والسنة على ما أنتم مجمعون عليه من الفهم فيهما الآن، من احتمال أن يكون ذلك الفهم المجمع عليه باطلا فاسدا على الحقيقة، ينتظر أن يظهر مستقبلا في العلوم والفلسفات ذات الصلة ما يكشف بطلانه وفساده ويكسحه كسحا كما وقع لكم في آيات الخلق؟؟ وأي شيء يحملني إذن على قبول تلك النصوص ديانة إذا كانت تقبل عندكم أن تعامل معاملة الكلام الأدبي المجازي الذي يجوز لكل إنسان أن يفهمه على ما يحلو له؟ خير لي إذن أن أبقى فيلسوفا متحررا من نصوص الأولين وأساطيرهم بالكلية، من أن أتظاهر بتعظيم نصوص لا قيمة ولا حجية لها على الحقيقة، يتخذ أصحابها لأنفسهم سلطانا دينيا واهيا لا أساس له!

ليس لدى الدكتور، على مذهبه الجهمي الفلسفي في التأويل وفي تجهيل السلف بمراد ربهم من بعض كلامه، ما يجيب به عن هذا الاعتراض الذاهب بأصل حجية القرآن نفسه! كيف وهو يرى ورود المعارض الصحيح للمعاني التي لم يزل المسلمون يؤمنون بأن القرآن يقررها، وأنه من الوارد أن تأتي النظريات الجديدة في المستقبل بما يعصف بعقيدة المسلمين فيما كانوا يؤمنون بأنه مراد ربهم من كلامه، ليكشف لهم خلافه؟؟ فإن قال: المسألة ليست مسألة عقيدة، وإنما هي عندي مسألة خبرية علمية لا تؤثر في اعتقاد المسلمين، قلنا له: كيف لا يكون الإيمان بصحة ما جاء به القرآن من خبر خلق آدم عليه السلام بيد الله تعالى من طين لازب، وخلق حواء منه، ليس من جملة مسائل الاعتقاد، وهو من المعلوم من دين المسلمين بالضرورة؟؟ هذا كلام من لا يدري ما الإيمان وما العقيدة وما الدين أصلا! أنت تزعم أن أئمة المسلمين كانوا مجمعين على تكفير المخالف في مسألة قد جاء العلم أخيرا بما يثبت بطلان قولهم فيها! كانوا يكفرون الناس بقولهم إن آدم لم يخلق من طين وإنما خلق في رحم أنثى، وأنت تقول إنهم كانوا جهالا مساكين، قالوا بما انتهى إليه علمهم في البيولوجيا! فأي أساس يبقى إذن للثقة في إجماع أئمة المسلمين وفي علمهم بمراد ربهم وبما هو من مسائل الاعتقاد وما لا يبلغ أن يكون منها، وما هو من مناطات التكفير وما لا يصح أن يكون منها.. إلخ؟؟ فالرجل مذهبه يقتضي إهدار علوم أئمة الملة كافة، كابرا عن كابر وصولا إلى الصحابة أنفسهم، ونزع الثقة في علوم الدين كلها، فافهم هذا يا من تتابع الدكتور على بدعته واعلم أين تضع قدميك!

المسألة أيها القارئ الكريم لا تقتصر على الزعم بأن المخلوقات الحية قد خلقت بالتعديل والتحسين والتطوير على أصل منحط! المسألة كما ترى لها تبعات ومقتضيات منهجية أشد فسادا وأبلغ في هدم الدين، ولا تقل نقضا لحجية القرآن من دعوى القائلين بتحريفه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولهذا أطلت النفس في البيان والرد والتفنيد على الدكتور، على هذا النحو الذي قلّ نظيره في الطول والبسط والتفصيل عند أهل الملل، نسأل الله الإخلاص والتسديد والقبول! الرجل لا يكاد يؤلف كتابا جديدا إلا بث فيه من الأصول الفلسفية البدعية ما يقتضي طامة هي أعظم هدما للعقيدة والشريعة مما كان منه قبل! والناس تقبل عليه وتسارع إليه ظنا منهم بأنه قد أوتي طريق النجاة من الإلحاد والسلامة من الشك وأسبابه، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قوله: "ثم أثبت العلم الحديث أن هناك نمطا آخر من الخلق وهو الخلق التطوري، ولا شك أن هذا النمط من الخلق لو كان معروفا للأقدمين لطرح الكثيرون منهم تفسيرات تتمشى مع هذا المفهوم، خاصة أنه يحل كثيرا من مواضع الالتباس التي تواجه التفسير من منظور الخلق الخاص (كما سنرى في الفصل القادم)." قلت: كذبت والله! ما تسميه بالعلم يا دكتور (وليس إلا تنظيرا تفسيريا طبيعيا دهريا)، لم "يثبت" أن هناك أنواعا من الخلق! وإنما "زعم" أن هناك نشأة تطورية عشوائية محضة، كما بينا أنه لا انفكاك لفكرة الانتخاب الطبيعي والأصل المشترك عن العشوائية الداروينية التي توهم الدكتور أنه قد تخلص منها! أما أن يقال إن "العلم الحديث" (هكذا) أثبت أن هناك نمطا "آخر" من "الخلق"، فهذا تلبيس سمج، والله المستعان!

وأما قولك "لو كان هذا النمط معروفا للأقدمين لطرح الكثيرون منهم تفسيرات تتمشي مع هذا المفهوم" فهذه كذبة أخرى أبهت من سابقتها! فالحق أن دعوى تطور جميع الأنواع الحية من أصل مشترك هذه ليست علما ولا معرفة أصلا، وإنما هي فرضية ميتافزيقية محضة، بالغة من التنطع منتهاه، والصحابة والسلف لم يكونوا من أصحاب الفرضيات الميتافزيقية ولم تكن لهم صلة من قريب ولا بعيد بزبالة الفلاسفة! ولو أنهم سمعوا بفرضية كهذه لردوها على أصحابها فورا، مهما زعموا أن لديهم عليها أدلة! أي لو قدر أن ظهرت تلك النظرية قبل بعثة النبي عليه السلام، وبلغت من استفاضة "الأدلة" عند أصحابها (فيما يزعمونه أدلة) ما بلغته اليوم، ووقفوا هم عليها عند الفلاسفة، لردوها على أصحابها رأسا ولسفهوهم بها ولا كرامة! لماذا؟ لأنها افتيات على الغيب عظيم، وأمثال هؤلاء النبلاء رضي الله عنهم ما كانوا ليثبتوا شيئا في الغيب أو ينفوه إلا بالسمع! يا دكتور، الصحابة

لم يكونوا جهمية متفلسفة من أمثالك، فما كانوا ليتكلموا في خلق الله تعالى أنواع الدواب على الأرض من غير مثال سابق إلا بالسمع وحده، كما هو المتعين على كل عاقل يحترم عقله، ويتقي الله في دينه، رضي الله عنهم وأرضاهم وجزاهم عن المسلمين خيرا!

فمحاولة الدكتور تصوير نزاعه مع علماء المسلمين على أنه نزاع بينه وبين بعض المعاصرين منهم خاصة، هذه حيلة قديمة وشنشنة نعرفها من أمثاله! فمهما كان الجهمي أو المتفلسف أو المتكلم غير عابئ ولا مكترث بما كان عليه السلف رضي الله عنهم، فإنه يعلم – بداهة واضطرارا – أنه لو قطع كل صلة بينه وبين قرن الصحابة وقرن التابعين، لما نظر إليه المسلمون إلا على أنه يدعو إلى دين غير الدين! ولهذا ما زلنا نرى أحدهم يتفلسف ما يحلو له أن يتفلسف، ثم يأتينا بما اخترع ليقول إنه هو ما كان عليه السلف، أو على الأقل، هو ما كان يلزم أن يذهب إليه السلف لو قدر أن ظهر لهم من الأدلة ما ظهر له بزعمه! ألا ترى أن المتكلمين القدماء كانوا يقولون: إن مذهبهم أعلم ومذهب السلف أسلم؟ فما معنى أن مذهبهم أعلم؟ معناه أنهم يرون كما يرى الدكتور أنه لو قدر أن خاض السلف فيما خاضوا هم فيه، ووقفوا من كلام الفلاسفة على ما وقفوا هم عليه، لوجب أن ينتهوا إلى ما انتهوا هم إليه، وإذن لصاروا "أعلم" مما كانوا عليه، ولكنهم آثروا السلامة فأمسكوا!

وهذا كذب أقرع ولا شك، لأن الصحابة رضي الله عنهم لو عرض عليهم ما خاض فيه هؤلاء لأسقطوه على رؤوسهم من أصل المسألة ولردوه على أصحابه من مبدأ النظر! ومعلوم ما كان عليه السلف من ذم الكلام والمتكلمين وبضاعتهم الفلسفية!

ولهذا قال أئمتنا رحمهم الله تعالى إن السلف كانوا هم الأحكم والأعلم والأسلم، إذ منعوا من تكلف تلك النظريات والخصومات ومن ابتداء النظر فيها من الأساس! والفرق عظيم بين السكوت والإمساك عن علم ببطلان مبدأ الخوض نفسه، وبين السكوت والإمساك عن جهل أو عدم تعرض لدواعي الكلام والخوض، وهو الفرق بين منهج أهل السنة ومنهج أهل الكلام! فلا يحق للجهمي أن يقول لو وقفوا على ما وقفت عليه لانتهوا إلى ما انتهيت إليه! هذا لا يجوز أن يقال في النوازل التي يستساغ فيها النظر، يقال: "لو عرضت عليهم تلك المسألة لأجمعوا على ما ذهبت إليه"، لأن الإجماع معصوم والرأي غير معصوم، فكيف والأمر ليس بابا للنظر أصلا ولا يجوز طرحه للنظر، وإجماع السلف منعقد على ترك ذلك النظر جملة؟! بل والله لو رآك أحدهم، رضي الله عنهم، لأنكر عليك أشد النكير، ولو كان له

عليك سلطان لفتك بك فتكا ولما ناقشك أصلا، ولك فيما نزل بالجعد بن درهم عبرة، والله المستعان!

فقوله "لكن المشكلة الكبيرة أن الكثيرين من المعاصرين (مفسرين ودارسين) أخذوا ما جاء في التفسيرات التراثية على أنه هو مراد الله عز وجل، وأنه من قضايا العقيدة التي لا تحتمل تأويلا، وصاروا يرفضون المفاهيم العلمية الجديدة دون بذل الجهد لفهم ما توصل إليه العلم" قلت: أولا: القول بأن مراد الله تعالى لم يكن في شيء من "التفسيرات التراثية"، يقتضي تجهيل جميع الصحابة بمراد رب العالمين من كلامه، ونسبتهم إلى الإجماع على ضلالة، وهذا فيه ما فيه من مناقضة قوله تعالى: ((وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)) الآية [النحل : 44] وقوله تعالى: ((وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً)) [النساء : 115] وقوله صلى الله عليه وسلم "إن الله لا يجمع أمتي على ضلاله" (أخرجه الترمذي وحسنه الألباني، وهو من المتواتر المعنوي كما قرره أهل العلم)، وقد تقدم الكلام في لوازم ذلك فلا نعيد. ثانيا: ما جاء من تفسيرات السلف لما في القرآن من ذكر لخلق آدم عليه السلام على أنه كان بيد الله تعالى وأنه صوره من صلصال كالفخار، يخلقه خلقا "خاصا" في الجنة ثم يقول له كن فيكون، هذا من قضايا العقيدة قطعا وإن رغمت أنف الدكتور، وإنكاره تكذيب للقرآن ونقض لمعلوم من الدين بالضرورة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثالثا: ما سميته بالمفاهيم العلمية الجديدة إنما هو الجهل بعينه والخرف بعينه، وإن أجمعت عليه أكاديميات الأحيائيين كافة! رابعا: أكثر خصومك ومخالفيك يا دكتور قد بذلوا من الجهد في فهمها كما بذلت أنت (وأنت المتخصص في الجراحة أصلا وليس في علم الأحياء التطوري!)، ومنهم من فهم النظرية أحسن مما فهمتها أنت، إذ أدرك من وهاء محاولاتك المتهافتة لأسلمتها وتلبيسها بلبوس الخلق الإلهي ما لم تدركه أنت ولا تريد أن تدركه إلى الآن، والله المستعان! فلا شيء أسهل من أن يقال في المخالف من غيرما بينة: هو لم يفهم ولم يبذل من الجهد في الفهم ما كان واجبا عليه! فهذا لا نجيب عليه بأكثر من أن نقول: للناس عقول وأفهام، وسيظهر لهم ولو بعد حين، أي الفريقين أحسن فهما للنظرية وللأصول التي تقوم عليها، والله الهادي إلى سبيل الرشاد!

ثم يشرع الدكتور في ممارسة نوع من أنواع الإرهاب الفكري، يحذرنا من أن ينزل بنا ما نزل بأوروبا إذ أصرت كنيستها على مقاومة "الزحف العلمي المقدس" ولم تبد أي "مرونة" أو استعداد لإعادة تأويل نصوصها الدينية بما

يلائم العلم الحديث، فما كان من العامة إلا أن خرجوا من الدين أفواجا ودخلوا في الإلحاد والعلمانية! فكأنما يعتنق الدكتور نظرية حتمية الثورة لكارل ماركس، ولكن في إطار العلاقة بين المد الطبيعي وما يبديه أهل الملل الكتابية من مقاومة له! كأنما يقول: الثورة الإلحادية قادمة قادمة حتما لا محالة، فإما أن تعدلوا من دينكم بما يستوعبها ويهون من وطئتها على الجماهير، وإما أن تنقبلوا إلى مزبلة التاريخ!

يقول تحت عنوان "ما أشبه الليلة بالبارحة" (ص. 322):

> إن هذا الفصل صيحة تحذير.. فالليالي قد تتشابه: في العصور الوسطى عذبت الكنيسة في أوروبا العلماء وحرقت بعضهم، لأنها رفضت كلمة العلم حول كروية الأرض ودورانها حول الشمس، وأصرت على فرض مفاهيم أرسطو وبطليموس باعتبارها من أمور العقيدة، كما تمسكت بما جاء في الشروح القديمة لسفر التكوين من التوراة وألزمت العلماء الطبيعيين بها. وفي هذا العصر، نكاد نحيا في عالمنا الإسلامي ليلة تتشابه مع ليالي البارحة، فما زال بعض رموز علماء الدين المسلمين، ممن لهم الكلمة المسموعة، يحيون على علوم العصور الوسطى وعلى فهم الأقدمين للآيات الكونية وآيات الخلق في القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويريدون منا أن نفهم فهمهم ونتبنى موقفهم من العلم، بل ويشنون حملات عنيفة على من يخالفونهم الرأي! نحن نجد في كتابات بعض هؤلاء من يرى أن الأرض مسطحة ويرفض القول بكرويتها! ومنهم من ينكر أن العلم قد أهبط إنسانا على سطح القمر! ونقرأ لبعضهم أنه لا توجد أمراض معدية! وأخيرا وليس بآخر يتمسك الكثيرون منهم بأن فترة الحمل في المرأة يمكن أن تمتد إلى ثلاث سنوات، غير مبالين بما يترتب على ذلك من اعتداء على الحرمات واختلاط الأنساب! وينسبون هذه المفاهيم إلى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. إنهم بمثل هذه المفاهيم قد جعلوا القرآن الكريم غير صالح لكل زمان ومكان، بل وغير صالح لأي زمان ومكان.

قلت: تأمل كيف يحاول الدكتور أن يوهم قراءه بأن تراث المسلمين في فهم و"شرح" نصوص الوحي عندهم، إنما قام على الفلسفات التي عاصرها أئمة ذلك التراث في الكونيات والفلك والميتافزيقا والطبيعيات، كما كان الشأن في الشروحات التراثية لفهم سفر التكوين عند كنيسة العصور الوسطى، وأنه علينا أن نتخلى عن تلك الشروحات القديمة عندنا، وإلا تعرضنا لنظير ما نزل بالكنيسة من ثورة فكرية واجتماعية عارمة بسبب

رفضها نظريات الطبيعيين المعاصرين لها (كيفما كانت)، وتمسكها بنظريات الطبيعيين السابقين عليهم! والسؤال الآن: أين تجد في تراث سلفنا يا دكتور، ما يدل أو حتى يوحي ولو من بعيد بأن فهم القرآن فيه قام على نظريات بطليموس وأرسطو؟

الذين أدخلوا ميتافزيقا الفلاسفة وأقحموها في دين المسلمين فيما بعد، إنما هم الخلف من أهل الزيغ والهوى، وأما سلف الأمة (الصحابة والتابعون رضي الله عنهم) فما عرفوا تلك النظريات وما تحروها أصلا، وما كانت تنقصهم حتى يفهموا كلام ربهم أكمل الفهم وأحسنه! فإن كنت تحسب أن قارئك من السذاجة بحيث يصدق دعواك أن صحابة محمد صلى الله عليه وسلم سلكوا مسالك الآباء الأوائل للكنيسة الكاثوليكية في تلفيق الدين وتلبيسه بفلسفات اليونانيين، فأنت واهم يا دكتور! صحيح إن بطليموس كان يقول بمركزية الأرض في الكون وأنها ثابتة لا تدور، وكذلك كان قول قرون المسلمين في نفس الأمر وإلى وقت قريب، إلا أن سلفنا لم يقولوا بذلك تأسيسا على كلام بطليموس وما عرفوه أصلا، ولا تأسيسا على ما عند أهل الكتاب، وإنما قالوا باستدارة السماوات كالقبة جريا على ظواهر النصوص من الكتاب والسنة عندنا! فإن ظهرت نظرية فلكية تقرر خلاف ما هو مستقر عند السلف ولا يُعلم منهم أحد خالف فيه البتة، ولا يؤثَر خلافه عن أحدهم البتة، لزم الحكم ببطلانها هي لا ببطلان ما هم عليه! ولا يقال إنهم هم الذين يتعين عليهم ترك ظواهر النصوص لصالح تلك النظرية الجديدة!

فالمسألة غيبية كما بيناه في موضعه من هذا الكتاب، أعني الحكم بما إذا كانت الأرض ماثلة في مركز الكون ثابتة غير متحركة، أو كان مركز الكون غيرها، وهي جارية تدور حول نفسها وحول ذلك المركز، هذا لا يوصل إلى الفصل فيه بنفي أو إثبات من طريق الحس ولا القياس، وإنما يستند فيه إلى السمع إن وجد! فنحن لا نبصر بأعيننا حدود الكون حتى ندرك أين يقع مركزه، وحتى نقرر أي الأجرام هو الساكن بالنسبة إلى تلك الحدود وأيها المتحرك! وإنما دلنا على استقرار الأرض وسكونها في قلب قبة السماء، الفطرة أولا وظواهر النصوص ثانيا! ولا نقول إنه لا مدفع لذلك عند الطبيعيين، بل نقول ما هو أقوى من ذلك: إنه لا يتصور أن يأتي من طريقهم ما يدفعه أصلا!

ومع أننا نثبت فيها الإجماع ولا نرى خارما له، ونغلط من يخالفه، إلا أننا لا نبدعه ولا نفسقه لأن المسألة (مركزية الأرض وسكونها) وإن كانت سمعية خبرية إلا أنها ليست من مسائل العقيدة التي يمتاز بها السني من البدعي، ولم نر من أئمة السنة من جعلها كذلك! ولعلي يشتد نكيري على من يخاصمون على تلك المسألة ويفاصلون المسلمين فيها فوق ما أنكر على

القائلين بدوران الأرض وهيامها في أنحاء الكون، لأن الذين قالوا بالدوران لهم شبهة، والمسألة ليست من مسائل الولاء والبراء على أي حال، فليس إظهار النزاع فيها بين أهل السنة مما يستحسن، لا سيما وقد غلبت تلك الشبهة على جماهير المسلمين في هذا الزمان! وأما الذين جعلوها من مسائل العقيدة، فهؤلاء لا مستند لهم إلا الهوى، والله المستعان! وإنما صارت تلك المسألة موضع حرب دينية عظيمة بين الكنيسة وخصومها، لأن أولئك الخصوم كانت تحركهم منطلقات دهرية واضحة في القول بأن الأرض ليست هي مركز الكون، ورفع العقيرة بتكذيب الكنيسة دون أن يكون لديهم مستند إلا استحداث أنموذج رياضي فلكي جديد تتخذ فيه الشمس مركزا بدلا من الأرض، مع أنه لا يتعذر – نظريا - على أي إنسان أن يستحدث أنموذجا فلكيا جديدا يتخذ فيه أي جرم من أجرام السماء مركزا يدرس عليه جميع الأفلاك والحركات، كما يعلمه الفلكيون تمام العلم!

وأعني بالمنطلقات الدهرية، ما ظهر لكوبرنيكوس – ولآباء الكنيسة كذلك - من تأويلات فلسفية لتلك الدعوى، إذ تجعل الأرض إذن مجرد كوكب من جملة الكواكب السيارة الهائمة على وجهها في كون فسيح ليست هي مركزه ولا أهم شيء فيه (وهو ما صار يعرف فيما بعد بمبدأ وضاعة الأرض Mediocrity Principle) وليس لها مزية ولا فضل على غيرها من أجرام السماء إلا أن اتفق لها اتفاقا أن كانت هي سكننا ومأوانا، وهو ما رأوا أنه يمهد (إلى جانب النظريات التي بزغت في ذلك الوقت للقول بنشأة طبيعية لجرم الأرض نفسه) لبناء تصور كوزمولوجي دهري جديد للعالم ولمحل النوع البشري في الكون، يتخذ أصحابه من علم الفلك والرياضيات أساسا للانتصار له!

وأما ما سلكته الكنيسة مع مخالفيها من بطش وفتك وتقتيل، فليس عندنا منكرا لمجرد كونه تنكيلا قد بلغ درجة القتل وإهدار الدم، وهو ما لأجله يستشنعه العلمانيون ومن شاكلهم ممن يريدون البلاد كلأ مستباحا لكل دهري فاجر ولكل فاسق داعر ينشر الفساد في الأرض بلا مانع ولا رادع! فهم لا يقبلون مبدأ السلطة الدينية نفسه من الأساس، دع عنك أن يكون لتلك السلطة أن تمنع رجلا من أن يدعو الناس لرأيه حتى يعلو بينهم ويصبح فيهم رأسا متبوعا، على أساس أن ذلك الرأي باطل يهدم الدين أو يشوش عليه! فمن أجل هذا استنكروا واستشنعوا صنيع الكنيسة بمن طاردتهم وقتلتهم من الطبيعيين في العصور الوسطى! وأما نحن فإنما نستنكره منهم لأنه تسلط على الناس بدين منسوخ وبشريعة تنسب إلى رب الأرض والسماء وهو منها براء! وإلا فلإمام المسلمين (بل يجب عليه) أن يأمر برجل فتضرب عنقه إذا أظهر الردة وجاهر بها بين المسلمين، أو برجل أن

يقتل أو يصلب أو تقطع يداه ورجلاه من خلاف أو ينفى من الأرض إذا أظهر الفساد في الأرض، وهذا وغيره من حدود الله تعالى في المفسدين من رحمة الله جل وعلا بالمسلمين في التشريع ولا شك، لأن فيه صيانة دينهم مما يفسده عليهم ويهدد آخرتهم بالضياع!

فنحن أمة علمها رسولها صلى الله عليه وسلم أن الدين هو أعظم ما لديها، وأعظم ما يصان ويحفظ وتنصب من حوله التروس والحدود والحصون المنيعة، وأسمى ما تبذل من أجله النفوس، فهو ما لأجله خلقنا وما لأجله نرزق النفَس الذي يتقلب في صدورنا، رضي من رضي وكره من كره! وأما الملاحدة العلمانيون فيبغونها عوجا وعبثا، يريدونها لهوا ولعبا وهزوا، يريد كل امرئ منهم أن يترك وشأنه يعيش على هواه ومزاجه وشهوته، وأن تكون دنياه هي جنته ومرتعه، إن أحب أن يتلذذ بشهوة من الشهوات، لم يجد من يوقفه عند حد لا يجاوزه، وإن اشتهى الرياسة والتسلط على الخلق بأبطل الباطل وأفسد الفساد للعقل والدين، لم يقف له من يمنعه ويقي الناس من شره، يمنعه من نشر الباطل بكل حزم وقوة، فلا يريد أن يأتيه من يقول له افعل ولا تفعل، فضلا عن أن يقول له: "اخسأ يا هذا فلن تعدو قدرك! أمسك عليك لسانك ولا تفسد عقول الناس وعقائدهم!" فضلا عن أن يرفع عليه السيف بسلطان الدولة إن لم يرتدع! ولهذا السبب لا ينقضي مسعاهم الخبيث في اقتلاع الأصول التي تقوم عليها السلطة المعرفية لأي ميراث ديني قديم في أي ملة من الملل! فلا يخفى أنه إذا انهارت الثقة في فهم الأولين لتلك النصوص المنقولة عنهم عبر الأجيال، ذهب كل داع للتمسك بها بوصفها كلام رب العالمين، إذ لا قيمة لنص يورث من غير أن يورث معه فهمه الصحيح الذي به يزعم أحدهم أنه موقع عن رب العالمين! فلا يصب الطعن في فهم الأولين وتراثهم المعرفي بمعاني النصوص الدينية إلا في صالح هؤلاء على التحقيق!

ومع ذلك، فتأمل كيف يريد الدكتور (الذي يرى نفسه ويراه أتباعه إماما في مكافحة الإلحاد والدهرية) أن يوهمك أيها القارئ الكريم بنكارة ما سلكته الكنيسة من تمسك "بالشرح القديم لسفر التكوين"! هذه هي المشكلة عنده! أن الشروح قديمة! فمجرد كونها قديمة يقتضي أن تكون قائمة على نظريات الطبيعيين القدماء! لا يتصور عنده أن يكون لأصحابها مصدر آخر للقول بها بخلاف تلك النظريات البتة! وإذن، فأي شيء كان يضير باباوت الكنيسة في العصور الوسطى لو اختاروا بكل هدوء أن يزولوا عن مرجعيتهم العلمية التراثية في التأويل، فيأمروا جميع أحبارهم وعلمائهم بأن يسقطوا الكتب القديمة التي فيها شرح ذلك السفر عندهم، ليستحدثوا في محله تأويلات جديدة تناسب نظرية كوبرنيكوس وغاليليو؟؟ لو فعلوا لمر الأمر

بسلام، ولما وقعت تلك الشنائع! فعلى المسلمين أن يتعلموا الدرس وأن يعلموا أن الدائرة ستدور عليهم إن لم يلينوا بين أيدي الطبيعيين، الذين هم المصدر الأعلى في تلقي المعرفة بمراد الله من خبر الغيب الذي أوحى به إلى رسله!

فما نقول إلا: حسبنا الله ونعم الوكيل!

ليست المسألة كراهية منا لأن نكون أتباعا لغيرنا، وافهم هذا جيدا يا دكتور! فلو كان هذا هو هوانا وميلنا وهو السبب في ردنا نظرية التطور هذه على الرغم مما بلغته من منزلة لا تعلوها منزلة في أكاديميات الطبيعيين الكبرى في العالم، لكرهنا – من باب أولى - أن نسلم رقابنا نحن وأولادنا من بعدنا لتعاليم رجل عربي أمي لا يقرأ ولا يكتب، كما كرهه سادات قريش في عصره وأكابر اليهود ورؤوس الكنيسة النصرانية ورؤوس المجوس وكل فيلسوف مستكبر مغرور بعقله وعلمه منذ أن خرج ذلك الرجل بدعوته في مكة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها! وإنما المسألة أن الميراث المعرفي والعلمي الذي تركه هذا الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، هو العلم الحق في كل باب ولج فيه، وفي كل مسألة تكلم فيها، ذلك الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه وحي من رب العالمين الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وليس في الوجود من هو أعلم منه بكل موجود أو حادث كان وبكل موجود أو حادث كائن الآن، وبما هو آت بعد إلى الأبد! فليس خبر هذا كخبر من دونه، فكيف بنظر من دونه وتخمينه ووضعه الفرضيات العريضة في الغيب وهما وتشهيا؟ وأي قيمة تكون في إرث النبوة إن كانت نصوص الوحيين فيه مفتوحة (كلها أو بعضها) لآراء الناس في فهم معانيها، بحيث تهلك قرون كاملة من أتباع ذلك النبي ولم يحصل لهم النفع المقصود من تلقي تلك النصوص وسماعها، لأنهم كانوا قد أجمعوا على خلاف الحق في فهمها؟؟

فالآفة يا دكتور في أنك لا ترى في ذلك الفهم التراثي السلفي للنص الموروث علما يستحق التمسك به، إلا فيما قدر له أن سلم من مخالفة نظريات الطبيعيين في الغيبيات، وإذن لزم أن يكون المتعين عندك على الرسول نفسه، صلى الله عليه وسلم، حتى تكمل له مقومات الرسالة وتثبت صحة نبوته، أن يكون موافقا للطبيعيين المعاصرين في فهمه هو نفسه لما نزل عليه من وحي السماء، وأن يكون هذا هو ما علمهم إياه صلى الله عليه وسلم! فإذا كان الحال أنهم أجمعوا على مفاهيم جاءت من نظريات باطلة تبين بطلانها فيما بعد، فلا يخلو الأمر من احتمالين كلاهما كفر! إما أنه سكت ولم يعلمهم الحق وتركهم ليفهموا تلك الآيات على نظريات باطلة كانت سائدة في عصرهم، وإذن فهو مفرط في أمانة التبليغ،

وإما أنه علمهم الباطل في مراد رب العالمين من كلامه وإذن فبأي شيء نشهد له بأنه رسول من رب العالمين؟؟ نسأل الله السلامة! هذا هو نزاعنا معك في مسألة فهم السلف هذه يا دكتور، فافهمه إن كنت صادقا في طلب الهداية والنجاة في الآخرة لنفسك ولأتباعك، والله المستعان لا رب سواه!

انظر كيف يغرق الدكتور في مغالطة جلية، ألا وهي الكذب على مخالفه لتسفيه مذهبه (أو مغالطة رجل القش كما يسميها المناطقة المعاصرون Strawman Fallacy)، حتى يقنع نفسه وأتباعه بأن الفهم التراثي هذا باطل فاسد لا يورث إلا الجهالة! يقول: "فما زال بعض رموز علماء الدين المسلمين، ممن لهم الكلمة المسموعة، يحيون على علوم العصور الوسطى وعلى فهم الأقدمين للآيات الكونية وآيات الخلق في القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويريدون منا أن نفهم فهمهم ونتبنى موقفهم من العلم، بل ويشنون حملات عنيفة على من يخالفونهم الرأي!" قلت: فمن يا عدو نفسك هم هؤلاء الرموز من علماء الدين المسلمين الذين لهم الكلمة المسموعة، وهم مع ذلك "يحيون على علوم العصور الوسطى"؟ وما المقصود أصلا "بعلوم العصور الوسطى"؟؟ هنا يتكلف الدكتور الإتيان بدعاوى سخيفة لم نسمع أحدا من مشايخ المسلمين، لا المعاصرين منهم ولا السابقين (الذين هم رموز في العلم الشرعي ولهم الكلمة المسموعة بين الناس، على حد شرطه) يقول بها!

يقول: "نحن نجد في كتابات بعض هؤلاء من يرى أن الأرض مسطحة ويرفض القول بكرويتها! ومنهم من ينكر أن العلم قد أهبط إنسانا على سطح القمر! ونقرأ لبعضهم أنه لا توجد أمراض معدية! وأخيرا وليس بآخر يتمسك الكثيرون منهم بأن فترة الحمل في المرأة يمكن أن تمتد إلى ثلاث سنوات" قلت: أولا، القول بتسطح الأرض ليس قولا دينيا وإنما هو قول العقلاء الذين يرون الأرض منبسطة تحت أقدماهم، وليس يلزم منه نفي كرويتها، بل هي كروية في جرمها الكلي، مسطحة في أجزاء سطح ذلك الجرم من سعته وانتشاره، وهذا ما عليه علماء الملة من زمان السلف رضي الله عنهم، وقد نقل الإجماع عليه غير واحد من أهل العلم! فأين وجدت أنت (من العلماء الذين وصفتهم بما وصفت) من ينفي كروية جرم الأرض؟؟ هلا نقلت وعزوت لتلك الكتب التي قرأت فيها ذلك الزعم يا دكتور؟؟ كيف تنقل كلاما كهذا – على خطورته - بلا عزو، وأنت الأستاذ الجامعي الذي يشرف على رسائل الماجستير والدكتوراه؟؟ ألست تدرس طلبة الدراسات العليا في الكلية عندك، أن القول المنقول إن كان مما يستوحشه أو يستشنعه المخالف، أو مما لا يعرفه المخاطبون بالبحث

معرفة اعتيادية، فالواجب عزوه إلى قائله بذكر المصدر المنقول منه ورقم الصفحة؟؟ هذا يقال له في لسان العامة عندنا في مصر "كلام مساطب"، والله المستعان!

ومع ذلك نقول، فحتى لو قدر أن قال واحد من علماء الشريعة الكبار في زماننا أو فيمن سبق بنفي كروية الأرض، فكان ماذا؟؟ ليس في ذلك ما يربو على أن يكون غلطا فرديا منه هو بعينه، لا علاقة له بما عليه السلف في نفس الأمر وما نجده في تراث المسلمين! وهو غلط لا نحتاج في إبطاله إلى أكثر من ذكر قول الله تعالى: ((يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ)) الآية [الزمر : 5]، ولله الحمد أولا وآخرا!

وأما إنكار الهبوط على القمر، فلسنا نحن المسلمين من يكذبه يا دكتور! وإنما ظهر في باحثي الغرب من يجمع قرائن يزعم بها أن الأمر كله كان لعبة سياسية استعملها الأمريكان في الحرب الباردة ضد الروس في الستينات الميلادية، فصوروا فيلما هوليووديا طويلا في صحراء أريزونا زعموا أنه بث مباشر للهبوط على القمر، وقد ألف بعضهم في ذلك كتبا ودار عليه جدل وسجال لم يزل جاريا إلى اليوم، وعند الهواة منهم والمرضى النفسانيين عشرات النظريات من جنس ما يقال له "نظرية المؤامرة" Conspiracy Theory في ذلك، في مواقع على الشبكة ومقاطع على اليوتيوب لا تحصى! أما نحن المسلمين فلا يؤثر وصولهم للقمر من عدمه في مذهبنا ولا في ديننا قيد أنملة ولا أصغر من ذلك ولله الحمد، إذ ليس في الكتاب والسنة ما يمنعه أو يقتضي منعه ولا في فهم السلف ما يحملنا على تكذيبه، وإنما يؤثر أعظم التأثير في دين من بلغ بهم غلوهم في الطبيعيات أن أنزلوها منزلة الوحي المنزل، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم يا دكتور ما الذي استفاده الناس من كون "العلم" قد أهبط إنسانا على القمر؟ ادرسوا الأمر بموضوعية وتجرد يرحمكم الله، ودعوا عنكم الشعارات الجوفاء، فلن تجدوه إلا صراعا سياسيا صبيانيا بين قوتين عظميين، أرادت كل واحدة منهما أن تبرهن للعالم تفوقها على الأخرى وأنها لم تعل فوق هذه الأرض وحسب، بل بلغت عظمتها أن غزت أجرام السماء كذلك، والله المستعان! فما الذي أنجزه الأمريكان لما صعدوا إلى القمر؟ غرسوا علم أمريكا، ثم رجعوا بعينات من الرمل والحصى! فبالله أين الإنجاز العلمي العظيم في ذلك؟؟

هذا إنجاز سياسي إن صح التعبير، وليس هو إنجازا "علميا" يسوغ ما أنفق فيه من أموال طائلة، إلا على دين الطبيعيين Naturalists الذين يريدون

جمع مزيد من المشاهدات الفضائية من على هذا الكوكب أو ذاك، حتى يتأولوها بما يخدم نظرياتهم الكونية في نشأة هذه الأجرام وفيما إذا كانت قد وجدت أو يجوز أن توجد عليها حياة في يوم من الأيام، إلى آخر تلك الأساطير التي هم غارقون فيها! وإلا فلم ينتفع أحد من البشر بتلك الرحلة البتة، اللهم إلا أن أصبح يقال: لقد انتصرت أمريكا على روسيا في سباق الفضاء أخيرا، وأصبحت أول أمة في تاريخ البشر ترفع لواءها على سطح القمر، وكأنما غزت القمر وصيرته ولاية أمريكية كما يقال! صعد رجلان أمريكيان على سطح القمر، فغرسا العلم ثم جمعا بعض العينات والتقطا لقطات "السيلفي" لبعضهما البعض والأرض في الخلفية، ثم رجعا!

ثم ماذا كان بعد؟ لم ترسل ناسا رجلا واحدا إلى القمر ولا إلى غيره من الأجرام من بعد سنة 1972 الميلادية (تاريخ آخر رحلة إلى القمر)، ولم تخصص أي ميزانية حتى لمحاولة تكرار ذلك الصنف من الرحلات من يومها وإلى يوم الناس هذا! أتدري لماذا يا دكتور؟؟ لأن الحرب الباردة دخلت في هدنة في تلك السنة عقب اتفاق تقليص درجة الحساسية بين الدولتين Detente، ثم انتهت نهائيا بسقوط الاتحاد السوفيتي في سنة 1991 الميلادية، فانسدل الستار بذلك على تلك المسرحية السمجة التي من أجلها أنشئت وكالة ناسا الأمريكية نفسها من الأساس في سنة 1958، ولم يبق للوكالة إلا أن تبحث عن أغراض أخرى لاستكشاف الفضاء تبرر بها إنفاق البلايين في كل سنة من أموال دافعي الضرائب، ليس منها ذلك السباق الإمبريالي السخيف! فدع عنك ذلك الكلام الدعائي الأمريكي يا دكتور، فإنه لا حقيقة تحته!

وأما الأمراض المعدية، فليس في علماء المسلمين الموصوفين بما وصفته من ينفي وجود "الأمراض المعدية" (هكذا) وإنما ينفي العلماء استقلال العدوى في المرض الموصوف بأنه "معدي" بإصابة من يصاب به. فلا تحصل العدوى إذا حصلت إلا بأسباب، قد يأذن الله باجتماعها وقد لا يأذن! ولهذا قال عليه السلام فيما صح عنه، في سياق إبطال صور من شرك الجاهلية "لا عدوى"، أي لا مرض يعدي من تلقاء نفسه استقلالا بالتأثير! فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا عدوى ولا صفرَ ولا هامةَ . فقال أعرابيٌّ : يا رسولَ اللهِ . فما بالُ الإبلِ تكون في الرملِ كأنها الظباءُ ، فيجيءُ البعيرُ الأجربُ فيدخلُ فيها فيجربُها كلَها ؟ قال : فمن أعدى الأولَ ؟" وفي صحيح مسلم أيضا من حديث أبي هريرة أنه قال "لا يورد ممرض على مصح"، كما صح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "لا عَدْوَى و لا طيرةَ و لا هامةَ ولا صَفرَ، و فِرَّ مِنَ المجذومِ كما تَفِرُّ مِنَ الأسدِ!"

(أخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة)، أي لا تعتقدوا في المرض أنه منتقل إلى من يجالس المريض أو يخالطه لا محالة، وأنه إذن يستقل بإمراض ذلك المخالط على سبيل التعليل التام! خذوا بأسباب السلامة من انتقال المرض إليكم ولكن لا تتلبسوا بالشرك الأصغر في أمر العدوى! والجاهل الذي يعتقد أن إصابته بالمرض المعدي إنما نزلت به بسبب العدوى من مريض معين قد خالطه، هذا تراه ينقم على ذلك المريض ويقول "فلان أعداني"، "فلان أعداني"، وكأنه لو لم يخالطه لما أصيب بذلك المرض، مع أن الله تعالى لو شاء لأصابه به بلا عدوى، وبلا أسباب تظهر له على الإطلاق، كما في قوله عليه السلام "فمن أعدى الأول؟"! فهذا هو المقصود بنفي العدوى على هذا الوجه، وإلا فلو كان المقصود النفي المطلق (نفي مطلق كون المخالطة سببا ممكنا من أسباب انتقال المرض) ما أمر بالفرار من المجذوم وما نهى عن دخول القرية المبتلاة بالطاعون، وما قال "لا يرود ممرض على مصح"، فتأمل! هكذا فهم علماؤنا هذا الحديث، ولا نعلم شيخا يصح عليه الوصف الذي اشترطته إلا وهو يفهم هذا الفهم، معاصرا كان أو متقدما! فأين عثرت على هذا الخطل يا دكتور؟!

وأما مسألة جواز وصول فترة الحمل في المرأة إلى ثلاث سنوات أو أكثر، فهذه مسألة الخلاف فيها بين علماء الشريعة مشهور من قديم على عدة أقوال، وليست مما أجمع عليه فضلا عن أن يكون هو الغالب عند أئمة السلف، وإنما ذهب إليها بعض الفقهاء استنادا إلى آثار وأحاديث ضعيفة ومنكرة لا يثبت بها حكم ولا تقوم بها حجة، تتبعها وبين وهاءها ابن حزم الظاهري رحمه الله! فمن غلط فقال بها من العلماء المعاصرين رحمهم الله تعالى، فإنما أوتي من اعتماده القول المشهور في مذهب الحنابلة الراجع إلى بعض تلك الروايات. وإلا فمعلوم أنه لم يرو في التاريخ بسند يعتد به، ولا شهد أحدنا ولا أحد من سلفنا في عادته قط حملا يجاوز السنة الواحدة! ومع ذلك فلا أدري ما وجه قوله بأن إثبات جواز وقوع ذلك الطول في مدة الحمل يؤدي إلى الاعتداء على الحرمات واختلاط الأنساب! لنفرض أن امرأة متزوجة عوملت في الشرع على أن حملها قد استمر في بطنها لثلاث سنوات متصلة، فمن أي جهة يأتي الاعتداء على الحرمات واختلاط الأنساب؟؟ كلام جزافي لا زمام له ولا خطام، لا غرض منه إلا تسفيه كل متشرع يخالف ما عليه الطبيعيون المعاصرون على أيما وجه كانت المخالفة، والله المستعان!

ثم يقول الدكتور مواصلا حملته على ذلك "الرجل المصنوع من القش" (خيال المآتة) الذي صوره على أنه هو مخالفه: "وفي حوار مع أحد هؤلاء، وهو في الوقت نفسه من كبار المتخصصين في الطب، حول قوة الأدلة

العلمية على حدوث التطور، تمسك بأننا يجب أن نتبنى التفسيرات التراثية، وأن نعتبر أن الله عز وجل قد خلق الكائنات خلقا خاصا على الهيئة التي توهم بالتطور! سبحان الله، كل هذا التعسف حتى لا نعيد النظر فيما جاء في التفسيرات التراثية حول خلق الإنسان، وكأن حقائف العلم ليست من خلق الله عز وجل!" قلت: لا يعنينا من هذا الذي حاورته، ولكن ليس في العقلاء من مخالفيك من يقول إن الله خلق الكلائنات على هيئة توهم بالتطور!! معاذ الله أن يكون في كمال الصنعة الإلهية في تصوير كل نوع من الأنواع الحية على أكمل هيئة وأحسن صورة يحصل بها المقصود من خلقه حيث خلق وإنزاله حيث نزل في منظومة الحياة على الأرض، ما يوهم بأنها نتاج تطور عن أصول منحطة بدأت بها الحياة على الأرض قبل بلايين السنين! هذا لا يتوهمه إلا دهري هالك أو جهمي مفتون بنظريته، ولا حول ولا قوة إلا بالله! والعجيب أن الدكتور يقلب حجة أهل الإسلام في مسألة "التوهم" هذه علينا بعد أن كنا نحن من يحاجج بها الدراونة!

فقد كان من المنتظر منه أن يقول للدراونة: كيف أنكرتم صنعة الباري المتقنة التي لا نقص فيها ولا عيب في تقدير صورة وهيئة كل نوع من الأنواع المخلوقة على أحسن ما يناسبه في البيئة التي يعيش فيها، ويناسب محله من السلاسل الغذائية Food Chains في تلك البيئة ويناسب مناخها ونظامها بلا زيادة ولا نقصان، حتى جعلتموه تطورا عشوائيا "يوهم بالخلق"، إلى حد أن قال دوكينز إنه يجد نفسه مضطرا أحيانا للعض على لسانه حتى لا يقول إن الأنواع الحية مقدرة Designed لتكون على نحو كذا وكذا وتعمل الأعضاء فيها على نظام كذا وكذا، وحتى اخترع لفظة لا محل لها من لغات البشر فصار يقول Designoid (أي شبه المصممة)؟؟

فبدلا من أن يخاطب الدكتور الدراونة الدهرية بهذا السؤال الفطري الصارخ في وجوههم بداهة وضرورة من غير أن يوجهه إليهم أحد، توجه إلينا نحن بقوله: ما بالكم تزعمون أن المخلوقات الحية قد خلق كل نوع منها على حدة من زوجين مستقلين، ثم تقولون إنها توهم بأن الأنواع كلها قد طورت من أصل واحد؟؟ فما نقول إلا: حسبنا الله ونعم الوكيل، قاتل الله الفطر المنكوسة، وإلى الله المشتكى! لا أحسب عاقلا من المسلمين يقول بوهم التطور هذا، إذ من أين يأتي التوهم أصلا؟؟ من تشابه الأنواع وتقاربها في الهيئة والصورة؟؟ نقول إن الإنسان يشبه أن يكون نازلا عن سلف مشترك مع أنواع القردة والنسانيس والشيمبانزي لا لشيء إلا لقرب الشبه بين تلك الأنواع في الهيئة والخلقة والتركيبة الجينية وبين الإنسان؟؟ أم من ترتيبهم تلك الرمم التي استخرجوها من طبقات الأرض لمخلوقات هالكة من أنوع شتى، يجعلون عدم وجدان ما لم يعثروا له على أثر أحفوري في هذه

الطبقة أو تلك حيث حفروا ونقبوا، دليلا على عدم وجود نوعه في ذلك العصر بكليته، في أي مكان من العالم، ثم مضوا يتأولون اكتشافاتهم على ما راقهم أن يجعلوه هو ترتيب أسطورة الترقي من أصل مشترك؟؟ أم من حقيقة أن التنوع في الصفات في إطار النوع الواحد يجيز لنا التهجين الوراثي والتلاعب بالصفات في حدود ذلك التنوع؟ أم مما يرى تحت المجهر في المعمل من سرعة تكيف وتأقلم البكتيريا بأنواعها المختلفة على تغيرات الأحوال البيئية التي تنمو فيها؟

هذه والله دعوى لا ينهض بها إلا دهري هالك قد بلغ المنتهى من فساد العقل والفطرة، فأبى الله إلا أن يخزيه بأن زين له أن يتخذ لنفسه من أنواع القردة سلفا وأصلا ينتسب إليه، يقال له أنت القرد ابن القردة ابن القرود، فيقول "نعم صدقتم، هذا هو نسبي وأصلي"، والله المستعان! لقد اشتهرت لداروين صور على شبكة الإنترنت تركب فيها صورة رأسه على صورة جسد قرد، وهي صور لا أحسبه إلا مضطرا لقبولها لو كان حيا اليوم وعرضت عليه، فهل يقبل الدكتور عمرو نظير ذلك إن رآهم يسلكونه معه في يوم من الأيام؟؟ أرجو ألا يرضى، والله الهادي!

ثم لا يفوت الدكتور أن يستعطف القارئ ويستميله، بعد تلك المقدمة الترهيبية، بمظلومية "عبد الصبور شاهين"، وكيف أن ذلك "المفكر العظيم" و"عالم القرآن" الدرعمي الكبير، الضليع في علوم القرآن (زعم) قد عانى المرار – ويا للحسرة! – إلى حد أن رُفعت عليه قضايا التكفير، حتى أوشك أن يموت شهيدا للعلم، بسبب تركه التفسيرات التراثية في خلق آدم ومحاولته تقرير "حقاق العلم"! وقد نقل تلخيصا لمذهب الرجل الذي قرره في الكتاب المذكور، من تعليق لمجمع البحوث الإسلامية على بحثه، جاء فيه:

أما ما انتهى إليه المؤلف في موضوع بحثه، فيتخلص فيما يلي:

1- أن الله تعالى خلق (البشر) من طين، ولكن ليس في آيات القرآن ما يقطع بأن آدم عليه السلام قد خلق مباشرة من ذلك الطين.. كذلك فإن الاستعمال القرآني لكلمة (بشر) تشير إلى كائن سابق في الزمان وفي الكيف على الإنسان.

2- أن "الإنسان" الذي كرمه الله وأمر ملائكته بالسجود له هو امتداد لمخلوق واحد هو "البشر"، وليس كما تقول نظرية النشوء والارتقاء – حلقة في سلسلة تطور كانت القردة العليا فيها حلقة سابقة، ثم تطورت إلى أن صارت (الإنسان) الذي نعرفه. [67]

3- أن الله تعالى قد تناول البشر المخلوق من طين ثم سواه وصوره، وأن ذلك لم يتم على الفور في أعقاب الخلق، بل إن الخلق والتسوية والتصوير مراحل في عمر البشرية، لعلها استغرقت بضعة ملايين من اسنين، إذ إن استعمال أداة العطف (ثم) يفيد التراخي بين الأمرين.

4- أنه لا حاجة إلى تحديد حقيقة وطبيعة الطين الذي خلق منه البشر، فالقرآن يعبر عنه تارة بالتراب وتارة بأنه طين لازب، وثالثة أخرى بأنه صلصال كالفخار، وأنه صلصال من حمإ مسنون. ويجمع المؤلف رأيه كله في قوله:

فخلق الإنسان بدأ من طين، أي في شكل مشروع بشري، ثم استخرج الله منه نسلا (من سلالة من ماء مهين) ثم كانت التسوية ونفخ الروح، فكان (الإنسان) هو الثمرة في نهاية المطاف، عبر تلكم الأطوار التاريخية السحيقة العتيقة.

قلت: يقول بأن البشر سابق للإنسان، فلا تسأل بأي عقل فهم الدكتور عبد الصبور قول الله تعالى حاكيا قول مريم: ((قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [آل عمران : 47] هل كان يرى أنها كانت تنفي عن نفسها أن يكون قد مسها أحد من قردة الهومينيد الذين تأول الدكتور لفظة "بشر" في القرآن على أنهم هم المعنيون بها؟؟ وكيف فهم قوله تعالى في الرد على بني إسرائيل: ((وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ)) الآية [المائدة : 18]؟ المقصود إذن أن بني إسرائيل كانوا من جنس الهومينيد الطيني هذا الذي لا روح فيه، الذي خلق بني آدم من نسله بعد النفخ والتسوية؟؟ الله أكبر! وكيف فهم قوله تعالى: ((فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا)) الآية [هود : 27]؟ هل كان نوح عليه السلام وقومه من ذلك "البشر" الذي قال به الدكتور؟؟ وقوله تعالى: ((فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً)) [مريم : 26]، فلو كان البشر غير الإنس، فكيف فهم الدكتور هذه الآية؟! وكيف فهم قوله تعالى: ((قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)) [الحجر : 33]، إذ ينسب إبليس آدم عليه السلام إلى نوع البشر المخلوق من صلصال، فلو كان نوع الإنسان خلاف نوع البشر المخلوق مباشرة من صلصال، ما اعترض بهذا الاعتراض! وكيف فهم قوله تعالى: ((أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً)) [الإسراء : 93] هل – على مذهبه – أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم

بأن يقول لقومه إنني لست إنسانا وإنما أنا بشر من أنواع "الهومينيد" صيره الله رسولا؟؟ نسأل الله السلامة! بل ما قوله في قول الله تعالى: ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)) الآية [الكهف : 110]؟؟ لو صح ما ذهب إليه لوجب أن يقول: إنما أنا إنسان مثلكم! ونظائر ذلك كثير!

والقصد أن الرجل سلك مسلكا شديد الفساد في التأويل، ولم يبال طرفة عين بأنه لا سلف له به ولا قائل به قبله، ولا يعرفه أهل اللسان العربي الذي كان يفترض فيه أنه أستاذ من أساتذته، ولا حول ولا قوة إلا بالله! كل السلف عنده كانوا ضحية لمؤامرة بني إسرائيل على القرآن والسنة، وعلى اللغة العربية نفسها على ما يبدو!! تلك المؤامرة التي زينت له نفسه اعتقاد أنه قد بعثه الله – أخيرا – ليخلص المسلمين منها! فبالله أي فضل وأي مزية تكون لهذه الأمة، أمة الرسول الخاتم عليه صلاة ربي وسلامه، إن صح أن هلك فيها أربعة عشر قرنا كاملة من المسلمين بما فيهم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنفسهم، في عماية تامة عن المعاني الصحيحة لكلام ربهم، تلك المعاني التي بدلها بنو إسرائيل بين أيديهم وحرفوها كما حرفوا كتبهم؟؟ وما قيمة القرآن إذن وأي فضل يكون له على تلك الكتب المحرفة إن صح هذا الكلام الشنيع؟؟ نسأل الله السلامة!

ثم بأي عقل فهم الرجل أن نفخ الروح في الإنسان جاء بعدما استخرج منه النسل؟! وأين تعلم أستاذ العربية الدرعمي، أن "السلالة" في قوله تعالى "سلالة من طين" يقصد بها النسل؟؟ ومن سبقه إلى ذلك الفهم الأعجمي المعوج؟؟ ثم النسل هذا الذي خلق من طين قبل تمام تسويته، لم يكن له روح حال التناسل؟؟ فأي شيء كان إذن؟؟ كان نباتا كالزروع والثمار والأشجار مثلا؟؟ ثم كيف كان بشرا قبل أن يسويه ويصوره؟؟ أليس للبشر صورة يسوى عليها؟؟ قوله تعالى ((ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ)) الآية [السجدة : 9] وقوله: ((فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ)) [الحجر : 29] تفسره السنة الصريحة – التي جعلها كلها في هذه البابة من دسائس بني إسرائيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله!! – بأن الله خلق آدم من طين ثم تركه فترة من الزمان في الجنة، قبل أن ينفخ فيه الروح، كما في الحديث الذي أخرجه مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "لما صور الله آدم في الجنة، تركه ما شاء الله أن يتركه ..." الحديث، فالخلق ثم التصوير هو ما تم به خلق آدم على صورته من الطين قبل النفخ وإتمام الخلقة بكلمة التكوين، ثم لما نفخ فيه الروح عطس، كما في السنة! ولكن على بدعة الدكتور، فالبشر هذا نوع حي لا صورة له ولا هيئة ولا روح، خلق من طين ليتناسل (بلا روح) ثم من

نسله يخرج مخلوق أحسن منه صورة وهيئة واستواء، لتنفخ فيه الروح فيصبح هو آدم عليه السلام! فجعل تسوية الله تعالى لآدم المذكورة، التي يفهم العقلاء أنه هو المعنِي بها بعينه، وأنها تمت فيه من أول خلقه من الطين اللازب إلى أن قومه ربه على أحسن تقويم ثم نفخ فيه من روحه، جعلها الرجل ترقية وتطويرا تدريجيا في سلسلة أنواع القردة العليا التي زعم الدراونة أنها هي سلفه [68]!

قال في كتابه "أبي آدم" (ص. 36): "وكل هؤلاء الأناسي وجوه مختلفة لمخلوق واحد (يعني "البشر")، كان يتنقل من مرحلة إلى مرحلة في تسوية الخالق له، فكلما مضت مرحلة من التسوية، تغيرت بعض أوصافه، وأفرده الباحثون في الجيولوجيا والأنثروبولوجيا بتسمية، وقد وجدت تلك البقايا بصورة ناقصة ونادرة، مما يجعل معلوماتنا عن هذه المخلوقات الشبيهة بالإنسان بعيدة كل البعد عن الكمال." اهـ. والعجيب أنه مع ذلك كان يرى نفسه محاربا لنظرية داروين! فلا أصاب نظرية الدراونة التي تقول بتسلسل الأسلاف قبل نوع البشر، وبالأصل المشترك والانتخاب الطبيعي، تلك الخرافة التي كانت هي داعيهم لادعاء النسبة بين بني آدم وبين تلك القردة التي جمعوا بقايا رممها من بطن الأرض، وهو ما حمله في النهاية على ما صنع، ولا أصاب ما أطبق عليه المسلمون من فهم لكلام ربهم، ولا جاء بشيء تقبله العقول السوية! فصدق الذي قال: شر البلية ما يضحك!

قال الدكتور عمرو معقبا على ذلك النقل تحت عنوان "الكارثة" (326):

> انتهت العاصفة التي ثارت حول د. عبد الصبور شاهين وكتابه، وحصل الرجل على البراءة في القضايا الأربع، لكن سيظل يُستشهد بالواقعة لسنوات طويلة على ما يعانيه أصحاب الفكر الحر من تعسف المتعسفين وتطرف المتطرفين في بلادنا الإسلامية. إن المشكلة في رأيي تتجاوز الحجر على رأي حر، ولا تقف عند رفض من يتبنون التفسير التراثي للقرآن الكريم النظر في آياته في ضوء ما يكتشفه العلم من حقائق عن الحياة والإنسان. إن المشكلة الأكبر (والصواب: الكبرى) هي أن شبابنا (وكبارنا) صاروا يسمعون في دور العبادة وفي الإعلام الديني كلاما يخالف ويتعارض مع ما يدرسونه في مدارسهم وجامعاتهم وفي الإعلام العلمي. لا شك أن هذا الفصام موجود (وله ما يبرره) في الديانات الأخرى. أما بالنسبة للإسلام فيؤكد الدكتور "موريس بوكاي" أن "من جوانب إعجاز القرآن البالغ أنه هو الكتاب السماوي الوحيد الذي لا يوجد به خطأ علمي واحد"، وعلل ذلك بأن القرآن لم يتورط في التفاصيل بل

عرض الحقائق بأسلوب عام يسع كل الأفهام ويفتح الباب للاجتهاد، ويظل بذلك متفقا مع الحقائق العلمية الثابتة.

قلت: ياللطامة ويالفاجعة! كيف نرضى لشبابنا وأولادنا في هذا العصر بأن يسمعوا كلاما في المسجد وفي "الإعلام الديني" يخالف ما يتعلمونه في المدارس والجامعات؟؟ بل الواجب على أئمة المساجد ودعاة الدين أن يتحروا موافقة ما في الكتب المدرسية تمام الموافقة، وإلا أصيب شبابنا بالفصام لا سمح الله، وإذن يخرجون من دين الله أفواجا!! هذه هي القاعدة الجهمية الأولى أيها القارئ المحترم! بمجرد أن تلقى نظرية من النظريات الميتافزيقية قبولا أكاديميا وإعلاميا كاسحا في عصر من العصور، فإنها تصبح هي العقل والعلم الأعلى الذي لا يخالفه مخالف إلا كان جاهلا أو سفيها بالضرورة، وإذن فلا يجوز ولا يقبل من علماء الدين أن يقولوا بخلافه بحال من الأحوال!

ثم إن كلام بوكاي المنقول يلزم منه تنقص القرآن، إذ مفهومه أن الرب سبحانه وتعالى لم يسلم في القرآن مما وقعت فيه الكتب السابقة من "مخالفة العلم"، إلا لأنه ترك الخوض في التفاصيل، فبمفهوم المخالفة يقال إنه لو خاض في التفاصيل للحق بالكتب السابقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فهل هذا كلام رجل آمن بالله وبصدق نبيه إيمانا صحيحا؟ أبدا والله! وإنما هو إيمان من كان بعد إسلامه كما كان قبله، يرفع ميتافزيقا وميثولوجيا الطبيعيين الدهرية فوق كل علم وكل نص وكل موروث، ثم يتخذ من موافقتها شرطا لقبول هذا الدين ورد ذاك، إن كان ولابد متدينا! فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل! الله يا هؤلاء غني عنكم وعن العالمين، ودينه عزيز ليس يعوزه قبول الطبيعيين ورضاهم حتى يجاوز القنطرة! تلك القنطرة الدهرية التي نصبتموها له وأنتم تحسبون أنكم تثبتون موافقته للعلم وثوابت العلم وتدفعون عنه شبهات المغرضين، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

ثم قال متباكيا من تأثير "الشروح القديمة" لآيات الخلق على عقيدة شباب العصر: "لقد صار يؤرقني دائما القلق مما سيصيب عقيدة شبابنا (وكبارنا) لو ظل المفسرون التراثيون متمسكين بالشروح القديمة لآيات الخلق في القرآن الكريم، خاصة وقد تضاعف كم المعلومات المتاحة للبشرية خلال القرن التاسع عشر عما كانت عليه منذ فجر التاريخ المدون، وتتضاعف المعلومات منذ منتصف القرن العشرين بمعدل مرة كل عشؤ سنوات، ومنذ العقد الأخير، صارت تتضاعف كل سنتين." اهـ. قلت: آن الأوان إذن أن نسقط تراث المسلمين بكليته في "آيات الخلق"، ونحيلها كلها إلى مجاز في مجاز (أو "متشابه" على حد عبارة الدكتور مصطفى محمود)، كما انتهى

إليه أهل الكتاب في سفر التكوين عندهم، وإلا تعرضنا لفساد عقيدة الشباب! ألا تخافون من غزو المعلومات والإنترنت وتضاعف الأبحاث والنظريات والاكتشافات في كل سنة عن السنة التي تليها؟؟ أدركوا شبابكم قبل أن يقنعهم الملاحدة ببطلان دينهم! تنازلوا عن تلك "الشروح القديمة" كلها قبل ألا يجدي الندم! أم تراكم تريدون أن تقفوا بهم في وجه التيار الكاسح، فتقتلعوا جميعا؟! بئس النحلة نحلتكم إذن!

يواصل الدكتور تحت عنوان "هل ينهي القرآن الكريم عن البحث في خلق الإنسان؟" محررا ما يحسب أنه به قد أسكت "التراثيين" الرجعيين هؤلاء وأثبت وهاء ما هم عليه من ترك "لكلمة العلم" في قصة خلق الإنسان، فيقول (ص. 327): "يرى المعترضون على الأخذ بكلمة العلم في قصة خلق الإنسان أن الله عز وجل قد عرض القصة بما تحتاجه من تفصيل في القرآن الكريم، باعتبار أنها قضية غيبية من قضايا العقيدة، ومن ثم يجب عدم الخوض فيها، بل ينبغي الوقوف عند ظاهر ما جاء في النصوص القرآنية. ونعرض هنا بعض مبررات هؤلاء المعترضين وردودنا عليها، وأترك لك قارئي الكريم الترجيح بين وجهتي النظر." اهـ. قلت: إذا كان مخالفك يبدعك ويرى أن ما جئت به يعتدي على الغيب ويصادم العقيدة التي يجب على المسلمين أن يعتنقوها، فليس الباب إذن باب "وجهات نظر" ولا باب "ترجيح"! وإنما هو باب نقض وبيان للباطل الكلي الذي عليه المخالف بالبينة والبرهان، في باب لا يسع المسلم أن يخالف فيه أصلا، والله المستعان!

قال الدكتور:

1- يقول الحق عز وجل ((قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)) (العنكبوت: 20)، ويقول: ((أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت)) (الغاشية: 17) إن الأمر في الآيتين بالبحث في كيفية الخلق، وليس فقط التفكر في الخلق لأخذ الموعظة والوقوف عند الإقرار بعظمة الله عز وجل. ولما كانت الآية الأولى قد عممت "الخلق" فهي تشمل الإنسان، وإذا كانت الآية الثانية قد خصصت "الإبل" فهذا مثال ينبغي تعميمه على باقي الملخوقات، ومنها الإنسان أيضا. وبالرغم من هذا الأمر الإلهي، كلما طرحت القضية للمناقشة تجد من يتصدى معترضا بحجة أن الله عز وجل قد نهى عن ذلك حين قال: ((ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم..)) (الكهف: 51). لقد فات هؤلاء النظر إلى الآية السابقة لهذه الآية من سورة الكهف ((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً . مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)) [الكهف : 50-51] تصرح الآيتان بأن الله عز وجل يشير بقوله: ((ما أشهدتهم)) إلى إبليس وذريته، ولا يشير إلى الإنسان المأمور بالبحث (في آيات أخرى)، وهل يمكن أن تتناقض آيات القرآن الكريم؟

قلت: بالله كيف يفهم عاقل أن المراد من مثل قوله تعالى - في خطابه الذي نزل أول ما نزل على عرب مكة – ((أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت))، أي يبحثوا في كيفية الخلق؟! الله يستنكر علينا في القرآن كوننا لم نكتسب العلم بالكيفية التي خلق هو بها الإبل؟؟ على أساس أن المتوقع منا معاشر المخاطبين بالقرآن، أن نكون قد تعلمنا كيف نأخذ بالأسباب حتى نخلق مثلها مثلا؟؟ أي خرف هذا؟؟! وكيف يتصور في علم كهذا أن يكون مطلوبا، فضلا عن أن يكون متوقعا، من البشر أن يكتسبوه؟؟

ثم إن على هذا الذي يزعم، يكون جواب الاستفهام في الآية: نعم يا رب لم ننظر إلى الإبل كيف خلقت، ولا عقلنا شيئا مما تقول، وإذن فأنى تقوم الحجة بهذا الكلام وأي انتفاع يحصل منه يا دكتور؟؟ لا شيء على الإطلاق! هو إذن بالنسبة للأولين والآخرين لغو لا معنى له، وجوده في القرآن كعدمه! أرأيت لو قيل لك وأنت من عرب الجاهلية، بل وحتى من عامة المعاصرين من أهل هذا الزمان من غير المتخصصين في الفيزياء: "أولم تر كيف ركب الله الجسيمات تحتالذرية من بروتونات وبوزيترونات وكواركات وبوزونات ..

إلخ؟ كيف لا تؤمن به إذن وكيف تعبد معه غيره؟"، أفكنت تتعظ من هذا الكلام أو يحرك فيك ساكنا؟ أبدا! كيف وأنت لا تفهم شيئا مما يستنكر الخطاب عليك ما صدر منك من أعمال وأقوال تخالف مقتضى علمك به؟؟ هذا والحال أن العلم بتلك الجسيمات المذكورة ليس غيبا محضا مطلق التغييب، وإنما هو غيب نسبي يتصور حصول العلم به في يوم من الأيام (ولو على سبيل الترجيح الظني الاحتمالي)، فكيف والعلم بالكيفية التي خلق الله بها الإبل يوم خلقها، والحوادث التي جرت بأمره في ذلك، علم غيبي مطلق التغييب لا رجاء في الوصول إلى معرفته من طريقنا البتة؟؟ هذا إذن تكليف بالمحال، ومحاججة بعلم لا حصول له عند المخاطبين أبد الدهر! فإذا كانت الحجية مدارها على فهم مقدمات الحجة، والموعظة مدارها على التخويف من جحد المعنى الجلي الظاهر الذي يقبح بالعاقل أن يماري فيه، فالفهم هنا غير متصور حصوله أصلا! فإذا علقت حجة القرآن وموعظته على علم لم يحصل لأحد من المخاطبين به البتة، فإنه قطعا لا تنهض منه حجة ولا موعظة بذلك، ويصبح الكلام ضربا من اللغو والعبث، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا!

فقوله: "إن الأمر في الآيتين بالبحث في كيفية الخلق، وليس فقط التفكر في الخلق لأخذ الموعظة والوقوف عند الإقرار بعظمة الله عز وجل" ما نقول له إلا: أأنت أعلم بمراد الله من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين لم يقل منهم قائل قط بهذا الذي تقول؟؟ أي كبر هذا، نسأل الله السلامة! ((إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) [غافر : 56]!

قوله: "وبالرغم من هذا الأمر الإلهي، كلما طرحت القضية للمناقشة تجد من يتصدى معترضا بحجة أن الله عز وجل قد نهى عن ذلك حين قال: ((ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم..)) (الكهف: 51). لقد فات هؤلاء النظر إلى الآية السابقة لهذه الآية من سورة الكهف ((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً . مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)) [الكهف : 50-51] تصرح الآيتان بأن الله عز وجل يشير بقوله: ((ما أشهدتهم)) إلى إبليس وذريته ولا يشير إلى الإنسان المأمور بالبحث (في آيات أخرى)"

قلت: على هذا يكون الإنسان قد أشهده الله خلق السماوات والأرض واتخذه عضدا، نسأل الله السلامة! يا دكتور يجب أن تفهم ويفهم أتباعك أن هذا علم من ادعاه لنفسه فقد جعل نفسه شريكا لرب العالمين جل وعلا!

ولهذا قرن الله تعالى في الآية بين إشهاد المخلوق خلق السماوات والأرض وخلق نفسه، وبين اتخاذه عضدا، فافهم يرحمك الله! ولهذا لم يجد الطبيعيون الدهرية حاجزا يحجزهم عن التطلع إلى طلب ذلك العلم، يزعمون حصوله من طريقهم!هم من كبر نفوسهم المريضة كانوا ولم يزالوا أحرص الناس على تحصيل ذلك العلم، رجاء أن يبلغ أحدهم في يوم من الأيام أن يقول لأهل الملل الأخرى: ها أنا ذا قد خلقت بشرا كأمثالكم، بل وبوسعي أن أخلق عالما كعالمكم وأرضا كأرضكم وسماء كسمائكم، على طريقة "عفريت لابلاس"، فاعبدوني أنا إن كنتم ولابد فاعلين! وهل نفى الله حصول تلك المعرفة لإبليس وذريته إلا ليبين أن الظالمين لا عذر لهم إذ اتخذوهم بدلا من دون الله؟؟

نحن البشر إنما مكننا ربنا من اكتساب العلم بالأسباب بالقياس والتتبع من أجل أن يحصل لنا من تسخير تلك الأسباب ما يتم به المقصود من خلقنا واستخلافنا في الأرض، فهل يتصور في عقل مسلم موحد، أن يسخر الله لنا أسباب خلق السماوات والأرض بكليتهما وما فيهما، وأسباب خلق بشر أمثالنا، في إطار ذلك المقصود الإلهي؟؟ وهل يتصور في العقل أن توصلنا أقيستنا (التي لا نخرج بها - مهما بلغنا بها كل مبلغ - عن حدود تجربتنا وعادتنا في هذا العالم وما فيه على ما هو عليه) إلى العلم بالكيفية التي بها خُلق هذا العالم نفسه بجميع ما فيه؟؟ أهذا كلام عقلاء، فضلا عن أن يكون كلام مسلمين؟ هذه، أيها القارئ المحترم، هي نظرية المعرفة الطبيعية الدهرية Naturalistic Theory of Knowledge التي لا يشعر الدكتور وأمثاله من جهمية العصر أنهم متشبعون بها تمام التشبع ولا حول ولا قوة إلا بالله! فبناء على تلك النظرية، لا يرى الدكتور بأسا في اعتقاد أن الله يكلفنا في القرآن باكتساب علم يصيرنا أندادا له وأعضادا إن قدر لنا أن انتهينا إليه، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

نحن المسلمين نؤمن بأن من العلوم ما لا يجوز أن يُعتقد جواز حصولها لأحد من دون الله جل شأنه! وهذا من توحيد الربوبية الذي يجب على المسلمين وجوبا عينيا أن يتعلموه من صباهم! وهذه الآية التي يسفسط الدكتور عليها بما ترى، هي من أدلة المسلمين في هذا التوحيد! الله تبارك وتعالى يعلمنا أن العلم بالغيب وما فيه وما جرى فيه هو من خصائص ربوبيته جل شأنه، وحده لا شريك، ويحاجج المشركين بما هو مركوز في فطرتهم من الإقرار بهذا المعنى، فإذا كنتم تعلمون اختصاصه سبحانه بهذا وأنه لا شريك له فيه، فكيف تتخذون أيها الظالمون غيره وليا من دونه وبدلا له، سبحانه وتعالى؟ هذا هو المعنى كما فهمه المسلمون وكما هو في أساس عقيدتهم! فتأمل كيف قلبه على رأسه هذا الجهمي الطبيعي ومن هم على شاكلته حتى يصل

إلى تسويغ ذلك العبث الميتافزيقي الذي هم غارقون فيه، هو ومن تشبع ببضاعتهم من الطبيعيين الدهرية المعاصرين، لا يسوغه ويجوزه شرعا وحسب، بل يجعله واجبا من الواجبات الشرعية ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم قال (ص. 328): "ومن أجل المزيد من النهي عن البحث، يؤكد المعترضون أن لجسد الإنسان وضعا خاصا بين المخلوقات، فلقد خلقه الله عز وجل بيديه. ألم يقل لإبليس: ((ما منعك أن تسجد لمن خلقت بيدي))، لهؤلاء نقول: إن هذه ليست خصوصية لآدم كما تعتقدون، فالله عز وجل خلق الأنعام بأياديه ((أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون)) (يس: 71)، وبنى السماء بأياديه ((والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون)) (الذاريات: 47). إنها يد القدرة التي أوجدت المخلوقات جميعا." اهـ.

قلت: ألا تستحيي يا دكتور من الخوض في كتاب الله بهذه العجمة المشينة؟؟ هلا اتقيت الله في كلامه؟؟ أإلى هذا الحد هان القرآن عليكم يا فلاسفة العصر؟؟! نسأل الله السلامة! أولا، نحن لم نقل إن الخلق بيد الله تعالى مباشرة هو من خصوصيات آدم عليه السلام من بين جميع المخلوقات، فقد ثبت في السنة أنه سبحانه غرس جنة عدن بيده، كما روى مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أولئك الذين أردت: غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر"، وثبت أنه كتب الألواح لموسى بيده، كما أخرجه مسلم في صحيحه في حديث احتجاج آدم وموسى المشهور، عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "فقال له آدم: أنت موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده" الحديث. وكذلك فقد خلق الله القلم بيده كما جاءت به الآثار. وجميع ذلك مجموع فيما صح عن ابن عمر رضي الله عنه من قوله: "خلق الله أربعة أشياء بيده: العرش، والقلم، وآدم، وجنة عدن، ثم قال لسائر الخلق: كن فكان"، وهو موقوف له حكم الرفع كما لا يخفى، وقد تلقته الأئمة بالقبول بلا مخالف، فهو ثابت لا غبار عليه، وهو صريح في أن جميع ما سوى تلك الأربعة كان خلقه بكلمة التكوين لا باليد! ولا أدري هل وقف الدكتور على هذه الأحاديث والآثار أم يقف، فإن كان لم يقف فتلك مصيبة، وإلا فالمصيبة أعظم، نسأل الله العافية!

ومع هذه التسوية في مسألة اليد، فليس آدم ولا غيره من الدواب عند الرجل مخلوقين باليد أصلا، وإنما خلقهم جميعا بتولدات الأسباب الداروينية، التي كان هو "مرجحها الكمومي" في ميتافزيقاه المعلوماتية الكونية (كما يأتي بيانه بتفصيل في هذا الباب بعون الله تعالى)! فهو يريد التسوية بين

آدم وغيره في الخلق باليد حتى ينتهي إلى التعطيل بأن يقول "إنها يد القدرة"!

ثانيا: ليس في قرون المسلمين من فهم آية يس على هذا الفهم الفاسد! فالعرب كانت تقول "هذا ما عملته يدي" من غير أن يلزم أن يكون المعمول قد باشره القائل حال صنعه بيده تحقيقا، بل يكفي أن يكون قد أمر به أن يُصنع فكان ما أراد، وهذا ما أطبقت الأمة على فهم هذه الآية عليه! فإنه ليس بين المخلوقات الحية على الأرض ما خلقه الله بيده مباشرة إلا آدم عليه السلام، لما تقدم من نصوص السنة التي بها وبنحوها فهم السلف كلام ربهم في القرآن! وأما تأويله آية الذاريات فلا أدري والله أأضحك أم أبكي! الأيد هنا يا دكتور بمعنى القوة، من آد يؤود آيدا، وليس من "الأيادي"! وهذا من الأغلاط الشائعة عند العوام والدهماء التي يكفي في تصحيحها إحالة الغالط منهم إلى أي مصحف من المصاحف المفسرة التي تكتب معاني الألفاظ في حواشيها، والله المستعان!

وسبحان الله، ما أشبه الليلة بالبارحة! فهذا الدكتور يريد أن ينفي خصوصية آدم عليه السلام بأن يكون الله تعالى قد خلقه بيده، ثم يعطل معنى الخلق باليد جملة ليجعله "يد القدرة"، من أجل أن يثبت النشأة الداروينية لنوع البشر ولغيره من الأنواع الحية! فما أشبه ذلك بصنيع بشر المريسي الذي عطل صفة اليد عن الله تعالى لصالح ميتافزيقا زمانه، فرد عليه الإمام الدارمي رحمه الله بقول ننقله ها هنا لما فيه من رد بليغ على صاحبنا هذا ومن شاكله، إذ قال رحمه الله وأعلى درجته في الجنة (في "النقض على بشر المريسي" (1/255)): "ثم إنا ما عرفنا لآدم من ذريته ابنا أعق ولا أحسد منه؛ إذ ينفي عنه أفضل فضائله وأشرف مناقبه، فيسويه في ذلك بأخس خلق الله لأنه ليس لآدم فضيلة أفضل من أن الله خلقه بيده من بين خلائقه، ففضله بها على جميع الأنبياء والرسل والملائكة؛ ألا ترون موسى حين التقى مع آدم في المحاورة: احتج عليه بأشرف مناقبه فقال: أنت الذي خلقك الله بيده، ولو لم تكن هذه مخصوصة لآدم دون من سواه ما كان يخصه بها فضيلة دون نفسه" اهـ. قلت: رحمك الله يا إمام! فها نحن – والله – قد رأينا في هذا العصر من هو أعق منه! فإذا كان هذا الذي صنعه المريسي عقوقا بآدم عليه السلام، فكيف بالذي يعطل صفات الله تعالى وأفعاله من أجل أن يجعل أباه آدم عليه السلام سليلا للقردة العليا المزعومة، مولودا في بطن أنثى القرد التي لا تعقل ولا تميز؟؟! نسأل الله السلامة!

أقول إن الليلة كالبارحة، ومع ذلك، فأين الدكتور عمرو شريف وأمثاله من المعاصرين من بشر المريسي وعلم المريسي بالشريعة؟ وهل كان يتصور

في المريسي أن يبلغ به الجهل والعجمة أن يقول إن قوله تعالى "بنيناها بأيد" أي "بأيادينا"؟! والله ما بلغ جهمية العصر معشار معشار ما كان عليه الجهمية الأوائل من دراية بعلوم الدين، بل ولعل أحدهم لا يحسن الطهارة والاستنجاء من بوله، أعزكم الله، ومع ذلك تراهم يجترئون على ما لم يجترئ عليه سلفهم من الخلف من تلاعب بنصوص الوحيين! والقصد أن الجهمية لا تزداد بتتابع العصور وعلى مر القرون إلا إغراقا في الجهل والعجمة والعامية وعدم الاكتراث بعلوم الشرع الذي لا يفترون على شيء كافترائهم عليه، مع زعمهم أنهم ينتصرون له ويدافعون عنه، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والطامة في منهج الدكتور، أيها القارئ الكريم، ليست مجرد الاجتراء على تفسير القرآن على جهل فاضح بلغة العرب وأصول التفسير وعلوم القرآن، الطامة الأكبر من هذه، هي أنك مهما جئته بكلام السلف وفهم السلف وما أطبق عليه المفسرون، مما لا علاقة له بهذا الجهل الطافح الذي قرره في هذا الكلام، فلن يقبله منك ولن يرفع به رأسا! لن يتكلف حتى محاولة أن يحشر مذهبه ورأيه في قول من أقوال السلف، يلتمس الدخول تحته ولو من بعيد! لماذا؟ لأنه يعتقد اعتقادا جازما بأن السلف رضي الله عنهم إنما قالوا بما قالوا به في آيات الخلق لأنهم استندوا إلى علوم عصرهم في الفلك والفيزياء والأحياء وغيرها من العلوم الطبيعية، فكان ذلك مبلغ علمهم! فمهما أجمعوا على شيء في تلك البابة من فهم أو تفسير أو تأويل فلا قيمة لإجماعهم عنده!

ثم يقول الدكتور: "ولتأكيد خصوصية جسد الإنسان وانفصاله تماما عن باقي المخلوقات، يضيف المعترضون: لقد خلق الله عز وجل الإنسان على صورته الحالية خلقا مباشرا في أحسن تقويم، كما بين ذلك بقوله ((لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم))، لهؤلاء نقول: إن الآية تعني عكس ما تتصورون! والدليل على ذلك ما جاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم من أن ((أحسن تقويم)) تعني كان معوجا فقومه، فكلمة تقويم تعني تعديل وإزالة عوج، كذلك جاء في تفسير الجلالين ((في أحسن تقويم)) تعني أحسن تعديل لصورته. وجاء في الطبري ((أحسن تقويم)) تعني أحسن تعديل. إذاً يمكن أن نفهم الآية الكريمة أن الإنسان لم يخلق خلقا مباشرا على صورته، بل خلق تعديلا، ولا يكون التعديل إلا عن خلق سبقه." اهـ.

قلت: صحيح إن تقويم تعني إزالة العوج، ولكن المقصود يا دكتور ما يكون في الشيء من عوج حال ابتداء تصويره، لا أن يكون أصل البشر أنه نوع كان معوج الخلقة منقوص الصورة معتل الهيئة، كما في تلك الهومينيدات المزعومة التي تكافح أنت من أجل أن تلبس عقيدة المسلمين بها! ثم لو

سلمنا بأن التقويم المراد منه التعديل على النوع نفسه بكليته، فكيف يكون أحسن تقويم للإنسان هو ابتداء خلقه بأشباه القردة يعدل عليها تعديلا بطيئا عبر مئات الآلاف من السنوات كما تعتقدون؟ ليس هذا هو أحسن تقويم ولا قريبا منه، بل هو أحط تقويم لو كنتم تعقلون! هذه صنعة العاجز المكتوف المقيد بقيود النظام الطبيعي، الذي لا يملك إلا أن يجرب التعديل بعد التعديل على نسل نوع تمت خلقته وهو منقوص عليل، فيعدل في وجهه فيخفف من مسوخته ودمامته، ثم يدخل تعديلا بعد آلاف السنين في ظهره فيخفف من انحطاط قامته، ثم يعدل في ذيله بعد آلاف أخرى حتى يخفيه، ثم يخفف من شعر جسده في تعديلات أخرى متتابعات حتى يلغيه، وهكذا حتى ينتهي بعد آماد طويلة إلى ما عليه هيئة الإنسان اليوم! فبالله كيف يا عاقل يا محترم يكون هذا هو الخلق على "أحسن تقويم"؟؟؟ وهل رأيت في الهذيان ما هو أسخف من هذا؟؟

ثم يواصل الدكتور فيقول (ص. 328): "ويدعم المعترضون رأيهم، بأن الخالق الكريم قد خص الإنسان بأن صوره فأحسن صورته ((.. وصوركم فأحسن صوركم ..)) ومن ثم لا ينبغي الربط بينه وبين باقي الكائنات. لهؤلاء نقول: لم يخص القرآن الكريم الإنسان بحسن التصوير دون باقي المخلوقات، ألم يقل جل شأنه: ((الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين))، وهنا ملمح لطيف في الآية، فالله عز وجل بعد أن أخبرنا بإحسانه خلق كل شيء، يضيف بأنه خلق الإنسان من طين، حتى لا يغتر الإنسان بحسن صورته." اهـ. قلت: لسنا نزعم أن الله خص آدم بحسن الصورة وإحسان الخلق فلا تلبس على الناس! هذا هو لازم داروينيتك أنت إذ تجعل بعض خلقه معيبا منحطا لا يحصل الكمال فيه إلا بالتطوير، سبحانه وتعالى علوا كبيرا!

ثم أضاف: "هنا يعترض البعض قائلا: بل نحن أكرم وأفضل من باقي الخلق فلا تقارنا بهم، ويستشهدون بقول الله عز وجل: ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)) [الإسراء : 70]، لهؤلاء نقول: لقد كرمنا الله عز وجل بنفخة الروح التي لم تمنح لغيرنا، وليس باختلاف أجسادنا عن باقي من المخلوقات، بل ربما كان في تفوقنا على من عدانا رغم علاقتنا الجسدية بهم تكريما أكبر. وفي الآية الكريمة ملمح لطيف أيضا، فالله عز وجل يخبرنا أنه فضلنا على "كثير" ممن خلق، وليس على كل من خلق، حتى لا يغتر الإنسان بتكريم الله عز وجل وتفضيله له." اهـ.

قلت: من أين جئت باعتقاد أن الله لم ينفخ الروح في غيرنا؟؟ هذا جهل بالكتاب والسنة جميعا، فالله تعالى يقول في القرآن: ((وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ

كَهَيْئَةِ الطّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي)) الآية [المائدة : 110]، وهذا إثبات لشيء مخلوق لما نفخ في هيئة الطير صارت طيرا، وهي الروح! وقال تعالى: ((وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)) [التكوير : 5]، وإثبات الحشر إثبات للروح ضرورة، إذ لا يتصور في العقل أن يحشر مخلوق لا روح له، فإنه إذا مات ورمت جثته، بقيت روحه حتى إذا جاء يوم الحشر بعثت في جسد جديد! وفي صحيح البخاري ومسلم (واللفظ للبخاري) أن ابن عباسٍ رضِيَ اللهُ عنهمَا أتَاهُ رجلٌ فقالَ: يا أبا عباسٍ، إنِّي إنسانٌ إنمَا مَعِيشَتِي من صَنْعَةِ يدِي، وإني أصنَعُ هذهِ التَّصَاويرَ. فقالَ ابنُ عباسٍ: لا أُحَدِّثُكَ إلا ما سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ: سمِعْتُهُ يقولُ: (مَنْ صَوَّرَ صورَةً فإنَّ اللهَ مُعَذِّبُهُ حتى ينفخَ فيها الرُّوحَ، وليسَ بِنَافِخٍ فيهَا أبدًا). فَرَبَا الرجلُ رَبْوَةً شديدةً واصْفَرَّ وجهُهُ، فقالَ: ويحَكَ، إنْ أبيتَ إلا أنْ تصنَعَ، فعليكَ بهذَا الشَّجَرِ، كلُّ شيءٍ ليسَ فيهِ روح" وفيه أن الروح تكون في غير الإنسان كما تكون في الإنسان، وإلا لقال "فعليك بهذا الشجر وكل شيء سوى الإنسان"! وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز تصوير الدواب والطيور والحيتان وما شاكلها لأنها داخلة فيما فيه روح! وفي صحيح مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا"، فدل على أن الروح تكون في غير الإنسان! والإجماع منعقد عبر قرون المسلمين كافة على أن الدواب والطيور والحيتان والحشرات فيها أرواح، خلافا للنبات والطحلب ونحو ذلك! فهذا ما عليه المسلمون من اعتقاد في أمر الروح بالكتاب والسنة والإجماع، وهذا الرجل يقول إن الروح لم تمنح لغيرنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

والعجيب أن مذهبه الذي يريد تقريره في هذا الكلام، هو استواء الإنسان وجميع الدواب والأنواع الحية في وحدة الأصل ووحدة أسباب الخلق والتكوين، فكان من المتوقع أن يطرد قياسه ليجعل الروح أمرا مشتركا بين جميع الأنواع الحية، فلا يفرق في ذلك بين آدم وبين أبيه الدارويني المزعوم! بيد أنه لما علم أن نظريته تنفي عن آدم وذريته الخصوصية عن الأنواع الحية بالكلية، أراد أن يبقي على شيء ما يختص به آدم، بحيث يحمل عليه ما القرآن من تصريح بذلك التخصيص والتفضيل! فلما كانت النظرية تتناول كل ما هو ظاهر من أمر الإنسان في جسده وبنيته وجيناته وكذا، لم يجد الرجل إلا أن يجعل خصوصية آدم في روحه، ذلك المكون الغيبي الذي لا يمانع في ميتافزيقاه الجهمية الطبيعية من إثباته! وهو في تلك المسألة جار على البدعة الشاهينية، مع تعديلات جاء بها من كيسه!

وأما نفي التفضيل والتكريم باختلاف الجسد عن أجساد الدواب والأنعام فهذا جهل آخر مستقل، وجحود لنعمة عظيمة من نعم الله عز وجل! وقد

تقدم الرد على تحريفه لقوله تعالى ((في أحسن تقويم))، فلا نعيد.

ثم قال:

> يقول المعترضون: ليس هناك جدوى من البحث في كيفية خلق الإنسان، فالقرآن الكريم أوجز الأمر كله في أن آدم أبو البشر كلهم، وأن حواء قد خلقت منه (من ضلعه كما جاء في التفاسير)، ويستشهدون بقول الله عز وجل ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)) [النساء : 1]. يجيب على هؤلاء فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي: الناس تريد هنا أن تدخل في متاهة، هل خلق منها المقصود به خلق حواء من ضلع آدم أي من جسد آدم؟ إناس قالوا ذلك، وإناس أصابوا فقالوا: لا، خلق منها تعني من جنسها، ودللوا على ذلك قائلين: حين يقول الله ((لقد جاءكم رسول من أنفسكم..)) أأخذ الله عز وجل محمدا صلى الله عليه وسلم من نفوسنا وكوّنه؟ لا، إنما هو رسول من جنسنا البشري" أما فضيلة الشيخ الإمام محمد عبده فيدلي برأي قاطع في تفسير المنار حول الآية، فيقول: "إذا كان المفسرون فسروا النفس الواحدة بآدم فهم لم يأخذوا ذلك من نص الآية ولا من ظاهرها، بل من المسألة المسلمة عندهم، وهي آن أدم أبو البشر، بالرغم من أنه ليس في القرآن الكريم نص أصولي قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم. إن النفس الواحدة هنا هي الإنسانية". (الجزء الرابع – ص. 266)

قلت: لا يا دكتور، المعترضون من أهل السنة لا يقولون "ليس هناك جدوى"، بل يقولون ليس من المعقول ولا المشروع أن نتكلف البحث في كيفية خلق الإنسان على غير مثال سابق، وقد بينا وجه ذلك بما نرجو أن يكون قد حصل به المقصود لكل عاقل متجرد من الأهواء! وأما مسألة أصل حواء وخلقتها، فلا نستغرب على الإطلاق أن يكون هذا هو موقف إمام الجهمية الداروينية في زماننا فيها، والله المستعان! بل العجب كل العجب يحصل لو قدر أن وجدناه يقول بما يقول به المسلمون في تلك المسألة! رجل يعتقد أن آدم عليه السلام إنما خلق بالترقية الداروينية في بطن أنثى من إناث القردة العليا، فأي شيء يُتوقع منه أن يعتقده في امرأته حواء، إلا أن تكون من إناث القردة العليا هي نفسها، من غير تطور أو شيء، أو على أحسن الأحوال أن تكون قد خلقت بالتطوير في رحم أنثى أخرى من إناث النوع نفسه كما خلق آدم على عقيدته؟؟ فإذا كان آدم قد ولد في حضن أنثى من

إناث أشباه البشر الأقل تطورا (على الاعتقاد الدارويني) منه، ورضع منها وتربى في حجرها، فأي شيء يمنع نفسه من أن تشتهي أنثى من نفس النوع لتكون امرأته وأم ولده؟؟ فالواقع أن الدكتور يلزمه على اعتقاده الدارويني أن يجعل حواء من جملة القردة العليا، إذ على هذا التأويل الجهمي لقوله تعالى ((وخلق منها زوجها))، لا يبقى لحواء أي خصوصية في الكيفية التي خلقت بها، ولا يبقى إلا أن تكون خلقتها خلقة "طبيعية" على المفهوم الدارويني للخلقة الطبيعية! وبما أن آدم ذكر لا يحبل ولا يلد، لم يبق إلا أن تكون حواء قد ولدت مولدا اعتيادا في بطن أنثى من إناث النوع نفسه الذي يزعم الدكتور أن آدم قد ولد منه! فإن قال: بل أنا أعتقد أنها قد طورت كما طور آدم، وخلقت على نفس النحو الذي خلق هو عليه، ونفخ فيها نظير الروح التي نفخت في آدم، قيل له: فأين اختصاص آدم بالنفخة الأولى التي "لم تمنح لغيرنا" كما زعمته آنفا؟ ثم أين في القرآن ما خرجت منه بذلك ولو من بعيد، والحال أن القرآن صريح في أن الله خلق نفسا واحدة وخلق وزوجها منها؟؟ لو صح ما تقول للزم أن نجده في القرآن يقول: "وخلق معها زوجها" وليس "وخلق منها"!

ولا عبرة بتلك السفسطة التي نقلها الدكتور عن الشيخ الشعراوي، ولا نعجب من تتبع الجهمية والمتفلسفة لكلام بعضهم البعض، ونقل بعضهم عن بعض، فهذه سنة الله تعالى في خلقه! وإن كان لنا في الحقيقة أن نعجب من ذهاب الشعراوي هذا المذهب الفاسد المخالف لما عليه قرون المسلمين كافة، من زمان الصحابة وإلى زماننا هذا، مع أنه ليس لديه تنظير ميتافزيقي له تعلق بنشأة الأنواع، وكان من أشد الناس رفضا لنظرية داروين كما هو مشهور عنه! ولكن هكذا العقلانيون من المشتغلين بعلوم الشريعة، قد لا يكون لدى أحدهم من الأهواء المانعة من قبول السنة في هذه المسألة أو تلك ومن الإذعان لها، إلا أن نفرت نفسه من استهزاء بعض السفهاء بها، ممن هم معظمون لديه، أو كره أن يكون من المتهمين على العلم والعقل عندهم، فتراه يتلبس بأمثال تلك المخازي خروجا من ذلك، والله المستعان! فقوله "هل خلق منها المقصود به خلق حواء من ضلع آدم أي من جسد آدم؟ إناس قالوا ذلك، وإناس أصابوا فقالوا: لا، خلق منها تعني من جنسها، ودللوا على ذلك قائلين: حين يقول الله ((لقد جاءكم رسول من أنفسكم..)) أأخذ الله عز وجل محمدا صلى الله عليه وسلم من نفوسنا وكوّنه؟ لا، إنما هو رسول من جنسنا البشري" هذا مخالف لظاهر النص مخالفة فجة لا دليل عليها! ومعلوم في أصول التفسير التي يُفترض فيه أنه كان على دراية بها، أن الأصل حمل النصوص على ظواهرها ما لم يظهر دليل معتبر ينقلها إلى غير ذلك الظاهر! فأين دليله على مخالفة الظاهر، مع أنه محل إجماع كما تقدم؟

إن النص الذي يورد الشيخ عليه هذه الشبهة هو قوله تعالى ((خلق لكم من أنفسكم أزواجا)) الآية وقوله ((جعل لكم من أنفسكم أزواجا)) الآية، مع أن خلق الله أزواجنا من أنفسنا هنا ظاهره أنه سبحانه أخذ من نفوسنا وكون أزواجنا، وهو ما يحصل بالتناسل، وليس مجرد أن نساءنا مخلوقات من نوعنا، بشرا أمثالنا، كما يحمل عليه قوله ((لقد جاءكم رسول من أنفسكم))! ثم إنه لا مانع من حمل قوله تعالى "رسول من أنفسكم" أي أخذنا من نفوسكم وخلقناه منها! أليس مخلوقا من نسل قومه ومن ذرية والديه، صلى الله عليه وسلم؟؟ فهو إذن من أنفس المخاطبين خلقة وتكوينا، كما أنه منهم نوعا، ولا إشكال! ثم إذا كان الشيخ يورد تلك الشبهة على قوله "من أنفسكم" فكيف يرد ذلك الكلام نفسه على قوله تعالى ((خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها))، الذي هو موضوع جوابه المنقول؟؟! إذا كانت يا شيخ تؤمن بأن آدم عليه السلام هو أول البشر، فكيف صح عندك أن يقال إن الله خلق لآدم زوجه من نفسه، التي هي أول نفوس البشر، إلا بأن يكون ذلك الزوج مخلوقا من جسد آدم نفسه؟؟ لا يتصور أن تكون قد خلقت من ذريته ونسله – مثلا - لأنها هي التي بمعاشرتها حصلت الذرية الآدمية بالأساس!! ولا يتصور أن تكون قد خلقت خلقا مستقلا عنه لأن الآية تصرح بخلقها من النفس الواحدة التي هي نفس آدم، كما أننا جميعا قد خلقنا من تلك النفس الواحدة! فأي شيء يكون قول القائلين بأن "منها" هنا تعني "من جنسها البشري" إلا تعطيلا لكلام رب العالمين عن معانيه؟؟

ثم هل مر الشيخ الشعراوي في يوم من الأيام بما في السنة من تصريح مجمع عليه رواية ودراية، بأن حواء قد خلقت من ضلع آدم عليه السلام؟؟ أين هو مما في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ"؟؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن حواء خلقت من ضلع آدم، وهذا يقول خلقت من نفس نوعه لا من جسده، فبالله من نصدق؟؟!

ثم يا دكتور إن كنت ناقلا كلام الشعراوي في هذه البابة، فهلا نقلت لنا مذهبه في مسألة البحث التجريبي في خلق السماوات والأرض وما بينهما؟؟ قال الشعراوي في تفسيره لسورة الأعراف عند قوله تعالى: ((وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ)) [الأعراف : 11] "هذه المسألة (الخلق والإيجاد) لا يمكن أن نأتي فيها بمقدمات موجودة لتدلنا على كيفية خلقنا ولا

لأي شيء ومُهمِّة خلقنا! فكيفية الخلق كانت أمراَ غيبيًّا وليس أمامنا ما نستقرئه لنصل إلى ذلك. وقد حكم الله في قضية الخلق، سواء أكان الأمر بالنسبة للسماوات والأرض وما بينهما أم للإنسان، وقد حكم سبحانه في هاتين القضيتين، ولا مصدر لعلم الأمر فيهما إلا من الله سبحانه، وأغلق باب الاجتهاد فيها، وكذلك باب التخمين، وسمّى القائمين بكل بحث بشري في هذا المجال بأنهم ضالون مضللون، ولذلك قال ليحكم هذه القضية ويحسمها، ويريح العقول من أن تبحث فيها؛ قال: "مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً" (الكهف:51)" اهـ.

قلت فهذا تقرير صارم لمذهب السلف في تلك القضية الغيبية المحضة، أن الواجب فيها الوقوف على السمع بلا زيادة ولا نقصان، وهو ينقض عليك غزلك في خلق حواء وفي خلق آدم وفي قضية النشأة هذه كلها من أولها إلى آخرها، والحمد لله أولا وآخرا!

وأما قول محمد عبده، فصدق الذي قال: الطيور على أشكالها تقع! فمحمد عبده كان جهميا كصاحبنا، معروفا بالتغريب وبالقول بأن قصص القرآن إنما هو ضرب أمثال وليس حقائق تاريخية، وبالغلو في تقديم العقل على النقل على طريقة القوم، وله كلام في منهج تأويل القرآن في تفسير المنار يندى له الجبين، تأتي الإشارة إليه في موضع لاحق من هذا الكتاب! ومع أنه لم يصرح بقبول نظرية داروين فيما وقفت عليه من كتبه، إلا أنه نقل على وجه الإقرار والاستحسان، في كتابه الإسلام بين العلم والمدنية (ص. 106) كلاما لفيلسوف من الفلاسفة الأمريكان يبدي فيه عجبه من سبق المسلمين – بزعمه – للقول بنظرية التطور الداروينية! فقوله: "إذا كان المفسرون فسروا النفس الواحدة بآدم فهم لم يأخذوا ذلك من نص الآية ولا من ظاهرها، بل من المسألة المسلمة عندهم، وهي آن أدم أبو البشر، بالرغم من أنه ليس في القرآن الكريم نص أصولي قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم. إن النفس الواحدة هنا هي الإنسانية (الجزء الرابع – ص. 266)" قلت: هذا كذب على الله ورسوله وأصحابه والمسلمين كافة! وإلا فأي شيء يفهم من قوله تعالى: ((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)) [الأعراف : 172] إن لم نفهم منه أن جميع البشر هم من ذرية آدم عليه السلام؟! وأي شيء يفهم من قوله ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)) [الحجر : 28] إن لم نفهم أن ذلك المخلوق من طين الذي أخبر الله عنه ملائكته هو أول البشر؟؟ وأي شيء نفهم من قوله: ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي

الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ [البقرة : 30-33]، أي شيء نفهم من هذا إن لم نفهم أن أول البشر هذا إنما هو الخليفة الذي أخبر الله به الملائكة، الذي عرضت عليه الأمانة فحملها، وعلمه الأسماء كلها من أجلها، ثم أظهر ذلك العلم لديه على الملائكة وأمرهم بالسجود له، وأخرج من ظهره ذريته التي أهبطه ليخلقها منه في الدنيا، ثم أشهدهم على شهادة الفطرة حتى لا يبقى إنسان في الأرض إلا وقد قامت عليه حجتها؟؟ هذا كله جرى على من إن لم يكن على أول البشر أبيهم آدم عليه السلام، الذي ما خلقه هو وذريته إلا من أجل ذلك الابتلاء نفسه؟! ينبغي أن يكون مفهوما أن منازعة محمد عبده ومن نحى نحوه في هذه القضية ليست خلافا على مسألة فيها متسع للنظر، بل وليست خلافا على مسألة إجماعية لا تعلق لها بالمعتقد، وإنما هو خلاف في معلوم من الدين بالضرورة يكفر من خالف فيه قولا واحدا، لتكذيبه صريح القرآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم قال (ص. 330): "وليس آدم وحواء فقط الذين خلقا من نفس واحدة، بل نحن أيضا: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)) [النساء : 1]، فالآية تشير بدقة فائقة إلى أن تلك النفس الواحدة هي النوع الواحد، هي الإنسان البشر. يتناسل رجل أسود زنجي مع امرأة بيضاء ناصعة، كما يتناسل روماني أبيض مع يابنية صفراء، أو قزم آسيوي مع ممشوقة بيضاء أو سوداء، فيبعث الخالق الكريم من كل هؤلاء رجالا ونساء يتتابعون جيلا وراء جيل. أي أن الوحدة لا تعني وحدة العدد (آدم) بل تعني وحدة النوع (الإنسان-البشر)، تماما كما نقول إننا سنقيم معرضا للكتاب، هل يعني ذلك كتابا واحدا؟!" اهـ.

قلت: هذا كلام واه قد بينا وهاءه، وآية وهاءه من آية النساء التي يستدل بها الدكتور، هو أنه تعالى قال: "وبث منهما"، فكيف يكون البث منهما إلا على معنى أن جميع الرجال والنساء قد بثت من تلك النفس الواحدة التي خُلق منها زوجها، على الحقيقة لا على ذلك المعنى الفاسد الذي ذكره الدكتور؟؟ ثم إذا كان الرجل والمرأة يتناكحان فيخلق منهما ذرية، ثم الذرية تتناكح فتتابع الأجيال جيلا بعد جيل، فمن الواضح بداهة أن مبدأ ذلك وأصله لابد أن يرجع إلى نفس واحدة، ذكر واحد، يتناسل مع أنثى هي الأنثى الأولى من

نوعها، حتى يبدأ ذلك النسل وتجري فيه الذراري على هذا النحو المذكور، وإلا لزم التسلسل! فلابد من ذكر أول وأنثى أولى يصح فيهما خطاب القرآن بأنه هو النفس الواحدة التي خلق منها لا من غيرها ذلك الزوج المذكور، فكان من نحاكهما ابتداء ذلك النسل كله، وأصل النوع كله! فمهما سفسط الرجل على الآية فلن يصل إلى ما يريد، لا بالسمع ولا بالعقل، ولن يجد في الكتاب والسنة والإجماع إلا ما يبطل قوله وينقض عليه مراده، والحمد لله رب العالمين!

إن بيت الداء هنا أيها القارئ الكريم هو أن الدكتور وكذلك شيخه محمد عبده من قبله، يتعاملان مع القرآن وكأنه قرطاس أثري اكتشناه بالأمس القريب صدفة في كهف من الكهوف (كلفائف البحر الميت عند النصارى مثلا!)، أو هبط علينا بالأمس من السماء، فأخذنا في الاجتهاد والنظر في محاولة فهمه، وإذن فلا فضل لرأي على رأي ولا لنظر على نظر، وإنما جميع الآراء سواء في محاولة فك طلاسم النص المسطور في ذلك القرطاس واكتشاف مراد صاحبه منه! يجب أن يفهم هؤلاء أن القرآن كتاب أنزله الله وأنزل فهمه معه، وأن ذلك الفهم محفوظ في تراث المسلمين كما أن المتن نفسه محفوظ، سواء في صورة إجماعات على معاني النصوص، أو تفسيرات مختلفة للنص الواحد محصورة في أقوال معينة ورثنا معها أدوات الترجيح فيما بينها، والإجماع على أن الحق لا يخرج عنها! فالذي علمنا القرآن وأسمعنا نصه وحرفه ولفظه، هو نفسه الذي أورثنا فهمه ومعرفة مراد صاحبه منه، والجميع نابع من مشكاة واحدة، قد علمنا صاحبها صلى الله عليه وسلم أن الحق محصور فيها في سبيل المؤمنين وأنهم لا يجعمون على ضلالة، وإذن فلا متسع في ذلك الفهم الموروث للتجديد والاختراع وإن رغمت أنوف الجهمية كافة! فالذي يأخذ المتن كنص مجرد، ثم يعرض بقفاه عن فهمه الموروث معه، ليحدث فيه من الفهم ما لم يتصوره أحد من المسلمين قبله، فإنما هو زائغ صاحب هوى، يصح فيه قول رب العزة تبارك وتعالى: ((فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ)) الآية [آل عمران : 7]! هؤلاء هم من يسقطون الفهم الموروث ولا يرفعون به رأسا، وما كانوا ليفعلوا، لأنه إنما يأتي على خلاف أهوائهم، قاتلهم الله، ابتلاء لهم ولغيرهم بخطاب الشارع نفسه، ولله الحكم البالغة!

ثم يقول: "ويحسم الإمام محمد عبده الأمر عند تفسيره قول الحق عز وجل ((خلق لكم من أنفسكم أزواجا)) (الروم:21)، و((جعل لكم من أنفسكم أزواجا)) (الشورى: 11) بقوله "إن المقصود بذلك أن أزواجنا من جنسنا، الجنس البشري، ومن ثم لا داعي لترديد أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر

وهو نائم، كما جاء في الفصل الثاني من سفر التكوين وورد في بعض الأحاديث (التي تحتاج صحتها إلى مراجعة)، ولولا ذلك لم يخطر هذا المعنى على بال قارئ القرآن." اهـ. قلت: دونك إلى إسقاط صحة حديث أبي هريرة الذي أورناه آنفا، خرط القتاد، ولن ترجع مناطحتك إجماعات السلف وما هو معلوم من دين المسلمين بالضرورة عليك إلا بكسر قرنك، فانطح ما شئت! وتأمل قوله "تحتاج صحتها إلى مراجعة"، فالرجل قد سبق منه الحكم في المسألة تأسيسا وتقعيدا بصرف النظر عن صحة تلك الأحاديث، فكأنه لما حوجج بها قال: لعلنا نراجع صحتها في يوم من الأيام! وما ذاك إلا لأن اعتقاده في الغيبيات ليس مؤسسا على نصوص الوحيين ابتداءً، وإنما يؤسسه على ميتافزيقاه ونظرياته التي يعتنقها أولا ويطلق لنظره ورأيه وهواه العنان فيها، ثم يخضع لها كل نص يقع بين يديه مما له تعلق بالأمر! فإن أعياه تأويل تلك النصوص على ما يوافق هواه، قال بكل سهولة: لعلنا نراجع صحتها فيما بعد! فنعوذ بالله من كبر الفلاسفة وأهل الكلام!

ثم قال الدكتور موردا المزيد من اعتراضات مخالفيه:

> حول قول الحق عز وجل: ((إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)) (آل عمران: 59)، يقول المعترضون إن الآية تبين كيفية خلق الإنسان، فآدم خلق من تراب، بشكل فوري مباشر، بكلمة كن. ومن ثم انتهى الأمر، ولا داعي لمزيد بحث يظهر غير هذا. نقول للقائلين بهذا الرأي: إن الآية تشير إلى عكس ما تقولون: فالآية تنص على أن عيسى كآدم، خلقا من تراب وبكلمة كن، بينما نعلم جميعا أن عيسى ولد من مريم العذراء، وأن مريم ابنة عمران وأن عمران ولد من آباء وهؤلاء من أجداد. ليس عيسى فحسب، بل نحن أيضا ((قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا)) (الكهف: 37)، إذاً فعيسى من تراب، ونحن من تراب، رغم وجود آباء لنا، ذلك لأن أبانا هو آدم الذي خلق من تراب. فلم لا نفهم من القول بأن آدم من تراب أنه هو الآخر له آباء وأجداد بدءوا من التراب؟.

قلت: نقول في جواب سؤالك يا دكتور: لأن هذا مناقض لصريح النصوص الأخرى كلها، ولما أطبقت قرون المسلمين على فهمه منها!! فإن لم يكن هذا الجواب يكفيك، فما نوع الجواب الذي تريد؟؟! أي نوع من أنواع الأجوبة العلمية يمكن أن يقنع مثل هذا الرجل ببطلان مذهبه؟؟ لا شيء من طريق أهل التفسير والتأويل وعلوم الشريعة على الإطلاق، مهما قالوا ومهما استدلوا! وإنما يزول عن مذهبه إن قدر أن رأى بأم عينية نظرية التطور

اللعينة هذه وهي تسقط بين أيدي أصحابها، أو على الأقل حتى يراهم يتحولون في نشأة الإنسان خاصة (فيما هو معتمد عندهم أكاديميا) إلى خلافها! فهو ذنب لهم في فلسفتهم الغيبية، خاضع خضوعا تاما لمصادر تلقي المعرفة الغيبية عندهم، لا يذهب في ذلك إلا حيثموا ذهبوا، ولا يجرؤ على مخالفتهم إلا في حدود ما يحسب أنه يكفيه للبقاء على دينه من موافقة للاعتقاد الموروث عند المسلمين! فكل ما سوى ذلك القدر عنده فهو ملعب للرأي والنظر، لا معرفة فيه ترجى مما عند السلف أصلا، وإنما هي أوهامهم النابعة من "علوم زمانهم"، التي ننتظر أن يأتي "العلم الحديث" (هكذا!) بفصل المقال فيها وحسم النزاع الموهوم في ذهنه! فمن كان هذا دينه فلا جدوى من مناقشته بالنصوص والآثار والسنن وتحرير مواضع النزاع والإجماع الشرعي! وإنما يقال له ولأمثاله: لكم دينكم ولي دين!

آية آل عمران يا دكتور، لم يفهم منها العقلاء، في سياق النكير على النصارى في قولهم بربوبية المسيح، إلا أن المراد أنه كما خلق الله آدم بلا أب ولا أم، فكذلك خلق المسيح بلا أم، وكلاهما مع ذلك بشر أصل خلقته الطين الذي خلق منه آدم، وكلمة التكوين التي بها خلق الله آدم وخلق المسيح في بطن أمه! فإن كنتم معاشر النصارى مؤلهين المسيح لأنه خلق بلا أب، فمن باب أولا أن تعبدوا آدم لأنه خلق بلا أب ولا أم! هذا هو المراد من الآية كما أجمع المسلمون على فهمه، وكما لا تنهض منها حجة في سياقها إلا به! فعندما يحولها الدكتور، في سماجة قل نظيرها، إلى القول بأن وجه الشبه بين عيسى وآدم عليهما السلام، هو أن كلا منهما ولد من أم، والأم ولدت من آباء وأمهات قبلها، فإنه لا تقوم منها حجة في مقام الرد على النصارى الذين عبدوا المسيح من دون الله بناء على حقيقة أنه خلق بلا أب! وإذن تصبح الآية لغوا لا فائدة فيه! فمدار الحجة على اشتراك آدم والمسيح في كونهما بلا أب، وفي زيادة آدم بكونه بلا أب ولا أم، فتنهض الحجة بقياس الأولى كما تقدم! أما على هذا الفهم، فما فائدتها وما الثمرة من مخاطبة النصارى بها؟! لا حجة في إثبات مشابهة المسيح لغيره من عموم الناس، فإنهم ما من أجل هذا عبدوه، وإنما الحجة في إثبات مشابهته لأبيه آدم في جانب من جوانب خلقه المخالف لعادتنا، ومن ثم إلزامهم بما يبطل مذهبهم، فتأمل!

ثم يمضي ليقول:

> ليس صحيحا أن "كن فيكون" (كما جاءت في آية سورة آل عمران السابقة: 59) تعني الخلق الفوري. فكن فيكون لا تعني نفي الأسباب ولا تلاشي الوقت، نحن خلقنا بكن لكن ذلك تطلب تزاوج رجل وامرأة، وتطلب مكثا في الرحم مدة تسعة أشهر. إن كل شيء خلق بكن فيكون، ألم يقل الحق عز وجل: ((وإذا قضى أمرا

فأنما يقول له كن فيكون)) (البقرة 117-آل عمران 47-مريم 35) وإذا تأملنا آية آل عمران: 59، وجدنا أن الله يقول إن آدم ((... خلقه من تراب ...)) (ثم قال له كن فكان)، فإذا كانت ثم "تفيد التتابع مع التراخي"، ألا يعني ذلك أن الأمر بتصوير آدم جاء بعد فترة طويلة من خلقه من التراب؟ كذلك فإن من يقولون إن خلق آدم بكن فيكون يعني خلقا مباشرا في التو واللحظة يناقضون أنفسهم، فإنهم في قول الحق عز وجل: ((هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا)) (الإنسان: 1) يفسرون ذلك الحين من الدهر بأنه أربعون سنة، ترك فيها تمثال آدم الطيني ليجف، أي أن خلق آدم لم يستغرق لحظات، بل تطلب جفافه فقط أربعين سنة.

قلت: أي فائدة في أن يقول لنا رب العالمين إنه إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، إن لم تكن الفاء هنا هي فاء التعقيب مع السرعة؟! ما الزيادة في معنى هذا التركيب على مجرد إثبات القدرة على إمضاء ما يريد سبحانه التي تجدها في مثل قوله إنه سبحانه "على كل شيء قدير"؟؟ إن لم تكن فيه زيادة معنى، كان لغوا، والله منزه عن اللغو! يجب على المسلم أن يثبت ذلك المعنى الإضافي (سرعة مضي أمر الله تعالى كما أمر به بمجرد صدوره عنه جل شأنه)، الذي أجمعت عليه قرون المسلمين في آية آل عمران وغيرها، ثم يفوض العلم بكيفية ذلك، فيما لم يرد فيه نص، لله تعالى، ولا يتفسلف تلك الفلسفة القبيحة التي خاض فيها الدكتور بنظرياته وأوهامه! يا دكتور ما من حادث يحدث في العالم إلا بأمر الله جل في علاه، وما من متحرك يتحرك إلا بكلمة من الله، ((يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)) [الرحمن : 29]، لا يشغله أمر عن أمر، ولا كلام عن كلام، ولا تدبير عن تدبير، وهو أمر لا يجوز أن نتكلف مجرد محاولة تصوره! كل ما يحدث في العالم فهو من مرادات الله الكونية، التي تدخل في قوله جل شأنه: ((إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)) [يس : 82]! فمهما حاولت أنت أن تتصور كيف يكون كل حادث في العالم ناشئا عن أمر إلهي نازل لملائكة تقوم به فور نزوله، ثم هو بعد ذلك يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة من سنواتنا، فلن تأتي في ذلك إلا بقياس وتشبيه الأفعال الإلهية، فتمثل أو تعطل، كما تلبس به الدكتور ها هنا! وإلا فكيف ينزل الأمر، وكيف يعرج، وما هو ذلك اليوم الذي يعدل ألف سنة من أيامنا؟ هذه كلها أمور لا مدخل للعقل البشري إليها! ولسنا نتصور – أصلا – آمرا لا يشغله أمر عن أمر، وله في كل لحظة من لحظات زماننا ما لا يحصيه إلا هو وحده من الأوامر النازلة! فنحن نؤمن بذلك كله على ما صرح به رب العزة من معان نفهمها ونثبتها، ولا نتكلف مجرد محاولة فهم كيفياتها!

أرأيت لو أنك أردت أن تأمر عاملا عندك بأن يصنع ساعة مثلا، فهل تصدر إليه أمرا بصناعة الساعة إجمالا، ثم تتركه ليستند إلى علم سابق لديه في كيفية ذلك التصنيع وخطواته، أم تصدر إليه الأمر بتفصيل كيفية الساعة والهيئة التي تريدها عليها على وجه التحديد، ثم تتركه ليقوم بذلك على علمه وخبرته، أم تأمره بكل خطوة من خطوات تصنيع الساعة، لأن لديك في كل خطوة منها غرضا مخصوصا يرتبط بأمور أخرى لا يغطيها علم ذلك العامل ولا يتسع لها؟ وهل يكون الأمر الواحد نازلا في الشيء وبعض أسبابه، أم نازلا في كل سبب من أسبابه استقلالا؟ وأي الأوامر يكون أنجز وأسرع تحقيقا للمطلوب؟ الأمر الكلي الأول الذي يضطر معه الآمر لانتظار تحقق الخطوات على يد مأموره، أم الأوامر الجزئية الكثيرة التي يكون كل أمر منها مفضيا بصورة ما أو بأخرى إلى حصول غايات كلية كثيرة منها تركيب تلك الساعة المذكورة في المثل وتمام صنعها؟ هذه كلها تصورات مدارها على علاقة آمر بشري بمأمور بشري مثله، يشغله الأمر عن الأمر، والفعل عن الفعل، والتقيد بحدود ما عند مأموره من علم وقدرة على إنفاذ المطلوب في الوقت المطلوب وعلى النحو المراد!

ولكن الأوامر التي هي موضوعنا هاهنا هي أوامر رب العالمين جل شأنه لملائكة خلقت خلقا مخصوصا للقيام بما خلقت من أجله من إنفاذ أوامر الله جل في علاه، التي ما تترك صغيرة ولا كبيرة فيما يجري في هذا العالم من حوادث إلا شملتها بعينها! ومن أوامر الله جل شأنه وكلامه الذي يقضي به مراده ما لا يكون أمرا نازلا إلى ملك يعمل به، كقوله للملائكة يوم القيامة، وفيهم ملك الموت نفسه، أن "موتوا" فيموتوا، ثم يبعثهم بكلمة منه سبحانه، على ما عليه جماهير الأئمة في تفسير قوله تعالى: ((وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)) [القصص : 88]! ومن الواضح البدهي أنه سبحانه لما خلق أول ملك من الملائكة في هذا العالم من النور لم يخلقه بأمر نازل على ملك مثله! فلا يعلم كيفية فعل الله جل في علاه وكيفية نفاذ أوامره، بما فيها قوله "كن"، إلا الله وحده!

فإذا كان ذلك كذلك، فعندما نسمع قوله تعالى: ((إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [آل عمران : 59]، وننظر فيما ورد في السنة والأثر من نصوص في تلك المسألة، فإننا نثبت ابتداء الخلق من التراب لآدم عليه السلام، وأن التراب جمع ثم جعل طينا، ثم صور الله منه صورة آدم وسواها وتركها في الجنة حينا من الدهر، وهو ما فيه قال جل شأنه ((هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً)) [الإنسان : 1]، ثم نفخ فيه من روحه وقال له كن فكان! فكلمة التكوين هنا تجتمع بالخلق من الطين والتصوير باليد ولا تعارض، لأنها لم تتجه إلى ما

خلقه الله بيده سبحانه، وإنما نزلت فيما بعد ذلك! ومن ثم فلفظة "ثم" تفيد حصول التراخي لا بعد كلمة التكوين ولكن قبلها! فإذا صدرت كلمة التكوين، حصل موضوعها فورا وبلا تراخي، سواء استُعملت فيها ملائكة موكلة بإنفاذها أم لم يكن في الأمر عمل للملائكة! فسبحان من بلى هذا الرجل بانقلاب الفهم وانعكاسه، والله المستعان!

وكذلك قول الدكتور: "نحن خلقنا بكن لكن ذلك تطلب تزاوج رجل وامرأة، وتطلب مكثا في الرحم مدة تسعة أشهر." قلت: فما أدراك بأي أمر على وجه التحديد صدرت كلمة التكوين التي ترى أنك بها خلقت؟؟ هذا كلام من يزعم أن الله لما اقتضت مشيئته أن يخلقه، أصدر الأمر الإلهي لأبويه أن يتزوجا! وفي هذا ما لا يخفى من تشبيه الأفعال، فكأنما يتكلم عن آمر بشري، ينزل الأمر لعامل بشري لديه فيعمل ذلك العامل بأسبابه استقلالا عن الآمر، حتى يصل إلى إنفاذ أمره. أو لعله – وهو ما يقتضيه المذهب الميكانيكي النيوتوني الذي يعتنقه الدكتور – يتصور الأمر وكأنه رجل يجلس على لوحة مفاتيح، فيضغط المفتاح لتجري الماكينة على نحو يفضي في النهاية إلى إنفاذ مراده، سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا! فأوامر التكوين عند الدكتور على هذا المعنى، تتجه إلى أسباب الحادث لا إلى الحادث نفسه، ثم تترك الأسباب لتجري المتولدات على قانونها ونظامها استقلالا بلا أمر ولا شيء! وهنا يقال له: ولكن أليس زواج والديك يا دكتور، ناشئا عن أسباب متقدمة عليه هو الآخر؟ الجواب بلى! فلماذا جعلت أمر التكوين عند ذلك لا قبله؟؟ لماذا لا يقال إن أمر التكوين صدر في جمع الأسباب المباشرة التي أدت إلى زواج والديك، ومن ثم إلى إنجابك؟ ثم إن هذه الأسباب نفسها لابد أنها راجعة إلى أسباب أخرى متقدمة عليها! فلماذا لم تجعل أمر التكوين بخلقك، هو الأمر المتجه إلى خلق تلك الأسباب، ومن ثم تولد ما نشأ عنها من متولدات متتابعة وصولا إلى مولدك؟؟ لا مرجح لديك على الإطلاق ولا يتصور لك الترجيح! ونلزمك من هذا المسلك بطرد المسألة وصولا إلى أول أمر صدر بخلق السماوات والأرض، فيكون الأمر بخلقك أنت هو كلمة التكوين التي بها خلق نظام السماوات والأرض نفسه، ويقال مثل ذلك في جميع كلمات التكوين، تجعل كلها كلمة واحدة هي الكلمة الأولى، وهو ما ينتهي بك إلى مذهب الربوبيين على التحقيق، وما هم عليه من تعطيل أوامر الله وكلامه وأفعاله المتعلقة تعلقا مباشرا بكل حادث من حوادث العالم، فتأمل!

أما نحن أهل السنة فنقول إن الأسباب نفسها لا تصير أسبابا إلا بأمر الله تعالى، ولا تؤثر في مسبباتها إلا بأمره جل وعلا، ولكل نوع من تلك الأسباب ملائكته الموكلة به، العاملة بأمر الله تعالى. فلا ينقطع الأمر الإلهي عن

جريان حوادث العالم طرفة عين، لأنه لا يجري حادث إلا به! فإذا أراد سبحانه أن يخلقك أنت بعينك يا دكتور عمرو، فقد سبقت تلك المشيئة المعينة، حوادث أخرى كثيرة شاء الله أن تكون سببا في تكونك في رحم أمك، كما كانت سببا في غير ذلك من حوادث متولدة لا يحصيها إلا هو سبحانه! فإن شئت أن تجعل خلقك هو ابتداء خلق العلقة في رحم أمك، فلهذا أمره الإلهي الذي به جرى عمل الملك الموكل بالأرحام! وإن شئت أن تجعل خلقك هو نفخ الروح فيك، فلهذا أمره كذلك، وكلها كلمات تكوين، تدخل في عموم قوله جل شأنه: ((إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)) [يس : 82]، يصدر كل واحد منها فور حصول المشيئة عند الله تعالى، ثم تحصل ثمرتها فورا بلا تراخ ولا تأخر، والله أعلى وأعلم.

والملفت أن الدكتور يتقلب ويضطرب اضطرابا ظاهرا في مسألة كلمة التكوين هذه، فتارة يقول كما ترى إن كلمة التكوين تصدر عن الله تعالى كلمة بعد كلمة، ويخلق بها الشيء بابتداء أسبابه من قبله، فيتم حصول أثرها على التراخي لا على الفور، وتارة يقول (كما ذكره في مختتم سلسلته عن نظرية المعلوماتية) إن كلمة التكوين هذه تصدر آثارها في العالم فورا ولكن بالنظر إلى كونها تحصل في عالم غيبي لا زمان فيه أصلا، فجميع الحوادث فيه ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء! وهو ما يقتضي نفي التتابع والتراخي والتعدد بل ومطلق الوجود لكلمة التكوين كما بيناه في موضع سابق من هذا الباب!

والقصد أنه يجمع في تلك المسألة مذهبين متناقضين من حيث لا يشعر!

ثم ختم الدكتور هذا المبحث الجهمي بقوله: "لذلك كله نؤكد أن قصة خلق الإنسان ليست من قضايا العقيدة التي يجب الوقوف فيها عند ظاهر ما جاء في القرآن الكريم، بل إنها من المعارف التي أمرنا بتحصيلها عن طريق السير في الأرض والنظر في الآفاق وإعمال العقل في أدلة العلم المتجددة. ولا شك أن الله عز وجل حين أمرنا بهذا يعلم أن ما سيتكشف لنا لن يدفع الإنسان إلى الإلحاد (كما فعل البعض) بل سيضيف إلى إيمانه القلبي إيمانا عقليا راسخا، وإلا ما أمرنا جل شأنه بذلك." اهـ. قلت: بل هي من قضايا العقيدة وإن رغمت أنف الدكتور عمرو! ولم نؤمر بشيء مما يقول ولله الحمد، وما كنا لنؤمر به أصلا كما بينا! ولو صدق الدكتور لقال: "ولا شك أن الله حين أمرنا بهذا كان يعلم أنه سيوصلنا إلى تجهيل رسوله وأصحابه بمراداته من كثير من كلامه"! فإن هذا هو ما حصل تحقيقا، ولم تبال أنت يا دكتور بحصوله، ولم تنتبه إلى أنه هو أعظم وأخطر أسباب الإلحاد ونمو نابتة الشك في قلوب الناس ولا حول ولا قوة إلا بالله! فليس تعرض المسلم العامي لنظرية كونية غيبية يعلم أنها إلحادية الأصل ولزعم صاحبها أنها تنفي

مخلوقية العالم، هو ما يدفعه إلى الإلحاد، فالعامة تجد في نفوسها ولله الحمد نفورا فطريا من مجرد فكرة الاستماع إلى ملحد دهري وهو يعرض بضاعته! وإنما يدفعه إلى الإلحاد تعرضه لفلسفة جهمية توصله إلى اعتقاد أن النصوص الموروثة في دينه في القرآن والسنة، لم نرث معها فهمها، ولم تهلك قرون المسلمين الأولى إلا على ضلال وجهل في فهمها، وأن النظريات الطبيعية الكونية التي لم تزل تتقلب ولم يزل أصحابها يبدلونها في اتفاقهم الأكاديمي كما يبدل أحدهم لباسه ونعليه، هي العمدة في معرفة مراد الله من تلك النصوص! هذا ما يصل به ولو بعد حين إلى فقد الثقة في حجية تلك النصوص والإقدام على القول بأنها لا قيمة لها كمصادر لتلقي المعرفة، وأنه لا ثقة على الإطلاق في شيء مما زعم الأقدمون أنه هو دين الله وهو مراد رب العالمين من المكلفين!

ينتهي إلى ذلك كله بعدما كان ابتداؤه أن قبل من أمثال الدكتور زعمهم بأن مؤلفاتهم هي الطريق لحماية المسلمين من الإلحاد ولزرع الإيمان الراسخ في قلوبهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله! الإيمان بأي شيء يا دكتور؟؟ في علو السلطان المعرفي الكوزمولوجي فوق كل نص في كتبهم، وفي جعل كلمته هي العليا عليه، كما علت من قبل على نصوص أهل الكتاب؟ أم الإيمان بأنه لا يمكن أن يأتي في القرآن ما يخالف ظنون وتخمينات الطبيعيين مهما ذهبت بهم أقيستهم في غيب السماوات والأرض كل مذهب؟؟ أم الإيمان بأنه ما من لفظ في القرآن إلا يرد أن يكون معناه على خلاف ظاهره تمام المخالفة، وعلى خلاف ما توهمناه جميعنا نحن وآباؤنا من قبلنا وجميع المسلمين، واتخذناه هو ديننا واعتقادنا والحجة فيما بيننا وبين ربنا؟؟ أم الإيمان بصحة اختياراتك أنت في نظريتك الكوزمولوجية والبيولوجية وتخرصاتك الغيبية، التي تظل معرضة – رضيت أم أبيت – لأن تعصف بها كلها غدا رياح المنطق الطبيعي نفسه الذي استعملته أنت من قبل في بنائها، كما عصفت بغيرها من نظريات القوم، فلا تترك منها شيئا إلا جعلته كالرميم؟؟

عن أي إيمان يتكلم هذا الرجل، ومن أين يأتي ذاك اليقين والإيمان المتين؟؟

ما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل! [69]

ثم ينتقل الدكتور تحت عنوان "وقفات مع منهج البحث" لتأصيل منهجه الجهمي في التأويل، فيقول: "والآن إلى بعض المفاهيم التي ينبغي الأخذ بها عند التصدي لتفسر آيات الخلق في القرآن الكريم، حتى لا نظل أسرى لمفاهيم ربما كانت مقبولة منذ أكثر من ألف سنة، ولكن صار لا مفر من التحرر منها، حتى تتمشى التفسيرات مع ما توصل إليه العلم من حقائق في

القرن الواحد والعشرين" اهـ. ثم يبدأ من جديد في تقرير بدعة الجهمية المعاصرين في تأويل آية العنكبوت، وفي جعلهم إياها نصا تشريعيا في التكليف بالبحث التجريبي في الكيفية التي خلق الله بها السماوات والأرض! فينقل تباكي خالد محمد خالد على سبق داروين المسلمين جميعا إلى العمل بهذه الآية (بزعمه) وكأن الله لم يخاطبهم بها!! إذ قال: "لم يقم أحد من علماء المسلمين بتنفيذ أمر الحق تبارك وتعالى: ((قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق...)) (العنكبوت: 20)، غير أن دارون، دون أن يطلع على القرآن المجيد (على ما يبدو) قد قام بتنفيذ ذلك، إذ استقل السفينة "بيجل" وطاف بها حول العالم جامعا لعينات الأحياء من نبات وحيوان، ثم أخذ يبحث ويدقق ويتأمل كيف بدأ الخالق الكريم خلق تلك الأنواع... اهتدى دارون إلى نظريته الشهيرة التي أقامت الدنيا ولم تقعدها، والتي يقول فيها بأن الحياة بدأت بكائنات بسيطة من خلية واحدة ثم أخذت ترتقي وتتطور نوعا وراء نوع، بل نوعا من نوع إلى أن ظهر الإنسان، أرقى المخلوقات" اهـ.

قلت: فبهذا التمحل الفج، أصبح تشارلز داروين، نبي الدهرية التجريبية المعاصرة، هو أول من يعمل بهذه الآية الكريمة منذ أن نزلت قبل أربعة عشر قرنا! وللأسف لم يسقط عمله ذاك الإثم عن عموم الأمة لأنه لم يكن مسلما! أو لعله كان مسلما يخفي إسلامه، وكانت لحيته الكثة الضخمة تلك تسننا وعملا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإعفاء اللحية من حيث لا يشعر بذلك أحد! والله لا نعجب إن سمعنا هذا الرجل يوما يرفع أكف الضراعة إلى الله أن يرحم الإمام تشارلز ابن داروين رحمة واسعة، وأن يجزيه عن المسلمين خيرا، وأن يحشره في جملة مجددي الدين، الذين اهتدوا – أخيرا – إلى ما ضلت عنه أفهام سائر قرون المسلمين!

صدق الذي قال: شر البلية ما يضحك! أنا أكتب هذا الكلام سخرية واستهزاء بكلام حق لمثله أن يتخذ هزوا وفاكهة للمجالس! ومع ذلك، فما قولك أيها القارئ الكريم، إن جئتك بكلام لرجل من هؤلاء، يصرح بالترحم على داروين صراحة ويرجو له الجنة؟؟ قال المجرم المدعو عدنان إبراهيم في سلسلة طويلة من ثلاثين درسا كاملة ألقاها في بيت من بيوت الله (طهر الله بيوته من هؤلاء!) يشرح فيها نظرية التطور:

> أنا حين قرأت لداروين، وأنا أعرفه بفضل الله من أيام إعدادية، أنا أصلا (غير واضح) من إعدادية ولخصت الكتاب، حين قرأت لداروين، وقرأت عن داروين، وعرفت هذه الشخصية، أنا دايما أطلب له الرحمة! وأرجو أن يكون من أهل الجنة بإذن الله تعالى! على أنه لم ينته كما بدأ مؤمنا، داروين، ولم ينته ملحدا! لم يمت

ملحدا، أبدا، ولم يرد عليه هذا، في الأوتوبايوغرافي تبعه، واضح، هو انتهى إلى اللاأدرية! وأصبح أغنوستيك! لا يعرف! هل فيه إله والا ما فيش إله، يقول لك أنا مش قادر أعرف، بس! ما قالش أنا ملحد، ما فيش إله، ما قالش أبدا، هو لاأدري! كلمة الفصل في داروين أنه لاأدري، حقيقة، هذا صحيح، وسنعود إلى هذا بتحقيق، لكن في الجزء الثاني، في آخر الجزء الثاني، المسائل الفلسفية والدينية اللاهوتية! فالرجل لا أدري! أنا أقول لكم، حتى هذا اللاأدري، إن كان الله تبارك وتعالى، وهذا تقريبا ما نرجحه ولا نرجم بالغيب لأن الرجل كما قلت لكم رجل مصداقية، رجل صافي، رجل بسيط، صريح، مستقيم، شيء عجيب، مش متلاعب الرجل هذا! شخصية معجبة! هذا الرجل، لو صح لديه بطريقة تقنعه، تقنعه أن الله موجود، وخالق ومصمم، لصدع بهذا! ولتنازل مباشرة عن نظريته! لكن كل ما صح لديه، جعله يقف إيه؟ حائرا يقول لا أدري! أنا أقول لك: مثل هذا عند الله لا خوف عليه إن شاء الله تبارك وتعالى! حاشا لله، أن يعذب أحدا ويقذفه في جهنم، وهو يعلم أنه بذل وسعه ولم يهتد إلا إلى هذه النتيجة، حاشا لله! الله أرحم من هذا! أعظم من هذا بكثير، تبارك وتعالى! وله حكمة في كل شيء! الله له حكمة في أنه خلق داروين، وهداه إلى هذه الأفكار، وصيره إلى هذا المصير، له حكمة في كل شيء!

قلت: هذا الكلام، أنقله وأنا والله لا أدري أأضحك أم أبكي من ذلك السفه الذي وصل إليه هؤلاء الأذناب المخانيث أتباع الطبيعيين في زماننا! لولا أني أعرف حال هذا الرجل، وأعلم مبلغ ما هو عليه من الزندقة والضلال، لما صدقت أذني والله، ولا حول ولا قوة إلا بالله! وللرجل أيضا كلام في الترحم على ستيفن هوكينغ على نفس هذه الوتيرة! فمن أين يأتي هذا الإرجاء الفاحش الذي يبلغ بأحدهم أن يترحم على إمام دهرية هذا الزمان، الذي ما عرف بين الناس إلا بنظريته التي أراد بها أن يجعل العشواء في محل الخلق والإبداع الإلهي؟؟ يأتي، أيها القارئ الكريم، من الإغراق في فلسفات ونظريات الدهرية والتشبع بنظريتهم المعرفية وطريقتهم في البحث والنظر في أمر الغيب وما فيه! فأنت إذا سلمت للفيلسوف الدهري ابتداءً بصحة دعواه أن العلم بتلك الغيبيات المحضة يطلب من الطريق التي اعتمدها هو مصدرا لتلقي المعرفة بما هنالك، وبصحة دعواه خلو النفس من معرفة فطرية أولية بوجود الباري جل شأنه، لا تعوز الإنسان إلى نظر أو استدلال حتى يشهد بها على نفسه، إن سلمت له بهاتين المقدمتين، لا سيما الثانية، لزمك لزوما مؤكدا أن تعذره إن قال لك إنه اجتهد وبحث وأطال النفس في البحث والنظر والقياس من طريقه (التي صححتها أنت له) في أصل العالم

وما وراءه وما حوله، فلم يتمكن من التوصل إلى "دليل" يثبت به وجود الصانع، أو أنه "اقتنع" أخيرا بوجوده، لكنه أخذ في مقارنة الأديان بعضها ببعض فطال به البحث ولم يزل يبحث!

وقد بلغ الجاحظية (أتباع الجاحظ) من المعتزلة القدماء أن أدركوا هذا اللزوم وصرحوا بالتزامه! يدخل أحدهم في مخاصمة مع الفيلسوف الدهري وهو يزعم أنه إن ظهر له صحة برهان ذلك الفيلسوف فسيزول عن إسلامه لا محالة، ويتحول إلى الدهرية المحضة، يجوّز ورود المعارض على أصل اعتقاده وفطرته! فإذا كان يوافقه على أنه لا أساس في الفطرة للجزم بوجود الصانع كما يزعم (ولو خالفه في ذلك لما استجاز أن يناظره ويخاصمه على طريقة النظار هذه، فانتبه!)، ثم طالت المناظرة والمناقشة وإيراد الاعتراضات والحجج والحجج المقابلة من كل صنف ولون حتى انصرف المتناظران بعد طول جدال من غير أن يتوصلا إلى اتفاق، فبأي سلطان يُنتهى من ذلك إلى نسبة ذلك الدهري المتمسك بموقفه و"اجتهاده" إلى المكابرة وجحد الضروريات؟ إذا كنت قد بدأت بالتسليم له بجهله المزعوم بأعظم البدهيات والضرورات على الإطلاق، تريد أن تبرهن عليها بين يديه بما هي أوضح منه وأظهر لدى كل عاقل سوي النفس، فعلى أي أساس تريد أن تتهمه بالمكابرة إن لم تعجبه تلك البراهين؟؟ بل لزمك أن تقول إنه مجتهد مخطئ، خفي عليه وجه ما عند خصمه من نظريات وبراهين جارية على منهج الدهرية في إثباتها، فلم تقم في نفسه حجة ولا سبب صحيح يدعوه للتسليم بوجود من برأه وسواه وصوره!

وإذن فإن هلك هذا المجادل المخاصم على تلك النحلة، جاز الترحم عليه (على هذا المذهب المعرفي الفلسفي الخبيث)، لأن الظن به – إذن – أنه مسكين كان طالبا للحق، باحثا عن الحقيقة، لكنه لم يصبها ولم يوفق في الوصول إليها بعد طول بحث وجهد ونظر، كما زعم هو لنفسه! ولزم إذن اعتقاد كون المسألة نفسها (مسألة وجود الباري) أصعب وأخفى من أن يؤسس هو عليها ذلك الإيمان الجازم المنصرم الذي جاءت الرسل بخطاب يستصحب أساسه الفطري البدهي في نفوس المخاطبين ابتداءً، ويحاججهم به وبمقتضاه! وهو ما يقتضي تجهيلهم الرسل وجميع أتباعهم ممن لم يكن لهم قط اشتغال بتلك الأمور، والتوهين من الأساس الذي بنوا عليه إيمانهم، إن لم يرموا جميعا عن قوس واحدة بالسفاهة وخفة العقل! إذ تصبح المسألة ظنية نظرية صعبة المراس عسيرة المسلك، وعرة السبيل، لا يوصل فيها إلى ترجيح سالم من المعارض، ولا يصح تغليق باب النظر فيها، بل تظل خاضعة للشك المنهجي أبد الدهر، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فإذا كان قاعدة الجدال والمناظرة هي الاتفاق على خلو النفس من العلم الفطري ووجوب الاستدلال من أجل إثبات الصانع إثباتا نظريا كما هو المسلك في أي مسألة نظرية تحتمل الثبوت والانتفاء، ويرد عليها احتمال المعارض، وجب أن يكون الموقف بين المتنازعين فيها هو موقف الناظر من خصمه المناظر المكافئ له في نوع الأدلة النظرية التي يؤسس عليها مذهبه! من هنا أصبح المتكلم ملزما – وإن لم يلتزمه – بأن يعامل جميع خصومه معاملة النظار الفضلاء الصادقين في طلب الحق، المستحقين للإعذار والإنظار ما امتدت بهم أعمارهم، ومهما أصروا على سفسطتهم وعلى التنكر لمقتضى فطرتهم وبداهة عقولهم، وعلى الإغراق في زخارف القول تزيينا لما هم عليه، بل ولم يصح له أن يمنعهم من نشر فلسفاتهم بين المسلمين ولا أن يحذرهم منها، تحت شعار مراجعة الأسس العقلية التي يقوم عليها الدين، فضلا عن أن يقيم عليهم حدود رب العالمين في المرتدين المارقين الجاحدين إذا هم تشبعوا بها!

ذلك أنه إن صح أن كان الأمر نظريا عسير المراس على هذا النحو، والمعرفة المطلوبة (إثبات الصانع) لا تحصل إلا بحسم الأمر فيه - وما كان لينحسم! - أصبح تعريض عامة المسلمين لتلك السجالات والمخاصمات الطويلة المتشعبة واجبا متعينا، بل "أول واجبات المكلفين"! ومن هنا أعذر الجاحظ الفلاسفة، وزعم أنهم يعذرون في الآخرة، وصحح عمرو شريف إيمان أنتوني فلو، وأثنى عليه أحسن الثناء وأبلغه كما مر معك، وها أنت ترى هذا الزنديق يترحم على تشارلز داروين نفسه، يرجو له المعذرة بين يدي ربه يوم القيامة، وإلى الله المشتكى! هؤلاء تربوا في أروقة الفلاسفة وعلى حجور المتكلمين واللاهوتيين، وتشربوا بطريقتهم ومصادر التلقي المعرفي لديهم، فما كان من عجب أن يصبح الإيمان عندهم هو مجرد التصديق بوجود الباري، ويصبح ذلك التصديق نفسه مسألة نظرية تتجاذبها من الأدلة والاعتراضات ما لو أفنى أحدهم عمره وعمرا مع عمره في البحث والدراسة ما استوعبها كلها فضلا عن أن يوفيها الرد عليها، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

لهذا كان موقف السلف رضوان الله عليهم من الفلاسفة والمتكلمين موقفا حازما صارما لا تهاون فيه! فإن التهاون يفضي إلى المجالسة والمخالطة، والمخالطة تفضي إلى الميل والموالفة وهوى الموافقة، وهو ما يفضي إلى التشبع بمفهوم كل من العقل والعلم والدليل والمعرفة في أبواب الغيب لديهم، وهو ما ينتهي بصاحبه إلى تكافؤ الأدلة وإلى إعذار المخالف الدهري في دهريته وإلى ما هو أخبث من ذلك ولو بعد حين!

فقول هذا السفيه: "أنا أقول لك: مثل هذا عند الله لا خوف عليه إن شاء الله تبارك وتعالى! حاشا لله، أن يعذب أحدا ويقذفه في جهنم، وهو يعلم أنه بذل وسعه ولم يهتد إلا إلى هذه النتيجة، حاشا لله! الله أرحم من هذا! أعظم من هذا بكثير، تبارك وتعالى!" هذا قول من لا يثبت المعرفة الفطرية البدهية الأولية عند الإنسان بوجود الباري جل شأنه، تلك المعرفة التي تحرك النفس السوية لأن تطلب الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بمجرد أن تسمع بأن ثمة من يزعم أنه رسول من رب العالمين، بعثه بالتوحيد وبألا يعبد الناس أحدا سواه! فالذي يثبت هذه المعرفة الفطرية كما هو واجب على كل عاقل، هذا خالف هؤلاء الفلاسفة جميعا في مبدأ النظر نفسه! والمتعين عليه إذن، أن ينفر من مجرد فكرة المصير إلى المنازعة في تلك القضية البدهية العظيمة، فضلا عن الانتهاء إلى التوقف فيها ودعوى عدم ظهور الدليل! وإلا فيا هذا السفيه حق لنا ههنا أن نسألك: إن كنت توافق داروين في زعمه خلو نفسه من دليل بدهي فطري يدلها على وجود صانعها وباريها ورازقها والقائم على جميع أمرها بالغيب، فما الذي يدعوك أنت نفسك للإيمان به سبحانه، إن كنت تعد نفسك من "المؤمنين"، وقد تشبعت بنظريته وذكرت في كلام لك أنك توافقه على تسع وتسعين بالمئة من أقواله فيها؟؟ هو زعم أن نظريته هي التي انتهت به إلى اللاأدرية (والحق أن دهريته وجحوده وتشبعه بالفلسفة الطبيعية هو الذي حمله على وضع النظرية من الأساس!!)، فإذا كنت تقبل منه تسعا وتسعين بالمئة من دعاواه فيها، فإما أن تزعم أن سبب قوله هو باللاأدرية هو ذلك الواحد بالمئة الذي خالفته فيه، وإذن فإن سلمنا تنزلا بأن النفس البشرية تخلو من العلم الفطري البدهي بوجود الباري، وأن الأمر كله في ذلك نظر في نظر وقياس في قياس، فكيف لا يكون الرجل صاحب هوًى عظيم وميل قلبي فاحش وقد آثر الانخلاع من ملة يثبَت فيها الصانع (كما كان يثبته تسع وتسعون بالمئة من سكان الأرض في زمانه!) والمصير إلى التشكيك في وجوده، على أثر جزء واحد فقط من مئة جزء من نظرية هو من وضع فروضها تحكما في قضية غيبية مطلقة التغييب؟!

وإما أن تكون قد خالفته في اعتقاده أن ما قبلته أنت من نظريته يفضي إلى الدهرية، أو على الأقل إلى التشكيك في وجود الباري! وإذن، وفي غياب المعرفة الفطرية المنصرمة بوجود الرب كما هو مقتضى طريقتك، فما الذي يمنع – في دينك أنت - من ورود احتمال أن تكون أنت المخطئ وهو المصيب؟؟ من أين لك أنت بهذا الجزم "الإيماني" القاطع بصحة دينك واعتقادك فيما توقف هو فيه (وهو عندك الصادق المتجرد من الهوى)؟؟ إذا كانت المسألة نظرية محضة كما تزعمه أنت ومن شاكلك، وكان الخلاف فيها قويا إلى الحد الذي حمل رجلا تعده أنت صادقا في طلب الحقيقة،

متجردا للدليل حيثما أخذه، على التوقف فيها والموت على اللاأدرية، فمن أين يأتي يقينك أنت في نفس الأمر؟ ألا يكون المذهب الأكثر احتراما للخلاف ولأدلة المخالف، هو القول – على الأقل – بعدم الجزم بوجود الباري، وبأن الأمر لا يربو عندك على أن يكون ظنا تراه الآن راجحا، ولعله أن يصبح غدا مرجوحا، أو على الأقل متكافئا كما مات عليه داروين؟؟ أنت ملزم باعتناق الشك الترجيحي Probabilistic Skepticism في قضية وجود الباري جل شأنه، وبتجويز المعارض على ما جعلته هو اعتقادك الجازم في هذا، وإلا تناقضت في أصل منهجك وفي مصادر تلقي المعرفة لديك، فتأمل هذا واصطبر على تأمله يا من فتنت بزخرفات وشقشقات هذا البقباق المتقافز على أقفية الطبيعيين، الجاهل المتعالم في أصول الدين!

واعلم أنه لا يجوز للمسلم أن يعتقد في رجل اختار التوقف في إثبات وجود ربه وصانعه من بعد أن كان في الأصل كتابيا، أن الله قد يعذره يوم القيامة، بعد قيام الحجة الرسالية عليه (إذ لا أرتاب في دخوله تحت قوله عليه السلام "ما سمع بي" الحديث)، وهذا يقال في العامة من أولئك اللاأدرية والربوبيين ومن شاكلهم، فكيف برجل هو إمامهم المعظم عندهم، الذي جاءهم – لأول مرة في التاريخ – بتفصيل ميثولوجي دقيق للكيفية التي نشأت بها جميع تلك المخلوقات البارعة المذهلة في حسن صناعتها، نشأة دهرية محضة بزعمه، من غير أن يكون لها بارئ ولا صانع ولا غاية ولا شيء من ذلك على الإطلاق؟؟ لو أعذرنا مثل هذا باشتباه الأمر عليه، فأي قيمة تبقى لرسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وأي نفع يخرج به الناس منها لو كنتم تعقلون؟! أليس الله الذي تزعم أنه يعذر ذلك المجرم يوم القيامة بالاشتباه وتقارب الأدلة عنده، هو الذي قال جل شأنه في محكم كتابه: ((أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ . قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)) [إبراهيم : 9-10]؟! أفبعد هذا النقض الصريح المستفيض في كتاب الله تعالى على دعوى الشك، يتصور للمتشكك عذر إن هلك عليه؟؟ أليس هو نفسه الذي قال سبحانه: ((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ)) [الطور : 25-36]؟! أليس هو الذي قال تبارك وتعالى: ((إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) [هود : 56]؟! أليس هو الذي قال سبحانه:

((وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)) [هود : 6]؟!

أليس هو الذي قال: ((قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)) [هود : 62] فهل فرق في إهلاك تلك الأمم بين الذي تشكك في وجود الله والذي جزم بعدمه؟؟ أليس هو الذي قال: ((وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً)) [النساء : 157]؟؟ فهل أعذر النصارى بتشككهم واختلافهم في الأمر وتقاربه وتكافؤه لديهم؟؟ أبدا! لماذا؟؟ لأن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو البينة وهو القول الفصل المطابق لما في الفطرة، الذي لا يشكك فيه إلا جاحد!

وإلا فأي حجة تقوم على المخاطبين بهذه النصوص ونحوها لو جاز في العقل ألا يكون للعالم خالق مدبر، أو ألا يكون ذلك الخالق على أكمل الصفات وأحسن الأسماء، فلا يخرج شيء من الدواب عن عنايته وخلقه (أصلا وتفريعا) وتدبيره والأخذ بناصيته؟؟ وكيف يظن بصاحب هذا الاعتقاد أن الله يعذره يوم القيامة؟؟ هذا والله من أعظم الطعن على رب العالمين والحط عليه لو كنتم تعقلون! ليس هذا من مقتضى الرحمة، فإن الرحمة التي تفضي بخالق السماوات والأرض، الغني عنهما وعما فيهما، إلى إعذار من جعل دينه تعطيله سبحانه عن سائر صفاته وجحد جميع آياته إلا القليل، ونفي خالقيته وعنايته وغائيته في خلق أنواع الدواب، وتنزيل صفة خلق الأنواع الحية كلها على الطبيعة نفسها من دونه جل شأنه، هذه الرحمة تكون في حقه نقصا وخللا وعوارا عظيما، والله منزه عنها بضرورة العقل والبداهة والفطرة السوية! ومن لم ير ذلك فليس من الإسلام في شيء ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

هذا الانمياع في الدين والكفر المبين، أيها القارئ المحترم، هو ما يترتب على مجرد فتح تلك القضية الغيبية المطلقة للنظر والرأي والبحث العقلي والقياسي، هذه هي ثمرة الهجوم عليها بعد التشبع بمسلمات الدين الطبيعي وكلياته في أمر الغيب وما فيه، فتأمل!

لقد بنى داروين نظريته على استصحاب مبادئ الطبيعية الدهرية في طرد الأسباب الطبيعية في جهة الماضي (مهما كان مغرقا في الغيب) بلا قيد ولا حد، إلا إن نشأ ذلك عن فرضيته النظرية وقياسه التفسيري نفسه! فلو كان هذا يقيم لفكرة وجود الباري جل شأنه وزنا في أصل منهجه التنظيري،

أفكان يجترئ على اختراق ذلك الغيب المحض (أصل جميع الأنواع الحية على الأرض، والحوادث التي بها خلقت كلها) بأنواع القياس الطبيعي؟؟ لو كان في نفسه ما يكون في نفوس البشر الأسوياء العقلاء من تعظيم لجناب رب العالمين، أفكان يصر على الانتهاء بنظريته إلى تحويل خلق الأنواع كلها إلى عملية طبيعية عشوائية محضة، تتسلسل فيها الأسباب الطبيعية وصولا إلى نوع أول هو أحط الأنواع كافة؟؟ لو كان عند هذا الرجل، لعنه الله، صدق أو نزاهة علمية أو أمانة كما تدعي يا جهول، لشهد على نفسه بما جبل الله عليه العقلاء الأسوياء من الإقرار لباريه بالربوبية والقيومية، وبأنه سبحانه هو الخلاق العليم، الذي لا يوصل إلى معرفة الكيفية التي خلق بها الأنواع الحية كلها ونظامها الحيوي الذي يحكمها، إلا بالسمع وحده، لا بقياس حوادث الخلق على أنواع الحوادث الخاضعة لذلك النظام المخلوق نفسه! المغالطة العقلية في ذلك جلية ظاهرة، وهي السبب (أي ذلك القياس الدائري) في تلبس جميع أدلة النظرية (مهما كثرت وتنوعت) بمغالطة Affirming the Consequent وبالتكافؤ التام كما بينا!

فهل تحسب أنه كان يخفى عليه ذلك؟ أبدا! ولكنه الكبر والهوى! وقد بينا باستفاضة في باب سابق كيف أن الرجل تشبع بدهرية معاصريه ومن سبقهم من فلاسفة الطبيعيين الكبار، وكتب باستفاضة في الدفاع عن تلك الكليات الفلسفية التي أسس عليها نظريته، على طريقة صنويه الجيولوجيين الاسكتلنديين جيمس هاتون Hutton (هلك في القرن الثامن عشر الميلادي) وتشارلز لِيِل Lyell (الهالك في القرن التاسع عشر) في تطبيقهما مبدأ الاستمرارية المطلقة غير المقيدة لجميع العمليات الجيولوجية الجارية على الأرض حاليا، واعتقادهما تسلسل الأسباب الطبيعية المحضة في تصور حوادث هي عند العقلاء كافة من غيب الماضي المطلق الذي لا نملك مستندا للحكم بمشابهته لشيء مما في عادتنا (كالحوادث التي جرت في بداية تاريخ الأرض بعد تمام خلق العالم مباشرة، أو كطوفان نوح مثلا)، أو نملك ما به نقضي بالضرورة والبداهة العقلية بعدم جواز مشابهته لشيء مما في عادتنا (كالحوادث التي خلق بها جرم الأرض نفسه)! فلولا أن تشبعت تلك القلوب الخبيثة المستكبرة الجاحدة بالدين الطبيعي ومسلماته الأولى، ومنهجه وطريقته في تحصيل المعارف بما في الغيب، غيب الزمان وغيب المكان، لما انتهت إلى أمثال تلك النظريات أصلا من الابتداء! لولا أن تشبعت بالهوى الحامل على مبارزة الأنبياء وأتباعهم فيما جاء به خبر الغيب عندهم، تحكما بأقيسة واهية لا قيام لها على أساس، ما انتهت إلى شيء من ذلك، ولوقفت في أمر الغيب كله على السمع وحده دون مجاوزة ولا مطاولة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فقول هذا المجرم الخبيث: "مثل هذا عند الله لا خوف عليه إن شاء الله تبارك وتعالى! حاشا لله، أن يعذب أحدا ويقذفه في جهنم، وهو يعلم أنه بذل وسعه ولم يهتد إلا إلى هذه النتيجة، حاشا لله"، هذا الكلام لا يعد عند من له أدنى علم بدين رب العالمين، وأدنى إلمام بدين القرد داروين، إلا زندقة وكفرا مستقلا ولا حول ولا قوة إلا بالله! وما نقول لقائله إلا: "نسأل الله أن يحشرك مع تشارلز داروين يوم القيامة، ما دمت تراه لا خوف عليه!" ولا يملك هو إلا أن يؤمن على الدعاء! فاللهم احشر عدنان ابراهيم مع تشارلز داروين يوم القيامة، واجمعه بمن تابع داروين من أشباه القردة الذين ينتسب إليهم، وعاملهم جميعا بعدلك يا رب العالمين!

والله ما نجرؤ على أن نشهد لمسلم مات على الإسلام بل لإمام من أئمة المسلمين وقد سمعناه بآذاننا ينطق بكلمة التوحيد عند الغرغرة، ما نملك أن نشهد له بمثل ما شهدت أنت به لهذا الطاغوت الدهري، ولا حول ولا قوة إلا بالله! أليس قد قال تعالى: ((أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)) [يونس : 62]؟؟ ومع ذلك فغايتنا أن نقول إن فلانا ترجى له الرحمة، ترجى! لا أن نقول: "لا خوف عليه إن شاء الله"، أو نقول "حاشا لله أن يعذب مثله"!! أي جرأة على الله أفحش من هذا؟! هذا لا يرجى لمثله إلا أن يكون ممن تدعى أمم الدهرية الطبيعيين المعاصرين كلها يوم القيامة من زمانه وإلى أن يشاء الله، في عقبه وتحت لوائه، كما قال الله تعالى: ((يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)) [الإسراء : 71]، وهذا يقول لا خوف عليه! سبحان الله العظيم! صدق الذي قال في أمثالكم ومن نحلوا نحلتكم: ((الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)) [غافر : 35]!

لا يبالي هؤلاء النوكى بالوقوف على حقيقة ما أراد الله بكلامه، وإنما يريدون تلبيسه بما يوافق نظريات الفلاسفة الأكاديميين الكبار كيفما كانت! تأمل قول خالد محمد خالد المنقول آنفا: "لم يقم أحد من علماء المسلمين بتنفيذ أمر الحق تبارك وتعالى: ((قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق...))" قلت: إذن يصبح من يخالف سبيل المؤمنين فيما كانوا عليه عبر قرونهم الطويلة في هذه المسألة، محمودا لا مذموما، بل تلحق المذمة في هذا الباب بسبيل المؤمنين نفسه، وهذا نقيض قوله جل شأنه: ((وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً)) [النساء : 115]، فتأمل!

ولا يقولن قائل متكئ على أريكته: "إن لكل زمان اجتهاده، والفتوى تتغير باختلاف الأحوال"، فإنما يتغير من الشرع المؤول بتغير الأحوال ما كان

مداره في إثبات الأحكام على علل وأسباب معينة، بحيث إذا تخلفت العلل تخلفت معها الأحكام! أما القضايا الخبرية الغيبية، فكلام الله وكلام رسوله فيها إما أن يكون محكما لا تشابه فيه، وإذن فالفهم فيه هو ذلك الفهم الواحد المأثور عن الصحب الأولين والتابعين الميامين، ويبقى هو الحق مهما طالت القرون وتباعدت الأمم وتغيرت أحوال الناس، وإما أن يكون النص فيها متشابها محتملا، وإذن فالفهم الصحيح هو بالإجماع أحد قولين أو أكثر قد جرى عليها خلاف الأولين وانحصر فيها! فإذا كان قوله تعالى ((كانتا رتقا ففتقناهما)) مثلا قد انحصر خلاف السلف والأئمة في تفسيره في ثلاثة أو أربعة أقوال، فليس في حوادث التاريخ ولا نوازل الزمان ولا أحوال الأمم ما يجيز للمفسرين أن يزيدوا على تلك الأقوال قولا إضافيا من أكياسهم ليس داخلا تحت واحد منها، على طريقة "جئت بما لم تستطعه الأوائل"! ذلك أن الإجماع قد سبق أن انعقد على امتناع أن تكون هي القول الحق، بدليل خلو المأثور منها أو مما يقتضيها أو يفيد بمعناها! ولو قدر أن كان الحق في قول يخالف تلك الأقوال المأثورة جميعا حتى هلك المؤمنون من جميع القرون السابقة دون أن يقفوا عليه، للزم انتقاض آية النساء في حجية سبيل المؤمنين، لدخول من جاء – أخيرا – بالقول الحق تحت الوعيد المذكور فيها!

هذا المعنى قلناه وكررناه ولم نزل نكرره وسنظل نكرره بإذن الله تعالى بلا كلل ولا ملل ما حيينا، لأنه لا صيانة للقرآن من زيغ الزائغين وعبث المفسدين وانتحال المبطلين في هذا الزمان إلا بالحزم والتشديد فيه، كما لا أحسب أن غيورا على هذا الدين يخالفني فيه، والله الموفق لمراضيه! والله لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وإن كره الجهمية والعقلانيون! ولا يصح لآخر هذه الأمة فهم لكلام الله وكلام رسوله إلا بالدخول تحت فهم أولها، وإن رغمت أنوف المحرفين والمبدلين! هذه هي معركة هذا الكتاب، وهي الفارقة بين أهل السنة وأهل الأهواء، والحمد لله أولا وآخرا!

ثم قال عمرو شريف: "ويكرر الحق عز وجل هذا الأمر مرة أخرى في سورة الغاشية ((أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت)) إنه أمر متكرر أربع مرات، وليس بالنظر في المخلوقات وحسب، ولكن بالبحث في "كيفية" الخلق." اهـ. قلت: هذه عجمة فاضحة وجهالة بلسان العرب لو كنا اليوم تحت إمامة عمر رضي الله عنه لما تركها حتى جعل من صاحبها عبرة لمن يعتبر! فهو يصر على حمل كلمة "كيف" في هذه الآيات على أن المراد تفصيل الطريقة وحكاية الخطوات وترتيب الأسباب، وإن كان الأمر غيبا محضا لا نظير له في شيء من حوادث العالم أصلا حتى يقاس عليه!

المقصود هنا يا دكتور كما يفهمه المسلمون: "أفلا يتأملون في الإبل على أي صفة جعلنا صورتها، وفي السماء كيف أننا جعلناها فوقهم سقفا مرفوعا، وفي الجبال على أي هيئة نصبناها، وفي الأرض على أي حال منبسطة جعلناها"!

وإلا فقد قال تعالى: ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) [البقرة : 260] فلو صح ذلك التأويل الأعجمي السخيف للفظة "كيف" ها هنا، للزم ألا يكون الله قد أجابه لما سأل، وما طمأن قلبه! لو كان المقصود هنا "كيفية إحياء الموتى"، أي أسباب ذلك وترتيبها الغيبي، فالله ما أراه إذن كيف يحيي الموتى! وإنما أراه كيف أنه جمع أجزاء أربعة من الطير كان قد أمره بتقطيعها ونشرها في الأرض نشرا، فأرجعها كما كانت سبحانه وما أعياه ذلك وما أعجزه! فهل علم إبراهيم بذلك، ما الأسباب المباشرة أو حتى غير المباشرة التي بها يصبح الجثمان الميت المفتت، جسدا حيا كأنه ما مات وما فتت؟؟ أبدا! بل هل جعله يرى بعينيه أجزاء الطير وهي تطير من مواضعها التي جعلت فيها، ثم وهي تركب في بعضها البعض حتى ترجع صورة كل طير على ما كانت عليه قبل، ثم يرى جثة كل طير من تلك الأربعة وهي تنهض من مواتها وكأنها لم تمت؟؟ أبدا! وإنما أمره سبحانه بأن يدعو تلك الطيور الأربعة ليراها وهي تأتيه سعيا وكأنها لم تمت، وهو ما حصل به المقصود والمطلوب على وجه التمام! فانظر كيف تفضي تنطعات الجهمية وسخافات الفلاسفة إلى إبطال القرآن، والله المستعان!

ثم قال الدكتور ناقلا عن أستاذ من أساتذة الأزهر:

"ثانيا هل تتحكم المفاهيم العلمية السائدة في عصر المفسر في فهمه للآيات الكريمة؟ سؤال مهم ينبغي أن نتأمله ونجيب عنه. ويجيب د. عبد المعطي محمد بيومي (عميد كلية أصول الدين الأسبق بجامعة الأزهر) عن هذا السؤال بقوله: "ومنذ نزل القرآن الكريم كان كل عصر يرى فيه رؤية جديدة تعينه على فهم الآيات بما يحصله من ثقافة استقاها من آفاق العلم والمعرفة السائدة. وكل إنسان يقرأ القرآن فيفهم منه بقدر ما وهبه الله من قدرة على الفهم وبما أسبغه عليه من علوم وثقافة وبما اتسع به أفقه من دراية بالحياة وشئوونها." قلت: هذه الضلالة المنهجية الكبرى، لا أجد لها اسما أليق بها من أن يقال لها "نظرية نسبية التفسير" أو "التفسير كيفما اتفق"! كل إنسان يفهم كيفما اتفق له أن يفهم، فمهما انتهى إليه من فهم جديد لم يسبق إليه، وكان يلائم الثقافة السائدة والعلوم المنتشرة في

زمانه، فهو مراد الله من كلامه! وكأنما نتكلم عن كتاب لعب وهذر، لا يبالي مؤلفه على أي وجه يفهمه قارئه، وبأي شيء يخرج منه، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

يقول: "ولئن كنا ندرك أن ربط التفسير القرآني بالنظريات العلمية تحوطه المخاوف عند الكثيرين، مخافة أن تبطل النظرية فيهتز الإيمان بالنص المقدس، فإننا نرى أن الاجتهاد في فهم النص هو غير النص، فلئن تبين خطأ الاجتهاد فلا ضرر ولا ضرار، لأن النص باق على اعتباره والإيمان به، ولا يختلف التفسير العلمي في ذلك عما سواه من التفسيرات. ولطالما تعددت أقوال المفسرين بغير العلم عبر العصور، ثبت منها ما ثبت وبطل منها ما بطل، وبقي القرآن ثابتا، رغم تغير الآراء، فليكن التفسير العلمي إذا واحدا من هذه التفاسير، يجري عليه ما يجري على غيره من الخطأ والصواب." اهـ.

قلت: هذا تلبيس ما بعده تلبيس! المخاوف يا دكتور عبد المعطي ليست من اهتزاز الإيمان وحسب، ولكن من فقدان النص قيمته المعرفية بالكلية، وهو ما يفضي بدوره، كما بيناه في غير موضع، إلى زوال الدين بالكلية وليس "اهتزاز الإيمان بالنص المقدس"! وهي مخاوف من شيء واقع تحقيقا على مقتضى مذهبك هذا، وليس توهما أو تخيلا لأمر لا داعي للتخوف منه! كلامك يا دكتور، ينزل بالقرآن إلى مرتبة نصوص أهل الكتاب، كسفر التكوين عندهم، الذي اتفق أصحابه على أنه ليس إلا محض مجاز، وأن تلك البابة (بابة النشأة وخلق السماوات والأرض) إنما يؤخذ العلم والمعرفة فيها من نظريات الطبيعيين لا من ظواهر تلك النصوص، لأن ظاهرها إذا خالف، فلا يكون مرادا ولا يكون معلوما لدى أحد من الخلق حقيقة ذلك المراد البتة! فالذي يجعل المراد منه اليوم هو نظرية كذا التي اتفق لها أن سادت أكاديميا في هذا العصر، فلابد وأنه غدا منقلب فيه إلى نظرية أخرى، وهي السائدة في عصره، ثم يأتي بعده من يقلب ذاك وذاك ليضع في محله نظرية أهل زمانه، وهكذا ما بقيت السماوات والأرض!

ولا يخفى أن هذا التفريق بين "آيات الخلق" (أو الآيات الكونية كما سماها زغلول النجار) وغيرها من آيات القرآن في المسلك المعتمد في التوصل إلى معرفة مراد رب العالمين منها، تفرقة بين متساويات، وتحكم باطل لا أساس له إلا الهوى! ولا يفضي تجويزه إلا إلى إسقاط السلطة المعرفية لأصول التفسير وطرائقه المعتمدة عند أئمة الصنعة من يوم أن نزل القرآن وإلى يوم الناس هذا، إذ يقال: هذه الآيات بالذات، لا ترجحوا بين الأقوال في تفسيرها بنوع المرجحات التي استعملها الأولون، لأن الأقوال كلها من أولها إلى آخرها إنما هي جهد المفسر الجاهل بما يعرفه أهل هذا الزمان! وإنما

تحولوا عن ذلك كله إلى النظر في نظريات الطبيعيين المعاصرين ذات الصلة، قفوا حيثما أوقفوكم بها وانتهوا معهم إلى حيثما انتهوا! فما صار عندهم اليوم علما فيها، فهو التأويل وهو المراد، أيا ما كان، ولا عبرة في تلك البابة بغير ذلك!

فنحن نسأل كل عاقل يقرأ هذا الكلام: أي قيمة معرفية وأي فائدة تبقى لنص ديني لا ينتهي الناس في فهمه إلى معنى مستمد منه هو نفسه على التحقيق، أو من غيره من النصوص المنسوبة إلى نفس المصدر، وإنما يقال للناس: انظروا ماذا عند الطبيعيين، ثم خذوه أيا ما كان واعلموا أنما هو مراد صاحب النص منه ولا بد، ومهما عدلوا عنه إلى غيره غدا، فاعدلوا بالتفسير معهم ولا يضيركم، إذ العبرة بالاجتهاد لا بأصل النص؟؟ هذا كلام من لا يرفع رأسا بنصوص كتاب رب العالمين، الكتاب الخاتم الذي لا كتاب بعده، ولا يثبت للرب مرادا ثابتا من كلامه، يهتدي إليه جميع المخاطبين به من نفس الطريق، ويحصل لهم به من النفع ما هو مقصود من تنزيله على الناس! وإنما يجعله رسما مبتذلا لا معنى له إلا ما يُتزلف به إلى الطبيعيين والفلاسفة الكبار في كل عصر من العصور بحسبه، يجعله هو مراد الله منه، لعلهم يرضون! فالذي يزعم أن مثل هذا يكون "تفسيرا" فلا يدري ما التفسير، أو يدري ولكن له من الأغراض الخبيثة ما الله فاضحه لا محالة! التفسير هو المعنى الذي تتفق قرون المسلمين كلها من أولها إلى آخرها على استعمال نفس الطريق وسلوك نفس المسلك للوصول إلى معرفته، من غير أن يفتقروا من أجل ذلك إلى علوم لم يُعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وأتباعه وما سمعوا بها يوما من الدهر!

فمحاولة كاتب هذا الكلام حشر "التفسير العلمي" في جملة التفاسير المستساغة لكتاب الله تعالى، محاولة بدعية باهتة لا يجوز السكوت عليها، وهي جارية عند أصحابها، كما ترى، على منهج يجعلها أعظم خطرا من التفسير بالرأي الذي ذمه السلف، وإلى الله المشتكى، هو حسبنا ونعم الوكيل!

يعقب الدكتور عمرو على هذا الكلام فيقول: "يا الله، ما أوسع أفق هذا العالم الجليل، ولنستشهد على ما قال بمثال: إذا قرأنا قول الله عز وجل ((والأرض بعد ذلك دحاها)) (النازعات: 30) ونظرنا في قواميس اللغة (مختار الصحاح) لوجدنا "دحا" بمعنى بسط، ووجدنا أيضا الدحية بمعنى البيضة. لقد اختارت التفاسير التراثية المعنى الأول وفسرت الآية بأن الله عز وجل قد بسط الأرض، إذ كان هذا هو فهم العلم في ذلك الوقت. أما وقد أثبت العلم أن الأرض مستديرة، فقد فسر المعاصرون الآية بأن الله

عز وجل قد خلق الأرض على هيئة البيضة. وهكذا تغير تفسير الآية بتغير المفاهيم العلمية السائدة، دون أن يمس ذلك بقدسيتها." اهـ.

قلت: هذا الكلام لا علاقة له بعلوم التفسير ولا بعلوم القرآن ولا بعلوم اللغة ولا بشيء من علوم الملة على الإطلاق! فأما أولا، فقوله إن في معاجم اللغة الدحية تأتي بمعنى البيضة، هذا تدليس وكذب على المعاجم وأصحابها وعلى لغة العرب التي نزل بها القرآن! ولن تجد هذا الاستعمال الأعجمي الحادث في أي معجم من المعاجم المعتبرة منذ القرون الأولى من الهجرة ووصولا إلى يوم الناس هذا! وإنما وقع ذلك عند بعض من لا خلاق لهم ممن خاضوا في معاني القرآن بعجمتهم، جريا منهم على استعمال اللفظة "دحية" في بعض اللهجات المصرية الريفية المعاصرة، فقالوا دحاها أي بسطها مع جعلها كالبيضة! وهذا كما تقدم استعمال لم تعرفه العرب! ولا يزال المفسر مطالبا بإثبات أن عرب الجاهلية قد استعملوا تلك اللفظة في ذلك المعنى الذي زعمه، إن أراد أن يطرح دعوى جواز – مجرد جواز - أن يكون ذلك المعنى هو المراد من لفظة قد أنزلها الله على أولئك العرب ((بلسان عربي مبين))! والرجل دونه إلى ذلك خرط القتاد! فإذا كان اللفظ لم يعرف أبدا في لسان العرب المخاطبين بالقرآن بهذا المعنى الذي يزعمه له، كان ذلك دليلا كافيا على امتناع أن يكون المعنى الجديد الذي جاء به مرادا لله تعالى منه! إذ لا يصح في القرآن أن يكون نازلا على محمد صلى الله عليه وسلم ليخاطب به قومه بلسان عربي مبين، ومع ذلك يكون مراد الله بلفظة من ألفاظ الكتاب هو معنى لم تعرفه العرب في زمان التنزيل البتة، وما كان ليخطر لهم على بال! فكيف والحال أن الإجماع السلفي منعقد على فهم اللفظة على خلاف ما يريد؟؟

وأما ثانيا، فليست المعرفة الطبيعية السائدة في هذا العصر أو ذاك، مرجحا من جملة مرجحات علماء التفسير في ملتنا، وما كان سلفنا يفسرون القرآن بتلك النظريات يجعلونها مرجحا بين الوجوه التي تجيزها اللغة! فإذا كان الأولون قد فهموا من قوله "دحاها" أي سواها وبسطها لتناسب معاش البشر، فلا تأثير لعلمهم بكروية الأرض واستدارتها على فهمهم تلك اللفظة بعينها في تلك الآية بعينها، إن سلمنا تنزلا باحتمالها معنى الكرة أو البيضة كذلك! فالآية كما هو ظاهر من سياق النص لم تنزل في وصف هيئة جرم الأرض بكليته، إجابة لسؤال عند الفلكيين أو الجيولوجيين أو نحوهم، وإنما جاء الخطاب فيها خطاب امتنان على عموم البشر بما يجدونه تحت أقدامهم من استوائها وانبساطها، وما أخرجه الله منها من الماء والمرعى والمتاع! وإلا فما فائدة أن يأتي سبحانه في هذا السياق، يخاطب العرب خطاب امتنان بنعمه الظاهرة الجلية فيقول: والأرض بعد ذلك كورها فجعلها

كالبيضة؟؟ لا شك أن ذكر المنة على البشر ببسط الأرض وتسويتها لتناسب معاشهم، هو أظهر وأسبق إلى الدرك الحسي والعقلي، وأليق بالسباق واللحاق، وأعظم تحصيلا لمقصود التذكير والمحاجة من ذكر المنة عليهم بجعلها كالكرة!

وأما ثالثا، فمن ذا الذي قال إن العرب في الجاهلية لم تكن تعلم أن الأرض كروية مستديرة، ومن أين له هذا؟؟ هذه القضية كانت معلومة لدى الأمم من قديم! وبحسْب أحدهم أن يتأمل حال ركوبه البحر في الكيفية التي تبرز بها الأشياء من أفق البحر البعيد أمامه بصورة تدريجية مع الاقتراب منها، والعكس عند الابتعاد عنها، ليدرك ذلك الأمر بجلاء، إذ لا يكون ذلك إلا من استدارة الأفق! وكذلك من يرقى فوق جبل، ينكشف له مما وراء الأفق ما لا يظهر عند السفح، وهذا ونحوه لا يفتقر فيه إلى التأمل الرياضي والهندسي العميق حتى تعرف دلالته على انحناء الأرض! فالقول باستدارة جرم الأرض لا نعلم فيمن يعتد بقوله من المسلمين أنهم قالوا بخلافه يوما من الدهر، ولا يقال – تاريخيا - إنه حدث أو ظهر (هذا القول) عندنا في يوم من الأيام بعد أن كان الاعتقاد السائد هو خلافه! بل كان القول بتسطح جرم الأرض (أي بما يجعل لها حافة تنتهي عندها) قولا شاذا لا ينقله الناقلون إلا للرد عليه! وقد نقل الإجماع على كروية الأرض غير واحد من أئمة المسلمين، كما ذكرنا ذلك في غير موضع! ومع أن كروية الأرض لم تكن أمرا مجهولا، بل ظهر في بلاد المسلمين من يحسب قطر الأرض في القرن الثالث الهجري، إلا أنه لم يظهر ذلك القول الحادث البارد في تأويل هذه الآية إلا في هذا الزمان، والله المستعان! وما ذاك إلا لعظم ما ابتلينا به في هذا الزمان من الهوان والخذلان، ومن العجمة والجهالة بلسان القرآن وبطرائق أئمة ذلك الشأن، عليهم الرحمة والرضوان!

وأما رابعا، قوله "وهكذا تغير تفسير الآية بتغير المفاهيم العلمية السائدة، دون أن يمس ذلك بقدسيتها" قلت: خبرني بربك بأي عقل يغير التفسير ويحول تبعا للمفاهيم السائدة من عصر لعصر، حتى يصبح النص القرآني ألعوبة في أيدي الطبيعيين كلما غيروا نظرياتهم غيرنا نحن تفسيره عندنا تبعا، ثم يقال مع ذلك إن هذا لا يمس بقدسيته؟! أهذا كلام عقلاء؟ أي قدسية تبقى لنص كهذا بل أي قيمة أصلا؟؟ ما قيمة أن أخاطبك بكلام، فتأتي أنت لتقول إن مراد صاحب هذا الكلام هو أي شيء تنتهي إليه جهودي أنا في البحث والقياس والتنظير في نفس الأمر؟؟ لو قبلت منك هذا المسلك لحكمت إذن على كلامي بما يجعل وجوده كعدمه، من حيث إفادة العلم في نفس الأمر، وهذا واضح جدا! الناس ماضون في التنظير والافتراض والقياس استقلالا بعقولهم على أي حال، فأي شيء أفدتهم أنا به

إذن، إن قيل لهم إن أي شيء تنتهي إليه نظرياتهم في الباب فهو معنى كلامي؟؟ لا شيء إلا التسلق على أكتاف أصحاب تلك النظريات حتى يكتسب كلامي قيمة ليست له، بمجرد حقيقة أن اللفظ الذي تكلمت به "يسمح" بأن يفسر على نحو يناسب النظرية الجديدة كما ناسب النظريات القديمة من قبل!! فأي شيء نأخذ من قوله "دون أن يمس بقدسيتها" إلا أن يكون ذرا للرماد في العيون؟؟

والله لقد حق للملاحدة أن يسخروا من ذلك التمحل السخيف الذي هو ديدن أصحاب التفسير العلمي هؤلاء! لنفرض يا هؤلاء أن بقي تفسير الآية على أن المراد بسط الأرض وتسويتها كما كان هو فهم الأولين كافة، فكان ماذا؟؟ ألستم ترونها منبسطة مستوية تحت أقدامكم، مع كونها كروية؟! أين الخلل أو الغلط في ذلك، وما الذي يجعل ذلك المعنى من جملة الأوهام القديمة التي لم يعد يصح اتخاذها تفسيرا لكتاب الله؟؟ خزي وخذلان ما بعده خذلان، والله المستعان!

ثم في جزء ترجم له بقوله "ثالثا الخلق نوعان"، بدأ الدكتور بكلام فيه من الحط على قرون المفسرين والأئمة من أهل هذا الدين ما فيه، إذ قال (ص. 333):

> يمثل الفهم الشائع "لعلمية الخلق" حجابا كثيفا لدى المعارضين لقبول التطور كحقيقة علمية. فإذا بحثنا عن مفهوم "الخلق" في التفاسير التراثية (وردت مشتقاته في القرآن الكريم مائتي مرة) وجدناها تجمع على أن الله عز وجل قد خلق كل صنف على هيئته (الخلق الخاص). ليس هذا المفهوم شائعا عند المسلمين فقط، بل وعند شراح سفر التكوين من التوراة وشراح الأناجيل. ولهؤلاء المفسرين في ذلك كل العذر، إذ لم يكن معروفا حتى منتصف القرن التاسع عشر أن هناك أسلوبا آخر للخلق، وهو "الخلق التدريجي التطوري". لقد فهم المفسرون من اصطلاح "الخلق" معنى الخلق الخاص فقط، بالرغم من أن ملامح الخلق التدريجي التطوري واضحة جلية في القرآن ومن حولنا. فعندما نقول إن الله عز وجل قد خلق إنسانا، لم يلغ قولنا هذا ما مر به من أطوار جنينية (أثبتها القرآن) حتى صار كامل النمو. وعندما نقول إن الله قد خلق الأرض، لم يلغ هذا القول ثمانية مليار عام من التطور، انتقل فيها الكون من حال إلى حال حتى اكتمل تشكيل الكوكب الذي نحيا عليه، إنه ولا شك الخلق التدريجي التطوري الذي أثبته العلم فيما بعد.

قلت: بل الحجاب الكثيف على قلبك أنت يا دكتور، إذ غرقت برأسك في نظرية داروين الدهرية الخبيثة حتى أحاطت بك من كل جانب، نسأل الله السلامة! عندما ننظر في تراث سلف الأمة المتراكم عبر قرون المسلمين الطويلة في تفسير كتاب ربهم، الذي هم أعلم به ممن يأتي بعدهم، وجوبا وضرورة وبداهة، ونجدهم مطبقين مجمعين – كما اعترفت أنت به – على قول واحد في فهم مسألة خلق الأنواع الحية على الأرض، فلا نملك – ونحن المسلمين الموحدين - إلا التسليم بأن هذا هو مراد رب العالمين قطعا وضرورة! ذلك أنه لا يتصور برب العالمين الذي تكفل بحفظ الدين في قوله: ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) [الحجر : 9]، والذي توعد كل من شذ منا عن سبيل المؤمنين وعن تراثهم الديني المحفوظ بالعذاب يوم الدين، في قوله جل شأنه: ((وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً)) [النساء : 115]، هذا لا يتصور له أن يترك الأمة كلها لتجمع على ضلالة أو على غلط في فهم شيء من كلامه، قل أو كثر! ومن اعتقد جواز ذلك فقد كذّب القرآن نفسه، فانتبه إلى هذا فإنه أصل من أصول المسلمين عظيم! الإجماع حجة وهو المصدر الثالث من مصادر تلقي الدين عند المسلمين بعد الكتاب والسنة، رضي من رضي وكره من كره! ومن أسقطه فلن يبقى له من نصوص المسلمين إلا ما يشبه أن يكون طلاسم ورموزا ورسوما فارغة لا حجة فيها على أحد ولا معرفة تؤخذ منها إلا ما يحلو لكل سامع أن يزعم أنها تفيده به، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فتأمل عندما يأتي من يجزم ببطلان موضوع هذا الإجماع هكذا بكل سهولة، لا يراه شيئا، ثم يأخذ في التماس المعاذير لقرون المسلمين أن أجمعت على ضلالة، يلحقهم في الجهالة بقرون أهل الكتاب من قبلهم، وقل لي بربك، أهذا مسلك قوم يقيمون لدين رب العالمين وزنا، أو يرون فرقا (في إفادة العلم) بين كتاب المسلمين وبين كتب اليهود والنصارى؟؟ حسبنا الله ونعم الوكيل!

قوله "ولهؤلاء المفسرين في ذلك كل العذر، إذ لم يكن معروفا حتى منتصف القرن التاسع عشر أن هناك أسلوبا آخر للخلق، وهو "الخلق التدريجي التطوري"." قلت: كيف صار "أسلوب الخلق" معروفا أصلا، وكيف يوصل إلى معرفته من غير طريق الوحي؟؟ الخلق الأول للنوع الحي على غير مثال سابق، من أين تأتيكم المعرفة "بأسلوب" رب العالمين فيه؟؟ نحن إذا أردنا أن نعرف أسلوب صانع ما في صناعته، لم يحصل لنا ذلك حتى تستفيض الخبرة لدينا بالكيفية التي ينصع بها ما يصنع! فمتى أشهدكم رب العالمين خلقه الأنواع الجديدة وبثها في الأرض، حتى تنسبوا لأنفسكم المعرفة "بأسلوبه" في ذلك؟؟ والله حتى لو قدر لكم أن رأيتم بأعينكم نوعا جديدا بوظائف عضوية جديدة ينشأ بالطفرات من نوع آخر، لما جاز لكم عقلا

أن تزعموا أن جميع الأنواع الحية على الأرض لابد وأنها نشأت بنظير ذلك، وأنها كلها ترجع إلى أصل مشترك كما في نظرية التطور، وأن هذا هو "أسلوب الخلق"! هذا ليس بلازم منطقيا! هذا يحتاج إلى قفزة إيمانية كبيرة Leap of Faith في مسلمات الدين الطبيعي حتى يقال به! فكيف والحال أنكم ما شهدتم إلا تحولات محدودة في صفات معينة في إطار النوع الواحد؟؟ لا يزال الدراونة يكذبون الكذبة على أنفسهم وعلى الناس حتى يصدقوها أتم التصديق، فتصبح هي العلم والمعرفة، وما كان عند الأولين من خلافها هو الجهل والتخلف، ولا حول ولا قوة إلا بالله! تأمل المغالطة الفجة في الاستدلال على ما يريد من أمر غيبي محض، إذ يقول: "لقد فهم المفسرون من اصطلاح "الخلق" معنى الخلق الخاص فقط، بالرغم من أن ملامح الخلق التدريجي التطوري واضحة جلية في القرآن ومن حولنا. فعندما نقول إن الله عز وجل قد خلق إنسانا، لم يلغ قولنا هذا ما مر به من أطوار جنينية (أثبتها القرآن) حتى صار كامل النمو." قلت: أي خلق هذا الذي كان اصطلاحا فهم المفسرون منه كذا وليس كذا؟؟ اصطلاحا عند من وأين تعرضوا له؟؟ أنت من تريد أن توهم نفسك وأتباعك بأن الصحابة والسلف تقيدوا "باصطلاح" فلسفي معين في معنى لفظة خلق لما سمعوها في القرآن، واليوم قد تغير الحال في العلوم، وتبين أن مصطلحا آخر هو الصواب، فوجب المصير إليه! فما حقيقة الاصطلاح هنا؟ حقيقته أنه حد ميتافيزيقي فاسد على طريقة الفلاسفة: قرصنة على الحقيقة اللغوية والعقلية الملازمة عند الناس للفظة "خلق" في إطلاقها الكلي، لتختزل تلك الحقيقة في نوع معين مما قرروه بالقياس في النظرية! تسمع كلمة "خلق"، في إطار الكلام على النشأة الغيبية التي لم يشهدها أحد أصلا، فيصبح متعينا عليك أن تتوجه بذهنك إلى المعنى المخصوص الذي تقرره النظرية التي وضعوها هم في ذلك، وإلا كنت جاهلا أو سفيها لا تعقل! وغايتك، على أحسن أحوالك، أن يلتمس لك عذر بالجهل وبأنك لم تبلغك النظرية، أو لم تكن قد عُرفت في زمانك! فهؤلاء المفسرون معذورون، لأنهم كانوا إذا سمعوا كلمة "خلق"، في هذا السياق الغيبي المحض، في كتاب رب العالمين الذي خاطبهم بلسان العرب لا بمصطلحات الفلاسفة، لم يتصوروا إلا المعنى القديم الذي كان عليه الفلاسفة قديما! فتأمل كيف تفسد الفلسفة عقول الناس وألسنتهم، وتدخل على الحقائق الكلية لألفاظ القرآن ما لم يعرفه أهل اللسان الذي نزل به القرآن!

ما معنى "ملامح الخلق التدريجي التطوري" هذه؟؟ فليكن أن الأنواع الحية تتغير الآن تغيرات تدريجية محسوسة، سواء على سبيل التكيف أو غير ذلك، فبأي علم وبأي مقياس وعلى أي نظير في العادة يقاس حتى يقال إن أمثال هذه التغيرات لابد وأنها هي التي أنشأت جميع الأنواع الحية من أصل

مشترك؟؟ أين ومتى شهدتم أنواعا تنشأ على غير مثال سابق في أرض كهذه التي ولدتم فيها؟؟ هذا خرف وهذيان، مهما تراكم بين أيديكم من المشاهدات التي تأولتموها بما يوافق ذلك! فما علاقة أطوار خلق الجنين في بطن الأم بأسطورة التطور الدارويني في "سلف الإنسان"؟؟ شنشنة لا طائل تحتها!

مساكين هؤلاء المفسرون الذين فهموا "معنى الخلق الخاص" فقط، مع أن التطور الدارويني حولهم في كل مكان!! كيف لم يروا في أطوار الجنين في بطن الأم "ملمحا" من ملامح التطور في أصول الأنواع؟؟

العجيب أن الدكتور يحاول إقناع قرائه بأن سبب ذلك الغلط التاريخي العتيق (قولهم جميعا عبر القرون كافة وصولا إلى القرن الماضي، بأن الأنواع كلها خلقت في أزواج مستقلة) إنما هو تعلق هؤلاء جميعا بنظريات الطبيعيين الأولين، أو بما كان سائدا لديهم من علم طبيعي بأصول الأنواع، جعلوه مصدرا من مصادر العلم بمراد رب العالمين من كلامه! وهذا كذب أقرع له قرنان، ليس على أمة المسلمين وحدها ولكن على جميع أمم الملل الكتابية كافة! فمعلوم تاريخيا أنه لم يكن لدى أهل الملل في تلك القضية قبل داروين إلا ما توارثوه من دعاوى غيبية بشأن خلق العالم وخلق ما فيه من الأنواع الحية، كل منهم بحسب ما عنده! وهو ما لم يكن تراثا من نظريات الفلاسفة ولكن بقايا من تعاليم الأنبياء! وإنما تفذلك بعض المؤرخين في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين في محاولة إثبات أن فلاسفة اليونان كانت لديهم "نظريات" في نشأة الأنواع نشأة تطورية، يتأولون نظريات القوم الكلية في أصل بنية العالم وما يتعلق بها، وكأنما يلتمسون سلفا لداروين في تاريخ الفلسفة! فلا العرب قالت بما قالت به قبل داروين على أثر نظرية أخرى لفيلسوف مثله، ولا بناء على قياس أو نظر فلسفي ولا شيء من ذلك، ولا غيرهم قالوا بالخلق الخاص بناء على مثل ذلك! لم يكن لدى المسلمين معرفة تجريبية ولا تنظير فلسفي في "أساليب الخلق" حتى يكون قولهم "بالخلق المباشر" مأخوذا منه، وتأويلهم للقرآن مبنيا عليه! بل كانت البابة ولم تزل من أبواب الغيب المحض، التي ما قالوا فيها إلا بما جاء به القرآن والسنة، وبما كان عليه فهم الصحابة رضي الله عنهم لما في الكتاب والسنة! وقبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا في ذلك على ما ورثوه من ملة إبراهيم ودين إسماعيل عليهما السلام! أي أنه لم يظهر في تاريخ الأمة من يجترئ على اخترام تلك القضية الغيبية تامة التغييب بالنظر القياسي، ولا من يقول فيها بشيء مما خلا الوحيين وما توارثه الناس من فهمهما، قبل مخانيث داروين في القرنين الأخيرين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قوله: "وعندما نقول إن الله قد خلق الأرض، لم يلغ هذا القول ثمانية مليار عام من التطور، انتقل فيها الكون من حال إلى حال حتى اكتمل تشكيل الكوكب الذي نحيا عليه، إنه ولا شك الخلق التدريجي التطوري الذي أثبته العلم فيما بعد." قلت: بل يلغيها يا دكتور، لأن الله في دين المسلمين، وكما نجد خبره في القرآن والسنة وعليه إجماع المسلمين وهو مما علم من دينهم بالاضطرار، خلق الأرض في يومين من أيام الخلق الستة، ثم استوى على العرش بعد تمام خلق السماوات والأرض. أما ما جرى وما يجري وما سيجري بعد على طبقات الأرض من تغيرات وتحولات يدرسها الجيولوجيون، فلا علاقة له بحوادث خلق الأرض التي كانت في تلك الأيام الستة قبل الاستواء على العرش! الطبيعيون يعتقدون، إعمالا لمبدأ الاستمرارية المطلقة Uniformity الذي هو ركن من أركان دينهم الطبيعي، أن تلك التغيرات كانت ولم تزل تجري على الأرض من بداية خلقها، باطراد لا ينقطع، وأنها كانت كلها فيما مضى جرما منصهرا ثم بردت قشرته السطحية بالتدريج! ومن هنا، فعلى نحلتهم الفلسفية، كانت الأرض ولم تزل "تتخلق" بالتطور الجيولوجي المطرد الذي لا بداية له في الماضي على التحقيق (إذ لم يزل العالم على مذهبهم يتحول من هيئة إلى هيئة مرورا بالفردية والانفجار) ولا نهاية له في المستقبل! فأين على هذا الاعتقاد بدأت أيام الخلق الستة، وأين انتهت، وكيف يقال على ذلك الاعتقاد إن الله قد أتم الخلق في ستة أيام ثم استوى على العرش، سواء كانت تلك الأيام الستة من أيامنا التي نعدها أم كانت غير ذلك؟؟ الخلق عند الطبيعيين لم ينته ولم يتم لأنه لم يبدأ أصلا يا دكتور! على دين الطبيعيين، الأرض كانت ولم تزل تتطور إلى الآن، تحت تأثير القوانين الطبيعية، وأما على دين المسلمين فالأرض خلقت وتم خلقها وانصرم، ثم هي الآن تجري عليها السنن والطبائع التي ركبها الله فيها تركيبا! وهذه مسألة يجب أن يفهمها هؤلاء المخانيث والمفتونون، الذين خلطوا ديننا بدين الطبيعيين، وجاؤوا في الاعتقاد بما يمجه أهل الملتين جميعا، يوهمون أنفسهم وغيرهم من جهلاء المسلمين بأن بضاعتهم هي غاية العلم ومنتهاه، مع أنها ليست من العلم في قليل ولا كثير، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

يواصل الدكتور انتحاله على القرآن فيقول: "بل إذا نظرنا إلى صميم القضية، وهو خلق آدم عليه السلام، وجدنا القرآن الكريم يصرح بأنه قد خلق خلقا تدريجيا تطويريا. ألم تذكر الآيات الكريمة أن خلق آدم قد مر بأطوار، تراب ثم طين ثم فخار؟ ويبقى أن نفهم ما التراب وما الطين وما الفخار." اهـ. قلت: خلق آدم عليه السلام ليس هو "صميم القضية"، وإنما هو تلك المسألة التي تتحول معها بدعتكم الكلية من بدعة غير مكفرة، إلى كفر أكبر مخرج من الملة، نسأل الله السلامة! التراب والطين والفخار في القرآن

هي ما يعرفه العرب بتلك الألفاظ، وليست رموزا لمراحل تطور القردة العليا وصولا إلى الإنسان كما يومئ إليه الدكتور بكلامه! هذه الباطنية في التفسير لا محل لها من الإسلام! نعم بقي أن نفهم ما التراب وما الطين وما الفخار، ولكن من أين نأتي بذلك الفهم يا دكتور؟! من نظريات الفلاسفة؟؟

سبحان الله!

يقول: "رابعا: آيات الخلق في القرآن الكريم إشارات، وليست حقائق علمية، فكيف نتعامل معها؟" قلت: بل هي حقائق علمية وإن رغمت أنفك ومن شاكلك! بل والله ليس في البابة شيء يرقى لأن يقال له "علم" أصلا إلا ما جاء به القرآن وما جاءت به السنة، وإن كره الدراونة وأذنابهم، والله المستعان لا رب سواه!

يواصل الدكتور فينقل عن صنوه محمد سليم العوا قوله:

"وقضية الخلق كلها من القضايا الغيبية، التي من أصول منهج السلف أن نمر الآيات الخاصة بها كما جاءت بلا جدال، ولا مناقشة تفصيلية، ولا حوار ممل في دقائقها. وهي من ناحية أخرى تدخل عند أهل علوم العصر في نطاق البحث عن أصل الإنسان، وهو علم يتكلم أصحابه من واقع ما يعثرون عليه في الحفائر التي يقومون بها في مناطق مختلفة من العالم، ومن واقع نتائج أبحاث معملية وفحوص بأنواع الإشعاع." اهـ. قلت: تأمل هذا التناقض المنهجي الفج! كيف يجتمع لأحدهم أن يقول إن قضية الخلق قضية كلها غيبية، لا تناقش تفاصيلها ولا يجادل فيها ولا يخاض في دقائقها، وإنما تمرر فيها الآيات كما جاءت، ثم هو يقول في نفس الفقرة إن "أهل علوم العصر" تدخل تلك القضة عندهم في نطاق البحث في علم يتكلم أصحابه بأدلة من نوع كذا ونوع كذا.. إلخ، فيجوز منهم تلك الطريقة ويقبل منهم كلامهم فيها على أنه "علم"؟؟! ما معنى أن تكون القضية من قضايا الغيب عندك إن كنت تجيز للناس أن يأتوا فيها بالنظريات والفرضيات والاستدلالات التجريبية؟؟ هذا والله من أعجب العجب، وهو مما يكشف لك شناعة وفداحة التناقض المنهجي الذي غرق فيه جهمية العصر وهم لا يشعرون!!

يعقب الدكتور على هذا الكلام المتناقض السخيف بما هو أسخف منه فيقول: "لذلك نؤكد مرة أخرى أنه ينبغي أن ينظر رجال الدين في الآيات الخاصة بخلق الكون والإنسان في ضوء حقائق العلم ونظرياته الراسخة، ليفهموا عن الله عز وجل مراده، وأن يؤولوا من الآيات ما يحتاج إلى تأويل. ألم يؤول بعضهم ((الرحمن على العرش استوى)) (طه:5) و((يد الله فوق أيديهم)) (الفتح: 10)، أو أن يمتنعوا (كآخرين) عن التأويل، ويقولوا "مراحل

الخلق معلومة، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة"، ثم يتركوا الأمر للعلم، لكن لا ينبغي لهم أن يصادموا حقائق العلم بإشارات القرآن." اهـ.

قلت: حقائق العلم ونظرياته الراسخة؟؟ الله أكبر! تأمل كيف يقرر الدكتور ويؤصل للمنهج الجهمي البدعي في التأويل بكل أريحية! يقول ألم يؤول "بعضهم" الاستواء واليد وغير ذلك من صفات الله في ضوء نظريات الفلاسفة الذين عاصروهم؟؟ فما الذي يمنعكم من تنكب الطريق نفسه اليوم؟؟ تأولوا ما شئتم، ولكن مهما فعلتم، فإياكم أن تقفوا في وجه "العلم"! حاولوا أن تلفقوا التأويل ما استطعتم، فإن أعياكم ذلك ففوضوا وقولوا لا ندري ما مراد الله من هذه الآيات، بل قولوا إن السؤال عنها بدعة إن شئتم، كما قال مالك رحمه الله في السؤال عن كيف الاستواء، ودعوا اقتحام تلك "البدعة" للسادة العلماء، علماء الطبيعة النبلاء! أما أن "تصادموا حقائق العلم" "بإشارات القرآن"، فلا وألف لا! قولوا لم يأت القرآن بشيء أصلا في تلك البابة، ثم اتركوا الأمر "للعلم"، أما أن تزعموا أن في القرآن ما يعارض ما جاء به أنبياء البيولوجيا والكوزمولوجيا من "نظريات راسخة"، فهذا هو الجهل بعينه!

على هذا الكلام الذي عقب به الدكتور، يتبين لنا أن العوا لما قال إن موضوع تلك الآيات غيب محض، وأن منهج السلف تمريرها كما جاءت، فإنما كان يقصد التفويض والتعطيل الجهميين! تعطيلها عن كل معنى يوهم ولو من بعيد بخلاف ما جاء به الطبيعيون من نظريات في نفس الأمر! فإن سئلنا عن معانيها، قلنا "الله أعلم، لا ندري ما معناها، ونفوض العلم به لله"! لا نثبت لها أي معنى، وإنما نتلقى العلم في تلك البابة من الطبيعيين وحدهم، فإن وجدنا في النصوص ما يوافقه حمدنا الله على ذلك، وجعلناه هو مراده، وإن وجدنا ما قال الأولون في معناه بخلاف ما عند الطبيعيين، تأولناه وجوبا وحكمنا بغلط الأولين فيما فهموه وإن كانوا هم جميع المسلمين من قرن الصحابة وإلى يومنا هذا، أو فوضنا العلم بالمعنى لله وامتنعنا عن التفسير بالكلية وأنكرنا على كل من يفسر! لماذا؟ لأنه لا علم في تلك القضية إلا ما عندهم، أما ما في القرآن "فإشارات" مجملة لا يؤخذ منها علم ولا معرفة! نسأل الله السلامة ونعوذ به من الخذلان!

والعجيب أن الدكتور لما تفلسف وحاول أن يحاكي قول الإمام مالك رحمه الله المشهور في الاستواء، جاء بعبارة هي حجة عليه من حيث لا يشعر! فقوله: "مراحل الخلق معلومة، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة"، لا نملك معه إلا أن نسأل: وفي أي شيء يخوض ويتكلم البيولوجيون والكوزمولوجيون عند تناولهم مسألة النشأة إذن؟؟ أليس في "الكيف"؟؟ وهل لهم كلام إلا في الكيف أصلا؟؟ تفصيل المراحل هذه عندهم إنما هو

تنظير في الكيفيات، وفي الآليات التي نشأ عنها ذلك التطور المزعوم، مرحلة بعد مرحلة، وخطوة بعد خطوة! وإذن فأنت يا دكتور مبتدع ضال كما شهدت به على نفسك بقولك "والسؤال عنه بدعة"، فتأمل!!

يقول (ص. 334): "وينبغي ألا يتحدى المعارضون العلماء الطبيعيين أن يفسروا وأن يؤولوا جميع آيات الخلق في ضوء حقائق العلم الحالية، فما زال أمام العلم الكثير ليكتشفه، وما يعجز العلماء عن تأويله اليوم قد ينجح فيه غيرهم بعد سنين، قصرت أو طالت." اهـ.

قلت: وبهذا يتم المطلوب من جعل القرآن وفهمه وعلومه تبعا لما يأتي به الطبيعيون، تمام التبعية! فلا يجوز في دين الدكتور أن يقال للطبيعيين في شيء من نظرياتهم أخطأتم في كذا أو نظرياتكم غالطة في كذا، بحيث يكون المستند في ذلك هو القرآن! كيف والقرآن – على مذهبه - لا يحصل للناس فهم له أصلا إلا بناء على تلك النظريات؟؟ فلا يقولن قائل إن هذه الآية فيها أمور لا يقدر الطبيعيون على تفسيرها "بحقائق العلم الحالية"، فضلا عن أن يقال إن فيها ما يخالف شيئا من نظريات المعاصرين! هذا لا يجعل لك يا صاحب هذا الاعتراض أي مزية معرفية على أولئك "العلماء"، ولا يجعل لديك زيادة علم على ما عندهم، فلا تجاوز قدرك! بل تظل مفتقرا (بتلك "الإشارات القرآنية" المبهمة) إلى بضاعتهم حتى تفهم أنت هذه النصوص التي أردت أن تتحداهم بها! وعليك أن تؤمن إيمانا راسخا بأنهم إن لم يكن لديهم الآن ما تفسر به تلك الآيات، فهم متوصلون غدا – لا محالة – "لحقائق علمية" تحسم الأمر وتبين لك أنت ولغيرك من المسلمين حقيقة المراد من تلك الآيات، ولو بعد حين! فقبلوا تلك الأيدي الطاهرة والرؤوس النيرة التي "سارت في الأرض ونظرت كيف بدأ الخلق"، واشكروا لها أن جاءتكم أخيرا بما تخلفت عنه قرونكم من زمان الرسالة وإلى يومنا هذا، مع كونكم مخاطبين بطلبه والبحث فيه خطابا تكليفيا حاسما وأنتم لا تشعرون! تعلقوا بأبوابهم وتلقوا نظرياتهم في ذلك الغيب المطلق كما يتلقى الوحي المنزل، فإنه بدونها لا فهم لكم لكتاب ربكم ولا علم بشيء من معاني آيات الخلق وما يتعلق بها البتة، وهي عندكم إذن كعدمها!

هذا، أيها القارئ الكريم، هو منهج التأويل الذي يعلمه الدكتور أتباعه ولا حول ولا قوة إلا بالله!

يقول (ص. 337):

> ولكن، ألا يتصادم تأويل آيات خلق الإنسان مع ثوابت العقيدة؟ انظر ما يقول الشيخ حسين الجسر (غزالي العصر الحديث) في كتابه "الرسالة الحميدية" منذ أكثر من مائة وعشرين عاما: إن الثوابت

القرآنية التي عليها مدار "العقيدة" في خلق الإنسان، تتلخص في أن الله عز وجل: 1- قد خلقه من تراب ومن طين، ومن حمأ مسنون ومن صلصال كالفخار، وورد أنه خلقه من ماء (وهي أمور أوضح العلم فيما بعد أنها تشير إلى مراحل خلق الخلية الأولى التي بدأت بها الحياة). 2- خلق الإنسان بيديه (التي هي قدرته) 3- خلق الإنسان من نفس واحدة (أصل واحد) وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء. ويضيف الشيخ الجسر: وإذا كان ظاهر النصوص يفيد أن الله عز وجل خلق الإنسان نوعا مستقلا، فليس في النصوص ما يفيد صراحة إن كان خلق الإنسان تم دفعة واحدة أم بتكوين متمهل. أما إذا قام الدليل القاطع على مذهب التطور، فيمكن تأويل هذه النصوص والتوفيق بينها وبين ما قام عليه الدليل، ولا ينافي ذلك عقيدة المسلمين في شيء، ما دام الأصل عندهم أن الله تعالى هو خالق الإنسان في كل حال.

قلت: هذا الكلام كذب باهت على الشيخ حسين الجسر رحمه الله وعلى رسالته المذكورة، والله المستعان! وفيه من التدليس الصريح ما لا يخفى على كل من سبق أن طالع تلك الرسالة أو مر عليها مرور الكرام! فالدكتور ينقل كلاما للشيخ بتصرف فاحش، ثم يضع بين الأقواس كلامه هو، الذي قرر المصنف خلافه في الكتاب! ولا أدري ما مصلحته في أن يحرف كلام الرجل على هذا النحو العجيب، وكأنما يظن أن قبول خصمه لمذهبه يتوقف على إلصاقه ذلك المذهب بهذا الرجل بالذات! والأعجب من هذا أني رأيت الدكتور نضال قسوم (صنوه في الجهمية الداروينية) يسلك المسلك نفسه مع نفس الكتاب، كما سيأتي نقله والرد عليه في موضعه إن شاء الله تعالى! فما سبب ذلك التحريف وما داعي هؤلاء إليه؟ الله أعلم!

على أي حال فالشيخ حسين كان، على الرغم من صوفيته وأشعريته الغالية، صاحب موقف صارم ضد نظرية داروين وضد فكرة نشوء الأنواع بالترقي والتطور، بل وضد مبدأ استعمال النظر العقلي في البحث في غيب النشأة (خلق الكون وخلق الإنسان)، وتقديم شيء من ذلك على فهم المسلمين المجمع عليه لنصوصهم في نفس الأمر، وكلامه في ذلك المعنى في الرسالة الحميدية صريح لا يحتمل التأويل!

خذ على سبيل المثل قوله رحمه الله (ص. 288): "ولكن أتباع محمد عليه السلام، لا يلتزمون القول بهذا التفصيل الذي مر حتى تقوم عندهم الأدلة القاطعة على ثبوت الكيفية التي قلتم بها في تكون الشمس وانفصال الكواكب والأرض عنها، وإلا فهم يقتصرون في الاعتقاد على ما تقدم ذكره من النصوص التي وردت في شريعتهم، ويتبعون رأي جمهور علمائهم على

ما في ذلك من الإجمال، ويفوضون علم تفصيل ذلك إلى الله تعالى، لأنهم لم يكلفوا بالبحث في تفصيل ذلك، وإذا سئلوا عنه أو عن أمثاله من كل ما لم يرد في شريعتهم تصريح فيه، ولم تقم الأدلة القاطعة عليه بل كانت أدلته ظنية، فإن كان ينافي نصوص شريعتهم رفضوه وامتنعوا عن القول به، وإن لم يناف تلك النصوص قالوا: يحتمل الصحة ويحتمل خلافها، إذ هو أمر مظنون." اهـ.

وكذلك قوله في الصفحة التالية مباشرة (ص. 289): "نصوص الشريعة تدل ظواهرها على طريق الخلق ولا تحتاج لتأويل"، ثم قوله: "ثم المدار في اعتقاد أتباع محمد عليه السلام في شأن عوالم الكون أن يعلموا علما جازما أنها حادثة، فلابد لها من محدث وهو الله تعالى، أحدثها وأوجدها من العدم، ونوعها إلى أنواعها التي تشاهد الآن، وإن جميع ذلك لم يكن بتأثير طبيعة أو ناموس، والنواميس التي تشاهد في تكوين بعض الكائنات إنما هي أسباب عادية وضعها الله تعالى لذلك، وهو غني عنها، قادر على إحداث تلك الكائنات بدونها، وهذا القدر من العلم الجازم يكفيهم في الاستدلال على وجود الله تعالى واتصافه بالقدرة واعلم وسائر الصفات التي تدل عليها تلك الآثار" اهـ. ثم بعدما بين أنه سواء كان خلق الأنواع الحية خلقا مستقلا دفعة واحدة أو على مهل، أو كان بالتطوير من بعضها البعض، فجميع ذلك يقتضي القول بوجوده ضرورة (أي من حيث الحكم العقلي المجرد) [70]، قال (ص. 290):

> لكن النصوص المعتمدة في الاعتقاد، التي وردت في الشريعة المحمدية في شأن خلق عوالم الأرض هذه خلاصتها: ورد أن الله تعالى جعل من الماء كل شيء حي، وأنه خلق كل دابة من ماء، وأنه بث – أي: فرق – في الأرض الدواب، وأنه خلق من كل زوجين اثنين، وأنه خلق من الأنعام أزواجا (أي ذكورا وإناثا، كما في التفسير)، وأنه خلق الأزواج كلها (أي الأصناف كلها كما في التفسير أيضا)، وأنه خلق الزوجين (أي الصنفين كما في التفسير أيضا) الذكر والأنثى، وأنه جعل في الأرض من كل الثمرات زوجين اثنين (أي من كل نوع كما في التفسير أيضا)، فالنصوص الثلاثة الأولى يحتمل أن يجري في تفسيرها بحد ثاتها على مذهب الخلق أو مذهب النشوء، والنصان الأولان يوافقهما القول الحديث لكم أيها الماديون: إن تكون المادة الحيوية من الماء، وأما بقية النصوص المذكورة، فالمعنى الظاهر المتبادر منها هو أن الله تعالى أوجد أنواع العوالم بطريق الخلق، أي أنه أوجد كل نوع منها مستقلا عن غيره ليس مشتقا من سواه، أعم من أن يكون بإيجاد

دفعي أو متمهل، كما لا يخفى على من يدري أساليب الكلام العربي، لأن من يقول مثلا: قدمت لضيفاني من الأطعمة أنواعا، يتبادر من كلامه أنه اصطنع كل نوع مستقلا عن البقية وقدمه إليهم، وأما كونه اصطنع جملة الطعام جنسا واحدا، ثم فرع منه الأنواع بترقية في صناعة الطبخ، واشتقاق نوع من نوع، فهو معنى بعيد عن الإرادة لا يخطر في البال، وإن كان جائز الوقوع.

ثم قال (ص. 292-293):

فعلى ما تقدم من ظاهر هذه النصوص، وبحسب القاعدة المتقدمة من أن الواجب في الشريعة المحمدية أن يعتقد أتباعها المعاني المتعينة أو المعاني الظاهرة من نصوصها المتواترة أو المشهورة ما لم يعارض المعاني الظاهرة دليلٌ عقليٌ قاطعٌ يلجئ إلى تأويلها، يجب أن يكون اعتقاد أتباع محمد عليه السلام أن الله خلق كل نوع من عوالم الأرض مستقلاً ابتداء عن البقية، ولم يخلقها بطريق النشوء واشتق نوعًا من نوع، وإن كان قادرًا على كلتا الصورتين، وأما أن كل نوع خلقه دفعة واحدة أو بتمهل وترق بسبب نواميس وضعها الله له فهذا سبيله عندهم التوقف، حيث لم يرد في شريعتهم ما يفيد القطع بأحد الأمرين، ولا يسوغ لهم بمقتضى حكم شريعتهم كما تقدم أن يعدلوا عن اعتقاد هذا الظاهر إلى الاعتقاد بخلافه من نحو النشوء واشتقاق بعض من بعض كما تقولون أيها الماديون؛ لأن هذا خلاف ظاهر النصوص المتقدمة، ولم يقم عليه دليل قاطع يضطرهم إلى تأويلها، والأدلة التي تذكرونها في كتبكم على النشوء ما هي إلا ظنون وفروض لم تخرج عن دائرة الاحتمال الذي يسقط به الاستدلال، كما يظهر من الاطلاع عليها مع خلو الغرض، وما دام الحال كذلك فأتباع محمد لا يصرفون تلك النصوص عن ظواهرها ولو مع اعتقادهم بأن هذا النشوء بخلق الله تعالى، بل لا يسوغ لهم الصرف ما دام الحال كذلك، نعم لو قام الدليل القطعي القاطع على خلاف ظاهر تلك النصوص كان عليهم حينئذ أن يؤولوها للتوفيق بينها وبين ما قام عليه ذلك الدليل جريًا على القاعدة المتقدمة (وأخال أن دون ذلك خرط القتاد).

إلى أن قال (ص. 317):

فهذا ما أردت الآن إيراده عليكم، وهو كاف في بيان أن دلائلكم في النشوء ظنية لا تعارض نصوص الشريعة المحمدية، وقد رأيت

أخصامكم قد خاضوا معكم في أبحاث لا حاجة لنا فيها، فأنكروا عليكم تغير الأنواع، وقمتم تبرهنونه حتى بتغيرها الصناعي، وأنكروا وجود الحلقات بين نوع ونوع آخر تزعمون أنه نشأ عنه، فقلتم: إن الحلقات قد وجدت في البعض، ومنيتم أنفسكم بأنها سوف توجد بالاكتشافات الجيلوجية في الباقي، وكل ذلك خبر يحتمل الصدق والكذب، فمن منا رافق الجيلوجيين في اكتشافاتهم وشهد تلك الحلقات؟ فسبحان العليم بحقيقة الأمر، على أنه لو ثبت فلا يزال الاحتمال حاصلاً في أنها أنواع مستقلة كما قدمنا، فبقيت أدلتكم مظنونة، فبالاختصار لا داعي لنا إلى الخوض معكم فيما خاضت فيه أخصامكم، ويكفينا ما قررناه لاعتماد ظواهر النصوص الشرعية، ولو أردنا الخوص معكم في ذلك لأريناكم قيمة تلك الأدلة التي اعتمدتموها، وأظهرنا لكم أن أساسها الوهم وأركانها الفروض، وإن وفق الله تعالى كتبت في ذلك الموضوع ما يشفي الغليل.

قلت: فبالله أين في هذا الكلام ما يؤخذ منه ذلك التدليس الذي نسبه الدكتور إليه؟؟ قوله فيما بين القوسين "وهي أمور أوضح العلم فيما بعد أنها تشير إلى مراحل خلق الخلية الأولى التي بدأت بها الحياة"، وقوله "التي هي قدرته"، وقوله "من أصل واحد"، كل ذلك تدليس وكذب على المصنف المنقول عنه الكلام، لأنه لم يبين أن ما بين تلك الأقواس هو كلامه، بل أوهم القارئ بأنه كلام صاحب النص المنقول (الذي هو ليس نصا منقولا أصلا وإنما عبارة الدكتور عما زعم أنه كلام المصنف كما ترى)، مع أن الرجل قرر خلافه، والله المستعان!

واقع الأمر أن الشيخ المصنف (حسين الجسر) يثبت في هذا الكتاب تلبس الدراونة بما يسميه المناطقة المعاصرون بمغالطة Affirming the Consequent وما يسميه فلاسفة العلم المعاصرون بتكافؤ الاستدلال بالمشاهدات Under-determination of Theory by Observation، وذلك ببيان الاحتمالات الأخرى الواردة في تفسير وتأويل تلك المشاهدات كلها، التي أهملها القوم تحكما وتنطعا، لا لشيء إلا لأنها لا تتفق مع أسطورتهم! فلا يجوز بحال من الأحوال أن ينسب إلى من هذا مذهبه ومنهجه، القول بجواز أن يظهر في يوم من الأيام دليل قاطع على صحة ما عليه الدراونة في خلق الأنواع الحية وخلق الإنسان، بما يلجئ المسلمين لإسقاط إجماع القرون الأولى على ما فهموه من ظاهر النصوص في نفس الأمر! ولكن الذي استجاز الكذب على رب العالمين، أي شيء يمنعه من الكذب على هذا العالم أو غيره من علماء المسلمين؟؟

ثم قال الدكتور: "خامسا: ينبغي أن يستحضر المفسرون للقرآن الكريم ما يقوله الإمام الغزالي من أننا قد بلغنا منزلتنا الإنسانية بالروح، وليس بالجوارح التي هي أتباع وخدم وآلات، وأن الجسد رفيق الروح، وإليه وإلى أصله الطيني تنسب الغرائز والشهوات والرغبات الحيوانية. أما والأمر كذلك، فما العجيب في أن تتشابه نشأة جسد الإنسان مع نشأة الكائنات الأخرى الأدنى منه؟" اهـ. قلت: كالعادة، يدلس الدكتور ولا يبين أين ينتهي كلام من يزعم أنه ينقل عنه، ويبدأ كلامه هو! ونقول: استحضرنا ما قاله الغزالي، فكان ماذا؟؟ ما أثر ذلك على فهمنا لما جاء في كتاب ربنا بشأن حوادث خلق السماوات والأرض وما بينهما؟؟ يسأل الدكتور: ما العجيب في أن تتشابه نشأة جسد الإنسان مع نشأة الكائنات الأدنى منه؟ والجواب: إن كان المراد بالتشابه هنا، النشأة الداروينية المزعومة، فليس ذلك التشابه عجيبا، وإنما هو باطل محض، يعلم المسلمون بطلانه فيما علموا من دينهم بالاضطرار!

ثم قال (ص. 335 - 336):

> سادسا: يجب أن ندرك مجال كل من العلم والدين. يتبنى البعض ما سبق أن ردده (لونادوت) أستاذ اللاهوت في ليبزج بسويسرا عندما قال "إن فكرة التطور تنقض الحكمة الإلهية مناقضة تامة، فإن فكرة الخلق ملك للدين لا للعلم الطبيعي، وإن كل المفاهيم الدينية تقوم على مذهب الخلق الخاص"!! لا شك أن هذا الفهم مردود جملة وتفصيلا، فسبق أن أشرنا إلى أن: 1- الله عز وجل أمرنا فقال ((قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق...)) (العنكبوت: 20) فمعرفة كيف بدأ الخلق أمر أوكله الله عز وجل للعلماء الباحثين في علوم الأرض والمخلوقات. 2 – المنهج الصحيح للتعامل مع القضايا العلمية التي تعرض لها القرآن الكريم هو أن يطلع المفسرون على كلمة العلم في هذه القضية، ثم يفهموا الآية القرآنية في ضوء ما وصل إليه العلماء من حقائق. 3- ينبغي ألا نقلل من شأن العلم وكلمته، فبالرغم من التقدم العلمي المذهل الذي جعل الحسابات الفلكية دقيقة ويقينية، يدعي المتمسكون بالرؤية البصرية لهلال رمضان أن الحسابات الفلكية تصيب وتخطئ! بالرغم من قول الله عز وجل ((هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب)) (يونس: 5)، وبالرغم من أنهم يعتمدون على الحسابات الفلكية في باقي العبادات الموقوتة، كتحديد مواعيد الصلوات. 4- إن جهود العلماء الشاقة الدؤوبة لفهم الكون والحياة من حولهم، إنما هي قراءة لكتاب الله

المنظور، الذي خلقه الله عز وجل طبقا لسنن وقوانين وضعها، ثم أمرنا بالبحث والتعلم لنقرأ غوامضه. ولا شك أن القرآن الكريم (كتاب الله المسطور) لن يختلف مع حقيقة واحدة من حقائق العلم (كتاب الله المنظور)، فصاحب هذا الكلام هو خالق هذا الكون.

قلت: المسلمون يا دكتور لا يتبنون ما ردده أساتذة اللاهوت في سويسرا ولا في غيرها! وإنما يتلقون الدين والاعتقاد من الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة! فما كان عند السلف لا يؤخذ العلم به إلا من الوحيين، فهو عندهم اليوم لا يؤخذ إلا من الوحيين، وما كان عند الأولين دينا فهو كذلك عند الآخرين! فإن اتفق أن تكلم لاهوتي بما وافق الحق قبلنا منه ولا إشكال! فقول اللاهوتي المذكور بأن فكرة التطور تنقض الحكمة الإلهية مناقضة تامة، هو قول صحيح إجمالا، وردك إياه هو المردود جملة وتفصيلا! وقد بينا في هذا الكتاب وجه ذلك بما لا مزيد عليه فلا نعيد! وكذلك قوله إن الخلق الأول من اختصاص الدين وليس العلم الطبيعي، هذا حق قطعا، وهو مما احتدم الجدل عليه بين داروين وأتباعه من جانب، ومخالفيهم من الجانب الآخر، في القرن التاسع عشر! وهو جدال ليس التنظير الطبيعي نفسه حاسما له كما هو واضح، لأن موضوعه متقدم في العقل على مبدأ النظر الطبيعي نفسه! نكلمك فيما إذا كان يجوز للنظريات الطبيعية أن توضع في باب من الأبواب، من مبدأ النظر، فلا تحتج علينا بجهود العلماء الدؤوبة وإنجازات العلم الحديث!! أنت لم تحرر محل النزاع ولا تدري كيف تضبطه يا دكتور!

قولك "الله عز وجل أمرنا فقال ((قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق...)) (العنكبوت: 20) فمعرفة كيف بدأ الخلق أمر أوكله الله عز وجل للعلماء الباحثين في علوم الأرض والمخلوقات" قلت: تقدم بيان الجهالة والعجمة في هذا الفهم البدعي، فلا نعيد! قوله: "2 – المنهج الصحيح للتعامل مع القضايا العلمية التي تعرض لها القرآن الكريم هو أن يطلع المفسرون على كلمة العلم في هذه القضية، ثم يفهموا الآية القرآنية في ضوء ما وصل إليه العلماء من حقائق." قلت: تقدم كذلك بيان فساد ذلك المنهج وجهميته المحضة فلا نعيد! ليس في أبواب الغيب شيء اسمه "كلمة العلم" يا دكتور، إلا أن يكون المراد بالعلم هو ما ورد في الكتاب والسنة وورثناه بفهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم بإحسان، رضي الله عن الجميع، فدعك من تلك الشنشنة الجوفاء، فإنها لا تروج إلا في سوق المفتونين والجهلاء! قوله: " ينبغي ألا نقلل من شأن العلم وكلمته، فبالرغم من التقدم العلمي المذهل الذي جعل الحسابات الفلكية دقيقة ويقينية، يدعي المتمسكون بالرؤية البصرية لهلال رمضان أن

الحسابات الفلكية تصيب وتخطئ! بالرغم من قول الله عز وجل ((هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب)) (يونس: 5)، وبالرغم من أنهم يعتمدون على الحسابات الفلكية في باقي العبادات الموقوتة، كتحديد مواعيد الصلوات." اهـ. قلت: لا نقلل من "كلمة العلم" والله، بل لا يحترم العلم ولا يقيم له وزنه الصحيح، من كان منهجه المعرفي قائما على استعمال الأقيسة التجريبية في الغيبيات المحضة التي يجزم العقل بأن طريق القياس فيها مقطوع أصلا! أنتم من تسيؤون إلى العلم حقا وليس من يخالفكم! الذي فسدت لديه مصادر التلقي المعرفي على هذا النهج البدعي الفاحش هو من يقال فيه إنه "يقلل من كلمة العلم"، وكيف لا والحال أنك لا تجد كثيرا من عقائده الغيبية إلا قائمة على الخرف والوهم والفروض القياسية الفارغة، كما أطلنا النفس في بيانه في هذا الكتاب وغيره؟ ويا ليته اكتفى بابتلاع تلك البضاعة ثم انزوى بها في قعر بيته! بل خرج علينا يدعو المسلمين، بل يدعو علماء التفسير ومن سماهم "برجال الدين"، لأن يؤسسوا دينهم وفهمهم لكتاب ربهم على ميثولوجيا الطبيعيين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

تأمل المغالطة الفجة ومحاولة تسفيه موقف مخالفيه حتى لا يراهم قارئه إلا ثلة من الجهال خفاف العقل الذين لا يُعبأ بهم ولا يلتفت لشيء مما يقولون! أولا، ما علاقة ما نحن فيه بمسألة الأهلة والحساب الفلكي فيها؟؟ الكلام هنا عن مسألة غيبية محضة هي خلق السماوات والأرض وما بينهما، فبأي عقل وبأي "علم" يقال إن مبدأ استعمال الحسابات الفلكية في تقدير مواقيت العبادات مساو - منهجيا - لمبدأ استعمالها في بناء الدعاوى المعرفية في تلك الغيبيات المحضة؟؟ من الواضح بمبدأ النظر أن البابتين لا تستويان من حيث الجواز العقلي لاستعمال أدوات الفلكيين وحساباتهم في الإثبات والنفي! فأي شيء هذا إلا أن يكون ذرا للرماد في العيون؟! ثانيا: من من العلماء الذين منعوا من استعمال الحسابات الفلكية في إثبات هلال رمضان، الذين هم جميع من يعتد بقولهم من أهل العلم، كان تعليله أو داعيه لذلك هو أن "الحسابات الفلكية تصيب وتخطئ"؟؟ نتحداك يا دكتور من اليوم إلى عشر سنوات أن تأتينا بمن جعل هذا هو مستنده في المنع!

ليست العلة في أنها تصيب وتخطئ يا رجل، وإنما في التصريح الواضح في السنة الذي لا متسع فيه للتأويل، بأن الحكم بدخول الشهر وخروجه معلق بالرؤية البصرية، لا بالحساب ولا بغيره! الرسول عليه السلام لم يأمرنا بالحساب وإنما أمرنا بالرؤية، كما في قوله عليه السلام في الصحيحين "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين، فإن شهد شاهدان مسلمان فصوموا وأفطروا"، وعند مسلم في صحيحه عن ابن

عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنّا أمَّةٌ أمِّيَّةٌ. لا نكتُبُ ولا نَحْسِبُ. الشهْرُ هكذا وهكذا وعَقَدَ الإِبهامَ في الثالثةِ والشهْرُ هكذاوهكذا وهكذا، يعني تمامَ ثلاثين". وعند أبي داود أن ابن عمر قال تراءى الناس الهلال فأخبرت الرسول عليه السلام أني رأيته فصامه وأمر الناس بصيامه (صححه الألباني)، وبهذا المعنى تواترت السنة، وثبت إجماع السلف عليه، فلا عبرة بخلاف من خالف بعده! هذا هو دين المسلمين، فلينظر كل امرئ عمن يأخذ دينه!

قوله: "إن جهود العلماء الشاقة الدؤوبة لفهم الكون والحياة من حولهم، إنما هي قراءة لكتاب الله المنظور، الذي خلقه الله عز وجل طبقا لسنن وقوانين وضعها، ثم أمرنا بالبحث والتعلم لنقرأ غوامضه. ولا شك أن القرآن الكريم (كتاب الله المسطور) لن يختلف مع حقيقة واحدة من حقائق العلم (كتاب الله المنظور)، فصاحب هذا الكلام هو خالق هذا الكون." قلت: هذا كلام خطابي أجوف لا يسمن ولا يغني من جوع، فهو في هذا المقام حق يراد به باطل كما بيناه في تعليقنا على مسألة "كتاب الله المنظور" هذه في غير هذا الموضع!

ثم يقول: "سابعا: لا ينبغي أن ننصب من فهمنا لآيات كتاب الله حكما في قضايا علمية متخصصة. كثيرا ما يطرح على رجل الدين سؤال حول رأي القرآن الكريم في نظرة التطور، إن هذا سؤال يطرح على غير متخصص، إنه تماما كأن أسأل عن رأي القرآن الكريم في علاج مرض كذا بدواء كذا! وإذا طرح هذا السؤال فينبغي أن تكون الإجابة ((فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)) (النحل: 43)، وأهل الذكر هنا هم أهل العلم المتخصصون فيه." اهـ. قلت: هذا والله ضرب من التلبيس عظيم! والدكتور كثيرا ما يدندن حول تلك المسألة، يستعملها في ترهيب مخالفيه وإيهامهم بأن نظرية التطور هذه باب من العلم لا يجوز لغير المتخصصين فيه أن ينتقدوه أو أن يتكلموا فيه! وما أكثر ما يقول لمخالفيه: إن شئتم أن نقبل منكم كلامكم، فعليكم أن تأتونا بأبحاث بيولوجية محكمة أكاديميا، تثبتون فيها غلط الأدلة التي تراكمت عند البيولوجيين في مسألة التطور، إن أردتم منا أن نلتفت إليكم، وإلا فأنتم دخلاء لا عبرة بكلامكم ولا التفات إليه! ولنا أن نسأل الدكتور في هذا المقام: ما دمت يا دكتور حريصا هذا الحرص البالغ على احترام حدود التخصص العلمي، فما بالك تؤلف فصلين كاملين في كتابك هذا تريد أن تعلم المتخصصين في تفسير القرآن المنهج الصحيح في تأويل "آيات الخلق"؟؟ هل ترى نفسك من أهل الذكر في هذا العلم يا دكتور؟؟ سبحان الله! أنت من جئتنا بنظرية ميتافزيقية غيبية فاسدة جعلها أصحابها أساسا للتأويل والتفسير العلمي في أكاديمياتهم البيولوجية المعاصرة،

فقابلناك ببيان فساد فلسفتهم المعرفية ومنهجهم الدهري في بناء تلك النظرية وفي منطق الاستدلال التجريبي والنظر الطبيعي نفسه في أمثال تلك الأبواب، وهو ما يترتب عليه تهافت تلك النظرية ووهاء بضاعة من تخصصوا فيها، مهما عظموا في نفسك وكبروا في عينك أنت وأمثالك!

هؤلاء لا يقال لهم أهل ذكر، وليس كلامهم مما يؤمر الجاهل بتقليدهم ومتابعتهم عليه! ليسوا على ذكر ولا على شيء أصلا حتى يأمرنا القرآن بقصدهم في تلك القضية ونحوها من قضايا الغيب المحض، فافهم هذا يرحمك الله! أرأيت لو قيل لك إن سألت عن صفة من صفات ربك: اذهب فاسأل علماء اللاهوت النصارى، فهم أهل الذكر الذين أمرنا الله بسؤالهم في القرآن، أفكنت تقبل منه ذلك؟ أبدا! لماذا؟ لأن موضوع العلم نفسه موضوع قد انحصرت مصادر التلقي المعرفي المعتمدة فيها عند المسلمين في الكتاب والسنة دون غيرهما! فكذلك يقال في تلك النظرية ونحوها من نظريات الطبيعيين وفرضياتهم وأوهامهم في أبواب الغيب المحض! لا يحال الناس عليهم فيها ولا يقال إنهم هم أهل الذكر فيها، إذ ليست مصادر التلقي التي اعتمدوها في بناء الدعاوى المعرفية في هذه الأبواب مما يجوز للعاقل فضلا عن المسلم أن يستند إليه في ذلك، والله المستعان!

ثم يورد الدكتور مثالا يواصل به المصادرة على المطلوب، فيقول (ص. 336): "أضرب مثالا لما ينبغي أن يكون عليه الأمر: عقدت ندوات كثيرة جمعت بعضا من علماء الدين والأطباء لبحث قضية نقل الأعضاء من الميت إلى المريض، وفي الندوات أعلن بعض شويخ الأزهر ومفتي الديار المصرية أنه لا يمكن نقل الأعضاء إلا إذا تحققنا من موت المتبرع. فسئلوا، متى نحكم أن المريض قد مات؟ إذ إن الموت من الأمور لصيقة الصلة بالدين والتي تحدث القرآن الكريم عنها كثيرا ونسبها فعلا وتوقيتا لله عز وجل، فكانت إجابة الفقهاء الحكيمة: هذا أمر من أمور العلم ومتروك للأطباء أن يحددوه. وبالقياس، لا ينبغي أن يتصدى رجاء الدين بفهمهم لآيات كتاب الله لتخطئ أو تصويب نظرية علمية شديدة التخصص، ربما لا يعرفون عنها إلا أقل القليل." اهـ.

قلت: بالقياس؟؟ أي قياس هذا؟؟ هل مشكلتك يا دكتور، هي في نقص تصور بعض العلماء الشرعيين للنظرية التجريبية التي تصدروا للحكم عليها، ومن ثم تخلفهم عن حدّ الأهلية للنهوض بهذا الأمر، أم أن مشكلتك هي في مبدأ أن يتصدى العالم الشرعي (أو ما سميته "برجل الدين" بهذا الإطلاق) لنقد نظرية من نظريات الطبيعيين أو لردها وإبطالها بحجج من القرآن والسنة، بحيث يأتي فهم النصوص لديه مصادما لما عليه الطبيعيون المعاصرون في نفس الأمر؟؟ هذه هي المسألة أيها القارئ الكريم، وهي

حقيقة دعوى هذا الرجل ومن على شاكلته، فانتبه! الدكتور لا يقول إن العلماء الشرعيين يحتاجون إلى كثير من التعلم والدراسة حتى يفهموا النظريات العلمية الطبيعية، ومن ثم يتأهلوا لبيان موقف الشرع منها، بالاستنباط من النصوص الشرعية التي هم أعلم الناس بها، وإنما يقول إنه لا سلطان للعلم الشرعي الموروث على أصحاب تلك النظريات البتة، وليس للعالم الشرعي – بموجب أنه غير متخصص في الطبيعيات – أن يحكم في شيء من ذلك أصلا، يستقل بأدواته هو لفهم النصوص والاستنباط منها، وبما ورث من أدوات وإجماعات الأولين، وإنما تترك النصوص الشرعية ذات الصلة بتلك النظريات للمتخصصين فيها ليقرروا هم كيف تفهم تلك النصوص فهما صحيحا، وكيف تستنبط الأحكام منها، ثم ليتتلمذ علماء الشريعة على أيديهم في ذلك إن أرادوا العلم الصحيح بما جاء في كتاب ربهم في نفس الأمر! أي أنه لا ينبغي – على مذهب الدكتور - أن يستقل علماء الشريعة بفهمهم لنصوص الكتاب والسنة المتعلقة بتلك النظريات، حتى تبلغ بأحدهم الجرأة أن يخرج على الناس ليقول إن هذه النظرية أو تلك تخالف الكتاب والسنة ولا يجوز المصير إلى القول بها!

وهذا عند التحقيق، مذهب قد بلغ من الغلو في الجهمية والتأصيل الجهمي مبلغا لا نعرف له نظيرا في الجهمية الأوائل ولا حول ولا قوة إلا بالله! وهو يقتضي عند التأمل، إسقاط العلم الشرعي نفسه وإهدار قيمته المعرفية كعلم تخصصي له رجال هم أعلم الناس به وأعظمهم مكنة من أدواته وآلاته! إذ على هذا المذهب، يصبح الناس مطالبين عند طلبهم فهم نصوص الكتاب والسنة، بأن يأخذوا كل نص منها إلى المتخصصين في هذا المجال البحثي أو ذاك، من مجالات العلوم الدنيوية ذات الصلة به! فما كان فيه قضية تاريخية، أخذوه إلى المؤرخين ليقرروا كيف نتأوله بما يوافق ما عندهم، فإن أعياهم ذلك أمرونا بالتفويض، وما كان فيه قضية سياسية، أخذناه إلى علماء السياسة ليقرروا لنا كيف نفهمه بما يوافق أحدث النظريات عندهم، وما كان فيه قضية اقتصادية أخذناه إلى خبراء الاقتصاد ليقرروا لنا كيف نفهمه، دع عنك ما كان موضوعه الغيب المحض، فهذا لا كلمة فيه تعلو على كلمة الكوزمولوجيين والبيولوجيين والجيولوجيين وغيرهم من أهل التخصصات! نمر على آيات في الزنا، فنرجع إلى علماء الاجتماع ليخبرنا بعضهم بأن تقنين الزنا في عصرنا هذا هو الأحسن لتصريف شهوات الشباب المكبوتة، بالنظر إلى تأخر سن الزواج وتعثره، فنلتمس للنصوص التأويلات والمخارج حتى ينقلب تحريم الزنا إلى تجويز! ونمر بآيات في تحريم الخمر، فنذهب بها إلى خبراء التغذية وعلماء العقاقير فيقول قائلهم إن العلم الحديث قد أثبت أن فوائد شرب الكحول بمقدار محدد في كل يوم، أعظم من مضارها، فنكر على تلك النصوص لنجعلها تجيز الخمر بعدما

كانت تحرمه! وهكذا! والسؤال الآن: أي دين يبقى لمن كان هذا دينه؟؟؟ وما فائدة الوحي الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم عند من كان هذا منهجه؟؟؟

ثم إن هذا المنهج المعرفي يناقض المعنى الذي يقتضيه ذلك المثال الذي جاء به الرجل في النقل الآنف! فمجرد حقيقة أن الأطباء اجتمعوا برجال الأزهر ودار الإفتاء ليتوصلوا معهم إلى حكم شرعي في تلك المسألة التخصصية الدقيقة، هذا يدل على أن أولئك الأطباء يعترفون لعلماء الشريعة بأن للعلم الذي عندهم سلطانا معرفيا على القضايا المعيارية والأخلاقية المتعلقة بتلك الممارسات الطبية الجديدة التي طرحت للنقاش في تلك الندوات، وأنهم هم المؤهلون لاستنباط الأحكام الشرعية من النصوص في ذلك، مستعينين بالتصور الصحيح الذي يفيدهم به أولئك المتخصصون في تلك الممارسات! حتى قضية الموت هذه، التي فرح الدكتور بمقالة المفتي فيها، إنما يُستمد تعريفها بالأساس من علماء الشريعة ومن اعتقاد المسلمين، إذ يقولون إن الموت هو انقطاع نفس الإنسان وروحه عن الاتصال بهذا العالم المحسوس انقطاعا لا رجاء للرجوع بعده، ثم بناء على هذا التعريف، يُطلب من الأطباء أن يقرروا باستخدام أدواتهم التجريبية والحسية كيفية الوقوف على تحقيق ذلك الوصف في الإنسان الميت! [71]

أما التصور المعرفي الذي ينتصر له الدكتور فليس فيه شيء اسمه عالم شرعي أصلا، وإنما يصبح المتخصص في علم الأحياء هو المرجع الأعلى والأوحد في فهم جميع النصوص الشرعية ذات الصلة بنظرياته وأبحاثه التجريبية، أيا ما كانت موضوعاتها، ومهما ذهب القوم بها كل مذهب! فإذا عرفنا أن موضوع العلم التجريبي المزعوم الذي ينتصر له الدكتور، إنما هو موضوع غيبي محض، فإما أن تقدم فيه كلمة العالم الشرعي صاحب الفهم الموروث، أو كلمة المنظر الدارويني صاحب الميتافزيقا الطبيعية! أو بإيجاز نقول، هي قضية معرفية إما أن يعتنق المسلم فيها مذهب أهل السنة والجماعة، وإما مذهب الجهمية، لا ثالث لهما!

ثم قال (ص. 337): "ثامنا: علينا أن نفهم مدلول اصطلاح نظرية. يقول قائل: نقبل ما ذكرت عن "حقائق" العلم، ولكن أليس التطور "نظرية" تحتمل الصواب والخطأ، ولم تصل إلى مستوى حقائق العلم؟ يرجع اللبس في هذا الأمر إلى فهم العامة الخاطئ لتعريف النظرية، لذا أنقل عن فضيلة الدكتور الشيخ علي جمعة تعريفه للنظرية، إنها "تلخيص المسائل الرئيسية عن القضية الأم في مقولة جامعة معبرة، وتدور حولها المسائل الفرعية لهذه القضية". ولا علاقة لهذا التعريف بالصحة والخطأ، فالنظرية صحيحة إذا قامت عليها الأدلة القوية، وخاطئة إذا لم تساندها أدلة كافية. هل سمعنا من

يقول إن "نظرية فيثاغورث" أو "نظرية الجاذبية الأرضية" مثلا تحتمل الخطأ والصواب لأنها نظرية؟! ونظرية التطور ينطبق عليها هذا الفهم، فهي نظرية عيارية راسخة تلخص القضية الأم وتجيب على التساؤلات التي تثيرها المسائل الفرعية، وقد جعلت منها الأدلة القوية حقيقة علمية ينبني عليها علم البيولوجيا بفروعه المختلفة. [72]" اهـ.

قلت: بل والله فهمك أنت هو الخاطئ لمفهوم النظرية يا دكتور، وأنت بوصف العامي وشبه العامي في فلسفة العلم أليق وأحق ممن رميتهم به هكذا جزافا، والله المستعان! وآية ذلك التي لا يخطئها أدنى القراء حظا من الاطلاع على تلك الأبواب، أنك لما أردت أن تأتينا بتعريف للنظرية Theory، لم تستخرجه من كتب فلاسفة البيولوجي خاصة أو فلاسفة العلم الطبيعي عامة كما كان هو المتوقع ممن درس ما يلزم أن يدرسه في هذه القضية قبل أن يتصدر فيها، وإنما اخترت أن تنزعه من كلام للدكتور علي جمعة، مفتي الديار المصرية الأسبق، وكأنما تظن أنك بذلك تلزم مخالفيك بأن يقبلوا التعريف لمجرد أن صاحبه كان يشغل منصب مفتي الجمهورية في يوم من الأيام! يا دكتور، هذا التعريف المجمل غير المانع، الذي حرره الدكتور علي جمعة ليس هو تعريف النظرية عند البيولوجيين، ومن الواضح أنه ليس هو مفهوم النظرية الذي ينطبق على نظرية التطور، ومن الأوضح والأظهر أنه لا علاقة له بمبرهنة فيثاغورس Pythaorean Theorem (وليس "نظرية" فيثاغورس!! [73])، ولا بمفهوم الجاذبية! هذا التخليط والله لا يقبله طالب في السنة الأولى من دراسة فلسفة العلم في أي جامعة محترمة!

دعنا، أيها القارئ الكريم، نبدأ ببيان التعريف الأشهر للنظرية العلمية Scientific Theory عند أصحاب الطبائعيات والتجريبيات، فنقول (كما هو مبثوث في الكتب الموسوعية وكتب التقديم لفلسفة العلم) إنها تلك الفرضية التفسيرية Explanatory Hypothesis لظاهرة أو أكثر من ظواهر العالم المحسوسة Natural Phenomena، التي يستند في تسويغها على تأويل جملة من الحقائق والمشاهدات التي أثبتتها العادة والحس والتجربة Observation and Experiment. أو هي مجموعة من الفرضيات Propositions المتناسقة فيما بينها، الموضوعة لتفسير عدد من الحقائق والمشاهدات Facts. أو هي الطريقة النظامية Systematic Method المقترحة لتأويل جملة من الحقائق والمشاهدات. وفي موسوعة بريتانيكا المعروفة، تعرف النظرية العلمية على أنها "ذلك الهيكل الفكري النظامي systematic Ideational Structure واسع النطاق، الذي ينتجه الخيال البشري، ليغطي عائلة من القوانين الإمبريقية المتعلقة بنظاميات معينة موجودة في الأشياء والحوادث، سواء كانت تلك النظاميات مشاهدة بصورة مباشرة أو مستنبطة من الواقع." اهـ. فعلى جميع تلك التعريفات ونحوها، توصف النظرية بأنها فرض ظني تخيلي، يوضع من أجل تفسير جملة من الوقائع المشاهدة والحقائق الواقعة تحت العادة البشرية. وبطبيعة الحال، فليس وضع نظرية لتفسير حادث من الحوادث التي اعتدنا نحن البشر مشاهدتها ومشاهدة أسبابها بصورة مباشرة، كوضع نظرية في تفسير حوادث هي من الغيب المطلق الذي لا نظير له في تجرتنا إلا ما يجعله المنظر الطبيعي نظيرا بالتحكم المحض!

هذا النوع الثاني، هو ما يغرق أصحابه – بالضرورة وبمقتضى منهج النظر نفسه - في تكافؤ المشاهدات من حيث جواز استحداث التأويل لصالح النظرية المعينة واستحداث تأويلات أخرى لصالح أي نظرية أخرى تخالفها، بالنظر إلى افتقار الفيلسوف الطبيعي لمستند استقرائي أو خبرة سابقة في تطبيقه للمنطق التفسيري Abductive Reasoning في تلك القضايا الغيبية المحضة، كما بيناه بتوسع في الباب الثاني من هذا الكتاب. فأي تنظير تفسيري من هذا الصنف، في أمثال تلك المسائل، فلا يكون إلا ضربا من الوهم والتخمين والخيال المحض، لا يمكن التوصل إلى إثباته أو نفيه باستعمال آلة البحث التجريبي Scientific Method، ولا إلى تعضيده أو تضعيفه بالمشاهدات والتجارب والمراصد على أيما وجه طُلب ذلك! هذا التكافؤ المبطل للاستدلال، انتبه إليه كثير من نقاد النظرية من أهل القبلة من زمان الشيخ حسين الجسر رحمه الله (كما مر معك نقل كلامه) وإلى يومنا هذا، وإن لم يحرروا أصل الآفة العقلية والمغالطة المنطقية الكبرى في منطق الاستدلال وفلسفة العلم عند هؤلاء! ولهذا، يصيب مخالفوك –

دكتور – كبد الحقيقة، في كل مرة يقول قائلهم تهوينا وتضعيفا إن دعوى التطور والترقي من أصل مشترك منحط هذه "ليست إلا نظرية"، بل أزيدك من الشعر بيتا وأقول، ليست إلا خرافة ميثولوجية دهرية، العلم والمنهج العلمي التجريبي الصحيح منها براء، وإن قامت عليها كافة أكاديميات وجامعات البيولوجيا المعاصرة في أقطار الأرض! فكفاك تهويلا وتلويحا بمسألة التخصص هذه يا دكتور، فإنه لا يخدم بدعتك في شيء، وكلامك هذا إنما يبين أنك أبعد المتصدرين في تلك البابة عن الإلمام بذلك المجال الفلسفي الدقيق الذي يدرس أصحابه تلك القضايا المنهجية الكلية دراسة أكاديمية تخصيصة، والله الهادي!

وصدق القائل:

دع عنك الكتابة لست منها ..... ولو سودت وجهك بالمداد

ثم يقول الدكتور: "تاسعا: أصبحنا ملكيين أكثر من الملك: تعتمد التفاسير التراثية في تفسير آيات الخلق (إلى حد كبير) على سفر التكوين في التوراة وعلى شروحه. وما زال المفسرون المعاصرون المعارضون لمفهوم التطور يرددون هذه الشروح، ذلك بالرغم من أن الكثيرين من اليهود والمسيحيين صاروا ينظرون إلى سفر التكوين باعتباره تصويرا أدبيا بليغا يشير بشكل رمزي لمعان مهمة في قصة الخلق، وليس باعتباره وصفا تاريخيا علميا دقيقا لأحداث هذه القصة. أما نحن فما زال بعضنا متمسكين بما نقلوه عنهم تحت اسم الإسرائيليات، ويدافعون عنها باستماتة كأنها من أصول العقيدة." اهـ.

قلت: هذا كذب صراح، والله المستعان! من أين لك الزعم بأن "التفاسير التراثية" تعتمد في آيات الخلق، إلى حد كبير أو صغير أو غير ذلك، على سفر التكوين في التوراة وعلى شروحه؟ وما قيمة ما نزعم نحن المسلمين أن الله قد أنزله علينا من العلم في هذه القضية أو غيرها، إن كنا لا نجد طريقا نفهم منه معاني تلك النصوص التي نزلت علينا في الكتاب (كلها أو بعضها) إلا أسفار اليهود والنصارى؟ أي شروح هذه التي لا يزال المفسرون المعاصرون المعارضون لمفهوم التطور (وهم جميع من يعتبر به من علماء الملة!) "يرددونها" يا دكتور، وما شأننا نحن بما صار إليه سفر التكوين من إجماع أصحابه على تضييعه وتحويل ما فيه من ذكر لأفعال الخلق الإلهي إلى رموز لا حقيقة لوقوعها تاريخيا؟ وأي تعظيم للقرآن ولجناب القرآن يتصور وجوده في رجل يزعم أن سائر علماء الأمة ما فهموا نصوص القرآن في بابة كاملة من أبواب الاعتقاد الغيبي، إلا بالتأسيس على نصوص محرفة، لم يعد أصحابها أنفسهم يقيمون لها وزنا أو يرفعون بها رأسا فيما بينهم؟ كيف

ظن الرجل أن ذلك الكذب والهراء والافتراء على سلف الأمة قد يروج بين المسلمين؟؟ حسبنا الله ونعم الوكيل!

هو يريد أن يقول لقرائه: إذا كانت الكنيسة التي سبقتكم إلى القول بظاهر النصوص في سفر التكوين، قد تحولت اليوم كلها إلى القول بالمجاز والرمز، فما الذي يمنعكم أنتم من سلوك نفس المسلك مع آيات الخلق عندكم؟؟ يقول ما حاصله: ألم تعتذر الكنيسة لغاليليو رسميا بعد ثلاثمئة وتسع وخمسين سنة؟ ألم يصدر بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني في أكتوبر 1996 تصريحا يعلن فيه أنه لا تضارب بين الإيمان بخلق الله الإنسان وبين الإقرار بأن ذلك قد حدث بآلية التطور، ما دمنا قد آمنا أن الله هو الذي ينفخ الروح في البشر؟ هذه هي الاستنارة وهذا هو العقل والعلم! أعاد القوم النظر في الشروح التراثية والتقليدية بخصوص خلق الإنسان، وصاروا يشرحون السفر في ضوء ما "تكشف من حقائق العلم"، فأين أنتم من تلك الاستنارة؟؟

ينقل لنا كلاما للاهوتي نصراني في القرمطة على سفر التكوين ثم يعلق قائلا: "ما أروع هذا الفهم! ألسنا نحن أصحاب النص المعصوم أولى بمثله. لكننا ما زلنا متمسكين بما تخلوا هم عنه، ما زلنا متمسكين بالإسرائيليات." اهـ.

قلت: أي نص معصوم وأي عصمة يا دكتور، تثبت لنص يجري عليه هذا الإقلاب والتحويل في التأويل، ويثار على فهمه الموروث تلك الثورة الكاملة، حتى لا يبقى في أهل الملة من يصحح فهمه القديم الذي ورثه الخلف عن السلف؟؟ وأي مزية أو فضل يكون لنصوص المسلمين على نصوص أهل الكتاب إن صحت تلك الدعوى الشاهينية الباهتة التي جعلتم بها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عالة على "الإسرائيليات" وعلى "شروحات سفر التكوين"، لا يملكون إلا النقل عنهم حتى يفهموا ما جاء في كتاب ربهم، وكأن الله ما أنزل عليهم كتابا ولا أرسل لهم رسولا أصلا، ولا خصهم بفضل ولا علم ولا حكمة، ولا أنزل في القرآن على أهل الكتاب أنفسهم فرقانا في بيان الحق من الباطل والصدق من الكذب فيما بين أيديهم من أخبار الغيب، وإنما أخذ المسلمون دينهم عن كتب الأولين وزعموا الاتصال بالوحي كذبا وزورا كما يتهمهم به المستشرقون، ولا حول ولا قوة إلا بالله! والله ما بقي لكم يا أصحاب نظرية الإسرائيليات هذه إلا أن تصرحوا بأن كتاب المسلمين ليس إلا نقلا معربا عن كتب بني إسرائيل، كله من أوله إلى آخره!

هذا هو مقتضى مذهبكم الفاسد على أي حال، إذ ما فائدة كتاب ينزل على أمة من الأمم، ثم لا يكون بين أيديهم إلا كالطلاسم والرموز التي لا يفهمها

أحد منهم إلا بالرجوع إلى كتب أمة سابقة عليهم؟؟ لا فائدة على الإطلاق! وإذن يصبح الوحي والتنزيل عبثا ولغوا لا داعي له، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا! بل أنزل الله القرآن مهيمنا على كتب السابقين، وفرقانا بين ما فيها من حق وباطل، وكشفا لما وقع فيها من التحريف والتبديل، كما قال جل شأنه: ((إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)) [النمل : 76] وكما قال سبحانه ((وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ)) الآية [المائدة : 48] فهم المفتقرون إلينا وإلى ما أنزله الله على نبينا الخاتم صلى الله عليه وسلم من ذكر وفهم وعلم وبيان ورثه عنه الأصحاب وتابعوهم كما ورثوا النص نفسه، ولو كانت رسلهم وأنبياؤهم أحياء في زمان التنزيل ما وسعهم إلا اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، ولو بعثوا فينا اليوم ما وسعهم إلا الأخذ عن أصحابه ومن تبعهم كما نأخذ، كما قال عليه السلام فيما صح عنه "لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني"، وكما أخذ الله على كل نبي منهم الميثاق كما في قوله: ((وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ)) [آل عمران : 81]! فتأمل أي ضلال وأي زيغ وأي ضياع بلغ بهؤلاء الزنادقة حتى جعلونا عالة على أهل التحريف والتبديل من أهل الكتاب في فهم نصوص ديننا، ولا حول ولا قوة إلا بالله! يقولون: ألستم قد أخذتم عنهم الدين والفهم من قبل؟؟ فإذا كانوا هم قد تراجعوا عما قالوا، وأجمعت كلمتهم على ذلك، فما بالكم تتمسكون بما تخلوا هم عنه؟؟ أتريدون أن تكونوا ملكيين أكثر من الملك؟؟

فما نقول إلا: حسبنا الله ونعم الوكيل!

ولا يقولن قائل إن تفاسير السلف فيها من الأخذ عن بني إسرائيل ما لا يسعكم إنكار وجوده، فنحن لا ننكر مطلق وقوع التحديث عن بني إسرائيل، ولكنه يا هؤلاء إنما وقع في حدود ما أذن به الرسول صلى الله عليه وسلم، في إطار منهج رباني محكم لا يختلط فيه باطلهم بما عندنا من الحق، ولا يشوش على علو القرآن وهيمنته على كتب الأولين! وهذه قضية اعتقاد يجب أن يحررها المسلمون تحريرا جازما! فإنه لما اكتمل الوحي في بيان الحق فيما حرفه بنو إسرائيل، واكتمل للمسلمين فهمهم لما جاء به القرآن من ذلك، جوز النبي عليه السلام التحديث عن بني إسرائيل (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) من باب الاعتبار وبيان علو الحق الذي أنزله الله على رسوله الخاتم وهيمنته على جميع ما بقي بين أيدي أهل الكتاب من نص

موروث، لا قبل ذلك! فأنت إذا تتبعت ما في كتب المفسرين المتقدمين من استئناس واستشهاد بالإسرائيليات، فلن تجده إلا نقلا في مقام تفصيل ما أجمله القرآن في بعض القصص، وهي زيادة إما أن يكون الموقف قبولها لوجود ما يصدقها في مواضع أخرى من القرآن أو في السنة الصحيحة، وإما أن يكون الموقف ردها لوجودا ما يكذبها، وإما أن يكون الموقف فيها التوقف فلا نصدق ولا نكذب. أما النقل عنهم في مقام فهم معاني الألفاظ نفسها وتأويل نصوص القرآن نفسها فهذا لم يقع أبدا لا في الأولين ولا في الآخرين! وأنا أتحدى الدكتور وأتباعه وغيرهم ممن وافقوا عبد الصبور شاهين في بدعة اتباع السلف بني إسرائيل في الفهم والتفسير، أن يخرجوا لنا نصا عن بعض مفسري السلف، يستعان فيه بالإسرائيليات استعانة أصلية في فهم معاني بعض الألفاظ التي لا يجد المفسر طريقا لفهمها إلا ذلك! أو بعبارة أخرى نتحداهم أن يخرجوا لنا تفسيرا لو أهملنا فيه النص الإسرائيلي لعجزنا عن فهم معاني الآيات باستعمال آلات السلف والأئمة في التفسير، سواء في آيات الخلق أو في غيرها! هذا لم يقع وما كان ليقع، سبحان الله عن وقوع ذلك العور في دينه الخاتم وتعالى علوا كبيرا!

فعندما يقول هذا الجهول: "لكننا ما زلنا متمسكين بما تخلوا هم عنه، ما زلنا متمسكين بالإسرائيليات"، فهذا عدوان على القرآن لم يسبق له نظير في تاريخ الأمة، وما رأينا مثله إلا عند المستشرقين المجرمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم يقول (ص. 340): "عاشرا: وأخيرا، علينا أن ندرك أن العلم ليس شيطانا ولا سيء النية." ونقول: من جديد يكلمنا الدكتور عن "العلم" وكأنه شخص واحد أو جهة واحدة، إما أن نزكيها كلها أو نقدح فيها كلها! ما تسميه بالعلم يا رجل، أنت والدكتور أحمد مستجير الذي تنقل عنه، خليط فيه ما هو علم حقا، وفيه ما هو كهنوت طبيعي وميثولوجيا دينية دهرية محضة! فمن أعجب العجب أن يتبجح هؤلاء علينا بمسألة العلم الزائف حتى يقول الدكتور (أو من نقل عنه): "إن أهم ما يميز العلم الصادق هو قابليته للتكذيب" اهـ. قلت: فمتى كانت نظرية داروين في أصل الأنواع قابلة للتكذيب الإمبريقي، وما معيار التكذيب عندك يا دكتور؟ الذي زعم أن جميع الأنواع الحية على الأرض إنما نشأت بالتطور عن أصل مشترك منحط، قبل بلايين السنين، هذا كيف الطريق إلى تكذيبه بالمشاهدة الصريحة في تصورك؟؟ فإن لم يبق إلا المشاهدة المؤولة فما مستند التأويل إثباتا أو نفيا؟ عندما تكون جميع مستندات النظرية وأدلتها عند أصحابها تأويلا متوهما للمشاهدات بناء على قياس لا سلطان لهم في اعتماده كفرض تفسيري من الأساس، فكيف يكون هذا "علما صادقا"، قابلا للتكذيب على شرطك أنت؟ هذه كهانة والله، وإن

قال قائلكم ما قال! ولم نأخذ منك ومن أمثالك في هذا على أي حال إلا الخطابة الجوفاء وذر الرماد في العيون، والله المستعان لا رب سواه!

ثم يختم الدكتور هذا الفصل بنقل كلام لمحمد سليم العوا فيه من تسويغ الخلاف مع عبد الصبور شاهين ما يندى له الجبين، ويأباه كل مسلم غيور على ثوابت ملته وأصول اعتقاده، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم ينتقل الدكتور إلى فصل تال بوب له بقوله: "الفصل الثالث عشر: القرآن الكريم وكيف أصبحنا بشرا"! يفتتح الفصل بقوله (ص. 345): "طرحنا في الفصول السابقة ما توصل إليه العلم بخصوص نشأة الإنسان، والآن، ماذا يقول القرآن الكريم حول هذه القضية؟" اهـ. قلت: إذا كان منهجك كما حررته في الفصل السابق يا دكتور، فلا قول للقرآن إذن إلا ما قاله ما تسميه "بالعلم"! وإذن فما فائدة عقد فصل مستقل بهذا العنوان؟؟ الفائدة هي الاستغراق في القرمطة والجناية على كل نص له علاقة ولو من بعيد بمسألة خلق الإنسان، حتى يتم للرجل مشروعه الفلسفي الجهمي الخبيث، فلا يبقى نص في كتاب الله يأتي من يورده عليه في مقام الاعتراض إلا تأوله بما يخدم فلسفته ونظريته، والله المستعان!

يبدأ الدكتور بنقل طويل عن الغزالي في الإحياء، يقرر فيه أن القلب هو الذي يعرف الله وهو الذي يحرك الجوارح في طاعة الله، وأن الجوارح أتباعه وآلته، وهذا حق ولا شك [74]، ولكن لا يورده الدكتور لتقرير الحق، وإنما للانتصار لعقيدته الداروينية المشوهة فيما يتعلق بفضل الإنسان على سائر الدواب! فالإنسان في دينه ليس مخلوقا بيد الله على الحقيقة، ولا خلقه الله في الجنة، ولا خلق جسده من الطين اللازب والصلصال والفخار قبل أن ينفخ فيه الروح كما فهمته قرون المسلمين من القرآن والسنة، كل ذلك عنده من أساطير الأولين! وإنما فضل الله آدم عنده بأن نفخ فيه روحا وهو جنين في بطن أمه سليلة القردة العليا، أكسبته عقلا ميزه به لا بغيره على غيره من الأنواع الحية! فالرجل صاحب عقيدة أسطورية في نشأة الإنسان، أراد بها – كما أراد من أخذها عنهم من قبل – التوسط بين ما في الكتاب وما عند الدراونة، فخلقوا إفكا ومسخا وزورا كانوا به كالمنبتّ، لا وافقوا المسلمين ولا رضي عنهم الدراونة!

ثم رجع الدكتور للكلام على منهج المفسرين بكلام يفضح جهله ويكشف عوار بدعته، فقال (ص. 347):

> وإذا كان علماء المسلمين قد قصروا في الاستجابة للأمر بالسير في الأرض والنظر في كيف بدأ الخلق، فإن المفسرين شحذوا هممهم لبحث هذا الأمر بالنظر في القرآن الكريم، وخرجوا علينا

بالعديد من التفاسير التي تدور حول أحد اتجاهين: الاتجاه الأول: تفاسير التزمت بالمعنى الحرفي لكلمات آيات الخلق، واعتبرت القرآن الكريم كتاب علم، كل كلمة فيه مقصودة بمعناها. كما استعانوا (لاستكمال الصورة) بما ورد في شروح آيات سفر التكوين من التوراة عن خلق الإنسان، وذلك فيما عرف في علم التفسير بالإسرائيليات، حتى إننا نجد في التفاسير عن بداية الخلق من الإسرائيليات أكثر مما نجد من القرآن الكريم. الاتجاه الثاني: أدرك أصحابه من المفسرين أن ما جاء في القرآن الكريم عن خلق الإنسان إنما هو إشارات لا ينبغي الالتزام بحرفيتها، وأن على علماء كل عصر أن يفهموها في ضوء ما يتكشف لهم من العلوم.

قلت: تأمل كيف جعل الرأي المذموم المجمع على بطلانه وذم أهله، منهجا مستحسنا عند المفسرين، مع أن هذا الذي زعمه منهجا مستساغا فيما يتعلق بخلق الإنسان خاصة، إنما هو بدعة كبرى أحدثها بعض المعاصرين ممن لا خلاق لهم عند أهل السنة والجماعة، والله المستعان! ثم تأمل قوله فيما سماه بالاتجاه الأول (الذي عليه أئمة التفسير كافة عبر القرون): تفاسير اعتبرت القرآن الكريم كتاب علم، كل كلمة فيه مقصودة بمعناها! قلت: فهل يستساغ في المقابل، منهج يعتبر القرآن غير ذلك؟ هل يسوغ لمسلم فضلا عن عالم من علماء التفسير أن يعد القرآن "كتاب جهل"، فيه من الكلمات ما لا يراد معناه؟ إن لم يكن القرآن كتاب علم، يراد فيه معنى كل كلمة، فأي شيء هو على دينك؟ سبحان الله وتعالى عن جهلكم علوا كبيرا! إن قابلته بهذا فلعله يدفع عن نفسه بقوله: أنا لا أقصد بنفي كون القرآن كتاب علم، إثبات كونه كتاب جهل، معاذ الله، وإنما أقصد أنه ليس كتابا تخصصيا في علم البيولوجي أو الفيزياء أو الفلك أو غير ذلك من العلوم الحديثة، فلا نتوقع أن نجد فيه حقائق علمية صريحة من جنس ما تثبته تلك العلوم! وهنا يقال له: صحيح إن القرآن ليس كتابا موضوعا في علم من تلك العلوم، وإنما هو كتاب هداية من رب العالمين، إلا أن فيه من الحقائق العلمية ما لا يطمع علم من تلك العلوم في الوصول إلى منزلته من حيث الثبوت المعرفي ومطابقة الواقع في نفس الأمر! كل ما قصه القرآن من قصص فخبره فيه هو أصدق ما يطمع أصحاب علوم التأريخ في التحصل عليه من أنواع المعارف والعلوم التاريخية على الإطلاق، ولن يجدوا ما هو أعظم مطابقة للواقع منه في تلك الأبواب! وكل ما ذكره القرآن من حقائق بشأن السماوات والأرض وما بينهما فهو كذلك أعلى وأصدق ما يطمع عاقل من البشر في التحصل عليه من المعارف في نفس الأمر، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟؟

عندما يخبرك رب العالمين بأن الشمس تجري لمستقر لها، وترى الصحابة والسلف قد انعقد إجماعهم على فهم معين لهذه الآية، أو يخبرك بأنه قد بنى السماء بناء ورفع سمكها وجعلها سقفا محفوظا، أو يخبرك بأنه أتم خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، وأنه خلق أول البشر بيده من صلصال من حمإ مسنون، فكل ذلك لا يكون عند المسلمين "إشارات لا ينبغي الالتزام بحرفيتها"، وإنما هي حقائق علمية معرفية مطابقة للواقع أعظم ما يرجو الإنسان الوصول إلى دركه من المطابقة في نفس الأمر، بل والله لا يرجو أن تصل به المعرفة من طريقه إلى نظيرها في قوة الثبوت بل إلى قريب منها، حتى في توصيفه لأظهر ما هو شاهد بين يديه من نظاميات الطبيعة التي غايته أن يقررها باستقراء العادة! ((أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)) الآية [فصلت : 53]! والله حتى حقيقة أن الأشياء إذا تركناها معلقة في الهواء فلابد أن تسقط إلى الأرض، هذه ليست في معرفتنا بأقوى ولا أثبت (من حيث ثقتنا في اطرادها المستقبلي كنظامية كونية) من علمنا بصدق ما جاء به القرآن على ما فهمه القرن الأول من معانيه! فالعقل يجيز أن أترك كرة معدنية في الهواء فإذا بها ترقى في السماء ولا تسقط إلى الأرض كما هو معتاد، فإذا وقع ذلك فسيشتد عجبي ولا شك ولكن لن يذهب عقلي ولن أعده من وقوع المحالات! أما أن يقع خلاف ما جاءت به النبوة في القرآن، فهذا يحيله العقل ويمنعه أعظم المنع، ولو قدر أن رأيته حاصلا أمامي لم يصح لي – عقلا – أن أقبله، بل تعين علي - فيما لا يقبل العقل السوي موقفا غيره - أن أكذب حواسي، كما قال عليه السلام: صدق الله وكذبت بطن أخيك! أقول لما أراه بعيني رأسي مخالفا لخبر القرآن هذا سحر أو وهم أو هلوسة بصرية، فما بالك بكلام غايته أن يكون تأويلا فوق تأويل على افتراض فوق افتراض في أمر غيبي محض، يجعله أصحابه علما يبارزون به فهم الأولين لكتاب رب العالمين؟؟ ألا شاهت الوجوه!

إن العاقل الذي يثبت لديه أن رب العالمين قد أخبر بشيء ما في كتابه، وينتهي إلى سمعه بطرق متصلة مستفيضة أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين جعلهم الله سببا في وصول ذلك الكتاب إليه، ما فهموا ذلك الخبر إلا على معنى معين، ولم يعرف فيهم مخالف في ذلك المعنى، هذا لا يملك إلا الإذعان والتسليم بصحة ذلك المعنى الذي علمه الرسول نفسه لأصحابه وبأنه هو الحق المطابق للواقع وجوبا، الذي لا يجوز المصير إلى غيره البتة، ولا قبول ما يخالفه أو يوصل إلى مخالفته في نفس الأمر ولو من بعيد! هذا، أيها القارئ الكريم، هو صمّام الأمان المعرفي والعقلي الأول عند من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا، وهو كذلك طوق النجاة الذي لولاه لم نأمن أن نكون نحن اليوم، بعد

أربعة عشر قرنا من بعثة الرسول عليه السلام، على غير الدين الذي علمه ذلك الرسول لأصحابه! لما سئل الصديق رضي الله عنه، فيما جاء به الأثر، عن الإسراء والمعراج كيف صدقه، قال بكل ثقة رضي الله عنه وأرضاه: قد صدقته فيما هو أعظم من ذلك، صدقته في دعواه أن رب العالمين قد أرسله، أفلا أصدقه في هذا؟! هذا هو إيمان العقلاء النبلاء، الذي لا يقبل العقل السوي إيمانا غيره! مهما كان الخبر الغيبي في نصوص الوحيين محيرا للعقل، خارجا عن إمكان التصور وعن مشابهة ما في الحس والعادة، فلا ينسى المؤمن خبر من هو ومن أين جاء به وكيف انتهى إليه! هذا المعنى الذي نقرره في مقام الرد على الدكتور، هو من أصول الدين، إنه أصل الإذعان والتسليم والقبول، الذي هو ركن من أركان الإيمان لا يصح إيمان المسلم إلا به! وإلا فكيف يصح إيمان من جعل شرط قبوله ما يأتيه من معان منسوبة إلى الوحيين أن تكون موافقة لما انتهى إليه نظر هذه الفئة أو تلك من الفلاسفة، طبيعيين أو غيرهم؟؟ من تظنون أنفسكم يا هؤلاء وما ظنكم برب العالمين؟؟؟ ((قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ)) الآية [البقرة : 140] سبحانك ربي ما قدروك حق قدرك! ((وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [الزمر : 67]

ثم إن الدكتور يتناقض – كعادته - إذ يقول إن تلك "الفئة" من المفسرين الذين تناولوا نصوص القرآن على أنها "علم" وعلى أن جميع الكلمات فيها "مقصودة بمعناها"، قد استعانوا بما ورد في شروح سفر التكوين "لاستكمال الصورة"! فأي صورة تلك التي يطلبون "استكمالها" والحال أنهم يعتقدون أن جميع ما في القرآن من الألفاظ مقصود بمعناه، محمول على ظاهره؟ من كان هذا منهجه فقد اكتمل فهم القرآن عنده من طريقه السلفي وبآلته الأثرية، فلا يعوزه شيء لتكميل الفهم والتصور لا من سفر التكوين ولا من غيره! خلافا لمن جعلوا النصوص كلها مجرد "إشارات لا يُلتزم بحرفيتها"، فهؤلاء من يظل الواحد منهم أبد الدهر جاهلا بحقيقة مراد ربه من كلامه، يأتي في تأويله بالنظريات والآراء والأقيسة من كل مكان فلا تكفيه ولا تروي غليله، ولا يدري إلى أي نظرية أخرى يصير غدا! فنقول لهؤلاء: أنتم من اتبعتم أصحاب النظريات في فهم القرآن، كل عصر على فهم جديد، أما أئمة التفسير من أهل الحديث فلم يتبعوا أهل الكتاب ولا غيرهم، قد أغناهم الله عن ذلك، وآتاهم ما به حرروا مراد رب العالمين من كلامه تحريرا محكما، فلا ينقلون من أسفار بني إسرائيل إذا نقلوا إلا للعبرة والاستئناس!

يقول الدكتور في بيان منهج أصحاب تلك الزندقة التي سماها "بالاتجاه الثاني" (ص. 347-348): "لذلك تدور تفسيرات هذا الاتجاه حول الخطوط العريضة للخلق والتي تتمثل في: - أن النصوص القرآنية تشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ولا تحددها، وتبين لنا أن الإنسان مر بأطوار مسلسلة من الطين (كمصدر أول) حتى أصبح بشرا (كطور أخير). – أن القرآن الكريم يكرم الإنسان ويقرر أن فيه نفخة من روح الله، هي التي جعلت سلالة الطين بشرا، ومنحته تلك الخصائص التي يختلف بها عن باقي الكائنات. – يمر جنين الإنسان في قراره المكين بأطوار (نطفة – علقة – مضفة – عظام – كسوة العظام لحما)، وبعد ذلك ينشأ الإنسان خلقا آخر بما أختص به من نفخة الروح." اهـ.

قلت: ما معنى أن التفسيرات "تدور حول الخطوط العريضة للخلق"؟؟ وما معنى "تشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ولا تحددها"؟؟ الرجل يحدث مصطلحات جديدة في علوم القرآن وكأنه أول من يتكلم في هذا الفن في تاريخ الأمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله! هل المقصود أنها مذكورة إجمالا دون تفصيل؟ إن كان كذلك، فهذا كذب على القرآن! فإن الله تعالى الذي قال: ((وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)) [نوح : 14] هو الذي قال في نفس الكتاب: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)) [الحج : 5] وقال: ((ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)) [المؤمنون : 13-14] وقال: ((وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)) [فاطر : 11] وقال: ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)) [غافر : 67]، فكل من شم رائحة العلم بكتاب الله تعالى، يعلم أن هذا هو تفصيل الإجمال في آية نوح، الذي لم يرد في القرآن غيره! فالقرآن عند أهل العلم به، يفسر بعضه بعضا، وإن كره الجاهلون! والأثر عن السلف مستفيض بذلك المعنى بلا مخالف [75]، وليس في ذلك ما يوهم ولو من بعيد، بالمعنى الداروني للأطوار الذي يصر هذا الرجل ومن شاكله من دراونة الجهمية المعاصرين على حشره في كتاب الله حشرا!

قوله: "أن القرآن الكريم يكرم الإنسان ويقرر أن فيه نفخة من روح الله، هي التي جعلت سلالة الطين بشرا، ومنحته تلك الخصائص التي يختلف بها عن باقي الكائنات" قلت: ليس هذا ما لأجله كُرم الإنسان يا دكتور، فكفاك اختزالا وتعطيلا لأفعال الله! الإنسان كرم بابتداء خلقه في الجنة، ثم بخلق الله إياه بيديه سبحانه، ثم بتعليمه الأسماء كلها وأمر الملائكة أن تسجد له!

ثم يقول: "ومع تعدد التفاسير لآيات الخلق في القرآن الكريم، فإن غالبيتها العظمى قد التزمت بمفهوم الخلق الخاص لكل كائن حي على حدة." اهـ. قلت: بل جميع التفاسير المعتبرة عند أهل الشأن قد قررت ذلك المفهوم، ولم يقل أحد من أهل التفسير في تاريخ الأمة بالنشوء والتطور من أصل مشترك! والدكتور يعلم ذلك تمام العلم، ولهذا ينتقل بعدما قرر ما يوهم بأن ثمة قلة من المفسرين قد قالت بخلاف ما يسميه بالخلق الخاص، ليعقد جزءا يجعله تحت عنوان "إرهاصات قبول مبدأ التطور عند بعض المفسرين"! فيرجع من جديد للتدليس على حسين الجسر رحمه الله، ينقل عنه ما يوهم بخلاف مذهبه، ثم يعلق قائلا: "هذا الفهم العميق للعلاقة بين العلم والدين ودور كل منهما يعود إلى أكثر من مائة وعشرين عاما، ليتنا نتبع الآن هذا المنهج عند نظرنا في القرآن الكريم." اهـ. قلت: أي منهج يا رجل؟ هذا تدليس في النقل خبيث كما بيناه آنفا، والله المستعان!

ثم يأتي بنقل من "ظلال القرآن" لسيد قطب وكأنه من أمهات كتب التفسير، والله المستعان! ينقل قول قطب في آية السجدة ((وبدأ خلق الإنسان من طين)) الآية (السجدة: 7): "قد يكون في ذلك إشارة إلى بدء نشأة الخلية الحية الأولى في هذه الأرض، وأنها نشأت من طين، ومن الخلية الحية نشأ الإنسان. ولا يذكر القرآن كيف تم هذا، ولا كم استغرق من الزمن ومن الأطوار، فالأمر في تحقيق هذا التسلسل متروك لأي بحث صحيح، فليس في هذا البحث ما يصادم النص القرآني القاطع بأن نشأة الإنسان الأولى كانت من طين." اهـ. قلت: صدق القائل: الطيور على أشكالها تقع! كتاب الظلال يا دكتور معدود - عند من يعتد بكلامهم من علماء العصر من أهل السنة والجماعة - في جملة الكتب البدعية المغرقة في الزيغ والضلال، وهذا الكلام المنقول يشهد لما نقول، لمن لا يعرف الكتاب!

ومع ذلك، ومع أن الكتاب كما ذكرنا، ومعلوم حال مؤلفه من الجهل بعقيدة السلف، إلا أن الإنصاف يقتضي أن نبين أن الدكتور يكذب في النقل عنه، كما كذب في النقل عن حسين الجسر، إذ لا يبالي بانتزاع الكلام من سياقه ولحاقه حتى يوهم قراءه بكثرة من يوافقهم ومن سبقوه إلى ما سماه سخفا "بإرهاصات قبول مبدأ التطور عند المفسرين"! يقول سيد قطب في الفقرة التالية لتلك التي نقلها مباشرة وفي نفس الصفحة: "غير أنه يحسن - بهذه

المناسبة - تقرير أن نظرية النشوء والارتقاء لدارون القائلة: بأن الأنواع تسلسلت من الخلية الواحدة إلى الإنسان في أطوار متوالية; وأن هناك حلقات نشوء وارتقاء متصلة تجعل أصل الإنسان المباشر حيوانا فوق القردة العليا ودون الإنسان.. أن هذه النظرية غير صحيحة في هذه النقطة وأن كشف عوامل الوراثة - التي لم يكن دارون قد عرفها - تجعل هذا التطور من نوع إلى نوع ضربا من المستحيل. فهناك عوامل وراثة كامنة في خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه; وتحتم أن يظل في دائرة النوع الذي نشأ منه، ولا يخرج قط عن نوعه ولا يتطور إلى نوع جديد. فالقط أصله قط وسيظل قطا على توالي القرون ." اهـ. قلت: فالأمانة العلمية يا دكتور تقضي بإحدى خصلتين: إما أن تترك النقل عن سيد قطب بالكلية، في مقام تريد فيه المكاثرة بذكر من سبق أن مالوا إلى نظير تأويلاتك الداروينية، بالنظر إلى كون الرجل ما زاد في الفقرة المنقولة على أن زعم جواز حمل النص على ذلك المعنى الدارويني (وهو منه جهل وزيغ ولا شك)، ثم كر على النظرية في الفقرة التي تليها مباشرة فأبطلها، وإما أن تنقل النص كاملا دون اجتزاء، حتى لا يتوهم القارئ أن المنقول عنه كان تطويريا مثلك، فضلا عن أن يتوهم كونه ممن قالوا بتطور نوع البشر عن أسلاف سابقين، وإنما غايته أن يكون من مجوزة الخلق بالتطوير فيما سوى الإنسان! ولكن هكذا رؤوس أهل الأهواء، وهذا هو عهدنا بهم، لا يبالي أحدهم عمن ينقل، ولا يبالي بنسبة المنقول عنه إلى غير مذهبه، المهم أن يثير من الرماد ما يكفي لإخفاء عوار بدعته عن أتباعه، والله المستعان!

ثم يأتي بنقل آخر من نفس الكتاب، ينتصر به لدعوى أن الإنسان والحيوان يرجعان إلى أصل واحد، وأن الإنسان إنما يتميز بنفخة الروح التي تصيره خلقا آخر في رحم أمه، فيقول: "كما نقرأ حول قول الحق تعالى: ((ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)) [المؤمنون : 14]: "هذا هو الإنسان ذو الخصائص المتميزة. فجنين الإنسان يشبه جنين الحيوان في أطواره الجسدية، ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقا آخر في آخر أطواره الجنينية. ولا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبته الحيوانية، فيتطور إلى الإنسان تطورا آليا – كما تقول النظريات المادية – فهما نوعان مختلفان، اختلفا بتلك النفخة الإلهية التي بها صارت سلالة الطين إنسانا. إنما الإنسان والحيوان يتشابهان في التكوين الحيواني، ثم يبقى الحيوان حيوانا في مكانه لا يتعداه، ويتحول الإنسان خلقا آخر قابلا لما هو مهيأ له من الكمال"." اهـ.

قلت: هذه فلسفة واهية لا أساس لها! فليس سبب كون الإنسان إنسانا "قابلا لما هو مهيأ له من الكمال" هو أن الله ينفخ فيه الروح في بطن أمه،

فجميع أنواع الدواب لها أرواح تنفخ فيها ثم تقبض منها عند الموت كما قدمنا، وجميعها تعبد الله وجميعها تسجد له وتسبحه على كيفية تليق بكل نوع منها بحسبه، وجميعها تحشر يوم القيامة كما قدمنا ((وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)) [الأنعام : 38]، وإنما تميز الإنسان بكون عقله مهيأ معرفيا، وجوارحه مهيئة عضويا للتكليف الذي خلق من أجله. فدعوى أن التميز الآدمي إنما يرجع كله إلى نفخة الروح، هذه فلسفة تخالف ما تدل عليه النصوص! ومع ذلك، فحتى مع هذه المخالفة، فالرجل يصرح في النص المنقول نفسه بأن الحيوان لا يمكن أن يتجاوز مرتبته الحيوانية ويتطور إلى الإنسان تطورا آليا كما تقول نظرية داروين! ومع ذلك يهمل الدكتور هذا الجزء – مع كونه ينقله بحروفه! – ويدعونا للنظر إلى قوله "اختلفا بتلك النفخة الإلهية التي بها صارت سلالة الطين إنسانا" لنأخذ منه "إرهاصات قبول مبدأ التطور"! فإذا كان الإنسان لا يمتاز عن الحيوان إلا بنفخة الروح التي لم تخلق بالتطور، فلابد أن يكون الإنسان قد نشأ نشأة داروينية محضة في جميع ما سوى الروح، فظلت أسلافه المزعومة في منزلة الحيوان الذي لا روح فيه، حتى انتهى النسل أخيرا إلى تلك النفخة في آدم في بطن أمه المزعومة، التي صيرته إنسانا!

ثم ينقل قولا آخر عنه إذ يقول: "وقد يثبت التطور على نحو ما يقول دارون أو على أي نحو آخر، ولكن يبقى النوع الإنساني متميزا بأنه يحمل خصائص معينة تجعل منه إنسانا، ليست هذه الخصائص نتيجة تطور آلي إنما هي هبة مقصودة من قوة خارجية". وهذا صريح في كون قطب يرى أن الإنسان خلق خلقا خاصا، بعيدا عما "قد يثبت" من تطور الأنواع الأخرى بعضها من بعض! ومع ذلك يسوقه الدكتور في مقام الانتصار لما سماه "بالإرهاصات" لقبول نظرية تطور الإنسان من نوع منحط عند من سماهم "بالمفسرين"، ثم يقول بكل أريحية: "أليس هذا هو التطور الموجه؟؟"! ونجيبه فنقول: نعم ليس هذا هو التطور الموجه! ومع ذلك، فلنفرض أنه كان تطورا موجها كامل الأركان، وأن قطبا والجسر كانا تطويريين على نفس مذهبك، بل ولنفرض أنك قد اجتمع بين يديك عشرون مفسرا (ممن هم متخصصون في علوم التفسير) يقولون بالتطور الموجه ويحملون عليه آيات خلق الإنسان، فكان ماذا؟؟ بدعة المبتدع وجهمية الجهمي وزندقة الزنديق ليست حجة على إجماع المسلمين!

ثم يمضي الدكتور ليرهب المخالف بدعوى أن الأصل التطوري المشترك لجميع الأنواع قد أصبح حقيقة منصرمة لا تقبل النزاع، وأن "البيولوجيا الجزيئية" قد حسمت الأمر أخيرا، وإذن، فبما أن المفسرين الأقدمين لم

يعرفوا "أسلوبا للخلق" سوى "الخلق الخاص"، واليوم أصبحت النظريات تفيد بأن الخلق كان "تطويرا"، فلا عذر للمفسرين المعاصرين للبقاء على ذلك الفهم القديم الذي يضع "العلم" (بزعمه) في مواجهة "الدين"! يقول: "لا ينبغي أن يتهرب المهتمون بالعلم وبالدين من القيام بواجبهم للخروج من هذا الصراع. لقد مضى وقت الفرار من حقائق العلم إيثارا للسلامة وراحة الدماغ. وأصبح ينبغي على كل ذي قدرة (علمية ودينية) أن يبذل أقصى جهده لفهم آيات خلق الإنسان في القرآن الكريم في ضوء العلم الحديث ثم طرح هذا الفهم على المهتمين، ولن يكون جهده هذا ضائعا أبدا، فإن أصاب فيه فله أجران، وإن أخطأ فله أجر." اهـ.

ثم ينتقل الدكتور لاستعراض كتاب بعنوان "قضية الخلق" لكاتب يدعى الأستاذ الدكتور حسن حامد عطية [76]، مثنيا عليه ومبينا أنه كتاب عميق في فهم كل من "العلم" و"الدين" وأنه قد انتفع منه انتفاعا كبيرا! فتحت عنوان "التطور الموجه وقصة خلق الإنسان في القرآن"، يشرع الدكتور في استعراض الكتاب بعباراته هو، فيقول (ص. 351): "لا شك أن من معجزات القرآن الكريم أنه يخاطب الناس على حسب ثقافاتهم، سواء كانوا متزامنين أو متعاقبين على مر الأجيال. وكلما كشف الله عز وجل لجيل ما عن علم جديد ربما تغير تبعا لذلك فهم رجاله لنفس اللفظ ونفس الآية، فيفسرونها تفسيرا أدق. لذلك حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يفسر من آيات كتاب الله عز وجل إلا أقل القليل، ومن ثم ينبغي (من باب أولى) ألا نقف عند تفسير السلف باعتباره التفسير الوحيد المعتمد!" اهـ. قلت: قوله "من معجزات القرآن أنه يخاطب الناس على حسب ثقافاتهم"، إن كان يقصد به أن القرآن يفهمه المثقف المتعلم كما يفهمه الأمي الجلف، فصحيح ولا شك! ووجه الإعجاز في ذلك أنه لو كان من عند غير الله، لجاز أو يوجد في الأمم المخاطبة به عبر الزمان والمكان من يتعلم لسان القرآن ومع ذلك لا يفهمه، كله أو بعضه، أو يخفى عليه شيء من معانيه حتى بعدما تعلم معاني الألفاظ العربية كما استعملها المخاطبون الأوائل بالقرآن! لو كان محمد صلى الله عليه وسلم فيلسوفا أو عالما لاهوتيا منشقا عن أحبار أهل الكتاب، كما يزعمه المنصرون والمستشرقون ومن شاكلهم، لجاء القرآن كتاب لاهوت فلسفي محشوا ببراهين حدوث العالم وإثبات الصانع والمناظرة والخصام الفلسفي .. إلخ، وإذن لما انتفع به أحد البتة! ولكن لما كان كتابا سهلا ميسرا للذكر والتدبر والفهم والاتباع، يخرج منه كل عاقل ممن يفهم لسانه عبر القرون والأمصار بالفهم نفسه والعمل نفسه، مهما اختلف مقدار العلم والدراية و"الثقافة" وكذا، عند الفرد وعند المجتمع، دل ذلك على أن الذي أنزله هو العليم الحكيم الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم ما تخفي الصدور، وما تنطوي عليه العقول، الذي بعث رسوله بالحق الجلي

الواضح الذي يطابق تلك الفطرة التي ركبها في آدم وذريته، من يوم أن أهبطه على الأرض وإلى يوم أن يرثها ومن عليها سبحانه! هذا هو الإعجاز في كون القرآن يخاطب الناس جميعا بما يفهمونه!

أما إن كان مقصود الدكتور هو أن ألفاظ القرآن قد أنزلها الله بحيث تختلف معانيها ومراداته منها عند كل إنسان بحسب ثقافته وفلسفته، فيخاطَب كلَّ إنسان بخلاف المعنى الذي يخاطب به غيره، حتى يكون ما عند أحدهم من العلم بمعاني ألفاظ القرآن خلاف ما عند غيره، ويكون الجميع – مع ذلك – مصيبين، فهذا كلام باطل قطعا، لا يقوله إلا زنديق لا خلاق له، أو فيلسوف من فلاسفة ما بعد الحداثة من أصحاب نسبية الحقيقة، الذين لا يقولون بواقع موضوعي واحد في الخارج تطابقه معارف العالِمين به من الناس! فإن قدرنا صحة ذلك الزعم بشأن معاني القرآن، لزمت إحدى خصلتين لزوما ضروريا لا فكاك منه، فإما ألا يكون لألفاظ القرآن متعلق واقعي في الخارج تطابقه معانيها، بحيث يصيب من يفهمها على تلك المعاني المطابقة، ويخطئ من يخالف ذلك، وإما أن يكون ثمة واقع معين في الخارج في تلك الموضوعات التي خاطب الله فيها البشر بالقرآن، ولكنه قصد أن يضلل أكثر المخاطبين بكلامه، فيجعل أكثرهم يفهمونه على خلاف ذلك الواقع!

وسواء هذا اللازم أو ذاك، فكلاهما محض إلحاد وكفر، نسأل الله السلامة! ولا أرتاب في كون الدكتور قد استشعر خطورة هذا الكلام (أو على الأقل على صاحب الكتاب الذي نقل عنه هذا الكلام)، إذ يقول: "وكلما كشف الله عز وجل لجيل ما عن علم جديد ربما تغير تبعا لذلك فهم رجاله لنفس اللفظ ونفس الآية، فيفسرونها تفسيرا أدق." فتأمل قوله "تفسيرا أدق"! لم يجرؤ على التصريح بأن حقيقة مذهبه هي إبطال التفسيرات الأقدم بالكلية!

ولعله استشعر أن جعل مدار الأمر على "تطور العلم" الذي عليه قيام الفهم، كما يتوهم مخانيث الطبيعيين عامة أنه تجري عليه نظريات القوم في تلك الغيبيات (أنها تتطور، فتكون في كل قرن أقرب إلى مطابقة الواقع في نفس الأمر مما كانت عليه في القرن الذي قبله)، يقتضي جعل الفهم الأصح والأدق على الإطلاق لكلام الله تعالى، أمرا ممتنعا لم يصل إليه أحد من المسلمين إلى يوم الناس هذا، ولن يصلوا إليه مهما تطاولت بهم القرون! فكما أن الطبيعيين لا يرون نظرياتهم إلا وصفا تقريبيا للواقع، يرجى له الزيادة في "الدقة" والتفصيل كلما تراكمت بضاعة القوم في ذلك، فكذلك يلزم من يجعل فهم القرآن مشروطا بتلك النظريات! بالأمس كانوا يرون أن البشر وغيرهم من الأنواع الحية قد خلق كل نوع منها خلقا مستقلا، واليوم يرونها قد خلقت كلها بالتطور التدريجي من أصل مشترك، فالله أعلم ما الذي تنتهي إليه نظرياتهم غدا! وواقع الأمر أنهم لا يقولون إن ما

صاروا إليه بعد داروين هو "أدق" مما كانوا عليه قبله، بل يقولون إنه هو الحق وما كانوا عليه باطل! كان الناس على "جهل" ثم "علموا"! [77] فكذلك يلزمهم أن يعتقدوا أن الثورة التنظيرية القادمة في علم الأحياء (إن قدر وقوعها، وهذا أمر نستبعده جدا لعظم ما تأسس على نظرية داروين من نظم اعتقادية دينية غالية عند الطبيعيين) ستطيح بنظرية داروين بالكلية كما أطاحت نظرية داروين بما كان قبلها، وستثبت بطلان ما نحن عليه الآن! أو على الأقل ستزيل كثيرا من تفاصيل الاعتقاد في أصل هذا النوع أو ذاك لتضع غيرها في محلها، أو ستقلب تصورات الطبيعيين لآليات الارتقاء المزعوم وتذيبها في بعضها إذابة كما جرى في الداروينية الجديدية، مقارنة بالنظرية الأولى عند داروين! وإذن فأين المعرفة المطابقة للواقع التي يرجو أصحاب ذلك المذهب الفاسد الانتهاء إليها في العلم بمعاني ألفاظ القرآن؟؟ لا حصول لها إلا الأماني، والله المستعان!

وإذن يصبح التكليف بالسير في الأرض وممارسة النظر التجريبي في طلب العلم بكيفية بدء الخلق (كما في بدعة هؤلاء أن الله كلفنا به!) تكليفا بالمحال، حتى وإن زعموا أن المقصود به ليس النظر في الكيفية التي خلق الله بها الحياة في الخلية الحية، ولكن في أصول الأنواع التي تفرعت عنها بزعمهم! أليسوا قد فرقوا تحكما، وقالوا إن نشأة الحياة نفسها في الخلية الأولى الميتة غيب محض لا وصول إلى البحث فيه من طريق الطبيعيين، وإذن فالتكليف المزعوم في آية العنكبوت لا يطاله ولا يشمله؟؟ فما الذي يؤول إليه جهد القوم في تفصيل أسطورة النشأة المزعومة عندهم، إن كنا نجوز (من حيث مبدأ النظر الطبيعي) أن ينقلب البارادايم الدارويني كله من أوله إلى آخره رأسا على عقب في يوم من الأيام، لصالح بارادايم آخر مخالف بالكلية، إن لم يكن هو نظير ما آل إليه جهد الأولين قبل داروين من الانقلاب في سلة مهملات الطبيعيين؟؟ ليبق العلم بمعاني كافة الآيات المتعلقة بأفعال الخلق الإلهي إذن معلقا، معطلا أو مفوضا فيه إلى أجل غير مسمى، أو على أحسن الأحوال ملعبا للتخمين والافتراض الوهمي والهذيان، رجاء أن ترضى عنا الكنيسة الطبيعية الدهرية المعاصرة وتشهد لنا بأن ديننا لا يورثنا الجهالة والخرافة، والله المستعان!

قوله: "لذلك حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يفسر من آيات كتاب الله عز وجل إلا أقل القليل، ومن ثم ينبغي (من باب أولى) ألا نقف عند تفسير السلف باعتباره التفسير الوحيد المعتمد"، قلت: هذا – والله – كذب أقرع! يا هؤلاء، النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤثر عنه تفسير جميع آيات القرآن، لأن الصحابة كانوا عربا أقحاحا، أغنتهم سليقتهم العربية الأصيلة عن أن يسألوه عليه السلام في أكثر معاني القرآن، إذ أنزله الله

عليهم ميسرا بلسانهم، كما في قوله تعالى: ((فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً)) [مريم : 97] وقوله ((بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)) [الشعراء : 195]! وإنما سألوه فيما أشكل وما تشابه، وهو قليل! فلما تأخر الزمان، وانتشر الإسلام في الأمصار والبلدان، وغلبت العجمة على اللسان، ظهر الداعي للتصنيف في بيان غريب القرآن، ولتفسير ما لم تكن القرون الأولى تجد ما يلجئها للسؤال عن معناه أصلا! فظن أمثالكم من المتهوكين في كتاب الله، لما وجدوا مطولات التفسير يجتهد أصحابها في شرح وبيان كل آية، أن السلف كانوا أمثالهم، "يجتهدون" في تفسير كل آية يتنازعون فيها وكأنما ورثوا الكتاب من قرن آخرين تفصلهم عنهم قرون من اعوجاج اللسان!

وهذا منكم جهل فاضح بالمبادئ الأولى في علوم القرآن، والله المستعان! فأصحاب المطولات في التفسير من أئمة ذلك الفن، إنما أطالوا النفس فيها وبسطوا البحث في كل آية لأن مطلوبهم إنما كان – بالأساس – أن يتوصلوا إلى معرفة ما فهمه هؤلاء العرب الأقحاح من القرن الأول معرفة دقيقة، وتحقيق ما كان عليه لسانهم وتلقيهم للخطاب، لا ليناطحوهم ويبارزوهم ويراجعوهم فيما فهموا منه، فافهموا قاتلكم الله! علم التفسير إنما نشأ بالأساس لهذا الغرض، لغرض أن يعرف المتأخر المبتلى بالعجمة وبانقطاع الوحي، كيف فهم الأولون أصحاب لسان التنزيل، الذين سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه بلا واسطة، كلام الله الذي ما نزل عليهم إلا بلسانهم! هذا هو السبب في وجود تلك المطولات التي صنفها المفسرون، التي اتخذها النوكى من خلف الخلف هؤلاء ملعبا للرأي وللافتيات على الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فالذي لا يفهم هذا المعنى، ولا يراه مدخلا للتعامل مع تلك المصنفات، فليس له الخوض في ذلك الشأن أصلا، ولو اتقى الله في نفسه وفي المسلمين لترك ذلك العلم لأهله!

أنتم وآباؤكم من قبلكم وأولادكم من بعدكم، كلكم عالة في فهم كتاب ربكم على آثار السلف، وإن رغمت أنوفكم! فما أجمع عليه هؤلاء الأكابر من أصحاب النبي عليه السلام وتلامذتهم في بيان معاني القرآن، فهو الحق الذي لا يجوز للمسلم مجاوزته طرفة عين ولا أقل من ذلك، سواء كان الإجماع على قول واحد ما عُرف بينهم غيره، أو على عدم القول بخلاف جملة من الأقوال المعينة التي اختلفوا عليها وما خطر ببال أحدهم – مع ذلك - أن يكون المراد بالنص على خلافها كلها! فعندما يقول القائل: "ومن ثم ينبغي ألا نقف عند تفسير السلف باعتباره التفسير الوحيد المعتمد"، فهذا والله ما يدري ما علم التفسير وما ثمرته وما موضوعه وما غرض أهله من

الاشغال به وما صنعة المتخصصين فيه، وإنما يريد أن يحدث لنفسه طريقة يؤخذ فيها كتاب الله وكأنما عُثر عليه بالأمس القريب في لفافة في قاع بئر أو في جوف كهف، فتفك "طلاسمه" و"رموزه" بالرأي والتخمين الذي لا فرق فيه بين الأولين والآخرين، ولا بين الصحب والتابعين ومن جاء بعدهم، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله! فالواجب أن ينتبه القارئ الكريم إلى أن هؤلاء ليسوا فقط مغردين خارج السرب كما يقال، يخالفون في بعض الآيات بدعوى أن اللغة تتسع، وإنما هم قوم بهت، بدعوا نحلة جديدة وطريقة جديدة في فهم كلام الله ما أنزل الله بها من سلطان، ولا علاقة لها بسبيل المؤمنين الذي أمرنا الله باتباعه! ولو فتح لهم الباب للقول في كتاب الله بتلك الطريقة الفاسدة، لانتهوا إلى اختراع دين غير الدين، وهم لا يرون أنفسهم – مع ذلك – إلا علماء مستنيرين مجددين، والله المستعان لا رب سواه!

ولا يقال هنا – كما قاله بعض من لا خلاق لهم ولا ديانة، وبئس ما قالوا! – إن خلاف الصحابة في فهم كثير من آيات القرآن يدل على أن النبي عليه السلام تعمد أن يتركهم "ليجتهدوا" وليختلفوا، حتى لا يكون كلامه في تفسير "الآيات الكونية" فائقا لتصوراتهم البدائية، خارقا لقدرتهم على الفهم والاستيعاب! هذا لازمه أن النبي عليه السلام ما أدى أمانة التبليغ وما بين للناس كثيرا مما نزل إليهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ونقول: إنما كان أكثر خلاف السلف في القرآن من خلاف التنوع حيث يصح فهم الآية الواحدة على جميع ما أثر عن السلف من أقوال فيها، وتكون تلك الأقوال كلها داخلة تحت مراد الآية بصورة ما أو بأخرى! وأما ما كان من خلاف التضاد أو التباين، فلم يكن ناشئا، على قلته، عن قلة بضاعة الصحابة والسلف في الفيزياء والفلك والطبيعيات، وإنما عن اختلاف مداركهم في فهم بعض المواضع، كما يقع لبعض بني آدم أحيانا في فهم بعض ما يوجه إليهم من الخطاب، مع جزمنا – وهذا هو الصمام المحكم هنا فانتبه – بأن الحق ما خرج عن جملة أقوالهم طرفة عين، وبأنه لا تحقق له إلا من طريق أدوات التفسير والفهم التي كانوا مجمعين عليها، لا من طريق كانت أجنبية عنهم ما عرفوها أصلا في زمانهم، وما خطرت لهم ببال!

ثم يقول الدكتور تحت عنوان "أولا: إنسان أم بشر!":

جاء في سورة الحجر: ((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ . وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ)) [الحجر : 26-29] في هذه الآيات يخبرنا الله عز وجل أنه خلق "الإنسان" من صلصال، وأنه أخبر الملائكة أنه خالق ((بشرا)) من

صلصال، فنظر المفسرون إلى كلمتي إنسان وبشر ككلمتين مترادفتين تحملان نفس المعنى.

قلت: أولا يا دكتور، ليس المفسرون هم من نظروا إلى اللفظتين على أن المراد منهما واحد، وإنما جرى ذلك على لسان الصحابة والتابعين الذين خوطبوا بتلك الآيات، فلم يفهموا منها إلا ذلك الترادف، وكان إجماعهم حجة علينا وعليك وإن كرهت أنت وأمثالك! البشر والإنسان اسمان لنوع واحد عند العرب الذين نزل عليهم كتاب الله، وهكذا كان عند جميع من جاء بعدهم من قرون المسلمين ممن نطقوا بالعربية وصولا إلى يوم الناس هذا، وهو فهم لم يخالف فيه إلا مخانيث الدراونة الذين أكلت قلوبهم الفتنة بتلك النظرية الخبيثة في القرنين الأخيرين، ولم يتكلفوا اختراع ذلك الفارق المزعوم بين اللفظتين إلا رجاء استنقاط القرآن بموافقتها تنطعا وتعسفا، والله المستعان! فالذي يزعم أن لعالم من علماء اللغة في هذا العصر أن "يجتهد" فينتهي إلى التفريق بين اللفظتين من حيث نوع المخلوق الذي يراد بكل منهما في القرآن، فهو مبتدع ضال ولا كرامة! والعجيب أن الدكتور يتكلف ما يوهم نفسه وقراءه بأنه بحث لغوي، فيضع في حاشية الصفحة نفسها (ص. 352) استخراجه لمعنى كل من لفظة "إنسان" ولفظة "بشر" من تاج العروس، فلا ينتهي إلا إلى تقرير ما لا يخالف فيه عاقل من عقلاء العرب لا في زمان التنزيل ولا في زماننا هذا، من كون المراد بالبشر وبالإنسان نوعا واحدا!

ثم يقول في تلك الحاشية إن لفظة "بشر" لا توجد إلا في اللغة العربية فقط، وأنه لهذا السبب لم يجد مترجمو المصحف الذين نقلوه إلى اللغات الأخرى (32 ترجمة حتى سنة 2000 ميلادية، على حد قوله) إلا أن يترجموا كلتا اللفظتين بترجمة واحدة، فيجعلوهما دائما بمعنى "إنسان"! ولا ينتبه الدكتور – وهو يقتحم علما آخر ليس له فيه ناقة ولا جمل، ألا وهو علم المعاني اللفظية في اللغة Lexical Semantics – إلى أن هذا الذي قرره من عجز المترجمين كافة عن نقل لفظة "بشر" إلى أي لفظ (أو عبارة لفظية) في أي لغة أخرى إلا ما يحمل معنى "إنسان"، هذا يقتضي إما جهل جميع المترجمين بمعنى لفظة "بشر" في لسان العرب نفسه، ومن ثم اضطرارهم إلى التسوية بينها وبين لفظة إنسان من باب المرادفة، وإما افتقار جميع اللغات الأخرى التي نقل القوم إليها هذا اللفظ في القرآن، للفظة أو عبارة تفيد بمعنى لفظة "بشر" عندنا، وهو ما يلزم منه أن يكون افتراق معناها عن معنى لفظة "إنسان"، ضربا من الوهم لا حقيقة له، لامتناع أن تستقل لغة واحدة من لغات البشر بمعنى لا يعقله أحد من أهل اللغات الأخرى ولا يجدون في لسانهم ما يعبرون به عنه، ولامتناع أن يقع

ذلك في شيء من ألفاظ القرآن (إن قدرنا جوازه سيمانطيقيا من حيث المبدأ) لكون رسالته رسالة عالمية تخاطب جميع البشر على اختلاف ألسنتهم كما في قوله تعالى: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)) [الأنبياء : 107]!

ولا عجب من أن ينسب جميع مترجمي القرآن إلى الجهل بمعنى لفظ من ألفاظ العربية، من نسب جميع من يُنقل عنهم فهم القرآن من القرون السالفة إلى الجهالة والضلالة في نفس الأمر! كلنا معاشر الناطقين بالعربية، من أولنا إلى آخرنا، علماؤنا ولغويونا ومفسرونا ومترجمو القرآن وغيرهم، كنا نعيش وهما كبيرا وجهالة عريضة لم يزل آباؤنوا وأجدادنا يتوارثونها قرنا بعد قرن صعودا إلى ما قبل زمان التنزيل نفسه، إذ نتوهم أن البشر والإنسان في لغتنا ولغة الأولين هما نوع واحد، حتى جاءنا أخيرا من يقول إن لغة العرب على خلاف ذلك! العرب كلهم كانوا مخطئين واهمين في استعمال لفظة من ألفاظ لغتهم، حتى جاءهم اليوم – أخيرا - من يصحح لهم! فبالله هل هذا كلام من يدري ما اللغة وما الوضع اللغوي وما وظيفة اللفظة عند من يستعملونها، فضلا عن أن يقال إنه من علماء العربية؟ يخرج رجل على أمة من الأمم ليقول لها: "لقد هلكت جميع قرونكم وهم لا يعلمون كيف يفرقون التفريق الصحيح بين كلمتين متشابهتين في لغتهم، حتى جئتهم أنا أخيرا ببيان ذلك!"، فلا أدري والله أأضحك أم أبكي من ذلك السخف المبين، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

تأمل كيف توصل الدكتور حسن حامد هذا إلى ذلك التفريق السخيف، الذي لا صلة له بما يعرفه العرب من لسانهم! قال الدكتور عمرو ناقلا عنه بالمعنى (ص. 352): "لكن دعنا ننظر إلى التتابع الزمني لأحداث الآيات من خلال قواعد اللغة العربية. إن الله عز وجل يقول ((خلقنا الإنسان)) فعل ماض، ثم يخبر الملائكة أنه ((خالق بشرا))، وخالق اسم يدل على المضارع أو المستقبل القريب، لكنه عز وجل يؤكد زمن الاستقبال بقوله، فإذا سويته. إذاً، تبين الآية أن "الإنسان" كان قد خلق فعلا، قبل أن يخبر الله عز وجل ملائكته بأنه سيخلق بشرا من نفس مادة الإنسان (كلاهما من صلصال من حمأ مسنون) بل هو منه، متطور عنه، حيث يخاطبه الله في مواضع كثيرة في القرآن بلفظ الإنسان. وفي نفس الوقت، يخبر الله عز وجل الملائكة أنه سينفخ في هذا البشر من روحه، عندها، على الملائكة أن تقع ساجدة له." اهـ. قلت: هذا المنطق في الاستدلال، قد نقبله ممن يفك رموز بردية هيروغليفية أو لغة قديمة ميتة لا تزال تكتشف الألفاظ فيها اكتشافا أثريا، ثم يتأمل الباحثون في كيفية التوصل إلى فهم معاني تلك الألفاظ! أما لغة (بل لغات) العرب في زمان التنزيل، فقد كتب الله لها الخلود بنزول القرآن بها،

فما من لفظة في ذلك الكتاب إلا اتصل سند المسلمين بمعناها ومصدرها ومشتقاتها وجميع ما في مادتها من ألفاظ، على اختلاف قبائل العرب في نطقها ورسمها، اتصالا متواترا تواترا مطلقا لا انقطاع فيه ولا اضطراب! فإذا قال قائلنا إن اللفظة كذا لم يعرف العرب في زمان التنزيل لها إلا المعنى كذا وكذا، أو لم يفرقوا بينها وبين لفظة كذا المرادفة لها بهذا التفريق الذي أحدثه بعضهم، كان كلامنا ثابتا ثبوتا لا تجد له نظيرا في أي لسان من ألسنة البشر كافة! فإذا انضاف إلى ذلك حقيقة أن إجماع القرن الأول في معاني القرآن حجة على من يأتي بعدهم إلى قيام الساعة، لما هو معلوم بالضرورة من حجية إجماع الصحابة رضي الله عنهم في دين الله تعالى، انحسم الأمر انحساما تاما، وأصبح من حق أحدنا أن يهزأ بالمخالف وأن يجعله نكالا وعبرة لمن يعتبر!

ونقول تنفلا - وإن كنا قد قطعنا الوتين بسيف الإجماع قطعا لا اندمال له - إن استدلال الدكتور بأزمنة الأفعال من أوهى ما يكون، من حيث النظر في معاني القرآن. أي حتى لو سلمنا تنزلا بأن من السلف من ذهب إلى جعل لفظة بشر ولفظة إنسان متغايرين من حيث النوع المخلوق الذي تدل عليه كل منهما (نوع بني آدم)، فإن الكلام المنقول آنفا في الانتصار له يصبح أوهى من خيط العنكبوت! ذلك أنه يبدأ بقوله "إن الله عز وجل يقول ((خلقنا الإنسان)) فعل ماض، ثم يخبر الملائكة أنه ((خالق بشرا))، وخالق اسم يدل على المضارع أو المستقبل القريب، لكنه عز وجل يؤكد زمن الاستقبال بقوله، فإذا سويته." قلت: إن سلمنا تنزلا بأن التصريح بخلق الإنسان هو في اللغة ذكر لحادث مخالف للحادث الذي يفيد به التصريح بخلق البشر، فكلا الحادثين وقعا في الماضي بالنسبة للمخاطب بالقرآن! وإذن فمن أين لك الزعم بأن قوله "خلقنا الإنسان" ليس عبارة عما وقع في الماضي من خلق البشر، وأن مخاطبة الملائكة بقوله (إني خالق بشرا) ليست عبارة عما كان بعد أمرا مستقبلا بالنسبة للملائكة من خلق الإنسان؟؟ ليس في المضارعة في لفظة (خالق بشرا) إلا ما تقتضيه مخاطبة الملائكة من تقرير الاستقبال بالنسبة للوقت الذي وقعت فيه مخاطبتهم بذلك المعنى، وليس في الماضي في لفظة (خلقنا) إلا ما يقرر كون خلق الإنسان ماضيا بالنسبة لنا نحن، فأين ما يؤخذ منه الترتيب الزماني بين الحادثين (خلق البشر وخلق الإنسان) بالنسبة لنا نحن، إذا كانت جهة المضي والاستقبال (من حيث النسبة) منفكة في الخطاب بالآيتين كما ترى؟؟ فقولك بعد: " إذاً، تبين الآية أن الإنسان كان قد خلق فعلا، قبل أن يخبر الله عز وجل ملائكته بأنه سيخلق بشرا من نفس مادة الإنسان" هذه مغالطة ظاهرة يمجها العقل السوي ويأباها اللسان المستقيم!

ثم إنه على تأويلكم هذا، يلزمكم مخالفة نظرية داروين التي ذهبت بعقل أحدكم وبدينه كل مذهب! ذلك أن الله تعالى يقول: ((لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)) [التين : 4] فإن سلمنا تنزلا بصحة ذلك التفريق الواهي بين النوع المراد بالإنسان والنوع المراد بالبشر، لزم أن يكون "الإنسان" مخلوقا من أول يوم على أحسن تقويم كما تنص عليه آية التين صراحة، وإذن فما وجه أن يكون "البشر" قد خلق منه تطورا؟؟ لا تطور إذن ولا تغير أصلا، إذ ليس بعد تحقق "أحسن تقويم" ما يرجى أن يكون أحسن منه، بل لا يبقى من تغيير في النوع وصفات النوع إلا النزول عن تلك المنزلة، أو على الأقل الانتقال إلى حال أخرى تكون في نفس المنزلة لا في منزلة أحسن منها أو أكثر تطورا، فتأمل!

ثم يأتي بشبهة أخرى هي في الوهاء كسابقتها، فيقول: "ويؤكد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي اختلاف معنى الإنسان عن معنى البشر بقوله إنه لا توجد مرادفات في كتاب الله، كل كلمة لها معناها الدقيق، وإن تشابهت الكلمات في ظاهر معناها." اهـ. قلت: هذه المسألة، هل يقع الترادف في القرآن أم لا يقع، الخلاف فيها عند علماء اللغة وعلماء القرآن قديم، وليس قول الشعراوي فيها هو المرجع عند أهل ذلك الشأن! وكون صاحب هذا الكلام لم يجد إلا أن ينقل كلام الشعراوي، هذا يشعرك بأن غاية بضاعته في علم التفسير، سماعه لحلقات تفسير الشعراوي التي تبثها الفضائيات، والله المستعان!

نقول إن الخلاف في تلك المسألة قديم، فمن علماء اللغة كالفيروزابادي وابن السكيت وأبي مسحل الأعرابي وغيرهم من ذهب إلى وجود الترادف، ومنهم من منع ذلك كأبي هلال العسكري في "الفروق اللغوية" وابن جني في الخصائص والثعالبي في فقه اللغة وغيرهم. ولكن، ومع ذلك، فسواء على مذهب المانعين أو مذهب المجيزين، فلا مدخل البتة لتقرير ما يريد هؤلاء الدخلاء تقريره في الفرق اللغوي بين اللفظتين "إنسان" و"بشر"، حتى على التسليم تنزلا بعدم ثبوت الإجماع! ذلك أن الترادف الذي ينتفي وقوعه في القرآن عند النفاة، هو تعدد الألفاظ المفردة (غير المركبة) الدالة على شيء واحد على سبيل التطابق التام في الدلالة واتحاد المعنى اتحادا كاملا باعتبار واحد! أي أن تكون اللفظتان مشتركتين في المعنى اشتراكا تاما من كل وجه، متطابقتين تطابقا تاما، بحيث يصح استعمال إحداهما في محل الأخرى في كل مناسبة وفي كل حال، والصواب انتفاء وقوع ذلك في شيء من ألفاظ القرآن، لأنه يلغي الحكمة مما نجده فيه من تباين الاستعمال اللفظي مع إرادة معنى مشترك بين موضع وموضع! والذي يظهر أن إثبات كون التباين في الاختيار اللفظي بين موضع وموضع راجعا إلى

فوارق دقيقة في المعنى، هو أحكم وأبلغ وأكمل في حق الله تعالى من اعتقاد كون التباين في اختيار الألفاظ عريا عن ذلك، والله أعلم!

ولكن، وهنا بيت القصيد، ينبغي التنبه إلى أن كلا الفريقين (مثبتة الترادف ونفاته) يتفقان على مطلق وقوع الاشتراك المعنوي بين بعض الألفاظ في القرآن في إرادة شيء واحد (إجمالا)، فمنهم من يثبت ذلك مع إثبات فوارق دقيقة بين اللفظتين (وهم نفاة الترادف)، ومنهم من يثبت ذلك مع نفي تلك الفوارق (وهم مثبتته). فصحيح إن لفظة "إنسان" لا تطابق في دلالتها لفظة "بشر" تمام المطابقة من كل وجه وفي كل استعمال كما تقوله المثبتة، إلا أن نفاة الترادف يتفقون مع مثبتته على إثبات اشتراك اللفظتين جميعا في معنى واحد على الأقل (إجمالا)، ألا وهو نوع آدم وذريته، فلا تستعمل هذه اللفظة أو تلك في أي موضع إلا كان هذا النوع هو المراد وجوبا وعلى سبيل الإجمال! أي أن العالم بالعربية، سواء أثبت وقوع الترادف في القرآن أو نفاه، فلن تجده يخالف في كون المراد بكل من لفظة "بشر" ولفظة "إنسان" هو آدم وذريته!

وإني لأقطع بأنك يا دكتور لو سألت الشعراوي نفسه الذي نقلت كلامه وقررت مذهبه في المسألة: "هل ترى أن لفظة إنسان ولفظة بشر تختلفان في كون إحداهما يشار بها إلى آدم وذريته والأخرى يشار بها إلى غيرهم؟"، فما كان ليجيبك إلا بالنفي القاطع، ولاستغرب منك ذاك السؤال أعظم استغراب! إن لم يكن آدم إنسانا وكذلك ذريته فمن هو الإنسان؟ وإن لم يكن هو وذريته بشرا فمن هم البشر؟

والعجيب أن الفوارق الدقيقة بين اللفظتين "بشر" و"إنسان" قد أورد بعضها الدكتور نفسه في الحاشية المشار إليها آنفا، بما يدل دلالة ظاهرة على أصل الاشتراك المعنوي! فإثبات مواضع الافتراق يقتضي إثبات مطلق الاشتراك بداهة! فلفظة بشر تطلق هي نفسها ويراد بها بنو آدم على سبيل المفرد والمثنى والجمع على السواء، خلافا للفظة إنسان التي لا يراد بها إلا المفرد، ولا تثنى، وتجمع على "أناسي"! ولفظة بشر يراد فيها إلى جانب معنى بني آدم، معنى البشرة، التي هي الجلد الأملس الذي لا يكسوه الفرو أو الشعر، وفي ذلك إشارة إلى خصوصية ذلك النوع بخلقة حسنة لا يشاركه فيها غيره من الأنواع! ولفظة إنسان فيها معنى المؤانسة (التي عبر عنها الدكتور بقوله إن الإنسان يعيش كجماعات لا كأفذاذ) وفيه معنى النسيان كذلك، وكلا المعنيين لا تنطوي عليهما اللفظة "بشر"! والقصد أن كلتا اللفظتين يراد بهما النوع نفسه (نوع آدم وبنيه) وإنما تختلفان في اشتمال كل واحدة منهما على الإشارة إلى صفات معينة في الشيء نفسه الذي تشتركان في إرادته، لا تشتمل عليه الأخرى. ونظير ذلك اشتراك لفظة أسد

ولفظة غضنفر في إرادة الحيوان نفسه، وإنما تختلف اللفظتان في كون لفظة غضنفر يشار بها خاصة إلى الأسد الضخم عظيم الجثة! وتختلف لفظة ليث عنهما جميعا في كونها تفيد معنى الشجاعة والقوة، فالأسد القوي الفتي يقال له ليث، وهكذا. ونظير ذلك الفارق بين لفظتي عام وسنة، فاللفظة "سنة" تشتمل على معنى الجدب والشقاء، بينما لفظة "عام" فيها معنى النماء والرخاء، ولهذا فرق الله تعالى بين الاستعمالين في قوله: ((قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ)) [يوسف : 47-49]. فكلا اللفظتين تشتركان في إرادة مدة زمانية واحدة، مقدارها اثنا عشر شهرا، ومع ذلك فكل من اللفظتين تشتمل على وصف إضافي لتلك المدة يختلف عما تشتمل عليه الأخرى، فناسب استعمال إحداهما ما لم يناسبه استعمال الأخرى! ونظيره الفرق بين الفعل والعمل، فكلاهما يشتركان في الدلالة على معنى الإحداث، فعل الشيء أي أحدثه، وعمل الشيء أي أحدثه كذلك. ولكن العمل فيه معنى زائد على مجرد الفعل، فقيل إن فيه تمهلا وتريثا، خلافا للفعل الذي فيه إشعار بالسرعة والمعاجلة، وقيل إن العمل أخص من الفعل من جهة أن فيه تشريفا للمفعول، فكل ذلك كما ترى تفاوت في صفة إضافية على أصل معنى الإحداث الذي تشترك فيه اللفظتان. ولهذا نظائر كثيرة.

ثم يقول الدكتور: "ويؤيد هذا الفهم أن الله عز وجل لم يطلق على أي من رسله وأنبيائه لفظ إنسان، بل تحدث عنهم دائما بلفظ بشر عبر عشرات الآيات القرآنية" قلت: لا والله لا يؤيد فهمكم الداروينى بحال من الأحوال، وإنما يؤيد ما تقدم ذكره من كون لفظة بشر تشتمل على معان تتعلق بالصفات الخلقية الظاهرة التي تميز ذلك النوع عن أنواع الدواب، كما لا تجده في لفظة إنسان! وهذا ولا شك يناسب خطاب كل نبي من أنبياء الله تعالى لقومه بأنه مخلوق من نوعهم لا من غيره، كما في قوله تعالى ((قل إنما أنا بشر مثلكم)) وقوله تعالى ((ما هذا إلا بشر مثلكم)) وقوله ((فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا)) ونحو ذلك.

ثم يقول في مختتم تلك الجزئية: "إذن فالله عز وجل لم يأمر الملائكة أن تسجد لإنسان، لكن لبشر سواه ونفخ فيه من روحه. على هذا يصبح البشر مرحلة تالية للإنسان لا يعلم إلا الله مقدار الوقت بينهما." اهـ. قلت: أفلو سألناك الآن، يا دكتور، هل ترى نفسك إنسانا أم لا، أفيكون جوابك بالنفي؟؟ ألا شاهت الوجوه!

وفي الحاشية، يعلق الدكتور على هذا الكلام فيقول:

يختلف هذا المعنى مع ما طرحه د. عبد الصبور شاهين في كتابه "أبي آدم" الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق. فالدكتور عبد الصبور شاهين يرى أن البشر هو المرحلة الأولى، وأنه خلق خلقا خاصا من طين، ثم صار إنسانا استحق سجود الملائكة بنفخة الروح.. ويسوق د. عبد الصبور استدلالاته القرآنية واللغوية على ذلك. ونحن نرى أن طرح د. حسن حامد عطية الذي ساق عليه الأدلة في كتابه "قضية الخلق" يتمشى مع السياق القرآني بشكل أكثر سلاسة ووضوحا. وهذا الاختلاف في الطرحين (وكلاهما لعالم فاهم لمعاني القرآن ولغة العرب) يؤكد أهمية الرجوع إلى كلمة العلم والاحتكام إلى حكم العقل عند التصدي لآيات القرآن الكريم فهما وتفسيرا. لهذا كلفنا الله بالسير في الأرض والنظر إذا أردنا أن ندرك كيف بدأ الخلق (وغيره من القضايا) وألا نكتفي بالفهم المجرد المباشر لآيات كتاب الله عز وجل.

قلت: ما شاء الله! "نحن نرى"، و"كلاهما لعالم فاهم لمعاني القرآن ولغة العرب"! هذا على أساس أن تخصصك الدقيق في مجال الجراحة، يؤهلك لجرح وتعديل من يكتبون في القرآن وفي لغة العرب، فتجعل هذا عالما وذاك جاهلا؟؟! نعوذ بالله من كبر الفلاسفة! ((إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) [غافر : 56] سلمنا تنزلا بأن كلا الرجلين يصح وصفهما "بالعلم" في علوم القرآن والتفسير وفي علوم اللغة، فبأي شيء وبأي آلات العلوم رجحت أنت بين قوليهما يا رجل (وكلاهما بدعة ضلالة كما بينا)؟؟ وهل ترى أنت نفسك عالما مثلهما، فاهما كفهمهما لمعاني القرآن ولغة العرب؟؟ فما ظنك بعلوم المسلمين؟ أتحسب أن حكما كهذا، ليست له ضوابط وشروط صارمة تحمي ذلك العلم المبارك من الدخلاء عليه؟؟ لو جاز لكل من هب ودب أن يعد نفسه عالما بالقرآن ولغة العرب، أو يعد غيره كذلك، فأي علم يكون ذلك، وأي دين هذا الذي ينبني عليه؟؟ نسأل الله السلامة!

ما معنى "يتمشى مع السياق القرآني بشكل أكثر سلاسة ووضوحا" هذه؟ وما حد "التمشي مع السياق القرآني" ومعيار التفاوت فيه؟ وما حد السلاسة والوضوح في ذلك عندك؟؟ لا شيء على الإطلاق، والدليل قولك في نفس الفقرة: "وهذا الاختلاف في الطرحين (وكلاهما لعالم فاهم لمعاني القرآن ولغة العرب) يؤكد أهمية الرجوع إلى كلمة العلم والاحتكام إلى حكم العقل عند التصدي لآيات القرآن الكريم فهما وتفسيرا." قلت: تقرأ هذا الكلام، أيها القارئ الكريم، وأنت لا تعرف حال الدكتور، فتتوهم لأول وهلة

أن المقصود من قوله "كلمة العلم"، علم التفسير وعلوم القرآن، والأدلة التي بها تُحقَّق كلمة العلم في ذلك الشأن، فتمتاز عن كلمة الجهل وأهله! لكنه في واقع الأمر إنما يقصد أن علماء التفسير والقرآن مطالبون عند وقوع الخلاف بينهم (في هذا النوع من المسائل على الأقل) بالرجوع إلى كلمة العلم الطبيعي Natural Science (أو ما يتوهمه هو علما طبيعيا) والطريقة التجريبية Scientific Method التي هي مقصوده "بحكم العقل"!

وعليه، فدعونا نسأل الدكتور، كيف رجع هو "لكلمة العلم" في الترجيح بين المذهبين، كما يطالبنا بأن نفعله؟؟ عندنا مذهب يقول صاحبه إن لفظة "إنسان" مهما ظهرت في القرآن فإنما تظهر للدلالة على نوع القردة العليا التي يزعم داروين أنها كانت هي سلفنا، بينما يراد "بالبشر" نوع آدم وبنيه، الأكثر تطورا من الأول! وعندنا مذهب مقابل – مضاد تمام المضادة – يقول صاحبه إن لفظة بشر هي التي يراد بها في القرآن تلك الأنواع التي تطور منها الإنسان داروينيا، بينما يراد بلفظة إنسان، آدم وذريته! كلا المذهبين دارويني محض، وكلاهما زيغ وضلال محض، مضاد لما عليه سبيل المؤمنين، مناقض لصريح القرآن ولما هو معلوم من الدين بالضرورة، كما أطلنا النفس في بيانه في هذا الكتاب بحول الله وقوته، لكن نحن نسأل الدكتور، ما نوع الأدلة التي استندت أنت إليها حتى قلت بأن المذهب الأول "يتمشى مع السياق القرآني بشكل أكثر سلاسة ووضوحا" من المذهب الثاني؟؟ ما نقلته من زعم صاحب المذهب الأول بأن الماضي في قوله تعالى "خلقنا الإنسان" والمستقبل في قوله "إني خالق بشرا"، يدلان على أن خلق الإنسان تقدم زمانيا على خلق البشر؟ أليس هذا منك اكتفاءً "بالفهم المجرد المباشر لآيات كتاب الله عز وجل"؟؟ أليس الحكم بأن هذا القول (جعل آدم وذريته في القرآن من نوع البشر لا من نوع الإنسان) أكثر "تمشيا مع السياق القرآني"، وأكثر "سلاسة ووضوحا" - أيا ما كان ما تقصده بتلك المفردات والتراكيب - من القول المخالف (جعل آدم وذريته في القرآن من نوع الإنسان لا من نوع البشر)، أليس هذا حكما مبنيا على ما يزعم كلا الرجلين (الدكتور عبد الصبور والدكتور حسن) أنه "الفهم المباشر لآيات كتاب الله"؟؟ فإن لم يكن كذلك، فأين المرجح الخارج عن "الفهم المباشر لكتاب الله" الذي استعنت أنت به في الترجيح بين المذهبين، وتزعم أن كلا الرجلين استعانا به في نفس الأمر؟؟ وكيف وعلى أي أساس يكون مثله مرجحا على مذهبك، يا من جئتنا بمنهج "علمي" تريد أن تحمل عليه علماء التفسير واللغة؟؟ أحد الرجلين قال إن البشر في القرآن هم الهومينيد والإنسان هو آدم وذريته، والآخر قال بعكس ذلك، قال إن الإنسان في القرآن هو الهومينيد، والبشر هم آدم وذريته! فأين "كلمة العلم" التي ترجح أنت بها بين المذهبين إن كنت فاعلا؟؟

هذا الهذيان ولعب الصبيان، أيها القارئ المحترم، هو ما ينتهي إليه علم القرآن على أيدي هؤلاء، فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

ثم يردد الدكتور شبهة شاهينية مشهورة عند جميع الجهمية الدراونة المعاصرين تحت عنوان "ثانيا: آدم عليه السلام نبي مصطفى من قومه" فيقول:

> راجع في الفصل السابق (ص. 332، رقم 6) كيف فهمنا أن آدم كعيسى عليهما السلام، ذرية لآباء وأجداد، ثم انظر إلى قول الحق عز وجل: ((إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)) [آل عمران : 33-34]، ذكرت الآيتان الكريمتان أن "آدم ذرية"، أي أنه ذرية لإنسان يسبقه، مثل نوح وآل إبراهيم وآل عمران عليهما السلام. كما نصت الآيتان على أن الله عز وجل قد "اصطفى آدم"، أي اختاره وفضله، ولا يكون الاصطفاء إلا من بين أقران له. وهذا المعنى للآية أقرب من القول بأن الله اصطفى آدم كأب للبشر، ثم اصطفى من ذريته نوحا وآل إبراهيم وآل عمران. ويؤكد المعنى السابق قول الحق عز وجل: ((وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين)) (الأنعام 133). فالآية تبين أن الخالق الكريم قد أنشأنا نحن البشر من ذرية قوم آخرين (الإنسان). وهذا أقرب من القول بأن القوم الآخرين هم آدم! أو أنهم أجدادنا، فأجدادنا لا يوصفون بالآخرين.

قلت: أولا: راجع ما مر معك من الرد على تأويله الجهمي لقوله تعالى ((إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [آل عمران : 59]، ثانيا: قوله إن قول الله تعالى: ((ذرية بعضها من بعض)) فيه بيان أن آدم "ذرية"، فهذا جهل بلسان العرب ولا شك، إذ لا يقال على الفرد الواحد إنه "ذرية"! وإنما يقال هو "من ذرية" فلان، أو من ذرية قوم كذا أو قوم كذا! فلفظ "ذرية" في الآية يتناول مجموع المذكورين، أن الله قد جعلهم ذرية بعضها من بعض، فآل عمران من ذرية آل إبراهيم، وآل إبراهيم من ذرية نوح، ونوح من ذرية آدم، الذي هو بداية السلسلة! ففي الآية بيان منة الله تعالى على بني آدم أن اصطفى الأنبياء فيهم من ذرية معينة من ذراريهم المنتشرة في الأرض، وقد كان بوسعه سبحانه ألا يجعل بعضهم من بعض ذرية! ولكن اقتضت حكمته أن لم يأت بعد آدم نبي إلا من ذريته، ولم يأت بعد نحو نبي إلا من ذريته، ولم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من ذريته، وهذا

ولا شك فيه من المنة على أولئك الأنبياء الكرام صلوات ربي وسلامه عليهم ما فيه! أما أن يقال إن هذا المعنى (الاصطفاء) يقتضي جعل آدم عليه السلام فردا من ذرية قوم سابقين، كما كان الأنبياء المذكورون من ذريته، فهذا جهل ومغالطة لم يقل بها أحد من عقلاء المسلمين قط قبل هؤلاء الدراونة الطغام!

ثالثا: قوله "كما نصت الآيتان على أن الله عز وجل قد "اصطفى آدم"، أي اختاره وفضله، ولا يكون الاصطفاء إلا من بين أقران له." قلت: سلمنا بأن الاصطفاء لا يكون إلا من بين أقران له، فمن الذي قال إن أولئك الأقران يلزم أن يكونوا قوما هو من نسلهم، أو أن يكونوا معاصرين له يوم اصطفاه للنبوة! بل من الذي قال إنه يلزم أن يكونوا من نوعه، حتى يصح أن يكون قد اصطفاه الله منهم؟؟ ألا يصح أن يكون قد اصطفاه من أنواع خلقه على اختلافها؟ ألم يقل الله جل شأنه للملائكة: ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)) [البقرة : 30]؟؟ فمفهوم الآية أنه سبحانه قد اصطفى آدم لا من أفراد نوعه، ولكن من بين أنواع خلقه الذين عاصروه عليه السلام، ليجعل فيه ابتداء الخلافة في الأرض، وابتداء النبوة كذلك، وهو ما حمل الملائكة على طرح السؤال عليه سبحانه، لماذا خصه بذلك الأمر من دونهم واصطفاه له من دونهم، وهم الذين يقدسونه ويسبحون بحمده آناء الليل وأطراف النهار! ثم إنه لا يمتنع في لسان العرب أن يقال إن الله اصطفى آدم بعينه من بين أفراد نوعه الذين كانوا يومئذ في علمه سبحانه لا في الأعيان، ليجعله هو أول الأنبياء وأباهم وأول النوع البشري بكليته، وقد كان قادرا سبحانه على أن يخلق غيره ليكون هو الإنسان الأول من نوعه، الذي تسجد له الملائكة بأمره سبحانه، والنبي الأول الذي تخلق جميع الأنبياء والرسل من ذريته! وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان، ولا نعلم أحدا من المسلمين خالف فيه قبل هؤلاء! فهو مع كونه قد اصطفاه الله من أنواع المخلوقات الذين عاصروه من الملائكة والجن، فقد اصطفاه كذلك من نوعه هو، ليكون هو أولهم الذي يتلقى العلم بالأسماء كلها من رب العالمين سبحانه لا من أب ولا أم، ثم يورث ذلك العلم لذريته من بعده! فهو أول نبي معلم مكلم، عليه وعلى سائر النبيين أفضل الصلاة وأتم التسليم! وقول الرجل "وهذا المعنى للآية أقرب من القول بأن الله اصطفى آدم كأب للبشر، ثم اصطفى من ذريته نوحا وآل إبراهيم وآل عمران." يدل على أنه قد سمع من علماء الملة جوابهم عن شبهته الكاسدة تلك، ومع ذلك لم يعجبه، فزعم أن ما ذهب إليه "أقرب" من جواب علماء المسلمين، بل أقرب مما هو معلوم من دين العامة بالاضطرار من كون آدم عليه السلام هو أول البشر وهو أول إنسان!

فكيف وبأي عقل صارت تلك السفسطة الداروينية "أقرب" مما ذكرنا؟؟ سبحان الله!

وكذلك قوله: "ويؤكد المعنى السابق قول الحق عز وجل: ((وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين)) (الأنعام 133). فالآية تبين أن الخالق الكريم قد أنشأنا نحن البشر من ذرية قوم آخرين (الإنسان). وهذا أقرب من القول بأن القوم الآخرين هم آدم! أو أنهم أجدادنا، فأجدادنا لا يوصفون بالآخرين" قلت: هذا العبث ليس بقول أصلا حتى يكون "أقرب" أو أبعد من غيره من الأقوال!! الخطاب هنا يا دكتور، فيه تخويف للمخاطبين بالقرآن (إجمالا) بأن الذي أنشأهم من ذرية قومهم، قادر على أن يذهبهم ويجعل في محلهم غيرهم، ينشئهم بعد أن لم يكونوا شيئا، كما أنشأ هؤلاء المخاطبين من غيرهم! فأين ما يفهم منه أن المراد إذهاب بني آدم كلهم، يستخلف من بعدهم ما يشاء كما أنشأهم من ذرية الهومينيد المزعوم؟! أي عاقل صحيح اللسان هذا الذي يفهم من قوله تعالى "ذرية قوم آخرين"، أي ذرية نوع من أنواع الدواب؟! ومن الذي قال "إن أجدادنا لا يوصفون بالآخرين"؟ وما مستند الرجل في ذلك التحكم العجيب، الذي لم يسبقه إليه أحد من العالمين؟! وأي شيء يدعوه إلى ذلك الفهم المعوج السمج، إلا أن يكون جهميا متشبعا بنظرية داروين، يزعم الاشتباه في محكمات القرآن، يحاول محاولة المستميت أن يستنطقه بها؟؟ نسأل الله السلامة والعافية! لا يفهم من هذه الآية أن الله يخاطب بني آدم بأنه قادر على أن ينشئ نوعا جديدا يحل محلهم كما أنشأهم هم من نوع قديم كانوا هم ذريته، إلا من سبق منه تكذيب القرآن في تصريحه بأن آدم إنما خلق بيد الله تعالى من طين، لا من ذرية قوم آخرين، فتأمل!

ثم يقول:

> ويفسر هذا المعنى أيضا تساؤل الملائكة ((وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون)) (البقرة:30). فكيف عرفت الملائكة أن البشر (الذين لم يخلقوا بعد) سيفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، خاصة أن الملائكة لا يعلمون الغيب؟ لقد طرحت التفاسير التراثية عدة إجابات عن هذا التساؤل، منها أن الله عز وجل قد أطلع الملائكة على ذلك، ومنها أن الجن كانوا يسكنون الكهوف في الأرض وأنهم كانوا يعيشون فيها فسادا (ذلك مع علمنا من القرآن الكريم أن الجن ليس لهم تأثير مادي في عالم الشهادة فلا يسفكون دماء كائنات

أخرى، وليس عندهم دماء ليسفكوها في صراعات بينهم وبين بعضهم)، ولا شك أن هذا التفسير متأثر كثيرا بالأساطير عن الجن التي كانت سائدة فيما مضى، وما زالت سائدة في القرى وعند البدو حتى الآن. إن التفسير المباشر والأقرب من ذلك كله أن إنسانا سابقا للبشر كان يسكن الأرض ويقترف هذه الأفعال (قد يكون إنسان نياندرتال)، وقد رأته الملائكة مرأى العين.

قلت: سبق أن بينا أن تساؤل الملائكة إنما يدل على أن الله اصطفى آدم عليهم وعلى غيرهم من أنواع المخلوقات وقد كانوا يرون أنفسهم أجدر بخلافة الأرض لخلوهم من أسباب سفك الدماء ولكونهم لا عمل لهم في الليل ولا في النهار إلا عبادة الله سبحانه. أما كيف عرفوا أن ذرية آدم ستفسد في الأرض وتسفك الدماء، مع أنهم ما كانوا قد خلقوا بعد، فلا شك أن الله قد أعلمهم بذلك وإلا ما علموه! أما كيف أعلمهم، فهذا غيب لم يأت به نص! ولو كان مقصود الوحي لا يتم إلا بذكره، أو كان مما يضرنا الجهل به، لجاء ذكره في الكتاب أو في السنة صريحا على ما يلزم من التفصيل، ولكن أين؟؟ فما كان كذلك من أمر الغيب، فالسؤال عنه مذموم، وتكلف البحث فيه غير محمود!

ولا يلزمنا السؤال عما لم يأت به خبر صحيح، حتى نسلم بصحة ما جاء به الخبر المتواتر الصريح، وانعقد عليه إجماع المسلمين حتى صار من المعلوم من دينهم بالضرورة! الله تعالى أخبرنا صراحة بأنه خلق آدم بيديه وأنه خلقه (هو بعينه) من الطين اللازب، ومن الفخار ومن الصلصال من حمأ مسنون، في نصوص محكمة لا متسع فيها للاحتمال والتأويل! فيأبى هذا الزائغ وأمثاله إلا أن يجعلوا تلك النصوص كلها متشابهات محتملات، ثم تراهم يتكلفون حملها على فرضيات ما أنزل الله بها من سلطان في تأويل نصوص أخرى لم يسبق لأحد من العلماء بل من عقلاء المسلمين أن اتخذها طريقا لتأويل تلك النصوص المحكمة وصرفها عن ظاهرها على أيما وجه كان ذلك، دع عنك أن ينتهوا إلى الحكم بأن آدم قد خلق من ذرية "قوم آخرين"!! هذه أيها القارئ الكريم هي طريقة أهل الزيغ والأهواء من جهمية القرون، لا تبديل لخلق الله! يأتي أحدهم على النصوص المحكمة تامة الإحكام، التي لم يعرف في المسلمين مخالف في معناها، فيجعلها من المتشابهات بزعمه، حتى يحملها تعسفا على المعنى الباطل الذي يريد، ثم ينتصر لذلك الباطل الذي جاء به بالتلاعب في معاني نصوص أخرى منها المحكم ومنها المتشابه ومنها ما لا علاقة له بمطلوبه أصلا، يزعم أن فيها جميعا ما يدعم تأويله، ثم تراه ينقض إجماع السلف والأئمة السابقين على خلاف ما ذهب إليه، إن لم

ينقض مبدأ الإجماع نفسه، كما تراه في تطاول هذا الرجل على "التفاسير التراثية"، والله المستعان! [78]

قوله: " لقد طرحت التفاسير التراثية عدة إجابات عن هذا التساؤل، منها أن الله عز وجل قد أطلع الملائكة على ذلك، ومنها أن الجن كانوا يسكنون الكهوف في الأرض وأنهم كانوا يعيثون فيها فسادا (ذلك مع علمنا من القرآن الكريم أن الجن ليس لهم تأثير مادي في عالم الشهادة فلا يسفكون دماء كائنات أخرى، وليس عندهم دماء ليسفكوها في صراعات بينهم وبين بعضهم)،"

قلت: أما القول الأول الذي ذكره الدكتور فهو مروي عن ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد وابن قتيبة، وهو معنى ظاهر صحيح كما ترى، إذ مهما كان للملائكة من علم فلابد أن الله قد آتاهموه، كما في قولهم هم أنفسهم: ((سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)) الآية [البقرة : 32]، فلا علم لمخلوق إلا ما يعلمه الله إياه! وأما القول الثاني فهو كذلك رواية عن ابن عباس ومقاتل وغيرهما، فإن صحت الرواية، لزم أن يعامل كلام ابن عباس رضي الله عنهما على أنه موقوف له حكم الرفع، لأن مثله لا يقول في مثل هذا بالرأي، بل لا بد أنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذن كان نصا في المسألة لا عبرة بما يخالفه ولا التفات إليه!

وأما اعتراض الدكتور بقوله "علمنا من القرآن أن الجن ليس لهم تأثير مادي في عالم الشهادة" فهذا جهل فاضح، وتكذيب جديد لصريح القرآن! فقد صرح الله تعالى بتأثيرهم المحسوس في مواضع شتى كما في قصة سليمان في قوله جل شأنه: ((يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)) [سبأ : 13] وقوله: ((وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ)) [صـ : 37] وقوله: ((قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)) [النمل : 39] وقوله: ((وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ)) الآية [البقرة : 102] وكما في قوله تعالى: ((وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً)) [الجن : 6] وقوله: ((الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ)) الآية [البقرة : 275] وغير ذلك! فليت شعري عن أي قرآن يتكلم هذا الرجل؟؟ أهو هو الذي نجده في مصاحفنا؟؟ سبحان الله العظيم!

ثم ينتقل الدكتور للقرمطة على ما في دين المسلمين من خلق آدم عليه السلام وزوجه في الجنة! فيقول: "إن هذا المعنى (لو ثبت) يدحض بحق كل ما قيل عن الخلق التطوري للإنسان، فالتطور يتطلب أن يكون خلق الإنسان قد تم على الأرض من كائنات عاشت فيها قبله." اهـ. قلت: سبحان الله! ألست قد قررت قبل قليل مذهبا مفاده أن آدم وذريته هم البشر وليسوا من نوع الإنسان؟؟ المفترض إذن أن تقول "التطور يتطلب أن يكون خلق البشر قد تم على الأرض من كائنات عاشت فيها قبله"، وليس "خلق الإنسان"، لأن محل النزاع البدعي هنا هو فيما إذا كان آدم وذريته قد خلقا في الجنة أم على الأرض! وعلى مذهبك، يكون خلق البشر في الجنة هو الذي إن ثبت فسيدحض ما قيل عن الخلق التطوري لآدم وذريته، وليس خلق "الإنسان"! أرأيت يا دكتور كيف أنك مهما تكلفته فلن تستطيع التفريق بين اللفظتين "البشر" و"الإنسان" في إرادة آدم وذريته؟؟ نعوذ بالله من أهواء تفسد اللسان والعقل والفطرة جميعا!

ثم إنه على مذهبك في التأويل، فلا يمكن – منهجيا - أن يثبت في القرآن أي معنى يدحض الخلق التطوري المزعوم أصلا! ذلك أنك أسقطت جميع التفسيرات "التراثية" لآيات الخلق، وأحلتها على الطبيعيين ليتأولوها هم بما يناسب آخر ما انتهت إليه نظرياتهم في ذلك! فإذا كانت نظرية التطور هي آخر ما انتهى إليه القوم في مسألة أصل الإنسان، فلا يتصور إذن أن ينهض أحد بشيء من القرآن يعارضها به البتة، لا هي ولا أي نظرية يتصور أن يأتي بها الطبيعيون غدا لتحل محلها في اعتمادهم الأكاديمي! لا سلطة للقرآن على نظريات الطبيعيين على مذهبك، لأن فهمه ومعرفة مراد الله منه مرهون عندك بتلك النظريات، يدور معها حيثما دارت! وإذن فلا وجه لهذا الكلام إلا أن يكون ذرا للرماد في العيون، وتلبيسا على الأتباع حتى يتوهموا أنك قد أبقيت للقرآن شيئا من السلطة المعرفية يُرجع إليه في هذه الأبواب، ولو نظريا! أو أن يكون غلطا غير متعمد، يكشف لنا آية أخرى من آيات التفريط والتهاون في تحقيق المذهب المعرفي الذي حررته في كتبك، وفي تحقيق مقتضياته العقدية والمنهجية، والله المستعان! وعلى أي حال فلا أرى تفسيرا لأن يطلق أحدهم قلمه بمثل هذا التهوك والعدوان المهلك على كتاب رب العالمين، غير مكترث بما يقتضيه كلامه وما يترتب عليه من هدم وتحطيم في دين المسلمين، إلا أن يكون قد أشرب في قلبه من الكبر وعمى البصيرة ما لا يعلمه إلا الله! ((الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)) [غافر : 35]

تأمل كيف يشرع في جمع كلام هو لا يبالي به أصلا، ولا يرى له أي قيمة معرفية من حيث طريقة الاستدلال، حتى يقنع قارئه بأن القول بكون جنة آدم في السماء قول مرجوح! يقول: "لكن ليس هذا هو القول الأرجح عن مسرح الأحداث، فقد أكد الكثيرون من المفسرين أن ليس هناك دليل على أن جنة آدم وحواء كانت جنة سماء، بل كانت جنة أرض فيها كل متطلبات الحياة. جاء ذلك في تفسير الرازي، وقال به الإمام محمد عبده والشيخ محمد متولي الشعراوي." قلت: اجمع ما شئت من الأقوال في الزعم بأن الجنة التي أهبط منها آدم كانت على الأرض، فلن تجدها إلا محصورة في أمثالك من أهل التفلسف والكلام ومن شاكلهم ومن تأثر بهم! وأما أهل السنة أهل الحديث والأثر، ورثة الأنبياء الذين لا يفرقون بين الكتاب والسنة كمصادر للتلقي في بناء المعتقد، فالسنة الصحيحة عندهم طافحة بالتصريح بأن الجنة التي أهبط منها آدم إنما هي جنة الخلد التي في السماء! فمن لم ير في السنة الصريحة الصحيحة دليلا كافيا، فليس من الإسلام في قليل ولا كثير! دع عنك أن القرآن نفسه صريح في إثبات أنها جنة الخلد وليست مجرد حديقة من حدائق الأرض!

قال تعالى: ((وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ)) [البقرة : 35] فالآية فيها امتنان على آدم وزوجه بجعلهما نزلاء الجنة وبالأكل منها رغدا حيث شاءا، فلو كانت تلك الجنة في الأرض، فما وجه الامتنان عليهما بها وحدها دون غيرها من جنان الأرض؟؟ وما وجه معاقبتهم بالإهباط منها إن كان بوسعهم الانتقال إلى غيرها من حدائق الأرض؟؟ وكيف يكون إهباطا أصلا، إن لم تكن إلا جنة من جنان الأرض؟؟ لو صح ذلك لكان نقلا أو ترحيلا أو نفيا لا إهباطا! وقال سبحانه: ((يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ)) الآية [الأعراف : 27] فأين هي تلك الجنة الآن إن كانت من جنان الأرض، وهل يجوز عندكم أن يسكنها اليوم أحد من البشر، وقد مضى حكم الله على آدم نفسه بالإخراج والمنع منها ما دام حيا على الأرض؟؟ فإن كانت على الأرض، فأي شيء كان يمنعه من أن يرجع إليها بعد الإهباط منها؟؟ وإذا كنا اليوم لا نرى شيئا يمنعنا من اقتحام أي جنة من جنان الأرض، فأي شيء كان يمنعه هو على مذهبكم؟؟ الهبوط والإهباط من شيء ما، لا يكون إلا من عال إلى أسفل! وقال جل شأنه: ((فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)) [طه : 117]، فأي جنة من جنان الأرض هذه التي ينتفي فيها ما انتفى في جنة آدم من الشقاء كما هو صريح الآية؟؟ هلا دللتنا عليها يا دكتور تكرما؟؟ وقال سبحانه: ((فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)) [البقرة : 36] فلو صح أن كانت الجنة التي

أخرج منها آدم جنة من جنان الأرض، لما كان من وجه لأن يقال له ولذريته "ولكم في الأرض مستقر"! وإنما يستقيم ذلك المعنى بكون الجنة التي أخرج منها آدم وأهبط إلى الأرض، هي جنة السماء! وكذلك قوله تعالى: ((قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)) [الأعراف : 24] فنص على أن الإهباط من الجنة فيه تحويل لحالهم من المكث في النعيم، إلى القرار في الأرض ومتاعها إلى حين، فكيف يستقيم الكلام إن قدرنا كون الجنة التي كان فيها آدم مجرد جنة من جنان الأرض؟؟

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن آدمُ وَ موسى عليهما السَّلام احتجا عندَ ربِّهما ، فحجَّ آدمُ موسَى. قالَ موسَى أنتَ آدمُ الَّذي خلقَكَ اللَّهُ بيدِهِ ونفخَ فيكَ من روحِهِ، وأسجدَ لَكَ ملائِكَتَهُ وأسكنَكَ في جنَّتِهِ، ثمَّ أَهَبطتَ النَّاسَ بخطيئتِكَ إلى الأرض. فقالَ آدمُ أنتَ موسَى الَّذي اصطفاكَ اللَّهُ برسالتِهِ، وبِكَلامِهِ وأعطاكَ الألواحَ فيها تِبيانُ كلِّ شيءٍ، وقرَّبَكَ نجيًّا فبِكَم وجدتِ اللَّهِ كتبَ التَّوراةَ قبلَ أن أخلقَ قالَ موسَى بأربعينَ عامًا قالَ آدمُ فَهَل وجدتَ فيها "وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى". قالَ نعم، قالَ أفتلومُني على أن عَمِلتُ عملًا كتبَهُ اللَّهُ عليَّ أن أعملَهُ قبلَ أن يخلقَني بأربعينَ سنةً قالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فَحجَّ آدمُ موسى.

قلت: فهنا يلوم موسى آدم عليه السلام على أن كان سببا في هبوط الناس من الجنة إلى الأرض، فيرد عليه آدم بأن خلق ذريته في الأرض لا في الجنة هو من قدر الله السابق، فليس هو ملوما على جعل الله الأرض هي مستقرهم جميعا ومتاعهم إلى حين! فلو كانت الجنة التي أخرج آدم منها مجرد جنة من جنان الأرض، فما وجه أن يلومه موسى عليهما السلام على أن كان سببا في إهباطنا جميعا إلى الأرض؟ أما كان بوسع موسى أن يبحث عن تلك الجنة التي أهبط الله منها آدم فيهاجر إليها ويدعو الناس لينتقلوا إليها كذلك؟ لو كانت لا تزيد على غيرها من بقاع الأرض إلا كما تزيد أي جنة أخرى من جنان الأرض على غيرها، فما وجه اللوم والعتاب إذن، والأرض ملأى بالجنان والأشجار والأنهار من كل صنف ولون؟!

وفي صحيح مسلم كذلك عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما صوَّر الله آدم في الجنة، تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو، فلما رآه أجوفَ، عرَف أنه خلق خَلْقًا لا يتمالك." اهـ. قلت ولا يرد ذكر الجنة على سبيل العلمية هكذا إفرادا دون إضافة، ودون عهد ذهني أو ذكري، إلا كان المراد بها جنة الخلد، لا جنة من جنان الأرض! وإلا لما كان من وجه لأن يقول "صور الله آدم في الجنة"، بل لقال: "صور الله آدم في الأرض"! فلو كان خلق آدم في جنة من جنان الأرض لكان هذا هو الأليق بالحديث، إذ هو مخلوق من طين، والطين من

الأرض، فناسب أن يقال: "لما صور الله آدم في الأرض" لا "في الجنة"، فتأمل!

هذا وإجماع السلف منعقد على هذا المعنى من قديم، ولم ينقل عنهم خلافه ولم يعرف عندهم نزاع فيه، وإنما قالت الفلاسفة والمتكلمون من الخلف بجعل جنة آدم في الأرض، وفشا قولهم بين المسلمين حتى عده بعضهم خلافا مستساغا، وليس كذلك البتة! وقد بينا أن الدكتور قائل بأن خلق الإنسان الأول كان على الأرض (في إفريقيا تحديدا) أيا ما كان ما في القرآن، ثم إنه حامل جميع النصوص التي تناولت خلق آدم على ذلك الاعتقاد تأويلا وتحريفا لا محالة! مع أنه يلزمه أن ينفي وجود رجل اسمه آدم أصلا، لأن أول إنسان على ما تقتضيه النظرية (بداية ما يسمى Homo Sapiens)، لم يكن إلا قردا من القردة العليا (هومينيد) نشأ في كهف على أيدي قردة منحطة، ثم كان تطور النوع منه تطورا تدريجيا، عبر آلاف السنين ومئات الطفرات، وصولا إلى ما عليه البشر الآن من حيث القدرات العقلية والبدنية والاجتماعية، فلا يتصور على مبدأي الانتخاب الطبيعي والطفرات التدريجية (سواء كانت عشوائية أو موجهة كما هو مذهب الدكتور) أن يكون المخلوق الذي أسجد الله له ملائكته وكرمه كما تواترت به النصوص، وجعله أول نبي مكلم معلم، هو أول إنسان، لأنه ليس في النظرية إنسان أول أصلا، وإنما فيها نشأة تدريجية "لأنواع الإنسان"، أو "أنواع البشر" (إن شئت!) كما بسطنا الكلام على بيان تلك المقتضيات في غير هذا الموضع!

يواصل الدكتور عرض تلك البدعة الجهمية، فيقول: "وقد جاء لفظ الجنة في القرآن لكريم للإشارة إلى حديقة أرضية في ثلاثة عشر موضعا، جاءت بالإفراد والتثنية والجمع. ونذكر هنا أن الاستخدام الأصيل للفظة الجنة في اللغة هو الإشارة إلى البستان الأرضي، أما استخدامها للدلالة على نعيم السماء فهو الاستخدام المجازي." اهـ. قلت: على مذهبك في التعامل مع لفظة "جنة" في القرآن، لا مستند للتفريق بين الجنة التي في السماء والجنان التي في الأرض! ولا مستند للقول بأن هذا الاستعمال حقيقي وذاك مجازي (على القول بوقوع المجاز في القرآن وهو ضعيف)! بل يجوز ألا يكون ثمة جنة في السماء أصلا، وإنما وعد الله المؤمنين بعد الحشر أن يدخلوا حديقة جميلة هنا على الأرض، والله المستعان! فعلى مذهبك يا دكتور، عندما يقول الله تعالى للمؤمنين: ((وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)) [البقرة : 25] فكيف تحكم أنت بأن تلك الجنات التي تجري فيا الأنهار، ليست حدائق هنا على الأرض، حتى مع كون الأرض

تبدل وتغير ويحصل عليها كذا وكذا مما جاء الخبر به في نصوص أخرى؟ وكذلك قوله: ((قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)) [آل عمران : 15] وقوله: ((أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)) [آل عمران : 136] وقوله: ((وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)) الآية [آل عمران : 195] وقوله: ((لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ)) [آل عمران : 198] وقوله: ((تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)) [النساء : 13] وقوله: ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)) [المائدة : 65] وقوله: ((فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ)) [المائدة : 85] وقوله: ((يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ)) [التوبة : 21] وقوله: ((وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)) [التوبة : 72] وقوله: ((أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)) [التوبة : 89] وقوله: ((وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)) [التوبة : 100] وقوله: ((جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ)) [الرعد : 23] وقوله: ((إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)) [الحجر : 45] وغير ذلك؟؟

من كان مذهبه أن أبوابا كاملة من أبواب خبر الغيب في القرآن متشابهة كلها لا إحكام فيها، وأن السنة في نفس تلك الأبواب إسرائيليات كلها، وأن إجماع الأمة على صحة ما صححوه منها (رواية ودراية) لا حجة فيه ولا وزن له، وأن فهم السلف غير ملزم، بل ولا نكارة في مخالفة ما علم من دين المسلمين بالاضطرار، من كان هذا مذهبه، فمن أين له حمل الجنات التي تجري من تحتها الأنهار في جميع تلك النصوص على ما زعم أنه المعنى المجازي للجنة (أن المراد جنان السماء وليس جنان الأرض)، مع أن الحقيقة أقرب إلى الذهن من المجاز؟؟ بل أي شيء يأمنه من أن ينقلب غدا إلى نفي وجود تلك الجنة وجودا حقيقيا في الخارج بالكلية، فلا تكون في السماء ولا الأرض، ومن ثم يقول بنظير ما عند النصارى من اعتقاد النعيم الروحي والمعنوي دون الحسي، ثم يقول إن جميع تلك الآيات إنما الكلام فيها على

سبيل الرمز والتقريب الذهني لا على سبيل الحقيقة أو المجاز، فيصبح على دين ويبيت على غيره، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل؟؟ أي قيمة معرفية تبقى في شيء من نصوص المسلمين أصلا على مذهب كهذا؟؟ نسأل الله العافية!

ثم يقول: "وعن هبوط آدم وزوجه من الجنة يقول الإمام محمد عبده إن الهبوط هو الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه، أو من مكانة ومنزة إلى ما دونها. ويضيف أن الجنة التي خلق الله فيها آدم كانت على نشز مرتفع من الأرض." اهـ. قلت: الله أكبر! ما أسهل هذا! بل أسهل من هذا أن نقول إن آدم نفسه ليس شخصية حقيقية (تاريخية)، كما ذهب إليه بعض اللاهوتيين المعاصرين في تأويلهم لسفر التكوين [79]، وإنما هو وقصته كلها رمز للإنسان ولما يقع عليه من أثر المعصية من "هبوط" إلى منزلة حيوانية بعدما كان في منزلة ملائكية سماوية، ونريح رؤوسنا من قصة آدم هذه كلية! فأين في مذهبكم يا أعداء أنفسكم، ما يمنع من قبول هذا القول ويرجح عليه ما تذهبون إليه؟؟ بل فلنجعل القيامة والبعث والنشور واليوم الآخر كلها رموزا لأحوال دنيوية عارضة (كما قال بعض الفلاسفة إن الجنة هي سعادة القلب في الدنيا والعذاب والجحيم هو ضد ذلك)، وإذن فيكون خلق العالم مجازا ورمزا، وتكون قيامته وآخرته كذلك مجازا ورمزا، وإذا بنا قد أصبحنا على دين أرسطو اليوناني أو كونفوشيوس الصيني أو سبينوزا الألماني، فإذا أنكر أحد علينا، قلنا إن القرآن متشابه حمال أوجه، والسنة تحتاج إلى من يطهرها من الإسرائيليات، والخطاب الديني يحتاج إلى تجديد، وباب الاجتهاد مفتوح فلا تغلقوه!

ألم تر كيف أثنى الدكتور فيما مر معك على "استنارة" اللاهوتيين النصارى الذين أحالوا سفر التكوين بكليته إلى الرمز والمجاز؟؟ نعوذ بالله من الزندقة والضلالة!

ثم قال: "وعن الهبوط أيضا يقول فضيلة الشيخ الشعراوي إنه هبوط من التكريم والراحة والنعيم إلى كد وكدح وعداوة. ويشبه ذلك قول المولى عز وجل لقوم موسى: ((...اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ...)) (البقرة: 61). فلا شك أنه ليس هبوطا من السماء إلى أرض مصر!" قلت: كونه هبوطا من الراحة والنعيم إلى الكدح والعداوة، هذا صحيح قطعا، ولكنه إنما كان كذلك بموجب كونه هبوطا من جنة الخلد التي هي دار النعيم الخالص في السماء، إلى الأرض التي هي دار الكدح والتعب والابتلاء! وإلا فلو كان هبوطا من موضع على الأرض إلى موضع آخر على الأرض كذلك، فأي شيء يمنع ذرية آدم من معاودة "الصعود" إلى حيث كان أبوهم أو إلى نظيره من جنان الأرض، أو يمنعهم من الفوز بنظير ما كان فيه أبوهم قبل الإهباط، في جنة

يكتشفونها هاهنا على الأرض اكتشافا؟؟ وإذن فأي معنى يتصور لقوله جل شأنه: ((قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)) [الأعراف : 24]؟؟ على مذهبكم لا شيء يمنعهم من أن يكونوا أعداء في جنان الأرض التي أخرج الله منها أباهم بزعمكم، كما يكون بينهم العداوة في الموضع الذي أهبطوا إليه، وهذا واضح!

والقصد أن التفاوت النوعي بين طبيعة الجنة التي كانوا فيها وطبيعة الأرض التي أهبطوا إليها، ليس كالتفاوت بين جنة من جنان الأرض وموضع دونه من مواضع الأرض. بل هو تفاوت بين دار رخاء (لا يجوع فيها الإنسان ولا يعرى ولا يظمأ فيها ولا يضحى)، وبين دار الجوع والعري والظمأ والضحو! فمن لم يفهم من هذا وحده أن الجنة التي أهبط الله منها آدم إنما هي جنة الخلد في السماء، فلا عقل له ولا فهم!

ثم قال: "كذلك يأتي التأكيد على أننا خلقنا في الأرض (وليس في السماء) في آيات قرآنية أخرى: ((منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى)) (طه: 55) – ((والله أنبتكم من الأرض نباتا)) (نوح: 17). وتؤول التفسيرات التراثية مثل هاتين الآيتين بأننا قد خلقنا من طينة الأرض التي حملها ملك الموت (أو جبريل عليه السلام) إلى السماء، ولا شك أن المعنى المباشر للآيتين، وهو أننا قد خلقنا على الأرض أقرب كثيرا من هذا التأويل." اهـ. قلت: أولا، ليس عند علماء الملة شيء اسمه "المعنى المباشر" أصلا! وبين ما عند أهل العلم وما جئت أنت به، كما بين العلم والجهل، وكما بين السماء والأرض! هذا الذي تجده في "التفسيرات التراثية" لا يعرف في تاريخ المسلمين فهم للقرآن غيره، فبصرف النظر عما لم يثبت في السنة من كون جبريل عليه السلام أو غيره من الملائكة قد جمع التربة البيضاء والحمراء والسوداء من أنحاء الأرض ليخلط بها الطين الذي خلق منه آدم، فاختلفت أعراقهم وألوانهم ومعادنهم على أثر ذلك، فالمعنى المراد من الآيات، الذي عليه إجماع المسلمين، ولم يخالف فيه أحد قبلكم، هو أن الله تعالى خلق آدم في السماء من طين الأرض! هذا ما جرى عليه فهم صحابة النبي صلى الله عليه وسلم لمجموع النصوص! ولا يقال إن غيره أقرب منه (لغة)، لأنه لو كان كذلك لوجد منهم من يقول به وجوبا، إن لم يكن أكثرهم عليه! وليت شعري كيف يكون المعنى الأقرب ناقضا لمحكمات أخرى في كتاب الله وفي السنة مفادها أن آدم وزوجه قد خلقا في الجنة ثم أهبطا إلى الأرض؟! نقول: من لم يعجبه فهم الصحابة الذي عليه أجمعوا، وجمعهم للنصوص في هذه المسألة أو غيرها، الذي لم يعرف فيه مخالف منهم، فليبحث له عن دين غير هذا الدين، فنحن إنما أسسنا ديننا على إجماع هؤلاء النبلاء، رضي الله عنهم وأرضاهم، ولولا إجماعهم ما وصل إلينا القرآن

نفسه، ولما اتفقنا على ما بين دفتي المصحف من الأساس، فافهم هذا يا دكتور قبل أن يغلق باب التوبة، ثم لا يجدي الندم!

ثم قال: "كما تؤكد آية سورة نوح أن الإنسان متجذر في الأرض كالنبات، ولا شك أننا نستشعر هذا التأكيد من ((أنبتكم .. نباتا))." قلت: أي سخف هذا؟؟! على هذا الفهم الأعجمي يلزمك أن تعتقد أن أول البشر كان ثمرة سقطت من شجرة، أو بذرة نبتت من الأرض فصارت بشرا! تأويلك هذا – على سخافته – لا ينتهي بك إلى ما تريد، لأن النظرية تنص على أن الذي خلق من مادة الأرض إنما هو الخلية الأولى المزعومة وليس أول البشر! نشأت الخلية الأولى من الأحماض الأمينية (في المحيط أو في بحيرة أو نحوها وليس في الطين أو الصلصال أو التراب!) ثم لم تزل الأنواع تخلق منها بالتكاثر والتناسل والتحول التدريجي حتى خلق آدم في رحم أنثى من نوع متقدم عليه! فحتى إن سلمنا تنزلا بكون الإنبات من الأرض يراد به أن الإنسان خلق "متجذرا في الأرض كالنبات"، فلا علاقة لذلك بنظرية الأصل المشترك التي حرفت نصف دينك من أجلها!

ولابد أنه انتبه إلى هذا، إذ قال: "كذلك تؤكد الآية مفهوم التطور بتشبيهنا بالنبات، فالإنبات يبدأ بالذرة التي تخرج جذرا وساقا، ويتفرع الأخير ويتفرع إلى فروع عدة وفريعات، حتى يأتي الإنسان كالثمرة لهذه البذرة." اهـ. قلت: فتأمل التمحل والتلبيس السخيف! جاء داروين بما سمي بشجرة الحياة، وجعل الإنسان ثمرة من ثمراتها، والله يقول "أنبتكم من الأرض نباتا"، فلابد أنه يشير إلى شجرة الحياة الداروينية! وبهذا يكون القرآن قد سبق داروين إلى هذا المعنى بمئات السنين، ويصبح هذا من إعجاز القرآن!! فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل! إنباتنا من الأرض هو خلقنا من طين الأرض يا رجل، فكفاك تمحلا واتق الله!!

ثم قال تحت عنوان "رابعا: إنهم أمم أمثالنا":

> إن الإنسان البشر هو واحد من مخلوقات الله عز وجل، التي لا يعدها حصر على هذا الكوكب، فهل خلقنا في السماء بمعزل عن باقي الكائنات؟ ينفي القرآن الكريم ذلك في آيات كثيرة: ((... وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون)) (الأنبياء: 30) – ((وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [النور : 45] – ((وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)) [الأنعام : 38] – ((وَاللَّهُ

أنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً)) [نوح : 17]، إن الله لم يفصل الإنسان عن باقي المخلوقات، ولم يخلقه خلقا خاصا في السماء في ظل قوانين تختلف عن قوانين الأرض، بل إنه بحكمته بدأ مخلوقاته جميعا بداية واحدة بأن خلق من الماء كل شيء حي، وجعل جميع المخلوقات دواب تدب على الأرض، ومنها الإنسان الذي يمشي على رجلين. كذلك فإن علاقة الإنسان ليست مع الكائنات الحيوانية وحسب، بل يشير الله عز وجل إلى ما بيننا وبين النبات من أواصر، فكلانا نبت من الأرض وخلق من الماء.

قلت: لا كونهم (أي أنواع الدواب على الأرض) أمما أمثالنا، ولا كوننا وإياهم قد خلقنا من الماء جميعا، يلزم منه تعطيل كافة محكمات القرآن بل ونقض معلوم من الدين بالضرورة بشأن خلق الإنسان!! فقول الدكتور "إن الله لم يفصل الإنسان عن باقي المخلوقات" قول مجمل لا قيمة له، وما حرره بعده من قوله "ولم يخلقه خلقا خاصا في السماء" باطل صريح، وقوله "في ظل قوانين تختلف عن قوانين الأرض" عدوان على الغيب وتنطع لا نلتفت إليه! الله ذكر أنه خلق آدم بأن صوره بيديه من الطين ثم نفخ فيه من روحه، فهل خضع شيء من ذلك لما يمكن تسميته "بالقوانين" أصلا أم لم يخضع، هذا غيب محض لا يعلمه إلا الله، ولا دخول لنا فيه! أما ذلك الهذيان بشأن الأواصر بيننا وبين النبات، فقد تقدم الرد عليه.

ولا يفوتني التنبيه على تناقض الدكتور – من جديد – في قوله "الإنسان البشر"! أليس قد شرّق وغرّب وذهب كل مذهب فيما تقدم من كلامه انتصارا لنظرية حسن حامد في كون نوعنا هو "البشر" وليس "الإنسان" وأننا إنما تطورنا من نوع "الإنسان"؟؟ فما وجه قوله هنا "الإنسان البشر" إذن؟؟ يبدو أنه يريد أن يلبس لفظة إنسان بمعنى لفظة Homo اللاتينية التي استعملها التطوريون في تسمية جميع مراحل التطور المزعومة لنوعنا، وصولا إلى Homo Sapiens (الإنسان المعاصر)، الذي يجعله مرادفا لذلك التركيب العجيب (الإنسان البشر)! وهو ما يلزم منه – عند التحقيق - إسقاط ما انتصر له من هذيان لغوي عند حسن حامد وعند عبد الصبور شاهين على السواء، من حيث منطق الاستدلال نفسه، ليأتي في محله بهذيان لغوي آخر مستقل! إذ على هذا يكون البشر هو الإنسان، ويكون بينهما عموم وخصوص، فالبشر نوع من أنواع الإنسان (الإنسان البشر، على غرار "إنسان نياندرثال" و"الإنسان المنتصب" ونحو ذلك!)، وهذا خلاف ما ذهب إليه كلا الرجلين جميعا كما لا يخفى، وهو يهدم عليهما جميع ما بذلاه من جهد في التفريق الصارم بين اللفظتين في القرآن، فتأمل!

ثم قال: "ونضيف إلى هذا المعنى الذي طرحه القرآن الكريم أن النبات يقوم بعملية التمثيل الضوئي التي يستهلك فيها طاقة الشمس والماء وغاز ثاني أكسيد الكربون، ويخرج غاز الأوكسوجين الذي لا غنى عنه للإنسان في تنفسه، ثم يخرج الإنسان في زفيره غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يستعمله النبات في تمثيله الضوئي، وهكذا. ما أروع هذا التكامل بين الإنسان والنبات." اهـ. قلت: صحيح، هو تكامل بديع ومن آيات الله في خلقه ولا شك، فكان ماذا؟ ليس فيه ما يلزم منه اعتقاد الأصل الدارويني المشترك بين الإنسان والنبات كما هو واضح!

ثم تحت عنوان "خامسا: تسلسل أحداث قصة الخلق"، يبدأ الدكتور بذكر عمر الأرض عند الطبيعيين، ثم يقول "ويبين العلم أن نشأة الكائنات الحية على كوكبنا مرت بعدد من المراحل"، ونقول: بل يفترض الطبيعيون افتراضا غيبيا محضا، وليس هو "العلم" الذي "يبين"، ولا قريبا من ذلك! فيروي الدكتور أسطورة التاريخ الطبيعي الداروينية بداية من ظهور الخلية الحية الأولى المزعومة منذ حوالي سبع وثلاثين ألف مليون سنة، مرورا "بنشأة" النباتات والحيوانات اللافقارية ثم الفقاريات ثم الثدييات التي كان آخرها ظهورا في الميثولوجيا الداروينية الإنسان. ثم يقول "والآن نقف مع آيات خلق الإنسان في القرآن الكريم لنرى كيف يمكن تأويلها بجلاء ووضوح وبساطة في ضوء مفهوم هذا الخلق التطوري." قلت: بل قل: "والآن، وبعدما قررنا اعتقاد تلك الأسطورة الطبيعية، فلننظر في كل ما له علاقة بخلق الإنسان في القرآن نحرف معانيه تحريفا حتى نبين لكل تطويري دارويني كيف ينتصر لفلسفته الميتافزيقية الداروينية ولاعتقاده الطبيعي الصرف هذا بنصوص القرآن!"

ومن ثم يشرع الدكتور في ابتداع التأويل الجهمي لآيات خلق الإنسان على نحو يرجو أن يوصله إلى استيعاب تلك الأسطورة ولو إجمالا، فيقول: "سلفنا الأول من طين. يقول الحق عز وجل: ((ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين)) (المؤمنون 12)، تشير الآية إلى أن الإنسان لم يخلق من الطين مباشرة، بل من سلالة خلقت من طين، وهذه السلالة هي الكائنات التي خلقت من مادة الأرض وتسلسل ظهورها حتى وصلنا إلى الإنسان." اهـ. قلت: تأمل العجمة الفاحشة في فهم ألفاظ القرآن! يا دكتور لفظة "سلالة" في القرآن، كغيرها من ألفاظ القرآن، ليست جارية على الاصطلاح البيولوجي الأعجمي المعاصر، وإنما على لسان العرب في زمان التنزيل! فالسلالة في لغة العرب وفي جميع المعاجم والقواميس المتعمدة في بيان لسان العرب في زمان التنزيل، هي الشيء المستل أو المنتزع من شيء آخر، فعندما يقال "سلالة من كذا" أي شيء مستل أو منتزع من كذا. فلو

كان المراد من لفظة سلالة هنا، الذرية المستلة من سلف لها (مثلا) لقال: "من سلالة من دواب سابقين" أو "من سلالة من بشر غابرين" أو "من سلالة من أشباه بشر منقرضين" أو نحوا من ذلك! ولكن اللفظ صريح في أن المراد بيان أن المادة التي خلق منها الإنسان (بعينه) منتزعة من الطين!

والحق أن على هذه النظرية التي اعتنقها الدكتور، فليس في أسلافنا شيء مستل أو منتزع من الطين أصلا! فالخلية الأولى إنما نشأت عندهم في الماء، والأسطورة كلها مرتبة على ذلك الفرض ترتيبا! فعلى عقيدته الخرافية تلك، وعلى المعنى اللغوي الصحيح للفظة "سلالة"، وإن سلمنا تنزلا بأن المسألة فيها خلاف بين السلف، فالرجل يلزمه أن يأتينا بنص فيه أن "سلف الإنسان" (وليس الإنسان نفسه) خلق "من سلالة من ماء" (وليس من طين)، أو على الأقل ما ينافي ما هو ظاهر جلي من اختصاص الإنسان باستلال مادة خلقه من الطين، ولكن هيهات! فتأمل كيف أن بين العقيدتين في خلق آدم، عقيدة المسلمين وعقيدة الدراونة التطويريين، كما بين المشرق والمغرب، ومهما حاول الرجل أن يتفلسف ليثبت لنا أن أسطورة النشأة الداروينية (التي قبلها بحذافيرها) تتسع لتغيير الفرض في نشأة أول كائن حي، وجعله مخلوقا – جريا على قوانين الكيمياء الحيوية المعروفة حاليا – بالانتزاع من شيء من مكونات الطين، فلن يأتي إلا بمحض النشاذ والتكلف والتنطع وما لا يقبله منه أحد من التطوريين الأكاديميين البتة!

وإلا فهل يعقل، يا من تتابعون هذا الرجل على بدعته وتنتصرون له في كل مناسبة، أن يفسَّر لفظ في القرآن باصطلاح طائفة عصرية من أهل فن من الفنون اتفقت فيما بينها على استعماله في معنى معين، لا علاقة له بالمعنى اللغوي الذي كان عليه لسان العرب في زمان التنزيل، ثم يقول إن هذا المعنى الاصطلاحي هو مراد رب العالمين باللفظ؟؟ هذا كذب وافتيات على رب العالمين! يعني لو جئت أنا اليوم واتفقت مع جملة من أقراني من الباحثين في مجال من المجالات، على أن نستعمل لفظة معينة وردت في القرآن، على استعمال لا علاقة له باستعمالها في القرآن، فكيف وبأي عقل يصح لي أنا وأقراني أن نزعم أن المراد باللفظة حيثما ظهرت في القرآن هو هذا المعنى الذي اصطلحنا نحن عليه فيما بيننا؟؟ أفنكذب على الله ونحن نعلم؟؟ نسأل الله السلامة!

ثم قال: "ب- خلية ثم بيضة ثم جنين في رحم ثم خلقا آخر": يقول الحق عز وجل ((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ))

[المؤمنون : 12-14] تأمل هذه الآيات، مع الأخذ في الاعتبار أن حرف العطف "ثم" يفيد التتابع مع التراخي، بالتالي نفهمه على أنه عطف يشير إلى الانتقال من نوع من الكائنات إلى نوع آخر، إذ يستغرق ذلك وقتا طويلا قد يمتد إلى ملايين السنين. بينما تفيد "فاء العطف" التتابع السريع دون تراخ، والذي نفهمه على أنه يشير إلى تقلب الكائن الواحد في مراحل نشأته." قلت: لا يسمع هذه الآيات عاقل، مهما كانت العجمة قد أكلت عليه لسانه، إلا فهم أن الآية الأولى تقرر ابتداء خلق الإنسان الأول (آدم عليه السلام) من طين، ثم تأتي الآية الثانية لتبين ابتداء خلق كل إنسان مما سوى آدم من نطفة في الرحم، ثم تأتي الآيت الثالثة لتبين مراحل خلق الإنسان في الرحم من تلك النطفة، وصولا إلى نفخ الروح! هكذا فهمها المسلمون كافة بلا منازع من يوم أن نزلت وإلى يوم الناس هذا! ومع أن هذا وحده دليل قاطع على بطلان وفساد هذا الهذيان الذي جاء به الدكتور ومن شاكلهم من دراونة الجهمية المعاصرين، عند من شم رائحة العلم بدين الله تعالى، إلا أننا نطيل النفس في هذا الجزء في بيان أوجه الفساد المنهجي والوهاء العقلي والشرعي واللغوي في استدلالات الدكتور بصرف النظر عن مسألة الإجماع، حتى نجعل من كتبه عبرة لكل من تسول له نفسه الاجتراء على كتاب الله بمثل ذلك العبث والزيغ والضلال، ورجاء أن يكون في التفصيل فوائد منهجية كلية سابغة ينتفع بها طلبة العلم في تحليل وتفكيك ونخل بضاعة الجهمية العصريين عامة عند الرد عليهم، على اختلاف النظريات الطبيعية التي اعتنقوها اعتناق الدين والملة، والنصوص الشرعية التي اعتدوا عليها بالتأويل والتحريف من أجلها، والله الموفق المعين!

الرجل يقول إن حرف العطف "ثم" يفيد التتابع مع التراخي (والصواب: الترتيب مع التراخي)، بينما الفاء تفيد التتابع مع السرعة (والصواب: الترتيب مع السرعة)، وهذا حق ولا شك، ولكن الخرف كل الخرف، في تطبيقه تلك القاعدة على الآيات! فهو يقول إن مجرد ثبوت التراخي بثم في ذكر بعض مراحل الخلق الإلهي للإنسان المذكورة في تلك الآيات، يحيل المعطوف به إلى أن يكون من مراحل التطور الدارويني من نوع إلى نوع، على أساس أنه ليس في التصور تراخ أعظم من تراخي مراحل التطور الدارويني، التي تمتد الواحدة منها لمئات الآلاف من السنوات، بل لملايين السنين! فيقال له: من أين جئت بضابط التراخي والسرعة في استعمال الحرفين في هذه الآيات؟؟ من الواضح أنه ليس في البابة سرعة أصلا، إذ تمتد كل مرحلة من مراحل الجنين المذكورة في الآيات لأسابيع عددا كما هو معلوم! فإذا كان ذلك كذلك، لزم ألا يكون استعمال الفاء هنا دالا على السرعة، وإذن فلا فرق بين استعمالها واستعمال "ثم" في هذا المقام أصلا!

وإلا فنحن نسأله، إن صح أن كان استعمال "ثم" والفاء في وصف أطوار خلق الإنسان على هذا الشرط الذي زعمته، والتوجيه الذي وجهته، فكيف تصنع بقوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)) [الحج : 5]؟ وكيف تصنع بقوله تعالى: ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)) [غافر : 67]؟ على فهمك الأعجمي الدارويني هذا، يلزم أن يكون بين النطفة والعلقة ملايين السنين، وبين العلقة والمضغة مثل ذلك، وبين هذه وإخراج الإنسان طفلا مثل ذلك، وبين الطفولة وبلوغ الأشد مثل ذلك، وبين هذا والشيخوخة مثل ذلك! فمن أين لك بالتفريق بين المعطوفات بذلك الفارق الفاحش في السرعة والتراخي والحال كما ترى؟؟

اعلم أن أكثر النحاة وأهل اللغة – الذين اقتحمت أنت صنعتهم ببدعتك وتطاولت عليها بجهلك! – لا يرون مفهوما للسرعة في استعمال الفاء في آيات سورة "المؤمنون" التي علقت عليها، لأنه من الواضح أن مراحل الجنين لا يوصف تعاقبها بالسرعة، وقد جاءت تلك المراحل نفسها معطوفة بثم في سورة الحج وسورة غافر كما مر، فلا وجه للتفريق بين الفاء وثم من حيث السرعة والتراخي في هذا الموضع أصلا! ولهذه التسوية (أعني نيابة الفاء عن ثم، وإهمال الدلالة على السرعة) نظائر في كلام العرب، كقول الشاعر "إذا مسمع أعطتك يوما مينه ... فعدت ضدا عادت عليك شمالها"! فإذا تحقق هذا، كان كل ما بنيته أنت من هذيان في التأويل على ذلك التفريق، كلاما لا أساس له في لغة القرآن!

ثم إنه من الواضح أن الآيات كلها تخاطب البشر الذين نزل عليهم القرآن، ببيان أن خلق نوعهم بدأ بخلق أبيهم من تراب، ثم خلقهم هم من نطف في الأرحام، فكيف يفهم العربي القح سليم اللسان والعقل، السالم من زبالة الدراونة، أن التراخي مهما طالت مدته بين تلك المراحل، يفيد في آيات سورة المؤمنون (12-14) التحول من نوع من أنواع الكائنات الحية إلى غيره ثم غيره وصولا إلى آدم عليه السلام؟؟ الآيات تبدأ بذكر خلق آدم، وهذا يجعلها تنتهي إليه! فتأمل كيف تقلب الأهواء فهم أحدهم لكلام ربه رأسا على عقب، فتجعل أوله آخره، وآخره أوله، وقل الحمد لله على نعمة

السنة! ففي جدول سخيف، يفصل صاحبنا بين أجزاء الآيات فيقول معقبا على كل جزء منها:

((ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين)): وتبدأ هذه السلالة بخلية واحدة – البكتريا، تسلسلت عنها الكائنات البسيطة وحيدة الجنس التي تتكاثر لا جنسيا كالإسفنج.

قلت: هذا تكذيب لصريح القرآن! فالله تعالى يقول: خلقنا الإنسان من سلالة من طين، وهذا يقول إن المراد الكائنات أحادية الخلية، هي التي خلقت من الطين!

ثم يقول: "((ثم جعلناه نطفة في قرار مكين)): تشير الآية إلى التطور إلى الكائنات التي تتكاثر تكاثرا جنسيا عن طريق تكوين النطف، وتستقر بويضاتها – لفترة – في أعماق الإناث، ومنها الفقاريات البيوضة (الأسماك ثم البرمائيات ثم الزواحف ثم الطيور)." اهـ. قلت: وهذا تكذيب آخر للقرآن، إذ الضمير في جعلناه يعود على نوع الإنسان، الذي يخاطبه ربه بهذا الكلام، فإنه لما خلق الله بشرا من أبيهم آدم، خلقهم من نطف في رحم حواء، ثم لم يزل البشر يخلقون في أرحام أمهاتهم إلى يومنا هذا! وأما صاحبنا فيجعل الضمير عائدا على كل كائن حي يتكاثر جنسيا!! هذه الأنواع التي يصفها الدكتور ليست هي الإنسان، وإنما هي أنواع تطور بعضها من بعض بحسب النظرية، فما علاقة ذلك بالآية التي تنسب تلك الأطوار كلها إلى الإنسان نفسه كما هو واضح؟! سخف وتنطع قل نظيره!

ثم يقول: "((ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما)): هذا هو الطور الأخير من الفقاريات وهو الثدييات التي تمر أجنتها بهذه المراحل في الأرحام. ويرتب القرآن الكريم التقلب السريع بين هذه المراحل في الكائن الواحد بحرف الفاء. وأعلى الثدييات هي الرئيسيات التي منها الإنسان الطين." اهـ. قلت: الإنسان الطين؟؟ خيبك الله! لا أدري والله أأضحك أم أبكي من هذا الهراء! صدق القائل بأبي هو وأمي: إذا لم تستح فاصنع ما شئت! الآية صريحة في وصف ما يكون في رحم المرأة من نساء البشر، وهذا يجعلها وصفا "للطور الأخير من الفقاريات، التي تطورنا نحن – بزعمه – منها"! فأين يأتي خلق آدم بعد هذا كله؟؟ يقول: "((ثم أنشأناه خلقا آخر)): فهذا هو خلق الإنسان البشر، الذي تميز بعد فترة (ثم) كطور منفصل عن الثدييات وعن الإنسان الطين بنفخة الروح." اهـ. قلت: الله أكبر! الإنسان الطين المزعوم هذا، لم تكن فيه روح إذن! كان تمثالا من الفخار على هيئة قرد أو شبيه بالقرد، يتناسل

ويتكاثر بلا روح، ثم اتفق أن خلق في رحم أنثى من إناثه "الإنسان البشر"، وذلك "بنفخة الروح"! فما أقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل!

هذا الخرف المثير للضحك، أيها القارئ المحترم، لا أبعد النجعة إن قلت إنه قد تجاوز حدّ التأويل الجهمي إلى القرمطة الباطنية المحضة، نسأل الله العافية والسلامة!

ثم واصل الدكتور عبثه وتلاعبه بالقرآن وبلسان العرب فقال (ص. 358): "مرة أخرى بين "ثم" و"ف": في ضوء ما سبق نفهم من قول الحق عز وجل: ((ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين)) (الأعراف: 11): أن "خلقناكم" تشير إلى بداية خلق الكائنات الحية." اهـ.

قلت: الله أكبر! هذا على أساس أن المخاطبين بالقرآن هم جميع الكائنات الحية، البشر والقردة والخنازير والطيور والحيتان والحشرات والبهائم .. إلخ! وإلا فإلى من يرجع ضمير المخاطبين في "خلقناكم"، إن كان المراد كما تزعم، هو خلق السلف المشترك الذي منه خلق كل نوع حي؟ يقول: "وتشير ((ثم صورناكم)) إلى تطور هذه الكائنات عبر فترات طويلة حتى وصلنا إلى الإنسان الطين. وبعد فترة طويلة أخرى ((ثم)) نفخ الله في الإنسان الطيني من روحه فصار إنسانا بشرا، أمر ملائكته بالسجود له. بينما نفهم من قول الحق عز وجل ((يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك . في أي صورة ما شاء ركبك)) (الانفطار: 6-8) أنها تبين الخلق والتسوية والتعديل في الرحم لكل إنسان على حدة، إذ يستخدم فيها القرآن الكريم حرف الفاء الذي يفيد العطف مع التتابع السريع." اهـ. قلت: تقدم نقض هذا التفريق البدعي بين الفاء و"ثم" في هذه الآيات فلا نعيد.

ثم يسطر كلاما يداعب به عواطف قرائه فيقول: "يا إلهي .. كلما جال بخاطري كيف صار الإنسان (بعد دهر) بشرا.. كيف صار الكائن الطيني خليفة .. أخذتني رعدة .. لقد كان ذلك بنفخة روح نسبها الله عز وجل إليه .. يا إلهي.." اهـ. قلت: قل "يا إلهي" وتعجب وارتعد ما بدا لك يا دكتور، فلن يصحح ذلك من هذيانك شيئا، ولن ينهض به قيد أنملة، والله المستعان!

ثم قال: لقد جاء الربط بين التسوية ونفخة الروح في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع: الموضع الأول سورة الحجر الآية 29، والموضع الثاني في سورة ص الآية 72، وقد جاءت الآيتان بنص واحد: ((فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)) ولا شك أن الآيتين الكريمتين تتحدثان عن التسوية ونفخة الروح التي تحول بها الإنسان الطين إلى الإنسان البشر،

والتي استحق بها سجود الملائكة له." قلت: لا شك؟؟ ما شاء الله! فهل لنا أن نسأل ما الذي أذهب عنك الشك في صحة تأويلك السخيف هذا يا دكتور؟ أنت رجل لا تبالي بإجماع المسلمين، قد اتخذت من القرآن ملعبا للتنظير والافتراض الطبيعي في التأويل، فبأي عقل وبأي مستند جزمت بصحة ما أنت عليه؟؟ بل الواجب عليك أن تعتقد ورود المعارض على أيما مذهب ينتهي إليه رأيك، فلا تجزم به أبدا، ولا تصل به إلى منزلة "الإيمان" ولا إلى قريب منها! إذ من أركان الإيمان اليقين المنصرم، وهذا لا وصول إليه من طريقك أصلا! المسلمون يفهمون هذه الآية على أن المراد: إذا أتممت تسويته وركبت فيه الروح، فاسجدوا له بأمري! أي إذا أتممت خلق آدم فاسجدوا له! وهم مؤمنون بهذا المعنى إيمانا راسخا منصرما لا تردد فيه ولا يرد عليه المعارض! أما على دين عمرو شريف الحالي (إذ لا ندري إلى أي ملة ينقلب غدا)، فالمراد بحسب نظريته الحالية: إذا طورت الهومينيد بالطفرة بعد الطفرة (وليس أتممت تصوير الإنسان الأول)، فانتهيت أخيرا إلى Homo Sapiens، فاسجدوا له!

ثم قال: "وقد جاء في التفاسير التراثية التي تتبنى مفهوم الخلق الخاص في معنى هذه الآيات: ((وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين)) تتحدث الآيتان عن آدم عليه السلام. بينما تتحدث الآية ((ثم سواه ونفخ فيه من روحه)) عن تسوية كل منا ونفخ الروح فينا في الرحم. وفي ضوء ما توصل إليه العلم عن الخلق التطوري، يمكن فهم آيات سورة السجدة في نفس سياق آيتي سورتي الحجر وص، من أنها تتحدث جميعها عن تطور خلق الإنسان البشر وليس عن أطوار الأجنة في الأرحام، إذ إنها تستخدم أداة العطف "ثم"." اهـ. قلت: كل هذا أسسته على أداة العطف "ثم"؟؟ يا لله العجب! المطلوب منا الآن أن نعتقد أن "المفسرين التراثيين" كما تسميهم، جهلوا كلهم بهذا الاستعمال السحري لأداة العطف "ثم" الذي اكتشفته أنت أخيرا في تلك الآيات، فضلوا وزاغوا وأفسدوا اعتقاد المسلمين كافة منذ زمان الصحابة وإلى يوم الناس هذا في مسألة خلق الإنسان؟؟ أحقا تصدق – أنت نفسك – هذا الخطل يا دكتور؟؟ سبحان الله العظيم!

ثم يقول في جدول آخر: "((وبدأ خلق الإنسان من طين)): تشير الآية إلى بداية خلق السلالة التي نشأ منها الإنسان من مادة الأرض، وبدأت بالكائنات الحية الأولية – ((ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين)): هنا وصل التطور إلى الإنسان الطين الذي ظل يتكاثر عن طريق النطف المذكرة والمؤنثة (ماء مهين) قبل أن ينفخ فيه الروح المدرك – ((ثم سواه ونفخ فيه من روحه)): وبعد فترة أخرى (ثم)، قام الله عز وجل بتسوية الإنسان حتى

أصبح بشرا حسن التقويم وأهلا لنفخة الروح – ((وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة)): هنا فقط تنتقل الآيات للحديث عن كل منا (لكم)، وتبين جزءا من عملية تشكيلنا في الأرحام." اهـ. قلت: الله تعالى يخبرنا صراحة عن أبينا آدم عليه السلام وكيف أنه بدأ خلقه من طين، ثم جعل نسله وذريته من بعده مخلوقة من مادة منتزعة انتزاعا من مائه وماء زوجه، وهذا ما فهمه الصحابة وتابعوهم وتلامذتهم وجميع المسلمين من يوم نزول الآية وإلى يومنا هذا! ولكن لا علينا بهؤلاء جميعا وبالطريقة التي فهموا بها القرآن! لا تلزمنا في شيء! هم قوم بدائيون مساكين، محدودة مداركهم، فما كانوا يعلمون باستعمالات "ثم" المدهشة في لغتهم التي اكتشفها الدكتور أخيرا في كتابه العبقري هذا بفضل تشارلز داروين! صدق القائل: شر البلية ما يضحك!

تأمل قول الدكتور عند هذا الموضع في حاشية (ص. 360): "إن المتصدي لقراءة التفسيرات التراثية لآيات خلق الإنسان يلاحظ منهجا يتبعه المفسرون لوضع الآيات في إطار الخلق الخاص. فيقولون عن بعض الآيات إنها تخص آدم، ثم يخبروننا عن آيات أخرى أنها تتحدث عن ذرية آدم، ويعودون بآيات ثالثة إلى أدم وهكذا... دون الأخذ في الاعتبار الاختلاف بين أداتي العطف "ف" و"ثم"" اهـ. قلت: مساكين المفسرون هؤلاء! يجعلون الآيات عن آدم تارة وعن ذريته تارة أخرى، يتقلبون بين ذلك وهم جاهلون كلهم "بالاختلاف بين أدوات العطف"! ولو أنهم وقفوا في زمانهم على نظريات الطبيعيين المعتمدة اليوم أكاديميا، لما وقعوا كلهم في ذلك الغلط اللغوي الفاحش يتوارثونه وكأنه هو الحق المبين! ولكن، الحمد لله، قد أنقذنا المسلمين أخيرا وأصلحنا لهم عقيدتهم بل ولغتهم نفسها، قبل فوات الأوان بقيام الساعة!

اكتشفنا أخيرا أن "بدأ خلق الإنسان من طين"، المراد بها على الحقيقة إنما هو خلق الخلية الأولى التي هي أصل جميع الأنواع الحية، من مادة الأرض! فلا عليكم بأن الله يقول صراحة "بدأ خلق الإنسان"، وأن أهل اللسان كافة لم يفهموا هذا الكلام إلا على أن المقصود: بدأ خلق نوع الإنسان، أي خلق أول إنسان، بعينه، من طين! هم مخطئون واهمون كلهم! العرب كلهم ما كانوا يعرفون لسانهم معرفة صحيحة، حتى جئناهم نحن أخيرا بما يصلح ذلك! فما كانوا يعرفون أنه يجوز في لغتهم أن يقال "الإنسان" ويكون المراد بذلك أنواع أخرى متقدمة على الإنسان، وليس الإنسان نفسه! وما كانوا يعرفون أن الضمير في لفظة "نسله" في قوله تعالى ((ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين))، وإن كان عائدا على الإنسان المذكور صراحة في السياق، إلا أن استعمال "ثم" في أول هذه الآية ينقله لإرادة "سلف

الإنسان" و"الأنواع المتقدمة عليه" داروينيا، وليس الإنسان نفسه! وما كان العرب يعرفون أن قوله "سواه" التي توهموا أن الضمير فيها عائد على آدم أيضا، الصواب أن المراد منها هو سلف آدم وليس آدم نفسه، ذلك السلف "الطيني" الذي ما صار هو ذلك النوع الذي عرفوه في لغتهم "بالإنسان" إلا بعد نفخ "الروح المدركة" فيه! وسبب ذلك كله هو جهلهم بالاستعمال الصحيح لأداة العطف "ثم"!

فالخلاصة، وبناء على هذا "الاكتشاف اللغوي" العبقري، ينتهي الرجل إلى أن الآيات "تبين" أن (ص. 360): "الإنسان البشر" قد تميز عن "الإنسان الطين" بنفخة الروح، التي استحق بها سجود الملائكة! فبالله أين وجه "التبيين" أصلا وكيف يحصل الانتفاع بهذه الآيات، إذا كان الصحابة أنفسهم ومن جاء بعدهم قد خوطبوا جميعا باستعمال لحروف العطف لم يجدوا في لسانهم واللغة الجارية فيما بينهم ما يفهمونه به على وجهه الصحيح، ولم يخطر ببال أحدهم طرفة عين أن يفهموا الآيات على هذا الفهم، حتى جاء رجل في القرن الرابع عشر الهجري لينبههم إليه؟؟ ألا شاهت الوجوه!

ليس في لسان القرآن اكتشافات ولا اختراعات يا دكتور، وإنما فيها الأثر المحفوظ! فلا نحكم بأن اللغة (التي نزل بها القرآن) فيها كذا أو ليس فيها كذا إلا بالأثر! فهو تراث محفوظ لا تجديد فيه ولا اختراع ولا اكتشاف لشيء خفي على السابقين، وإن رغمت أنوف أهل الزيغ والهوى! من ذا الذي له أن يزعم اليوم أنه أعلم من قرن التنزيل وما تلاه من قرون العرب بمعاني الألفاظ التي كانوا هم يتكلمون بها في ليلهم ونهارهم؟؟ أويعقل أن يكون هذا أصلا؟؟

ولا يبرح الرجل هذا الموضع حتى يتقرمط على تفريق القرآن بين "التراب" و"الطين" و"الصلصال" و"الفخار" ونحوها من ألفاظ استعملها الرب سبحانه في مواضع شتى عند الكلام على خلق آدم. فيقول: "هل هذه الأطوار مراحل تتابعت بعد أن أصاب التراب ماء فصار طينا، ثم تخمر فصار صلصالا، ثم جففته الشمس فصار فخارا، كما تقول الكثير من التفاسير التراثية؟ هل هذا التسلسل الساذج الذي يعرفه كل صانع فخار، بل كل إنسان، هو الذي أفرد له المولى عز وجل هذه الآيات وغيرها، وأخذ يقلبها ويعيدها على البشر في كتابه الكريم، يتعبدون بها حتى قيام الساعة! وحتى لو قبلنا المعنى الظاهر البسيط لهذه الكلمات (تراب – طين – صلصال) ألا يشير ذلك إلى تطور الخلق؟ لا بأس من أن نشرح الأمر بهذا الشكل لعوام الناس، لكن ينبغي أن نجتهد كلما اتسعت معارفنا وأن نستخدم ما من الله عز وجل به علينا من علم لنقترب أكثر وأكثر من فهم مقاصد أخرى للقرآن الكريم من هذه الاصطلاحات." اهـ.

قلت: الصحابة والسلف وأئمة المسلمين فهمهم فهم عامي ساذج، فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل! عندما يخرج فيلسوف جاهل بمثل هذا الهراء الذي جاء به الدكتور، ثم يتهم قرون المسلمين بما فيهم خير القرون رضي الله عنهم وأرضاهم بالسذاجة، هكذا بجرة قلم كما يقولون، فلا نجد له عندنا إلا القرع على الرأس ولا كرامة، وإذن فلا ملام علينا إن رددنا وقلنا: بل أنت العامي الساذج الجاهل على التحقيق، فاتق الله في نفسك! من الذي قال إن الإنسان خلق من صلصال كالفخار، من حمأ مسنون، من التراب؟؟ هذا كلام الله يا عدو نفسك، وليس كلام قوم سذج عوام لا يعلمون عن أي شيء يتكلمون! أما قولك: "هل هذه الأطوار مراحل تتابعت بعد أن أصاب التراب ماء فصار طينا، ثم تخمر فصار صلصالا، ثم جففته الشمس فصار فخارا" فلا ندري كيف تتابعت ولا على أي ترتيب، هذا أمر غيبي محض لا نملك أن نقيسه على شيء مما في عادتنا وتجربتنا، وإنما نقف على ما جاء به النص ولا نزيد! ولا نقول سخرية وتهكما "ثم جففته الشمس"! ونقول: فلنفرض أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام على تسلسل مشابه لخطوات صانع الفخار، فكان ماذا؟ أين "السذاجة" في ذلك وأين محل العيب والنقص في نسبة ذلك الفعل إلى الله تعالى؟؟ هو سبحانه يقول إنه خلق آدم من صلصال، وأنت تقول: لا يمكن أن نفهم الكلام على أنه خلقه من صلصال على الحقيقة لأن هذا تصور ساذج! فمن المتهم بالسذاجة هنا (لزوما واقتضاء) يا عقلاء المسلمين، إن لم يكن هو صاحب الكلام نفسه، سبحانه وتعالى علوا كبيرا؟

لا جديد عند القوم! فلا يزال الفيلسوف الجهمي يعطل القرآن عن معانيه بدعوى التنزيه، فيأبى ربه إلا أن يعامله بنقيض قصده، فيوقعه فيما هو أشنع مما فر منه من الطعن والحطّ على رب العالمين، ولله الحمد أولا وآخرا!

وتأمل كيف يومئ الدكتور إلى بدعة الباطنية والفلاسفة القدماء في أن القرآن إنما يخاطب العوام بما يناسب أفهامهم، وأن الحق الذي يراد من تلك الألفاظ إنما هو على خلاف تلك المعاني المتبادرة كلها، بل بينه وبينها كما بين السماء والأرض! وهو مراد لا يزال "العلماء" أو "الخاصة" يبحثون ويتفلسفون في استكشاف بعض جوانبه، تلك الجوانب التي لا ينبغي لهم أن يصدموا بها العامة! فأين سمعنا نظير هذا الكلام من قبل؟ سبحان الذي قال في أهل الأهواء والزيغ: ((كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)) الآية [البقرة : 118]

ثم يأتي الدكتور في سذاجة بالغة بشبهة من شبهات الدهرية يعترض بها على معاملة أصل الخلقة الإنسانية على أنه هو الطين والفخار والصلصال على الحقيقة لا المجاز، بدعوى نقد ما يأتي به بعض كتاب "الإعجاز العلمي"

من مقارنات بين مادة الطين ومادة جسم الإنسان، فيقول إن الطين والتراب الغالب فيهما السلكيون وجسم الإنسان يخلو من السليكون، فلا يمكن أن يكون التراب والصلصال هو الأصل المباشر الذي خلق منه الإنسان، ونحن نقول: يا مسكين، من الذي قال إن الله تعالى خلقنا بتفاعل كيميائي، حتى تتوقع أن تجد بعض مادة التراب والطين عالقة في أجسامنا؟؟ أنت من حملته سذاجته ورقة دينه على تشبيه أفعال الله بأفعال البشر، على طريقة الفلاسفة الذين تشرب بكلامهم! فلما بدأت بتشبيه الفلاسفة انتهيت إلى تعطيل القرامطة، ولا عجب!

الله تعالى يخبرنا بأنه خلق الجان من مارج من نار، فهل نتوقع على هذا، إن قدرنا أن وقع جني تحت أيدينا، أن نجد فيه شعلة نار تضطرم في جوفه مثلا؟؟ وقال إنه خلق الملائكة من نور، فهل نتوقع أن نجد الفوتونات تجري بين أوصالهم كما تجري الدماء في عروقنا مثلا؟؟ ما هذا الهراء؟! الله أعلم كيف خلق الإنسان من طين ومن صلصال، وكيف حول ذلك الأصل إلى مادة أجسامنا كما نجدها الآن! فهلا أمستك عن مثل هذا يا دكتور، واتقيت الله في نفسك وفي المسلمين؟؟

يقول: "إن التراب والطين والصلصال مركبات من مواد الأرض، لذلك نفهم من الآيات السابقة أن الله عز وجل خلقنا من مادة الأرض. ومادة الأرض تشتمل بالإضافة إلى العناصر غير العضوية على المركبات العضوية والكائنات الحية الدقيقة أيضا. يشير القرآن الكريم إلى العناصر غير العضوية في قشرة الأرض بلفظ التراب، ثم أسماها طينا بعد أن اختلطت بالماء، وهذه العناصر مع الماء هي أصل المركبات العضوية الهيدروكربونية. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المركبات باصطلاح الطين اللازب، أي الطين الرخو للزج، لما فيه من مواد مخاطية عضوية. وقد تكونت من هذه المركبات الهيدروكربونية مركبات الحياة (البروتينات – الأحماض النووية – الكربوهيدرات – الدهون)" اهـ. قلت: فمن أين لك أنت العلم بهذا؟ أأشهدك الله خلق آدم إذ خلقه؟ أأوقفك في معمل من المعامل على عينة من ذلك الطين وذلك الصلصال المذكور كيف كان قبل أن يصوره الله في صورة آدم ثم يصيره بشرا بكلمة التكوين؟ أأشهدك ما علمت به أنه يتكون من نفس مكونات الطين والصلصال والحمأ المسنون التي نعتادها في تجربتنا البشرية؟ أأشهدك مخلوقا حيا كالإنسان وهو يصوره ويسويه منها بيديه سبحانه، فعرفت أي مادة من مكوناتها تبقى وأي مادة تفنى وأي مادة تتحول؟ ما هذا الهراء وبأي سلطان معرفي أذنت لنفسك بالخوض فيه كما خضت، تنسبه إلى فعل الله تعالى في خلق آدم من الطين والفخار؟! ((مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ

عَضُداً)) [الكهف : 51] فنعوذ بالله من كبر هؤلاء! صدق الذي قال فيك وفي أمثالك: ((الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)) [غافر : 35]

ثم ختم الرجل هذا الفصل الخبيث بجزء جعله تحت عنوان "هل هيئتنا الحالية هي آخر مشوار التطور"، ليأتي بمزيد من القرمطة على مفهوم الاستبدال في القرآن، يجعل المراد منه التطوير الموجه لنوع الإنسان، حتى يصبح نوعا آخر يحل محل بني آدم إن قدر أن أراد الله أن يذهبهم ويستخلف من بعدهم قوما آخرين! ونقول إن جميع الآيات التي ساقها ليس فيها إلا أن الله قادر إن شاء على أن يذهب ما على الأرض الآن من بشر يكفرون به، ليخلق في محلهم خلقا يعبده ويوحده، فأين في ذلك ما يفهم منه ولو من بعيد، إن الاستبدال والاستخلاف يكون بالتطوير البيولوجي على ذرية بني آدم؟! يا رجل كفاك تمحلا وتلصيقا لنظريتك الساقطة تلك بكلام ربك، واتق الله في نفسك قبل ألا يجدي الندم! ثم يقول "كذلك فإننا نعتقد أن ما يعتري الطبيعة من ظروف طبيعية وكيميائية شديدة التأثير على الجينات (كإجراء التجارب الذرية)، بالإضافة إلى تجارب الهندسة الوراثية (التي قد لا تلتزم بأخلاقيات البحث العلمي)، يمكن أن تؤدي إلى أنماط تطورية في بنية الإنسان قد لا تخطر لنا على بال." اهـ. قلت: لا عجب أن يكون هذا هو اعتقاد من يثبت فاعلية آليات داروين المزعومة في إنشاء نوعنا نفسه من سلف منحط! ولكننا نسأله: إن قدرنا وقوع ذلك تنزلا، فهل ستعده أنت تطورا أم تشوها؟؟ إن عددته تطورا، فقد كذبت قول الله تعالى: ((لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)) [التين : 4]، بل ويكون إذن تكذيبا لكل نص فيه أن خلق نوع الإنسان قد تم وانقضى على أكمل ما يرام! وإن عددته تشوها وانحدارا، أو على أحسن الأحوال تباينا في إطار ما يسمح به الجينوم البشري نفسه من اختلافات جينية بين أفراد النوع نفسه، يستحيل معه أن يحصل تحسن وتطور وزيادة في صفات نوع الإنسان نفسه بكليته، أو صيرورة لما هو "أحسن" (نوعا)، إن قلت بذلك، لزمك الخروج من نظرية التطور كلها، أولها وآخرها، فتأمل!

ثم يختم بقوله: "وفي نهاية الفصل، نؤكد أنه لا يمكن الجمع بدقة بين كل ما جاء في القرآن الكريم عن خلق الإنسان إلا من خلال مفهوم التطور الموجه. وقد أظهرت محاولات التفسير خارج هذا المفهوم تعارضا وتعسفا لا يمكن قبوله في إطار ما كشفه الله عز وجل للبشرية من علوم ومعارف." اهـ. قلت: وإذن نؤكد على أن الرسول عليه السلام ما فهم ما جاء في القرآن حول خلق الإنسان حق الفهم، أو فهمه ولكنه ما أدى أمانة التبليغ، ولم يبال بترك أصحابه يفهمونه على تعارض وتعسف وعجز عن الجمع الدقيق بين

الآيات، فيمضي قرنهم والقرون التي تأتي من بعدهم على جهل بحقيقة مراد الله تعالى من تلك النصوص حتى تظهر نظرية التطور الموجه!! فبالله هل هذا كلام يقوله مسلم يتقي الله في نفسه وفي المسلمين؟؟

حسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي كتابه "خرافة الإلحاد"، أخذ الدكتور تحت عنوان "نشأة الكون في القرآن الكريم" (ص. 130) في اعتصار النصوص ولي أعناقها ليا (على طريقة صنوه زغلول النجار في هذه البابة) حتى يلبسها بنظرية الانفجار الكبير في صورتها الانسحاقية التقلبية Big Crunch، فافتتح بقوله:

> في ظل هذه المفاهيم (يعني ما زعم أنه كان سائدا من مخالفة للنظرية) جاء القرآن الكريم، مؤكدا أن الكون مخلوق وله بداية، وستكون له في يوم من الأيام نهاية. ومؤكدا أن جميع أجرام السماء في حركة دائبة وجري مستمر، وأن السماء ذاتها في توسع دائب إلى أجل مسمى. كما أن السماوات والأرض كانتا في الأصل جرما واحدا ففتقهما الله عز وجل فتحولت مادة هذا الجرم الأول إلى الدخان الذي خلقت منه الأرض والسماء. كذلك يخبرنا القرآن الكريم أن هذا الكون سوف يطوى ليعود كهيئته الأولى جرما واحدا مفردا، ثم ينفتق هذا الجرم مرة أخرى إلى غلالة من الدخان تخلق منها أرض غير أرضنا الحالية، وسماوات غير السماوات التي تظلنا في حياتنا الدنيا، وهنا تتوقف رحلة الحياة الأولى وتبدأ رحلة الآخرة.

قلت: تأمل كيف يزعم بكل جرأة، كذبا على الله تعالى، أن القرآن "يؤكد" كل هذا الذي ذكر! والحق أنه لم يأت في القرآن ما يفيد أن السماء في توسع دائم كما زعم، لا إلى أجل مسمى ولا إلى غيره، وليس هذا هو معنى قوله تعالى ((وإنا لموسعون))، ولا أن السماوات والأرض كانتا جرما واحدا ثم فتق (إلا على قول مرجوح في تأويل آية الأنبياء!)، ولا أن الجرم الأول المزعوم تحولت مادته إلى الدخان الذي خلقت من الأرض والسماء! وإنما جاء في السنة أن عرش الرحمن كان على الماء قبل خلق العالم، كما في حديث عمران بن حصين المشهور في صحيح البخاري، في قوله عليه السلام: "كان اللهُ ولم يكن شيْءٌ غيرُهُ، وكان عرشُهُ على الماءِ، وكتب في الذِّكْرِ كلَّ شيءٍ، وخلقَ السماواتِ والأرضَ"، فلم يكن ثمة "جرم" خلق منه الدخان ثم السماء والأرض، كما أوهم الدكتور نفسه وقراءه!

ثم إنه لم يزل يتكلم في الأقسام السابقة من كتابه عن "الفردية" في بداية الانفجار، فهل الفردية في كوزمولوجيا الانفجار جرم كان رتقا ففتق يا دكتور؟؟ لابِد أن يجعلها كذلك بأيما طريق، حتى يلبسها بقوله جل شأنه:

((كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا)) الآية [الأنبياء : 30] والعجيب أنه يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه صاحبه النجار، فيقول (ص. 130) إن استعمال لفظة رتقا "يشير إلى أن هذه المرحلة أعقبت فتقا سابق أي كونا سابقا"! قلت: فأين هذا مما علمه الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما كان قبل هذا العالم الذي نعرفه، وقد جاء الخبر بالعرش والماء والقلم وأن هذا هو ما كان قبل خلق السماوات والأرض؟ وهل نصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أجاب به عن سؤال صريح في تلك المسألة، أم نصدق نظرية الانسحاق الدوري (انفجار ثم انسحاق ثم انفجار ثم انسحاق) التي تزعم أنت أنها هي ما كان عليه الأمر؟؟ سبحان الله! وكما أنه ليس في الكتاب والسنة ما يوافق زعمه أن العالم كما نعرفه قد خلق بتفجير فردية ناشئة عن انسحاق عالم سابق، فكذلك ليس فيه ما يدل على أن القيامة ستقوم بانسحاق هذا العالم ليرجع "فردية" أخرى كالأولى المزعومة!! بل فيه التصريح بخلاف ذلك! فقوله "كذلك يخبرنا القرآن الكريم أن هذا الكون سوف يطوى ليعود كهيئته الأولى جرما واحدا مفردا"، هذا كذب بارد على القرآن، والله المستعان! أين وجدت في القرآن يا رجل أن العالم يجعله الله "جرما واحدا مفردا" يوم القيامة؟؟! يزيد الدكتور كذبا فوق كذب فيقول: "ثم ينفتق هذا الجرم مرة أخرى إلى غلالة من الدخان تخلق منها أرض غير أرضنا الحالية، وسماوات غير السماوات التي تظلنا في حياتنا الدنيا، وهنا تتوقف رحلة الحياة الأولى وتبدأ رحلة الآخرة." فأين تجد في كتاب الله أن العالم سيجعل جرما يتحول يوم القيامة إلى دخان تخلق منه تلك الأرض التي قال الله فيها: ((يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)) [إبراهيم : 48]؟؟ كل ذلك لأي شيء تكلفه؟ لأجل أن يلبس هذه الآية بنظرية الانسحاق العظيم Big Crunch!

يقول في قوله تعالى: ((يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)) [الأنبياء : 104] (ص. 131) إن فيه: "حتمية عودة الكون بكل ما فيه إلى جرم ابتدائي واحد مشابه للجرم الأولي الذي ابتدأ منه الخلق (مرحلة الرتق الثاني أو طي السماء أو الانسحاق الشديد للكون). وحتمية فتق هذا الجرم الثاني أي انفجاره (مرحلة الفتق للجرم الثاني). وحتمية تحول الجرم الثاني بعد فتقه إلى غلالة من الدخان الكوني." اهـ. قلت: فهل رأيت جرأة على كتاب الله فوق هذا؟؟ أين في الآية أن الكون يعود إلى جرم ابتدائي واحد مشابه للجرم الأول المزعوم؟؟ وكيف يفهم ذلك كله من قوله تعالى "نطوي السماء"؟؟ وإذا كان الطي قد أعجبك ما ألصقته به من كذب على رب العالمين، فأين أنت من قوله تعالى: ((وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ)) [التكوير : 11] وقوله: ((وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)) [الانشقاق : 3-4]، وقوله: ((وَإِذَا

الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)) [الإنفطار : 3] وقوله: ((وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ)) [الإنفطار : 2] وقوله: ((وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ)) [التكوير : 2] وقوله: ((وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)) [الإنفطار : 4] وغير ذلك من تفصيل ما يجري يوم القيامة؟؟ هل الأرض تمد وتخرج ما فيها وتتخلى وتبعثر قبورها، والسماء تكشط وتطوى وتصبح وردة كالدهان والبحار تفجر والكواكب تنثر والشمس تكور والنجوم تبعثر وتنكدر والجبال تنسف وتمر مر السحاب، إلى آخر ما جاء به القرآن من تصريح بما يجري على أرضنا هذه والسماوات من تبديل الهيئة والخلقة في يوم الحشر، كما أخبر رب العالمين، أم تسحق الأرض والسماوات كلها في جرم صغير ضئيل كما يدعي الدكتور، يفجر على نفس وتيرة الانفجار الكبير المزعوم، ليرجع "كونا" جديدا كما كان؟؟ لو قرأ الدكتور هذا الكلام، فلا أتوقع منه إلا أن يتقرمط في محاولة الجمع بين هذه النصوص كلها وما زعمه من جريان خرافة الانسحاق العظيم على يوم القيامة، كما هو الظن بكل جهمي، والله المستعان!

ثم يأتي أخيرا بقوله تعالى: ((يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)) [إبراهيم : 48] فيتحفنا بقوله: "تشير الآية إلى: إعادة خلق أرض غير أرضنا الحالية وسماوات غير السماوات التي تظللنا اليوم، وبداية رحلة الآخرة." ثم يقول في الحاشية: "قد يحدث ذلك عقب انسحاق كوننا الحالي، أو عقب دورات من الانسحاق والانفجار، لكن في النهاية ستبدأ رحلة الآخرة"! فهل رأيت جرأة على الله وعلى غيب الآخرة أعظم من هذا؟؟ دورات من الانسحاق والانفجار قبل "رحلة الآخرة"! ما شاء الله! وكم دورة يا ترى؟؟ عشرة؟ مئة؟ بليون؟؟ وإذا كانت الدورة الواحدة يهلك فيها العالم بما فيه لعياد بناؤه من جديد، كما هو اعتقادك، فكم "يوما آخرا" تثبت أنت في دينك إذن يا دكتور، وما معنى كونه هو اليوم الآخر أصلا؟؟ بالله ألا تستحيي يا رجل؟؟ أي لعب وأي عبث وأي جهالة هذه؟ نسأل الله السلامة! يا دكتور ارجع إلى صنعة الطب والجراحة التي أنت أستاذ فيها، ولا تخض فيما لا تحسن هداك الله، فإن الموقف يوم القيامة عسير، ووالله إن أحدنا ليشفق على نفسه من وزر نفسه يومها، فكيف به وقد تعلقت في عنقه أوزار من أضلهم بغير علم، وقد كان يحسب أنه يحسن صنعا؟ سلم يا رب سلم!

إنني أقرأ هذا الكلام ثم لا أملك إلا أن أضحك، ضحكا هو إلى البكاء أقرب، من قوله "والقرآن الكريم هنا يعطي الصورة الكلية الجامعة لهذا الحدث الكوني العظيم، ويترك التفاصيل لجهود علماء الفلك والفيزياء النظرية والمفكرين الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، الذين تجمعت ملاحظاتهم العلمية الدقيقة لتؤكد في منتصف القرن العشرين صدق ما

أنزله الله تعالى في آخر كتبه، وعلى خاتم أنبيائه ورسله، عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم، من قبل ألف وأربعمائة من السنين. هذا السبق القرآني الذي تتوافق معه تماما نظرية الانفجار الكوني الأعظم." اهـ.

قلت: أضحكت علينا الثكالى يا دكتور بهذا التلبيس العريض في ذلك الغيب المحض، ولا حول ولا قوة إلا بالله! هذا الكلام من أسخف ما رأيت من صور تبديل الكلم عن مواضعه وتحميل القرآن ما لا يحتمل، وتقديم المعقول والمنظور على المنقول والمأثور، ذلك الأصل الذي هو أساس البلاء عند الجهمية في كل عصر، وهو والله كلام من شأنه ألا يزيد "الفلكيين والفيزيائيين والمفكرين"، من ملاحدة وغيرهم، إلا تسفيها للقرآن واجتراء عليه وتكذيبا له! فلا رؤوس الملاحدة كسرت، ولا دين الله نصرت، ولم تأت إلا بالكذب على رب العالمين، واختراع عقائد جديدة للمسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

ينتقل الدكتور بعد ذلك (في الباب الخامس) للكلام على أصل الحياة، ملتزما جهميته الوضعية الطبيعية في التماس العلم بكل مغيب من طريق "العلم الطبيعي" أولا، ثم التجهم على النصوص لحملها على ما يوافق "العلم" ثانيا! فهنا تراه يحرص على البحث فيما إذا كان "العلم" يرجح كفة الأصل العشوائي للحياة أم "الخالق الذكي" الذي "يتدخل بشكل مستمر" ليخلقها ويحفظها [80]! ولست أدري والله هل حقا يخفى على الدكتور أن حقيقة الحياة والروح هي من المغيبات المحضة التي لا علاقة لأدوات البحث التجريبي والطبيعي بها البتة؟؟ يعني من المتصور دخول الشبهة على مثله في مسألة أصل العالم وخلق السماوات والأرض، ينتصر لتطبيق المنهج الطبيعي عليها تأولا لآية العنكبوت: ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [العنكبوت : 20]، وهي تلك الشبهة التي أشبعناها ردا في غير موضع، ولكن كيف يتصور دخول الشبهة عليه في مسألة الروح وخلق الحياة في المادة الميتة، التي قال الله فيها صراحة: ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)) [الإسراء : 85]؟؟ هو في هذه المسألة يريد أن يقول إن العلم الطبيعي يمكن أن يكشف لنا عن أصل الحياة أنطولوجيا (أي يثبت لنا افتقار التحول من مادة ميتة إلى مادة حية، إلى الخالق الذكي الذي يتدخل لخلقه) ولكن بشرط أن نجتنب في طرحنا الفكر المادي واختزاليته المنهجية! فيقرر أن يرفع عقيرته بمخالفة من سماهم بالدراونة في نقطة ابتداء الكائن الأول الأبسط، كما خالف الكوزمولوجيين في نقطة الفردية التي بدأ عندها الانفجار المزعوم (الكسر الأول من الثانية الأولى من عمر الكون)! مع أن ما ألزمناه به من لازم منهجي في مسألة أصل العالم، يلزمه ها هنا كذلك في مسألة أصل الحياة ولا فرق!

يا دكتور أنت أصلا ما وصلت إلى القول بكائن أول في أصل الأنواع كلها هو الأبسط على الإطلاق، إلا من طريق نظرية داروين، وقياسها للمغيب المطلق على ما في عالم الشهادة تحكما! فما الذي يحجزك عن مزيد من طرد ذلك النوع من القياس في الماضي وصولا إلى ما هو أبسط وأبسط: إلى مادة أولية ميتة لا حياة فيها أصلا، ومن ثم تصبح عقيدتك في الخلق هي أن "الإله تدخل" فنفخ في بنية الخلية الحية الأولى (التي سبق أن تركبت بالصدفة وتحت تأثير قوانين الطبيعة العمياء) نفخة الحياة، مثلا؟؟ بل وما يمنعك من أن تزداد تشبعا بالقياس الدارويني وجريا على أصوله الطبيعية فتقول كما قالت طائفة، إن ذلك التعقيد الفيزيائي البالغ في الخلية الحية التي تجري نظمها على ما نعده نحن "حياة" فيها، إنما نشأ عن أسباب طبيعية محضة، حولت "النظام الفيزيائي" إلى "نظام بيولوجي يجري على

القانون الطبيعي الذي خلقه الله من قبل، جريا مغلقا مستكملا أسبابه في داخله بدون أي "تدخل" لإحداثها، ولا أي سبب غيبي أو "فائق للطبيعة" Supernatural على الإطلاق؟؟

ما الذي يمنعك يا دكتور، على أصولك التي قبلت بها نظرية داروين، من أن تعتقد أن تجربة ستانلي ميلر (مثلا) في مجال ما يقال له دراسة "خلق الحياة مما لا حياة فيه" Abiogenesis قد أصابت – إجمالا - نوع الأسباب التي نشأت بها الحياة على الأرض، بيد أنها ينقصها بعض الأسباب الطبيعية المعينة التي لم يتوصل إليها ميلر في تجربته، ولهذا لم تنجح في محاكاة خلق الحياة في المعمل، ثم تقول إن سئلت إن هذا الصنف من الحوادث ونظيره الذي كان قبل بلايين السنين سببا طبيعيا في ظهور الحياة على الأرض، إنما هو عندي من خلق الله، لأنه هو الذي خلق قانون الطبيعة الذي منه استمدت كل نشأة جميع أسبابها؟! أليس هذا المذهب أكثر ملاءمة منطقيا لما سلمت أنت به من صحة نظرية داروين في نشوء جميع الأنواع نشأة طبيعية من أصل مشترك؟

فإن قال: نعم ليس أكثر ملاءمة، لأن نشأة الحياة في المادة الميتة غيب لا نرى له نظيرا البتة، قلنا له: فهل نشأة أنواع الطيور من أنواع الزواحف، أمر له في تجربتنا البشرية نظير؟؟ وكذلك إن قال إن ما قبل فردية الانفجار غيب لا نظير له في عادتنا، قلنا له: فهل نشأة القمر من الأرض كما زعموا، أو نشأة الأرض من الشمس كما وهموا، شهادة قد رأينا لها نظيرا في عادتنا؟؟ ما هو ضابط الغيب عندك وبأي معيار فرقت فجعلت هذا داخلا في مطالب البحث الطبيعي وذاك غير داخل؟ فإن قال: إن الخلية الأولى لابد أنها كانت تتركب من ملايين من الماكينات الجزيئية الدقيقة التي لا يتصور عقلا أن تكون قد نشأت إلا على تلك الحال، دفعة واحدة دون ارتقاء ولا تطور ولا تطفر، قلنا له: فهل يتصور في العين البشرية أو في المخ أو في القلب أو في غيرها من الأعضاء التشريحية، أو في جملة وظائف الجسد البشري التي تشمل جميع أعضائه، جواز أن تكون على دقتها وعظيم خلقها قد نشأت على ذلك الانحطاط والعبث الذي زعموه لها وسلمت أنت لهم به؟؟ وهل الملايين المملينة والبلايين المبلينة في طول سلسلة "الدي إن إيه" أو فيما تحمله من معلومات أو فيما في الخلية الحية من أنشطة حيوية جزيئية ومصانع كيماوية و.. إلخ، هل في شيء من ذلك ما يمنع المنظر الطبيعي من إعمال أصوله الكلية التي أنت توافقه عليها، في التماس التفاسير الطبيعية المحضة لذلك كله ولما هو أعجب منه من بدائع صنع الله تعالى؟؟ أبدا! فلماذا قبلت مسلكهم الدهري في تفسير خلق الأنواع طبيعيا، وخلق العالم طبيعيا، ولم تقبله في خلق الحياة في المادة الميتة، وفي خلق

الفردية الانفجارية المزعومة نفسها؟؟ تبدأ بإخراج فعل الباري من جميع آحاد وقائع الخلق والتصوير أولا، ثم تأتي لتقول: لعله "تدخل" في كذا وكذا، لأنه "أعقد" أو لأنه أبعد عن أن يكون له تفسير طبيعي؟؟ والله لا تسلم من التناقض يا دكتور حتى تنخلع من الميتافزيقا الطبيعية جملة واحدة، أو تغرق فيها جملة واحدة، أما الجمع بين المنهج الدهري ومنهج المسلمين في تلقي المعارف بما في الغيب، فسخف لا ترفع به العقول السوية رأسا، ولا يأتي على دين المسلمين إلا بالزندقة والتحريف! [81]

في الأجزاء التالية من الفصل نفسه، يزعم الدكتور أن مشكلة الماديين الأساسية في فهم الحياة بل وفي التعامل مع الطبيعة بعموم، هي في اختزالهم لجانب "المعلومات" أو "الذكاء" في نظرياتهم التفسيرية! فيقول ما ملخصه أنه إذا كانت قطعة الخشب تتركب من بروتونات ونيوترونات وإلكترونات، وكذلك عقل أينشتاين يتركب من نفس البروتونات والنيوترونات والإلكترونات، فلابد أن يكون السبب في ذلك الاختلاف الفاحش بين الشيئين المركبين من نفس المكونات، راجعا إلى معلومات يدفع بها إلى تلك العناصر فتركبها مع مجالات الطاقة الملازمة لها على نحو ينتج عنه ذلك التنوع الواسع في أنواع الذكاء الذي يظهر في النظم الطبيعية والحيوية المختلفة! ثم يحسب الدكتور أنه قد انتصر على الماديين بالضربة القاضية عندما يقول إن هذه المعلومات وتلك الصور من الذكاء، مجرد وجودها في الطبيعة وفي الحياة يشكل "أسئلة كأداء يناطحها الماديون فتبلي رؤوسهم" على حسب عبارته! يقول (ص. 144):

> مما سبق ندرك أن نظرة الماديين إلى ظاهرة الحياة وإلى الطبيعة بصفة عامة باعتبارها وجودا يخلو من الذكاء نظرة قاصرة للغاية. وإذا كنا نعرف الذكاء بأنه القدرة على معالجة وتخليق المعلومات، فإن ظاهرة الحياة وكذلك الطبيعة ليست إلا شبكات متصلة من النظم الذكية التي تظهر لنا في أربعة مستويات: 1- ذكاء منطمر (خفي) Embedded Intelligence وتمارسه النظم الذكية التي تتبع قوانين فيزيائية معينة، لكنها ليست ذاتية التصرف. ومثالها الذرة وأمواج البحر. 2- ذكاء ذاتي Autonomous Intelligence أو ذكاء نشط Active Intelligence وتمارسه الكائنات الحية. فهي موجودات مستقلة، ترعى نفسها وتتكاثر، وتتفاعل مع الوجود وتتعلم منه وتؤثر فيه. 3 – ذكاء مدرك لذاته Self-Aware Intelligence وهو خاص بالإنسان، الذي يتميز بأنه مدرك لنفسه، قادر على التفكير المجرد وله حرية واختيار. 4- الذكاء المطلق

Infinite Intelligence وهو مصدر الثلاثة أنواع السابقة، وهو من صفات الإله الخالق عز وجل.

قلت: يا دكتور، الذكاء في اللغة وصف ينسب إلى صانع النظام، لا إلى النظام نفسه، والمعلومات المتعلقة بالنظام هي كل معلوم عند من يحصل لديه العلم بالنظام! ولكن إن جعلت الذكاء على هذا التعريف الذي ذكرته "القدرة على معالجة وتخليق المعلومات"، فلن يخالفك الدهرية الطبيعيون (أو الماديون كما تسميهم) في إثبات الأقسام الثلاثة الأولى، أو المستويات الثلاثة الأولى منه! وإنما يخالفك بعضهم في الأخير، وبعضهم يثبته على طريقة إله سبينوزا وأينشتاين! فمن ذا الذي قال إنهم لا يثبتون "ذكاء" في العالم على هذا التعريف الذي وضعته، أو حتى "معلومات" كيفما عرفتها؟؟ يثبتون ذلك كله قطعا، ثم يتفننون في تأويله طبيعيا كما هي نحلتهم في تفسير كل شيء!؟ ثم إن التفريق بين ذكاء الإنسان وذكاء الدواب الأخرى من حيث كون الأول "مدركا لذاته" هو من اختزاليات الدهرية الطبيعيين (الماديين) التي تزعم أنك تنكرها عليهم! وإلا فمن ذا الذي قال إن الدابة البهماء لا "تدرك ذاتها" (على إجمال لا يخفى في قولهم "تدرك ذاتها")؟ ومن الذي قال إنها لا تعقل ولا تعي؟ إنهم "علماء" الوعي الدهرية الطبيعيون (الماديون) أنفسهم الذين زعموا أن الوعي ليس إلا عمليات بيولوجية محضة، ولا طريق للوصول إلى إثباته لموجود ما، إلا بإدراك أثره في سلوك ذلك الموجود، والربط بين ذلك الأثر السلوكي ونشاط المخ المادي! أما نحن المسلمين فنثبت الوعي والذكاء والحكمة لأنواع الدواب، وإن كنا لا نثبت لها استعمالا للعقل كاستعمالنا نحن المكلفين لعقولنا، وحسبك أن تقرأ ما في سورة النمل وحدها من حوار بديع بين الهدهد ومليكه سليمان عليه السلام، وتستخرج ما فيه من معالم الحكمة والدهاء عند الهدهد، لتعلم أن الأمر عندك يرجع إلى منهج الطبيعيين الماديين من حيث لا تشعر، وأن الغيب الذي تؤمن به إنما هو غيب مشروط بشروطهم جار على مصادر تلقي المعرفة لديهم! ووالله ما أظن بك إلا أنك إن جالست عالما من علماء البيولوجيا الغربيين لاستحييت أن تذكر أمامه قصة الهدهد أو النملة التي سمعها سليمان في القرآن، مخافة أن يسخر منك ويهزأ بك، ولربما إن سئلت عنها، حملت الأمر كله على المجاز وضرب المثل، تكذب كلام ربك الصريح وتحرفه فرارا من تسفيه قوم هم والله أحق الناس بالتسفيه والتجهيل، وأجدر الخلق بالنسبة إلى الخرافة والأسطورة، تلك الأسطورة العملاقة التي لم يعرف تاريخ البشرية أسطورة غيبية أعظم تفصيلا وتنميقا وأشد تعمقا وإفراطا منها في البناء والزخرفة والتزيين، ولا أعظم نفقة في الاستدلال وفي حشد الشواهد الواهية للانتصار لها، والله المستعان!

قال الدكتور تحت عنوان "ذاتية التحكم" Autonomy: "تحتاج السيارة الأوتوماتيكية المزودة بكمبيوتر متقدم إلى من يصممها ويصنعها، ثم تحتاج إلى من يمدها بالطاقة، ومن يشغلها ويختار لها الوجهة ويقودها إليها. أما الكائن الحي فقد زوده مصممه الذكي (الله عز وجل) بالقدرة على التكاثر فلا يحتاج إلى من يصنعه، كما أمده بالآلية اللازمة للحصول على الطاقة من الغذاء والأوكسوجين، ووضع أهدافا متأصلة في بنيته لتوجهه لفعل وتحصيل ما فيه منفعته، كل ذلك دون احتياج إلى عون خارجي." اهـ. قلت: هذا القياس أو التشبيه فيه جناية ظاهرة! فكما أن السيارة صممها مصمم، فكذلك المخلوق الحي صنعه صانع (ولا نقول صممه مصمم!)، وكما أنها احتاجت إلى من يصنعها فكذلك احتاج الكائن الحي إلى من يصنعه ولا فرق من حيث مطلق معنى المصنوعية! وإنما كانت الكيفية التي صنعت بها السيارة تليق بصانعها، والكيفية التي صنع بها المخلوق الحي تليق بصانعه! فوجود الآلية اللازمة للحصول على الطاقة من الغذاء والأوكسوجين والغريزة التي توجه المخلوق لما فيه منفعته، لا تنتفي به حاجته إلى غيره، لا في صنعه ولا في إمداده بأسباب البقاء! فما معنى أن الكائن الحي "لا يحتاج إلى من يصنعه" ولا إلى "عون خارجي"؟؟ كلام مجمل في مقام دقيق لا يجوز فيه الإجمال! وهو كلام يقتضي نفي السببية الغيبية نفيا مطلقا، ويفضي بصاحبه إلى مقالة القدرية باستقلال العباد بخلق أفعالهم، فتأمل!

وقال تحت عنوان "القدرة على التكاثر" Replicability (ص. 148):

> التكاثر آلية أساسية للتطور، لأن حدوث الانتخاب الطبيعي يقتضي تكاثر الكائنات الحية، وبالتالي لا يمكن أن يكون التطور بالانتخاب الطبيعي هو الذي أوجد التكاثر كما يروج الدراونة! أي أن التكاثر هو الحصان الذي يجر عربة الانتخاب الطبيعي، وليس العكس. ولا شك أن نشأة التكاثر الجنسي من الأدلة القاطعة على أن التطور قد حدث بتخطيط مسبق، إذ يتطلب ذلك ظهور صفات جديدة متوافقة بدقة شديدة في كل من الذكر والأنثى، فكيف تتم هذه التغيرات المتوافقة بالصدفة في كل من الجنسين على حدة؟! كذلك فإن وجود التكاثر كسمة مصاحبة للحياة يؤكد أن ظهور الحياة لم يكن أمرا عشوائيا، بل يؤكد أن هناك تخطيطا مسبقا يهدف إلى استمرار وجود الكائنات الحية من خلال صغارها.

قلت: أولا التكاثر ليس آلية للتطور وإنما هو آلية لحفظ النوع! ثانيا: الصواب أن يقال "حدوث الانتخاب الطبيعي يتطلب حدوث التكاثر" وليس "يقتضي التكاثر" لأن الثاني الأول مترتب على الثاني منطقيا وليس العكس! ثالثا: ليس في الدراونة من يقول إن الانتخاب الطبيعي هو الذي أوجد التكاثر،

فضلا عن أن يروج له، ولا أدري من أين جاء الدكتور بهذا الكلام؟! التكاثر عندهم راجع في أصله إلى الطفرات العشوائية لا إلى الانتخاب! ولا شك في وجوب أسبقية ظهور ذكر وأنثى كاملي الخلقة بجهاز تناسلي كامل التوافق والمناسبة بين الجنسين، مع ظروف بيئية عامة تسمح كلها بل وتشجع على لقاء أحدهما بالآخر والتناسل معه، حتى يرجى أن يحصل من ذلك ما ينشأ به نوع جديد يكون طريق التكاثر في أفراده هو التناسل الجنسي! ولكن يا دكتور هذا أمر لا يمكن أن يقع إلا إذا كان أصل كل نوع من هذه الأنواع على الأقل (أي التي تتكاثر جنسيا: من ذكر وأنثى) كانت نشأته الأولى في أزواج من ذكران وإناث، تخلق معا خلقا مستقلا (أو ما تسميه أنت وغيرك بالخلق مباشر) وتوفر لها الأحوال المعينة على حصول التزاوج، ليس هذا وحسب، بل والضامنة كذلك لظهور نسل وافر من الزوج الأول وسلامته من الأخطار الماحقة، ولانتشار ذلك النسل ذكرانا وإناثا في المحل نفسه بما يظل معه ذلك النوع الجديد آمنا من الاستئصال، قبل أن يصبح ذلك النوع جزءا من الوجبة اليومية لأنواع أخرى من الوحوش الضواري التي تتغذى على أمثاله!

فلو أنك دققت في هذا الاعتراض الذي ذكرته اقتضابا يا دكتور، إذ تثبت زوجا أول متوافقا أشد التوافق، تريد أن تبطل به الأصل الدارويني المزعوم لعملية التكاثر نفسها في الحشوة الحية، لوجدته هادما للسبب الذي دعا داروين ووالاس للقول بالأصل المشترك من الأساس! فإنه لو قدر للرجلين أن كانا يقولان بهذا المعنى، معنى العناية الإلهية السابغة والتقدير المحكم لكل شيء، وإحسان الخلق من أول يوم، وخلق جميع الأنواع المتزاوجة في أزواج محفوظة مصونة مضمون لها البقاء من أول يوم، إلى غير ذلك من معاني التدبير الإلهي التام التي عبر عنها رب العزة تبارك وتعالى أبلغ العبارة بمثل قوله: ((قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)) [طه : 50]، لو قدر لهما أن كان هذا المعنى البدهي الفطري من دينهما واعتقادهما، لما قالا بالطفرة والانتخاب والأصل المشترك ولما ظهرت تلك النظرية أصلا يا دكتور! فإنه يجب أن يكون مفهوما لدى كل من له اطلاع على تلك النظرية، أن فكرة الأصل المشترك هذه إنما وضعت من أجل اختراع أسطورة طبيعية طويلة Naturalistic Myth في تاريخ الأنواع بحيث لا ينشأ أي نوع جديد إلا أن تكون نشأته نشأة طبيعية اتفاقية من نسل نوع متقدم عليه، فلا تقع إلا بالتغيرات الوراثية الطفيفة، خطوة بعد خطوة، تلك التغيرات التي يتفق لها اتفاقا أن تجد في الطبيعة في كل مرة أحوالا تلائم بقاءها في الحوض الجيني فتبقى، وإلا كان الأمر على الأصل المزعوم من العشوائية والعبثية والفوضوية المحضة، فلا تولد الكائنات الحية إلا على عجز ونقص وعور، حتى يتفق لطفرة ما أن تجعل فيها من الصفات الوراثية ما

يبقيها! فإذا أزلنا فكرة البدء بالانحطاط و"البساطة" والفوضى ثم التدرج بالترقي والتطور والتعقد خطوة بعد خطوة، لنجعل في محل ذلك الاعتقاد الدهري القول بالخلق المحكم التام لكل نوع من أول يوم على أحسن ما يناسب المقصود من خلقه، لما بقي لمعنى التطور نفسه أي وجه أصلا! وإذن فلا يبقى في سؤالك: "فكيف تتم هذه التغيرات المتوافقة بالصدفة في كل من الجنسين على حدة" أي أساس لاعتقاد كونها "تغيرات" أصلا، لا تطورا ولا تطويرا، فتأمل!

ومع هذا، ومع وضوح ما في أصل النظرية من وهاء، يصر الدكتور هداه الله على إثبات الفوضى الوجودية كأصل أولي، إنما خلق الله ما خلق من الأنواع الحية "بالتدخل" فيها حيثما رأى أن النظرية تسمح بإثباته! فيقول (ص. 151): "من أكبر الأخطاء التي يقع فيها الكثيرون هو اعتقادهم أن الفوضى الخلاقة والتنظيم الذاتي عملية عشوائية، والحقيقة أنها تخضع لقوانين شديدة الدقة والتعقيد بحيث لا يمكن للعلماء متابعتها. إن أقصى ما يمكن أن تقدمه الفوضى الخلاقة (إذا سلمنا بها جدلا) هو إيجاد بعض الانتظام Order، كأن ترسم الرياح خطوطا على رمال الصحراء (وإن كان هذا لا يخلو من قوانين تنظمها). أما خروج "المنظومات Systems" كبناء قصر من هذه الرمال، أو بناء البروتينات من الأحماض الأمينية وبناء الشفرة الوراثية من القواعد النيتروجينية فتعجز عنه الفوضى الخلاقة بلا شك." اهـ.

قلت: تأمل تناقض الدكتور هداه الله، إذ ينفي الفوضي كحقيقة عينية وجودية (يجعلها حقيقة ذهنية معرفية وحسب)، ثم يأتي في العبارة التالية مباشرة في نفس الفقرة فيثبتها حقيقة وجودية! ذلك أن قوله "والحقيقة أنها (يعني الفوضى الخلاقة المزعومة) تخضع لقوانين شديدة الدقة والعتقيد بحيث لا يمكن للعلماء متابعتها"، هذا الكلام يفهم منه أن الظواهر التي توصف بأن وراءها في الواقع أسبابا فوضوية Chaotic، إنما لها في الحقيقة من الأسباب المعقدة ما بلغ من التعقيد ما لا تحيط عقول الباحثين به تتبعا وتنبؤا، أي أنها ليست فوضوية على الحقيقة وإنما يظنها الناس من جهلهم كذلك! فكم وددت لو أنه أراد هذا المعنى وقرره! لكنه بكل أسف يرجع عليه بالنقض إذ يقول عقب ذلك مباشرة: "إن أقصى ما يمكن أن تقدمه الفوضى الخلاقة (إذا سلمنا بها جدلا) هو إيجاد بعض الانتظام (....) أما خروج "المنظومات Systems" كبناء قصر من هذه الرمال، أو بناء البروتينات من الأحماض الأمينية وبناء الشفرة الوراثية من القواعد النيتروجينية فتعجز عنه الفوضى الخلاقة بلا شك" اهـ. فعلى طريقة اللاهوتيين الطبيعيين الذين تأثر الدكتور بقراءتهم، تراه يفرق وجوديا بين نوعين من النظم، يسمي أحدهما بالمنظومات المعقدة، والأخرى يسميها بالبسيطة! فأما الأولى فيجب عنده

أن تكون ناشئة عن "تدخل إلهي" سافر، خلافا للثانية، التي يكفي فيها أن تكون ناشئة عن قانون طبيعي سابغ، "شديد الدقة والتعقيد، فلا يمكن للعلماء متابعته"! وليس له أن يرد ها هنا بأن يقول: "قد قلت إذا سلمنا بها جدلا، فلا تلزموني بما لا أسلم به أصلا!"، فقد تقدم عند الكلام على أصل العالم تصريحه بمسألة الفوضى الوجودية المحضة التي يُخلق منها النظام!

ولا عجب من إثبات الفوضى الوجودية بصورة ما أو بأخرى عند دراونة اللاهوتيين ودراونة أهل القبلة تبعا، فإن الذي يؤمن بأن الرب يخلق إذا خلق بالتطوير والتحسين، هذا لابد أنه يؤمن – بالضرورة - بأنه إنما بدأ الخلق كله من أصل بالغ منتهى الانحطاط وغاية الضعة، من مادة سابقة عليه كانت لا تتحرك ولا تتقلب ولا تتحول إلا بعشوائية وعبثية، تحت سلطان قانون أعمى كان متسلطا عليها من قبل ابتداء فعل الخلق نفسه [82]، فأنشأ ذلك الصانع "المتدخل" Intervening Creator الذي يقولون به، من تلك المادة الفوضوية ما أراد أن يخلقه من صور النظام ترقية وتطويرا تحت ذلك القانون المطرد وجريا عليه، فخلق الكون نفسه "بالتطوير" أولا، ثم الأنواع الحية على الأرض ثانيا، على آخر ما انتهت إليه أسطورة الطبيعيين الارتقائية في ذلك كله، مع حصول "التدخل" منه بالخلق المخصوص في تلك المواضع المعينة من أسطورة النشأة التي لما يتفق الطبيعيون إلى الآن على تصور طبيعي تطوري لها، لا سيما ما كان في ابتدائها!

وهذا يقتضي عند التدبر (ويا ليت الدكتور وأتباعه يتأملون في هذا المعنى مليا) أن يُجعل لنوع القانون الطبيعي وضع وجودي غيبي خاص تختلط فيه صفة الرب بصفة المربوب، وحقيقة الخالق بحقيقة المخلوق، فيكون شيئا عينيا قديما لا يُعلم ما هو [83]، وهو ما يورث التلبس بشرك الربوبية (إذ يصبح القانون ربا والصانع ربا آخر) أو بوحدة الوجود الطبيعية على صورة من صورها، كالصورة الأرسطية أو النيوتونية أو ما شابههما، إذ يلزم أن يكون للقانون هذا سلطانه القديم الذي تتعلل به الحوادث كلها تعللا تاما من حيث الأصل (على ما عند الطبيعيين من سببية طبيعية مغلقة ومتسلسلة من الأزل)، إلا ما كان خاضعا "لتدخل" الصانع بخلقه على نحو خارج عن سلطان ذلك القانون، فيكون ذلك "التدخل" إذن هو تعليله التام على خلاف الأصل! أي أن فعل الخلق يصبح جريانا للحوادث تحت سلطان "الطبيعة" ونظامها لا أكثر، تخلق المخلوقات كلها بفعل تلك القوانين وتأثيرها المستقل، إلا في أحوال مخصوصة حيث "يتدخل" الصانع ليخلق بأفعال خارجة عن القانون أو لا يوصل إليها من طريق الأسباب التي يحكمها القانون! وإذن يصبح القانون حاكما على الصانع وصنعته، أو على أحسن الأحوال شريكا له في الخلق

والتكوين والتعليل التام، لا أن الباري سبحانه هو خالقه والحاكم عليه وعلى كل شيء، فتأمل!

والقصد أن إثبات تلك الفوضى المزعومة تحت القانون الطبيعي في أصل العالم وأصل الحياة يقتضي إشراك القانون الطبيعي بالله تعالى في الربوبية، يجعل خلقه سبحانه كخلق البشر، تجري فيه أسباب يملكها، وأسباب أخرى خاضعة لنظام كوني لا سلطان له عليه ولا حكم له على تصريفاته للحوادث، فيكون فعله في الخلق محكوما بقانون الطبيعة السببي الذي يفترض فيه (أي في فعل الخلق الإلهي) أن يكون هو الذي أحدثه أصلا، وهو ذلك الدور المنطقي وتشبيه الأفعال الذي بسطنا الكلام عليه في هذا الكتاب عند كلامنا على الدين الطبيعي وحقيقة ما فيه من شرك الربوبية. هذا هو الاعتقاد الذي يقتضيه [84] مذهب الدكتور هداه الله ومن شاكله من متجهمة الطبيعيات المعاصرين في تصور كيفية الخلق (أي قولهم بأن الله خلق العالم ترقية من الأحط إلى الأرقى تحت قانون الطبيعة) من حيث لا يدري، وكما بات واجبا على أهل السنة في زماننا أن يبينوه لهم ولمن تبعهم تبيينا، عملا بقوله جل شأنه ((وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ)) الآية [آل عمران : 187] والله المستعان لا رب سواه! فمن فهم هذا المعنى حق الفهم، تبين له السبب في تلبس عامة أهل الكتاب من الدراونة والكوزمولوجيين المعاصرين بصورة من صور وحدة الوجود الطبيعي Naturalistic Pantheism أو من صور الربوبية Deism أو بخليط منهما. وهو ولا شك – وكما يتعين علينا كذلك أن نبين - لازم لا يظهر لأكثر المشتغلين بالطبيعيات من المسلمين ممن تلبسوا بذلك المذهب الدهري الخبيث، فمن أصر عليه منهم بعد البيان فهو مبتدع ضال، متوعد بما توعد الله به الفرق النارية، مع بقائه على أصل الإسلام، والله الهادي إلى سواء السبيل.

فإن قالوا: ولكن نحن نقول إن القانون الطبيعي نفسه مخلوق لله، فلا يكون عندنا تعليلا تاما وإنما يكون هو جماع الأسباب الحادثة التي يخلق الله بها بعض ما يخلق، كما يخلق الزرع في الأرض والأجنة في الأرحام، قلنا لهم: هذا وإن كان هو قولكم الذي تصرحون به في كل مناسبة، إلا أن مذهبكم الذي قلدتم عليه الطبيعيين في باب نشأة العالم بكليته ونشأة الحياة (وذلك القياس نفسه الذي ذكرتموه) يقتضي خلافه تحقيقا، وهو ما يلبسكم بالتناقض من حيث لا تشعرون! قولوا ما شئتم من إثبات الكمال لله ومن تنزيهه عن الكفء والمثيل، فمهما بقيتم على تلك النحلة الطبيعية الارتقائية في نشأة العالم ونشأة الحياة فأنتم مشبهونه بخلقه لا محالة، متنقصون منه سبحانه أعظم التنقص لا محالة، معطلونه عن تلك الكمالات التي زعمتم

أنكم تثبتونها له لا محالة، متناقضون في أصول الدين غاية التناقض! فالعبرة بالحقائق والمعاني لا بالأسماء والمباني كما يقولون!

تأمل بأي شيء انتقد الدكتور تجربة ستانلي ميلر عندما عرض بذكرها في كتابه! قال (ص. 152): "وعندما تمكن ستانلي ميلر في تجربته الشهيرة عام 1953 من الحصول على بضعة أحماض أمينية، رأى البعض في ذلك إثباتا لفرضية العالم الروسي أوبارين. ولكن قبل انقضاء القرن العشرين، أثبت العلماء خطأ هذه الاستنتاجات، إذ تأكد أن جو الأرض يختلف تماما عن ذلك الذي أجرى فيه ميلر تجربته، فقد كانت الغازات السائدة هي النتيروجين وثاني أكسيد الكربون وبخار الماء، بالإضافة إلى كميات كبيرة من الأوكسجين كانت كافية لأكسدة وإتلاف المركبات التي تنتج أولا بأول." اهـ. قلت: فالمشكلة عند الدكتور ليست في مبدأ فتح هذه القضية الغيبية المحضة لتصميم التجارب لمحاكاتها، ومن ثم التوصل إلى "خلق" الحياة في المعمل كما يطمعون، وإنما المشكلة في أن كوزمولوجيا الطبيعيين التي قبلها الدكتور من أصحابها، تزعم حالا للأرض يوم "نشأت" فيها الحياة، لا يسمح لها بأن تنشأ على النحو الذي فرضه ميلر! فما المخرج إذن؟ تعديل الفرضية ولا شك! وهو ما ذكر الدكتور أنه حصل بالفعل، بظهور فرضية مفادها أن تكون الخلية الحية الأولى قد نشأت اتفاقا في قاع المحيط، بعد بلايين السنين من التفاعلات الكيميائية العشوائية! ولكنه لا تعجبه تلك الفرضية كذلك، بطبيعة الحال، لأنه يشترط فرضية تناسب إثبات "المصمم الذكي" الذي يريد حشره في أصل الأسطورة الطبيعية ومبتدئها [85]، جريا على شرط الفيلسوف الطبيعي في الإثبات والنفي في أمور ذلك الغيب العظيم، فيجتهد في جمع ما وقف عليه من اعتراضات الطبيعيين على فرضية الحساء قبل الحيوي هذه Primordial Soup، على الرغم مما تبدو عليه من وجاهة في نظره، فيستند إلى زعم الجيولوجيين دلالة طبقات الأرض على خلو عصر "ما قبل الكامبري" مما يكفي من عنصر النيتروجين لجريان حوادث نشأة الحياة على ما هو مفترض في نظرية الحساء قبل الحيوي! ونقول له: فما الذي يضمن صحة الفرض الذي به حكم الجيولوجيون بأن ما قاسوه من كميات النيتروجين في تلك العينات التي استخرجوها من تلك الطبقة بعينها حيث أجروا تلك القياسات، إنما يرجع إلى نقص النيتروجين في تلك الطبقة بعموم، في جو العالم بعموم، في ذلك العصر بعموم، وبالتالي قلة ترسبه في تلك العينات التي استخرجوها؟؟ وبأي دليل يعلم أن هذا المقدار أو ذاك يكفي أو لا يكفي لنشأة الخلية الأولى كما زعموا؟ ولماذا نقبل قياسهم تلك الخلية الأولى المزعومة على ما قاسوها عليه – أيا ما كان - حتى يحكموا بالكفاية في ذلك من عدمها؟ فرضيات فوق فرضيات فوق فرضيات، أوهام بعضها فوق بعض طبقات،

وهذا يأتي بها يجعلها دليلا – وتأمل – على بطلان دعوى من زعم أن الحياة نشأت نشأة عشوائية في بطن المحيط، فليت شعري كيف انصرف ذلك الهذيان في عقول القوم حتى صاروا فيه أساتذة متخصصين؟! لا دلالة في شيء من ذلك الغيب إلا التناسق المنطقي الداخلي بين تلك الفرضيات والأقيسة الوهمية كلها، في ميثولوجيا غايتها أن تكون مادة كثيفة لرواية خيالية خرافية سخيفة، وهذا يقول: العلم أثبت والعلم كشف والعلم أظهر .. إلخ، يؤمن إيمانا راسخا بأن ما بين يديه في ذلك علم حقا ومعرفة حقا، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم يأتينا باعتراض "علمي" آخر، مفاده أن احتمالية تكون السلسلة الببتيدية الواحدة بالصدفة والعشوائية من مئة حمض أميني، تقدر بمقدار 10^{-60}، ولا يبالي الدكتور بأن يتوقف لوهلة ويسأل نفسه: من أين يؤتى بهذا المقدار لاحتمالية حدوث أمر كهذا؟؟ لسنا نتكلم عن أمر لا نظير له البتة في تجربة البشر ولا عادتهم (أن رأوا ذلك المركب العضوي المذكور يتكون بالصدفة والعشواء) وحسب، بل إننا نتكلم عن أمر يمنعه العقل والبداهة غاية المنع! والاحتمالات إنما يتصور وجود أساس لتقديرها، عندما يكون موضوعها شيئا خاضعا للعادة والتجربة البشرية! يقال مثلا: ما احتمالية سقوط الأمطار على هذه المنطقة غدا، فتقدر الاحتمالية بالنظر إلى تاريخ تلك المنطقة وسوابق سقوط الأمطار فيها وفي المناطق المحيطة بها في ذلك الموسم من كل سنة، أو بالنظر إلى اتجاه الرياح وسوابق حركة كتل السحاب في الهواء في خبرة الراصد، ومقارنة ذلك بما عليه حالها اليوم في تلك المنطقة وما حولها! فإذا قيل – مثلا – إن الاحتمالية تقدر بستة بالمئة، كان مفهوم ذلك أنه من كل مئة مرة تكررت فيها تلك الأحوال التي نراها اليوم في المنطقة محل البحث، سقطت الأمطار في اليوم التالي في ست مرات منها فقط! هذا مفهوم تقبله العقول للاحتمالية الرياضية، وأساس ظاهر لتقديرها بمقادير معينة! أما هذه القيمة المذكورة لاحتمالية نشوء ذلك المركب المذكور نشأة عشوائية، فما أساس تقديرها ومن أي مقدمات نتجت؟؟ كثير من المشتغلين بالرد على الدهرية المعاصرين تعجبهم تلك التقديرات الاحتمالية الوهمية (عشرة للأس السالب ستين، وللأس السالب مئتين وللأس السالب أربعين ألفا.. إلخ!!) يرونها حجة دامغة على الدهرية، ووالله لو عقلوا لأدركوا أنها ليس فيها حجة لا من قريب ولا من بعيد، ولا يزيد استعمالها معهم إلا إقرارا لهم على أصول دهريتهم، وإلى الله المشتكى!

تأمل كيف يواصل الدكتور فيقول (ص. 153): "وإذا وضعنا في الاعتبار أن الفترة المتاحة بين تبرد الأرض بعد نشأتها وبين ظهور أول حفريات الكائنات الحية تبلغ حوالي مائة مليون سنة، فهل هذا الوقت كاف لتكون بروتينات

الخلية الحية بالصدفة؟" اهـ. قلت: ما شاء الله! دع عنك البداهة التي تقضي بأن أقدم حفرية اكتشفت على الإطلاق ليست هي بالضرورة رمة أول مخلوق يموت على الأرض، بل إن نظرية داروين نفسها تمنع من ذلك، لأن أقدم الكائنات الحية في شجرتهم المزعومة لا عظام لها وما كانت لتترك وراءها حفريات أصلا، دع عنك هذا ودعنا نسأل الدكتور: أرأيت لو أنهم جعلوا تلك الفترة الزمانية مائة بليون سنة أو بليون بليون أو أكثر، أفتراها أنت "كافية"؟؟ أعظم الله عزاءك في عقلك إذن يا دكتور، وإنا لله وإنا إليه راجعون! فإن قال الدكتور: أنا لست أقبل اعتقادهم بأنه لو طال امتداد الزمان بما يكفي فإن الخلق يمكن أن يقع من محض الفوضى والعشواء، وإنما أردت أن أبين بطلان مذهبهم على أصولهم هم، وأن الاحتماليات إن حسبت بأدواتهم هم فلن تخدمهم كما زعموا، بدليل قولي في نفس الصفحة مستنكرا: "وإن كان عوام البيولوجيين ما زالوا يعتقدون أننا لو تركنا الأحماض الأمينية معا لعدة ملايين من السنين فستبزغ الحياة" قيل له: فأين تصريحك ببيان بطلان مغالطة الامتداد الزماني هذه منهجيا وبيان أنها لا تأثير لها في تجويز المحالات؟؟ وأين بيانك بطلان مفهوم الصدفة الوجودية والفوضى الطبيعية، وأن القول بأصل أول "بسيط" للكون وللحياة إنما هو من أعظم صور التلبس بآفة الاختزالية الوجودية القبيحة؟؟ وأين بيانك بطلان مغالطة استعمال المنطق الاحتمالي في الغيبيات المطلقة؟؟ وكيف تسلم من إقرار القوم على أصولهم الكلية الباطلة في جميع ذلك إذا كنت لا تنقضها عليهم في شيء مما تكتب، بل تجعل ما بنوه عليها من دعاوى تخدم مرادك، حجة علمية قاطعة؟؟

وليت شعري ما وجه اعتراضك يا دكتور على قولهم إن الأحماض الأمينية إن تركت في محلة واحدة لتتعرض لتأثير قوى الطبيعة وقوانينها لمدة كافية من الزمان، فلابد أن تنشأ منها خلية حية ولو بعد حين، وقد قبلت منهم قولهم بأن الكائن الأول المزعوم أحادي الخلية هذا، لو ترك لمدة كافية من الزمان يتعرض لقوى الطبيعة وقوانينها ولما أنشأته فيه وفي ذريته من آليات التكاثر والوراثة، فلابد أن يتطور من نسله كل نوع حي، وصولا إلى الإنسان؟؟! إن قلت أنا قبلت التطور التدريجي لأني أتصور وراءه فعلا إلهيا وترتيبا ربانيا، قيل لك فاقبل إذن النشأة العشوائية وتصور وراءها فعلا إلهيا وترتيبا ربانيا كذلك كما يحلو لك، وبنفس المنطق، وإلا تناقضت! ليكن اعتقادك أن الرب لما أراد أن يخلق الحياة، ترك القوى الطبيعية والقانون الطبيعي يضرب في الجزيئات الكيميائية السابحة في بطن المحيط ضرب العشواء لمدة كافية من الزمان، حتى نشأ الكائن الحي الأول بالسببية الطبيعية الصرفة، بعدما اتفق له من الأسباب ما يضمن ظهور جميع تفاصيله الدقيقة والمعقدة بصورة طبيعية كما ظهر منه هو نفسه بعد ذلك ما انتخبته الطبيعة من نسله

من أنواع جديدة بصورة طبيعية! وليكن هذا خلقا إلهيا وذاك خلقا إلهيا ولا فرق! وإن قلت قد قبلته لأن وراءه أدلة عند أصحابه خلافا لدعاوى "الماديين" في أصل الحياة نفسها، قيل لك فكما قبلت مبدأ الاستدلال بالمحسوس على ما في ذلك الغيب المطلق، الذي هو مبدأ من سميتهم بالماديين في بناء الدعاوى بشأن غيب خلق السماوات والأرض فيلزمك قبوله في هذه أيضا ولا فرق!

والله لا تملك أمام قول الدكتور (ص. 154): "إن من يتمسك بمنظور العشوائية والصدفة في تفسير نشأة الحياة لا يثبت إلا جهله الشديد بقوانين الصدفة" إلا أن تقول: لا تعليق!!

قال الدكتور (ص. 154) منتقدا نظريات الارتقاء الكيميائي Chemical Evolution عند الباحثين في مسألة نشأة الحياة في المادة الميتة: فإذا كان للانتخاب الطبيعي دور مهم في تطور الكائنات الحية على المستوى البيولوجي (أي بعد ظهور هذه الكائنات إلى الوجود) فمن المستحيل أن يلعب دورا قبل نشأة الحياة (على المستوى الكيميائي). ذلك أن التطور (حتى لو كان كيميائيا) يتطلب تكاثر الكائنات حتى يمرر الانتخاب الطبيعي الصفات الوراثية الأفضل إلى أجيالها التالية، إذاً فحدوث الانتخاب الطبيعي يتطلب التكاثر الذي يحتاج وجود الشفرة الوراثية، فكيف يكون له دور في نشأة هذه الشفرة، وكيف يكون له دور في نشأة الخلية الحية؟!" اهـ. قلت: أولا من المعيب للغاية أن تنقل ردود من أعجبك كلامهم من البيوكيميائيين النصارى الأمريكيين دون أن تعزوها إليهم يا دكتور! ثانيا: سلمنا بأن الانتخاب الطبيعي لا متسع له فيما قبل ظهور آلية التناسخ، وبأنهم قبلوا منك هذا المسلك في النقد، فهل تتصور يا دكتور أنهم – إذن – يقبلون منك البديل الذي عندك؟؟ أبدا! ليس لأنهم ملاحدة دهرية وحسب، ولكن لأن الطبيعية المنهجية التي التزمتها أنت في تلقي المعرفة بتلك القضية تنقض عليك ذلك البديل، وتلزمك بطريقتهم هم في تكلف التفسيرات الطبيعية المحضة لذلك الحادث (نشأة الحياة من مادة ميتة) كما تكلفوه في غيره من أمر الغيب وتابعتهم أنت عليه!

وقد كان منهم بالفعل محاولات أخرى لتطبيق المنهج نفسه في تلك المسألة، بخلاف فرضية الانتخاب الطبيعي قبل الحيوي تلك، فقال بعضهم – على سبيل المثال – بما سمي في الأدبيات بقوانين التنظيم الذاتي Self-Organizational Laws لنوع المركبات الكيميائية الحيوية Biochemical Molecules. فقالوا إن ظهور الحياة من أثر تكون الأحماض الأمينية الأساسية التي يتكون منها البناء الكيماوي للخلية الحية، واجتماع تلك الأحماض في وسط واحد، هو أمر حتمي ضروري (فيما يعرف عند بعض

الفيزيائيين بالحتمية البيولوجية Biological Determinism)، تحت تأثير عامة قوانين الطبيعة الجارية في العالم، التي منها ما زعموه من وجود طاقة معينة تكون في حالة عدم اتزان قبل حصول ذلك الاجتماع، فإذا حصل، انتقلت تلك الطاقة فيما بين جزيئات الأحماض الأمينية على نحو يوصلها إلى الاتزان، الذي لا تصل إليه إلا وقد نشأت منها خلية حية! أي كأنها طاقة تسلك نظير المسلك الذي تسلكه الحرارة في قانون الديناميكا الحرارية الثاني من وجه، وعكسه من وجه آخر. فهو نظيره من حيث كون عناصر النظام المغلق تبدأ بعدم اتزان للطاقة ثم تنتهي به، وهو عكسه من حيث كون العملية تنتهي إلى مزيد من الانتظام والوظيفية وليس إلى تبدد وظيفة النظام وفوات نفعه كما يكون في المحركات الحرارية.

فالسؤال الآن: ما الذي يمنعك أنت يا دكتور من أن تجوز (ولا أقول تقبل) فرضا كهذا من جانبهم في تلك القضية؟ إن قلت إن مانعك هو اعتماد النظرية لأصل الفوضوية الوجودية كأساس لنظام الخلية، فأنت محجوج بما سبق منك قبوله من كون الأصل في نشأة الأنواع كلها الفوضوية والعبثية حتى تنتخب الطبيعة (بفعل الرب عندك) ما يصلح للبقاء لتبقيه! وإلا فإن لم تكن الفوضى والعشواء واللانظامية هي الأصل، فمن أي شيء يحصل "الانتخاب" إذا حصل على عقيدتك إذن؟! وإن قلت إن تلك النظرية تعاني من مشكلات في تفصيل القياس الذي اعتمدته في الفرض التفسيري، كما ذهب إليه نقادها من البيوكيميائيين النصارى، إذ قالوا إنه لو صح أن كان في الأمر طاقة خفية تنتشر في مجموع الأحماض الأمينية المجتمعة في المحل، فبصرف النظر عن مصدرها فلا وجه لأن تتفاضل في تأثيرها في الربط بين آحاد تلك الأحماض كما نراه في شريط الدي إن إيه مثلا، فنرى روابط قوية بين حمضين ومنعدمة بين أحدهما وحمض ثالث، مع كونه مرتبطا بالثاني كارتباط الأول به، وهكذا! فلو صح الفرض، للزم أن تكون جميع الأحماض مترابطة متلاحمة بنفس القوة والمقدار، وإذن لما نشأ ذلك التفصيل الدقيق البديع في بناء المادة الوراثية، ولما تفاوتت المعلومات التي تحملها تلك المادة ذلك التفاوت العظيم بين الأنواع بل بين أفراد النوع الواحد، إن قلت كمقالة هؤلاء، قلنا لك: لا شك أن هذا الجواب يبدو وجيها وقويا للغاية في نقد تلك الفرضية، ولكنه في النهاية لا يعدو أن يكون نقدا للقياس الطبيعي المسلوك في تلك الفرضية بخصوصها، جريا على قياس طبيعي مقابل!

ولا شيء أهون على صاحب تلك النظرية من أن يخرج ليضيف فرضيات أخرى لنظريته تحكما بالهوى، كما وضعها هي نفسها من قبل تحكما بالهوى ولا فرق، كأن يزعم آلية عشوائية لالتئام الأحماض بعضها ببعض في تلك البيئة الأمينية البدائية، ينشأ عنها ذلك التفاضل! ولم لا؟ أليس قد سبق منه

أن افترض من قبل "الطفرة" كآلية عشوائية في ظهور الصفات الجديدة عبر الأجيال في إطار ذلك الشريط نفسه؟ فإن قلت يا دكتور إننا نقبل الطفرة ولكن نمنع من كونها عشوائية، بل ننسبها إلى فعل الرب، فقل مثل ذلك في تلك الآلية قبل الحيوية ولا فرق! وأنت على أي حال مطالب (بالنظر إلى منهجك في النقد) بأن تظل تقبل من القوم مبدأ اقتحامهم كل غيب من غيوب العالم المكانية والزمانية بالتنظير الطبيعي، فلا تعترض إلا في حدود ما يجوزونه هم من أنواع الاعتراض على نظريتهم المعرفية، حتى إذا ما اتفق لفرضية من فرضياتهم أن صارت هي العلم المعتمد السائد أكاديميا، وجب عليك ركوب العربة Bandwagon مع أصحابها والمضي معها إلى حيث تمضي! فإن شئت أن تقول – فيما بينك وبين نفسك والمقربين إليك من أهل ملتك - إن الرب الذي تؤمن به هو الذي يفعل هذا ويفعل ذاك ويخلق كل شيء، فلا شأن لهم بذلك ولا يعنيهم، وإنما يرفضونه منك ويتهمونك بالتناقض (وصدقوا) عندما تأتي لبعض نظرياتهم الغيبية تردها بدعوى أنها تقر أصلا فاسدا قد سبق منك أن قبلته منهم في غيرها من نظرياتهم الغيبية أيضا! فافهم هذا يرحمك الله!

قال الدكتور في حاشية ص. 156: "فسر بعض العلماء ظهور الحياة على كوكب الأرض بأن الفضاء الخارجي مليء ببذور الحياة (من أين جاءت؟!!) التي تبدأ في النمو عند الوصول إلى الكوكب المناسب. وادعى هؤلاء أن هذه البذور قد غزت الأرض محمولة على النيازك، متجاهلين أن الحرارة الهائلة والإشعاع الذي ستتعرض له هذه الكائنات الدقيقة كفيلة بالقضاء على جميع أشكال الحياة." اهـ. قلت: فتأمل وجه الاعتراض! يقول من أين جاءت! ونقول: لعلها جاءت من حيث جاء الانفجار الكبير، الذي جاء بدوره من حيث جاءت انفجارات أكوان أخرى، وهو السبب الطبيعي الذي سبقه سبب آخر لا يزال القوم يتنازعون في افتراضه من نفس الطريق الذي منه فرضوا الانفجار نفسه! فكان ماذا؟ ثم يقول إن الحرارة الهائلة والإشعاع الذي ستتعرض له هذه الكائنات الدقيقة كفيلة بالقضاء على جميع أشكال الحياة، مع أنه لم يسمع منهم فرضيتهم الوهمية في تفصيل صفة تلك البذور المزعومة التي لا أحسبهم إلا يزعمونها لا تزال سابحة في بحر الكون من زمان الانفجار المزعوم! فما الذي يمنعهم من أن يقولوا – مثلا – إنها قد اتفق لها أن تحصنت بمجال من الطاقة يحميها من تلك التأثيرات، وهي تلك الطاقة نفسها التي إذا ما دخلت تلك البذور في الغلاف الجوي للأرض، أحدثت فيها من التفاعلات الكيميائية ما يخلق منها الخلية الأولى؟ أو أن يقولوا بغير ذلك من أنواع الأقيسة التي إذا ما سئلوا عن كيفية تعضيدها بالمشاهدات الإمبريقية، قالوا إن عندنا علما كاملا مختصا بالبحث في صور الحياة في الفضاء الخارجي، فما زلنا نبحث ونفحص؟ وأهم من هذا: ما الذي

يمنعك أنت من التسليم – على الأقل – بمعقولية هذا الفرض ونحوه وجوازه؟ بل ما الذي يمنعك من قبول فرضية وضعها الفيزيائي بول ديفيز (الذي استندت أنت إلى بعض كلامه في تلك القضية) مفادها أن الانتخاب الطبيعي يجري على الأحماض الأمينية قبل الحيوية Prebiotic Natural Selection (خلافا لما تصر أنت عليه) بالنظر إلى إمكانية أن يكون لتركيبات حمضية معينة خاصية النسخ الذاتي الكيميائي Chemical Self-replication دون حياة، على نحو يمكن أن يفسر به آليات الاستنساخ الجيني نفسها كيميائيا، وظهور الحياة نفسها داروينيا؟؟

ما زلت تصول وتجول بدعوى أن "العلم الطبيعي" (هكذا) يمنع من أن يجري مفهوم الانتخاب الطبيعي إلا بعد وجود أنواع حية تتكاثر، أي بعد وجود حياة، وهذا رجل جاء بنظرية مفادها أن الانتخاب الطبيعي قد يجري على المادة الميتة قبل ظهور الحياة، بما يتصور معه أن يوصل إلى درجة التعقد الكافية (عند الدراونة الدهرية) لظهورها كيميائيا، فما الذي يمنعك من الحكم على نظريته تلك بأنها "نظرية علمية" Scientific مستساغة (على الأقل)، جريا على شرطك أنت فيما هو علم وما ليس بعلم؟؟ ليس لك – على منهجك في حدود العلم الطبيعي وتطبيق الآلة التجريبية – أن تدفع بكون أمثال تلك النظريات "غير علمية" أو أن "العلم" قد أبطلها، إلا أن تكون في ذلك جاريا على منهج دهري يوجب عليك أن تقبل احتمال ظهور المعارض ومن ثم جواز أن تزول في المستقبل عن اعتقادك بأن الحياة قد خلقت في يوم من الأيام (خلقا خاصا)، ولم تنشأ بالعشواء الداروينية!

إن المشكلة المنهجية التي يغفل عنها الدكتور وغيره من نقاد نظريات أصل الحياة من بني جلدتنا، هي أن ذلك النقد الذي يوجهه اللاهوتيون الطبيعيون من معهد ديسكوفري في أمريكا وغيره لفرضيات الأحيائيين والبيوكيميائيين الطبيعيين التي لا تناسب نظرياتهم التطويرية Theistic Evolution Theories، وتراه يعجب أصحابنا هؤلاء غاية الإعجاب ويروجون له أوسع الترويج بالترجمة والنقل وكذا، إنما هو نقد طبيعي صرف Naturalistic Criticism في الحقيقة من حيث منهج النظر، مهما زعم أصحابه أنهم متنبهون للفلسفة المادية الطبيعية التي تحرك أصحاب تلك الأبحاث وتحملهم على تكلف وضع الفرضيات والنظريات في تلك القضية! وأعني بكون النقد "طبيعيا"، جريانه على كثير من مسلمات الطبيعية المنهجية في قبول مبدأ وضع الافتراضات والأقيسة التفسيرية الطبيعية ونقدها في تلك الأبواب من الأساس، وهي تلك المسلمات التي لو رفضوها للزمهم رفض نظرية داروين ومبدأ الارتقاء كله من أوله لآخره، ورفض علم الكوزمولوجيا كله جملة واحدة، وهو ما لا يتصورونه ولا يجرؤون على اعتناقه كموقف

فكري منهجي، على الرغم مما عانوه بالفعل من تسفيه الوسط الأكاديمي الغربي وحربهم الضروس ضد نظرياتهم "الخلقوية" كما باتت تسمى، تلك الحرب التي وصلت بهم في أمريكا إلى أروقة المحاكم كما بينا!

فلا شك أنهم إن قالوا لجماهير المفتونين بالعلوم الطبيعية إن ما جئناكم به هو نظرية علمية Scientific Theory تستحق نفس المنزلة الأكاديمية التي أنزلها الطبيعيون لنظرياتهم في تلك الأبواب، فسيكون قبولهم لها وانتصارهم لها على أساس ديني، أرجى من أن يأتوا إليهم بدعوى مفادها أن مجرد مبدأ وضع الفرضيات التفسيرية والنظريات العلمية الطبيعية في قضية النشأة ونحوها من الغيبيات المطلقة هو مبدأ فاسد فلسفيا وعقليا من أساسه! وهذه كما بينا في غير هذا الموضع، ليست السابقة الأولى من نوعها تاريخيا عند اللاهوتيين من أهل الكتاب في التماس تلبيس دينهم بالفلسفة السائدة المعتمدة أكاديميا في قضايا الغيب في عصرهم، حتى لا ينفلت عقد السيادة الاجتماعية والفكرية على أهل الملة من بين أيدي الأحبار والكهنة والحاخامات، أو على الأقل حتى لا يصبح أحدهم مادة للسخرية والتسفيه لبقائه على دينه الذي ظهر "العلم" عليه فأبطله بنظرية كذا ونظرية كذا!

فعندما يتكلم ناقد نصراني كويليام دمبسكي مثلا، ببيان المآخذ "العلمية" التي لديه على نظريات الدراونة في محاولتهم إيجاد تفسير علمي (طبيعي) لنشأة الحياة نفسها من مركبات كيميائية ميتة Chemical Origins of Life، فلا ينبغي بحال من الأحوال أن نغفل عن دوافعه لالتزام ذلك المسلك الذي يلتزمه في نقده تلك النظريات، وعن السبب في كونه إنما يحرص على انتقادها بنفس المعايير المعتمدة أكاديميا عند الطبيعيين في نقد النظريات التفسيرية في تلك البابة بعموم! فهو إنما يريد أن يقدم ما لديه من "تفسير بديل" في ثوب النظرية العلمية الطبيعية Alternative Scientific Theory of Origins، التي يرجى لها أن تقبل بمعايير الأكاديمية الطبيعية في نفس الأمر، وهو ما أفضى به التزامه إياه في تأسيس مذهبه في تلك القضية، هو وأصحابه مايكل بيهي وفيليب جونسون ومايكل دينتون [86] وغيرهم (الذي أصبح يعرف إجمالا بنظريات التصميم الذكي Intelligent Design Theories) إلى لوازم ومقتضيات شنيعة بل وإلى التصريح بعقائد بلغت من البطلان والفساد ما لو وافقوا الطبيعيين الدراونة الغلاة على ما ذهبوا إليه في نفس الأمر لكان خيرا لهم منها، إذ حولوا النصرانية التي يدينون بها إلى دين طبيعي دارويني صرف، واعتدوا على صفات ربهم سبحانه وتعالى وتقدس بالتعطيل الفاحش وتشبيه الأفعال على نحو لا أبالغ إن قلت إنه يفوق ما في قولهم باتخاذه الولد من شناعة وعدوان، كما يأتي بيانه عند تناول عقائد وأفكار طائفة القائلين بالتصميم

الذكي في قسم لاحق إن شاء الله تعالى، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! فهذا المستنقع اللاهوتي العصري الجديد الذي هو أليق بأن يقال له المذهب اللاهوتي الطبيعي Naturalistic Theism منه بعلم اللاهوت الطبيعي Natural Theology، أصبحت النصرانية معه دينا طبيعيا محضا، بلغ من تعطيل الباري عند أصحابه – كما ضربنا عليه المثل في موضعه من هذا الكتاب – ما لم يكن يحلم به داروين نفسه يوم كتب كتابه "في أصل الأنواع"، وإنا لله وإنا إليه راجعون! وأنا بطبيعة الحال لا يعنيني أي ضلال جديد ساحت فيه قلوب وأذهان الغربيين من أهل الكتاب، يخترعون لأنفسهم دينا جديدا كل يوم، يفصلونه على "مقاس" الأكاديمية الطبيعية تفصيلا، يلتمسون به وجوه أكابرها لعلهم يرضوا! وإنما يعنيني ويفزعني ما صار إليه الأمر من وقوع تلك البضاعة بين أيدي المفتونين من أهل قبلتنا، وظهور تلك الفرق والنحل الجهمية الجديدة على أثرها في بلادنا، ورواج بضاعتها على أنها هي مصنفات المتخصصين في الرد على الملاحدة وهي طوق النجاة لإنقاذ المسلمين من براثن الإلحاد (ككتب الدكتور عمرو شريف وغيره)، وهي في الحقيقة فرق اعتقادية جديدة خطيرة صار من المتعين على القادرين من طلبة العلم المعتنين بالعقيدة والبحث في القضايا الفكرية المعاصرة من أهل السنة الخلص في زماننا أن يدرسوها الدراسة اللائقة بها، وأن يحذروا المسلمين منها، والله المستعان!

فالخطب جلل والخطر عظيم، والثغر واسع فسيح نسأل الله العون عليه، وأن يضع لعملنا فيه القبول في الأرض، وأن يبعث في هذا الزمان لعقيدة أهل السنة ومنهجها من طلبة العلم من يتأهل حق التأهل لأن يظهرهما بالحجة والبيان على تلك الطرق الخبيثة التي تشبع بها الأكثرون من شباب المسلمين في بلادنا من حيث لا يعلمون، ولا تزال تتشعب وتتفرع بين أيديهم يوما بعد يوم من حيث لا يشعرون، إنه هو حسبنا ونعم الوكيل. فإن الفتنة بتلك النظريات والفلسفات اللاهوتية الوافدة عظيمة للغاية، واليوم قلّ أن تجد من يقبل منك من المفتونين بالطبيعيات أن تحدثه بمعشار ما حررته في هذا الكتاب الضخم من نقد منهجي كلي، ولا نتوقع أن نرى الكافة من المسلمين في زماننا يقبلون بياننا هذا لحقيقة الدين الطبيعي Naturalistic Doctrine وسعينا في تطهير العلم الطبيعي Natural Science منه ومن القيام على أصوله الكلية والمنهجية، صيانة لدين المسلمين واعتقادهم أولا، وحفظا لعقولهم وأموالهم وترشيدا لمطالب ومقاصد البحث التجريبي نفسه في جامعاتهم ثانيا! ولن يسلم صاحب مثل هذا النقد فوق النظامي Supradisciplinary / MetaDisciplinary للمنهج الطبيعي، ولا شك، من الاتهام في عقله بأنه السفيه عدو العلم والتقدم وكذا، بل وربما يتهم في دينه بأنه ملحد متخف أو يهودي متستر

يريد أن ينصر الملاحدة على المسلمين في معركة التوفيق بين "العلم" و"الدين"، ولكن والله للحق أحب إلينا من أموالنا وأنفسنا وأهلينا والناس أجمعين، والله حسبنا، هو نعم المولى ونعم الوكيل!

وبعد كلام للدكتور في مسألة المعلومات وكيف أنها هي "سر الحياة" بزعمه وليس الكيمياء والمادة والطاقة، قال (ص. 163): "إن مشكلة الدراونة أنهم ما زالوا يطرحون مفاهيم دارون (منتصف القرن التاسع عشر) – التي تجهل أهمية المعلومات – في القرن الحادي والعشرين. لا شك أن دارون لو كان معنا لما قال بالتطور العشوائي لتفسير تنوع الكائنات، ولا بالتطور الكيميائي لتفسير ظهور الحياة." اهـ. قلت: تأمل السطحية في تناول تلك النظرية وفي إدراك الأصول الفلسفية الطبيعية التي تقوم عليها عند أصحابها، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

لا يقولن قائل إن هذا الكلام الذي يحرره الدكتور في الرد على الدهرية هو من قبيل التنزل مع الخصم بالتسليم له بمذهبه! كيف وهو يصرح بنفسه كما مر معك بأنه ماض في تأسيس الاعتقاد بصفات الباري جل وشأنه بناء على ما "أثبته العلم"؟؟ وكيف وهو ينتقد نظريات القوم بهذا النقد الذي تراه؟؟ التنزل إنما يصح في النقض لا في التأسيس، وآفة أصحاب الكلام من كل عصر وفي كل ملة أنهم يزعمون أنهم إنما يستعملون نظريات الفلاسفة المعظمين في زمانهم في نقض الدهرية والإلحاد من باب التنزل عند الخصومة والجدل لا غير، مع أنهم في الحقيقة يؤسسون عليها دينهم كله، يجعلونها هي البرهان العلمي والمعرفي الأعلى لإثبات صحة الدين نفسه بين أيدي الخصوم، وهو ما يجعل الدين من أوله إلى آخره تابعا لتلك النظريات معرفيا بالضرورة، ثم إذا هم آخذون في استخراج مفردات الاعتقاد في صفات ربهم جل شأنه وأفعاله مما تفضي بهم إليه تلك البراهين نفسها من لوازم وقيود وشروط على صفته وفعله، كما ترى الشأن هنا عند الدكتور في مسألة "التدخل" هذه، وغيرها مما يأتي بسط الكلام عليه بتوسع في قسم لاحق من هذا الباب! فالتنزل إنما يكون لنقض الباطل الذي عليه الخصم، مع تأسيس الحق بأدلته الصحيحة في نفس الأمر! أما أن يؤسس الرجل عقيدته على أصول ذلك الباطل نفسه، ثم ينقض على أصحابه بعض فروعهم مستعملا تلك الأصول، ثم إذا سئل قال أنا أتنزل وأسلم لهم بما عندهم تنزلا حتى أرده عليهم، فهذا جهل واستخفاف بالعقول!

قال الدكتور (ص. 164): "وعندما استشهدت بهذين القولين في إحدى المناظرات (يعني ما نقله من أقوال الفلاسفة المعاصرين في مسألة نشأة المعلومات المطلوبة لابتداء الحياة)، سألني مناظري: ما القول إذا توصل العلماء إلى تشكيل الحياة صناعيا داخل المعمل؟! أجبته من فوري: سيكون

ذلك دليلا قويا على وجود الإله الخالق للحياة! إذ إن الأمر قد حدث في المعمل بجهود العلماء الذين يتوفر لهم الذكاء والمعلومات والإمكانيات، ولم يحدث عشوائيا بالصدفة!!" اهـ. قلت: الله أكبر! وإذن يثبت كذلك أن الإنسان قادر على أن يقوم بعمل ذلك الإله وأن يحل محله، يحيي ويميت ويبعث ويحشر ويرزق ويمنع ويقبض ويبسط .. إلخ! فهل خطر في بال الدكتور ذلك اللازم المدمر الذي تلبس به من حيث لا يشعر، وهو مزهو بإفحام خصمه؟؟ أبدا! لا يهم ما صفة الإله الذي نثبته وما يقتضيه المسلك الذي أثبتناه من طريقه، المهم أن نظهر غاية الذكاء والنبوغ عند المخاصمة، وأن نبرع في إفحام الخصم الدهري وإلزامه بالقول بالصانع، المهم العلو في المجادلة بأيما طريق! وهذه هي آفة الجهمية في كل عصر، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

لذا نقول: لا يكفي هذا الجواب حتى ولو على سبيل التنزل لنقض دعوى الدهري، حتى يثبت في التأسيس السبب الصحيح في اعتقاده امتناع ذلك واستحالة وقوعه! فإن الحياة إن عرفناها بأنها ما يكون في ذوات الأرواح من مكون غيبي تمتاز به المادة الحية من المادة الميتة، فإن البداهة وضرورة العقل قاضية بامتناع العلم بحقيقة ذلك المكون في حقنا، فضلا عن العلم بكيفية محاكاته وخلقه على أيدينا! فإن خلق الأرواح وبثها في الأجساد ثم قضبها منها، أمر غيبي محض راجع بالبداهة والضرورة إلى غاية ومقصد الباري من خلق الحياة في هذا العالم، على اختلاف صورها، فكما أنها تحدث بغير حكم ولا سلطان ولا اختيار من المخلوق، فإنها كذلك تقبض بغير حكم ولا سلطان ولا اختيار من المخلوق! ولو قدر أن صار للمخلوق سلطان في ذلك لصار شريكا لخالقه في صفات ربوبيته، منازعا إياه في الغاية التي من أجلها خلق كل شيء، وهذا محال بداهة! وهذه كلها كما ترى معان متلازمة بدهية كلها، لا يماري فيها إلا جاحد مكابر! والقصد أنها هي السبب الصحيح الذي من أجله يقطع العاقل السوي بامتناع أن يخلق البشر بشرا أمثالهم في يوم من الأيام، بل والله ولا ما هو أدنى من ذلك ولا أحقر ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)) [الحج : 73]! فالمخلوق أحقر وأدنى من أن ينافس خالقه في صفاته وأفعاله، ولا يبلغ أن ينازعه سلطانه مهما بلغ! فإذا أثبتنا هذا المعنى بقوة وحزم ووضوح، فلن نحتاج – أصلا - إلى أن نقابل فرضية الملحد الجاحد بمثل ما قاله الدكتور! وإنما يقال حينئذ: حتى لو سلمنا جدلا من باب التنزل بأن ما يشبه أن يكون حياة وقع صنعه في معمل من المعامل أو مصنع من المصانع، فإنما يلزمكم على أصولكم وطريقتكم في الإثبات والنفي والقياس، أن تجعلوا صنعة الباري على نظير ذلك – على الأقل – من

الشروط الأولية والضوابط الصارمة التي التزمها من صنعوا تلك الحياة في معاملهم ومصانعهم، لا على ما زعمتموه من الفوضوية والعشواء، أي يلزمكم إذن إثبات صانع لا نفيه، وما زدتم بذلك على أن عطلتم عنه صفاته وشبهتموه بخلقه، أما نفي الخلق والصنع بالكلية فلا! ولا خروج لكم من ذلك التعطيل والحطّ على باريكم جل شأنه، ولا طريق لإثبات العلم الصحيح في هذه البابة كما هو واجب على كل عاقل، إلا بأن تنخلعوا من استعمال تلك الأقيسة الطبيعية والفرضيات التفسيرية في ذلك الغيب العظيم بالكلية، وأن تقفوا حيث أوقفكم الرب سبحانه في كلامه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم! وإلا فعاقبة الجحود وخيمة يوم القيامة، نسأل الله السلامة!

هذا ما يمكن أن يقبل من التنزل في الرد على هؤلاء في تلك القضية دفعا لشرهم عن المسلمين (وليس في المناظرة كما فعله الدكتور، فالمناظرة معهم ممنوعة شرعا، كما بسطنا الكلام عليه في غير موضع)، يؤسس الحق تأسيسا ظاهرا جليا لا التباس فيه، يتقرر في ضوئه حدود التنزل بقصد نقض الباطل وإبطاله، مع بيان فساد المنهج الكلي نفسه الذي يتبعه الخصم في الوصول إلى دعواه، أما أن يكتفى بما قاله الدكتور هداه الله، ويقال هذا من التنزل، فلا يصح بحال، بل هو من التلبيس والله المستعان!

والحق أننا لا نخالف الدكتور في بيانه أن الخلية الحية فيها من التعقيد البيوكيميائي ما لا يطيق العقل البشري تصوره ومن النظم الدقيقة ما لا نحصيه أصلا فضلا عن أن يُتصور لنا التمكن من محاكاته والإتيان بمثله في يوم من الأيام، هذا من آيات الله الباهرة ولا شك، ولكن ينبغي كما ذكرنا في غير موضع، أن نحقق النظر فيما وراء هذه الحقائق الجلية الواضحة عنده، ما تأويلها لديه، وما مسلكه في إيرادها وما هو الموقف الاعتقادي الذي يؤسسه عليها؟؟ فإنها من حيث هي حقائق مذهله تذهب بالألباب، لا يخالفنا فيها الخصم الدهري أصلا! وإنما يخالفنا وينازعنا نحن المسلمين في تأويلها وتفسيرها الغيبي أولا، وفي المسلك المعرفي الذي يتبعه هو للوصول إلى ذلك التفسير ثانيا، وهذه الثانية هي الأهم والأخطر، لأنها هي محل النزاع بيننا وبين الجهمية والدهرية جميعا، وليس الدهرية وحسب! فبينما يوافقنا الدكتور في الأولى، أي في إثبات الصانع سبحانه فيما وراء ذلك كله، إلا أنه يخالفنا في مسألة المنهج والمسلك المتبع في الإثبات والنفي في الغيبيات المطلقة، وهي تلك المخالفة التي بينا مرارا أنها هي الفرقان الأظهر بين طريقة السلف وطريقة الخلف في تأسيس الاعتقاد بالغيب وما فيه، وبصفة الباري جل شأنه التي هي أصل أصول الدين، وعليها النزاع بين أهل الملل وبين الفرق والطوائف الاعتقادية من أهل الملة الواحدة، فانتبه لهذا أيها

القارئ الكريم حتى تنزل النزاع بيننا وبين الدكتور في منزلته الصحيحة بلا تفريط ولا إفراط، والله يهدينا وإياه إلى سواء الصراط!

إن الفارق المنهجي المشار إليه يظهر جليا عندما يأتي الدكتور في هذه المسألة نفسها بآية سورة الحج التي أوردناها آنفا، ثم يتأول معنى قوله تعالى "يخلقوا ذبابا" تأولا بدعيا لا سلف له به، بل هو ناقض لمعناها تحقيقا، من أجل أن يفتح الباب لقبول احتمالية أن يأتي يوم يصنع فيه الطبيعيون في معاملهم كائنا حيا أو خلية حية مستكملة لأسباب الحياة، من طريق المحاكاة وما سماه "بالتقليد"! قال الدكتور (ص. 167) متوسعا في مثال الموتور الذي ضربه للمسألة:

> على من يريد أن يخترع موتورا أن ينشئ شيئا جديدا بآليات جديدة. فمثلا كان هناك الموتور البخاري الذي يمد الآلة بالطاقة من الخارج، ثم اخترع موتور الاحتراق الداخلي الذي يقوم بإنتاج الطاقة من داخله، ثم اخترع الموتور النفاث. كل من هذه الأشياء اختراع جديد تماما، أو شبه جديد. كذلك الحياة، فإن مكونات الخلية الحية بتفاصيلها وآليات عملها وشفرتها الوراثية قد تم خلقها وانتهى الأمر. فإذا قام العلماء بتجميع هذه الأجزاء (المخلوقة بالفعل بجميع خصائصها) فدبت الحياة في الخلية، فسنقول إنهم قاموا بتجميع الخلية الحلية، ولا ينبغي أن نقول إنهم قد خلقوا الخلية. ولكن ألم يتحد الله عز وجل الكفار مجتمعين أن يخلقوا ذبابا؟ ألا يعني ما ذكرنا أنهم يستطيعون ذلك؟ وصلنا إلى أن ما يحاول العلماء القيام به هو تجميع الخلية الحية، وليس خلق الخلية، ولا حتى تقليدها. فإذا أرادوا أن يخلقوا ذبابا (والخلق هو الإيجاد من عدم على غير مثال سابق) عليهم أن يخترعوا منظومة جديدة تماما للحياة، مثل أنواع الموتورات التي تحدثنا عنها. عليهم أن ينشئوا موادا أولية جديدة من العدم، عليهم أن يخترعوا ويفعلوا القوانين التي تحكم هذه المواد الأولية وهذه المنظومة الجديدة. عند ذلك يكونون قد خلقوا منظومة حية، ولا أظنهم يفعلون.

قلت: قوله في الخلية الحية "قد تم خلقها وانتهى الأمر" فيه تفصيل. فالخلق الإلهي للكائنات الحية يأتي على مرتبتين، فأما المرتبة الأولى، فهي الإبداع على غير مثال سابق، وهو إحداث أول مخلوق من نوعه، كأول إنسان وأول نملة وأول نخلة وأول حوت في البحر وأول طائر في السماء إلى آخر ذلك. وأما المرتبة الثانية فهي الخلق من بعد خلق، أي على مثال سابق، كخلق الجنين في رحم أمه، وخلق النبات بعضه من بعض، وخلق الطيور بعضها من بعض، وسائر الدواب. فعندما يقرر الدكتور إخراج النوع

الثاني من معنى الخلق، فهذا باطل ولا شك، والقرآن طافح بخلافه، كما في قوله تعالى: ((خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)) [الزمر : 6] وقوله تعالى: ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)) [الروم : 21] وقوله: ((وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)) [الأعراف : 181] وقوله: ((وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً)) [الكهف : 48] وقوله تعالى: ((مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)) [طه : 55] وقوله تعالى: ((ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)) [المؤمنون : 14] وقوله تعالى: ((قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)) [يس : 79] وقوله: ((وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)) [الصافات : 96] وغير ذلك. وإلا فهل يقول الدكتور في خلق الله تعالى الجنين في بطن أمه – مثلا – إنه "نسخ" أو "تقليد" أو "تصنيع لا إبداع فيه"، على أساس أن الإنسان الأول قد تم خلقه وقضي الأمر؟؟

فقول الدكتور "كذلك الحياة، فإن مكونات الخلية الحية بتفاصيلها وآليات عملها وشفرتها الوراثية قد تم خلقها وانتهى الأمر. فإذا قام العلماء بتجميع هذه الأجزاء (المخلوقة بالفعل بجميع خصائصها) فدبت الحياة في الخلية، فسنقول إنهم قاموا بتجميع الخلية الحية، ولا ينبغي أن نقول إنهم قد خلقوا الخلية." هذا فيه نزع لاسم الخلق عن خلقك أنت نفسك يا دكتور لو تأملته! فالإنسان الوحيد الذي خُلق على كلامك هذا إنما هو آدم عليه السلام، وأما من جاء بعده فإنما هي نسخ معدلة!

والحق أن هذا خلق وذاك خلق، وكلا النوعين يمتنع على الإنسان أن يأتي بمثله مهما بلغ به علمه، والآية جاء فيها التحدي بالنوع الثاني أو المرتبة الثانية وليس الأولى وحسب! فالخطاب فيها قد حدد مخلوقا بعينه، ألا وهو الذباب، وتحداهم بأن يخلقوا مثله، فسمى محاكاة الخلق خلقا، ونفى عنهم القدرة عليه نفيا صريحا! فإذا حمل النفي هنا على نفي القدرة على أن يخلقوا أول ذبابة (التي خلقها الله على غير مثال سابق من نوعها)، فكيف يحصل معنى التحدي في هذا؟ إذا كان نوع الذباب قد أحدِث خلقه على غير مثال سابق بالفعل وقضي الأمر، فلا يمكن أن يتكلفوا هم إحداثه من جديد إن أرادوا! بل إن الآية تتحداهم بما هو أحقر من ذلك، تتحداهم بأن يستنقذوا ما تسلبهم الذبابة إياه بوقوفها على أبشارهم، يستخرجوه منها بعدما

التقطته! وهذا ولا شك أهون من خلق الذبابة نفسها (بالمحاكاة أو بالتقليد)! ومن الواضح أنك إن عجزت عن استنقاذ ما تسلبك الذبابة إياه بوقوفها على رأسك، فأنت عن محاكاة خلقها وصنعها وأنت ترى لها مثالا بين يديك (الخلق من المرتبة الثانية) أعجز ولا شك، وإذا كنت عاجزا عن ذلك، فأنت عما فوق ذلك أعجز ضرورة (وهو أن تخلق نوعا حيا جديدا بالكلية تحدثه على غير مثال سابق)!

فحكم الدكتور بحصر معنى الخلق في الإحداث على غير مثال سابق، هذا باطل مردود عليه ولا شك. وإنما تكلفه – وانتبه – لأنه خشي أن يحكم بامتناع تمكن القوم من خلق الخلية الحية في معاملهم، فيأتيه أحدهم في يوم من الأيام بأول مخلوق حي قد صنع في المعامل بالكامل من أوله إلى آخره، فينقض عليه غزله ويهدمه هدما! ولولا أن تمكنت الفتنة بالطبيعيات من تلابيب قلبه ما تلبس بذلك التنطع على كتاب ربه، والله المستعان!

ومما يجدر ذكره ها هنا، أن مذهب الدكتور الجديد هذا في معنى الخلق، ينقض عليه عقيدته في أن الله يخلق بالتطوير، لأن الذي ينشأ بالتطور على عقيدته الداروينية إنما هو استحداث الأنواع "الأعقد" من ذرية غيرها من الأنواع "الأقل تعقيدا"، فعلى تفصيله هذا في معنى الخلق، فلا يكون الخلق إلا إحداث الخلية الحية الأولى وحسب، التي "صممت" وركب فيها كافة آليات الاستنساخ والتطفر وكذا، ثم قضي أمر خلق الحياة معها، فما كان بعد ذلك من نسلها فكله تعديل وتطوير وليس بخلق! فكيف إذن يكون الله خالقا بالتطوير على هذا المعنى؟؟

كل هذا، ومع ذلك فإذا سألته فلا أظنه إلا سيصر على أنما هو يتنزل مع الخصم تنزلا، والله المستعان!

نفيه الروح عما سوى الإنسان

بناء على بدعة أستاذه عبد الصبور شاهين في دعواه أن "البشر" إنما صار "إنسانا" يعقل ويختص بخصوصيته بين الأنواع الحية على أثر نفخ الروح فيه، أصبحت الروح نفسها من خصوصيات بني آدم في دين الدكتور وأتباعه، هداهم الله! مع أن الله تعالى يقول: ((وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)) [التكوير : 5] والحشر يقتضي روحا للمخلوق تبعث ويخلق لها جسد جديد تحشر به، يقتص الله من بعضها لبعض في أرض المحشر ثم تكون ترابا كما جاء في السنة! فلابد حتى تحشر وتحاسب أن يكون لها أرواح تبقى في برزخ يليق بها بعد هلاكها، حتى إذا جاء يوم الحشر بعثت كلها كما يبعث بنو آدم! وفي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "كل مصور في

النار، يجعل له بكل صورة صورها نفسا فتعذبه في جهنم، وقال: إن كنت لابد فاعلا، فاصنع الشجر وما لا نفس له." وفي رواية "إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذه الشجر وكل شيء ليس فيه روح"، فدل على أن كل ما فيه حياة مما سوى الشجر والزرع أو النبات بعامة فحياته روح ونفس!

أما الدكتور، فيقول (ص. 173):

> لا ينبغي أن ننهي هذا العرض لمفهوم الحياة دون أن نبين مفهوما مهما، وهو أن "الحياة غير الروح" التي يخبرنا القرآن في مواضع متعددة أن الله عز وجل قد نفخها في آدم وفي مريم بل وفي أجنة الإنسان جميعا. إن هذه النفخة هي الروح وليست الحياة! نعم هناك فرق بينهما. فالروح خصوصية للإنسان تميز بها عن جميع الكائنات واستحق بها الخلافة من الله عز وجل في الأرض. أما الحياة فهي ما تحدثنا عنه في هذا الفصل، وهي سمة جميع الكائنات الحية، تختلف بها عن المواد غير الحية، لذا يجب أن ننتبه إلى هذا الفرق جيدا عند النظر في آيات القرآن الكريم. إذن يمكن القول أن لدى الإنسان روحين، روح حيواني وهو الحياة التي تشاركنا فيها جميع الكائنات الحية، وروح مدرك وهو نفخة إلهية نتميز بها عن سائر مخلوقات الله عز وجل، ولهذين الروحين علاقة بالموت. انظر إلى قول الحق عز وجل: ((الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضي عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)). نفهم من الآية أن التوفي عملية تحدث للإنسان في حالتين، عند النوم وعند الموت، أي أن التوفي شيء آخر غير الموت. وفي ضوء هذا الفهم نرى أن الإنسان عند النوم تفارقه الروح المدركة مع استمرار الحياة في جسده، أما عند الموت فتجري عليه عمليتان، عملية بيولوجية هي الموت الذي يجري على سائر الكائنات الحية، وعملية التوفي التي يقوم فيها المولى عز وجل عن طريق ملك الموت باسترداد وديعته (الروح المدرك) التي شرف بها الإنسان.

قلت: قول الدكتور "فالروح خصوصية للإنسان تميز بها عن جميع الكائنات واستحق بها الخلافة من الله عز وجل في الأرض" هو تخصيص فاسد، إذ جاء في الكتاب والسنة نسبة الروح والنفس إلى جميع الدواب (الحيوانات) بلا استثناء كما بينا! ولا شك أننا لا علم لنا بحقيقة الروح ولا يكون كلامه إلا رجما بالغيب وتخرصا ودجلا من قال إن روح الإنسان تختلف عن روح الحيوان في كذا أو كذا، ما لم يكن لديه في ذلك سمع صحيح! ولا يشفع للدكتور اتخاذه الغزالي سلفا له في جعل الروح روحين، إذ العبرة بالدليل لا

بغيره، ولا نجد في النص إلا أن الروح واحدة، يحيا الإنسان (وغيره من الدواب ذوات الأنفس) بنفخها فيه ويموت بقبضها، وقد قال الله تعالى فيها، قاطعا الطمع البشري في معرفة حقيقتها، ومذكرا الإنسان بحجمه الذي لا يزال الفلاسفة يتجاوزونه ظلما وعلوا: ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)) [الإسراء : 85]! فأمر نبيه الخاتم ورسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم بألا يرد على من يسأله عن أمر الروح إلا بقوله "الروح من مر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا"! فهل أوتيت أنت يا دكتور عمرو، أو أوتي الغزالي من قبلك، من العلم بالروح ما منع الله تعالى منه محمدا صلى الله عليه وسلم، وأمره بأن يمنع أتباعه من طلبه والتطلع إليه؟؟ سبحان الله!

غايتنا هاهنا أن نقول إن الإنسان لا يعد حيا حتى تكون فيه روحه، أو على الأقل يكون لجسده اتصال بها! فالروح تقبض على مراتب لا على مرتبة واحدة، فأما قبضها في النوم فيذهب بالوعي ويبقي ما سواه من الجسد حيا نشطا كما يشهد به الحس والعادة، مع بقاء اتصالها به على نحو لا يعلمه إلا الله، وأما قبضها في الموت فلا يبقي للجسد أي نشاط محسوس البتة، لا الوعي ولا النشاط الخلوي ولا غير ذلك، ولا يكون الاتصال إذن إلا غيبيا محضا، في القبر في عالم البرزخ كما جاء به الخبر! أما الزعم بأن الميتة الكبرى تجري فيها "عملية بيولوجية"، فهذا كلام فاسد، يفتح الباب لأصحاب البيولوجي ليضعوا نظرياتهم في حقيقة الموت رجاء تفسيره "طبيعيا"! وهو يريد بالفعل أن يفتح هذا الباب ليجعله مستنده في إثبات الروح نفسها، وفي تحويل البحث فيها إلى موضوع علمي إمبريقي، كما تكلفه في بعض كتبه، وكما أصل له فلسفيا في هذا الكتاب فيما مر معك بيانه ونقضه!

والحق أن الموت انقطاع لكافة "العمليات" التي يدرسها الطبيعيون تحت علم البيولوجيا على اختلاف مستوياته وموضوعاته في جسم الإنسان، سواء منها التشريحي والفيسولوجي والبيوكيميائي وغير ذلك! إذ يصبح الجسم إذن كتلة ضخمة من المواد العضوية بالغة التركيب والتعقيد كيميائيا، التي لا يربط بين أي جزيئين منها ذلك الرابط الوظيفي والغائي الذي به كان كل جزيء منها عضوا في نظام الجسد الحي من قبل، فلا يعود فيها إذن ذلك العامل الغيبي المتخلل السابغ في جزيئاتها على جميع المستويات، الذي كان يحرك جزيئاتها في خلاياها حركة الحياة، ويمسك بعضها ببعض فيجريها بإذن الرب جل شأنه على ذلك النحو المخصوص، كل جزيء منها بعمله ووظيفته الدقيقة التي لا يكون الجسم حيا بدونها، يحفظ تلك المواد كلها من التفكك والتحلل من بعضها البعض، ومن التفاعل مع البيئة الكيميائية والفيزيائية المحيطة، وفيما بينها وبين بعضها، كما تتفاعل أمثال تلك

المركبات الكيميائية المعقدة للغاية إذا قدر أن جمعت كلها إلى بعضها البعض في بيئة الأرض من غيرما حياة تنظمها وتضع كل جزيء منها في ذلك المحل المخصوص، وهو ذلك التفاعل الكيميائي الذي لا يسلم منه جسم ميت (إلا أن يشاء الله بأسباب غيبية محضة لجثة من الجثث ألا تأكلها الأرض، كما يكون لأجساد الأنبياء والشهداء)! فالذي يحدث هنا هو انقلاب مادة الجسم من حال تجري عليه السنن السببية لتفاعل المواد بعضها مع بعض على نحو معين، إلى حال مختلفة اختلافا جذريا في ذلك! وهو حادث تنقلب به المادة الحية (التي هي موضوع علم البيولوجيا) إلى مادة ميتة لا حياة فيها، فكيف يكون "عملية بيولوجية" كما سماه الدكتور؟؟

هو انقطاع لعمل عامل غيبي محض لا نظير له عندنا يقاس عليه! فبعدما كانت قوانين الفيزياء الجزيئية والكيمياء (على مستوياتها وأنواعها وتصانيفها العلمية المعاصرة)، خاضعة كلها في تلك الجثة لتدبير وظيفي فائق بالغ الدقة يحرك تلك المواد كلها في إطار تلك القوانين على تلك الصفات والنظم التي بها تقع عمليات الحياة في الكائن الحي وتبقى ما شاء الله لها أن تبقى [87]، أصبحت بعد الموت مسلطة على مادة الجسم نفسه تَسلطها على جملة من المركبات الكيميائية الساكنة التي لا يحركها شيء إلا ما يقع على الجسم من خارجه! هذا العامل التدبيري الدقيق (أو "المحرك الحيوي الكلي" إن جاز التعبير) الذي لا تخرج عنه ذرة في جسم الكائن الحي، هو أمر لا وصول للطبيعيين إلى استكشافه من طريقهم بالضرورة مهما عملوا، لأنه غيب محض، ملازم لحقيقة الروح التي لا نعلمها ولا نجيز التطلع للعلم بها، فلا نقبل من الدكتور تسميته تحول المادة الحية إلى مادة ميته "بالعملية البيولوجية"، ولا مسعاه الخبيث في "طبعنة" موضوع الروح وحقيقتها وعملها في الجسد وإخضاعه للطريقة التجريبية في البحث والنظر، والله المستعان!

في ضوء ما تقدم، يمكن تلخيص مذهب الجهمية الوضعية الذي ابتدعه الدكتور عمرو شريف في كتبه كما مر معك، ومشروعه الفكري المدمر القائم عليه، في الكليات الخمس التالية:

يقوم العلم الطبيعي على "البرهان التجريبي" و"البرهان الرياضي"، وهما أقوى أنواع البراهين المكتسبة A-posteriori على الإطلاق، بل أقوى أنواع الأدلة على الإطلاق بعد مسلمات المنطق الأولى (كمبدأ عدم التناقض مثلا) التي ليس من المتصور أن تكون الدعوى النظرية التي يتفق الأكاديميون على قبول الدليل الحسي والرياضي المستند إليه فيها، مناقضة لها بوجه من الوجوه. إنما أتي الطبيعيون من قبل نفيهم الغائية، ومنعهم الصارم من القول بالتدخل الإلهي Divine Intervention في الحوادث الطبيعية، وإصرارهم على افتراض العشوائية الوجودية كفرض تفسيري في محله، على أثر اختزاليتهم الوجودية. فالواجب الانتقال إلى ما يسميه الدكتور "بالطبيعية الإلهية" Theistic Naturalism (وهو مصطلح مختلف عليه بين طوائف الفلاسفة ويستعمله الدكتور استعمالا خاصا به، يجمع بين وحدة الوجود الطبيعية والربوبية الطبيعية والتدخل الإلهي الغيبي في نظام الطبيعية، معا في نظام اعتقادي واحد!)، التي يكون فيها الإله هو مرجح احتمالات الكوانطا، وهو مصدر المعلومات الكونية، وتكون جميع الأسباب طبيعية Natural على أساس أن الإله هو منبعها إجمالا، بحيث يكون هو التفسير النهائي Ultimate Explanation لكل ما يأتي به الطبيعيون من نظريات في قضايا النشأة وحقيقة الكون وكذا. فلا يجري شيء في الكون إلا بقوانين الطبيعية التي هو مصدرها، ولا سبب إلا السبب الطبيعي Natural Cause مع كون الأسباب كلها هي عمل الإله في العالم! أو على حد عبارته في حلقة من حلقات برامجه على اليوتيوب "قوانين الطبيعة هي آليات كن فيكون" (وحسبك بهذه الكلمة عدوانا على ربوبية الله عز وجل واختزالا لأفعاله جل شأنه)!

العلم الطبيعي يجب أن يكون هو الأساس المعرفي الذي عليه يقوم التصور الوجودي كله، شهادته وغيبه على السواء، وألا تسبقه "أيديولوجيا" أو فلسفة ميتافزيقية أو عقيدة غيبية معينة متلقاة من أي مصدر معرفي آخر، بحيث تجعل تلك العقيدة أساسا للبحث فيه أو قيدا لما يقبل وما يرد من نظريات الطبيعيين. فبالنظر لكون الطبيعة هي "كتاب الله المنظور"، فلابد أن يصل بنا الاستنباط

الصحيح منها إلى إثبات الاعتقاد الغيبي الصحيح الموافق "لكتاب الله المسطور"! فإن أغرقنا في ذلك الاستنباط وبذلنا فيه غاية الوسع، فإننا إذن نكون قد عملنا بقوله تعالى ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [العنكبوت : 20]، وإذن نصل إلى تأسيس الاعتقاد في صفة الإله وفي العلاقة بينه وبين العالم، نؤسسها على أساس "علمي"!

القطع العقلي والعلمي هو كل ما اتفقت عليه الأكاديميات الطبيعية في عصر من العصور، أيا ما كان موضوع التنظير المتفق عليه! فإن خالفه شيء من فهم السلف للنصوص عندنا، وجب إسقاط ذلك الفهم وإعادة التأويل، مع الاعتذار عن السلف بأننا اليوم أعلم منهم، وبأنهم لو علموا ما صرنا اليوم نعلمه من أمر السماوات والأرض لما قالوا في التفسير بما قالوا!

بناء على تلك الكليات الجهمية الخبيثة، التي أطلنا النفس في نقضها فيما مر معك من أجزاء هذا البحث، وبيان أنها تستصحب كليات الملة الطبيعية الدهرية وتستلزم تعطيل صفات رب العالمين على طريقة اللاهوتيين الطبيعيين المعاصرين الذين تأثر بهم الدكتور، كان من الطبيعي والمتوقع أن يكون مذهبه في أصل الكون وأصل الحياة هو المذهب الطبيعي بحذافيره، مع فرض "التدخل الإلهي" في كل موضع من تلك النظريات يزعم فيه الطبيعيون "العشوائية الوجودية"! فمن غير المستغرب على الإطلاق، أن ينتهي الدكتور إلى التشبع بمذهب التطور الموجه Guided Evolution، وأن يصبح رأسا في الدعوة إليه! فلعلنا لا نبالغ إن قلنا إنه لم يظهر في أدبيات الجهمية المعاصرين من اعتنى بالتأصيل الفلسفي للتطور الموجه كعناية هذا الرجل، والله المستعان!

ولا نبالغ كذلك إن قلنا إن الخطورة على دين المسلمين من تلك الأصول الفلسفية نفسها للعلم الطبيعي عنده، هي أعظم عند التدبر من مذهب التطور الموجه نفسه، الذي كان ولم يزل هو غاية ما يعرف به الدكتور عند من يعرفونه! فهو – كغيره من جهمية الطبيعيات المعاصرين، الذين رأينا أبرزهم، ولا عجب، أساتذة جامعيين في علوم الطبيعة كباسل الطائي ونضال قسوم – يرى أن علم الكلام الموروث من المتكلمين الأوائل لم يعد يصلح للقيام بمقصوده لأن الناس لم تعد تفهمه ولا تعبأ أصلا بمحاولة فهم مصطلحاته وخلفياتها الفلسفية القديمة، فبات من الواجب بناء علم كلام جديد على نظريات الطبيعيين (وهو ما سماه الطائي "بدقيق الكلام الجديد")، كما بنى الأولون كلامهم على نظريات الميتافزيقيين الأوائل! [88] قال الدكتور في مقدمة كتابه "كيف بدأ الخلق":

تدور الأيام وتتبدل. كان المسلمون الأوائل يفهمون عقيدتهم بشكل سهل مباشر من القرآن الكريم، ثم تعقدت الأمور وطرحت على الفكر الإسلامي قضايا فلسفية شديد التعقيد طالما حيرت الفلاسفة الأسبقين والحضارات المحيطة، فمثلت تحديا قويا للعقل المسلم. وقد تصدى لهذه التساؤلات والشبهات رجال قاموا بالتوفيق بين الصحيح منها وبين العقيدة الإسلامية، وردوا البعض الآخر. وقد تأسس على ما طرحوه من أدلة وبراهين ما صار يعرف "بعلم الكلام"، وصار هو الطرح الأساسي للعقيدة الإسلامية. وتتبدل الأيام، ونصل إلى عصرنا الذي صارت فيه اصطلاحات علم الكلام وأسلوبه في الاستشهاد على درجة كبيرة من الغموض وصعوبة الفهم. ولحسن الحظ وصل العلم في نفس الوقت إلى آفاق سامقة من المعرفة، كشف فيها الكثير عن أمور كانت تعد من الغيبيات (مثل أن هذا الكون له بداية وأنه قد نشأ من العدم)، مما حدا بأحد علماء الكونيات الأفذاذ أن يقول قولته الشهيرة: لقد صارت الفيزياء اليوم تحيا في تخوم الميتافيزياء. وكلما تأملت قول الله عز وجل: ((سنريهم ءاياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ..)) (فصلت: 53)، أدركت أننا نحيا في زمان هذه الآية، نحن في زمان صارت فيه مكشتفات العلم من أكبر الأدلة على وجود الله الخالق عز وجل، وإدراك بعضا من صفاته، وبذلك صار العلم الحديث بابا واسعا لفهم العقيدة الصحيحة كما أنبأنا القرآن الكريم. وقد كان طرح هذا المفهوم والاستشهاد على صحته أحد الدوافع لإخراج هذا الكتاب.

قلت: فلا ندري ما معنى "الطرح الأساسي للعقيدة الإسلامية"؟ هل المقصود أن ما ليس فيه "كلام" أو لا يقوم على "علم الكلام"، فليس "طرحا أساسيا للعقيدة الإسلامية"؟ قوله: "ولحسن الحظ وصل العلم في نفس الوقت إلى آفاق سامقة من المعرفة، كشف فيها الكثير عن أمور كانت تعد من الغيبيات (مثل أن هذا الكون له بداية وأنه قد نشأ من العدم)،" قلت: هذا الكلام تلبيس محض، فإنه ليس ما جد من اختراق الطبيعيين للغيبيات الزمانية الكبرى ناشئا عن "الآفاق السامقة من المعرفة" التي بلغها "العلم" (هكذا!)، وإنما هو ناشئ عن جريان القوم على أصول الدهرية المنهجية Methodological Naturalism في الافتراض والتنظير والتفسير، تلك الأصول التي أطلنا النفس في بيان تدينهم بها تدينا في هذا الكتاب بحول الله وقوته! وضع أينشتاين نظرياته ومفاهيمه في الكليات الميتافزيقية للطبيعة، كمفاهيم الزمان والمكان وسرعة الضوء، بناء على تصورات دهرية لا محل فيها لغيب ولا لغائية ولا لخلق ومعاد وحساب وعقاب، فالتقطها جورج ليميتر فاستحسن لنفسه أن يضع أول تصور لتاريخ الكون بتطبيق معادلات النسبية العامة على "زمكان كوني شامل" آخذ في التوسع بداية من نقطة كثيفة،

مستندا في ذلك – أيضا – إلى ثوابت الدهرية المنهجية، ثم جاء إدوين هابل بتأويل الانحراف الأحمر للأشعة الواردة من النجوم البعيدة كلها، فجعله ليميترا أول "دليل تجريبي" على صحة دعوى التمدد الكوني المطرد، وإذا بالقوم على وضعيتهم الدهرية يتهيأ لهم الاعتقاد بأن أمورا كانت فيما مضى من محض الغيب قد صارت اليوم "شهادة"، وحسب أحدنا أن ينظر بمرقاب قوي في نجوم السماء البعيدة حتى يشهدها بعينيه وهي تقع تحقيقا!

وإلا فلا يزال الغيب غيبا والشهادة شهادة، ولا يزال العدوان على الغيب مرفوضا عند المسلمين اليوم كما كان مرفوضا قبل أينشتاين وكوزمولوجيا ليميترا ولا فرق ولا كرامة!

يا دكتور، عندما يقول أحد "علماء الكونيات الأفذاذ" كما وصفته: "لقد صارت الفيزياء اليوم تحيا في تخوم الميتافيزياء"، فإن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على تردي علم الفيزياء وانحطاطه العقلي العظيم في القرون الأخيرة، لا سيما من بعد أينشتاين، لا على تطوره وترقيه في "آفاق المعرفة"!! وليس هذا الخرف الميتافزيقي الذي غرق فيه الفيزيائيون المعاصرون داخلا – البتة – في قوله تعالى ((سنريهم آياتنا))، ومن اعتقد ذلك فهو مبتدع ضال! فإن كنت يا دكتور لا تدرك أن الانفجار العظيم المزعوم لم يكن "اكتشافا" Discovery على غرار اكتشاف قانون الطفو على يد أرشميدس مثلا، أو اكتشاف القارة الأمريكية على يد كولومبوس، أو اكتشاف نوع جديد من أنواع القردة في غابات إفريقيا، وإنما هو فرضية ميتافزيقية محضة جوزتها معادلات المجال لأينشتاين، ثم جرى الفلكيون على تأويل المشاهدات بما يوافقها، إن كنت لا تدرك هذا الأمر فما كان لك أن تخوض في هذه المضايق أصلا، والله المستعان! هذا الباب "الواسع" الذي فتحته لفهم العقيدة الإسلامية واستنباط صفات رب العالمين، ليس – والله - باب علم، وإنما هو باب خرافة دينية طبيعية وجهل عظيم وزندقة لا يخرج منها أصحابها باعتقاد المسلمين أصلا، وإنما بخليط شيطاني بين اعتقاد المسلمين واعتقاد الدهرية الطبيعيين، نسأل الله السلامة! فاتق الله في دين المسلمين يا دكتور، واشتغل بما تحسنه رحمك الله!

لقد صرح الدكتور في غير موضع بأن "مشروعه الفكري" متوجه بالأساس إلى المتدينين من المسلمين، قبل أن يكون متجها إلى الملاحدة والمرتدين، لأن من أهم أسباب الإلحاد النفسية في نظره، ذلك الموقف العدائي الصارم الذي يتخذه المتدينون من "نظريات علمية" معينة قد صارت في الأكاديميات العلمية اليوم بمنزلة المسلمات الكبرى، كنظرية التطور مثلا! يأتي الشاب من هؤلاء المفتونين، الجهلاء بعقيدة الإسلام ومنهج أهل السنة، فيغرق إلى رقبته في دراسة نظرية داروين، ثم يسمع الشيخ في المسجد يقول إن نظرية داروين إلحاد وخرافة، فينقم على الشيخ وعلى الدين كله من أوله

لآخره ويخلع ربقة الإسلام من عنقه، وإذن يصبح الشيخ هو السبب في ردته وإلحاده، وليس الحال التي وصل إليها قلب ذلك الهالك من قبل من حيث لا يشعر، من غرقه في الفلسفة الطبيعية الدهرية! فما الحل إذن؟ أن يخرج من الأكاديميين المسلمين من يتبنى مشروعا فكريا تلفيقيا كبيرا، يؤسلم به نظرية داروين ويجعل من التطور الداروينى "تطويرا إلهيا"، ومن الطفرة العشوائية "تدخلا إلهيا"، به خلق كل نوع حي، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قال الدكتور في صدر الفصل السادس من كتابه "خرافة الإلحاد" (ص. 177): "إن المفهوم الذي نتبناه ونسعى من خلال هذا الفصل لإثباته هو قبول القول بتطور الكائنات من الأدنى إلى الأرقى، مع رفض أن تكون العشوائية هي آلية ذلك، بل ينبغ أن يكون وراء التطور إله حكيم قادر." اهـ. قلت: حسبك ما في هذه الفقرة وحدها من تناقض صارخ، إذ يقول "تطور الكائنات من الأدنى إلى الأرقى"، ثم ينسب ذلك إلى "إله حكيم قادر"! فكيف يكون من كمال الحكمة وكمال القدرة أن يبدأ الصانع بكائنات أدنى وأحقر وأحط، ثم يرقيها طفرة بعد طفرة عبر بلايين السنين بآليات وأسباب طبيعية؟ في أي دين وبأي عقل يكون هذا هو الأكمل في الحكمة والقدرة؟! سبحان الله وتعالى عما تصفون علوا كبيرا! يا دكتور، هذا خلق الناقص العاجز، الذي لا يملك إلا أن يبدأ بالأدنى ثم يرقيه ما استطاع! كصاحب مصنع السيارات – مثلا – ينتج السيارة في أول اختراعها على أحط وأسخف ما يُتصور لها من تصميم وهيئة وبناء، لأن هذا هو منتهى علمه وغاية قدرته في ابتداء التصميم، فإذا ما صنعها واستعملها الناس ثم كثرت الشكوى بأن فيها عيبا في كذا وخللا في كذا ونقصا في كذا، أخذ في مراجعة التصميم بالتعديل والتحسين (التطوير) لينتج "موديلا" أحدث يكون أحسن حالا من سابقه في القيام بوظيفة السيارة على أكمل ما يمكن، وهكذا خطوة بعد خطوة، في حدود علمه الناقص وقدرته البشرية المحدودة! هذا هو التطور وما لأجله يضطر الصانع البشري للتطوير في التصميم والتصنيع! فكيف تنسب ذلك إلى ربك الذي أحسن كل شيء خلقه، سبحانه وتعالى، الذي هو بضرورة العقل صاحب كل كمال المنزه عن كل نقص؟؟

ينبغي أن يفهم أصحاب تلك النحلة البدعية أن الصنع بالتطوير لا معنى له إلا أن يكون كل طور جديد أحسن من الطور المتقدم عليه لانكشاف علم جديد للصانع كان خافيا عليه حين صنع الطور الأول، وإلا لصنعه على أكمل ما ينبغي من أول مرة دون حاجة إلى "تطوير"! أي أن التطوير لا يكون إلا من حاجة مستجدة تدعو الصانع للإصلاح أو التعديل بالإضافة أو الحذف، لانكشاف نقص يراد تكميله أو قبح يراد تحسينه، أو لزيادة القدرة لديه على تحقيق هدف كان مرادا للصانع في التصميم الأول ولم يحرزه إلا في حدود قدرته حالئذ، فيقع ذلك منه مرة بعد مرة (طورا بعد طور) في خدمة الغاية الكلية نفسها التي من أجلها صنع النوع الأول ابتداء. وهو ما يلزم منه إن أجريناه على خلق

الأنواع الحية تشبيه الأفعال ونسبة النقص الفاحش إلى الله تعالى كما لا يخفى، إذ ليس خلق الله تعالى ما يخلق محاولة منه لحل مشكلة ميكانيكية لم يكن يتوقعها أو معالجة نقص تصميمي كان يخفى عليه، كما يقتضيه مطلق معنى التطوير في الخلق، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا!

وأقول إن التطوير يكون تحسينا "في خدمة الغاية الكلية" أو "الوظيفة الكلية للنوع"، لأن اختلاف الوظيفة النوعية الكلية للأنواع المصنوعة يجعل المفاضلة بينها في درجات التطور الصناعي الذي يرمي إليه الدكتور بقوله بالتطوير الإلهي أمرا لا معنى له أصلا! فإنه لا يقال في الغواصة إنها أكثر تطورا من الطائرة، ولكن يقال في الطائرة النفاثة إنها أكثر تطورا من الطائرة الشراعية ومن البالون (المنطاد)! فليس الحوت في الماء أرقى أو أدنى من النسر في السماء، من حيث نوع الوظيفة الكلية التي من أجلها صنع هذا وذاك، وليس الزاحف البرمائي أكثر تطورا من الحوت! وإنما خلق هذا لغاية ومحل من العالم على خلاف غاية ذاك ومحله الذي فيه ركبه الباري تركيبا! وكان كل واحد منهما – على عقيدتنا نحن المسلمين - على أكمل ما يناسب محله الذي خلق فيه ووظيفته الكلية والغايات الإلهية من خلقه من أول مرة!

ولكن لأن الدراونة ألغوا الغائية Teleology والعاملية Agency إلغاء تاما، وقصروا التعليل على القانون الطبيعي والحركة العشوائية، فقد جعلوا معيار القول بالدنو والعلو في درجة "التطور" هو الزيادة الوظيفية أو العضوية أو المورفولوجية، ومن ثم كان المخلوق البرمائي عندهم أكثر تطورا من المخلوق البحري (المائي)، وليس العكس! ولأنهم لم يجدوا إلا أن يبدؤوا أسطورتهم بالخلية العشوائية الهائمة في الماء، حتى يتصور وجود بيئة تصلح لحمل المخلوقات الحية الأولى وإعانتها على التكاثر والانتشار عشوائيا من قبل أن تظهر فيها آليات الحركة والانتقال، كان لزاما أن تكون الحيتان والأسماك هي سلف البرمائيات والزواحف، وليس الثدييات مثلا! فيصبح الترتيب: مائيات تنشأ منها برمائيات ثم منها تنشأ بريات، وليس العكس! وبناء على تلك المسلمات الفلسفية الأولى، تعامل القوم مع المستحاثات تأويلا وتفسيرا وتأريخا Dating حتى صيروا الأسطورة إلى ما هي عليه الآن عندهم!

والقصد أن التطور على هذا التصور الذي يذهب إليه الدكتور وغيره من دعاة التطور الموجه، هو معنى لا متسع له في أصل نظرية داروين نفسها! فالواقع أن السلم الدارويني أو شجرة الأصل المشترك لم تقم عند داروين على مبدأ التطوير والتحسين الوظيفي في إطار النوع الواحد، ولو كان هذا هو فرض داروين الغيبي وتصوره الفلسفي للمسألة من الابتداء، لما بدع آليتي الطفرة العشوائية والانتخاب الطبيعي من الأساس، وإذن لما جرت أسطورة التاريخ الطبيعي عنده هو وأتباعه على نحو ما جرت عليه! فهي إنما بنيت من أولها

إلى آخرها بتأويل المشاهدات كلها على ما يحقق المفهوم الدهري المحض للتطور عند داروين، بل وباختراع المشاهدات اختراعا لخدمة النظرية (كما يكون عندما ينتقى ضرس أو شظية من فك أو قطعة من جمجمة لرمة من رمم القردة وجدت في طبقة من طبقات الأرض الغائرة، فيتكلف مكتشفها تحويلها إلى حلقة تطويرة في السلم المزعوم، بناء على فلسفة الترقي التدريجي في درجات التعقد الوظيفي والرقي المورفولوجي)! [89] بل لو كان هذا هو اعتقاد داروين الغيبي ومفهومه للتطور، لقال في أصل كل نوع بجعله مخلوقا مستقلا من زوجين، يخلق على مراد الصانع منه حال صنعه، ثم يطور نسله وذريته في إطار الغاية الكلية من صنع ذلك النوع، والوظيفة النوعية المميزة له عن غيره من الأنواع، جريا على دواعي التطوير والتحسين طورا بعد طور! وهذا لا قائل به من الدراونة لا من التطويريين ولا من التطوريين ولا من غيرهم كما لا يخفى!

فالذي يعتقد مفهوم التطور الذي يعتنقه الدكتور عمرو (حتى يصيره تطويرا إلهيا بالتدخل مرة بعد مرة)، يتناقض إن اعتنق دعوى الانتخاب الطبيعي ودعوى الأصل المشترك، وإن قبل ميثولوجيا التاريخ الطبيعي التي يزعم الدكتور عمرو بكل ثقة وحزم أن الأدلة قد استفاضت بما يثبتها ثبوتا باتا لا يُتصور معه المعارض! فإنه لا شيء عند الدراونة يقررون به ذلك المعنى (معنى التطور الذي صيره الدكتور تطويرا) إلا خرافتهم في التفاوت في درجة التعقد Complexity التي يأتي معك بسط الكلام على نقضها في قسم لاحق من هذا الباب! فالنظام الحيوي أو الكائن الحي Organism يكون عندهم أكثر تطورا More ‘Evolved’ إذا كان أكثر "تعقدا" وظيفيا وعضويا ومورفولوجيا من سلفه الذي ينحدر منه "انتخابا" بزعمهم، بصرف النظر عن مسألة الغاية أو الوظيفة الكلية أو الداعي للصنع أو نحو ذلك، فإن هذا الباب عند الطبيعيين غير مطروح أصلا! ولكن صانع السيارة، صاحب الغاية الكلية في صنعها، إذا أراد أن يطورها فلن يصيرها طائرة أو صاروخا أو غواصة كما أشرنا آنفا، وإنما تظل سيارة (نوعا) مع التعديل والتحسين! ويقال كذلك إن الصانع صاحب الغاية والغرض لا يلزم أن يكون "تطويره" لما يصنع بزيادة التعقيد أو بزيادة الأعضاء أو بزيادة الحجم أو العناصر والمكونات أو بزيادة عدد الوظائف الداخلية أو بالزيادة في بعض الخصال والصفات على أيما وجه كانت، بل قد يكون الحذف والتقليل أحسن وأكمل من الزيادة أحيانا في النوع الواحد! ولكن هم يقولون بترقية عشوائية لا صاحب لها ولا غاية ولا قائم عليها، تتراكم فيها الزيادات العشوائية تراكما تدريجيا، فلزم أن يكون الابتداء بأصل منحط وضيع، والانتهاء بمخلوقات معقدة بالغة الغاية في التعقيد والتنويع!

من هنا يتبين لك، أيها القارئ الكريم، أنه إذا كان القول بالتطور الموجه، أو الخلق بالتطوير، قياسا لصنعة الباري جل شأنه في خلق الأنواع الحية على

الصانع البشري الذكي، وتشبيها لأفعاله بأفعال المصمم الميكانيكي في تطويره صنعته الناقصة وتحسينه إياها خطوة بعد خطوة، فإن هذا القياس المعطل لصفات الرب جل في علاه ليس هو ما تقتضيه نظرية الأصل المشترك ومفهوم التطور بالانتخاب فيها Evolution by Natural Selection، وإنما تقتضي قياسا أحط منه على الحقيقة وأبلغ في تعطيل صفات الباري سبحانه، وفي ذمه وشتمه سبحانه وتعالى علوا كبيرا! فإنما القياس البشري الأليق بها هو قياس الباري على صانع بشري أعمى لا يدري ما يفعل، أو للدقة لا يريد من صنعه هذا النوع أو ذاك غاية معينة، فلا وجهة معينة تظهر في التغيرات التي تطرأ على صنعته بحيث يمكن أن يقال عنها إنها "تطوير وظيفي" على المعنى الذي يزعمه صاحبنا الدكتور عمرو ومن وافقهم من دراونة أهل الكتاب! فلا يبلغ حتى أن تكون غاية فعل ذلك الصانع في العالم هو أن أحدث مادة أولى في مبدأ الأمر (الفردية المزعومة)، وركب فيها طبائعها، ثم حركها حركة أولى تنبأ بأنها إذا تركها وشأنها لتمضي بتولداتها السببية الطبيعية المستقلة عنه بالكلية، مضيا حتميا، فستصل في النهاية إلى أن تخلق تلك الأنواع كلها بعضها من بعض، كما ذهب إليه بعض دراونة أهل الكتاب، وتابعهم نضال قسوم كما يأتي بيانه في موضعه! فإن مبدأ الانتخاب الطبيعي الذي عليه جرى تأسيس أسطورة التاريخ الطبيعي، يجعل من العشواء الوجودية وانتفاء الغاية في التناسل والتكاثر والانتشار للمخلوقات الحية، أصل الأصول في نشأة كل نوع جديد! فلا يصح في العقل أن يكون وراء تلك العلمية التاريخية فاحشة الطول، المغرقة في العبثية والفوضوية، غايات تفصيلية لدى صانع غيبي يوصف بكمال العلم والإرادة والخلق! لأنه إذن لرتب الأسباب كلها من أجل أن تتحقق غاياته ومراداته التفصيلية من خلق الأنواع الحية في العالم، كل نوع بعينه، من غير أن يكون الأصل في المخلوقات ذاك الهلاك والضياع والعبث المبين، وإذن لما صح أن تكون قصة النشأة على ما زعموه، ولا أن يقال فيها بفكرة "الانتخاب" هذه أصلا، كما بيناه بتوسع وبسطنا عليه الكلام في قسم سابق من هذا الباب! فلا يستقيم لصاحب القول بالنشوء والارتقاء بالانتخاب الطبيعي من ذرية سلف مشترك، إلا أن يبلغ من تعطيل الباري عن صفاته والحط عليه ما بلغه داروين نفسه أو قريبا منه، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولو أنا أسقطنا لوهلة مبدأ تسلسل الأسباب الطبيعية في الماضي عند الدهرية الطبيعيين، ذلك الإسقاط الذي يشعرنا به بعض ما كتبه داروين عن مصدر الكائن الحي الأول في كتابه "في أصل الأنواع" (إذ جعل للحياة سببا أول بدا من كلامه أنه كان يقصد به إله النصارى الذين كان ينتمي إليهم في صباه)، وأبقينا مبدأ السببية الطبيعية المغلقة (أو حتمية لابلاس) عند الطبيعيين، ثم أضفنا إلى أسطورة نشأة الحياة تلك أسطورة نشأة الكون بكليته عند الكونيين، تلك الأسطورة الانفجارية التي نجزم بأن داروين لو كان

حيا في زماننا هذا لما وسعه إلا أن يؤمن بها، للزم أن يصبح الاعتقاد المعتمد عند من يقول بهذا من الدراونة، مع كونه لا يزال يريد أن يثبت صانعا ما بالغيب، أن يجعل مبدأ العالم كله (بما فيه نشأة الحياة) إنما هو "فعل" صدر عن ذلك الصانع، فنشأ عنه حادث الانتفاخ الكوني الأول المزعوم من مادته الأولى، التي إما أن يرجع إلى أصل تسلسل الأسباب الطبيعية فيجعلها غير مخلوقة أصلا، وإنما أثر فيها الصانع من خارجها (وهو ما يجنح به غالبا إلى القول بصانع أرسطو وسبينوزا الذي هو عين المصنوع: Naturalistic Pantheism)، أو أن يخرج منه ويقول بأنها من صنع الصانع كذلك، فإن جعله هو صانعها، فلابد أن يجعله هو من ركب فيها طبائعها وسننها السببية وحدد ثوابتها الفيزيائية، بحيث إذا أحدث فيها ذلك الانفجار المزعوم، جرت الطبائع في التأثير على تلك المادة المتناثرة على نحو يضمن نشوء الحياة على الأرض، في تلك القصة الطويلة التي تنتهي بنشوء الإنسان، ولم يكن من الممكن أن تجري على غيرها بالنظر إلى ثبوت تلك الطبائع واطرادها المطلق في أنحاء الزمان مع انحصار أسباب الحوادث كلها فيها، وهو إذن ما يجنح به إلى القول بصانع داروين الربوبي Deistic Maker!

وبالنظر إلى انغلاق السببية الطبيعية، فإن ذلك الصانع إما ألا يكون له (على المذهب الأول) دور ولا فعل في جريان حوادث العالم، بما في ذلك نشأة الحياة في المادة الميتة، وإنما يكون قد نشأ عنه حادث تسبب في نشأة العالم على النحو الوحيد الذي تقتضيه تلك الطبائع والقوانين التي لم يكن هو من خلقها أو أحدثها، وإما أن يكون غاية دوره وفعله أن حرر الطبائع والسنن كلها بحيث إذا أحدث الانفجار المزعوم على المادة الأولى المزعومة، فلابد أن تنتهي الأسباب الطبيعية بتلك المادة المتناثرة إلى خلق كل شيء كما نراه الآن، بما في ذلك خلق الحياة في المادة الميتة، وخلق الأنواع كلها ومنها الإنسان! وإذن فلا يزيد فعله بعد الحادث الأول، إن قدروا له فعلا، على أن يراقب ويشاهد جريان الآلة المغلقة التي صنعها، لا أكثر ولا أقل! وإلا فلو جوزوا له أن يحدث في العالم بعض الحوادث الجارية على خلاف ما تقتضيه تلك الآلة السببية المغلقة، ومن ثم يسميها الدكتور ومن قلدهم "بالتدخل الإلهي"، للزم أن يؤدي ذلك إلى عواقب وتبعات وتولدات سببية ما كانت لتجري لو لم يقع ذلك التدخل!

وإذن للزم أن يكون الصانع عليما من قبل بأنه "سيتدخل" في يوم كذا بالحادث كذا في المحل كذا، حتى تنتهي الأسباب كلها مع ذلك التدخل إلى خلق العالم والحياة فيه على ما كان يريد من الابتداء، لا على خلافه، وهو ما من شأنه أن يفتح الباب للسببية الغيبية التي تلجئ الطبيعيين لمصادر معرفية أخرى بجانب العلم الطبيعي حتى يثبتوها، وهو ما لا يقبلونه، إذ لو فتحوا له الباب لما أمكنهم أن يستنبطوا شيئا في ذلك الغيب الماضي العظيم (غيب

النشأة) من طريق طرد السنن السببية الطبيعية وصولا إليه، لأنه إذن تصبح احتمالية وقوع حوادث في الماضي (كطوفان نوح مثلا!) تخرم ذلك الاطراد (كما هي نهايتهم في فهمه وتصوره) وتعطله، مكافئة لاحتمال العدم، وإذن لسقط بناء نظرية داروين ونظرية الانفجار على رؤوسهم جملة واحدة، ولكان تنظيرهم في مسألة النشأة كعدمه (في إفادة العلم)! من هنا لزم أن يكون الصانع معطلا عن الفعل بالكلية وعن إحداث الحوادث في العالم (أو "التدخل" بأي وجه كان) من بعد إحداثه الحدث الأول، ما دام الاعتقاد المعتمد هو جريان تاريخ الكون على نحو ما حرره الطبيعيون من تفصيل لأسطورة النشأة الطبيعية!

ولهذا كان ذلك الصانع الربوبي العدمي Deistic Maker هو غاية ما قال به داروين نفسه من باب التزلف للمقربين إليه من النصارى، كزوجته وغيرها، لا أكثر ولا أقل، كما بيناه في غير هذا الموضع! فالتصور الدارويني لقصة التطور، العشواء الوجودية متجذرة فيه ضرورة، ولا متسع فيه على التحقيق لصانع إلا أن يكون هو الذي وضع الطبائع في المادة وحركها الحركة الأولى بعشوائية محضة، ثم تركها لتمضي بتلك الطبائع المركبة فيها وبما يترتب على حركاتها الفوضوية وعن احتكاكها ببعضها البعض من تحولات وتولدات سببية تجري وتتراكم في الكون كيفما اتفق! والعجيب أن الدكتور عمرو يثبت تلك الفوضوية الابتدائية بالفعل في فردية الانفجار المزعوم، فبأي منطق قبلها في الكوزمولوجا ثم أصر ذلك الإصرار الصارم على رفضها في البيولوجيا؟؟

والحاصل أن التطور في نظرية داروين، أيها القارئ الكريم، إنما يقصد به زيادة التعقد الوظيفي والعضوي والمورفولوجي، بناء على آلية لا غاية لها ولا قصد، وإنما تمضي في إضافة الزيادات العشوائية بلا ضابط ولا رابط، فإذا اتفق للمخلوق الذي فيه الزيادة أن تمكن من أسباب التناسل والتكاثر والانتشار، كان إذن نوعا جديدا قد "انتخبته الطبيعة"، أيا ما كانت "الوظائف" التي قدر له أن صارت أعضاؤه الجديدة تقوم بها، وما استجد فيها مما لم يكن في سلفه من وظائف، وإلا هلك وكأنه لم يكن! والأسطورة الداروينية كلها في أصل الأنواع إنما بنيت على ذلك المعنى! فليس هو تطويرا ولا تحسينا ولا شيء من ذلك كما يزعمه التطويريون، وليس في نسبته إلى رب العالمين إلا تعطيل صفاته كالعلم والحكمة والخلق، بل وسبه وشتمه سبحانه وتعالى علوا كبيرا!

فإن قال الدكتور: ولكن التطور عندنا ليس عشوائيا، بدليل أنه انتهى إلى خلق الإنسان الذي هو أرقى الأنواع الحية بإجماع العقلاء، وهو ما يدل على أنه من حكمته وعلمه، أخذ يحدث الطفرة بعد الطفرة على نحو مخصوص حتى يصل الأمر في النهاية إلى ظهور الإنسان! قلنا له: لا حكمة ولا علم ولا وجه أصلا لأن يخلق الباري الأنواع بعضها من بعض بالترقية انتخابا على نحو ما زعمتم،

يترك نسل النوع الواحد هملا ليهلك كله حتى ينقذ بعضه أخيرا "بالتدخل الإلهي" فيصير نوعا مؤهلا للبقاء فينتخب في آخر لحظة! وقد بينا أن معنى العشوائية الوجودية يثبت على الأسطورة الطبيعية في قصة النشأة سواء أثبتوا لها صانعا أول أم لم يثبتوه! فإن قال: ولكن نحن لا نقول بالترك الهمل هذا ولا بأن الأصل في ذرية النوع الواحد الهلاك والعجز عن التكيف والتكاثر حتى يأتي التدخل الإلهي بالطفرة الموجهة، وإنما نرى أن الطفرات لم تزل تأتي بما ينشأ عنه في كل مرة نوع جديد صالح للبقاء، كما كان سلفه صالحا للبقاء من قبل سواء بسواء! قيل له: فما معنى الانتخاب الطبيعي إذن وعلى أي شيء يعمل عندك؟؟ الانتخاب لا يكون إلا بأن يبقى ما جعلته الطفرة صالحا للبقاء، خلافا لما سواه مما تهلكه الطبيعة إهلاكا! فإن كان الجميع لا ينشأ إلا صالحا للتكيف والبقاء من حيث الأصل ومن الابتداء، فلا انتخاب إذن!

وإذن يصبح السؤال: إذا كان الأمر كذلك، فما الداعي لقبول تلك الأسطورة الملحمية الطويلة في أصل الأنواع (أسطورة "التاريخ الطبيعي" كما تسمى)، التي بدأت بالخلية الأحادية الضئيلة ثم تدرجت في الزيادة والتعقد حتى بلغت ما بلغت؟ فإن قال: الداعي هو ما في السجل الحفري وغيره من دلائل على صحة التدرج التاريخي الدارويني لظهور الأنواع على الأرض، قلنا: هذا قلب للآية وعكس للاستدلال! فإن داروين عندما وضع نظريته وبدع بدعته، لم يكن ذلك عنده من أثر تتبعه للسجل الأحفوري لرمم الحيوانات المنقرضة كما هو معلوم! وإنما كان غاية ما لديه مشاهداته للحيوانات الحية في رحلته على متن البيغل، وربطه بين صفات الأنواع التي شاهدها وأحوال البيئات التي تعيش فيها، إلى جانب تلك الطيور التي كان يجري عليها التهجين في حديقة بيته! فالقوم لما قبلوا منه نظريته أولا، أخذوا بعد ذلك – لا قبله - (أي بعدما صارت فكرة الأصل المشترك نظرية علمية على يد داروين) في التماس التأويل الدارويني للحفريات التي سبق اكتشافها لأنواع منقرضة ، وفي استخراج المزيد مما يجري على التأويل الدارويني، وما كان ليعجزهم ذلك، بالنظر إلى مشكلة التكافؤ في الاستدلال بالمشاهدات Underdetermination by Observation على صحة الفرضيات الغيبية المحضة، التي بسطنا الكلام عليها في الباب الثاني من هذا الكتاب!

والعجيب أن الدكتور نفسه يقول في الصفحة التالية (ص. 178): "وقد توصل دارون إلى نظريته رغم من قلة الأدلة العلمية المتاحة وقتها." اهـ. قلت: صحيح، وما ذلك إلا لأنه بدأ بالهجوم على ذلك الأمر الغيبي المحض بوضع الفروض التفسيرية الخيالية والأقيسة الوهمية، ثم جاء من بعده بجمع المشاهدات التي تأولوها على ما يوافق تلك الفروض والخيالات والأقيسة، فصارت عندهم بذلك "أدلة" على صحة تلك الفروض نفسها، وصارت نظرية تبلغ منزلة الحقيقة العلمية!

فإذا كان الأساس الفلسفي الذي أقام عليه القوم نظريتهم، ومن ثم مفهومهم للتطور نفسه، ومعه كافة الآليات الطبيعية التي زعموا أن الأنواع الحية كلها قد نشأت بها، لا نهوض للعقل السوي به ابتداء، فأي داع يبقى إذن للتسليم بصحة أسطورة التاريخ الطبيعي المزعوم عند أي عاقل يحترم عقله، فضلا عن الزعم بأن ما جمعه الدراونة لأنفسهم عبر قرن ونصف من الزمان منذ أن نشر داروين كتابه الملعون، يصح أن يعد من جنس "الأدلة العلمية" في بنائها وتشييدها؟؟ هذه هي المسألة التي لا يريد الدكتور وأتباعه أن يعقلوها! يا دكتور إذا سقطت فلسفة الطفرة العشوائية وسقطت فلسفة الانتخاب الطبيعي وسقط معنى "التطور" ومفهومه في خلق الأنواع، وسقط الأساس المعرفي والمسلمات الميتافزيقية الكلية التي جمع داروين الأنواع كلها تحت أصل واحد أو بضعة أصول بالبناء عليها (كمسلمة الاستمرارية المطلقة والاطراد المطلق ومسلمة السببية الطبيعية المغلقة وغيرهما)، فأي سبب يبقى إذن لقبول أسطورة التاريخ الطبيعي عند العاقل الحر الذي لا يرضى لنفسه بالتبعية والتقليد الأعمى؟ سواء جاء النص عند المسلمين بشيء في هذه القضية أم لم يأت، فالواجب تطهير العقل من تلك الخرافة العظيمة، لفساد الطريقة المنهجية التي أدت بأصحابها إليها، لا أن يأتي من ينتسب إلى الإسلام ليحمل الإسلام حملا ويتقرمط على النصوص الشرعية حتى يستنطقها بمصداق تلك الأسطورة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ومرة أخرى نقول، إن التحول من نوع إلى نوع ليس داخلا في معنى التطوير للنوع الأول نفسه، وأن مطلق الزيادة في صفات أو عناصر أو أجزاء النوع الواحد الظاهرة لنا منه، ليست معيارا صحيحا للحكم بتطوره! وإنما عدها الدراونة كذلك لأن داروين أراد أن يخترع أسطورة طبيعية في تفسير تلك المعالم الدالة على خضوع الأنواع الحية لخلق بالغ الدقة والإتقان من خالق عليم حكيم، فلم يجد إلا أن يعتنق فكرة الأصل المشترك (التي كانت من قبل قد ظهرت في القرن الثامن عشر الميلادي)، ويجعل منشأ الأمر كله تدرجا بالطفرات والزيادات الضيئلة المتوافرة، خطوة بعد خطوة، في عملية عشوائية بدأت من أحط البدايات ثم تفرع منها كل شيء عبر بلايين السنين، كل ذلك رجاء أن يصل إلى تهميش دور الباري جل شأنه وتنحيته بالكلية عن أظهر ما يضرب به العقلاء المثل على طلاقة قدرته سبحانه في الخلق والتصوير! فلولا هذا المطلب الدهري الخبيث عنده وعند من سبقوه إلى فكرة الأصل المشترك تلك، ما فرض داروين فكرة "التطور" على ذلك المعيار الواهي وبذلك الترتيب الوهمي الذي لا يصح في العقل أن ينسب إلى صانع حكيم ذي علم، فضلا عن أن ينسب إلى رب العالمين جل شأنه!

والعجيب أن الدكتور يعترف في حاشية في نفس الصفحة بأن "التطور" ليس حقيقة ثابتة بأدلة علمية مباشرة، بل إنه غير خاضع للملاحظة على الإطلاق،

فيقول: "يعتبر الكثيرون أن مفهوم التطور من الأهمية لعلم البيولوجيا كمفهوم كروة الأرض ودورانها حول الشمس بالنسبة لعلم الفلك. ولنا تحفظ كبير على هذا الوصف، فدوران الأرض حول الشمس حقيقة ثابتة بالأدلة العلمية المباشرة، ولا ينبغي تسويته بمفهوم غير خاضع للملاحظة على الإطلاق، كقولنا إن الطيور والثدييات نشأت من الزواحف، إن التسوية بين المفهومين طرح غير علمي بالمرة، يقف وراءه موقف أيديولوجي رافض للتفسيرات الأخرى." اهـ. قلت: لا أدري كيف توهم الدكتور أن مستند الطبيعيين في الجزم بكون الأرض كوكبا سيارا يدور حول الشمس، وكون الشمس والكواكب من حولها نجما من جملة النجوم تسبح فيما يسمى بالمجرة، يبلغ أن يكون مشاهدة صريحة لا تأويل فيها، أو ما يبدو أنه يقصده بقوله "الأدلة العلمية المباشرة"، في مقابل ما "لا يخضع للملاحظة على الإطلاق" من أنواع الدعاوى المنسوبة إلى العلم الطبيعي! يبدو أنه يظن كما يظنه كثير من الناس، أن رؤية الأرض وهي تدور في كاميرات الأقمار الصناعية ومن فوق القمر وغير ذلك، أصبح يقوم مقام المشاهدة المباشرة الصريحة التي لا تدع مجالا للشك في هذه المسألة، ولا ينتبه إلى أن هذا بالضبط هو ما نتوقع أن نراه بأعيننا كذلك إن صح أن كانت الأرض ثابتة في مركز الكون كما نزعمه نحن، وكانت سائر الأجرام والنجوم كلها، هي التي تدور وتتحرك، بالخلاء الذي يتخللها معها، بالنسبة إلى حدود الكون! بل هو بالضبط ما نتوقع أن نراه لو قدرنا أن كان القمر الصناعي هو الثابت في مركز الكون، وكانت جميع الأجرام تدور من حوله!

قد بسطنا الكلام على هذه المسألة في غيرما موضع من هذا الكتاب فلا داعي للإطالة بالتكرار، ولكن القصد بيان سطحية التناول العقلي والفلسفي الذي يدخل به الأكثرون من بني جلدتنا، حتى من المتخصصين الأكاديميين، إلى قضية تقدير القيمة أو القوة المعرفية (إفادة العلم) في مختلف فئات الدعاوى عند التجربيين وأصحاب الطبائعيات على اختلاف مجالاتهم البحثية! فهو يريد أن يخبرنا بأن زعم بعض "أصحاب الأيديولوجيات" بلوغ مسألة التطور الغاية في قوة الثبوت المعرفي (أن تعتبر حقيقة منصرمة لا شك فيها ولا يرد عليها المعارض) هو زعم ساقط متهافت، وصدق في ذلك ولا شك (وإن كان ناقض ذلك القول في مواضع أخرى من كتبه)، ولكنه لما أراد أن يضرب المثل لذلك المستوى الأعلى في الثبوت المعرفي عند الأكاديميين الطبيعيين، الذي زعموا ثبوته لمسألة التطور، جاء بمسألة هي كذلك من أدق مواطن الغلط عندهم في زماننا، ومن أخفى صور التلبس بمغالطة تنزيل ما في الأذهان على ما في الأعيان عند الفلكيين، لا لشيء إلا لأنه لا يعرف أحدا يخالف فيها، لا من الطبيعيين الدهرية ولا من أهل الملل الأخرى من المشتغلين بالفلك والعلوم التجريبية!

على أي حال، فالذي يعنينا هاهنا أن ننتزع منه الاعتراف بأن "مفهوم التطور" ليس حقيقة علمية منصرمة، وإنما يجعلها كذلك من يعانون من التعصب الأيديولوجي! ومع ذلك يقرر الدكتور قبولها لا لشيء إلا لأنها هي الموقف الأكاديمي السائد حاليا! فيقول تحت عنوان "نقبل التطور ونرفض الداروينية" (ص. 179): يعتبر الاتحاد الأمريكي لتقدم العلوم AAAS أكبر تجمع علمي في العالم، وفي التاسع عشر من فبراير عام 2006 أصدر الاتحاد بيانا جاء فيه: "لا يوجد في الأوساط العلمية خلاف ذو بال حول قبول مبدأ تطور الكائنات الحية، بل إن التطور يعتبر الآن أقوى وأكثر المبادئ قبولا في علم البيولوجيا". وبيان الاتحاد الأمريكي يتحدث عن "مبدأ أو مفهوم التطور"، أما عندما يطلق اصطلاح "الداروينية أو نظرية التطور"، فهو يشير إلى منظومة من ثلاثة عناصر: أولا: الأصل المشترك أو السلف المشترك Common Ancestor،... ثانيا: الطفرات العشوائية Random Mutations، ... ثالثا: الانتخاب الطبيعي Natural Selection،.." اهـ.

قلت: لا شك أن الفصل بين "التطور" و"الداروينية" على ذلك النحو الذي تكلفه الدكتور، هو فصل واه لا حقيقة له إلا في عقله هو وأتباعه! فقد بينا أن معنى التطور الذي يدعو إليه ويروج له في كل محفل (أو التطوير Development)، لا علاقة له البتة بمعنى التطور Evolution الذي قامت عليه النظرية بجميع آلياتها وأسطورتها التاريخية الطويلة، وأنه يلزمه الانخلاع بالكلية من خرافة الانتخاب الطبيعي وخرافة السلف المشترك إن أراد السلامة من أصل العشواء الوجودية واللاغائية! فإن فعل فلن يبقى له – إذن – ما يربطه بما عليه أكاديميات الطبيعيين في تلك البابة أصلا، بل سيلزمه أن يصطنع لنفسه نظريته الخاصة في التاريخ الطبيعي وفي أصل الأنواع، يجعلها على أيما نحو يشاء! فلا يصح مسلك الدكتور في الفصل بين دعوى تطور جميع الأنواع من أصل مشترك، وبين الآليتين المزعومتين لتلك الشجرة الخرافية العملاقة المسماة بالتاريخ الطبيعي، بحيث يقبل الدعوى الغيبية نفسها ويرد آلياتها عند أصحابها! فنظرية داروين هي الانتخاب الطبيعي بالأساس، والداروينية هي الاعتقاد بتطور الأنواع بعضها من بعض بالانتخاب الطبيعي للطفرات، فبدون تلك الآليات، على التصور الطبيعي المحض الذي وضعت عليه، فليس يبقى للطبيعيين أي داع للقول "بمفهوم التطور عن أصل مشترك" البتة، وإذن لا يبقى لدى الدكتور أي أساس "علمي" لذلك الاعتقاد كما أوهم نفسه (على تعريف الطبيعيين للعلم وما يحصل به العلم في تلك القضية الغيبية)!

فإن قال: كلا، بل بقي لدي القول بجريان الانتخاب الطبيعي على الطفرات الإلهية الموجهة تبعا لغايات الصانع ومقاصده من خلق الأنواع الحية، وهو المفهوم الصحيح للتطور كما ندعو إليه، قلنا له: ليس ذلك التفسير الفائق

للطبيعة Supernatural Explanation مما يقبله أصحاب الأكاديميات البيولوجية، كما تعلم ذلك تمام العلم، بل وليس يتحصل منه القول "بآلية" Mechanism أصلا، جريا على قياسهم الميكانيكي لنشأة الأنواع الحية على الأرض، بتولد بعضها من بعض، ولا يكون "للانتخاب الطبيعي" معه أي معنى كما بيناه فيما مر معك! فهم ما وضعوا فكرة الانتخاب الطبيعي هذه أصلا إلا بالتأسيس على عشوائية الطفرة، ذلك الحادث الفوضوي الذي يتفق به ظهور صفات وراثية جديدة في ذرية النوع الواحد من آن لآخر، بحيث إذا هلك من تلك الذرية ما هلك (بطفراتها وتغيراتها الوراثية) من غير أن ينشأ منها نوع جديد، وقع أخيرا في تلك الذرية عدد من الطفرات التي تتراكم تدريجيا (سواء بالتدرج المطرد البطيء عبر ملايين السنين، أو بالتدرج السريع في آلاف السنين كما في نظرية Puncutated Equilibrium لغولد وإلدريدج)، حتى ينشأ منه نوع جديد صالح لأن "ينتخب للبقاء" فتتكاثر أفراده وينتشر ويبقى! فالذي يجعل من تلك الطفرات المزعومة "تدخلا إلهيا"، فلا معنى لأن يجعل الأصل فيها أنها تأتي بالفوضوية والعبثية، إذ الأصل في الصانع المراد إثباته أنه يدري ما يفعل وما يريد! وإذن فلا معنى للقول بتدرج الطفرات النافعة، التي "تنتخب" كلها تباعا وصولا لخلق النوع الجديد، لا بالتدرج البطيء ولا السريع، ولا معنى للقول بالانتخاب أصلا، لا كآلية مطردة، ولا حتى كحالة استثنائية!

فإذا كان النوع الجديد لا يصير نوعا في اعتقادكم إلا بالخلق الإلهي المرتب على غايات ومقاصد معينة، فلا يخلق الإله كل نوع من ذرية سلفه إلا إذا حدث في علمه ما يقتضي خلقه كنوع مستقل [90]، فأي شيء يعجزه عن أن يخلقه كاملا من أول مرة في رحم سلفه المزعوم، في طفرة واحدة عملاقة، بمجرد ظهور الداعي لذلك، بحيث لا يتخلف تمام الفعل عن حصول المشيئة الموجبة له (بالنظر إلى كمال قدرة الباري)، فيخلق النوع الجديد في زوجين معا يتناسلان وتوفر لهما ظروف الانتشار والاستقرار حتى يحصل منهما نوع جديد؟ هذا أدنى ما يتصوره من يثبت صانعا عليما حكيما قادرا ينشئ نوعا جديدا من ذرية نوع آخر متقدم عليه، أليس كذلك؟! وإذن فليس ثمة ما "تنتخب" منه الطبيعة ما يصلح للبقاء، لأن النوع الجديد إنما يخلق من أول يوم كزوج كامل الخلقة صالح للبقاء والتكاثر والانتشار! وإذن فليس ثمة ما يدعو للقول بأصل واحد لجميع الأنواع Common Ancestry ولا لآلية تطورية على أي وجه من الوجوه! فالذي يقدر على أن ينشئ الزاحف البرمائي من ذرية الحوت، قادر كذلك على أن ينشئ كلا من الحوت والبرمائي من ذرية نوع من أنواع الثدييات أو حتى الطيور!

فإن قال: ولكن قد دلتنا المكتشفات الأحفورية والمستحاثات على تدرج عائلات الأنواع في طبقات الأرض، بحيث كان "الأبسط" منها هو الأقدم

والأعقد هو الأحداث، قلنا له: قد تقدم الإشارة إلى أن انتقاء ما يصلح لأن يكون اكتشافا حفريا قابلا للاعتماد والنشر، إنما يجري عند أصحابه على أصل الاعتقاد الدارويني في مفهوم التطور وما يتطلبه من آماد زمانية طويلة (بناء على فلسفة الطبيعيين في زيادة الاحتمالية بتطاول الزمان)، فإن قُدر أن وقع لبعضهم استخراج رمة أرنب أو جرس من النحاس أو ملعقة خشبية مثلا في طبقة البريكامبريان، فلن يعدوها إلا حفرية شاذة Anomalous Fossil / Out of Place، إنما ظهرت في غير محلها بسبب تزوير متعمد أو "تلوث" (غلط في إجراءات استخراج الحفرية) Contamination أو غير ذلك من تفسيرات تحفظ البناء الكلي للنظرية كما هو! أي أنهم مهما وقع لهم من مشاهدات تخالف الترتيب الذي زعموه، فلن يعدموا لها تفسيرا فوريا Ad-Hoc يحفظ لهم نظريتهم! بل ولن تجد وسائل تقدير الأعمار الحفرية عندهم Dating Methods إلا جارية في فرضيات نظرياتها على التوفيق مع نظرية داروين كذلك ومع نظريات الجيولوجيين في تاريخ الأرض، بناء على جملة مسلمات الطبيعيين الدهرية وتصورهم الميتافزيقي الكلي (كمسألة السببية المغلقة والاستمرارية المطلقة وغير ذلك)، كما بسطنا الكلام على تلك المسألة في محله! فإذا كان أمر المشاهدات عندهم كله محض كهانة، وبلغ الأمر بهم في الوهم والخيال أن يؤول ضرس مكسور (كما في خرافة "إنسان نبراسكا"! [91]) على أنه من بقايا مخلوق وسيط بين القرد والإنسان، كان طوله كذا وحجم جمجمته كذا وكذا، بل وهيئته وصورة وجهه ومشيته ومطعمه ومشربه على نحو كذا وكذا، فمن زعم من الدراونة أنه من الوارد أن تظهر لهم مشاهدة في يوم من الأيام تثنيهم عن القول بالأصل المشترك وتحولهم عنه، فهو كذاب مستخف بعقول مخالفيه، أو جاهل لا يدري عن أي شيء يتكلم!

ليس في الاستدلال بشيء مما يقال له "السجل الحفري" على صحة قصة التاريخ الطبيعي في نفسها إلا محض الدور كما بسطنا الكلام عليه في غير موضع، وليأتوا من ذلك بما يحلو لهم، فلا عبرة به عندنا! ولولا أن كانت نظرية النشوء والارتقاء هي البارادايم المعتمد في جملة عظيمة من العلوم الطبيعية المعاصرة، وكانت لها تلك المنزلة الدينية العليا عند عامة الطبيعيين المعاصرين، لرأيت فلاسفة العلم المعاصرين يتفقون على إنزالها منزلة التنجيم والسيمياء والفونغ شوي وغيرها من العلوم الزائفة، والله المستعان!

والحاصل أننا نقول: إذا كان دين المسلمين لا يتسع لذلك الزعم الجهمي الاختزالي بأن الله إنما يخلق الأنواع الجديدة "بالتطوير والتحسين" على أنواع سابقة، ودين الطبيعيين كذلك (أصولهم المنهجية في مسألة النشأة وفي المعارف الغيبية عموما) لا متسع له فيه، فلست على شيء إذن يا دكتور بتلك النحلة التلفيقية التي جئت بها، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فافهم هذا، وكفاك تمحكا في فلسفة القوم وتنقصا من ربك وتشبيها لأفعاله كما شبهوا، يرحمك

الله! دع عنك الافتتان والاغترار بتلك "الأدلة"، فإن غايتها أن تكون شبهات وأوهاما، لا تسمن ولا تغني من جوع!

ولأجل أن ينتصر الدكتور لدعوى عدم التلازم بين القول بما سماه "بمفهوم التطور من أصل مشترك" وبين العشوائية الداروينية، رأى الدكتور أن يحاول إقناع قرائه بأن داروين نفسه لم يكن ملحدا! بل كان التطوير الإلهي هو مذهبه، أو قريبا من أن يكون مذهبه! فقال (ص. 180):

> لا تعني المفاهيم الدارونية أن دارون كان ملحدا كما يدعي الكثيرون، انظر إلى قوله: "لا أرى مبررا لأن يهز مفهوم التطور عقيدة المتدينين"، كما ننقل عنه ما ذكره في سيرته الذاتية، عسى أن تبرئ هذه الكلمات ساحته وتكون حجة على الملاحدة: "من الصعب جدا، بل من المستحيل، أن نتصور أن كونا هائلا ككوننا، وبه مخلوق يتمتع بقدراتنا الإنسانية الهائلة، قد نشأ في البداية بمحض الصدفة العمياء، أو لأن الحاجة أم الاختراع. وعندما أبحث حولي عن السبب الأول وراء هذا الوجود أجدني مدفوعا إلى القول بعقل ذكي. ومن ثم فإني أؤمن بوجود الإله.

قلت: سبحان الله! أي متدينين هؤلاء الذين لا يهز دينهم "مفهوم التطور" الذي جاء به داروين؟! إن كان المقصود بالمتدينين هو من يثبتون صانعا ما، ولا يعنيهم أي صفة تثبت له أو تنتفي عنه، فليس هذا هو وصف المتدينين إلا على دين داروين نفسه، ذلك الدين الربوبي المحض Deistic Doctrine الذي هو صورة من صور الإلحاد الطبيعي الفلسفي، وإن رغمت أنف الدكتور عمرو! وأما المتدينون من أتباع الرسل، فليس دينهم إثباتا مجردا للصانع! هذا تدين الفلاسفة يا دكتور! نحن المسلمين نثبت الصانع إثباتا فطريا لا فلسفيا، ولا نكون مسلمين بمجرد ذلك، كما يعلمه أصغر صبي من صبية المسلمين! بل لا يمتاز الإسلام عند المنتسبين إليه عن غيره من الملل حتى يثبت المسلم ما أثبت الله لنفسه من الصفات وأثبته له رسوله، وينفي ما نفاه عن نفسه ونفاه عنه رسوله، ويصبح تبعا للرسول عليه السلام في العلميات والعمليات جميعا، فلا يشتبه عليه معبوده بالصانع الذي يثبته داروين أو الذي يثبته أينشتاين أو غيرهم من "المتدينين" الذين زعم داروين أن خرفه وهذيانه في تلك الغيبيات المحضة لا يضرهم ولا يهز دينهم!! والعجيب أنك أنت نفسك يا دكتور لا تقبل دين داروين، بدليل حرصك على رفع اسم "العشوائية" عن الطفرات التي أثبتها في نظريته، حتى تصبح "تدخلا إلهيا"! فلماذا سلكت ذلك المسلك الترقيعي الذميم (قلب "التطور" تطويرا)؟ لأن فطرتك (أو ما بقي منها حيا على الأقل) أبت عليك أن يكون ربك الذي تسجد له في كل صلاة، وتقرأ كلامه بين دفتي المصحف، موصوفا بأنه لا يدري ما يفعل ولا غاية لديه مما يخلق، وإنما تنتخب له الطبيعة اتفاقا ما يبقى من خلقه وما يفنى! فكيف

يكون مفهوم التطور عند داروين غير مؤثر في عقيدتك أنت؟ ومن أي شيء تريد الآن أن تبرئ ساحة داروين يا هداك الله، وأنت تصرح بمخالفته في أصل دينه؟ وما وجه كون تلك التبرئة حجة على الملاحدة؟؟ حجة عليهم من أجل إلزامهم بأن يثبتوا أي إله يا دكتور؟؟ إله داروين؟؟ أهذا هو الإله الذي تعبده أنت وتدعو الملاحدة لعبادته؟؟

نسأل الله السلامة! نسأل الله السلامة! نسأل الله السلامة!

ثم إنك لو تتبعت كلام داروين عن الإله في مفكراته ومراسلاته وكتبه، فلن تجده صاحب موقف واحد من رب العالمين، فتارة تجده يميل لإثبات صانع ما، وتارة تجده يتكلم بما حاصله أن الأسباب الطبيعية (سواء التي أثبتها هو في نظريته أو التي يرجو من غيره أن يواصلوا إثباتها فيما وراء نشأة الحياة) تغني عنه ولا تترك له دورا البتة! ومعلوم أنه كان نصرانيا متدينا في أول حياته، ثم انتهى إلى القول باللاأدرية! والسبب في ذلك كما بيناه في غير هذا الموضع، جبن الرجل وخوفه من التصريح بالدهرية الطبيعية المحضة التي كان يعلم أن نظريته تقوم عليها، لأسباب اجتماعية لا يعنينا البحث فيها! فهل صرنا نحتاج الآن إلى أن نأتي بالنقولات من كلام داروين حتى نقنع الدكتور بأن الرجل مات ملحدا هالكا؟؟ وهل يبرأ الإنسان من اسم الإلحاد، إن اكتفى بإثبات خالق ربوبي Deistic Creator كالذي كان يقول به داروين حين كتب هذا الكلام؟؟

على أي حال، فالظاهر أن الدكتور لم يقرأ بنفسه كتاب السيرة الذاتية لتشارلز داروين الذي نقل منه هذه الفقرة، ولعله وقف عليها منقولة عند بعض النصارى التطوريين الذين تابعهم في الدفاع عن "إيمان داروين"! ذلك أنه لو أكمل القراءة في نفس الصفحة، لوجد داروين يقول في الفقرة التالية مباشرة: "هذه النتيجة (يعني ضرورة وجود صانع للعالم وللحياة فيه) كانت قوية في ذهني حول ذلك الوقت الذي كتبت فيه "في أصل الأنواع"، في حدود ما أتذكر، وقد أخذت، رويدا رويدا وبكثير من التقلبات، في التضاؤل عندي. وحينئذ ظهر الشك. هل يمكن حقا أن يوثق في عقل الإنسان عندما يصل إلى تلك النتيجة العظيمة (إثبات صانع ما)، مع كونه، كما أعتقد اعتقادا راسخا، قد تطور (طبيعيا) من عقل بالغ في الضعة مبلغ ذلك العقل الذي تملكه أحط أنواع الحيوانات؟" اهـ. [92]

قلت: فإذا كان الرجل قد كتب يقول ويصرح بنفسه بأن هذا كان اعتقاده فيما مضى، وأنه أخذت الشكوك تتجاذبه بعدُ حتى صار لا يثق في حكم عقله بصحة ذلك الاعتقاد بسبب ما أثبته له من التطور عن أصل منحط، فأي شيء يكون نقل الفقرة الأولى من كلامه بمعزل عن الفقرة التي تليها مباشرة في نفس الصفحة، إلا تدليسا ممن سلك هذا المسلك في النقل، سواء كان هو الدكتور

نفسه، أو كان من نقل عنه الدكتور ذلك الاقتباس المبتور؟؟ يا دكتور، لقد صرح داروين في تلك الصفحة نفسها بما يهدم به نظريته نفسها لو تأملت! فقد صرح بأن قناعته الراسخة بارتقاء العقل البشري من عقل حيواني منحط، قد تركته فاقدا للثقة بأحكام عقله نفسها وبمطابقتها الواقع في تلك القضية العظيمة، ولهذا لم يعد يرى الإيمان بالغيب وما فيه عند البشر إلا إرثا من عصور قديمة كانوا فيها "أطفالا" من حيث تطور عقولهم وقدرتها على الاستعراف واستكشاف أمر العالم، فكانوا في ابتداء تطور عقولهم يتخوفون مما لا يعقلونه، ثم لما نضجت عقولهم انكشف لهم أن اعتقادهم بالغيب لا داعي له أصلا!

هذا، يا دكتور، هو الإيمان الذي هلك عليه داروين، وهو مثبت في نفس الصفحة التي فرحت بمجرد ظهور كلمة Theist في موضع منها! فخبرني بربك، أي أساس يبقى عند العاقل للثقة في صحة نظرية إن وثقت في صحتها، فقدت الثقة في مصداقية عقلك نفسه، إذ حينئذ لا يبقى لك مستند تحكم به بما إذا كان قد ترقى بالفعل وتطور بما يكفي ليرى الواقع على ما هو عليه حقا، ويدرك أصل العالم وأجوبة الأسئلة الوجودية الكبرى كما هي على الحقيقة (على أي درجة من درجات الظن، دع عنك ذلك اليقين الجازم المنصرم الذي لا يكون المرؤ منتميا إلى دين المسلمين إلا به)، أم لما يبلغ تلك الدرجة بعد؟! هذه المسألة تنبه إليها "ريتشارد دوكينز"، فأخذ يدندن في كتبه حول ما سماه برفع الوعي، وبأننا قد ترقينا أخيرا حتى وصلنا – على الأقل – إلى مرحلة البلوغ العقلي الذي به نتحرر من إرث الدين، وما زلنا نرجو بلوغ المزيد من التطور العقلي حتى ينكشف لنا ما هنالك تمام الانكشاف [93]! وتنبه إليها كذلك "ألفين بلانتينغا" فاخترع حجته التي مر معك نقدها، ضد جمع الطبيعيين بين الدين الطبيعي والقول بالتطور! فكان يريد كما أراده الدكتور، أن يثبت أن نظرية داروين لا تصح إلا في إطار الاعتقاد بوجود الصانع، لأنه إذن يكون هو الضامن الوحيد لسلامة قدراتنا الذهنية وقواعدنا المنطقية البدهية ومسلمات اللغة الطبيعية، حتى على الرغم من كوننا قد ترقينا من أصل منحط! وقد مر معك بيان تهافت هذا البرهان، وبيان أن الذي يثبت تطور العقل البشري من أصل منحط، هذا لا يصح له أن يثق في صحة أي اعتقاد عنده أيا ما كان، حتى اعتقاده بأن إثبات الصانع هو الضامن لصحة أحكام العقل، واعقتاده بأن العقل البشري قد تطور من أصل منحط! فالزعم بارتقاء النوع البشري (بما في ذلك العقل البشري)، يهدم النظرية نفسها على أصحابها ضرورة وبداهة! ولهذا يتمسك أكثر أهل الكتاب بأن العقل البشري لم ينشأ تطوريا، خلافا للجسد البشري، وإنما نفخ الباري الروح (بالتدخل الإلهي) في فرد من أفراد القردة العليا نفخة خاصة وركبها فيه تركيبا خاصا، صيره أرقى عقلا من نوع القردة الذي ترقى منه! وإذن صار هذا هذا هو "آدم" الذي تثبته كتبهم! وقد أطلنا النفس في نقض هذه الدعوى الكفرية

فيما مر معك من أجزاء هذا الباب فلا نعيد! وحسبنا هاهنا أن نشير إلى أن صاحب ذلك الاعتقاد متناقض منهجيا تناقضا عظيما، إذ يتعلق بإثبات مصدر غيبي لأصول المخلوقات (وجوديا) ولتلقي المعرفة بتلك الأصول، ويجمع إليه في نفس الوقت نظرية تقوم على فلسفة تبطل ذلك المصدر نفسه وجوديا ولا تترك لأي دعاوى منسوبة إلى وحيه أي متسع (معرفيا)!

فلا مخرج من تلك الأزمة العقلية المدمرة التي اعترف بها داروين نفسه، إلا بترك النظرية بكليتها، والبراءة من تلك المسلمات الدهرية الوجودية والمعرفية (المنهجية) التي أدت بأصحابها إلى القول بها ابتداء، وقطع الطمع بالكلية في الوصول إلى معرفة شيء مما في ذلك الغيب المطلق باستعمال أدوات النظر الطبيعي والتجريبي، والوقوف في ذلك على ما جاء به السمع الصحيح وترك ما سواه! إما هذا المنهج الحازم الصارم، وإما الغرق في التناقض المنهجي المبين، والتلبس بالقرمطة على السمعيات والزندقة في أصول الدين، وتأسيس عقيدة المسلمين على دين الطبيعيين، وهدم قواعد العقل نفسه، حتى تكون نهاية أحدهم كنهاية داروين في ال برب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولا نغادر هذا المقام حتى ننبه على الإجمال اللفظي العريض في لفظة Theist، التي أطلقها داروين على نفسه! فلا شك أنه لم يكن يقصد بها من يثبت "إلها" أي كائنا غيبيا معبودا، فهو لم يكن يعبد شيئا على الإطلاق، بشهادته هو نفسه! فلا يصح أن يوصف داروين إلا بأنه مات ملحدا، سواء على الاستعمال المصطلح عليه في بلادنا للفظة "ملحد"، أو على المعنى الشائع للفظة Atheist عند الغربيين، مهما نسب هو نفسه للتأليه Theism! فأما أنه ملحد، فلأنه انحرف بدينه حتى انخلع من ملته النصرانية بالكلية، ومات كافرا بكافة الملل التي يُعبد فيها إله ما بالغيب، بعدما أسس لنفسه أساس الشك في وجود الباري وترجح لديه الظن بأنه لا يعدو أن يكون إرثا قديما من "طفولة النوع البشري"، أي من أسلاف كانت عقولهم بالنسبة إلى عقولنا كعقول الأطفال السفهاء، يجعل من ذلك الأساس "علما طبيعيا" Natural Science كما سبقه غيره من أئمة التنظير الطبيعي في الأكاديمية الغربية إلى تأسيس عقائد الملة الطبيعية تأسيسا أكاديميا! وأما أنه Atheist، فاللفظة إن كان المقصود بها المعنى اللغوي، فهو باللاتينية (من لا يتأله Non-Theist) أو من لا يتخذ لنفسه إلها يعبده! ولا شك أنه ما من وصف أليق من هذا بالملة التي هلك عليها داروين، فهو لم يكن يعبد شيئا على الإطلاق، ولا يدعو إلها بالغيب البتة، وهذا هو معنى التأله أو اتخاذ الإله! أما إن كان المقصود بها من لا يثبت صانعا بالغيب، فهو مات وهو متشكك حتى في إثبات الصانع من حيث المبدأ، والمتشكك أو اللاأدري ملحد كذلك! فهو ملحد على جميع التقديرات!

ونقول إنك إن لم تثبت بالغيب إلها تعبده وتلجأ إليه بالدعاء، فلست "متألها" (وهو المعنى المنتشر للفظة Theist) مهما زعمت أنك تثبت صانعا بالغيب، ومهما وصفته بكمالات الصفات! [94] ولهذا كان عامة الفلاسفة ملحدين Atheists وإن أثبتوا صانعا! وهذه مسألة مهمة ينبغي الانتباه إليها في هذا المقام! فعلى الرغم من أن "أنتوني فلو" – مثلا – انتهى به المطاف قبل موته إلى إثبات "صانع" Creator، ونسب إلى ذلك الصانع كثيرا من صفات الكمال التي ينسبها إليه أهل الملل الكتابية، إلا أنه لا يصح أن يقال إنه مات متألها Theist مثبتا لإله God، لأنه هلك وهو من ألد الناس عداء لمجرد فكرة أن يكون ذلك الصانع سميعا بصيرا مجيبا للدعاء، ألها لأن يعبد! فالرجل عاش ملحدا ومات – على التحقيق – ملحدا كذلك، وإنما تحول مع إلحاده من نفي الصانع إلى إثباته! وقد يقال في هذا المقام إن الغربيين – لا سيما الفلاسفة منهم - أكثرهم يطلقون لفظة Theist وهم يريدون معنى من يثبت الصانع بإطلاق، وليس فقط من يتألهه أو يجعله كائنا مستحقا للعبادة (ترجى رحمته ويخشى عقابه ويطاع في أمره ونهيه ويتوجه إليه بالدعاء.. إلخ)! فنقول: هذا الكلام فيه نظر. والدليل أنهم ضربوا مصطلحا خاصا للذي يثبت صانعا ولا يراه شخصا يستحق أن يعبد أو يتخذ إلها، فسموهم Deists، نسبة إلى Deus اللاتينية! وهي لفظة تطلق ويراد بها القوة الغيبية العظمى (سواء تألهها من يثبتها أم يتألهها)، خلافا للفظة Theos اليونانية التي يراد بها الإله أو المعبود God! وحتى إن لم يكن ذلك التفريق صحيحا لغة، فهم في الاصطلاح يفرقون بين Deism التي هي إثبات صانع دون إثباته معبدوا مألوها أو قابلا للتأليه أصلا، وبين Theism التي هي إثباته إلها فاعلا ذا إرادة! فإذا كان الملحد عندنا معاشر المسلمين هو من لا يقصد إلها ما بالعبادة، كان الربوبي Deist عندنا ملحدا، وكذلك المتوقف Agnostic (الذي يزعم كذبا أنه لا يدري ويسمي نفسه "اللأدري")، وكذلك اللاديني Irreligious أو NonReligious (الذي يزعم كذبا وجهلا أنه لا دين له)، وعدو الإله Antitheist وعدو الدين Antireligious وغير ذلك من أسماء اخترعوها لأنفسهم لا طائل تحتها في النهاية إلا جحد صانعهم وباريهم حقه في أن يعبدوه وحده لا شريك له! بل حتى من سمى نفسه Theist وهو في الحقيقة لا يعبد ربه ولا يدين له بشيء، فهذا عندنا ملحد! وإذن فداروين مات ملحدا و"أنتوني فلو" كذلك مات ملحدا، وإن رغمت أنف الدكتور عمرو، هذا هو اسمه عندنا سواء لحقت به لفظة Atheist الانكليزية أو Theist أو غير ذلك من ألفاظهم، فتنبه لهذا فإنه مهم!

إثباته آلية التوليد العشوائي Random Generation Mechanism في رده على دوكينز!

في كتابه "كيف بدأ الخلق"، وتحت باب "الداروينية الحديثة وصانع الساعات الأعمى"، يشن الدكتور حربه ضد الداروينية الحديثة المتمثلة عنده في ريتشارد دوكينز، على أساس أن داروين كان "مؤمنا"، وداروينيته التي كانت هي السائدة في القرن التاسع عشر الميلادي لم تكن "ملحدة"، خلافا لداروينية دوكينز المعاصرة! ولا ينتبه الدكتور في نقده إلى أن تلك المبادئ التي حاول أن يردها على دوكينز، هي من نقاط الاتفاق بين نظرية التطور كما وضعها داروين، وما وصلت إليه اليوم فيما يسمى بالداروينية الجديدة Neo Darwninism.

ولا ينتبه كذلك، وهذا هو الأهم، إلى أن نقده لا ينفي العشوائية عن خلق الله تعالى كما يتوهم، وإنما يثبتها ويصورها على نظير ذلك القياس الفاسد الذي ننقده على الدراونة الدهرية! فهو يورد كلام دوكينز (في ص. 177 وما يليها) في سعيه لإثبات أن الانتخاب الطبيعي ليس عشوائيا، وفي رده – مع ذلك - على برهان صانع الساعات الثيولوجي الطبيعي عند ويليام بيلي، إذ يحاول إقامة الحجة على أنه لو قدر ثبوت صانع ما كعلة غيبية وراء عملية التطور الدارويني فلن يكون إلا صانعا أعمى لا يدري ما ينشأ عن آلته العشوائية، ولا يعلم ما يبقى ولا ما يهلك من الأنواع التي تنتجها تلك الآلة! فينقل كلام دوكينز عن برنامجه الحاسوبي الذي صممه لمحاكاة مثال القرد الشهير الذي ضربه توماس هنري هاكسلي في القرن التاسع عشر الميلادي لبيان أنه إن قدرنا عددا كافيا من المحاولات العشوائية لتجميع الحروف الهجائية، فلابد أن تنتهي في النهاية، ولو بعد حين، إلى إنتاج رواية من ورايات شيكسبير! فبه زعم دوكينز أنه أثبت بالمحاكاة Simulation أن ظهور التعقد البالغ High complexity في الأنواع الحية يكون شبه محال من حيث الأرجحية الاحتمالية إن قدر وقوعه على مرة واحدة (أي على ما يقوله القائلون بالخلق المباشر) خلافا لما لو قدرناه أمرا متدرجا على خطوات كثيرة، بحيث يضاف في كل خطوة من خطوات التوليد العشوائي "تعديل جديد صالح" لأن تبقيه الطبيعة، فيقرب النظام خطوة من الصورة المستهدفة، ثم يتفق مع مزيد من التعديلات أن يصل الأمر في النهاية إلى كتابة رواية شكسبير! أي أنه كلما أدخل القرد بالنقر العشوائي على لوحة المفاتيح في برنامج دوكينز حرفا يتفق اتفاقا أن يقع في محله الصحيح، فإن البرنامج يبقيه ويثبته في محله! وبذلك يجري التوليد العشوائي لجميع الأحرف حتى يثبت كل حرف منها في محله وتكتمل الجمل والعبارات ويتم توليف الرواية! لا شك – على حد قول دويكنز – في أن هذا سيستغرق وقتا طويلا، ولكنه لن يكون رقما فلكيا خارقا للعقل والتصور كما هو الشأن لو طلبنا من القرد أن يملأ صحفات الرواية بالنقرات العشوائية مرة بعد مرة، وانتظرنا منه أن يأتي في مرة من تلك المرات بنص الرواية كاملا كما كتبه شكسبير!

ولا شك أن هذا القياس من دوكينز فيه حجة عليه من حيث كونه يقتضي إثبات مبرمج ما، كان لديه من قبلُ نظام معين، قام بتصميم البرنامج أو الآلية التوليدية التي تتولد عنها أجزاؤه تولدا عشوائيا، بحيث يثبت كل جزء في مكانه الصحيح إذا اتفق له الوقوع فيه! كما أنه صمم – كذلك – آلية التوليد العشوائي نفسها، التي هي في مثال دوكينز: نقرات القرد العشوائية على لوحة المفاتيح! فعندما يزعم دوكينز أنه بهذه المحاكاة ينفي الصانع نفيا مطلقا، فهو كاذب مكابر ولا شك! وهذا النقد نتفق فيه مع الدكتور! ولكن عندما يقبل الدكتور مبدأ الاستدلال بالاحتمالات الرياضية في هذه القضية الغيبية من الأساس، فيقر دوكينز على مبدأ قياس نوع حوادث الخلق الأول على نوع حوادث نشوء الكلمات بالانتخاب الحاسوبي في محاكاة دوكينز، ويعترض فقط على طريقته في تقدير الاحتمالية في أصل القياس (عمل القرد على الحاسوب) ومن ثم نقلها إلى فرعه (حوادث الخلق الإلهي)، فهذا ما لا نقبله بحال من الأحوال!

ينبغي أن يكون مفهوما لدى القارئ الكريم أن قول القائل إن احتمالية أن تخلق الأنواع كلها بطفرات عشوائية متتابعة هي كاحتمالية أن تنشأ مسرحية كاملة لشيكسبير بنقرات متتابعة لقرد على لوحة المفاتيح، كلتاهما تساوي 10^{-40}، فهذا أيضا سوء فهم لمنطق الاحتمالات يشترك فيه الدكتور مع الدهرية الطبيعيين من حيث لا يشعر! صحيح إن دوكينز مغالط في فهم الاحتمالات الرياضية (كما نبهت عليه يا دكتور مشكورا)، إذ يقول إننا لو جئنا بعدد 10^{40} قردا وطلبنا منهم جميعا أن يضربوا ضرب العشواء على لوحة المفاتيح، فلابد أن يأتي أحدهم بنص مسرحية من مسرحيات شكسبير، إلا أنك مع ذلك تشترك معه في مغالطة كلية في مبدأ تطبيق المنطق الاحتمالي نفسه، هي أعظم وأظهر في العقل من ذلك الغلط! ألا وهي مغالطة إدخال نوع حوادث خلق السماوات والأرض وخلق الحياة والأنواع الحية على الأرض من غير مثال سابق، تحت جنس الحوادث الخاضعة في تفسيرها للترجيح الاحتمالي (مبدئيا)، الذي هو راجع بدوره إلى مجاري العادة والاستقراء! إن منشأ قدرتنا على تقدير القيمة 10^{-40} لاحتماليات النقر العشوائي في مثال القرد، هو وجود خلفية معرفية في العادة تفيدنا بطبيعة التكرار Frequency لحوادث النقر من يد من لا يعقل ما يصنع، ومن ثم تقدم لنا أساسا رياضيا لتقدير تلك الاحتمالية، خلافا لمسألة خلق الحياة والأنواع الحية على الأرض، التي هي مسألة غيبية مطلقة لا نملك ما به نزعم لها مفردات وخطوات تناظر كذا أو تشبه كذا أو يجوز أن تقاس على كذا مما هو واقع تحت عادتنا من أنواع الحوادث! فما كان هذا شأنه، فلا يقال فيه بالاحتمالية أصلا! لا مدخل للاحتمالية الرياضية في الغيبيات عامة والإلهيات خاصة! وهذا ما كان ينبغي أن يرد به الدكتور على دوكينز في أصل فكرة المحاكاة نفسها، وليس فقط بيان

بطلان وتهافت دعوى أن طول العبث ينشئ نظاما لا محالة ولو بعد حين، وأن القرد لابد أن ينتهي في يوم من الأيام لتكابة نص مسرحية ماكبيث ولو بعد حين! لا يقال إن خلق الأنواع بطفرات عشوائية هو أقل في الرجحان الاحتمالي More Improbable (أو أكثر) من أن تخلق بطفرات موجهة إلهيا! كلا الفريقين (الدراونة الدهرية والدراونة التطويرية) مغالطان في ذلك التطبيق للمنطق الاحتمالي الرياضي مغالطة منهجية ظاهرة!

والسبب في دخول تلك المغالطة على الدكتور هو كونه يريد من جهة أن يثبت أصل آلية التوليد العشوائي التطوري الدارويني (الذي هو عشوائي بموجب قبول فكرة الانتخاب الطبيعي كما بينا)، ومن الجهة الأخرى يريد أن يقول إن متولدات تلك الآلية ليست عشوائية، بل موجهة كلها توجيها إلهيا، وخاضعة لنظام بيوكيميائي مخلوق خلقا إلهيا، وهذا تناقض ولا شك! فلا يريد الدكتور أن يقتنع بحقيقة أن العشوائية الوجودية متجذرة في مجرد فكرة أن تكون الأنواع كلها قد ترقت خطوة بعد خطوة من سلف واحد منحط غاية الانحطاط، فلم تزل الطبيعة تنتخب ما يصلح للبقاء من ذلك فتبقيه وتهلك كل ما سواه عبر بلايين السنين حتى بلغ التنوع في الحشوة الحية ذلك المبلغ المذهل الذي نراه [95]! يظن أنه لو جعل السلف الأول مخلوقا "بالتدخل الإلهي" المزعوم ، وجعل كل طفرة في الأسطورة الداروينية لا تكون إلا "تدخلا" إلهيا (وهو ما يقتضي القول الدهري بانغلاق السببية من حيث الأقل، على نوع السبب الطبيعي)، فإنه يكون بذلك قد أزال العشوائية من أصل النظرية، وخلصها من دين الطبيعيين الدهرية، ووفق أخيرا كما يطمح بين "العلم" و"الدين"، وهذا منه وهم مبين! والحق أنه إذن يصبح الخلق الإلهي عنده آلية حاسوبية طبيعية تنتج المخلوقات بالتوليد العشوائي الذي غاية فعل الرب فيه أن يكون قد وضع له من قبل "خطة" ثابتة بحيث تنتهي الطفرات مهما طال بها العبث وخبط العشواء وإنتاج كل هالك فاسد، إلى إنتاج الأنواع التي يريدها من خلق الأنواع نوعا بعد نوع، بحيث تصلح أخيرا لأن تنتخبها الطبيعة! وهذا وأيم الله من أبلغ المذاهب حطا على رب العالمين، وهو ما سماه دوكينز بصانع الساعات الأعمى على التحقيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فإن دوكينز لما كره قياس "صانع الساعات" عند اللاهوتي الطبيعي ويليام بيلي، أبى إلا أن يقابله بقياس مقابل، كما سلك داروين نفسه من قبل، يبين به أن نظريات الطبيعيين تجعله صانعا لا صنع له ولا عمل ولا إرادة ولا علم، وعلى أحسن الأحوال تجعله صانعا أعمى لا يدري إلى أين تذهب صنعته، سبحان الله وتعلى علوا كبيرا! فما الذي فعله الدكتور هداه الله؟ أبقى على أصل القياسين جميعا، وحرر في الجواب ما يقتضي قياسا آخر، أحسن أحوال الرب المثبت من طريقه أن يكون وسطا بين صانع دوكينز الأعمى، ومصمم بيلي الذكي، والله المستعان على ما يصف هؤلاء وهؤلاء جميعا!

اعلم يا هداك الله أن الرب ذا الأسماء الحسنى والصفات العلا سبحانه، الذي لا يتطرق إلى صفاته النقص بوجه من الوجوه، والمفترض فيك أنك تعبده، هذا لن يكون أول خلقه الابتداء بتراكيب منحطة للأحماض الأمينية بحيث ترقى بعد ذلك بالتدريج الوراثي عبر بلايين السنين إلى ما هو أعقد، وإن كان هو خالق الطبيعة وخالق آلية توليد الطفرات، وخالق الطفرات، وخالق كل شيء! ((إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)) [يس : 82]، بل يجب أن يكون خلقه كل نوع جديد من أنواع المخلوقات، على الأحسن والأكمل في الوفاء بمقصوده من خلق ذلك النوع من أول يوم، ((لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً)) [طه : 107]!! إذ لا وجه لتخلف المعلول (خلق الأنواع الحية) عن علته التامة الموجبة له (حصول المشيئة الإلهية مع ما سواها من أسباب)، فلا يتصور أن تحصل مشيئة الرب أن يخلق طائرا يطير في السماء بجناحين (مثلا)، فلا يصل إلى إنفاذ تلك المشيئة إلا بالتطوير بالطفرات طورا بعد طور عبر ملايين السنين، بالتحويل الوراثي من نوع لا يطير ولا جناح له، إلا أن يكون عاجزا عن إنفاذ إرادته في الخلق والتصوير فورا، أو جاهلا بما يحصل له به ما يريد، سبحان الله وتعالى عن ذلك كله علوا كبيرا!

تأمل قوله: "لذلك وصف علماء الرياضيات ما يعرف بمقدار الاحتمال الملزم Universal Probability Bound وهو الاحتمال الذي إذا قلت عنه أي عملية فلا يمكن نسبتها إلى الصدفة، وقدروه ب $1:10^{150}$!" اهـ. قلت: فلا يبالي الدكتور من أين جاء هؤلاء بتقدير مقدار الاحتمالية المذكورة، ولا من أين يأتي التفريق (وجوديا) بين ما فوقا وما دونها، ولا من أين يأتي التسليم الأولي بمعنى "الصدفة الوجودية الذي يثبته أصحاب ذلك الكلام! المهم أن يقبل منهم حدا غيبيا طبيعيا في الاحتمالية، بحيث إذا استطاع أن يقدر احتمالية حوادث النشأة بلا صانع عند مقدار معين دون ذلك الحد المزعوم، حصل له المطوب من إثبات الصانع نفسه! فهل هذا كلام من "يفهم" نظرية الاحتمالات الرياضية ومجالات تطبيقها؟

قال الدكتور في جزء لاحق (ص. 193) مؤسسا لبدعته التطويرية: "ومن هذه العطاءات التي لا تحصى، الأدلة التي قدمها هذا العلم (يعني علم البيولوجيا الجزيئية Molecular Biology) على وجود السلف المشترك وحدوث التطور بصفة عامة والتطور الموجه بصفة خاصة، حتى يمكن القول إن التطور أصبح الآن من علوم البيولوجيا الجزيئية!" اهـ. قلت: قد بسطنا الكلام في هذا الكتاب حول الفساد العقلي والمغالطة في منطق الاستدلال الذي يسلكه الدراونة (على اختلاف طوائفهم، ما بين دهرية وكتابيين ومنتسبين إلى الإسلام) في جميع ما يجعلونه دليلا من أنواع المحسوسات، على مزاعمهم بشأن الأصل المشترك والنشأة التطورية للأنواع الحية، وهو ما يدخل فيه استدلالاتهم الجزيئية والجينية [96] وغير ذلك! فما يستدل به التطوري الدهري

(أعني من مكتشفات أصحاب البيولوجيا الجزيئية) على مذهبه في النشأة، يستدل به هو نفسه (بالقوة أو بالفعل) نفاة التطور من اللاهوتيين النصارى الأمريكيين ومن لف لفهم من القائلين بالتصميم الذكي اللاداروينيي [97]، على بطلان التطور، وعلى أن المخلوقات الحية ما كان من الممكن إلا أن يخلق كل نوع منها مكتمل الخلقة من أول يوم!

فمن أجل أن يؤسس الرجل لبدعة التطوير أو التطور الموجه، يحاول الدكتور محاولة المستميت أن ينتزع أسطورة التاريخ الطبيعي من جذورها الفلسفية التي نبتت منها، ليقيمها على عقائد أخرى لا علاقة لها بها ولا قيام للميثولوجيا الداروينية عليها! فتراه ينتقي من انتقادات من سماهم بالخلقويين نقدهم لآلية الطفرة العشوائية، لا لشيء – على ما يبدو – إلا لأن اسمها "عشوائية" Random! فظن الدكتور أنه إن أسقط تلك الآلية، فستسلم له نظرية التطور من الفلسفة الدهرية، أولها وآخرها، ومن ثم يتمكن من بنائها على أسس توافق عقيدته الغيبية! وقد بينا، كما مر معك، وهاء الظن بأن إسقاط إحدى الآليات الداروينية لا يذهب بالنظرية بكليتها، ولا تسقط معه أسطورة التاريخ الطبيعي الطويل المبتدئ بكائن أحادي الخلية!

قال الدكتور (ص. 193) تحت عنوان "ثانيا: خدعة الطفرات العشوائية":

> ليست الطفرات العشوائية إلا "أخطاء" تحدث في تتابع الحروف (القواعد = النكليوتيدات)، التي تتكون منها الشفرة الوراثية (الدنا – DNA)، وينبغي لهذا التعديل أن يقع في الخلايا التناسلية (الخلايا التي تنتج الحيوانات المنوية والبويضات)، وليس في أي من خلايا الجسم الأخرى. والسؤال المهم هنا هو: هل يمكن لهذه الأخطاء العشوائية أن تحدث تحسنا في الشفرة الوراثية يؤدي إلي تعديلات مفيدة تظهر في ذرية الكائن الحي؟ يقدر علماء البيولوجيا أن معدل حدوث الطفرات يبلغ 4 طفرات في كل 100 ألف حيوان منوي أو بويضة، كما يقدرون أن 99% من هذه الطفرات تكون ضارة، وربما تكون ذات فائدة في 1% من الحالات. هل يمكن لهذه النسبة الضئيلة جدا من الطفرات المفيدة أن توجه تطور الكائنات الحية؟ خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن أي تعديل في وظيفة ما يحتاج إلى العديد من التغيرات التي تعمل في تآزر وتوافق. وإذا كان تطور الحصان – كما يخبرنا الداروينيون – قد احتاج إلى 65 مليون سنة، وهو تطور في إطار النوع نفسه، أي بقي الحصان حصانا ولم يتبدل إلى نوع آخر، فهل يكفي عمر الحياة على الأرض لكي تتطور الأحياء من كائنات ذات خلية واحدة إلى هذه الملايين من الأنواع المعقدة والراقية من الحيوانات والنباتات؟ إن الأرقام والحسابات تفضح تماما وبقطعية رياضية لا تدع مجالا لأي

تأويل أو عذر، مدى تهافت فرضية التطور الدارويني العشوائي ومدى بعدها عن الواقع وتعارضها مع العلم.

قلت: هذا النقد الذي يقرره الدكتور هاهنا، يستعين به من يسميهم بالخلقويين في نقض أسطورة الأصل المشترك، وإبطال دعوى أن جميع الأنواع الحية قد نشأت بالتطور التدريجي من ذلك الأصل المزعوم! وقد ذكر الدكتور في غير موضع أنه يوافقهم في انتقادهم تلك الآلية، لكنه يراه نقدا متوجها إليها هي بخصوصها، أو للدقة: إلى "العشوائية" فيها، ولا تأثير له على فكرة التطور نفسها! وهذا ولا شك غلط محض! وذلك أنه يقول: "هل يمكن لهذه الأخطاء العشوائية أن تحدث تحسنا في الشفرة الوراثية يؤدي إلى تعديلات مفيدة تظهر في ذرية الكائن الحي؟" قلت: يلزم إذن إبطال مبدأ القياس (أعني القياس على الطفرات الوراثية) الذي به زعم داروين إمكان أن يحصل تغير طبيعي معين في الصفات الوراثية لنوع متقدم، بحيث ينشأ عنه نوع جديد! مبدأ التطور عند دراوين وجميع أتباعه على اختلاف نحلهم وعقائدهم (ومنهم الدكتور نفسه) يقوم على دعوى أن الأنواع لم تزل تتغير تغيرات تدريجية طفيفة في صفاتها البيولوجية عبر الأجيال، ومن ثم تنشأ من الأنواع القديمة أنواع جديدة، يبقى منها ما يتفق له أن يكون قادرا على التكيف مع الظروف البيئية التي ينشأ فيها، ويهلك وينقرض ما سواه! ولهذا لزم أن تقوم النظرية على افتراض ملايين السنين من التغيرات المتتابعة، التي تجري بصورة طبيعية، قياسا على عمليات التهجين والانتخاب الصناعي ونحوها التي قام بها داروين في بيته وعلى متن البيغل، ومن ثم استطاع تغيير بعض الصفات في الطيور التي أجرى عليها تجاربه. فأين ترى في الحشوة الحية تغيرا وراثيا يحدث بدون تدخل بشري أو توجيه صناعي (ومن ثم يقال له "طبيعي" Natural)؟ تراه فيما يسمى بالطفرات الوراثية Mutations! فهي طفرات من جهة كونها تغيرات فجائية غير متوقعة في الصفات الوراثية لا تقع بفعل الإنسان أو تخطيطه! فبدون فرض الطفرات، فلن يكون لدى البيولوجيين داع للقول بأي تغير "طبيعي" يمكن أن تنشأ به الأنواع الجديدة من ذرية أنواع أخرى متقدمة عليها، وإذن فلن يوجد ما يجري عليه الانتخاب الطبيعي ولن يقع تطور من سلف مشترك ولا شيء من ذلك!

وإذن فالدكتور يلزمه حتى يعتنق دعوى التطور التدريجي من أصل مشترك، أن يعتقد أن سلسلة طويلة (أو بالأحرى شبكة واسعة) من الطفرات الوراثية المتدرجة Mutations، كانت هي السبب بصورة ما أو بأخرى، في نشأة جميع الأنواع التي نراها اليوم من ذرية ذلك الأصل المنحط المزعوم! فإن قال إننا لم نر أبدا طفرة وراثية ينشأ معها عضو جديد (وصدق)، وأن نشوء النوع الجديد يتطلب تنسيقا واسعا وعملا تعديليا شديد التعقيد حتى تنشأ نظم حيوية جديدة ووظائف عضوية جديدة متكاملة لتحل محل نظم أخرى

وتكاملات أخرى، بما لا يمكن اختزاله في طفرة واحدة أو طفرتين أو حتى ملايين من الطفرات تقع في جيل واحد (وصدق)، إن قال بذلك، فالذي يسقطه بهذا النقد ليس "العشوائية" في تلك الطفرات وحسب كما يتوهم، وإنما يسقط فكرة حصول التطفر الوراثي التدريجي عبر التاريخ الجيولوجي الطويل، كتفسير لنشوء جميع الأنواع الحية من بعضها البعض، ومن ثم يسقط الأساس الذي عليه أقيمت ميثولوجيا التاريخ الطبيعي عند البيولوجيين من أولها إلى آخرها! إذ لن يكون نشوء النوع الجديد – إذن – مرهونا بالتطفر التدريجي عبر آلاف بل ملايين السنين كما زعمه داروين، وإنما يظهر فجأة، بالخلق المباشر في رحم أنثى، ظهورا كامل الخلقة، مؤهلا للتناسل والتكاثر مع أنثى من نفس نوعه من أول يوم!

وإذن فليست هذه "نشأة طبيعية" ولا تدريجية (من جهة أن الأنواع تبدأ بسيطة منحطة ثم تتطور وتزداد تحسنا بالتدريج جريا على الأسباب الطبيعية المزعومة لحصول ذلك التطور)، لأنه إذن يكون خلق النوع الجديد كاملا من أول يوم، موائما تمام المواءمة للبيئة التي يخلق فيها، مناسبا للغرض من خلقه حيث خلق، وإلا ما صار نوعا أصلا وما بقي! ولكن لو جوزنا أن يكون الأصل في المسألة ألا تولد الأنواع المتطفرة إلا مشوهة ومتهاوية، إلا ما تنتخبه الطبيعة ليصبح نوعا (كما هو مقتضى إثبات مبدأ الانتخاب الطبيعي) للزمنا القول بعشوائية التطفر، وهو ما يرفضه الدكتور! فهل آل مذهب الدكتور إلى القول "بخلق خاص" (على اصطلاحه هو وأصحابه) للأنواع الجديدة في أرحام الأنواع المتقدمة عليها؟

القصد أنه بدون التطفر العشوائي المزعوم، فلا يبقى للدكتور أي أساس طبيعي Scientific Grounds (جريا على الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism التي التزمها في مذهبه متوهما البراءة منها) للقول بدعوى السلف التطوري المشترك لجميع الأنواع! وإذن يصبح كالمعلق، لا يتلقى اعتقاده لا من الآلة التجريبية الطبيعية Scientific Method التي يصر على إعمالها في تلك البابة الغيبية المحضة، ولا من خبر الغيب في نصوص الملة التي ينتسب إليها، ولا يقيم اعتقاده إلا على الترقيع بين ملتين! تأمل قوله: "هل يمكن لهذه النسبة الضئيلة جدا من الطفرات المفيدة أن توجه تطور الكائنات الحية؟ خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن أي تعديل في وظيفة ما يحتاج إلى العديد من التغيرات التي تعمل في تآزر وتوافق."

تأمل هذا الكلام وقل لي بربك، أي فرق تراه بينه وبين كلام من يسميهم بالخلقويين، الذين ينصبون تلك الحجة نفسها في إبطال أصل مبدأ التطور من سلف مشترك؟؟ أين تجد في مبدأ التطور (بالانتخاب والطفرة) مسألة "العديد من التغيرات التي تعمل في تآزر وتوافق" هذه يا دكتورِ إن كنت

صادقا؟؟ هذا التصور التليولوجي لم توضع فكرة التطور إلا من أجل هدمه أصلا، ولو قدره داروين وتصوره، لما ذهب إلى جعل جميع الأنواع قد نشأت من بعضها البعض بحيث تكون الأنواع الأقرب في الهيئة والخلقة نازلة عن سلف مشترك هو الأقرب إليها في الهيئة، وهذا بدوره مشترك مع غيره مما هو أقرب إليه، في النزول عن سلف قريب كذلك، أي بحيث يكون الأقدم أقل "تطورا"، وأنقص في "التعقد البيولوجي" من الأحدث، وصولا في الماضي إلى مخلوق أول هو الأحط على الإطلاق، فافهم هذا يرحمك الله! هذا الترتيب التصاعدي (إجمالا) بداية من خلية أحادية ووصولا إلى الإنسان (وهو تحقيق التطور المزعوم في التاريخ الطبيعي)، إنما يقوم على افتراض داروين أن الأنواع لم تزل تتولد من بعضها البعض تولدا عشوائيا لا تضبطه وجهة ولا غاية، فإذا اتفق أن جاءت الطفرات بنظم جديدة أو أعضاء جديدة، وأصابت تلك الإضافات شروط البقاء، صارت تلك النظم نوعا جديدا أكثر تطورا! فإذا قيل له كيف تفسر هذا التنوع الفاحش بين الأنواع الحية، وكيف يتصور حصوله كله بهذا التطور الطبيعي العشوائي المزعوم، أجاب بأن ملايين السنين تكفي الطبيعة حتى تأتي بالعجائب وتصنع المعجزات!

قوله: "وإذا كان تطور الحصان – كما يخبرنا الداروينيون – قد احتاج إلى 65 مليون سنة، وهو تطور في إطار النوع نفسه، أي بقي الحصان حصانا ولم يتبدل إلى نوع آخر، فهل يكفي عمر الحياة على الأرض لكي تتطور الأحياء من كائنات ذات خلية واحدة إلى هذه الملايين من الأنواع المعقدة والراقية من الحيوانات والنباتات؟" قلت: أجبنا بلا، وقلنا إن عمر الأرض عند الجيولوجيين ومثله معه لا يكفي لحصول الأسطورة الداروينية، فما الذي يلزمك أنت يا دكتور من هذا الجواب؟ يلزمك إبطال أسطورة التاريخ الطبيعي، إما من جهة بطلان الزعم بخطوات تطورية تتسلسل من نوع إلى نوع، ومن ثم يلزم القول بأن الأنواع الحية لم تخلق بالتطور كما تعتقد، وإنما خلقت "خلقا خاصا"، وإما من جهة بطلان ما عند البيولوجيين من تقديرات تاريخية لأعمار الحفريات وخلو أكياسهم من العلم والمعرفة في ذلك على أيما اعتبار، مهما زعموها لأنفسهم، وهو ما يقتضي هدم أسطورة التاريخ الطبيعي كذلك، وإما من كلتا الجهتين جميعا. أي أنك بهذا الكلام، يلزمك يا دكتور أن تنضم إلى صفوف منكري التطور كسبب تاريخي لنشأة الأنواع الحية (الذين ينفون مطلق دعوى أن يكون قد نشأ نوع من نوع "بالتطور" تاريخيا)، لا أن يكون موقفك هو نفي "العشوائية" عن الطفرات مع إثبات حصولها في الأنواع الحية على نفس الترتيب التاريخي المعتمد عند القوم، والله المستعان! خلق الأنواع الحية على الأرض لم يزحف في خطواته عبر تاريخها المزعوم هذا الزحف الدارويني البائس إلا عند القائلين بالطفرة العشوائية، فإن هم نفوها وأثبتوا الغائية الإلهية، فأي داع يبقى للقول بالتطور أصلا، ومن أين يأتي تحقيق معناه ومفهومه عند من يقول به؟

قوله: " إن الأرقام والحسابات تفضح تماما وبقطعية رياضية لا تدع مجالا لأي تأويل أو عذر، مدى تهافت فرضية التطور الداروييني العشوائي ومدى بعدها عن الواقع وتعارضها مع العلم" قلت: فمن أين يأتي القول بفرضية لتطور "غير دارويني" إذن وعلى أي أساس يقوم؟ على أساس تأويلات الدراونة لجميع المشاهدات التي يستدلون بها لنصرة مذهبهم، التي هي من الأصل مستمدة من ذلك المذهب الذي تنقده، قائمة عليه قياما كليا؟؟ أتحسب يا دكتور أن ما بين أيدي الدراونة من "أدلة تجريبية" يعد "مشاهدة" مباشرة لتطور الأنواع كلها من بعضها البعض وصولا إلى أسلاف مشتركة؟؟ ليس لديهم إلا التأويل يا دكتور، والتأويل التطوري للمشاهدات (أو تفسيرها الذي يصيرها عندهم "أدلة" على صحته هو نفسه!!) لا قيام له إلا على الفروض الداروينية! فعلى أي أساس تقيم أنت يا دكتور تطورك اللاداروييني (بزعمك)، إذا كنت لا تقف على أي أساس فلسفي للقول بالتأويل التطوري للسجل الحفري إلا بإثبات الآليات الداروينية نفسها التي تريد الآن أن تسقطها إسقاطا؟؟ هذا التاريخ التطوري المزعوم للحياة على الأرض إنما هو تأويل الدراونة للحفريات والمكتشفات الأحثائية بناء على تلك الفرضيات الكلية التي تظن أنت أنك إن عدلت عليها بنفي كلمة "عشوائية" ووضع لفظة "إلهية" في محلها فسيسلم لك الأمر ويتم لك المطلوب! فلا تحدثنا عن مخالفة "الدارويينيين" للعلم وادعائهم وكذا وكذا، ومناقضة "التطور الداروييني" لقطعيات العلم والرياضيات والفيزياء .. إلخ، فإنه يلزمك ما يلزمهم من حيث لا تشعر!

ثم ينقل الرجل كلام بعض من يسميهم هو "بالخلقويين" في نقضهم على التطور الدارويني بمسألة "انفجار الكامبري" Cambrian Explosion في السجل الحفري، فيقول إن الحيوانات كلها التي عثر عليها في تلك الطبقة، التي لا تمثل إلا عشرة ملايين سنة من عمر الأرض (بحسب نظريات الجيولوجيين في تاريخ الأرض)، إنما عثر عليها كاملة التطور، ولم يعثر في الطبقات المفترض انتماؤها إلى حقب تاريخية متقدمة على تلك الحقبة، على أي مقدمات تطورية لذلك التنوع الواسع! ونحن نسأل الدكتور: وما المانع – على المنهج الطبيعي - من افتراض أن تكون جميع الأنواع قد تطورت "عشوائيا" في خمس وخمسين مليون سنة أو في عشرة ملايين سنة فقط؟ بل إن شئت ففي خمسة ملايين، أو خمس ذلك أو أقل من ذلك؟؟ يقال إذن إن "محاسن الصدف" (كما تسميها أنت في نقدك من سميتهم بالدراونة)، كانت أحسن مما ظنوا، وينتهي الأمر!

وما الذي يمنعهم من أن يقولوا إن الطفرات العشوائية ليس لها معدل ثابت في الحصول وفي إضافة المعلومات الجينية (على التسليم بصحة زعمهم أنها تضيف شيئا!)، بالنظر إلى كونها عندهم عشوائية بالأساس؟ إن قالوا بهذا، فهو

يكفيهم في إسقاط اعتراضك بأن معدل حصول الطفرة فيما هو مشاهد حاليا في حسابات من حسبه ومشاهدات من شاهده هو كذا وكذا، وعليه فيلزم أن يكون عمر الأرض أطول بكثير حتى يجري الأمر على وفق هذا المعدل! هم يقولون إنها عشوائية أصلا، فبأي معدل تريد أن تلزمهم؟؟ كما فرضت أنت فرضية تحكمية Ad-Hoc في غيب الماضي مفادها أن المعدل الذي ترصده الآن لابد وأنه اطرد كما هو في الماضي السحيق وصولا إلى أول كائن حي حصل له تناسل وتكاثر، فكذلك يقابلونك هم بفرضية تحكيمة Ad-Hoc في الغيب نفسه مفادها أن المعدل لم يطرد كما تقول، وإنما اختلف وتغير على امتداد التاريخ الطبيعي، بدليل ما حصل في حقبة الكامبري المزعومة، تلك الحقبة نفسها – وتأمل! – التي تريد أن تحتج بها عليهم!! [98] وإذن فلا ترجيح ولا علم ولا معرفة ولا شيء من ذلك، وإنما نظم اعتقادية غيبية وميثولوجيات طبيعية يقال في منتهى الخصومة بين أصحابها: لكم دينكم ولي دين!

ثم ينقل الدكتور قول البيولوجي التصميمي الأمريكي "جوناثان ولز" بأن مؤسسة علمية أمريكية ما، قد أعلنت في ستينات القرن العشرين أنه "ليس هناك دليل واحد على أن خليط الغازات الذي استخدمه ميلر كان هو السائد وقت نشأة الحياة". قلت: فهذا هو وجه الاعتراض يا دكتور؟؟ أنه ليس هناك دليل واحد؟؟ طيب هل ننتظر غدا أن يظهر الدليل عند البيولوجيين على صحة ما زعمه ميلر أو على خلافه، فيما يتعلق بالأحوال الفيزيائية والكيميائية التي نشأت فيها الحياة بزعمهم؟؟ ما هو نوع الدليل الذي تشترط أنت ومن نقلت عنه ظهوره عند القوم حتى تقبل منهم تنظيرهم في أصل الحياة؟؟ وكيف توافق المختصين الذين نشروا في مجلة Science (كما نقلت عنهم بعد) على منطق الترجيح الذي سلكوه في زعمهم أن الجو السائد وقت نشأة الحياة كان يحتوي على كميات ضئيلة من الهيدروجين (لأنه خفيف ويرتفق بعيدا عن الأرض) كما كان فقيرا كذلك في الأوكسجين، وأن الغازات السائدة كانت ثاني أكسيد الكربون والنيتروجين وبخار الماء؟؟

قال الدكتور (ص. 193) "وذكرت المجلة أن ميلر إذا استخدم هذا الخليط فلن يحصل على أحماض أمينية ولكن على الفورمالدهيد والسيانيد وهي مواد سامة لكل أشكال الحياة، ولا يمكن أن تكون مصدرا للمركبات العضوية الحيوية كما يعتقد البعض" اهـ. قلت: فيا رجل، كيف لا ترى أن الذي يقبل منهم منطقهم في نقد نظرية ميلر، يلزمه أن يقبل منهم – وبنفس المنطق – ما يأتي به أحدهم من نظريات أخرى في نفس الأمر، إن قدر أن سلمت من ذلك النقد الذي تعرضت له نظرية ميلر؟! وكيف لا ترى ما في دعاوى القوم بشأن الظروف التي يجوز أو لا يجوز أن تكون الحياة قد خلقت فيها، من تحكم فاسد في الأسباب التي خلق الله بها شيئا هم يعلمون أنه لا قياس له على ما يقع تحت تجاربهم البتة؟ من الذي قال إن الله لابد وأن يكون قد خلق

الحياة أو غيرها من أنواع خلقه، على غير مثال سابق، جريا على "قوانين الكيمياء" أو الفيزياء أو غيرها من السنن الكونية التي ترونها جارية الآن على هذا الشطر من العالم الذي خبرتموه في عادتكم وتجربتكم البشرية؟؟ هذا غير لازم بل غير معقول أصلا! والذي يقول إن الظروف الكيميائية لم تكن تسمح بظهور الحياة طبيعيا (أي بأسباب من نفس نوع الأسباب التي فرضها ميلر)، هو كالذي يقول بأنها كانت تسمح بذلك، كلاهما صاحب عدوان فاحش على محض الغيب، واستدلال ونظر ما أنزل الله به من سلطان!

فسواء منطق ميلر في الاستدلال، أو منطق من ردوا عليه ممن استحسن الدكتور جوابهم، فكلاهما منطق فاسد واستناد إلى مصادر للتلقي المعرفي ولأنواع من الاستدلال لا مدخل لها أصلا في تلك البابة لا إثباتا ولا نفيا، لا تأسيسا ولا نقضا! فمثل هذا لا يكون الافتراض التفسيري فيه إلا تحكما في انتقاء الأقيسة التي بها يثبت أو ينفى ما في الغيب المحض، ولا تكون المشاهدات والتجارب فيه إلا متكافئة في الإثبات والنفي ضرورة! ولكن لأن الدكتور قد اعتنق الطبيعية المنهجية في أصل مبدأ التنظير الطبيعي في الغيبيات المحضة، لم يسعه إلا أن يرجح بطلان نظرية ميلر بطريقتهم وعلى استحياء، رجاء أن يخرج من ذلك بفسحة يقول فيها إن أصل الحياة لا يمكن أن يكون أصلا طبيعيا!

ولهذا نقول له: يا دكتور، ما التزمته في مسألة أصل الحياة، يلزمك هو نفسه (منهجيا) في مسألة النشأة الغيبية لجميع الأنواع الحية على غير مثال سابق، فإما أن تجوِّز النظر الطبيعي في نشأة الحياة كما جوزته في نشأة الأنواع الحية كلها، على أساس أن نوع الاستدلال الطبيعي (بوضع الفرضيات ثم محاولة الانتصار لها بتأويل المشاهدات) في هذه البابة مقبول منهجيا، وإما أن تمنع النظر الطبيعي في نشأة الحياة وفي نشأة الأنواع الحية كلها، على أساس أن الأمر غيب محض لا طريق للترجيح فيه بين الأقيسة المستعملة في وضع الفرضيات، أما أن تفرق بين القضيتين فتقول إن إحداهما غيب لا يصح فيه القياس الطبيعي، خلافا للأخرى، فهذا تناقض منهجي صارخ! من جعل من نظرية داروين وفكرة التطور من أصل مشترك، دعوى "علمية" Scientific (نوعا)، فهذا يلزمه أن يجعل من تجربة ميلر وما يناظرها من تجارب في مسألة نشأة الحياة Abiogenesis، دعاوى علمية أيضا، يرجح فيما بينها بنفس أنواع الأدلة، ولا يعترض في إحدى القضيتين دون الأخرى بأن الأمر غيب محض وإلا تناقض!

فعندما ينقل عمن ينقل عنه في هذا الجزء، قوله "وحتى لو صحت التجربة فهي لا تدل على النشأة العشوائية للحياة"، فهذا منه وممن نقل عنه تناقض، لأن لمخالفهما أن يقول كذلك: مهما صحت مشاهداتكم الأحفورية والمايكروبيولوجية والتشريحية وغير ذلك، فليس في شيء منها ما يدل على

نشأة جميع الأنواع بالتطور من أصل مشترك! فبأي شيء يجيبانه؟؟ إن قالا إن مرجعهما في رد دعاوى الدهرية في مسألة نشأة الحياة في مادة ميتة، هو أننا لم يسبق أن شهدنا لها نظيرا، قيل لهم فورا، فهل سبق لكم أن شاهدتم نظريا لخلق ملايين من الأنواع الحية بالتطور من بعضها البعض وصولا إلى "سلف" مشترك؟؟ الجواب لا! وإن قالا إن مرجعهما في ذلك هو الامتناع العقلي لنسبة أصل النظام إلى العشواء، قيل لهم: فكذلك دعوى الأصل التطوري المشترك ينقضها الامتناع العقلي لأن يكون صنع الباري (واجب الوجود واجب الكمال) جاريا على تلك الصورة الذميمة التي تقتضي من التنقص من صفاته إما في العلم والحكمة وإما في القدرة وإما فيهما جميعا! والقصد أن الدكتور ليس معه – على مذهبه في مصادر التلقي في تلك البابة، وعلى نظريته المعرفية الطبيعية – ما يمنع به أقرانه من الخوض في مسألة أصل الحياة، ولو حاول أن يمنعهم لتناقض! فليس لمثله أن يكلمنا عن "الدراونة" وفساد استدلال "الدراونة" والله المستعان! بل أعجب من هذا أن الرجل ينقل نقد مخالفيه لفكرة شجرة الحياة عند التطوريين ولما يسمى بالسجل الحفري، يجعله نقدا "للدراونة" (يعني القائلين بالطفرة العشوائية، على حدّ تسميته)، لا لأصل دعوى النشأة التطورية من أصل مشترك! فيقول (ص. 198-200) في كلام ينقض أوله آخره، على عادة الرجل:

> رسم دارون في كتابه "أصل الأنواع" شجرة، تمثل الخلية الحية جذعها الرئيسي كسلف مشترك لجميع الكائنات، ومن الجذع تتفرع الأغصان وتتفرع، محملة بمختلف الحيوانات والنباتات حتى نصل إلى الثراء الرهيب الحالي في الكائنات الحية. وتبعا لهذه الشجرة ينبغي أن نجد في سجل الحفريات مجموعات متتالية من الكائنات الحية التي تربط بينها حلقات وسطى. وإذا كانت بعض المجموعات من الحيوانات كالطيور والكابوريا تظهر في حفرياتها الحلقات الوسطى بوضوح، فإن الكثير من المجموعات تفتقر بشدة إلى هذه الحلقات. ويعترف دارون أن غياب الحلقات الوسطى من سجل الحفريات هو العقبة الكبرى التي تواجه نظريته، ويتنبأ بأن التنقيب سيكشف تباعا العديد من هذه الحلقات، وقد اكتشف بعضها بالفعل. وبالرغم من ثراء سجل الحفريات الآن (أكثر من مائتي ألف نوع) فإن الصورة التي يظهرها ليست الشجرة التي تتفرع أغصانها تدريجيا من الأدنى إلى الأكثر تعقيدا وتحتاج لملء بعض الفراغات الانتقالية، ولكن يظهر سجل الحفريات على هيئة مجموعات من الكائنات الحية غير المترابطة وتفصلها مساحات خاوية واسعة، بل إن الحفريات الجديدة أظهرت فراغات أكثر تحتاج إلى ملء. وقد وقعت المفاجأة الكبرى عندما ثبت لعلماء الحفريات أن انفجارا أحيائيا كبيرا قد حدث في العصر الكمبيري، وأن جميع الكائنات الحيوانية ظهرت فجأة في هذا

العصر (منذ 540 مليون سنة). وبدلا من أن تشبه شجرة الحياة العظمى لدارون هرما مقلوبا يقف على رأسه (وهو الخلية الحية الأولى) أصبح الوضع الحالي هرما مستقرا على قاعدة عريضة جدا، تشكلها جميع الكائنات الحيوانية التي ظهرت في العصر الكمبيري. ولاستكمال النظرة إلى مفهوم الحلقات الوسطى، ينبغي أن نشير إلى أن بعض هذه الحلقات موجودة ككائنات حية ما زالت تدب على الأرض! فالبرمائيات تمثل حلقات وسطى بين الأسماك والزواحف! فهي تضع بيضها في الماء بينما تتنفس الهواء الجوي بالرئتين. بل إن هناك أسماكا تتنفس الهواء الجوي بأعضاء تشبه الرئتين في فصول الجفاف، وتعتبر بذلك حلقة وسطى بين الأسماك والبرمائيات. وهناك قصة شهيرة حدثت قرب نهاية القرن الثامن عشر عندما اكتشف البيولوجيون في أستراليا حيوان "منقار البطة – The Duck-Billed Platypus". إنه حيوان في حجم الأرنب وله فراء ويرضع صغاره كالثدييات، وفي نفس الوقت فهو يضع البيض وله "مجمع-Cloaca" كالزواحف، وله أيضا غشاء بين أصابعه كالطيور تستفيد منه عند السباحة في الماء. لم يصدق البيولوجيون في لندن بوجود هذا الكائن (ثديي – زاحف – طير) إلا بعد أن أحضر لهم الأستراليون بعض أفراده. وفي النهاية تم تصنيف منقار البطة (مع آكل النمل – Armadillos) في مجموعة منفصلة من الثدييات، وهي الثدييات البيوضة! ومع ذلك ما زال الخلقويون يرفضون اعتبار هذه الكائنات (وكذلك الحفريات الانتقالية) حلقات وسطى، ويتملصون بأن يعتبرونها مجموعات منفصلة من الكائنات!

قلت: قوله: "وبدلا من أن تشبه شجرة الحياة العظمى لدارون هرما مقلوبا يقف على رأسه (وهو الخلية الحية الأولى) أصبح الوضع الحالي هرما مستقرا على قاعدة عريضة جدا، تشكلها جميع الكائنات الحيوانية التي ظهرت في العصر الكمبيري." قلت، ليست هي إذن شجرة واحدة تنبت من أصل واحد، ولا هرما مقلوبا على رأس واحدة، بل وعلى كلامك هذا، ليس للأنواع فيها سلف مشترك أصلا، وإنما ترجع أصول كل نوع، إلى نوع مشابه له مستقل (نوعيا) عن الأنواع الأخرى، مما وجدوه في حفريات حقبة الكامبري (وليس "الكمبيري"!)! أي أن صورة الأمر باتت تبدو وكأنما هي مئات الشجرات، شجرة لكل نوع! ومع ذلك ترجع في الفقرة التالية مباشرة لتستنكر اعتراض من سميتهم "بالخلقويين" على دعوى الأصل المشترك للأنواع، وهي القول الذي يجمع عليه جميع التطوريين (وأنت ملزم بقبول إجماعهم)، بأنها كلها قد تطورت من بعضها البعض رجوعا إلى كائن واحد أحادي الخلية عاش على الأرض قبل ثلاثة ونصف بليون سنة! فالذي يعتقد أن الأنواع كلها انحدرت من كائن أحادي الخلية، هذا يلزمه ضرورة أن يقول بشجرة واحدة عملاقة، أصلها

ذلك الكائن الأحادي المزعوم، ومنه تفرعت جميع الأنواع التي اكتشفوها في طبقة الكامبري، التي منها تطورت – بزعمهم – جميع الأنواع التي تدب على الأرض اليوم! ومع ذلك لا يزال القوم يتلاعبون بتأويلات المشاهدات سواء على المستوى الجزيئي والجيني أو على المستوى التشريحي الأحفوري، فتارة تميل بهم أهواؤهم ليجعلوها شجرة واحدة، وتارة يجعلونها شجرات عدة، تارة يجعلوا كائنا من الكائنات سليلا لنوع ما، وتارة يجعلوه سليلا لغيره، تارة يجعلونه حلقة وسطى بين نوعين، وتارة ينفون عنه التوسط بينهما، يزعمون أنهم في ذلك كله إنما يتبعون "الدليل" Evidence، مع أنهم ليس عندهم إلا التحكم بالأقيسة في الافتراض والتأويل، بما يغرقهم تمام الإغراق في تكافؤ الأدلة وسقوطها كلها رأسا! خلق الله أنواعا من الكائنات تعيش في البحر، وأنواعا أخرى تعيش في البر، وأنواعا تعيش في البر والبحر معا، فأبى هؤلاء إلا أن يقولوا، بمحض التحكم لا غير: هذا ما نتوقع أن نراه إن صح أن كان جنس المخلوق البحري قد تطور منه جنس المخلوق البري، مرورا بجنس البرمائيات، وهو إذن دليلنا على صحة ذلك الفرض! فما أسهل أن يقال لهم: ولكن هذا هو نفسه ما نتوقع أن نراه كذلك، إن لم يصح ما تزعمون، بل هو عين ما نراه إن صح أن خلق الله جميع تلك الأنواع خلقا مستقلا لا من بعضها البعض، فبدأ خلق ما اقتضت حكمته وغاياته من أنواع الدواب أن يجعله في البر في البر، وبدأ خلق ما اقتضت حكمته أن يجعله في البحر في البحر، وبدأ خلق ما اقتضت حكمته أن يجعله متقلبا بين البر والبحر، في البر أو في البحر، كل نوع من أصل منفصل لا من ذرية نوع آخر، فهذا الذي نشهده من تلك الأنواع ومن كونها لا تناسل فيما بينها، هو عين ما نتوقع أن نراه إن صح ما نقول!

فما جوابكم يا أدعياء العلم والعقل؟؟!

عثر القوم على حفرية لشيء يبدو وكأن فيه من صفات الزواحف وفيه كذلك من صفات الطيور، فقالوا لابد أن يكون هذا هو النوع الوسيط الذي نشأت من سلالته جميع الطيور تطورا من الديناصور! ونحن نقول: ليس بلازم، وهذا واضح! فمن الذي قال إن تراكم أمثال تلك التأويلات التحكمية المحضة التي يقتحمون بها غيبا لا نظير له في عادتهم، يفيد علما أو يقوي بعضه بعضا أو نحو ذلك مما يزعمون؟؟ الكذبة فوق الكذبة لا تزداد بصاحبها إلا إغراقا في الكذب، ولا تورث الصدق أبدا! بناء الوهم فوق الوهم لا يزيد صاحبه إلا تشبعا بالوهم، ولا يصل به إلى العلم أبدا! هذا ما يجب أن يفهمه هؤلاء! ولهذا نقول لهم والله ولو جئتمونا بملئ الأرض "أدلة" ما قبلنا منكم صرفا ولا عدلا، ولا رفعنا بخرفكم رأسا! أنتم لا تعقلون معنى الدليل ولا تفرقون بين ما يصح الاستدلال به وما لا يصح، فافعلوا ما شئتم لا شأن لنا بكم ولا كرامة لكم عندنا!

يضرب الدكتور في حاشية الصفحة التي ذكر فيها حفرية الأركيوبتريكس هذه (ص. 200) المثل الشهير الذي يضربه الدراونة على اختلاف طوائفهم وتنوع نحلهم وفرقهم (بما في ذلك طائفة الدراونة التصميميين من أتباع بيهي ودمبسكي وغيرهما)، ونقضناه من قبل في غير موضع، ألا وهو مثال المخبر السري أو المفتش الجنائي! وقد مر معك فصل كامل عقدناه في الباب الثاني من هذا الكتاب، نبين فيه أن المنطق التفسيري Abduction الذي هو عمدة المفتشين الجنائيين في استنتاجهم ما يستنتجونه، وهو كذلك (في حدود) عمدة الباحثين الأثريين في دراسة آثار الحضارات القديمة، هذا المنطق لا متسع لتطبيقه البتة في قضايا الغيب المحض، لأنه، بكل بساطة، لا قيام له إلا على أقيسة واستقراءات سابقة عند الباحث تكون هي مستنده في وضع الفرضيات التفسيرية التي يشرع بعد ذلك في المفاضلة فيما بينها لينتهي إلى ترجيح التفسير الأفضل والأقوى احتماليا! والحال أن القضايا مطلقة التغييب كقضية النشأة الأولى لجميع الأنواع الحية، هذه لا يملك البشر فيها سابق خبرة ولا مشاهدة لنظائر أو أشباه تقاس عليها حتى تكون هي مستندهم في الافتراض والتفسير!

يسوق الدكتور هذا المثال ثم يقول إن المفتش الجنائي لا يكون موضوعيا في كل حال، بل يرد عليه الميل والتأثير بتحيزه و"تصوراته المسبقة"، على حد عبارته! ثم يضرب أمثلة ليبين لقارئه أن التماس التأويلات الموافقة لميول وعقائد الباحث للمشاهدات نفسها، هو أمر يقع كثيرا في حياتنا اليومية وعند الباحثين في مجالات شتى، على أساس أن التعصب والتحيز "يتربصان لنا في جميع تصوراتنا" على حد عبارته (ص. 200)! ومن ثم يجعل الخلقوي (كما يسميه) متعصبا متحيزا، إذ يتأول اكتشاف الأركيوبتريكس هذا على أنه مجرد نوع مستقل اتفق أن كانت له صفات مشتركة بين الزاحف والطائر، فليس هو سلفا للطائر ولا خلفا للزاحف! وأما الداروينى الذي يعتبر ذلك الشيء نفسه حلقة تطورية وسطى بين الزاحف والطائر في أسطورة التطور الدارويني عنده، فهذا ليس بمتعصب ولا متحيز، وإنما هو يتبع الدليل العلمي ويتجرد من العقائد والأهواء في استعماله آلة البحث التجريبي! فأي دليل هذا الذي أوهمتم به أنفسكم، ثم جئتمونا به كمصدر لتلقي الاعتقاد بالغيب وما فيه؟؟

ثم يرجع الدكتور للاستناد من جديد إلى رسومات "إرنست هيكِل" سيئة السمعة التي تناولنا الرد عليها في غير هذا الموضع، وبينا أنه حتى على افتراض صحة دعوى تشابه أجنة الثدييات كلها في مختلف أطوارها في الرحم، فإن ذلك لا يصلح دليلا بحال من الأحوال، على مرور كل نوع منها بمراحل تطورية من أسلاف له متتابعة كما يزعمه الدراونة، بحيث يعكس تقلب أطوار الجنين ما يجري في على تلك الأسلاف التطورية المزعومة من

تغيرات! هذا خرف محض لا نرى في العقل ولا في الحس ولا في العادة وجها للزعم به! وذكرنا كما مر معك أن الدراونة المعاصرين أصبحوا يهزؤون بتلك الدعوى ولا يقيمون لها وزنا! ومع ذلك يتعلق بها الدكتور وكأنما يرى فيها طريقة لاستمالة الجهلاء والسذج من قرائه واستدراجهم للتأمل في تلك الصور لمراحل الجنين بنفس المنطق الذي يتأملون به في صور المراحل التطورية المزعومة للإنسان، والله المستعان! فإذا ما فعلوا، قيل لهم: فهذا تطور وذاك تطور، فلماذا قبلتم هذا ورددتم ذاك؟؟

ثم يذكر ما يسمى بظاهرة التماثل Homology أي حقيقة تشابه النبية الداخلية للأعضاء المتشابهة بين الأنواع، في جملة الأدلة على التطور، فيقول (ص. 202):

> وإذا كان قد ثبت أن هذا التماثل يرجع إلى جينات متشابهة، فسيظل السؤال مطروحا. هل يرجع التماثل إلى "تصميم مشترك – Common Design" التزم به الخالق عندما خلق كل نوع خلقا خاصا (كما يقول الخلقويون) أم يرجع إلى "أصل مشترك – Common Ancestor" (كما يقول التطوريون)؟ وإذا كان يمكن إرجاع كل أشكال التشابه بين الكائنات إلى التصميم المشترك أو إلى الأصل المشترك، فلا شك أن وجود التشابه بين كائنين مع وجود "أعضاء ضامرة" في أحدهما مشابهة لأعضاء عاملة في الكائن الآخر يرجح بشكل قوي مفهوم السلف المشترك. فإذا أرجع الخلقويون التشابه بين الإنسان والشمبانزي مثلا إلى التصميم المشترك فعليهم أن يفسروا لماذا خلق الإله العضلات الضامرة في صوان أذن الإنسان، والتي تشبه العضلات العاملة في الشمبانزي، هل هذا التشابه من باب الرغبة في خداع الإنسان كما يقول بعضهم أم لاختبار قوة إيماننا كما يقول آخرون؟!

قلت: أولا: لا يقال إن الله "التزم" بكذا أو بكذا، فالله لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم! وكذلك فلا يُخبَر عنه سبحانه إلا بمعاني تلك الصفات أو بما تقتضيه تلك المعاني، بألفاظ واضحة لا إجمال فيها ولا اشتباه. فما معنى أن يقال إن الله تعالى "التزم بتصميم مشترك" عندما خلق كل الأنواع؟؟ إن كان المراد أنه سبحانه قد اقتضت حكمته أن يقع التشابه بين الأنواع، فهذا معنى صحيح ظاهر إجمالا، لا مرية فيه، على تفصيل في أوجه التشابه والافتراق. وإلا فما المقصود؟؟ وهل يتصور عند المصممين البشريين، أيا ما كان ما يصممونه، أن يُتخذ "تصميم مشترك" لنوعين مختلفين؟؟ حتى الترس الواحد إذا ركب في ماكينة ما، كان هذا تصميما بخلاف ما يكون إذا ركب هو نفسه في ماكينة أخرى من نوع آخر، وإن لم يزد في كلتا الماكينتين على أن يكون ترِسا! فكيف برب العالمين

سبحانه وتعالى، الذي لا يوصف خلقه "بالتصميم" أصلا، كما بينا ذلك في غير موضع؟؟

ثانيا: تأمل كيف يعترف الدكتور صراحة بأنه "يمكن إرجع كل أشكال التشابه بين الكائنات إلى التصميم المشترك أو إلى الأصل المشترك"، فبغض النظر عن المراد بالتصميم المشترك، فالرجل يستشعر تلك الآفة المنهجية الظاهرة في استدلالات التطوريين وكثير من خصومهم من أهل الكتاب ومن أهل القبلة على اختلاف فرقهم وطوائفهم، فيما يتعلق بمسألة أصل الأنواع، ألا وهي تكافؤ الاستدلال بالمشاهدات في الترجيح بين الفرضيات السببية الموضوعة لتفسيرها في غيب الماضي المطلق! ومع ذلك تأمل بأي شيء رجح بين الفرضين! رجح بينهما بدوران منطقي واضح Begging the Question، يستدل بالشيء على نفسه، يقول: "فلا شك أن وجود التشابه بين كائنين مع وجود "أعضاء ضامرة" في أحدهما مشابهة لأعضاء عاملة في الكائن الآخر يرجح بشكل قوي مفهوم السلف المشترك" فيقال له: فمن أين حكمت – أصلا – بأن تلك الأعضاء "ضامرة"؟ هل شهدتها وهي تضمر؟ هل أطلعك الله على خلق ذلك النوع أو ما يشبهه من نوع متقدم عليه، بطريق اشتملت على إضمار هذا العضو أو ذاك؟؟ أبدا! وإنما جعلتها كذلك بناء على دعوى السلف المشترك المزعوم نفسها! فكان أن اعتقدت أولا صحة دعوى التطور من سلف مشترك، ثم قلت لابد وأن تكون الأعضاء المشابهة التي لا أعلم لها وظيفة في جسد هذا الكائن، هي البقايا الضامرة لما كانت عليه في جسد سلفه التطوري! فتحصل من ذلك أنك استعملت دعوى السلف المشترك نفسها كمقدمة لإثبات صحة دعوى السلف المشترك وترجيحها على خلافها، فتأمل! وهكذا الشأن، أيها القارئ الكريم، في جميع استدلالات القوم التي أغرقوا فيها أمما من الباحثين في تخصصات شتى، وأنفقوا فيها من الأموال ما من شأنه لو جمع أن يكفي لإطعام فقراء الأرض لمئات السنين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثالثا: كيف يخفى على مسلم عاقل ما في دعوى الأعضاء الضامرة عديمة الفائدة هذه من انتقاص ظاهر من كمال رب العالمين جل شأنه؟؟ الإله الذي تؤمن به يا دكتور عمرو، أنقص في العلم والحكمة والقدرة من أن يخلق نوعا جديدا خاليا من العيب، ومن الأجزاء التي لم يعد لها استعمال ولا وظيفة!! فهل هذا هو رب العالمين الذي يؤمن به المسلمون؟؟ فإن قال: "معاذ الله، بل أنا أؤمن بأن الله كامل العلم والحكمة والقدرة سبحانه، وأرى أن من كماله أن خلق الأنواع كلها من بعضها البعض على تنوعها البالغ الذي نراه!" قلنا له: فبأي عقل يكون من الكمال في الصنعة أن تخلق أنواع جديدة فلا تخلق إلا بالتطوير والتحسين على أصل حيوي في غاية الوضاعة والانحطاط (كما هو اعتقادك)؟؟ ثم بأي عقل يكون من الكمال في علم الصانع وقدرته

أن يظهر في هيئة النوع الذي صنعه عيب نوعي، ونقص نوعي (أي لا يخلو منه فرد من أفراد ذلك النوع)؟؟ وهل يكون وجود أجزاء ضامرة عديمة الفائدة في بناء النوع المصنوع، ليست إلا بقايا لأعضاء كانت لها وظيفة عضوية في نوع آخر صنع النوع الجديد بالتعديل عليه، هل يكون هذا إلا عيبا في الصناعة ونقصا في علم الصانع؟؟ ما لكم كيف تحكمون؟؟ سبحان الله وتعالى عما تصفون!

الدراونة الذين تزعم يا دكتور أنك بريء منهم ومن ماديتهم وعشوائيتهم الوجودية، إنما قالوا بالأعضاء الضامرة تلك لما سبق من اعتقادهم عشوائية النشأة البيولوجية وأسبابها، وهو ما يعني انتفاء الغايات والمقاصد والحكم Teleological Ends فيما وراء أجزاء الكائن الحي وأعضائه وجميع ما فيه من نظم حيوية! هو تفسير دارويني صرف مبني على ذلك الاعتقاد الدهري نفسه! وهم به لا يفسرون واقع تلك الأعضاء كما زعموا، وإنما يفسرون جهلهم هم بما لها من مقاصد وغايات عند باريها الذي جحدوه وكذبوا به ((بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)) الآية [يونس : 39]! فهم من طبيعتهم المنهجية، لا يثبتون شيئا وجوديا – أيا ما كان – إلا بالقياس على ما يشعرون به ويتصورونه من نظام العالم المادي المحسوس! فإن لم يروا في هذا العضو أو ذاك ما يعرفون له قياسا على وظيفة حيوية يعرفونها فيما يعرفون، نفوا عنه الوظيفة بالكلية! دع عنك نفيهم الغائية والحكمة والتعليل الإلهي عن العضو الضامر وعن غيره!

أما نحن المسلمين الموحدين فنثبت لله تعالى غايات وحكما من خلق كل ذرة في هذا العالم وكل خلية حية وكل كائن حي، حكما لا يحصيها إلا هو سبحانه، وأنه لا يجعل في نوع من الأنواع الحية جزءا لا سبب لجعله فيه ولا حكمة! هذا ينافي ما نثبته لله تعالى من كمال التقدير والتدبير للخلق، كما في قوله جل شأنه ((إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)) [القمر : 49] وقوله ((الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)) [الفرقان : 2] وقوله: ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)) [السجدة : 7] [99] نثبت وجود تلك الحكم والغايات في علم الباري سبحانه وتعالى، سواء علمنا بها أم لم نعلم، وسواء شعرنا بها أم لم نشعر! فلا يكون من مسلم عاقل أن يقول لنوع من أنواع المخلوقات لا يعلم لماذا خلق الله فيه جزءا معينا فركبه حيث ركبه، ولا يدري ما غاياته من خلقه كما خلقه: "لابد أنه بقية من أجزاء نوع آخر كان لها فيه وظيفة ثم فقدها في النوع الجديد الذي خُلق منه بالتطوير، فبقيت هكذا بلا وظيفة، ثم أخذت في الضمور جيلا بعد جيل!"، معاذ الله أن نظن ذلك الظن بربنا سبحانه!

رابعا: قوله "فإذا أرجع الخلقويون التشابه بين الإنسان والشمبانزي مثلا إلى التصميم المشترك فعليهم أن يفسروا لماذا خلق الإله العضلات الضامرة في صوان أذن الإنسان، والتي تشبه العضلات العاملة في الشمبانزي، هل هذا التشابه من باب الرغبة في خداع الإنسان كما يقول بعضهم أم لاختبار قوة إيماننا كما يقول آخرون؟!" قلت: من الذي قال إن على نفاة السلف المشترك أن يقدموا تفسيرا طبيعيا Scientific Explanation بديلا عن تلك الخرافة في جواب السؤال: لماذا خلق الإله العضلات التي تسمونها كذبا وعدوانا "ضامرة" في صوان أذن الإنسان؟؟ هذا الشرط المعرفي من أين جئت به يا دكتور وبأي سلطان اشترطته علينا؟؟ الجواب، أيها القارئ الكريم: من "الطبيعية المنهجية" التي تشبع بها الدكتور وأمثاله، التي هي المنهج المعرفي أو نظرية المعرفة Theory of Knowledge عند الطبيعيين الدهرية! ففي دين الطبيعيين، لا يجوز أن تترك هذه المسألة بلا "نظرية تفسيرية"، تجري على المنهج الطبيعي Metodological Naturalism في وضع فرضياتها، وعلى الطريقة التجريبية الإمبريقية Scientific Method في التماس المشاهدات التي ينتصر بها لتلك الفرضيات! والواجب على المعترض على أي نظرية من نظرياتهم في إجابة ذلك السؤال، أن يقدم لها بديلا يكون أرجح منها في موازينهم الجارية على ذلك المنهج نفسه وتلك الطريقة نفسها (الطبيعية المنهجية التي اغتصب أصحابها آلة البحث التجريبي اغتصابا)! أما أن يقال إن هذا السؤال لا يصح إخضاعه لتلك الطريقة ولذلك المنهج أصلا، ولا يتلقى الجواب فيه من ذلك المصدر، لأنه ليس صالحا للإفادة بالمعرفة في مسألة النشأة بكليتها، فهذا في دين الطبيعيين كفر وهرطقة!

أما نحن المسلمين فنقول إنه لا يلزمنا بحال من الأحوال، أن نجري على طريقة الطبيعيين الفاسدة في اقتحام الغيبيات المطلقة بالتنظير التفسيري الطبيعي! بل نرى ذلك المسلك عند الطبيعيين هو محض السفاهة والجهالة على التحقيق، وهو أعظم إساءة تعرض لها اسم "العلم" في تاريخ البشر، وهو اغتصاب وعدوان عظيم على آلة البحث التجريبي Scientific Method التي ما فتح الله علينا باكتشافها من أجل أن نستعملها في النظر في الغيبيات، وفي التخرص عليه سبحانه والعدوان على صفاته وأفعاله وعلى حكمته وتعليله على هذا النحو الدهري اليوناني الخبيث! فعند المسلمين من أهل السنة والجماعة، لا يجوز أن يطبق المنطق التفسيري Abductive Reasoning في التماس الفروض التفسيرية لحوادث هي من الغيب المطلق الذي نقطع بأنه لا نظير له في عادتنا وتجربتنا، ولا يجوز أن تستعمل آلة البحث التجريبي (وأعني بها تصميم التجارب، وجمع المشاهدات من المراصد، ثم استعمالها في استقراء السنن السببية والنظاميات الطبيعية وفي اختبار صحة الفروض التفسيرية) في هذه البابة أصلا! فما كان من سمع (نص

شرعي صحيح) في أمر الغيب فهو العلم، وإلا فلا نهوض لأحد بشيء من المعارف فيه البتة، والواجب فيه التفويض!

ولهذا فالسؤال: لماذا خلق الله في أذن الإنسان عضلات تشبه تلك التي في أذن الشيمبانزي، مع كوننا نرى تلك التي عند الشيمبانزي تقوى بما فيه الكفاية لتحرك أذنه خلافا لتلك التي عندنا التي لا تكاد تحركها على الإطلاق؟ هذا السؤال إما أن يأذن الله لنا بأن نكتشف له جوابا جزئيا، فتظهر لنا بعض الوظائف العضوية لتلك العضلات في المستقبل (كما حصل في كثير من تلك الأعضاء والنظم التي كان الدراونة القدماء يرونها عديمة النفع والوظيفة)، وهو ما يحصل بالتتبع والاستقراء الصحيح، أو تظهر لنا حكم أخرى من ذلك، وإما ألا يتبين لنا شيء على الإطلاق! أما أن يقال إن عدم العلم يساوي العلم بالعدم، ثم يفسر ذلك العدم المزعوم بأنها ليست إلا بقايا لعضلات كانت لها وظائف في أسلافنا التطوريين المزعومين، فهذه أوهام ومغالطات بعضها فوق بعض طبقات! وهي من الدين الطبيعي ومصادر التلقي فيه على التحقيق، وليست من العلم الطبيعي في شيء البتة، وهذا ما كتبنا هذا الكتاب من أجل بيانه للمسلمين، والله الموفق المعين!

خامسا: لنفرض أن كان من غايات الباري وحكمه في خلق تلك الأعضاء التي لا يظهر لنا وظيفة تقوم بها، أن يبتليكم أنتم معاشر الطبيعيين وأذنابهم من أهل قبلتنا، بنظرية داروين وبالدهرية الطبيعية التي يتخذ أصحابها من جهلهم بالحكم والغايات الإلهية دليلا على عدم الحكمة وعدم الغاية، وعدم وجود الصانع نفسه، فكان ماذا؟ أي شيء يمنع من ذلك في عقول الأسوياء الصادقين، الذين يقدرون الله حق قدره؟؟ ولنفرض أنه قد اقتضت حكمته أن يخادع الجحدة المستكبرين من فلاسفة الطبيعيات ليغرقهم في الضلال بما كسبت قلوبهم النجسة، كما في قوله جل شأنه ((إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)) الآية [النساء : 142]، فكان ماذا؟؟ هذا من كمال الحكمة الإلهية عند من قدر الله حق قدره وفهم عنه سبحانه حق الفهم، نسأل الله أن نكون منهم! مجازاة الفلاسفة المستكبرين بنقيض قصدهم، واستدراجهم لما يستحقون من الضلال والضياع، ولمزيد من أسباب تزيين الباطل الظاهر الجلي لأنفسهم ولأتباعهم، هذا من كمال الحكمة والعدل ولا شك! من أبت عليه نفسه المستكبرة أن يُخضع رقبته لرسول من رسل الله تعالى، وأن ينقاد إليه كما يحب ربه ويرضى، كان مستحقا لذلك الاستدراج أتم الاستحقاق وأكمله، بل والله لم يجز أن نظن في رب العالمين سبحانه إلا أن يمكر بهؤلاء أتم المكر وأحكمه، جزاء وفاقا! ((أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)) [فاطر : 8]! فقول القائل إن السلف المشترك لابد وأن يكون حقا، وإلا كان الله يخدع الناس (هكذا) بما يظهره لهم من علاماته مع

أن الحق على خلافه، هذا القول لا يقوله إلا دارويني محترق! أنتم من تخدعون أنفسكم بما انتفخت به قلوبكم من الكبر والهوى، قاتلكم الله! وإلا فالحق جلي واضح لا يشتبه على عاقل سليم النفس، والحمد لله أولا وآخرا!

ثم ينتقل للكلام على الصورة الشهيرة لأشباه الإنسان وهي تنتصب قامتها تدريجيا، ويذكر أن الحفرية المسماة بإنسان جاوا، ليست في الحقيقة إلا عظمة فخذ وثلاث أسنان وجزء من عظمة الجمجمة، "مع قدر كبير من التخيل بطبيعة الحال" على حسب قوله (ص. 203) فنقول: ما وجه إيراد هذا النقد في مقام الانتصار للتطور الموجه؟ أليس هذا توهينا لأدلة القول بالأصل المشترك نفسه؟؟ أليست هذه الحفرية من الحفريات التي يقوم عليها (إلى جانب حفرية إنسان بكين المزعوم وغيرهما) إثبات التطوريين لما سموه بالهومو إريكيتوس Homo Erectus الذي هو عندهم السلف المباشر للإنسان المعاصر، الذي يلزمك أنت أن تعتقد – على مذهبك التطوري – أن آدم عليه السلام قد خلق في رحم أنثى من إناثهم؟؟ فإذا كان هذا الاكتشاف الذي يظل اكتشافا مهما عند القوم ولا يلتفتون إلى قول من ينتقده عليهم، إذا كان هذا يعتريه ذلك النقد المنهجي الخطير (القول بأن طبيعة الحال هي دخول "قدر كبير" من الخيال على تصورات القوم للهيئة التي كان عليها المخلوق صاحب تلك الرمة)، فلابد أن يكون ذلك النقد واردا على جميع المشاهدات التي اتبع فيها ذلك المنهج الخيالي في التأويل، سواء كانت حفرية أو تشريحية أو جزيئية أو جينية! إذا كانت المشكلة تكمن في طريقة التأويل المعتمدة للمشاهدات والاكتشافات عند القوم (حمل جميع المشاهدات على أنسب تأويل يخدم النظرية، ثم جعلها بذلك التأويل من جملة أدلتها!!)، فأي قيمة تبقى لمنهجهم في الاستدلال يا دكتور؟؟

لقد كان كثير من البيولوجيين في بدايات القرن العشرين الميلادي يعتبرون تلك الحفريات إما لآحاد أو أنواع من القردة قريبة الشبه بالإنسان، أو لآحاد أو أعراق من البشر قريبي الشبه بالقردة، ومن الواضح أن هذا التفسير لا يزال قائما إلى الآن (وهو الحق الذي لا محيد عنه لعاقل)، فما الذي نقلهم عنه؟؟ لا شيء إلا غلبة الخيال الدارويني الخصب على المجتمع الأكاديمي الغربي الذي تسوده النحلة الدهرية الطبيعية، وانحسار مذهب المخالفين أكاديميا واجتماعيا! فكما بينا مرارا في هذا الكتاب، فإنه مهما تراكمت التأويلات التحكمية المغالِطة عند القوم فإنها لا ترجح قولا على قول، ولا تنصر مذهبا على مذهب، مهما أغرق القوم أنفسهم في الوهم والخيال!

ومع ذلك يقول صاحبنا: "لقد سبق أن كلفت مجلة National Geographic أربعة فنانين لرسم تصور لكائن بشري بناء على سبع عظمات حفرية وجدت في كينيا، لقد خرج علينا الفنانون بأربع رسومات مختلفة تماما!" ويقول معلقا (وتأمل!!) (ص. 203): "إن ذلك لا يعني أننا نجاري الخلقويين في نبذهم

لحفريات أشباه الإنسان، فقد ظهرت أدلة حفرية أخرى تجزم بحدوث التطور، مثل وجود جماجم لهذه الكائنات تتدرج في سعتها (وبالتالي حجم المخ الذي يشغلها) من 450 سم مكعب (تساوي حجم مخ الشمبانزي) ثم 650 سم مكعب، ثم 900 سم مكعب، ثم 1100 سم مكعب حتى نصل إلى جمجمتنا التي تحوي مخا حجمه 1350 سم مكعب تقريبا. لا شك أن علم حفريات الإنسان علم حقيقي منضبط، لكن تنقصه المادة العلمية. لقد احتارت حفريات الإنسان القليلة بين التطوريين والخلقويين، ما بين إثبات التطور ونفيه، لذلك فإن عظمة صغيرة تكتشف هنا أو هناك يمكن أن تغير من تفاصيل سيناريو التطور." اهـ.

قلت: أدلة حفرية تجزم؟؟ الله أكبر! من أين يأتي الجزم يا دكتور؟؟ هلا احترمت عقول قرائك على الأقل؟؟ تدرج الجماجم المكتشفة في سعتها لا يدل على شيء البتة، وإنما هو إغراق في التأويل نفسه الذي به جعلتم هذه الجمجمة لقرد وتلك لشبه قرد، وهاتيك لشبه إنسان، والأخرى لإنسان! أنتم من جعلتموه تدرجا، تحكما واستدلالا بمحل النزاع! تعتقد أولا أن الجماجم الأغور في طبقات الأرض، لابد وأن تكون أعلى في السلم التطوري المزعوم، ومن ثم تكون أقرب إلى مشابهة القرد منها إلى الإنسان، ثم تنزل وتلتمس من الحفريات ما شئت، فإذا وجدت حفرية قرد أو ما شابهه في طبقة عميقة وحفرية إنسان أو ما شابهه في طبقة قريبة، جعلت الأول سلفا للثاني على سلم التطور المزعوم، وإن اتفق أن وجدت حفرية إنسان في الطبقات الأعمق أو حفرية قرد في الطبقات الأقرب، أهملتها أو تأولتها وفسرتها بما لا يسقط النظرية ولا يهدم عليك ذلك الاعتقاد الكلي الذي انطلقت منه، وإنما يغير في بعض تفصيلاته وجزئياته، فخبرني بربك، أي علم يكون هذا وأي استدلال وأي قيمة معرفية تكون له، ومن أين يأتي الظن فيه فضلا عن الجزم؟؟ من أين يأتي الجزم وقد قلت بنفسك "لقد احتارت حفريات الإنسان القليلة بين التطوريين والخلقويين، ما بين إثبات التطور ونفيه، لذلك فإن عظمة صغيرة تكتشف هنا أو هناك يمكن أن تغير من تفاصيل سيناريو التطور"؟؟ سبحان الله! على عادته، يبدأ الفقرة بكلام ثم ينقضه في آخرها!

تأمل قوله (ص. 204): "بهذا ينتهي عرضنا لأدلة التطور العشوائي التي ملأ الدراونة بصورها كتب البيولوجيا، حتى صار العامة (ومعظم المتخصصين) يتصورون أنها معلومات صحيحة مائة في المائة. وبالرغم من اقتناعنا بالتطور فقد فندنا بموضوعية ما في هذه الأدلة والرسومات الكلاسيكية من تجاوز وأخطاء، ووضعنا الصحيح منها في موضعه. ونكرر مرة أخرى أن معظم هذه الأدلة قد أصبحت في ذمة التاريخ، وانتقل التطور إلى ملعب البيولوجيا الجزيئية جملة وتفصيلا. ومن ثم أصبح رفض الخلقويين لمفهوم التطور بناء

على تفنيد الأدلة السابقة لا لزوم له ولا دلالة لنتائجه، فقد جاء علم البيولوجيا الجزيئية بالأدلة الأقوى والأبقى والتي لا تدحض". اهـ.

قلت: أي "تطور عشوائي" هذا الذي "فندته" يا دكتور؟! أنت جئت أولا بكلام يحيل الشجرة التطورية التي قال بها داروين إلى شجيرات متفرقة، وانتصرت له، ثم رجعت لتثبت شجرة واحدة من أصل واحد! ثم نقدت تجربة ستانلي ميلر بنقد لا يمنع غيره من أقرانه من التماس نظرية أخرى في نفس الأمر بنفس المنهج الطبيعي الدهري (العشوائي) الذي انتهجه ميلر، بل يقرهم عليه! ثم جئت برسومات هيكل وانتصرت لها بكلام في مسألة تطور الأجنة لم يعد أحد من البيولوجيين يرفع به رأسا أصلا، ثم أدخلتها في جملة ما سميته بالأدلة التاريخية التي يستوي قبولها بردها لأنها لم تعد هي مستند التطوريين في إثبات نظريتهم! وجمعت تحت اسم "الأدلة التاريخية"، جميع استدلالات القوم في الحفريات والتشريح ونحو ذلك، ثم نقدت كل قسم منها بنقد رجعت عليه ونقضته وكأنه لم يكن، ثم ختمت الكلام بتكرار القول بأن هذه الأدلة كلها (التي ما عاد قارئك عند هذا الموضع يدري على أي شيء تعتقد أنت أنها تدل!) لا داعي لنقدها كما يتكلفه من سميتهم بالخلقويين لأنها "أصبحت في ذمة التاريخ"، مع أنك لما أردت أن تنتقد شيئا لتسقط مسألة العشوائية، لم تر لنفسك إلا أن توجه النقد (أو ما زعمته نقدا) لتلك "الأدلة"، ومع أنك توافق من تسميهم "بالدراونة"، في إطار "التطور الموجه"، على تلك القصة الطويلة التي انتهوا إلى بنائها على اعتقادهم الدهري وعلى العشواء الوجودية، وعلى تلك "الأدلة" نفسها التي جمعتها في هذا الفصل، وتعتقد أن البيولوجيا الجزيئية تؤكدها (أي تلك القصة التطورية) بأدلة هي "الأقوى والأبقى والتي لا تدحض" [100]!

فبالله أي دوران وروغان وتخليط وأي عبث بعقول الخلق هذا، وما الذي نخرج به منه؟؟! لقد أثبت الدكتور بجدارة أنه لا يدري ما هي "العشوائية" التي زعم أنه يفندها، وما فلسفة الاستدلال في نظرية التطور التي اعتنقها اعتناق الدين والملة، وما محل النزاع بين طوائف القائلين بها، فلا يضبط حدا صحيحا لمن سماهم "بالدراونة" ولا لمن سماهم "بالخلقويين"، يسوغ له الزعم بأنه يقف موقفا وسطا بين الفريقين ويرد عليهما معا "بموضوعية" كما يدعي، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

يقول "بعد أن حللنا أدلة الدراونة على حدوث التطور العشوائي، نعرض عددا من الظواهر البيولوجية المبهرة التي يعجز الدراونة عن تفسيرها من خلال منظور العشوائية والصدفة، والتي لن يجد لها العلم تفسيرا ماديا مهما تكشف له من معارف في المستقبل." اهـ. قلت: الذي "حللته" يا دكتور هو أدلة الدراونة على حدوث التطور، ولا حدوث للتطور على المعنى الدارويني، إلا بناء على التصور الدهري للعشواء الوجودية، كما بسطنا عليه الكلام في

موضعه من هذا الكتاب! فكل نقد يوجه إلى "التطور العشوائي" فهو موجه إلى مبدأ التطور نفسه ضرورة، وهو إذن موجه إليك أنت في "تطورك الموجه"! ولسنا نرى في "تحليلك" ما يعده العقلاء تفريقا في نقد الاستدلال بين ما يمكن على مذهبك أن يسمى تطورا عشوائيا، وما تسميه تطورا موجها أو إلهيا، حتى يخرجوا منه بنفي الأول وإثبات الثاني كما هو مطلبك! وبما أنك تقرر بكل ثقة وحزم، أن البيولوجيا الجزيئية قد أثبتت وقوع التطور كما يزعم الدراونة أنه وقع، بدقائقه وحذافيره، "إثباتا هو الأقوى والأبقى الذي لا يدحض"، وبالنظر إلى الطبيعية المنهجية التي تعتنقها أنت تقليدا للقوم، التي تفتح قضية خلق السماوات والأرض وما بينهما للتفسير الطبيعي الصرف، فإنه يلزمك أن تسوي بين هذين النوعين من الأدلة (الأدلة التي نقدتها ووهنت منها، والأدلة التي اعتمدتها وجعلتها غير قابلة للدحض) من حيث منطق الاستدلال نفسه ودلالته على العشوائية وانعدام الغائية (بموجب مسلمات الطبيعية المنهجية نفسها التي قام عليها الاستدلال كما بيناه في غير موضع)! يلزمك أن تعلن استعدادك التام لقبول "التفسير الطبيعي" المحض الذي ينحي الباري وأفعاله عن المسألة بالكلية، إن قدر ظهوره عندهم في المستقبل (بالنظر إلى زعمك أنه ليس لديهم منه الآن شيء)، لتلك المشاهدات التي أبهرتك في البنية الجزيئية للخلية الحية! فإذا كانت أدلتهم في إثبات العشوائية الوجودية هي نفسها أدلتهم في إثبات التطور، لزمك أن تقبل منهم الآن لا في المستقبل، لأنهم يجعلون من جميع تلك المشاهدات التي أبهرتك دليلا على التطور، وأنت توافقهم على ذلك!

ينتقل الدكتور بعد ذلك إلى نقل اعتراضات أصحاب نظرية التصميم الذكي وغيرهم على دعاوى النشأة التطورية لبعض الجزيئات البروتينية في الخلية الحية. فيذكر أولا تقديرا احتماليا تخمينيا لا أساس له عند أصحابه، لفرصة "تكون سلسلة واحدة من سلاسل جزيء الهيموغلوبين الأربعة من طريق التراص العشوائي"، وهو ما بينا مرارا وفي غير موضع بطلانه منهجيا، وأن اعتماد المنطق الاحتمالي في الموازنة بين النشأة العشوائية والنشأة الغائية (الخلق الإلهي)، يقتضي التجويز العقلي المبدئي للنشأة العشوائية، كاحتمال مقابل للخلق الإلهي، وهذا ناقض للبداهة والفطرة ولاعتقاد المسلمين بالوجوب العقلي لوجود الباري جل شأنه، وجودا أزليا يليق به، ولمخلوقية (حدوث) كل ما سواه من موجودات العالم! ثم إنه عدوان على المنطق الاحتمالي نفسه بالنظر إلى كون الاحتمالات لا تقدر إلا بواقع الخبرة والعادة البشرية ومحصول الاستقراء البشري في المحسوسات! فأين وقع في محسوس أحدهم من قبل، أن شهدوا عوالم تنشأ فيها أنواع حية، فشهدوا في بعضها خالقا يخلق، وفي البعض الآخر فوضى وعشوائية هي التي تخلق، فنظروا في حال عالمنا هذا ففسروا ظاهر حاله وما فيه بالترجيح الاحتمالي لأن يكون عشوائيا أو لأن يكون له صانع؟؟ هذا – إلى جانب نقض الضروريات

كما تقدم – تطبيق لمنطق الاحتمالات في غير محله، كما بسطنا عليه الكلام في غير هذا الموضع!

ثم ينقل اعتراض التصميميين بقولهم إن جزيء الهيموغلوبين لا يمكن أن ينشأ بالتطور على أجزاء لأنه لو لم يوجد كاملا بجميع الأحماض الأمينية التي تتركب منها كل سلسلة من سلاسل الجزيء (مئة وستة وأربعون حمضا) مركبة في محلها تركيبا صحيحا، فلن يعمل، وإذن فلن يتمكن المخلوق من التكاثر، ولن يوجد ما يعمل عليه الانتخاب الطبيعي! وهذا هو مبدأ التعقد غير القابل للاختزال Irreducible Complexity لمايكل بيهي، الذي يأتي معك بسط الكلام عليه عند تناول مذهب الدراونة التصميميين القائلين بالتصميم الذكي ID. فمن الواضح ابتداء، أن هذه النظم "المعقدة" ليست هي وحدها التي لا يصح في العقل أن تعمل في خدمة الغاية التي صنعت من أجلها أو الوظيفة التي خلقت من أجل القيام بها، إلا بكمال أجزائها من أول يوم! يصح هذا المعنى في النظام الجزيئي الحيوي (جزيء الماكينة الجزيئية كما تسمى) كما يصح في جميع الأعضاء والنظم البيولوجية على المستوى التشريحي، بل وعلى المستوى الإيكولوجي الأشمل (كما في توازن الدورات الغذائية مثلا Food Chains)! يجب أن يبدأ كل نظام مخلوق مركبا من جميع النظم الجزيئية والأجزاء والأعضاء والآلات اللازمة لقيامه بكافة الغايات والوظائف والمقاصد التي من أجلها صنع حيث صنع، وإلا كان في البابة من النقص والعبث ما يفسد الصنعة على صانعها، والبداهة والفطرة والحس والعادة المستفيضة تشهد كلها بتنزه نظام العالم عن ذلك! ((مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ)) الآية [الملك : 3]

ولكن لأن اللاهوتي الطبيعي يريد أن يؤسس برهانا نظريا قياسيا لإثبات الصانع، يجري به على شرط الخصم الطبيعي الدهري في الإثبات والنفي، فلم يجد إلا أن يسلم له بصحة المقدمة الأولى التي مفادها أن النظم الحية أو الميتة في هذا العالم، التي لا نعلم لها وظيفة أو غاية معينة، فلا وظيفة لها، ومن ثم يصح (مبدئيا) الحكم بأنها لا صانع لها أصلا! فإذا اتفق مع خصمه على تلك المقدمة، سعى بعد في أن يثبت له أن ثمة مخلوقات معينة فيها من علامات الوظيفية (أو التصميم على حد عبارتهم) ما نعلم له قياسا ظاهرا في عادتنا (بالقياس على مصنوعاتنا نحن)، وإذن ينتفي الحكم عليها بالعشوائية الوجودية، ويلزم إثبات صانع لها، ومن ثم يحصل إثبات الباري! وسنبين بحول الله وقوته بتفصيل في قسم لاحق أن الصانع الذي يثبت من طريق ذلك البرهان (برهان الثيولوجيا الطبيعية، أو برهان ويليام بيلي)، لا يكون هو رب العالمين الذي له الحكمة السابغة ولا يخلق شيئا إلا بقدر معلوم وبنظام محكم تام الإحكام، ولا يخرج شيء من حوادث العالم ولا موجوداته من ملكه وسلطانه وخلقه وتدبيره، سبحانه وتعالى، وإنما يكون صانعا ناقص العلم

والقدرة، لا يخلق إلا كما يصنع البشر مصنوعاتهم، بنظير غاياتهم وشبيه أفعالهم، ولا تدخل الموجودات كلها تحت صنعته وخلقه مثلهم، وإنما خلق بعض موجودات العلم (تدخلا!!) وترك ما سواها للعشواء الطبيعية لتحدثها كيفما اتفق!

فنظير ذلك أن يأتي أحدهم فيقول: أرأيتم هذا النظام الحيوي بالغ الدقة والتعقد؟ لو لم توجد فيه جميع أجزائه التي نراها الآن من أول يوم على ما هي عليه، لما أمكن أن يتكاثر أو أن يصبح نوعا مستقرا! فمن أين لهم الحكم بأن الحياة ما كانت لتحصل، إلا بأن يكون هذا النظام الحيوي على هذا النحو الذي يرونه لا على غيره؟؟ ألأنهم جربوا تعطيل جزء وإزالة الآخر فلم يعمل؟ هذا ما يحصل للنظام الآن على أثر التعديل فيه في ظل قوانينه وسننه التي ركبها الله في العالم! أما ما يجوز عليه وما لا يجوز في حال صنعه وتركيبه من الابتداء، لخدمة غايات ووظائف لا نعلم منها – إن علمنا – إلا أقل القليل، فهذا دخول فيما لا دخول لبشر فيه، والعلم فيه لله وحده! وهو تحكم واختزال لعلم الباري وحكمه وغاياته! فنحن نجزم بأن جميع النظم المخلوقة في العالم لم يكن لها أن تركب من أول يوم إلا على أحسن تركيب يحصل به المقصود من خلقها على أكمل وجه، وعلى أنسب ما كان عليه نظام العالم الذي خلقت فيه يوم خلقت! هذه حقيقة نعلمها علما إجماليا نقطع به بداهة وضرورة! أما التفصيل، كيف بدأ الله خلق هذا النوع أو ذاك، وهل بدأ في أول خلقه على هذه الهيئة وهذا التركيب الداخلي أم على خلافه، ثم بدل الله في تركيبه أو في هيئته أو في نظامه، فهذا كله غيب الله أعلم به، ليس لنا أن نخوض فيه أصلا! الله وحده هو الذي يحصي الغايات والحكم من خلقه ما يخلق حيث يخلق وعلى الكيفية التي يخلقه عليها! فعلى سبيل المثال، يخبرنا النص في السنة الصحيحة أن آدم عليه السلام خلق كالنخلة السحوق، طوله ستون ذراعا، ثم لم يزل الخلق يتناقص حتى انتهى البشر إلى هذه الهيئة التي نعرفها. فهل كان النظام الحيوي على المستوى الجزيئي في جسم آدم عليه السلام يوم أهبطه الله من الجنة، على نفس ما عليه نظام أجسامنا اليوم؟ هل كانت عملية التمثيل الغذائي في خلايا جسده كما هي في خلايا أجسادنا نحن؟ وهل كانت الأرض كما وجدها آدم عليه السلام وزوجه يوم هبطا إليها، على نظير ما نجدها نحن اليوم، من قارات متباعدة يكسوها ما نراه من النبات ومن أنواع الدواب؟ ثم كيف كان حال وهيئة الدواب التي تغذى عليها آدم والأنعام التي رزقه الله إياها وهو على هيئته التي ذكرنا؟ وما أدرانا كيف كانت الأرض قبل الطوفان ثم كيف تحولت بعده، وما استتبعه ذلك من تغيرات في نظمها وسننها الكونية سواء في النظم الجامدة أو في النظم الحيوية؟ هذه كلها ونحوها أسئلة غيبية لا وصول إلى جوابها من أي طريق إلا السمع! وليس في السمع إلا ما يحتاج إليه الإنسان من علم بما في الغيب حتى يحصل المقصود الإلهي من خلقه وتكليفه في الحياة الدنيا!

فليس لنا أن نضع القواعد القياسية ونقول إن أول فرد من نوع كذا أو نوع كذا من الأنواع الحية لابد أن كانت خلاياه تحتوي على هذا النظام أو ذاك على ما نراه عليه الآن، وإلا ما كانت خلاياه لتعمل أصلا! نعم لنا ولا شك أن نقول بأن المخلوق الذي تنزع منه هذه الآلة أو تلك، أو يرفع منه هذا النظام الحيوي أو ذاك، فسيهلك لا محالة! هذا يدلنا عليه الاستقراء والتتبع للمشاهدات المباشرة! ولكن من أين لنا أن نقول إنه لو قدر أن ابتدأ خلقه (يوم خلقه الله على غير مثال سابق) على نظام جزيئي Molecular biological system غير هذا الذي نعرفه، كأن يكون جزيء الهيموغلوبين هذا فاقدا سلسلة من سلاسله الأربعة التي نعرفها، أو زائدا سلسلة خامسة أو مركبا من مئة حمض أميني فقط وليس من مئة وستة وأربعين حمضا كما نراه الآن، أو غير ذلك، فلن يتمكن ذلك المخلوق الجديد من البقاء تحت نظام العالم، وسيهلك من قبل أن يتكاثر حتى يصبح نوعا منتشرا في الأرض؟؟ الله أعلم كيف بدأ خلق هذا النوع أو ذاك، وعلى أي نظام حيوي كانت خلاياه يوم خلق، وما إذا كانت قد تغيرت أو تبدلت أنظمتها الداخلية لأسباب غيبية لا يعلمها إلا الله، أم بقي الأمر بإجماله على ما كان عليه حتى جئنا نحن اليوم لنفحصه في معاملنا فنراه على هذه الصفة! التصميميون الدراونة يصرون على أنه إنما نشأ على نفس النظام الحيوي الذي نراه اليوم، في بنية الخلية وما يجري فيها من تفاعلات كيميائية، لأنهم لو جوزوا أن يكون على خلاف ذلك، للزمهم القول بأنه خضع للتطور الدارويني بصورة ما أو بأخرى، وإذن ينهدم عليهم مطلبهم في إثبات آلية إضافية للنشأة البيولوجية إلى جانب آليتي الطفرة والانتخاب الداروينيين!

فكما سيأتي معنا بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، فقد جهد بيهي من أجل أن يثبت أن الآليتين الداروينيتين المعروفتين لا تكفيان لتفسير جميع حوادث النشأة الحيوية بلا استثناء! وإنما تصلحان لتفسير نشأة الأعضاء الجديدة تشريحيا لا أكثر! وأما تلك النظم الحيوية الدقيقة التي انتهى إلى اكتشافها الباحثون في مجال البيولوجيا الجزيئية في نهايات القرن العشرين الميلادي وما بعدها، فهذه لا يمكن أن تفسر نشأتها – بحسبه – باستعمال هاتين الآليتين، على أساس أنه لو كانت نشأتها نشأة تدريجية على حسب نظرية داروين، لما قامت بوظائفها التي ننسبها إليها الآن، لأنها لا تقوم بتلك الوظائف إلا وهي كاملة التركيب، تلك الوظائف التي لا حصول للحياة في الخلية الحية (فيما يظهر لنا من حالها الآن) إلا بها! وإذن، فلابد أن تكون تلك النظم قد خلقت كلها خلقا مباشرا لا تطور فيه ولا ترقي، وهو ما يوجب وجود "مصمم ذكي" خلقها من أول يوم على تلك الصفة! ولو أن بيهي اكتفى بأن قال إن مبدأ نشوء النظام الدقيق المحكم من طريق التطور والترقي على أصول منحطة ناقصة وعشوائية هو مبدأ مضاد للعقل مناقض للبداهة والضرورة والفطرة، ولا يجوز في حق الباري، ثم تنفل بأنه لا يعقل أن يكون النظام

المخلوق لغرض ووظيفة معينة إلا مستكملا أجزاءه كلها حتى يقوم بتلك الوظيفة، أيا ما كانت تلك الأجزاء، فإن قدر أن تغيرت الوظيفة تغيرا جذريا (كالفارق بين الطيور والزواحف مثلا، أو بين الزواحف والحيتان في البحر)، فلابد من إعادة خلقه وتغيير نظامه كله حتى يصلح لأن يقوم بالوظيفة الجديدة، وهو ما لا يتصور وقوعه بالطفرة العشوائية، لو أنه قال هذا الكلام واكتفى به، لأصاب كبد الحقيقة، ولصح اعتبار كلامه نقضا لنظرية داروين بكليتها، من أولها إلى آخرها! ولكنه لم يرد أن ينقض نظرية داروين كما يتوهمه كثير من الناس، وإنما أراد أن يعتمدها (بعشوائيتها الوجودية التي هي من أركانها عنده وعند كل من فهم النظرية حق الفهم، خلافا لأصحاب التطور الموجه!) مضيفا إليها آلية ثالثة سماها "بالتصميم الذكي"! ولهذا تراه يقر داروين وأتباعه في كتاباته على دعوى تطور العين المزعوم عضويا ووظيفيا (خلافا للدكتور عمرو الذي يرى الحواس كلها أعقد من أن تنشأ بالتطور!)، ولكن يخالفهم فيما يتعلق بالنظم الجزيئية في الخلية، فيقول إن آليات داروين تصلح لتفسير النشأة على المستوى التشريحي ولا تصلح لذلك على المستوى الجزيئي، متخذا من طريقة اللاهوتيين الطبيعيين في إثبات الخلق (أعني مقارنة النظام الطبيعي المخلوق بالنظام الطبيعي "العشوائي" في زعمهم) مدخلا لإثبات "مصمم ذكي" ينسب إليه "التدخل" بخلق نظم معينة دون غيرها، ثم يجتهد في بيان صفات النظام المخلوق (الذي تظهر عليه "علامات التصميم" كما سموها!) مقارنة بالنظام العشوائي!

فمسألة التصميم الذكي هذه عند أكثر طوائف القائلين بها من النصارى الأمريكيين، لا سيما عند بيهي صاحب مسألة Irreducible Complexity هذه – كما يأتيك مزيد من البسط والتفصيل فيها لاحقا إن شاء الله تعالى – ليست دعوة للناس لأن يتدبروا في بديع خلق الله تعالى في الخلية الحية، فيستحضروا ما هو مركوز في نفوسهم وفطرهم من تعظيمه والشهادة له بكمال علمه وطلاقة قدرته جل شأنه، ثم يحتجوا بهذا المعنى على نظرية داروين بكليتها، بل ولا على العنصر العشوائي الوجودي فيها، كما يريد الدكتور أن يسلكه في كتابه هذا! وإنما هي دعوة يقر أصحابها الدراونة الدهرية على قولهم بالأصل العشوائي في الحشوة الحية، ليثبتوا من طريق المقارنة بالمخلوقات ذات الأصل العشوائي (التي أقروا القوم على القول بنشأتها عشوائيا)، وجود مخلوقات "مصممة" كذلك، فيجعلوا من تلك المقارنة مستندا لإثبات "التصميم الذكي" جنبا إلى جنب مع التطور العشوائي! هذه هي دعوى "التعقد غير القابل للاختزال"، التي لا نهوض لأصحابها بها من طريق المنهج التجريبي، إلا بإثبات نظم أخرى هي عندهم غير معقدة أصلا، أو تعقيدها قابل للاختزال Reducible! ولهذا ترى فلاسفة العلم وفلاسفة البيولوجيا بصفة خاصة يفرقون بين القائلين بالتطور الموجه، والقائلين بالتصميم الذكي يجعلونهما طائفتين منفصلتين، لما بينهما من اختلافات عقدية وفكرية دقيقة،

وإن دخلا جميعا تحت اسم الخلقويين Creationists عندهم (لقولهم بالخالقية أو بالصانعية إجمالا)!

فعندما يأتي الدكتور عمرو بهذا المبدأ في سياق الانتصار للتطور الموجه، والرد على دعاوى ملازمة "العشوائية" لنظرية التطور، فهذا يدلك على أنه كغيره من العوام وأشباههم في هذه البابة، حاطب بليل لا يدري على أي شيء يقبض بيديه، وإنما يريد – كما يريد غيره – أن يتخذ لنفسه سببا يربطه بإجماعات البيولوجيين الأكاديميين المعاصرين بصورة ما أو بأخرى! ففي الجزء التالي من الكتاب، تراه يجمع بعض المسائل التي يرى فيها "إبهارا" في الكائنات الحية، ثم يقول ما حاصله: لا يمكن أن يكون هذا قد نشأ بالتطور! ففيما تقدم، تكلم عن "الإبهار في البنية" ثم تناول جزيئي الهيموغلوبين والكلوروفيل، ليقرر أنهما لا يمكن أن يكونا قد نشآ بالطفرات والانتخاب الطبيعي! ثم يتكلم عن "الإبهار في الوظيفة"، فيتناول الحواس الخمس ليقول إن نشأتها ليست أمرا سهلا، ولا يمكن أن تتحول "عشوائيا" بعض خلايا الجلد إلى أعين مبصرة! ثم يقول: "إن دراسة أمينة متعمقة للتعقيد المذهل لهذه الحواس، ومقدار ما في أعضائها من توافق مبهر بين البنية والوظيفة، يرينا دون أدنى شك سذاجة وانحياز مثل هذا التفكير". اهـ. قلت: فما نقضت به عليهم فيما يزعمون تطوره من أصل منحط في هذه المسألة، فبه نفسه ننقض نحن عليك في كل ما قبلت منهم قولهم بتطوره من أصل منحط من أنواع المخلوقات، ولا فرق! وكذلك ما ذكرته بعد مما سميته "بالإبهار في السلوك"، إذ تورد على القارئ مسألة تزاوج الكابوريا الحمراء على جزيرة كريسماس في المحيط الهندي، وكيف أنها تحدث في ساعة محددة من العام، وتتضافر فيها عوامل إيكولوجية خارجة عن إطار البنية الجينية للنوع المذكور، فتقول إن هذا التناسق المذهل لا يمكن إلا أن يفسر "بالتصميم الذكي"! ونحن نسألك: وماذا عن مستعمرات النمل، وماذا عن بيوت النحل، وماذا عن الإبل في الصحراء بل وماذا عن ذبابة الفاكهة؟؟ لماذا تختص هذه الأمثلة التي ضربتها بأنها لا تفسر بالآليات الداروينية ولا يفسرها إلا "التصميم الذكي"؟؟ الدراونة الدهرية الذين ترد عليهم كانوا أصدق منك في نبذ ذلك التفريق يا دكتور، وفي طردهم مذهبهم على جميع ما في العالم من مخلوقات ومن نظم حيوية! فإن مجرد الانبهار ليس مستندا لترجيح دعوى نظرية على دعوى مخالفة لها! وكذلك انبهارك بهجرة الطيور والأسماك وكيف تعرف طريقها، وبحركاتها المنسقة تنسيقا مذهلا على نحو له ارتباط بالمجالات المغناطيسية للأرض!

كل ما كان من خلق الله للأنواع الحية في الأرض مذهل باهر يا دكتور، فائق في أسبابه لقدراتنا على القياس! اللهم إلا إن كنت قد اتخذت لنفسك مسلكا تفرق بيه بين ما فيه "تعقيد مذهل" أو "إبهار" وما ليس فيه تعقيد مذهل أو

"إبهار"، بحيث يصبح شرط قولك للشيء إنه قد خلق "تصميما" (على حد عبارة من نقلت عنهم) وليس "تطورا"، هو حصول الانبهار! وهذا التفريق يقتضي – ولا شك – إقرار القوم على قولهم بعشوائية أصل كل مخلوق أو نظام حيوي ينسبونه إلى التطور، خلافا لذلك النظام الذي جعلته أنت "أعقد" من أن ينفى عنه معنى "التصميم" كما نفوه في غيره، فتأمل! وإنني لأعجب والله من مذهب بيهي وأمثاله في جعلهم الخلية الحية أعقد من أن تكون قد خلقت خلقا خاصا، بينما العين أو اليد أو الجناح ليست معقدة بما يكفي لينتفي عنها الآليات الداروينية! ألا يرون في تلك الجوارح والأعضاء كيف أن الواحد منها يأتي مركبا من الآلاف المؤلفة من تلك الخلايا التي انبهروا من "تعقيد" الخلية الواحدة منها، وأنها فوق كونها مجموعة من تلك الخلايا، فإنها تحتوي على ما الله به عليم من آليات للتنسيق فيما بين تلك الخلايا وجمعها (بمئات الآلاف) على القيام بوظيفة كلية واحدة، تتجاوز ما يجري في داخل الخلية الواحدة من وظائف يشط العقل من محاولة إحصائها؟؟ لابد – ضرورة وبداهة – أن تكون اليد، بل الأصبع الواحد منها، أعقد بآلاف المرات من الخلية الواحدة التي تتركب منها أنسجته! وإذن فالواجب على العاقل أن يكون أعظم انبهارا بالأعضاء التشريحية منه بالنظم الجزيئية، فينفي التطور الدارويني عنها من باب أولى، لا أن يسلم للدراونة بجريان آلياتهم الداروينية على المستوى التشريحي دون المستوى الجزيئي! والقصد أننا نلزم الدكتور – الذي يبدو جليا تأثره بكتابات هؤلاء - بنظير هذا الانبهار في كل ما زعم الدراونة أنه نشأ بالطفرات والانتخاب الطبيعي! فإن كنت يا دكتور لا تنبهر إلا من هذا الذي ذكرت، فكبر على عقلك وقلبك وفطرتك أربعا!

والعجيب والملفت أنه يقرر "انبهاره" بحقيقة التكاثر الجنسي نفسها، ويطرح السؤال الذي طالما طرح على الدراونة الدهرية بلا جواب، ألا وهو كيف ظهر أول زوج في التاريخ (من ذكر وأنثى) وكيف اتفق أن ركبت في الذكر آلة ذكورته وفي الأنثى آلة أنوثتها بطفرتين متوازيتين بحيث تندمج الآلتان اندماج المفتاح والقفل، على هذا النحو المذهل الذي نراه في جميع الأنواع الحية، إن صح مذهبكم في نشوء الأنواع الجديدة تطورا بالطفرة والانتخاب؟؟ لن يجيبوا إلا بكثير من الخرف والتنطع بالفرضيات التحكمية الزائفة على عادتهم، فلا يعنينا النظر في جوابهم على أي حال، وإنما أردنا أن نبين أن هذا من الاعتراضات التي تضرب في صميم مبدأ التطور من أصل مشترك الذي يعتنقه الدكتور وينتصر له! فما معنى أن يأتي بها الآن يوردها مورد الأمر الباهر المذهل الذي لا تفسير له إلا "التصميم الذكي"؟؟ وكذلك ما ذكرته من "إبهار" التعايش النفعي بين نوعين Symbiosis، كالكيفية التي تتبادل بها شجرة الأكاسيا المنعة مع أسراب النمل، وما يحصل من ذلك بين الحيوانات آكلة العشب والبكتريا، وكذلك مسألة التوافق بين أنواع عدة كظاهرة التطفل، هذه كلها تعدها أنت دليلا على وجود "تصميم ذكي" ونعدها نحن

العقلاء من المسلمين دليلا على بطلان مبدأ الخلق بالتطوير على أصول وضيعة! والعجيب أنه يزعم أن تلك القضايا المبهرة كلها تعجز من يسميهم بالدراونة عن التفسير، مع أنه لو بحث فيما كتبوه فيها (والدوريات العلمية مشحونة بذلك) لوجد لديهم من التفسيرات الدراوينية نظير ما قبله منهم في غير تلك المسائل! فعلى أي أساس قبل ما قبل ورد ما رد؟؟ على أساس الانبهار؟؟ سبحان الله!

الملفت أنه يأتي بعد ليقول (ص. 210): "فكيف يفسر الداروينيون هذا التوافق؟ عندما يؤيد بعض العلماء والفلاسفة إقناع الآخرين بفكرة هم أنفسهم غير متأكدين منها، فإنهم يطلقون عليها مصطلحا Give-it-a-name فيبدو الأمر كأنه حقيقة!" اهـ. قلت: ونحن نقول: أليس هذا – بالضبط – هو ما حصل مع لفظة "تطور" Evolution يا دكتور؟؟ ما الفرق بين أن أسمي نشأة نوعين متوافقين بالتطور المشترك Co-Evolution وبين أن أسمي نشأة نوع من نوع متقدم عليه بالتطور Evolution؟ كلاهما يرجع إلى فرضيات واهية لا أساس لها! فرض القوم فرضية خرافية في نشأة الأنواع الحية سموها بالتطور، ثم إذا بكل تغير يحصل في نوع من الأنواع من جيل إلى جيل يسمى "تطورا" (بما في ذلك نشأة الأنواع المتوافقة تلك التي انبهرت أنت بها!)، مع أن حقيقة الأمر لا علاقة لها في الحقيقة بخرافتهم الغيبية تلك في أصل الأنواع إلا ما زعموه هم بقياسهم الذي لا يلزمنا أن نقبله! سموا الأمور بغير أسمائها! أعطوها اسما فصارت كما سموها! هذا بالضبط ما فعلوه، وتابعتهم أنت على أصله عندهم، ثم كرهت منهم أن يفرعوا عليه! وإلا فما المتعين على كل عاقل صادق مع نفسه إذن بإزاء تلك الأسماء كلها؟؟ الجواب واضح، إلا لمن ذهبت الأهواء ببصيرته، نسأل الله السلامة! ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً)) [الفرقان : 43]

الداروينيون Darwinians، أيها القارئ الكريم، هم من يقولون بالتطور النوعي في المخلوقات الحية من طريق فكرة "الانتخاب الطبيعي" التي ابتدعها داروين في كتابه "في أصل الأنواع"، بصرف النظر أثبتوا "الطفرة العشوائية" (كتفسير للتغير الوراثي المزعوم من نوع إلى نوع) أم لم يثبتوها! وليس في العالم من يقول بالتطور وهو مع ذلك يبطل دعوى الانتخاب الطبيعي ويردها بالكلية كما هو معلوم! ليس في الأرض تطوري إلا وهو قائل لا محالة بالانتخاب الطبيعي، سواء عممه في جميع النظم الحيوية أو قيده في بعضها دون بعض، وهو قائل لا محالة بالنشأة من طريق التغيرات الوراثية في ذرية سلف مشترك، سواء سماها طفرات عشوائية أو غير ذلك! فأي شيء يقال لمن يقول بذلك إلا أنه تابع لداروين في تطوره الطبيعي؟؟ فلا يصح عند من يروم التحرير الصحيح لأسماء الطوائف والنحل المعاصرة، أن يفصل بين القول بالتطور Evolutionism وبين الداروينية Darwninism، وكأنما يعبران

عن طائفتين منفصلتين! كل قائل بالتطور من أصل مشترك من طريق الانتخاب الطبيعي هو من أتباع داروين، شعر بذلك أم لم يشعر! فإذا كانت أنت تقول بذلك، فأنت إذن دارويني، وإن أصررت على نفي الداروينية عن نفسك، ونفي العشوائية عن التطور!

والقصد أن الذي رضي بالقول بأن الأصل في الأنواع الحية الهلاك والضياع إلا ما يتفق له أن تنتخبه الطبيعة ليبقى، بفضل مزية تطورية ظهرت فيه، هذا يلزمه قبول القول بأن تلك التوافقات العجيبة التي انبهر بها، ليست إلا انتخابا طبيعيا كذلك، قد اتفق أن كان مزدوجا في نوعين معا، لا في كل واحد منهما على استقلال كما هو الأصل الذي ارتضاه من قبل! فهم يقولون إنه قد اتفق أن حصل بين أفراد من النوعين تعاون وتبادل منفعة انتخبت الطبيعة من اشتركوا فيه من النوعين، على حساب من لم يحصل لهم ذلك التعاون! فالذي يُرجع نشأة الأنواع كلها إلى التطور من أصل مشترك بالانتخاب الطبيعي، يسميها تطورا Evolution، فأي شيء يحجزه – في منهجه - من أن يرجع تلك النشأة المتوافقة العجيبة إلى الانتخاب الطبيعي هي الأخرى، ويسميها Co-Evolution كما سموها؟؟ إن قال إن هذا أمر باهر ومذهل، قلنا فكذلك نشأة كل نوع من الأنواع الحية، فيلزمه في هذا نظير ما قاله في ذاك وإلا تناقض! أم تراك يا دكتور تنبهر من تلك الأشياء التي ذكرتها، ولا تنبهر من بديع خلق الله تعالى فيما سواها؟؟

ثم يختم الدكتور بإيراد أسئلة "وجودية" غايتها تعجيز من سماهم بالدراوينيين عن جوابها، في تفسير ظهور شيء من لا شيء، وفي تفسير ظهور الحياة من مادة ميتة، وفي فهم حقيقتها وكيفيتها، وفي تفسير التعقد المتداخل في البنى الحيوية الدقيقة والتوازن الشامل في البايوسفير بكليته، وفي تفسير حدوث التطور نفسه، وفي تفسير تميز الإنسان على ما سواه من الأنواع بما فيه من قدرات عقلية ونحو ذلك، مع أنه يعلم أن لديهم أجوبة مخترعة لجميع ذلك ونحوه من الأسئلة الأنطولوجية العليا، وأنهم سلكوا فيها نفس الطريق التي سلكوها في التوصل إلى تفصيل أسطورة الأصل المشترك نفسها، التي قبلها هو منهم بكل أريحية، ثم جاءنا يدعونا لنبني عقيدتنا وفهمنا لنصوص ديننا عليها! فما القول فيمن يقبل منطق القياس الطبيعي في الغيبيات المحضة في مواضع ويرده في مواضع أخرى، بدعوى أن القول به ممتنع فيها وأن أصحاب تلك الطريقة "عاجزون" عن الإتيان فيها بمثل ما جاؤوا به في غيرها لأنها من الغيب المحض؟؟ من جوز استعمال المنطق التفسيري في بعض قضايا الغيب المحض، لزمه تجويزه في غيرها! ومن رأى الطبيعيين "قادرين" على الإتيان منه بدعاوى معرفية معتبرة في تلك القضية الغيبية المحضة، فإنه يتناقض تناقضا صارخا إن عجّزهم عن استخراج المعارف منه هو نفسه فيما سواها من قضايا الغيب المحض! [101]

مما تعجب له حقا، وكما مر معك جانب منه، كلام الدكتور في كثير من كتاباته ومقاطعه على اليوتيوب عن "الدراونة" Darwinians وكأنه ليس منهم، وعن "الخلقويين" Creatinists كذلك وكأنه ليس منهم، وهذا وحده تلبيس مستقل! فالدراونة كما أسلفنا هم القائلون بنظرية التطور في أصل الأنواع بالانتخاب الطبيعي، ولا ينفي نسبتهم إلى داروين ونظريته الدهرية ولا يغض منها كونهم يجعلون في محل العشواء فيها "تدخلا إلهيا"، ويجعلون التطور فيها "تطويرا إلهيا"! فالدكتور وأتباعه دراونة بامتياز، شعروا بذلك أم لم يشعروا! وهو ما يعني أنه ليس كل الدراونة ملحدين، بل كثير منهم من أهل الملل الكتابية، يعتنقون نظرية داروين ولا يشعرون بما تقتضيه من الدهرية الطبيعية ومن تعطيل صفات باريهم جل وعلا! وأما لفظة "خلقوي" Creationist فهي - على الاستعمال الشائع في أدبيات أصحابها من الغربيين – تعني كل من يثبت صانعا ما Creator/ Designer، "يفسر به" (على مفهوم الطبيعيين للتفسير) نشأة الحياة أو نشأة الأنواع كلها، أو نشأة العالم نفسه أو جميع ذلك، أو تفصيلات معينة من قصة النشأة دون غيرها (على طريقة بعض طوائف التصميميين أو أصحاب التصميم الذكي كما مرت الإشارة إليه، وكما يأتي بيانه عند الكلام عليهم بتفصيل بإذن الله تعالى). وليس يختص بهذا الاسم عندهم من يقولون "بالخلق المباشر" ويرفضون نظرية داروين بالكلية كما هو جار في اصطلاح الدكتور!

ومع ذلك يعرف الدكتور "الخلقويين" تعريفا جاء به من كيسه، غير مكترث بالتنبيه على ذلك، فيقول في كتابه "كيف بدأ الخلق" (ص. 189) مقسما منكري التطور الدارويني إلى طائفتين: "المجموعة الأولى: تنكر حدوث التطور كلية، وتؤيد مفهوم الخلق الخاص الذي قام به الإله الخالق لجميع أنواع الكائنات، كل على حدة. ويطلق على القائلين بذلك اصطلاح "الخلقويون" Creationists. والمجموعة الثانية: تقر بحدوث التطور، ولكنها ترى أن العشوائية والصدفة لا يمكن أن يفسرا حدوثه، وتمثل هذه المجموعة من العلماء مدرسة التطور الموجه Directed Evolution." اهـ. قلت: ليس في القائلين بالتطور الموجه من الغربيين من يسميه Directed Evolution، وإنما يقال له Guided Evolution وهو فرع من فروع ما يقال له إجمالا Theistic Evolution، وأما المصطلح Directed Evolution فيطلقه المتخصصون بالهندسة الوراثية على عملية صناعية يقومون فيها بعملية انتخاب صناعي لتطوير البروتينات والأحماض النووية وصولا إلى غرض معين. وكذلك استعمال المصطلح Creationists في أدبيات الغربيين (وهو ما ترجمه المترجمون إلى لفظة "خلقويين" أو

"خلقيين") ليس استعماله محصورا على هذا المعنى الذي حرره الدكتور، كما تقتضيه تلك القسمة، بل القائلون بالتطور الموجه Guided Evolution على اختلاف مذاهبهم داخلون كلهم تحت المصطلح Creationists عند من أحدثوا استعماله في كبتهم! وما كنت لأعقب على مسألة الاصطلاح هذه، لأن العبرة في النهاية بالرسم لا بالاسم، وبالحقائق لا بالأسماء، فما دام يخبرنا بما يقصد من كل مصطلح، فبه نتعامل مع كلامه وعليه يجري الأخذ منه والرد عليه، لولا أنه زعم أن هذا ما يراد من "إطلاق" تلك المصطلحات، هكذا! فيا دكتور إن أبيت إلا أن تخترع اصطلاحا أو اسما جديدا من كيسك لطائفة من الطوائف، بألفاظ لها اصطلاح مخالف عند أصحابها، فقل وبين صراحة أنه اصطلاحك أنت، ولا تقل "يطلق على القائلين بكذا وكذا، المصطلح كذا"، هذا المبني للمجهول "يطلق"، من فاعله؟؟ من الذي يطلق؟ هذا من التلبيس، وقد يترتب عليه أن يأخذ قراؤك أحكامك وكلامك على تلك الفئة أو الطائفة المرادة بهذا الاسم أو ذاك، ثم يقعوا على مصنفات الغربيين التي لا تجري على اصطلاحك أنت وإنما على اصطلاحهم هم، فيحصل لهم من ذلك التباس وغلط بل وظلم في الأحكام أنت السبب فيه! وهذه مسألة لا أدري كيف لا ينتبه إليها أستاذ جامعي مثلك، والله المستعان!

فالواقع أن الدكتور إنما يطلق لفظة "خلقوي" على من يقولون بما يسميه هو وغيره "بالخلق الخاص"، أي القول بأن الأنواع الحية لم تخلق بالانحدار التطوري من أصل مشترك كما يعتقد هو وغيره من الدراونة، وإنما خلق كل نوع منها خلقا مستقلا! وهذا تحكم منه في الاصطلاح، لأن الأدبيات التي ظهر فيها هذا المصطلح عند الغربيين وشاع بين أصحابها، يراد به فيها كل من يثبتون صانعا له عمل وتأثير في إنشاء الأنواع الحية على الأرض، بصورة ما أو بأخرى، سواء كانوا دراونة أمثاله، يقولون بالنشوء والارتقاء على وجه من الوجوه، أم كانوا من نفاة التطور نفيا باتا! فعلى هذا يكون الدكتور نفسه – على اصطلاحهم – خلقويا صرفا، مع كونه من جملة الدراونة! والقائلون بالتطور الموجه عند القائمين على الأكاديمية الطبيعية الغربية وعلى النشر والتدريس فيها، كغيرهم من الخلقويين، ليسوا أصحاب "طرح علمي" Scientific Proposition ولا قريب منه، وما كانوا ليقبلوا منهم، على تنوع عقائدهم الغيبية، سعيهم في إحداث "ثورة" على الأكاديميات الغربية كتلك التي يرجو الدكتور عمرو – موافقا في ذلك أستاذه روبرت شيلدريك - أن يراها تحصل في المستقبل القريب!

قال الدكتور في مقطع له على اليوتيوب بعنوان "مأزق الخلقويين"، يكشف لك عن مدى إغراقه في الجهمية الطبيعية:

في الوقت اللي بنجد إن هناك إجماع علمي بنسبة 99% على مفهوم التطور البيولوجي، نعم إجماع علمي بنسبة 99%، وده الرقم اللي قالته مؤسسة ديسكوفري اللي هم مش تطوريين، اللي هم خلقويين، في هذا الوقت، بنجد إن الاتجاه المعارض للتطور اللي بيمثله 1% اللي هم الخلقويين بيشنوا حملة شرسة على العلم وعلى العلماء القائلين بالتطور، واتهموهم بالتواطؤ وبمعاداة الدين وبتوجهات أيديولوجية و .. و. إلى آخره. وبيلجأوا في كده إلى أنهم يسوقوا بعض النقاط المعارضة للتطور. بالفعل نقر بأن هناك معارضات للنظرية. هو الفهم الساذج إن أنا أظن إن وجود أي معارضة للنظرية تسقط النظرية! الكلام ده مش صحيح! كل نظرية لها مؤيدات ولها معارضات. وعلينا أن نوازن. والذي يستطيع أن يوازن بين المؤيد والمعارض، هم أهل التخصص. ما يجيش واحد نصيبه من البيولوجيا يعني ضئيل للغاية، مهما كان دراسته لا يقارن بعلماء البيبولوجيا الكبار، ويقول لك لأ المعارضة الفلانية تنسف النظرية! الكلام ده لا أصل له ولا وجود له! فالتوجه أو ظن أن... ودي نقطة منهجية في المنهج العلمي بقى.. العلم كله قائم على الموازنة بين المؤيدات والمعارضات! ما فيش حاجة إسمها فيه معارضة تسقط النظرية! إلا إذا كان معارضة مع جذور النظرية! ده موضوع منتهي! ومن ثم يشغل الخلقويون أنفسهم بأنهم يبحثوا عن المعارضات للتطور. ويظنوا أنهم لو ساقوا معارضات كافية، ونحن نقول لهم، عندك معارضات .. ومعتبرينها يعني معارضات قوية للغاية! طب ليه أصحاب هذه المعارضات يعني اللي طرحوها علميا، ما أخدوهاش إلى المحافل العلمية والمؤتمرات الدولية، وعارضوها وأسقطوا النظرية؟ لأنهم فاهمين! اللي أثاروا هذه المعارضات، فاهمين إن دي معارضات مقبوله على المستوى العلمي! إنما الخلقويين بتوعنا هم اللي مش فاهمين كده! يعني ما سألوش نفسهم ليه اللي طلعوا هذه النظريات المعارضات، وعندما يطرحونها ما يطرحوهاش في كتب بيولوجيا Textbooks كتب مراجع بيولوجيا، يطرحوها في كتب جانبية لا تصنف ككتب بيولوجيا! ده غايب عنهم هذا المفهوم! شغلوا أنفسهم بالبحث عن معارضات للتطور. نقول لهم، ألم يكن من الأولى، وأنتم تتبنون الخلق الخاص، أن تبحثوا تنفقوا جهدكم ووقتكم في البحث عن أدلة على الخلق الخاص؟؟ عشان يبقى طرحك طرح علمي! هو أدلته على الخلق الخاص، فهمه لآيات الخلق في القرآن الكريم، نقول له لأ هذه ليست أدلة كافية علميا، وافهم من القرآن الكريم كما تشاء، الأدلة العلمية معروف منهجها وأسلوبها باختلاف طبيعة كل علم! لم يقدم

> حتى الآن الخلقويون دليل علمي واحد على الخلق الخاص! هم يظنون أنهم لو قدموا أدلة تسقط التطور، يبقى ده إقرار بالخلق الخاص! لأ! تصوروا؟! لو قدموا أدلة تسقط التطور، هانقول إيه؟ ونسأل بأه العلم بعد ما سقط التطور، ما تقولون؟ مش هانؤول بالخلق الخاص! لأن ليس عليه أدلة علمية! هانؤول سقط التطور، وعلينا أن نبحث من جديد على تسفير لحدوث تنوع الكائنات الحية! مش هانؤول إن هو الخلق الخاص! نؤمن به دينيا كما تشاؤون، كما نشاء، بقدر فهمنا من النصوص لمراد الله عز وجل، ولكن يظل الخلقويون محتاجين أن يسوقوا لنا أدلة على الخلق الخاص اللي لغاية النهاردة لم يسوقوا ولا دليل واحد عليه!

قلت: أولا يا دكتور، إذا كانت نسبة القائلين بقول ما هي تسع وتسعون بالمائة، فلا يقال في هذا إنه "إجماع"! ليس عند العقلاء في أي علم من العلوم معنى لكلمة "إجماع بنسبة كذا"! وإنما يقال إنه اتفاق جماهير هؤلاء لا إجماعهم! ثانيا: مؤسسة ديسكوفري هذه هي مجمع المنظرين الكبار لحركة التصميم الذكي في أمريكا، فهم لا يحاربون نظرية داروين ولا ينكرون التطور، وإنما يزعمون أن "مصمما ذكيا" ما يتدخل في حلقات محورية للتاريخ الطبيعي، أو يتولى خلق الخلية الحية وتشغيلها "بالتدخل الإلهي" في أساس النظام الدراويني، كذلك التدخل الذي تثبته أنت، بل سيأتي معك بيان أنهم أشد إثباتا للآلية العشوائية في الطفرات كحقيقة وجودية أصيلة في النظرية من الدراونة الدهرية أنفسهم، تلك العشوائية التي جعلت أنت التدخل الإلهي بديلا لها! فبأي شيء جعلتهم هم "خلقويين"، وأنت "غير خلقوي"؟!

قوله "الفهم الساذج إن أنا أظن إن وجود أي معارضة للنظرية تسقط النظرية! الكلام ده مش صحيح! كل نظرية لها مؤيدات ولها معارضات. وعلينا أن نوازن." قلت: بل الفهم الساذج حقا هو أن أظن أن نظرية هذا هو موضوعها (الكيفية الغيبية التي خلقت بها جميع الأنواع الحية في الأرض بعد أن لم تكن فيها حياة أصلا) يصح أن يقال إن أدلة أصحابها تنهض بها نهوضا تعضيديا Confirmational Support (بالترجيح الاحتمالي الناشئ من استقراء المشاهدات المتوافرة)، بحيث يتصور في المشاهدات المعارضة إن ظهرت أن تغض من أرجحيتها الاحتمالية، لا أن تسقطها بالكلية بالضرورة! هذه مسألة لا أساس للترجيح الإمبريقي فيها أصلا، حتى يقال لمشاهدة من المشاهدات إنها دليل مؤيد، ولمشاهدة أخرى إنها دليل معارض! ثم إن من السذاجة كذلك أن يظن في المشاهدات التي يزعم الدراونة تأييدها للنظرية، أن استدلال القوم بها استدلال صريح غير مؤول،

أو حتى أن التأويل فيه له مستند أو متعلق من العادة والخبرة! بل لا تكون المشاهدة دليلا عندهم على صحة الفرضيات الغيبية في النظرية، حتى تؤول تأويلا قائما على تلك الفرضيات الغيبية نفسها! فإن لم يكن هذا دورا منطقيا Circular Logic فليس في المنطق شيء يقال له الدور أصلا!

قوله: "والذي يستطيع أن يوازن بين المؤيد والمعارض، هم أهل التخصص. ما يجيش واحد نصيبه من البيولوجيا يعني ضئيل للغاية، مهما كان دراسته لا يقارن بعلماء البيبولوجيا الكبار، ويقول لك لأ المعارضة الفلانية تنسف النظرية! الكلام ده لا أصل له ولا وجود له!" قلت: هذا الكلام فيه نظر وتفصيل ضروري! فصحيح إن الموازنة بين الأدلة لا تكون إلا لمن يفقهها، وصحيح إن ذلك لا يكون لأحد فوق ما يكون لأهل الاختصاص، لكن من الذي قال إن العلم بالكيفية التي خلق الله بها أنواع الدواب في الأرض هو من اختصاص علماء الأحياء، أو أنه يطلب من طريقهم وبآلتهم؟؟ من الذي فتح الباب لهؤلاء ليخوضوا في تلك القضية أصلا ومن الابتداء؟؟ إنهم الدهرية الطبيعيون يا دكتور! الملاحدة الذين تزعم أنك في صراع معهم (لا سيما "الدراونة" منهم)، هم الذين جعلوا تلك الغيبيات من اختصاص أصحاب الطبائعيات، فافهم هذا يرحمك الله! وإلا فالنظرية موضوعها غيبي محض، وكل ما كان هذا موضوعه، فالبيولوجيون هم الذين يزاحمون غيرهم بالكلام فيه، وليس العكس! البيولوجيون هم الدخلاء على هذه المسألة على التحقيق، وليس من كانت في الأصل موضوعا لبحثهم ودراستهم من علماء الدين، المتخصصين في دراسة خبر الغيب عن رب العالمين، رواية ودراية! هؤلاء وحدهم هم أهل الاختصاص في أمر الغيب وما فيه!

وحتى على التسليم تنزلا بأن نظرية داروين هي حقا نظرية "علمية" مما يجمل بعلماء الأحياء أن يشتغلوا ببحثه والنظر فيه، ومما يرجى من بحثه على أيديهم جلب النفع للناس بصورة ما أو بأخرى، أي حتى على المفهوم الدهري الطبيعي للعلم الطبيعي Science وحدوده وموضوعاته، فالموازنة بين مراتب الأدلة في علم الأحياء ليست من اختصاص البيولوجيين وحدهم (أكاديميا)، وإنما هي من تخصص الفلاسفة كذلك! والمتخصصون في مناهج البحث Research Methods في كثير من جامعات العالم، أكثرهم من أساتذة فلسفة العلم Philosophy of science والإبستمولوجيا، وليسوا من أصحاب التخصص الدقيق في البيولوجيا! ثم إنك أنت نفسك يا دكتور لست متخصصا في البيولوجيا التطورية، لست مثلا من أساتذة علم الحيوان Zoology، أو الإحثاء Paleontology أو الوراثيات Genetics أو البيولوجيا الجزيئية Molecular Biology أو حتى علم التشريح المقارن Comparative Anatomy! وإنما أنت أستاذ في الجراحة البشرية! هذا هو

تخصصك الذي درسته دراسة نظامية، وبلغت فيه منزلة الأستاذية! فلو أجرينا عليك أنت ذلك الشرط الصارم الذي اشترطته للترجيح في تلك القضية (ألا يكون إلا لعلماء البيولوجيا الكبار) لمنعناك أنت نفسك من الكلام فيها، وإن كنت ممن درسوا قدرا من البيولوجيا وعلم التشريح في إطار دراستك للطب البشري، فتأمل! بل لو أننا أجرينا ذلك الشرط على داروين نفسه لما قبلنا منه نظريته! فالرجل لم يكن متخصصا في علم الأحياء يوم كتب كتابه "في أصل الأنواع"، وإنما كان قد درس الطب البشري في جامعة كابمريدج قبل أن تأخذه أهواؤه وميوله الدهرية في رحلة البحث في أصول الأنواع! وهذه العلوم المذكورة أكثرها لم يظهر كمجال أكاديمي تخصصي إلا بعد ظهور النظرية على أي حال، لا قبلها، فلا يمكن أن تكون قد قام تأسيس منطق الافتراض والاستدلال فيها على شيء مما تخصص فيه أصحاب تلك العلوم!

ولا يزال الدكتور – للأسف – يلوح بتلك الشبهة في كل مناسبة، على سبيل الإرهاب الفكري لخصومه ومخالفيه، يقول لهم: "أين أنتم وأين علمكم بالأحياء من "علماء البيولوجيا الكبار"؟ وأين احترام التخصص وإجماع أهل التخصص الذي تلزموننا به إن نحن تكلمنا في القرآن والسنة، ولا تلتزمونه أنتم في هذه العلوم؟" والحق أن احترام التخصص على التحقيق يلزمه هو وغيره من غير العلماء بالشريعة ونصوص الوحيين بأن يكفوا ألسنتهم ويحجموا عن الكلام في تلك القضية بالكلية وأن يتتلمذوا على علماء السنة في تلقي العلم بها، إن كان ثمة ما يعلم فيها، لأنها قضية غيبية مطلقة لا يتلقى العلم فيها إلا من السمع وحده! هذه، أيها القارئ المحترم، هي الحقيقة التي من أجلها ألفت هذا الكتاب الذي بين يديك، وأنا أعلم أنهم لن يقبلوها إلا أن يشاء الله! أمر الغيب لا مدخل فيه للقياس والنظر أصلا، وإنما هو السمع وحده! نسمع ما جاء به خبر الغيب في وصف حوادث خلق الأرض والسماوات وما بينهما، نفهمه كما فهمه السلف الأول من الصحابة والتابعين وتابعيهم، رضوان الله عليهم أجمعين، وكما نقله عنهم أئمة السنة رحمهم الله تعالى، ونقف عند ذلك ولا نزيد! هذا هو "العلم" الحق في ذلك لمن أراد فيه علما، وإلا فالتخريف والهذيان ببناء الوهم فوق الوهم، والتخرص بالقياس على غيرما أساس في تلك الغيبيات المحضة، على ما يتأسس به اعتقاد الطبيعيين الدهرية في غيب السماوات والأرض، هذا أمر لا يحسنه البيولوجيون وحدهم، بل يحسنه كذلك "الأطباء" و"الجراحون" والفلاسفة وغيرهم، وهو بحر واسع لا ساحل له، وإلى الله المشتكى!

فقول الدكتور: "ما فيش حاجة إسمها فيه معارضة تسقط النظرية! إلا إذا كان معارضة مع جذور النظرية! ده موضوع منتهي!" يقال له: صدقت، وهذا

هو ما نزعم نحن أنه عندنا من أنواع المعارضة للنظرية! معارضة منهجية كلية تأتي على جذور النظرية وأصولها الفلسفية بالنقض والإبطال Fundamental Refutation، فاقبله منا يا هداك الله، إن كنت صادقا! فليست هي في الحقيقة نظرية علمية أصلا، وإنما هي أسطورة دينية طبيعية غيبية استخدمت آلة العلم التجريبي Scientific Method استخداما فاسدا متعسفا في بنائها وتشييدها، فهي خرافة وأسطورة ولو أجمع أهل العلوم الطبيعية قاطبة في جميع أركان الأرض على قبولها والقول بها!

وأما قوله: "نقول لهم، ألم يكن من الأولى، وأنتم تتبنون الخلق الخاص، أن تبحثوا تنفقوا جهدكم ووقتكم في البحث عن أدلة على الخلق الخاص؟؟ عشان يبقى طرحك طرح علمي! هو أدلته على الخلق الخاص، فهمه لآيات الخلق في القرآن الكريم، نقول له لأ هذه ليست أدلة كافية علميا، وافهم من القرآن الكريم كما تشاء، الأدلة العلمية معروف منهجها وأسلوبها باختلاف طبيعة كل علم! لم يقدم حتى الآن الخلقويون دليل علمي واحد على الخلق الخاص!" فيكشف لك عن منشأ هذا الخلف العقلي والمنهجي عند الدكتور ومن تابعهم ومن ابتعوه! فهو يرى، كما يرى أساتذته الغربيون، أن الطرح لا يكون "طرحا علميا" في أي مسألة كانت، حتى يكون قائما على القياس التجريبي الطبيعي (أو "الدليل العلمي" Scientific Evidence كما يسمونه)! وهذه، أيها القارئ الكريم، هي الجهمية الوضعية المنطقية بحذافيرها! تلك النحلة الفلسفية البدعية التي يعتنقها الدكتور ويروج لها من حيث لا يشعر، كما بيناه فيما مر معك! انظر أيها "الخلقوي" في القرآن في آيات خلق السماوات والأرض وخلق الأنواع والنصوص المتعلقة بقضية المنشأ بعموم ما شئت، وافهم منها ما يحلو لك، فلن نقبل منك على أي حال إلا ما وافق "العلم"! إن شئت أن نجعله "إيمانا دينيا" فلك ذلك، أما أن نجعله معرفة وعلما، فلا، حتى تقيم "الدليل العلمي" عليه! فتأمل جرأته على رب العالمين سبحانه إذ يرد الاستدلال بالقرآن بقوله "لأ هذه ليست أدلة كافية علميا"! ليست كافية على دين من يا دكتور؟؟ أما على دين الدهرية الطبيعيين الدراونة فنعم ولا شك! وأما على دين المسلمين فلا مدخل لغيرها في تلك القضية أصلا، والله المستعان! إن كان ثمة دليل يرجى الوصول إليه على أن الله تعالى خلق الأنواع كلها يوم خلقها في أزواج مستقلة، أو خلقها كلها بالتعديل على ذرية سلف مشترك، فليس يطلب ذلك الدليل إلا من الكتاب والسنة يا دكتور، فافهم هذا يرحمك الله!

يجب على المسلم المتصدر في هذه القضايا الخطيرة أن يكون محققا مدققا ملما بأنواع الأدلة وكذلك بموضوعات العلم محل النظر وأنواع المسائل التي تناسبها تلك الأدلة وتليق بها، وأن يكون مدركا كذلك لمراتب

تلك الأدلة ومنازلها، يحسن التفريق بين ما يفيد منها العلم المنصرم الذي لا يقبل احتمال المعارض بحال من الأحوال (كالبدهيات العقلية الأولى التي لا يخالف فيها عاقل، وضرورات الملة التي لا يماري فيها مسلم)، وما يفيد الظن الراجح على مراتبه ودرجاته، التي تبدأ بالقطع الذي يقبل احتمالا ضعيفا لظهور المعارض (كالقوانين الطبيعية التي علمت بالاستقراء المستفيض)، وتنتهي بتقارب الأدلة وصعوبة الترجيح (كما في كثير من المسائل النظرية التي اشتد فيها نزاع الخبراء المتخصصين فيها)! فإذا قدر أن مر بمسألة تتكافأ فيها الأدلة (ومن ثم لم يصح أن يقال لها أدلة أصلا) أدرك ذلك فورا وأدرك سببه ومورده والمخرج منه، وانتبه إلى العلاقة بين موضوع البحث في المسألة وطبيعة الأدلة المستحضرة للحكم فيها! وإذا وقع على بحث منشور في ذلك العلم، كانت لديه ملكة نقدية تمكنه (ولو بإجمال) من تقدير ما إذا كان الدليل المستخدم فيها يناسب نوع المسألة وموضوعها أم لا يناسبه من الابتداء! ولا يجوز له بحال من الأحوال أن يدعو المسلمين لقبول هذا المذهب أو ذاك (عند أهل هذا العلم التجريبي أو ذاك) على أنه لا يعارض الدين، مع أنه لا يعدو أن يكون مقلدا في جملة المسلمات الكلية الوجودية والمعرفية التي يقوم عليها منطق الاستدلال عند أصحابه! فإن لم يكن الباحث المسلم متشبعا في ذلك بأصول أهل السنة، قائما فيه بالحق كما يجب، واضعا كل شيء في موضعه الصحيح بلا إفراط ولا تفريط، بصيرا بحدود العلوم وشروطها وضوابطها، ودوائر التقاطع فيما بينها، ومواضع تداخلها وافتراقها، وطبيعة ذلك التداخل وضبط منازل الأدلة عند وقوعه، قادرا على إجراء الأبحاث البينية Interdisciplinary Research من غير أن يتجاوز حدوده فيما لا يحسنه إلا المتخصصون في هذا العلم أو ذاك، مفرقا بين الدعوى العلمية الطبيعية والدعوى الدينية الطبيعية تفريقا صحيحا محكما، يدري معه أين ينتهي العلم وتبدأ الخرافة، فخير له أن يقعد في بيته وأن يدع ذلك الشأن لمن يحسنه، حتى يسلم من تبعة إضلال المسلمين وإفساد دينهم يوم القيامة، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والحق أن هذه الآفة يعاني منها أكثر الأكاديميين المسلمين في عصرنا، كما بسطنا الكلام عليه في غير موضع، ولا حول ولا قوة إلا بالله! يؤتى بالنظرية أو البارادايم المعتمد في الأكاديمية الغربية لا لشيء إلا لأنه هو المعتمد في الأكاديمية الغربية، فيعامل معاملة الحق المبين واجب الاتباع لمجرد ذلك، بالنظر إلى كونهم (أي الغربيين) قد سبقونا بفراسخ في العلم بأسباب الأرض وفي شتى أنواع الصناعات! فإذا كانت كلية الهندسة في بريطانيا – مثلا – تدرس فيها مقررات كذا وكذا، وعلوم كذا وكذا، وكان قد تقرر أن تخصص الهندسة تخصص مفيد إجمالا ونافع ومطلوب لتحقيق منافع شتى

للناس لا تتحقق إلا من طريقه (وهذا حق ولا شك)، أصبح الواجب علينا أن نبتعث من نبهاء شبابنا من يتعلم تلك العلوم ويتقنها ليأتي – مع بعض أساتذته كخبراء منتدبين – لإنشاء أول كلية قائمة بتدريس الهندسة في بلادنا، ينسخها نسخ المسطرة، ينقلها بحذافيرها، بأقسامها بموضوعاتها البحثية ومجالاتها التطبيقية بل والمصانع المستفيدة منها كفيما كانت، بصرف النظر عن تفصيل الحاجة المجتمعية الفعلية في ذلك الوقت، وما إذا كانت المشكلات الداعية لإثارة تلك الأسئلة البحثية التي تأسس في ضوئها ولخدمتها هذا العلم التراكمي أو ذاك Disciplinary Knowledge في تلك المجتمعات الأجنبية المشركة المخالفة في الدين والثقافة والعادات والقيم والأخلاق وفي نمط الحياة المرتبط بجميع ذلك، قد وجد أو سيوجد نظيرها في مجتمعاتنا المسلمة في يوم من الأيام أم لا! فترتب على ذلك أن أصبح مبدأ التأسيس الأكاديمي عندنا هو مبدأ الناقل للمعارف ولأصولها، الذي غايته كمجتهد فيها أن يفرع عليها بحسب المصلحة (التي غالبا ما تكون مصلحة الباحث نفسه الساعي في أسباب الترقي الأكاديمي الذي لا طريق له – كما نقلناه من أكاديمياتهم – إلا النشر ثم النشر ثم النشر)! لا وقت في هذا الإطار الناقل لتكلف أي قدر من التفكير النقدي الجذري في مباني وأصول تلك المعارف الأكاديمية التي نقلت إلينا كما هي، ولا حتى فيما إذا كانت هذه المسألة أو تلك مما يهمنا نحن كعرب مسلمين أو ينفعنا أن ننقل عنهم مجاري البحث والجدال والسجال الأكاديمي في إجابتها أم لا! ففي لإطار عقلية "أنقل أولا ثم انقد لاحقا، إن كنت ولابد فاعلا"، التي غلبت علينا في القرن التاسع عشر الميلادي، كان التأسيس الأكاديمي في بلادنا جاريا على النقل الشامل السريع غير المدقق، في ضوء فلسفة رواد "التنوير" في ذلك العصر، أمثال محمد عبده وجمال الدين الأفغاني وطه حسين وغيرهم من المصلحين المخربين الذين قالوا صراحة إننا لن نصل إلى أن نكون على مثل تقدم الغربيين في الصناعات الدنيوية حتى نستوفي النقل عنهم في كل شيء، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

من هنا كان من غير المستغرب على الإطلاق، أن ترى أمثال الدكتور ممن تربوا على فلسفة الأكاديمية الغربية المنقولة بحذافيرها، وعلى تلك العلوم الحديثة التي لم يشاركوا بأنفسهم (من حيث هم مسلمون) في مسيرة بنائها المعرفي، يحملوننا الآن حملا على تقليد "البيولوجيين الكبار"، الذين لا نبلغ نحن أن نكون منهم حتى يأذن لنا المجتمع الأكاديمي الغربي بالمساهمة بالنشر عندهم في دورياتهم هم العلمية في خدمة موضوعاتهم هم وأسئلتهم هم التي كانوا هم من طرحها ابتداء، جريا على البارادايم الأكاديمي السائد الذي كانوا هم من أسسه لا غيرهم! واليوم أصبح الباحث من بلادنا لا يترقى في الدرجة العلمية في جامعته التي ينتسب إليها حتى ينشر نشرا دوليا، أيا

ما كان مجال اختصاصه أو الموضوع الذي يريد البحث فيه! [102] وأصبح الباحث الأكاديمي المسلم يعاني أشد المعاناة في محاولة تلبيس مقصوده البحثي – أيا ما كان - بأهداف ومطارح ومقاصد النظر الجاري النشر فيها في أي دورية علمية غربية رفيعة الشأن، رجاء أن يجدوا هم في موضوعها ما يدعوهم لقبول نشرها عندهم! وهو ما ترتب عليه من الازدواجية المقاصدية ما بلغ أن أصبح معه الباحث من بني جلدتنا مطالبا بأن يغرق نفسه إغراقا في تتبع البناء المعرفي لمسألة معينة أو جملة من المسائل ذات الصلة التي جرى الجدال فيها والنقاش الأكاديمي في دورية علمية معينة، متسلقا على حبال الأسئلة البحثية المطروحة هنالك بصرف النظر عن منابت تلك الأسئلة ودواعيها الاجتماعية أو الفلسفية الميتافزيقية أو القيمية عندهم، رجاء أن يجد لنفسه موطئا يلج منه إلى تلك الدورية بنشر ما يلقى قبولهم! حتى التوجه إلى النظر في حوائجنا ودواعينا المحلية، لا يأتي – بطبيعة الحال – إلا تبعا لمطالب أصحاب تلك الدوريات والأكاديميات الدولية أنفسهم، لا لمطالبنا نحن، وإلى الله المشتكى!

على أي حال، وحتى لا يطول بنا ذاك الاستطراد ذو الشجون، نقول إن هذه النشأة الاستنساخية المشؤومة لأكاديمياتنا العلمية العربية في القرنين الماضيين ترتب عليها أن بلغت التبعية الفكرية والعلمية من الشمول والتجذر والاستحكام في وعي باحثينا وفي تربيتهم الفكرية وبنائهم العقلي، ما يجعله من غير المستغرب إطلاقا أن تروج فكرة "أسلمة نظرية داروين" على ذلك النهج الذي أصل له الدكتور عمرو شريف في كتبه، رواجا واسعا بين الأكاديميين المسلمين المتخصصين في العلوم ذات الصلة بنظرية داروين! فلا شك أن مواصلة الانخراط في النشر الدولي الأكاديمي في مجاري البحث والنظر عند البيولوجيين الغربيين، المحكومة كلها عندهم بالبارادايم النيوداروين الدهري، هي أسهل وأرجى لتحصيل مطالب الباحث العربي الشاب الطامع في الترقي أكاديميا بالنشر الدولي، من هذا الطرح الإصلاحي التطهيري الجذري Fundamental Metadisciplinary Reform الذي نطرحه نحن في هذا الكتاب! فلا يحتاج أحدهم إلى أكثر من أن يقنع نفسه بأن التطور حقيقة منصرمة، وبأن الله هو الذي خلقه كيفما كانت صفته التي ينتهي إليها بحث القوم، وإذن يصبح باحثا بيولوجيا مرموقا كما يطمع، وفي نفس الوقت يسلم من التهمة بالزندقة وفساد الدين! أي باختصار: كن باحثا داروينيا متخصصا، ولا عليك إلا أن تحول (ولو في ذهنك أنت سرا) لفظة Chaos ولفظة Chance ولفظة Random إلى Divine (إلهي) حيثما وقعت عليها، وانتهت القضية! فأي شيء أحسن من هذا؟!

لهذا أطلت النفس جدا في نقض أصول الدكتور عمرو هداه الله في هذا الكتاب، كما لم أتكلفه مع غيره من دراونة الجهمية المعاصرين (كعدنان إبراهيم مثلا الذي سجل ثلاثين حلقة في التغزل في نظرية داروين وعبقرية داروين!!)، لأني أراها قد لاقت رواجا واسعا بين فئة الباحثين التجريبيين المسلمين عامة، والأكاديميين منهم خاصة، سواء من كان منهم له اهتمام خاص بمسألة الإلحاد ومن لم يكن، وأخشى أنها لن تمضي إلا إلى مزيد من الرواج، وقد دخلت بالفعل إلى أروقة الأزهر طهره الله، والله المستعان لا رب سواه!

قوله: "هم يظنون أنهم لو قدموا أدلة تسقط التطور، يبقى ده إقرار بالخلق الخاص! لأ! تصوروا؟! لو قدموا أدلة تسقط التطور، هانقول إيه؟ ونسأل بأه العلم بعد ما سقط التطور، ما تقولون؟ مش هانؤول بالخلق الخاص! لأن ليس عليه أدلة علمية! هانؤول سقط التطور، وعلينا أن نبحث من جديد على تسفير لحدوث تنوع الكائنات الحية! مش هانؤول إن هو الخلق الخاص! نؤمن به دينيا كما تشاؤون، كما نشاء، بقدر فهمنا من النصوص لمراد الله عز وجل، ولكن يظل الخلقويون محتاجين أن يسوقوا لنا أدلة على الخلق الخاص اللي لغاية النهاردة لم يسوقوا ولا دليل واحد عليه!" قلت: أولا: لو صح أن كانت هذه المسألة مما يبحث باستعمال أدوات البيولوجيين، لقبلنا منك قولك بأن إسقاط التطور لا يقتضي القول بما تسميه بالخلق الخاص! ولكن ليست المسألة مما يتسع عند المسلمين لخرافات الطبيعيين أصلا، لا التطور ولا غيره من نظريات يؤتى بها من طريقهم! فإذا كانت الأدلة الشرعية والنصوص يفهم منها أن الله تبارك وتعالى قد خلق الأنواع كلها أزواجا، يحدثها على غير مثال سابق، ثم بثها في الأرض بثا، وتتابعت قرون المسلمين على ذلك الفهم بلا مخالف ولا داعي لمجرد تصور فكرة أن يخلق الله أنواع الدواب والطيور والحيتان بعضها من بعض بالتحوير والتعديل، من زمان الصحابة وإلى القرن الثالث عشر الهجري، إذا كان ذلك كذلك، فسواء قلتم بالتطور أو تركتموه أو جعلتموه "تطويرا"، فلستم عندنا إلا على باطل وخرافة! بل وسواء ثبت بالسمع الخلق المباشر من أزواج أم لم يثبت، فلا نأخذ منكم نظرياتكم في ذلك، ولا نقبل تقحمكم للغيب بأقيستكم الواهية، ولستم عندنا على شيء أيا ما كان ما تنتهي بكم إليه أبحاثكم ونظرياتكم، والله المستعان!

ثانيا: تأمل قوله "نؤمن به دينيا كما تشاؤون، كما نشاء، بقدر فهمنا من النصوص لمراد الله عز وجل، ولكن يظل الخلقويون محتاجين أن يسوقوا لنا أدلة على الخلق الخاص اللي لغاية النهاردة لم يسوقوا ولا دليل واحد عليه!" قلت: فيا عدو نفسك، الإيمان الديني عند المسلمين ليس على ما نشاؤه

نحن ولا على ما تشاؤه أنت، وإنما يجب أن يكون على الحق كما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم! الإيمان بالغيب في ديننا ليس بالتشهي ولا بالهوى! بل يجب على المسلم أن يؤمن في أمر الغيب بالحق المطابق للواقع! ولا طريق إلى ذلك إلا النص وفهمه السلفي الصحيح، رضيت به يا دكتور أم لم ترض! فإن لم يكن ثمة نص يؤخذ منه العلم، فلا طريق لدليل ولا لمعرفة أصلا، والواجب إذن تفويض العلم لله جل شأنه والإمساك عن السؤال! أما أن يقال: آمنوا من القرآن بالخلق الخاص كما يحلو لكم، ولكن سيظل الواحد منكم محتاجا لأن يسوق الدليل "العلمي" عليه حتى نقبله منه كعلم، فهذا يقتضي نفي معنى العلم والمعرفة المطابقة للواقع عن موضوع الإيمان الديني الذي يؤخذ من القرآن، نسأل الله السلامة!

في كتابه "كيف بدأ الخلق"، حرر الدكتور جوابه عما سماه "باعتراضات الخلقويين" ضد التطور، فقال (ص. 190):

> غياب الحلقات الوسطى في الحفريات: يتطلب حدوث التطور وجود كائنات بين بين! تحوي صفات من الكائنات الأحداث لكنها لم تستكمل كل صفاتها الجديدة، وتسمى في علم الحفريات بالحلقات الوسطى. ولا شك أن سجل الحفريات كان ناقصا بشدة أيام دارون، وكان فقيرا جدا في هذه الحلقات. أما الآن فهو يحتوي على أكثر من 200 ألف نوع تشتمل على الكثير من الحلقات الوسطى، كالثعبان ذي الأرجل (كحلقة وسطى بين البرمائيات والزواحف) والأركيوبتيركس (كحلقة وسطى بين الزواحف والطيور) والعديد من أشباه الإنسان.

قلت: أتفق مع الدكتور في توهين هذا الاعتراض، نظرا لأنه في الحقيقة يشترط على الدراونة الإتيان بالمزيد مما هم غارقون في اختراعه من تأويلات الحفريات بالوهم والهوى، على نحو يشعر بإقرارهم على أصل منهجهم في ذلك! مع أن إحداث المزيد من تأويلات المشاهدات واختراعها اختراعا، ليس مما يعجزهم أصلا، بالنظر إلى كون موضوع النظرية غيبيا محضا! ولا يقال إنهم يسلكون ذلك المسلك على سبيل التنزل مع المخالف، فإن المتنزل لنقض كلام المخالف ينبغي أن يكون في كلامه ما يبدو منه صراحة أنه يتنزل، إذ يصرح بلا مواربة ببطلان الأصل الكلي نفسه الذي افترض صحته تنزلا من أجل أن يلزمه ببطلان مذهبه، على طريقة الاختزال إلى ما هو فاسد Reductio Ad Absurdum! والواقع أننا لم نر خصوم الدراونة من نفاة التطور يقررون بطلان ذلك الأصل الكلي في منطق الاستدلال عندهم لا من قريب ولا من بعيد!

نقول ونكرر: ليس في إثبات التوسط أو القرب في الشبه Morphological Proximity بين أي نوعين من الأنواع الحية، أي دليل على أن أحدهما خلق من ذرية الآخر، ولا على أن كليهما يرجعان إلى سلف مشترك، لا تطورا ولا تطويرا! فإذا كان وقوع الحادث (أ) في الماضي يستتبع وقوع (س)، وكذلك وقوع (ب) ووقوع (ج) ووقوع (د) وغير ذلك كله يستتبع أيضا وقوع (س)، وكانت (أ) و(ب) و(ج) و(د) كلها حوادث من نوع غيبي محض ليس في عادتنا ولا تجربتنا نظير له بالضرورة، كان الحكم بأن مشاهدة (س) واقعة الآن بالفعل تدل على وقوع (أ) في الماضي تحديدا، ضربا من التحكم بالهوى والمغالطة الجلية! فإنه ليس من الممكن والحالة هذه أن نجد في الخبرة ما نرجح به (أ) على غيرها، مهما حصل لنا من المشاهدات! هذا الترجيح باطل وممتنع رأسا، لا نقول إنه ضعيف من حيث الاحتمالية أو غير وجيه أو ليس بقوي، بل نقول إنه باطل وممتنع البتة، لعدم الأساس الموجب له في عقول العقلاء!

هذه هي المغالطة المنهجية الكلية التي لا يزال الدراونة مغرقين فيها في جميع ما بين أيديهم من أدلة، ولا يزال خصومهم يقرونهم عليها بأمثال تلك الاعتراضات السخيفة من حيث لا يشعرون، والله المستعان! فليكن أننا رأينا ثعبانا له أرجل، أو حتى له أجنحة وريش ومنقار، فكان ماذا؟؟ ولنفرض أنهم عثروا على رمم لقردة قريبة الشبه بالبشر، ولبشر قريبة الشبه بالقردة، فكان ماذا؟؟ ما تحقيق وجه الدلالة في شيء من ذلك على تلك الأسطورة العبثية الدهرية الخبيثة؟؟ هذا ما لم ولن يقنعونا بصحته مهما عملوا، لأن موضوع التنظير نفسه لا يجيز العقل إعمال المنطق التفسيري Abductive Reasoning عليه من الابتداء! فلا يكون تكلف الإتيان بفروض تفسيرية في مثل ذلك إلا ضربا من الخرف والهذيان من حيث المبدأ العقلي! دعوهم يفرحوا بتلك الرمم التي تفننوا في تلبيسها بأسطورتهم الدهرية الواهية، ولا تطالبوهم بالإتيان بالمزيد من تلك التأويلات والتخرصات، لأنها لن تزيد المفتونين الجهلاء إلا فتنة فوق فتنة، والله المستعان!

في عام 2006 الميلادي، نشر الداعية الماسوني التركي المدعو عدنان أوكتار (المعروف – أو بالأحرى المعروفة فرقته أو جماعته - باسم "هارون يحيى") كتابا سماه "بأطلس الخلق" Atlas of Creation، ونشره بالمجان في أنحاء أوروبا وأرسل منه نسخا مجانية إلى مكتبات جامعاتها، وأتى فيه بعشرات من الحفريات القديمة، التي يزعم الدراونة رجوعها إلى ملايين السنين قدما، ثم أرفق كل صورة من صور تلك الحفريات بصورة لنظيرها من الأنواع الحية الموجودة في عالمنا اليوم، يريد أن يقول: أين هو التطور الذي تزعمون أنه قد وقع؟ ثم أتى بتركيبات على الفوتوشوب لبعض الأنواع

المختلطة ليقول: لن نصدقكم حتى تأتونا بحفريات لهذه الأنواع الوسيطة! وعلى الرغم من أن هذا النوع من الاعتراضات يلقى رواجا كبيرا بين المسلمن في بلادنا وفي بلاد الغرب على السواء، إلا أنه اعتراض واه لا ينهض بالمطلوب ولا يأتي بشيء يعجز الدراونة عن الرد عليه، ولا يزيد الدراونة إلا تسلطا وعلوا بباطلهم على التحقيق! فالأمر الذي لم ينتبه إليه مؤلف الكتاب أنه إذا كان يريد أن يستدل بتلك الصور الحاشدة على أن الأنواع كلها قد خلقت خلقا مباشرا في أزواج مستقلة، لا من أصول مشتركة ولا من بعضها البعض، فهذا – أيضا – فرض تفسيري غيبي من جانبه، لا أساس له في المشاهدات مهما توافرت، ويرد عليه نفس النقد المنهجي الذي نوجهه إلى المنطق التفسيري المتبع عند الدراونة في بناء أسطورتهم ولا فرق! ولو أنه قال – مثلا – إنه أورد هذه الأمثلة ليبين أن الاستدلال بها هي نفسها على ما يزعمه الدراونة من تطور ومن سلف مشترك إنما يكون من جانبهم تحكما، وأنه لا يقر هذا المنطق في الاستدلال وإنما أراد أن يثبت وهاءه المنهجي، لقام إذن بالمقصود من الرد والإبطال! ولكنه تربى في مدرسة اللاهوت الطبيعي في نقد الداروينية عند أهل الكتاب، وروج لبضاعتهم في كتبه كما بينا ذلك في محله من هذا الكتاب.

ينتقل الدكتور بعد ذلك إلى نقطة أخرى في النقد على "الخلقيين" فيقول: "افتقاد الدليل التجريبي: يحتج المعترضون على حدوث التطور بأنهم لم يروا تجربة تحولت فيها مثلا السمكة إلى ضفدعة. ويجيب التطوريون بأن الانتخاب الاصطناعي يخرج لنا أشكالا كثيرة من النوع الواحد، كسلالات الغلال الأكثر إنتاجا والأقدر على مقاومة الأمراض. وينبغي أن نلفت النظر إلى أن التطور من نوع لآخر لا يخرج عن أن يكون تراكما لمثل هذه التغيرات التي تحدث في إطار النوع الواحد، لذلك فإنه يستغرق الملايين من السنين." اهـ.

قلت: هذا الاعتراض من خصوم الدراونة لعله هو أقوى ما نهضوا به من نقد للنظرية فيما قرأت لهم! أو للدقة: هو أقرب ما وقفت عليه من انتقادات للنظرية إلى أصل الفساد الفلسفي والمنهجي الكلي الذي تقوم عليه النظرية عند أصحابها، وفقدانها لأساس معقول يقوم عليه منطق الاستدلال بالمشاهدات فيها! وبقليل من التأمل يتبين لك تلبس الدكتور بنفس المراوغة التي يسلكها أساتذته الدراونة الدهرية فرارا من وجه الاعتراض المنهجي الظاهر هنا، يستدلون بمحل النزاع إذ يقول قائلهم كما قال الدكتور: هذا الذي نشهده من تغيرات في إطار النوع الواحد، لو تصورنا تراكمه عبر ملايين السنين، فسنحصل لا محالة على التحول من نوع إلى نوع، فكيف تطالبوننا بإثبات مشاهدة لا نتوقع حصولها إلا بعد ملايين

السنين؟! فيقال لهم: هذا بالضبط هو سبب قولنا إن نظريتكم تلك ليست نظرية علمية أصلا، أي ليست مما يصح اعتباره من جملة دعاوى العلم التجريبي الإمبريقي Empirical Science، وإنما هي فرضية خيالية ميتافزيقية محضة، لا يوصل إلى إثباتها من طريق المشاهدة المباشرة أبدا! ليس بين أيديكم إلا أماني وأوهام لا تصمد أمام التمحيص العقلي الصحيح، ولا تزن شيئا في سوق الأدلة مهما كثرت!

فافهموا وجه الاعتراض ودعكم من المراوغة! فإن من شرط العلم التجريبي أن تكون فروضه التفسيرية قابلة – ولو مبدئيا – للإخضاع للفحص التجريبي، حتى يُتصور إمكان التحقق – بطريق عقلي صحيح - من صحة العلاقة السببية المفترضة! فإذا كان الفرض التفسيري السببي لا يمكن الوقوف على نظيره في يوم من الأيام ولا يرجى ذلك، وكان موضوع الافتراض موضوعا غيبيا مطلقا لا نظير له في تجربتنا البشرية البتة، فما الفرق – إذن – بين ذلك الفرض الغيبي مطلق التغييب، وبين خرافات أهل الملل الباطلة في تلك الغيبيات؟ أي مزية إذن تكون لموضوع العلم التجريبي Science على أساطير الأولين يا دكتور؟؟ إن كان مبدأ الاستدلال عندكم هو أن مطلق التناسق المنطقي بين دعاوى النظرية وتأويلات المشاهدات فيها، بما في ذلك وسائل التأريخ الأركيولوجي Dating Methods، يدل بجملته على وقوع التطور الدارويني Evolution، حيث تبدأ الأنواع بالأصل الأعقد وتنتهي عند الأبسط والأحط، فكيف وبأي شيء يرجح ذلك على قول من أراد أن يستدل بنظير ذلك على أن التاريخ الطبيعي في أصول الأنواع جرى على عكس ذلك بالكلية، أي على التردي Devolution من النوع الأعقد (الإنسان) إلى ما هو دونه، وصولا إلى الخلية الأولى، أو على أنه كله قد ظهر بطفرات متتابعة عبر عدد قليل من الأجيال فيما لا يزيد على ألف سنة (مثلا)؟ إذا كانت الدعوى الغيبية المحضة لا قيام بها عندكم إلا ببناء التأويل فوق التأويل، فأين في مجموع ذلك ما يحصل منه الدليل، وبأي شيء يحصل الترجيح بين منظومة التأويلات الداروينية (البارادايم الدارويني) وما يناظرها مما يتصور وقوعه عند غير الدراونة؟؟ وهم فوق وهم وكذب فوق كذب وخيال خصب ليس في مجموعه عندكم من العلم إلا اسمه، فلا تجيبونا بأن الأمر يتطلب ملايين السنين حتى نرى نوعا جديدا ينشأ عن نوع قائم فيما يقال له Macroevolution، مد الله في أعمارنا وأعماركم، فإن الأمر يظل رجما بالغيب وخرقا لشرط العلم التجريبي الذي لا يمتاز عند العقلاء عن أساطير الطبيعيين وغيرهم من أهل الملل الباطلة إلا به!

بل نزيدك من الشعر بيتا يا دكتور فنقول: حتى لو قدرنا تنزلا أن وقع لنا أن عشنا نحن وأنت لمليون سنة، ثم ظهر أخيرا بين أيدينا نوع جديد فيه أعضاء

جديدة ووظائف جديدة على غير مثال سابق، فلن يكون من المعقول أن يفسر ذلك بأنه راجع إلى تراكم الطفرات الدقيقة، لأنه إذن لا يكون تطويرا وتحسينا على نوع قائم وإنما يكون إحداثا لنوع جديد بالكلية، والإحداث على غير مثال سابق شيء، والتطوير على مثال سابق شيء آخر بالكلية، ولا يشتبهان إلا على مماحك! وحتى على تقدير أن وقع لكم من التأويل ما به جعلتم نشأة ذلك النوع الجديد بوظائفه الجديدة ومحله الجديد من بيئة الأرض، متولدة عن تراكم الطفرات الدقيقة في إطار النوع الأول الذي رأيتموه يولد من نسله، فلن يكون في ذلك ما يدل على أن هذا ما به خلق الله جميع الأنواع على غير مثال سابق في ابتداء الأمر، لأن مبدأ القياس الغيبي نفسه فاسد كما بينا! أي حتى إن وقعت تلك المشاهدة (نشأة نوع جديد بالكلية تحت حسنا ومشاهدتنا المباشرة)، فلن يكون فيها ما يسوغ لكم قياس النشأة الغيبية لجميع الأنواع الحية على الأرض على هذه الواقعة بعينها! بل إن العقل سيظل يأبى ذلك القياس ولا يقبله، للفارق الظاهر جدا بين الأصل والفرع! فالواقعة (أو الوقائع) التي قستموها كانت في ابتداء الأنواع الحية كلها، وابتداء نظامها الكلي Bioshpere الذي لا نجد مستندا في عادتنا لتصور الطريقة التي نشأ بها جملة وتفصيلا حتى صار على ما نراه اليوم، وهذه الواقعة التي قستم عليها إنما هي حادث أو جملة حوادث وقعت في إطار ذلك النظام الحيوي القائم بالفعل، وهو فارق مؤثر قطعا في علة القياس، فافهموا هذا المعنى إن كنتم تعقلون! لهذا قلنا إننا لا نرتضي منكم قياسا إلا أن يكون استقراء حسيا مباشرا لجملة كبيرة من العوالم المشابهة لعالمنا التي شهدتم فيها كلها بالفعل، وعبر ملايين السنين (كما تزعمون أنه وقع عندنا) نشأة الأنواع الحية كلها والنظام الحيوي كله بعد أن لم يكن! فإن تحصل لكم ذلك، فحينئذ وحينئذ فقط، نقبل منكم أن تقولوا إنه لابد أن تكون الأنواع في الأرض قد نشأت كلها بنظير ذلك الذي شاهدناه، جريا على نظام سببي ثابت، قد حصل لنا إثباته بالاستقراء، وإذن تكون نظريتكم تفسيرا إمبريقيا مقبولا مبدئيا لنشأة الأنواع الحية وتنوعها على الأرض! ولكن أيكم بذلك زعيم؟؟

ولهذا لا يزال الدراونة يحلمون باكتشاف كوكب من الكواكب السيارة تكون على سطحه حياة أو آثار لحياة، أو حتى بعض مقدمات الحياة كالماء مثلا، حتى يصلوا أخيرا لأن يقولوا: انظروا ما نشاهده الآن بأعيننا على سطح كوكب كذا، فهذا ما نزعم أن الحياة على الأرض كانت مثله قبل أن تترقى وتتطور! والواقع الذي لا يرد القوم الاعتراف به، هو أن مستنداتهم في الاستدلال من الوهاء والتهافت بما لا يسعهم معه حتى إن قدر لهم الوقوف على كوكب يشبه الأرض وعليه من صور الحياة نظير ما على الأرض أو قريب منها، أن يقولوا إن هذا يسوغ لنا اعتقاد أن الحياة على الأرض قد

نشأت بالتطور الداروني! لأنه إذن لا يعدو أن يكون قياسا آخر لا مستند له، يزيد ميثولوجياهم الدهرية انتفاخا بالتأويلات الوهمية التي تظل تفتقر كلها إلى ما يسوغها من حيث مبدأ القياس نفسه!

ثم يسوق الدكتور اعتراض "الخلقويين" الثالث فيقول:

> هل توقف التطور؟ يرى الخلقويون أن حدوث التطور البيولوجي يتطلب أن نرى الكائنات تتحول تحت أعيننا، وبوسع أي فرد أن يدرك ألا يحدث. يرد التطوريون على ذلك بأن التطور الطبيعي يسير ببطء شديد بحيث لا يمكن رؤيته بالعين المجردة، ولكنه يرى في طبقات الحفريات. ويستشهدون أيضا بأننا نرى بأعيننا بعضا من الحلقات الوسطى تحيا معنا على سطح الأرض، مثل آكل النمل ومنقار البط اللذين يجمعان صفات الزواحف والثدييات، ومثل البرمائيات التي تجمع صفات الأسماك والزواحف. كذلك يرى بعض أنصار التطور الموجه أن استمرار عملية التطور أو توقفها منوط بإرادة الخالق وتدخله لدفع التطور أو إيقافه.

قلت: قوله "يرد التطوريون على ذلك بأن التطور الطبيعي يسير ببطء شديد بحيث لا يمكن رؤيته بالعين المجردة، ولكنه يرى في طبقات الحفريات" قد تقدم الرد عليه بما لا مزيد عليه، إلا أن نقول: لستم ترون تطورا في طبقات الحفريات يا دكتور، وإنما ترون ما تتأولونه على أنه تطور، فكفاكم تلبيسا! قوله: "ويستشهدون أيضا بأننا نرى بأعيننا بعضا من الحلقات الوسطى تحيا معنا على سطح الأرض، مثل آكل النمل ومنقار البط اللذين يجمعان صفات الزواحف والثدييات، ومثل البرمائيات التي تجمع صفات الأسماك والزواحف." قلت: مزيد من التلبيس والتأويل المتعسف! قوله: "كذلك يرى بعض أنصار التطور الموجه أن استمرار عملية التطور أو توقفها منوط بإرادة الخالق وتدخله لدفع التطور أو إيقافه." قلت: عجيب قوله "بعض"! فهل أنت من هذا "البعض" أم لست منه؟؟ المسلمون لا يثبتون لشيء في العالمين وقوعا ولا حدوثا إلا تبعا لإرادة الباري سبحانه (وليس "لتدخله"!!)، فما موقفك أنت؟؟ سبحان الله! ثم كيف لا ترى أن هذا الكلام الذي نسبته إلى "بعض أنصار التطور الموجه"، رجم بالغيب عريض، لم يتكلف أصحابه ولا حتى محاولة الدليل؟؟ ولو أنك أردت أن تثبته أو تنفيه بالدليل، فما نوع الدليل ومن أين تأتي به؟؟ وتحت أي علم من العلوم يكون لهم ذلك إن كان يا دكتور؟ سبحان الله العظيم!

ثم قال في الاعتراض الرابع:

"يردد الخلقويون أن التطور لا يخرج عن كونه "نظرية" قابلة للإثبات أو للنفي، ومن ثم لا ينبغي الاهتمام به! ولا شك أن هذا القول يحمل قدرا كبيرا من اللبس. فالعامة ينظرون إلى أي نظرية باعتبارها نوعا من التخمين! وأن القول بها يعكس نقصا في الأدلة، بينما ينظر العلماء إلى النظريات على أنها "تلخيص المسائل الخاصة بالقضية الأم وتدور حولها المسائل الفرعية"، ولا علاقة للاصطلاح بالصحة أو الخطأ، فهناك نظريات أصبحت بمثابة الحقائق العلمية، كنظرية الجاذبية والنظرية النسبية اللتين لا يشك في صحتهما أحد. هذا بالإضافة إلى ما ناقشناه في مقدمة الكتاب من أن طبيعة علم البيولوجيا تختلف عن العلوم التجريبية والرياضية، وأنها تعتمد على طرح النظريات وليس على سوق البراهين التجريبية والرياضية." اهـ.

قلت: لا والله بل التلبيس كل التلبيس هو في تصويرك أنت يا دكتور لنظرية داروين ولدعوى التطور من سلف المشترك، على أن لها في سوق الأدلة مستند أو أساس يرقى فوق منزلة "التخمين"! ثم إن خصومك الذين يقولون إن التطور "مجرد نظرية" ليسوا كلهم "عامة" يا دكتور، وليس كل من قال بذلك فهو جاهل بطبقات النظريات العلمية ومراتبها، وما يرقى منها لأن يكون مفيدا للمعرفة الظنية، وما لا يعدو أن يكون خرفا وتنطعا بالقياس في غير محله! ووالله إنه لمما يؤسف له أن نراك قد قرأت في كتاب من الكتب أن نظرية داروين نظرية "تاريخية"، وأن أدلتها من فئة IBE أو Inference to Best Explanation، ومع ذلك لم تتكلف الرجوع إلى مصنفات فلاسفة العلم والمناطقة المعاصرين في مناقشة ذلك الصنف من الأدلة ومنطق الاستدلال التفسيري نفسه Abduction وطريقة الاستبعاد Elimination التي يفترض الدراونة في أدلتهم أنها تطبقه تطبيقا صحيحا! وليس أدل على سطحية تناول الدكتور لتلك القضية المهمة التي هي مربط الفرس وأصل العطب في فلسفة الاستدلال الدارويني نفسها (Darwinian Epistemology)، من ذلك الموضع الذي أحال عليه الدكتور في مقدمة كتابه، في فلسفة علم البيولوجيا وطبيعة الاستدلال فيه، حيث قال (ص. 19-20):

> أولا: طبيعة العلم الحديث: ذكرنا أن ما عاناه العلماء في العصور الوسطى من قبل الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا قد انعكس على تعريف العلم الحديث. لقد أصبح العلم يتعامل فقط مع ما هو خاضع للتجربة العلمية والبرهان الرياضي، ويكون قابلا للتكرار معطيا نفس النتائج، كما يرفض أي تفسير غير مادي للظواهر. بهذه المواصفات أصبح تفسير جميع الظواهر الطبيعية محسوما لصالح التفسيرات المادية ضد التفسيرات الدينية الغيبية. ثانيا: طبيعة علم

البيولوجيا: تتراوح حجية الأدلة التي يواجهها القضاة في المحاكم من أدلة تثبت أن المتهم مذنب بلا أدنى شك، إلى أدلة واضحة مقنعة، إلى أدلة راجحة. وبالمثل يتراوح البرهان العلمي في حجيته، فالعلوم الفيزيائية والكيميائية والرياضية تسعى دائما إلى التوصل إلى الأدلة القاطعة متمثلة في البرهان التجريبي والبرهان الرياضي. أما البيولوجيا فجانب كبير منها يحلق بالعلوم التاريخية! خاصة بعد أن أصبح التطور حجر زاوية في هذا العلم. لهذا يلجأ علماء البيولوجيا والفلاسفة المهتمون بنشأة الكون والحياة إلى دليل يلجأ إليه المؤرخون، هو برهان "الترجيح بين أنسب التفسيرات" Inference to The Best Explanation وفيه تدرس كل الفرضيات المتاحة لتفسير قضية معينة، ويتم ترجيح الفرضية التي تملك القدرة على تفسير أكثر عدد من الظواهر التي تطرح عليها تباعا. فإذا درسنا مثلا قضية "نشأة الكون"، نجد أن الماديين يرجعونها إلى فعل الطبيعة! بينما يرجعها المتدينون إلى الإله الخالق. فإذا ثبت أن نشأة الكون كانت مصحوبة بأمور خارقة لقوانين الطبيعة، ترجح عندنا أن يكون الإله هو الخالق وليس الطبيعة. ولا شك أن هذا الدليل أقل قطعية ودلالة من الأدلة التجريبية والرياضية، ولا شك أنه يترك مجالا لوجهات النظر الشخصية. من ثم أصبحت قضايا علم البيولوجيا والعلوم التي تدرس نشأة الظواهر المختلفة أقل حسما من قضايا العلوم التجريبية والرياضية.

قلت: هذا الكلام والله لو قاله طالب في السنة الأولى في فلسفة العلم والإبستمولوجيا في أي جامعة من الجامعات المحترمة في امتحان من الامتحانات لرسب! قوله: "فالعلوم الفيزيائية والكيميائية والرياضية تسعى دائما إلى التوصل إلى الأدلة القاطعة متمثلة في البرهان التجريبي والبرهان الرياضي."، قلت: لفظة برهان التي ألصقتها بالرياضيات يا دكتور، في إطار بيان ما يرومه القوم من القطع والاستدلال القطعي، إنما تطلق عند الفلاسفة المعاصرين ويراد بها معنى اللفظة الانكليزية Proof وليس Evidence! والحال أنه ليس عند فلاسفة العلوم شيء يقال له "البرهان التجريبي" Empirical Proof أصلا، وإنما يتكلمون عن الدليل التجريبي Empirical Evidence! وذلك لأن التجريب المنهجي Systematic Observation لا يوصل منه في العلوم المذكورة إلى "برهان" Proof، وإنما يوصل منه إما إلى تعضيد للاستقراء أو للدعوى التفسيرية Confirmation/ Confirming Evidence أو تضعيف لها Disconfirmation/ Disconfirming Evidence لا أكثر!

ولكن من دأب متكلمة الطبائعيين (الغارقين في الوضعية المنطقية إلى رقابهم من حيث لا يشعرون)، أن يظنوا أن الدليل التجريبي ما دام دائرا على الحواس الخمس، فلابد أن تكون دلالته عند التجريبيين بمنزلة دلالة الحس نفسه على المحسوس! وهذا ليس بشيء، لأنه لا تخلو مشاهدات التجارب من التأويل بصورة ما أو بأخرى بالضرورة، حتى تصبح دليلا على ثبوت المطلوب! حتى عندما يجرب أحدهم أن يلقي بكرة إلى أعلى لينظر هل ستسقط إلى الأرض تحت تأثير الجاذبية كما جرت به العادة أم لا، فهو يؤول مشاهدته – لا محالة - إذا رآها تسقط بأن ذلك راجع إلى قانون الجاذبية، وبأنه دليل على اطراده واستمراره في الجريان في هذا الموضع من الأرض على الأقل، كما كان متوقعا! وأما المشاهدة في نفسها (مجرد رؤية سقوط الكرة) فلا ينتفع بها الباحث التجريبي! الحس يدل على حصول السقوط تحقيقا، أي أننا قد رأينا ما لا لفظ يصفه في اللغة إلا السقوط! هذا هو منتهى دلالة الحس في المسألة (التي لم يزل الدكتور يرفعها فوق أنواع الأدلة الأخرى في كل مناسبة!)! ولكن مهما دلتنا أعيننا على سقوط ملايين الكرات، فبدون تأويل استقرائي معين Inductive Interpretation لن تكون لتلك المشاهدات في مجردها أي نفع للباحث التجريبي، ولن يخرج منها بشيء يخدم مطلوبه من التجريب! ولهذا تكلم "بيير دوهيم" عما سماه بتلبس المشاهدة بالتأويل Theory Ladenness في العلوم الطبيعية والتجريبية على نحو ضروري لا انفكاك منه، كما تكلمنا عليه في غير موضع. وصحيح إن الاستقراء قد يكون مستفيضا لا يكاد ينخرم إلا في النادر جدا، كما في مسألة سقوط الكرات إلى أسفله هذه، إلا أن دلالة كل مشاهدة جديدة بعينها على صحته إنما تثبت بالتأويل في كل مرة، لا بمجرد المشاهدة، وهذا واضح كما بينا. فلا يجوز أن يقال في الدليل التجريبي إنه "برهان" فيما يترجم في الاصطلاح الفلسفي إلى اللفظة Proof! يمكن أن يقال إنه دليل حسي Evidence، أما البرهان Proof فلا!

وكذلك استعمال الطبيعيين والتجريبيين حتى الفيزيائيين منهم، للمعادلات الرياضية، فليس في شيء من هذا ما يبلغ أن يقال له "برهان رياضي"، وإنما تستعمل المعادلات الفيزيائية في الاستنباط Deduction والاشتقاق Derivation لا في البرهان Proof! البرهان الرياضي إنما يكون في المسائل القبلية A-priori كما في بعض مبرهنات المنطق الأولي Theorems أو مبرهنات الهندسة التحليلية أو نحو ذلك. والبراهين القبلية عموما A-Priori Proof هي تلك البراهين أو الحجج التي إذا صحت مقدماتها وجب بالضرورة العقلية أن تصح نتائجها، وليس في التجريبيات والطبيعيات ذلك النوع أصلا، لأن المعادلات الفيزيائية والكيميائية ليست قبلية A-Priori في موضوعها وإنما بعدية A-Posteriori، حيث تستعمل المعادلات الرياضية

لنمذجة الواقع الخارجي والعبارة عنه، لا للعبارة عن حقائق بدهية تعرف صحتها بموجب المعرفة اللغوية بمعزل عن العادة والحس، كقولنا (أو نصف الاثنين يساوي ثلث الثلاثة) مثلا! والذين يزعمون أن المعادلات الرياضية بمجرد أن يضعها الفيزيائي في نظرية من النظريات أو في توصيفه لعلاقة سببية طبيعية معينة Physical Regularity وظهرت صحتها في الربط بين متغيرات تلك العلاقة في إطار التطبيق البشري، فقد صارت حقا مطلقا بمجرد ذلك، يجب أن تصح في كل مكان من العالم وتحت جميع الظروف، هؤلاء مبتلون بمسلمات الملة الطبيعية كالاختزالية السببية والطرد الكوني المطلق للنظم السببية المحلية وغير ذلك! وما أكثر ما أثبت التجريب وهاء مزاعمهم العريضة المرة بعد المرة، كفساد نتائج معادلات نيوتن عند استعمالها في وصف بعض ما تصفه معادلات أينشتاين من علاقات الجاذبية مثلا! والذين يزعمون أن مجرد اهتداء المنظر الفيزيائي إلى المعادلة وتلقي أقرانه إياها بالقبول هو دليل صحتها في نفسها ودليل على وجوب خضوع العالم لها، هؤلاء مصابون بمذهب المثالية الرياضية Mathematical Idealism، الذي هو صورة معاصرة من صور المثالية الأفلاطونية التي تجعل للمعادلات الرياضية وجودا خارجيا مستقلا في الأعيان، فكأنما توحي تلك المعادلات من فضاء وهمي توجد فيه، إلى الفيزيائي بحقيقة وجودها فيتصورها ويصفها على ما هي عليه! وهذه مغالطة عقلية سخيفة قد أشبعت ردا وإبطالا في هذا الكتاب وغيره، عندنا وعند غيرنا! وكذلك الذين يزعمون أن النماذج الرياضية التي يضعونها لتوصيف الظواهر الفيزيائية تصح في نفسها بموجب ما يرونها تتسم به من تماثل رياضي Symmetry أو تناسق مع النظريات الأخرى External Consistency أو بلاغة في العبارة الرياضية Elegence أو غير ذلك من معايير لغوية بلاغية شكلية لتحسين وتقبيح العبارة الرياضية نفسها، هؤلاء ليس معهم إلا الأماني والأوهام! وغاية أحدهم أن يكون كالمصورين والنحاتين والشعراء ومن شاكلهم من أهل الفنون التشكيلية، لا أن يكون من الباحثين عن الحقيقة من حيث هي!

والقصد أننا معاشر أهل السنة لا يقع في قلوبنا من الهيبة والرعب بمجرد أن نسمع كلمة "دليل تجريبي" و"دليل رياضي" هذه تجري على ألسنة الطبيعيين، ما هو آخذ بتلابيب قلوب المفتونين من أمثال الدكتور هداه الله، بل نفصل وندقق وننزل كل دعوى في منزلها اللائق بها بلا إفراط ولا تفريط، والحمد لله أولا وآخرا!

ثم إن في كلام الدكتور خلطا واضحا بين ما عليه واقع تلك العلوم وما يرجوه لها المشتغلون بها من حال! فإن كان الفيزيائيون "يسعون دائما" إلى التوصل للأدلة القاطعة، فإلى أي شيء يسعى البيولوجيون وغيرهم من

أصحاب العلوم إن لم يكن الوصول – كذلك – إلى الأدلة القاطعة؟! ما يسعى إليه الباحثون في مجال من المجالات شيء، وما ينتهي إليه بحثهم واجتهادهم شيء آخر، والذي يعنينا في هذا المقام هو واقع الحال الذي عليه أنواع الأدلة التي انتهى القوم إلى استعمالها تحقيقا، لا ما كانوا يطمحون إليه!

قوله: "لهذا يلجأ علماء البيولوجيا والفلاسفة المهتمون بنشأة الكون والحياة إلى دليل يلجأ إليه المؤرخون، هو برهان "الترجيح بين أنسب التفسيرات" Inference to The Best Explanation وفيه تدرس كل الفرضيات المتاحة لتفسير قضية معينة، ويتم ترجيح الفرضية التي تملك القدرة على تفسير أكثر عدد من الظواهر التي تطرح عليها تباعا." قلت: من جديد يخلط الدكتور بين البرهان (في الاصطلاح الفلسفي والمنطقي) وبين الدليل، فالأول أخص من الثاني، ولا يقال في الترجيح أو في طريقة النظر إنها "دليل" أصلا، فضلا عن أن يجعل برهانا على هذا المعنى! هذا الذي ساق الدكتور إلينا مصطلح الفلاسفة عليه ليس "دليلا" وإنما هو طريقة من طرق الاستدلال! وهو النوع الثالث من أنواع الاستدلال العقلي عند المناطقة المعاصرين من بعد تشارلز ساندرز بيرس في القرن التاسع عشر الميلادي، ألا وهي الاستنباط Deduction والاستقراء Induction والتفسير Abduction. ومن الواضح جدا أن الدكتور لا يدري إذ يسوق هذا المصطلح حقيقة مسماه! فقوله: "وفيه تدرس كل الفرضيات المتاحة لتفسير قضية معينة، ويتم ترجيح الفرضية التي تملك القدرة على تفسير أكثر عدد من الظواهر التي تطرح عليها تباعا." هذا أول ما يورده على ذهن العاقل منا هو السؤال: من أين يؤتى بالفرضيات التي وصفها الدكتور بقوله "المتاحة"، وما حدود المتاح وغير المتاح، وما معنى "القدرة على تفسير أكبر عدد من الظواهر" وما شرط الفرضية التفسيرية التي تتسم بتلك "القدرة"؟

هذه الأسئلة التي أطرحها، أيها القارئ الكريم، لا أضعها تعجيزا لأتباع الدكتور، وليست دعوة لهم ليستحضروا أول جواب متعجل في تلك القضايا المنهجية التي أحسب أنهم لم يخطر ببالهم أن يبحثوها من قبل البتة! وإنما أدعوهم صدقا للتدبر وطول التأمل في هذه القضية المهمة لأن لب النزاع بيننا معاشر أهل السنة وبين الدراونة على اختلاف فرقهم وطوائفهم، يرجع على التحقيق - من حيث منهج الافتراض والتنظير نفسه - إلى تلك الفئة من الأسئلة الكلية! تلك الأسئلة التي أجبناها نحن على ما نزعم أنه جواب أهل السنة، فقدمنا الدليل العقلي الجلي على كون نظرية التطور وما تفرع عليها من تطور موجه وتصميم ذكي وغير ذلك من بضاعة الخلقويين الطبيعيين، من جملة العلوم الزائفة Pseudosciences بجدارة واستحقاق، وإن

أطبقت أكاديميات الأرض كلها على تدريسها ونشرها والترويج لها! فحرروا أنتم معاشر التطويريين من بني جلدتنا موقفكم من هذه الأسئلة بوضوح، واعلموا أنه لا يغني عنكم ولا يجزئكم في ذلك أن تفتحوا كتب فلاسفة العلم الدهريين أو اللاهوتيين الغربيين وتنقلوا عنها نقل الببغاوات، بعزو وبغير عزو، كما سلكه الدكتور في عامة كتبه!

يا دكتور، القدرة التفسيرية هذه إنما تنشأ عن الخبرة والعادة الاستقرائية عند صاحب الفرضية، لا عن الأوهام والأماني والأحلام! أي يجب أن يكون قد استقر في عادته أن تلك الظواهر كلها إنما تجتمع إذا اجتمعت، على أثر نظير ذلك العامل المفسر الذي افترضه تفسيرا لاجتماعها في تلك الحالة المعينة التي بين يديه (التي هي موضوع التنظير التفسيري من جانبه)! فالباحث الأركيولوجي – مثلا – عندما يعثر على قطعة أثرية يرى عليها نقوشا معينة ويجدها على هيئة معينة وفي منطقة معينة، فإنه يفسر وجودها على تلك الهيئة وتلك الأحوال بأنها تنتمي إلى الفترة التاريخية كذا وكذا، أو إلى الأسرة الحاكمة الفلانية أو نحو ذلك! فعلى أي أساس وضع الفرضية التفسيرية وبأي شيء اعتضد حتى يقوي من ثبوتها لديه؟ على أساس من خبرته السابقة بأنواع النقوش والهيئات الصناعية Artifacts التي اتفق أقرانه على انتمائها إلى تلك الحقبة التاريخية، وإلى الحضارة القديمة المعينة التي هو معتن بدراستها، فبناء على تلك الخلفية وحدها، ينطلق ذلك الباحث من خبرات معينة إلى وضع فرضيته، ثم يستعين بخبراته الأخرى في تأويل كافة المشاهدات ذات الصلة التي تقع له فيما بعد بناء على تلك الفرضية، بما يقوي نظريته ويعضدها، حتى يظهر له - من واقع الخبرة الاستقرائية كذلك - ما يدعوه لتوهين تلك النظرية أو مراجعتها وتعديلها! ولا شك أن النظريات التفسيرية المبنية على تلك الطريقة تتفاوت في قوتها وإفادتها الظن الراجح بحسب قوة ما تحتها من استقراء العادة والخبرة المتخذة كأساس لوضع الفرضية نفسها ولاستعمالها في تأويل المشاهدات! فعندما يكون موضوع النظرية التفسيرية هو حادث له نظائر صريحة مماثلة مستفيضة في تجربة الباحث، كمثال جريمة السرقة الذي ضربناه في الباب الثاني من هذا الكتاب، فإن فرضياته التفسيرية تكون لها حالئذ في خبرته هو كباحث مستند استقرائي قوي، يغطي جميع تفسيراته وتأويلاته التفصيلية لما هو واقع تحت مشاهدته من الظاهرة المراد تفسيرها. فإذا قال – مثلا – إن الشباك ترك مفتوحا بالنظر إلى أن الجاني فعل كذا وكذا، فإنه يكون لديه أساس مستفيض من عادته الفردية كمحقق جنائي بنظائر تلك الحالة بعينها!

ولكن عندما يكون موضوع النظرية التفسيرية حادث تاريخي قديم، لم يشهده الباحث نفسه، ولا شهده أحد من معاصريه، فحينئذ تستمد الفرضيات التفسيرية من وثائق وآثار قد تتنازع كل واحد منها احتمالات شتى في تقرير صحة نسبته إلى صاحبه وصحة دلالته على ما فهمه منه الباحثون، على ما هو معلوم عند دارسي التاريخ من فقر الأسانيد وانقطاعها إجمالا. وحينئذ تجد النظريات يعتريها قدر من التحكم في التأويل والترجيح، وهو ما عبر عنه الدكتور بعبارة عامية في قوله: "ولا شك أن هذا الدليل أقل قطعية ودلالة من الأدلة التجريبية والرياضية، ولا شك أنه يترك مجالا لوجهات النظر الشخصية"! ومن الواضح أننا كلما أغرقنا في الرجوع إلى الماضي، ازددنا فقرا في الأثر الموثق والتراث المتصل والخبر الموروث، وازداد مقدار ما في تأويلات المؤرخين ونظرياتهم من فروض تخمينية فقيرة في مستندها الاستقرائي، وتضاءلت احتمالية أن تصح أقيستهم لما يجدونه من بقايا وآثار الأمم القديمة على ما هو معتاد من سلوكيات البشر وأحوالهم في واقعنا المعاصر أو حتى في التاريخ القريب منه! ولهذا ذكرنا في آلة الموحدين وفي هذا الكتاب أنه كلما كان الحادث المراد تفسيره أبعد في جهة الماضي، كان افتراض استمرارية النظاميات السببية Causal Regularities سواء كانت إنسانية أو طبيعية، واطرادها كما نجدها الآن، وصولا إلى ذلك الحادث، افتراضا أضعف وأوهن في الاحتمال (في مقابل احتمالية تبدل تلك السنن أو تغيرها كلها أو بعضها)، حتى نصل إلى نقطة ينقلب معها موضوع الحادث نفسه إلى الغيب المطلق (كحوادث نشأة العالم نفسه وما فيه)، فحينئذ يصبح من غير المعقول ولا المقبول أن يتكلف الباحث شيئا من القياس أو أن يدعي لنفسه حظا من الخبرة والعادة بنظائر تلك الحوادث الغيبية، حتى يتطلع للإتيان فيها بنظرية تفسيرية يستعمل فيها تلك الطريقة الاستدلالية!

هذه هي المرتبة الصحيحة والطريقة المرضية التي يعمل بها المنطق التفسيري Abductive Reasoning أو ما يسميه الطبيعيون بالتماس أحسن التفاسير IBE، وهذه هي حدوده كما ينبغي أن تكون عليه عند العقلاء! فمن فهم هذا حق الفهم وتدبره حق التدبر، فلا يُتصور بحال من الأحوال أن يقبل من الطبيعيين استعمالهم ذلك المنطق في قضية خلق السماوات والأرض وخلق جميع الأنواع الحية على الأرض، ومحاولة الوقوف على حوادثها ووقائعها وتفصيلاتها مطلقة التغييب! نعم البيولوجيا التطورية Evolutionary Biology علم تاريخي من حيث النوع، ولكن إذا كان منطق الاستدلال عند أصحابه فاقدا للأساس العقلي الصحيح، فبأي شيء نعده من جملة العلوم أصلا؟؟ بل لا يكون إلا ضربا من الخرف الميثولوجي المحض! ولهذا عندما يقول الدكتور: "فإذا درسنا مثلا قضية "نشأة الكون"، نجد أن

الماديين يرجعونها إلى فعل الطبيعة! بينما يرجعها المتدينون إلى الإله الخالق. فإذا ثبت أن نشأة الكون كانت مصحوبة بأمور خارقة لقوانين الطبيعة، ترجح عندنا أن يكون الإله هو الخالق وليس الطبيعة." فإننا نجيبه ونقول: أنت لم تفهم أساس وحقيقة هذا المنطق الاستدلالي الذي اغتصبه داروين وأتباعه اغتصابا يا دكتور، بل تابعتهم عليه تقليدا بلا تحقيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فأولا، أنت بهذا الكلام تجعل خلق الله تعالى لهذا العالم "فرضية تفسيرية" Explicans / Explanatory Hypothesis، وهذا باطل ببداهة العقل وضرورته! فإذا كانت الضرورة تمنع من استعمال ذلك المسلك في تلك المسألة، لأنها تمنع من اعتبارها مسألة نظرية أصلا، فماذا يبقى بعد؟؟ ثم إن اتخاذ هاتين الفرضيتين المزعومتين في مسألة نشأة العالم لا ينبغي أن يكون له أساس عند صاحبه – حتى يتسقيم منهجيا، بالنظر إلى ما حررناه وبيناه من حقيقة هذه الطريقة وأسسها في العقل السليم - إلا أن يقوم على عادة وخبرة لدى الباحث بمشاهدات مستفيضة لعوالم كعالمنا هذا، بعضها قد شهد بعينه أن الله خلقه، وبعضها شهد بعينه أنه لم تخلقه إلا الطبيعة (!!)، فيصبح من الوارد إذن، من حيث الاحتمال، أن يكون عالمنا هذا قد خلقه الله، كما يرد أن يكون قد خلقته الطبيعة، ويصبح الأمر مفتقرا إلى تتبع المشاهدات في هذا العالم التي ترجح أحد الفرضين على الآخر! ويكون أساس الترجيح هو مقارنة ما عليه أحوال هذا العالم بما تكون عليه العوالم التي خلقها الله، والعوالم التي خلقتها الطبيعة!

هذا هو المنطق التفسيري Abductive Reasoning لمن أراد أن يسلكه في تلك المسألة، وهو ممتنع تمام الامتناع كما ترون، فتأملوا يرحمكم الله! أما أن يقال "فإذا ثبت أن نشأة الكون كانت مصحوبة بأمور خارقة لقوانين الطبيعة، ترجح عندنا أن يكون الإله هو الخالق وليس الطبيعة."، فليس هذا من المنطق التفسيري الصحيح في قليل ولا كثير! ثم إنه لا يُتصور أصلا أن يثبت من طريق الطبيعيين شيء خارق لقوانين الطبيعة أو لنظامية الطبيعة Natural Order بإجمال، خرقا مطلقا، إذ لولا استعمال الأقيسة الطبيعية (قياس ما في الغيب على ما في الشاهد) وطرد النظام الطبيعي ومبدأ السببية الطبيعية Natural Causation إجمالا في جهة الماضي بلا حد ولا قيد، ما قال القوم بشيء في مسألة النشأة ابتداءً! لولا أن أجرى ليميتر في عشرينات القرن الميلادي الماضي معادلات النسبية العامة على فرضية "زمكان" لم يزل ينتفخ [103]، فادعى ابتداءه "ببيضة كونية" أولى لم تزل تنتفخ، وجاء هابل بمشاهدات لاحمرار الأشعة الوافدة من النجوم البعيدة، فتأولها هو وليميتر على ما يوافق تلك النظرية، ما ظهر ما يدعو الطبيعيين

للقول بأن الكون كما نعرفه إنما بدأ بشيء ما قد انتفخ أو انفجر أو توسع .. إلخ! فالطبيعة وأسبابها المطردة (نوعا) بلا حد ولا بداية، هي عندهم سبب ما يسمونه بالنشأة Origins، بمقتضى المنهج والطريق الذي منه قالوا بتلك النشأة ابتداء!

ولهذا لم تكن تلك النشأة نفسها على دينهم إلا تحولا أو تغيرا – على أسباب طبيعية محضة - لمادة ما أو طاقة ما أو شيء ما (مما لا يثبتونه إلا قياسا) كان هو كل ما في الوجود، إلى تلك الحال التي مهدت لصيرورة العالم إلى ما نراه عليه اليوم! أي أنه كان عالما ماديا (طبيعيا) Physical World على هيئة ما وصفة ما، ثم تحولت مادته الطبيعية (أيا ما كانت) إلى هذا العالم الذي نعرفه، بطريق طبيعي (نوعا)، فنشأ ما نعرفه الآن باسم الكون Universe! فهم وإن كانوا الآن يثبتون نشأة الكون Universe، فهم لا يزالون – مع ذلك – قائلين بقدم العالم ضرورة، الذي هو محل تلك المادة التي تحولت (بالانفجار والتمدد المزعوم) في إطار زماني افتراضي متقدم على الزمان الأينشتايني (الذي يسمونه بالكلاسيكي)، مع القوانين التي أحدثت ذلك التحول وتسببت فيه (أيا ما كانت) إلى "الكون" كما نعرفه! [104]
أي أن حادث النشأة هذا كله من أوله إلى آخره ليس عندهم إلا حادثا طبيعيا Natural Event جرى على الواقع الطبيعي Natural / Physical Reality فغيره تغييرا جذريا، يرون أنهم قد قطعوا في تصوره شوطا بكوزمولوجياهم المعاصرة، وبقي أمامهم المزيد! هذا أمر يقتضيه مجرد القول بالانفجار المزعوم (كحادث نشأة طبيعي، توصلوا إليه انطلاقا من مسلماتهم الطبيعية الكلية) اقتضاء ضروريا، وليس هو تأويلا إلحاديا للنظرية كما يصر الدكتور ومن شاكله على أن يصوروا المسألة، في تسطيح بالغ وتجاهل تام لما في مطلق تطبيق المنهج التجريبي على تلك القضية من مقتضيات دهرية!

والقصد أنه لا غيب البتة في بناء تلك النظريات ولا محل لسبب فوق طبيعي أو ماورائي أو غيبي أو نحو ذلك على الإطلاق، وأن مسألة ابتداء قوانين الطبيعة هذه (وليس خرقها كما وصفه الدكتور!) ليست أمرا فائقا لمبدأ السببية الطبيعية نفسه Natural Causation، وإنما هي عندهم تلك الحوادث الطبيعية نوعا، التي ابتدأت بسببها بعض القوانين (أو للدقة الطبائع Natures، كطبيعة الزمكان المزعوم التي هي تفسير أينشتاين للجاذبية) بعد أن لم تكن موجودة في الكون، بما يلزم – على طبيعيتهم المنهجية - أن يكون حدوثا تابعا بصورة ما أو بأخرى، لعمل أسباب طبيعية فائقة لتلك القوانين ومتقدمة عليها، وجارية على قوانين أخرى أكثر جذرية وأساسية More Fundamental Laws في "العالم" أو في "الواقع الطبيعي" Physical Reality، كبعض قوانين الكوانطم وما يتعلق بها!

هذا هو مقتضى إعمال المنهج العلمي التجريبي Scientific Method على تلك القضية (بناء على أصول الدين الطبيعي)، الذي لا يريد جهمية العصر أن يفهموه إلى الآن، والله المستعان! فمن فهمها فلن يعجب على الإطلاق إذا ما رآهم يتأملون في حقيقة ذلك الشيء الذي انتفخ وفي ما كان سببا (طبيعيا) في تحوله إلى الانتفاخ والتمدد، يأتون في ذلك كما في غيره بالتفسيرات الطبيعية والأسباب الطبيعية التي لا نظير مماثل لها في شيء من عادتنا [105]! هم لم يجعلوا لثوابت الكون وقوانينه (كالجاذبية مثلا) بداية في الماضي، إلا بمقتضى اعتقادهم في سنة طبيعية أزلية، هي أكثر أساسية Fundamental في تاريخ الكون من قانون الجاذبية وغيره من القوانين المعروفة حاليا، لأنها هي التي تسببت في نشوء تلك القوانين ابتداء! ومن فهم ذلك حق الفهم، تبين له كيف أنهم ما فارقوا القول بقدم الطبيعة والنظام السببي الطبيعي (إجمالا) على الحقيقة قيد أنملة، وإن كانوا قد زعموا أخيرا لحالة الكون هذه التي نعرفها بداية في الماضي!

فإذا كان مبدأ النظر أنه لا غيب البتة، ولا شيء يخرق الطبيعة أو يتجاوزها ولا سبب إلا السبب الطبيعي، وغاية ما هنالك أن تكون قد بقيت ثمّ مواضع في ابتداء تاريخ الكون لما تتفتق أذهانهم بعد عن إحداث خرافات جديدة وأقيسة جديدة تغطيها "بالتفسير الطبيعي" كما صنعوا بما سواها، بحيث تكون لائقة ومتناسقة مع جملة ما بين أيديهم من أقيسة وأوهام أخرى قد سبق اعتمادها في تلك البابة من قبل، إذا كان هذا هو المبدأ والأساس الذي قامت عليه كافة نظريات الكوزمولوجيا، فمن العبث والسخافة ادعاء ثبوت "أمور خارقة للطبيعة" من ذلك الطريق، ولهم إذن أن يتهموك – يا دكتور – بمسألة "إله الفجوات" God of the gaps، ما دمت حريصا على استعمال منهجهم الدهري في حشو فجوات ميثولوجياهم الطبيعية بأمور إنما قام المنهج نفسه على نفيها بالكلية، فتأمل! هم يتهمونك "بإله الفجوات" ونحن نتهمك "بطبعنة الغيبيات وتعطيل الصفات"، فبئس المنقلب هذا، والله المستعان!

والله ليس من فلاسفة العلم الطبيعي ولا من الطبيعيين الدهرية ولا من أهل السنة والعلم بدين رب العالمين من يجعل من الخلق الإلهي فرضية تفسيرية ترام الموازنة بينها وبين فرضية "الخلق الطبيعي" باستعمال الاستدلال التفسيري IBE! لا الطبيعيون ولا المسلمون يقبلون منه جعله الخلق الإلهي نظرية تفسيرية يمكن الترجيح بينها وبين غيرها من النظريات باستعمال آلة العلم التجريبي Scientific Method! هذه طريقة اللاهوتيين الطبيعيين Natural Theologists من أهل الكتاب! وما كنا لنسكت عنك يا

دكتور ونحن نراك تسعى في تأسيسها منهجيا كبدعة جديدة عند أمثالك من جهمية هذا العصر، والله المستعان!

ولنا هنا أن نتساءل، هل يدرك الدكتور أن نظرية الانفجار العظيم تقوم على نفس التطبيق الطبيعي للمنطق التفسيري (التاريخي) IBE الذي به توصل داروين إلى نظريته، أم لا يدرك ذلك؟ لو أدرك ذلك، ما أطلق التفريق بين علم الأحياء التطوري وبين "الفيزياء" (بهذا الإجمال الذي يشتمل عند عامة الطبيعيين على الكوزمولوجيا والكوزموجني Cosmogeny المعنية بالتنظير في نشأة الكون)، بهذا التسطيح والاختزال الفاحش الذي رأيناه في كلامه، ولما قال عن نظرية الانفجار في كتابه "ثم صار المخ عقلا" (ص. 27): وتعتبر نظرية الانفجار الكوني الأعظم أصوب وأدق النظريات التي تفسر نشأة الكون، وقد قامت على صحتها الأدلة التي لا تدحض"! اهـ. فإن عدم إمكان الدحض يعني الانصرام وعدم قابلية المعارض، وهذا غير وارد على المنطق الاستقرائي الصريح في المحسوسات المباشرة، فكيف بالمنطق التفسيري للمحسوسات المباشرة، دع عنك استعمال المنطق التفسيري في غيبيات محضة؟؟ سبحان الله!

لسنا نستغرب من الدكتور إفراطه في تقرير صحة نظرية الانفجار على أي حال، لأنها كما بينا هي الأساس الذي يؤسس عليه اعتقاده بوجود الباري من الابتداء! وما كانت تلك منزلته عند الإنسان فلابد أن يكون إثباته لها إثباتا منصرما لا يرد عليه المعارض، وإلا أصبح دينه كله قائما على قول محتمل، وهذه حال لا ينبني معها يقين كما يرجوه الدكتور لنفسه ولأتباعه وكما كان ولم يزل يرجوه كل متكلم، يتوهم أن الكلام سيوصله إليه!

فهل النظريات القائمة على تلك الطريقة، أدلتها "لا تدحض" كما وصفت به نظرية الانفجار، أم أنها "أقل قطعية ودلالة من الأدلة التجريبية والرياضية، ولا شك أنه يترك مجالا لوجهات النظر الشخصية"، كما وصفت به أدلة التطور؟؟ هذه التناقضات المنهجية والكلية كتب الدكتور تعج بها والله، ولو أني عكفت على استخراجها منها لما فرغت من تأليف هذا الرد ولا بعد سنوات، والله المستعان! حرر لنفسك مذهبا واضحا غير متناقض أولا يا دكتور، ثم تعال لتكلمنا في فلسفة العلم إن كنت فاعلا!

ثم قال الدكتور في الاعتراض الخامس (ص. 191): "يفسر أصحاب مذهب الخلق الخاص التشابه الموجود بين الكائنات المختلفة بأن الخالق عز وجل قد استخدم نفس النمط في الخلق. وعندما تجمعت الأدلة على وجود الأصل المشترك وحدوث التطور أجابوا بأن "مشيئة الله أرادت [106] وجود هذا التشابه وهذا التداخل ليختبر إيماننا". لا شك أننا لو عوّلنا في تفسير

الظواهر العلمية على مشيئة الله لانتهى العلم، كل علم، ولفسرنا مثلا حدوث الأمراض المختلفة بأنها مشيئة الله، ولتوقف الطب عند مستواه قبل مرحلة "أبو قراط"." اهـ. قلت: من فسر التشابه بين المخلوقات بهذا التفسير المذكور (استخدام نفس النمط في الخلق) فهو جاهل لا عبرة بكلامه. بل إنه يكون متلبسا بتشبيه الأفعال عند التدبر، لأنه إذن يقيس السبب في تشابه مخلوقات الله تعالى، على السبب في تشابه مصنوعات الإنسان، من حيث كون "نمط الصناعة" واحدا عند الصانع! وأنا لا أدري من على وجه التحديد الذي قال بهذا "التفسير"، لكنه على أي حال تفسير باطل مردود على صاحبه! وأظهر دليل على بطلانه، أننا نعلم من السمع أن الله تعالى خلق الإنسان في السماء على نحو يختلف اختلافا عظيما عن النحو الذي خلق به أنواع القردة على الأرض، ومع ذلك نجد قدرا من التشابه غير قليل بين الإنسان والقرد!

فالصواب أن يقال إن تشابه المخلوقات يرجع (سببيا) إلى تشابه الوظائف العضوية في إطار بيئات متشابهة وتحت نظم كونية متشابهة تخضع لها تلك المخلوقات، وإلى ما لا يعلمه إلا الباري سبحانه من الحكم والغايات التي من أجلها خلقت حيث خلقت، وليس إلى "استخدام نفس النمط في الخلق"! وهذا أمر ظاهر باستقراء العادة! مخلوقان (ق) و(ك) خلقا في عالم واحد، تحت نظم سببية كونية متشابهة، وفي بيئتين متشابهتين، وكان من تمام الحكمة والتدبير والعناية في خلق (ق) أن يكون في جسده نظام سببي عضوي معين (س) يقوم بوظيفة ما (أ)، وكان كذلك من تمام الحكمة والتدبير في خلق (ك) أن يكون في جسده نظام عضوي (ص) يقوم – أيضا – بالوظيفة (أ) نفسها! فكيف يتوقع العاقل إلا أن يجد بنية (س) وهيئته وتركيبه مشابها ومقاربا لبنية (ص) وهيئته وتركيبه ولو إجمالا، سواء في الهيئة الظاهرية Morphology أو في التركيب التشريحي الداخلي Anatomy أو في الكود الجيني Genetic code أو في غير ذلك مما يمتاز به النظام الوظيفي الحيوي المعين Biological System عن غيره من النظم الوظيفية ؟؟ تشابه الوظيفة العضوية والظروف البيئية، يقتضي – بالاستقراء - تشابه الخلقة العضوية أو تقاربها بصورة ما أو بأخرى، وهذا أمر بدهي! كل المخلوقات التي تبصر، لديها عيون، بصورة ما أو بأخرى! لماذا؟ لأن الحكمة والتدبير الإلهي يقتضيان أن يكون أحسن ما تحصل به وظيفة الإبصار في المخلوق هو ما يسمى بالعين، في كل نوع بحسبه!

ثم إن مطلق التشابه بين الأنواع الحية يرجع إلى حكم وغايات إلهية تجاوز مسألة التشابه الوظيفي البيولوجي هذه إلى أمور غائية Teleological لا يحيط بعلمها إلا الباري جل شأنه. فلو شاء الله تعالى أن يخلق مخلوقا (ق)

يقوم فيه العضو (س) بالوظيفة (أ)، وشاء كذلك أن يخلق مخلوقا آخر (ك) يقوم فيه العضو (ص) بنفس الوظيفة (أ) بحذافيرها، واقتضت حكمته وغاياته الإلهية أن يجعل (ص) يجري على نظام وسنن كونية منفصلة عن (س) تمام الانفصال، مع كونهما يقومان جميعا بنفس الوظيفة (أ)، فلا يظهر لنا أي تشابه في الهيئة أو البنية أو التركيب على الإطلاق بين (ق) و(ك) في هذا العضو، لما أعياه ذلك سبحانه! وإذن لما وجدنا طريقا للتشبيه أو القياس البتة! لو شاء سبحانه أن يجعل القردة على اختلاف أنواعها على صور بعيدة غاية البعد عن صورة بني آدم، مع كونها تعيش على نفس النحو الذي تعيش عليه القردة كما نعرفها وفي نفس البيئات وتحت نفس الظروف والقوانين، لجعلها كذلك، وإذن لكانت أسطورة داروين في التاريخ الطبيعي على خلاف ما هي عليه! بل لو قدرنا أن اقتضت مشيئته سبحانه أن يخلق ملايين الأنواع الحية على الأرض، فلا يجعل فيما بين أي نوعين منها أي شبه في الهيئة والصورة، مع كونها جميعا تتركب من أجزاء تقوم بنفس الوظائف، لما أعجزه ذلك سبحانه!

والقصد أنه سواء كان (ق) مخلوقا هو و(ك) بالتعديل الوراثي الشامل (إن قدرنا حصوله تنزلا) على أصل واحد (أي أن لهما أصلا مشتركا)، أو كانا مخلوقين استقلالا، كلا منهما في زوج مستقل، فليس في مجرد تشابه (س) و(ص) ما ينتصر به لذلك الأصل الواحد، ولا للخلق المستقل! أي أننا لو فرضنا تنزلا أن كان من الطرق التي خلق الله بها بعض الأنواع الجديدة أن أحدث جينوما جديدا في المخلوق حال تصويره في رحم أنثى من نوع آخر، مغيرا في أعضائه ووظائفه تغييرا نوعيا (كإضافة أعضاء جديدة ونظم جديدة وإزالة أخرى)، فإن مجرد مشابهة بعض أعضاء النوع الجديد لما يناظرها في النوع القديم الذي يفترض أنه كان سلفا له، هذه ليست دليلا في نفسها على كون النوع الجديد قد خلق على هذا النحو (بالتعديل على نوع قديم)! فإذا كان كلا النوعين يحتاجان إلى الإبصار، فمن المتوقع أن يكون في كل منهما عين تليق به، فلا يكون مجرد الاشتراك في وجود العين، دليلا على أن أحدهما قد خلق بالتعديل على الآخر! ومع ذلك يتخذ داروين وأتباعه من هذا التشابه دليلا على نفي التيليولوجيا Teleology بالكلية كتفسير غيبي للتباين والتنوع الواسع المشاهد في الحشوة الحية، إذ يُرجعون ذلك التشابه إلى التطور بالطفرات العشوائية من أصل مشترك، لا إلى تلك الحقيقة البدهية التي ذكرنا (التشابه التيليولوجي Teleological Similarity / Proximity)! فإذا فسِّر التشابه بالأصل المشترك، أصبح التشابه نفسه دليلا على الأصل المشترك عندهم، وهذا دور منطقي ومغالطة استدلالية كبرى كما بسطنا الكلام عليه في غير موضع من هذا الكتاب وغيره! [107]

فإذا عُلم هذا، تبين كيف أن الدراونة يخادعون أنفسهم تمام المخادعة، لا أن الله هو الذي يخدعهم كما يتبجح كثير منهم فيقول: "إن صح أن كانت الأنواع الحية كلها مخلوقة خلقا مستقلا، فلماذا يخدعنا الخالق بأن يجعل الأدلة كلها (وعندنا منها مئات الآلاف بلا مبالغة) تدل على خلاف ذلك؟"! نحن نقول إن المخلوقات تبدو مخلوقة لأنها فعلا مخلوقة! وتبدو متشابهة إجمالا لتشابه الغايات التي من أجلها خلقت، ما علمنا منها وما لم نعلم، ولعلل وحكم لا يحيط بعلمها إلا صاحب الخلق والأمر سبحانه! وهذا القدر بدهي ظاهر لا يماري فيه إلا جاحد أو مكابر! أما أن يتخذ من ذلك التشابه دليلا لإثبات أصل واحد لجميع الأنواع الحية، ولإثبات صحة آلية داروين في خلق كل نوع حي من نوع سابق عليه نزولا من ذلك الأصل الواحد المزعوم، قياسا على تغيرات وراثية نشاهد حدوثها في إطار النوع الواحد، حتى يقال بكل نطاعة إن المخلوقات "تبدو وكأنها قد تطورت كلها من أصل واحد منحط"، فهذا قياس منقوض من أصل مبدئه العقلي، وأصحابه هم الذين خدعوا أنفسهم، فكذبوا كذبة لا نبالغ إن قلنا إنها من أعظم الكذبات التي عرفها التاريخ البشري على الإطلاق، ومن أعمقها تفصيلا وتفريعا وتشعيبا، ثم صدقوها أتم التصديق، ثم رجعوا ليقولوا في وقاحة بالغة: "كيف يخدعنا الله بأن يجعل العالم يبدو وكأن اعتقادنا هذا حق وصدق وخلافه باطل؟"! هذا يا سفهاء اسمه الاستدراج! يزين للمبطل سوء عمله فيراه حسنا، فيغرقه الله في مزيد من الزيغ والضلال، ويجعل على قلبه وبصره غشاوة ثخينة، عقوبة على ما أبطن في قلبه من الجحود والاستكبار! حتى إذا استحكمت عليه أهواؤه وأحاط به شركه وكبره وكذبه إحاطة الطوق بالعنق، ولم يزدد إلا إغراقا في باطله، وهو ينوي ألا يحيا – ولو عمر أبد الدهر – إلا على تلك النحلة الفاسدة، وألا يزداد فيها إلا إغراقا، ثم جاءه أجله المسمى، أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأنزله في جهنم المنزلة اللائقة به، وقد استحقها أتم الاستحقاق، ولله الحمد أولا وآخرا!

ولهذا نقول إن من حكمة الله تعالى في ذلك التشابه بين المخلوقات أن يبتلي أهل الأهواء الكبرى من فلاسفة الدهرية الطبيعيين ومن شاكلهم، كداروين نفسه، حتى ينتهي به إجرامه إلى ادعاء أنه والقردة أبناء عمومة! نعم نقول إن من حكم الله تعالى في خلق القردة وأنواعها، أن يبتلى سفهاء الدهرية بما ابتلاهم به سبحانه ويستدرجهم إلى ما استدرجهم إليه من خزي لم يعرف تاريخ البشر خزيا مثله! وليس الله ظالمهم بهذا، سبحانه وتعالى علوا كبيرا، وإنما بدؤوا هم بالزيغ أولا فأزاغ الله قلوبهم، واستدرجهم إلى المزيد من ذلك جزاء وفاقا، كما في قوله جل شأنه ((فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)) الآية [الصف : 5] وقوله ((وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)) [الحشر : 19]

وقوله ((فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً)) [النساء : 88] وقوله ((الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)) [محمد : 1] إلى غير ذلك.

أما قول الدكتور "لا شك أننا لو عوّلنا في تفسير الظواهر العلمية على مشيئة الله لانتهى العلم، كل علم، ولفسرنا مثلا حدوث الأمراض المختلفة بأنها مشيئة الله، ولتوقف الطب عند مستواه قبل مرحلة "أبو قراط"" قلت: سبحان الله! حتى عندما يريد الرجل أن يحرر معنى صحيحا، يخزيه ربه فيخرج الكلام وكأنه أبطل الباطل! هذا من شؤم البدعة ومن الكبر الذي تتشبع به قلوب أئمة البدع، نسأل الله السلامة! هو يريد أن يقول إننا لو اكتفينا بالقول بأن الأمراض سببها إرادة الله تعالى، ومنعنا الناس من أن يتكلفوا البحث في أسبابها المحسوسة، فلن نتطبب، ولو قبلنا ذلك المسلك في غير ذلك من مجالات البحث في الطبائعيات فلن نكتسب من العلم ما تنقضي به حوائج الناس وتحصل به مصالحهم، وهذا المعنى صحيح إجمالا، ولكن تأمل كيف حرره بعبارة يفهم منها نكارة "التفسير بالمشيئة الإلهية" بإطلاق، وكأن مجرد القول بذلك "التفسير" يوقف العلوم ويعطل المعارف ويضيع المنافع، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وقال الدكتور في ص. 22 من نفس الكتاب، تحت عنوان "موقف الخلقويين الدينيين الأصوليين Creationists": "هؤلاء هم الذين يقولون بالخلق الخاص، أي أن الإله قد خلق جميع الكائنات الحية خلقا مباشرا كل على حدة، ومن ثم يرفضون القول بتطور الكائنات من نوع إلى نوع. ويتمسك الخلقويون بالمعنى الحرفي لآيات الخلق التي جاءت في القرآن الكريم وفي سفر التكوين وفي التوراة، ويرفضون تأويلها في ضوء ما يثبته العلم الحديث، إذ يخشون أن يؤدي طرح المفاهيم التطورية إلى إخراج الإله من الساحة. ولا يدرك هؤلاء، وربما يدركون، أنهم بذلك يعارضون علوم الفيزياء والكيمياء والفلك والجيولوجيا والبيولوجيا، ولا يدركون أن ذلك يحطم الإيمان ولا يبنيه، وأنه يدفع أصحاب العقول كما يدفع شبابنا إلى الفرار من الدين إلى يقين العلم." اهـ.

قلت: أولا، تأمل كيف يسوي الدكتور بين مخالفيه من القائلين بما يسميه بالخلق الخاص، يجمعهم جميعا في سلة "الخلقويين" على طريقة الدراونة الدهريين، بصرف النظر عن الملة والدين، مع أنه يعلم تمام العلم أن مصادر التلقي في أمر الغيب (الذي تدخل تحته مسألة خلق الأنواع الحية على غير مثال) عند كل طائفة من تلك الطوائف تختلف اختلافا جذريا، وأن كل طائفة منها إنما تخالفه بالتأسيس على تلك المصادر لديها! وهذه ولا

شك تسوية لا نقبلها ولا يقبلها أحد من تلك الملل والطوائف المخالفة له كذلك!

فهل يستوي القرآن في ميزان الدكتور بالكتب المقدسة عند اليهود والنصارى، من حيث إفادة العلم؟ هل العلم المأخوذ من سفر التكوين، يستوي معرفيا بما يؤخذ من آيات القرآن في خبر الغيب فيما يتعلق بخلق الإنسان وخلق السماوات والأرض؟ لو قال بذلك لكفر قولا واحدا، ولا نحسبه يقول! وإن قال: كلا لا يستوي، بل القرآن هو كتاب الله المحفوظ غير المحرف، خلافا لتلك الكتب التي حرفت وبدلت، قلنا له: فما معنى وما فائدة أن يكون الكتاب محفوظا بخطه ورسمه إن لم يكن فهمه محفوظا معه؟؟ والله لا تكون له قيمة ولا يرفع الناس به رأسا لو كان منتهى حفظه أن يكون محفوظا بالرسم واللفظ والتلاوة وحسب! النصارى لم يحفظ الله لهم ذكرا ولا كتابا ولا تكفل بذلك سبحانه، بل أوكله إليهم فحرفوه وبدلوه وضيعوه، ولم يبق لشيء من النصوص التي بين أيديهم اليوم مستند موروث بسند متصل لفهم الحواريين من صحابة المسيح عليه السلام لما جاء به المسيح من وحي رب العالمين، وكذلك يقال في اليهود! أي أنهم لم تحفظ لهم نصوص الوحي لا رواية ولا دراية! ولهذا فعندما يختار هؤلاء – بالهوى المحض – أن يعيدوا تأويل نصوصهم جريا على فلسفة جديدة أو نظرية جديدة لقيت رواجا أكاديميا أو اجتماعيا في عصر من العصور، فلا يمنعهم في دينهم مانع أصلا، لأنه لا حجية عندهم لفهم قرن على قرن، أو لإجماع قوم على قوم، ولا سند يتصل برسول من رسل الله تعالى أو بصحابي من صحابته وتلامذته، لشيء مما لديهم البتة!

أما نحن المسلمين فالقرآن عندنا – بفضل الله ورحمته – ليس كلأ مستباحا لكل من هب ودب! وليست نصوص ديننا مجازات وكلاما أدبيا مرسلا – كما يريد له الدهرية وأذنابهم أن يكون – يفهمه كل سامع بحسب ذوقه وهواه! وإنما هي نصوص قد ورثنا فهمها من نفس الطريق الذي ورثناها منه، بفضل الله ومنته، كما في قوله تعالى ((وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)) [النحل : 44] فحيثما أجمع أصحاب نبينا عليه السلام وتلامذته فقد ورثنا إجماعهم بالسند المتصل بل والمتواتر، وحيثما اختلفوا فقد ورثنا كذلك خلافهم بالسند المتصل، وحجية إجماع الصحابة ثابتة بالكتاب والسنة بما لا متسع لبسط الكلام عليه ها هنا، ومنه اعتقاد أن الحق فيما اختلفوا فيه لا يخرج عن أقوالهم الموروثة، لأنه لو كان خارجا عنها للزم تجهيلهم جميعا والقول بإجماعهم على الغلط والضلال، وهذا ممتنع! والعقل يقضي – عند كل متجرد صادق - بألا يكون فهم المتأخر مقدما على فهم المتقدم عند التعارض، لأن المتقدم أقرب إلى مصدر ميراث النبوة، فكيف

بما أجمع عليه أصحاب الرسول الذين تتلمذوا على يديه بلا واسطة؟ هؤلاء فهمهم حجة على من بعدهم وجوبا وضرورة! وقد أذن الله بفضله ومنته أن يورث ذلك الفهم عبر القرون كاملا غير منقوص، يحمله من كل خلف عدوله! فبهذا المنهج، وبما قيضه له من رجال ألهمهم قواعد في توريث العلم ووراثته وفي معرفة أحوال الرجال والجرح والتعديل لم تعرفها أمة من الأمم قبلهم، بهذا كله عصم الله تعالى دينه الخاتم من التحريف والتضييع والتبديل، فلا يأتي جاهل أو صاحب هوى، يريد أن يحرف الكلم عن مواضعه ويبدل معاني القرآن إلا فضحه أولئك العدول الأكابر بالحجة والبرهان الدامغ، وأنزلوه منزلته اللائقة به قياما بحق ميراث النبوة الذي ورثوه، والحمد لله على نعمة الإسلام والسنة!

فعندما يجعل الدكتور، بكلام عامي بارد، من مطلق ما سماه "بالتمسك بالمعنى الحرفي" لنصوص القرآن تهمة في حق من يسلكه من المسلمين، فهذا منه إجمال ينطوي على جهل مبين! فإن كان المقصود بالمعنى الحرفي ما يسميه علماء المسلمين بظاهر النص، فالأصل في القرآن إجراؤه على ظاهره، ولن ترى علماء الصحابة إلا يسلكون ذلك المسلك من غير مخالف، إلا في مواضع قليلة يدخلها التأويل، وهذه ليس التأويل فيها مرتعا للرأي والهوى في ديننا ولله الحمد، كما يرجو هؤلاء أن يجعلوه، وإنما هو – كذلك – محكوم بأدلته التي ورثناها عنهم رضي الله عنهم، فما أجمعوا عليه من ذلك كان حجة على من بعدهم، وما اختلفوا فيه كان إجماعهم على حصر الخلاف فيه فيما ورثناه من أقوالهم، حجة علينا كذلك، رضي من رضي وكره من كره!

لكن هذا الإجماع لا عبرة به عند صاحبنا بإزاء "إجماعات الطبيعيين"! فإذا اتفقت أكاديمياتهم على القول بدعوى معينة في أمر من أمور الغيب، الذي هو أصلا حرم معرفي ليس لهم أن يقتحموه بالقياس والرأي، صار عند أمثال الدكتور من جهمية الطبائعيين هو الحجة وهو القطع العقلي الواجب حمل جميع النصوص ذات الصلة على ما يوافقه! فتأمل لأي زندقة أسس الرجل في كتبه من حيث لا يشعر هو وأتباعه، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

يا دكتور دع أهل الكتاب يصنعوا بسفر التكوين عندهم ما يحلو لهم، فهم جميعا محجوجون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم التي أعرضوا عنها وأبوا واستكبروا! أما نحن المسلمين فعندنا بفضل الله ورحمته، النص الإلهي الخاتم والمحجة البيضاء التي لا يناطحها مناطح إلا انكسر قرنه واندكت رقبته، فمن آمن به وقبله كما جاء به ميراث النبوة عندنا فقد نجا، وإلا فلا نبالي في أي واد هلك!

ثانيا: قوله: "ويتمسك الخلقويون بالمعنى الحرفي لآيات الخلق التي جاءت في القرآن الكريم وفي سفر التكوين وفي التوراة، ويرفضون تأويلها في ضوء ما يثبته العلم الحديث، إذ يخشون أن يؤدي طرح المفاهيم التطورية إلى إخراج الإله من الساحة" قلت: أي ساحة؟؟ الساحة التي فتننت أنت بها وبما فيها يا دكتور، ساحة النشأة التطورية هذه، لا محل فيها للإله أصلا حتى يقال إننا نخشى أن يؤدي طرح المفاهيم التطورية إلى "إخراج الإله"! أنت وأمثالك من تقحمونه فيها إقحاما، غير مبالين بما يترتب على ذلك الإقحام من مقتضيات ولوازم في صفة ذلك الإله الذي تثبتونه، تجعله كعدمه على التحقيق، كالإله الذي أثبته داروين نفسه أول الأمر ثم لم يمت إلا وقد توقف فيه وقال "لا أدري"! وأما مسألة "المعنى الحرفي"، فإذا كان القوم الذين أورثونا القرآن على أنه كلام ربنا، لم يفهموا منه إلا تلك المعاني، فإما أن يكونوا قد جهلوا كلهم بالحق في نفس الأمر وضلوا فيه، كلهم من أولهم إلى آخرهم، وإذن فلا ثقة في نقلهم متن ذلك الكتاب نفسه وفي إجماعهم على ألفاظه وحروفه، ولا صحة لنص من نصوصه جاء فيه ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) [الحجر : 9]، إذ لا معنى ولا قيمة لنص يورث ولا يحفظ معه معناه، ولا شيء يأمننا إذن من أن يكون قد حرف النص الموروث نفسه بين أيديهم أو أجمعوا في لفظه على خلاف ما جاء به نبيهم كما وقع لأهل الكتاب من قبلنا، إما هذا وإما أن يكون ما تسميه أنت بالمعنى الحرفي الذي هلكت قرون القوم وهم مجمعون عليه، هو الحق الذي لا محيد عنه في ذلك الغيب المحض، وهو الذكر الذي حفظه الله فيهم كابرا عن كابر، وبه وبنحوه من فهومهم وإجماعاتهم وما تواتر عنهم، حفظ الله متن القرآن نفسه، وما خالف ذلك الفهم فهو وهم وخرف لا قيمة له ولا علم فيه! المسألة جد لا هزل فيه ولا لعب! إما دين الصحابة وإما دين الفلاسفة! هذا دين وذاك دين، فلينظر أحدكم على أي دين يحب أن يأتيه أجله!

ثالثا: قوله: " ولا يدرك هؤلاء، وربما يدركون، أنهم بذلك يعارضون علوم الفيزياء والكيمياء والفلك والجيولوجيا والبيولوجيا، ولا يدركون أن ذلك يحطم الإيمان ولا يبنيه" قلت: لا أجد لهذا الكلام وصفا أليق من أن يكون ضربا من "الإرهاب الفكري" الذي ما عهدناه إلا في كلام الملاحدة الطبيعيين الذين صدر الدكتور نفسه للرد عليهم، والله المستعان! وفيه مغالطة واضحة، إذ لا شك أن الذي يعارض تلك النظرية فهو يعارض كلاما عند الكيميائيين والفلكيين والجيولوجيين والبيولوجيين وغيرهم، ولكن لا يصح بحال أن يقال في ذلك إنه معارضة "لعلم الفيزياء" و"علم الكيمياء" و"علم الفلك" .. إلخ، وكأن المعترض هذا يترتب على كلامه إسقاط جميع تلك العلوم إسقاطا كليا، من أولها إلى آخرها! هذا باطل واضح! وكذلك الزعم بأن المعارضة تحطم الإيمان ولا تبنيه، فهذا (أي تحطم الإيمان) إنما يقع عند من بنى دينه

على صحة تلك النظرية (كأصحاب التطور الموجه مثلا!!)، فهؤلاء هم من يزول إيمانهم بالكلية إن خاطبناهم بأدلة بطلانها! وأما عقلاء المسلمين، الذين أنزلوها منزلتها الصحيحة اللائقة بها معرفيا، وفهموا كيف أنها في واقع الأمر عدوان فاحش على باب لم يكن للعلم الطبيعي أن يقتحمه بافتراض ولا تنظير أصلا من الابتداء، فهؤلاء لا يرجى لهم من معارضتها إلا زيادة الإيمان واليقين، لهم ولمن يكشفون لهم حقيقتها من المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

موضوعات المجلد

Notes

[←1]

وقد يقال إن المحتج بمسألة فقد الحلقات الواصلة أو الحلقات المفقودة (كما تسمى) في السجل الأحفوري، هذا يلزمه طردها على جميع أجزاء الأسطورة التاريخية التي أسسها الدراونة حتى يسقطها فلا يبقي منها شيئا، أي أن الدكتور يلزمه أن يسقط جميع دعاوى الارتقاء والتطور من نوع إلى نوع، لعدم عثور الدراونة على حفريات لكائنات وسطى بين كل نوعين تزعم النظرية انحدار أحدهما عن الآخر تطوريا! فسواء قيل بحصول التطور أو قيل بالتطوير (كما هو قول الدكتور، والذي يظهر لي أنه كان أول من استعمل هذا اللفظ من المسلمين في وصف فعل الله تعالى في خلق أنواع الدواب والأنعام، والله أعلم)، فمن الواضح أننا لم نعثر على حفائر وسيطة بين الأسماك والبرمائيات مثلا، أو بين الديناصورات والطيور، أو غير ذلك مما زعموه من العلاقات الشجرية بين الأنواع، وليس الأمر قاصرا على الإنسان والقردة العليا المزعومة وحسب! ثم إننا يفترض – إن صحت النظرية، وصحت طريقتهم في الاستدلال بالرمم المتحجرة لإثباتها - أن نجد وفرة وافرة عبر كافة العصور من حفريات لمخلوقات خلقت مشوهة بالغة التشوه، ما بين عاجز عن البقاء حيا وعاجز عن التناسل، إن صح أن كان الأصل في آليات النظام الحيوي الفوضى والعشواء حتى يتفق للطفرة النافعة أن تظهر فتبقي ما صار لائقا للبقاء! ولكن أين؟

هذه الاعتراضات قد قوبل بها الدراونة في أوروبا وأمريكا على أيدي بعض أهل الكتاب فقابلوهم بأنهم مهما جاؤوا "بأنواع" وسيطة، فسيظل المعترض يطالبهم بإثبات أنواع أخرى وسيطة فيما بين الوسيط وما قبله، فإن فعلوا، راح يطالبهم بوسيط بين الوسيطين، وهكذا إلى غير ما غاية! والواقع أن الإجمال الفاحش في تعريف النوع Species في البارادايم الدارويني يجعل لهذا الرد وجاهته، ولكنه في الحقيقة يهدم على الدراونة بنيانهم من أصل أعمق غورا من مسألة الحلقات الوسيطة هذه، إذ يكشف وهاء تعريفاتهم وحدودهم لما يصير به النوع نوعا! فيقال: إن رخاوة تعريف النوع عندكم تجيز لكم أن تتأولوا المشاهدات الحفرية على أيما وجه يحلو لكم! فكلما طولبتم بإثبات أن نوعا من الأنواع قد تطور عن نوع آخر مرورا بنوع وسيط، سهل عليكم أن تستخرجوا من رفات ورمم الحيوانات ما تتأولونه من طريق التشابهات الشكلية على أنه هو النوع الوسيط المطلوب، مع أنه قد لا يكون من بقايا نوع جديد في الحقيقة، وإنما هو فرد من نفس النوع لكن فيه من الاختلافات الشكلية والوراثية ما يقع في إطار النوع نفسه!

فعلى سبيل المثال، تلك الرمم التي تأولها القوم على أنها نوع قديم من أنواع الهومينيد المزعوم سموه "بالنياندرتال" Neanderthal، وجعلوه من بني عمومتنا المنقرضين الأقل "تطورا"، هذه في الحقيقة إنما هي بقايا لجماجم بشر أمثالنا، وإنما اتفق لهم من حدة المعالم ونتوءات العظام ما يجعلهم قريبي الشبه ببعض أنواع القردة! وهذه المعالم لا تزال موجودة إلى اليوم في بعض قبائل الأمريكتين! ولا يزال القوم مختلفين اختلافا عريضا في مسألة العلاقة بين حجم المخ Cranium Size والذكاء Intelligence، لأسباب منها (على سبيل المثال) الخلاف في تعريف الذكاء نفسه والطريق إلى تقديره وتقييمه سايكومتريا! بل والخلاف في تعريف حجم حيز المخ نفسه، فإنه إن قدرناه بنسبة حجم المخ إلى جملة حجم الجسم، كان مخ الإنسان مساويا لمخ الفأر في تلك النسبة، وكان مخ الدلفين أعظم حجما بكثير! بل ومعلوم مشاهد أن البشر (الأذكياء!) يتفاوتون في أحجام المخ تفاوتا عظيما! فإن قالوا إن صغر حجم الجمجمة الأحفورية وضيق جبهتها مع نتوء عظام الحاجبين يدخلها في أنواع القردة العليا المزعومة، قلنا هذا كذب ووهم وهذيان، لأننا لا نملك معيارا نضع به حدا فاصلا صريحا بين أحجام وهيئات الجماجم التي لا يمكن إلا أن تؤوي مخ قرد، وأنواع وأحجام الجماجم التي يجوز أن تؤوي مخ الإنسان! وكذلك يقال في هيئة الجبهة والنتوءات العظمية! وقد أشرنا في غير هذا الموضع إلى أن القوم لولا الضغوط السياسية والاجتماعية لعدوا الأعراق البشرية Races أنواعا Sepcies بعضها أرقى من بعض، بناء على معالم الوجه وحجم الجمجمة ولون البشرة وغير ذلك من الأوهام والخيالات! فبالنظر إلى أن القوم كانوا ولم يزالوا حريصين على تكلف بناء تلك الأسطورة الطويلة على أدق ما يمكن بلوغه من درجات التفصيل، فلا تزال تراهم ماضين في "اختراع" الأنواع والتصانيف الفرعية للأنواع من غير أن يكون معهم من مستند في أكثر ذلك إلا كسرة من فك أو شظية من عظم جمجمة رمت، أو ضرس وقطعة من عظم ذراع، أو نحوا من ذلك، ثم إذا "بالفنانين" يسارعون لتصور هيئة أصحاب تلك الرمم وتصور الطريقة التي كانوا يعيشون بها، في رسومات تفصيلية وتماثيل ونماذج .. إلخ، والله المستعان!!

[←2]

قد يدفع المخالف هنا بقوله إننا لا نقول إن السلف المشترك كان منحطا، فلا يلزمنا ما تلزموننا به من نسبة النقص إلى رب العالمين ومن تشبيه طريقته في الخلق بطريقة البشر في الترقي بمصنوعاتهم! فيقال له إن العبرة بالحقائق لا بالأسماء. فأنتم تعلمون أن تلك الشجرة المزعومة إنما وضعت وبنيت جميع فروعها على أساس فكرة الترقي، وهو معنى كلمة Evolution، والترقي لا يكون إلا من الأدنى إلى الأعلى، فلما كان الإنسان هو أعلى المخلوقات وأرقاها عند داروين، وكان أدناها عنده في المقابل هو الكائن أحادي الخلية، كان تأسيس النظرية على إثبات ترقي جميع الكائنات الحية بالتدريج عبر بلايين السنين مما حقيقته أنه أحط الكائنات إلى ما حقيقته أنه أرقاها، من طريق تراكم الطفرات التي لم تزل تضيف النظام فوق النظام والعضو فوق العضو، حتى وصلت الأنواع الحية إلى هذا التنوع الواسع والتعقد البالغ الذي نراه الآن! فما سماه داروين وأتباعه بالأصل البسيط Simple Origin إنما هو الأصل المنحط على الحقيقة! ولهذا نقول إن مسلككم المتكلف هذا في انتزاع أسطورة التاريخ الطبيعي من فلسفتها الدهرية التي تأسست عليها عند أصحابها، إنما هو مسلك فاسد عقلا، لا يرتضيه الدراونة الدهرية الذين تصرون على اعتناق نظريتهم، ولا يرتضيه أهل الإسلام الذين تصرون على تلبيسها بلبوس عقائدهم الغيبية رغم أنف العقل والنقل جميعا! فإن قالوا إننا لا نوافق على أن الطفرة كانت تضيف الأعضاء الجديدة عضوا بعد عضو إلى مخلوقات كانت تفتقر إليها، فترقيها بذلك، لأن هذا يقتضي القول بانحطاط الأصول التي يحصل لها الترقي على هذا النحو، وخروجها إلى العالم مفتقرة لما يحصل لها به الهداية إلى كمال أمرها وتمامه، كما في قوله تعالى: ((الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)) [الأعلى : 2-3]، قلنا فماذا بقي لكم إذن من سبب لقبول شجرة الترقي المزعومة؟ بل يلزمكم اعتقاد أنه قد مر على كل نوع فترات لم يكن يخلق فيها أفراده إلا ناقصون مشوهون، حتى ظهر لهم بالطفرة بعد الطفرة ما يحسن خلقتهم (نوعا)، ويكمل لهم أعضاءهم! وإلا فكيف حصل التشعب المزعوم في تلك الشجرة من الأساس، وما معنى تفرع النوع عن النوع الآخر فيها إن لم يكن هو هذا؟؟ فنقول إن تشبيه فعل الخلق الإلهي بصنعة المخلوق الناقص في العلم والقدرة الذي لم يزل يحدث الترقية بعد الترقية، هو لازمكم الذي لا فكاك لكم منه حتى تخرجوا من الداروينية ومن تاريخها الطبيعي المزعوم خروجا تاما، والله الهادي!

[←3]

قال في الوجه السادس (ص. 168): "توصل الباحثون إلى الجينات المسؤولة عن نشأة الخياشيم وكذلك الذيل في جنين الإنسان، وبالرغم من أن هذه الجينات أدت وظيفتها في جنين الإنسان فإنها خملت وظلت موجودة بالرغم من عدم الاحتياج للخياشيم أو الذيل في الجنين أو في الإنسان الكامل. إن هذه الجينات تشبه الجينات المقابلة لها في باقي الفقاريات، تعتبر بمثابة حفريات على المستوى الجزيئي، تثبت الأصل المشترك بين الإنسان وغيره من الفقاريات." اهـ. قلت: نجيب عن هذا التخليط في وجوه! فنقول: أولا ليست الجينات "مسؤولة" عن نشأة كذا وكذا من الأعضاء الحية، وإنما هي من جملة الأسباب التي بها تأخذ الأعضاء هيئاتها ووظائفها! ثانيا: لا يقال في جنين الإنسان إنه تنشأ فيه خياشيم ولا أنه ينشأ له ذيل، فضلا عن أن يقال إن فيه جينات تقوم بتلك الوظائف! متى رأيتم في أجنة البشر خياشيم وذيول يا أصحاب العقول؟! إن الربط بين مراحل نمو الجنين Ontogeny ومراحل ترقي نوع الإنسان نفسه في أسطورة الدراونة Phylogeny، بحيث يكون في الأول ما يعضد الثاني أو يدل عليه أو يشبهه جملة أو تفصيلا، هذا من جملة خرافات دراونة القرن التاسع عشر الميلادي التي زهد فيها القوم وتركوها، فلم يعد اليوم بين الدراونة من يقبل مقولة "إرنست هيكل" Ontogeny recapitulates Phylogeny! وحتى لو كان فيهم اليوم من يقبلها، فنحن لا نقرهم عليها! ثالثا: إذا انتفى وجود تلك الأعضاء ووظائفها (الذيل والخيشوم) في جنين الإنسان، أصبح القول ببقاء "الجينات التي كانت تقوم بها" حتى بعد اختفائها عند تمام نمو الجنين، ضربا من العبث والهذيان! الإنسان لم توجد فيه تلك الأعضاء أصلا حتى يقال إن هذه الجينات أو تلك، هي التي كانت "مسؤولة" عن وجودها فيه قبل أن "تضمر"! ولا يصحح تلك الخرافة حقيقة أن الجينات التي تقوم بوظيفة الذيل والخيشوم في الأسماك، وتلك التي تقوم بوظيفة الذيل في القردة ونحوها، لها نظير عندنا في الشريط الوراثي البشري، في نفس المحل الذي توجد فيه عند تلك الأنواع! فمن الواضح أننا لا ذيل لنا ولا خيشوم، وإذن فلابد أن تلك الجينات تقوم بوظائف أخرى عندنا، علمناها نحن أو لم نعلمها! أما نظرية Junk DNA القائلة بوجود مخلفات في الدي إن إيه ترجع لأسباب تطورية، فهذه من خرافات التأويل الدارويني التي بها يجعل القوم جهلهم بالوظائف التي تقوم بها بعض الجينات حاليا، دليلا على عدم تلك الوظائف، وما ذاك إلا ليجعلوها "بقايا" أو "مخلفات" من وظائف قديمة كانت تقوم بها نظائرها في الأسلاف ثم لم تعد تقوم بها! سبحان الله عن تسفيههم لخلقه وتدبيره، وتعالى علوا كبيرا! رابعا: قول الدكتور بأن هذه الدعوى التأويلية الفاسدة بشأن بعض الجينات، تشبه الحفريات، أي تجعل تلك الجينات بمنزلة الحفريات التي يستدل بها على الأصل المشترك المزعوم، هذا القول صحيح ولا شك، إذ كلا المسلكين يقومان على نفس الفساد المنهجي والخلف العقلي البين! فلا الحفريات يصح الاستدلال بتأويلها الدارويني على صحة أساس ذلك التأويل عند أصحابه، ولا الجينات يصح الاستدلال بالتأويل الدارويني لتشابهها فيما بين الأنواع، على صحة أساس ذلك التأويل عند أصحابه!

وقال في الوجه التاسع (ص. 169): "تتكون الأنواع المختلفة من البروتينات في جميع الكائنات من تجمعات ومتتاليات مختلفة من عشرين حمضا أمينيا فقط، على الرغم من وجود عشرات الأنواع من الأحماض الأمينية الأخرى في الطبيعة." اهـ. قلت: سلمنا! فكان ماذا؟! خلق الله تعالى جميع الأنواع بحيث تكون البروتينات فيها مركبة من عشرين حمضا أمينيا فقط، دون غيرها من الأحماض الأخرى! فكان ماذا؟؟ أين الدلالة في ذلك على الأصل المشترك؟ وكيف لا يكون هذا مثالا صارخا لمغالطة قلب الاستدلال بالتبعات Affirming the Consequent (وترتيبها: إذا وقع "س"، فلابد من وقوع "ص" – وقعت "ص" – إذن لابد أن تكون "س" قد وقعت، وصورتها الرمزية: س ← ص ، ص، إذن س)؟ عندما يكون ابتلال الأرض من تبعات المطر، وهو كذلك من تبعات انفجار ماسورة المجاري، وقد يكون سببه قيام بعض أصحاب المحلات برش الماء في الصباح، فكيف يكون مجرد وجدان ذلك البلل دليلا على أن السماء قد أمطرت؟ وعلى أي أساس استبعدت الاحتمالات الأخرى؟ يقول الدارويني وجدنا أن جميع الأنواع تتركب بروتيناتها من نفس الأحماض الأمينية، وهو ما قد نتوقع أن نراه إن صح أن كانت الأنواع كلها مخلوقة من نوع واحد أو من عشرين نوعا، أو إن كان كل نوع قد خلق استقلالا ولكن من نفس المادة، أو إن كان كل نوع خلق استقلالا من مواد متباينة، ولكن مع التحويل إلى نفس تلك الأحماض، أو إن كانت الأنواع الأكثر "تعقيدا" قد خلقت منها الأنواع الأقل تعقيدا، أو العكس، فكيف يكون مجرد حقيقة أن جميع الأنواع الحية تتركب بروتيناتها من نفس الأحماض، دليلا على رجوعها جميعا إلى سلف واحد هو الأقل في "التعقد العضوي والحيوي"؟؟ هذه هي المغالطة! وسببها إصرار الطبيعيين على وضع الفرضيات في تصور الحوادث الغيبية مطلقة التغييب بالقياس على ما في الشاهد، وهو ما يجعل منطقهم التفسيري Abductive Reasoning خاليا من الأساس الاستقرائي المرجح كما بيناه في غير موضع، ومن ثم لا يصبح لديهم أي أساس لاستبعاد التفسيرات الأخرى المحتملة Eliminating other possibilities وترجيح التفسير الذي فرضوه، ولا يكون لديهم استعداد لمجرد فتح باب ذلك الاحتمال، لأنه إذن لا يبقى لديهم أساس لبناء النظرية ثم تعضيدها بالتأويل فوق التأويل! فلا مفر من أن يكون الاستدلال على هذا الوهاء الذي تراه! وعلى هذا فقس جميع الوجوه التي جمعها الدكتور في تلك المسألة، وجميع الأدلة التي يحشدها الدراونة لنصرة نظريتهم بعموم!

[←4]

وأقول إنه مغالط Fallacious لأنه خارم لمبدأ قابلية القياس الذي حررناه في الباب الثاني من هذا الكتاب. فما دامت قضية أصول الأنواع الحية (التي خلقت بها على غير مثال سابق لكل نوع كلي منها) غيبا مطلقا بالضرورة، فمن غير المقبول منهجيا أن يلتمس تصور تفصيل الحوادث التي بها خلقت تلك الأنواع بأي نوع من أنواع القياس على المحسوس، لأنه إذن يكون ضربا من التحكم والوهم الذي لا طريق للترجيح فيه من جهتنا البتة! فكل فرض تفسيري يخترم حجاب الغيب المطلق على هذا النحو فهو ساقط على أم رأسه، لأن خبرة البشر تخلو من أشباه أو نظائر تؤسسه عليها! ولهذا لا توضع نظرية من هذا النوع إلا امتنع الاستدلال لإثباتها أو نفيها من طريق المشاهدة كما بسطنا الكلام عليه في محله. ولا يكون إثبات الفرض التفسيري فيها إلا مغالطة من نوع Affirming the Consequent التي يصبح فيها التبعة أو الأثر الذي قد يترتب على "س" أو "ص" أو "ع"، دليلا على وقوع المؤثر "س" بالذات تحكما، مع أنه ليس ثم ما يرجح "س" على كل من "ص" و"ع"!

[5←] أي الفرض الذي يراد منه تفسير قضية مغيبة تغييبا مطلقا، بلا نظير يقاس عليه في عادة الناس!

[←6]

ومسألة عمر الأرض هذه من مسائل الغيب التي لا نثبت فيها شيئا ولا ننفيه إلا إن جاء النص عليه في الكتاب والسنة، ولا نرى لها ثبوتا من طريق الطبيعيين البتة! وما عند أهل الكتاب فيها من نص فلا نصدقه ولا نكذبه، ونفوض العلم فيه لله تعالى. ولا نذهب – كما تكلفه القرضاوي وغيره من العقلانيين – إلى القول بأن عمر الأرض لابد وأن يكون قد بلغ بلايين السنين، بالنظر إلى مفاهيم بعض النصوص في الكتاب والسنة، فإن هذا ليس مما يثبت بالاقتضاء واللزوم، لأننا لا نجد شيئا نقيس عليه حوادث ذلك الغيب المحض، حتى نذهب بعقولنا نستنبط من بعض الأخبار دلالة لزوم أو اقتضاء مفادها أن عمر الأرض لابد وأن يكون قد استطال جدا حتى بلغ تلك الأرقام الفاحشة التي تنطع بها الطبيعيون بطبقات من الافتراض فوق الافتراض والوهم فوق الوهم! فعلى سبيل المثال، زعم القرضاوي أن ما ثبت في صحيح البخاري من خلق آدم وطوله ستون ذراعا وأن الخلق لم يزل يتناقص إلى اليوم، فيه دلالة بالمفهوم على أن عمر النوع البشري على الأرض لابد وأن يكون قد جاوز عشرات الآلاف من السنوات! فما وجه الدلالة؟ قال ما معناه إن الانتقال من طول ثلاثين مترا إلى طول متر ونصف تقريبا، لا يتصور أن يكون قد حصل عبر عدد محدود من الأجيال، بل لابد أنه استغرق عشرات الآلاف من السنوات! ونقول: من أين جاء هذا الاقتضاء المزعوم؟ هل سبق لك أن شاهدت عالما خلق فيه إنسان كآدم وبطوله وقامته، ثم تابعت الأجيال وهي تتناقص حتى بلغت طولنا هذا؟ أبدا! فما الذي رجح عندك احتمال أن يكون ذلك التناقص قد حدث عبر عشرات الآلاف من السنين، وجعل أي احتمال آخر ممتنعا أو غير متصور في ظنك؟؟ ألا يجوز عقلا أن يكون أولاد آدم قد خلقوا على قامة أقصر منه بخمسة أو ستة أمتار مثلا، ثم خلق أولادهم على طول لا يجاوز العشرين مترا، ثم خلق أولادهم أقصر منهم بمتوسط أربعة أمتار، ثم أربعة أمتار ثم ثلاثة ثم ثلاثة، ثم مترين، ثم مترا واحدا ثم مترا آخر ثم نصف متر، ثم ربع متر وهكذا، حتى وصلوا إلى الطول الحالي فيما لا يجاوز خمسة عشر أو عشرين جيلا؟ هذا جائز ومتصور قطعا! فما الذي يمنع من تصوره لديك، حتى يكون النص مقتضيا – بالمفهوم – أن يكون قد مضى بيننا وبين آدم عليه السلام عشرات الآلاف من السنين؟؟ كلام فارغ لا قيمة له ولا يقف على أساس!

[←7]

مصطلح بارادايم Paradigm هو واحد من أشهر مصطلحات فلسفة العلم التي ظهرت على يد توماس كيون T. Kuhn في النصف الثاني من القرن العشرين، ونقصد به في هذا السياق: جملة التعريفات والحدود الميتافزيقية المفتاحية التي يقوم عليها بناء التصور النظري الذي تتبناه مدرسة معينة من مدارس البحث الطبيعي في أي علم من العلوم الطبيعية.

[←8]

ولهذا سماها داروين في غير موضع من كتبه بالعامل Agent ونسب إليها العاملية Agency وليس مجرد السببية Causality، ولا نعجب من ذلك الموقف عند من أهدر ربوبية الباري جل شأنه بالغيب، إذ لابد له من إنزالها على غيره لا محالة، مهما أكد على أن معاني الفعل والعاملية عنده إنما هي مجاز في مجاز. وقد بسطنا الكلام على شرك الطبيعيين وتنزيلهم صفات الربوبية على الطبيعة وقوانينها بتوسع في الباب الأول من هذا الكتاب، فليراجع.

[←9] ولهذا نقول للباحثين المسلمين إنه لا يجوز أن تأخذوا عن هؤلاء عند التطرق للرد على الدهرية المعاصرين، كما رأيت مقاطع فيديو لمناظرات جرت بين اللاهوتيين النصارى والفلاسفة النصارى المعاصرين وبين رؤوس الإلحاد المعاصر، تفشو بين شبابنا وتنتشر وتترجم، فيظن الواحد منهم أنه سينتبه وسيكون على ذكر وحذر من الوقوع في عقائد النصارى إذا ما انتصر لها اللاهوتي النصراني خلال مناظرته مع خصمه! ولا ينتبه المسكين إلى أن مبدأ المحاججة نفسه ومصادر تلقي المعارف الغيبية التي عليها قامت مقدمات البراهين وقواعد العقل المستند إليها في مجادلة الخصم الدهري، كلها مستمدة من اعتقاد النصارى في ربهم وفي صفاته وأفعاله وما يجوز عليه وما لا يجوز!

[←10]

قال الدكتور محمد باسل الطائي في هذه الآية في مقاله "هل يتعارض القرآن مع النشأة التطورية للإنسان":

"فما معنى السلالة هنا؟" ثم قال بعدما ساق كلاما لابن منظور: "نستنتج من هذا أن السلاسة وهي ما يسل، وهي التي هي على وزن فعالة، إنما يمكن تفسيرها على أنها النطفة. ولو قال تعالى سلالات لكان المعنى المرجح عندئذ أنها أجيال. ولكن يصح القول أيضا أنه ربما منع قوله سلالات أن سلالة الإنسان مفردة بمعنى أن تطوره لم يكن إلا عن سلالة واحدة تسلسلت من جيل إلى جيل حتى بلغ مرحلة التسوية أي جعله سويا في المبنى والمعنى والخلاصة فيما أجد أن السلالة التي في الآية من سورة المؤمنين ربما قصد بها أجداد الكائن الذي صار إليه جنس الإنسان، وأما السلالة التي في السجدة فلعل القصد منها النطفة وهي التي تنسل من الماء المهين الذي يخف النطف." اهـ.

قلت: فما الذي يمنع – يا علامة اللغة! – من أن يأتي بلفظة "سلالات" وهو يريد جمع سلالة النطفة، حتى يقال إنه لما أراد النطفة امتنع أن يقول "سلالات"؟ ما الذي يخصص المعنى الذي تريده بالجمع على "سلالات" إلا أن تكون عجمتك أنت ووهمك؟؟ ومن الذي قال إن لفظة "سلالة" إذا جاءت مفردة في حق الإنسان، اتجهت إلى المعنى الذي تريده (تتابع الأجيال التطورية)؟؟ وما الذي يمنع من أن يقال إن العرق الأبيض سلالة، والعرق الأسود سلالة، وهكذا، فتكون هذه "سلالات" للإنسان في إطار النوع الواحد؟ إن قلت المانع هو المصطلح العصري، قلنا فهل خاطب الله العرب في القرآن بلسانهم هم أم بمصطلحاتكم أنتم العصرية؟؟ لم يكن على لسان العرب استعمال لفظة "سلالة" على هذا المعنى أصلا (أي استلال جيل من جيل سابق عليه)، وإنما هو اصطلاح حادث كله من أوله إلى آخره! وليس في دين المسلمين تأويل سلالة الطين على أنها "أجداد الكائن الذي صار إليه جنس الإنسان"، وهو فهم ناقض لمعلوم من الدين بالضرورة!

[←11] وأقصد بالمذهب الشاهيني أو البدعة الشاهينية، النسبة إلى دكتور "عبد الصبور شاهين" صاحب كتاب "أبي آدم"، الذي ابتدع فيه دعوى التفريق بين نوع "البشر" ونوع الإنسان، وجعل آدم أول إنسان لا أول البشر، وتابعه عليها عامة الدراونة المعاصرين من المنتسبين إلى الإسلام، سواء التمهيديين منهم أو التطويريين!

[←12]
وهو رب لا يزيد "فعله" على أن "يراقب العالم" حتى يكون هو الراصد المانع لمعادلة الموجة الكوانطية من الانهيار انهيارا مطلقا على اعتقاد كثير من الفيزيائيين في أن رصد الراصد هو الذي يجعل العالم على ما نراه! فسبحان الله وتعالى علوا كبيرا!

[←13]

Berger, Dov, 'Chapter 11: Theory of Evolution Based on the Teachings of Rabi Kook' In Joseph Sekbach and Richard Gordon (Eds) (2009): *Divine Action and Natural Selection: Science, Faith and Evolution*, Singapore: World Scientific.

[←14]

لا معنى في اللغة ولا في اصطلاحات الأصوليين والفلاسفة والمتكلمين واللاهوتيين وغيرهم ممن تدخل تلك العبارة في صناعاتهم، لقول القائل: "العالم يمثل نظاما أخلاقيا"! العالم فيه – من حيث وصف الواقع كما هو – مئات النظم الأخلاقية في مئات الأمم! هذا على فرض أنه يقصد بكلمة "أخلاق" ما يقصده عموم البشر عند استعمالها! فما وجه أن يقال إنه "يمثل" نظاما أخلاقيا ما؟؟ لعله يقصد أن يقول إن العالم "مخاطب بنظام أخلاقي يحدده الإله"، لكن من ركاكته وفقره في أصول الفقه خاصة وعلوم الآلة عامة، لم تجد قريحته إلا بهذا الذي ترى!

[←15]

كتب الدكتور في غلاف كتابه "رحلة عقل" عبارة موجزة تعبر عن مقصوده من تأليفه، فقال: "وهكذا يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان ..."، يقصد بذلك ما رواه في الكتاب من تحول أنتوني فلو البريطاني بسبب ما سماه تلبيسا "بالعلم"، من موجبات اسم "أشرس الملاحدة" بزعمه، إلى موجبات ما سماه "بالإيمان"! مع أن الواقع عند من فهم تلك القضايا حق الفهم، أن الرجل ما عرف "الإيمان" يوما ولا اقترب منه، وإنما تحول من ملة الدهرية الطبيعية إلى خليط بين وحدة الوجود الطبيعية والربوبية الطبيعية، فلم يخرج عن دائرة شرك الطبيعيين قيد أنملة! وإنما تحول من إثبات طبيعة تخلق نفسها بنفسها ولا تنشأ إلا بمحض العشواء، إلى القول بإثبات الفاعلية أو الخالقية لعامل، لا يوصف بشيء من صفات الربوبية إلا أنه هو الذي بدأ خلق العالم فيما قبل الانفجار المزعوم، ثم سمى ذلك الذي أثبته بالإله God على أساس أنه يسد مسد الصانع في اعتقاده! وقد هلك الرجل وهو رافض للأديان الثلاثة الكتابية، فقال في لقاء أجراه معه بعضهم "أنا سعيد جدا بالإيمان بإله لا يتأذى منه أحد inoffensive ولا نشاط له على الإطلاق Inactive"! وصرح في آخر أيامه بمعاداة الإسلام بصفة خاصة، حيث قال فيما يروى عنه: "الإله الذي أفكر فيه مختلف جدا عن إله النصرانية، وبعيد غاية البعد عن إله الإسلام، إذ إن كلا الإلهين يبدوان كطاغيتين شرقيين كاملي القدرة Omnipotent Oriental Despots، أو كصدام حسين كوني"، سبحان الله وتعالى عن كلام ذلك المجرم علوا كبيرا، وقال كذلك في الإسلام إنه أحسن ما يوصف به، أن يقال على طريقة ماركس إنه تلك الأيديولوجيا التجميعية uniting والتبريرية Justifying للإمبريالية العربية"!

ولما سأله لي ستروبل Lee Strobel المنصر الأمريكي المعروف، في لقاء تلفزيوني أجراه معه عقب إعلانه التحول إلى إثبات الصانع، "هل اعتقادك في ذلك الكائن (الصانع الذي يثبته) هو الاعتقاد الربوبي Deistic، أي أنه ليس له عناية بشؤون البشر؟" أجاب بكل حماسة: "بالتأكيد نعم! فلست أرى لماذا قد يوجد أي سبب لأن يكون غير راض بأي صورة من الصور عما سبق منه أن أنتجه (البشر على ما هم عليه)! أما أن يكون كما يفكر بعضهم: الآن يمكننا أن نشرع في مهمة تحويلهم (يعني البشر) إلى دين ما، أو نعاقبهم إن لم يتحولوا .. إن فكرة كون الغاية كلها من خلق كون ما أو عالم ما، كما في حالة الإسلام، هي التشفي Satisfaction بتعذيب بعض أفراد ذلك العالم أبد الدهر، فكما أقول ليس عندي أي احترام للإسلام كنظام فكري System of Thought، بينما النصرانية في المقابل كان فيها أمران: زخم فكري فلسفي من الطراز الأول في بولس الرسول الذي كان يعلم كافة اللغات ذات الصلة، وكافة (ما تلزم معرفته) بشأن العالم القديم والحضارات القديمة، وكذلك ذاك المَعلم الذي به تعريف النصرانية نفسها، المتمثل في الحضور الطاغي لشخصية المسيح"! اهـ. قلت: تأمل كيف داهن ذلك الجبان محاوره النصراني لا لشيء إلا لأنه داعية نصراني، مع أنه في مواضع أخرى يلحِق النصرانية بالإسلام صراحة في الذم والتحقير كما مر معك! يقول – من كبر نفسه ومرضها – إن الرب الذي يوصف بكمال القدرة، لا يكون الاشتغال بأحوال البشر وأفعالهم وشؤونهم، والحرص على تعذيب بعضهم أبد الدهر إلا نقصا في حقه يترفع ويتنزه عنه، وأنه لا وجه لأن يكون غير راض عن شيء كان هو من صنعه من قبل! ولا شك أن هذا خلف عقلي بين، لأن الباري له أن يخلق شيئا يكرهه ولا يرضاه، من أجل حكمة وغاية لديه لا تحصل إلا بذلك! وإذا كان ذلك التعذيب الأبدي هو حكم خالق العالم كله بما فيه، الذي تزعم أنت أن له من العظمة والكمال ما تدل التجربة البشرية على وجوب إثباته له، فلا شك أن العقل يوجب أن يكون حكمه ذلك عدلا محضا على من حكم به عليه، سواء ظهر لنا نحن المخلوقين وجه ذلك أم لم يظهر! ولا شك أن العقوبة لابد أن تناسب الجريمة، فإذا كانت العقوبة هي أعظم عقوبة يمكن أن يتخيلها عقل المخلوق على الإطلاق، فلابد بالضرورة أن تكون الجريمة هي أعظم جناية يتصورها عقل المخلوق على الإطلاق! والحال أنها كذلك ولا شك! ذلك أن هذا الصانع العظيم (أعظم الموجودات على الإطلاق، الذي لا قيام لشيء في الوجود إلا به) إذا اقتضت حكمته أن يمنح نوعا من أنواع خلقه (على ضآلتهم بين أنواع مخلوقاته) القدرة على أن يختاروا أن يعظموه بالغيب كما هو حقه، أو أن يختاروا سبه وشتمه وأن يبقوا على ذلك ما تقلبت الأنفاس في صدورهم الخبيثة، يركب فيهم تلك القدرة من أجل حِكم لديه لا تتحقق إلا بذلك، ثم اختاروا هم أن يجحدوه حقه في أن يعظَّم بما هو أهله وفي ألا يُعبد معه شيء من خلقه سبحانه وتعالى، مع كونه قد خاطبهم ببيان ذلك الحق أظهر بيان، وأقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأخبرهم بأن ذاك الجرم منهم (الإشراك به) هو أشنع الجرائم وأعظمها عنده، وأن عقوبته الخلود في النار أبدا، فإن هذا الصانع الأعظم لا يكون مستحقا للكمالات كلها منزها عن النقائص كلها لو قدر أن ترك تعذيب هؤلاء المجرمين بما يستحقون، ولا يتصور العقل عقوبة لهم أدنى من التخليد في العذاب أبدا كما توعدهم به سبحانه! فتعذيب من لا يستحق أن يرحم ولم يأت في حياته إلا بموجبات العقوبة القصوى، بعدما قامت عليه الحجة أظهر قيام، وجاءه النذير بما لا مزيد عليه من النذارة والبيان، هذا التعذيب والحالة هذه هو الكمال بعينه ببداهة العقل، ولو كره أنتوني فلو!

أما لماذا اختار سبحانه أن يخلق خلقا لا تفضي بهم خياراتهم الحرة إلا إلى موجبات الخلود في العذاب الأبدي، مع أنه كان قادرا على ألا يفعل، فنقول: ولماذا اختار أن يخلق العالم نفسه من الأساس مع أنه كان قادرا على ألا يفعل؟؟ إن أثبت له الحكمة والإرادة التي بها ترجح خلق العالم على عدمه، على أساس أنه فاعل كامل الفاعلية يخلق ما يشاء ويختار، وأنه لا مكره له من فوقه وليس في الوجود من له أن يسائله في خياراته، مع أن له في كل شيء حكمة بالضرورة، علمتها أنت أم لم تعلمها، أحببتها أنت أو كرهتها، فالبداهة تقضي بأن تثبت نظير ذلك في ترجيح التعذيب الأبدي في الآخرة على خلافه في علمه وحكمته! ولكن لأنكم معاشر الفلاسفة مستكبرون متعاظمون تريدون صانعا على المزاج والهوى، لا يأمركم بما تكرهون ولا ينهاكم عما تشتهون، ويترككم لتستعبدوا الخلق من عقولهم إشباعا لشهوة الرياسة دليكم والكبر والاستعلاء في نفوسكم، ما كان من عجب ألا يثبت أحدكم لنفسه بالغيب إلا ما يحلو له إثباته لا غير، يفصل في ذلك تفصيلا شيطانيا ما أنزل الله به من سلطان، يثبت وينفي، يمثل ويعطل، بهواه ومزاجه وهو متكئ على أريكته، ثم يتهم الرسل وأتباعهم بالجهل والسفاهة، نسأل الله السلامة!

وإني لأقطع بأنه لو كان هذ الرجل حيا الآن وقابلته أنا بهذا الرد، لأجاب بغرور ونزق بالغ بأنه لا يثبت على أي حال إلا ما دله "العلم الطبيعي" على إثباته، والعلم الطبيعي لا يثبت من طريقه يوم آخر أصلا، حتى يتكلف هو البحث فيما إذا كان فيه ثواب وعقاب أم لم يكن فيه ذلك! فلن يعدم الفيلسوف طريقا للانتصار لهواه، كل بقدر ذكائه وحدة ذهنه!

هذا – أيها القارئ المحترم - هو أنتوني فلو، الذي قرض فيه بعض الجهال الشعر قرضا وحملوه على الأعناق حملا، ولا حول ولا قوة إلا بالله! وهذا هو إلهه الفلسفي الذي فرح رقاق الدين خفاف العقل من أهل قبلتنا بأنه قد أثبته أخيرا! فيا من تابعتم الدكتور على تعظيمه ذاك الجاحد الهالك، عدو الله ورسوله والمؤمنين، الذي اتخذ من الدين الطبيعي مصدرا لتلقي العلم بصفات ربه جل وعلا "بالاستكشاف الإمبريقي" Empirical Discovery (وهو نفس المنهج الدهري الخبيث الذي يدعوكم إليه الدكتور عمرو في كتبه!)، فجحد أكثرها وعطله عنها مدعيا أنه لا يمكن العلم بها أصلا لأن العلم الطبيعي لا يدل عليها، وزعم أن الصانع الذي يترك خلقه هملا ولا يبالي بما يفعلون، أحرى بأن يوصف بكمال القدرة Omnipotence وأجدر بالتعظيم من الرب الذي يبعث الرسل ويأمر وينهى ويعذب بعض خلقه كما

يؤمن به المسلمون، اتقوا الله في أنفسكم وفي دينكم وفي المسلمين، وكفوا عن التلبيس على الناس! إذا كان ما تسميه يا دكتور "بالعلم" هو الذي حول الرجل من نفي الصانع إلى تلك الملة الخبيثة التي تحول إليها، فوالله لا حاجة بنا لهذا العلم ولا نراه علما أصلا، بل هو الجهل بعينه، ولا نرى إيمانه المزعوم إيمانا، بل هو الكفر بعينه، نسأل الله العافية!

ولا نستغرب من الدكتور استحسانه دين أنتوني فلو الطبيعي هذا، إذا رأيناه يستحسن دين داروين نفسه! فقد قال في كتابه المذكور، في عبارة لقيت في نفسه من الإعجاب ما جعله يكرر كتابتها كمقدمة للفصل السادس من كتابه "خرافة الإلحاد"، وللفصل الخامس من كتابه "كيف بدأ الخلق": "كان داروين يؤمن أن الخلية الحية الأولى وراءها خالق عظيم، ثم تولت الطبيعة تطويرها إلى ما نشهده الآن من تنوع الكائنات. انظر ماذا فعل تلامذة دارون ومريدوه بنظريته، حتى صيروه رمزا للإلحاد" اهـ.! قلت: تبا لتلامذة داروين الدجاجلة هؤلاء! كيف بلغ بهم التلبيس والوقاحة والإساءة إلى أستاذهم المبجل أن "صيروه رمزا للإلحاد"، وهو "المؤمن" بخالق عظيم وراء الخلية الأولى؟!

أحقا تصدق نفسك يا رجل؟؟ أي خالق عظيم هذا الذي كان يؤمن به داروين؟؟ وكيف يكون "الخالق" الذي أثبته داروين في أول أمره ثم مات متوقفا فيه بالكلية، ولم يثبته حين أثبته إلا تفضلا وتكرما وتنفلا على من يؤمنون به، لفقده البديل الطبيعي في إطار المنطقة الوحيدة التي تركتها نظريته فيما يتعلق بأصل الأنواع الحية دون أن تشملها بتنظير أو تفسير، كيف يكون ذلك الصانع الفوضوي الأعمى المزعوم، "خالقا عظيما" في دين داروين؟؟

ما أقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل!

[←16]
والعجيب أنه يأتي في نهاية كتابه الأخير "المعلوماتية" فيثبت وجود الفطرة في نفس الإنسان ويجعلها من جملة "المعلومات الإلهية" في فلسفته المعلوماتية! وهذه آية المتكلمين والفلاسفة عامة، أن تراه يثبت الشيء في موضع ويتكلم في غيره بما يقتضي نفيه ونقضه نقضا! بل وأن تراه يقرر المعتقد في بعض كلامه، مع أنه ينتهج نهجا في مجمل كتاباته يقتضي إبطال ذلك الاعتقاد وهدمه هدما، كما هي حال الدكتور!

[←17]

ومما يجب التنبيه عليه في هذا المقام، أنه لا ينبغي استعمال اللفظة Evidence الانكليزية عند الكلام على أدلة الشرع، فضلا عن الكلام على أسباب اعتقاد المسلمين بوجود رب العالمين وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصحة دين الإسلام! ولا يجوز أن ينقل مثل قوله تعالى: ((قل هاتوا برهانكم)) للانكليزية على أن المقصود فيه هو ما يفهم من لفظة Evidence! فإنها إنما جرى الاصطلاح بها عند التجريبيين على معنى الدليل التجريبي (الذي من أمثلته وصوره تلك الأنواع التي ذكرها الدكتور)، وذلك راجع إلى المعنى اللغوي للفظة في الحقيقة، إذ أشهر ما يقال في كلمة Evident في المعاجم الانكليزية (كمعجم لونغمان أو معجم ميريام وببستر وغيرهما) هو "ظاهر جلي بالملاحظة البسيطة Simple Observation"! أما الفطرة التي هي أساس الإيمان عند المسلمين، فليست دليلا بهذا المعنى، وإن كانت هي السبب الكافي في حصول الإيمان المنصرم القاطع لدى المسلمين، بما يغني العاقل عن تكلف الاستدلال والنظر!

[←18] كما ذكره – على سبيل المثال – في الحلقة الأولى من برنامجه على اليوتيوب المسمى "بين الإله والإلحاد".

[←19]

ولهذا ترى شيلدريك يستعرض نظرية أو فرضية "غايا" Gaia Hypothesis للكيميائي جيمس لفلوك J. Lovelock يدعو إلى أخذها مأخذ الجد في الأكاديميات الطبيعية، مع أنها ليست إلا أسطورة من أساطير الوثنيين القدماء، القائلين بأن الأرض كلها إنما هي كائن حي، وجميع ما عليه من صور الحياة إنما هو من جملة أعضائه الحية، التي منها كذلك كافة الجمادات من طين وتراب وهواء وماء .. إلخ، وأن جميع صور العناية الإلهية في الرزق والموازنة الإلهية ودورات المياه وسلاسل الطعام Food Chains وغيرها إنما هي من مظاهر نشاط ذلك الكائن الحي العملاق المزعوم وتنسيقه لجميع العلاقات الرابطة بين "أعضائيه" والمفضية في النهاية إلى ضبط النظام الحيوي والطبيعي على ذلك الميزان المحكم الذي نراه! وهذا ولا شك من شرك الربوبية ومن بقايا الوثنية القديمة التي يرجو أصحابها طبعها بطابع العلم الأكاديمي!

[←20]

ولهذا كان وصف توماس كيون للوسط الأكاديمي الطبيعي الغربي صادقا للغاية عندما قال إن الثورات العلمية الجديدة لا يرجى ظهورها على أيدي الأساتذة الكبار المغرقين في التخصص، المتمتعين بالمنصب الرفيع، أو الباحثين الطموحين الطامعين في الترقي الأكاديمي، وإنما تظهر غالبا على أيدي قوم ليست هذه صفتهم، وليس هذا هو داعيهم وحاملهم على البحث والنظر!

[←21]

وهو تصور العالم بكليته على أنه ماكينة طبيعية عملاقة، تعمل السنن السببية الطبيعية فيه على نحو مشابه لما يكون عليه عمل الماكينات بشرية الصنع! وهو تصور اختزالي قاصر ولا شك وفيه من تشبيه الأفعال ما فيه! فإننا عندما نصنع ماكينة ما، فإنما نعتمد فيها على ما وضعه الله في الأشياء من طبائع قد اعتدنا على جريان نظام الأسباب الكوني على نحو يمَكننا من استعمالها في الأعم الأغلب! ولكن عندما نتكلم عن نظام الأسباب الذي به تستقر تلك الطبائع نفسها في أنواع المواد الواقعة تحت أيدينا، فمن الواضح أن قياس ذلك النظام على الماكينة أو على غيرها مما هو من صنائعنا نحن أو مما اعتدناه في استعمالنا لما سخره الله لنا من موارد الأرض، هذا فيه عدوان بالغ على غيب عظيم لا ندري له نظيرا ولا مثيلا في تجربتنا الحسية! وهو مفض – لا محالة – إلى تشبيه الرب سبحانه بصانع الماكينة! وهذا هو ما تلبس به الدكتور كما تلبس به غيره، إذ قال إنه – كصانع للماكينة – يملك القدرة على أن يعطل عملها في أي وقت، وأن يتدخل فيه كما يشاء وقتما يشاء! ولكن "التدخل" هذا إنما يوصف به الصانع المخلوق، الذي يكون أحيانا صاحب فعل مباشر في ماكينته، وفي أحيان أخرى يتركها لتعمل استقلالا عنه، وليس رب العالمين الذي منه تبدأ سلاسل الأسباب كلها جل شأنه، وبمشيئته وأمره يتعلل كل شيء، ما ظهر لنا منه وما لم يظهر، وما أوتينا من العلم إلا قليلا!

فنحن أهل السنة وسط في مسألة الأسباب بين فريقين، فريق غلا وأفرط في الأسباب الطبيعية فجعلها آلة أو ماكينة تجري استقلالا بلا "تدخل إلهي" إلا قليلا، وفريق جفا وفرط، فنفى الأسباب كلها، وجعلها وهما لا حقيقة له ولا تأثير، وإنما نتوهم الأسباب والطبائع من جريان عادة الله على ذلك الترتيب، في خلقه العالم آنا بعد آن! فنحن نقول إن الأسباب تؤثر في المسببات، والطبائع تؤثر في الأشياء تأثيرا حقيقيا، ولكن ليس ذلك التاثير عندنا نظاما منفصلا عن فعل الباري ومشيئته وأمره وقضائه، بل له في الغيب أسباب ترجع كلها في المنتهى إليه سبحانه، فمن غير مشيئته، لم يتولد من تلك الأسباب انطباع الأشياء على ما اعتدناه من طبائعها ولم تكن تلك الأشياء نفسها أسبابا تؤثر في مسبباتها! فليست الأسباب الطبائعية آلة مغلقة على أجزائها كما يقول هؤلاء، ولا هي وهم يحصل من جريان العادة بوقوع ما نتوهمه أثرا عند ما نتوهمه سببا في كل مرة كما يقول أولئك، والله المستعان!

[←22]

وهذا كلام باطل مصادم لاعتقاد المسلمين، فإن الله تعالى يقول: ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [القصص : 68] فإذا شاء سبحانه أن يخلق مادة جديدة يستحدثها في أي موضع من مواضع الأرض أو السماء، سواء بمثال سابق أو بغير مثال سابق، وسواء بالتحويل من أصل موجود سلفا أو بالتكوين من عدم، فأي شيء يمنعه سبحانه، حتى يطلق القول الفاحش ويقال: لا تستحدث؟ سبحان الله وتعالى عما يقولون علوا كبيرا! غاية ما عندهم أن النظم المغلقة Closed Systems (التي يقصد بها جملة ما يقع تحت دراستهم الحسية المباشرة في أي دراسة معينة أو تجربة معينة من أنواع المادة والطاقة المعزولة عن أي مؤثر خارجي) إنما يشاهد فيها التبدل والتحول من نوع إلى نوع، وليس حدوث مادة جديدة أو طاقة جديدة تدخل إلى ذلك النظام نفسه محل البحث! فبأي عقل يستجاز من ذلك، أن يقال إن الكون والعالم كله لا تستحدث فيه مادة جديدة أو طاقة جديدة؟! أي عقل يقبل قياسا فاحشا كهذا، يحيل العالم كله إلى نظير تلك البيئة المغلقة الصغيرة المعزولة داخل المعمل، حتى يقاس بكليته عليها؟؟ إنه عقل الطبيعي الدهري الخرف المغرق في الاختزال والتعميم الفاحش والتنطع على غيب السماوات والأرض، وغير ذلك من آفات العقل والنظر التي أطلنا النفس في شرحها وبيانها في هذا الكتاب بحول الله وقوته، والله المستعان! والعجيب أن الطبيعيين أنفسهم عندهم اليوم أبحاث في ميكانيكا الكم يزعمون أنها تثبت أن بعض أنواع الجسيمات (المادة) قد تظهر في الفراغ الكمومي بعد أن لم تكن، ثم تختفي لترجع طاقة كما كانت! ونحن نسأل: أليس هذا حدوثا للمادة بعد أن لم تكن؟؟!

[←23] على تخليط وسفاهة عظيمة في مسألة "العدم" هذه قد بسطنا الكلام عليها في غير موضع من هذا الكتاب وغيره!

[←24] في الفصل الرابع من نفس الكتاب، الذي ترجم له الدكتور بقوله "الكون بين الإله والإلحاد"، يلتقط الدكتور برهان الحدوث الأشعري من مناظرات "ويليام لين كريغ" الأمريكي، كما التقطه غيره من المفتونين بذلك الرجل، فيقول:

> يخبرنا ويليام لين كريج أستاذ فلسفة الأديان، أن العلماء المسلمين (وعلى رأسهم الإمام أبو حامد الغزالي، 1058 – 1111م) قد أصلوا قضية حدوث الكون واحتياجه لإله خالق بشكل واضح، وأطلقوا على العلم المختص بشرح العقيدة اسم علم الكلام (يقابل علم اللاهوت عند المسيحيين). وقد احتفظ هذا العلم باسمه العربي Science of Kalam بعد أن انتقل إلى الغرب عن طريق إسبانيا، ثم نال الشهرة هناك على يد الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط" في القرن الثامن عشر. وفي إطار علم الكلام، ولإثبات أن للكون بداية، استند الإمام أبو حامد الغزالي إلى دليل الفلسفة والرياضيات، والذي يؤكد أن "من المستحيل أن يكون هناك قدم لا نهائي، أي أن الماضي لابد أن تكون له بداية.

قلت: والله يا دكتور، لو أنك تلقيت العلم ببرهان أبي حامد الغزالي هذا وبجواب علماء أهل السنة عنه، من حيث يتلقى المسلمون العلم بهذه المسائل، لما قلت فيه ما قلت! ولكن قد بلينا في هذا الزمان للأسف، بقوم يأخذون الدين وعلومه ثقافة، يقرؤون فيه كما يطالع أحدهم الجريدة مع فنجان القهوة كل صباح! إذا ذكرت كلمة "علم" في محضرهم، لم يروا لها تحققا إلا في علوم الطبيعيين! وإذا ذكرت مسألة من مسائل تلك العلوم تهيبوا مقامها أشد التهيب، وأسندوا الأمر فيها لأهلها وأمسكوا عن الكلام خوفا ووجلا من أن يفتضح جهلهم وخطؤهم بين أيدي سادة الأكاديميات العلمية الكبرى، وإذا ذكر الدين بين أيديهم، خاض كل امرئ منهم ملء فمه وهو متكئ على أريكته، وصال وجال وشرق وغرب، وجعل من نفسه فقيه عصره مجدد الدين وإمام المجتهدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

أولا يا دكتور، ليس علم الكلام (على اصطلاح أئمة أهل السنة) هو العلم "المختص بشرح العقيدة"، وإنما هو علم مذموم عند السلف كافة، رحمهم الله تعالى، وليس ها هنا مجال البيان في التفريق بينه وبين علم التوحيد أو علوم الاعتقاد. ولو أردت أن أوجز لك تعريفا لهذا العلم في هذا المقام، يكون جامعا مانعا، لقلت: هو صنعة يعمل أصحابها على بناء الأصول البدهية الأولى لاعتقاد المسلمين ومعارفهم الفطرية على ميتافزيقا الفلاسفة الأكاديميين المعظمين في زمانهم، رجاء أن يسلموا بين أيديهم من تهمة الجهل وخفة العقل! فعلى هذا التعريف تكون أنت وأمثالك يا دكتور من متكلمة هذا العصر، والله المستعان! وأما ثانيا فهذا البرهان الذي أعجبك فاسد وإن أثنى عليه فلاسفة الأرض جميعا! وقد أطلنا النفس في هذا الكتاب في بيان بطلان برهان الحدوث عامة (الذي يسمى عند اللاهوتيين بالبرهان الكوزمولوجي) وبرهان التطبيق خاصة، ودعوى أن ما يتسلسل لا يتحصل، والتحقيق في معنى التسلسل ومعنى التحصل، فلا نعيد! وإنما نكتفي ها هنا بإشارة اللبيب إلى لازم قبول تلك الدعوى، الذي يظهر في قول الدكتور: "من المستحيل أن يكون هناك قدم لا نهائي"، إذ يلزم منه ألا يوصف رب العالمين نفسه بأنه قديم أو أزلي، أو بأن صفاته قديمة أزلية، فما مخرجك من هذا يا سعادة الدكتور، أصلحك الله؟ قال الدكتور في الحاشية في استعراضه برهان التطبيق الأشعري على صورته الحديثة التي أغرقها كريغ في كلام الرياضيين المعاصرين: "إذا طبقنا المثال على الزمن، وطرحنا سنوات لا نهائية من عمر الكون اللانهائي (كما يتفرض الملحدون) فسنحصل على إجابات متفاوتة، إن ذلك يعني أن اعتبارنا أن عمر الكون لا نهائي اعتبار غير حقيقي، لذلك ينبغي أن يكون للزمن بداية." قلت: إن قبلنا هذا، بصرف النظر عن فساد المثال الذي يشير إليه، ولا يتسع المقام لبيانه، فما الذي يمنع في العقل من أن يقال: "إذا طبقنا المثال على الزمن، وطرحنا سنوات لا نهائية من عمر الباري اللانهائي (كما يؤمن به المسلمون) فسنحصل على إجابات متفاوتة، إن ذلك يعني أن اعتبارنا أن عمر الباري لا نهائي اعتبار غير حقيقي، لذلك ينبغي أن يكون للزمان بداية"؟! إن قال كما قاله المتكلمون تنطعا: "المانع أن الزمان مخلوق، فلا تجري معاني الزمان على الله سبحانه"، قلنا فلماذا إذن تقولون إن الله قديم أزلي؟؟ أليس هذا من معاني الزمان؟ وهل للقدم والأزلية معنى عند العقلاء إلا الامتداد في الزمان بلا بداية، بحيث لا يكون من لحظة في الماضي مهما بعدت إلا ووجوده سابق عليها؟؟ الزمان المخلوق إنما هو ما يقاس به جريان الزمان في عالمنا هذا، فإذا كان المعني الزماني نازلا على شيء مخلوق، فهو زمان مخلوق من هذا الوجه! وأما مطلق معنى الزمان وما يتعلق به من متعلقات معنوية فهذا ليس بمخلوق! وكل موجود يوصف بصفات الذوات الفاعلة (لا بأنه جماد لا حياة فيه) فلابد لصفاته من تعلق بتلك المعاني (الزمانية) يوجبه العقل ولا يجد عنه محيصا! فالله تعالى لا يزال يفعل الفعل بعد الفعل من الأزل وإلى الأبد، من غير فعل أول، وليس خلقه هذا العالم هو أول فعل له على الإطلاق، لأن هذا يقتضي إما حدوث ذاته بعد عدمها أو حدوث الفاعلية منه بعد أن كان عاريا عنها، وكلاهما باطل، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا!

ومما يدلك على ما قررناه مرارا من جريان كافة الجهمية على قاعدة أهل الكلام التي ذكرناها آنفا، ألا وهي تقديم العقل (الذي يقصد به الفلسفة الميتافزيقية السائدة والمعظمة أكاديميا في زمانهم) على كل معرفة، وبناء أصل الدين عليه، أنه بعدما ساق برهان الحدوث إجمالا، وقال إنه برهان منطقي رياضي A-Priori، وإذن فالمفترض فيه أن نتيجته يُعلم ترتبها على مقدماتها (إن صحت) علما قطعيا منصرما لا شك فيه، ذكر أنه ظل الأمر (يعني مسألة حدوث العالم) مفتقرا إلى "أدلة علمية" حتى الثلث الأول من القرن العشرين! ثم ترجم لبيان تلك "الأدلة" التي ظهرت أخيرا في القرن العشرين بعنوان قال فيه: "للكون بداية .. من الشك إلى اليقين"! فإذا كان البرهان الاستنباطي (العقلي) الفلسفي، الذي يفترض فيه أنه يثبت حدوث العالم بالاستنباط العقلي الأولي، لم يحصل منه اليقين، وبقي الناس على الشك، فبالله كيف يطلب اليقين من دليل هو أدني طبقة من هذا النوع من البراهين بمراحل كثيرة؟؟! شاهد هابل احمرارا في موجات الضوء الوافد من النجوم البعيدة، فتأول ذلك على أن سببه أنها تمضي مبتعدة عن الأرض بسرعة عظيمة، أدت إلى انحراف الطول الموجي إلى اللون الأحمر، مع أنه من الممكن عقلا – كما هو ظاهر إلا لمتعصب جاهل – أن تؤول تلك المشاهدة بغير ذلك التفسير، فتبقى النجوم كلها في مواضعها بلا تمدد ولا توسع ولا شيء من ذاك الهراء! ولو كان هابل مسلما موحدا لما مال إلى ذلك التأويل أصلا، لأنه إذن يكون على علم بأن السماء الدنيا سقف عظيم محفوظ، سقف حقيقي مبني بقوة وأيد، مرفوع بغير عمد، وبأن النجوم إنما هي زينة هذه السماء الدنيا القريبة، المعلقة بين ذلك السقف وبين الأرض، وأن من فوق ذلك السقف ست سماوات أخرى لا يعلم ما فيها إلا الله، فليست النجوم منتشرة ملء الكون كله كما يزعم الطبيعيون الدهرية، ولم تخلق من أجل أن تنتشر وتتناثر على ذلك النحو المزعوم، وإنما خلقت من أجل أن يهتدي بها الناس وتزدان بها السماء وترجم ببعضها الشياطين! هذا هو العلم الحق في أمر السماء، علمه من علمه وجهله من جهله! والقصد أن تفسير هابل تفسير غيبي محض، يتكافأ مع غيره من التفسيرات الممكنة عقلا تكافؤا تاما في إمكان تأويل كافة المحسوسات والمرصودات بما يوافقه! فبالله كيف يقال إن هذا "الاكتشاف" قد حول مسألة حدوث العالم أخيرا من الشك إلى اليقين؟؟ سبحان الله! وكذلك الشأن في دعوى الكوزمولوجيين أن درجة حرارة الكون كله ماضية في تناقص مطرد، وهي دعوى مؤسسة على كوزمولوجيا الانفجار نفسها، التي هي بدورها مؤسسة على التأويل سالف الذكر، ومؤسسة كذلك على تعميم فاحش وقياس

مردود للكون بكليته على النظم الحراري المغلقة التي هي موضوع قانون الديناميكا الحرارية الثاني! ينقل الدكتور مزيداً من الأساطير الميثولوجية الطبيعية التي أسسها أصحابها بأقيسة واهية بعضها فوق بعض بشأن ماض متمحض في التغييب، ثم يقول بكل سهولة: "هكذا أجاب العلم عن القضية الفلسفية المعقدة حول هل الكون قديم أم حادث، فقال كلمته – التي اتفقت مع كلمة الدين – بأن الكون حادث، وقد أصبح هذا المفهوم بمثابة حقيقة وبديهة علمية."
قلت: يا سلام!! الله أكبر! وكأنه وحي السماء قد نزل! والمطلوب منا الآن أن نقول: "إذا وجد "العلم" بطل "التفلسف"!

الأمر الملفت هو أن الدكتور لا ينتبه إلى كونه بذلك يناقض نفسه ويخالف قواعده التي حررها بنفسه في هذا الكتاب نفسه! أليس هو الذي قال (ص. 50): "كذلك عندما يأتي ذكر البرهان العلمي يتبادر إلى أذهاننا "البرهان العلمي التجريبي" وحسب، بينما التجريب هو أحد البراهين العلمية وليس بأقواها. أما أقواها فهو البرهان الرياضي، الذي كاد أن يستأثر وحده باسم البرهان، بينما يطلق الكثيرون على باقي البراهين اصطلاح "الدليل"، كما يسبق الدليل التجريبي في الحجية أيضا، الدليل العقلي." اهـ.؟؟

قلت: فإذا كان البرهان الرياضي والدليل العقلي أقوى من البرهان العلمي التجريبي على حد اصطلاحك أنت وتقسيمك أنت، فكيف يصبح تنظير الكوزمولوجيين المعاصرين التجريبي مقدما على جنس ما كان يستدل به المتكلمون القدماء من براهين عقلية ورياضية في نفس الأمر، رافعا للشك الذي كان يعتري أصحابها من قبل؟!

والعجيب أنه يقول قبلها في ص. 49: "ونتيجة لهذا المنهج العلمي الحازم، نجد أن العلم يتخذ من قضاياه مواقف موضوعية، يستجيب فيها العالم لما تقوله الطبيعة. بينما تعبر الفلسفة عن مواقف ذاتية ورؤى شخصية، كثيرا ما تحمل تضاربا بين آراء الفلاسفة." اهـ. قلت: فهذا والله فهم سطحي للمنهج العلمي كما أنه فهم سطحي للفلسفة على السواء! يا دكتور، الطبيعة لا "تقول" شيئا! وإنما هو نظر وتأويل وجمع للنظير إلى نظيره! وأما الفلسفة التي تعبر عن مواقف ذاتية ورؤى شخصية فقد ينطبق ذلك الوصف على بعض المذاهب والمدارس ومجالات البحث الفلسفي، كالمدرسة الأوروبية Continental Philosophy التي أفرزت رواد حركة مابعدالحداثة، ورؤوس الأيديولوجيات القيمية والسياسية التي لا أساس لها إلا أهواء أصحابها، كماركس وسارتر ونيتشه وغيرهم، ولكن الأصل في الفلسفة (لا سيما في المدرسة التحليلية Analytic Tradition) أن الفيلسوف يتجشم عناء تقديم البرهان الفلسفي على ما يقول، وإن كانت الدعوى نفسها في غاية السخافة والسفسطة! فلا أدري من أين للدكتور بهذا التشخيص الهزيل والمقارنة الساذجة؟! ثم إن هذا الذي يسميه الدكتور بكل ثقة "بالمنهج العلمي الحازم" إنما هو منهج فلسفي محض على التحقيق، اتفق أصحابه في القرن التاسع عشر على أن يسموه Natural Science بعدما كانوا يسمونه Natural Philosophy، والعبرة عند العقلاء بالحقائق لا بالأسماء! وهو منهج يستصحب أصحابه مقدمات كلية كثيرة لا توصف عند الخبراء إلا بأنها مقدمات فلسفية! والعجيب حقا، أن الدكتور نفسه سجل اعتراضه على بعض تلك المقدمات الكلية في الكتاب، ناقلا كلام "روبرت شيلدريك"، واعترف بأنها ليست مما يمكن إثباته أو نفيه من طريق العلم الطبيعي نفسه، وأن الطبيعيين يلزمهم التخلص منها إن أرادوا أن "يحرروا العلم"!

يا دكتور، الفلاسفة الطبيعيون القدماء (قبل القرون الستة الأخيرة) كانوا يمارسون منهجا علميا حازما أيضا، كانت فيه كافة أصول وكليات المنهج المتبع حاليا، سواء في دراسة الفلك أو في دراسة الظواهر الفيزيائية المختلفة، ولسنا في حاجة إلى ضرب المثل على ذلك! وجميع القوانين التي توصلوا إليها – وبعضها لا يزال معتمدا إلى اليوم – كان اسمها حينها "الفلسفة الطبيعية" وليس "العلم الطبيعي"، على ما فيها من تجريد رياضي ونمذجة جيومترية ومشاهدات فلكية وتجارب معملية .. إلخ! وكان في موضوعات صناعتهم دعاوى جدلية تأويلية كما كان فيها مسائل استقرائية صريحة، كما هو الشأن اليوم ولا فرق! فهذا التفضيل المعرفي المجمل السخيف والتمييز الموضوعي المتكلف الذي تولى كبره في القرن الماضي "برتراند راسل" بين العلم النظامي بكليته Disciplinary Science والفلسفة النظامية بكليتها Disciplinary Philosophy، لا حقيقة له إلا في ذهنه هو ومن وافقه! والواقع يشهد – في أعين الدارسين المتابعين على الأقل – بأن أكثر الناس كلاما في المنابر الإعلامية الغربية في عصرنا هذا في الفلسفة عامة وفي الميتافزيقا خاصة، هم الفيزيائيون والكوزمولوجيون ومن شاكلهم (على جهل فاضح باللوازم والمقتضيات الفلسفية لما يقولون، وخفة ظاهرة في العقل غالبا)، وليس الفلاسفة المتخصصون!

ويحق لنا حقيقة أن نتساءل، من أين يأتي الدكتور بأحكامه على القطعية والظنية والاحتمالية وهذه المعاني؟! فهو يقول في ص. 103، تحت عنوان "إدراك الحدث الأول مستحيل علميا"، ناقلا كلام بعض الفيزيائيين: "يقول تشارلز تاونز، عالم الفيزياء الأمريكي الحاصل على جائزة نوبل عام 1964: لا شك أن السؤال عن بداية نشأة الكون سيظل دون إجابة علمية، لذلك أعتقد أن هناك حاجة إلى التفسيرات الدينية الغيبية، ومن ثم فإنني أؤمن بالإله الذي خلق الكون." اهـ.

قلت: فبدلا من أن يفيدنا الدكتور – هداه الله – بنقد المنطق الذي به قال هذا الفيزيائي بالتفريق الإبستمولوجي الصارم بين ذلك الكسر الضئيل من أول ثانية في "نشأة الكون"، وبين بقية الأسطورة الميثولوجية التي نسجها الطبيعيون في نشأته الارتقائية المزعومة، النقد اللائق به عقلا، نراه يفرح بالكلام ويوهم نفسه بأن له فيه وفي مثله حجة بالغة على الملاحدة العرب، لا ترد ولا يشق لها غبار، والله المستعان! فيعقب قائلا:

> إن هذه المقولة تطرح سؤالين، هل إدراك بداية البداية أمر مستحيل علميا حقا؟ وهذا سنجيب عنه الآن.
> والسؤال الثاني: هل التفسير الوحيد المقبول لنشأة الكون هو القول بوجود الإله؟ وهذا ما سنطرحه للمناقشة طوال الفصل. إذا أردنا أن ندرك الحدث الأول في نشأة الكون، علينا أن نفهم ما حدث في أول (واحد على عشرة أس ثلاثا وأربعين) ثانية من عمر الكون! وهذا أمر تعتريه صعوبة علمية يستحيل تجاوزها! فقد كان الكون في بدايته رهيب الكثافة رهيب الصغر! في هذا الحجم لا متناهي الصغر تكون فيزياء الكم هي العاملة، ومن ثم يحكمنا مبدأ اللاحتمة لهايزنبرج، أي أن الذي يحكمنا هو الاحتمالية وليس القطع، ومعنى ذلك أن تصبح قدرتنا على تحديد القياسات الفيزيائية (مثل طاقة الانفجار وسرعة تمدده وأبعاده) محدودة. ومن ثم يظل هناك غموض لا يمكن تحاشيه في سلوك الكون الوليد في ذلك الحين.

قلت: فيا دكتور، إن المبدأ المعرفي الذي جرأ الطبيعيين على اقتحام مسألة "البداية" (التي هي غيب محض بالضرورة) بالتنظير والافتراض القياسي من قبل، هو نفسه الذي يجرئهم على "بداية البداية"، و"بداية بداية البداية" كذلك إن شئت، وعلى كل ما قبل ذلك وما وراءه ولا فرق! آفة الآفات ومصيبة المصائب هي أن كل شيء في دين القوم قابل للتفسير الطبيعي، بلا حد ولا قيد! وما ذاك إلا لأنهم "طبيعيون" دينا واعتقادا! الطبيعة عندهم هي كل شيء، وهي سبب كل شيء، حتى إنها هي السبب في وجودها هي نفسها! ولهذا فمهما قالوا بالانفجار أو بالنشأة التطورية للكون على أيما صورة تصوروها، فهم مثبتون لأسباب طبيعية أفضت إليه لا محالة! هذا هو الأمر الذي يجب أن يفهمه الدكتور وأمثاله، قبل أن يغرقوا المسلمين في الضلال والزندقة من حيث يحسبون أنهم يحسنون صنعا!!
هؤلاء ما قالوا بالانفجار والتوسع وذلك التفصيل الخرافي بالغ الدقة الذي انتهوا إليه في ذلك، إلا بناء على نفس المبدأ

المعرفي الكلي الذي حمل سابقيهم على القول بقدم العالم! فإذا كان قد شاع في الوسط الأكاديمي قبول تفسير هابل لما شاهده في مرصده بأن الأجرام كلها ماضية في التباعد، وقياس ليميتر الذي به طرد ذلك التغير المزعوم في عمق الماضي حتى وصل به إلى نقطة أولى، فلابد أن يكون النظام الطبيعي هو الذي أجرى تلك القصة كلها من تلك النقطة المزعومة وإلى يومنا هذا على نحو ما زعموا، وهو كذلك الذي به تعلل تلك الفردية المزعومة نفسها بالضرورة، ولا فرق! فالمبدأ المعرفي عندهم واحد: لا سبب إلا السبب الطبيعي، ولا تفسير لأي حادث من حوادث الوجود من الأزل وإلى الأبد إلا التفسير الطبيعي، الذي يؤتى به من طريق قياس كل غائب على ما في الشاهد، إذ ليس في الماضي إلا الحوادث الطبيعية Natural Events! فمن كان منهم قد بقي في نفسه ميل إلى دين الآباء كذاك الفيزيائي الذي نقلت كلامه، فلعله إذا فرغت جعبته من الفرضيات القياسية التي يمكنه استخراجها جريا على النظريات السائدة بين الفيزيائيين في عصره، لعله إذن أن يتفضل على أهل ذلك الدين بالسماح لهم بأن يضعوا ما يحلو لهم من "تفسيرات دينية غيبية" في ذلك الحيز الذي لم يزل هو حائرا فيه! فإذا تفتق ذهنه غدا، هو أو بعض أقرانه عن نظرية تغطي ذلك الحيز المتبقي كذلك، واتفق لها أن لقيت رواجا وقبولا بين الأكاديميين، كأن يستعين بعضهم ببعض هذرمات الفيزيائيين في مسألة الجاذبية الكوانطية Quantum Gravitation مثلا، فلن يجرؤ حينئذ على أن يقول إن السؤال "سيظل بدون إجابة علمية"، بل سيتعين عليه – على مذهبه المعرفي الذي يجب ألا يخفى على مثلك! – أن يقبل "الإجابة العلمية المعتمدة" Received View، ويستغني بها عن "التفسيرات الدينية الغيبية" في تصوره الكوزمولوجي بالكلية!

وأنا لا يعنيني مذهب الفيزيائي المذكور في الحقيقة ولا أبالي به، وإنما يؤسفني ويؤلمني ما أخذ الدكتور المسلم يعلمه للجهال من شباب المسلمين، وهو يرى أنه ينقذهم من براثن الإلحاد، ولا حول ولا قوة إلا بالله! قوله: "في هذا الحجم لا متناهي الصغر تكون فيزياء الكم هي العاملة، ومن ثم يحكمنا مبدأ اللاحتمة لهايزنبرج، أي أن الذي يحكمنا هو الاحتمالية وليس القطع، ومعنى ذلك أن تصبح قدرتنا على تحديد القياسات الفيزيائية (مثل طاقة الانفجار وسرعة تمدده وأبعاده) محدودة. ومن ثم يظل هناك غموض لا يمكن تحاشيه في سلوك الكون الوليد في ذلك الحين" قلت: يا دكتور لا فيزياء الكم ولا فيزياء الكيف ولا أي فيزياء يصح للعاقل المسلم – من الأساس - أن يخضع لها الحوادث الأولى التي خلق الله بها السماوات والأرض! نحن المسلمين نؤمن بأن الله تعالى أوحى في كل سماء أمرها، وأمضى فيها وفي الأرض نظامها، على نحو غيبي مطلق التغييب لا يعلمه أحد سواه سبحانه، ولا قياس له على شيء مما في عادتنا، كما هو الموقف الصحيح عقلا وشرعا من سائر الحوادث التي جرت في أيام الخلق الستة، وورد ذكر بعضها إجمالا في الكتاب والسنة! فالذي يؤمن بأن للكون خالقا هو الذي صنعه وركب فيه نظامه، هذا يتعين عليه ألا يقبل من الطبيعيين – من حيث المبدأ المعرفي نفسه - تكلفهم البحث من طرقهم في الكيفية التي حصل بهذا ذلك الصنع والتركيب، لأنهم إذن يتعدون حدودهم وحدود الآلة الطبيعية نفسها، يخوضون في أفعال هي من أخص خصائص الربوبية التي يقطع العقلاء بأنها ليس لها نظير تقاس عليه في تجربتهم البشرية! فإنه ليس في العقل ما يجيز لمن يقول بحدوث الطبيعة ونظامها معها، أن يلتمس تفسيرا طبيعيا لذلك الحدوث نفسه! Natural Explanation for the origin of nature itself! والمقصود بالحدوث هنا هو كل ما كان من حوادث في أيام الخلق، قد تمت في اليوم السادس وأخرجت ذلك العالم الذي نعرفه، بنظامه المحكم الذي ما زلنا نحبو حبوا في محاولة استكشافه! فليس من تلك الحوادث كلها ما يجوز في العقل المسلم المستقيم أن يوصف بأنه "طبيعي" Natural، حتى يستجاز استعمال آلة العلم الطبيعي في البحث فيه، فافهموا هذا يرحمكم الله، فإنه هو الفارق العظيم بين نظام المعرفة ومصادر التلقي المعرفي عند المسلمين في تلك البابة، ونظرية المعرفة عند الطبيعيين الدهرية! الخلاف ليس في حادث أو حادثين، وليست المشكلة في "بداية البداية" على حد عبارة الدكتور هداه الله! محل النزاع بين المسلمين وبين الطبيعيين أعظم من هذا على التحقيق، والله المستعان!

سلوا الدكتور إن شئتم: ما معنى قولك إن الاحتمالية هي التي تحكمنا في تلك اللحظة الأولى المزعومة (التي يسمونها بزمان بلانك) وليس القطعية، هل المقصود بالحكم هنا تقرير لواقع إبستمولوجي أم تقرير لواقع أنطولوجي؟؟ فإن كان الكلام في إبستمولوجيا الكوزمولوجيين، فمتى كانت نظريات الطبيعيين في غير تلك اللحظة من ميثولوجيا النشأة الطويلة عندهم، "قطعية"، وعلى أي أساس بنيت أنت الزعم بتلك القطعية، ومن منهم هم أنفسهم يوافقك عليه؟؟ وإن كان الكلام في الأنطولوجيا، فبأي عقل يُقبل زعم من زعم أن الواقع الكمومي احتمالي، أي في الأعيان لا في الأذهان؟؟ الواقع هو الواقع، الشيء إما أن يكون موجودا أو غير موجود، والحادث إما أن يكون جاريا أو غير جار. وإنما يوصف بالاحتمالية، حكم الواحد منا بشأن الواقع والحالة التي هو عليها، فتعلو احتمالية حالة دون حالة بالنظر إلى الاستقراء والعادة، فيكون الترجيح المعرفي إذن ترجيحا احتماليا! أما أن يقال إن الواقع نفسه ليس الشيء فيه موجودا ولا غير موجود، أو ليست قطة شرودينغر حية ولا ميتة داخل الصندوق، وإنما هي أحوال متساوية احتماليا في الأعيان، فلا يترجح أحدها على الآخر إلا إذا حصل الرصد أو القياس، فهذا هذيان وخرف لا نقبله ولو اعتبره الفيزيائيون أكمل العقل وأحسنه!

[←25] إلا أن يكون خلقا مباشرا بيد الله سبحانه، كما فرق بين النوعين في قوله: ((إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [آل عمران : 59]!

[←26] ولا نملك أن نحكم باطرادها إلا في حدود السماء القريبة الواقعة تحت عادتنا والأرض القريبة الواقعة تحت عادتنا، وفي حدود التاريخ المدون الذي وصلنا فيه خبر الأولين!

[←27]

قال في كتابه الأحدث "المعلوماتية برهان الربوبية الأكبر" (ص. 435): "يتبنى المذهب المادي أن كوننا منظومة مغلقة ماديا، أي لا يسمح بنفاذ الطاقات منه وإليه. وفي فصلنا هذا ننطلق من قبول هذا الرأي، بالرغم من عدم وجود دليل عليه، ثم نخصص الفصل لدراسة ما إذ كان هذا الانغلاق المادي يصاحبه انغلاق معلوماتي، أم أنه يسمح بنفاذ المعلومات إلى الكون من خارج، مثال ذلك تلك المعلومات التي يبثها الإله في الكون لتسيير شئونه." اهـ. قلت: تأمل كيف يعترف بأن القول "بالانغلاق المادي" لا دليل عليه، ومع ذلك يقرر صراحة أنه يقبله، ثم يمضي ويؤسس عليه، فيأتي بدعوى مماثلة (نوعا) يقرر فيها أن الكون "يسمح بنفاذ المعلومات من خارج"، فيا دكتور ما جعلته دليلك في هذه الدعوى، وطريقك إلى تحصيل المعرفة فيها، فهو مصدرك لتلقي العلم في "الانغلاق المادي"المزعوم، فلا وجه لقولك بعدم الدليل على أحد "الانغلاقين" دون الآخر إلا التفريق بين المتماثلات تحكما! عندما أنطلق لتأسيس دعوى معينة ويكون من مقدماتها عندي التسليم بصحة دعوى أنا أعلم وأقر بأنها لا دليل عليها، فأي شيء أنتهي إليه فهو كذلك وهم وخرف لا دليل عليه! هذه من بدهيات العقل التي لا تخفى على أستاذ جامعي كبير!

يقول الدكتور: "إن التحدي الذي يواجهه المتدينون بخصوص السببية المغلقة، هو: كيف يستطيع الإله غير المتجسد وغير المادي أن يؤثر في العالم المادي الذي تسيره قوانين الطبيعة؟ والتحدي الذي يواجهونه بخصوص المادية المغلقة، هو: كيف يستطيع الإله أن يدخل المعلومات في الكون دون استخدام طاقة مادية من شأنها أن تؤثر في توازنات الطاقة المغلقة؟" اهـ. قلت: من هم "المتدينون" هؤلاء الذين يواجهون تلك التحديات يا دكتور، وإلى أي دين ينتمون؟؟ نحن المسلمين ليس عندنا شيء اسمه "مغلقة" ولا شيء اسمه "مفتوحة" أصلا، وإنما نقول إن الله تعالى فعال لما يريد، يحدث الحوادث بأسبابها على ما لا يعلم غيبه إلا هو سبحانه! فلا نتطاول برؤوسنا لنقول: كيف يستطيع أن يفعل كذا وكذا، لأننا لا نتجاوز حدودنا في التنظير الطبيعي كما تجاوزتها أنت ومن خاصمتهم ومن وافقتهم يا دكتور، ولا نقتحم الغيب الكوني العظيم بما لا نملك سلطانا للقول به من أنواع القياس! فإذا فهمت هذا، أيها القارئ الكريم، تبين لك أن "المتدينين" هؤلاء الذين يحشر الدكتور نفسه في زمرتهم، ليسوا هم أهل الإسلام أصلا، وإنما هم الفلاسفة وأشباههم من أهل الملل الطبيعية المتألهة المعاصرة التي يحاول أصحابها استخراج صفة الصانع الذي يثبتونه (ويزعمون عبادته على ما عليه أهل الملة الكتابية التي ينتسبون إليها) مما تقتضيه نظريات الدين الدهري الطبيعي من إثبات ونفي وجودي فيما وراء المحسوس! هؤلاء هم المتدينون المشار إليهم في كلام الدكتور، فتنبه!

فمن كان هذا دينه ومنهجه، فلا شك أنه يجد نفسه مطالبا بتكلف جواب فلسفي طبيعي Naturalistic عن السؤالين الذين طرحهما الدكتور لنفسه ثم مضى فيما تبقى من صفحات كتابه مجيبا عنهما! أما نحن فلا نصف ربنا – من الأساس - بأنه مادي ولا بأنه غير مادي، بل نمنع من ذلك منعا صارما لا تساهل فيه، ولا نجيز السؤال عن كيفيات صفاته وأفعاله، ولا نرى من يتطلب ذلك ويسأل عنه إلا مبتدعا أو زنديقا، نسأل الله السلامة! السؤال كما ترى يستصحب خضوع العالم خضوعا اضطراريا جبريا لقوانين الطبيعة، على ما عليه فلاسفة الطبيعيات كافة (وهو ما يعتقده الدكتور تحقيقا مهما زعم خلاف ذلك)، ثم يسأل بناء على ذلك: كيف نجمع بين ذلك الاعتقاد وبين إثبات صانع ما، تخالف حقيقته حقيقة المادة التي يتكون منها العالم، ومع ذلك يؤثر فيه إذا أراد؟ فالسؤال نفسه من مبدأ الطرح، سؤال فيلسوف دهري طبيعي مغرق في الدهرية والإلحاد، نسأل الله السلامة! فمن كان هذا دينه، فلن يملك إلا أن ينقر في ميتافزيقا الطبيعيين المعاصرة بحثا عن مدخل يُدخل منه صانعه المزعوم خلسة وخفية، وهذا بالضبط ما سلكه الدكتور في جوابه بكل أسف، نسأل الله العافية! فإن اتفق له أن وجد لديهم نظرية يذهب بعضهم إلى كونها تسقط الحتمية السببية الكلاسيكية، طار بذلك وفرح به، وكأنما عثر على كنز، ثم قدمه للناس على أن العلم الحديث قد أثبت أخيرا أن الصانع يتدخل على نحو كذا وكذا، من غير أن "يهدم منظومة القوانين"! فإن أراد الزيادة، تكلف أن يستخرج – من ميتافزيقا الطبيعيين كذلك، التي هي مصدر الاعتقاد الغيبي عنده الذي لا يرفع شيئا فوقه! – ما به يثبت لإلهه التدخل دون الإخلال بحتمية القوانين وضروريتها الطبيعية!

فلإنفاذ المطلب الأول، جاء الدكتور – كما هو متوقع – بدعوى بعض الفلاسفة الطبيعيين أن ميكانيكا الكم تهدم الحتمية السببية الطبيعية بالنظر إلى تأويل كوبنهاغن وادعاء أصحابه الوجودي المتهافت بشأن حقيقة ما يكون عليه حال الجسيم قبل تعرضه للرصد والقياس. فعلى ما زعموه من احتمالية وجودية متجذرة في المجالات الكمومية، يصبح من غير المتصور وجود قانون سببي طبيعي للترجيح بين تلك الاحتمالات بما ينفيها كلها إلا احتمالا واحدا بعينه، هو ما يتفق للراصد أن يرصده! وقد أطلنا النفس في هذا الكتاب وغيره في بيان تهافت وخرافية تأويل كوبنهاغن هذا ومسألة الاحتمالية الوجودية التي يقوم عليها، ومسألة القطة التي تكون قبل الرصد حية ميتة في نفس الوقت! فإن كان الرجل يعتقد أن البديل لتلك الاحتمالية الوجودية المزعومة إنما هو الحتمية السببية الطبيعية (كما هو اعتقاد أستاذه باسل الطائي)، فلا مفر له من القول بالحتمية والانغلاق السببي الطبيعي، وإذن فلا موجود إلا الطبيعة ولا غيب إلا الغيب الطبيعي ولا سبب إلا السبب الطبيعي، وإن كان من صانع ما، فلن يكون إلا الطبيعة نفسها، على غرار الصانع الطبيعي الأرسطي أو النيوتوني أو السبينوزي المزعوم، أو الوعي الكوني الذي لا تزال تنبثق منه الطبيعة عبر القوانين الطبيعية كما هو اعتقاد الدكتور!

ولا عجب ألا ينتبه الدكتور إلى أن مجرد اعتقاده أن الصانع الذي يثبته يعمل بالترجيح الكوانطي في بعض الأحيان للأحوال الجسيمية ذات الاحتمالية الدنيا (بحسب معادلة شرودينغر)، مع أن الاحتمالية العليا كانت على خلاف ذلك، هذا يقتضي الحتمية السببية الطبيعية التي أراد الفرار منها، لأنه يقتضي ألا تكون الحوادث الجارية على وفق إرادته في العالم كله إلا تلك التي دلت المشاهدة والعادة (التي قامت عليها معادلة شرودينغر نفسها) على كونها هي الأقل احتمالية كموميا! وهو تصور يحصر الفعل الإلهي فيما يكون في جسيمات الكوانطا من أحوال، تبعا لحتمية كوانطية دهرية مرفوضة في حد ذاتها Quantum Determinism، إذ يُعتقد أنه لا يجري شيء في العالم إلا تبعا لما يترجح من أحوال الجسيمات الكمومية! وهي فرع عن الحتمية الذرية Atomistic Determinism كما أسميها، التي هي الاعتقاد برجوع جميع خصال العالم وحوادثه وصفات الأشياء فيه إلى صفات وأحوال مكون ذري نمطي مفترض يتركب منه كل شيء!

فبناء على ذلك التصور (الذي هو إغراق في الاعتقاد الدهري وميتافزيقا الطبيعيين كما ترى)، يلزم على المفهوم التكراري للاحتمالية Frequentist Probability أن يقال إن أغلب الحوادث إنما تقع على خلاف ما يريد ذلك الصانع المرجح، وإذن فالعالم ماض إلى ما يزعمه الدهريون من هلاك الإنتروبي Heat Death لا محالة على أي حال! أليس يجعل من قلة الاحتمالية دليلا على أن الصانع هو الذي جعلها كذلك، بناء على مقدمة مفادها أن الموجات الكوانطية لو تركت هكذا بلا تدخل منه لمضى الكون إلى الهلاك والتفسخ التدريجي؟ فإذا كان الهلاك والفوضى المزعومة هذه هما المآل المترجح للعالم احتماليا، فلا وجه إذن لأن يقال إن الحتمية الطبيعية المزعومة قد انتفت بمجرد ثبوت الاحتمالية في المعادلة، بل يصبح الأليق بتلك المنظومة الاعتقادية الدهرية الخبيثة والأوفق لها والأكثر تناسقا معها More

أن يقال إن تلك الوقائع التي يرصد فيها الجسيم في أقل أحواله احتمالية (أقل المواضع والسرعات والحركات احتمالية)، إنما يكون فيها خاضعا إما لقانون سببي حتمي آخر غير ظاهر، أو للفوضى والعشواء الوجودية المحضة! أي أن الرجحان الاحتمالي للمآل العشوائي يقتضي عشوائية المبدأ ضرورة ولا شك! والدكتور يلزمه أن يرجح بين الفرضيات الغيبية جريا على مبدأ التوافق الخارجي External Coherence لأنه هو المبدأ الذي به ترجحت عند الطبيعيين المعاصرين جميع التطورية في باب النشأة التي أسس عليها دينه كله! أي إنه إن صح أن كانت "فرضيته التفسيرية" أقل تناسقا مع البناء التنظيري الطبيعي المجمل من فرضية خصمه الذي ينفي الصانع، تعين عليه – بمقتضى الطبيعية المنهجية التي يعتنقها - أن ينزل عنها لصالح فرضية انتفاء الصانع! Coherent

تأمل كيف يجزم الدكتور بصحة خرافة التهتك الإنتروبي هذه جزما قاطعا فيقول: "وتمسكا بموقفهم، يصر الماديون على أن توازنات الديناميكا الحرارية ستمنع انسياب المعلومات إلى عالمنا. لا شك أن هذه النظرة للديناميكا الحرارية صحيحة إذا كانت وسائط نقل المعلومات الإلهية هي الطاقة المادية. أما إذا انتقلت المعلومات الإلهية بوسائط غير مادية، فليس للتوازنات الحرارية أن تمنعها." قلت: قد بسطنا الكلام في موضعه من هذا الكتاب على دهرية هذا الفهم الإلحادي لقوانين الديناميكا الحرارية، وسفسطة القوم الميتافزيقية في مفهوم النظام المغلق Closed System الذي هو موضوع تلك القوانين! فالتوازن الحراري ليس انهيارا للنظام، وإنما هو تحول له من هيئة إلى هيئة، يكون في كل منها على أكمل ما يناسب الغاية من خلقه ومن تركيب كل جزء منه على ما هو عليه! أما أن يقال إن "المعلومات" (أيا ما كان ذلك) لو ركبت على الطاقة كوسيط لضاعت، فهذا إلحاد محض!

ثم أي معلومات هذه يا دكتور التي تنطعت عليها بأنها "تنتقل" بوسائط "غير مادية"، حتى تجيز لخصومك أن يبحثوا فيما إذا كان التوازن الحراري يمنعها أم لا يمنعها؟ أنت لا تدري عن أي شيء تتكلم أصلا، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

تأمل قوله: "في ضوء لاحتمية الكوانتم، يستطيع الإله أن يتدخل معلوماتيا لتنظيم أحداث الكون بحيث يعيد توزيع الطاقات المادية دون إخلال بكميتها، وأن يوجهها إلى احتمالات أخرى (قد تكون أدنى) موجودة في المنظومة، مما يحافظ على توازنات الطاقة وحتمية القوانين الفيزيائية" قلت: خبرني بربك، أهذا هو إله المسلمين الذي جاء بخبره محمد صلى الله عليه وسلم؟ أم أن الكلام غايته أن يكون كلاما عن فيزيائي عبقري استطاع أن يتوصل أخيرا إلى طريقة "لتنظيم الأحداث" في العالم من خلال إعادة توزيع الطاقة دون الإخلال بكميتها، في حدود ما يجيزه النظام القانوني الطبيعي من خيارات "متاحة"؟؟ هذا كلام عن صانع العالم كله بما فيه، أم عن دينامو أو برنامج حاسوبي مصنوع مركب فيه، خاضع لقانونه الطبيعي؟! سبحان الله وتعالى عن هذا الكفر المحض علوا كبيرا! والله إن المسلم الصادق ليقشعر بدنه من مجرد قراءة هذا الكلام، فأي حمأة هذه التي ما عاد الدكتور يبالي بنقل الإلحاد المحض منها وترجمته واستعراضه على أنه "برهان الربوبية الأكبر"؟؟ نسأل الله السلامة! من أنتم يا هؤلاء وما علمكم ومن تحسبون أنفسكم حتى تحكموا بما به "يختل توازن الطاقة" في العالم بكليته، وما يسمح به نظام الكون وما لا يسمح؟؟ نعوذ بالله من كبر الفلاسفة! ((وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [الزمر : 67] ثم كيف لا يرى الدكتور أن حتمية القوانين الفيزيائية هي بعينها الانغلاق السببي الذي زعم أنه قول الماديين وأنه بريء منه؟؟ وهل يتصور أن يراد بحتمية القوانين الطبيعية إلا الحكم بحتمية جريان كل حادث في العالم تحت ما تقتضيه الأسباب الطبيعية دون غيرها؟؟ سبحان الله!

ثم يخبط الدكتور ويخلط خلطا مبينا في مسألة "الإرادة الحرة" للإنسان وعلاقتها بالمسألة فيقول (ص. 439): "كذلك أعد الإله الكون بحيث يتفاعل مع الاختيارات الحرة للإنسان (عامل غيبي) ذي الجسد المادي (عامل حتمي). فاختياراتنا تعتبر بمثابة عوامل ثانوية تؤثر باحتماليات عديدة (مثل الكرة والبرج) في سلوك أجسادنا المادية، بذلك تؤثر الإرادة الحرة ببدائلها المتعددة في العالم المادي الحتمي، هكذا أعد الإله الكون من البداية." اهـ. قلت: فأولا، ما معنى أن الإرادة عامل غيبي، والجسد عامل حتمي؟؟ ما معنى عامل حتمي هذه أصلا؟؟ ثم ما معنى عوامل ثانوية؟ لعله يقصد أنها عوامل سببية تؤثر في العالم. ونقول لابأس. هي كذلك ولا إشكال. ولكن ما معنى أنها تؤثر ببدائلها المتعددة في العالم المادي الحتمي؟؟ كلام فارغ لا طائل تحته!

ولأنه استشعر ذلك فيما يبدو، اختار الدكتور أن يضرب مثلا يبين ما يريد، فقال (ص. 439-440):

> إذا كان بالمثال يتضح المقال، فلنضرب مثلين، أحدهما في ضوء فيزياء الكوانتم والآخر في ضوء الفيزياء التقليدية: في ضوء احتمالية الكوانتم، يتدخل الإله للترجيح بين البدائل، أ، ب، جـ، .. وهي بدائل تخضع لقوانين الطبيعة ومتساوية في توازنات الطاقة. بذلك تتغير المعلومات والمخرجات دون خرق لقوانين الطبيعة ودون تغير في الطاقات المادية، ويظل الكون مغلقا ماديا مفتوحا معلوماتيا وسببيا.
>
> في ضوء حتمية الفيزياء التقليدية، يربط الإله – منذ نشأة الكون – العوامل الثانوية الدقيقة بالنتائج في ضوء قوانين الطبيعة، فمثلا: إذا حدث البديل الثانوي "1"، يفعل قانون كذا، فيكون المخرج "أ"
>
> إذا حدث البديل الثانوي "2" يفعل قانون كذا، فيكون المخرج "ب"
>
> إذا حدث البديل الثانوي "3"، يفعل قانون كذا، فيكون المخرج "جـ"
>
> ويكون حدوث البدائل الثانوية 1 ، 2 ، 3، تبعا لإرادة الإله ولاختيارات الإنسان وللظروف الفيزيائية. وتكون المخرجات المختلفة أ، ب، جـ،... متساوية في الطاقة. وبالتالي (في برواز): يمكن فيزيائيا أن تختلف المخرجات تبعا للمعلوماتية دون تغير الطاقات. أي يظل الكون مغلقا ماديا ومفتوحا معلوماتيا وسببيا.

قلت: كلتا الصورتين شرك محض ودهرية ظاهرة! فهما تصوران ربا ناقصا في العلم أو في القدرة أو فيهما جميعا، خاضعا لقانون الفيزياء، مضطرا للحفاظ على "توازنات الطاقة" المزعومة! وليت شعري ما الذي يمنعه في دين الدكتور من أن يقلب تلك التوازنات أو يلغيها بالكلية في السماء الدنيا وحدها، دع عنك في السماوات كلها؟! أهي الضرورة العقلية، على أساس أن ذلك محال عقلا مثلا، أم أنه جاءه من السمع خبر لم يأت محمدا صلى الله عليه وسلم، بأنه سبحانه قد حرم ذلك على نفسه؟؟ أم أن ثمة ربا أعلى منه يفرض عليه الخضوع لقوانين الفيزياء والحفاظ على توازنات الطاقة؟؟ سبحان الله وتعالى على ذلك كله علوا كبيرا!

وإنما اختلفت الصورتان في كون الصورة الأولى تصور صانعا لا يزيد على أن تقدم إليه آلة العالم على ما هي عليه، ثم يخير في ترجيح ما يريد من بين اختيارات محدودة يسمح بها القانون والطاقة المسيطران على تلك الآلة، لعله يتدخل من ذلك الطريق بالترجيح إن كان ولابد فاعلا! وقد بينا أن مسألة الترجيح الكمومي هذه تجعله – بالاقتضاء الضروري الظاهر - خاضعا مضطرا لألا يجري إرادته فيما يخلق إلا بذلك الترجيح المزعوم، وإلا ترجح من الخيارات المزعومة ما لا يريد ترجحا تلقائيا! أي أن موجة الاحتمالات الوجودية المزعومة منهارة على أي حال، به أو بغيره، ولابد لقوانين الطبيعة أن ترجح للجسيم مسارا تلقائيا مفضيا إلى زيادة الإنتروبي وزوال النظام لا محالة إن لم يتدخل هو "فيضغط على زر الترجيح" من جهته قبل فوات الأوان! وهو شبيه إلى حد كبير بإله نيوتن المتحد بالعالم المنتشر في جميع جهات فراغه، الذي كانت قوانين الطبيعة صفة من صفاته، وكان لزاما أن يتدخل من آن لآخر فيعدل على مسارات

الأجرام السماوية حتى لا تفضي الجاذبية والتثاقل بالعالم إلى أن ينسحق بعضه في بعض (ولعله لو خطر بذهنه نظير ما خطر بذهن أينشتاين من تكلف ثابت كوني في المعادلة يمنع من نظير ذلك عنده، لما وجد ما يدعوه في ثيولوجياه لإثبات ذلك التدخل أصلا)!

وأما الصورة الثانية فتثبت صانعا لا يزيد على أن يكون مبرمجا حاسوبيا قام بتصميم واجهة تعامل حاسوبية Computer Interface يجري فيها نظام العالم على بدائل خوارزمية If/Then Algorithms)، ثم يجلس الإنسان ذو الإرادة الحرة أمام البرنامج ليختار ما يشاء من خيارات يتيحها له البرنامج، فيجري العالم على حسب ذلك! وقد لا يكون الخيار مفتوحا للإنسان في بعض الحالات، بل يخضع لإرادة المبرمج نفسه! وفي أحيان أخرى، لا المبرمج ولا الإنسان الحر، بل الظروف الفيزيائية هي التي ترجح! المهم أن يلتزم المبرمج أو "المصمم الذكي" كما يحلو للدكتور ولبعض من تشبع بفلسفتهم أن يسموه، بشرط أن تكون جميع الخيارات البرمجية متساوية في الطاقة في جميع الأحوال (جريا على التصور الدهري لقوانين الديناميكا الحرارية الذي نقضناه في موضعه من هذا الباب)، وإلا انهار نظام العالم وفشل المبرمج الكوني المزعوم في إدارته!

هذه أيها القارئ المحترم، هي عقيدة الدكتور في رب العالمين، وهي الملة الربوبية الاتحادية الطبيعية الجديدة التي انتهى إليها في كتابه الخبيث هذا! وخلاصة المنهج المطروق في الإلهيات في ذلك الكتاب وغيره من كتب الرجل ومن قلدهم من الفلاسفة، هي معاملة نظريات الطبيعيين وقوانينهم وما عندهم من أوهام ميتافزيقية غيبية محضة معاملة الضرورات العقلية والحقائق العلمية المنصرمة التي يوصل منها إلى الحكم بما يجوز وما لا يجوز في حق الصانع، على القول بإثبات وجوده من الأساس، فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل!

[←28]

في لقاء تلفزيوني أجراه الإعلامي الكويتي "محمد العوضي" مع د. محمد باسل الطائي، في حلقة لبرنامج له بعنوان "العوضي وياكم"، عرض العوضي مقطعا للفيديو لإمام الدهرية الكوزمولوجية الإنسانية المعاصر لورانس كراوس، ذكر فيه أن الكون كان لزاما أن ينشأ تلقائيا من المجال الكمومي المزعوم الذي يسميه بالعدم Nothing، عاجلا أو آجلا، على أساس أن قوانين فيزياء الكم توجب أن يحصل من التقلبات العشوائية Fluctuations في ذلك المجال ما يخرج معه إلى الوجود فردية ينشأ عنها زمكان بعد أن لم يكن ولو بعد حين، عرض المقطع ثم طلب من الدكتور الطائي الجواب، فأجاب بما قرر فيه صحة الزعم الميتافزيقي الخرافي بأن الكون خلق بالانفجار المزعوم الذي وقع لفردية كمومية نشأت في مجال كمومي Quantum Field سابق عليها، وإنما دفع دعوى تلقائية تلك النشأة الكمومية المزعومة وأنها كانت ستقع لا محالة على أي حال، فقال ما حاصله أنه إن حدث أي جسيم أو أي شيء مادي من طريق الاضطراب الكمومي في مجال كمومي، من غير وجود قوة خارجية تبقيه موجودا، أي بقوانين الكوانتم وحدها، فلن يتجاوز امتداده الزماني ثابت بلانك مقسوما على الكتلة في مربع سرعة الضوء!

فإذا كان تعريف الموجود فيزيائيا هو الشيء القابل للقياس، وكان وجود الشيء فيما لا يتجاوز تلك الفترة الضئيلة للغاية، وجودا غير قابل للقياس، كان عدما فيزيائيا! وإذن كان تحوله إلى موجود حقيقي، أمرا يتطلب قوة هائلة من القوى الفيزيائية الأربعة لتزيد من زمان وجوده فيصبح قابلا للقياس، وإذن "يدخل إلى الوجود"! فإذا كان ذلك لا يحصل إلى بمرجح، لزم أن يكون المرجح هو الله، وبطل قول كراوس وهوكينغ بأن المرجح هو قانون الجاذبية نفسه!

قال:

> إن افترضنا إن العدم مؤلف من أرانب أو من أسماك صغيرة أو صراصر أو واتيفر Whatever، لنفرض يعني .... أو ورد، كيف تتخلق هذه لتتحول إلى حقيقة؟؟ أبدا ما تتحول إلى حقيقة، ما لم توجد قوة خارجية هائلة، إما قوة نووية، أو قوة كهربائية أو قوة مغناطيسية، أو قوة جاذبية! هذه الأربع قوى التي ممكن أن تحول المعدوم إلى حقيقة، إلى موجود، وإلا العدم لو يبقى مئة ألف مليار سنة، فهو يبقى عدما! ولذلك ستيفن هوكينغ في التصميم الأعظم قال الجاذبية هي التي تخلق. لماذا؟ لأن الجاذبية تعمل على استطالة زمن وجود الأشياء. فلو تخيلت حوالينا باقات من الورد، وتبقى جزءا ضئيلا جدا من الثانية، لو استطال هذا الزمن بتأثير خارجي لتحول الورد إلى حقيقة! تمام وإلا لأ؟ يعني هي المشكلة الزمن القصير جدا، المسموح بأن تتواجد فيه هذه الورود! ..... إذن الاستطالة منين تجي؟ تجي من مجال القوة! إذا وجدت قوة أو أثرت قوة خارجية – لاحظ – على العدم، External Force مثل قوة الجاذبية، يتحول العدم إلى خلق، إلى جسيمات! يتحول إلى حقيقة! وهذا ما عملته أنا بالدكتوراه في ثمان وسبعين، موجودة الأبحاث، وموجود قوة الجاذبية، جا حكى عنها هوكينغ بعد عشر سنين! حكى عنها بثمانية وثمانين! زين؟ هو ما اشتغل فيها اشتغل في البلاك هول!

قلت: فهذا الجواب "الجذاب" الذي يجد فيه كل مفتون بالكوزمولوجيا ونظرية النسبية مطلوبه من استعمال "الفيزياء الحديثة" في إثبات أن الكون وجد بالخلق لا بالصدفة كما يزعمه الدهرية، وحظي بإعجاب وإقرار محمد العوضي هداه الله، هذا جواب بالغ من الوهاء العقلي غايته ومنتهاه، وفيه من اللوازم والمقتضيات ما يصحح القول بقدم العالم، ويحيل الخلق إلى مجرد عملية تحويل عظيمة لمادة كانت من قبل غير قابلة للقياس (مع كونها متحققة في الأعيان في إطار مجال كمي أزلي)، ثم صارت قابلة للقياس!

فإذا كان الزمان على ميتافزيقا أينشتاين التي يعتنقها الدكتور، إنما بدأ ابتداء في الانفجار المزعوم، لزم أن يكون المجال الكمي المزعوم فيما قبله، شيئا وجوديا مساويا للذات الإلهية في الاتصاف بالأولية (الأزلية)! فإذا كان الزمان لا وجود له قبل الانفجار، كان معنى أزلية الله تعالى وأوليته عندهم أنه تلك الذات الموصوفة بالوجود المتقدم على وجود الزمان نفسه! فإذا أثبت الرجل موجودا ماديا طبيعيا قبل وجود الزمكان، فكيف يثبت له بداية، والحال أنه لا زمان أصلا فيما قبل الزمكان؟؟ دعك الآن مما حررناه وأطلنا النفس في بيانه من تناقض وبطلان مجرد دعوى حدوث الزمانية نفسها Temporality بعد عدمها، بالنظر إلى أن معانى الحدوث والقبلية والبعدية توجب إذن أن يكون ثمة "قبل" لابتداء ذلك العالم الذي لا يوصف شيء "بالقبلية" إلا فيه، وهو ما يعني أن ميتافزيقا النسبية العامة وكوزمولوجيا ليميتر تنقض مبدأ حدوث الزمان نفسه كما بيناه في غير موضع من هذا الكتاب، لأنه إن قدرنا حدوث الزمان لزم أن يكون قبل الزمان زمان لم يكن فيه زمان، وهذا تناقض ظاهر! فدعنا نتنزل ونقول إنه يُتصور في العقل أن يكون نوع الموصوفات بالزمانية من الحوادث قد حدث بعد أن لم يكن، كما هو متفق عليه بين الكوزمولوجيين تأسيسا على الميتافزيقا المذكورة، فإذا قال الدكتور إن المجال الكمومي كان موجودا "قبل" فردية الانفجار، لزم ألا يكون له هو نفسه – على الأقل - ابتداء في الماضي لأنه ليس ثمة "ماض" أصلا خارج الزمكان! وإذن لزم أن يكون المجال المذكور قديما لا ابتداء له! هذه اللوازم نلزم بها كذلك كل من قال من الكوزمولوجيين إن حدوث الزمكان إنما كان حدوثا للزمان الكلاسيكي كما يسمونه، وإلا فلابد أنه كان قبله نوع آخر من الزمان، وذلك حتى يتمكنوا من وضع النظريات والفرضيات فيما كان قبل الانفجار المزعوم! وهذا ولا شك تناقض وسخف، لأنه إذا كان المقصود بالزمان الكلاسيكي هو ما تكون فيه الحوادث مرتبة على سهم ثابت بحيث تكون أولا في المستقبل ثم تصبح حاضرا ثم تصير من الماضي، فليس في عقول العقلاء شيء يقال له "زمان" إلا هذا! وإذن لزم أن يكون حادث نشأة الزمان بهذا المعنى حادثا خاضعا لذلك الترتيب "الكلاسيكي" نفسه الذي يفترض أنه لم يكن لنوعه حصول في الخارج قبل ذلك الحادث، وهذا دور وتناقض يبطل معنى الحدوث نفسه! ومع ذلك فالطائي يقلد الكوزمولوجيين في تلك المسألة من حيث لا يشعر، ويثبت ذلك المجال الخرافي المتقدم على نشأة العالم، ولكنه يعترض على هوكينغ وكراوس بأن حادث نشأة العالم في ذلك المجال الكمومي المزعوم لا يمكن أن يقع بلا مرجح! فأي نشأة هذه إذن إلا أن تكون تحولا للمادة الأزلية القديمة (على أثر الاضطراب الكمومي المزعوم Quantum Fluctuation) من حال طبيعية أولى، إلى حال هذا العالم الطبيعي كما نعرفه؟ والقصد أنه يقبل ميتافزيقا الدهرية الطبيعيين القائلة بقدم العالم من حيث لا يشعر، ويكتفي في نفي ذلك القدم إن سئل عنه باعتماد تعريف الشيئية أو التحقق في الأعيان على أنه قابلية الشيء لأن يقاس، لا غير!

ولا أدري والله كيف قبل منه محمد العوضي هذا الكلام على أن فيه الجواب الدامغ لشبهة كراوس! ما معنى أن يقال إن الشيء يكون معدوما عقلا، موجودا فيزيائيا في نفس الوقت؟؟ هذا تناقض صارخ، ولا يصح التنزل بقبوله مع الفيزيائيين! لا نسلم لهم بتعريفهم للوجود الخارجي بأنه قابلية الشيء للقياس والرصد (أي بحواسنا الدنيوية الخمس)، لأن هذا هو تعريف الدهرية الطبيعيين للوجود، الذي يحصر الموجود بأنه كل ما يقع تحت الحس بالقوة أو بالفعل! ولا نقبل الزعم بأن ثمة ما يوجد في المجال الكوانطي وجودا لا حقيقة له فيزيائيا (مع كونه يثبت في العقل، أو إن شئت فقل: فلسفيا أو رياضيا!)، على أساس أن وجوده لا يدوم إلا لزمان هو كسر من عشرة للأس خمس وأربعين جزءا من الثانية! أنتم تثبون وجوده على الحقيقة، وتثبون بقائه في المجال الكمومي لمدة زمانية معينة قصيرة للغاية، ثم تقولون إنه معدوم غير موجود (فيزيائيا)، فأي تناقض ووهاء فوق هذا؟؟ هذا خرف فلسفي وتلاعب بالتعريفات الميتافزيقية لا علاقة له بالعلم ولا بالعقل من قريب ولا بعيد! تأمل قوله: "هذه الأربع قوى التي ممكن أن تحول المعدوم إلى حقيقة، إلى موجود"، فيا دكتور، القوى الأربع هذه على أي شيء عملت إن لم تعمل على موجود في الحقيقة؟؟ الفرض أنه كان موجودا على نحو ما، ثم خضع لقوة من تلك القوى، فامتد زمان وجوده واستطال! فأين العدم هنا وما تحقيق معناه على هذا التصور الميكانيكي التحولي؟؟

إما أن يكون الشيء موجودا في الخارج على الحقيقة، فيكون الموقف المعرفي الصحيح من وجوده هو إثباته عقليا وفيزيائيا معا، وإما أن يكون منتفيا في الخارج على الحقيقة، فيكون وجوده منفيا عقلا وفيزياءً معا، وأقصد هنا بالثبوت والانتفاء العقلي تحقق الوقوع Actuality، وليس الإمكان أو الجواز العقلي Modality! فحين تفترض وجود شيء في الخارج كبوكيه الورد المذكور، فأنت تؤسس على فرض وجوده، فكيف تقول إنه إن لم يحصل من الطاقة والقوة الفيزيائية ما يكفي لتمديد زمان وجوده من المدة الزمانية المذكورة (التي هي دون أن نتمكن من إدراكه) إلى مدة أطول، لم يصح أن يقال إنه قد وجد أصلا؟؟ هذا تناقض واضح، وحقيقته نسبة الشيء المفترض وجوده (كفرض فيزيائي) إلى العدم (كفرض فيزيائي أيضا)، فيكون موجودا معدوما معا! فتأمل فداحة ما بلغه العبث والسخف العقلي في ميتافزيقا الكوزمولوجيين، التي يفزع إليها الجهلاء وخفاف العقل من بني جلدتنا يحسبونها علما وهي والله أوهى وأبطل من أساطير الأولين! والحاصل أننا لا يجوز أن نقبل من الطائي قوله بأن وجود العالم ترجح على عدمه بترجيح الإله له كموميا، لأن معاني "الوجود" و"العدم" و"الترجح" وغيرها كلها عنده جارية على ميتافزيقا الكوزمولوجيين الدهرية، من أولها إلى آخرها، ومن أدناها إلى أعلاها، والله المستعان لا رب سواه!

[←29]

هو يطمع لعلمه في أن يبلغ في يوم من الأيام أن يكون علما كشفيا لا يخفى عليه شيء، ولا محل فيه للظن الاحتمالي، كما في عفريت لابلاس Laplace Demon الذي ضرب به لابلاس المثل في تقريره حتميته الطبيعية المطلقة، فتصبح ماكينة العالم المزعومة هذه وكأنه هو صانعها الذي يعلم موضع كل ترس منها وعمله ونظامه ومدخله ومخرجه وما يحدث إن قدر أن تعطل ذلك الترس يوما أو بدل بغيره! من هنا وجب أن يكون البناء التفسيري كله طبيعيا محضا لا مدخل فيه لسبب غيبي البتة! كيف وهو أصلا ما وضع نظرياته الكونية وأطلق أقيسته الكلية ليصف العالم بكليته على التصور الميكانيكي هذا، إلا من أجل ذلك، من أجل ألا يبقى موضوع عن غيب السماوات والأرض وما فيهما إلا كان مصدر تلقي المعرفة به عنده هو ومن طريقه هو؟؟

[←30]

والظاهر أن الدكتور عمرو لم يقف على أسطورة Conformal Cyclic Cosmology لبنروز ولم يسمع بها! فالرجل يعتقد (وإن سألته فسيقول إنه "يقترح" suggets، على عادة الكوزمولوجيين في ذلك) أن العالم قديم لا ابتداء له، وإنما تعد فردية الانفجار الكبير المزعومة هذه مجرد مرحلة انتقالية من مراحل التاريخ الطبيعي للعالم، ومن ثم يفسر بنروز الإنتروبي العالية للغاية التي تظهر في خلفية المايكروويف لقبة السماء المشاهدة في مراصدهم، بأنها ما تبقى من كون سابق قد مضى عليه من الأعصار Aeons من بعد انفجاره الخاص به ما جعله يترك خلفه تلك البقايا المتعادلة المنتظمة حراريا! فالرجل على أصول دين الكوزمولوجيين الغربيين، لا يثبت صانعا بالغيب ولا يثبت غيبا أصلا، وإنما يميل في بعض أبحاثه لجعل الوعي (وما يسميه هو وهوكينغ بالمعلومات Information) ظاهرة كونية كانت ولم تزل تتوارثها الأكوان المتتابعة في أسطورته الهزلية!

[←31]

قال الدكتور في كتابه "كيف بدأ الخلق" (ص. 239):

> ولا شك أن الاعتراض الأكبر على التطور الموجه يأتي من قبل المتدينين في الغرب والشرق على السواء. فهم يرفضون فكرة أن الله يستخدم في الخلق آلية التطور التي يعتقدون أنه لا يمكن تحريرها من العشوائية. ويرى هؤلاء المعارضون أننا إذا رجعنا بالزمن بضعة مئات الملايين من السنين، ثم سمحنا للتطور أن يحدث مرة أخرى، فقد نخرج بنتيجة مغايرة تماما لما نحن عليه الآن. فعلى سبيل المثال، هذا النيزك الهائل الذي اصطدم بالأرض منذ خمس وستين مليون سنة وأدى إلى انقراض الديناصورات، ماذا لو لم يقع هذا الحدث العشوائي؟ ربما أثر ذلك على ظهور الإنسان، وربما أصبحت المحصلة أن يستقر المخ الإنساني المتميز بهذا الذكاء الهائل في أحد هذه الزواحف! إذن كيف يتمشى ترك الأمور للعشوائية (كما يتصور الخلقويون) مع الإيمان بطلاقة المشيئة الإلهية التي اقتضت إخراج الإنسان في توقيت محدد، على أحسن تقويم؟

قلت: أولا من هم المتدينون هؤلاء الذين يعترضون في الغرب والشرق على التطور الموجه؟؟ وبأي دين تدينوا على وجه التحديد؟؟ وعليه فهل ترى أنت نفسك (وأنت القائل بالتطور الموجه) متدينا أم لا تراك على دين؟؟ تقدم أن الدكتور يجري على طريقة الفلاسفة الغربيين المعاصرين، واللاهوتيين الذين قرأ لهم، في الفرقان بين أصحاب الأديان التي تثبت إلها ما (يجمعهم كلهم في سلة واحدة على اختلاف مللهم وعقائدهم)، وأصحاب الأديان والفلسفات التي لا تثبته في المقابل. وقد مر معك في هذا الكتاب بسط الكلام على ثمرة ذلك المنهج الفاسد، فلا نعيد.

ثانيا: قد أطلنا النفس كذلك في بيان أن التطور الدارويني لا انفكاك له ولا لقصة التاريخ الطبيعي التي تأسست عليه، من العشوائية الوجودية، فلا داعي للإعادة. تلك العشوائية تقتضي ولا شك نفي العلم الإلهي والتقدير السابق والحط على قدرة رب العالمين، وتقتضي أننا لو قدرنا أن أعيد خلق العالم على نفس النظام ونفس الوتيرة وتركت سننه الطبيعية لتجري فيه كما جرت، لما أمكن التنبؤ بما يؤول إليه التاريخ الطبيعي، ولربما لم ينشأ الإنسان أصلا، أو لربما رأينا الصراصير أو الضفادع أو النسانيس هي التي تنشئ الحضارات وتعمر الأرض وتعلو في البنيان (كما في رواية "كوكب القردة" للروائي الفرنسي بيير بول مثلا!)! هذا الاقتضاء لازم للدكتور على مذهبه، وهو تمثيل بالصانع البشري يقتضي تعطيله عن شطر من صفات ربوبيته كما لا يخفى! فتأمل كيف يخرج منه الدكتور! يفر منه إلى ما هو أقبح منه وأضل سبيلا، كما هي سنة الله الماضية في الجهمية في كل عصر، لا تبديل لخلق الله! ولا عجب أن يعامل الجهمي بنقيض ما يدعي أنه قصده، فهو إذ يزعم أنه يريد تنزيه ربه وتصحيح المعتقد فيه، فإنما يريد في الحقيقة أن يدفع عن نفسه إلزامات أهل السنة، المترتبة على اعتناقه ما اعتنق من نظريات الفلاسفة! فلو صدق الدكتور لدفع دعوى التطور من سلف مشترك من أساسها، ولأعلن أنه يقف في أمور الغيب على ما أجمع عليه السلف من اعتقاد فلا يزيد ولا ينقص ولا يبدل قيد أنملة! ولكنه اختار أن يذهب – تحت دعوى التنزيه - مذهبا يحيل رب العالمين إلى العدم المحض، الذي لا حاضر ولا ماضي ولا مستقبل في أفعاله، بل لا يوصف بشيء من الصفات الفعلية أصلا، وهو يرى أنه ينزهه عن مشابهة المخلوقين في نقائصهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقول:

> الخروج من التضاد: إن لذلك التضاد الظاهري تفسيرا يخرجنا من كل هذا الاختلاف، ويضع الأمر في منظومة متناسقة، إنه اختلاف النظرة إلى الزمن بين الحق عز وجل وبيننا. فالله الموجود خارج المكان وخارج الزمان، لا يخضع لمفهوم الماضي والحاضر والمستقبل، لذلك فعملية الخلق بالنسبة له عملية كلية آنية، فالله يخلق كل شيء دفعة واحدة (إذا صح التعبير) ويحدد توقيت ظهوره إلى الوجود، سواء خلق المجرات والنجوم والكواكب، أو ظهور الحياة والتطور ونشأة الإنسان، أو إنجازات الكيمياء والفيزياء والجيولوجيا والبيولوجيا. ومن ثم، فإن كل طفرة تبدو لنا عشوائية، هي في الحقيقة محسوبة في مكانها وزمانها في علم الله الأزلي القديم. إذا فقدرة الله عز وجل وراء خلق كل شيء، بينما يبدو الأمر لنا أنه قد حدث بخطوات عشوائية. ومن ثم فالخلق عند الله عز وجل خلق واحد آني مباشر، وإن بدا لنا باعتباره خلقا تطوريا. إذا أدركنا ذلك، زال الحرج بين القائلين بالتطور الموجه وبين الخلقويين.

قلت: أولا ليس هذا تضادا، بل هو مناقضة! القول بالتطور العشوائي يناقض القول بالخلق الإلهي المحكم وبخلق آدم على أحسن تقويم! فإما أن يكون الله قد خلق المخلوق على أحسن تقويم وأكمل ما يحصل به المقصود من خلقه من أول يوم، وإما أن يكون قد خلقه ناقصا معيبا أولا ثم طور عليه! لا ثالث للصفتين، فلا يرتفعان ولا يجتمعان! ثانيا: ليس هو ظاهريا (إن كان المراد بهذا التركيب: ما يظهر وكأنه تضاد، وليس كذلك على الحقيقة)، بل هي مناقضة صريحة حقيقية، لا خروج منها إلا بترك إحدى العقيدتين: إما الخلق الإلهي المحكم الكامل من أول يوم (أو ما يسميه الدكتور ومن شاكلهم بالخلق الخاص)، وإما التطور الدارويني الذي لا تبدأ فيه الحياة إلا بأصل هين منحط، لا يكاد يخدم غرضا ولا يقوم بوظيفة!

ثالثا: قوله "إن لذلك التضاد الظاهري تفسيرا يخرجنا من كل هذا الاختلاف، ويضع الأمر في منظومة متناسقة، إنه اختلاف النظرة إلى الزمن بين الحق عز وجل وبيننا. فالله الموجود خارج المكان وخارج الزمان، لا يخضع لمفهوم الماضي والحاضر والمستقبل، لذلك فعملية الخلق بالنسبة له عملية كلية آنية، فالله يخلق كل شيء دفعة واحدة (إذا صح التعبير) ويحدد توقيت ظهوره إلى الوجود" قلت: من أين لك بأن الله "موجود خارج المكان وخارج الزمان"؟؟ ما معنى المكان أصلا وما معنى الزمان؟ حسبنا من القرآن آية واحدة نحاججك بها ههنا، ألا وهي قوله تعالى: ((إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)) الآية [الأعراف : 54]، فإذا قلنا إن الله الآن فوق عرشه، كما هو معنى "استوى على" في لسان العرب، أيكون هذا مكانا عندك أم لا يكون؟؟ إن قلت ليس مكانا، نقضت معنى الفوقية وعطلت صفة العلو رأسا، وجعلت فوق العرش كتحته في حق الله! هو يقول إنه على العرش وأنت تقول إنه لا يوصف بهذا المعنى، نسأل الله السلامة! وإن قلت بل هو مكان، نقضت قولك بأنه "خارج المكان"! ولا يخفى ما في قول القائل "خارج المكان" من تناقض، إذ ليس "الخارج" إلا مكانا (أو داخلا في معنى المكان) كما أن الداخل مكان ضرورة! وكذلك يقال في الزمان، إذا قلنا إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، فهل هذا عندك يعني أن الله كان في لحظة ماضية خالقا العالم، يوما بعد يوم، ثم في لحظة لاحقة في

الزمان (بعد تمام اليوم السادس) استوى على العرش، أم أنه خلق العالم واستوى على العرش معا في نفس اللحظة (نفس الآن)؟ إن قلت إن ذلك كله كان منه في آن واحد، نقضت قوله بالأيام الستة وقوله "ثم استوى"، وعطلت الصفة وكذبت ربك، وإن قلت كما هو اعتقاد المسلمين إنه كان في حال يخلق فيها السماوات والأرض، يحدث خلقا في اليوم الأول ثم يحدث خلقا آخر في اليوم الثاني ثم غيره في الثالث، يوما بعد يوم إلى تمام الستة، ثم هو الآن مستو على عرشه، فقد أبطلت قولك "خارج الزمان" فتأمل!! الله تعالى يقول إنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهذا يقول إن الخلق كله حصل في آن واحد في "دفعة واحدة"، نسأل الله العافية!

ثم ما معنى "لا يخضع لمفهوم الماضي والحاضر والمستقبل"؟ معنى الخضوع ليس له تعلق بالنسبة المكانية أو النسبة الزمانية أصلا! وإنما يقال للشيء إنه خاضع لشيء آخر، إذا كان مضطرا إليه لا يملك منه فكاكا! فيقال للمخلوق إنه خاضع لمكانه، بمعنى أنه مضطر للّبث فيه، محاط به إحاطة لا يملك منها فرارا! وهذا ولا شك يصح على جميع المخلوقات، إذ لا فكاك للمخلوق من المكان المخلوق الذي خلق بحيث لا يغادره إلا بالموت! أو يقال إنه خاضع لزمانه خضوعا، بمعنى أنه لا يملك مفارقته إلى زمان غيره، فيؤخر زمان مولده أو يقدمه كما يحلو له، فيختار أن يولد في زماننا هذا بدلا من أن يولد في عصر الفراعين مثلا، أو في عصر الإمبراطورية الرومية! أما أن يقال إن الله "ليس خاضعا لمفهوم الماضي والحاضر والمستقبل"، فمثل ذلك كمن يقول: "إن الله ليس خاضعا لمفهوم الوجود"، فمن الذي فهم من قبل إن وصف الرب بالوجود هو "إخضاع" له سبحانه "لمفهوم الوجود" (هكذا!)؟؟ وعلى هذا فقس في جميع صفاته سبحانه! لا يخضع الموصوف لصفته وإنما تلازمه (معنويا) ما دام موصوفا بها! قوله "الله يخلق كل شيء دفعة واحدة (إذا صح التعبير) ويحدد توقيت ظهوره إلى الوجود، سواء خلق المجرات والنجوم والكواكب، أو ظهور الحياة والتطور ونشأة الإنسان، أو إنجازات الكيمياء والفيزياء والجيولوجيا والبيولوجيا. ومن ثم، فإن كل طفرة تبدو لنا عشوائية، هي في الحقيقة محسوبة في مكانها وزمانها في علم الله الأزلي القديم." قلت: ما معنى أنه يخلق كل شيء معا في لحظة واحدة ثم يحدد توقيت "ظهور" كل شيء؟ أليس الخلق هنا والإظهار كلاهما بمعنى الإحداث؟!

إن هذا الكلام حاصله أننا نتوهم تفاوت الأزمنة وتراتبها في حوادث العالم توهما، وأن الواقع في خلق الله ليس كذلك، وإنما كان الخلق كله حادثا واحدا لا ماضي فيه ولا حاضر ولا مسقبل! بل لا يقال إنه "كان" أصلا، لأن ذلك يقتضي جعله حادثا قد وقع "في الماضي"، بل يلزم أن يقال إنه لا يوصف بأنه كان أو جرى أو إنه كائن الآن أو إنه سيكون غدا! فأي شيء هذا الذي لا يوصف بأنه كان أو حدث في الماضي تحقيقا أو بأنه حادث الآن أو بأنه يحدث غدا، إلا الوهم الذي لا حقيقة له؟ وإذن فالله ما خلق ولا رزق ولا دبر ولا قدر ولا.. إلخ، ولا هو فاعل ذلك كله الآن، ولا يفعله كله غدا، لأن معاني المضي والحضور والاستقبال منتفية عنه كلها! فأي شيء يكون هذا إن لم يكن تجريدا له من جميع صفاته وأفعاله التي بها أثبتنا لها الربوبية واستحقاق التأليه والعبادة، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا؟؟

ثم ما علاقة ذلك العبث بنسبة العشوائية أو نفيها إلى أفعاله سبحانه؟؟ أين الجواب عن نسبة العشواء الوجودية لأفعال الخلق الإلهي؟ الدكتور كأنما رأى أن المخرج من نسبة العشوائية لبعض أفعال الله تعالى، إنما هو نفي كونه فاعلا من الأساس، فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل!

[←32] وليس هذا هو قانون الديناميكا الحرارية الأول، أو قانون حفظ الطاقة كما يسمونه، وإنما هو تعميم الدهرية له (جريا على مبدئهم الكوزمولوجي الدهري) على جميع الكون، كما بينا ذلك في موضعه، وهو ذلك التعميم الذي وافقهم عليه الدكتور في دعواه "انغلاق المادة" في الكون من حيث لا يشعر!

[←33] وعالم الغيب عنده كما مر معك عدمي محض على التحقيق، بالنظر إلى ميتافزيقا الزمكان الأينشتايني التي يعتنقها، إذ لا حقيقة ولا وجود في الأعيان لما لا ينتظم على معاني الزمان والمكان!

[←34]
من أبغض الأشياء إلى نفسي قول أحدهم: "العلم أخبرنا بكذا وكذا" أو Science tells us that! هذه العبارة تفترض في المتلقي الجهالة والاضطرار لتقليد المتكلم بها أو من نقل عنه وكأننا لا نعقل شيئا! العلم لا يخبر بشيء يا دكتور، وإنما الذي يخبر هم المشتغلون به، وهؤلاء بشر يخطئون ويصيبون بالضرورة، وهم مخرفون كذابون دجاجلة إذا تكلموا في الغيبيات المحضة، كما صنفنا هذا الكتاب وغيره في بيانه، وإن رغمت أنوف! لم "يخبرنا" العلم بأن المادة لا تستحدث (هكذا بإطلاق)، ولا يكون المخبر بذلك إلا جاهلا جهلا مركبا بالغ التركب مهما ملأ فهمه باسدلالات الطبيعيين ونظرياتهم ومراصدهم وحساباتهم! وإنما تأتي تلك الدعوى من تفلسف ميتافزيقي ما أنزل الله به من سلطان، تأسس عليه تصور الدهرية الطبيعيين للقانون الأول للديناميكا الحرارية كما مر معك بسط الكلام عليه!

[←35]

وقد انحصر خلاف السلف في طول أيام الخلق الستة في قولين لا ثالث لهما، ألا وهما القول بأنها هي أيامنا المعهودة أيام الدنيا لظاهر القرآن والسنة، والقول بأنها من الأيام التي هي عند ربنا كألف سنة مما نعد كما في قوله تعالى: ((وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)) الآية [الحج : 47]، وبه قال ابن عباس والضحاك ومجاهد وغيرهم، فعلى المسلم أن يؤمن بأن أيام الخلق الستة لم تجاوز ستة آلاف سنة بحال من الأحوال (على الخلاف المذكور)، والدليل على ذلك هو إجماع السلف على هذا المعنى، إذ لم يُعرف منهم قائل بما يربو على ذلك المقدار في أيام الخلق البتة، ولم يرد عنهما خلاف القولين المذكورين، فكان إجماعا على بطلان ما عداهما! ولا يجوز الاستدلال بالخلاف المذكور على أن الأمر كان غامضا عليهم أو ملتبسا أو أن المراد لم يكن معلوما لديهم أو نحو ذلك من هذيان جهمية العصر الذين كانوا ولم يزالوا حريصين على حشر ميتافزيقا الانفجار في الأيام الستة، لعلها تبلغ معهم أن تصير بلايين بل بلايير السنين!

ومما يجدر التنبيه عليه في هذا المقام أن من حكم الله تعالى في جعلها أياما ستة وقد كان قادرا سبحانه على أن يخلق السماوات والأرض خلقا آنيا بكن فيكون، أن يبتلي المخاطبين بالقرآن بالإخبار عن تلك المدة، هل يقف الواحد منهم حيث أوقفه ربه في العلم بتلك المسألة ولا يزيد، أم يسترسل مع شيطانه متجاوزا حدوده حتى يطرح السؤال: لماذا ستة أيام؟ لماذا لم يجعلها تسعة؟ لماذا لم يجعلها ستة أشهر؟ لماذا لم يجعلها ستون يوما؟ .. إلخ، يقحم نفسه فيما ليس لمعرفة الجواب عنه من سبيل إلا الوحي، فيتلبس بالزندقة وبالقول على الله بغير علم؟ هذه فتنة ولا شك! وها نحن نرى في هذا الزمان بالذات كيف استحكمت تلك الفتنة على أولئك الذين ابتلوا بتعظيم نظريات الكوزمولوجيين الغربيين في ذلك الغيب العظيم، حتى لم يعد أحدهم يدري ماذا يصنع بقسمة تلك الأيام أصلا، وبمسألة الاستواء التي جاءت بعدما فرغ الرب سبحانه من خلق السماوات والأرض وما فيهما، إذ في نظرية الانفجار ليس ثمة أيام ولا تمام للخلق ولا استواء ولا شيء من ذلك أصلا، وإنما تمدد وانتفاخ وتناثر لا يزال مطردا إلى يوم الناس هذا! والقصد أن الله تعالى جعلها ستة أيام ليبلو المكلفين وليختبرهم بالخبر عنه، كما في قوله جل شأنه: ((وَهُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ)) [هود : 7]

ونظير ذلك من الإبتلاء بالخلق الغيبي وبالخبر عنه، قول الله تعالى: ((وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ)) [المدّثر : 31] فما أسهل وما أقرب أن تسول النفس المريضة والشيطان القرين للإنسان أن يسأل: لماذا تسعة عشر؟ لماذا لم يجعلها عشرين أو أكثر أو أقل؟ والجواب عن هذا كما أجبنا عن سابقه، أن يقال: ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [القصص : 68] ويقال: ((لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)) [الأنبياء : 23] ما شأنكم أنتم لماذا جعلها ستة أيام؟؟ هكذا أراد سبحانه وهكذا فعل، الخلق خلقه والأمر أمره ولا شيء فوقه ولا مستكره له ولا شريك ولا ند ولا مكافئ، فهل أنتم مسلمون؟؟

هذه هي المسألة، وهي مما ينبه المسلم إلى حدوده في السؤال والبحث والنظر، ويلزمه قدره فلا يجاوزه، هل يتأدب مع الله ويقف في أمر الغيب حيث انتهى به السمع ولا يزيد، أم يطلق لنفسه العنان في اقتحام ما لا قبل لها به من أنواع البحث والسؤال؟! نسأل الله السلامة والهداية للمسلمين.

[←36]

ويقصد الدكتور بالظواهر الخمس الخارقة ما قدم به ص. 107 من قوله:

تبدت عند حدوث الانفجار الأعظم – أي بداية خلق الكون – خمسة معالم خارقة لا تخضع للقوانين الفيزيائية السائدة الآن، ولا يمكن للعلم وحده أن يفسرها:

1- " وهي أصغر من طول بلانك. ووفقاSingularityصغر النقطة التي بدأ بها الانفجار "المفردة لقوانين الفيزياء يستحيل وجود المفردة بهذا الطول اللامتناهي في الصغر.

2- كانت المفردة لا نهائية الكثافة (تحوي كتلة الكون الحالي كله في نقطة أصغر من طول بلانك). وهي بلا شك تفوق أعلى كثافة عرفت في الكون حتى الآن، وهي كثافة النجم النيتروني.

3- حدث الانفجار الأعظم عند درجة حرارة تتجاوز حرارة بلانك، تصل إلى عشرة مليار مليار مليار (10^{37}) درجة مطلقة كلفن.

4- تجاوزت سرعة تمدد الكون الوليد سرعة الضوء بمقدار مليار مليار مرة.

5- كانت القوى الطبيعية الأربع متوحدة في قوة واحدة داخل المفردة اللامتناهية الصغر. وقد أثبتت الحسابات الرياضية أن الحصول على طاقة توحد هذه القوى في قوة واحدة، يقتضي بناء مسرع Accelerator!يعادل حجم المجموعة الشمسية، فكيف توحدت القوى الأربع في المفردة؟

قلت: ولا شك أن تسمية تلك الخرافات الغيبية العريضة بالظواهر فيه تلبيس ظاهر، لأنها لم تظهر لأحد ولا شهدها أحد البتة، ولفظة "الظاهرة" التي هي تعريب الأكثرين للمصطلح التجريبي Phenomenon لا تطلق إلا على أنواع الحوادث الواقعة تحت الحس، وهي موضوع التفسير الطبيعي غالبا.

[←37]

قال المدعو "أحمد الغندور" في حلقة من حلقات برنامجه "الدحيح" تحت عنوان الإنتروبي، يصف الكون بكليته: "كون بيحب الفوضى!"، وهذه كلمة شنيعة والله لم أسمعها من الطبيعيين الملاحدة أنفسهم عند شرحهم لقوانين الديناميكا الحرارية، نسأل الله السلامة! فهي تناقض صراحة قول الله جل وعلا: ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)) [السجدة : 7] وقوله: ((وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)) الآية [الفرقان : 2] وقوله: ((الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ)) [الملك : 3] وقوله: ((لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)) [يس : 40] وقوله: ((وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ)) [فصلت : 10] وقوله: ((لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً)) [طه : 107] إلى غير ذلك مما هو صريح في معناه! فتأمل أي ثمرة مدمرة للدين والعقل ترجع على شباب المسلمين إذا هم أغرقوا في دراسة تلك العلوم الطبيعية الغربية على جهل بعقيدة المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

[←38]
وقد كان إدينغتون هذا هو أول من استعمل عبارة "سهم الزمان" Arrow of Time في مصنفات الطبيعيين، حيث قال في كتاب له نشر في سنة 1928 الميلادية بعنوان "طبيعة العالم الفيزيائي The Nature of the Physical World": "دعونا نرمي بسهم. فلو أننا تتبعنا السهم (وهو يسبح في الهواء)، فوجدنا تزايدا في معالم العنصر العشوائي Random Element في حالة العالم، فإن هذا يعني أن السهم يمضي إلى جهة المستقبل. وأما إن وجدنا العنصر العشوائي يتناقص، فلابد أن السهم يمضي إلى جهة الماضي. هذا هو الاتجاه الوحيد (يعني للزمان) المعروف في الفيزياء. وهو يلزم لزوما ضروريا إذا كان اعتقادنا المعترف به هو أن دخول الفوضى والعشوائية هو أمر لا يمكننا عكسه." اهـ. قلت: وهذا الكلام فاسد من وجوه، فأما أولا، فإن الفيزياء ليست هي الطريق الذي يطرق للحكم بأن الزمان يجري إلى الأمام ولا يرجع إلى الخلف! هذه مسألة طريقها البداهة التي يعرف بها كل عاقل أنه قد مر بما مر به من تجارب حياته بالأمس مرورا حقيقيا، وأنه لا يتوقع أن يصبح غدا ليعيش نفس اليوم الذي عاشه بالأمس مرة أخرى! فهذا المسلك الذي تكلفه أدينغتون للعبارة عن الزمان، مسلك متنطع للغاية، لا يفتقر إليه عاقل!
وأما ثانيا: فلا يعقل في سهم من الأسهم أن ينطلق إلى جهة الماضي، لأنه إذن يصبح حادث رميه متأخرا في الترتيب على حوادث أخرى تقع له في مساره في الهواء (الذي لا يحلق فيه إلا بعد الرمي)، ويصبح حادث وصوله إلى مرماه متقدما على حادث انطلاقه، وهذا باطل بالبداهة، إذ لولا أنه انطلق في الماضي بالفعل، ما أمكن أن نتتبع له مسارا وهو ينتقل عليه من مكان إلى مكان وصولا إلى المرمى! وإذن فلا وجه البتة لقوله إننا لو رأينا كذا وكذا فسنعلم حينئذ أن السهم يجري إلى المستقبل لا إلى الماضي، وأما لو شاهدنا كذا وكذا فسيثبت لنا جريانه إلى الماضي! هذا محال أصلا!
وأما ثالثا: فنقول إن الفوضوية أو العشوائية ليست وصفا لحال العالم ولا لمآله (وجوديا) كما يظهر من كلام الرجل، وإنما هي وصف معرفي محض لحوادث لا ندري لكونها تجري على تلك الحالة التي تجري عليها تعليلا أو تفسيرا، أو ربطا بوظيفة أو غرض معين نعرفه! فهي من جهتنا نحن لا تخدم غرضا نعلمه أو نرجوه، وإلا فهي في علم الباري جل وعلا لا تقع كما تقع إلا لأسباب وعلل وحكم هي عنده سبحانه وفي علمه، وجوبا وضرورة! وعليه فمن المتصور أن نرى مجموعات من مكونات المادة والطاقة لم نكن ندري لها سببا أو غاية، وقد تجمعت بعلم الله تعالى لينشأ منها جنين في بطن أمه – مثلا – فتصبح نظاما نعرف وظيفته! فمن الذي قال إن العالم لا يجري إلا من "النظام" إلى "الفوضى"؟ كلام فارغ!

[←39]

والطريف أن الدهرية عندما يريدون الرد على تلك الحجة الإنتروبية، يقولون إن من أغلاط أصحابها أنهم يعتبرون الأرض نظاما مغلقا، مع أنها ليست كذلك لأنها تتلقى الطاقة من الشمس! فعلى أي أساس – إذن – اعتبرتم الكون نظاما مغلقا مع أنكم لا تعرفون له حدا ولا نهاية؟؟ ما ضابط الفتح والإغلاق عندكم ومن أين جئتم به؟؟ إن كنتم أبيتم إلا قياس الكون بكليته على المحرك الحراري المغلق، فلماذا كرهتم أن يقيس خصومكم الأرض عليه كذلك؟ أم أن استعمال القياس الطبيعي في الغيبيات المحضة حلال ما دام يجري على عقيدتكم الطبيعية، وإلا كان حراما؟

[←40]
قال في كتابه الجديد "المعلوماتية" (ص. 92): "تتسم الأحداث وليدة المصادفة/العشوائية بأنها غير موجهة، كما لا يمكن التبنؤ بها. ومن ثم لا يكون لها قصد أو غاية. ويقابل (عكس) الحدث العشوائي الحدث المصمم، ذو القصد والغاية. وعندما يكون الحدث عشوائيا، لا يمكن توقع حدوث نتيجة دون أخرى إلا من خلال نسبة الاحتمالية، وبالرغم من ذلك فإن النتائج الأقل احتمالية لا تكون مستبعدة." اهـ. قلت: فهل هذا كلام من ينفي العشواء الوجودية نفيا مطلقا؟ أبدا! وهل يتصور فيمن يثبت في العالم حوادث لا قصد لها ولا غاية، أن يكون الإله الذي يدعو الناس إليه هو إله المسلمين؟؟ سبحانك ربي هذا بهتان عظيم! بل سيأتي معك في كلامه ما يبين أنه يؤمن بأن التصميم الذكي إنما يثبت بمقارنته بما يسميه هنا "بالأحداث العشوائية"، ويؤمن بأن عالم الكوانطم الأصل فيه العشوائية، وأنها لذلك لم يصفها الفيزيائيون إلا بمعادلة احتمالية، فإذا ما "تدخل" الإله حيث تدخل، رجح الاحتمال الأضعف أحيانا، خلافا لما كان من شأنه أن يقع لو لم "يتدخل"، ولو قدر أنه لم يتدخل على الإطلاق، لجرى العالم كله على العشوائية المحضة، وإذن لانقلب الكون على أثر الإنتروبي إلى ما يسميه هاهنا بالفوضى المطلقة Absolute Disorder! وهذا الاعتقاد شرك محض ولا شك، كما يأتي بيانه لاحقا بحول الله وقوته!
ولأنه ضايع في تلك الأبواب كضياع من ينقل عنهم أو قريب منه، فلا يرى التناقض الذي يملأ كلامه! تأمل كيف يقول في الفقرة بعد التالية مباشرة في نفس الصفحة: "ولا يقف الأمر عند ذلك (أي عند كشف الحسابات "عجز المصادفة" على حد عبارته، عن إنتاج أحداث تقع بصورة روتينية متكررة في حياتنا)، بل إن نظرة عميقة تكشف أن مفهوم الصدفة لا وجود له في الحقيقة! فقد أثبتت نظرية الشواش / الفوضى Chaos Theory أن الأحداث مهما بدت غير متوقعة أو عشوائية تنتجها قوى دقيقة للغاية باستخدام قوانين الطبيعة، وأن هذه الأحداث يمكن توقعها إذا توافرت لدينا المعلومات الكافية، وهو ما أطلقت عليه النظرية اصطلاح "تأثير الفراشة". اهـ. قلت: سبحان الله! هل المطلوب من قارئك الآن أن يعتقد أن في العالم حوادث وليدة الصدفة والعشوائية، غير موجهة وغير ذات قصد أو غاية، أم المطلوب أن يعتقد أنه لا وجود للصدفة والعشوائية في العالم مطلقا على الحقيقة؟؟ كلام فاسد ينقض أوله آخره، والله المستعان!

[←41]
قال في صفحة (109) تحت عنوان "منظور نيوتن": "بالإضافة للنظرة السابقة للفيزياء الكلاسيكية، احتفظ نيوتن للإله في منظومة عمل الكون بدور يقوم على دعامتين، الأولى أن قوانين الطبيعة من خلق الإله، سواء بأن جعلها مكونا ثابتا في بنية المادة، أو أنه حدد للمادة السلوك الذي ينبغي أن تتبعه وألزمها بها. والدعامة الثانية، أن الإله لم يرفع يده عن الكون، وأنه مسؤول عن حفظ الكون وتعديل أي خلل فيه (كالخلل في مسارات الكواكب). إن ذلك يعني أن الكون مفتوح للفعل والإرادة الإلهية، ومن ثم لا تحكمه الحتمية. ولدوره الرائد في الربط بين الفيزياء والدين، أمر البابا ألكسندر أن يكتب على قبر نيوتن: كانت قوانين الطبيعة ترقد في ظلام الليل، ثم قال الإله فليكن نويتن، فأضاء كل شيء" اهـ. قلت: أنت يا دكتور بإقرارك هذا الكلام، تقترف جناية عظيمة على اعتقاد المسلمين في رب العالمين! تبدأ تلك الجناية أولا من إقرار الفلاسفة الطبيعيين على طريقتهم في النظر في صفات الباري وأفعاله بناء ما أثبتوه من مزاعم كلية فاحشة بشأن العالم بكليته! ثم إنها جناية – ثانيا – من جهة إقرارك لنيوتن بعينه إقرارا مجملا على اعتقاده في رب العالمين، وعلى مصدر تلقي ذلك الاعتقاد عنده، على تلبيس واضح في بيانه للقراء،وإلى الله المشتكى! هذا الذي "يغلق" العالم وذاك الذي "يفتحه" لأفعال الباري، كلاهما قائل على الله بغير علم، متخرص على ربه في أفعاله وصفاته، ظالم لنفسه متكلف في ذلك ما لا يجوز لبشر أصلا أن يتكلفوه! والدكتور يقره على ذلك المسلك الفلسفي الفاسد ويقبله منه قبولا إجماليا، يقول مقالة حق يريد بها باطلا "دعونا نقرأ كتاب الله المنظور كما نقرأ كتابه المسطور، فيدلنا على كمال صفاته، أليس قد أثنى رب العالمين على الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض؟! فهذا تفكرنا وهو قربتنا نتقرب بها إلى ربنا، فدعونا وشأننا"، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

[←42]
وكان – بالمناسبة – يقرأ "كتاب الله المنظور" كذلك (أي الميتافزيقا الطبيعية المستمدة من نظرياته الطبيعية)، يستنبط من أقيسته الكلية في نظام العالم كافة ما يقتضيه القول بها من إثبات ونفي في الإلهيات تماما كما تدعو أنت المسلمين لأن يفعلوه اليوم يا دكتور، وإلى الله المشتكى! وها أنت ترى – وسيأتي معك المزيد – أي اعتقاد انتهى إليه الدكتور عمرو نفسه في صفة ربه جل شأنه وأفعاله بعدما بدأ من نفس البداية!

[←43]

يفرح الدكتور في كتابه "كيف بدأ الخلق" (ص. 244) بمقولة أينشتاين: "إن أصعب الأشياء فهما عن العالم هو حقيقة أنه قابل للفهم"، مع أن جواب هذا الاستغراب والاستيحاش البالغ عند المسلمين لا يزيد على كلمتين: التسخير والابتلاء! هو قابل للفهم ولاكتساب المعارف المطابقة للواقع أو المقاربة له (في حدود ما يقع منه تحت عادتنا)، لأن الله سخر لنا ما في الأرض وما في السماء تسخيرا، ولأنه ابتلانا به ابتلاء. فبينما يسوق الجهلاء هذه المقولة على أنها عين الحكمة وخلاصة عبقرية الرجل ونبوغه، يراها أولئك الذين منّ عليهم الباري سبحانه بالسماع وحسن الفهم عنه، غاية المكابرة والجحود!

والعجيب أن الدكتور يقول ما معناه أن إدراك أينشتاين لعظمة ما في الكون من نظام دقيق وإحكام في الصنعة، هو الذي حمله على رفض مبدأ اللايقين Uncertainty عند هايزنبرغ، والإصرار على أن في المسألة عوامل سببية خفية إن عرفناها فسيكتمل لنا التصور على المستوى الكمومي كما ظن أنه اكتمل على المستويات الأخرى، يقول معلقا: "لذلك يتعامل العلم مع انضباط ومنطقية الكون باعتبارهما بديهية علمية عقلية ليس هناك حاجة لأن يقدم لهما تفسيرا". وأقول إنه من العجيب لأن الدكتور يقبل مبدأ اللايقين، ويقرر مفهوم الاحتمالية الوجودية Ontological Probability عند بور وهايزنبرغ كما بينا، مقلدا محمد باسل الطائي في جعل هذه الاحتمالية مدخلا لما سماه "بالترجيح الإلهي" ومخرجا من السببية الطبيعية اللابلاسية المغلقة! فهل يتعين على من يعتقد كمال صنع الباري جل وعلا وإحكام صنعته في نظام الكون أن يقبل مبدأ اللايقين أم أن يرفضه يا دكتور؟؟ هل نواصل البحث عن قوانين تحكم تلك الجسيمات كما أصر عليه أينشتاين، أم نعتقد أنها لا يحكمها إلا الاحتمالية كما ذهبت إليه أنت؟؟ قد بينا بتوسع في هذا الكتاب بحول الله تعالى أنه إن كان المراد بمبدأ اللايقين، تقرير عجزنا نحن البشر عن تعيين موقع الجسيم وسرعته معا في أي واقعة رصد، بصرف النظر عن حقيقة حالته الوجودية قبل الرصد، فهذا حق لا إشكال فيه، وأما من حمل ذلك العجز البشري على أن واقع الجسيم نفسه "احتمالي" (وجوديا) بمعنى أنه يكون موجودا في موقعين أو أكثر في نفس الوقت، متحركا بسرعتين أو أكثر في نفس الوقت، حتى إذا حصل الرصد انتفت الاحتمالات كلها إلا واحدا بعينه، فهذا باطل مردود على أصحابه (وهو ما بات يعرف أكاديميا بتأويل كوبنهاغن).

[←44]

وإن كان صاحبه هايزنبرغ نفسه قد أسس عليه، مع زميله نيلز بور، شطحتهما الواهية فيما يتعلق بعملية الرصد أو القياس الكوانطي Ontology of Measurement فيما بات يعرف بتأويل كوبنهاغن، الذي تأكدت به تلك المغالطة الكبرى (إسقاط الاحتمالية التي هي في الأذهان على ما في الأعيان) وتحولت إلى الفهم السائد أكاديميا لما يجري للجسيمات تحتالذرية عند قياسها ورصدها!

[←45]

لهذا ترى الطبيعيين لا يفتؤون يتهمون اللاهوتيين والمتكلمين بالعمل على "حشر" إلههم في فجوات ميثولوجياهم لأن هؤلاء قبلوا التصور الطبيعي الدهري لماهية القانون الطبيعي، الذي هو خاضع عندهم لحتمية لابلاس (التي هي حتمية من سبقوه من الطبيعيين الكبار سواء بسواء، وإنما كان هو أول من صاغها صياغة فلسفية صريحة) خضوعا أوليا A-priori، ثم أخذوا يبحثون عن موضوعات في الطبيعة لم يزل أصحاب تلك القوانين لم يدخلوها في منظومتهم المغلقة، ليقولوا: ألم نقل لكم إن العالم ليس كله خاضعا لسلطان القانون الطبيعي؟ هذه مواضع لا يسعكم إلا أن تقبلوا منا قولنا بأن الإله يتدخل فيها، ما دمتم لا تجدون تفسيرا لها من طريقكم! فهذا هو منشأ مسألة "إله الفجوات" هذه فتأمل! ولو سلم القوم من تلك الأهواء، لعملوا على منع الطبيعيين من حشر سببيتهم الطبيعية في الغيبيات المحضة، بدلا من أن يتلبسوا هم بحشر ما استطاعوا حشره من عقيدتهم الغيبية في ميثولوجيا الدين الطبيعي التي قبلوها كما هي، إيمانا وتسليما، والله المستعان لا رب سواه!

[←46]

ولست أقول به، وإنما أستشهد بمجرد وجوده في أدبيات الطبيعيين، وكونه – مع ذلك – نظرية غير مشتهرة، للتدليل على غلبة الدافع الاعتقادي الدهري على الأكاديمية الطبيعية الغربية، وكونه يعمي أبصار القوم وبصائرهم عن أجلى الحقائق البدهية!

[←47] إلى جانب الأسباب الطبيعية التي يستكشفها الطبيعيون أو يفترضونها.

[←48] وأعني بالأسباب الوجودية، الأسباب على ما هي عليه في الخارج تحقيقا، لا على ما يظنه الناس.

[←49]

ولا عجب أن يتفق الطبيعيون الدهرية على تعظيم علم الفيزياء (ومعه أو تحته علم الفلك) غاية التعظيم ورفعه فوق جميع العلوم، فهو علم لا يعرف أصحابه موضوعا معينا للبحث فيه إلا أن يكون هو "طبيعة العالم" أو "طبيعة الواقع" Nature of Reality بهذا الإطلاق الفاحش (على أساس أن الطبيعة استغرقت الواقع كله كما هو اعتقادهم)! فمن يوم أن ظهر اصطلاح الفيزيقا على يد أرسطو وإلى اليوم، كان موضوعه البحث في "طبيعة" العالم بكليته بلا حد ولا قيد! ومنذ أن ظهر في أكاديميات اليونان القديمة وهو (مع كوزمولوجياه ومباحث الفلكيين) المنبع الأول للاعتقاد بشأن الوجود، ما يثبت فيه وما لا يثبت، على نفس هذا الترتيب الفلسفي الفاسد الذي يؤصل له الدكتور تأصيلا منهجيا في كتابه هذا (الفيزياء أولا ثم التأمل فيما وراءها، إن بقي لها وراء)، وإن كانت لم تعرف كعلم مستقل أكاديميا باسم "الفيزياء" إلا حديثا! خلافا لعلم الكيمياء مثلا، الذي تقيد بمجرد ظهوره بالبحث في موضوع محدد، ألا وهو طبائع المواد عند تفاعلها مع بعضها البعض وتحول بعضها إلى بعض، أو علم الأحياء الذي اختص أصحابه بدراسة الأنواع الحية دون غيرها، أو علم الجيولوجيا الذي تخصص أصحابه في دراسة طبقات الأرض، وهكذا! فهي تعد أقدم العلوم الطبيعية، وهم يعتبرون جميع تلك العلوم تخصصات دقيقة قد تفرعت تاريخيا عن علم الفيزياء، في إطار الأكاديمية الطبيعية الغربية. ولهذا لم يكن من عجب أن كانت الفيزياء هي رأس اهتمامات فلاسفة العلم Philosophers of Science ومؤرخيه، وأن ترى أكثرهم يحاول أن يجعل من منهج البحث في الفيزياء أنموذجا قياسيا لغيره من العلوم التجريبية، بما فيها العلوم الإنسانية!

[←50]

أي يمتنع معه ظهور المعارض.

[←51] ويمكن صياغة ذلك الثابت في عبارة سببية يقال فيها إن ترك الجسم معلقا في الهواء بلا حامل يحمله أو قوة ظاهرة تجذبه، يتسبب في سقوطه إلى الأرض بسرعة تبدأ من صفر ثم تزيد بمعدل 9.8 مترا في كل ثانية تقريبا. وهي علاقة ثبتت صحتها بالاستقراء الوافر المستفيض.

[←52] ولا ينبغي لمن فهم ميكانيكا الكم حق الفهم أن يستعمل هذه الكلمة في وصف أي عنصر من عناصر المستوى الكمومي إلا تجوزا! بل أقول إنه يتعين عليه أن يتحرر من الميتافزيقا الذرية نفسها Atomist Metaphysics التي يصر أصحابها – ولم يزالوا – على اختزال الواقع كله إلى مكونات أساسية ذرية / Fundamental Elements Atoms!

[←53]

وهو ما يرجع لأسباب نظامية أكاديمية محضة Disciplinary reasons لا يمكن لبني آدم أن يتجاوزوها أو يتغلبوا عليها (إجمالا) مهما عملوا. هذه مسألة لها أهميتها عند فلاسفة العلم عند تناولهم لقضية التقدم العلمي Scientific Progress، في إطار مباحث ما بات يعرف باسم علم اجتماع العلم Sociology of Science. وأعني ها هنا على وجه التحديد حقيقة ظهور نظرية النسبية العامة – تاريخيا - على أسس وفي إطار أكاديمي منفصل كلية عن الأسس والنظام الأكاديمي الذي ظهرت فيه ميكانيكا الكم، وتحت دواع بحثية أخرى مغايرة بالكلية! كما ظهرت قوانين الديناميكا الحرارية – مثلا – في إطار وسياق نظامي منفصل وفي إطار أسئلة بحثية مستقلة عن تلك التي ظهرت قوانين المجالات الكهرومغناطيسية في إطارها! فإنه لا يزال الباحثون البشريون يطرحون الأسئلة في حدود فهومهم وأغراضهم، ثم تتكلف الأجوبة بالنماذج والأطروحات النظرية والرياضية على كل سؤال بحسبه! ولن تتراكم الأعمال البشرية تراكما نظاميا أكاديميا إلا على هذا النمط التحليلي السطحي، وهو أمر لا مخرج منه، ولا يمكن للعقل البشري أن ينفك عنه بحال من الأحوال. كل باحث يختزل الظاهرة محل البحث اختزالا معرفيا ضروريا لا مفر منه، ثم يأتي بعد ذلك من يحاول الجمع بين المختزلات فيقع في اختزال أعظم بالضرورة، وهو آية من آيات النقص البشري التي عمي الطبيعيون الغربيون في كبرهم وغرورهم بما بين أيديهم من إنجازات تكنولوجية، عن الانتباه إليها والاعتراف بها، بل صيروها – من دهريتهم وشركهم – إلى نقيصة في النظام الكوني نفسه، فأصبحت النظرية هي النظام السببي الخارجي نفسه، وأصبحت اختزاليتها المعرفية اختزالية وجودية، والله المستعان!

[←54] الذي كان – بدوره – سبب قول أينشتاين مقالته المشهورة في رده على نيلز بور: "إن الإله لا يلعب النردشير" God does not play dice، على ما بيناه في مواضع شتى من مقصود أينشتاين "بالإله" في كل مرة يذكره.

[←55]

ولهذا يراوغ الكوزمولوجيون مراوغة عجيبة في تحرير اعتقادهم فيما كان قبل الانفجار المزعوم! ويصر أكثرهم على أن ما يقصدونه بالعدم Nothingness فيما قبل الانفجار ليس هو نفي كل موجود نفيا مطلقا كما في المعنى اللغوي والاصطلاح الفلسفي، وإنما هو عدم الجسيمات، مع وجود فراغ كمومي محض Quantum Vaccum منتشر بلا حد ولا نهاية، تنعدم فيه مكونات الطبيعة كما نعرفها، ولكنه مع ذلك كان مهيأ لوقوع حوادث اضطرابية عشوائية Fluctuations ينشأ بها كون كعالمنا، بزمكانه المزعوم وقوانينه الأربعة الأساسية، قياسا على ما زعموه من نشأة الجسيمات الكمومية من "لا شيء" في تجاربهم، ثم تحولها إلى لا شيء (وليس ما يرصدونه جسيما ناشئا من لا شيء ولا متحولا إلى لا شيء على الحقيقة وإنما هي تحولات صورية تحكمها الطبيعة العجيبة المتقلبة بين ما يشبه الموجة وما يشبه الجسيم، لشيء وجودي لا يفهمون حقيقته إلى الآن، ولعلهم لن يفهموها أبدا)!

ويصر اللاهوتيون النصارى في المقابل – وكثير من متكلمة أهل القبلة تبعا، ومنهم صاحبنا هذا – على أنه لم يكن قبل الانفجار المزعوم إلا العدم المحض، بناء على اعتقادهم النصراني القائل بأن الكون خلقه الرب من عدم محض Creatio Ex Nihilo! وبينما يقصد الطبيعيون بعدمهم الفزيقي الزعم بأنه لم يكن قبل الانفجار شيء في الوجود إلا ذلك الخلاء الكوانطي، يريد اللاهوتيون ألا يجعلوا في الوجود قبل الانفجار شيئا على الإطلاق إلا الصانع نفسه، ومن هنا يحرصون على جعل أصل العالم عدما محضا بالمعنى اللغوي، أي أن الواقع لم يكن فيه إلا الباري وحده، ثم صنع الباري العالم من العدم المحض، بينما يتمسك الطبيعيون في المقابل بجعله العدم الفيزيائي الذي لم يكن ثمة شيء في الوجود قبل الانفجار سواه، حتى لا يبقى في أسطورة النشأة الطبيعية مدخل للاهوتيين الكتابيين ليثبتوا سببا غيبيا لتلك النشأة!

[←56] ولا أدري أين وقف الدكتور على اللفظة كوني Cosmic في تسمية برهان الحدوث اللاهوتي في أدبيات أصحابه من المعاصرين! وإنما يسمى اصطلاحا بالبرهان الكوزمولوجي Cosmological Argument وليس الكوني!

[←57]

وليس هو اكتشافا أصلا، بالمعنى المتبادر إلى الذهن! فما كانت هذه طبيعته من أنواع المسائل، فلا يقال فيه بالاكتشاف أصلا، كاكتشافنا – مثلا – أنواعا جديدة من الحيوانات في أحراش الأمازون ما كنا نعرفها من قبل، أو من الحيتان في بطن المحيط الهادي، أو من السبائك الفلذية التي لها صفات وخصائص ما كنا نعرفها من قبل .. إلخ! فمن قال لك إن العلم اكتشف كذا وكذا في مسألة نشأة العالم، فكبر على عقله أربعا! وإنما حقيقة نفي "إمكان الاكتشاف" هنا، نفي إمكان وضع نظرية قياسية كنظرية الانفجار هذه، تجري على نفس المسلمات الكلية الدهرية أو المبادئ الطبيعية الأولى Fundamental Naturalist Principles (مبادئ المنهجية الطبيعية) التي جرى عليها القوم في وضع نظرية الانفجار نفسها، كالاستمرارية المطلقة Uniformity والمبدأ الكوني Cosmological Principle والسببية الطبيعية المغلقة أو التامة Closure of Natural Causation/ Complete Natural Causation! فمن أعظم التلبيس تسمية الدعاوى الكوزمولوجية (بداية من نظرية الانفجار نفسها) اكتشافات Discoveries كما أطلنا النفس في بيانه بحول الله وطوله في غير موضع من هذا الكتاب! وإلا، فهل حقا لا يمكنهم – بصرف النظر عن دهريتهم – أن يضعوا نظريات أخرى بديلة للانفجار الكبير، تجاوز نقطة الانفجار المزعوم لتثبت أسبابا طبيعية متقدمة عليه، أو حتى مخالفه له بالكلية؟؟ الجواب واضح! ولا يحتاج المرؤ إلى أكثر من مطالعة أول ورقة بحثية محكمة في الكوزمولوجيا تقع تحت يده، في مسألة The Beginning of Time، أو مسألة Big Bang Singularity أو مسألة Origins of Inflation أو Early Universe أو حتى نظرية الأوتار الفائقة Superstring Theory / M Theory، حتى يرى بجلاء أن القوم لا يحدهم حد ولا يمنعهم مانع من مجاوزة تلك الفردية المزعومة بالافتراض والتنظير في مزيد من "الأسباب الطبيعية"، بما يلزمك أنت يا دكتور أن تسميه "اكتشافا" على منهجك!

[←58]

ككونه يفعل الفعل بعد الفعل على ترتيب تجري عليه معاني الزمانية، وكونه في السماء وفي جهة العلو حقيقة، لا أنه لا يوصف بمعاني الزمان والمكان كما قال! وككونه يخلق خلقا محكما يضع الشيء فيه في موضعه ابتداء وانتهاء، لا أنه يبدأ خلقه بالوضى المطلقة ثم يطور عليه كما قال!

[←59] كما نراه في معادلات الجاذبية عند نيوتن على سبيل المثال، فهي تصف الواقع وصفا دقيقا على مستوى معين، فإذا جاوزته للأجرام بالغة الضخامة والثقالة، تناقصت دقتها!

[←60]

ينبغي ها هنا التفريق بين قولهم "الصفات الضرورية لوجودنا" (كما يقال في بعض صياغات هذا المبدأ) وقولهم "الصفات المجوزة أو التي تسمح بوجودنا"، فالعبارة الأولى تجعله من الممتنع أن نوجد نحن البشر على ما عليه خلقتنا وهيئتنا ونظام حياتنا على الأرض كما نعرفه، لو قدر أن كانت قوانين وثوابت الكون على خلاف ما هي عليه! وهذا فيه ما لا يخفى من العدوان على رب العالمين والحط على علمه وقدرته وحكمته، ومن مخالفة بداهة العقل نفسه! إذ ليس في العقل ما يمنع من أن يخلق الله بشرا هيئتهم كهيئتنا وصفاتهم كصفاتنا وتاريخهم كتاريخنا سواء بسواء، ومع ذلك يخضع عالمهم لقيم أخرى لتلك الثوابت نفسها! ولكن لأن القوم ظنوا أن مفاتيح أسباب الخلق قد آلت إلى أيديهم بتلك الأساطير الكوزمولوجية الواهية التي جمعوها لأنفسهم في مسألة النشأة، وكان من أصول دينهم الدهري القول بالسببية الطبيعية المغلقة، رأى كثير منهم أن بوسعهم أن يقرروا من طريقهم ما هو ممكن وما هو ممتنع مطلقا من أنواع الخلق وحوادث التهيئة في العوالم الممكنة (التي لا يجوز ما يجوز منها عندهم من الأساس إلا في إطار السببية الطبيعية المغلقة)! وهذا باطل تغني حكايته عن تكلف إبطاله!

أما نحن المسلمين أهل السنة والجماعة فنقول إنه ليس يجب على الله شيء البتة، لا في الخلق ولا في الرزق ولا في التدبير ولا في الحكم، إلا ما أوجبه هو على نفسه، لأنه سبحانه لا يخضع لشيء ولا لأحد من فوقه، وإنما يخضع له ولإرادته ومشيئته كل ما سواه! فليس في قوانين الطبيعة ما هو ضروري لوجود الحياة على الأرض، لا على هذا النحو الذي عهدناها عليه ولا على غيره، بمعنى أنه لا يجوز أن تخلق الحياة إلا بها وفي إطارها! فليست القوانين والطبائع التي نعرفها كلها – على أي حال – إلا أوامر وأقضية إلهية، تجري تحتها أسباب غيبية، لو شاء رب العزة لجعلها على غير ذلك، ولأخرج ما يشاء مما يشاء ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [القصص : 68]!

وقد كان براندون كارتر نفسه (الذي كان أول من حرر صيغة لما سماه بالمبدأ الأنثروبي في السبعينات) هو أول من استعمل مصطلح "بالضرورة" Necessarily استعمالا مضطربا، يخالف فيه اصطلاح المناطقة في هذه المسألة تارة ويوافقه تارة، إذ قال تحت ما سماه بالمبدأ الضعيف: "يجب أن نكون على استعداد لنأخذ في الاعتبار حقيقة أن محلنا من الكون هو بالضرورة متميز Necessarily Priviledged إلى الحد الذي كان معه ملائما لوجودنا كمراقبين Observers." اهـ. فقوله "بالضرورة متميز" أو متميز ضرورة، لا يراد منه هنا أكثر من إثبات حقيقة أنه أمر يقتضيه مجرد واقع وجودنا على ما نحن عليه حيث نوجد في هذا العالم! ولكن لو حملنا لفظة "بالضرورة" هنا على اصطلاح الضرورة عند المنطقيين، لأوهم بأنه أمر كان واقعا لا محالة بضرورة العقل Rational Necessity، وهذا ليس ما أراده كارتر هنا فيما يبدو، ولكنه مع ذلك ظهر في صياغة أخرى سماها بالمبدأ القوي، وكما في صياغة بارو وتيبلر، إذ قالوا: "إن الكون يجب أن يكون متحليا بتلك الخصائص التي تسمح للحياة بأن تتطور في مرحلة من مراحل تاريخه". فهذا الوجوب هو الضرورة العقلية المنطقية، وهو ما نرفضه لإيجابه ما لا يجب على رب العالمين سبحانه! فلو شاء سبحانه لخلقه على ما فيه من حياة بما فيها البشر، ولكن على ثوابت كونية مختلفة تمام الاختلاف! ولو شاء لما خلق فيه حياة أصلا! ومع ذلك أضاف كارتر "تفسيرا" لمبدئه القوي قال فيه إن وجود عوالم كثيرة Ensemble of Universes ضروري حتى يكون عالمنا واحدا منها (أي بالتأسيس على اعتقاد الطبيعيين في النشأة العشوائية وجوديا، الاحتمالية معرفيا)! وقد زعم فرانك تيبلر وجون بارو (الذين صنفا في الثمانينات كتابا سمياه المبدأ الأنثروبي الكوزمولوجي Anthropic Cosmological Principle) في إحدى صياغات المبدأ عندهما، أن وجود المراقبين Observers (على اصطلاح تأويل كوبنهاغن لميكانيكا الكم) ضروري Necessary حتى ينشأ كون Universe من الأساس! وهو ما يقتضي قلب السببية – كما لا يخفى - إن أريد بالمراقبين هنا بنو آدم، وأقل ما فيه أنه يوجب على الباري جل شأنه أن يخلق عالما فيه حياة حتى يكون ثمة مراقبون يحفظون وجوده كوانطيا!! وحتى براندون كارتر نفسه لما أراد أن يفسر صياغتيه الضعيفة والقوية (التي تقول بأن الكون وهذا كله خرف في خرف كما بينا في غير موضع.

وإنما نقول نحن المسلمين إن السماوات والأرض قد خلقهما الله على أحسن وأتقن ما يكون للقيام بالحكم والغايات التي أرادها من خلقهما، التي منها ابتلاء بني آدم بالتكليف، والقيام بما لا يحصيهم إلا هو سبحانه من أنواع المخلوقات الحية على الأرض، يأخذ بناصيتها ويرزقها وهي تعبده وتسجد له على ما يليق بها! هذا ما عندنا في المسألة دون كوزمولوجيا ولا ضرورة ولا ارتقاء ولا تأويل كمومي ولا شيء من ذلك الهراء، والله المستعان لا رب سواه!

[←61]

قال الدكتور في كتابه الجديد (المعلوماتية برهان الربوبية الأكبر) (ص. 12): "وترجعنا ثورة الثنائية الجنسية إلى إحدى أهم ثورات معالجة المعلومات، وهي ظاهرة الحياة ذاتها. ومهما كان مصدر الحياة، فإن آلية تخزين المعلومات في الشفرة الوراثية (الدنا DNA) وتكاثرها وتنوعها هي إبداع عظيم مسئول عما في عالم الأحياء المحيط بنا من جمال وروعة." اهـ. قلت: فبالنظر إلى حرص الدكتور في كتبه الأخيرة على استعمال ميتافزيقا المعلوماتية كمدخل لتمرير عقيدة التطور الموجه وغيرها من عقائد ذات صلة وتلبيسها بدين المسلمين، لم يجد الرجل مفرا من إرجاع كل ظواهر الحياة (اللهم إلا نفخة الروح التي خص بها الإنسان الأول وحده) إلى المعلومات المخزونة على الشفرة الوراثية، سواء النشط منها أو الخامل (على حسب الاعتقاد الذي ارتضاه فيما يتعلق بما وراء الجينات Epigenetics). فإذا كان الدراونة الدهرية يقولون بالحتمية الجينية حتى لا يتركوا للباري مدخلا إلى خلق الحياة وتدبيرها، فهو يقول بها هي نفسها حتى يتأول جميع ما يجري في نواة الخلية من عمليات بيوكيميائية على أنه "معلومات" لا يمكن أن يكون لها مصدر إلا الباري نفسه! وقد رأيناه يستحسن (في كتابه "كيف بدأ الخلق")، وكما يأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى، نظرية مفادها أن جميع المعلومات اللازمة لظهور جميع الأنواع الحية بلا استثناء، كانت قد كتبت و"شفرت" من قبل على الحامض النووي المخلوق في الخلية الأولى المزعومة التي هي سلف جميع الأنواع الحية عند الدراونة، ثم لم تزل تأتي الطفرات التطورية بتنشيط بعض تلك المعلومات وتثبيط بعضها الآخر، طفرة بعد طفرة!

ولا شك أن هذا من الإغراق في أنطولوجيا المعلوماتية تلك (التي أفردنا لها جزءا فيما يأتي معك)، إذ لا تصح في العقل نسبة النظام الحيوي إلى الاحتفاظ "بمعلومات" بشأن وظائف أخرى ليس هو قائم بها، لمجرد أننا نرى فيه من الأحماض الأمينية في نواة الخلية الحية ما لا ندري ما وظيفته ولأي شيء خلق! وإلا فما هي "المعلومات" هذه على أي حال، إن لم تكن هي معلوماتنا نحن البشر بشأن ما نراه من تلازم وترابط بين نظم حيوية معينة، وأغراض ووظائف عضوية معينة؟ إن كان المقصود معلومات عند الله عز وجل، أي المراد علم الباري جل شأنه، فما معنى الاعتقاد بكون العلم الإلهي مخزونا على الشفرة الوراثية؟ هذا يقتضي وحدة الوجود كما بينا! وإن كان المقصود أن الخلية الحية كالقرص الصلب في الحاسوب، قد سجلت عليها برامج حيوية لا علاقة لها بما تقوم به نظمها الحيوية الحالية من وظائف حيوية، فمن أين لهم بهذا القياس وما مستندهم في افتراضه؟؟ والحاصل أنه كلام فارغ على جميع التقديرات!

[←62]

ونحن نقطع بأن الأرض لم تخلق كما خلقت الكواكب التي زين الله بها السماء الدنيا، وبأنها ليست في منزلتها ولا تناظرها لا في الأصل ولا في الحقيقة ولا في المآل، وإنما خلقت الأرض خلقا مخصوصا مستقلا في يومين كاملين من الأيام الستة كما وصفه الله في القرآن، كما في قوله تعالى ((قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ)) [فصلت : 9]! فكيف تستوي الأرض – وهذه منزلتها ومنزلة خلقها عند الله جل شأنه – بتلك الكواكب السيارة التي قال فيها: ((إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)) [الصافات : 6]؟؟ هذا غير متصور عند من فهم نصوص الكتاب فهما سلفيا صحيحا، على طريقة من يتبعون الأثر في فهم النصوص، لا الرأي والهوى!

[←63]

وإن تعجب فعجب قولهم إن الإنسان هو المركز الغائي للكون وإن لم يكن هو المركز المادي! فما هي غاية ذلك المركز المادي وما أهميته حتى يصبح هو مركز الكون، وليس الأرض التي جعلها الله محلا لاستخلاف ذلك المخلوق الذي سخر له كل شيء؟؟ قال الله تعالى: ((وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) [النحل : 12] فكيف يستقيم أن تكون الأرض التي نؤمن نحن بأن الله قد سخر لنوع من أنواع ساكنيها جميع ما في السماء من نجوم وأجرام وأفلاك، لا تزيد على أن تكون هباءة تجري في فلك حول نجم لا قيمة له في طرف مجرة هامشية من بلايين المجرات السابحة في فضاء الكون، كما زعمه كوبرنيكوس وأتباعه؟؟ أعجز الرب، على عنايته البالغة بالأرض وبما اختصها به من غاية عظيمة لا يقاس عليها شيء مما خلقت من أجله الكواكب والنجوم، عن أن يجعلها هي مركز الكون الثابت في قلبه (كما تدلنا عليه الفطرة السوية)، وأن يجري كافة الأفلاك السماوية من حولها؟؟ سبحان الله وتعالى عما يصفون! أليس القول بكونها ساكنة راسخة في مركز القبة الكونية وبأن كل شيء في السماء يدور من حولها، كل في فلك يسبحون، أبلغ في الفطرة والبداهة في معنى كون كل شيء قد سخر للإنسان الذي يدب عليها تسخيرا كما أخبر الله تعالى، وأليق بتلك الغاية، من هذا التصور التهميشي التهويني التحقيري الذي لبس الكوبرنيكيون الأرض به تلبيسا؟!

بلى ولا شك! وإلا، فما هو مركز الكون إذن وما أهميته "الغائية" الكبرى حتى يكون هو المركز المادي الذي ندور نحن وأرضنا وشمسنا وقمرنا وكواكبنا على الحقيقة في فلك من حوله؟؟ ما هو الكون أصلا وما حدوده وما غايته؟؟ وكيف يتجه "غائيا" أن تخلق الأرض (التي هي مبعث الرسل ومنزل الوحي الإلهي ومهبط الكتب وهي محل التكليف والتسخير ومقر بيت الله الحرام ومحشر البشر يوم القيامة وفي كل ليلة من لياليها في المشارق والمغارب ينزل رب العالمين نزولا يليق به، وفي كل سنة من سنواتها القمرية ينزل كذلك سبحانه في يوم عرفة وتتنزل الملائكة والروح في ليلة القدر التي هي عند الباري خير من ألف شهر، و... إلخ!) بحيث تدور وتترنح مع الشمس والقمر وتلك الكواكب القريبة كلها في نظام واحد، حركة بهلوانية حول مركز آخر بعيد (مركز المجرة التي زعموا أننا لا نعدو أن نكون أهل كوكب سيار في مجموعة من مجموعاتها النجمية) دورة كاملة كل 230 مليون سنة؟؟! لا أقول إن هذا محال أو ممتنع في العقل، أن تخلق الأرض على ذلك النحو الذي يزعمه الكوبرنيكيون وأن تكون مع ذلك هي محل ذلك الذي ذكرناه كله وغيره عند باريها، ولكن بعيدا عن ثبوت ذلك من عدمه، فلأي حكمة وغاية يكون الشأن كذلك إن قدر ثبوته؟! وكيف سادت تلك الدعوى العريضة حتى صارت من المسلمات عند عامة المسلمين في هذا الزمان، التي يُستهزأ بمن يخالف فيها؟؟ وكيف يقرأ أحدهم تلك الآيات ونحوها ولا يستشعر عمق الفجوة بينها وبين مبدأ الوضاعة الأرضية الكوبرنيكي Copernican Mediocrity الخرافي المصادم للفطرة وللحدس الصحيح Intuition؟؟ هذا والله من أعجب العجب!

ومع هذا، قال الدكتور تحت عنوان "كوكبنا المتميز" (ص. 125): "إذا كان الكون تم إعداده لنشأة الحياة وظهور الإنسان، فمن باب أولى أن "كوكب الأرض" تم إعداده بشكل خاص ليكون محلا لظاهرة الحياة ومأوى للإنسان. وإذا كان من العلماء من يساوي بين الأرض وبين ملايين وربما مليارات الكواكب في الكون، ومن ثم يتنبأ بإمكانية وجود حياة عاقلة في العديد منها، فالكثيرون منهم يرون أن كوكب الأرض شديد التميز والتفرد، سواء في صفاته، أو في جيرانه من الكواكب، أو تابعيته لنجم الشمس المتميز، أو في وقوعه في موقع متميز في مجرة متميزة." اهـ. قلت: فيا دكتور، من اعتنق المبادئ الأولى للدين الطبيعي المعاصر، كالمبدأ الكوزمولوجي الكوبرنيكي القائل بأن جميع أنحاء العالم متساوية في النظم الطبيعية الجارية عليها، وأنه لا خصوصية للأرض إلا ما اتفق من وقوعها في حيز الغولديلوكس حول "النجم" الذي اتفق لها أن دارت في فلك حوله، ومن ثم تميزت بوجود الماء والغلاف الجوي وظهور الحياة، هذا يلزمه منهجيا أن يعتقد - على الأقل – جواز أن توجد كواكب في الكون (الذي هو عنده خلاء عظيم يستوعب الواقع كله، مشحون بالكواكب والنجوم تملؤه من الحد إلى الحد، إن قدر له حدا) قد اتفق لها نظير ما اتفق للأرض من ظروف، فنشأت عليها الحياة وارتقت كما يزعمون أنه حصل على الأرض! ومجرد التجويز هو نقض لدعوى التميز، لأن ما جاز عندي أن يكون له مثيل، فما وجه تميزه إذن؟! فالذي يقبل المبدأ الكوزمولوجي الدهري وما تأسس عليه من نظريات بشأن الكون بكليته ودعاوى غيبية عريضة عند الطبيعيين – كما قبلته أنت يا دكتور –، بأي حجة يأتي بعدُ لهؤلاء ويطالبهم بتفضيل الأرض وتمييزها على الكواكب السيارة التي جعلها كوبرنيكوس وغاليليو وأتباعهما كوكبا منها لا أكثر؟؟!

والعجيب أن الدكتور عندما عرج على مسألة وجود الحياة في كواكب أخرى، في سياق محاولته إثبات أن "العلم الحديث" قد انتهى إلى القول بتميز الأرض، زعم أن الذي عليه الطبيعيون هو أن الاحتمالية تكاد تكون معدومة! فيورد ما يسمى بمعادلة دريك Drake Equation، يزعم أنها قد انتهت بصاحبها إلى أن هذا الاحتمال "يعني احتمال وجود حياة خارج الأرض" يكاد يكون معدوما. وهذا غير صحيح بالمرة، ولا أدري من أين جاء به! وقد بسطنا الكلام على معادلة دريك هذه في آلة الموحدين فلن نعيد، ولكن خلاصة المسألة أن الرجل وضع معادلة لتقدير احتمالية وجود حضارات أخرى في الكواكب السيارة، ركبها من جملة من المتغيرات الخرافية التي ليس لواحدة منها طريق لتقديرها البتة! ولهذا عدها الفيزيائيون من فئة المعادلات التخمينية Conjectural. ومع ذلك فقد قام عليها مجال علمي كامل يقال له Astrobiology، وهو مجال أكاديمي جديد تخصص أصحابه في البحث عن آثار الحياة في الفضاء الخارجي، واهتم بها غاية الاهتمام من تخصصوا في مجال SETI وهو ذلك المجال "العلمي" المتخصص في تحليل الموجات الكهرومغناطيسية الوافدة إلى الأرض بحثا عن أي أثر لحضارة من حضارات اليوفو، كتلك التي حكيت قصتها في فيلم حرب النجوم وستار تريك وهذه الأشياء!! ولا عجب! أليس قد ألف لورانس كراوس كتابا سماه "فيزياء ستار تريك"؟! والقصد أن الزعم بكون المعادلة المذكورة تفيد باحتمالية معينة، فضلا عن اتخاذها مستندا لاعتقاد صاحبها (وغيره ممن استعملوها في كتبهم) ضعف احتمالية وجود حياة على غير الأرض، هو كلام من لا يدري عن أي شيء يتكلم!

[←64]

"مخ بولتزمان" هذا هو تخمينة دهرية طبيعية Naturalistic Conjecture تنسب إلى الفيزيائي النمساوي "لدفيغ بولتزمان"، حيث يقال لو فرضنا أن كان العالم في حالة اتزان حراري محض Thermal Equilibrium فلم يكن فيه تنقل لطاقة ولا مادة ولا غير ذلك، فإنه حتى تحت هذه الظروف، فمن المتصور إمكان أن تنشأ بالصدفة المحضة تقلبات أو اضطرابات كمومية Fluctuations نادرة الحدوث في ذلك الوسط المتعادل حراريا، بحيث يترتب على حصولها واجتماعها في أنحاء الكون أن تنشأ شبكة عصبية ضخمة تقوم بجميع وظائف المخ البشري، ومن ثم ينشأ عقل واع بنفسه وبالواقع الخارجي من حوله (طوال مدة بقائه قائما، ولو لم تمتد تلك المدة إلا لكسر من الثانية)! وبناء على أصول الطبيعية المنهجية في التعامل مع المنطق الاحتمالي Naturalist Probabilistic Reasoning، وتحديدا ذلك الأصل القائل بأن مصدر الحركات والحوادث كلها من الأزل وإلى الأبد إن لم يكن هو السببية الطبيعي فهو العشوائية الطبيعية، وإذن فأيما تركيب للمادة والطاقة يمكن حدوثه من أثر العشواء والقانون الطبيعي، فإذا ما مر من الزمان ما يكفي ومن الحركات العشوائية ما يكفي، فلابد أنه واقع لا محالة في مكان ما من أنحاء الكون الطبيعي اللانهائي، بناء على ذلك الأصل، إلى جانب الأصل القائل بأنه ليس في الوجود إلا المادة المحسوسة بأنواعها، وإذن فليس الوعي والعقل إلا عمليات عصبية مادية لا غير، بناء على هذين الأصلين الدهريين، أصبح ظهور المخ البولتزماني البدائي المزعوم هذا مسألة وقت لا أكثر، على أساس أن ما كانت احتمالية حدوثه أضعف، كانت مرات ظهوره أقل وعلى مسافات زمانية أبعد! وبناء على هذه الخرافة السخيفة قال قائل القوم بما معناه إنه لا مانع من أن نكون نحن كلنا من أولنا لآخرنا، ماضينا وحاضرنا، وهما كبيرا يتوهمه مخ بولتزماني ظهر لكسر من الثانية في عالم عشوائي بالغ الغاية في التعادل الحراري (أو موت الطاقة)! فتأمل كيف تقوم السفاهة فوق السفاهة حتى لا تدري من أين تبدأ في إبطال أساطير القوم ولا تدري من أي الخرافات تضحك ومن أيها تبكي، وقل الحمد لله على نعمة الإسلام والسنة! ((أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ)) [النور : 40]

[←65] الترجمة على هذا النحو توهم بأن المفسَّر هو العوالم المتعددة، والمفسَّر به هو ميكانيكا الكم، ولكن العكس هو الصحيح! ففكرة العوالم المتعددة إنما هي تأويل طائفة كبيرة من الطبيعيين للحال الذي عليه الواقع الذي تصفه دالة الموجة الاحتمالية. فالصواب أن يقال: "تأويل ميكانيكا الكم بالعوالم المتعددة".

[←66]
مهما تكلم اللاهوتي أو المتكلم بالمنطق الاحتمالي في قضايا الغيب المحض، فهو متلبس ضرورة بالدهرية المنهجية في منطق الاحتمالات Methodological Naturalism in Probabilistic Reasoning كما بينا ذلك مرارا في هذا الكتاب وغيره! فإذا تكلم أحدهم في الإلهيات بالاحتمالات، فقد أحال ربه وباريه من وجوب الوجود (الذي هو متفرد به ضرورة) إلى الاحتمالية التي هي وصفنا المعرفي للممكنات العقلية الواقعة تحت العادة Induced Contingencies (والممكن عادة هو درجة من الإمكان أدنى وأخص من مطلق الإمكان العقلي، إذ هو الإمكان الذي تحكمه عادة الناس)، ومن الحقيقة البدهية الضرورية إلى الفرضية التفسيرية الطبيعية المتكافئة Underdetermined Hypothesis التي لا يمكن إثباتها ولا نفيها أصلا، كما هو شأن جميع الفرضيات الطبيعية في غيب السماوات والأرض! فتأمل أي شر وفساد يرجع به اللاهوتيون والمتكلمون على اعتقاد الناس في باريهم جل شأنه وهم مع ذلك يزعمون أنهم ينصرونه! وإنما ينتصرون لأنفسهم ولعقولهم ولنظرياتهم التي نافسوا بها الفلاسفة على التحقيق!

[←67]

ويعقب الدكتور في الحاشية فيقول: "هذا رأي د. عبد الصبور شاهين، ويختلف مع ما توصل إليه العلم." اهـ. قلت: يريد أن يقول: إذا كان الدكتور يجعل آدم سليلا للبشر ويجعل ذلك البشر نوعا مخلوقا من طين، فالذي عليه النظرية أن القردة العليا لم تخلق إلا من سلالة أنواع أخرى أحط منها، وهكذا وصولا إلى الخلية الأولى المزعومة، التي قد يقال فيها تجوزا، على عقيدة الدكتور، إنها خلقت من طين! ولا شك أن الأسطورة التطورية التي يعتنقها الدكتور عمرو على تمامها وبحذافيرها، ليس فيها شيء مخلوق من الطين أصلا! لا آدم ولا البشر الذين يعتقد أنه من سلالتهم، ولا القردة التي هي سلف ذلك البشر عنده، ولا سلف ذلك ولا سلف سلفه، وهكذا علوا إلى الخلية الأولى المزعومة! وإنما غاية الدكتور أن يقول إن النظرية السائدة الآن أكاديميا في نشأة تلك الخلية الأولى نقول بأنها خلقت في بحيرة أو في قاع بحر من البحار، من بروتينات خلقت في الطين في قاع تلك البحيرة، مثلا، أو يخترع لنفسه أي تخريفة ترقيعية من هذا القبيل! فإذا بلغت به الجرأة مبلغها، فلعله ذهب للقول بأن تلك النظريات (المسماة عموما بنظريات Abiogenesis أو نشأة الحياة نفسها في صورتها الأولى) لا وزن لها ولا قيمة لأنها قضية غيبية! أما التنظير فيما جرى لتلك الخلية الأولى المزعومة من استنواع في ذريتها، تدرج على الصورة المعتمدة حاليا في التاريخ الطبيعي، وصولا إلى تلك الأنواع التي نعرفها اليوم، فهذا ليس غيبا على الإطلاق! هذه عملية نراها بأعيننا وفي معاملنا كل يوم! فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل!

ولا يخفى أن مذهب الدكتور عمرو، على هذا الذي قرره، أغرق من مذهب الدكتور عبد الصبور في الزيغ والضلال وفي مصادمة صريح القرآن وما هو معلوم بالضرورة من دين المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولكن بالنظر إلى كون الدكتور عمرو إنما اشتهر بين الناس على أنه متخصص في العلوم الطبيعية إجمالا، وعلى أنه صاحب تصانيف وجهد كبير في محاربة الإلحاد، وصار له تابع عريض في بلاد المسلمي من أجل ذلك، لم يظهر ضلاله للعامة ولم ينتبه إليه الخاصة من أهل العلم إلى الآن، خلافا للدكتور عبد الصبور الذي كان أستاذا في اللغة العربية في دار العلوم، وكان كتابه ذاك هو أول احتكاك له بتلك القضايا في حياته كلها، فجاء صادما لتلامذته وأقرانه، خلافا لكتب الدكتور عمرو، والله المستعان!

[←68]
وبنفس هذا التأويل الجهمي للفظة "سواه" في آية السجدة، قال الدكتور مصطفى محمود في حلقة من حلقات برنامجه "العلم والإيمان"، إذ قال:

> وبعدين دي مزعلة الناس ليه؟ يعني أنا مش فاهم اللي بيرفضوا التطور على أي أساس؟ على أساس إنه ضد الدين؟ إزاي؟ هو تحسين الخلقة وتعديلها للوصول بها إلى مستوى التكامل الوظيفي، والتناغم مع البيئة، ده ده منتهى العناية من ربنا بمخلوقاته! إنه يستنبط سلالات من سلالات وعبر تزاوج وعبر ملايين السنين يطلع بنوعيات أحسن، دي فيها إيه؟ دي بالعكس دي تدل على عناية ربنا سبحانه وتعالى! الكلام عن نشأة الإنسان هي سر المعركة! لأن فيه البعض بيؤكد وبيفهم القرآن بمعنى واحد إن هو الإنسان ما رجعش من سلالة سابقة ويوم ما جيه جيه بنشأة مستقلة! نشأة مستقلة! في الواقع إحنا مش عاوزين نخليها معركة، هي ماهياش معركة، وما يصحش تكون معركة، لأن أنا قلت قبل كده القرآن ليس مع وليس ضد! إنما القرآن حمال أوجه! وآيات الخلق فيه آيات مشتبهات، تحتمل أكثر من وجه من وجوه التفسير! ربنا سبحانه وتعالى آل (قال!)، خلق الإنسان من طين، ما هو طبعا من طين! كل المخلوقات، خلق كل دابة من ماء! كله جاي من التراب والمياه والطين! كله، ده مؤكد! لكن، آل فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، طب كلمة التسوية دي تحتمل ما شئت من تفسير لأن كلمة التسوية، هل تمت التسوية في ذات المخلوق، والا عبر، استخلص من سلالات، ما تقدرش لأن الآيات تحمل وجوه كثيرة، يعني يمكن تيجي آية ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا، طيب جت معنى الأطوار، يعني مثلا، الله أنبتكم من الأرض نباتا، فالقرآن يحمل أكثر من وجه من وجوه التفسير وآيات الخلق مشتبهات، وما يصحش نحمل القرآن ما لا يحمل. لأن القرآن لا هو ضد ولا مع! إنما يحتمل البحث ويحتمل الدرس، وربنا آل قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق! فلو كان هو من طين، فليه قال سيروا في الأرض وانظروا؟ يبأى إذن البحث في الكيفية! الكيفية، اللي هي التسوية، اللي هي فإذا سويته، يبأى هنا الكيفية اللي فيها اللغز، وربنا آل لنا سيروا في الأرض وانظروا كيف بدأ الخلق، كيف تمت التسوية؟ هل في ذات المخلوق، أو تم استخلاصه من سلالات سابقة، فدي مسألة رهن البحث والقرآن لا ضدها ولا معاها، القرآن بشكل محايد جدا بيتكلم عن نشأة المخلوقات كلها من طين! قل .. خلق كل دابة من ماء، خلاص! يبقى القضية قضية التسوية، قضية تسوية إحنا ربنا أمرنا بالبحث فيها والنظر والسير والنظر! فأنا ضد إنك أنت تاخد موقف وتحول القرآن ضد العلم! ده خطأ خطأ فظيع!! خطأ فظيع وما يصحش أبدا يحصل في القرآن لأن القرآن كتاب محكم شديد الإحكام. وما دام آيات الخلق جات تحتمل أكتر من وجه من وجوه التفسير، فدي حكمة ربنا عشان يطلق العقول، ويطلق الإيدين، ويخلي الإنسان يعمل تجارب ويشوف وعلماء الوراثة ويقعد يعمل تهجين ويقعد .. فليه تيجي واحد يقول لك يمسك أيدك ويقول لك ما تفكرش أو يقول لك لأ ده مش عارف حرام، حرام فين؟؟ إنك تحمل القرآن ما لا يحتمل وتجعله ضد شيء أو مع شيء، بينما هو محايد جدا في الأضية دي، وآل لك سير أنظر! قل سيروا في الأرض، وانظروا كيف بدأ الخلق! فإيه لازمة المعركة؟؟ القرآن يحتمل العلم ويحب العلم ويحض على العلم ويأمر بالعلم وعاوز العقول تفكر، ده في كل القرآن من أوله لآخره أفلا يتفكرون، أفلا يفقهون، في كل حتة!

قلت: قوله "هو تحسين الخلقة وتعديلها للوصول بها إلى مستوى التكامل الوظيفي، والتناغم مع البيئة، ده ده منتهى العناية من ربنا بمخلوقاته! إنه يستنبط سلالات من سلالات وعبر تزاوج وعبر ملايين السنين يطلع بنوعيات أحسن، دي فيها إيه؟ دي بالعكس دي تدل على عناية ربنا سبحانه وتعالى!" قلت: قد رددنا في غير هذا الموضع على بدعة الدكتور مصطفى محمود في جعل التطوير والتحسين في الخلقة على أصل منحط، من صفات الكمال في حق الله تعالى، فلا نعيد!

قوله: "لأن فيه البعض بيؤكد وبيفهم القرآن بمعنى واحد إن هو الإنسان ما رجعش من سلالة سابقة ويوم ما جيه جيه بنشأة مستقلة! نشأة مستقلة!" قلت: البعض؟؟ سبحان الله العظيم! فهم السلف وقرون المسلمين كافة وصولا إلى القرن الماضي، الذي هو من المعلوم من دين المسلمين بالضرورة، هذا يقال فيه "البعض بيفهم القرآن بمعنى واحد"؟؟ فأي شيء بقي إن سمحنا بهذا؟؟ ننتظر من يأتي غدا ليقول إن البعض فهم من القرآن أن المؤمنين يدخلون الجنة وأن الكافرين يدخلون النار، مثلا؟؟ أو يقول إن البعض فهم من القرآن أن الله واحد لا شريك له؟؟ حسبنا الله ونعم الوكيل!

قوله: "في الواقع إحنا مش عاوزين نخليها معركة، هي ماهياش معركة، وما يصحش تكون معركة، لأن أنا قلت قبل كده القرآن ليس مع وليس ضد! إنما القرآن حمال أوجه! وآيات الخلق فيه آيات مشتبهات، تحتمل أكثر من وجه من وجوه التفسير!" قلت: هذا والله من أضل الضلال، نسأل الله السلامة! أن يقال إن جميع ما نزل في القرآن في بابة معينة هو من المتشابه وليس فيه محكم البتة، ولم يعلم المسلمون حقيقة معناه لا من النبي عليه السلام ولا من أصحابه ولا من تلامذتهم وصولا إلى القرن الميلادي العشرين، هذا يقتضي نسبة جميع ما نزل من الوحي في تلك البابة إلى العبث واللغو الذي لا قيمة له، وجوده كعدمه، لا يترك الأمة إلا وكأنها ما نزل عليها فيه شيء أصلا، سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا! ولا أدري والله بأي حق استجاز هؤلاء الأطباء والفيزيائيون والجيولوجيون ومن شاكلهم الكلام في كتاب الله جل وعلا تفسيرا وتأويلا، هذه الآية محكمة وهذه متشابهة وهذه إشارة لكذا وهذه علامة على كذا وهذه يؤخذ منها كذا وكذا .. إلخ، من غير أن يحققوا من العلم به ما لا يسع عامة المسلمين جهله؟؟ والله حتى هذا القدر الواجب على الأعيان من تعلم القرآن ما حققوه، وما علم عنهم السعي في طلبه يوما من الدهر! ووالله لو أنك سألت أحدهم ما معنى قوله تعالى "والذاريات ذروا" أو قوله "والعاديات ضبحا" لغاط في محله!! فأي كبر فوق هذا؟؟ نسأل الله السلامة!

تأمل بربك كيف حكم بأنها متشابهات! قال: "ربنا سبحانه وتعالى آل (قال!)، خلق الإنسان من طين، ما هو طبعا من طين! كل المخلوقات، خلق كل دابة من ماء! كله جاي من التراب والمياه والطين! كله، ده مؤكد!" قلت: أين في القرآن قال الله "خلق الإنسان من طين"، بفتح اللام في "خلق"؟؟ ليس هذا في كتاب الله والله! وإنما قال تعالى: ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)) [السجدة : 7]، وهي صريحة في أن نوع الإنسان كان مبدأ خلقه من الطين، وهو خلق آدم عليه السلام بخصوصه! فعندما يقول الدكتور "ما هو طبعا من طين" فما فائدة الآية إذن، وما الذي أضافته لمعرفتنا؟؟ لا شيء! كل المخلوقات مخلوقة من ماء، ففي أي لغة وبأي عقل يقال إن الماء هو الطين والطين هو الماء؟؟ "كله جاي من التراب والمياه والطين"، ما شاء الله! فليقل الله إذن في القرآن ما يشاء، سنأتي نحن بنظرياتنا على أي حال، ثم نتأول كلامه على أنها هي المقصودة أيا ما كان اللفظ، وأيا ما كان فيهم

السابقين له الذي أجمعوا عليه ولم يعرفوا غيره، ثم إن سئلنا قلنا إن البابة كلها متشابهة وأرحنا رؤوسنا! هذه هي الخلاصة!

قوله: "لكن، آل فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، طب كلمة التسوية دي تحتمل ما شئت من تفسير لأن كلمة التسوية، هل تمت التسوية في ذات المخلوق، والا عبر، استخلص من سلالات، ما تقدرش لأن الآيات تحمل وجوه كثيرة، يعني يمكن تيجي آية ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا، طيب جت معنى الأطوار، يعني مثلا، الله أنبتكم من الأرض نباتا، فالقرآن يحمل أكثر من وجه من وجوه التفسير وآيات الخلق مشتبهات، وما يصحش نحمل القرآن ما لا يحمل"، قلت: ما شئت من تفسير؟؟ ما شاء الله! التسوية في قوله "سويته" (العائدة على آدم عليه السلام)، يمكن أن تكون تسوية في آدم بعينه أو تسوية في سلالة من القردة وصولا إليه، أو ما شئت من تفسير! حمال وجوه القرآن، ما شاء الله! ففي أي لسان من ألسنة العرب الذين نزل عليهم القرآن، بل وفي أي لغة من لغات البشر عامة، يقال فعلت بفلان كذا وكذا، ويراد فعلت به وبأبيه وجده وجميع سلفه وصولا إلى أقدمهم؟؟ الهاء في سويته تعود على آدم عليه السلام بعينه، لا على سلالته أو سلف متقدم عليه أو ذريته أو غير ذلك، وهذا لا يماري فيه طالب في الابتدائية! وكذلك العجمة في فهم لفظة "أطوارا"، إذ جعل المراد منها "تطورات" أو "تطويرات" داروينية عبر الأجيال، مع أن الأطوار في لسان العرب لا علاقة لها بالتحسين و"التطوير"! وعلى التفسير الذي أجمع عليه السلف رضي الله عنهم ولم يعرف لهم فيه مخالف، فالأطوار هي انتقال الجنين في الرحم من طور من أطوار النمو إلى الذي يليه، وهي أحوال لا يقال فيها إن اللاحق منها أكثر "تطورا" من السابق (على معنى التطور الدارويني) وإنما يقال إنها مرحلة متأخرة (أو طور متأخر) من مراحل نموه في الرحم، التي لا يكون بشرا إنسانا إلا بعد تمامها وخروجه من بطن أمه. أي أنه في جميع تلك الأطوار لا يزال قيد الخلق والتصوير والتسوية، حتى بعدما تنفخ فيه الروح بعد مئة وعشرين يوما من ابتداء خلقه وتصبح له أحكام النفس المنفوسة في بطن أمه! ولهذا قال تعالى ((خلقكم أطوارا)) أي جعل خلقكم في بطون أمهاتكم طورا بعد طور، يمر كل إنسان (من حيث الأصل) بتلك الأطوار في خلقه هو بعينه حتى يخرج وقد اكتملت خلقته على أحسن تقويم!

وأما نظرية داروين، فالأطوار فيها ليست في مراحل خلق الفرد المخلوق المعين، وإنما يكون الطور الأول فيها مخلوقا يخرج إلى العالم على نحو منحط ناقص لا يقوم بالمطلوب، ثم يأتي الطور التالي في مخلوق آخر من نسله يكون أكمل منه، وهكذا، بما يحصل به الانتواع و"التطور" والترقي التدريجي في الحشوة الحية عبر بلايين السنين! فكيف يستقيم في لسان العرب أن يقال في هذا التصور "خلقكم أطوارا"؟؟ لو صح ما يريد للزم أن يقول "خلق نوعكم أطوارا" أو "خلقكم بالتطوير على أسلافكم" أو نحوا من ذلك! إذ على مذهب الدكتور، فلسنا من أبينا آدم وإلى أن تقوم الساعة إلا طورا واحدا من أطوار نظرية داروين! فكيف يقال لنا، ونحن المخاطبون بالقرآن بأعياننا: "خلقكم أطوارا"، أي خلقكم أنتم أيها المخاطبون، على أطوار؟؟ لم يخلقنا نحن إذن أطوارا، وإذن فلا موعظة ولا فائدة في قوله ((مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)) [نوح : 14] [نوح : 13]، والله المستعان! بل لو صح أن كانت الأطوار هي أنواع الهومينيد في تلك الأسطورة الداروينية الخبيثة، لما كان في ذكرها ما يوجب التوقير أصلا، إذ يكون قد بدأ خلقنا بأنواع منحطة غاية الانحطاط، ثم أخذ يعدل عليها طورا بعد طور حتى أخرج أبانا آدم من فرج قردة ممسوخة الخلقة! فبالله أي توقير يلتمس من تذكيرنا بهذا الأصل العبثي البائس المزعوم؟؟ سبحان الله وتعالى عما يصفون علوا كبيرا!

قوله: "وربنا آل قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق! فلو كان هو من طين، فليه قال سيروا في الأرض وانظروا؟ يبأى إذن البحث في الكيفية!" قلت: أولا، لم يقل سبحانه "وانظروا" وإنما قال فانظروا! فهلا تكلفت – على الأقل – أن تكتب الآية التي تريد التهوك عليها على قطعة من الورق أمامك لتقرأ منها أثناء التصوير؟؟ ثانيا: هذه الفرية على آية العنكبوت لم أر جهميا من جهمية الطبيعيات المعاصرين إلا وهو متلبس بها، والله المستعان! الآية لا علاقة لها بهذا النوع الفاسد من النظر في الغيبيات ولا يمكن في العقل أن يكون هو مراد الرب منها جل وعلا! وإلا فأين قيام الصحابة بل أين قيام النبي نفسه، صلى الله عليه وسلم، بذلك المراد المزعوم وأين سيرهم ونظرهم في أصول الأنواع وفي الكيفية التي خلق الله بها الكون وسوى بها الأنواع الحية على الأرض؟؟ وهل يجوز أن يعتقد المسلم العاقل أن جميع المسلمين هلكوا دون أن يقوموا بما كلفهم به ربهم، حتى جاءهم الفيلسوف الطبيعي الدهري أخيرا بما فيه الاستجابة لذلك التكليف المزعوم؟؟ على دين مصطفى محمود ومن شاكله من جهمية العصر، نعم يجوز ولا إشكال! قوم جهال متخلفون "بدائيون" نزل عليهم كتاب لم يفهموه، حتى جاء العلم الحديث فمكننا أخيرا من فهم ما ماتوا جميعا وهم فيه على جهل مركب، يحسبون أنهم يفهمون مراد الله من كلامه مع أنه ليس فيهم رجل واحد يفهمه! وإذن فأهل كل قرن من المسلمين يكون دينهم على قدر ما عندهم من علوم الطبيعة، أو بالأحرى من نظريات غيبية ميتافزيقية تعد من جملة العلوم! وإذن لزم أن يكون الأكمل دينا في هذه الأمة ليس هو محمد صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ولا أتباعهم وصولا إلى قرننا هذا، بل الأكمل دينا هم الأغرق في موافقة الطبيعيين في نظرياتهم التي لم يأتوا بها بعد، أي تلك التي يرجى لها أن تكون هي الأكمل والأحسن في موضوعها من حيث الصنعة الطبيعية نفسها، وهذا لا حصول له أصلا، إذ ليست نظريات القوم في الغيبيات مما يجري التقلب فيه من بارادايم إلى آخر على سبيل التطوير والزيادة في مطابقة الواقع، كما بسطنا الكلام عليه في هذا الكتاب!

فتأمل كيف بدع هؤلاء المستكبرون المفتونون من أذناب الطبيعيين لأنفسهم دينا طبيعيا متأسلما لم يعرفه الصحابة رضي الله عنهم ولم يتعلموه عن إمامهم ورسولهم صلى الله عليه وسلم، وإلى الله المشتكى! الله تعالى يقول إن خلق آدم عليه السلام بدأ من طين لازب، ومن صلصال كالفخار من حمأ مسنون، خلقه وسواه بيده، ثم يأتي جهمية هذا العصر ليقولوا "فلو كان من طين فليه قال سيروا في الأرض وانظروا؟"!! فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل! يقول " يبأى إذن البحث في الكيفية! الكيفية، اللي هي التسوية، اللي هي فإذا سويته، يبأى هنا الكيفية اللي فيها اللغز، وربنا آل لنا سيروا في الأرض وانظروا كيف بدأ الخلق، كيف تمت التسوية؟" قلت: أي تسوية هذه التي يأمرنا ربنا في القرآن بالبحث في كيفيتها؟؟ تسوية آدم من الطين؟؟ أم تسوية الخلية الأولى الداروينية المزعومة من الطين؟ وهل تزعم أنت لنفسك أو لغيرك من الدراونة أنكم قد انتهيتم إلى معرفة تلك الكيفية؟؟ أعني كيفية تحويل المادة الميتة (الطين) إلى مادة حية؟؟ ألست تشهد على نفسك في غير موضع من حلقاتك، بأن ذلك ممتنع وأنه لم يصل إليه أحد ولا يوصل إليه أصلا؟؟ فأين عملكم أنتم إذن بقوله تعالى ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)) [العنكبوت : 20]؟؟ أليس بدء الخلق عندكم هو خلق الخلية الأولى المزعومة؟؟ فأين نظركم أنتم في كيفية ذلك؟ هلا أتحفتمونا بما تبرأ به ذمتنا من ذلك التكليف العجيب؟ سبحان الله العظيم! ليس عندكم في نظريتكم شيء مخلوق من الطين أصلا، فكفاكم كذبا وتلبيسا! وإنما لم تزل الأنواع تخلق من بعضها البعض وصولا إلى خلية أولى مزعومة خلقت في الماء من بروتينات وأحماض أمينية هائمة عالقة في ذلك الماء! فأين الطين في تلك القصة ومن أي مدخل يوصل إليه؟ لم يجد الرجل إلا الكلام الهلامي عديم القيمة، يجعل الماء هو الطين، ويقول ما حاصله: من ماء أو من طين أو من تراب، لا فرق! يقول: "القرآن بشكل محايد جدا بيتكلم عن نشأة المخلوقات كلها من طين! قل .. خلق كل دابة من ماء، خلاص! يبقى القضية قضية التسوية، قضية تسوية" قلت: ماء، طين، تراب، لا يهم! المهم أن

تكون "كيفية" الخلق (أو التسوية) في اعتقادنا هي على ما جاء به التطوريون لا على خلافه! فبالله هل رأيت تلبيسا فوق هذا التلبيس؟ نسأل الله السلامة!

قوله: " فأنا ضد إنك أنت تاخد موقف وتحول القرآن ضد العلم! ده خطأ خطأ فظيع!! خطأ فظيع وما يصحش أبدا يحصل في القرآن لأن القرآن كتاب محكم شديد الإحكام" قلت: أي علم يا مسكين؟؟ هذا الخرف والهذيان والله لهو من أشد الكلام بعدا عن العلم والعقل جميعا، لو كنتم تعقلون! القرآن ضد أساطير الطبيعيين وميثولوجيا الدين الطبيعي وليس ضد العلم! ثم أي إحكام هذا الذي تزعم أنك تنسبه إلى القرآن وقد صيرت آيات الخلق كلاما مجازيا فضفاضا يحتمل جميع نظريات الطبيعيين في نفس الأمر أيا ما كانت؟ أهذا مسلك من يرى في القرآن إحكاما يا رجل؟؟ يقول: " وما دام آيات الخلق جات تحتمل أكتر من وجه من وجوه التفسير، فدي حكمة ربنا عشان يطلق العقول، ويطلق الإيدين، ويخلي الإنسان يعمل تجارب ويشوف وعلماء الوراثة ويقعد يعمل تهجين ويقعد .." قلت: على هذا التقعيد، يلزم ألا يكون في القرآن إحكام أصلا، لأننا إن سلمنا بالتشابه حيث يزعم الدكتور وقوعه، فالمتشابه إنما يفهم بالإرجاع إلى ما في القرآن نفسه من إحكام في نفس الأمر في مواضع أخرى! يحمل المتشابه على المحكم حتى يفهم على وجهه الصحيح! وأما هؤلاء، فصدق الذي قال فيهم في القرآن نفسه: ((هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ)) [آل عمران : 7]! ويا ليت هؤلاء بلغوا أن يكونوا من متتبعي المتشابه! بل والله ما عرفوا حتى معنى كلمة متشابه، والله المستعان! المتشابه عند الدكتور يعني أن تأتي إلى اللفظ الذي لك غرض في تلبيسه بنظرية عندك، فتجعلها هي المراد منه، بصرف النظر عما في كتب المفسرين وما أثر عن الأولين، وعن جميع قواعد اللغة وأصول التفسير، ثم تقول: هذا متشابه والقرآن حمال أوجه، وهذا هو الوجه الذي ظهر لي في التفسير، ولكل اجتهاده ورأيه فلا تتشنجوا ولا تتشددوا في الاعتراض علي! قلت: فبالله أي قيمة تبقى لآيات الكتاب على هذا المسلك الباطني الخبيث؟؟

الخلاصة: دعوني أعبث كما يحلو لي، أفهم من القرآن ما يحلو لي، ولا تتشددوا ولا تتطرفوا، فالقرآن حمال أوجه، والأمر واسع! فإنا لله وإنا إليه راجعون!

قوله: "ده في كل القرآن من أوله لآخره أفلا يتفكرون، أفلا يفقهون، في كل حتة!" قلت: ليس في القرآن قولك "أفلا يفقهون" هذه في أي موضع منه البتة، والله المستعان! ولكن إن جئت أمثاله بهذا التنبيه، فيقينا سيهزأ بك ويقول: "يا أخي المهم المعنى، ما أضيق عطنكم أيها المتطرفون!!" فنقول: لا والله، ولا المعنى له عندك من العصمة ما تتوهم أنت أنك تجعله له، وإلا ما بدعت تلك البدع التي لا سلف لك بها في فهم القرآن! فالحمد لله الذي عصم سلفنا رضي الله عنهم، ومن تتلمذوا عليهم وتشبعوا بمنهجهم من بعدهم، من أن يتساهلوا هذا التساهل في القرآن، إذن لكنا اليوم في ديننا في أمر مريج! لو كان سلفنا على طريقة هذا الرجل وغيره من جهمية العصر لكنا اليوم على دين غير الإسلام، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! وهذه والله نعمة عظيمة قل من يتنبه إليها ويؤدي شكرها من المسلمين، نعمة عصمة منهج السلف وإجماعهم من الزيغ والانحراف ومن هذا التساهل والتفريط الفاحش في رواية ألفاظ الوحي ومعانيه! تلك هي النعمة التي حفظ الله بها هذا الدين من أن يصيبه ما أصاب ملل السابقين من أمم المرسلين، ولولاها ما كنا نحن اليوم مسلمين، فالحمد لله رب العالمين!

[←69]

قال الدكتور في صفحته على الفيس بوك:

"قال لي أحد أقطاب الخلقويين: إن بعض الشباب ألحد بعد أن تابعك وتابع د. عدنان إبراهيم. وافقته! وأكدت له صحة ما قال! ثم سألته: أفهم أنكم عندما تضربون العلم بالدين فإن الشباب الذي يثق في العلم سوف يلحد لكن لماذا يلحد الشباب عندما يوفق د عدنان وأنا بين العلم والدين!! هل لديك تفسير؟ لم يحر القطب الخلقوي جواباً. قلت له: أنا أجيبك إن الذين ألحدوا عندما اطلعوا على طرحنا العلمي، هم هؤلاء الذين زرعتم في عقولهم منذ الصغر باسم الدين مفاهيم مغلوطة عن الحياة والإنسان، وعندما اطلعوا على كلمة العلم في الموضوع أدركوا خطأ الدين الذي زرعتموه في عقولهم، فألحدوا به. أي أن سبب إلحاد هؤلاء هو أنكم صورتم لهم ديناً غير ما أنزل الله، وعندما بين لهم طرحنا أن هذا الدين الذي ربيتموهم عليه يعارض صحيح العلم ، ألحدوا به." اهـ. قلت: الله أكبر! "كلمة العلم في الموضوع"؟؟ لا والله ليس علما ولا قريبا منه، بل هو محض الدين الدهري الطبيعي الذي تعبد فيه الطبيعة وقانونها من دون الله! وسيأتي معك، أيها القارئ الكريم، بيان منتهى ما وصل إليه الرجل من "أسلمة" الدين الطبيعي الربوبي الاتحادي في كتابه الأخير، وهو ما إذا انضاف لما ترى من إهدار فهم المسلمين لنصوص دينهم، كان المحصول حمأة لا يتصور لمن أغرق فيها وفي الكتب التي أحال الدكتور عليها في تأسيسها إلا أن يهلك على الإلحاد، نسأل الله السلامة!

[←70]

وهذا غلط منهجي في مخاطبة الماديين، إذ هم ما قالوا بالنشأة التطورية إلا جريا على دهريتهم المنهجية كما بينا! فكيف يرام إقناعهم بأن نظريتهم تدل على وجود الباري مع أنهم ما انتهوا إليها إلا بعدما استصحبوا القول بعدم وجود غيب أصلا؟! لا يجوز التنزل في هذا المقام دون بيان ذلك الفرقان المنهجي الكلي العظيم، فلينتبه لهذا!

[←71]

وبناء على هذا التعريف، نبطل قول تلك الفئة من الطبيعيين التي ذهبت إلى دراسة ما سموه بتجارب الاقتراب من الموت Near Death Experience، حيث بحثوا في حالات دخل فيها المريض في غيبة عن الوعي (غيبوبة) توقف فيها قلبه عن النبض لفترة، ثم عاد للنبض من جديد على أثر الإنعاش القلبي الذي أجراه عليه الأطباء. فيقول قائل هؤلاء بعدما يفيق، إنه رأى وكأنه في نفق مظلم، وفي نهايته ضوء ساطع، وكأنه يقبل عليه، أو رأى نفسه قبل ذلك وكأنه محلق في سقف الغرفة، ينظر إلى نفسه والأطباء يحاولون إفاقته! فكل ذلك لا يصح – شرعا ولا عقلا – أن يقال إنه كان تجربة موت أو اقتراب من الموت، لأن الموت هو فقدان الوعي على نحو لا ترجى معه الرجعة منه، والحال أن هذا قد رجع وأفاق، فما رأى موتا ولا اقترب منه! وأيا كان ما يرجع به من قصص ومزاعم بشأن ما رأى فلا علاقة له بالموت أصلا! ولكن لأن الطبيعيين عرفوا الموت تعريفا ماديا لا علاقة له بشيء مما عند أهل الملل الأخرى، فقد جعلوا تلك الوقائع مشاهدات تفيدهم في "فهم الموت" ومعرفة حقيقته وكيفية منعه أو عكسه، والله المستعان!

[←72]

يعلق عند هذا الموضع في الحاشية ويقول: "حديثي هنا عن التطور كحقيقة عملية، وليس عن نظرية التطور الدارويني العشوائي." وهو تقرير لمذهبه الفاسد في التفريق بين نظرية التطور الدارويني الموجه التي يسميها (خلافا لجميع من ينتصر لبضاعتهم من البيولوجيين) "بحقيقة التطور" وبين نظرية التطور الدارويني القائم على مبدأ التطفر العشوائي ومبدأ الانتخاب الطبيعي التي يسميها "بنظرية التطور الدارويني العشوائي"! وقد أطلنا النفس في نقض فلسفته المتهافتة في تلبيس نظرية التطور الموجه بلبوس الحقيقة العلمية.

[←73]

ولا ينقض عجبي، كيف يعد مبرهنة فيثاغورس من جملة "النظريات العلمية"، بل من نوع نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي - فلا يفرق بين المبرهنة الجيومترية Geometric Theorem والنظرية التفسيرية Explanatory Theory -، من مر، ولو من باب القراءة العابرة، يوما من الدهر، على شيء من مصنفات فلاسفة العلم الطبيعي وكبار النظار في هذا الشأن، بل حتى من يعرف ما هي مبرهنة فيثاغورس هذه نفسها! انظر في حال نفسك لتعرف من "العامي" في هذه البابة حقا يا دكتور، قبل أن تتهم غيرك بما أنت أولى الناس به، والله المستعان!

[←74]
وإن كان قد نقل فيما نقل كلاما فلسفيا عن الغزالي في التفريق بين روح الإنسان وروح الحيوان، ما أنزل الله به من سلطان، خلاصته وحاصله أن الإنسان فيه روحان، روح نورانية وروح حيوانية، فزعم أن الأولى من خصوصيات بني آدم، والثانية مما هو عام في جميع الحيوانات! ثم فرق الغزالي بين حقيقة هذه وحقيقة تلك، وخصص الوعي والإدراك وقابلية التكليف والعلم بحق الله تعالى بالروح النورانية الإنسانية (النوع الأول)، فترتب على ذلك نزع جميع تلك الصفات عن أرواح الحيوانات، وهذا خلاف ما هو صريح في القرآن من كون الأنواع الحية كلها تعرف لله حقا عليها، تسبحه وتسجد له على نحو لا نفقهه، وما جاء صريحا من خطاب سليمان عليه السلام للهدهد والنملة! فلما وقع الدكتور على ذلك التفريق المتنطع، راق له جدا، إذ رأى فيه ما يصلح أن يكون مدخلا لتقرير أن الإنسان إنما هو حيوان من جملة الحيوانات، قد اختصه الله بنفخ تلك الروح النورانية، فصار بذلك عاقلا عابدا مدركا مؤهلا للخلافة في الأرض!
ويزيد الدكتور في اختزال معنى الروح وتخصيصها بالإنسان معطلا مزيدا مما يتعلق بها من معان ثبوتية عند المسلمين، فيجعل الروح الحيوانية تلك هي نفسها الحياة التي في النبات، حتى لا يبقى إلا أن يكون الإنسان مختصا بالروح المنفوخة، وأما ما سواه من الأنواع الحية، حيوانات ونباتات، فجميع ذلك لا روح فيه إلا تلك الحياة المادية الميكانيكية التي تنقطع بموت الخلايا! يقول (ص. 346): "إن الروح المدرك يفارق أجسادنا في النوم، فلا تكليف ولا محاسبة، وكذلك يفارقها عند الموت. أما الروح الحيواني (الحياة) فيفارقنا كما يفارق جميع الكائنات الحية فقط بالموت." اهـ.
قلت: فعلى هذا الإطلاق الفاسد فلا حقيقة لبعث الوحوش وحشرها يوم القيامة كما جاء في الكتاب، وكما جاء في السنة أنها بعد الحساب يقال لها "كوني ترابا"، وحينها يود الكافر لو يكون ترابا! فكل ذلك يوجب أن يكون للحيوانات أرواحا غير مادية كأرواح الإنسان، تبقى بعد فناء أجسادها، ثم تحشر بأجساد جديدة كما نحشر نحن يوم القيامة، ويتعلق بها حساب وعقاب وقصاص في الآخرة كما هو الشأن معنا سواء بسواء! ولكن لأن للدكتور غرضا في تسوية جميع الأنواع الحية في الأصل الدارويني، فقد حرص على تعطيل وتحريف جميع ما من شأنه أن يباعد بينه وبين درونة أصول الأنواع الحية كلها وطبعنة نشأتها، حتى تصبح كلها سواء في كونها إنما تنشأ بالتطور من أسلاف مشتركة،

[←75]

قال ابن جرير الطبرى رحمه الله فى تفسيره: حدثنى على، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثنى معاوية، عن على، عن ابن عباس، قوله: (وقد خلقكم أطوارا) يقول: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة. حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، وحدثنى الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء، جميعا عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد (وقد خلقكم أطوارا) قال: من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم ما ذكر حتى يتم خلقه. حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (وقد خلقكم أطوارا) طورا نطفة، وطورا علقة، وطورا عظاما، ثم كسا العظام لحما، ثم أنشأه خلقا آخر، أنبت به الشعر، فتبارك الله أحسن الخالقين. حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة (وقد خلقكم أطوارا) قال: نطفة، ثم علقة، ثم خلقا طورا بعد طور. حدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: ثنا عبيد، قال: سمعت الضحاك يقول فى قوله (خلقكم أطوارا) يقول: من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة. حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، فى قوله (وقد خلقكم أطوارا) قال: طورا النطفة، ثم طورا أمشاجا حين يمشج النطفة الدم، ثم يغلب الدم على النطفة، فتكون علقة، ثم تكون مضغة، ثم تكون عظاما، ثم تكسى العظام لحما. حدثنا ابن حميد، قال: ثنا جرير، عن منصور، عن مجاهد، في قوله (وقد خلقكم أطوارا) قال: نطفة، ثم علقة، شيئا بعد شيء.

[←76] وهو كتاب خامل الذكر لكاتب عقلاني دارويني غمر، لولا أن أسس عليه الدكتور فصلا كاملا في مقام التأصيل لتلك الزندقة ما رددنا عليه ولا التفتنا إليه، وإلى الله المشتكى!

[←77]

ولهذا فمهما سمعت الدكتور عمرو يقول إن العلم الحديث قد كشف عن "أسلوب في الخلق" جديد إلى جانب "الخلق المباشر" وهو "الخلط التطوري"، فاعلم أنما يلبس عليك تلبيسا! فهو لا يعتقد أن ثمة أسلوبين في الخلق، قد كنا نعلم أحدهما ونجهل الآخر فصرنا نعلمهما جميعا! أبدا! وإنما يعتقد أن ما يسميه بالخلق المباشر هو أسطورة من أساطير الأولين، إنما دخلت إلى علوم المسلمين من طريق "الإسرائيليات" والأخذ عن سفر التكوين، بينما الحق وما انتهى إليه "العلم" إنما هو انحصار نشأة الأنواع الحية كلها في "الخلق بالتطوير"!

[←78]

قال الدكتور محمد باسل الطائي، في مقال له بعنوان "هل يتعارض القرآن مع النشأة التطورية للإنسان؟"، نشره في موقع "الحوار المتمدن" العلماني اليساري في سنة 2010 الميلادية، بعدما ساق نصوصا من القرآن في بيان أن آدم قد خلقه الله من تراب، يتأولها على أن المراد: "خلق الإنسان أي انسان وذلك من خلال الدورة الغذائية التي أصلها التراب والماء والذي يصير نباتاً يأكله الناس أو الحيوان فيكون غذاءً ينشأ عنه المني والبيضة التي يكون منها الإنسان": "على أن النظر الدقيق في هذه الآيات يبين أن القرآن الكريم يخفي تعابيره في قضية الخلق على نحو يجعلها قابلة للتفسير بأكثر من وجه. وقد ورد عن الإمام على عليه السلام قوله عن القرآن "حمال وجوه"، وهذه مسألة يقرها جميع المفسرين. فالقرآن يحمل المحكم والمتشابه. أما المحكم فهو في الأوامر والنواهي وأما المتشابه فهو غالبا في الأمور الغيبية والأمور التي تخص نشوء العالم والإنسان." اهـ.

قلت: القول بأن محكم القرآن الكريم في الأوامر والنواهي، وأما أخبار الغيب فمتشابهة، وأن المتشابه هو كل ما يقبل التأويل في كل زمان على معنى غير المعنى الذي فهمه أهل الزمان المتقدم عليه، هذا كفر محض بلا توقف ولا ارتياب! وصاحب هذا القول أضل وأفسد دينا من تلك الفئة التي قال الله تعالى فيها: ((فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ)) الآية [آل عمران : 7]، فمثل هذا لم يكتف باتباع ما تشابه منه يتأوله بهواه دون حمله على المحكم في نفس الأمر، بل جعل أكثر محكمات الكتاب التي بها قوام الملة نفسها من قبيل المتشابه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ذلك أن جميع أركان الإيمان المقررة في القرآن، التي لا يكون المرؤ مسلما إلا بالإيمان بها، ألا وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره واليوم الآخر، هذه كلها من "الأمور الغيبية"، ومنها الإيمان بأن آدم عليه السلام هو أول البشر، الذي خلقه الله بيده من طين في السماء وأسجد له الملائكة ثم أهبطه إلى الأرض بعدما عصا وتاب فتاب الله عليه. فعندما تصبح تلك القضايا كلها من المتشابه الذي ليس في القرآن ما يحكِمه، بل يخفي فيها "تعابيره" (!!) بما "يجعلها قابلة للتفسير بأكثر من وجه"، فلا يبقى لشيء من تلك الأصول – إذن – ما يحفظها في الأمة على ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من فهمها والإيمان بها، ويصبح الإسلام في كل عصر دينا غير الدين الذي كانوا عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! فإذا كان ذلك الهذيان الذي قرره الرجل في تفسير خلق الإنسان من طين وخلق آدم من تراب، تفسيرا معدودا من وجوه التأويل المستساغة على أصول المفسرين، فليس إذن للمفسرين أصل يحفظ لهم صناعتهم ولا ضابط يضبطها، والقرآن إذن كتاب لا زمام له ولا خطام، وأركان الإيمان (على تلك الزندقة التي قررها الدكتور في مسألة المتشابه) ملعب لكل جاهل، يصطنع لنفسه من الدين ما يحلو له (في كل عصر بما يناسب أهواء الفلاسفة الأكاديميين فيه)، ثم يقول: أخبار الغيب كلها متشابهة، والقرآن حمال وجوه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

قال الدكتور: "من المنطقي القول بأنه لم يكن بالإمكان الإفصاح عن المضامين المتعلقة بالخلق وغيره من المسائل التي هي على قدر كبير من التطور في الفهم والكشف لأهل عصور لا تفهم تلك المضامين ولا تتقبلها. فلو أن القرآن أفصح القول في تلك المسائل لتطلب الأمر كثيرا من الشرح والتقديم لعلوم كثيرة ومعارف جديدة ولعجز الناس عن تقبله وفهمه. لذلك تبدو الآيات التي تتعرض إلى هذه المواضع مبهمة. فنحن نعرف المعاني غالبا على وجه الإجمال ولا نستطيع القطع بالتفصيل. ومثال ذلك ذكر السماوات السبع وخلقها ومصيرها فقد عرضت آي القرآن في هذه المسائل نصوصا محيرة لتفسيراتها وجوه كثيرة، ونحن لا نستطيع القطع بأي منها بل يبقى أمامنا الترجيح ممكنا حسب. وقد قمت ببحث هذه المسألة تفصيلا بالمشاركة مع زميل مختص باللغة العربية وقد نشر البحث في مجلة أكاديمية محكمة." اهـ.

قلت: من المنطقي؟؟ أي قول هذا الذي لم يفصح عنه القرآن لصعوبة فهمه على من ذكرت؟؟ القول بأن السماوات والأرض نشأتا من مادة جرم حار مضغوط انتفخ ولم يزل ينتفخ، أم القول بأن آدم عليه السلام خلق من نسل أشباه القردة؟ أي شيء كان يمنعهم من فهم هذا المعنى إن كان حقا في نفسه وكان مما يرام ذكره في القرآن؟! هذا الكلام تكذيب لقوله تعالى: ((وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)) [الأعراف : 52]

وقوله: ((إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)) [يوسف : 2] وقوله: ((بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)) [الشعراء : 195] وقوله: ((كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)) [فصلت : 3] وقوله: ((وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء)) الآية [فصلت : 44] وقوله: ((إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)) [الزخرف : 3] إلى غير ذلك مما في معناه! الله تعالى يقرر أن القرآن مفصل تفصيلا بلسان عربي مبين، والدكتور يقول إنه جاء مبهما لم يفصح فيه القول في مسائل خلق السماوات والأرض، فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل! أنت الحيران يا دكتور وليس علماء الملة وأئمة الدين! وإنما احترت وضللت لما تشبعت به من ميتافزيقا الدين الطبيعي في تلك البابة الغيبية المحضة! ولا يغني عنك شيئا أن نشرت بحثا في "مجلة أكاديمية محكمة" ولو ملأت الأرض أبحاثا وكتبا، ومهما جئت فيها بمن شئت من اللغويين ممن هم على دينك وشاكلتك! أي علم بالدين والشريعة هذا الذي يكون عند باحث لغوي يقبل أن يشترك في بحث في تفسير كتاب الله تعالى مع أستاذ فيزياء، بحيث تكون خلاصته هي تلك النحلة التي حررها الرجل؟ الله المستعان!

والدكتور يكرر في المقال مرارا وتكرارا قيام اعتقاده الغيبي كله على الاحتمالية الأنطولوجية في مذهب كوبنهاغن في ميكانيكا الكم، وأنه بناء على هذه الفلسفة، فإنه يكفي إثبات الفعل الإلهي على المستوى الكمومي في "الترجيح بين الاحتمالات الكمومية"، ومن ثم قبول الميثولوجيا الطبيعية المعاصرة كلها بحذافيرها بكل أريحية على أساس القول بأن الله يرجحها كموميا!

يقول: "فى الحقيقة لا أجد أن تكون هذه الآلية (يعنى الانتخاب الطبيعى) متناقضة مع الاعتقاد الدينى إلا فى القول بأن الطفرات الحاصلة هى عشوائية تماماً. فإننا إذا أقررنا عشوائيتها فإننا كأنما نجعلها مستقلة عن إرادة الخالق. لكن ما يبدو عشوائيا ليس بالضرورة هو كذلك. فإن ما كنا ذكرناه فى مقالاتنا السابقة حول عمل القوانين الطبيعية (الفطرية) وحقيقة أن نتيجة عمل هذه القوانين إنما هى إحتمالية وليست حتمية بحسب أرقى توصلات العلم المعاصر وإثباتاته، إنما ينفى العشوائية وينفى استقلالية عمل القوانين الطبيعية. بالتالى ليس من خشية على دور الله فى آلية التطور، هذا الدور الذى يدخل أصلاً إلى العملية من خلال حاجة القانون الطبيعى (الفطرى) إلى مشغل وحاجة القوانين المتضاربة إلى منسق. وإلا لم يكن هنالك نتاج مثمر. هكذا أجد أن إعادة تفسير آلية التطور بضوء نتائج علم الفيزياء الكمومية يعطى دعما لقبول آلية التطور السابقة." اهـ. قلت: فعلى هذا يكون الدكتور على مذهب عمرو شريف فى القول بالتطور الموجه كموميا، وإذن فما حررناه في الرد على الثاني يتجه إلى الأول، والله المستعان عليهما جميعا!

[←79]

كأليستر ماغراث الأيرلندي مثلا، صاحب كتاب: "وهم دوكينز" في الرد على "وهم الإله"!

[←80]

وقد بينا في غير موضع ما في وصف الله تعالى "بالذكي" من محذور شرعي، وما في وصفه "بالتدخل" من تنقص فاحش من ربوبيته وسلطانه على أمر السماوات والأرض، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا!

[←81]

ولأنه يصر على أن يرفع البحث الطبيعي وآلة التجريب فوق جميع العلوم، وجعلها هي مصدر التلقي المعرفي الأول في كافة المسائل الوجودية، غيبا كانت أو شهادة، ولأنه – مع ذلك – لا يقبل ممن سماهم بالماديين نفيهم وجود شيء "غير مادي" يقال له الروح (فيتناقض تناقضا بينا من حيث لا يشعر بالجمع بين هذين الأصلين)، لم يجد الدكتور إلا أن يتورط في خرافات فئة من الباحثين التجريبيين تخصصت في معاملة مزاعم الكهان والقائلين بتجربة الاقتراب من الموت وهذه الأشياء على أنها ظواهر طبيعية يمكن الوصول إلى استكشاف "الروح اللامادية" أو "الباراسايكولوجية" على اصطلاحهم، من خلال تطبيق أدوات البحث التجريبي في دراستها! فساق إلى قرائه (في كتابه رحلة عقل وفي كتابه كيف بدأ الخلق وغيرهما) أبحاث هؤلاء الجهال على أنها حجة في إثبات وجود الروح اللامادية، مع أنها تعاني من نفس "الاختزالية" التي نقدها على نفاة الروح، ومن نفس الفساد المنهجي في اقتحام الغيبيات بالقياس التجريبي (من حيث المبدأ)، أيا ما كانت الفروض المطروحة في ذلك القياس، ولا ينتبه إلى أن الروح على هذا المسلك تكون مجرد تأويل افتراضي يجب عليه أن يجوز لمخالفه ردها وإسقاطها بفرضية مقابلة!

ثم إنه من جهله باعتقاد المسلمين، لا يمانع من قبول أبحاث استند أصحابها في إجرائها على البحث في دعاوى فئات من الدجاجلة الذين يزعمون الاتصال بأرواح الموتى، تلك المزاعم التي هي على وصف من اثنين لا ثالث لهما: إما الزعم الكاذب بوجود شيء في الغيب يتصل به الواحد من هؤلاء، واتباع حيل وألاعيب لفظية يعرفها نقاد هذه الأمور، كمسألة القراءة الباردة Cold Reading والاستعانة بمعرفة سابقة عن الميت ونحو ذلك، وإما أن يكون ثمة ما يتصل به الواحد منهم بالغيب تحقيقا، ولكنه لا يكون في الحقيقة إلا شيطانا قرينا للميت يعرف عنه ما لا يمكن أن يعرفه ذلك "الوسيط" إلا من طريقه، وهو مع ذلك يوهمهم بأنه هو الميت نفسه! أما أن يكون الوسيط المزعوم قد قام باستحضار أو استدعاء "روح" الميت من عالم البرزخ فهذا نؤمن نحن المسلمين بامتناعه وبأنه لا يكون أبدا! فالوسطاء هؤلاء إما كهنة مشعوذون وإما كذبة محتالون، ولا نتفق مع من يسميهم الدكتور بالماديين على شيء كاتفاقنا معهم في النكير على هؤلاء ومن شاكلهم وتسفيههم وتسمية بضاعتهم بالعلم الزائف Pseudoscience! ومع ذلك، يأتي الدكتور ببضاعة باحثين تجريبيين قد اعتنوا بالبحث في مزاعم أولئك الدجاجلة ودراستها بحثا عن الروح وحقيقة الروح، ويقدمها للقراء على أن العلم التجيريبي ينبغي أن يسلك تلك المسالك حتى تكتمل رؤويته وتصوره للعالم "اللامادي" الذي توجد فيه الروح، وإذا بالدكتور يقف موقفا يذمه الفريقان جميعا وسائر العقلاء معهم: أولئك الذين أخذ من دينهم القول بوجود الروح، وأولئك الذين جعلوا من دينهم نفيها وإخراجها من نطاق الدعاوى المعرفية بالكلية!

قال في كتابه "كيف بدأ الخلق" (ص. 305):

> كان طبيعيا ألا يقف العلم التجريبي في موقف المتفرج تجاه قضية "العقل وحقيقة الذات الإنسانية". ومن العلماء الكبار الذين اهتموا بهذه القضية "د. جاري شوارتز "Gary Schwartz الذي رأس مركز أبحاث الطاقة البشرية بقسم الطب النفسي بجامعة أريزونا. ومجال اهتمام د. شوارتز هو ما وراء النفس (الباراسيكولوجي – Parapsychology)، ويهدف المركز إلى إثبات أن المخ البشري يعمل كمستقبل Antenna-Receiver للذات الإنسانية، وليس كمصدر للذات Creator، ويقوم كذلك باختبار فرضية أن جوهر الإنسان يبقى بعد موت الجسد. وينطلق د. شوارتز في نظريته عن الذات الإنسانية من مفاهيم فيزيائية ومنطقية. فجميع أفعال الإنسان تنطلق صورها في الفضاء على هيئة موجات كهرومغناطيسية ولا تفنى، إذاً فأفعالنا باقية بعد موتنا، تماما كالضوء الذي يأتينا من النجوم البعيدة التي ربما تكون قد انفجرت وتلاشى وجودها المادي منذ ملايين السنين! وتعتمد دراسات د. شوارتز على أسلوب معروف في الباراسيكولوجي، وهو اتصال بعض الأشخاص الوسطاء Mediums بأشخاص ماتوا، ويؤكد أن هذه هي الوسيلة الأفضل (حتى الآن) لدراسة القضية، بشرط الالتزام بالمنهج العلمي في التأكد من مصداقية الوسطاء، وفي تحليل النتائج. ويؤكد د. شوارتز أنه إذا كان العلم هو الوسيلة لمعرفة كيف يفكر الإله، فإنه أيضا الوسيلة لمعرفة حقيقة "الذات الإنسانية" التي يطلق عليها المتدينون اسم الروح.

قلت: قوله "كان طبيعيا ألا يقف العلم التجريبي في موقف المتفرج تجاه قضية "العقل وحقيقة الذات الإنسانية"، إن كان المراد "بطبيعيا" أي من الضروري بالنظر إلى طبيعة موضوع ذلك الصنف من صناعات العلوم، فباطل ولا شك! أما إن كان المقصود بقوله "طبيعيا"، أي جاريا على وفق مسلمات الدين الطبيعي، أو منسوبا إلى الطبيعيين، فحق ولا شك! وأما أبحاث غاري شوارتز المذكور هذا فليست من العلم في شيء البتة! فالرجل يعتقد أن الروح والأرواح إنما هي نوع من أنواع الطاقة التي تخرج من الميت فتعلق في الغلاف الجوي بصورة ما أو بأخرى، ولهذا ضرب ذلك المثل السخيف الذي فرح به الدكتور في قوله: "فجميع أفعال الإنسان تنطلق صورها في الفضاء على هيئة موجات كهرومغناطيسية ولا تفنى، إذاً فأفعالنا باقية بعد موتنا، تماما كالضوء الذي يأتينا من النجوم البعيدة التي ربما تكون قد انفجرت وتلاشى وجودها المادي منذ ملايين السنين"! ولهذا تراه يأتي بالدجالين والمشعوذين من مدعيي الاتصال بأرواح الموتى، لا سيما من ظهر منهم أن له اتصالا بالجن والشياطين (التي توهمهم وغيرهم بأنها هي أرواح الموتى)، يخضعهم لتجارب يريد منها أن يثبت أنهم إنما يتصلون بمجالات للطاقة Energy تحتفظ بوعي وذكريات الموتى مخزونة عليها كموجات الراديو التي تلتقطها أمخاخ الوسطاء هؤلاء على نحو لا يزال "العلم" لم يكتشفه بعد، فيبدو الميت (في عين نفسه على الأقل) وكأنه قد فارق جسده وانتقل إلى "عالم آخر"!! فيطلب الرجل من "الوسيط" أن يطلب من "وعي" الميت فلان (يناديه باسمه) أن يدخل – مثلا – في صندق أسود معتم، وأن يمكث فيه حتى يصور هو داخل الصندوق بكاميرا دقيقة مصممة لالتقاط أدق كمية من الفوتونات يمكن أن تظهر في الفراغ في المحل الذي ترصده. فإذا ما جاءت نتيجة التجربة بزيادة ملفتة في عدد الفوتونات المرصودة حال وجود "الروح المبحوثة" داخل الصندوق، كان ذلك دليلا على وجود تلك الروح وعلى استجابتها لطلب الوسيط وعلى أن لها تأثيرا في العالم المادي!

فإذا كان هذا العبث هو المراد بالباراسيكولوجي Parapsychology، فليس اختصاص الرجل إذن وليست أبحاثه إلا ضربا من الخرف والعلم الزائف لا يقل ضياعا وإفسادا للعقل والدين عن بضاعة المنجمين Astrology، وإن كان هذا الذي سجلته تجاربه أثرا حقيقيا "لأرواح غير مرئية بالعين المجردة" والله المستعان! ولعل قائلا هنا أن يقول: أنت تؤمن بأن أرواح الموتى في البرزخ وأنها لا تستدعي ولا تستحضر (على طريقة تحضير الأرواح ونحو ذلك) ولا شيء من ذلك، ولكنك تؤمن بالجن والشياطين وبأنها تتواصل معنا أحيانا وبأن كثيرا من الوسطاء هؤلاء يستحضرونها، فلماذا لا تقبل تجارب شوارتز مع تأويل نتيجتها على أنها دليل على وجود الجن وإمكان الاتصال بهم (وليس روح الميت)؟

فنقول: لا نقبل بتأويل النتائج على هذا النحو لأن التجربة إنما صممت من الابتداء بالتأسيس على فرضية باطلة مفادها أن الأرواح هذه إنما هي حقول من الطاقة يستدل على وجودها حيثما توجد برصد تأثيرها الفيزيائي الملازم لها على

الوسط المادي المحيط بها مباشرة، كما يرصد الكائن الحي في ظلمة الليل بنظارات ترصد الموجات تحت الحمراء المنبعثة من جسده مثلا! ولكن هذا يستصحب بالضرورة الفرض بأن إحداث ذلك التأثير الذي يرصده شوارتز في تجربته ملازم "للروح" ملازمة طبعية لا تنفك عنها، وهو طيع لا أساس لافتراضه (ولا غيره من "طبائع الروح") في عادتنا حتى نفترضه من الابتداء! نحن نعلم من قبل الشرع بأن الجن نوع من مخلوقات الله لا يحس ولا يرى من طريقنا، ولا نظير له في الأنواع الحية التي تشملها عادتنا حتى يقاس عليه، ونعلم من الشرع أننا لا نصل إلى أن نراهم إلا بأن يتمثلوا هم لنا في صور نراها، أو أن يختاروا التأثير في محسوساتنا تأثيرا ظاهرا ندركه (من غير أن يمنعهم مانع غيبي من ذلك)! فإذا كانوا قد كذبوا على الرجل حتى أوهموه بأنهم هم أرواح الموتى الذين أراد الاتصال بهم عن طريق "الوسيط"، فكيف يأمن أن يكون ما يظهرونه له في كاميراته وأدواته خداعا كله وكذبا كله؟؟ لذا عممنا وقلنا إن كل بحث يروم استكشاف "عالم الأرواح" هذا باستعمال الطريقة التجريبية، هو بحث فاسد منهجيا، والعلم المبني عليه علم زائف كله Pseudoscience ولا كرامة!

[←82]

وهو ذلك القانون الذي أثبتوه فيما قبل نشأة العالم كما نعرفه، بطرد بعض ما يظهر لهم من سنن الأسباب الحالية في جهة الماضي طردا مطلقا، وفي أنحاء العالم طردا مطلقا، تحكما بالهوى!

[←83]
وهو قديم ما دام وجوده متقدما على ما يجعلونه هو أول حوادث الخلق على الإطلاق، وهو ما يقتضيه مسلك الطبيعيين في إثبات حادث النشأة الأول وتوصلهم إلى تصوره من طريقهم كما بيناه مرارا في غير موضع!

[←84]

وأقول يقتضيه، وإلا فلازم القول ليس بقول حتى يلتزمه صاحبه كما هو معلوم، فانتبه!

[←85]

ولا ينقضي عجبي من شكوى هؤلاء من اتهام خصومهم إياهم بأنهم "يحشرون" إلههم في فجوات نظرياتهم، مع أنهم هم من يصفون إلههم بأنه "يتدخل" تدخلا إلهيا Divine Intervention في مفاصل تلك النظرية!

[←86]
الذي صرح مرارا، خروجا من التهمة "بالخلقوية"، بأنه دارويني ارتقائي Evolutionist ولا يقول بالخلق الإنجيلي Biblical Creation أصلا، وأن المصمم الذكي عنده ليس إلا عاملا طبيعيا محضا، قابل – مبدئيا – للرصد والاختبار التجريبي!

[←87] كما تخضع قوانين الكيمياء لغايات وأفعال الكيميائيين التي يمكن عقلا أن يتخلفوا عن الإتيان بها Contingent Actions في معاملهم إذا أرادوا، كأن ينقل أحدهم جملة من جزيئات عنصر ما ليخلطها بمركبات عنصر آخر في دورق التجارب، فتجري قوانين الكيمياء إذن في ذلك الدورق على ما تخرج به مخرجات ذلك التفاعل، على نحو ما كان ليقع قبل ذلك التحريك ولا بدونه! فالمقصود بخضوع قوانين الكيمياء وسننها السببية لذلك العامل الغيبي، أنه هو الذي يضمن (أو إن شئت فقل: يرجح) لتلك المادة بالذات لا غيرها أن تتحرك تلك الحركة بالذات لا غيرها وتختلط مع تلك المادة الأخرى بالذات لا غيرها، في تلك الأحوال المعينة لا غيرها، فتجري إذن قوانين الكيمياء التي نعرفها على ذلك الاختلاط بالقدر المطلوب في الوقت المطلوب بلا زيادة ولا نقصان! ولهذا نقول إن قوانين الكيمياء والفيزياء لا يمكن في العقل أن تكون هي التي تُحدث تلك الحركة الدقيقة للغاية في كل جزيء من جزيئات الخلية، لأنها ليست أكثر من طبائع ثابتة في تلك المواد وفيما تتركب منه من جسيمات وطاقة، تفتقر إلى أسباب فائقة عليها لتحفظها هي نفسها أولا في تلك المواد، ولترجح، ثانيا، حصول ذلك التأثير منها على غيرها حيث يحصل لا غير ذلك!

[←88] وقد بينا في غير موضع كيف أن أشباه المتكلمين من جهمية العصر هؤلاء، يتفاوتون في الجهل بالكلام الموروث، ببراهينه وحدوده وتعريفاته ونظريات أصحابه والأصول الفلسفية التي قام عليها عندهم، وهم مع ذلك متفقون على ضرورة "تجديده" وإعادة تأسيسه على ميتافزيقا الطبيعيين المعاصرين، التي هي عندهم "لغة العصر"!

[←89] ولا شك أنه من الخلف العقلي الظاهر والدوران المنطقي الجلي – كما بيناه في غير موضع – أن تفسر المشاهدات بناء على الفرض الغيبي، ثم تتخذ تلك المشاهدات نفسها بتفسيرها، دليلا على صحة الفرض الغيبي نفسه!

[←90]
وقد مر معك بيان أنه ليس يُتصور أن يستجد في علم الله تعالى حادث يقتض إنشاء نوع جديد من أنواع الكائنات الحية، فإنه سبحانه يخلق ما يشاء ويختار، ولا مستكره له على الخلق والإبداع، ولا موجب له ولا قيد عليه! ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [القصص : 68] فلا وجه للقول بظهور "المقتضيات" لخلق الأنواع الجديدة تباعا، إلا على مقتضى قياس الباري سبحانه على الصانع البشري الذي يخلق ما يخلق من الأنواع الجديدة تبعا لعلم يحدث له اكتسابا، طورا بعد طور، سواء بالحاجة الداعية لابتداء تصميم جديد أو للتعديل على تصميم قديم!

[←91]

كثيرا ما يؤتى بهذا المثل – عند عامة المشتغلين من أهل قبلتنا بالرد على الدراونة - في إطار الاستدلال على ما يكثر عند القوم من صور التدليس والتزوير في الحفريات من أجل إثبات الحلقة الانتقالية بين الإنسان والقردة العليا المزعومة (أو ما يسمى بالحلقة المفقودة)، ولا يشار إلى مسألة الدور في الاستدلال، ولا إلى مسألة فساد المنطق التفسيري Inference to Best Explanation المتبع في تأويلاتهم لتلك المكتشفات، مع أنه (أي هذا المثال) من أظهر الأمثلة على فساد منطق الدراونة في التعلق بالمشاهدات لنصرة أسطورتهم الغيبية! فأما الدور فقد بينا وجهه! وأما فساد المنطق التفسيري، فبالنظر إلى مسلكهم في بناء التفسير الغيبي لضرس مخلوع وجدوه حيث وجدوه، لا على الاستقراء الذي اطردت به عادتنا الحسية في مثل ذلك، ولكن على تصور وهمي مفترض لموجود لا نعلم له نظيرا في تجربتنا الحسية البتة، بل نعلم بالضرورة والبداهة والفطرة أن داعينا لافتراضه داع باطل فاسد!

فلو أنك اتفق لك أن وجدت ضرسا مخلوعا في الطريق في يوم من الأيام، فإن آخر ما يخطر ببالك من تفسير لتلك الوجادة أن يكون صاحب ذلك الضرس رجلا خلع ضرسه بالمفك أو الزرادية وهو راكب سيارته ثم رماه من شباك السيارة ومضى! لماذا؟ لأنك لم تر في حياتك من يفعل ذلك، ولا سبق لك أن سمعت به! فعلى أي أساس يكون هذا هو افتراضك في تفسير المسألة؟ لا أساس على الإطلاق! فما التفسير الأقرب إذن؟ الأقرب أن يقال: لعلها سقطت من نفايات مستشفى أو مركز قريب من مراكز طب الأسنان – مثلا – أو من سيارة قمامة تحمل فيما تحمل مخلفات من إحدى المستشفيات أو عيادات طب الأسنان! هذا مع أن العقل يجيز أن يقع في يوم من الأيام من أحدهم أن يقف في وسط الطريق، ويخلع ضرسه بيده حيث يقف، ثم يرميه ويمضي لشأنه! قد نقول إنه مجنون مختل العقل، لكن لا نمنع من ذلك (من حيث الإمكان العقلي)، وإنما نجعله احتمالا مرجوحا للغاية (من حيث الاحتمالية)، لعدم حصوله في عادة الأكثرين! وأغرب من هذا وأغرب، أن يأتي من يروم تفسير ذلك الضرس اللقيط فيقول لعله نبت من الأرض، أو سقط من الفضاء الخارجي مغلفا بصخرة صغيرة احترقت وتفتت من حوله وهو يخترق الغلاف الجوي! هذا أبعد في الاحتمالية بأضعاف كثيرة، لأنه ليس له سابقة مشابهة في تجربة أحد من البشر البتة! فهل نقبل منه هذا التفسير؟ أبدا! لا يقال في مثل هذا إنه التماس لأحسن التفاسير Inference to Best Explanation! وإنما هو التماس لأوهاها وأبعدها عن العادة والخبرة البشرية Appeal to Baseless Explanation! ولا أرتاب في أن صاحبه سينظر له نظرة استهزاء ولن يحمل كلامه على محمل الجد أبدا! فكيف إن قال قائل: هذا الضرس ليس ضرسا لإنسان أصلا، وإنما هو ضرس سقط من كائن هجين بين الإنسان والأورانغوتان؟؟ هل سبق أن رأى أحدنا نوعا هجينا بين الإنسان والأورانغوتان، كما أن البغال هجينة بين الحصان والحمار مثلا؟ أبدا! والسؤال الأهم هو هل وقع في خبرتنا ما يدل على جواز أن يقع ذلك الهجين أصلا! أبدا! فكيف يستساغ مثل هذا التفسير؟

الآن هب أننا عثرنا على نفس هذا الضرس مدفونا تحت الأرض على عمق عظيم جدا! فما التفسير الأقرب لأذهان العقلاء الأسوياء إذن؟ أن يقال إنه إما أن يكون من بقايا رمة إنسان مات قديما وتحلل، أو إنه من بقايا رمة لفرد من نوع من القردة مما نشهد أفراده اليوم (كالأورانغوتان مثلا)! هذا ما استفاضت العادة والخبرة البشرية بنظائره، بصرف النظر عن العمق الذي عثر فيه على ذلك الضرس! أما أن يقال إنه من بقايا حيوان هجين عمره ملايين السنين، وسط بين الإنسان والقرد، كان هو السلف المشترك لكل من الإنسان والأورانغوتان (مثلا)، فبالإضافة إلى وهاء الفرض التفسيري وافتقاره الظاهر لأي نظير في الخبرة البشرية يسوغ الذهاب إليه، فإن هذا الفرض يقوم على مقدمة خفية في صورة دعوى غيبية كلية مفادها أن الأنواع الحية كلها نزلت عبر التاريخ من أصل مشترك! وهذه الدعوى باطلة لقيامها على اعتقاد ديني طبيعي وعلى جملة من المسلمات الطبيعية التي لا يقبلها العقل ولا يملك أصحابها طريقا لإثباتها البتة! وإذن فالتفسير على هذا النحو مردود على صاحبه لفساد المنطق التفسيري ولقيامه على قياس غيبي فاسد في الأسس التي يقوم عليها عند أصحابه! فكيف إذا جيئ بذلك التفسير في مقام الانتصار لتلك الدعوى الكلية نفسها (دعوى الأصل المشترك) يتخذه أصحابه دليلا على صحتها في نفس الأمر؟؟ لا شك أن في هذا الاستدلال من الخلف العقلي والدور المنطقي ما إذا انضاف إلى تلك الجنايات العقلية التي ذكرناها في تطبيق المنطق التفسيري، صار جريمة في حق العقل البشري يستحي منها عبدة الطوطم في أحراش إفريقيا الوسطى!!

فإن قالوا: ولكن قد سبق أن وجدنا مثل هذه الوجادة في مواضع شتى كلها على نفس الطبقة من طبقات الأرض، فلابد أن يكون في ذلك ما يعضد تفسيرنا لها على ما فسرناها به، قلنا لهم: أبدا! لا تعضيد ولا شيء البتة! فالخرافة الواحدة تبقى خرافة، ولا تصبح حقيقة ولا تقترب من الواقع إذا انضاف إليها مئات الخرافات الأخرى من مثلها! ومن مستصغر الخرافات تنشأ معظم الأساطير!

[←92]

This conclusion was strong in my mind about the time, as far as I can remember, when I wrote the Origin of Species; and it is since that time that it has very gradually with many fluctuations become weaker. But then arises the doubt—can the mind of man, which has, as I fully believe, been developed from a mind as low as that possessed by the lowest animal, be trusted when it draws such grand conclusions?

المصدر: نفس المصدر الذي نقل منه الدكتور ما نقل، ومن نفس الصفحة!

[←93]

ولو قبلنا من دوكينز هذا الموقف السخيف، أن عقولنا كانت منحطة ثم بدأت أخيرا بالترقي حتى انكشفت لها حقيقة الأصل التطوري على يد الفذ الأوحد فريد نوعه، نبي الطبيعيين تشارلز داروين، للزمنا أن نسقط جميع الأصول العقلية الكلية التي ورثها داروين وورثها من ورثها هو منه، التي قام عليها منهج النظر الطبيعي نفسه Scientific Method! وإذن لم يبق لدوكينز ما يسوغ له الحكم بأن ما انتقلنا إليه من حال على أثر ظهور نظرية داروين هو ترقي للوعي Consciousness Rising / Evolving وليس انحطاطا أو عبثية عقلية محضة! أي أنه يلزمه القول بنسبية الحقيقة إن أبى إلا التمسك بالزعم بأننا قد ارتقت عقولنا أخيرا من أصول منحطة، فتأمل!

[←94]

وإن لم يكن تألهك متوجها إلى الرب الواحد الأحد الذي لا يُعبد بحق إله سواه، ولم يكن له كفؤا أحد، تتألهه وحده لا شريك له، لم يجز أن يقال لك "موحد"، وإن سماك الفلاسفة Monotheist نسبة إلى ملة من الملل الكتابية التي يزعم أصحابها أنهم يعبدون إلها واحدا، فلينتبه لهذا أيضا فإنه مهم! لا يقال للذي يثبت صانعا واحدا إنه "موحد"! فإن توحيد الربوبية لا يسمى صاحبه موحدا ولا يغني عنه شيئا حتى يثبت مقتضاه ويعمل به (ألا وهو توحيد الألوهية)! ولا يقال للذي يعبد ثلاثة في واحد إنه موحد، ولا للذي يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ويأبى التسليم بصحة رسالته!

[←95] وهو ذلك التجذر الناشئ عن التسليم بصحة قياس الباري على الصانع البشري الذي يصنع ما يريد بآلية التوليد العشوائي!

[←96]

عقد الدكتور فصلا كاملا في الكتاب جعله بعنوان: "قراءة الجينوم وحكم لا يقبل النقد"، حاول فيه بكل سبيل أن يقنع القارئ بأن "الأدلة" القائمة على دراسة الجينوم البشري ومقارنته بجينات الأنواع الأخرى، قد جاءت أخيرا بالأدلة الدامغة التي لم يعد يبقى معها شك في حصول التطور من سلف مشترك! فما الذي جاء به فرانسيس كولينز وأصحابه في إثبات التطور على التحقيق؟ هل جاءونا بمشاهدة صريحة مباشرة لنوع من الأنواع وهو تترقى عنه من سلالته أنواع شتى، على نظير ما زعموه في أسطورتهم الداروينية الطويلة للكائن الأول أحادي الخلية؟ أبدا! فكيف وبأي عقل يقال إن الأدلة التي جاؤوا بها منصرمة و"لا تقبل النقد"؟؟ عندما يحصي القوم عدد الجينات في الإنسان وعددها في القرد (مثلا) ثم يأخذوا في مقارنة الجينات التي تقوم بوظائف معينة لا وجود لها في القرد، بنظيرها عند القرد، ثم يقولوا إن التشابه يدل على السلف المشترك، والتفاوت يدل على اختلاف كم وكيف الطفرات التي تعرض لها نسل السلف المشترك المزعوم، فنشأ من بعضهم القرد ومن بعضهم الإنسان، ثم يأخذ الواحد منهم في وضع معادلات تقدر عدد الطفرات ومعدلاتها وكذا، بناء على فرضية التطور، عندما يسلك الدراونة هذا المسلك، فكيف يقال فيما انتهوا إليه إنه أعظم دليل على التطور من سلف مشترك؟؟!

هي نفس المغالطة السخيفة والتطبيق الفاسد للمنطق التفسيري، وإنما تختلف عن أدلة الدراونة القدماء في كونها أوسع وأضخم بكثير في كمية المعلومات التي يخضعها المنظر الدارويني للتحليل والمقارنة، وفي دخول النمذجة الحاسوبية المعقدة في بناء التصورات والتفسيرات التطورية المفترضة عند القوم عبر مئات الأجيال، لا أكثر ولا أقل!

فنقول لهؤلاء: أنفقوا ما شئتم من الأموال، واجمعوا ما شئتم من المعلومات، فسيظل العقلاء مطبقين على أننا مهما حصلت لنا المشاهدة (س) ثم فسرناها بالفرض التفسيري (ن)، فلن يكون الاستدلال بالمشاهدة (س) نفسها لإثبات صحة النظرية التي استخرج منها (ن) هذا إلا ضربا من الدور المنطقي والاستدلال بمحل النزاع!

قال الدكتور (ص. 286): "لقد كان الماديون يعتقدون أن فك الشفرة الوراثية المحمولة على دنا (دي إن إيه) الإنسان سيؤدي إلى دعم نظريتهم في التطور الدارويني العشوائي، بينما كان معظم المتدينين يتعشمون في أن يتمخض ذلك عن نفي مفهوم التطور تماما. لكن الرياح أتت بما لا تشتهيه سفن هؤلاء ولا هؤلاء." قلت: ليست الرياح هي التي أتت يا دكتور، وإنما التأويلات! تأويلات فراسنيس كولينز تحديدا، في كتابه الذي نقلت أنت عنه! أتت تأويلات الرجل بما اشتهته نفسه ونفسك، بطبيعة الحال، وبما يوافق عقيدتكما التطويرية، وإلا لرأيتها على خلاف ذلك! ولا شك أن أولئك "المتدينين" الذين تشير إليهم إجمالا، جهال لا يعرفون الطريق الوحيد المعتبر لاكتساب العلم بشيء مما في ذلك الغيب المحض، ألا وهو السمع الصحيح، وإلا ما جعلوا "الجينوم البشري" من مظانه! العلم في هذه البابة هو قال الله وقال الرسول، بفهم الصحابة والتابعين، لا علم غيره، وإن رغمت أنف الدكتور وأمثاله!

تأمل في "الحقائق" التي يسوقها الدكتور بعد تلك المقدمة المستفزة، التي يقول إنها "أكدت مفهوم التطور والسلف المشترك، وكذلك فسرت كيف حدثت التغيرات العضوية التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه من بنية ووظيفة". قال: "أولا الجينوم لغة المختصر المفيد" ثم ذكر تحتها أن جينوم الإنسان قد تبين أنه لا يتكون من مئة ألف جين أو أكثر كما كان الطبيعيون يعتقدون قديما، بل ثبت أنه يتكون من عشرين ألف جينا فقط، وأنه لا يزيد كثيرا في عدد الجينات عن الشفرة الوراثية في النباتات البسيطة والديدان والذباب! قلت: فأين في ذلك ما "يؤكد" التطور من سلف مشترك؟؟ وأين ما يفسر ما زعم الدكتور أن "حقائق الجينوم" تفسره؟؟ المشاهدة وحدها لا تقدم في مطلوب القوم شيئا ولا تؤخر، وإنما يأتي التأويل الدارويني بالمطلوب! ثم تحت عنوان "ثانيا: متشابهون، لكن أجدادنا مختلفون!" يقرر الدكتور حقيقة أن الجينوم البشري لمختلف السلالات يتطابق بنسبة 99.9%، خلافا للأنواع الأخرى التي يصل التفاوت الجيني تحتها إلى نسب أعلى من ذلك بكثير! قلت: سلمنا، فكان ماذا؟!

ثم يقول: "وفي نفس الوقت، توصل علماء وراثة الأجناس البشرية (من خلال الحسابات الرياضية لمعدل الطفرات ونسبة التباين) إلى أن سكان العالم الحاليين (6.5 مليار إنسان) قد انحدروا من حوالي 10000 جد عاشوا في الأرض منذ حوالي 100 إلى 150 ألف سنة. وتتمشى هذه النتائج مع القراءة في سجل الحفريات، والتي تشير إلى أن أسلافنا قد ظهروا في هذا الوقت تقريبا، وأنهم قد جاءوا من شرق أفريقيا." اهـ. قلت: لا عجب من أن "تتمشى"، فالحسابات كلها إنما قامت على فرضيات مستمدة من مسلمات سجل الحفريات نفسه (إجمالا)! وإلا فمن أين لهم القول بأن الطفرات (إن جازت التسمية) التي تقع لدواعي التكيف في إطار النوع الواحد، إن طردناها في الماضي فلابد أن تصل إلى إضافة المعلومات للحوض الجيني وتحويل الأنواع من نوع إلى نوع، نزولا عن سلف مشترك؟؟ هم وضعوا الفروض الداروينية ابتداء، وكيفوها تكييفا بما يلائم الأصول التي قام عليها السجل الحفري إجمالا، ثم أعملوا معادلاتهم على تلك الفروض فتوصلت بهم – ويا للعجب!! – "للتمشي" مع السجل الحفري!! فإذا كان الاستدلال لإثبات التطور من سلف مشترك، يقوم على التسليم ابتداء بحصول التطور من سلف مشترك، فأي شيء يكون هذا عند العقلاء إلا محض المغالطة والدور؟؟ والطريف أن الدكتور يذكر في حاشية في نفس الصفحة ما كان من القوم من ثمانينيات القرن الماضي من محاولات للتوفيق بين فروضهم وحساباتهم في تلك المسألة وبين السجل الحفري، فسمى الحسابات الأحدث "دراسات دقيقة"، خلافا للحسابات الأقدم، مع أنه لا فرق بين هذه وتلك إلا في الفروض الموضوعة تحكما، المبنية كلها على نفس النظرية المراد إثباتها!

ثم تحت عنوان: "ثالثا: قائد أوركسترا الجينات" يذكر الدكتور خرافة الدي إن إيه الساقط أو المهمل Junk DNA ثم يستدل بنظريات من فسروا وجوده بأن له عملا فوق جيني Epigenetic Function على بطلان نظريات من قالوا إنه لا عمل له، فلا أدري أين في ذلك ما يدل على صحة التطور!! ثم يقول بعد ذكر التفاوت في الدي إن إيه بين الأنواع الحية: "إن ذلك يبين بوضوح أن الفوارق الأساسية بين الكائنات الحية لا تكمن في الجينات في المقام الأول، بقدر رجوعها إلى الدنا المسؤول عن تشغيل وإبطال هذه الجينات، والذي كان يعتقد حتى وقت قريب أنه لا وظيفة له! بينما يستحق الآن أن يوصف بأنه قائد أوركسترا الجينات." اهـ. قلت: سلمنا، فكان ماذا؟؟ ثم يأتي في "رابعا" ليقول "العشوائية تثير السخرية"، فيذكر أن معدل الطفرات هو ستون طفرة في كل جيل، فإذا استبعدنا منها ما يحدث في الدي إن إيه الذي كان يقال له "مهمل"، وما يكون تشوها، تبين مدى "ندرة" الفطرات التي وصفها "بالمفيدة المسؤولة عن التطور في كل جيل"، ثم يجعل تلك الندرة المزعومة بمحض التحكم دليلا على ضرورة أن تكون تلك الطفرات النادرة "موجهة" حتى "تسمح بنتائج تطورية ذات بال"! قلت: هذا على أساس أنك قد سبق لك فعلا أنت ومن تقلدهم، الوقوف على "طفرات مفيدة" مسؤولة عن نشأة النوع الجديد من سلف متقدم عليه؟؟ سبحان الله! ثم إن تقديمك بما قدمت به لهذا الاستدلال على كون تلك الطفرات الأسطورية الموصوفة بأنها "المفيدة النادرة جدا" كلها "موجهة"، يلزم منه إثبات عشوائية ما سواها من الطفرات، عشوائية وجودية، وهو ما زعمت أنك قد خلصت "مفهوم التطور" منه، فتأمل!

ثم ساق (ص. 288) تحت عنوان "خامسا: لا فرق بين التطور داخل النوع والتطور من نوع إلى نوع" رد فرانسيس كولينز على من يفرقون بين ما يسميه القوم بالتطور الصغروي (داخل النوع الواحد) Micro-Evolution والتطور الكبروي (من نوع إلى نوع) Macro-Evolution، بقوله إن الكبروي ليس إلا نتاجا لتراكم عدد كبير من الطفرات التطورية داخل النوع الواحد! قلت: فبالله هل هذا أمر اكتشفه الرجل في الجينوم البشري؟؟ هذا ما ادعاه داروين نفسه قبل قرن ونصف من الزمان، وهو اليوم خرف ومحض خيال كما كان عند داروين خرفا وتوهما ولا فرق، والله المستعان! ثم يأتي الدكتور بالاستدلال الأقوى حتى الآن!

فيقول "سادسا: السلف المشترك حقيقة بيولوجية!" قلت: الله أكبر! المفترض أن أقتنع الآن وأسلم من فوري! يقول: "تؤكد القراءة الأولى للجينوم البشري ومقارنته بجينوم الشمبانزي والفأر أن الإنسان يشترك في سلف مشترك مع عدد من الثدييات" قلت: يا دكتور، والله لو استعملت كلمة "تؤكد" هذه في كل جملة من كلامك من اليوم إلى قيام الساعة، ما نهضت بضاعتك بشيء مما تريد، فكفاك تهويلا واحترم عقول القراء تكرما! ما الفرق بين مقارنة جينوم الإنسان وجينومات القردة والفئران، ومقارنة الهيئة التشريحية للإنسان وتشريح القردة والفئران؟؟ هو نفس مسلك الاستدلال الفاسد ويرد عليه نفس النقد والاعتراض ولا فرق! يقول: "وإذا عرفنا أن ترتيب الجينات على الكروموسوم ليس مهما لقيامها بوظائفها، فلم وجد نفس الترتيب في هذين الكائنين الثديين المختلفين كثيرا؟؟ لا يكون ذلك إلا لوجود علاقة نشوئية بينهما!" قلت: هذا استدلال بالجهل، فأنت لا تعلم الحكمة والغاية من ترتيب الجينات على هذا النحو أو ذاك، والواجب عليك كمسلم أن تسلم بأن له غاية وسببا علمت به أم لم تعلم! أما أن يقال إن وجود الترتيب نفسه في كائنين مختلفين كثيرا، لا يكون إلا لوجود علاقة تطورية بينهما، فهذا محض تحكم، واستبعاد في التفسير لاحتمالات أنت لا تحصيها ولا تتصورها، ولا تملك من طريق العادة ما ترجح به بينها أصلا!

ويواصل الدكتور التهويل فيقول: "ليس هذا وحده الدليل على السلف المشترك، بل يأتي الدليل الدامغ من خلال دراسة المناطق الواقعة بين الجينات: انظر إلى ما يعرف بالعناصر العتيقة المتكررة التي هي تتابع من القواعد الناشزة التي زرعت نفسها بين الجينات في أماكن مختلفة من الكروموسومات عبر التاريخ السحيق دون أن تقوم بوظيفة محددة. إن هذه العناصر العتيقة موجودة في شفرتي الإنسان والفأر في نفس الأماكن وبنفس التتابع! ليس الأمر كذلك فقط، بل لقد وجدت تشوهات في هذه العناصر بنفس الشكل وفي نفس الموضع في جينوم كل من الإنسان والفأر، ليس هناك تفسير لهذا التطابق إلا أن تكون هذه العناصر قد زرعت وأن يكون ما أصابها من تشويه قد تم في السلف المشترك لكل من الإنسان والفأر، ثم انتقل إلى كل منهما. هذا بالطبع إذا استبعدنا ما يقوله الكثير من الخلقويين من أن الخالق يتعمد خداعنا ليوهمنا بحدوث التطور ليختبر إيماننا" اهـ. قلت: تأمل الكلام الطافح بالبدوران والمغالطة! هذا هو ترتيب استدلال الدكتور:

مقدمة (1): ثمة مواد وعناصر معينة في الجينوم البشري يصفها "بالناشزة" وبأنها "زرعت" في الإنسان عبر التاريخ السحيق دون أن تقوم بوظيفة محددة.

مقدمة (2): توجد نفس تلك المواد في الفأر كما توجد في الإنسان وفي نفس المواضع ونفس الترتيب.

النتيجة: الفأر والإنسان يرجعان إلى سلف تطوري مشترك قديم، ورثا منه تلك المواد دون أن يرثا معها وظيفتها التي كانت فيه.

فهل تقوم المقدمة (1) إلا على التسليم بصحة ما في النتيجة؟؟ أو للدقة، هل تصح المقدمة (1) إلا بالتسليم بصحة نفس المبادئ الكلية التي يلزمك إثباتها أولا إن أردت أن تثبت صحة دعوى السلف المشترك؟؟ أنت من أين لك الزعم بأن تلك العناصر "ناشزة" وبأنها "زرعت عبر التاريخ السحيق" وبأنها لا وظيفة لها، وفيها تشوهات .. إلخ؟؟ ألا تقوم تلك المقدمة على نفس المنطق الدارويني الدهري في الافتراض الغيبي الذي تقوم عليه دعوى الدي إن إيه المهمل Junk DNA التي لو لم يأت أصحاب البيولوجيا الجزيئية باعتراض عليها، لعددتها أنت من جملة أدلة التطور من سلف مشترك، كما استدللت بهذه المسألة سواء بسواء؟؟ كلا المزعمين يقومان على مغالطة "عدم العلم دليل على العدم"، وعلى التسليم بأن في الأنواع الحية مواد وأجزاء ونظم عشوائية لم تزل تتوارثها الأنواع (عبر التاريخ السحيق) دون أن تكون لها وظيفة في أي منها، وإنما كانت لها وظيفة في السلف المشترك المزعوم ثم بطلت في ذريته! هذا هو الفرض الذي به حرر الدكتور مقدمته الأولى كما ترى، ثم أراد أن ينتهي إلى نتيجة تثبت صحته هو نفسه، بل تجعله من الأدلة "الدامغة" على صحة التطور من سلف مشترك! أي أنه يثبت صحة دعوى السلف المشترك والأصول التي تقوم عليها باستصحاب دعوى السلف المشترك والأصول التي تقوم عليها! فسبحان الذي بيده العقول والقلوب يقلبها كيف يشاء!

اخلع عنك يا دكتور الزعم الدارويني الدهري بأن جهلك بوظائف تلك المواد الوراثية المذكورة في كل من الإنسان والفأر يجعلها لا وظيفة لها في أي منهما، وسترى من فورك أن ذلك التشابه لابد وأنه يرجع إلى وظائف متشابهة، علمنا بها أم لم نعلم، في جملة من الحكم والمقاصد الإلهية من ذلك التشابه، التي أقطع بأن من بينها استدراجك أنت وأمثالك إلى هذا الضلال المبين، على أعقاب داروين ومن قلدوه، وليس "خداعكم ليوهمكم بحدوث التطور"! أنتم من كذبتم الكذبة ثم صدقتموها، فرضتم الفرض الغيبي المحض بلا سلطان ولا أثارة من علم، ثم أخذتم في تأويل كل شيء بناء عليه بلا مستند إلا الوهم والخيال، ثم جعلتم ذلك كله دليلا على صحته هو نفسه، فأي عقل وأي علم هذا الذي تنتسبون إليه؟؟ وأين أنتم من منطق الاستدلال الصحيح، وما به يكون الدليل دليلا، حتى تكلمونا عن "الدليل الدامغ" و"الدليل القاطع" .. إلخ؟؟ قاتل الله الهوى وأهله!

ثم يذكر مسألة الفارق بين عدد الكورموموسومات في جينوم الإنسان (ثلاث وعشرين زوجا) وعددها في جينوم الشمبانزي (أربع وعشرين زوجا) وحقيقة أن الجينات في آخر كروموسومين عند الشمبانزي تجتمع عند الإنسان في كروموسوم واحد، يبدو وكأنه مركب من نفس الكروموسومين المناظرين عند الشمبانزي، وحقيقة أن في كرومسوم الإنسان "المزدوج" هذا عنصر (سموه بالسنترومير Centromere) يبدو مزدوجا بلا داع، إذ لا يظهر في أحد زوجيه المركبين في الكروموسوم نشاط كما يظهر في الآخر، فيقول إن التفسير الأليق بذلك كله هو أن يكون كل من الإنسان والشمبانزي قد نزلا من أصل مشترك كان فيه أربع وعشرون زوجا من الكروموسومات، وإنما اتفق للفرع الذي نزل منه الإنسان أن اندمج الكروموسومان الأخيران فيه عند منطقة التيولمير والسنترومير فصارا كروموسوما واحدا، خلافا للفرع الآخر الذي بقيت كروموسوماته كما هي! فإذا اتفق لهم هذا التفسير الدارويني الخبيث، أصبح – هو نفسه – دليلا "دامغا" على صحة دعوى التطور من أصل مشترك، والله المستعان! مع أن العقل يجيز أن يفسر نفس ذلك التفاوت بين الكروموسومين بعكس ما ذهبوا إليه، وعلى نفس منطقهم الدهري العبثي! أي أن يكون الإنسان هو الذي خلق أولا، بثلاث وعشرين زوجا من الكروموسومات، ثم نشأ الشمبانزي من نسله انحدارا Devolution لا تطورا Evolution بانفصال الكروموسوم الأخير في منطقة التيلومير إلى كروموسومين، وظهور وظيفة جديدة في خلاليا الشمبانزي للسنترومير الذي كان من قبل خاملا في سلفه الإنسان! بل إن العقل يجيز كذلك أن يفسر نفس الأمر بأن ما في جينات ذلك الجزء من جينوم القرد من موافقة لنظيره عند الإنسان إنما يرجع إلى اتفاق وظيفي أو عضوي أو حيوي لا غير، وأن الاختلاف إنما يرجع إلى شيء من التباين في تلك الوظيفة الحيوية، وأن الخمول الظاهر للسنترومير

عندنا إنما يرجع إلى وظيفة معينة لا تتم على وجه التمام إلا به، وإن كنا لا نعلمها، مع كون الإنسان مخلوقا من طين بيد الله في الجنة، والشمبانزي مخلوقا هنا على الأرض خلقا مستقلا، بلا سلف ولا عمومة ولا خؤولة ولا تطور ولا شيء من ذلك الهراء! بل والله لا يمنع العقل من أن يكون السنترومير الخامل هذا ما خلقه الله على هذا النحو إلا إستدراجا للدهرية المجرمين من أذناب القرد داروين، دون أن تكون له أي وظيفة عضوية على الإطلاق! ولم لا؟؟ الله أحسن مكرا بكل فيلسوف دهري ماكر يسلك طرق القياس الدقيق في الغيبيات حتى يوصل الناس إلى نفي وجوده بالغيب سبحانه، من أن يترك هؤلاء دون أن يزين لهم سوء عملهم! فالمكر بهؤلاء الجحدة المجرمين من كمال حكمته وعدله جل شأنه، جزاء وفاقا، وهو الظن به سبحانه! ((وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)) [الأنفال : 30]
فلماذا يتعين علينا أن نقبل منكم تفسيركم الدهري المنحط هذا؟؟
تحكم في التأويل واستدلال بمحل النزاع، في جميع استدلالاتهم بلا استثناء، ولا حول ولا قوة إلا بالله!
لقد بلغ الإغراق في التحكم بالتأويل الغيبي بالدراونة على اختلاف عقائدهم مبلغا صاروا معه – كما مر معك في مقدمة (1) التي تقدم نقدها في "الدليل الدامغ" عند الدكتور - لا يفرقون بين ما هو تفسير وتأويل من أكياسهم وما هو حقيقة حسية صريحة! تأمل قول الدكتور (ص. 292) بعد ما "دمغنا" به من الاستدلالات المفحمة: "اكتشفت عالمة الإحصاء الحيوي كاترين بولارد عام 2004، تتابعا (يبلغ طوله 118 زوجا من القواعد النيتروجينية) كان موجودا في الفقاريات بشكل خامل طوال عشرات الملايين من السنين، وظل خاملا في الشمبانزي، لكنه نشط في الإنسان، وقد ثبت في عام 2005 أن هذا التتابع له دور حيوي في زيادة تلافيف القشرة المخية للإنسان، مما يزيد من حجمها، وهذا فرق جوهري بيننا وبين القردة العليا." اهـ. قلت: والحق الذي لا يخفى على كل عاقل مدقق، أن هذه المذكورة لم "تكتشف" إلا وجود نفس التتابع المذكور في الأنواع المذكورة، على عجز عن معرفة وظيفته في أي منها، إلا ما لوحظ في 2004 من ارتباط Correlation بينه وبين نمو القشرة المخية في الإنسان خاصة! هذا ما يصح أن يسمى بالاكتشاف Discovery هنا، وهو مبلغهم من العلم فيما ذكره صاحبنا! أما مسألة أنه كان موجودا في "أسلافنا" قبل ملايين السنين في حالة "خمول" ثم نشط عندنا بما أدى إلى تطور القشرة المخية عندنا تطفرا ومن ثم "تطورنا" لنصبح بشرا، فهذا كله خيال في خيال، ووهم في وهم، واستدلال بالجهل، ورجم بالغيب ما أنزل الله به من سلطان! فعندما يروج ويحرر هذا التأويل على أنه هو موضوع الاكتشاف نفسه، فهذا ولا شك ضرب من التلبيس عظيم!
ثم يسوق الدكتور مسألة الجين FOXP2 وكيف أنه موجود عند الشميبانزي وغيره من الأنواع الأخرى، لكنه بزعمهم خامل فيها، وإذا تعطل في الإنسان فإنه تتعطل معه وظائف اللغة، فكيف يتأول الدراونة تلك المشاهدات؟ الجواب واضح! لابد أن يكون الجين المذكور هو الذي كان لابتداء نشاطه في الإنسان الفضل في تمكنه من ممارسة اللغة كما نعرفها! ومن ثم ينضاف هذا التفسير إلى جملة "الأدلة الدامغة" على التطور من سلف مشترك!!
يقول في الحاشية (ص. 293): "كان التنشيط على هيئة تحور طفيف في الجين (لم يحدث عليه في أي ثديي آخر)، أدى إلى تغير في حمض أميني واحد في البروتين الذي يشفر لبنائه، فتحول الحمض الأميني ثريونين في الصيغ غير البشرية إلى حمض أسباراجين. وقد أدى ذلك إلى أن يطور الإنسان بنية الوجه والفك وأيضا القدرة على التحريك الرهيف للفهم والحنجرة، ليتمكن من الكلام." اهـ. قلت: من أين لمن نقلت عنهم بكل هذا؟؟ هل رأيتم التحور المزعوم هذا حال وقوعه بأعينكم؟؟ أبدا! غاية ما رأيتموه أن المنظومة تتشابه في الأنواع المذكورة كلها إلا في حمض أميني واحد يختلف في الإنسان عما سواه! ولا بأس في إثبات أن يكون ذلك الاختلاف مرتبطا سببيا بصورة ما أو بأخرى باختلاف القدرات اللغوية واللفظية عند الإنسان عما عند غيره من الأنواع المذكورة، ولكن أين في هذه الحقائق ما يقتضي ثبوت تلك الأسطورة التطورية المذكورة في تفسير كون الأمر على هذا النحو لا على غيره؟ مزيد من مغالطات المنطق التفسيري التي حق للعقلاء أن ينبذوها كلها نبذ النواه، والله المستعان! الأمر كله على هذه الوتيرة: جينات وجدنا ارتباطا بينها وبين وظائف معينة في النوع البشري هي أعقد أو أدق من نظيرها في أنواع القردة، فلما قارنا جينوم البشر بتلك الجينومات وجدنا نظاما جينيا مشابها إلا في تفصيلة دقيقة، وهذا القدر بدهي ومتوقع بالنظر إلى التشابه الوظيفي المعزو إلى تلك الجينات في كلا النوعين، ولكن تأتي هنا – لا محالة – قفزة الإيمان الدارويني Darwinian Leap of Faith لتفسر ذلك التشابه كله – تحكما – بأنه راجع للاشتراك في سلف تطوري، وأن تميز الإنسان (اختلافه جينيا) إنما جاء من طفرة نشطت فيه ما كان خاملا في السلف المزعوم، أو خملت بعدما كانت نشيطة فيه، أو أضافت في الإنسان ما كان ناقصا في سلفه!!
فما من شيء أسهل من أن تُتأول جميع التشابهات والاختلافات بين الأنواع، في ظواهر هيئاتها وفي جينوماتها، على هذا المسلك الخرافي نفسه (وهو ما كان بالفعل)، ثم يقال إن للنظرية مئات الآلاف من الأدلة التي يعضد بعضها بعضا! إن الأمر الذي يأبى الدراونة أن يفهموه، هو أن تكاثر أمثال تلك التأويلات والشطحات والأوهام والخيالات بين أيديهم لا يزيد من قوة التأويل الواحد منها طرفة عين، فضلا عن أن "يعضد بعضه بعضا" كما هي دعوى الطبيعيين، أو يرجح النظرية نفسها التي استمدت منها تلك التأويلات كلها، على ما يخالفها، بالنظر إلى طبيعة المسألة التي اقتحموها بالتنظير والافتراض والتفسير! ولا عبرة بكون تلك التأويلات كلها متناسقة فيما بينها، فإن التناسق الداخلي لا يعدو أن يكون شهادة بأن الاعتقاد الواحد لا يناقض جملة الاعتقادات الأخرى، ولكن مجرد نفي التناقض بين آحاد الاعتقادات في نظام اعتقادي معين، لا يلزم منه مطابقة ذلك الاعتقاد للواقع في نفس الأمر! بل نزيد من الشعر بيتا ونقول إن تصحيح اعتقاد واحد في نظام اعتقادي ما (أي ثبوت مطابقته للواقع إن قدرنا حصوله) لا يقتضي بالضرورة تصحيح النظام الاعتقادي الغيبي بكليته، لمجرد حقيقة أن تلك الدعاوى لا تتناقض فيما بينها! وإن كان ثبوت صحة أي اعتقاد واحد من تلك العقائد أمرا ممتنعا في مسألتنا (مسألة النشأة) بالنظر إلى كونها من الغيب المحض كما بينا!
تأمل قول الدكتور (ص. 295) معلقا على جملة من الجينات زعم القوم في جملة تأويلاتهم الدهرية الخبيثة أنها كانت لها وظيفة في أسلافنا ثم صارت عندنا هملا لا وظيفة له: "وإذا تركنا جانبا فكرة خداع الإله لنا! فلن نجد تفسيرا لوجود هذه الجينات المشوهة في شفرة الإنسان الوراثية إلا مفهوم التطور عن أصل مشترك مع باقي الرئيسيات. ويرتبط مفهوم الجينات الكاذبة بظاهرة مهمة، وهي أن بعض الجينات التي تعمل بصورة جيدة في الرئيسيات وتعطيها مناعة ضد بعض الأمراض قد تدهور أداؤها في البشر، فأصبحنا عرضة للإصابة بهذه الأمراض، التي منها الألزهايمر والإيدز والملاريا وسرطانات المعدة والقولون والثدي والبروستاتا." اهـ. قلت: تأمل أيها القارئ الكريم في هذا الكلام وخبرني بربك، أهذا كلام رجل ينزل رب العالمين منزلته اللائقة به، ويشهد له بكمال العلم والقدرة والحكمة، وبأنه لا يضع الشيء إلا في موضعه الصحيح، علم بذلك من علم وجهل من جهل؟؟ سبحان الله وتعالى علوا كبيرا عما يقوله الدراونة وأذنابهم! فعلى دين الدكتور، لا بأس باعتقاد أن الله تعالى قد خلق نوع الإنسان بأعضاء مهملة لا عمل لها وليست إلا بقايا تطورية من سلف قديم، وبجينات كاذبة تعطلت في عمليات "التطور" فلم تعد تعمل بصورة جيدة، وهو ما أضعف مناعة نوع البشر وعرضهم جميعا للأمراض المميتة والأسقام الفتاكة (وليت شعري بأي عقل فرق الدكتور بين هذه الدعوى ودعوى الدي إن إيه المهمل Junk DNA، فقبل الأولى ورفض الثانية!!)! فهل هذا إلا اعتقاد من يؤمنون بعشوائية التطور وعبثية الطفرة المزعومة؟؟ افهم هذا يا دكتور واتق الله وتب إليه قبل ألا يجدي الندم!

وإلا فهل قولك (ص. 298): "ولا شك أن هذه التفاعلات والعلاقات تقف وراء جميع مظاهر الحياة في الكائن الحي، ومن ثم تعتبر علوم الإنترأكتوم هي المسؤولة عن دراسة أدق مستويات الحياة، ودارسة كيف تخرج الحياة من جزيئات المادة غير الحية"، هل هذا القول يصدر عن رجل يؤمن بالغيب، وهو صادق في محاربته المادية الدهرية واستنقاذ المسلمين منها؟؟ نسأل الله السلامة!

[←97]

أي الذين يستندون إلى الثيولوجيا الطبيعية لبيلي في نفي وقوع التطور بالكلية، وإثبات جريان قصة الخلق على ما في سفر التكوين، خلافا للتصميميين الدراونة (القائلين بالتطور الدارويني مع إضافة "التصميم الذكي" كآلية ثالثة للنظرية). وسيأتي معك الكلام بشيء من التفصيل، بعون الله تعالى، على ثيولوجيا ويليام بيلي وعلى مذاهب التصميم الذكي. فالمقصود بالاستدلال هنا، طريقة اللاهوتيين الطبيعيين Natural Theologists في استعمال مقدمات تستصحب إثبات الفوضوية والعشوائية في بعض المخلوقات، من أجل أن تثبت بالمقارنة بها، وجود "الذكاء" و"التصميم" في مخلوقات أخرى!!

[←98]

وقد كان من فرضياتهم التحكمية في تفسير زيادة معدلات التطفر المزعومة في حقبة الكامبري المزعومة، قولهم بأن الأحوال البيئية كانت قد تغيرت في مسطحات المياه بزيادة نسبة الأوكسوجين فيها الناتجة عن زيادة عمليات التمثيل الضوئي على أثر انتشار النباتات في قاع المحيط، وهو ما وفر ظروفا أكثر ملاءمة للتكاثر ومن ثم عجل بحدوث الطفرات! وكذلك زعمهم بأن ظهور العين في طفرة من الطفرات كان سببا أيضا في سهولة التغذي والتكاثر ومن ثم زيادة معدلات التطفر. والقصد أنهم لن يعجزهم شيء عن اختراع الفرضيات التفسيرية التحكمية التي تبدو وجيهة للغاية لكل من سلم لهم بطبيعيتهم الوجودية والمنهجية وبصحة مسلكهم الكلي في الافتراض التفسيري في مسألة نشأة الأنواع الحية!

[←99]

وتأمل كيف أن الجهمي لا يستدل بآية من كتاب الله أو يتأولها على ما يريد إلا كان فيها هي نفسها ما ينقض عليه استدلاله وتأويله! فكما كان السابقون منهم يستدلون بقوله تعالى "ليس كمثله شيء" على نفي الصفات وتعطيلها بدعوى أنها تقتضي التمثيل والمشابهة في الكيفية والحقيقة، ويتجاهلون ما في لفظها من نفي المماثلة (التي هي المشابهة في المعنى والكيفية جميعا) وليس نفي مطلق الاشتراك مع بعض الخلق في معاني بعض الصفات، وكذا ما في تمام الآية نفسها من نقض عليهم إذ يقول جل شأنه "وهو السميع البصير"، فيثبت لنفسه السمع والبصر مع كونه سبحانه ليس كمثله شيء، فكذلك ترى الجهمية الدراونة في هذا الزمان يتأولون قوله تعالى "وبدأ خلق الإنسان من طين" على أن المراد خلق الأصل الدرويني المزعوم للنوع البشري (الخلية الأولى) من مادة الأرض، متجاهلين ما هو صريح من كون الإنسان نفسه هو الذي ابتدأ خلقه من الطين، وليس سلفه المتقدم عليه، وما في ابتداء الآية من قوله تعالى "أحسن كل شيء خلقه"، إذ يثني رب العالمين على نفسه بأنه ما خلق شيئا إلا بلغ في إحسان الخلق أكمله وأتمه، فلا يعقل فيمن هذه صفته أن يخلق بالتطوير المطرد من أصول أقل حسنا، ذلك التطوير الذي يلزم دراونة أهل القبلة أن يعتقدوا أنه لم ينته ولم يتم، وأنه لا يزال – بعد – ثمة ما هو أحسن وأكثر تطورا من الإنسان نفسه، فيكون غاية يرجى له أن يتطور إليها كما تطور هو نفسه من نوع أنقص منه (وقد صرح الدكتور كما مر معك باعتقاده أن التطور لم ينته، وأن الإنسان ماض إلى مزيد من التطور والتحسن النوعي، فالقول بأن من أنواع الدواب ما قد يكون أحسن خلقة وتقويما مما عليه الإنسان، هذا صريح مذهب الرجل وليس لازمه)! فسبحان من مضت سنته في أهل الزيغ والهوى بلا تبديل ولا تحويل!

[←100]
وليت شعري ما معنى أن يقال على ثلة من "الأدلة" إنها "الأبقى" في نظرية هذا موضوعها، بل وفي سياق الكلام على أدلة أخرى عند أصحاب النظرية نفسها، كانت – بحسب المؤلف - فيما مضى معتبرة ثم أصبحت "في ذمة التاريخ"؟؟ ما تصور الدكتور لتلك الأدلة (المستمدة من البيولوجيا الجزيئية) وكيف عدها هي الأبقى، وأنها لا يمكن أن يرد عليها ما ورد على غيرها من الاستدلالات التي يزعم هو نفسه أنه فندها؟؟ هل نظر القوم في الجزيئات في الخلية الحية، فشهدوا بأعينهم الإنسان وهو يخلق من نسل الهومينيد المزعوم مثلا؟؟ الجواب لا! فهل شهدوا فيها السلف الأول المزعوم لجميع الأنواع الحية وهو يورث مادته الوراثية لجميع المخلوقات الحية على الأرض؟؟ الجواب لا! هل جاءهم من طريقها وحي من رب العالمين يخبرهم بأن المخلوقات كلها قد خلقت بالتطور؟؟ الجواب لا! فكيف يقال في أدلة البيولوجيا الجزيئية إنها "لا تدحض"؟؟ يا أخي حتى المشاهدة المباشرة عند التجريبيين تقبل الدحض أحيانا، فيقال إنها خطأ في تصميم التجربة أو في تدوين المشاهدة وتوصيفها Reporting the Observation أو أن إبصار الراصد قد أوهمه بما ليس هنالك، أو حتى إنه تعرض لهلوسة بصرية على أثر مرض في مخه وجهازه العصبي، فرأى ما لا يراه غيره عند تكرار التجربة، إلى غير ذلك من أمور يمكن – من حيث الجواز العقلي – أن تهون من استناد التجريبيين إلى حواسهم المباشرة في الإثبات والنفي! لسنا نروم التوهين أو التشكيك في أصل دلالة الحس على المحسوس، فهذا من السفسطة، وإنما نريد أن نبين أن المشاهدة المباشرة يرد عليها المعارض في التقرير والتوثيق التجريبي، وإن كان ضئيل الاحتمالية، فكيف بتأويل المشاهدات جريا على فرضية تفسيرية، بل وكيف والفرض التفسيري موضوعه كموضوعنا؟؟ ولهذا لم يجرؤ أي منظر من منظري التطور الدهرية الكبار، حتى ريتشارد دوكينز نفسه، على أن يدعي لنفسه من الثقة والقطع المنصرم بصحة "أدلة التطور" ما بلغه هذا الرجل، وإلى الله المشتكى!

[←101]

يذكر الدكتور عمرو (ص. 247) حيثيات حكم القاضي في قضية أركانساس المعروفة في سنة 1982 الميلادية، بالمنع من تدريس "التصميم الذكي" في المدارس بوصفها "دعوى غير علمية"، فيجمع تلك الحيثيات ثم يعلق عليها بما يوصل إلى إدخال نظرية التصميم الذكي في دائرة العلم الطبيعي، وهذا مردود غير مقبول، بل الصواب إقرار القاضي على عدم اعتماد نظرية التصميم كنظرية علمية تجريبية Scientific Theory، وإلزامه بإصدار الحكم نفسه على نظرية التطور، وعلى كل ما يتكلفه الطبيعيون من تنظير في مسألة النشأة! فكما أن دعاوى التصميميين تتناول حوادث غير خاضعة للملاحظة، فكذلك دعاوى التطوريين تتناول نفس الحوادث، وكما أن نظرية التصميم تفسر حادثا فريدا لا يتكرر في تجربتنا وعادتنا البشرية (نشأة الأنواع كلها بعد أن لم تكن) فكذلك نظرية التطور تفسر نفس الحادث، وكما أن نظرية التصميم لا يمكن اختبار صحة فرضياتها ولا تكذيبها تجريبيا، فكذلك نظرية التطور، وكما أن نظرية التصميم تتجاوز بتفسيرها حدود الطبيعة إلى ما وراءها، فكذلك نظرية التطور، إذ ليس منشأ الطبيعة وأصل النظام الطبيعي نفسه مطلبا بحثيا طبيعيا عند العقلاء، ولا عبرة بمن جعلوه كذلك وإن كانوا أكثر أهل الأرض!

وأنا لا أدري حقيقة من أين جاء الدكتور بتلك الحيثيات في جدوله (ص. 247)، هل هي إعادة صياغة أو تصرف من جانبه مثلا؟ فالمشهور أن القاضي جعلها كذلك: الدعاوى العلمية يحكمها القانون الطبيعي ولها قدرة تفسيرية بالرجوع إلى القوانين الطبيعية (وهذا لا ينطبق على أي من النظريتين، إذ لا مستند لقياس حوادث نشأة النظام الحيوية على حوادث النظام الحيوية وإخضاعها لنفس القوانين، إلا التحكم الدهري والطبيعية المنهجية)، وهي قابلة للاختبار إمبريقيا بالنظر إلى ما في العالم من ظواهر محسوسة (وهذا أيضا لا ينطبق على أي من النظريتين، إذ لا يمكن إخضاع نشأة الأنواع كلها للتجريب والاختبار المعملي)، واستنتاجاتها ظنية وليست بالضرورة كلمة نهائية منصرمة (وهذا ينطبق على النظريتين جميعا من وجه، ولا ينطبق عليهما من وجه، فهو منطبق بالنظر إلى طبيعة آلة النظر والاستنباط المستعملة فيهما، فالمصمم الذي يثبته القوم لا يزالون يكررون ليل نهار أنهم يقبلون نفيه إن جاء مخالفوهم بتفسير طبيعي أفضل، وهو غير منطبق بالنظر إلى طبيعة موضوع النظرية نفسه، إذ نقطع بأن الدارويني الدهري لن يزول عن قطعه وجزمه بصحة نظريته في النشأة العشوائية، كما نقطع بأن النصارى القائلين بالتصميم لن يزولوا عن نظريتهم في النشأة "التصميمية"!) وهي فوق ذلك كله، قابلة للتكذيب Falsifiable (وهذا لا ينطبق على أي من النظريتين، وإن رغمت أنف "جي بي هالدين" صاحب تحدي أرنب البريكامبريان Precambrian Rabbit الذي علقنا عليه في موضعه من هذا الكتاب).

والقصد أنه بينما يتعين على الدكتور عمرو أن يبين أن كلتا النظريتين، التصميم الذكي والتطور الدهري ليستا إلا فلسفتين ميتافزيقيين دينيتين، تراه يحرص على اعتماد الأولى كنظرية "علمية" ونفي الثانية، مع أن العلم التجريبي الصحيح بريء منهما جميعا!

[←102]

وهذا ولا شك غلو فاحش، فمع أن من موضوعات البحث العلمي ما تدعونا الحاجة الملجئة التي توشك أن تبلغ منزلة الضرورة إلى أن ينخرط بعض باحثينا في استيعاب المسيرة البحثية التي جرى عليها بناء المعرفة التراكمية فيه عند الغربيين وفي الإضافة إليها والمشاركة فيها، إلا أن من موضوعات البحث العلمي كذلك ما لا ينفعنا الانخراط في أبحاث الغربيين فيه، بل إن منها ما ترجع مشاركتنا فيه بالضرر على ديننا واعتقادنا أو على أخلاقنا وقيمنا، والله المستعان! ومنها ما تكون أحسن أحوال المشارك فيه أن يكون لاغيا متنطعا بتعمق Overtheorization مما لا نفع فيه! والقاعدة عند المسلمين أن ما لا نفع فيه بوجه من الوجوه فهو ضرر محض، وأدنى مفاسده أن يكون صرفا للمسلم عما هو أولى وأنفع! ولهذا استعاذ الرسول عليه السلام من علم لا ينفع، فإن الاشتغال به يضر في الدين والدنيا، والله أعلم.

[←103]
وهو ذلك الانتفاخ الذي وضع أينشتاين ثابتا كونيا في معادلاته لتعطيله، حتى يمنع أنموذجه الرياضي من أن يقتضي انتفاخ العالم أو انسحاقه تحت تأثير الجاذبية، ثم جاء بعد ذلك وأزاله من معادلاته، بنفس السهولة التي وضعه بها، بعدما تلقى أقرانه خرافة النشأة التوسعية الليمترية بالقبول، واصفا إياه في مقولة شهيرة بأنه كان أعظم أخطائه Greatest Blunder!

[←104]

وقد ذهب بعضهم إلى أنه لا يصح في العقل إثبات أي موجود ولا أي حادث ولا أي سبب لا طبيعي ولا غيره قبل الانفجار المزعوم، وهؤلاء لا يثبتون الانفجار بداية – أصلا – على المعنى الشائع، وإنما يرون (كآلان غوث مثلا) أن الانتفاخ Inflation هو منتهى ما يمكن للفيزياء المعاصرة أن تتكلم عنه فيما يتعلق بالزمان الماضي، ولا معنى أصلا للكلام عن شيء "قبله" أو عن "بداية" له هو نفسه، ونفي بداية الزمان (كمعنى لغوي وميتافزيقي) يقتضي القدم ولا شك، ويترك السؤال عن سبب النشأة سؤالا لا معنى له! فالذين يزعمون أن العالم ليس له نقطة ابتداء أصلا، كما في أنموذج اللاحافة لهارتل وهوكينغ مثلا، هؤلاء وإن لم يقولوا بقدم العالم فهو لازمهم وإن لم يشعروا! يلزمهم أن يعتقدوا أن الزمكان الأينشتايني كان ولم يزل على ما هو عليه من الأزل ولم يكن له بداية! ذلك أنك إن قدرت زمكانا لا حافة له، فمهما رجعت إلى الماضي فسيكون من المتصور أن تثبت حادثا قبل أقدم حادث تنتهي إليه، من غير أن تخرج عن إطار الزمكان الكلاسيكي نفسه، بالنظر إلى أنه ليس ثمة بداية يبدأ منها، وهو ما يقتضي قدمه ولا شك، بصورة ما أو بأخرى! فإما أن تثبت بداية في الزمان لهذا العالم بنظامه وقوانينه وجسيماته الكوانطية وكل شيء فيه، بحيث تثبت في الزمان حوادث وقعت قبله، وموجودات متقدمة عليه زمانيا، وإما أن تقول بقدمه وأزليته، وبأنه لا تخرج الحوادث عنه أصلا، من الأزل وإلى الأبد! هما خياران في العقل لا ثالث لهما!

[←105]
كدعوى الانتفاخ الأول مثلا Inflation، التي لا أساس لها إلا التجويز الرياضي الوهمي، ودعوى نشأة أنواع المواد كلها من غاز الهيدروجين، ونشأة الهيدروجين نفسه من تفاعل نووي أولي Primordial Nuclear Reaction.. إلخ، التي هي قياس على تغيرات البنية الجزيئية لكثير من المواد تحت تأثير التفاعلات النووية، وهكذا! فإذا كان موضوع التنظير نفسه موضوع غيبي لا نظير له في تجربتنا، إذ لم نشهد عالما كعالمنا يخلق من قبل، فمن المتوقع ومن غير المستغرب أن تكون آحاد خرافات القوم وتخرصاتهم في ذلك الباب كلها لا نظير مماثل لها في تجربتنا، وإنما هو قياس تمثيل مستكره متعنت لتلك الغيوب المحضة على أحوال وعلاقات وتغيرات مشاهدة في تجربتنا وعادتنا، يزعمون تحكما ودفعا بالصدر، أن تلك الحوادث الغيبية لابد وأنها كانت منها أو مثلها بصورة ما أو بأخرى، مع تفاوت المقياس Scale لا أكثر! فإذا كان ذلك هو المبدأ، فلا معنى للقول "بانخراق القوانين" في تلك الفئة من الحوادث في نظريات القوم، مهما أغربوا فيها بالخرف والقياس الخيالي الوهمي! إذا كان مبدأ التنظير قائما على إهدار غيبية ما وراء "الكون" وما كان قبل "الكون" من حوادث وتسويته بما هو جار في "الكون" المشاهد من أنواع الحوادث نوعا، فمن أي مدخل يأتي القول بانخرام القوانين في بداية الكون أو انخراقها عند الكوزمولوجيين؟؟ كل ما يؤتى به من فرضيات تفسيرية من طريقهم هو فرض "طبيعي" بالضرورة، قانوني بالضروري، ولا يصح أن يقال في نفس الأمر بفرض غيبي Supernatural / Supranatural / Extra-natural Hypothesis (على معنى الغيبية التي ننسبها نحن المسلمين لرب العالمين جل شأنه)! فإما أن تثبت غيبا وتجعل حوداث النشأة منه، وإذن فلا تقبل كوزمولوجيا الانفجار ولا غيرها من كوزمولوجيات الطبيعيين كيفما كانت، وإما أن ترد الغيب بالكلية وتنفيه بالكلية، وإذن فلا معنى ولا متسع للقول بإمكان "ثبوت" خوارم غيبية للقانون الطبيعي ترجحها المشاهدات على طريقة الطبيعيين في التنظير في تلك البابة! هذه هي القسمة على الحقيقة يا دكتور، فتأملها بروية يرحمك الله!

[←106]
ولا يقال "مشيئة الله أرادت" ولا حكمته قضت ولا شيء من صفاته فعل كذا أو كذا، وإنما يقال إن الله هو الذي أراد في مشيئته كذا وكذا. الصفات لا تريد وإنما الموصوف هو الذي يريد، فلينتبه لهذا.

[←107]

قال الدكتور عمرو في كتابه الأخير "المعلوماتية برهان الربوبية الأكبر" (ص. 17): "وعلى مستوى علوم الحياة، يؤدي هذا الموقف الأيديولوجي (يعني موقف الماديين نفاة الغيب) إلى الجزم بأن النظرية الداروينية (التطور البيولوجي العشوائي) صواب، ذلك أن العلم لا يقبل أي تفسير غيبي. أي أن ما يتطلبه تعقيد ظاهرة الحياة من ذكاء وتنظيم هو نتاج عمليات فيزيائية. إنها مقدمة ينطلقون منها، وهي في نفس الوقت ما يريدون أن يثبتوه!! (استدلال دائري). والمدهش أن الماديين لا يدركون أنهم واقعون في هذه المغالطة." قلت: كدت أن أضحك والله وأنا أقرأ هذا الكلام! تأمل من الذي جاء يحدثنا عن الاستدلال الدائري! يا دكتور، إذا كان من "المدهش" كون الماديين لا يدركون أنهم واقعون في هذه المغالطة، فالأشد إدهاشا هو كونك أنت أيضا لا تدرك أنك غارق فيها، على الرغم مما هو ظاهر من تنبهك إلى وقوعها عند من وافقتهم في منهجهم الذي أوقعهم فيها! المدهش حقا أنك لا تراها – يا دكتور - تصرخ في وجهك في كل مرة تستدل على صحة دعوى التطور من أصل مشترك، بتأويلات للمشاهدات إنما تقوم قياما كاملا عند أصحابها على دعوى التطور من أصل مشترك!! الرجل تعميه الأهواء كما أعمت غيره ممن تشبع بكلامهم من الفلاسفة الغربيين، عن إدراك تلبسه بنفس ما أنكره على من سماهم بالماديين، والله المستعان!